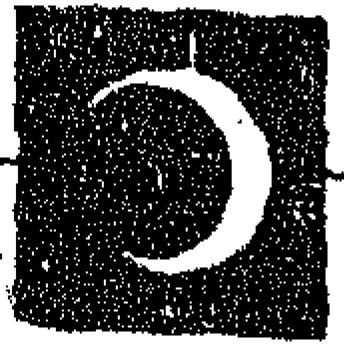


كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

شخصية مصر

دراسة فى عبقرية المكان

دكتور جمال حمدان

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الادارة : أحمد بهاء الدين

العدد ١٩٦ ربيع الاول ١٣٨٧ يوليو ١٩٦٧

No. 196 — Juillet 1967

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج٠ع٠م — والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة .



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
حــــلمى التــــونى

دكتور جمال حمدان

شخصية مصر

دراسة في عبقرية المكان

دار الهلال

مقدمة

فى الشخصية الاقليمية

اذا كانت الجغرافيا فى الاتجاه السائد بين المدارس المعاصرة هى « التباين الارضى » أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الارض على مختلف المستويات ، فمن الطبيعى أن تكون قمة الجغرافيا هى التعرف على « شخصيات الاقاليم » . والشخصية الاقليمية شىء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الاقليم ، انها تتساءل أساسا عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق ، وتريد أن تنفذ الى « روح المكان » لتستشف « عبقريته الذاتية » التى تحدد شخصيته الكامنة genius loci . ومن الواضح أن مثل هذه النظرة ليست تحليلية وانما هى تركيبية فى الصف الاول ، نظرة واسعة عالمية Weltanschauung كما يقول الالمان

وبديهى كذلك انها لا تقتصر على الحاضر وانما هى تترامى بعيدا عبر الماضى وخلال التاريخ ، لأنه بالدور التاريخى وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الايجابية للاقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الاقليمية . والبيئة قد تكون فى بعض الاحيان خرساء ، ولكنها تنطق خلال

الانسان ، وربما تكون الجغرافيا صماء ، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها . ولقد قيل بحق ان التاريخ ظل الانسان على الارض بمثل ما أن الجغرافيا ظل الارض على الزمان . ولهـذا نجد أن البحث فى الشـخصية الاقليمية لم يكن من عمل الجغرافيين وحدهم ، بل بحث فيه المؤرخون كثيرا ابتداء من سيريل فوكس فى مؤلفه المشهور « شخصية بريطانيا » الى حسين مؤنس فى « مصر ورسالتها » ، الى حسين فوزى « سندباد مصرى » وشفيق غربال فى « تكوين مصر »

ولكن طريق الجغرافى ربما كان أكثر غنى وتنوعا فى المناهج والطرائق حيث أنه يجمع بين الزمان والمكان ابتداء من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا ، ومن الفلك حتى الانثروبولوجيا . ولهذا نجد الشخصية الاقليمية مطلبا أثيرا بين كبار الجغرافيين ابتداء من لابلاش فى مقدمته لكتاب لافيس عن تاريخ فرنسا « شخصية فرنسا من الناحية الجغرافية » ، الى اندريه زيجفريد فى كتابه « سيكولوجية بعض الشعوب » ، ومن ددلى ستامب فى « وجه بريطانيا » حتى حزين فى دراساته الاصيلة المتعددة عن البيئة والموقع فى مصر عبر التاريخ

وانه لطبيعى ـ أليس كذلك ؟ ـ ان يكون للجغرافى كلمته فى هذا المجال ، والا فالى من يتجه المواطن العادى والمثقف العام لمعرفة جوهر وطنه ؟ الى من سوى ذلك الذى « يتخصص فى عدم التخصص » كما وصف ، وهو هكذا وصف لأنه الاخصائى الذى يضرب بحرية فى كل العلوم ، يربط الارض بالناس ، والحاضر بالماضى ، والمادى باللامادى ، والعضوى بغير العضوى ، ويكاد يتعامل مع كل ما تحت الشمس وفوق الارض ... وفى هذا الوقت الذى يضطرب فيه الفكر فى مصر ويضطرم بحثا عن

شخصيتها العربية وتحـديدا لمعـدنها القومى الاصيل ولدورها الانسانى والحضارى ، لا شك تبرز الى المقدمة مسئولية الجغرافى الملتزم الذى يضع علمه فى خـدمة مجتمعه ..

ومن المحقق ان طبيعـة الجغرافيا الكاملة الكامنـة لا تتحقق فى شىء كما تتحقق فى دراسة الشـخصية الاقليمية ، فليست الشخصية الاقليمية تقرير حقيقـة علمية مطلقة يمـكن أن تخضع تماما للقيـاس الرياضى والاحصاء ، وذلك على الرغم من أنها تعتمد اساسـا ــ وما ينبغى لها غير ذلك ــ على مادة علمية موضوعية بحتة . انها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى ، وذلك رغم ما قد يجده البعض فى هذا من تعارض ظاهرى (١) فكما يقول جلبرت أحد دعاة الشخصية الاقليمية ووريث مدرسة اكسفورد « ان الجغرافيا هى فن التعرف على شخصيات الاقاليم ووصفها وتفسيرها » ويضيف أن « شخصية الاقليم كشخصية الفرد يمكن أن تنمو وأن تتطور وأن تتدهور ، ووصفها لا يقل صعوبة » (٢)

ولكنا نرى أن فن تناول المادة العلمية لا يكفى وحده للتشخيص الاقليمى ، بل لا بد من اطار من « فلسفة المكان » ، اطار يحدد تلك الشخصية . ولهذا فنحن أيضا مع دبنام حين يعرف الجغرافيا بأنها « فلسـفة المكان » (٣) . ولا يعنى هذا فلسفة محلقة غامضة ، بل فلسفة عملية واقعية قد ترتفع برأسها فوق التاريخ

---

(١) Preston E. James, «The Region as a Concept», Geog. Rev. Jan. 1962, pp. 130-1.

(٢) E.W. Gilbert, «The Idea of the Region», Geog., vol. 45, 1960, pp. 157-175.

(٣) F. Debenham, Use of Geog, Lond, 1950, p. 11.

ولكن تظل أقدامها راسخة فى الارض ، فلسفة تحلق بقدر ما تحدق

ولئن بدا أن هذا يجعل للجغرافيا منهجا خلاسيا متنافرا يتأرجح ما بين علم وفن وفلسفة ، فاننا نبادر فنذكر بأن الجغرافيا نفسها وبطبيعتها علم متنافر غير متجانس فى مادته الخام ، وليس غريبا أن يكون كذلك فى منهجه . ويحسم ستامب الموقف بايجاز حين يقول « ان الجغرافيا فى نفس الوقت علم وفن وفلسفة » (١) ويمكن أن نضيف للتوضيح : علم بمادتها ، فن بمعالجتها، فلسفة بنظرتها . والواقع أن هذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة الى مرحلة التفكير ، من جغرافية الحقائق المرصوصة الى جغرافية الافكار الرصينة . وكما قلنا ، لا تتحقق هذه الطبيعة المركبة كاملة كما تتحقق فى الشخصية الاقليمية

والبحث الحالى — وله جذور أو ربما بذور فى عمل سابق للكاتب (٢) — يحاول أن يرسم صورة عريضة ولكنها دقيقة بقدر الامكان لشخصية مصر . ومصر لا شك موضوع مثالى لمثل هذا البحث نظرا لما تمتاز به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود ، ولما تملكه من تاريخ ألفى حافل . كما اننا فى المرحلة الحالية من تطورنا فى حاجة ماسة الى فهم كامل لوجهنا ووجهتنا ، لكياننا ومكاننا ، لامكانياتنا وملكاتنا ، ولكن أيضا لنقائصنا ونقائضنا — كل أولئك بلا تحرج ولا تحيز او هروب . فليس هذا دفاعا عن مصر ولا هو محاولة شوفينية للتمجيد ، وانما هو تشريح علمى موضوعى يقرن المحاسن بالاضداد على حد سواء ويشخص نقاط القوة والضعف

---

(١) L. Dudley Stamp, Intermediate Geog., 1939, p.1

(٢) للمؤلف : دراسات فى العالم العربى ، القاهرة ١٩٥٩

سواء بسواء ، وبغير هذا لا يكون النقد الذاتى . وقد لا يرضى هذا السطحيين والدعاة ، ولكنا لهذا ندعم مناقشتنا بالمصادر والاسانيد الواضحة

وليست هذه أول دراسة من نوعها فى مصر بطبيعة الحال ، وان حاولنا أن تكون وافية دون اطناب . كذلك لا يمكن لمثلها أن تكون نهائية أبدا ، ولكنا نأمل أن تلقى من الضوء مثلما تنفث من الحرارة على شخصية من أغنى الشخصيات الاقليمية وأكثرها ثراء وتعددا فى الجوانب والابعاد

وتبقى فى نهاية هذه المقدمة كلمة أخيرة لا بد منها . مصر ، أم الجمهورية العربية المتحدة ، نقول ؟ هذا هو السؤال . ولقد ثار جدل فكرى حول هذه القضية فى الفترة الاخيرة ، وصميم المشكلة هو الظلال الوحدوية أو الانفصالية التى قد توحى بها هذه التسمية أو تلك . وبغير ما مفاضلة بين الاسمين ، فلعل المشكلة شكلية أكثر مما قد يظن بعضنا ، وليس ثمة تضاد أو تعارض فى الحقيقة . فمصر (منذ مصراييم) اسم « جغرافى » بمثل ما أن اسم كوكبنا هذا هو الارض واسم نهرنا هذا هو النيل ، وكل باق ولا مفر منه ما بقيت هذه الارض وهذا النيل . اما الجمهورية العربية المتحدة فاسم « سياسى » عبر عن حقيقة قامت وعن أمل شاهق مرموق . وهو بهذا لا يقصد به أن يقتصر على مصر حكرا الى الابد ، وانما المفروض ــ بالتعريف ــ أن يتسع يوما لدولة الوحدة العربية الكبرى

واذا كان كل من الاسمين قد أصبح علما تاريخيا بدرجة أو بأخرى ، فلا بأس من الاحتفاظ بهما معا واستعمالهما كل فى مجاله الأنسب ، جغرافيا أو

سياسيا ، ولا معنى لافتعال معركة موهومة بينهما . واذا كان البعض يدعو الى اصطناع اسم توفيقي جديد يجمع بين الصفتين هو الجمهورية العربية المصرية ، فان الاسمين السياسيين ـ هذا وذاك ـ لا يجبان الاسم الجغرافى مصر أكثر مما يجب اسم الجمهورية العربية السورية الاسم الجغرافى سوريا أو اسم الجمهورية العربية العراقية أو الجزائرية أو اليمنية الاسم الجغرافى العراق أو الجزائر أو اليمن . ومن هذا المنطق وحده ؛ قلنا هنا شخصية مصر دون تحرج أو تجاهل للاسم البديل

ملامح شخصية مصر

ليس سهلا أن نركز الشخصية الاقليمية فى معادلة موجزة ، لا سيما اذا كانت غنية خصبة كشخصية مصر . ولكن البعض كثيرا ما ردد ان مصر « أرض المتناقضات Land of Paradox » ، ربما تحت تأثير التباين الشديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة من ناحية ، أو من ناحية أخرى بين خلود الاثار القديمة وتفاهة المسكن القروى ، أو بين الوادى والصحراء حيث يتجاوران جنبا الى جنب ، ولكن كما تتجاور الحياة والموت (١) . (ولن نذكر هنا « وكم ذا بمصر من المضحكات . . . الخ » رغم أن به أكثر من مجرد خيال الشعراء) . ولكن اذا لم تكن هذه كلها نظرة سطحية ، فهى على الاقل ضيقة ، لانها لا تعرض الا لجانب واحد من مركب عريض . ولا تختلف محاولة التشخيص «بأرض الطغيان Land of Tyranny » عن ذلك كثيرا

---

(١) Maurice Hindus, In Search of a Future, Lond., 1949, p. 115.

والذى نراه هو أننا ازاء حالة نادرة من الاقاليم والبلاد من حيث السمات والقسمات التى تجتمع فيها ، وكثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك ، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقا فريدا فذا حقيقة . فهى بطريقة ما تكاد تنتمى الى كل مكان دون أن تكون هناك تماما . فهى بالجغرافيا تقع فى افريقيا ، ولكنها تمت أيضا الى آسيا بالتاريخ . وهى متوسطية دون مدارية بعروضها ، ولكنها موسمية بمياهها وأصولها . وهى وان كانت أصلا موسمية فى مصدرها فقد أصبحت موسمية دائمة أخيرا على ما فى ذلك من تناقض . هى فى الصحراء وليست منها ، انها واحة ضد ـ صحراوية anti - desert ، بل ليست بواحة وانما شبه واحة هى

فرعونية هى بالجد ، ولكنها عربية بالأب . ثم انها بجسمها النهرى قوة بر ، ولكنها بسواحلها قوة بحر ، وتضع بذلك قدما فى الارض وقدما فى الماء . وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى ، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسا أكثر من ضخم . وهى بموقعها على خط التقسيم التاريخى بين الشرق والغرب تقع فى الاول ولكنها تواجه الثانى وتكاد تراه عبر المتوسط ، كما تمد يدا نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب . وهى توشك بعد هذا كله أن تكون مركزا مشتركا لثلاث دوائر مختلفة بحيث صارت مجمعا لعوالم شتى ، فهى قلب العالم العربى ، وواسطة العالم الاسلامى ، وحجر الزاوية فى العالم الافريقى

واذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ليس أنها تجمع بين الاضداد والمتناقضات ، وانما انها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرى ، بين أبعاد

وآفاق واسعة ، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الاوسط» وتجعلها « سيدة الحلول الوسطى » ، تجعلها أمة وسطا بكل معنى الكلمة ، بكل معنى الوسط الذهبى ، ولكن ليس أمة نصفا ! وسط فى الموقع والدور الحضارى والتاريخي ، فى الموارد والطاقة ، فى السياسة والحرب ، فى النظرة والتفكير ... الخ

ولعل فى هذه الموهبة الطبيعية سر بقائها وحيويتها على العصور ورغمها . ان مصر جغرافيا وتاريخيا تطبيق عملى لمعادلة هيجل : تجمع بين « التقرير » و «النقيض» فى « تركيب » متزن أصيل . ونحن لهذا لا نملك الا أن نقول اننا كلما أمعنا تحليل شخصية مصر وتعمقناها استحال علينا أن نتحاشى هذا الانتهاء : وهى أنها « فلتة جغرافية » لاتتكرر فى أى ركن من أركان العالم ، فالمكان، الجغرافيا ــ كالتاريخ ــ لا يعيد نفسه أو تعيد نفسها . تلك هى حقيقة عبقريتها الاقليمية

والنظرية العامة التى نقدم فى تفسير هذه الشخصية الفلتة هى التفاعل ــ ائتلافا أو اختلافا ــ بين بعدين أساسيين فى كيانها وهما الموضع Site والموقع Situation . فالموضع نقصد به البيئة الطبيعية بخصائصها وحجمها ومواردها فى ذاتها ، اى البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة وجسم الوادى بشكله وتركيبه ... الخ . أما الموقع فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة الى توزيعات الارض والناس والانتاج حول اقليمنا ، وتضبطه العلائق المكانية التى تربطه بها . الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة ، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة

بهذين العنصرين الجوهريين والعلاقة المتغيرة بينهما نفسر شخصية مصرنا . فهما يختلفان حين نجد أن حجم

الوضع كان دائما لا يتكافأ مع خطورة الموقع الحاسم على ناصية العالم ، وحين نجد أن الاول ينتظم قدرا ما من عزلة ، والثانى يفرض فيضا من الاحتكاك . وهما يأتلفان فى الاثر حين يدعوان الى الوحدة السياسية والمركزية العنيفة ، ومن حيث أن زمامهما ليس محليا تماما وانما يرتبط بعوامل خارجية بعيدة . وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية نادرة

ولكى نحدد ملامح هذه الشخصية لا يمكن أن نعرض عرضا تقليديا رتيبا لفصول جغرافية مصر الطبيعية أو البشرية ، فليس هذا هدفنا على الاطلاق ، وانما علينا ان نتحسس هذه الملامح ونتقصاها أنى كانت : فى الماضى او فى الحاضر ، فى الطبيعة او العمران ، فى السياسة او الاقتصاد ... الخ . وقد تقطع دراسة الملمح الواحد عبر عدد من هذه العناصر أو قد تتعامد عليها جميعا بلا حرج . وعلى هذا الاساس يمكن أن نتعرف فى ملامح هذه الشخصية وابعادها على عشرة سنحللها تباعا وهى : التجانس والوحدة ، الطغيان الاقطاعى ، المركزية ، التبعية السياسية بعد السيطرة ، الاساس الخارجى للبناء الحضارى ، العلاقة بين الموارد والسكان ، التفاعل بين العزلة والاحتكاك ، تعدد الجوانب والابعاد ، الاستمرارية والتقطع ، ثم اخيرا الوطنية والقومية

واذا كان من المفيد أن نحدد مكان مثل هذه الدراسة من منهج العلم الجغرافى ، فربما صح أن نقول انها أدخل فى الجغرافيا الاقليمية ــ التى سميت حينا بالجغرافيا الخاصة ــ منها فى أى جانب آخر من الجغرافيا . الا أنها هنا لا تنظر نظرة تحليلية تستهدف أساسا تقسيم مصر الى اقاليم داخلية ، وانما هى بالأحرى تنظر نظرة

تركيبية الى مصر كلها كاقليم واحد تبغي التعرف على مكانه وخصائصه ودوره فى العالم الواسع والوطن العربى الكبير بوجه خاص . انها تمثل الجوانب العـامة من جغرافية خاصة ، او هى باختصار أقرب ان تكون لونا من الجغرافيا الاقليمية « الخارجية » منها الى الجغرافيا الاقليمية « الداخلية » كما قد نقول

مغزى الشخصية الاقليمية

غير أننا قبل أن ننتهيا لهذه الدراسة والتحليل ، نحتاج الى وقفة عند المغزى العملى أو الفكرى للشخصية الاقليمية بعامة سواء بالنسبة الى مصر أو الى غيرها من البلاد العربية وغير العربية ، وما قد يمكن أن يكون لها من محمولات وظلال أو يقحم عليها من تخريجات او تأويلات سياسية بعيدة أو قريبة . فقد يرى البعض ان الحديث عن الشخصية الاقليمية وما يضغط عليه او يوحى به من تفرد فى روح المكان وعبقرية ذاتية فى الاقليم ، هو أمر يؤكد الفروق الجغرافية على حساب المشابهات بالضرورة ، ويبرز الاختلافات المحلية فى وجه التجانس العام ..

وفى منطقة كالوطن العربى الكبير ، تسعى اليوم حثيثا الى الوحدة الشاملة فى نضال تاريخى بطولى ، الا يعنى هذا ـ هكذا قد يتساءلون ـ التأكيد على « الوطنية » المحلية الضيقة فى وجه « القومية » العربية المشرقة ؟ ألا يعنى الحديث عن الشخصية المصرية انغلاقا وتشبثا اقليميا « بالمصرية » ازاء « العروبة » ؟ فاذا ما تكلمنا بعد ذلك عن الشخصية العراقية والشخصية السورية والجزائرية ، الى آخر الوحدات التى يتألف منها الوطن الكبير ، أفلا يعد هذا بصورة ما سعيا واعيا او غير واع

الى التفرقة والتمزيق فى وقت نحن احوج ما نكون الى التماسك والتلاحم ؟

وعلى الفور تتبدى لنا حقيقة الفلسفة الفكرية التى تكمن وراء القضية المثارة . انها اذن قضية المشابهات والفروق الجغرافية بين قطر وآخر من الاقطار العربية . قضية التفرد والتجانس . قضية الوحدة والتنوع . والمطلوب اذن ممن يتصدون لمثل هذه الدراسة أن ينقبوا عن أوجه الشبه وتأكيدها والضغط عليها . ونكاد نضيف ان المفهوم لذلك منطقيا وضمنيا أنهم مدعوون كذلك الى اهمال اوجه الاختلاف الطبيعى ان أمكن ، فكلما كنت وحدويا « طيبا » كان من الطبيعى أن تنقب عن التجانس الطبيعى داخل الوطن الكبير وتبرزه تجسيما وتضخيما . وان امكنك أن تغفل الفروق وتعتم التفرد المكانى فذاك خير وأجدى وحدوية

ولكن هل حقا يعنى وجود الفروق الجغرافية بين وحدات الوطن العربى التفرقة السياسية ، وهل حقا تؤدى الاختلافات الطبيعية الى الخلافات القومية ؟ هل الحديث عن الشخصية الاقليمية لمصر او المغرب او العراق .. الخ يترادف مع الحديث عن « المصرية والمغربية أو العراقية » .. الخ ويتضاد مع العروبة ؟ اهى ردة بصورة ما مباشرة او غير مباشرة الى الفرعونية والبربرية والاشورية ؟ باختصار هل يتعارض القول بوجود عبقرية مكان خاصة بكل أو بأى قطر عربى مع دعوة القومية والوحدة العربية ؟

اما ان هناك فروقا طبيعية وجغرافية بين اجزاء الوطن العربى ، فتلك حقيقة أولية كالبديهيات لا يمكن لأحد أن ينكرها موضوعيا اكثر مما يمكنه أن ينكر أن هناك مشابهات وأوجه تقارب بين بعضها البعض . فهناك

تشابه أسي بين مصر والعراق كبيئتين فيضيتين ، والشام والمغرب الكبير نظائر جفرافية الى حد بعيد بطبيعتهما الجبلية المتوسطية . وبالمثل تكرر الوحدات الصحراوية من العالم العربى كثيرا من الملامح المشتركة . ولكن من الواضح تماما أن البيئة المصرية تختلف عن البيئة فى المغرب بمثل ما تختلف البيئة العراقية عن السورية . وهكذا

ولسنا نقصد بهذا أن نؤكد الفروق الطبيعية بين أقطارنا العربية لنطمس معالم التشابه بينها ، ولكنا نقول ان ثمة فروقا ، وليس يجدى فى مواجهتها علميا او قوميا أن نتجاهلها فى سبيل وحدة جفرافية منمطة او تجانس طبيعى باهت موهوم . انما الشخصية الاقليمية أشبه شىء بالشخصية الانسانية . فالشخصية ــ هذه وتلك ــ مركب معقد للفاية من عدد ضخم من العناصر وتوليفة معينة من السمات والصفات والملامح والمعالم . فاذا اشتركت شخصيتان فى الفالبية من تلك العناصر والقسمات ، ولكن اختلفتا فى قلة منهما مهما تضاءلت ، فليس علينا جناح أن نتكلم عن « تفرد » الشخصية فى كل منهما رغم التشابه الواسع المدى ، ودون أن يعنى ذلك أى تنافر أو تضاد بينهما

ولهذا فان من الخلط أن نظن ان الحديث عن تفرد الشخصية الجفرافية وعبقرية المكان لهذا القطر العربى أو ذاك يعنى تدعيم الدعوة الانفصالية ، وأننا اذا قلنا شخصية مصر فقد قلنا الفرعونية أو اذا قلنا شخصية الشام فقد قلنا الفينيقية .. الخ ، وأن القول بتفرد أى أو كل قطر عربى هو تبرير للتجزئة السياسية أو سند للانفصال يتعارض مع القومية والوحدة العربية

وحقيقة الامر أن الوحدة السياسية لا تأتى بالضرورة

من الوحدة الطبيعية ، وانما من الوحدة البشرية تأتى . فالعبرة فى قيام دولة موحدة دستوريا هى وحدة الناس أى وحدة القومية بمعنى تجانسهم فى المقومات الاساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة ، وهذه جميعا أركان متوفرة فى القومية العربية ربما كما لا تتوفر فى قومية أخرى معروفة . ولا عبرة بعد هذا بتجانس أو تباين الارض التى يحتلونها

ثم ان الوحدة السياسية وحدة وظيفية ، والوحدة الوظيفية فى أى مجال لا تأتى من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبى . فأى جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة فى انتاجها ومواردها وامكانياتها ، الا أن يكون مجرد تمدد أميبى عقيم ؟ وهذا بالدقة ما يعرف بمبدأ « التنوع فى الوحدة » أو « الوحدة فى التنوع » .

واذن فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أوبأخرى داخل الاطار العام المشترك . وهذا التنوع والتباين فى البيئات انما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والابعاد . وهو فى نفس الوقت لا علاقة له بالتعدد الدستورى ولا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال ، ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومي العربى الكبير أو على حسابه . لا ، ولا هو يمهد لنعرة محلية وانعزالية فكرية وسياسية بقدر ما يضيف الى العزة القومية الواسعة وينميها

واذا كنا قد جادلنا بأن الكلام عن شخصية مصر لايعنى اقليمية ضيقة فضلا عن شوفينية شعوبية ، ولا يضع الوطنية فى مواجهة ضد القومية ، فاننا نضيف الان انه لا يؤكد الوطنية من خلال القومية فحسب بل ويؤكد

القومية من خلال الوطنية تأكيداً صحياً بغير تعارض . واذا كانت بعض البلاد مثل الولايات المتحدة قد نجحت وحدتها لانها ــ كما قيل ــ قد تجاهلت عمداً وعن قصد كل الجغرافيا وكل التاريخ ؛ واذا كانت بلاد اخرى مثل كندا تعاني وحدتها لأنها تتذكر الجغرافيا أكثر مما ينبغي وتتذكر التاريخ اقل مما ينبغي ؛ واذا كانت بلاد اخرى مثل غرب أوربا تتعثر وحدتها لأنها تتذكر كثيرا جدا من التاريخ وقليلا جدا من الجغرافيا (١) ، اذا كان هذا فانا في الوطن العربي يمكن ان تنجح وحدتنا اكثر كلما تذكرنا الجغرافيا والتاريخ معا أكثر وأكثر ، لأن التاريخ يجمعنا مثلما تفعل الجغرافيا ، والمكان والزمان عوامل وحدة بيننا ، بل وربما جاز لنا أن نقول ان الجغرافيا والتاريخ هما طوب وحدتنا العربية وملاطهـا أو هما لحمتهـا والسداة

وبعد ، فلقد كان ضروريا قبل ان نمضى الى شخصية مصر بافاضة أن نضغط على المغزى الفكرى للدراسة حتى لا نترك مجالا لتخريج أو تأويل مبتسر . فمـا نرى في شخصية مصر مهما تبلورت او تجوهرت الا جزءا من شخصية الوطن العربى الكبير الملحمية الثرى ، وما نرى في دراستها تعارضا أى تعارض مع أمل الوحدة الشاهق . واذا كنا قد خصصنا مصر بالدراسة فهذا امر طبيعي لجغرافى عربى من مصر ، ومع ذلك فانه يبقى املا كبيرا من آمال هذا الكاتب أن تتاح له في المستقبل سلسلة كاملة في الشخصيات العربية واحدة تلو الاخرى ابتداء من المحيط حتى الخليج

---

(١) W. G. East, An Historical Geog. of Europe, pp. 444—5.

الفصل الأول

التجانس والوحدة

من التجانس الطبيعى

التجانس الطبيعى صفة جوهرية فى البيئة المصرية . فالوادى كله وحدة فيضية ، أما التفرقة التقليدية بين الدلتا والصعيد فاختلاف فى الشكل والمساحة قبل أن يكون فى التركيب والنسيج ، ولا يبرر ما يقوله «كون» من أن « مصر من الوجهة الجغرافية ليست موحدة » (١) ، او ما يقوله مايرز من أن مصر « كانت تتألف دائما من أرضين متميزتين ومتباينتين ، العليا والسفلى ، الوادى والدلتا » (٢)

واذا كان ثمة فارق فهو فى الدرجة لا فى النوع ، ولا محل لأى شيء كثنائية فى اللاندسكيب المصرى الذى يسوده النهر سيادة مطلقة ولا يغيب فيه عن عين الرائى أينما كان . وليس هناك انقطاع أو تغير فجائى ما بين الوادى الفيضى وسهل الدلتا ، حيث يبدأ الوادى فى الجنوب ضيقا مختنقا ــ كل العرض عند كلابشة ١٠٠ متر فقط ! ــ تحتضنه المرتفعات والحواف من الشرق والغرب ثم لا يلبث أن يتسع باطراد حتى يتراوح فى جذعه الرئيسى

(١) C.S. Coon, Races of Europe, N.Y., 1939, p. 92.

(٢) J.L. Myres, Dawn of Hist, H.U.L., 1933, p. 45

حوالى + او ـ ١٥كم بينما يأخذ الاطار التلى فى التواضع ، حتى اذا بدأ الانفراج عند راس الدلتا لم يكن اتســـاع السهل فيها واتضاع التلال حولها الا استمرارا لاتجاهات تحددت منذ البداية . وفيما بين الوحدتين ، الوادى والدلتا ، يستمر انحدار السطح العام متصلا مطردا من الجنوب الى الشمال بلا انقطاع ظاهر

كل الفارق اذن أن الصعيد شق غائر ضيق ، بينما الدلتا مروحة مبسوطة مسطحة ، وهى أكثر طميية فى قلبها من الصعيد ولكنها أكثر منه رملية فى الاطراف . وفيما عدا هذا فالدلتا تتحلل فى النهاية الى مجموعة مخففة مصغرة متراصة من «الصعيدات» فى نمط أشبه ما يكون بورقة شجر مقلوبة ، عروقهـا هى الضفاف المرتفعـة وأرضيتها هى المجارى المائيـة (١) . والتباين المحلى المحســوس لا يبين حقـا الا فى أقصى الأطراف الهامشية شمالا فى الدلتا وجنوبا فى الصعيد الأقصى . فالأولى نطاق مستنقعى بحيرى ، والثانى شريط جنادل صخرى . أما الفيوم « فمصر الصغرى » لا بانفصالهـا الواضح عن الوادى كدلتا داخلية فحسب ، وانما كذلك من حيث هى تصغير جامع للدلتا والصعيد : انها بصيغة رياضية الجذر الجبرى لمصر Integer of Egypt : فواديها هو بحر يوسف ، أما المنخفض نفسه فبمثابة مجموعة من دالات مروحية صفت فى دائرة مغلقة بحرها المتوسط المشترك هو بحيرة قارون ، ومدرجاتها المشـهورة هى تضاغط لانحدار الدلتا الوئيد

وقديما فى ظل الرى الحوضى كانت وحـدة البيئـة وتجانسها تتجلى فى تمامها حين تتحول أرض مصر تحت

(١) A. E. Crouchley, Econ. Development of Modern Egypt, Lond., 1938, p. 3.

الفيضان الى بحيرة هائلة متصلة او خليج عذب واحد لا تقطعه الا سطوح السدود وقمم المدن والقرى ، بينما تعود بعد انحسار النيل فترسم صورة سلسلة مترامية لا نهائية من الأحواض المتشابهة سواء فى الصعيد أو فى الدلتا . واذا كان الرى الدائم قد خلق اختلافات اقليمية فى شكل اللاندسكيب ، حيث بدأ من الشمال وظل يغزو الجنوب على دفعات ، فقد كان ذلك أمرا موقوتا بالضرورة ، ونحن نرى اليوم آخر بقايا الحياض تختفى مع السد العالى ، وعاد أديم مصر الزراعية غطاء متجانسا من أطرافه الى أطرافه ، ترصعه ــ كوحدات زخرفية متكررة ــ نقوش الحقول والزراعات الدورية ، وتمنحه آجام النخيل العالمية « موتيف » موحدا من النوبة حتى فم البحر ، بينما تمثل ترعة الرى والمصرف ــ الاولى فى الألسنة العالية والثانى فى المواطى البينية سواء ذلك فى الدلتا أو فى الصعيد ــ موتيف هيدرولوجيا آخر يؤكد وحدة اللاندسكيب المصرى الحضارى

أما مناخيا فالامتداد عبر نحو ١٠ درجات عرضية هو « ترافرس » كالقطاع الطولى يخلق بعض فروق محلية بالضرورة ، ولكنها بالضرورة أيضا فروق لا تبين الا بين أقصى الشمال وأقصى الجنوب . واذا كان بالشمال الأقصى شريط ساحلى دقيق من مناخ البحر المتوسط فهو اقليم مناخى متدهور أكثر منه اقليما أوليا متبلورا ، بينما يظل المناخ الصحراوى الجاف يحتل سماء مصر التى تقع برمتها دون المدار ، فان حدودنا الجنوبية تكاد تبدأ مع مدار السرطان . والواقع ان الفروق الحقيقية فى المناخ فى مصر هى الفروق الفصلية قبل أن تكون الفروق الاقليمية

وهذا التجانس الاساسى فى المناخ ينعكس فى الزراعة

بطبيعة الحال . فمصر كلها اقليم زراعى واحد على طوله ؛ أما أقاليمها المحلية فأقل من ثانوية أو حتى ثالثة فى مرتبتها التصنيفية ، ولا تكاد توجد — مرة أخرى — الا فى أقصى الاطراف الهامشية شمالا وجنوبا . ولذلك فالمحاصيل كلها عالمية التوزيع تقريبا ، وان تباينت ففى نسبها ومركباتها المحلية . أما المحاصيل المحلية بصرامة فهى ثانوية الاهمية للغاية بحيث تضيع فى زحمة التجانس القاعدى . ولهذا كله فان الفروق المحلية فى الانتاج الزراعى اقل بكثير من القاسم المشترك الأعظم وتتضاءل بجانبه (١)

واذا كان قد قيل ان مصر بامتدادها الطولى الواضح من الجنوب الى الشمال تكاد تطوى نطاقات القمح والذرة والقطن الأمريكية فى طية واحدة (٢) ، فهذا أصدق باعتبار الاطراف القصوى الشمالية والجنوبية فى الحقيقة ، أما جسم البلد وصلبه فأدنى الى أن يكون اقليما زراعيا متجانسا أو شبه متجانس . وأكثر من هذا فى الناحية الاقليمية العامة ، حين نحاول أن نميز فى الجغرافيا بين أقاليم مختلفة فى مصر ، نجد أن تقسيمنا يعتمد أساسا على المسافة أكثر منه على المساحة

وحتى اذا انتقلنا الى « أعمال الانسان » أو « الثوابت الحضارية » Cultural immobilia كما تسمى ، من قرى ومدن باعتبارها مظهرا للتفاعل المادى المباشر بين البيئة والانسان أو رد فعل جغرافى للنشاط والفعل البشرى ، فلن نخطىء وحدة التجانس القاعدى . فالقرية المصرية

(١) G. Hamdan, Evolution of Irrigation Agric. in Egypt in A Hist of Land Use in Arid Regions. Unesco, Paris, 1961, p. 131.

(٢) H. K. Selim, Twenty Years of Agric. Development in Egypt.

خلية اولية ، ولا نقول اميبية ، تكاد كما وصفها البعض تمثل امتدادا راسيا تشكيليا للأرض السوداء الأفقية ، وهى بعد تكاد تكون نسخة مكررة فى كل الوادى وان اختلفت احجاما واوضاعا . وباستثناء حلات الصيد البحيرية والبحرية فى أقصى الشمال ، وقرى النوبة الفريدة جدا فى أقصى الجنوب ، لا نكاد نجد اختلافات تركيبية ملموسة بين قرى الوادى أو المسكن القروى فيه ..

ومثل هذا عن المدن يقال . فباستثناء العاصمتين وقلة من الموانى ومدن القنال ، تشكل المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة ـ البندر التقليدى ـ وحدة مورفولوجية ثابتة الطابع والقالب والجو العام حتى ليؤكد جان لوزاك أن واحدة منها لا تعرف شخصية مدنية مستقلة تنفرد بها عمن سواها (١) . غير أن الامر فى النهاية انما هو ـ بغير حتم جغرافى ـ هذه العلاقة البسيطة : وحدة البيئة الطبيعية : وحدة البيئة العمرانية ، تجانس البيت الجغرافى الكبير : تجانس البيت السكنى الصغير

التجانس الطبيعى اذن حقيقة لا شك فيها . الا انه مع ذلك لا ينبغى المبالغة فى تقديرها الى الدرجة التى نصل فيها الى صورة باهتة الملامح . فكما يقول روبين فيدن « نظرا لشفافية التباين ودقائق التغير فى اللاندسكيب المصرى ، فقد يظن المرء خطأ أنه لا ملامح له . وقد يصل الظن به أخيرا الى أنه لم ينتقل أبدا وأن تقدمه لم يكن الا وهما . فبعد سفر طوال النهار ، قد تحسب انه لم يكن ثمة الا منظر واحد عبره شاهدت تلاعب الضوء والنور والشكل اللانهائى : هذا فجر وهذا ظهر وهذا غروب » (٢)

(١) J. Lozach, Délta du Nil, Le Caire, 1935, p. 209.
(٢) Robin Fedden, Land of Egypt, Lond. 1939, p. 11.

لا يمكن القطع علميا بشأن الاصول الجنسية الاولى لسكان مصر فى عصور ما قبل التاريخ ، أو ما يمكن ان نسميه مع بيجهوت « فترة تكوين الاجناس » ، اذ تتكاثر النظريات المتعارضة وتقل الأدلة اليقينية . والباحث فيما كتب عن تعمير مصر وأجناسها الاولى يدخل — فى معنى حقيقى جدا — فى متاهة كلها ضباب . ولو انه أخذ ببعض النظريات القديمة التى شاعت زمنا ، لكانت مصر ما قبل التاريخ مثلا بل أمثولة لاختلاط الاخلاط والأمشاج الجنسية ابتداء من البوشمن والزنوج الى الليبيين والاسيويين ... الخ

وكثير من هذه النظريات يصر على استيراد سكان مصر الأول من مصدر خارجى ، اما من الجنوب من افريقيا أو من جهة البحر الاحمر ، واما من الشمال من آسيا أو عن طريق الدلتا . ومنها ما يستمد السكان الأول من اختلاط وتصادم تلك الاجناس الدخيلة الوافدة (١) ..الخ غير أن الأبحاث الحديثة أثبتت جموح كثير من هذه النظريات وأنها بنيت على شبهات ثم نمت بالتأويلات

ومن المحتمل — مع طول المدى التاريخى — أن قد حدثت بعض موجات جنسية وافدة وربما تم بعض من الاختلاط حتى ما قبل عصر الأسرات ، ولكن حقيقتين آساسيتين ينبغى أن تعلوا فوق كل التفاصيل : الاولى كما يقول شانتر هى أن المصريين القدماء شعب أصيل

---

(١) W. M. Flinders Petrie, «Migrations», Jour Roy. Anthrop. Inst, 1906, pp. 5 ff.; A.C. Haddon, Wanderings of Peoples, pp. 56-7; A.H. Brodrick, Early Man, 1948

فى مصر autochtonous ولم يفدوا اليها من مكان آخر (١) ، والثانية هى أن احتمالات الاختلاط الهامة قلت مع ومنذ بداية عصر الأسرات التاريخية

وتشير الدراسات الأركيولوجية والانثروبولوجية الى انه قد لا يكون هناك اتصال واستمرار بالضرورة بين سكان العصر الحجرى القديم والحديث ، اذ يبدو أن الجماعات الاولى قد اختفت أو ربما انقرضت ، وحلت محلها الجماعات الثانية . ولكن الأدلة توحى بأن ثمة استمرارية جنسية ما بين سكان العصر الحجرى الحديث وما بين عصر ما قبل الأسرات الى عصر الأسرات ، بمعنى أن هذه العناصر جميعا قد دخلت بدرجة أو بأخرى وبصورة ما فى تكوين سكان مصر التاريخية . وعلى أية حال ، فلا شك فى استمرارية الجنس بين ما قبل الأسرات والأسرات (٢)

ومنذ ذلك الحين والتاريخ الجنسى المصرى ليس الا عملية نمو « وتجنيس » داخلى وتطور تدريجى طبيعى خال من العقبات أو الهزات الى درجة جعلته مضرب الامثال . يقول كون « لا بد أن تظل مصر القديمة أبرز مثال معروف فى التاريخ حتى الان لمنطقة معزولة طبيعيا اتيح فيها للأنواع الجنسية المحلية الاصيلة أن تمضى فى طريقها لعدة آلاف من السنين دون أن تتأثر اطلاقا باتصالات أجنبية » . وفى النتيجة — يضيف نفس الكاتب — فان « التغيرات التى لحقت النمط الجنسى فى اى جزء من أوربا خلال السنوات الخمسمائة الاخيرة كانت أكبر منها فى مصر خلال خمسة آلاف » (٣) . وفى

---

(١) E. Chantre, Recherches anthropologiques dans l'Afri- que Orientale, Egypte, 1904, p. 30 2-3.

(٢) برودريك ، ص ١٧٤ ، ١٧٧ .

(٣) كون ، ص ٩٦

نفس المعنى ، وربما بتأكيد أقوى ، يقول برودريك « ... من الواضح طوال الستة آلاف سنة الاخيرة أو يزيد أنه لم يكن هناك أي تغير ملحوظ فى مظهر جمهرة المصريين . فالبداريون ، وأهل النقادتين ، ومصريو الأسرات والفلاحون الذين تراهم يعملون فى الحقول اليوم ، كلهم من نفس النمط القاعدى ـ المتوسطى » (١)

فمنذ فجر التاريخ اذن يبرز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة الاصل متجانسة بقوة فى الصفات والملامح الجسمية . وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم دون أن تحدث أى ابتعادات ملموسة عن النمط الأولى أو تتنافر معه تخصصات محلية ضيقة . والواقع أن من أطرف الحقائق الانثروبولوجية بقاء او ثبات النمط المصرى عبر العصور Persistence فلم يكد يتحرك منذ آلاف السنين ، حتى أن ثمة من التماثيل الفرعونية من عصر الاهرامات حين كشفت فى القرن الماضى ما تعرف الفلاحون وعمال الحفائر على بعضه كشبيه وممثل لبعض أفراد من بينهم ! (٢)

وهذا الثبات وحده جدير بالدهشة والتساؤل ، لا لأنه يتحدى البعد الزمنى الطويل فحسب ، وانما لأنه يتحدى كذلك القاعدة الاصولية من ان البيئات الغنية تجنح كمناطق اغراء وجذب بشرى الى الخلط والتنافر الجنسى (٣) ولكن الذى يفسر هذا هو التعارض بين اثر الموقع واثر الموضع . فالموقع مركزى مطروق بل قلب دوامة بشرية ، والموضع غنى ولكنه محمى معزول بدرجة لعبت غلالة الصحراء حوله دور « ماصة الصدمات أو

(١) A. H. Beodrick, Tree of Human Hist, Lond, 1951, p. 118.
(٢) H. Vallois, Races Hamaines, Paris, 1948, p. 40.
(٣) W. B. Fisher, Middle East, Lond, 1950, p. 77.

المصفى » الذى غربل الموجات الداخلة وكسر حدتها ، واخضعها للون قاس ولكنه صحى من الاختيار الطبيعى . واذا كان النطاق الساحلى الشمالى ابتداء من سيناء حتى مريوط ممرا عبوريا مطروقا، فمن الراجح كما حدث فى عصور ما قبل التاريخ أن كثيرا من الموجات التى انتقلت من غرب آسيا الى شمال افريقيا اخترقته دون ان تمس جسم مصر تماما أو ان تؤثر فيه بكثير أو قليل

وبين هذه الضوابط وتلك ، كان الحل الوسط هو أن مصر لم تتعرض اساسا للهجرات البشرية وانما للغزوات الحربية ، الأولى تتغلغل وتسرى غالبا فى الريف كما تسرى فى المدن ، أما الثانية فتقتصر على المدن تقريبا ، الأولى تمثل حركات ضخمة الحجم كما ، أما كيفا فهى « هجرات كلية » أى تشمل الجنسين ولهذا يكون تأثيرها الجنسى محققا ، أما الثانية فبضعة محدودة من حركة « ذكرية » بحتة ولذا تذوب ان لم تبد . فمن بين نحو ٤٠ موجة دخيلة عدت فى تاريخنا ، لا نجد الا ثلاث هجرات حقيقية هى الهكسوس والاسرائيليون والعرب

ولكن الهجرتين الأوليين طردتا تماما بعد حين ، وكان الاستقرار فيهما محليا أساسا حيث اقتصر انتشار الهكسوس على الدلتا بينما كانت أرض جاشان (وادى الطميلات) هى « حظيرة اليهود Jewish Pale » الاولى فى التاريخ ، بل انها باعتبارها ممرا لهم أكثر منها مقرا كانت حارة اليهود أكثر منها جيتو كبيرا . أما حجما ففى التوراة أن اليهود عند الخروج لم يكن يزيد عددهم عن ٦٠٠ الف ، أما تقدير فلندرز بيترى لقوة الهكسوس العددية فى قمتها بنحو مليونين أو ثلاثة فتخريج — تخمينى صرف لا سند له علميا — من عددهم عند الخروج وهو

٢٤٠ الفا ؛ الذى هو بدوره رقم لا ندرى مصدره (١)

أما الهجرة العربية ـ التى يسرف بيترى فى التقليل من قوتها العـددية والدموية ، على عكس ما فعـل بالسابقتين ، حتى ليصل بها على نفس الاساس الجزافى أو الخرافى الى ١٥٠ ألفا فى مجموعها طوال تاريخها من ذكور واناث ! (٢) ـ فتقف فى الحقيقة وحدها من حيث اثرها ووزنها . ومن المسلم به أنها بدأت بأعداد محدودة ، كغـزوة ذكرية ، ولكنها سرعان ما تحـولت الى هجرة واسعة النطاق مختلطة النـوع . وهى الاخرى بدأت كشبه استقرار على أطراف الصـحراء وحواف المدن ـ خاصة الحوف الشرقى أى شرق الدلتا ـ وكشبه معسكرات فى المدن ، ولكنها لم تلبث أن استقرت فى بطن الحوف اى داخل الأراضى الزراعية والريف وانتشرت فى المدن . وهكذا تم الاختلاط لا فى بؤرات المدن وحدها كما فى حالة اليونان والرومان من قبل، وانما فى تضاعيف الريف ، ولهـذا كتب للتعريب أن يكون تحـولا خالدا لا ظاهرة عابرة كالهللينية

ولقد كانت القبائل النازحة تتقاطر مع كل حاكم ، ولكن بعضها انسحب الى الجزيرة فى النهاية ، وليس من الممكن ان نقدر العدد المطلق أو النسبى للعنصر العربى الوافد عبر عدة قرون ، ولكنه لا شك لم يكن بسيطا رغم كل محاولات التقليل العامدة ، ولا عبرة بالقطع بتقديرات بيترى ولا بقوله ان « الفتح العربى كان تغييرا فى السادة الحكام أكثر منه تغييرا فى الجنس » (٣) . وبالمثل يقول شانتر فى تاريخ معاصر « أما عن العرب الذين كثـيرا ما يطلق اسمهم بطريقة غير سليمة على المصريين ، فقـد

(١) بيترى ، ص ١٤ (٢) السابق ، ص ١٥

(٣) السابق

نسب اليهم تاثير أكثر بكثير مما كان لهم فى الحقيقة » ، ثم يضيف أنه « يمكن القول بأن العرب هم الذين اختلطوا بالمصريين أكثر من المصريين بالعرب » (١) . ولئن كان فى هذا بعض من الصحة ، فهو بالمعنى الجنسى ، ويكون السؤال لماذا ؟

لا لسبب سوى أن العنصر العربى من أصل قاعدى واحد مشترك مع العنصر المصرى ، فكلاهما اقارب جنسيا منذ ما قبل الاسلام ، بل وما قبل التاريخ . فالاختلاط الجنسى المصرى ـ العربى كان فى الحقيقة زواجا بين أقارب بعيدين . ولهذا قيل انه اذا كان العرب قد عربوا مصر ثقافيا، فان مصر قد مصرتهم جنسيا (٢) . وأيا ما كان ، فان هذا لا ينفى قدرا ، وقدرا كبيرا ، من اثر جنسى للعرب ، ولو أنه لم يغير من التجانس الاصلى للسكان . ويتضح هذا أكثر اذا قارنا بالسودان مثلا . فالاثر الجنسى البحت ـ الاثر الدموى ـ للعرب فى السودان واضح تماما رغم أن ما انصب منه فيه قد يكون اقل مما انصب فى مصر . والسبب فى ذلك أن هنا فى السودان يختلف الأساس الجنسى القاعدى نوعا ما بين السكان الأصليين والعرب الوافدين

ولعل من المفيد بعد هذا أن نذكر اختلاف السرعة بين الفتح والتحول الى الاسلام والتعريب . فاذا كان الفتح قد تم فى ضربة واحدة ، فقد تطلب التحول الدينى نحوا من قرنين الى ثلاثة أو أربعة ، والمقدر أنه اكتمل على عصر المماليك ، أما اللغة فكانت أثقل خطوة وتأخرت عنه (٣) . هذا وكما فى بقية المشرق العربى ، وبعكس ما نجد فى المغرب العربى ، سيلاحظ أن عملية التعريب فى مصر

---

(١) شانتر ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

(٢) Encyclopaedia of Islam, art. Egypt.

(٣) Philip K. Hitti, The Arabs, 1948, p. 106.

جاءت أقوى من صبغها بالاسلام . فبينما نجد الأسلام كاملا فى المغرب والاقلية لغوية (البربر) ، نجد العربية كاملة تماما فى مصر بينما الأقلية دينية (الاقباط) . وبهذا يمكن أن نلخص الموقف كله فى مصر فى أنه كان عملية تغيير لسان أولا ، وقلب ثانيا ، ثم كان عملية تغيير جلد فى المرتبة الثالثة ، بينما لم يكن تغيير دم الا فى المرتبة الرابعة

والواقع أننا ينبغى ان ننظر الى الموجة العربية كشىء نادر خارق بطريقة ما . فمصر الفرعونية التى سيطرت على مناطق كثيرة من الشرق الاوسط وصدرت حضارتها المادية اليها ، لم تستطع أن تمد لغتها خارج حدودها ، فى حين ان العرب الذين جاءت سيطرتهم الحربية فجأة ، ولم يكن لهم حضارة مادية خارج الدين واللغة، استطاعوا أن يفرضوا لغتهم حيثما ذهبوا . وربما يذكرنا هذا الوضع بالفارق بين اليونان والرومان ، فقد كان للأولين حضارة مادية وغير مادية كاملة ، وكان لهم امبراطورية هللينية ، ولكن رغم بعض « الأغرقة » اللغوية المؤقتة لم تستطع اللغة اليونانية أن تعيش نهائيا خارج اليونان ، فى حين أن الرومان الذين بدأوا كقوة عسكرية فقط بلا حضارة ثم استعاروا حضارة الاغريق وبنوا عليها ، استطاعوا أن يعمموا اللغة اللاتينية فى كل امبراطوريتهم. واذا كان يقال ان روما وان استعمرت اليونان حربيا فقد استعمرتها اليونان حضاريا ، فكذلك اذا كانت العرب قد عربت مصر لغويا ودينيا فقد مصرتهم مصر حضاريا وماديا . أما الفارق بعد هذا بين دور العرب والرومان ، بين التعريب « والرومنة » ، فهو أنه بينما تشعبت اللاتينية الى لغات محلية منفصلة ، ظلت اللغة العربية شيئا واحدا بين كل العرب بفضل قوة جاذبة

مركزية ، بفضل « جيروسكوب » لقوى خالد هو القرآن

وبعد الموجة العربية عادت الحركات الداخلة فاقتصرت على الغزوات لا الهجرات ، وهذا يصدق على أتراك الطولونية والاخشيدية وأكراد الايوبية وشراكسة المماليك، كما يصدق على أتراك وألبان وانكشارية العثمانية . وربما لا يشذ عن هذا الا الموجة الفاطمية من المغرب . وفى كل تلك الحالات كانت الاعداد الوافدة محدودة مهما بلغت ، وكانت مذكرة غالبا ، تتركز أساسا فى المدن ، وتمثل مستعمرات مغلقة تتزاوج غالبا من الداخل inbreeding . وفى هذه الحالة كانت ــ كما لوحظ كثيرا ــ عقيمة لا تعقب فى مناخ مصر ، مما كان يلزم معه لكى لا تنقرض أن تستورد دفعات جديدة منها من الخارج ، كما كان يحدث بين المماليك خاصة

غير أن البعض يرفض هذه النظرية المناخية ، ويرى ان سبب انقراض هذه المستعمرات الدخيلة انما هو التزاوج الداخلى الضيق أولا ، ثم ثانيا وظيفتها الحربية التى كانت تعنى الوفاة المبكرة للغالبية فى الميدان قبل أن تكون أسرة (١) هذا والا فانها كانت تتزاوج من المصريين وفى هذه الحال كانت تذوب فى الجسم الكبير دون أن تنسخ لونه الاساسي . وفى هذا المعنى يمكن أن نقرر أن مصر لم تكن مقبرة للغزاة بالمعنى السياسى فحسب ، بل وبالمعنى الجنسى أيضا

والى هذا جميعا ينبغى أن نضيف الرقيق ، الذى ظلت تجارته واستخدامه قاعدة خلال أغلب هذه المراحل ، والذى كان شديد التنوع فى أصله متراوحا ما بين الرقيق الابيض من الشراكسة والاسبان والسلاف

(١) W. Muir, Mameluke Dynasty of Egypt, Lond, 1896, p. 228.

.. الخ وما بين الرقيق الاسود من افريقيا والحبشة والسودان . ومعظم هذه العناصر ، التى وصلت احيانا الى أرقام لا يستهان بها واستوطنت نهائيا ولم تغادر البلاد ، لايمكن الا أن تكون قد ذهبت فى تكوين السكان العام وساهمت فى تحديد النمط الجنسى بعد أن انصهرت فى البوتقة المصرية سواء قبل أو بعد تحرير الرقيق

عزلة الموضع النسبية اذن حفظت على مصر شخصيتها الجنسية وتجانسها فى النمط الجثمانى . فمن الوجهة العملية كانت مصر عامة وحدة كبيرة واسعة من التزاوج الداخلى مما ثبت وكثف فيها صفاتها وملامحها . كذلك قد يضاف ان قصر متوسط الاعمار فى مصر — وهو ظاهرة قديمة — كان معناه سرعة تعاقب الاجيال مما قد يعنى زيادة تثبيت النمط الجنسى فيها . ولا شك كذلك ان ضخامة عدد السكان فى مصر فى اغلب مراحل تاريخها ، كانت من العوامل الهامة فى تحديد نتائج المؤثرات الجنسية الوافدة . فمهما قد تكن هذه بلغت من قوة ، فان ضخامة المحيط المصرى ديموغرافيا كانت كفيلة بابتلاعها وامتصاصها دون أن تحرف النمط الاصيل تحريفا جوهريا أو مبالغا فيه . وأخيرا فان ترامي البعد التاريخي المصرى قد باعد زمنيا بين تلك المؤثرات وخفف بذلك من وقعها ، فكأن العامل التاريخى كان عامل ترشيح جنسى بمثل ما كان العامل الجغرافى مصفى وعامل امتصاص

ذلك كان التجانس الجنسى فى مصر كما حدده تبلور الموضع . ولكن شكل هذا الموضع ساعد بدوره على تأكيد هذا التجانس . فالمعمور المصرى كان دائما يدق على أطرافه القصوى شمالا وجنوبا ، ولكنه فى مجموعه كان كتلة واحدة متصلة ، أشبه ببقعة زيت ممدودة ،

مما لم يترك مجالا لانقطاعات أو ابتعادات محلية أو توطنات تخصصية لكى تتبلور فى جيوب وأسافين . وقد كان من الممكن أن يساعد شكل الموضع كشبه جزيرة صحراوية منعزلة على أن تتحول مصر الى حد ما الى صندوق مغلق الا من ناحية واحدة ـ كشبه قارة الهند على تصغير ـ بحيث تزيح فيه كل موجة لاحقة كل موجة سابقة الى الداخل ، وتنتهى الى نظام صارم للطبقات (الكاست) . ولكن كما رأينا ، وعدا الفارق الحجمى الهائل ـ لم تكن مصر مسرح هجرات بل غزوات ، كما انها لم تعرف حاجزا لونيا أو حاجزا حضاريا ولا انقطاعا سكانيا ، ولهذا ظلت جسما متجانسا فى كل أجزائه .

وليس صحيحا مطلقا فى هذا المجال أن الموجة العربية الاسلامية أزاحت الاساس « القبطى » الى جيب الجنوب المغلق فى الصعيد ، وذلك كما حدث مثلا للفرشات الاساسية فى الشام أو المغرب حيث التجأت الى المعاقل الجبلية والمرتفعات . فالانتشار العربى كان أشبه شىء بعملية الانتشار الغشائى الاسموزى : عالمية وسارية : عملية تغلغل لا زحزحة ، وتخلل لا ازاغة . ولهذا فقد أثبتت الابحاث الانثروبولوجية الحديثة خطأ النظرية التى كانت ترى بين « الفلاحين والقبط » فارقا كالذى بين « العرب والبربر » فى المغرب : « رأى بعض المؤلفين أن بينهما نفس الاختلافات التى بين من يدعون بالعرب وبين البربر . ولكن علم الاجناس لم يؤيد هذا الرأى : فالاقباط والفلاحون يكادون يكونون شيئا واحدا » (١) . وهكذا ، ميتة طبيعية لنظرية غير طبيعية ..

---

(١) فاللوا ، ص ٣٩

وفى هذا أيضا رد ضمنى وتوضيحى على النظرية الشائعة من أن الاقباط أقرب الى تمثيل المصريين القدماء من المسلمين . ولا شك ان هذا صحيح ـ وانما بالنسبة الى جزء من المسلمين وليس كلهم . فليس كل المسلمين بالضرورة قد داخلتهم دماء عربية ، فهؤلاء اذن لا يقلون قربا من المصريين القدماء عن الاقباط . ولكن لما كان « الاقباط والفلاحون يكادون يكونون شيئا واحدا » ، فان هذا يؤكد مرة أخرى شدة تقارب العنصر العربى أصلا مع العنصر المصرى القاعدى . واذا كان قد لوحظ ان الاقباط افتح لونا بعامة ، فمن المعروف كذلك ان هذا فارق بيئى ، مهنى بالتحديد ، حيث لايرتبط الاقباط بالزراعة والعمل فى الخلاء وبالتالى لايتعرضون للشمس كالفلاح المسلم

وليس أقل خطأ تلك المحاولات السطحية عند بعض الكتاب الغربيين لتصوير أو تصور « نطاق قبطى » فى الصعيد الاوسط حاليا (١) ، وكذلك لم تكن مدينة الفيوم فى القرن الماضى ولا مدينة أسيوط فى الوقت الحالى (٢) « عاصمة » للأقباط الا فى المعنى المجازى جدا . فرغم أن نسبتهم ترتفع بين السكان محليا ، فهم لا يمثلون الاغلبية فى أى مساحة على أى مستوى : فليس ثمة تركزات أو توطنات محلية . بل أكثر من هذا ان نسبة الاقليات الدينية فى مصر تتناقص باستمرار مع الوقت بسبب تفوق معدل المواليد المسلمين تقليديا أولا ، والتحولات التى تحدث سنويا الى الاسلام ثانيا (٣) . فمثلا انخفضت نسبة المسيحيين فى مصر من ٨ ٪ فى

---

(١) Benjamin E. Thomas, in World Geog, ed, Free-man & Morris, 1958, p. 400

(٢) Chantre, p. 153; L.D. Stamp, Africa, 1959, p.208.

(٣) Charles Issawi, Egypt, 1946, p. 162.

عام ١٩٤٧ ، الى ٣ر٧ ٪ فى عام ١٩٦٠ ، الى ٦ر٦ ٪ فى عام ١٩٦٦

ومثل هذا يقال عن اسفين النوبيين . فهم وان مثلوا جيبا محليا واضحا ، الا انهم كأقلية لغوية يقعون على أقصى هوامش المعمور والرقعة السياسية . وعددهم ليس بالكبير ــ نحو ٥٠ ألفا حاليا . وحتى بعد هذا فمن الخطأ اعتبارهم أقلية فى أى معنى ، فهم ليسوا أكثر من « قبيلة » متميزة نوعا فى الجسم الكبير ، واذا كانت لهم لغة خاصة فهى لسان داخلى يجمع بينها وبين العربية . وسيلاحظ انه منذ مشاريع الرى فى خزان اسوان ، وبصفة أخص السد العالى ، حدثت عملية انتشار وانصهار للنوبيين فى تضاعيف السكان بحيث نرى تركزهم كجماعة محلية آخذا فى الذوبان ، وعملية تمام تمصيرهم آخذة فى الاسراع

نخلص من هذا كله بالتأكيد الى ان مصر القديمة والمعاصرة ، جنسيا وغير جنسى ، جسم متجانس أساسا . ومع ذلك وبعد كل ذلك ، فليس ينبغى لنا أن نبالغ فندعى تجانسا مطلقا ، يكفى أن نقول تجانسا نسبيا . كذلك فان هذا التجانس لايرادف النقاوة الجنسية تماما . فمن الواضح ان دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت الى عروق مصر وصبت فى شرايينها ، وليس من المتصور ألا تكون قد طورت الاساس الجنسى بدرجة ما وفى خط ما . واذا كان بعضها شبيها أصلا بأساس السلالة المصرية ، فقد كان البعض الآخر بعيدا عنها كل البعد . وليس من الدقة العلمية فى شىء أن نصور مصر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله ، فليس هناك أطر ثابتة الى هذا الحد كأنها أقفاص حديدية ..

وينعكس جماع هـذا كله فى الصورة الجنسية لمصر المعاصرة . فاذا كان المصرى فى الاعم الاغلب متوسط القامة ، طويل الرأس «برونث» ذا بشرة تضرب الى سمرة خفيفة ، واذا لم يكن هناك دليل على فروق اقليمية فى القامة أو شكل الرأس ، فثمة بعض فروق محلية ولكنها ملحوظة فى لون البشرة التى تكاد كمقياس مدرج تتبع خط العرض من الشمال الى الجنوب (١) ، حتى لقد يقال ان المصريين المحدثين يمتازون بتناقض خفيف بين الصفات العظمية والملامح الجلدية : تجانس كبير فى شكل الرأس وطول القامة ، وتباين محسوس فى لون البشرة

ولا شك ان جزءا من تفاوت اللون بيئى يرجع الى الفروق المناخية ، ولكن جزءا آخر بيولوجى مستمد من الدماء الدخيلة . ففى الشمال تشتد المؤثرات الشمالية ويكثر اللون الفاتح ، بينما تظهر المؤثرات الجنوبية شبه الزنجية أو المتزنجة على استحياء فى الجنوب ، بينما أن المدن الكبرى العاصمية هى نسبيا اشد المناطق خلطا وانصهارا . لكن يخفف من وقع المؤثرات الدخيلة فى أقصى الشمال والجنوب أنها تتفق الى حد بعيد مع أقل المناطق كثافة سكان . كما أن هذه الفروق السطحية لا تقلل أو تعدل من الوحدة الجنسية الاساسية للشعب المصرى ، ويخطىء لا شك من قد يرى المصريين ــ من خلال اللون وحده ــ مخلطين بقدر يذكر ، فى حين ان الصفات الوراثية الدفينة والحيوية تكشف عن وحدة قاعدية نادرة

والحديث عن التجانس الجنسى ، ينقلنا تلقائيا الى التجانس اللغوى والدينى ، حتى تكتمل لنا صورة مصر

---

(١) كون ، ص ٤٥٩ ــ ٤٦٠

المعاصرة بشريا . فأما التجانس اللغوى فكامل كأكمل ما فى العالم العربى ، بل هو مطلق فى الواقع ، فليس ثمة من أقليات لغوية كما رأينا الا جيب النوبة وبربرية واحة سيوة ، وكلها لا تزيد عن بضع عشرات من الآلاف . ومع ذلك فهم مزدوجو اللسان جميعا ، بينما استعارت النوبية من العربية ثلث مفرداتها ، كل ذلك كخطوة لا شك فى سبيل التعريب المطلق . قارن هذا بالمغرب أو الجزائر أو العراق لتدرك مدى تجانس مصر اللغوى

أما دينيا ، فان الاقلية القبطية وان كانت بعددها المطلق تمثل أكبر جزيرة مسيحية فى أى دولة عربية — ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ فى تعداد عام ١٩٦٦ — فان نسبتها محدودة اذا قورنت ببعض البلاد العربية : ٦٫٦ ٪ مقابل ١٦ ٪ فى سوريا مثلا . وفضلا عن هذا فان هذه الاقلية من صميم الجسم المصرى الكبير ، شديدة التماسك فيه والالتحام به . وقد فشلت كل محاولات الاستعمار الحديث فى خلق مشكلة الطائفية ليضرب بها الوحدة الوطنية

الى الوحدة :
طبيعيا وسياسيا

تستمد مصر وحدتها الطبيعية من الخارج ، من الموقع ، ومن الداخل من الموضع . فهى من الخارج واحة صحراوية أو بالاحرى شبه واحة ، أو هى جزيرة — فى الحقيقة شبه جزيرة — فى محيط الصحراء حيث تبدو كالكأس الطويلة أو الزهرة ساقها الصعيد وزهرتها الدلتا وبرعمها الفيوم (١) ، وآخرون يقولون كالنخلة :

---

(1) John Ball, Contributions to the Geog. of Egypt, Cairo, 1939, p.11.

صعيد باسق ، ودلتا كالمظـــلة المفتوحة ، بينما الفيوم عرجونها . والمهم انها على استطالتها عالم واحد متناه صارم الحدود والمعالم ، ملمومة فى نفسـها ومتماسكة ، وجسـمها يبدو كأقدم وأضـــخم وأكثف جزيرة بشرية منفردة فى افريقيا وقلب العالم القديم

وهى فى كل هذا وبكل هــذا تتنافر بوضوح تام مع الصحراء المحيطة حتى ليبدو الفاصل بين الحياة والموت كالخط الصقيل وحتى ليمكن للمرء أحيانا أن يضع قدما على الارض السوداء وأخرى على رمل الصحراء (١) . وهذا وحده يجعلها تبدو منذ اللحظة الاولى كوحـــدة متميزة بذاتها . فالصورة الطبيعية واضحة بسيطة كل البساطة حتى لقد يبالغ البعض فيعدها ســـاذجة كما يفعل مارش فيليبس الذى يقول : « ان جغرافية الوادى صنعت للأطفال » ! (٢) وآخرون يقولون أن لمصر تاريخا ولكن ليس لها جغرافيا .. وبغض النظر عما فى هـــذا وذاك من مغالاة ان لم يكن مغالطة ، فان تلك البســـاطة وذلك الوضوح الاساسيين فى مورفولوجيـــة مصر من عوامل تبلور شخصيتها ووحدتها . كذلك كان الشعور المشترك بالاخطار الخارجية المتواترة منذ فجر التاريخ قوة لاحمة بلورت الشعور بالذات وطنيا (٣) ..

ويمكننا أن نعبر عن تبلور جسم مصر جغرافيا بطريقة أخرى . فثمة فى العالم دول كثيرة تملك قلبـــا مركزيا واضحا ، ولكن يعوزها حدود طبيعية بارزة ، كما هى حال بولندا مثلا . وثمة على العكس بلاد تمتاز بحدود طبيعية قوية ، ولكنها تفتقر الى بؤرة عقـدية ناضجة ،

---

(١) J.A.Wilson, in Before Philosophy, Pelican, 1949, p.39.

(٢) L.M. Phillipps. Works of Man, Lond. 1932 p. 45

(٣) ويلسون ، ص ١٢٢

كما هو شأن ايطاليا . وأسوأ من الاثنتين دولة لا تملك قلبا ولا أطرافا طبيعية ، كألمانيا . أما مصر فهى — كفرنسا — من الندرة القلائل التى تتمتع بحدود طبيعية حامية مانعة كأقوى ما يكون ، لا تقل هنا عمقا عن الصحراوين الشاسعتين ، وفى نفس الوقت تتبلور وتتجسد بصرامة ولهفة حول نواة أو قلب بالغ النضج والجاذبية ويوشك ألا يقل فى امتداده عن الوادى برمته

بل ان مصر — أكثر من فرنسا — هى المثال الكلاسيكى للدولة — الوحدة والوطن الانسب optimum territory فى كل كتب الجغرافيا السياسية (١) ، وتمتاز — أكثر من فرنسا مرة أخرى — برقعة سياسية منتظمة تكاد تؤلف مربعا نموذجيا . واذا بدت حدودنا السياسية الحديثة خطية هندسية فلكية ، ومن ثم مصطنعة تتنافر مع الحدود الطبيعية خلفها ، فتلك فى الحقيقة ضرورة تنظيمية وذلك تنافر مفهوم بين الحدود كخطوط وبين التخوم كمناطق

ولكن تركيب مصر الداخلى لا يقل خطورة عن شكلها الخارجى فى منحها كيانا موحدا . فمن أعلى حوض عند جبل السلسلة فى أسوان الى أدنى حقل فى « الجزيرة الخضراء » عند المصاب ، تؤلف مصر سلسلة متصلة الحلقات متكاملة هيدرولوجيا ووظيفيا يتفاعل الماء بين أجزائها المختلفة كما لو فى أوان مستطرقة ، فلا يمكن أن تخطط لمشاكل الماء فيها تخطيطا محليا ، بل لا بد من أن تعالج كوحدة هيدرولوجية واحدة والا اختل فيها ذلك « التوازن الايكولوجى » الحرج الدقيق ، وبالتالى اختلت فيها عناصر الحياة . بمعنى آخر ، انها كل غير

(١) Y. M. Goblet, Political Geog. and World Map. Lond 1955, pp. 187—8.

قابل للتجزئة ، ولا يمكن أن تدار أو تحكم كمدة وحدات مستقلة ..

وعامل النقل والمواصلات — كالهيدرولوجيا — عامل توحيد وظيفى محقق فى بيئة مصر النيلية . ففى تناسق نادر ، يتضافر النهر مع الرياح فى ربط أجزائها ربطا محكما : النهر ينحدر من الجنوب انحدارا تدريجيا لطيفا (١ : ١٠,٠٠٠ — ١٤,٠٠٠) آخذا بيد الملاحة الهابطة فى يسر وسهولة ، والرياح الشمالية السائدة — التى عرفها اليونان من قديم بالرياح الاتيزية Etesian — تساعد الملاحة الصاعدة ضد التيار . وقد كان النهر وملاحة النهر أساس انتشار الحضارة داخل الوادى ، وكان أيضا وسيلة توحيده سياسيا

والواقع ان رقعة ما من مصر لا تبعد عن النيل أو فروعه أكثر من كيلومترات قليلة ، بل فى الجنوب يتحول الصعيد الخطى برمته الى شارع هائل يطل على النيل مباشرة ، ويتحول النهر الى « طريق متحرك» كما يعبر جوردون تشايلد (١) . ولعله ليس من مجرد الصدفة البحتة أن الرومان — و « الطريق الرومانى » أشهر من نار على علم حيثما دخلوا — لم يدخلوا شيئا منه فى مصر : لقد ألغى الطريق المتحرك الحاجة الى الطريق الرومانى ..

وعلى أساس هذه الوحدة الطبيعية الآمرة ، وعلى أساس ما رأينا من تجانس طبيعى وبشرى محكم ، كان طبيعيا أن تظهر جرثومة الوحدة السياسية فى مصر منذ أول فرصة ممكنة . هنالك تبدأ مرحلة ما يسميه بيجهوت « فترة تكوين الامم » ، وهى مرحلة لم تعرفها

---

(١) V. Gordon Childe, Social Evolution Lond., 1951. p. 139.

دول أخرى الا بعد ذلك ببضعة الاف من السنين . بل لا تزال بعض الدول العربية اليوم تعيشها أو تعانيها .
تلك المرحلة تبدأ مع بدء الاستقرار الزراعى حيث تحولت القبائل الرحل والعشائر الرعوية الطوطمية السحيقة الى أقاليم مقاطعات أو دول مدن هى التى تعرف باسم Nomes وبها انتقلت وحدة المجتمع من وحدة دموية مغلقة الى وحدة سكنية واسعة ، من وحدة قرابة ضيقة الى وحدة جوار رحبة (١) ..
والتاريخ يسجل لنا مرحلة سابقة للتاريخ كانت تتقاسم مصر فيها كوكبة من تلك المقاطعات ، أشبه ما تكون بمرحلة الاقطاع السياسى ودول المدن التى لم تعرفها أوربا الا فى العصور الوسطى ، أو هى أشبه ما تكون بالـ Pays فى فرنسا حتى الثورة . وقد كانت تلك الوحدات فى الحقيقة وحدات هيدرولوجية محلية .
ولكن هذه المرحلة كانت قصيرة العمر ، واختزلت هذه الوحدات الى وحدتين رئيسيتين هما الوجهان البحرى والقبلى . ولا يوشك فجر التاريخ أن يبدأ حتى يكون توحيدهما قد تم من الوجه القبلى وذلك منذ نحو ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، فكانت مصر بذلك أول « أمة » بمعنى القومية الصحيح وأول « دولة » بالمعنى السياسى الكامل . كانت أول دولة نووية من النوع الكثيف Intensive State بالمعنى الجيوبولتيكى
وهنا نرى ان بيئة مشابهة طبيعيا وحضاريا كالنهرين تتأخر وحدتها السياسية عن ذلك كثيرا . والسبب ان مصر أولا نهر واحد صغير المساحة ملموم ، بينما العراق نهران منفسحان فى رقعة مترامية نسبيا ، ثم ان مصر شبه واحة صحراوية متفردة بينما العراق شبه واحة

(١) A. Moret, De Clans aux Empires. Intensive State

استبسية تتلاشى بالتدريج فى البلاد المجاورة دون تحديد قاطع ..

والواقع ان مصر لم تسبق العالم كدولة سياسية فقط ، وانما هى أطول دولة حافظت على وحدتها القومية عبر التاريخ ، فلم يحدث خلال ٦٠٠٠ سنة أن انفرط عقد وحدتها وتدهورت الى انفصاليات اقليمية الا فى حالات نادرة شاذة للغاية أغلبها مفروض من قوى أجنبية دخيلة كغزو الهكسوس حين انفردوا بالدلتا وظل الصعيد معقل الدولة الوطنية المستقلة ، وكعهد الانحلال والاقطاع فى الدولة الوسطى ، وأخيرا كعهد الاقطاع المملوكى ..

بل القاعدة انه حتى فى ظل الاستعمار الاجنبى لم تفقد مصر وحدتها . فلم يحدث أن تقاسمها أكثر من مستعمر فى أى فترة أو خضعت لاكثر من قوة فى وقت واحد ، وذلك بعكس ما عرف الشام والعراق مرات ومرات فى تاريخهما . ولقد قيل فى هذا الصدد ان المشكلة فى الاستيلاء على مصر ليس غزوها وانما الوصول اليها (١) ، لانه متى تم هذا ووضع الفازى قدمه على موطىء ما منها قادته الطبيعة بسهولة الى بقية أجزائها كما لو بالانحدار والجاذبية ، أو كالفقاعة الهوائية فى الميزان المائى تقطعه من طرفه الى طرفه مهما بدأت

وأيا كان الامر ، ففى معظم هذه الحالات كان الصعيد — هل نقول ابتداء من أحمس حتى عبد الناصر ؟ — هو قاعدة التحرير أو اعادة التوحيد كما كان فى البدء قاعدة التوحيد . وهذا يرمز ببلاغة الى دور الصعيد فى الوحدة القومية طوال التاريخ . فمن البديهى أن الصعيد ، ومساحته نصف مساحة الدلتا وشكله ملموم

(١) Stamp, Africa, pp. 210 ff.

على نفسه رغم طوله ، أســـهل توحيـــدا وتماسكا من الدلتا . ولئن كانت الدلتا فى نظرتها النفسية والحضارية تأخذ من سعة ورحابة أرضها ، بينما يأخذ الصعيد فى نظرته وعقليته من ضيق قاعدته وعزلتها نوعا ، فان هذا وان كان يعنى الثراء والتقدم والتفتح المـادى النسبى للدلتا ، فانه يعنى للصعيد العصبية والعزيمة والشكيمة. وكما يلخص حزين ببلاغة « لئن كانت الدلتا قد أمدت مصر بالمال ، فقد أمدها الصعيد بالرجال » (١) . وبهذا يتكامل دور كل منهما فى صنع الوحدة الوطنية

وأخيرا سنرى انهذه الوحدة التاريخية التى لم تنقطع والتى كانت جزئيا ثمرة للتجانس البشرى قد ضاعفت بدورها من هذا التجانس حتى قل أن نجد شعبا متماثلا فى ملامحه الجسمية والنفسية ، فى مزاجه وتقاليده ، باختصار فى « طابعه القومى » ، كالشعب المصرى

ولربما زدنا هـذه الحقيقة وضوحا اذا ما وضعناها موضع المقارنة مع بلاد أو شعوب أخرى مجاورة . فى الشرق العربى مثلا ، عبر العصور الطوال كما فى يومنا هذا ، نجد أن سوريا تمتاز فى كل نواحى حياتها وكيانها بمعادلة اقليميـــة أساســـية تعد مفتـــاحا لـــكل أعماق شـخصيتها : انها تتألف من عدد كبير من الوحـــدات الضئـــيلة : فى الارض والطبوغرافيـــا ، فى العروق والســـلالات ، فى اللهجات والاتجاهات ، فى الطوائف والملل ، حتى فى المدن والواحات ! انها فى ذلك كله كومة مفككة من الاحجار الصغيرة وأكاد أقول من حصى وتراب .

---

(١) S.A.S. Huzayyin, Place of Egypt in Prehistory Cairo, 1941, pp. 314 ff;

« البيئة والموقع الجغـرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام » ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٤٢ ، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧

والعراق أكثر تجانسا وتماسكا ، فهو يتألف من عدد أقل من وحدات أكبر حجما ، فهو بنهريه وقوميتيه وبيئتيه الطبيعيتين السهل والجبل ... الخ أقرب الى الثنائية التركيبية ـ الى حجرين كبيرين نوعا . أما مصر فى هذه المتتالية التصاعدية فتأتى على القمة : فهى حجر واحد Monolith وحجر ضخم عند ذلك Megalith فهنا جسم بشرى واحد ووحيد ، ووسط جغرافى واحد بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد . وهى لذلك كله أبعد ما تكون عن التنافر الداخلى أو التخلخل التركيبى ، ومنه تستمد ثقلا ووقعا وقوة اندفاع فرضت نفسها على تاريخ المنطقة ، كما سنرى بعد قليل

الفصل الثانى

من الطغيان الإقطاعى
إلى الثورة الاشتراكية

لا يعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والبطش من جانب والاستكانة أو الزلفى من الجانب الآخر هى من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية عبر العصور ، فهى فى الحقيقة النغمة الحزينـــة الدالة Leitmotiv فى دراما التاريخ المصرى . ولا ينبغى لنا أن نخجل أو أن تأخذنا العزة فنهرب أو نكابر فى هذه الحقيقة ، كما أن من الخطأ أن ندع هذه تترسب فى نفوسنا كعقدة تاريخية ، بل لابد أن نجابهها بالتحليل العلمى والتشريح الموضوعى لنرى الى أى حد هى ظاهرة ظرفية مؤقتة رغم طول ما أزمنت ، أو الى أى مدى هى نتج طبيعى ــ كما يزعم البعض ــ للمركب البيئى ، وبالتالى جزء لا يتجزأ من مركبنا الحضارى

فهذا البعض يرى أن النهر بذر فى التربة الفيضيـــة جرثومة الطغيان حين أصبحت زراعة الرى هى أساس الحياة فى الوادى . ولكننا سنرى أن النهر وان كان يدعو الى كثير من النظام والتنظيم ، فهو لا يمكن أن يكون لعنة الطغيان ، بل سنجد أن ما تكرر فى بعض فترات تاريخنا من مظاهر الطغيان لم يكن الا انحرافة اجتماعية من صنع

الاقطاع لا النيل ، ومن فعل الجغرافيا السياسية لا الطبيعية . ولنبدأ بأوليات الايكولوجيا الاجتماعية فى مصر القديمة

ايكولوجية النيل الاجتماعية

الحقيقة الكبرى فى كيان مصر هى أنها بيئة نهرية فيضية لا تعتمد على المطر الطبيعى فى حياتها وانما على ماء النهر ، وقوامها هو زراعة الرى ــ الرى الصناعى ــ لا الزراعة المطرية . ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق فى حياة المجتمع النهرى وطبيعته . ففى البلاد التى تعيش على الامطار مباشرة يختزل المجهود البشرى الى حده الادنى . فبعد قليل من اعداد الارض والبذر يتوقف العمل أو يكاد حتى الحصاد . وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود . وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو يتحكم فى توزيعه

حقا انالزراعة المطرية عرضة لذبذباتالمناخ ، وفلاحها من ثم تحت رحمة الطبيعة ، لكنك لست بحاجة ــ ولن تستطيع ان أردت ، وهذا هو المهم ــ أن « تخطط » المطر . من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح ، ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه . وهذا فى نفس الوقت يمنح الفلاح فرصة للفردية بدرجة أو بأخرى

أما فى بيئة الرى فالامر مختلف كل الاختلاف . فالوادى فى فجر تاريخه ليس مصرفا طبيعيا ولكنه مستنقع اسفنجى ملارى مشبع . ولا زراعة ولا تعمير الا بعد التصريف و « التقنيل » . لابد ــ يعنى ــ من مجهود بشرى جماعى ضخم حتى تعد الارض مجرد اعداد لاستقبال البذرة . وبعد هذا فلا بذر حتى توصل

المياه الى الحقول ، أى لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية الى مساقى الحقول . حتى تزرع اذن لابد لك أولا من أن تعيد خلق الطبيعة. ثم ما جدوى تلك الشبكة اذا لم تسيطر على أعناقها ورءوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟ أعنى أى جدوى فيها بغير « ضبط النهر » ؟

وأكثر من هذا ، ما جــدوى الجميع بغير « ضبط الناس » ؟ ان زراعة الرى اذا تركت بلا « ضابط » يمكن أن تضع مصالح الناس المائية فى مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية . ذلك ان كل من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسىء استعماله اما بالاسراف أو بحبسه تماما عمن يقع أسفله . أى أن كل حوض علوى يستطيع أن يتحكم فى حياة — أو موت — كل حوض سفلى . وكل من يقع على أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع على نهايات الترع . كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمن تريد . ان العلاقات المائية داخل الوادى بأكمله ، أشبه ما تكون بقانون الاوانى المستطرقة ، فكل تغير فيها هنا يستتبعه بالضرورة تغيير هناك ، وأى مضخة كابسة هنا هى بمثابة مضخة ماصة هناك ..

المحصلة اذن واضحة : بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل الى شلال حطم جارف ، وبغير ضـــبط الناس يتحول توزيع الماء الى عمليـــة دموية ، ويســـيطر على الحقول قانون الغـــاب والادغال . ولو تركت البيئـــة المصرية غابا اجتماعية لما تطورت عن الغاب الطبيعى الذى بدأت منه . والواقع أن البيئة الفيضية يمكن أن تجعل من « المجتمع الهيدرولوجى » — كما يسميه برون (١) —

(١) J. Brunhes, Geog. Humaine, 1934, Vol. II p. 794

مجموعة من المصالح المتعارضـــة ، فتصـــبح سلسلة الاحواض سلسلة من المتنافسين . ومما له مغزاه أن كلمة منافس فى اللاتينيـــة مشـــتقة من كلمة نهر — Rivalus, Rivus (١) وليس صدفة كذلك ان المصريين القدماء اشتهروا بكثرة الخصام والتقاضى ، وفيما بعد بالاخذ بالثأر (٢) . .

فى ظل هذا الاطار الطبيعى يصبح التنظيم الاجتماعى شرطا أساسيا للحياة ، ويتحتم على الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة أعلى توزع العدل والماء بين الجميع ، ســلطة عامة أقوى بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد على نهر فيضى فى حياتها ومصيرها. وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح ، وانما بين الاثنين يضيف الرى سيدا آخر هو الحاكم . هنا يصبح الحكم والحاكم « وســـيطا » بين الانسان والبيئة أو وصيا على العلاقة بينهما وهمزة الوصل بين الفلاح والنهر . اى أن الفلاح لا يتعامل مع الماء مباشرة ، وانما خلال الحاكم . وبتعبير آخر فان الحكومة — فكرة وجهازا — هى بالضرورة أداة التـــكامل الايكولوجى بين البيئة والانسان . انها تبدأ نتيجة وضرورة جغرافية ، لتنتهى « عاملا جغرافيا » بكل معنى الكلمة

ومن تلك العناصر جميعا يتألف فى النهـــاية المجتمع الهيدرولوجى النموذجى الذى تنسج خيوطه من ثلاثة : الماء ، والفلاح ، والحكومة — والاخيرة طرف فى المعادلة لا يقل أصالة وضرورة وحتمية عن الطرفين الآخرين . بل اننا يمكننا أن نذهب الى حد القول بأن أصل وظيفة

---

(١) E.C. Semple, «Irrigation ...in Mediterranean», A.A.A.G, Sept. 1929, p.142.

(٢) H. El-Saaty, Juvenile Delinquency in Egypt, Thesis, 1948, pp. 43-7.

الحاكم والحكم فى المجتمع الهيدرولوجى على وجه التحديد هى وظيفة وزارة الاشغال والرى أكثر منها وزارة الزراعة بعامة ، وأن أساس الملك فيه هو وظيفة « محكمة المياه » Water Court

وها هنا يكمن الفـــارق الجوهرى بين زراعة الرى وزراعة المطر . فالحكومة فى ظل الاخيرة لا غنى عنها حقا ولكن فى أبعاد وحدود أضيق بكثير منها فى زراعة الرى ، فوظائفها هناك أقل ، وليست بحاسمة بالضرورة ، وفى النتيجة فان سلطانها ونفوذها لا يتضخم الى هذا المدى الذى تمكن له زراعة الرى . ونحن قـــد نستطيـــع أن نتصور بيئة زراعة المطر بلا حكومة لحين ما ، أو لأحيان ، دون أن تنهار فيها الحياة كلية وبالضرورة ، ولكنا نعجز تماما عن أن نتصور المجتمع الهيدرولوجى مجتمعا أناركيا أو فوضويا دون أن يتهدد كيانه فى ذاته وصميمه

فاذا ما التفتنا الى مصر القديمة بصورتها الفرعونية ، فستجبهنا هذه الملامح الى حد نادر المثال . فقـــد عد فرعون ضلعا أساسيا فى مثلث الانتاج الى جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس (١) ، وأصبحت العبقرية الضلع الثالث فى مثلث الحضارة الى جانب الضـــلعين الأخرين الحاجة والامكانية (٢) . وليس صدفة بعد هذا أن كلا من هذه الاطراف الثلاثة قد عبـــد وأله . فمن ناحيـــة كانت الديانة والميثولوجيـــا المصرية القديمة تعطى مكانا بارزا لكل من النيل (حابى) والشمس (رع) كآلهة ، بينما ــ للمقـــارنة الدالة ــ لم يكن للرياح الشمالية أو القمر أهمية ذات بال . ومن ناحيـــة أخرى ، اذا كان فرعون قد تحول الى الملك ــ الاله ، فذلك أساسا بصفته

(١) Ch. Perain, Méditerranée, Paris, 1936, p. 119.
(٢) R.B. Dixon, Building of Cultures, 1928, p. 43.

ضابط النهر ، بصفته الملك ـ المهندس ، وبصفته بطريقة ما « صانع المطر » البعيد (١) .

ولم يكن غريبا بعد ذلك أن العقد الاجتماعى،كما يقول سايس ، كان قائما على الماء : « اعطنى أرضك وجهدك ، أعطك أنا مياهي » (٢) . ومثل هذا العقد لا يمكن أن يتصور أو أن يقوم فى ظل زراعة المطر . ولم يكن غريبا كذلك أن يكون الحكم الفردي المطلق ، الاوتوقراطية العارمة ، هى نظام الفرعونية الطبيعي . ولعله لم يكن من الصدفة بعد ذلك كله أن مصر الفرعونية لم تشتهر بقانون كبير ولم يعرف فيها « منحة قوانين «law - givers من مثل حمورابى أو الرومان

واذا قلنا الاوتوقراطية فقد قلنا ـ أو اقتربنا على الاقل نظريا من ـ جرثومة الطغيان . فمن هذه السلطة المطلقة كنقطة ابتداء يكون الانحراف الى بذرة الطغيان سهلا ، ويكون الخط الفاصل بين الطرفين دقيقا حرجا. وبديهى أن الحكم المطلق ليس مقصورا على البيئة الفيضية ومجتمع النهر الهيدرولوجى ، ولكنه فيهما أيسر منالا وأقرب تحقيقا ، واذا ما تحقق ، أكثر اطلاقا وتسيدا دائما ، ومن ثم فهو أقرب ما يكون الى احتمالات الانحراف الى الطغيان

ولعل الحكم الاوتوقراطى المطلق قد أدى وظيفته فى البداية والى حين ، حيث وضع أسس الحضارة المصرية وأرسى دعائمها . غير انه لم يلبث أن تعدى نفسه الى القهر السياسى والاجتماعى حين أصبح موزع الماء هو مالك الماء ، والحاجز بين الرقاب هو المتحكم فى الرقاب . وفى هذا التحول كانت ملكية الارض بالتحديد هى

(١) ويلسون ، ص ٤٣ : ٥٦ ، ٨٩ ، ٩٠

(٢) E.H. Carrier, Thirsty Earth, 1928, p. 45.

الفيصل . فأدوات الانتاج الاساسية فى العالم الفيضى الزراعى هى فى التحليل الاخير الارض والماء ، فاذا كان الماء دم الحياة فان الارض جسمها ، واذا كانت الارض خامة الزراعة فالماء وقودها

غير أنه لما كان الماء فى يد الحاكم بحكم البيئة الفيضية ، أى كان « مؤمما » بشكل ما ، فقد كان العامل المتغير فى المعادلة هو الارض ، فاما أن توزع بنوع من المساواة بين الجميع واما أن تحتكرها قلة من الاقوياء . وما كان أيسر على من يتحكمون فى الماء باسم المجموع ، ومن ثم يملكون القوة المسبقة ، أن يتحكموا فى الارض أيضا بالامتلاك والاحتكار — تذكر « اعطنى أرضك وجهدك .. الخ » . وبذلك كله تجمعت كل خيوط القوة فى يد فرعون حتى أفسدته السلطة وتحول الحكم المطلق الى طغيان وجبروت وكبت ، وأصبحت الفرعونية هى الاقطاعية ، والملكية (بفتح الميم) هى الملكية (بالكسر)

وذلك بالدقة مفتاح التركيب الاجتماعى فى مصر القديمة . وليس يقصد بالفرعونية فى هذا فرعون وحده بطبيعة الحال ، بل وتلك الشرنقة الكثيفة من الاقطاع والكهان والموظفين من القمة حتى « شيخ البلد » . فكان هيكل المجتمع يتحلل فى عناصره الأولية الى : ملكية أوتوقراطية طاغية ، تعتمد على أعمدة ثلاثة : لاندوقراطية اقطاعية عارمة (ملاك الارض) ، وثيوقراطية اقطاعية هى الاخرى ومتورمة (رجال الدين) ، الى جانب بيروقراطية منتفعة متضخمة ، والكل يقوم على قاعدة عريضة من بروليتارية فلاحة مسحوقة

فأما الملكية الاوتوقراطية فيرى البعض ببساطة أن فرعون كان « أعظم محتكر شهده التاريخ » . وأما حكم الملاك فكان يمارس على المستوى المحلى بانتظام كدعامات

الملكية فى الاقاليم . اما حكم الكهنة فقد وصل الى درجة خطيرة حقا حيث تضخمت طبقة رجال الدين الى كتلة غليظة الحجم وتضخمت ملكية المعابد الى حد شاذ وصل فى أيام رمسيس الثالث فى القرن ١٢ ق. م الى ١٠٧٤٤١٨ فدانا ، ١٦٩ بلدة ، عدا ١٠٣١٧٥ خادما . بل فى تاريخ آخر وصل الى خمس سكان مصر وثلث ارضها الزراعية (١) . وواضح ان رجال الدين كانوا من أكبر المنتفعين بالنظام مثلما كانوا دعاته وعملاءه ومن أكبر ضواغط المحافظة والاستقرار

والخلاصة أن المجتمع كان ينقسم تقليديا الى أقلية تملك ولا تعمل وأغلبية تعمل ولا تملك ، الذين يملكون والذين لا يملكون Haves & Have nots ، او بالأحرى الذين يملكون والذين يملكون . وفى كثير من الحالات تدهورت الفرعونية الى « دولة بوليسية » تحمى الاقطاع وحكم الملاك وتجعل الفلاحين فيه « عبيد الارض » . وليست الاهرام فى رأى البعض الا نصبا تذكاريا هائلا للطغيان (٢) ، وهى لاترمز كما ترمز الى البناء «الهرمى» للمجتمع . وسواء صح هذا أم لم يصح ، فان الفارق بين عظمة وخلود الآثار وبؤس وزوال المساكن العادية فى مصر القديمة ليس الا وظيفة للطغيان الاقطاعى

واذا لم تكن مصر القديمة قد عرفت نظام «الكاست» ، فقد عرفت طبقية صارمة جامدة تضعف فيها الحركة الاجتماعية كثيرا . ومع ذلك فمن المهم أن نقرر أن مصر لم تعرف طوال تاريخها طبقة اقطاعية وراثية كما عرفت أوربا الاقطاعية فى الريف والاقاليم (٣) . ولعل بعض

---

(١) ويلسون ، ص ١٢٣
(٢) محمد فهمى لهيطة ، علم الاقتصاد للمصريين ١٩٣٩ ، ص ٢٦٦
(٣) شارل عيسوى ، ص ٥ ، ١٤٩

السبب فى هذا أن « الملكية الغيابية Absentee Landlordism كانت القاعدة فى مصر ، فلم يكن الملاك يقيمون فى أراضيهم فى الريف ليكونوا شبكة من الطغيان الصغير التى تناظر الطغيان المركزى . كذلك من حسن الحظ أن الطبيعة كانت كثيرا ما تتدخل لتصفى الاقطاع مؤقتا وتفرض عنصرا من المرونة الاجتماعية

فكثيرا ما أثبت النيل الطائش طبيعيا أنه فى الحقيقة النيل النبيل اجتماعيا : فقد كانت المجاعات والاوبئة التى تترتب على جموحه أو جنوحه كثيرا ما يستتبعها اعادة توزيع قومية للثروة تحول الفقراء الى أغنياء . ويضع عبد اللطيف البغدادى أيدينا على هذه الظاهرة التى تواترت كثيرا مع المجاعات الدورية ، فيذكر التفاصيل الغريبة للاغنياء الجدد الذين ظهروا من البروليتارية بعد المجاعات بطريقة غامضة فجائية ، وكيف كان « موتان » الناس بالجملة يترك الثروات والعقارات مهجورة خاوية تبحث عن أى مالك أو محتل أو واضع يد جديد ... الخ (١)

ومع ذلك فقد كان الاقطاع هو القاعدة الاصولية والاستغلال المطلق هو « الامر اليومى » . ولقد كانت السخرة والكرباج والتعذيب من وسائل الارهاب منذ الفراعنة وحتى العثمانيين ، وكانت تتدرج على كل المستويات ابتداء من الحاكم خلال الباشا والعمدة حتى الخفير النظامى (٢) . تلك جميعا كانت طفيليات بشرية قديمة أزمنت فى كيان المجتمع المصرى ، مثلما أزمنت الطفيليات العضوية فى ايكولوجية بيئة الرى . وكما

---

(١) Abdollatiphi Historiae Aegypti, Oxford, 1800, pp. 260 ff.

(٢) A. Moret, Le Nil et la Civilization Egyptienne, 1926.

امتصت هذه الاخيرة دم الفلاح وحيويته ، امتصت تلك منه روحه والمادة

مضاعفات وعوامل مساعدة

وثمة بعد هذا عوامل ساعدت على احكام الطغيان . فالبلد ــ المعمور ــ صغير المساحة صارم الحدود : «عالم متناه » كالزقاق المغلق ، سهل متواضع ليس فيه من معاقل الالتجاء او دروب الهرب ما تعرف البيئات الجبلية أو الصحراوية مثلا . ولا يمكن لهارب او ثائر متمرد ان يبتعد كثيرا عن يد السلطان وقبضته ، الا اذا آثر النفى الذاتى تقريبا الى نهاية العالم فى مستنقعات وبرارى الشمال المنعزلة او مفازات النوبة المهجورة كما فعل المماليك الفارون من محمد على ومذبحة القلعة . وحتى فى الناحية الدينية ، حين حدثت فتنة المذاهب المسيحية أيام الرومان ، لم يكن الاضطهاد الدينى الا صورة متخصصة من قاعدة الطغيان ، ولم يكن من ملجأ الا أطراف الصحراء كما فى الصعيد حيث لم تزل تقوم الأديرة والصوامع المعزولة كذكرى لهذا التاريخ

وعدا الوباء والمجاعة كما سنرى ، فان شيئا لم يستطع أن يقتلع الفلاح ــ تلك الطينة البشرية الموغلة الجذور فى الطينة النيلية ، وذلك القعيد داره Sedentee الا فرط الطغيان والظلم ، كما حدث أيام المماليك ومحمد على حين يسجل المؤرخون هرب الفلاح المصرى الى الشام . ومع ذلك فالهجرة كانت دائما كمهرب من الطغيان أمرا نادرا جدا ، لأن عزلة الوادى الجغرافية داخل شرنقة شاسعة من اشد الصحراوات جفافا وضراوة جعل اقرب المهاجر الممكنة شرقا او غربا ابعد من أن تجعل الهرب بالهجرة مشروعا عمليا واشد ارغاما

للفلاح على البقاء من قوة الطغيان المحلى على الطرد . أى أن العزلة الجغرافية التى حدت من الهجرات الداخلة، حددت أيضا من امكانيات الهجرة الخارجة ؛ مما مكن للطغيان المحلى أن ينفرد بالفلاح من الناحيتين

وقد أكد أثر طبيعة الاقليم العامة عامل آخر داخلى هو نمط السكنى . فالسكنى النووية المجمعة كانت ، كما هو معروف ، قانون البيئة الفيضية بالضرورة . ولم تكن حلة الكومة أو التل من الناحية الاجتماعية الا مجتمع « تل النمل » : مجتمعا يلغى الفردية ويفرض التنميط الجمعى والتعايش السلمى وغريزة القطيع ، ويركز رقابة وسلطة الحاكم مما يجعل السلامة فى الخضوع ، وحول الفلاح الى وحدة ميكانيكية مسحوقة. ومما له مغزاه أن نصوص الاخلاق فى مصر القديمة تلح دائما على كلمة « الصمت » كفضيلة أساسية تتطلبها من الفلاح الفقير ، وهى كلمة يمكن أن نترجمها ــ كما يقول ويلسون ــ « بالهدوء ، السلبية ، السكون ، الخضوع ، المذلة ، والانكسار » (١)

أما الفردية العارمة rugged individualism واستقلال الشخصية ونمو روح المقاومة والتمرد التى يمكن أن تشجع عليها السكنى المبعثرة فى البيئات الجبلية أو الوعرة ، فلم تعرفها مصر ، وحتى العزب التى ظهرت أخيرا جدا منذ قرن ونصف قرن لا تمثل سكنى مبعثرة بمعنى الكلمة (٢) . وهذا كله قد يعنى النظام والوداعة والاستقرار ، ولكنه يمكن أن يكون له ثمنه الباهظ من انعدام روح المبادرة وزمام المبادأة ، فضلا عن روح

(١) ص ١٢٥

(٢) E.Huntington, Character of Races, 1927, p.193; Finch & Trewartha, Elements of Geog., 1942, pp.638-9.

المغامرة ، وينتهى بالفلاح فى النهاية الى جهاز استقبال وخضوع

وطبيعى أن هذه البيئة الاجتماعية كانت كفيلة بأن تفرض نوعا مريضا من « الانتخاب الاجتماعى » ، نوعا يعتبر انتخابا عكسيا لا يكون فيه للعناصر الأبيـة أو المتمسكة بحقوقها أو كرامتها نجاح اجتماعى مرموق ، بل الارجح أن تضاد وتباد ، بينما تفره العناصر الرخوة أو السلسة المنقادة أو الهلاميات الاخلاقية . ولهذا فان الصفات والمزايا الاخلاقية التى يجدر بالبيئة الفيضية أن تعلمها — وعلمتها بالفعل حينا — لم تلبث أن انحرفت تحت البطش والطغيـان الاقطـاعى وفى ظل انتخـابه الاجتماعى المعوج الى نقائضها . فالنظام والقانون أصبحا جبنا واستكانة ووشاية أو سلبية ، وروح التعاون التى تربط السكان أصلا ضد «العنصر» تحولت الىالمحسوبية والمحاباة كما انقلبت الى الأخـذ بالثـأر ، وأما المزاج الانطلاقى Extravert الذى غذته بيئة القرية النووية فتدهور الى تزلف ورياء وسعى لدى السلطان ، وكذلك الى روح السخرية المريرة المشهورة

ولقد اسهب المؤرخون العرب فى سرد هذه الخصائص بما لا يدع مجالا للشك فى جديتها . فكانت العرب تقول بأسلوب العصر : « قال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنا معك ، وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة وأنا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك» (١) . والمقريزى يذكر من بين الصفات التى تغلب على أخلاقهم — المصريين — « الدعة والجبن وسرعة الخوف والنميمة والسعى الى السلطان . . » . ويقول « ولهم خبرة بالكيد والمكر وفيهم بالفطرة قوة

(١) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ج ١ ص٧٩ — ٨٠

عليه وتلطف فيه » حتى صاروا مضرب المثل فيه بين الأمم (١) . وقد كان نابليون يكرر دائما انه لو كانت كل جيوشه كالمصريين ، لملك العالم ، يعنى أنهم يفعلون ما يؤمرون . وقد مكن كل هذا بدوره لمزيد من الاسراف فى الطغيان على كل المستويات دون رادع

وقد أدى هذا كله الى أن أصبح الفلاح مغلوبا على أمره يائسا — اذا استعرنا ثلاثية فلير المشهورة — من « الحياة » نفسها ، ومحروما من امل «الحياة الجيدة» ، ولهذا كان متنفسه الوحيد هو « الحياة الجديدة » : انتاج الأبناء . وكان لهذا نتائجه التى أكدت مرة أخرى فرص الطغيان . فمن ناحية بحث الفلاح عن التعويض عن الحياة فى الحياة الاخرى ، فكان الدين ملجأه ومهربه . ويضغط هيرودوت فى هذا الصدد بصورة غير عادية على شدة تدين المصرى القديم . ومن ناحية أخرى كانت الحياة الجديدة تعويضا عن الحياة الجيدة ، وهذا فى ذاته كان من عوامل ارتفاع الخصوبة البيولوجية وضغط السكان المزمن فى مصر

والواقع أن شيئا لم يبز خصوبة التربة المصرية سوى خصوبة السكان البيولوجية ، وما قاله المؤرخون العرب فى العصور الوسطى فى هذا الصدد لا يختلف كثيرا عما يقوله كتاب اليوم . فالمقريزى يكتب فى القرن الرابع عشر « ورجالهم يتخذون نساء عديدة ، وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال ، وهم منهمكون فى الجماع ، ورجالهم كثيرو النسل ونساؤهم سريعات الحمل . . . » (٢) . هذا بينما يقول كاتب أوربى معاصر ساخر « ان لعبة الجنس

---

(١) الخطط ، ج ١ ص ٧١ ، ٧٨ ، ٨٠

(٢) السابق ، ص ٧٧

هى الرياضة الوطنية » (١)

والمهم أن هذا الافراط البيولوجى أدى الى شدة انخفاض المنفعة الحدية للانسان واتضاعه وهوانه على الحكام وزاد من فرص الطغيان والاستبداد . وقد كان الحكام يرحبون دائما بهذا الافراط البيولوجى والديموغرافى لانه يزيد من قبضتهم وتسلطهم . ويعبر اميل لودفيج عن هذا بصيغة الكثافة ــ كثافة السكان ــ فيقول « هذه الكثافة التى حتى منذ آلاف السنين كانت تتناسب مع مجموع السكان ، كان لا يمكن الا أن تخلق قوما اما اجتماعيين للغاية أو غير اجتماعيين على الاطلاق . وقد قرر النيل الاحتمال الأول » (٢) وقد كان «الفلاح» بكل صفاته الموجبة والسالبة هو النتج النهائى بل الفتات النهائى لعملية الاختيار الاجتماعى الطاحنة الطويلة هذه ، حتى أصبح عند شبنجلر « نمطا » اجتماعيا بذاته هو « نمط الفلاح «Typus des Fellachen» » (٣)

ترجمة حديثة

واذا نحن تركنا التاريخ البعيد الى التاريخ القريب ، فستتضح لنا نفس الملامح الاجتماعية بصورة أو بأخرى . فمنذ محمد على ــ وهو علم حديث على الاوتوقراطية المطلقة ــ وهذه الملامح تتكرر من جديد ، كأنما التاريخ يعيد نفسه حقا . فكما وضع الفراعنة نظام الرى الحوضى بجهد الفلاحين ، اصطنع محمد على نظام الرى الدائم بتسخير الملايين على مدار السنين فى شق الترع وتطهيرها

---

(١) William Vogt, Road to Survival, 1949, pp.251-2.

(٢) E. Ludwig, The Nile. Life-History of a River, Lond., 1936, vol.II, p.21.

(٣) O. Spengler, Der Untergang des Abendeslandes, München, 1927, vol.II, p. 125.

وتعميقها وبناء القناطر والجسور ومواجهة الفيضانات العالية واستصلاح البرارى ، كل أولئك بالسخرة غالبا وتحت الكرباج دائما . وكما كان فرعون مالك الارض ، اعلن محمد على نفسه المالك الوحيد وصادر ملكية الفلاح تاركا له حق الانتفاع وحسب . لقد تحولت الملكية الى الملكية ، وتحول المحتكر الوحيد الى صورة كالحة من راسمالية الدولة . غير انها لم تلبث فى الواقع أن تحولت وارتدت بالفعل الى اقطاعية عاتية حين أقطع الابعاديات والرزق والشفالك والوسايا لأسرته فى الدرجة الاولى ولعملائه فى المحل الثانى

والقصة بعد محمد على وحتى ثورة يوليو لا تخرج عن تدعيم الهيكل الاقطاعى وتأكيده باطراد ، مع دخول الاستعمار الاجنبى طرفا فى المعادلة ، ثم هى لا تخرج فى النهاية عن تطعيمه برأسمالية نامية. وفى مرحلة اكتماله، كان بناء النظام يتلخص فى الاوتوقراطية بقهرها الطبقى والطغيان السياسى ، تقوم على ساقين من اللاندوقراطية الاقطاعية الثقيلة و «البنكوقراطية» الراسمالية البازغة . وهذا يكرر هيكل البناء الفرعونى فيما عدا أن ثيوقراطية المعابد والكهنة قد أعطت اليوم مكانها لبنكوقراطية المال والصناعة ..

ونحن نستطيع أن نختزل جوهر النظام فى هرم توزيع الملكية الزراعية . فالمقدر بصورة تقريبية عامة أن من بين الملايين الخمسة أو الستة من الافدنة التى كانت تمثل رقعة مصر الزراعية ، كان نحو المليون للأسرة المالكة ، ونحو مليون آخر لطبقة الاقطاع ، ومثله للاستعمار ولطفيليات الاستعمار ممثلا فى الملكيات الاجنبية من أفراد وشركات عقار واستصلاح ، بينما لم يكن لكتلة الشعب الا البقية الباقية. وبصيغة أخرى ، قدر أن نصفا فى المائة

من مجموع السكان كان يملك نصف الدخل القومى . وحول هذه النواة النووية كانت تتراتب حلقات وطبقات المجتمع حتى تصل الى أوسع واعرض قاعدة من المعوزين والمعدمين ، حتى أصبحت مصر رمزا حيا للاقطاعية المتحجرة الطاغية . أو كما قال هيندس ، « ان مصر عشية اصلاحها الزراعى كانت اجتماعيا أكثر تأخرا من فرنسا عشية الثورة » (١)

والجدول الآتى يلخص توزيع ملكية الارض الزراعية فى مصر ١٩٥٢ فى نهاية عصر الاقطاع . وسنرى منه أن نحو ٩٤ ٪ من الملاك كان يتقاسم ٣٥ر٤ ٪ أو نحو ثلث الارض ، بينما كان ثلثا الارض (٦٤ر٤ ٪) حكرا لنحو ٦ ٪ من الملاك ، من هؤلاء نحو ٣ر٠ ٪ أى ٣ فى الالف يبتلعون وحدهم أكثر من ثلث الارض (٣٤ر١ ٪)

فئة الملكية	عدد الملاك بالالف	٪	المساحة المملوكة بالالف	٪
— ٥	٢٦٤٢	٩٤ر٣	٢١٢٢	٣٥ر٤
٥ — ١٠	٧٩	٢ر٨	٥٢٦	٨ر٨
١٠ — ٥٠	٦٩	٢ر٤	١٢٩١	٢١ر٥
٥٠ — ١٠٠	٦	٠ر٢	٤٢٩	٧ر٢
١٠٠ — ٢٠٠	٣	٠ر١	٤٣٧	٧ر٣
+ ٢٠٠	٢	٠ر٠٧	١١٧٧	١٩ر٦
المجموع	٢٨٠١	١٠٠ر٠	٥٩٨٢	١٠٠ر٠

حتم بشرى لا جغرافى

تلك اذن فى أبعادها القديمة والحديثة صورة مجتمعنا الفيضى بنقطها المضيئة والمظلمة . وعلينا الان أن نتساءل:

(١) Hindus, p. 130.

هل هذه الملامح تشكل « الطابع القومى » المصرى حقا ؟ وهل هى قدر غاشم مكتوب سطرته بيئة طبيعية عمياء وأملته على أبنائها ؟ هل حقا ما يلمع اليه البعض أحيانا من أن خير ما فى مصر جغرافيتها الطبيعية وشر ما فيها جغرافيتها البشرية ؟ — يقصدون بذلك روعة نيلها وخصبها ومناخها من ناحية ولوعة مجتمعها وبؤس فلاحها وهوانه من ناحية أخرى ؟

من المحقق علميا أن الطوابع القومية فكرة مؤقتة متطورة ، ليست موروثة ولكنها مكتسبة ، وقد تتأرجح بين شعب واحد من النقيض الى النقيض فى بضعة عقود — هذا ان لم تكن فكرة شخصية بدرجة أو بأخرى . وأما قدرية الحتم الجغرافى فبريئة هنا تماما من هذه السوالب والشوائب الاخلاقية التى نالت الشخصية المصرية ونالت منها فى بعض الاحيان والحالات . يقول سترابون : « لو أنك ناقشت القضاء والقدر ، فستجد أشياء كثيرة فى شئون الناس والطبيعة قد تفترض انها قد يمكن أن تؤدى أداء أفضل بهذه الطريقة أو تلك ، مثلا لو أن مصر تكون لها كفايتها من المطر بنفسها دون أن تروى من أرض اثيوبيا » (١) ومع ذلك فمن الانصاف أيضا أن نضيف الى قول سترابون أن زراعة الرى هى التى علمت مصر الحضارة والنظام والقانون ، هى التى فجرت التاريخ والحضارة فى مصر دون سواها لأول مرة ، وهى التى وحدتها مبكرا ومنحتها النظام والقوة التى خلقت بها أول امبراطورية فى التاريخ

ولهذا يعود السؤال : هل حقا كان الطغيان والاستبداد وظيفة طبيعية للنهر ، وهل يمكن أن يكون ذلك صحيحا ؟ هنا تتبلور لنا متناقضة فذة فى وجودنا التاريخى

---

(١) Strabo, Book IV, p. 12.

والاجتماعى . فلا شك أن البيئة الفيضية تحتم قيام حكم قوى فعال وتنظيم سياسى مؤثر . ولكن ما معنى هذا ؟ ببساطة أن النظام النهرى وايكولوجية النيل تؤهل بطبعها وتلقائيا لعنصر كامن أصيل وبعيد المدى من الاشتراكية . نعم ، الاشتراكية ، والاشتراكية التعاونية بالدقة !

فالماء ، عصب الحياة وأهم أدوات الانتاج ، مؤمم بالضرورة والتعريف ، الدولة هى التى تملكه باسم الناس وهى التى تقوم بتوزيعه — ببيعه — على الناس كل بحسب حاجته أى كل بحسب مساحة أرضه . أما التعاونية فلأن مواجهة أخطار النهر وذبذباته الجامحة ، وبناء القرى المجمعة ، ونظام الحياة اليومية فى القرية من تنظيم للمياه والدورة الزراعية ... الخ ، كل أولئك لا يمكن الا أن يتم كعمل جماعى منسق يقوم على التعاون . وقد زاد هذا الدور خطورة وأهمية بعد الرى الدائم ومشاريعه وسدوده وقنواته ومصارفه ، وبعد أن أصبحت مصر الزراعية كلها وحدة ادارية واحدة تديرها وزارة الزراعة

لهذا ولمثله لم تكن دورين وارينر تبالغ حين رأت بذرة الاشتراكية كامنة فى تربة الزراعة المصرية وحين وجدت جنينها يعيش — وان يكن مجهضا — فى رحم الاقطاعية اللاندوقراطية . فكما تقول فى جملة عابرة ولكنها معبرة عن مصر ما قبل الثورة « من حيث تنظيم الانتاج ، تعتبر مصر بالفعل مزرعة ادارية ضخمة ، تقوم فيها مصلحة الرى بمراقبة كمية الماء الموزعة ومعها مساحات المحاصيل . وللحكومة رقابة على الزراعة ، على أساس من التخطيط ، اكبر بكثير جدا مما لأعظم واشد الحكومات

اشتراكية فى العالم » (١)

وفى تركيب القرية نفسها وسيكولوجيتها وزراعتها قدر كبير متوطن من التعاونية والاشتراكية التلقائية . وقد كان من الممكن أن يجنح هذا كله الى لون من اشتراكية الدولة ، ولكن طغيان الحكم المطلق انحرف به الى اقطاع الارض ، بل والى رأسمالية الدولة كما فعل محمد على حين صادر كل الملكية لنفسه كخطة أو خطوة تمهيدية لأن يصفيها بعد ذلك الى اقطاع أسرى بعينه

الانتهاء العلمى الموضوعى اذن واضح بكل جلاء ولا يترك مجالا لتأويل : ان البيئة الفيضية انما تمهد نظريا للاشتراكية . ليست الجغرافيا الطبيعية (البيئة الفيضية) اذن ، ولكنها الجغرافيا السياسية (الطغيان الاقطاعى) هى التى شوهت وحرفت الطابع القومى الى حين . لا وليس الطغيان الاقطاعى نفسه من عمل البيئة ، فالنيل لم يفرض العبودية السياسية على مصر ولكن الاقطاع اتخذه عذرا وحجة لها . ولا بد أن نعترف أن فى الايكولوجيا الاجتماعية للنيل ، كما عرضناها آنفا من وجهة النظر التى تلقى باللوم على النهر ، شيئا كثيرا من الصحة فى تشخيص الاعراض والامراض ، ولكن فيها أيضا شيئا أكثر من المغالطة والخطأ فى تعليلها وتفسيرها

وقد يفيد هنا أن نورد ردا مبكرا على النظرية الفجة التى سادت منذ القرن الماضى والتى تود أن تحمل النيل وزر الطغيان الاقطاعى . فنجد بارتلمى سانت هيلير يقول « منذ الفراعنة كتبت على سكان مصر العبودية السياسية ، وانى أبعد ما أكون عن القول بأن النيل هو السبب الوحيد لهذا الوضع المحزن ، وانى لمدرك أن ثمة

(١) Doreen Warriner, Land & Poverty in Middle East, 1948, p.48.

كثيرا من الناس أكثر عبودية وبؤسا دون أن يكون لديهم نيل . كل ما أود أن أقول هو أن النظام الطبيعى لهذا النهر العظيم كان فى مصر أحد أسباب الطغيان ، لقد وجد الطغيان فيه نوعا من الضرورة ، وكذلك حجة وذريعة خاصة » (١)

ورغم ندرة الثورات والانقلابات الشعبية وغلبة طابع الاستقرار الجمودى الذى فرضه الكبت والطغيان ، فان التاريخ من جانبه لا يعدم أن يسجل انتفاضات عدة على الطغيان ، لعل أهمها ثورة ايبور فى الدولة القديمة ، ولكنها انتكست كما انتكست فيما بعد حركات تحررية وثورات على الظلم والاستبداد . وفى القرن الاخير كانت التطورات الحديثة والحضارة المعاصرة عوامل مذيبة بطبيعتها للرواسب القديمة ، ولهذا تكاثرت الانتفاضات التى نجح آخرها ــ ثورة يوليو ، التى تمثل فى الحقيقة النقيض المضاد للانقلاب الذى بدأ مع محمد على ــ نجاحا وصل الى تحقيق الشخصية الكامنة للبيئة الفيضية وهى الاشتراكية العميقة التى توزع الارض كما توزع الماء ، وتدعو الى كرامة الفرد وكرامة المجتمع معا . ولعله ليس من الصدفة أن شعار الثورة كان يدور أبدا حول العزة والكرامة ، وكانت دعوته التقليدية أن « ارفع رأسك فقد مضى عهد الاستعباد »

ولهذا فنحن فى الحقيقة لم نكن بازاء حتم طبيعى بقدر ما كنا ازاء « حتم بشرى » ، حتم الطغيان والاستبداد . ومن الثابت الآن عند كثير من الجغرافيين أن الحتم الجغرافى ــ على علاته الفلسفية ــ كان كبش فداء برىء وقناعا كاذبا ما أكثر ما اتخذه الاقطاع فى الداخل ليبرر

---

(١) B. Saint-Hilaire, Lettres sur l'Egypte, Paris 1857, p. 191.

نفسه مثلما اتخذه الاستعمار من الخارج ليبرر كثيرا من دعاويه الاحتكارية أو الابتزازية . ولهذا فنحن نلخص شخصية مصر السياسية فى أن النيل بطبعه يدعو الى الاشتراكية والمجتمع التعاونى ، ولكن الاقطاع الطبقى والطغيان الاوتوقراطى هو وحده انحرافة بشرية لا طبيعية ـ وان طالت وأزمنت

ان مصر ليست « أرض الطغيان » كما يتوهم البعض، وان كان هذا قد طغى على أجزاء من تاريخها بعض الوقت . لا ، وليست « أرض النفاق » هى ، وان كانت حدثت بعض انحرافات اجتماعية عابرة . وليست وداعة الفلاح وصبره ضعة واستكانة ، كما أن نظامه وطاعته ليست خوفا وطمعا ، وانما هى جميعا خامة الحضارة والتقدم نشأها النيل ولكن شوهها الاقطاع . وقد بقى النيل وزال الاقطاع

وهنا لا بد من وقفة مركزة عند هذه الثورة التى أزالت الاقطاع والتى تعكس جوهر مصر الاصيل لا من حيث حقيقة بيئتها الفيضية فحسب بل ومن حيث دورها ومكانها فى العالم . فاذا عدت الثورات الكبرى التى غيرت وجه عالمنا الحديث كانت بلا شك ثلاث : الفرنسية والروسية وهذه المصرية . لكن لهذه شخصيتها المتفردة تاريخيا واجتماعيا . فالاولى كانت ثورة البورجوازية ضد الاقطاع ، ولكنها ظلت طبقية رأسمالية وتأخذ بالديموقراطية التقليدية الشكلية والملكية الفردية المطلقة . أما الثانية فأتت بمثابة ثورة على الاولى : ثورة البرولتاريا ضد البورجوازية ، وهى اذا كانت لا طبقية ، فانها أخذت بديكتاتورية الطبقة العاملة ونزعت الملكية الفردية لتفرض الشيوعية المطلقة

أما الثورة المصرية فكانت تاريخيا بمثابة ثورة بدورها

على هذه الثورة الاخيرة بصورة مباشرة أو على الاثنتين السابقتين بصورة غير مباشرة . فهى ثورة كل فئات الشعب العاملة ـ لا فئة واحدة ـ ضد كل من الاقطاع والبورجوازية على حد سواء لا على حدة . وهى لا طبقية تذيب الفروق بين الطبقات ولكنها لا تفرض ـ كالثانية ـ ديكتاتورية أى طبقة ، وتأخذ بالديموقراطية الثورية لا التقليدية كالاولى. وهى بعكس الاولى نفى للرأسمالية، ولكنها بعكس الثانية لا تنكر الملكية الفردية بل توسعها بعد أن تهذبها

بمزيد من الاختصار : من حيث الشكل : الثورة المصرية كحدث تاريخى أتت ثورة بيضاء أو قل خضراء بلون الوادى ، بعكس الثورتين الأخريين . من حيث الموضوع : أتت الثورة المصرية ثورة الاشتراكية بالمعنى الدقيق ، حيث كانت الفرنسية ثورة الرأسمالية والروسية ثورة الشيوعية . وشكلا وموضوعا : اذا كانت الفرنسية هى « التقرير » ، والشيوعية هى «النقيض» ، وكان كل منهما يجنح الى التطرف الى أقصى اليمين أو اليسار ، فان الثورة المصرية هى بحق « التركيب » الذى يجمع بين محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما ، ولا تعرف التطرف بل تقف فى الوسط . فشكلا وموضوعا اذن ، الثورة المصرية نبت بيئى أصيل يعبر عن طبيعة المركب الفيضى من تعاونية كامنة واعتدال الحد الاوسط وسلمية المجتمع المائى

والجدول الآتى يلخص الانقلاب الذى أحدثته وتحدثه الثورة الاشتراكية فى توزيع الملكية الزراعية ، حيث يعطى التوزيع كما سيكون بعد اتمام تنفيذ قرارات يوليو عام ١٩٦١ . ومنه نرى ان نفس سفح هرم الملاك (٩٤ ٪) الذى كان يملك قبل الثورة ثلث الارض سيملك الآن

نصفها ، وان قمة الهرم القديمة (٥ ٪) التى كانت تملك ثلثى الارض ستملك الآن نصفها فقط . وبهذا سوف يكون قد انتقل نحو ١٣ ٪ من الارض الي نحو ربع مليون أسرة جديدة تضم أكثر من مليون نسمة

فئة الملكية	عدد الملاك بالالف	٪	المساحة المملوكة بالالف	٪
— ٥	٢٩٢٠	٩٤ر٧	٣٠٤٠	٥٠ر٦
٥ — ١٠	٧٩	٢ر٥	٥٣٠	٨ر٨
١٠ — ٥٠	٦٩	٢ر٢	١٣٠٠	٢١ر٦
٥٠ — ١٠٠	١١	٠ر٣	٦٣٠	١٠ر٥
١٠٠ — ٢٠٠	٥	٠ر١	٥٠٠	٨ر٣
٢٠٠ +	—	—	—	—
المجموع	٣٠٨٤	١٠٠ر٠	٦٠٠٠	١٠٠ر٠

الفصل الثالث

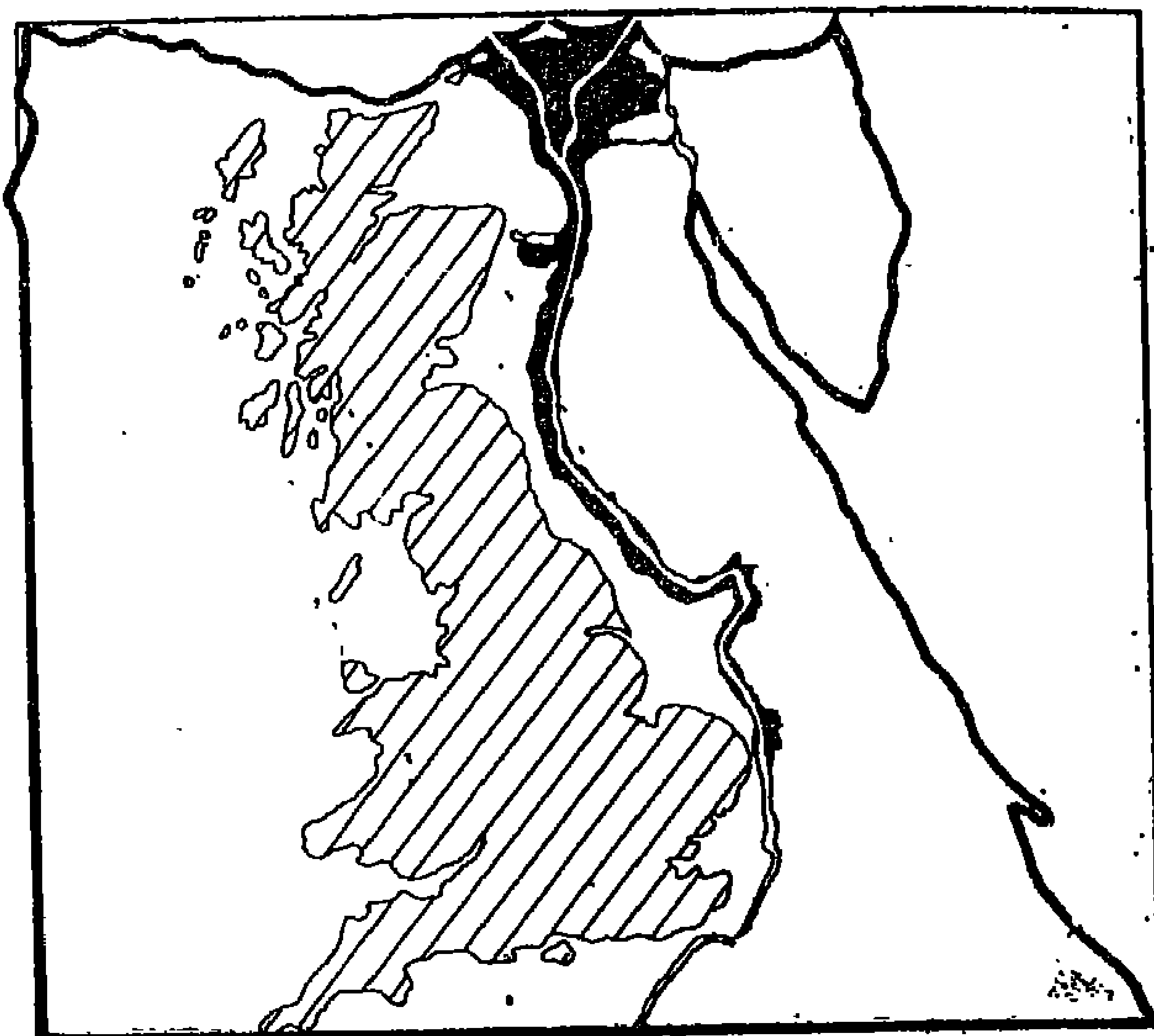
مركزية رغم الامتداد

المركزية الجغرافية

لعل من أبرز ملامح الشخصية المصرية ، المركزية الصارخة طبيعيا واداريا . وهى صفة متوطنة لأنها قديمة قدم الاهرام ، مزمنة حتى اليوم (١) . وترقد الطبيعة بوضوح خلف هذه الظاهرة ، فنحن ابتداء ازاء مركزية مورفولوجية أى تركيبية صريحة . فتبلور الوادى الضئيل داخل شرنقة الصحراء الشاسعة ، وتجسمه حول النيل ، يجعله جسما ملموما ونسيجا ضاما .. وصحيح ان فى الدلتا انفراجا ، وتشععا ، وتشعبا ، وفى الصعيد امتدادا خطيا لايستهان به . فالصعيد وحده يترامى بتعرجاته نحو ١٠٠٠ كم ، بينما تغطى مصر من الشمال الى الجنوب ١٠ درجات عرضية ، أى نحو طول الجزر البريطانية ، ولكن دون أن تتعدى شريحة من مساحتها . ولقد سبق أن عبرنا عن هذا بأن مصر مسافة لا مساحة . وليس هذا النمط المفرط فى الاستطالة مع الضيق بالنمط الاقتصادى من حيث المواصلات أو الانتاج أو الادارة ، بل انه — ابتداء — قضى على الاطراف المتطوحة فى أقصى الجنوب بالاهمال

(١) Stamp, Africa, p. 208.

والتخلف .. ومع ذلك فان التجانس الداخلى العام مع التباين الصارم مع الصحراء المحيطة يعود فيؤكد وحدة المجموع الطبيعية كشبه واحة أو كشبه جزيرة فى الصحراء



(شكل ١) : مصر وبريطانيا : مقارنة فى المساحة والامتداد

واذا نحن تناولنا الدلتا على حدة فلن نجد لها بسهولة قلبا او بؤرة حاسمة. فاذا كان بها حزمة خطوط طبيعية ضابطة على المحور الشمالى الجنوبى تقريبا ، ونعنى بذلك فروع الدلتا وترعها ، فهى تعدم أى محاور طبيعية عرضية بين الشرق والغرب تتعامد عليها وتخلق فيما بينها عقدية طبيعية فعالة . بل ان من الحقائق المعروفة تاريخيا وحتى يومنا هذا صعوبة الحركة والمواصلات عبر الدلتا بالعرض ، وكثيرا ما تدور الطرق حولها

بعيدا عن قلبها اما نحو الساحل شمالا أو نحو رأسها جنوبا ، وذلك منذ أيام النقل بالدواب حتى عصر السكك الحديدية والسيارة

ونتيجة لهذا وتعبيرا عنه نجد باستمرار أن أهم مدن الدلتا وأكبرها حجما انما تنتشر على سواحلها البحرية أو أطرافها الصحراوية وليس فى قلبها الزراعى الفنى ، سواء ذلك أيام تنيس وبلبيس ودمياط ورشيد الاسلامية أو الاسكندرية وبورسعيد ومدن القنال المعاصرة . واليوم لا تزيد طنطا عن مدينة متوسطة الحجم ، وهى رغم ما تتمتع به من توسط هندسي مؤكد ، الا أن العقدية الطبيعية تنقصها وقصارى مالها الآن من عقدية هى عقدية اصطناعية مكتسبة من فعل شبكة المواصلات الحديدية . والخلاصة أنه اذا كان للدلتا بؤرة أو عقدة حقيقية فهى انما تستقطب فى رأسها ، أى خارجها ، أى انها تمنح غيرها العقدية اكثر مما تحتفظ بها لنفسها

ومثل هذا يفعل الصعيد . فاذا نحن اعتبرنا الصعيد على حدة فسيتضح على الفور افتقاره الكامل الى قلب طبيعى سائد بأى درجة . فامتداده الخطى كالشق الممدود أو الانبوب المغلق يجعله طولا بلا عرض ، ويجعل محور الحركة والتوجيه فيه وحيدا لا يكاد يترك لنقطة فيه فضلا أو امتيازا على نقطة أخرى الا أن يكون مجرد التوسط الهندسى البحت . واذا كان ثمة تقاطعات لطرق محلية مع الصعيد كطريق قنا ــ القصير أو درب الاربعين ، فدورها ثانوى للغاية لايخلق عقدية بأى معنى

وينعكس هذا بالتالى على أحجام المدن باعتبارها قمم اللاندسكيب الحضارى . ففى كل الاقاليم الشريطية الضيقة ، نجد أن أثقال المدن تتوزع على طولها وعلى قطاعاتها فى تقارب وتكافؤ نسبى ، حتى لا تكاد واحدة

منها تظهر على الاخريات بوضوح ، فضلا عن اى سيادة. ذلك نمط تعرفه جيدا مدن الساحل الجزائرى كما تعرفه مدن ايطاليا ، وهو بالدقة ما نجده فى الصعيد . فهنا نجد أهم أحجام المدن الرئيسية متقاربة متواضعة باهتة التضاريس ليس فيها علم بارز . وحتى قريب لم يكن الصعيد كله يملك مدينة واحدة مائة ألفية ، ولم تتجاوز أسيوط هذه العلامة الا مؤخرا . ولهذا لم يكن غريبا أن يوصف الصعيد ، الذى يتكدس فيه السكان بكثافة أشد من كثافة الدلتا ، بأنه قد يكون شارعا رئيسيا مكتظا من حيث السكان ، ولكنه يظل مجرد زقاق مغلق من حيث المدن .

هكذا اذن ، اذا كان كل من الوادى والدلتا على حدة تنقصه البؤرية والمركزية المحددة ، فانهما فيما بينهما يخلقان مركزية حادة عند التقائهما فى منطقة القاهرة . فالواقع أن منطقة القاهرة هى « خاصرة الوادى » بكل معنى . فمدا العقدية الهيدرولوجية الاساسية التى تأخذ ــ مع انفراج فرعى الدلتا ــ شكل حرف Y. الافرنجى ، هناك عدة أصابع ثانوية من اللاندسكيب الطبيعى تشير اليها بقوة : لسان وادى الطميلات من الشرق ، ووصلة شبه واحة الفيوم من الغرب

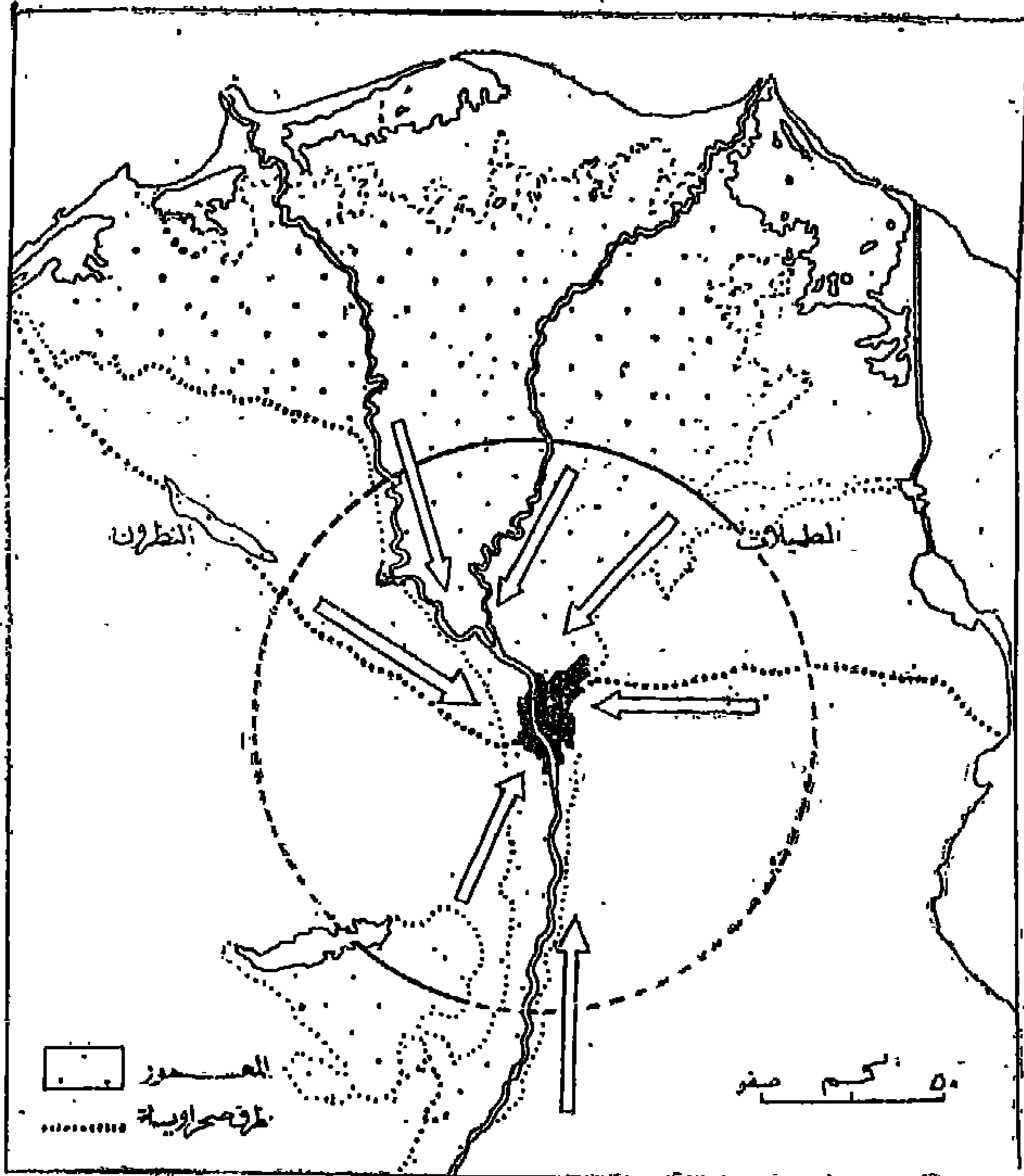
فاذا أضفنا أن الطرق الصحراوية بين الشرق والغرب على طول السواحل الشمالية تنثنى جنوبا مستهدفة القاهرة لتتحاشى صعوبة اختراق الدلتا بشبكة ترعها المتراصة (١) (تماما كما تتحاشى طرق المواصلات البعيدة المدى كل مناقع وأهوار الجنوب الرخوة فى العراق مستهدفة أول أرض صلبة عند منطقة بغداد) (٢) .

(١) Benjamin Thomas, loc. cit., p. 414

(٢) Fisher, p. 367.

اذا أضفنا هذا فان القاهرة تبرز لنا «كخاصرة الصحراء» أيضا مثلما هي خاصرة الوادي ان كل الطرق تؤدي الى القاهرة!

منطقة القاهرة اذن عنق الزجاجة ، عنق مصر . هي من الناحية الهندسية البحتة مركز الثقـــل الطبيعي ، ومن الناحية الميكانيكية نقطـــة الارتكاز التي يستقطب حولها ذراعا القوة والمقاومة من شمال وجنوب ، ومن



(شكل ٢) مركز العاصمة : كل الطرق تؤدى الى القاهـرة : الدائرة ونصف قطرها ٧٥ كم تضم + ربع سكان مصر في ثمن مساحتها

الناحية الحيوية نقطة التبلور ، ومن الناحية الوظيفية ضابط الايقاع بين كفتى مصر . انها تبدو ــ كما قال ريكلى ــ كما لو كانت موقعا من اختيار الآلهة (١)

هـذا من حيث الشكل . ولكن المضمون لا يقل عن شكل الاقليم أثرا فى التوجيه نحو المركزية . فقد لايكون موقع القاهرة متوسطا من حيث المسافة المطلقة بين الشمال والجنوب ، ولكنه متوسط تماما من حيث وزن المعمور الفعال . فالصعيد أضعاف الدلتا طولا ، ولكن الدلتا ضعف مساحته ، بينما يتقارب الاثنان سكانا بدرجة أو بأخرى . فقد كان بالدلتا فى عام ١٩٦٠ نحو ١٠ر٩ مليون مقابل ٢ر٩ للصعيد . وفى عام ١٩٦٦ كان بالدلتا نحو ٠٠٠ر٧٢٦ر١٤ نسمة وبالصعيد ٠٠٠ر٣٠٧ر١٠ ، وذلك على أساس أن هذه المقارنات تستبعد القاهرة من أى من الوجهين .

والى جانب هذا فان نمط الكثافة وتوزيع السكان فى مصر يجعل من القاهرة قمة طبيعية وتتويجا لزحف سكانى صاعد نظيم يبدأ من اقصى شمال الدلتا وأقصى جنوب الصعيد على السواء. فبروفيل الكثافة فى الوادى برمته أشبه شيء بالهرم المدرج ، سقفه منطقة القاهرة . والواقع أن دائرة نصف قطرها ٧٥كم ومركزها القاهرة ، تضم وحدها ربع مجموع سكان القطر فى ثمن مساحته فقط ، أى بكثافة ضعف المعدل القومى ، وذلك بحسب أرقام عام ١٩٤٧ ، بينما تشى أرقام عام ١٩٦٦ بمزيد من التركز : فنفس الدائرة تضم الآن ٣ر٢٨ ٪ من سكان مصر

ومعنى هذا ان هنا مركز الثقل البشرى فى الوادى ، هنا « النواة النووية » للدولة . ولهذا كان طبيعيا أن

(1) M. Clerget, Le Caire. Etude de Geog. urbaine, 1934. t. I.

توصف القاهرة بأنها « زر ماسي يمسك مروحة الدلتا ويد الصعيد » (١) ، أو كما يقول ستامب « من وجهة نظر مصر الحديثة ، ربما كانت القاهرة أكثر عواصم العالم منطقا فى توقيعها » (٢)

وليس أدل على هذه المركزية من البعد التاريخى . فلم تكن طيبة فى الجنوب عاصمة وطنية الا لفترة ريادية قصيرة ، وبالمثل كانت تانيس فىشرق الدلتا تجربة عابرة مرتبطة ببعض مراحل التوسع المصرى فى الشرقالاوسط وحاجتها الى رأس جسر متقدم (٣) . اما الاسكندرية فلم تكن عاصمة الا كانحرافة استعمارية لقوة بحرية موقوتة بل انها كثيرا ما عدت مدينة أجنبية النشأة والسكان ألصقت بالساحل المصرى . وفيما عدا هذا فمنطقة رأس الدلتا ، سواء منذ منف أو طينة ، أو هيليوبوليس أو أون ، ثم الفسطاط او القاهرة ، هى العاصمة الطبيعية لمصر طوال تاريخها الالفى

بل ربما كانت القاهرة أو بالاصح منطقتها أقدم عاصمة فى العالم ، وان كان لدمشق أن تفخر بأنها أقدم عاصمة احتلت بغير انقطاع فى التاريخ . وها هنا اذن ــ كما فى بغداد عند خاصرة الرافدين ــ واحد من تلك المواقع الجغرافية الخالدة النادرة التى قد تدور فى فلكها واطارها مجموعة متعاقبة عبر العصور منالمواضع المدنية المختلفة ولكنها لا تستطيع أن تخرج عنمجالها المغنطيسى ومن أسر جاذبيتها الطبيعية الغلابة . وهذا جميعا بفعل المركزية الجغرافية القوية

---

(١) Lozach, op. cit. (٢) Stamp, Africa, p. 213.

(٣) حزين ، « البيئة والموقع ... الخ » ، ص ٤٤٩ ، عبد الفتاح وهيبة ، دراسات فى جغرافية مصر التاريخية ، الاسكندرية ١٩٦٢ ، ص ١٣٧

المركزية الوظيفية : البيروقراطية

غير أن الى جانب الشكل والمضمون تركيبيا ، هنـــاك عامـــل هام يدعو الى مزيد من المركزية وهو العـــامل الوظيفي . فالبيئة كما رأينا فيضية ، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي ، ولهذا أصـــبح الرى مرادفا للتنظيم ، والتنظيم المركزى ، الذى يخضع فيـــه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة . ولئن كان هـــذا من أقوى عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة فى مصر ، كما أنه علم الشعب النظام أساس الحضارة ، الا أن هذا أيضا بدأ دور الحكومة الطـــاغى وارسى نواة الموظفين الثقـــيلة Officialdom ، وأصبحت البيروقراطيـــة المركزية عنصرا أصيلا فى مركب الحضارة المصرية ، بل ثقلا عنيدا فى موكبها . أصبحت مصر مجتمعا « حكوميا » كما قد نقول ، فالحكومة وحدها هى التى تملك زمام المبـــادرة وامكانيات العمل . وقد كان لهذا قيمته فى بعض المراحل والمشاكل، ولكنه خلق فىجميعها روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية فىالسكان

والذى يتعمق تاريخ مصر الاجتماعى ستروعه ولاشك تلك البيروقراطية العاتية التى تمتـــد على طوله بغير انقطاع ، حتى لتشكل نغمة دالة عليه وملمحا أساسيـــا آخر من ملامحه . فالبيروقراطية فى مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الاهرام تبدأ ، وفيها تتلخص. ويكفى بعدها أن نرى صور «كبار الموظفين» على النقوش والآثار القـــديمة ، وأن نعرف أخبـــارهم المتواترة فى البرديات والسجلات العديدة حتى ندرك خطورة الدور الذى لعبته الهيئة البيروقراطية فى القديم . بل ان شئت رمزا بليغا ففىالنحت تجده : ابتداء من تمثال «الكاتب» حتى تمثال « شيخ البلد » ، فهذه جميعا نصب تذكارية

وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة . بل لقد اعتبر ماكس فيبر نظام الموظفين فى الدولة الحديثة « النموذج التاريخى الذى سارت عليه البيروقراطية فيما بعد »

وسير التاريخ تدلنا كذلك على أن رخاء مصر وازدهار اقتصادها واستقرار العمران فيها كانت جميعا رهنا بدرجة ما بدور الجهاز الادارى . فما أكثر الازمات والمجاعات التى كانت تجتاح الوادى اذا ما فسد الجهاز أو عطب ، وما أكثر ما كانت عودة الرخاء والنظام مرتبطة باصلاح جذرى فيه . وحسبنا فى هذا أن نشير الى قصة يوسف أيام المجاعة واستدعاء بدر الجمالى أيام الشدة المستنصرية فى أخريات الفاطمية . وأغلب من كتبوا عن مصر ، ابتداء من لودفيج الى شارل عيسوى الى مورو برجر ، متفقون على أن قليلا من البلاد هى التى يلعب فيها الجهاز الادارى مثلما يلعب فى مصر أو يأخذ الحجم المتورم والثقل الضاغط الذى يأخذه فيها

ولا شك أن وراء هذا خلفية جغرافية مقنعة بما فيه الكفاية ، أو فلنقل بدرجة ما . فوظيفة الدولة ــ الحكومة ــ فى المجتمع الهيدرولوجى وزراعة الرى أضخم بلا ريب من الوظيفة المألوفة للدولة . « فكعامل جغرافى » بمعنى الكلمة لابد منه ، وكأداة كبرى فى تغيير صفحة الاقليم واعادة تشكيله وتخليقه بالمشاريع الهندسية والعمرانية الكبرى والمنشآت النهرية ، تكتسب الدولة فى البيئة الفيضية دورا اضافيا وجوهريا لا تعرفه دولة المطر العادية . ثم الى جانب هذا الجهاز الفنى الضخم بمعناه الهندسى المباشر ، لابد من جيش من الخبراء والمشرفين على عملية الزراعة التى لا يمكن أن تتم على أسس فردية عشوائية

حول هذه النواة الصلبة من التكنوقراطيين ، تترى بالضرورة حلقات كثيفة من البيروقراطيين ، تبدأ بالجهاز المالى الذى يحاسب على ثمن الماء ، وتمتد الى الجهاز البوليسى الضرورى لضبط الامن ومراقبة حقوق الماء ، لتنتهى أخيرا الى جهاز ادارى آخر لخدمة تلك الاجهزة جميعا بالمعنى المكتبى المباشر . ولعل هذا القطاع الاخير هو جانب الربح المركب فى نمو جهاز « الضبط والربط »

وانعكاسا لهـذه الوظائف يبرز فى تاريخنا القديم والحديث دور عدة وزارات بعينها ، تشمل الاشـغال والرى والزراعة والمالية والداخلية ، بدرجة لا تعرفها بالتأكيد دول اخرى كثيرة . هذا بينما يرمز لها على مستوى التطبيق وعلى الطبيعة أساطين القرية الكلاسيكيين ابتداء من المهندس والمساح الى العمدة والصراف

والنتيجة المنطقية بعد هذا جيش حقيقى من الموظفين ، يصبح فى ذاته ملمحا أو طبقة فى تركيب المجتمع وبصورة قد لا تعرفها بلاد كثيرة . اذ تصبح الحكومة أكبر « صاحب عمل » فى البلد ، ويكاد يتحول المجتمع الى مجتمع حكومى كما قلنا . ولما كان الجهاز يمثل السلطة والقوة من ناحية ، وكان نصيب البرولتارية المنسحقة هو الكبت والاستبداد من ناحية اخرى ، فانه يكتسب جاذبية نادرة ، ويصبح « للميرى » قداسة وبريق تجعله جنة التصعيد الاجتماعى

ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد البيروقراطية ـ كنتيجة لهذا ـ ترتبط أساسا بطبقة البورجوازية ، وبخاصة بورجوازية المدن . واذا كانت البورجوازية فى مدن أوربا فى العصور الوسطى ترتبط فى أذهاننا وفى الواقع بطبقة التجار أساسا ، فمما له مغزاه أنها ارتبطت فى مصر الزراعية الفيضية بفئة البيروقراطية من موظفين واداريين

وحكام بصفة تقليدية . ولعل التعبيرين الدارجين : « الميرى ، والطين » أن يلخصا أقطاب القوة فى مجتمعنا التقليدى الى وقت قريب

وقد كان الانتقال من الرى الحوضى الى الدائم فى عصرنا الحديث خطوة اساسية أكدت بل وربما ضاعفت كل عناصر هذا المركب الهيدرولوجى ـ البيروقراطى . فمن المعروف أن الرى الدائم ضاعف مهام ووظائف الدولة ، ولذلك لم يكن غريبا أن عملية خلق جسم كبير أو نواة من البيروقراطية الحديثة انما تبدأ مع محمدعلى وعلى يديه . حتى اذا ما وصلنا الى العقود الاولى من القرن الحالى لم يعد لدينا شك فى أنالجهاز البيروقراطى قد خلق أو أسهم فى خلق طبقة وسطى ـ عليا وسفلى ـ من بورجوازية المدن تمثل شريحة أساسية ومتشعبة فى المجتمع المتغير

وحتى ما قبل الحرب الثانية لم يكن هناك شك فى أن الصفة الغالبة على المجتمع المصرى الحديث أنه «مجتمع موظفين » ، وأن مدننا الرئيسية كانت الى حد كبير «مدن موظفين» . وأسوأ من هذا أنه كان مجتمع موظفين لا وظيفى ، لانه كان جهازا مستهلكا أكثر منه منتجا ، وكان نموه خضريا أكثر منه ثمريا كما يقال ، اذ أن تضخمه الحجمى تعدى حدوده السليمة حتى وصف بأنه أصيب « بداء الفيل » ، وحتى قال البعض أن مصر كما تعانى من افراط السكان مع انخفاض المعيشة تعانى من افراط البيروقراطية مع انخفاض الكفاءة

والارقام المتاحة فى هذا المجال لا تترك مجالا للشك فى أن البيروقراطية أوشكت أن تكون ملمحا جغرافيا عندنا. فقد قدر عدد الموظفين فى عامى ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ بنسبة ٢ر٢ ٪ من مجموع السكان العام ، بالمقارنة الى ٣ر١ ٪

فى بريطانيا . وقد يبدو الفـــارق محدودا ، ولكنه اذا نسب الى قوة السكان العاملة وحـــدها لبدا جذريا . على أن الخطر النسبى يتضح من مقارنة تكاليف هـــذا الجهاز . فقد قدر أن أجور الموظفين فى عامى ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ ابتلعت ٣٥ ٪ من ميزانيـــة الدولة ، وفى عامى ١٩٥٢ ــ ١٩٥٣ قدرت النسبة بنحو ٤٠٫٥ ٪ ، بل وصل تقدير ثالث الى ٤٦ ٪ ــ هذا مقابل ٩ ٪ فى بريطانيا (١)

ولا شك أن الموقف قد تغير الآن بعد أن انتقل الانتاج الى الملكية العامة وأصبحت الدولة الاشتراكية هى أكبر « صاحب عمل » تماما . والارجح أن هذه المسئوليات الجديدة المضافة الى الجهاز البيروقراطى بين يوم وليلة قد أعادت التوازن بين الحجم والوظيفة ، مثلما يحدث فى اقتصاد يعانى من افراط الســكان ثم يتكشف فيه فجأة مورد اقتصادى كالبترول مثلا .. غـــير أن هـــذا لا يغير من الحقيقة التاريخية وهى المركزية الوظيفية ــ متمثلة فى البيروقراطية ــ فى مصر الفيضية

المركزية الحضارية : العاصمية

من بين المركزية التركيبية والمركزية الوظيفية ، تخرج لنا القمة النهائية المجسدة للمركزية فى مصر عموما ، ونعنى بها المركزية الحضارية التى ترادف توا العاصمية المتطرفة . فمنذ عرفت مصر العواصم الموحدة والعاصمة فيها تحقق حجما هائلا بالنسبة لمجموع حجم الدولة وعلى حسابه ــ والمركزية تورث الحجم . ولقد كانت المعادلة الاقليمية فى مصر تتألف تقليديا من رأس كاسح وجسم كسيح . وسواء كانت فى طيبة أو طينة ، أو فى الاسكندرية

(١) Morroe Berger, Bureaucracy & Society in Modern Egypt, Princeton, 1954.

أو القاهرة ، فان العاصمة كانت دائما تسود الحياة المصرية بصورة طاغية غير عادية . وقد لا نبالغ كثيرا اذا قلنا أن تاريخ مصر ليس الا تاريخ العاصمة أو يكاد . والمتصفح لتاريخ الجبرتى مثلا ، ومن قبله السيوطى أو ابن اياس ، لا يمكن أن يخطىء هذا الاحساس (١) .

حقيقة لقد لعبت بعض الاقاليم دورا تاريخيا مرموقا ، ولكن مثل هذه الاقاليم انما لعبته بصفتها أقاليم حدود وتخوم معرضة للاخطار الخارجية . فدور الموانى الساحلية والنهرية ابتداء من المنصورة ودمياط أيام الصليبية الى رشيد والاسكندرية وبورسعيد ضد « الفرنجة والفرنساوية أو الانجليز » هو دور خاص . أما الاقاليم العادية فليس لها تاريخ تقريبا ، انما لها روتين ، أو هى على الاكثر « سندرلا » لتاريخ العاصمة. والاحساس الطاغى هو بايجابية العاصمة وسلبية الاقاليم ، كأنما العاصمة تاريخ محفوظ أو مجمد بمثل ما يبدو النهر عندها تاريخا سائلا أو جاريا ، ثم خارجهما يتخلخل التاريخ أو يختفى ..

وكنتيجة لهذا نجد أنه فى وقت ما من أيام البطالمة والرومان تعدت الاسكندرية المليون من مجموع قد لا يتجاوز ١٠ ملايين (٢) . ومن قبل كانت طيبة ثم منف أعظم مدينة فى العالم فى وقتها. ومن بعدها كانت القاهرة أكثر من مرة فى العصور الوسطى كبرى مدن العالم كذلك ـ عاصمة العالم ان جاز القول ـ كما يؤكد لنا المقدسى فى القرن العاشر : « ... وفسطاط مصر اليوم

---

(١) الجبرتى ، عجائب الاخبار، القاهرة ، ١٨٨٤ ، ابن اياس ، تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٣١١ هـ ، السيوطى ، حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة، الشرفية.

(٢) T. Walek — Czernecki, Pop. de l'Egypte Ancienne, Cong. Intèrn de Pop. Paris, 1937, vol II, p.8

كبغداد فى القديم ، ولا أعلم فى الاسلام بلدا أجل منه »(١)، وكما يكرر الرحالة البنـــدقى بيلوتى Piloti فى القرن الخامس عشر : « مدينـــة القاهرة هى أكبر مدينة فى العالم من بين المدن الواقعة فى حدود علمنا » (٢) ..

وفى أيام الحملة الفرنسية حين كانت مصر قد هبطت الى ٢ر٥ مليون ، ظلت القـــاهرة تحتكر وحدها خمس المجموع ، فقـــد كانت تدور فى حدود نصف مليون . ونحن الآن نعيش فى « قاهرة » حقيقية بين بقية المدن والاقاليم تضم زهاء ٥ ملايين نسمة من مجموع قدره ٣٠ مليونا . ولنا أن نتساءل : لماذا كانت دولة كايطاليا يبلغ سكانها حجم سكان مصر مرتين تقريبا بينما لا تزيد عاصمتها حجما عن نصف سكان القاهرة ؟ والواقع أننا ننسى أن القاهرة حاليا ليست أكبر مدينـــة فى افريقيا فحسب ، ولكنها أكبر مدينة فى نطاق ضخم من العالم القديم يشمل كل أوربا جنوب الالب والـكربات وآسيا جنوب القوقاز وغرب السند

وهذا ما ينقلنا الى فكرة « المدينة الاولى » كمقياس مقـــارن . فنحن نستطيع أن نعبر عن مكانة القاهرة فى كيان مصر اذا نحن نسبنـــاها الى المدن التالية لها فى الحجم ، ثم قارناها ببلاد أخرى . فالنسبـــة المئوية للمدن الثلاث الكبرى فى مصر هى ١٠٠ : ٢ر٤٥ : ٣ر٧ ، للقاهرة والاسكندرية وبورسعيد على الترتيب . قارن هذا على سبيل المثال بمكانة الجزائر العاصمة فى الجزائر الدولة حيث الجزائر ١٠٠ : وهران ٢ر٤٨ : قسنطينة

(١) جورج فاضلو حـــورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى مترجم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢٨

(٢) P.H. Dopp, «Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age», Bull. Soc. Geog. d'Egypte, 1951, p. 131

٢٧ر٤ ــ او فى ايطاليا حيث روما ١٠٠ : ميلانو ٧٥ر٢ : نابولى ٦٠ر٧ . وكما يتفق ، فان هذين المثلين هما أشبه بمصر من حيث الشكل الجغرافى الخطى الضيق المستطيل، ولكن بينما يؤدى هذا النمط الى توزيع الاثقال على المدن الكبرى بشىء من العدالة والتقارب أو فى انحدار تدريجى معقول ، نجده يؤكد طغيان كفة القاهرة فى ميزان القوة فى مصر

ليس هذا فحسب ، فالحجم الخام وحده ليس كل الوزن . فلئن كانت القاهرة لا تتعدى سدس الدولة من حيث العدد المجرد ، فهى قد تزيد على نصفها من حيث الوزن الفعال . فلو قيمنا الدخول المرتفعة والعقارات والاملاك والصناعات والمرافق والخدمات الراقية ، وكذلك ما لا يمكن قياسه رقميا كالسلطة والنفوذ ... الخ ، فقد ترجح العاصمة كفة بقية البلد ببساطة وسهولة . ولهذا ليس من المبالغة فى شىء أن نقول انه اذا لم تكن « مصر هى القاهرة » ــ كدنا نقول امبراطورية القاهرة ! ــ فانها على الاقل قد أصبحت مجرد ضاحية شاسعة للعاصمة. وليس من مجرد الصدفة على الارجح أن مصر من البلاد القليلة التى يطلق فيها اسم البلد على العاصمة فى العرف الدارج رغم اختلافهما رسميا

ومن الملاحظ أن سقوط العاصمة فى أى فترة من فترات التاريخ كان معناه تلقائيا سقوط مصر، ولا شذوذ لذلك الا حالة واحدة تقريبا هى الهكسوس . ومعنى هذا أن بقية الاقاليم على امتدادها أفقر وأعجز من أن تنظم كوحدات مستقلة فعالة للدفاع الوطنى فى حالة سقوط العاصمة ، حتى تكون نوايا وخلايا متعاقبة للمقاومة والاسترداد والتحرير

وهناك فيما نرى علاقة قرابة بل خط نسب مباشر يجرى بين ضخامة العاصمة الطاغية وضآلة الاقاليم المعنة من ناحية ، وبين جبروت الاهرام والآثار الفرعونية وتفاهة وضعة بيوت المصرى القديم من ناحية أخرى . ولئن كان معنى هذا علاقة وظيفية بين الطغيان الاقطاعى وبين المركزية الجامحة ، فليس هذا الا تحصيل حاصل. فما المركزية العنيفة الا ترجمة ادارية وعمرانية للطغيان السياسى والاقطاع الاجتماعى . وقد لاحظنا من قبل فى مكان آخر علاقة ارتباط مباشرة بين شكل هرم المدن فى مصر وهرم الطبقات ، فكلا الهرمين مفرط التفلطح : له قاعدة واسعة ولكنها واطئة ، وقمة ضيقة لكنها شامخة : وبين الطرفين تختفى الطبقة الوسطى أو تكاد (١)

فاذا كان هرم الطبقات يتألف تقليديا من قاعدة عريضة جدا من البرولتاريا الفقيرة ، ومن قمة ضيقة ولكنها ثقيلة جدا من الاغنياء ، لا يفصل ــ أو يصل ــ بينهما بالكاد طبقة وسطى معقولة الحجم ، فكذلك نجد هرم مدننا ينقسم الى مجموعتين بينهما برزخ لايلتقيان ، اذ يهوى بعد القاهرة والاسكندرية بصورة درامية الى المدينة التالية بورسعيد التى تتصدر بذلك حفنة من المدن الضئيلة أو المتواضعة أو العاجزة . ويمكن أن نعبر عن هذا رقميا اذا ذكرنا أن مجموع العاصمتين فى عام ١٩٦٠ كان ٤٫٨٥٩٫٠٠٠ مقابل ٤٫٩٦٥٫٠٠٠ لبقية مدن مصر جميعا ، أى انهما يمثلان وحدهما نصف (٤٩٫٤٪) مدن مصر

---

(١) G. Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, Cairo, 1959, p. 19.

ومن الطريف أن نفس الشكل المعوج يمتـــد حتى التعليم ، لا كصدفة ولكن فى علاقة وظيفية مباشرة : فقد ثبت أن مصر تكاد تتصدر العالم فى نسبة المتعلمين تعليما عاليا بالنسبة الى عدد المتعلمين ، بينما هى من أعلى البلاد فى نسبة الامية ! وقد كانت مصر قبل الثورة تنفق على التعليم العالى ضعف ما تنفقـــه على التعليم العام . وكل هذا عرض من أعراض ومضاعفات الرأس الكاسح والجسم الكسيح ، مثلمـــا هو من أســـبابها ومضاعفاتها

والحقيقة أن نظام الطغيان الاقطاعى الذى اعتمد على الملكية الغيابية قد نزح دخول وعوائد الانتـــاج الاقليمى ليصبها بلا هوادة فى العاصـــمة وبقدر ما كان النزيف الاقتصادى والحضارى فى الاولى بقدر ما كانت التخمة فى الثانية . والواقع ان الانتقال من العاصمة الى الاقاليم يكاد يكون لفداحته كالانتقال من قارة الى قارة أخرى . وبقدر ضآلة المسافة الجغرافية ، بقدر ضخامة المسافة الحضارية ، حتى لنجدنا ازاء ازدواجيـــة حضـــارية صارخة ــ ولا نقول انفصاما فى الشخصية الحضارية. ان ضخامة وعظمة العاصمة المركزية فى ناحية ، وفقر وتحجر الاقاليم فى الناحيـــة الاخرى ، لم يكن طوال التاريخ الا الترجمة المبـــاشرة للتناقض الشنـــيع بين اللاندوقراطية فى ناحية والبرولتارية الزراعية فى ناحية أخرى

كذلك لا ننسى دور البيروقراطية ، فهى سبب بقـدر ما هى نتيجة للمركزية. فمنذ البداية تركزت هذه الهيئة الطاحنة فى العاصمتين جغـــرافيا بدرجة عنيفة حرمت الريف والاقاليم من الحد الادنى من خدماتها ، وذلك رغم أنها ما قامت أصلا الا لخدمة هـــذا الريف وتلك الاقاليم وبفضل انتاجهـــا . ورغم ادخال الحكم المحلى

اخيرا ، ورغم ما تعرض له الجهاز من عملية جراحية لاعادة توزيعه جغرافيا ، يظل جيش الموظفين رابضا مرابطا فى العاصمة والمدن الكبرى ، ولا يزال القطاع الاكبر من الجهاز البيروقراطى عاصميا متروبوليتانيا أولا ومدنيا ثانيا

والارقام التالية عن مدى التركيز « النقطى » فى القاهرة ابلغ دليل على أن العاصمة لم تزل « بالوعة » للطاقة البشرية انتاجية واستهلاكية فى الوطن

نسبة السكان الى الدولة	١٠ر٨	٪
نسبة موظفى الدولة	٣٠	٪
نسبة المهندسين الزراعيين فى القاهرة	٥٣	٪
نسبة الاطباء البشريين فى القاهرة والجيزة	٥٢ر٢	٪
نسبة الاطباء البيطريين فى القاهرة والجيزة	٤٨ر٢	٪
نسبة المهندسين الجامعيين فىالقاهرة والجيزة	٥٨ر٧	٪

ومن الواضح أن كثافة البيروقراطية فىالعاصمة تعادل كثافتها القومية بعامة ثلاث مرات على الأقل ، وضعف هذا فى خطوط معينة . وليس هذا مما يدعو فى شىء الى « مركزية التخطيط ولامركزية التنفيذ » . والمطلوب الان بلا تردد عملية تفتيتوبعثرة لهذه الارساباتالبيروقراطية الثقيلة ليعاد توزيعها أفقيا على رقعة الوطن بحسب كثافة السكان وبحسب الحاجات الاقليمية الحقيقية

ويترتب على هذا كله أن مصر لم تعرف « الاقليمية Regionalism » كفلسفة مكانية طوال تاريخها الاستبدادى الاقطاعى : لم تعرف الا اللااقليمية irregionalism الوائدة التى تركت ريفنا مجرد « صحراء حضارية » مجرد « صحراء خضراء » كما قد نقول . بل كدنا نرى انفصالا شبكيا بين العاصمة المتخمة والريف الانيمى ، حتى قيل أن هناك « مصرين » : مصر

العاصمة ـ اقطاعية ، لاندوقراطية وبيروقراطية مستغلة ، ومصر الاقاليم ـ بروليتارية زراعية مأزومة مستغلة · الاولى فقاعة حضارية براقة ، والثانية قوقعة حضارية راكدة

وليس صدفة أن أول مرة تتحقق فيها الاقليمية بالمعنى الصحيح ونعرف فيها الحكم المحلى الرشيد ، هى أول مرة تتحقق فيها نهاية الاقطاع وحكم الملاك ، وذلك منذ الثورة الوطنية المعاصرة . هذا ، وليست الاقليمية أو اللااقليمية سياسية فحسب، بل واقتصادية وأدبية كذلك . لذلك نجد أن الحكم المحلى لا يعود الى الاقاليم وحده بل ومعه الانتاج والصناعة والثروة والملكيات ، كما أن الفنون الشعبية والاداب الفولكلورية التى طال اهمالها ، بل واحتقارها ، بدأت تجد تقديرها والاحترام . ولم تعد السلطة والنفوذ والثروة والانتاج والفنون والاداب مركزة تماما فى العاصمة ، بل أخذت تنتثر فى لامركزية واضحة خلال كل خيوط الشبكةالقومية

غير اننا نخطىء كثيرا اذا ما رددنا المركزية المزمنة فى مصر الى أصول الموضع وحده ، فان موقعنا تكاتف هنا فى الواقع مع شكل الموضع وطبيعته وأثره ليضاعف منها ومن طغيانها . فمنذ البداية والموقع الحرج الحساس يفرض على مصر أن تبدو فى أعظم قوتها وأن تكتل كل امكانياتها لتقدم الى العالم جبهة مهيبة رادعة . لقد كان لمصر دائما دور خارجى عبر الحدود خطير ، وكثيرا ما كان هذا الدور طموحا بدرجة أكبر من امكانياتها الموضعية المتواضعة بالمقياس العالمى . ولهذا بدت أحيانا كأنها تتطلع الى ، وتحاول ، أكثر من طاقتها (١) . بدت كرأس كبير ينوء به جسم صغير . وكان هذا الرأس بطبيعة الحال هو العاصمة حيث تتركز كل المسئوليات

(١) *Hindus*, P. 128.

والتطلعات الخارجية ، بينما كانت الاقاليم هى الجسم المتواضع . كان الراس يمثل الموقع الباهظ ويرتبط به ويرمز له ، بينما تجسد الموضع المحدود فى جسم الريف. ومن هذا التناقض نشأت متناقضة العاصمة الكاسحة والجسم الكسيح ، وربما بدت الصورة النهائية كقزم ضخم الجمجمة

تلك هى الصورة الاساسية التاريخية بعامة . ولكنها تعدلت تعديلات ثانوية مرحلية بما يؤكدها أو يخففها . فالاحتكاك الحضارى الذى بدأ منذ نحــــو قرن ونصف الان دعا الى قدر كبير من المركزية حتى يمكن خلق مركز حضارى حديث غنى فى بيئة متخلفة فقيرة . ولم يكن من الممكن أن تتعدد مثل هذه المراكز بل لزم أن تحشد حشدا فى بؤرة واحدة . وحتى فى يومنا هذا ، يلاحظ أن كل الدول المتخلفة التى بدأت التحضر حديثا ، تملك عاصمة ضخمة بالنسبة لحجمها وغالبا ما لا تملك بجانبها مدينة أخرى تســـتحق الذكر . أى أن المركزية العنيفــة هى ضرورة مرحلية فى بداية التطور الحضارى

ومن الناحية الاخـــرى فقد أدى الانقــــلاب الزراعى والحضـــارى من الرى الحوضى الى الرى الدائم الى مضاعفة امكانيات الموضـــع وموارد الريف ، كمـــا أن اقتصاد المحصول الواحد والاقتصاد الحديث المتجر يدعو الى ، ويمكن لمزيد من ، المركزية اذا ما قورن بالاقتصاد المعاشى واقتصاد الحبوب والكفاية الذاتية القديم

كذلك منذ خرجت مصر من عزلتها لتعيد تأكيد بعدها العربى ، أصبحت القاهرة تلعب دورا قد لا نغالى ان قلنا انه دور عاصمة العرب غير الرسمية . ولقد قيـــل بحق ان القاهرة هى باريس الشرق الاوسط ، اذا كانت بيروت هى فيناه . فاذا علمنا انه قيل من قبل ان فينا

هى باريس شرق أوربا ، لعرفنا الخيط الذى يجمع بين الاشباه الاربعة : انها المركزية العارمة الطاغية بأمر التاريخ وبحكم الجغرافيا . وهكذا تظل المركزية ملمحا تاريخيا أساسيا فى شخصية مصر ، ولكنها تتطور الان نحو مزيد من التوازن والتكافؤ وذلك مع التطورات التكنولوجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعيةالحديثة

وفى مجتمع بدأ يأخذ بالتخطيط الاشتراكى يجب أن يكون مفهوما لنا ان المركزية العارمة فى شكل العاصمة الطاغية ليستالا الترجمة المكانية للاقطاع أو الرأسمالية، بينما ان الاقليمية المتوازنة هى لا شىء ان لم تكن « اشتراكية المكان » ، وأن اللااقليمية فى حقيقتها ليست الا نظام الطبقات استلقى على الارض . ولهذا فنحن ندعو ــ على ضوء الشخصية الاصيلة لمصر ــ الى تصفية المركزية العاصمية واعادة توزيع القيم الاقليمية فى شبكة متكافئة حضاريا وبشريا واقتصاديا حتى نتحاشى خطر التخمة وانفجار الشرايين فىالرأس ــ العاصمة ــ والشلل الزاحف ولين العظام فى الاطراف ــ الاقاليم

ولن يكون فى هذا تحقيق للعدل والكفاية الاقليمية داخليا فحسب ، بل ان فيه أيضا قوة وسلامة للدفاع الوطنى فى حالة الخطر الخارجى ، وهو اعتبار أصبح أكثر خطرا واحتمالا منه فى أى وقت مضى بعد أنأصبحت مصر قوة نافرة لها أعداؤها ، بل انه اعتبار كان يمكن أن يوضع موضع التنفيذ كما علمتنا حرب السويس

واذا كانت الدولة الاشتراكية تأخذ بقوة بالتخطيط القومى ، فانها لا يمكن أن ترى فى التخطيط الاقليمى ، الذى هو توزيع جغرافى للخطة القومية ، ترفا كماليا أو بذخا غير اقتصادىكما تفعل بعضالدول غير الاشتراكية. وكما تسعى اشتراكيتنا الى تذويب الفروق بين الطبقات

الاجتماعية ، ينبغي أن تعمل على تذويب الفـــروق بين الاقاليم الجغرافية . وفى مقابل اعادة توزيع الثروة بين الافراد ومعهـا ، ينبغى أن تتم اعادة توزيع الثروة والحضارة والخدمات بين أقاليم الدولة

وكما أن العدالة الاجتماعية لا تعنى المساواة المطلقة التنميطية بل العدل فى تكافؤ الفرص بين الافراد ، فكذلك لاتعنى العدالة المكانية تسوية كل بقعة فى الدولة بمثيلاتها، وانما المقصود تكافؤ الفرص بين الاقاليم حتى تنمو كل منها بحسب مواهبها الجغرافية الكامنــة وامكانياتهـا الطبيعية ، بعيدا عن ضغوط الاندفاع التاريخى أو القصور الذاتى أو المواقع والمزايا التراكمية المكتسبة

وانطلاقا من هذا المنطق ، فان دارس مصر لا يملك الا أن يرى أنه قد آن الاوان لكى تعلن مدينة القاهرة الكبرى – وربما الاسكندرية الكبرى كذلك – « مدينة مغلقة » للتنمية لمدة عشر أو حتى خمس سنوات مؤقتاً ، فلا يضاف الى وظائفها الراهنة – والمدينة أى مدينـة ليست الا حزمة من الوظائف فى التحليل الاخير – لايضاف جديد أو زيادة سوى ما تحتمه الصيانة والتعويض ، وذلك تجميدا لحجمها الراهن بعد أن فات أوان تخفيضه. لابد أن تتحول العاصمة الطاغية بالتدريج ولمدة موقوتة الى نهر قليل الروافد كثير المصـاب ، تحويلا لشرايين الحياة الى الاقاليم والمدن الاقليمية والريف العريض ، الى أن تتخلق فيها ومنها أقطاب للتنمية « Pôles de developpement » الاقليمية فعالة ومؤثرة

ويترتب على هــذا أن نحقق « سـقفا » أعلى لنمو العاصمة ، و « أرضية » لنمو المراكز الاقليمية . وبديهى أن تحقيق هذا لا بد أن يشمل كل وظيفـة من حزمة وظائف العاصمة لا سيما الصناعة بقوة عمالها والادارة

بجيش موظفيها . أما منع الهجرة الى العاصمة بقانون فليس حلا ولا محل له ، لا ديموقراطيا ولا عمليا . انما الحل فى الضبط غير المباشر والتخطيط بالاقناع persuasive planning ، وذلك بأن تنقل العاصمة – أعنى وظائفها وخدماتها ومرافقها ومزاياها – الى الريف ، لا أن تمنع الريف أن ينتقل الى العاصمة



(شكل ٣) : فى كل هذا النطاق من العالم القديم تأتى القاهرة كأكبر مدينة وأضخم عاصمة

الفصل الرابع

من إمبراطورية إلى مستعمرة

بين الموقع والموضع

من الغريب حقا أن مصر بعد أن أنشأت أول امبراطورية في التاريخ تدهورت الى أطول مستعمرة عرفها التاريخ! فتاريخ مصر يقع بوضوح في مرحلتين متناقضتين: مرحلة أولى كانت تمثل فيها قوة طاردة مركزية من الناحية السياسية، انطلقت فيها الى العالم المجاور وفرضت عليه نفوذها ونشرت فيه ظلها السياسي، واستمرت هذه المرحلة نحو ألف سنة متقطعة حتى نهاية الدولة الوسطى أو الحديثة تقريبا. ثم تلت هذا المرحلة الثانية التي تصل بنا الى العصر الحديث بلا انقطاع تقريبا، وفيها تحولت مصر سياسيا الى قوة جاذبة مركزية خضعت لقوى دخيلة واصبحت مستعمرة تابعة – اصبحت مجرد ظل نفسها سابقا

وهذه المتناقضة وتلك الثنائية ظاهرة جذرية في الخلفية التاريخية لمصر، بحيث تستدعي تحليلا دقيقا وتعليلا محددا لا يضيع في زحمة آلاف الحقائق الجارية وجزئيات التاريخ بل يعتصرها اعتصارا. غير أننا اذا كنا قد ميزنا بين مرحلة الامبراطورية ومرحلة المستعمرة،

فانما هو من قبيل الاختزال التبسيطى ، فلم تخل المرحلة الاولى من فترات انتكاس فقدت مصر فيها استقلالها ، كما أن المرحلة الثانية لم تعدم فترات توهج وانبعاث أكدت مصر فيها وجودها وشخصيتها كاملة أو شبه كاملة ، على الأقل موضوعا ان لم يكن شكلا . غير أن السمة العامة لكل من المرحلتين تظل هى السائدة

لقد كانت مصر « أول أمة » فى التاريخ القديم نمت فى نفسها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح ، وبعدها كانت « أول دولة » بالمعنى السياسى المنظم تظهر على مسرح العالم القديم . ولم يمض قليل حتى كانت أعظم قوة سياسية فيه ، كانت « أول امبراطورية » فى التاريخ حققت لنفسها نطاقا ممتدا من السيطرة والنفوذ وصل بسرعة شمالا الى سوريا والى مشارف النهرين وميديا ، ووصل غربا الى برقة وتخوم نوميديا ، وجنوبا حتى اتيوبيا بمعناها الواسع القديم

وقد انتابت هذه الامبراطورية دورات من الانكماش والاتساع ، ولكنها ظلت بعامة أعظم حقيقة سياسية فى الشرق القديم لمدة نحو ألف عام . وفى أواخر المرحلة حين استطاع الهكسوس أن يحتلوا شمال مصر لم يدم هذا طويلا ولعب الجنوب ــ لا سيما الاقصى ــ دور المعقل الوطني وقاعدة التحرير . وعادت الامبراطورية الفرعونية مرة ثانية تتواثب وتتفجر فى محيطها التقليدى فى غرب آسيا وشمال افريقيا

غير أنها بعد قرون من الازدهار أخذت تذبل وتتحطم تحت طرقات الغزو الفارسي والاشورى بل والليبى والنوبى ، الى أن كانت الضربة القاضية على يد الاسكندر حين تحولت الى ولاية اغريقية بطلمية . فمنذ لك الحين فقدت استقلالها بلا انقطاع تقريبا ، فتوالت عليها فتوحات

الرومان والعرب والعثمانيين لتختتم بالاستعمار الاجنبى الاوربى الحديث . وقد يقال ان خلاصة هذه الدورة ان مصر نمت نموا مبكرا للغاية وسابقا لأوانه ، ولكنها بالمثل انتهت قبل الاوان ، وبهـذا اختزل « العصر البطولى Heroic age » فيها الى قطاع صغير من دورة حياتها وتاريخها . ولربما يذكرنا هذا بفرنسا فيما بعد فى تاريخ أوربا الحديث حين كانت أول أمة ثم دولة ثم امبراطورية عرفتها أوربا الحديثة ، ولكنها لم تلبث أن فقدت مكانها مبكرا لقوى صاعدة جديدة .

أول امبراطورية

وأيا ما كان ، فالسؤال الحرج هو : لماذا هذا النضج المبكر وهذه البداية المبكرة من ناحية ، ثم تلك الشيخوخة والنهاية المبكرة أيضا بعد ذلك ؟ والرد على ذلك هو علاقة التفاعل المتغيرة عبر التاريخ ان تضافرا أو تنافرا بين العـاملين الجغرافيين الجوهريين الموقع والموضـع . والموضع الجغرافى كما قلنا هو البيئة الطبيعية المحليـة داخل مصر نفسها ــ شكلها وطبيعتها ووزنهـا . فهى كواحة فيضية تستقطب حول النهر قد تجانست بشريا وتوحدت سياسيا منذ البداية ، وعلمتها دورة النهر النظام والقانون ، ثم منحتها زراعة الرى « قاعدة أرضية » تعد بمقياس العصر ضخمة هائلة : قوة انتاجية سخية واكتفاء ذاتى تقريبا ، وقوة بشرية نادرة قوامها الكثافة لا المساحة . وعلى ضوء امكانيات الرى الحوضى يمكن أن نقدر قوة تحمل مصر بالسكان طوال العصور القديمة هذه بنحو + أو ــ ١٢ مليونا مع احتمالات خطأ معقولة . وحول هذا كله كانت الصحراء « الرحم الجغرافى » الذى ولد فيه هذا الموضع فى الاول ، ثم « الدرقة » الطبيعية التى حمته جميعا بعد ذلك

فاذا ما أرسلنا النظر عبر الصحراء رأينا أننا انما نقف فى واسطة العقد فى كل معنى : فحولنا منتشرا فى كل الجهات شتيت من شعوب وجماعات ضئيلة الحجم والوزن ، ضعيفة الموارد والتنظيم : دول رعاة (الليبيون والجزيرة العربية) أو أنصاف رعاة (سوريا) ودول ملاحين وصيادين (الاغريق) وفى النادر دول فلاحين (العراق) . ولم تكن رقعة المعمور الفعال حينئذ Orbis Terrarum تزيد عن هذا الاطار كثيرا ، تبدأ بعدها منطقة شبه ظل باهت لا وقع لها ولا خطر

وبهذا كانت مصر القمة والقلب معا : القمة موضعا والقلب موقعا . وليس من الصعب بعد هذا أن نعلل لسر قوة العسكرية المصرية القديمة Wehrmacht . كما كان طبيعيا أن يغرى ثراؤها وخصبها بها بعض هذه الاطراف الفقيرة اما فى تسللات متلصصة أو فى مغامرات تشنجية لا تخرج فى مجموعها عن طمع من جانب الرمل فى الطين أو الرعاة فى الزراع . وبهذا أصبحت أرض التخوم بالنسبة لمصر أرض المعركة ، والمعركة التأديبية أساسا Land of insolence — كما يقول الامريكيون الان (١)

من هنا أدركت مصر أن حدودها الطبيعية انما تبدأ خارجها فى فلسطين وفى برقة ، بينما لا يقل نطاق الأمان من حولها عن الشرق الاوسط تقريبا . ومن هنا توسعت الامبراطورية الى حدودها القصوى كلما أمكنها ذلك ، لا كاستعمار بالمعنى المفهوم ، وانما لنشر « السلام المصرى Pax Aegyptiaca » . بل اننا يمكن أن نزعم بقليل من خشية أن الامبراطورية المصرية كانت فى جوهرها

(١) C. S. Coon, Caravan, Story of the Middle East N. Y., 1951, p.19.

وفى معنى ما « امبراطورية دفاعية » أساسا ، حتمتها كما سنرى ظروف الصراع الاقليمى والاستراتيجية العريضة فى الشرق القديم

وقد كان من السهل على مصر أن تمد ذراعيها بعيدا يمينا ويسارا وشمالا وجنوبا بفضل موقعها الاوسط الفريد . والتاريخ بعد هذا يسجل أن أغلب معارك مصر الحاسمة ـ الدفاعية ـ انما تمت على أرض الشام ، ابتداء من مجدو تحتمس الى حطين صلاح الدين الى مرج دابق الغورى . وعلى العكس من ذلك انتهت أغلب المعارك الدفاعية التى تمت على أرضها الى معارك خاسرة ابتداء من ريدانية طومان باى الى أهرام نابليون

استراتيجية الامبراطورية

وقد يكون من المناسب هنا أن نتوقف عند استراتيجية الامبراطورية المصرية ، علها أن تكشف لنا عن جانب أو جوانب من شخصية مصر الاقليمية ، وعن العوامل الثابتة والمتغيرة فى توجيهها التاريخى . وينبغى ابتداء أن نميز فى هذه الاستراتيجية بين عدة معادلات للقوة تعاصرت أو تعاقبت بحسب تلك الدورات . فثمة أولا معادلة الصراع بين الرمل والطين أى بين الصحراء والنهر ، أو الاستبس والمزروع ، أو أخيرا بين الرعاة والفلاحين . والأغلب أن هذه كانت معادلة محلية نوعا ، وتسود فى المراحل المبكرة عامة ، ثم لا تلبث أن تترك مكانها لمعادلة أهم وأوسع هى معادلة الصراع بين قوى البر والبحر ، بين قوى الفلاحين والملاحين ، أو كما يسميها البعض بين ذئاب البر وذئاب البحر ، أو قراصنة السهوب وقراصنة البحر (١) . واذا كانت تلك جميعا

(١) فايفليدوبيرسى الجيوبوليتكا، مترجم ، القاهرة ، ص ٤٥ ،
H. J. Mackinder. On Scope and Methods of Geog. p. 28

معادلات صراع بين أضداد ، فيمكن أن نضيف اليهـا صراع الأشباه الذى ينشب بين قوى أو بيئات متشابهة فى طبيعتها

وأول ما يتعين علينا بعد هذا أن نحدده هو مراكز القوى ومواقع الصراع من ناحية ، وأرض المعركة من ناحية أخرى . فأما عن مراكز القوى فكثيرا ما يصور تاريخ الشرق الاوسط القديم فى كتابات الغرب على أنه أساسا مبارزة تاريخية بين القوتين النهريتين الفيضيتين مصر والعراق . غير أن هذا قد يكون تبسيطا مخلا وربما مضللا . فطوال عصر الامبراطورية كانت أقطاب القوة ، أو القوى القطبية كما قد نسميها ، ثلاثة : مصر ، العراق ، آسيا الصغرى (ليديا ، ميتانى ، الحيثيون ، خيتا على التعاقب) (١) ، وهى بذلك صراع أشـباه وأضداد معا . واذا كانت الاخيرة قوة رعوية أكثر منها زراعية ، فان الثلاث يشتركون فى أنهم قوى ليست برية مطلقة وانما تجمع بين صفتى قوة البر وقوة البحر بدرجات متفاوتات ، وكلها تمثل كتلا ضخمة بمقياس العصر ..

وبين رءوس المثلث الثلاثة هذه تحددت أرض المعركة برقعة سوريا الطبيعية أساسا ، والشد والجذب بينهم هو الذى سيحدد مصائر سوريا السياسية . واذا كانت سوريا هى أكثر الجميع ارتباطا بالبحر وأكملهم كقوة برمائية ، فان نقطة ضعفها بينهم كانت تكمن دائما فى ضآلة كتلتها العامة ، وهى ضآلة يضاعف منها تفتتهـا الداخلى الشديد المزمن . وفى هذا المجال كانت خطوط التقدم المصرى تتم على أحد محورين : جنوبى شمالى فى

(١) احمد فخرى ، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٩٤ . وقد اعتمدنا على هذا المرجع فى كثير من الحقائق التاريخية فى هذا الفصل

مواجهة آسيا الصغرى ، أو غربى شرقى ازاء العراق . وفى الغالب كانت سوريا من نصيب مصر ، ولكن الاغلب انها كانت تسيطر على نصفها الجنوبى ، أما النصف الشمالى فاما أن تفرض تحييده أو أن يقع اما للعراق أو لآسيا الصغرى (١) . كذلك يلاحظ أن العمل السياسى المصرى طوال ذلك العصر القديم اقتصر على النصف الشمالى من الشرق القديم دون أن يتقدم الى جنوبه فى الجزيرة العربية ، فهذا تطور سيتأخر الى العصور الاسلامية أساسا

ذلك هو المسرح ، فكيف تمت دراما الامبراطورية المصرية فصولا ؟ أول ما يسترعى انتباهنا أن هذه الاستراتيجية تقع فى عدة دورات متعاقبة من توسع امبراطورى ثم انكماش محلى ، ومن مجموعها يتألف نبض مصر التاريخى . واذا كان العراق قد خاض مثل هذه الدورات ، فمن المهم أن نلاحظ أن دورات الانكماش فى مصر لم يكن يتبعها أى تفكك أو تحلل فى الدولة ، بل ظلت مصر دائما وحدة واحدة وان تكن على ضعف وفى تقلص . أما العراق فكل دورة انكماشية تعنى بلا استثناء انهياره وتمزقه سياسيا الى مجموعة قلت أو كثرت من الدويلات ودول المدن والمقاطعات . وهذا الفارق جوهرى فى تركيب البلدين الطبيعى الى حد بعيد

فاذا التفتنا الى مصر وجدنا الدورة الاولى تتفق مع اوج الدولتين القديمة والوسطى حيث كان النفوذ المصرى ممتدا الى جنوب الشام برا والى مدنه الساحلية بحرا . ولعل بيبلوس والارز أن تلخصا هذا النفوذ وتلك العلاقة ، بينما ترمز اليه الاثار المصرية العديدة حتى اليوم فى كل تلك المناطق . وقد ترتب على الوجود المصرى هناك أن

(١) J. Fairgrieve, Geog. & World Power, 1941.

وضع حدا لدورتين متتاليتين من التوسع العراقى : فعلى التوالى وصلت كل من امبراطورية أكاد على يد سرجون وامبراطورية بابل على يد حمورابى الى شمال سوريا دون جنوبها والساحل . وبمعنى آخر فقد انتهى توازن القوى الى تنصيف سوريا بين القطبين الفيضيين

ولقد أتت أول دورة انكماش بعد هذا حين اجتاح طوفان الرعاة الشرق القديم فى القرن ١٨ ق . م آتيا من وسط آسيا ممثلا للصراع بين الرمل والطين وممثلا فى الكاسيين فى العراق والهكسوس فى مصر . وكما سقطت دولة بابل للكاسيين ، سقطت مصر للهكسوس . فكان هذا أول غزو أجنبى لمصر القديمة ، واستمر نحو قرن ونصف قرن ..

غير أن الملاحظ أن احتلال الهكسوس لم يسيطر الا على جزء محدود من أرض مصر ، ولم يكن فى حقيقته اكثر من جملة اعتراضية فى تاريخ الامبراطورية ، بينما أودى نظيره فى العراق بالوحدة السياسية وادى الى تفكك خطير . كذلك أكدت موجة الهكسوس ربما لأول مرة أن الدفاع عن مصر يبدأ فى سوريا . وبالفعل فقد تركزوا بعد طردهم فى جنوب فلسطين كقاعدة لاعادة الزحف ، فكان على التحرير المصرى أن يتعقبهم اليها حيث كانت معركة شاروهن هى النهاية (١)

وامتدادا لنفس هذا المنطق ، انطلقت مصر بعد قليل فى نفس الاتجاه ، لتبدأ الدورة القمية فى التوسع المصرى فى القرن ١٥ ق. م. ذلك كان عصر الامبراطورية بامتياز حين اكتسح تحتمس الثالث فى سلسلة من الحملات اتحاد امارات الشام الذى جمع بضع مئات من الامارات الضئيلة فى معركة مجدو ـ أرمجدون التاريخ القديم .

(١) احمد فخرى ، ص ٩٣

ثم استمر المد المصرى حتى عبر نهر الفرات ووصل الى تخوم الاناضول ، كما سيطر على كل سواحل وجزر شرق البحر المتوسط . ولقد كانت هذه أول — وآخر — مرة تخضع مصر فيها أجزاء من أطراف العراق والميتانى فى التاريخ القديم

وستظل مصر بعد هذا الى حين القوة الكبرى فى المنطقة ، وستصمد لضغوط من نوع جديد يهددها لأول مرة ويمكن ان يعد النقيض المباشر لخطر الهكسوس : أولئك كانوا قراصنة البر ، وهؤلاء الان قراصنة البحر . ففى القرن ١٢ ق . م كانت موجات « شعوب البحر » الشهيرة التى اندفعت مهاجرة من سواحل البحر المتوسط الشمالية لتنقض على سواحله الجنوبية وأصابت شمال افريقيا وسوريا من بين ما أصابت . غير أن موجاتها تكسرت على سواحل مصر حيث أعطتهم هزيمتين على التوالى برا وبحرا (١) . ولعلنا أن نعد هذا أول تطلع لقوى البحر الاوربية الى مصر ، وسيكون سابقة ومؤشرا هاما الى المستقبل

غير ان دورة انكماشية بدأت تحل ، وبين ذبذبات القوة والضعف فقدت مصر امبراطوريتها الآسيوية بالتدريج . فرغم معركة جديدة على أرض الشام هى قادش ، بدأت أطراف سوريا تضيع على يد قوة خيتا فى آسيا الصغرى ، ثم ما لبثت أن دخلت طورا شاذا ، ولا نقول غير مفهوم ، حين سقطت للغزو الليبى (شيشنق) ثم للغزو الاتيوبى ممثلا فى مملكة نباتا فى شمال السودان (طهراقه) . واذا كانت هذه ثانى مرة تخضع مصر فيها للغزو الاجنبى منذ الهكسوس ، فقد كان الهكسوس غرباء تماما عن المنطقة كلها ، أما هذه فأول مرة تخضع فيها لجيران

(١) J. H. Breasted, A History of Egypt, Lond., 1935

محليين مباشرة ومن وزن ضئيل نسبيا وكانوا تابعين لمصر غالبا ـ النوبة مثلا لم تكن أكثر من « محجر » لمصر (١) . على أن هذا الشذوذ قد يفسره أن الغزو الليبى تم على أيدى سلالة شعوب البحر ، وأن الغزو الاتيوبى تم على أيد مصرية مهاجرة . بل لقد استعاد الحكم الاخير فلسطين بعد أن كانت مصر قد فقدت امبراطوريتها الآسيوية . ومع ذلك فقد كانت تلك علامات النهاية لعصر الامبراطورية

فعلى الضلع الآخر من مثلث القوة فى الشرق القديم ، كانت آشور قد وحدت العراق وخرجت لبناء الامبراطورية حيث استولت على كثير من سوريا وتقدمت لتقف وجها لوجه أمام مصر فى القرن ٧ ق . م . وبين هجوم آسر حدون أولا وانتصار آشور بانيبال ثانيا ، كانت تلك أول مواجهة بين مصر والعراق تسقط فيها الاولى ، وبينما لم تسيطر مصر الا على تخوم جزئية للعراق ، وقعت مصر برمتها له الان . بيد أن السيطرة الاشورية جاءت قصيرة العمر ، اذ لم تلبث آشور نفسها أن سقطت لبابل ، ولم تلبث بابل بدورها أن سقطت لفارس فى القرن التالى (٢)

ولعل هذه كانت الفرصة الاخيرة لدورة توسعية أو شبه ذلك فى مصر . فقد شهد القرن ٧ ق . م محاولة قوة اخيرة حين خرج نخاو بمحاولاته البحرية : مشروع قناة البحرين ، وبعثة الدوران حول افريقيا بحرا . غير أن المشروع الاول لم يتحقق ـ ومن الغريب لأسباب سوف تتردد فيما بعد فى تاريخ مصر الحديث ، وهى الخوف من أن تضر القناة بأمن مصر استراتيجيا . كذلك

(١) Myres, p.79

(٢) G. Maspéro, The Struggle of Nations

فان المشروع الثانى وان تحقق الا انه اعتمد على الملاحين الفينيقيين ، اى انه كان على مصر كقوة بر أكثر منها قوة بحر وان جمعت نسبيا بين الصفتين ، كان عليهـا أن تستعير خدمات قوة أكثر بحرية (١) . وعموما ، فاذا كانت مصر قد استطاعت أن تحتفظ باستقلال خطر حتى ذلك الوقت ، فان بداية النهاية كانت واضحة ، وقريبا تبدأ قصة أطول مستعمرة عمرا . .

أطول مستعمرة عمرا

وقد ظل هذا النمط الجيوستراتيجى قائما مع تعديلات طفيفة وتوازنات مؤقتة حتى نهاية التـاريخ الفرعونى تقريبا . ولكنه بدأ يتفتت منذ قورش وقمبيز ، حتى انهار نهائيا على يد الاسكندر . ومنذئذ أزمن الاستعمار الاجنبى والسيطرة الخارجيـة فى مصر . اى أن مصر فقدت استقلالها نهائيا قبل الميلاد بقرون وقرون ، حتى لقد عد البعض نحـوا من ٤٠ أمة سيطرت عليهـا فى تاريخها كله ، وحتى قال عنها بعض السطحيين فى يأس وتخاذل « وهى لمن غلب » (٢) .. وبغض النظر مؤقتا عن هذه النظرة الانهزامية ، فكيف حدث هذا الانقلاب ولماذا ؟

من الصعب أن نجد تفسيرا لهذا فى تغييرات داخلية فى الموضع نفسه أو فى الموقع الخارجى ، ولكن من السهل أن نتقصاه فى تغييرات خارجية فى العلاقة النسبية بين الموضع وبين الموقع . لقد ظلت موارد مصر وانتاجيتها وطاقتها البشرية ، بالقوة ان لم يكن بالفعل ، عاملا ثابتا أساسا فى المعادلة وذلك باعتبارها وظيفة دائمة للرى

---

(١) فخرى ، ص ٩٨ — ٩٩
(٢) المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ص ٢٩٢

الحوضى . صحيح أنها كانت تتعرض للذبذبات خطيرة أو طفيفة اما بعوامل طبيعية كالفيضان أو بشرية كسوء الادارة وضبط النهر ، ولكن مثل هذه الذبذبات ليست حادثة طارئة بل هى كامنة فى نظام البيئة الفيضية

أما الموقع فقد ظل هو قلب العالم المعمور المتوسع ـ على الاقل حتى كان كشف الرأس . أما قبل هذا الكشف فكل ما حدث هو توسع المعمور الى آفاق جديدة مترامية لم تفعل سوى أن اكدت خطورة موقع مصر وزادت من توسطها وجعلتها ركن الزاوية بحق بين عوالم وقارات « جديدة » أكثر منها مجرد نواة فى حلقة أو دائرة مغلقة. بل ان الابعاد الحقيقية والشخصية الكامنة لموقع مصر لم تكتمل وتبرز فى الحقيقة الا بعد هذا التوسع فى العالم المعمور . فمن قبل لم تكن الى حد بعيد أكثر من مجرد رقعة غنية ـ موضع أثير ـ بين مجموعة من المواضع الفقيرة ..

ولكنها الان أصبحت موقعا فذا بصرف النظر عن ثروته أو غناه : لقد أصبحت « مفتاحا جغرافيا » لكل الابواب ـ أبواب الشرق والغرب ، الهند وروما ، وأبواب البر والبحر ، فارس واليونان ... الخ . ولم تعد معادلة الصراع بين الرمل والطين تكفى لتفسير التاريخ المقبل ، بل قد طغت عليها معادلة جديدة ظهرت مع توسع المعمور

وهى صراع البر والبحر . وقد كان من الممكن نظريا أن تطفر الامبراطورية المصرية القديمة مع هذه الطفرة الجغرافية الى امبراطورية عالمية من مقياس يزرى بما عرفته من قبل ، وذلك بحسبانها تملك الان الموقع المفتاح الجديد الى جانب الموضع الغنى القديم . ولكن العكس هو الذى حدث فعلا : لقد فقدت مصر استقلالها عند أول لقاء بين أو مع القوى الجديدة . فلماذا ؟

لقد تكشف المعمور المتمدد عن قوى جديدة، مواضع اغنى، وقواعد أرضية وبشرية من مقياس اضخم من المقياس المصرى . وفى صراعاتها فيما بينها أو فيما بينها وبين القوى القديمة وجدت هذه القوى أن المفتاح يرقد دائما فى أرض الزاوية تلك ـ مصر . ومن هنا أصبحت قبلة الغزاة . ونظرا لان وزن موضعها لم يعد يسعفها ازاء هذه القوى الاكبر جرما ، فقد وقعت مصر فريسة لها . بمعنى آخر ، ان الانقلاب الذى حدث فى مصير مصر هو أن خطر موقعها زاد كثيرا عن قوة موضعها : لقد تخلف الموضع عن الموقع ولم يواكب تطوره ، ولم تعد امكانيات الاول التقليدية ترقى الى متطلبات الثانى الباهظة

استراتيجية المستعمرة

وكما حللنا مراحل ودورات استراتيجية مصر امبراطورية ، فلنقف هنا بشيء من تفصيل عند مراحل استراتيجيتها مستعمرة . راينا فى عصر الامبراطورية أن مواقع القوة العالمية القديمة كانت محددة بصرامة بين مثلث مصر ـ العراق ـ آسيا الصغرى . ولكن عصر المستعمرة بدأ حين أصبحت مراكز وزمام القوة فى الشرق الاوسط تقع خارجه . وسنلاحظ أن هذه المراكز الجديدة ستقع أولا على تخوم المنطقة أو قربها ، ثم تتباعد عنها بالتدريج وباستمرار حتى وقتنا هذا . وسوف يترتب على هذا أن مصر ستقع منذ الان فى أيدى قوى لم يسبق ولن يحدث أن تقع هى يوما فى يد مصر . أى أن علاقة التبعية ستكون منذ الان من جانب واحد للأسف ، وليست متبادلة بين الجانبين كما كان الغالب فى الماضى

ومع هذا التطور تحدد التغيير الجذرى فى موقع مصر الاستراتيجى ـ كما فى موقع الشرق الاوسط كله ـ فى

معادلة أساسية ، وهى انه تحول من « قوة قطبية » اى قوة مركزية فى ذاتها تحصر بينها مناطق نفوذ وقوى تابعة ، الى « قوة بينية » أى منطقة تابعة محصورة بين قوى قطبية جديدة . وفى هذا الموقف الجديد أصبحت بالضرورة « جبهة ارتطام أو تصادم » بين تلك القوى القطبية الجديدة . واذا كان الصراع بين الرمل والطين هو النغمة السائدة فى عصر الامبراطورية ، فان الصراع بين البر والبحر هو الذى سوف يسود فى عصر المستعمرة ..

غير أن مصائر مصر ستختلف فى جوانب عن مصائر نظير قديم كالعراق . فالجانب البحرى فى مصر أوضح منه فى العراق وان جمعت بينهما الطبيعة الأمفيبية بدرجة أو بأخرى . فبحكم موقعها قريبا من قلب العالم الاسيوى وبعيدا عن أوربا البحرية ، كانت العراق اكثر تعرضا من مصر لأخطار قوى البر ، بينما قل أن تمتد ذراع القوى البحرية اليها . أما مصر فان موقعها على ناصية القارتين بعد بها عن قلب آسيا وقواه البرية ، ونأى بها كذلك عن أعماق افريقيا

لذلك فكثيرا ما سنجد متتالية جيوبولتيكية تكاد تتكرر كالقانون ، وتتلخص فى أن موجات القوى الاسيوية التى تستهدف المنطقة ، غالبا ما تكتسح العراق ، ولكنها لا تنتزع الا نصف سوريا الشمالى ، بينما قل أن تتقدم الى مصر . فها هنا عمق استراتيجى واضح لمصر بالنسبة الى أخطار قوى البر . ولكن هذا من الناحية الاخرى وفى نفس الوقت جعلها هدفا فى متناول قوى البحر من الغرب . وجزء طويل من تاريخ مصر كمستعمرة يرتبط بالاستعمار البحرى ، لعله أطول من ارتباطاتها بالقوى البرية ، وهو أطول بالتأكيد من نظيره فى العراق مثلا

فى ضوء هـــذه الضوابط الاساسية ، يمكن الآن أن نستقرىء مراحل مصر مستعمرة . فى القرن ٧ ق . م كان البدء : فمن زوايا مثلث القوة القديم ، انتقلت القوة الى قطبين جديدين هما فارس واليونان اللتين لم ترثا القوة فحسب من العراق ومصر ، بل وعلى ايديهما تعلمتا الحضارة ، كل على الترتيب . وقد كانت اليد العليا فى البـداية لقـوة البر فارس التى اكتسحت ـ على يد قورش ـ بابل فى العراق وليديا فى آسيا الصغرى ثم سوريا قاصدة مصر . غير أنها لم تنلها الا على يد قمبيز فى القرن الخامس ق . م ، لتمتد سيطرتها عليها نحو قرنين . وهنا لا بد أن نلاحظ أن هذه أول مرة فى التاريخ تسيطر فيها فارس على مصر ، بينما أن مصر لم تسيطر على فارس من قبل أو من بعد . كذلك فان هذه الغزوة تذكرنا فى مداها وامتدادها وربما فى مصدرها بموجة الهكسوس الى حد كبير

غير أن ميزان القوى كان ينتظر انقلابا جاسما لمصلحة قوة البحر : لقد ظهر الاسكندر ، وعلى يديه انكسرت قوة البر فارس لترثها اليونان البحرية كالقوة العالميـة الاولى . ومنذ فشل أول هجوم بحرى على مصر أيام شعوب البحر ، تبدأ مع اليونان ألف سنة من سيطرة قوة البحر على مصر ، ابتـداء من الاغريق فى القرن ٣ ق . م عبر البطالمة الى نهاية الرومان فى القرن السابع الميلادى ، وذلك بعد أن ورثت روما اليونان واستقطب صراع السـيادة العالميـة بين روما (= الجبـارة) وفارس (= المخربون) . كل هذا بينما ـ للمقارنة ـ لم تدم السيطرة الاغريقية على العراق بعد الإسـكندر الا قليلا عادت بعدها الى سيطرة فارس البرية . وهذا الاستعمار البحرى الالفى يدل على مدى خطورة البعد

مع العرب ـ التى لم تكن أكثر من جيب فارغ على هامش حلبة صراع القوى التقليدية ـ تبدأ مرحلة جديدة لها وضعها الخاص فى أكثر من معنى . فالفتح العربى بدأ كقوة برية : لقد رجحت من جديد كفة البر على البحر فى الميزان . ولكن العرب اذ ورثت مصر عن روما ، فان هذا لا يعد استبدال استعمار باستعمار ـ برى أو بحرى لا يهم ـ بل لقد جاءت الامبراطورية الاسلامية العربية أساسا « امبراطورية تحريرية » كما قد نقول، بل وسرعان ماهاجرت نواة السلطة السياسية فيها من موطنها الاصلى وتنقلت بحرية بين أقاليم الدولة المختلفة كما لو كانت تؤلف فيما بينها شركة مساهمة أو « كومونولث » لعله الاول من نوعه فى التاريخ . وفى ظل هذا الوضع الخاص جدا ، كانت الاقاليم تخضع لبعضها البعض بالتناوب وعلى التعاقب بلا عقد أو صراعات . .

وعلى هذا الاساس ، وهذا الاساس وحده ، كانت مصر أيام الأموية تابعة لسوريا لأول مرة فى تاريخهما ، كما صارت تابعة أيام العباسية للعراق وذلك للمرة الثانية بعد آشور . وعلى هذا الاساس وحده أيضا نفهم ظاهرة ملحة ربما بدت بغيره متناقضة غير مفهومة .

فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالا فى العصور الوسطى لامبراطوريات أو خلافات واسعة ، فكثيرا ما سنجابه بها تتحرك فى الميدان الدولى كقوة لها وزنها الخاص ولا ينقصها الحكم الذاتى . أو قد تفقد استقلالها لأسرة حاكمة أجنبية ، ولكنها من داخل تلك الأسرة تتصرف كدولة مستقلة ـ دولة داخل الدولة

كما قد نقول ــ وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الاستراتيجية الكامنة . ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسألة السيادة أو التبعية فى تاريخ مصر الاسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ فى الحكم

من هنا نفهم كيف توالت على مصر سلسلة من الأسرات الحاكمة أو الدول المستقلة فعلا التابعة للعباسية اسما ، كالطولونية والاخشيدية ، كما نفهم كيف استقلت مصر الفاطمية وعاودت التوسع الاقليمى فى مجالها الاسيوى التقليدى ، وهى التى فتحت من المغرب .. ومثل هذا قد يقال عن المراحل التالية من أيوبية ومملوكية . فقد كان الحكم يستورد أو يفرض أجنبيا من الخارج ، ولكنه لا يلبث أن يؤلف دولة مصرية مستقلة ان لم يكن امبراطورية صغيرة أحيانا، دون أن تتحول مصر بالضرورة الى تابع سياسى للبلد الذى أتى منه ذلك الحكم . فابتداء من الفاطمية الى الايوبية حتى المملوكية ، كان نفوذ مصر السياسى والاستراتيجى يشمل الشام كله أو جنوبه الفلسطينى ، كما كان يمتد بدرجات متفاوتة الى النصف الغربى من الجزيرة العربية بحجازه واليمن ، وهذا بعد جديد لمجال النفوذ المصرى لم يكن يعرفه قبل العصر الاسلامى

بل ان مصر لعبت فى تلك المرحلة دورا قميا فريدا فى كل تاريخها يكشف عن جوهر ومكنون شخصيتها الاستراتيجية كاملة ربما أكثر من أى وقت مضى أو تلا ، وذلك بغض النظر عن شكلية التبعية أو الاستقلال . بل ان فصلا من أروع فصول هذا الدور لعبته مصر تحت زعامة كانت تخضع أصلا لاحدى أتابكيات شمال

الشـــام ؛ وبالتالى لتبعها ولو مؤقتا من حيث الشكل البحت ، ونعنى بذلك قدوم صلاح الدين الى مصر كعامل فى البداية لنور الدين (١) !

والاشارة هنا بطبيعة الحال الى الصليبيات والمغوليات واذا قلنا الصليبيات والمغوليات فقد قلنا ــ استراتيجيا ــ قوى البحر والبر مباشرة . واذا كان الخطر الصليبى اسبق الاثنين ، فقد تعاصرا جزئيا ، بل كادا أن يتعاونا على هذا الاساس ، وبهذا وجد الشرق العربى نفســه تماما ازاء استراتيجية الكماشة أو الرحى

وهنا يتحــدد موقع ودور مصر المحورى فى تحطيم القوتين على حد سواء . فقد نجحت الصليبيات فى أن تنتزع موطىء قدم لها فى الشام الساحلى بضعفه وتفككه التقليدى ، بل وحاولت منه أكثر من مرة أن تغزو مصر برا . دون جدوى ، فيما عدا أنها أكدت مرة أخرى أن الدفاع عن مصر انما يبدأ فى الشام . وعندها تقدمت مصر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر لتسجل حطين صلاح الدين التى ستكون بداية النهاية وأرما ــ جدون الصليبيات ، بل وغير بعيد بالفعل عن موقع مجدو تحتمس

هنالك أدركت الصليبيات أن مركز ثقل القوة فى كل المنطقة يرقد فى مصر ، والى مصر اتجهت من ثم بطريق جديد هو الغزو البحرى المباشر ، فكانت حملتــاها الفاشلتان فى النصف الاول من القرن الثالث عشر ، حيث أبيدتا بالضربة القاضية فى برارى وسهول الدلتا بعد أن أغرقتا فى بيئتها الاسفنجية المشبعة . وعادت الشام من جديد أرض المعركة ، وتقدمت مصر المملوكية

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية الخ ص ٢٢٤ ــ٢٢٥

الى أقصى شمال الشام حتى تخوم الاناضول وأرمينيا والفرات ، ولتسحق الصليبيات نهائيا مع نهاية القرن على يد بيبرس . وهكذا كانت مصر حجر الزاوية فى صد القوى البحرية

وهكذا أيضا كانت بالنسبة لخطر فرسان الاستبس برابرة الوثنية . فمنذ القرن الحادى عشر بدأ وسط آسيا يلفظ بأعاصيره البشرية الحطمة التى أشاعت الخراب فى كل غرب القارة . فمن قبل اكتسح السلاجقة العراق وسوريا ، ولكن أنفاسهم تقطعت دون مصر . ولكن القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانا عصر المغوليات الوثنية الرهيبة حقا ، وذلك فى وقت كان الشرق الاسلامى يواجه على جبهته الغربية الغزو الصليبى . فشهد القرن الثالث عشر موجة جنكيزخان ثم هولاكو التى ختمت على مصير العراق الى الابد ثم اكتسحت شمال سوريا فى طريقها الى الهدف الاكبر والاخير دائما ــ مصر

واذا كانت الصليبيات قد عبرت خط الزوال حينذاك بعد حطين ، فانها كانت لا تزال تستوعب كل المقاومة المصرية . ومع ذلك فقد تقدمت مصر المملوكية تحت قطز لتعطى المغول أول وآخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية التى حددت ــ بلا مغالاة ــ مصير الاسلام جميعا . وبعدها وصلوا فى مطاردة فلولهم الى الفرات الذى حدد بذلك مجال نفوذ مصر الجديد ودورتها التوسعية النادرة . ولكن الموجة الثالثة عادت مع تيمورلنك فى القرن الرابع عشر لتكتسح العراق وشمال سوريا حتى دمشق ، ولكنها تعجز دون جنوبها اذ تتكسر على صخرة المقاومة المصرية مرة أخرى

وهنا لا بد من وقفة تحليل وتأمل . فأولا ، لقد جاء انتصار عين جالوت تاريخيا بين قوسين من الانتصار

على الصليبيات ، أعنى بين حطين وعكا ، أى أن مصر الاماليبية حاربت بنجاح وفى وقت واحد ضد قوى البر والبحر . ثانيا ، سنرى أن المتتاليــة الاستراتيجيــة التقليدية تتكرر هنا بحذافيرها : أغلب غارات الاستبس تصل دائما الى العراق الذى يكاد يتاخمه ، وقد تصل أحيانا الى الشام ، ولكنها لا تصل اطلاقا أو بالكاد الى مصر - ربما بحكم المسافة المتزايدة ولكن قطعا كرد فعل للقــوة البشرية . ثالثـا ، نرى بوضوح أن ســوريا استراتيجيا جسر برى الى مصر ، على كل من يبغيها أن يعبره ، حتى بعض الصليبيات أتت عن طريق بيزنطة قاصدة مصر عبر سوريا . من هنا نجد كل المعــارك المصرية الدفاعية أو الهجومية تتم على أرض الشام ، وبالأخص جنوبه الفلسطينى

ذلك اذن دور مصر الاستراتيجي فى مرحلة لم تكن مستقلة - فى جزء منها - شكلا على الأقل . وهو ان دل على شيء فانما يدل على أن الاســتقلال أو التبعية الشكلية لم تطمس شخصية مصر الاستراتيجية وثقلها المحورى فى المنطقة . بل انه ليدل على أن مصر فى غضون عصرها الطويل كمستعمرة لم تعدم دورات توســعية لا تقل طموحا وقوة عما عرفت فى أروع مراحل عصرها الامبراطورى الغــابر . لقد كانت القــاعدة الارضــية - البشرية ، والجغرافيــــة - الاستراتيجية ، تؤكد وجودها وتفرض ثقلها ومغناطيسيتها وتشع جاذبيتها ، بصرف النظر عن القشرة الحاكمة أو القيادة العابرة التى قد تذهب وتجيء ، من الخــارج أو الداخــل . انه التناقض - الطبيعى أحيانا - بين الثوابت الجغرافيــة الصلبة والمتغيرات السياسية السطحية

واذا كنا بحاجة الى مزيد من الأدلة ، ففى قصــة

العثمانية نجدها . فآسيا الصغرى التى كانت قاعدة لقوة قطبية هامة فى التاريخ القديم ، لم تستطع قط أن تكون ندا مناظرا أو مكافئا لقوة مصر ، ومن هنا كانت كفة مصر الراجحة غالبا فى عملية شد الحبل التاريخية بينهما عبر الجسر السورى ، فكانت لمصر السيطرة على سوريا فى أغلب الاحيان ، والا اقتسمتاها فى بعض الاحيان . غير أن الميزان انقلب بين كفتى مصر وآسيا الصغرى مع العثمانية فى القرن السادس عشر — ربما لأن آسيا الصغرى لم تكن الآن مجرد آسيا الصغرى ، بل تحمل وراءها امبراطورية مترامية فى شرق أوربا ، فى الوقت الذى كانت مصر المملوكية قد فقدت قاعدة أساسية من قواعد اقتصادها وهى تجارة المرور

وكما فعلت مصر من قبل بوعى أستراتيجى تام زحفت لمعركتها الى خط دفاعها الاول جغرافيا وتاريخيا ، فكانت مرج دابق حلب على التخوم بين الاناضول وسوريا . وكأنما جاءت الهزيمة لتؤكد التجربة التاريخية التى تحدد مصير مصر على أرض الشام ، اذ لم تصمد مصر بعدها فى خط دفاعها الاخير فى قلب ارضها فى ريدانية القاهرة . فكانت تلك أول مرة تقع فيها مصر لقوة استبسية منذ الهكسوس والفرس

ورغم تبعية قرون اربعة — البعض يعدها ثلاثة باعتبار أن تبعية القرن التاسع عشر كانت صورية بحتة — للاستعمار التركى ، فلم تعدم مصر وضعا خاصا فى كثير من الفترات . ففى حدود هذه التبعية كانت لها ملحقاتها فى الحجاز وأحيانا فى الشام . ولكن المثل الدال يأتى فى صورة انتفاضات أو انتقاضات جعلتها دولة داخل الدولة ، بل كادت يوما ما وفى معنى ما تجعلها دولة فوق الدولة . . ولقد نقصد بهذا حركة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر

حيث فُتح الحجاز والشام لحسابه وأنشأ علاقات خارجية بعيدة المدى . غير أن محمد على هو بلا شك المثل الكلاسيكى

معه ـ محمد على ـ تحولت ولاية مصر العثمانية الى امبراطورية مصرية كاملة تشمل الحجاز ونجد واليمن وسواحل الخليج العربى والشام والسودان ، وتنشر اسطولها فى البحرين المتوسط والاحمر لتصبح قوه امفيبية حقيقية . ولعلها جمعت بذلك بين أبعاد جغرافية لم تصلها مصر فى أى من عصورها الامبراطورية القديمة. والحقيقة أن ميزان القوة بين دائرة مصر ودائرة آسيا الصغرى كاد ينقلب فى الاتجاه العكسى حين اخترقت مصر محمد على قلب الاناضول وهددت استانبول مباشرة فى وقت ما ـ كل اولئك فى اطار التبعية الشكلى ! ويرى البعض أن موقعتى حمص ونصيبين هما المقابل المضاد لمرج دابق والريدانية تاريخيا واستراتيجيا ، بهما تم الثأر بين الدائرتين الجغرافيتين . (١) واذا كانت هذه الفورة قد انتكست فى النهاية وعاد الاستعمار التركى بكامل ثقله ، فما ذاك الا لأسباب تؤكد الوجود المصرى الاستراتيجى أكثر مما تنفيه وتنقلنا فى نفس الوقت الى المرحلة الختامية فى تاريخ مصر مستعمرة

الاستعمار الحديث

منذ طرد الرومان ، ومع فشل الحملات الصليبية البحرية ، والى أن ظهر الاستعمار الاوربى الحديث ، لم تخضع مصر لقوة بحرية أجنبية أو تتعرض لأخطارها جديا . ولكن مع ظهور الامبراطوريات البحرية الماموث

(١) محمود كامل ، القانون الدولى العربى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٥١ ـ ١٥٣

بمصالحها الكوكبية واستعمارها العالمى ، لم يكن مفر من أن تصبح مصر قطب الجاذبيـة فى الاستراتيجيـة البحرية ، ولن تلبث أن تكون أرض معركة فى كل صراع عالمى . حتى قبل القناة ـ قناة السويس ـ ذلك . بل حتى قبل الحملة الفرنسية . فنحن غالبا ما نغفل عن أن الفيلسوف ليبنتز منذ أكثر من قرن قبل نابليون وبالتحديد فى ١٦٧٢ كان يقترح على لويس الرابع عشر أن يضرب الهولنديين الذين رادوا البحار ما بين أوربا والهند فى ذلك الوقت ، وذلك باحتلال مصر (١) ..

ولـكن نابليون أول من وضع هـذه الصيغة موضع التنفيذ ، وكانت الحملة الفرنسية أولى محاولات القوى البحرية للسـيطرة على أرض الزاوية ، التى اعتبرها نابليون أهم موقع استراتيجى فى العالم أجمع حتى قيل من بعده : « قل لى من يسيطر على مصر ، أقل لك من يسيطر على العالم » . ومهما يكن من أمر ، فقد حددت مصر موقع واحدة من كبريات مواقع الصراع البحرى الفاصلة ـ أبو قير . واذا كانت الحملة قد فشلت ، فقد كشفت للغريمة البحرية بريطانيا أن مصر هى « عنق الهند » الذى يمكن أن تخنق منها الامبراطورية ، حتى اذا كانت قناة السويس أصبح عنق الهند فى نظرها هو « شريان الامبراطورية وخط الحياة » فيها

ومن هذا وذاك تحـددت استراتيجية الاسـتعمار البريطانى فى مصر : تحطيم قوتها البشرية والعسكرية أولا ، ثم الاستيلاء عليها ثانيا . ومن المنطلق الاول ، كانت خططها لتحطيم امبراطورية مصر محمد على وتدمير قوتها البحرية الصاعدة واخضـاعها للاستعمار التركى

(١) J. Beaujeu - Garnier, Econ. du Moyen - Orient, 1951,p. 50.

ولاية أو ايالة متقوقعة . ومن المنطلق الثانى ، ناورت لتشارك فى شركة قناة السويس بعد أن حاربتها طويلا ، ثم تقدمت منها وبعدها لتضع يدها على مصر ذاتها

ولا شك أن القناة ، التى اختزلت كل موقع مصر الجغرافى والاستراتيجى او جوهره فى شريط مائى حتى أصبح مرادفا للقناة أو أوشك ، لا شك أنها جددت شباب موقعنا . لكنها كان لا مفر من أن تجعل مصر بوابة دموية استراتيجيا كما قد أصبحت بوابة ذهبية تجاريا . فبالقناة لم يعد موقع مصر أخطر موقع استراتيجى فى العالم العربى وحده ، وانما فى العالم القديم برمته على ارجح الظنون

وكما قال رينان مخاطبا ديلسبس ــ وان كان هذا هو الاستعمار يخاطب الاستعمار ــ فقد كان معنى هذا أن القناة قد حددت معركة كبرى للمستقبل (١) . لقد تحول الموقع الى موقعة ! وليس من الصدفة بعد هذا أن تكون مصر أرضا لمعارك حاسمة فى كل من الحربين العظميين الاولى والثانية : فشهدت ضفاف القناة الحملة التركية فى الاولى بينما كانت العلمين نقطة التحول فى مصير الثانية . وكما أثبتت الاولى من جديد أن خط الدفاع الاول عن القناة يبدأ فى فلسطين ، أثبتت الحرب الثانية أن عنق زجاجة القطارة ليس « ترموبيل مصر » فحسب ، ولكنه مفتاح ليبيا كذلك . وقد كانت القاعدة الاستعمارية فى القناة فى وقت ما أعظم واضخم قاعدة عسكرية فى العالم كله

وعند هذا الحد لا بد أن نلاحظ أن الاستعمار أخذ يروج منذ وقت مبكر لفلسفة غريبة كل الغرابة . هذا

---

(١) André Siegfried, Mediterranean, trans., 1948, p. 11

مثلا رينان – مرة أخرى – يقول عن مصر « ان بلادا لها مثل هذه الاهمية لباقى العالم لا يمكن أن تكون مستقلة تماما من الوجهة السياســية » (١) . واذا كان كاتب حديث مثل اندريه ســيجفريد يردد نفس الفــكرة ، فيكفينا هنا تعليق جوبليه حيث يصفهــا بأنهــا نظرية بالية (٢) . ولكنها لم تكن دائما كذلك – حتى بيننا نحن أنفسنا . فمن قبل ، رفض محمد على فكرة شق قناة خشــية أن تتحول الى « بو سفور ثانية » كما قال (٣) ، وكما خشي نخاو قبله بأكثر من ٢٥٠٠ سنة ! ومن بعد ، كانت تلك الفكرة الشائعة بيننا حتى اليوم من أن الموقع – الذى كان ينبغى أن يكون رأسمال عسكرى لمصر كما قد صار لها راســمال تجارى – جاء نقمــة لا نعمة ، وعوانا عليها لا عونا لها

ايمكن حقا أن تكون صحيحة تلك النظرة او النظرية ؟ من زاوية الامر الواقع ، الواقع التاريخى أعنى ، ليس شك بطبيعة الحال أن موقعنــا الجغــرافى وقناتنــا الاستراتيجية قد اتخذت بالفعل مبررا لتوطن الاستعمار وازمانه . وليس من الصدفة أن تكون مصر – باستثناء عدن – أول وحدة فى المشرق العربى تخضع للاستعمار الاوربى . بل لا شك أن القناة سهلت على الاستعمار مهمته خارج مصر ، كما فى الهند مثلا حيث قدمت طريقا مباشرا فعالا لاستخدام القوة وكبت المقاومة ، بمثل ما أن هذا التوطيد الذى قدمته القناة لجهاز الاستعمار اتخذ بدوره ذريعة لمزيد من التمسك بمصر

ولا جدال كذلك أن خطورة موقعنا واهميته اخرتا من

---

(١) السابق ص ١٨

(٢) جوبليه ص ١٤٤

(٣) **H. L. Hoskins, Middle East, N. Y. 1954, p. 41.**

استقلالنا وقدرتنا على التحرر نسبيا ، برغم عظم المقاومة الوطنية فى قلعة وطليعة النضال القومى . ويتضح هذا اذا ما قورنت مصر بالدول العربية المجاورة . فالاستعمار الاوربى الذى بدأ فى مصر ١٨٨٢ ، تأخر فى سوريا والعراق مثلا الى ١٩١٤ ، وبينما نجده يخرج من سوريا فى ١٩٤٥ ، ومن العراق بعد ذلك بقليل ، فانه لم يغادر مصر — رغم الاستقلال الاسمى منذ ١٩٢٢ أو الرسمى منذ ١٩٣٦ — الا فى ١٩٥٣ . أى أنه عمر فى مصر أكثر من ٧٠ عاما ، مقابل ٣٠ عاما فى سوريا وأكثر من ذلك قليلا فى العراق — أى ضعف أى منهما ونحو مجموعهما . وحتى بعد ذلك ، فانه لم يخرج من مصر — ومصر وحدها — الا بعد حرب حقيقية بل حرب مزدوجة . واضح اذن أنه برغم المقاومة البطولية ، فانه بقدر أهمية الموقع بقدر ما كانت شراسة الاستعمار فى التمسك به والاستماتة من أجله

أن الموقع قد جنى علينا كأمر واقع وأغرى بنا الاستعمار والاطماع الامبريالية ، حقيقة تاريخية اذن ولا مناص من الاعتراف بها . بل قد يمكن أن نزعم فى هذا الصدد أن موقع مصر فى العالم الحديث أشبه — فى معنى — بموقع العراق فى العصور الوسطى ، ان لم يكن حقا هو الذى ورثه . فمن المحتمل أن عراق العصور الوسطى كان يتمتع فى عصره الذهبى بموقع تجارى واستراتيجى من خير ما عرف العالم القديم ، ولكنه كما رأينا دفع ثمن هذا الموقع من صميم مصيره حيث عرضه لأخطار قلب آسيا الرعوية المدمرة وطرقات القوى البرية وقراصنة السهوب . ومنذ العصور الحديثة كانت مصر موقعا من أهم مواقع العالم القديم ، ولكنها بالمثل دفعت ثمنه من استقلالها حيث تكالبت عليها أخطار

القوى البحرية والاستعمار الاوربى الحديث أى قراصنة البحار ..

ذلك كله قد يكون صحيحا ، ولكن يبقى السؤال : اى منطق هذا الذى يجعل من نقطة قوتنا نقطة ضعف ، ومن أكبر رصيد لنا خسارة علينا ؟ أى منطق الا أن يكون منطق الحتم الجغرافى الأعمى ومنطق الاستعمار التبريرى اللاأخلاقى المقلوب الذى يثبت الامر الواقع بالفرض المسبق ex post facto ؟ وحتى من داخل منطق الاستعمار نفسه لم يثبت بالقطع فى الحقيقة أن القناة أو مصر ضرورة لكيان الامبراطورية . ولم يكن بد من طرد الاستعمار (١)

وفى وجه المقاومة المصرية ، حاول الاستعمار المساومة « بالاستقلال الجزئى » الذى يجلو عن الوادى ويحتل القناة . وهى فى الحقيقة مساومة تمزق مصر الى اثنتين : مصر النيل ومصر القناة ، الثانية منهما منفصلة عن مصر النيلوتية انفصال بنما عن كولومبيا ! (٢) وأصر التحرير على أنه لا انفصال ، وبدد خرافة الموقع النقمة كنظرية غيبية قدرية غير علمية ، تنسى أن موقعنا اذا اقترن بطاقة موضعية كفء له لكانت النتيجة عكسية تماما . والحقيقة أننا حين كنا ننادى « القناة لمصر ، وليست مصر للقناة » ، فانما كنا نعنى أن الموقع للموضع وليس العكس ، لأن الموقع صفة بينما الموضع واقع ملموس

ثم يبقى سؤال : هل ارتجت قيمة موقعنا الاستراتيجى أو اهتزت فى الفترة الاخيرة ؟ المحقق أن انحلال النظام

---

(١) ابراهيم صقر ، قنـــاة السويس ، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية الخ ، ص ٢٦٨ وبعدها .

(٢) جوبليه ص ١٤٤

الاستعمارى وتحرر المستعمرات فى العالم الثالث قد قلل من قيمة القناة العسكرية بالنسبة للاستعمار البريطاني خاصة ولقوى الاستعمار البحرى عامة . ولكن العامل الاختزالى الحاسم الذى رج استراتيجية القناة هو لا شك ظهور الاستراتيجية الذرية الكوكبية الجديدة التى هزت فكرة الموقع الجغرافى أصلا وكمبدأ . والمقول أن هذه العوامل كانت ـ جزئيا ـ مما عجل بخروج الاستعمار

ومع ذلك فمن الخطأ أن نظن أن استراتيجية المواقع الجغرافية القديمة قد نسخت كلها تماما ، لا سيما أن قد طرأت على الاستراتيجية الذرية ما شلها من الناحية العملية . ومن الأدلة الدالة أن فقد الاستعمار لموقع مصر بالذات جاء كارثة عليه ، لأن من الثابت أن حرب السويس وضعت نهاية الامبراطورية ودفنتها وختمت على مصير الاستعمار القديم الى الابد . ولعل مما له مغزاه أن الاستعمار سعى بعدها الى حلقة قواعد جديدة محيطة بنقطة المركز مصر وكبديل يأخذ جزءا من مغزى ودور القناة الاستراتيجى ، ابتداء من قبرص الى ليبيا الى اسرائيل ، ومن عدن الى البحرين ... الخ . وتظل مصر الموقع المفتاح فى مجال جغرافى كبير وحاسم من العالم القديم .

لا امبراطورية ، ولا مستعمرة ، ولكن حياد ايجابى

وبعد ، فلقد طالت رحلتنا عبر تاريخ مصر السياسى والاستراتيجى لنرى كيف أن عصرنا التوسعى الامبراطورى لم يكن صدفة عشوائية ، وأن وقوعها بعد ذلك ضحية للقوى الاجنبية الاستعمارية لم يكن مجرد

قدر غاشم مقدور . وانما كيان مصر ومصيرها وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قيمتها كموقع وقوتها كموضع: موقع خطير يتطلب لتحقيقه وضمانه موضعا غنيا كفئا ، فاذا ما اجتمعا طفرت مصر كقوة اقليمية كبرى ، اما اذا قصر الثاني عن الاول وقصر دون متطلباته وقعت مصر فريسة اقليميــة وضحية . بمعنى آخــر ، ان مكانتنا هى محصلة مكاننا وامكانياتنا على حد سواء . وبصيغة رياضية ، ان معادلة القوة فى مصر هى : القوة = الموقع + الموضع . ذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل

وعلى المدى الطويل جدا منذ اكتمل ظهور مصر القديمة مع الأسرات حتى الأمس القريب ، واذا جاز لنا أن نغامر بتحديد اتجاهات تاريخية عامة ، فقد يمكن أن نقول أن موقع مصر على مر العصور كان يزداد أهمية وقيمــة بصــفة عامة تقريبيــة ، وفى نفس الوقت كانت قوة موضعها تتقلص وتتضاءل نسبيا فى العــالم وان ظلت تزداد وتتضخم فى ذاتها . وهذان الاتجاهان المتعارضان لم يكونا مطردين بالضرورة ولا خلصــا من انتكاســات وانعكاسات ، ولكنهما يصدقان جيدا على المدى التاريخى الطويل . وفى النتيجة فان مصر فى الوقت الذى كان موقعها يزداد خطورة وبالتالى أخطارا ، فانها كانت تجد حجمها الداخلى وطاقتها الذاتية تزداد انكماشا وبالتالى ضعفا فى عالم متمدد متضخم باطراد

وكمجرد مؤشر جزئى لا يقطع ولكنه يكفى للتوضيح ، يمكن أن نقارن وزن مصر السكانى فى الاطار العالمى بين العصور القديمة والحديثة . والارقام تقريبية جــدا بطبيعة الحال ، غير أنها قد تكفى لأغراضنا . فيقــدر البعض سكان العالم أيام الامبراطورية الرومانية بنحو

٢٠٠ مليون نسمة ، وفى نفس الوقت ربما لم تكن طاقة التشبع السكانى فى مصر لتقل عن ١٢ مليونا ، بينما تدور تقديرات سكان مصر البطلمية والرومانية بالفعل حوالى العشرة ملايين (١) . أى أن مصر كانت تمثل ١/٢٠ من وزن العالم على الاقل . والمقدر بعد ذلك ان سكان العالم فى ١٦٥٠ بلغوا ٥٠٠ مليون (٢) فى الوقت الذى لم تزدد مصر سواء بالقوة أو بالفعل ، ان لم تتناقص حقا . أى أن نسبتها على أحسن الفروض هوت الى ١/٥٠ من العالم . واليوم اذ تعد مصر ٣٠ مليونا فى عالم يبلغ ٣٣٠٠ مليون فان النسبة لم تعد ترقى بالكاد الى ١/١٠٠

دلالة واضحة ، وقصة مألوفة . مصر نمت فعلا فى ذاتها حجما وقوة ، ولكن العالم من حولها نما وتضخم بسرعة ومعدل أسرع وأعظم بكثير . سبق تاريخى مبكر الى القوة لا يلبث أن يضيع فى زحمة التطور التاريخى ، ولا أمل فى استعادته تماما وان أمكن استرجاع جزء منه بالتأكيد . . ومصر اليوم أقوى وأضخم فى ذاتها منها فى أى وقت مضى ، ولكنها فى الماضى كانت قوة كبرى فى العالم ، الا أنها الان قوة متوسطة أو فوق متوسطة . وهى مكانة مشرفة وكريمة بما فيه الكفاية ، ولكنها لا تعنى على الاطلاق التبعية أو الضعف الذى أراد الاستعمار الحديث أن يفرضهما عليها

ولعل هذا تماما هو الدرس الذى يعلمه تاريخنا ، والذى يبدو جليا اننا نطبقه الآن بالفعل . فأولا ، منذ اللحظة التى تضاعفت فيها قيمة وخطورة الموقع بدأ الموضع تتضاعف قوته لحسن الحظ ، وذلك منذ

---

(١) Walek - Czernecki, loc cit., p. 8

(٢) A. Carr - Saunders, World Population, Lond., 1936

انقلاب الرى الدائم . فقد جاء هذا كتكثيف للقاعدة الارضية والبشرية المصرية بكل ما يعنى ذلك من مضاعفة للانتاج وعـدد سـكان ومستوى المعيشة والتكنولوجيا ولا وجه للمقارنة مطلقا بين مصر الاقتصادية والعمرانية الوسيطة والمعاصرة ، بين الرى الحوضى والرى الدائم ، وبين حضارة يدوية وحضارة الآلة . ان « أرضية » العصر الحديث أعلى على الاطلاق والنسبة من « سقف » العصور الوسطى

ويمكن أن تدخل تحت هذا الباب كل الثورة المعاصرة الصناعية والاجتماعية والعلمية، فكل عناصرها مضاعفات للطاقة المادية لقاعدتنا الارضية ـ للموضع . وللمرة الاولى فى التاريخ لا يصبح الموضع حقيقة جغرافية مطلقة من معطيات الطبيعة : لقد أصبح العلم عاملا جغرافيـا واقتصاديا كما هو عامل سياسى يمكن أن يعيد خلق الموضع شكلا ووزنا ووقعا ، ولأول مرة أيضا يصـبح الاستقلال حقيقة مثلثة : ليس سياسيا هو فحسب ، وليس اقتصاديا بعد ذلك ، وانما هو علمى فى النهاية . ان ثورة البيئة فى مصر الحديثة تؤكد ما يقوله ساور من أن الموارد الطبيعية فى حقيقتها تقييمات حضارية ، هذا أولا ...

ثانيا ، لقد ملكنا موقعنا لأول مرة منذ الاسكندر حين استعدنا القناة ، وقد أصبح من أولى مفردات الثقافة القومية عند تلاميذ المدارس اليوم أن الدفاع عن القناة يبدأ فى فلسطين على الأقل . وبوعى جغرافى لا شك فيه انطلقت مصر الثورة تشترى الموضع بالموقع فجعلت كل عوائد القناة رأسمالها للسد العالى الذى سيخلق **T.V.A.** مكبرا على النيل ويحدث بذلك ثورة جديدة فى الموضع ، وليس من الصدفة اننا لم نستطع أن نسترد القناة الا

بعد أن كانت كفاءة القاعدة البشرية قد زادت وتطورت . ان مصر المستقلة لم تبدأ الا منذ ارتفع فيها الموضع الى مستوى الموقع. وعليها دائما أن تعمق موضعها وتكثفه لكي يظل كفئا لموقعها الحاسم

وثمة ، ثالثا ، درس آخر هو أن مصر التى بدات قوة بر اساسا بحكم الموضع ، لم تلبث بحكم الموقع ان أصبحت قوة بحر أيضا ، وان يكن فى المحل الثانى، وصارت بذلك قوة أمفيبية فى الحقيقة . حقا لقد كان نداء البحر دائما أضعف من جاذبية القاعدة الزراعية الخصبة مما جعل المصريين تقليديا شعبا غير مهاجر ومرتبطا عاطفيا ببيته وبيئته ، شعبا من الفلاحين لا الملاحين . ولكن الموقع الحساس فرض عليهم مع ذلك أن ينزلوا الى الماء كرواد شواطىء وخفر سواحل ان لم يكن كمعمرين ورعاة للبحر . وقد اثبت ماسبيرو وغيره أن نظرية تحاشى المصريين للبحر تحتاج الى تعديل كبير . وقد تأكد هذا الدور فى رحلات الكشف والتجارة حول افريقيا أيام الفراعنة ، ثم فى مساهمة مصر العربية فى « ذات الصوارى » وما تلاها من معارك بحرية حتى « ديو » و « نفارين »

وهنا سنلاحظ أن مصر الامفيبية كانت الى ما قبل السويس تعانى دائما من ازدواج الساحل مع انفصاله بحيث كان أسطولها فى كل من الساحلين منفصلا عن الآخر : ولا يمكن تحويله اليه ، الا ـ نظريا ـ! بالدوران حول القارة ، تماما كما كان على روسيا القيصرية أن تدور حول الرأس لتنقل أسطولها من البلطيق الى الهادى أو كفرنسا حول ايبيريا .. والان حولت السويس مصر عسكريا من دولة ساحلين الى دولة ساحل واحد واصبح لها مرونة المناورة وذلك بمثل ما فعلت قناة بنما بالنسبة

للاسطول الامريكى

رابعا واخيرا ، يعنى هذا الوضع الأمفيبى أيضا أن مصر قوة ارتطامية ، تتوسط منطقة تصادم حساسة بين قوى البر والبحر ، أو فلنقل الآن قوى الشرق والغرب . وهذا ما يفرض عليها أن تستقل عن أى منهما ، ولهذا فان مصر التى وعت درس التاريخ قد ادركت أنها ، منذ تخلف موضعها عن موقعها وقصر ، قد اصبحت مخلوقة للحياد . ولم يكن غريبا بعد ذلك أن رسالة الحياد ـ ولكن الايجابى ـ انما تنشأ فى مصر ومن مصر تنتشر . لقد اصبحت المبادىء ، لا المصالح ، هى بوصلة مصر وسلاحها الذى يحقق شخصيتها الكامنة مثلما يعبر عنها ..

واذا كان العالم المعاصر قد انقسم منذ الحرب الثانية الى معسكرين كتلتين ، كل منهما أو على الاقل أحدهما ، يصر على أن يفرض هذا التصنيف أو التنصيف على بقية العالم ، فالحقيقة أن مصر باصرارها المقتدر على الا تنحاز أو تبتلع أو تتبع ، قد أثبتت أن العالم ليس نصفى كرة بل مثلث ، وأن أبعاد العالم السياسية ليست اثنين وانما ثلاثة : شرق وغرب وعدم انحياز . ومن المهم أن ندرك خطورة ومغزى هذه الطفرة فى استراتيجية السياسة العالمية ، اذ أنها ارتبطت كما ارتبطت سابقتاها بثورة تفتتحها وترمز اليها وتلخص أيديولوجيتها . ويمكننا أن نختزل جوهر الثورات الكبرى الثلاث فى تاريخنا الحديث كالآتى :

الثورة الفرنسية = قومية + استعمارية
الثورة الروسية = لا قومية + لا استعمارية
الثورة المصرية = قومية + لا استعمارية

فأصالة الثورة المصرية سياسيا وعالميا واضحة تماما

كثورة تحررية أساسا ، ولم يكن بد لذلك من عـدم الانحياز . من هنا خاضت مصر الحديثة ـ مصر الثورة ـ معركة كبرى لتفرض عدم الانحياز ، وبفضل قوتها المستمدة من موقعها وموضعها كانت سباقة وزعيمة فى هذا الخط الثالث وبين العالم الثالث . ولا يستطيع منصف أن ينكر أن مصر تلعب اليوم دورا عالميا شبه قيادى شبه محورى ، أكبر من كل تصور تقليدى ، وأكبر على الأرجح من جرمها المحلى الذاتى ، وأكبر بالتأكيد من كثير من قوى أوربية أبعد تحضرا وتطورا

بل قد تدرك الاجيال القادمة ، أكثر مما نستطيع نحن أن ندرك ، أن مدرسة الحياد الايجابى وعـدم الانحياز التى ساهمت مصر فى تأصـيلها وقيادتها قد أنقذت العالم من قبل من حربه العالمية الثالثة والذرية الاولى . فليس من العسير علينا أن نتصور ، لو أن مصر الخمسينات رضخت ومعها الشرق العربى للضغوط الاستعمارية وانحازت الى الاحلاف العسكرية الغربية ، كم كانت تتضاعف احتمالات الصدام بين المعسكرين فى مرحلة حبلى بالعداوات والتوتر . ان مصر لا نقول قد أصبحت « جيروسكوب » سياسيا يمنع العالم من أن تتقاذفه أمواج الصراع الكتلى ، ولكنها بثقلها الذاتى وبقيادتها المؤثرة فى مجموعة عدم الانحياز قد ساهمت فى خلق مثل هذا الجيروسكوب

الفصل الخامس

من السبق الحضاري إلى التخلف

العزلة والاحتكاك

قضية العزلة

كثيرون ممن كتبوا عن مصر يضغطون على العــزلة كملمح أساسي فى شخصيتها وتاريخها ، وأنها بصورة أو بأخرى عالم كامل وحده قائم بذاته وربما مكتف بذاته ان لم يكن مستغرقا فى ذاته . هكذا مثلا يقول جان درش (١) ، وغيره كثيرون ، بينما يتكلم مايرز عن مصر «كاقليم معزول بدرجة غير عادية وذى تركيب خاص»(٢) هذا بينما أولى الأوليات التى لا تحتاج الى تكرار وان تحملته دائما أن موقعها من العالم هو موقع القلب من الجسم أو العاصمة من الدولة ، وأنها حجر الزاوية وأرض الركن ، مجمع القارات ومفرق البحار ، وملقى الشرق والغرب ... الخ

وبديهى أن هناك تعارضا ما بين الحقيقتين . ولكنه فى الحقيقة تعارض على السطح . ويعبر جوبليه بنفاذ ثاقب عن هذا التعارض فيقول : «وعزلة مصر المفترضة»

(١) P. Birot; Jean Dresch, La Méditérrannée et le Moyen-Orient, 1956, t. II.

(٢) مايرز ص ٨٣

تلك التى تعرف عليهـا المؤرخون القـدامى بل حتى المحدثون ، لم تكن قط أكثر من ظاهرية ، لان البلد من أقدم العصور كان له علاقاته الدائمة مع جيرانه » (١) ومثله يؤكد كون : « أبدا لم تكن مصر معزولة حقا » (٢)

ونحن حين نعترف كجغرافيين ببعض عزلة لمصر خفيفة لا نقصد أكثر من ذلك ، لا نقصد عزلة « رهبنة » ولكن عزلة حمـايـة . فلم تكن مصر قط « دولة رهبنـة hermit State » وانما « دولة طريق route State » كما يعبر جوبليه مرة ثانية . فمصر تكاد تنفرد بأنهـا تجمع فى تناسب نادر بين قدر من عزلة فى غير تقوقع ، وبين قدر من احتكاك لا يصل الى حد التميع . وبهذه المعادلة الدقيقة تحتفظ بكيان وشخصية متميزة قوية . ومرة أخرى نرى أصل هذه الخاصية يكمن فى الجمع بين نقيضتى الموقع والموضع

فالموضع كواحة صحراوية يعنى ـ وحده ـ لونا من العزلة الجغرافية. فشرنقة الصحراء تغلفها لمئات الأميال شرقا وغربا وجنوبا ، ولا ينفى هذا أن هناك فى كل من هذه الاتجاهات شريطا ضيقا ما يربطها بالخارج العربى ، كنطاق كثبان سيناء الساحليـة شرقا (الجفار عنـد العرب) ، ومرمريكا مريوط غربا (مراقية عند العرب)(٣)، ونيل النوبة جنوبا . أما شمالا فهناك دائما مستنقعات الشـمال والبرارى التى فصـلت مصر عن البحر الى حد ما . هى اذن جزيرة فى الصحراء

وفى مراحل الحضارة المبكرة وتخلف المواصلات ، كان طبيعيا أن تنمى هذه العزلة الجغرافية الطبيعية الشعور

---

(١) ص ٨٣

(٢) **Races of Europe, p. 458.**

(٣) خطط المقريزى جـ ١ ص٢٠٧

بالذات فى المصريين القدماء ، ربما الى درجة الاستغراق الذاتى ethnocentrism . وقد انعكس هذا فى اسم مصر ذاتها : فكانت كيمى Ikhemi تسمى ممـا أرض مصر السوداء وعالم الارض الكوكب . بل كان المصريون أحيانا هم « الناس » والآخرون الاجانب . ومثل هذه النظرة عرفتها فى الواقع شعوب كثيرة أخرى . اى أن تلك العزلة تحولت الى عزلة مترفعة Superior isolation أحيانا ، أو اذا استعرنا وصف بريطانيا فيما بعد الى عزلة رائعة Splendid isolation . ولكن هـذه العـزلة والشعور بالتفرد والانفصال فى مصر القديمة لم تتحول قط الى نظرية عنصرية أو الى كراهية للأجانب ، بل بمجرد دخول الاجانب واسـتقرارهم كانوا يعـدون مصريين . فالوعى ــ الحاد نوعا ــ بالذات فى مصر كان اقليميا أكثر منه عنصريا ، وجغرافيا قبل أن يكون جنسيا (١)

وقد كان من الممكن لهذا كله أن يجعلها تنعطف على نفسها فى انطوائية تاريخية تجتر فيها حضارتها المحلية ، دون أن يصبح التطور والتغير وظيفة للزمن فيها . كان يمكن أن يسير خط التاريخ فيها فى زقاق مغلق تدور فيه حول نفسها . واذا كانت العزلة فى التاريخ كما فى البيولوجيا يمكن أن تكون نقطة البدء فى تأصيل أنماط وابتعادات جديدة تتبلور الى أنواع أو حضارات جديدة ، فان هذا النوع من التطور تدهورى فى الغالب لأنه لا يلبث أن يتحول من التبلور الى الجمـود والتحجر ، ومن الحيوية الى التكيس أو التكلس . وكما وجد داروين أن الجزر المحيطيـة المتطرفة المنعـزلة هى مواطن الانواع القـديمة المنقرضـة ، فـكذلك يمكن أن تكون الجزر

(١) ويلسون ص ٤٠ ــ ٤٢

الصحراوية المنعزلة متاحف جغرافيـــة لحضارات بائدة منقرضـة (١)

ولكن مصر وان كانت جزيرة صحراوية بالموضع فانها بالموقع فى قلب الدنيا وعلى ناصية كل التيارات الحضارية والتاريخية والثقافية . انها برج مراقبة أو مرصد يغطى العالم القديم برمته . ولهذا لم تملك أن تنعزل أبدا عن تيارات التاريخ وحركات الحضارة . ومن هنا فان وعى مصر القديمة بنفسها اقليميا سرعان ما تضاءل مع التاريخ وتطور المواصلات وانفتاح مصر على الشرق القديم . حتى اذا وصلنا الى مراحل التاريخ الوسيط والحديث لم تعد تلك العزلة الجغرافية ــ التى لم تكن قط كاملة أو حادة ــ الا ظلا باهتا وكما محدودا لا سبيل الى المبالغة فيه . وفى الحضارة كما فى البيولوجيا ، أن البديل الوحيد للعزلة كعامل فى تأصيل الأنماط والانواع الجديدة الخصبة الثرية انما هو الاختلاط والاحتكاك (٢) ولكن الافراط فى الاختلاط كالافراط فى العــزلة ليس تطورا خلاقا : اذ تتحول المرونة الى تميع والحيوية الى تحلل ، ويصبح التزاوج خلاسية والاتصال انحــلالا ، وتكون المحصلة النهائية حضارة لا فقرية لا قوام لها

ونحن نستطيع أن نرى أن التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع فى مصر قد زاوج فيهــا بين العــزلة والاحتكاك فى زواج سعيد ، أخذ من كل منهما محاسنه دون أضداده . فلم تكن مصر مجرد منبع لحضارة حفرية آسنة ، ولا مصبا فقط لكل وباء أو نزوة حضــارية وافدة ، بل كانت دائما منبعا ومصبا معا ، تأخذ وتعطى أبدا . ومن هنا حيويتها التاريخية وبقاؤها . ان هذا

---

(١) P. V. La Blache, Principes de Géog. Humaine.

(٢) السابق

التناسق الدقيق هو مفتاح جوهرى لشخصية مصر التاريخية ، وبه نستطيع أن نحلل كيانها الحضارى ما كان منه وما سيكون

واذا نحن أردنا أن نلخص القول فى قضية العزلة الجغرافية سواء فى الماضى أو فى الحاضر ، فلعل خير ما نفعل أن نضعها فى اطار العالم العربى حتى تتحدد بالمقارنة أبعادها ، لا سيما أن للقضية أهميتها السياسية كما سنرى فيما بعد . فنحن حين نقول ان مصر جزيرة او واحة فى الصحراء ، فلسنا نضفى عليها تفردا طبيعيا شاذا ، وانما هى صفة تشارك فيها معظم البلاد العربية كأمر واقع . فكل البلاد العربية أيضا جزر صحراوية مبثوثة فى تضاعيف المحيط الصحراوى الكبير من المحيط الى الخليج ، وكل منها يبدو ككتلة من المعمور واضحة الحدود والتباعد عن غيرها

وبالتالى فكل منها يعرف قدرا من عزلة جغرافية بالضرورة دون أن تكون هذه صفة تنفرد بها مصر . بل ربما كان منها ــ خاصة على الاطراف ــ من هو أكثر عزلة من مصر . وفى النتيجة فان العالم العربى فى مجموعه أرخبيل بشرى كبير يترامى فى بحر الرمال او بالأحرى بين بحر الرمال وبحر الماء ، ان امتاز بقدر محدود من عزلة داخلية خفيفة ما بين وحداته ، فقد الغتها من الناحية العملية ثورة النقل والمواصلات الحديثة بعد ان ظلت تنكمش وتتقلص عبر التاريخ ، فضلا عن أنه ككل يشارك ــ مع مصر ــ فى موقع بؤرى هو كالقلب من العالم القديم

السبق الحضارى

أول ما نرى حضارة مصر الزراعية الراقية نراها مع بداية عصر الأسرات (٣٢٠٠ ق . م) حين تبرز لنا فى

صورتها المتطورة الكاملة التى ترتبط فى أذهاننا بمصر الفرعونية عموما . وبديهى أن وراء هذه اللوحة التامة تاريخا تطوريا سحيقا . وتبدأ الجرثومة الاولى فى هذا التاريخ فى نهايات العصر الحجرى القديم حين لحق المناخ تغير جوهرى غير معه البيئة الطبيعية . فالصورة العامه التى يتفق عليها أغلب الأركيولوجيين يمكن أن تبسط فى أن ما هو اليوم نطاق الصحارى فى وسط العالم كان يعيش فى ذلك الوقت فى ظل « عصر مطير » ، وكان وجه الاقليم كالسفانا تغطيه الحشائش والحيوان ، وعليهما عاش الانسان صيادا ، بينما كانت أودية الانهار كثيفة بالمستنقعات والآجام أو الادغال ، ولذا كانت خالية من الحيوان والانسان ..

ومنذ ۷۰۰۰ سنة قبل الميلاد بدأ « عصر الجفاف » بالتدريج الى ان سادت الظروف الصحراوية فى كل النطاق ، فطردت الحيوان والانسان ليتجمع فى الاودية التى على العكس تحسنت ظروفها بصرف المستنقعات واختفاء الادغال . وكان النيل والرافدان أهم تلك الأودية . وفى البيئة الجديدة المحصورة لم يكن مجال للحرفة القديمة الصيد ، بل لزم الاعتماد على جمع النباتات البرية ثم تقليد الطبيعة باستنباتها ، فكان اكتشاف الزراعة . ومع اجتماع الانسان والحيوان تم استئناسه . وبدات بذلك « الثورة الزراعية » ، ومعها بدأ العصر الحجرى الحديث (۱)

وفى مصر ترك لنا الحجرى الحديث عددا من آثار الحلات الزراعية تضم مخلفات من الحبوب والفخار والادوات ، تنتشر على أطراف الصعيد ، وتمثل مراحل

(۱) V. G. Childe, Man Makes Himself, Lond., 1955; What Happened in *History*, Pelican, 1948.

مختلفة من نمو الحضارة الزراعية بعد ذلك . غير ان الحلقة شبه مفقودة بين مستواها ومستوى الحضارة الفرعونية كما انفجرت مع الأسرات بمركبها المعروف الذى يعتمد على ضبط النهر بعد صرفه وتقنيله ، وعلى زراعة الحبوب والالياف ، والاستقرار فى القرى والمدن ، والتجارة والنقل وصناعات النسيج والفخار والسلال وما صاحب ذلك من فنون الرى والعمارة والهندسة والتقويم والتخزين والملاحة ، ومن علوم الفلك والحساب والطب والكيمياء (وكلمة الكيمياء مشتقة أصلا من اسم موطنها مصر — كيمى) . وقد تم هذا التطور الضخم فى تلك المرحلة الثغرة وفى حماية الفلاف الصحراوى المحيط بالوادى . ومثل هذا يقال بصفة عامة عن العراق حيث تكثر أوجه التشابه — ولكن ليس التماثل — بين عناصر الحضارة المصرية وعناصر حضارة سومر وبابل واكاد ..

تلك هى النظرية العاملة الاساسية فى أصل الحضارة (١) ، غير اننا لا نعرف على وجه اليقين أين نشأت بالتحديد فى أى من تلك الأودية النهرية ، وان كان المؤكد أن نشأة الزراعة لم تخرج عن اطارها العام . فهل نشأت فى موطن واحد ثم انتشرت منه الى المواطن الاخرى ، أم نشأت مستقلة فى اكثر من موطن واحد ثم انتشرت حتى تقابلت وتقاربت ؟ ومن الأسبق اذا تعددت الأوطان ؟

(١) H. Frankfort, Birth of Civilisation in Near East, 1951, pp. 34 — 40; D. Davison, Story of Prehistoric Civilization, 1951, pp.2 et seq.; Huzayyin, Place of Egypt etc.; pp. 263 et seq.; K. Butzer, «Environment & Human Ecology in Egypt », Bull. Soc. Géog. d'Egypte, 1959, pp. 63 ff.; E. J. Baumgartel, Cultures of Prehistoric Egypt, Lond., 1947.

حول هـذه القضـايا الخلافية تعـددت المدارس وتضاربت ، ولكنها غالبا تدور بين قطبين اثنين ثم تعود فتتردد بينهما جيئة وذهابا من وقت الى آخر . فأما القطبان فمصر والعراق ، وأما الذبذبات فثلاث : حتى الثلاثينات أو الأربعينات كان الاجماع أقوى على أن مصر هى أصل الزراعة والحضارة ، ومنذ الحرب الاخيرة مال البندول الى العراق ، وأخيرا وفى السنوات الماضية فقط عاد يجنح الى مصر

فالجولة الأولى تمثلها المدرسة « الانتشارية » التى قادها اليوت سميث وبرى . وهى ترى فى مصر — ومصر العليا بالذات — أصل الحضارة فى العالم كله ، قامت منذ ٦٠٠٠ سنة على يد « الجنس الاسمر » كما يسمون المصريين القدماء ، وقد أطلق سميث على هذه الحضارة حضارة الشمس والحجر Heliolithic ، وهى تسمية قد لا تعبر عنها تماما كما لاحظ هـ . ج . ولز ، ولذا دعاها برى بالحضارة الأركية Archaic . وجوهر النظرية أن هذه الحضارة هى من خلق البيئة النيلية أكثر منها صنع الجنس الاسمر . فقد كان تفرد النيل دون كل أنهار العالم القديم بنظام فيضى معين هو الذى جعلها رائدة المدنية . فالنيل يقدم كل عام درسا عمليا فى أوليات الزراعة ، وهو من ثم أستاذ الفلاح ، والفلاح تلميذ مقلد للطبيعة ، وخير تلميذ هو ذلك العبقرى الذى لاحظ الفيضان وضـبط النهر ، فكانت جائزته الملك والألوهية . فالنيل اذن علم المصريين الزراعة والرى ، وتقاطرت بعد ذلك كل انجازات الحضارة

واذ تكتل هذا الرأسمال الحضارى «لأبناء الشمس» بدأ ينتشر الى الخارج مع التجارة والملاحة . وقد اطلق سميث على هذه العملية أولا هجرة الحضارة ، ولـكن

انتقال الحضارات ممكن بمجرد الاحتكاك ، ولذا عاد فدعاها انتشار الحضارة . وقد بدأ الانتشار أولا الى كل أركان الشرق القديم الهامة ابتداء من سومر وعيلام فى العراق الى كريت ، ومن تلك المحطات ازداد انتشارا الى كل اركان العالم القديم ، ثم عبر من الاخير الى العالم الجديد . وبهذا انتهى سميث الى عالمية انتشار الحضارة المصرية ثم وحدة الحضارة العالمية لاشتقاقها من جذر واحد ، ثم استمراريتها مع انتقال المشعل دائما من يد الى يد (١)

هذه النظرية الكاسحة ـ وكاسحة هى بالتأكيد ! ـ لقيت رواجا كبيرا فى حين ما ، ولكن الابحاث والانتقادات اثبتت تطوحها وخطأها حتى اصبحت اليوم مهجورة تماما ، يرفضها الأكثرون ولا يكاد يذكرها أحد (٢) ، وانما نذكرها هنا لا قولا او قبولا بها ، بل استكمالا للمناقشة العلمية ، ولتكون مثالا حيا على نظرية ميتة ، وحتى ندرك انه لا نهائية مطلقة فى الاصول الاولى السحيقة . والبعض يرى أن من الممكن أن تكون مصر الموطن الاصلى للشعير الذى ثبت نموه فيها بريا ، أما القمح فلا (٣) . وآخرون يقولون بامكانية نشأة الزراعة فى مصر ، أما استئناس الحيوان فلا (٤)

كذلك فثمة رأى يشكك فى امكانية بدء الزراعة فى مرحلتها الجنينية فى أنهار ضخمة يصعب التحكم فيها كالنيل ، وأن الأنهر الصغيرة قد تكون مشتلا معقولا ، أو على الأقل ففى الأودية الصحراوية الصغيرة التى تصب

---

(١) G. Elliot — Smith, In the Beginning Lond., 1928.

(٢) Brodrick, Tree of Human Hist., p. 104

(٣) Coon, Caravan, p. 34.

(٤) Davison, p. 33

فى النيل على حواف الهضبة مثل هذا المشتل (١). وعدا هذا وذاك فقد ذهب آخرون الى التساؤل عما اذا كانت الحضارة المصرية قد نشأت أصلا بين سكان البحيرات والمستنقعات فى شمال الدلتا ، تاركين الصعيد كلية . وعموما وعلى اية حال ، فهناك من قد لا يرفضون احتمال نشأة الزراعة فى مصر ، ولكنهم بكل تأكيد يرفضون الزعم بانتشارها على النحو الكاسح الخرافى الذى تصوره الانتشاريون

ومن ثم انتقل الجدل الى العراق حيث ظهرت مدرسة الاصل البابلى للحضارة **Panbabylonians** ومنها جاك دى مورجان وليناردو وولى وكروفورد وغيرهم . ومن هذه المدرسة اتجاه يقول بأصل أسيوى للحضارة المصرية ، وانها مشتقة من حضارة سومر ، كما فعل دى مورجان، ورتب البعض لهذا هجرات بشرية لغزاة من بابل وسومر اقتحمت مصر ونشرت فيها تلك الحضارة . ومنهم من اتى بهذا الغزو من الشمال عن طريق الدلتا ، ومنهم من جاء به ــ تحت اسم « جنس الاسرات » أو « الجنس الجديد » ــ من الجنوب عن طريق البحر الاحمر ــ ثنية قنا ، بل هناك من جمع بين الغزوين والطريقين فى وقت واحد ! (٢)

وبغير تفاصيل ، فان هذه النظريات جميعا لا تعتمد الا على الاساطير الخرافية أساسا ، ولم يقم دليل علمى عليها حتى أصبحت بالية مهجورة كالانتشارية . ولذا ينتهى فرانكفورت الى أن العلاقات بين الحضارتين المصرية والعراقية وان تكن مؤكدة ، فان من الخطأ أن نرى مولد الحضارة المصرية كنتيجة للاحتكاك مع

---

(١) **Brodrick, Early Man, p. 173.**

(٢) ما يرز ، ص ٦٤ — ٦٥

العراق ، فلسنا نعرف متى كان هذا الاحتكاك ولا كيف كان (١)

واذا كان الاتجاه الأقدم الى اشتقاق الحضارة المصرية من البابلية قد سقط ، فان الاتجاه الأحدث انتقل الى القول بنشأة مستقلة لكل منهما تتسع لتفسير التشابه الكبير بينهما جنبا الى جنب مع الفروق . الا ان هذا الاتجاه يعطى السبق الزمنى ـ عدة قرون فقط قد تصل الى الخمسة ـ لحضارة بابل ، كما يرى تفوقا وسبقا زمنيا لبابل فى معرفة واستعمال المعادن بوجه عام . ومع ذلك فثمة راى أن من الصعب أن نرى لأى من الحضارتين المصرية أو البابلية أصلا محليا أصيلا ، وان كانا لا شك أصيلين فى معنى محدد وهو قيام حضارة المدن فى كل منهما (٢) . كما أن هناك من يرى أن توقيت الفيضان وعلاقته بمواعيد الزراعة الشتوية أنسب فى مصر منه فى العراق ويعطى الاحتمال الأقوى للأولى كمهد وموطن أول

وهكذا ، اذا كانت المدرسة البابلية قد تخلت عن الزعم بأنها أصل الحضارة المصرية وانتهت الى الاكتفاء بسبق زمنى قصير عليها ، فقد عادت الأسبقية فيما يبدو مرة أخرى الى مصر فى السنوات الاخيرة مع كشوف النوبة ، حيث كشفت الحفائر غير بعيد عن ثنية قنا عن مستعمرة من الحجرى الحديث ترجع الى ١٤ الف سنة مضت . ولا شك أن هذا يشير الى مرحلة أولية بعيدة عن مركب الزراعة الكاملة وحضاراتها المتطورة التى هى موضع الجدل . غير أن من الواضح بعد هذا كله أن نظرية عصر الجفاف ، التى اتخذت أساسا للمناقشة

---

(١) ص ١١٠

(٢) Coon, Caravan, pp. 34 — 5.

كلها ، تفترض ــ منطقيا ــ أن كشف الزراعة انما كان محليا بالضرورة حين انحصر الانسان فى شقة الوادى (١)

ومهما يكن من أمر ، فالحقائق الراجحة التى يمكن أن نخلص بها من هذا العرض كله هى أنه وان كان من الممكن والمتصور أن تعرف الزراعة البسيطة بمراحلها الأولية فى أكثر من موطن كاكتشاف مستقل ، فان مركب الزراعة المتطورة الذى يحدد بدء الحضارة الحقيقية قد ظهر فى مصر مبكرا بما فيه الكفاية كنمو محلى مستقل غير مشتق ولا منقول من مصدر خارجى

ومن الطريف أن نلاحظ أن أغلب من يزعمون أصلا مستوردا للحضارة المصرية أو يذهبون الى أنها نتيجة التفاعل والالتحام بين حضارتين واحدة وافدة من آسيا من الشمال واخرى محلية أو وافدة من افريقيا من الجنوب ، هؤلاء هم انفسهم يؤكدون أن الحضارة المصرية كانت « شيئا مصريا خاصا » ، أو أنها فى كل تطوراتها اللاحقة « كانت مرتبطة بظروف وادى النيل المناخية الفريدة الى حد أن الحضارة المصرية لم تصدر كما صدرت حضارة سومر » (٢) . فالتناقض هنا صريح بين خلاسية وتهجين الأصل المزعوم ، وبين أصالة وتفرد بل « وغرابة » التركيب المقول . .

بصرف النظر اذن عن الأسبقيات المطلقة ، التى ربما لن تتوفر الأدلة اليقينية على تحديدها بسهولة ، وبصرف النظر عن أولوية الدلتا أو الصعيد ، فالذى لا شك فيه أن الزراعة ، ان لم تكن قد ولدت فى تربة النيل وأحضانه وعمدت لأول مرة بمياهه ، فان مصر كانت بأى مقياس من البلاد الرائدة السباقة الى تأصيل الثورة الزراعية

---

(١) Brodrick, Early Man, p. 176.

(٢) السابق ، ص ١٧٦ ــ ١٧٧

واقامة أسس حضارة العصور القديمة التى فاجات العالم بها مكتملة أو شبه مكتملة مع بداية عصر الاسرات . فالسبق الحضارى اذن سمة أصيلة من سمات شخصية مصر التاريخية . واذا كان قد حدث بعد ذلك تخلف ازمن طويلا كما سنرى ، فسنجد هذا السبق يعود ليؤكد نفسه فى أكثر من مرحلة لاحقة ليس اقلها أهمية الفترة الحديثة المعاصرة . ولهذا فلنستعرض، فى نظرة تلسكوبية شاملة ، مراحل الحضارة المصرية ككل لنتعرف على نبضها وضوابطها واتجاهاتها

مراحل تاريخنا الحضارى :

انثروبولوجى ينظر الى مصر

ومراحل تاريخنا الحضارى ليست الا النتيجة المتغيرة على العصور للشد والجذب بين قوتى العزلة والاحتكاك، اى الموضع والموقع على الترتيب . ويمكننا فى الواقع أن نقسمها الى اربع نناقشها تباعا هى : مرحلة صناعة الحضارة ، ثم مرحلة تصدير الحضارة ، ثم مرحلة الاكتفاء الذاتى ، واخيرا مرحلة استيراد الحضارة . والجدير بالملاحظة أن هذه المراحل ترتبط وثيقا بمراحل تطور المواصلات باعتبارها من دوافع الاحتكاك ومذيبات العزلة ، مع العلم بأن دور العزلة يقل ويضعف كاتجاه عام على مدى التاريخ بينما يزداد دور الاحتكاك ويتضاعف

فأما مرحلة صناعة الحضارة فتتفق مع مرحلة التاريخ النهرى Potamic حين كانت مصر مشتلا ممتازا لتاصيل حضارة مبكرة سباقة مادتها الخام هى فيض الثروة الفيضية وصوبتها الزجاجية التى تحمى طفولتها هى الغلاف الصحراوى . فالعزلة النسبية كانت لازمة

فى المراحل الاولى لضمان الطمأنينة والاستمرار حتى تنضج البادرة بعد أن تجرثمت وحتى تتحول فى النهاية الى عود صلب . كان ظهور الحضارة هنا « خطة عامدة متعمدة وضعها الجغرافى الاعظم » كما يقول كون (١)

وكانت مصر اذن « مصنع » الحضارة . وهكذا حين بدأت الحضارة المصرية الفرعونية تخرج من مشتلها ظهرت فجأة فى مرحلة نامية متطورة راقية انبهرت لها الشعوب المجاورة ، كما كان لها طابع خاص قوى الشخصية والتفرد بحكم العزلة التى تأصلت فى ظلها . ولعل هذا التفوق المبكر مع العزلة النسبية الخفيفة هو السبب فى تلك العزة والشعور بالعظمة التى عرفت عن مصر القديمة ـ لكن دون أن تصل الى الاستعلاء والعنصرية (٢)

وقد كان طبيعيا مع توسع شبكة الاتصالات فى العالم المعروف وخروجها من مرحلة الانهار الى البحار thalassic أن يزداد احتكاك مصر بالخارج . وكانت حاجتها الى كثير من الخامات التى لا تتوفر فى البيئة المحلية كالاخشاب والبخور مما دفعها الى الملاحة البحرية والتجارة البعيدة المدى . وكان طبيعيا أن يأخذ هذا الاحتكاك شكل « تصدير الحضارة » المصرية . فأصبح مصنع الحضارة متجرا لها ايضا . والاستعارة من المركب الحضارى المصرى حقيقة عرفتها فينيقيا والشام حتى ميديا وأرض الحيثيين ، وامتدت عناصرها الى بابل وآشور . ومن المعروف أن جاليات مصرية من التجار أو الموظفين أو المحاربين كانت توجد من فترة الى اخرى فى العصور الفرعونية ، كما كانت بيبلوس (جبيل)

---

(١) Caravan, p. 19

(٢) Ruth Benedict, Patterns of Culture, 1935.

قاعدة امامية للتبادل والنفوذ المصرى . وقد قدمت اللغة المصرية القديمة احدى الخامات القاعدية للأبجدية التى تفاعلت مع الفينيقية حتى تحورت الى الأبجدية السينائية التى ستكون عنصرا أساسيا فى تطوير الكتابة فى أوربا

اما غربا فقد تشبعت حضارة كريت واليونان بالمؤثرات المصرية، والثابت أن الحضارة المينوية اقتبست كثيرا من دفعتها وعناصرها من الحضارة المصرية . وثابت ايضا أن الحضارة اليونانية قامت على أسس من الاستعارة الصريحة من المينوية ، ولهذا لم يكن غريبا أن يعترف هيرودوت بفضل الحضارة المصرية على اليونانية . كذلك فقد امتدت المؤثرات الحضارية المصرية غربا الى ليبيا ، كما تسربت جنوبا حتى بونت الصومال وسودان العالم الزنجى

والواقع اننا لا نبعد عن الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان مصر الفرعونية فى الجزء الاكبر من تاريخ الأسرات كانت بمثابة نواة وقلب لمنطقة حضارية بالمعنى الانثروبولوجى Kultarkreise تترامى عبر كل هذه الآفاق ، منها تتوزع التجديدات والعناصر الحضارية المادية واللامادية، وذلك دون أن نلتزم بنظرية الانتشاريين الشوهاء . كذلك لم تكف مصر عن تطوير مركبها الحضارى بعد أن استكمل عناصره الاساسية . ويكفى أنها فيما يقدر كادت تتوصل الى ارهاصات التوحيد (اخناتون) وكادت بذلك أن تكون الأولى فى العالم ، ولكن يبدو أنها كانت بادرة لم تجد التربة الصالحة فانقرضت مباشرة

ومن الناحية الاخرى ، فان مصر من جانبها لم تتوان من الاستعارة الحضارية كلما أتيح لها ذلك . فقد اخذت على سبيل المثال الخيل والعجلة عن الفزاة

الهكسوس ، وهما نتج أصيل لبيئة الاستبس لم يكن للبيئة الفيضية النيلية من سبيل اليه بطبيعتها (١) . كذلك فقد ادخل الجاموس والابل فيما بعد فى العصور الرومانية والعربية ، فأخذتهما مصر دون تحرج

ومن الضرورى هنا أن نعرض للاتجاه الذى ظهر منذ سنين الى التقليل من انجازة الحضارة المصرية ، والى التقليل أكثر وأكثر من أثرها خارج حدودها . فهنـاك من ينتقد عليها فقرها النسبى فى النواحى العقليـة ، وهناك من يرى انها كان ينبغى أن تقدم أكثر مما قدمت بوجه عام . اما عن أثرها الخارجى فيدور النقد على أساس أن « الحضارة المصرية ظلت شيئا على حدة فى العالم القديم » ، فلم تصدر كما صدرت حضارة سومر، وأن « من الغريب أن نتذكر أن مصر ، رغم كل أمجادها ، لم تمدين حتى أى جزء من أفريقيا ، بينما أن السومرية ترقد عند أصل وأساس الحضارة الغربية » (٢) وكل ما يمكن أن يقال ازاء هذا التعميم الكاسح ، أن حقائق التاريخ ليست فى صفه ، ويظل دور الحضارة المصرية وثيقا . .

وقد يمكن بعد هذا أن نعتبر العصر العربى الاسلامى امتدادا لمرحلة تصدير الحضارة المصرية . فرغم أن مصر تمثلت الثقافة العربية كلية ، فان النهضة الحضـارية العربية التى حدثت من تفاعل العرب مع أبناء البلاد التى دخلوها هى انتاج مشترك أساسا . والحضارة العربية الجديدة التى بدأ تصديرها الى أوربا الجنوبية وغيرها كانت تشمل بالضرورة خيوطا مصرية كثيرة فى نسيجها . والواقع أن ملكة مصر الطبيعية ، ملكة الحد الأوسط ،

---

(١) Childe, Soc. Evolution, p. 15

(٢) Brodrick, Early Man, p. 177; Tree etc. p. 125.

تبرز حتى مع العرب : فمصر القبطية تأثرت بالجديد الذى اتى به العرب من لغة وعقيدة لا لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب ، ولا لأن الصراع اللغوى يجدده الصراع السياسي فحسب ، وانما أيضا لأنها أدركت بسرعة أن العرب قد أتوا بجديد حقا . ولكنها بعد أن أجادت ما أخذته ، لم تلبث ان جودته كعهدها دائما

ولا نحسب اننا نتوهم اذ نقول ان اللهجة المصرية مثلا كانت دائما أقرب لهجة عربية الى الاستقامة والاعتدال . بل نرجو ألا يجانبنا التوفيق اذا زعمنا أن ممارسة الاسلام نفسه بلغت على يديها درجة من الرصانة والاستواء جعلت من ازهرها قلعة للاسلام وكعبة للاسلاميات . ومنذ وقت مبكر فى تاريخ الاسلامية كان واضحا انها تتقدم بثقة لتكون من طليعة سدنة الاسلام وحفظة تراثه والقوامين عليه . بل لنا أن نلاحظ أن كل الخطوط المتطرفة أو الابتعادات غير « الارثوذكسية » فى العقيدة لم تجد بيئة تعيش أو تعشش فيها بمصر حتى ان فرضت عليها ، كالشيعية التىأشاعتها الفاطمية وحقنتها بها طويلا ثم ما لبثت أن انقرضت تلقائيا مع زوالهم ، فلم تكن أكثر من مجرد جملة اعتراضية فى اسلام مصر

ومهما يكن ، فان دور العرب عموما فى مصر وفى غيرها لا بد أن يدعو الى التفكير . فهم لم يأتوا معهم بحضارة ذات بال ، ومع ذلك بعثت الحضارة على أيديهم حيث دخلوا . والواقع أن دور العرب الحضارى كان دور الشرارة التى ألهبت الوقود الحضارى الخامل فى مصر دون أن تجيئنا بجسم الوقود نفسه ، ثم ذابت النار فى الوقود كما انصهر الوقود فى النار ، أو كان هو دور

الذكر الذى كل وظيفته أن يلقح ملكة النحل

وفى اطار هذا الدور – الذى لا يقلل قط من خطورة الأثر العربى فى مصر – يمكن أن نفهم بعض الجوانب التى تبدو متعارضة فيه . فأغلب نظم الادارة وشئون الحكم وفنون الرى والزراعة .. الخ التى صنعتها من قبل ضرورات البيئة الفيضية ، ورثها العرب بقليل من تغيير . ولكنهم من ناحية أخرى طعموا الاقتصاد الزراعى بعناصر جديدة وخطيرة حين أدخلوا القصب والارز والموالح وغيرها . وفى مجالات أخرى نجد أثرهم واضحا ، حين أدخلوا – فى البداية وقبل الورق – جلد الرق للكتابة ، وهو نتج بيئة الرعاة ، وأحلوه محل البردى ، الذى كان انبثاقا طبيعيا فى بيئة فيضية (١)

وفى جوانب أخرى حدث العكس ، فيقال مثلا ان قطع يد السارق لم يتح له أن يحل محل قطع انفه على نحو ما كان يفعل المصريون القدماء فى بيئة زراعية يد الفلاح فيها هى أداة الحياة . كذلك كان طبيعيا أن تنسخ الحضارة العربية الاسلامية بعضا من عناصر الحضارة المصرية القديمة وتدفنها الى الابد ، فلم يكن لأى من نحت التماثيل أو فن التحنيط مكان فى الحضارة الاسلامية ، فهجر الأول واختفى الثانى حتى ضاع سره تماما ..

وعلى أية حال ، فقد كانت مصر العربية خلية حضارية مضطرمة فى قلب العالم الاسلامى ، وترتبط بجميع أجزائه وبالعالم الخارجى مما زاد فى عملية الاخصاب الحضارى . وقد ظل هذا حتى بداية « العصر المحيطى » حيث حدث الأسر النقلى وتحولت مصر مع بقية الشرق العربى الى العزلة مرة أخرى، فكانت المرحلة

(١) مايرز ، ص ٥٠

مرحلة الاكتفاء الذاتي الحضاري في حدود الدائرة الاسلامية : عملية استهلاك محلي واجترار للتراث الحضاري المتراكم من العصر الفرعوني المتنحي والعصر العربي السائد، دون ما اضافة أو تجديد حتى استنفدت نفسها وانتهت في عزلتها الى عقم وجدب معروفين . لقد انتقل مصنع الحضارة ومتجرها الى مجرد «متحف» للحضارة على أحسن تقدير

والقصة بعد هذا هي قصة مرحلة «استيراد الحضارة» التي بدأت حين اقتحمت الحضارة الحديثة والمواصلات العالمية أركان الأرض وراحت تتفجر حوله وتغزو الشرق كله حضاريا . وهنا لم يعد للعزلة مكان ، وأصبحنا بحق في « عصر الاحتكاك الحضاري » الذي تعيشه مصر كما تعيشه بقية العالم المتخلف والنامي أو العالم الثالث عموما . ولكن الشيىء الذي يميز الاحتكاك في مصر خاصة عنه في كثير من مناطق العالم انه لم يكن عملية احلال وذوبان ، لم يكن مجرد عملية تحضير acculturation ، ولا كان ابتلاعا حضاريا enculturation انها أساسا عملية تبادل حضاري transculturation : عملية امتزاج انتخابي أساسا خرجت منها الشخصية المصرية كما كانت دائما ذات طابع قوي دفين ، ولم تفقد قوامها الأصيل

بعبارة اخرى ، لم تتحول مصر نافورة الحضارة القديمة الى مجرد بالوعة للحضارة الجديدة ، ولكن الى بوتقة صهرتها لتشكلها بما يتفق وتراثها . بمعنى آخر ، جاء الدور المعاصر دور « المعمل الحضاري » . ونحن نرى أن هذا ليس الا صورة جديدة معاصرة من معادلة التوازن الدقيق المتأصلة بين الموقع المعقدي على مفترق طرق العالم ، وبين الموضع المحمي في اطاره الصحراوي .

والواقع أن عملية الاحتكاك مع الغرب مرت فى ثلاث مراحل واضحة بما فيه الكفاية ، ولا تبعد عن منطق الديالكتيكية من تقرير فنقيض فتركيب

فالأولى مرحلة الانبهار الحضارى والانهيار النفسى . فقد فوجئنا بأننا أقزام أمام عمالقة . وكان رد الفعل « مركب نقص » حضاريا شديدا ، أفقدنا كل ثقة فى تاريخنا وتراثنا وكياننا ، وجعلنا نتهافت على النقـل والتقليد بلا تمييز ، فكانت صيحات التفرنج ومحاولات تحويل مصر الى « قطعة من أوربا » . بل وصل الأمر الى اقتراح الحروف اللاتينية المعروف ، والى المناظرة الجوفاء فى الثلاثينات بين الثقافة اللاتينية والسكسونية. كانت هذه مرحلة تنذر بالخلاسية pastiche ، تتحول بها مصر الى لافقرية حضارية ومخلوق شاذ مخلط ـ pseudomorph كما يعبر شبنجلر .

لكن المرحلة الثانية جاءت رد فعل عكسيا . فبعد أن خبرنا ومارسنا دخائل الحضارة الجـديدة ـ والالف يورث الاحتقار ـ زال الانبهار وعادت الينا بعض الثقة فى أنفسنا وأدركنا فضلنا غير المباشر فى أصول هـذه الحضارة . ولكن البعض تطرف فطالب بالرجوع الى الماضى واشتدت الحركات « السلفية » . وقد كانت هذه مرحلة الانتفاض السياسى أيضا ، وأدى نجاحها بالبعض الى تطرف جديد وصل الى درجة الغفلة أحيانا ، فقد انقلب مركب النقص الحضارى الى مركب عظمـة هو فى الحقيقة مركب نقص مقلوب

غير أن المرحلة الثالثة بدأت بسرعة وربما كنا نعيشها اليوم ، وهى مرحلة الاعتدال . وأدركنا أننا لا بد أن نستعير ، ولكن استعارة رشيدة انتخابية ، استعارة هضم وتمثيـل لا اغراق وذوبان ، اسـتعارة تمالك

لا تهالك ، تأخذ الزبد دون الزبد . ولهذا فنحن الآن نجمع بين الأصيل والدخيل ، القديم والجديد ، بين التقاليد والتقليد ، فى نسب متفاوتة وفى اتزان واختيار محسوب . كذلك فقد أدركنا أننا وان كنا يجب أن نعتز بما قدمناه للحضارة والتاريخ ، الا أننا لا ينبغى أن نعتمد على ذلك أكثر مما ينبغى . ولكننا من الناحية الاخرى اذا كنا سنستعير ففى تواضع لا فى ضعة . باختصار ، ليس فى ماضينا ما نتبرأ منه ، ولا فى حاضرنا ما نخجل منه . ومن المرجح فى النهاية أن مصر أعطت العالم على مدى تاريخها عموما أكثر مما أخذت

وهنا يجدر بنا أن نعرض لدعاوى الغرب والاستعمار التى تصور واقعنا الحضارى المعاصر بل وكل وجودنا البشرى ذاته على أنه فضلة من فيضه وفضله . فما اكثر ما يتردد فى كتابات الغربيين وخاصة الانجليز من أن كيان مصر الحديثة هو من صنع الادارة والتكنولوجيا والطب الأجنبى ، وذلك ابتداء من السدود والخزانات ونظم الرى والزراعة الحديثة الى مدننا وطرقنا بل وحتى الى وجودنا البيولوجى نفســه ممثلا فى نمو الســكان وتزايدهم ! (١)

ولكن الحقيقة أن هذا الغرب يدين ، وان يكن بطريق غير مباشر ، بأصول حضارته الى ما قدمناه فى القديم سواء عن طريق ما استعاره اليونان من مصر القديمة خاصة او ما استعارته أوربا الوسيطة من عرب الاسلام عامة . ولهذا فاذا عد الغرب نفسه اليوم أســتاذنا حضاريا ، فقد كان تلميذنا بالأمس ، ومن ثم فان هى الا بضاعتنا ــ مهما تحورت وتطورت ــ ردت الينا ، وما هو الا دين قديم تأجل سداده قرونا . ونحن فى هذا

---

(1) Beaujeu - Garnier, p. 70.

نختلف عن بلد كاليابان أخذ بالحضارة الاوربية الحديثة اخذا شديدا دون عطاء سابق ، أما نحن فعلاقتنا الحضارية علاقة أخذ سبقه عطاء

وعدا هذا ، فقد ألفنا أن نعد مصر الحديثة مع غيرها من العالم الثالث من البلاد المتخلفة التى يطلق عليها الآن ـ مجاملة ـ البلاد النامية . وانها لكذلك بالتأكيد اذا ما قيست بمقياس الغرب . ولكن هذا لا ينبغى أن ينسينا أنها بمقياس الشرق وعالم الاحتكاك الحضارى سباقة ومتقدمة ، فقد كانت منذ أوائل القرن الماضى رائدة فى كثير من وجوه التحضر ، بل وكادت أن تلاحق الغرب فى بعض انجازاته الحضارية الجديدة . ومن مظاهر هذا السبق أن مصر كانت من أولى دول العالم فى ادخال السكك الحديدية ، وتاريخها مع البترول تاريخ مبكر بصورة ملحوظة ، ونحن فى الأخذ بالفنون الهيدرولوجية الحديثة نسبق الهند ، وحتى فى الثورة الديموغرافية قد نكون من اسبق بلاد الشرق وربما لا نتخلف كثيرا عن بعض طلائع الغرب بداية وحجما

ولسنا بالتأكيد ندعى المقارنة بالغرب الحضارى ، ولكنا نزعم أن السبق المصرى الذى عرفته مصر القديمة ، قد عاد فى عصر الاحتكاك الحضارى الحديث ليؤكد نفسه ، وان كان هو فى الأولى سبق الخلق وفى الثانية سبق النقل . وهذا واضح تماما اذا قارنا مصر بافريقيا ، وحتى فى العالم العربى يقدر توينبى أن مصر تسبق فى تطورنا الحضارى الحديث بفارق زمنى يختلف من بلد الى بلد ولكنه فى حده الأقصى قد يصل الى ١٥٠ سنة

وهنا تبدو لنا مصر وكأنها ـ فى معنى ـ يابان افريقيا . فكما كانت اليابان أسرع دول آسيا الى تشرب الحضارة الحديثة وأشدها أخذا بها ، فان مصر هى الأولى فى

القارة والشرق الاوسط . غير أن هذا التشبيه يصدق من حيث الأولوية الزمنية وسرعة الانطلاقة ، أى من حيث الدرجة ، أما من حيث النوع فقد أخذ كل منهما خطا مختلفا

ضوابط السبق والتخلف

عند هذا الحد ، وبعد هذه الدورة الحضارية الكاملة والمفعمة ، لا بد لنا أن نقف الآن عند هذه المتناقضة : السبق الحضارى والبداية المبكرة أولا precocious ثم الجمود والتخلف الحضارى بعدذلك وربما مبكرةايضا وقبل الاوان . premature اى اننا ازاء بداية مبكرة ونهاية مبكرة معا . فكيف نعلل لذلك ؟ لعلها أولا أن تذكرنا ـ عابرين ـ بمتناقضة مناظرة سارت موازية لها على المستوى السياسى ، ونعنى بها تحول مصر من امبراطورية من طلائع الامبراطوريات فى التاريخ الى واحدة من أطول المستعمرات التى عرفها التاريخ . وربما كانت الدورتان مرتبطتين عضويا ، ولعلهما وجهان لحقيقة واحدة ، غير أن علينا هنا أن نبحث عنالاسباب النوعية. ولعلك واجدها أساسا فى ضوابط البيئة الطبيعية ورد الفعل البشرى . كذلك فلعل صيغة توينبى الايكولوجية الشهيرة عن « التحدى والاستجابة » أن تقدم لنا مفتاحا مقنعا للسبق المصرى فى البداية

ففى ازمة « عصر الجفاف » التى حزبت سكان الصحراء الافريقية فى أواخر الحجرى القديم وحشدتهم قسرا فى بيئات الأودية النهرية المحدودة ، يرى توينبى التحدى الاول الذى واجه سكان مصر وألهب مخيلتهم الابداعية من أجل البقاء ، فكان اكتشاف الزراعة هو الاستجابة الحرجة والخلاقة (١) . ومن السهل أنتصور

(١) A. Toynbee, A Study of Hist; O.U.P. 1945, vol. 1, pp. 302 - 15.

أن عملية الاحتشاد في رقعة الوادي الضيقة كانت عملية انتخاب طبيعي قاسية أبقت على العناصر الصالحة لمواجهة البيئة الجديدة .

وسواء قلنا ان الفضل في السبق الحضاري يرجع الى النيل أبى الزراعة الحقيقى ومعلم الفلاح ، او قلنا انه يرجع الى الفلاح ذلك « العامل الجغرافى » وذلك المهندس المشترك الذى أعاد تشكيل وخلق البيئة الطبيعية الى لاندسكيب بشرى ، سواء قلنا بهذا أو بذاك ، فالسبق المصرى الحضارى يؤكد قانونا ايكولوجيا هاما للغاية وهو أن الذى يبدأ الحضارة لأول مرة انما هى تلك البيئات « السهلة » ، بيئات الرخاء والوفرة الطبيعية حيث تأخذ الطبيعة جانب الانسان وبيده . ولا شك أن بيئة مصر الفيضية قد جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وبين امكانيات العمل ، بين الضرورة والاحتمالية ، فمصر كانت فى طبيعتها غنية دون أن تصل حد التبذير ، « فلم تكن الثمرة تساقط من الاشجار لفلاحين كسالى » . (١) ولقد وفر النيل والشمس خامات الحياة ، ولكن كان لا بد لصنعها من معركة ضد الموت : ضد الفيضانات ، وضد الرمل والملح ... الخ . ولهذا كان الجهد البشرى شرطا للتقدم ؛ وكان التقدم مكافأة الجهد البشرى . وتلك بالدقة خصيصة أقاليم الوفرة كما حددها فلير (٢)

البيئة السهلة اذن هى حضانة الحضارة ومشتل التاريخ . وهذا تفسير مقنع للسبق المصرى ، دون حتم جغرافى أو نظرية عنصرية فى نفس الوقت . ولكن التخلف

---

(١) ويلسون ، ص ٤٥

(٢) H. J. Fleure, « Human Regions », Geog. Teacher, 1917, pp 30 ff.

الحضارى الذى حل بعد ذلك انما يجىء ليكمل الشطر الثانى من القانون ، وهو أن الذى يصعد بعد ذلك بالحضارة الى أعلى مراتبها وأعقد مراحلها انما هى البيئات « الصعبة » التى يزداد فيها تحدى الطبيعة للانسان ولا يمكنه أن يقتحمها الا بالمفتاح الحضارى المناسب الذى طورته البيئات السهلة من قبل وقدمته هدية أو اعارة له . أى أن الانسان يغزو البيئات الصعبة بحضارة البيئات السهلة . ومن ثم فالبيئات السهلة قد تكون مشتلا أو حضانة حقا ، الا أن المشتل ليس الحقل الأخير والحضانة بطبيعتها مرحلية . واذن فمشعل الحضارة دوار أبدا

واذا كانت البرودة هى من أقسى العقبات البيئية وكانت الحرارة المعتدلة عاملا مساعدا للانسان فى أدوار حضارته الاولى ، فقد كان طبيعيا أن تهاجر الحضارة بالتدريج من العروض الدافئة الى العروض الباردة ، بعيدا عن خط الاستواء وفى اتجاه القطب — أو هكذا على الأقل يعتقد بعض الكتاب (١) . وزحف الحضارة التاريخى يرسم بالفعل قوسا يبدأ من الشرق الاوسط القديم متتبعا سواحل البحر المتوسط ثم الاطلسى . ولهذا فكما فاجأت مصر القديمة الشرق القديم بحضارة رائعة مكتملة فى حينها ، ستجد مصر الحديثة أمامها فجأة حضارة معقدة أرقى بكثير تطرق أو تقتحم ابوابها عليها بلا استئذان حيث كانت الحملة الفرنسية كزيارة الكومودور بيرى لليابان ، وكل وضع حدا « لفترة عزلة» شهيرة . واذا أردنا مثلا واحدا يختزل هذه الدورة

---

(١) E. Huntington, Climate & Civilization, pp. 396-7; Mainsprings of Civilization, N.Y. 1945, pp; S.F. Markham, Climate & Energy of Nations, 1947, pp. 11-8.

الكاملة ، فلعل شيئا لايمثلها كما تمثلها مراحل ضبط النيل عندنا بالذات . فالنيل أعطى مصر حضارتها الاولى التى سبقت بها العالم وفاضت بها عليه . واليوم بعد أن طور ذلك العالم هذه الحضارة ونماها الى أعلى واعقد تركيب عاد بها الينا لنصل بضبط النيل الى قمته فى السد العالى

ملكة الحد الاوسط

بعد السبق الى التحضر ، لعل أخص ما يميز احتكاكنا الحضارى مع الغرب عنصر الاتزان عن طريق الاستعارة الانتخابية والتعايش بين القديم والجديد . ويمكن للأنثروبولوجى الناظر الى مصر المعاصرة أن يرى بسهولة أن الماضى يعيش فى حاضرنا ، غير أننا نعيش أساسا فى الحاضر . وهذه الصورة لا تجعلنا من الغرب أو الشرق تماما ، وانما تجعلنا « مصر العربية » أولا وأخيرا — مصر العربية التى تؤكد شخصيتها ضد الانسياح وضد الانغلاق ، مما يحفظ لها ذاتيتها الأصيلة فى قلب دوامة عالمية . وربما كان بعض التفسير يكمن فى الفرق بين العاصمة والمدينة الكبرى من ناحية ، وبين الريف من ناحية أخرى . فالجديد والدخيل يطفر فى الأولى التى ترادف الموقع العالمى ، والقديم والأصيل يعتصم فى الثانى الذى يرادف الموضع المعزول .

والمدينة المصرية اليوم تجسيم واضح لتعاصر القديم والجديد . فهناك دائما قطاع معمارى قديم هو النواة ، يكمله نطاق حديث هو النمو الجديد . وهذه الثنائية تكاد توجد فى كل مدننا وان اختلفت نسبة القديم الى الجديد كثيرا بحيث يزداد العنصر الحديث كلما كانت المدينة اكبر واكثر تطورا . ولهذا كله فمن الصعب أن

نوافق على هذا الحكم الذى يصدره مثلا كاتب اجنبى عن القاهرة حين يقول : « ها هنا الشرق ، كأحسن ما يكون وكأسوأ ما يمكن ، وها هنا الغرب أيضا ، كأحسن ما يكون ولكن فى الأعم الأغلب كأسوأ ما يمكن »(١) وريفنا بدوره يمثل تضاغطا للتاريخ فى أكثر من ناحية : فالى جانب المحراث والشادوف وغيرهما من أدوات القرن العشرين قبل الميلاد ، نجد الجرار والخزان وغيرهما من نتاج القرن العشرين بعد الميلاد

والواقع أن المثير حقا فى كل هذا هو كيف تتمتع مصر بنظرة عالمية رحبة الافق ، كوزموبوليتانية ، دون أن تفقد قوامها الذاتى ، وكيف أن الجوهر الدفين فيها لا ينسخ وانما يتناسخ . ولكننا يمكن أن نضعها قاعدة أن مصر كلما زادت تغيرا وتطورا ، زادت شخصيتها وذاتيتها تأكيدا واستمرارا ! كأنما هى تجسيم للمثل الفرنسى المعروف « كلما تغير ذا ، كلما كان ذا نفس الشيء» «plus ça change, plus c'est la mêmechose.» حتى فى الماضى البعيد كانت «تمصر» كل جديد : تهضمه وتمثله وتفرزه كائنا مصريا صميما : الموجات الأجنبية ابتلعتها ومصرتها ، حتى الدين مصرته حين اخذت المسيحية وأخرجت منها نسختها الخاصة القبطية

وكما يقول ويلسون (٢) عن مصر القديمة : «داخل مصر كانت أشد الأفكار تباينا تتقبل بتسامح وتنسج معا فيما قد نعده نحن المحدثين كانعدام للنظام فى تضارب فلسفى، ولكنه كان للقدماء متكاملا ... كان طريق المصرى هو أن يتقبل التجديدات وأن يضمنها تفكيره ، دون نبذ القديم والبالى ... وان القديم والجديد ليرقدان معا كلوحة سيريالية ما ، للشباب والشيخوخة على وجه

(1) Hindus, p. 117.

(٢) ص ٤١

واحد » . أو كما يذكر مورنتز **Morenz** « ان المصرى لا يكون مصريا الا اذا تمسك بالقديم الى جوار الجديد ، فيوائم بينهما أو يصل احدهما بالآخر على الاقل » (١)

هذا عن مصر القديمة ، أما اليوم فيقول فيدن « ان مصر لا تتجه وجهة فرنسية ولا لفانتية فى روحهـا . فالجزء الاكبر يظل دون أن يمس ، ومصر عازفة عن أن تكون أى شيء سوى مصر » (٢) . ان ملكة الحد الاوسط هى ـ بوضوح فيما نأمل الآن ـ كلمة المفتاح والدليل فى شخصية مصر الحضـارية وفى مواجهتهـا للجمـع والتوفيق بين الماضى والحاضر ، بين المحلية والعالمية ، بين الأصالة والمعاصرة ، وبين التراث والاقتباس

ويمكننا أن نختبر ملكة الحـلول الوسـطى والاتزان الحضارى فى مصر اذا قارنا ببعض أجزاء اخر من العالم العربى . فاليمن فى بعض نواح يشبه مصر : فهى المفتاح الآخر للبحر الأحمر ، ولذا تشارك بالموقع ، وان يكن بدرجة أقل ، فى نفس المر العالمى الحساس الذى قلبه مصر . ثم هى بالموضع قلعة جبلية منعزلة مغلقة تذكر وان يكن على نطاق مكبر جدا بعزلة مصر الصحراوية الخفيفة . أى أن فى كل منهما تعارضا بدرجة أو بأخرى بين موقع مفتوح وموضع مغلق . ومع ذلك فقد أتى التكيف البشرى والتاريخى ازاء هذه المتناقضة فى كل منهما مختلفا تمام الاختلاف

فمصر أخذت من انفساح الموقع الانطلاق الحضارى والتطور الخلاق ، ولم تأخذ من انغلاق الموضـع الا صلابة الشخصية الذاتية وربما كذلك التوطن السكانى

---

(١) حسين ذو الفقـار صبرى ، « الحضـارة المصرية افريقية ام أسيوية » ، المجلة ، يناير ١٩٦٧ ص ١١

(٢) ص ٣

الذى وصل الى أقصاه فى الاستقرار وعدم الهجرة . أما اليمن فعلى العكس قد أخذ من الموضع الانطواء الحضارى والعزلة البدائية التى تكاد تجعله « دولة تبتية » متخلفة فى أكثر من معنى ، بينما لم يأخذ من الموقع الا الانتشار والتشتت السكانى حيث أن الهجرة والانتشار ظاهرة مزمنة قديمة فى المجتمع اليمانى : قديما منذ سد مأرب حين تشتتوا أيدى سبأ ، وحاليا حيث أصبح هناك « مهجر » يمنى حقيقى فى شرق افريقيا وشمالها

وقد يمكن أن نمد مقارنتنا بعد هذا الى لبنان أيضا . فهنا كذلك موضع جبلى منعزل تاريخه الحماية والالتجاء ، ولكنه فى نفس الوقت فى موقع بؤرى جدا يمثل مجمع المشرق العربى . وقد جاء التكيف البشرى هنا متطرفا جامحا بعض الشىء : كرر من اليمن تشتته وهجرته بصورة مكبرة وصلت الى حد الاقفار depopulation ، وكرر من مصر المرونة الحضارية ولكن أيضا فى مبالغة قد تصل الى الاندفاع . وبين الهجرة والانتشار من ناحية والتنافر الحضارى من الناحية الاخرى كاد أن يكون « دولة سويسرية » تنقصها الشخصية الذاتية المتبلورة

هكذا نجد فى المشرق العربى حالات ثلاث من التعارض بين توجيه الموقع وتوجيه الموضع ، ولكن بينما هى تنتهى حضاريا فى اليمن الى جمود وتدهور ، وفى لبنان الى تميع وتهور ، تنتهى فى مصر الى توازن وتطور ، ولعل هذا يؤكد كيف أن شخصية مصر الكامنة هى دائما فى ملكة الحد الاوسط وفى عبقرية الحل الوسط

الفصل السادس

البناء الحضارى والأساس الطبيعى

بين مياه النيل وطريق السويس

ما الاساس الطبيعى لبنائنا الحضارى الشامخ الذى أقمناه عبر العصور ، بمحمولاته من غطاء عمرانى وكيان اقتصادى الى تراث مادى وهيكل اجتماعى ؟ هل هو يقوم على أرض صلبة بحيث تتكافأ قوة الأساس Substructure مع عظمة الصرح Superstructure وما هى نقط القوة والضعف فيه ؟

لعل أخطر حقيقة تجبه المفكر الجغرافى فى هذا الصدد أن الكيان المصرى يستمد أصوله من مصادر « خارج الحدود» ، سواء - وهنا المصادفة الجغرافية العجيبة - فى ذلك جانب الموضع أى الوادى الزراعى ، أو جانب الموقع أى تجارة المرور . وليس من الصدفة أن العدوان الثلاثى على مصر الثورة لم يكن يستهدف القناة وحدها ، بل ومشروع السد العالى كأمل بعدها أو قبلها . ولهذا يأخذ الموضوع توا شكلا سياسيا الى جانب الشكل الطبيعى . ويصبح من اللازم أن نحقق القضية التى يثيرها البعض أحيانا فى غموض وهى : هل مصر قصر فوق الرمال ، وبناء سامق على أساس خطر vulnerable هل هذه حقيقة نقطة ضعف فى شخصية مصر التاريخية

وكيانها الجغرافي ؟ وهل هو الشعور الحدسي الفطري بذلك كله عند المصري العادي ـ المصري المؤمن القدري ـ الذي يرقد خلف تلك الكلمة المأثورة التي قيلت منذ مئات السنين : « مصر كنانة الله في أرضه ، من أرادها بسوء قصم الله ظهره » ؟ أهو الذي يكمن خلف هذه الكلمة الدارجة الحديثة « مصر المحروسة » ؟ لنبدأ مناقشتنا بالموضع ثم نثني بالموقع

الموضع

كان هيرودوت جغرافيا قبل أن يكون مؤرخا حين قال ان مصر هبة النيل . ويمكن لجغرافي اليوم أن يضيف : هبة النيل الازرق ، ذلك أن ٦٦ ٪ من مياه مصر تستمد في المتوسط من هذا الرافد وحده . والحقيقة الاولى في الوجود المصري هي أن مصر هي النيل ، فبدونه لا كيان لها ليس فقط من حيث مائه ، وانما أيضا من حيث تربته ، فان الغرين الخصب المتجدد هو جزئيا هدية غير مقصودة من رعاة الحبشة حيث يساعدون برعيهم على تعرية التربة (١) . ان النيل لا جدال « أبو مصر » (٢) منه استمدت جسمها ودمها ، أو طميها وماءها ، وكل هذا من صلب الحبشة نحت

ولكن من الناحية الاخرى قد يمكن أن نزعم ـ بقليل من مبالغة ربما ـ أن النيل بدوره هو مصر . فحوض النيل كله يستقطب حضاريا في مصر حيث لا نجد مركز الثقل في الحوض انحدارا ومائية فحسب ، بل واقتصادا وسكانا ، وحضارة وتاريخا . فالقمة البشرية هي القاع

(١) E. Hyams, Soil & Civilization, 1952 p. 46

(٢) H. Lorin, L'Egypte d'Aujourd'hui, Le Caire. 1926, p. 129.

الطبيعى والمصب الطبيعى هو المنبع الحضارى ـ والعكس . لقد صدر المنبع الحياة الى المصب ، وصدر المصب اليه الحضارة ، هذا صدر خاما وذاك أعاده مصنوعا . واذا صح ان نعتبر كثافة السكان مقياسا أو انعكاسا جزئيا للحضارة ، فقد يمكن أن نقول ان كثافة الحضارة فى الحوض تتواكب مع كثافة السكان وتكاد تتناسب معها تناسبا طرديا بصفة عامة ، فى نفس الوقت الذى تتناسب عكسيا مع منسوب الارتفاع وكنتور التضاريس

بل قد لا نبعد كثيرا عن الحقيقة العلمية اذا طبقنا بروفيل « قطاع الوادى valley section » الذى اصطنعه باتريك جديس على حوض النيل من منبعه الى المصب . فمن مرتفعات وجبال المنبع فى هضبة البحيرات والحبشة بحطابها التقليدى وصيادها ، الى سهول الوسط فى السودان براعيها وفلاحها الفقير ، الى المصب فى مصر بفلاحها الفنى وفلاحة البساتين فى الصعيد والدلتا ـ ثمة متتالية تصاعدية مطردة لا شك فيها (١) . وليس يقلل هذا من تراث أجزاء الحوض الاخرى خارج مصر ، ولا هو يجحدها فضلها ، سواء فى ذلك حضارة البحيرات « البحيرية » أو دولة اتيوبيا التى تعد اقدم أمة فى افريقيا المدارية ، أو سهول السودان العربى بثقافتها الوسيطة

على أن المهم فى هذا أن موارد المياه فى مصر لا تسقط عليها فى الداخل وانما « تدخلها » من الخارج ـ على بعد بضعة آلاف من الاميال . اى أن هذا البناء القمى الشاهق الذى يتوج حضارة الحوض يستمد وجوده من

C. C. Fagg; G. E. Hutchings, Introduction to Regional Surveying, C.U.P., 1930, pp. 135-9.

مصدر خارجى . ومصر بهذا شبه واحة « متدخلة » فيزيوغرافيا intrusive ، ولكن حكمها هيدرولوجيا حكم الواحة التى تنبع آبارها خارج رقعتها أو حكم الجزيرة التى يقوم اقتصادها على التبادل الخارجى . انها باختصار نموذج البيئة الفيضية الكامل و « دولة الرى » المثالية فى العالم ، تلك التى يقع أساس حياتها خارج حدودها السياسية (١) . وتلك لا شك نقطة حرجة فى الاساس الطبيعى لكيان أى دولة . وبهـــذا صارت الاخطار الكامنة فى الاعتماد على النهر مزدوجة : اخطار فى نظام النهر الهيدرولوجى ، وأخطار فى السياسة المائية . ولنبدأ بالاولى أولا

ثمة ابتداء حقيقتان أوليتان لابد ان نتذكرهما كنقاط قوة أساسية للزراعة المصرية ، وذلك قبل أن نحلل مخاطرها ومحاذيرها . فالتربة المصرية أولا تربة متجددة على السنين وكل السنين ، وهذا مصل طبيعى مضاد للاجهاد والاستنزاف . وبالتـــالى فان الزراعة المصرية تتصف بالثبات والدوام ، فهى ليست زراعة دورية تجود سنة كل بضع سنوات ، فضلا عن أن تكون زراعة مهاجرة أو متنقلة . من هنا وهناك الثبات والاستمرار الخارق فى العمران والحضارة المصرية

الحقيقة الثانية هى أن الزراعة الفيضية بعامة رغم خضوعها نهائيا لضبط « المناخ البعيد » ، فمن المؤكد انها أكثر استقرارا وثباتا وأقل ذبذبة من الزراعة المطرية التى تعتمد على المناخ المباشر . ولعل هذا يرجع الى أن آثار الذبذبة المناخية فى الاخيرة تنعكس على المحصول مباشرة ، أما فى الاولى فهناك فارق زمنى يخفف من وقع

---

(1) S. V. Valkenburg, Elements of Political Geog., p. 118.

الصدمة كما أن مصادر التغذية المائية تتعدد غالبا فى مثلها . .

وفيما عدا هذا ، فلقد كانت نزوات النهر ـ كعنصر طبيعى بحت ـ ضابطا عشوائيا بما فيه الكفاية لمصائر السكان والحياة فى مصر . وصحيح أن فاعلية النهر لم تكن يوما وظيفة مباشرة للنهر نفسه ، للفيضان وحده ، وانما لضبط النهر كذلك ، لدور الانسان كعامل ترشيدى تثبيتى له . ومع ذلك فذبذبات النهر تبدى معدل تفاوت variability مرتفعا كثيرا ما سخر من جهود السكان وهزم أغراضهم . ومنذ وقت مبكر وأخطار الفيضان الجامح أو الضعيف تظهر فى سجلات مصر الفرعونية ، ومعها قصص المجاعات ابتداء من زوسر الدولة القديمة حتى يوسف الحديثة .

ولكن ما سجله لنا المؤرخون العرب فى العصور الوسطى بأمانة يؤلف وثيقة مفصلة لنقطة ضعف متأصلة فى الزراعة الفيضية يمكن أن تصل الى حد النقطة السوداء . ففى أوائل العصر العربى مثلا كان منسوب ١٦ ذراعا لارتفاع الفيضان عند المقياس هو الحد بين الكفاية والحاجة حتى سميت « ملائكة الموت » . فاذا ما ارتفع الى ١٨ ذراعا كان فيضانا « سلطانيا » وعم الرخاء . فاذا ما تعدى علامة العشرين كان «الاستبحار» أى الغرق للأرض والزرع ، وقد يصل الى « اللجة الكبرى » أى الطوفان الكاسح ، وهذا يعنى غالبا « الطاعون » أو الوباء حيث يتحول الوادى الى مستنقع ملارى كبير

أما اذا هبط النهر عن الحد الفاصل ١٦ ذراعا فهى « الشدة » التى قد تصل الى « المجاعة » . واذا كان الفيضان المفرق يعنى الطاعون ، فان المجاعة كانت تعنى

« الموتان » الذى قد يصل الى حد ينشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة . والمجاعة ملمح تعس يبرز فى تاريخ مصر الوسيط بشكل ملح مؤسف كالنقطة السوداء الحقيقية ، حتى أنه قد سجل منها فى خمسة قرون من القرن الرابع عشر الى الثامن عشر نحو ٥٠ وباء ومجاعة أى بمعدل مرة كل ١١ سنة (١)

وقد كانت المجاعة والوباء هى القوى الوحيدة تقريبا فيما نعلم التى استطاعت أن تقتلع المصرى من جذوره ، وتحول الوادى الى اقليم طرد بشرى مؤقتا . فالتاريخ ابتداء من مؤرخى العرب حتى علماء الحملة الفرنسية يسجل بعض حالات نادرة من « الانتشار » المصرى الى الشام خاصة والى برقة أثناء تلك الكوارث ، كما يذكر البغدادى الذى يصل بالشتات الى المغرب والحجاز واليمن أيضا ، بينما يقول فولنى بعده بقرون عن الفلاح المصرى عقب قحط ووباء ١٧٨٣ « رأيته أغرق سوريا ، ففى يناير ١٧٨٥ كانت شوارع صيدا وعكا وفلسطين تعج بالمصريين . . وربما توغلوا حتى حلب وديار بكر» (٢)

ولعل أشهر وابشع المجاعات ما سجل البغدادى أثناء « الشدة المستنصرية » التى استمرت بضع سنين متصلة فى أخريات الفاطمية ، وانحدرت فى مراحلها الاولى الى النمنمية anthropophagy ثم الى أكل التربة والجيفة geophagy وذلك حين لم يعد يوجد الناس الذين يؤكلون (كذا !) ، وانتهت بفناء رهيب للسكان

(١) G. Hamdan, Pop. of Nile Mid-Delta, Thesis, 1953, vol. I, p.164

(٢) M. Volney Voyage en Syrie et en Egypte, Paris, 1787, t.I, p. 176.

depopulation لا يملك قارىء البغدادي معه الا أن يتصوره فناء كاملا أو شبه كامل .

والتفاصيل التى يرويها البغدادى كشاهد عيان مذهلة ، ولا يمكن أن يتخيلها من لا يقرؤه مباشرة (١) ، ولسنا نعلم مبلغ الدقة والصحة فيها تماما ، الا أن تكرار الرواية والتفاصيل المشابهة فى أزمات أخرى سابقة ولاحقة عند كل المؤرخين المعاصرين ، لا يمكن أن يترك مجالا للشك فى هامش منها على الأقل . ويكفينا دليلا ان مصر فى نهاية عصورها الوسطى أيام الحملة الفرنسية كان قد انحدرت الى ٢ر٥ مليون نسمة ، ولو اننا لا نغفل دور اتضاع المستوى الحضارى والادارى حينذاك الى نقطة الصفر

والواقع أن مصر الزراعية الكثيفة الفنية كانت تعيش بطبيعتها فى أغلب تاريخها فى حالة افراط سكانى overpopulation ، أو على الأقل فى حالة تشبع سكانى كامل . ولهذا فان أدنى هزة فى موارد المياه والزراعة ما أسرع ما كانت تترك أثرها فى السكان برجة تخريبية وتناقص تكبائى خطير . وفى الجغرافيا البشرية أن من أقرب المناطق الى افراط السكان أكثرها كثافة . وكذلك كان الرخاء المعتاد فيما يبدو من مضاعفات آثار المجاعات ، وفى هذا يقول ابن خلدون « فالهالكون فى المجاعات انما قتلهم الشبع المعتاد السابق لا الجوع الحادث اللاحق » (٢) . ولعل هذا كله أن يفسر لماذا كانت العرب تقول : ان مصر أسرع الأرض خرابا (٣) . ويقول المقدسى « هذا الاقليم اذا أقبل فلا تسأل عن

---

(١) Abdollatiphe etc.

(٢) المقدمة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، ص ١٠٠

(٣) خطط المقريزى ، ج ١ ص ٤٠

خصبه ، واذا اجدب فنعوذ بالله من قحطه » (١)

والشيء الغريب والمثير حقا أن العلاقة التى نعرفها اليوم بين ذبذبات النيل ونزوات الفيضان وبين مصدر الرياح الموسمية الهندى لم تكن مجهولة تماما فى العصور الوسطى . فكما يذكر المسعودى « قالت الهند زيادة النيل ونقصانه بالسيول ، ونحن نعرف ذلك بتوالى الانواء وكثرة الامطار » (٢)

ودراسة التاريخ العمرانى فى مصر تطلعنا بعد هذا على دورة حضارية أساسية تتكرر فيه على ايقاع النهر وضبطه . فالملاحظ أن مراحل ضبط النهر الكفء تنعكس على الوادى بالاتساع وغزو الصحراء والبور والبرارى وربما الواحات ، ويتمدد الغطاء السكانى فى الأطراف والهوامش خاصة شمال الدلتا التى تتحول حينئذ الى « جبهه رياده **pioneer front** » فتية طليعية ، بل ويمتد وقع الدفعة الى الموانى البحرية فتزدهر وتتكاثر . أما حين يفشل الفيضان أو ضبط النهر فانه اذن الانكماش العمرانى وغزو الملح والرمل ، أو البحر والصحراء للمعمور ، وهو اذن التراجع عن الهوامش خاصة شمال الدلتا حتى ليبدو جسم المعمور وقد زحف الى الجنوب ككل ، وتتقلص الواحات ربما ، وربما انقرضت بعض الموانى خاصة على البحر الاحمر . ذلك قانون ايكولوجى عرفته مصر بانتظام ، ويمكن أن نسميه قانون « النبض الهامشى » لأن وقعه أوضح ما يكون فى هوامش المعمور وأطرافه بحسبانها أكثر حساسية وتذبذبا من قلبه ، وهو دليل على أن النهر ضابط ايقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية

---

(١) أحسن التقاسيم ، ليدن ١٩٠٦ ، ج ١ ص ١٩٨

(٢) خطط المقريزى ، ج ١ ص ٩٥

بل ان دراما التاريخ الحضارى المصرى برمتها وعلى طولها يمكن أن تختزل أساسا فى صيغة صراع ملحمى بين المصرى والنيل ، تؤلف أدواره وفصوله « ساجا » ايكولوجية حقيقية تبدأ بالعنصر الطبيعى سيد الموقف بل الها يعبد وتنتهى أخيرا باليد العليا للعنصر البشرى . أو هى ساجا جيوتكنية geotechnic بالاحرى والدقة ، فقد كانت تكنولوجيا اللاندسكيب الطبيعى من وسائل هندسية ومعمارية وضوابط ومنظمات وسدود هى أداة الانسان لترويض النهر وتعبيده وتبشيره

وعلى هذا الاساس يمكن أن نميز عدة مراحل متعاقبة تمثل زحف الانسان المتصل الصاعد النظيم ، ونستطيع أن نستعير لها اصطلاحات جديس وممفورد عن الفن الحضارى عامة (١) . فالمرحلة الاولى مرحلة فجر الفن الزراعى eotechnic ، وهى التى سبقت اكتشاف الزراعة بمعناها الصحيح وتقع قبل التاريخ . وفيها كان النيل كل شىء والانسان ــ تقريبا ــ لا شىء ، مجرد مقلد للطبيعة وأسير للنهر

ثم كانت مرحلة الفن الزراعى القديم palaeotechnic وهى زراعة الرى الحوضى التى كانت انبثاقا طبيعيا عاش تاريخا ألفيا طويلا يحتل الجزء الاكبر من تاريخ مصر . وبالحياض صار الفلاح مهندسا جغرافيا أعاد خلق الطبيعة الى حد ما وجعل من شبكة السدود والترع طبيعة ثانية للوادى . الا أن استغلال الارض الحوضى بدأ استغلالا جزئيا حيث اقتصر أولا على ضفة النهر اليسرى . ولكنه حتى بعد أن شمل الضفتين لم يعد

(١) P. Geddes, Cities in Evolution, 1915; L. Mumford, Culture of Cities, 1946, pp. 395

ان يكون استغلالا نصفيا ، وذلك لأنه كان استغلالا فصليا موسميا بحتا يتبع دورة الفيضان ويترك الارض الزراعية « صحراء سوداء » نصف العام • ولعل شيئا لا يلخص دورة اللاندسكيب المصرى فى ظل النظام الحوضى كقولة عمرو الشهيرة (١) عن لؤلؤة بيضاء (التحاريق) فاذا هي عنبرة سوداء (الفيضان) فاذا هى زمردة خضراء (زراعة الشتاء) فاذا هى ديباجة قشاء (الحصاد) • وعموما فقد كان النظام الحوضى نوعا من « الزراعة الجافة » واقتصادا واسعا بلا كثافة ، وكان الانتاج الزراعى اقتصادا معاشيا فى جوهره ، وبالتالى كانت امكانيات او طاقة التشبع بالسكان متوسطة تتراوح حول + ، ـ ١٢ مليون نسمة كما قدر • من هنا ظل الانسان تحت رحمة النهر ، وكانت تلك المجاعات والازمات التى ذكرنا ••

ومنذ قرن ونصف قرن فقط ، فى أوائل القرن الماضى ، تبدأ المرحلة الثالثة ، مرحلة الفن الزراعى الحديث neotechnic التى تعد طفرة حقيقية قلبت هيكل الزراعة المصرية . فمنذ « عصر السدود والخزانات » كما يمكن أن نسمى هذه المرحلة ، ثور فن العمارة الهيدرولوجية هندسة النهر الجغرافية ، فأضافت الى الرى النيلى الرى الصيفى وحققت بذلك الرى الدائم ، وأصبحت الزراعة « زراعة رطبة » حقا . والانقلاب فى جوهره كيفى أكثر منه كميا ، وكان توسعا رأسيا أساسا قبل أن يكون توسعا أفقيا ، وبه تضاعفت الكثافة لا المساحة . فاذا كانت المساحة المزروعة اليوم تدور فى حدود الستة ملايين فدان ، فان المساحة المحصولية تقع فى أفق العشرة ملايين

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٩٢٩ ج ٢ ص ٣٣

وأهم من ذلك التغيير النوعى فى المركب المحصولى . فبعد أن كانت مصر مزرعة شتوية قوامها الحبوب وهدفها الاستهلاك المحلى والكفاية الذاتية ، أصبحت حقلا منتجا على مدار السنة ، الألياف — القطن الثمين — محوره والزاوية ، والسوق العالمية مصبه ، والاقتصاد التبادلى التجارى طبيعته . وبذلك كله تضاعف الدخل القومى وقفز سقف السكان الى طاقات لا وجه لمقارنتها بالماضى الحوضى على الاطلاق

غير أن الرى الدائم لم يكن يمثل الاستغلال الأقصى للبيئة maximum use . فهو وان كان يستغل الارض طوال العام ، فان جوهره قام على استغلال الماء من عام الى عام ، أى على « التخزين السنوى » . فكان بالضرورة نظاما متلافا ، مضيعا لحصيلة ثمينة من ماء الفيضان تذهب إلى البحر بددا كل عام . والمقدر أن نسبة عالية من مائية النهر تضيع هكذا فى السنين العادية . كذلك فرغم أن النهر قد روض واستؤنس الى حد تحييد أثر الفيضان نوعا والحد من معدل تفاوته ، فان خطر الفيضان العالى والواطى ظل معلقا فوق الرءوس . وفى الوقت الحالى يقدر أن الانتاج الزراعى فى مصر لم يزل يتأرجح نحو ١٠ وحدات فى الاتجاهين حول رقمه القياسى ١٠٠

على أن ضبط النهر فى مصر يدخل مرحلة ثورية جديدة — رابعة — مع السد العالى : المرحلة البيوتكنية biotechnic . فالسد جراحة جغرافية من أدق وأشق ما أجرى الانسان على وجه الارض ، وستفعل بالنيل ما فعلت جراحة قناة السويس للعالم القديم ، ولا يكفى قط أن نقول T.V.A. على النيل كما قال البعض (اشارة الى مشروع وادى التنسى فى الولايات

المتحـدة) . ففى موضـعه المحلى يعيـد السد خلق اللاندسكيب الطبيعى ويعيد تشكيل الفيزيوغرافيا المحلية من أساسها : انه يحول الجغرافيا الطبيعية هناك الى جغرافيا تشكيلية : مجرى النهر يتغير ، بحيرة صناعية كبرى تتخلق ، دلتا داخلية غارقة تتكون ، وانقـلاب حقيقى فى الارساب والتعرية ... الخ . باختصار ، انه يخلق شكلا رابعا للمادة

أما عن المائية ، فبدلا من « صهريج الماء » الذى كان خزان أسوان ، سيكون دور السد العالى دور « بنك الماء » ، ها هنا سيكون قصر من أعظم « قصور الماء » فى العالم كما يقول الفرنسيون . فالسـد سيستبدل التخزين السنوى « بالتخزين القرنى » أى التـراكمى المستمر على مدار السنين . ومن ثم فان قطرة من مياه النيل لن تتبدد الى البحر ، فيما خلا أوشـال الصرف بالضرورة والتى لولاها لقلنا مجازا ان النيل سيتحول الى نهر داخلى وان مصر ستتحول من مصب حوض الى حوض صرف ! وسيستوعب السد ١٣٠ مليـار متر مكعب ، مقابل ٥ مليار لخزان أسوان ... حصـيلة تتعدى أعرض أحلام مهندس الرى

والسد الى هذا سيلغى الفيضان ببساطة ، لن يكون ثمة فيضان بعد الآن ، بل سيتحول النهر الهادر الى مجرد ترعة رى كبرى ! ومن الناحية الاخـرى ، فلن تكون تحاريق كذلك . أدق ــ لهذا ــ من أن نقول لن يكون فيضان ، أن نقول ان النيل سيعيش فى فيضان مستمر ، بدل الفيضان الطبيعى الموسمى سيخلق السد فيضانا اصطناعيا دائما . أما خطر الفيضان الجامح أو العاجز فقد نفى الى الابد

وبديهى بعد هذا أن تنقلب الزراعة من جديد : فلآخر

مرة يتم دفن بقايا الرى الحوضى نهائيا فى مصر : توسع رأسى يعنى . ولاول مرة تحدث طفرة حقيقية كبرى فى المساحة المزروعة قد تصل فى النهاية فى بعض التقديرات، الى ما يعادل ثلث المساحة الحالية : أى توسع أفقى يصل الى آخر آفاق الوادى فى الداخل والى سيف البحر فى الشمال . بل ولأول مرة سيجعل النيل نهرا أسيويا فى جزء منه بعد أن كان افريقيا فقط ، وذلك باستطالته الى سيناء تحت القناة

تلك اذن قصة الصراع المزمن بين المصرى والنيل فى أدواره المتطورة . بماذا يمكن أن نخرج منها ؟ فى البدء كانت المعادلة : انسان خاضع للنهر ، ونهر خاضع للبحر ، الأول يعيش تحت رحمة الثانى ورهن نزواته ، والثانى يدفع ضريبته السنوية صاغرا للثالث . والان تقرأ المعادلة : نهر استقل تماما عن البحر فلن يفقد له قطرة ماء ، ولكنه أصبح من الناحية الاخرى تابعا مطلقا للانسان . لقد تم ترويض العنصر كما لم يروض من قبل : ستنزع عنه أسنانه ومخالبه ، أو كما عبر البعض ان النهر الذى كثيرا ما فقد عقله سيمنح لأول مرة عقلا بل وضميرا . النهر الذى طالما تحكم فى رقابنا ، قد تحكمنا أخيرا فى رقبته

انها ثورة كاملة من ثورات البيئات ، صنعت لمصر جغرافيا بشرية جديدة بكل وضوح . والدرس الجغرافى فى هذا كله هو أن موضعنا ليس من المعطيات الطبيعية الجامدة الصماء ، بل هو بنفس الدرجة وظيفة لحضارة الانسان وتكنولوجيته ، والفارق بين البداية والنهاية انما هو الفارق بين تكنولوجيا فجر التاريخ وبين تكنولوجيا اجتمع لها أعظم ما وصل اليه انسان القرن العشرين

واذا كنا قد ألفنا منذ هيرودوت ومعه أن نقول ان

مصر هبة النيل ، فذاك يعنى فى الواقع النيل القديم ، النيل الطبيعى ، وصح لنا أن نقول ان النيل الجديد المصنوع هبة السد . النيل الجديد بمعنى آخر هبة مصر — قلب كامل لمعادلة أبى التاريخ الخالدة ! ومع ذلك فلم تكن مصر فى يوم هبة النيل أكثر مما هى الان بعد السد . ولئن بدا فى هذا تناقض على السطح ، ففى هذه المتناقضة الفريدة تكمن طبيعة العلاقة الدفينة بين النيل والمصرى : فهى علاقة اخصاب متبادلة من التأثير والتأثر ، من الطاعة والتطويع : هذا خلق ذاك ، وذاك يعيد خلقه . انهما لم يعودا عنصرين متلاقحين فى مركب واحد ، وانما أوشكا أن يذوبا فى عنصر واحد

وبعد تاريخ الفى حافل كهذا ربما كانت أرض مصر اكثر أرض فى العالم « تبشيرا » ، فلا يكاد شبر منها يخلو من بصمات أصابع الانسان أو لا يتشبع بعرقه . ويبرز الانسان فى البيئة كعامل جغرافى أصيل . واذا كان يقال ان الله خلق الريف والانسان صنع المدينة ، فقد لا نسرف كثيرا اذا قلنا ان الريف والمدينة هنا على حد سواء من صنع الانسان

أما من ناحية الاساس الطبيعى لبنائنا الحضارى ، فالسد يعنى بالنسبة للسكان تأمينا ، ولكنه يرقى بالنسبة للنهر الى نوع ضخم من « التأميم » . نعم فلقد أمم الشعب أضخم « مرافقه » الطبيعية — النهر — وأخضعها لملكيته الكاملة . واذن فلا معنى بعد للتقول بخطر الاساس الطبيعى الذى يقوم عليه بناؤنا الحضارى والعمرانى وبالتالى كياننا السياسى . ولا غرابة اذن اذا كانت هذه الانجازة الخالدة لم تأت الا مرتبطة بحرب حقيقية عدوانية ، ومنتزعة من بين أسنان العدو الاستعمارى

لكن السؤال الآن : اذا كان الانسان قد حيد العنصر الطبيعي في الوجود المصري وسخره ، فماذا عن العنصر البشري حيث لا زال ماء الحياة يأتي من وراء الحدود ؟ ان النزوات الانسانية والسياسية يمكن أن تجد مجالا واسعا كنزوات العنصر الطبيعي . ولكننا سنجد أن هذا لا يمكن في حالتنا الا عن سوء فهم أو سوء نية . والنيل كنهر من أطول أنهار الدنيا لا يمكن أن يكون - كالانهار المتوسطة أو الصغيرة - وحدة بشرية أو سياسية واحدة . ومنذ وقت مبكر حسد بعض سكان المنبع المتخلفين - وهم في اعتقادهم المصدر ! - سكان المصب المتقدمين .

ولكن العداء الحقيقي اتى من الدخلاء على الحوض . فالبرتغال بعد أن خنقوا مصر موقعا بطريق الرأس ، فكروا في أن يخنقوها موضعا عن طريق أعالي النيل . فنجد أحد المغامرين الفاتحين conquistadores — البوكيرك - يتصل من ساحل المحيط الهندي « ببرستر جون » ملك الحبشة لكي ينفذ حلمه الفاوستي الشرير بشق مجرى من منابع الازرق الى البحر الاحمر فتتحول المياه اليه وتترك مصر بعد فطامها تموت جفافا حتى تختفي من الخريطة لتصبح من «الواحات المفقودة» التي يحتفظ التاريخ بقائمة طويلة منها ! ولكن بطبيعة الحال لم يكن لمثل هذا المشروع الجنوني من مكان الا سلة مهملات التاريخ ..

وقد عادت الفكرة في صورة مخففة فيما بعد على يد الاستعمار البريطاني في السودان وشرق افريقيا . ففي السودان اتخذ من مياه النيل أداة للضغط السياسي

والمساومة الاستعمارية يرغم بها مصر على الخضوع له ، وانتحل حججا مكشوفة ـ تذكر حادثة السردار ـ ليخلق عقبات فى مجرى النهر يسلب بها مصر جانبا من الماء . وفيما بعد أثناء الأزمات السياسية بين مصر وبريطانيا كثيرا ما ارتفعت أصوات تطلب « منع » مياه النيل عن التدفق الى مصر ، كما حدث فى أزمة السويس ! كذلك عمدت بريطانيا قبل تركها لوحدات شرق افريقيا الثلاث الى استثارتها للمطالبة بحصص فى مياه النيل . ولقد كانت آخرة المهازل حين هددت الانفصالية فى كاتنجا الكنغو بتحويل منابع النيل بها عن طريقها الطبيعى ردا على موقف مصر الاستنكارى لها ! ومن الواضح أن كثيرا من هذه التهديدات الصبيانية تنبع من جهل تام بحقائق الطبوغرافيا والهيدرولوجيا ولا يغذيه الا سوء النية . أما الباقى فينقصه حسن الفهم والبصيرة . ويمكننا أن نفصل الرد عليه فى نقطتين

فأولا مياه النيل تتجه الى مصر فى النهاية كظاهرة طبيعية ، وقد قامت عليها فى مصر حياة بشرية كاملة قبل أن تعرف المنابع العليا السكنى المستقرة المنظمة فى أى صورة . وهى بهذا حق مكتسب شرعا ، « حق ارتفاق » تاريخى وجغرافى ، يعترف به القانون الدولى والشريعة الجغرافية معا

واذا كان كاتب مثل بومان يقول « ان عليها (مصر) أن « تستورد » الماء من المرتفعات الجنوبية تماما كما أن على انجلترا أن تستورد غذاءها من وراء البحار » (١) فان هذا قياس مع الفارق ـ الفارق بين الملكية الذاتية الطبيعية والتجارة المتبادلة الحرة

(١) Isaiah Bowman, The Pioneer Fringe, American Geogr. Society, N.Y., 1931 p. 43.

ثانيا ، ان الطبيعة قد وازنت وعوضت تلقائيا بين المطالب والحاجات الحقيقية من الماء لكل قطاع بالنهر . فبانتظام مطرد يقل اعتماد كل قطاع من النهر وحاجته الطبيعية الى مياه النهر كلما صعدنا من المصب الى المنبع ، ويتحول دوره من ترعة تغذية الى مجرد مصرف طبيعى ، وذلك لأن المطر يزداد باطراد فى ذلك الاتجاه . وهذا التكامل الطبيعى فى النظام النهرى بين عنصرى الهيدرولوجيا والتساقط حقيقة بديهية تجب كل دعوى مفرضة أو مسرفة . فلا يمكن أن يكون لاوغندة أو كينيا مثلا أى فائدة فى أكثر من بضعة ملايين من الامتار المكعبة ، ولا جدوى للسودان أو أثيوبيا فى أكثر من بضعة مليارات محدودة تكمل بها حصتها الطبيعية من المطر السودانى أو الموسمى . ولهذا تظل الأغلبية العظمى من مياه النيل لا حكرا مغتصبا لمصر ولكن ارثا طبيعيا لها ... وبالفعل جاءت اتفاقية مياه النيل الاخيرة بين مصر والسودان مؤكدة لهذا المعنى

وعدا هذا ، فسيلاحظ اخيرا أن أهم مشاريع الرى المصرية ، وان كانت بالضرورة على هامش المعمور أو خارجه ، قد أقيمت داخل الحدود المصرية لتكون فى ضمان ومنأى عن الضغوط السياسية كما أثبتت تجربة خزان جبل الاولياء . وهكذا أقيم سد أسوان فى أقصى جنوب مصر ، ثم من بعده السد العالى الى الجنوب منه مباشرة . وقد كان الموقع « القومى » من العوامل الحاسمة فى تفضيل مشروع السد العالى على شبكة مشروعات أعالى النيل التى اشتدت الدعوة لها فى الثلاثينيات والتى كان مفروضا أن تبدأ من أوغندة حتى الحبشة والسودان وأن تلقى تأييدا وتمويلا أسهل من

الدول الكبرى (١) ـ تأييدا وتمويلا لم يقصد بهما الا أن يكونا الطعم الذى يستدرج الفريسة الى رحمتها وتحكمها ..

ومن حسن الحظ أن شكل الوادى الخطى فى الصعيد وان لم يكن الأمثل اقتصاديا فله قيمته الاستراتيجية : فهو يعطى لمصر عمقا جغرافيا كافيا يجعل هذه السدود ـ صمامات حياتنا القومية ـ على بعد معقول من أخطار أعداء الشمال الجوية . كما ان هذه « القصور المائية chateaux d'eau » قد صممت بحيث لا تنال منها أفتك الاسلحة الجوية الحديثة

الموقع

الموقع ، كمحصلة جغرافية لشبكة منظورة وغير منظورة من العلائق والقيم المكانية والوضعيات الاقليمية، لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون زمامه فى يده مباشرة ، ولذا لا يمكن أن يكون خاصية أو ثروة مضمونة . انه بطبيعته مخاطرة جغرافية . والموقع بعد هذا فى رأى البعض « مواد طفيلية » ، اى انه فضول مقحم أو انتهازى وليس عنصرا أصيلا فى البيئة الطبيعية . ولكن هذا الزعم ان لم يكن نظرية مغرضة أو استعمارية ، فهو رأى فج خطير . فالموقع ليس مجرد عامل جغرافى رئيسى ـ أكثر العوامل الجغرافية « جغرافية » كما يقول بيرجر Bürger , ـ ولكنه أيضا رأسمال طبيعى وسياسى دفين ومورد أصيل من موارد الثروة القومية ، بل قد يكون فى حالات الرأسمال الحقيقى الوحيد للدولة أو المنطقة وفى مصر بالذات لن تفهم كيانها أو تاريخها صحيحا

(١) The Middle East : A Political. Economic Survey, Roy-Inst-Intern-Aff., Lond., 1958, p. 236.

خارج اطار الموقع وبغير الاشارة اليـه . وسنرى أن ذبذبات موقعنا التاريخية لا تقل خطورة كضابط لوجودنا عن ذبذبات النيـل ، الا أن الأولى ذبذبات طويلة المدى وحدتها قرون وعصور ولذا فهى آحاد معدودات ، بينما الثانية قصيرة المدى جدا ووحدتها تختزل الى بضـع سنين . ولقد مر موقع مصر ــ من الوجهة التجارية ــ فى عدة مراحل ودورات من الارتفاع والانخفـاض ، أو البروز والكمون والانزواء ، يمكن أن نتتبعها فيما يلى

ففيما قبل العصر العربى كان دور الموقع موجـودا ولكنه كان محدودا ، فهو دور النشأة . فمن ناحية لم يكن محيط العالم المعمور الفعال قد توسع بعد كثيرا ، ولم يكن الشرق الأقصى قد دخل فى دائرة العـلاقات المتواترة مع الغرب الاقصى . ومن ناحيـة أخرى فان مستوى الحضارة من امكانيات ملاحية وحاجات معيشية كان لا يزال قاصرا . ومن هنا كانت أغلب تجارة شرقنا القديم اقليمية تدور فى فلك المنطقة أكثر منها عالمية بين المناطق المحيطة . ومعنى هذا فى الحقيقة أن تحقيـق موقعنا الجغرافى بمعنى الكلمة لم يكن من عمل العصر الفرعوني أو الكلاسيكى ، وسنرى أنه مساهمة العصر العربى أساسا

فمع العرب يبدأ الدور الثانى ، دور النضج ، الذى وصل الى ذروة تاريخية رائعة . فقد بدأ الموقع يحتل مكانه فى الاقتصاد المصرى كراسمال حقيقى مع اتسـاع نطاق تجارة المرور العبورية بين الشرق والغرب فى ذلك التاريخ بالدقة . والشرق هنا كل الشرق والغرب كل الغرب ، بحيث تحولت منطقة العالم العربى الى «خاصرة العالم القديم » تلقائيا كأنها الميدلاندز فيـه بين قطبى الانتاج والسكان فىالشرق الاقصى وغرب أوربا : أصبحت

ممرا تجاريا بين مقرين قطبيين (١) . واذا كان هذا قد جعل الشرق الاوسط هو الشرق الوسيط فى تجارة المرور ، فان جناحيه فى الهلال الخصيب من ناحية ومصر من ناحية أخرى هما المحوران الاساسيان فى ذلك الممر ، والسبب أنهما يستقران على قمة الذراعين البحريين حول الجزيرة العربية ويحددان أقصر الطرق وخطوط المقاومة الدنيا بين الهندى والمتوسط

فى هذا الاطار كان طريق مصر أدنى فى طبيعته الى الطريق البحرى وله الافضلية فى التجارة البحرية من جنوب شرق آسيا والهند عن طريق البحر الاحمر ، بينما كان طريق العراق أكثر برية ومن ثم كانت له الأفضلية المطلقة فى التجارة القارية من الصين ووسط آسيا كما كان يشارك فى التجارة البحرية عن طريق الخليج العربى . ولما كان الطريقان بريين فى النهاية ، ويحتكران فيما بينهما عصب تجارة الشرق ـ الغرب ، فقد كانا يعملان ككفتى ميزان حساس فى علاقة توازنية ولكنها أيضا تنافسية لا مفر من الاعتراف بها . فكان تقسيم العمل الجغرافى بينهما أقرب الى التعادل التكاملى والتنصيف أحيانا ، وأحيانا أخرى كانت العلاقة بين موانى الخليج العربى ومصر فى جذب وشد وجزر ومد . ودرس التاريخ هنا واضح يتلخص فى علاقة عكسية مباشرة فحين يزدهر الاول ينحدر الثانى ، والعكس ، وكل كانت تحكمه العوامل الطارئة كالحروب والسياسة والأمن (٢)

ففى العالم العربى الأموى كانت الاهمية للبحر الاحمر

---

(1) W. G East, Geog. Behind History 1948.

(2) G. Hamdan, « Pattern of Mediaeval Urbanism in Arab World », Geog., April 1962, p. 124.

وموانيه ، لا سيما مع وجود قناة خليج أمير المؤمنين . ولكن مع انتقال الاهمية من الشام الاموى الى العـراق العباسى انتقلت الاهمية الى الخليج الفارسى لا سيما مع ردم العباسيين لخليج أمير المؤمنين لاسباب سياسية : فحلت موانى الخليج الفارسى محـل القلزم ورشـيد والاسكندرية . ولكن فى أواخر القرن ٩ الميلادى أثرت ثورات واضطرابات جنوب العراق السياسية على الحركة التجارية فى الفارسى فعادت الأهمية مباشرة الى موانى البحر الاحمر ومصر بما فيها عيذاب والقصير والطور . وقد ظلت مصر بذلك حلقة حيوية فى سلسلة تجـارة الشرق ــ الغرب مما صب فيها ثروة قد لا تقل خطرا عن عائدات الزراعة وربطها دائما بآفاق العالم الرحبة وتطور الحضارة

وبوجه عام ، ربما جاز أن نقول ان موقع العراق كان يرجح بعض الشيء موقع مصر ــ على ثقله الهائل ــ فى هذا الدور . فمن المحتمل أن موقع العراق كان أفضل موقع للتجارة فى العصور الوسطى ، لأنه كان يجمع بين طريقين : البرى وواحد من طريقى البحر الاساسيين . كذلك لا ننسى أن الشرق عامة والاقصى خاصـة كان أهم جزء فى العالم تجاريا ، بينما الغرب وأوربا كانت أقل تقدما وانتاجا . وفى مثل هذا الاطار يتضح أن موقع العراق كان خير موقع ممكن ، ومن هنا نفهم عظمة بغداد العباسية التى لا تدانى فى ذلك الحين

غير أن الدور الثالث ــ دور القمة ــ لم يلبث أن حل مع تعرض العالم العربى للأخطار الخارجية فى العصور الوسطى ، ليعطى مصر احتكارا مطلقا أو شبه مطلق لكل التجارة بعد أن كان التنصيف بالتقريب هو أسـاس القسمة فى الدور الماضى . فقد بدأت الحروب الصليبية

بفلق نافذة طريق العراق على البحر المتوسط أولا ، ثم أتت لعنة المغول فى منتصف القرن الثالث عشر ضربة قاضية انتهى بعدها دور العراق الى الأبد تقريبا . أما مصر فكل ما كان من أثر للصليبيات أنها نقلت شرايين التجارة داخلها من الطرق الشمالية الساحلية والدلتاوية المعرضة الى الطرق الجنوبية العميقة الآمنة على البحر الاحمر وفى الصعيد . أما الطوفان المغولى فلم يفعل سوى أن دفع بحركة هجرة بالجملة ــ ثابتة تاريخيا ــ للصناع والفنانين والتجار من العراق الى مصر

وفى الوقت الذى أصبح الخليج العربى ــ الذراع اليمنى لبحر العرب ــ ذراعا مقطوعة وزقاقا مغلقا كالبحر الادرياتى فيما بعد ، العراق على رأسه أشبه فى معنى بامبراطورية النمسا ــ المجر القديمة شبه الداخلية ، والبصرة فيه بماضيها الرائع وحاضرها الضائع وميناءها المتراجع كالبندقية على رأس الادرياتى ، فى ذلك الوقت انفردت مصر بصرة العالم . واذا كانت «خرائط العجلة» الكنسية فى ذلك الوقت تضع القدس فى مركز الارض حيث تلتقى القارات الثلاث ، فذاك كان رمزا دينيا بحتا فحسب ، أما المركز الفعال حقا فمصر بلا جدال

وهنا لا بد أن ندرك بوعى أن مصر قد ورثت موقع العراق الجغرافى كاملا فى أول سلسلة من تحرك بؤرة العالم نحو الغرب باطراد . ولم يكن من الصدفة أن تصل مصر الوسيطة الى أوج رخائها واقتصادها بعد انهيار العراق مباشرة . ومن هذا كله نفهم دور مصر المملوكية الذى يعد فى الحقيقة عصرا ذهبيا من الناحية المادية والحضارية كما يتمثل فى تكتل الثروة وشيوع الرخاء وانفجار الحركة المعمارية والفنية والاثرية ، مثلما كان عصرا بطوليا من الناحية الحربية التى كانت تلك

الثروة الدافقة عنصرا أساسيا فى توفير قاعـدة مادية ضخمة لها

غير أن هذا الدور القمى انتهى فجأة بدور انتكاس وانهيار كامل ، وبقدر الارتفاع الشاهق السابق بقـدر السقطة اللاحقـة : انه دور الحضيض ، الذى أتى كالنقيض anti-climax فقد جاءت ضربة كشف طريق الرأس فى أواخر القرن الخامس عشر على يد البرتغال قاصمة لمصر ، حيث أحدثت « أسرا نقليا » كاملا سلب مصر موقعها الممتاز وتركها قبوا مصمتا بعد أن كانت الممر التجارى العالمى بامتياز . ولأول مرة تعود السفن فارغة من البندقية وجنوه . وقد بدأ هذا فى أخريات المملوكية حيث ورث الفقر الرخاء وعجزت الموارد عن متطلبات الموقع ، فكان هذا من الاسباب المباشرة فى سقوط المملوكية للعثمانية

ولكى يدفع الانهيار الى منتهاه بمعدل الربح المركب — أعنى الخسارة المركبة ! — جاء ابتزاز العثمانيـة بانتظام لبقايا تجارة المرور ليصفى الارث كله . فجفت شرايين التجارة والدخل القومى فى مصر ، وانزلقت الى حمأة من الاتضاع والانحدار المادى والحضارى الكاسف، وبدأت « فترة عزلة » كانت مرادفا للتخلف الحضارى والتكيس . ويكفى كمقياس أن العاصمة أفلت ، والموانى أفلست شرقا وشمالا ، حتى لقد هوت الاسكندرية الى قرية ساحلية آسنة تعدادها ٨٠٠ نسمة ! ولولا بقية من حياة المدن فى القاهرة لقلنا ان مصر تحولت الى قرية ضخمة ..

وعند هذا الحد يثور سؤال : من الذى ورث موقع مصر ؟ البرتغال هى التى ورثته ، بمثل ما ورثت مصر من قبل موقع العراق ، الا أن الاخيرة وارثة شرعيـة

طبيعية ، بينما أن البرتغال « سرقت » موقعنـــا فى الحقيقة . على أن دور البرتغال لم يطل ، فقد انتزعته منها هولندا وبريطانيا بعد حين ، وتجاذبتاه فيما بينهما فى مرحلة مشتركة كمرحلة مصر والعـــراق فى العصر العربى ، الى أن انفردت به بريطانيا مثلما انفردت به مصر من قبل ، ومن ذلك الحين استقر موقـــــع بؤرة وعقدة العالم فيها

وبمعنى آخر فان هذا المركز ظل يهـاجر ويتحرك محوريا الى الغرب فالى الشمال حتى آل موقع مصر الوسيطة الجغرافى الى بريطانيا الحديثة . وبعد أن كانت بريطانيا على هامش المعمور ونهاية العالم ـ استراليـا العصور الوسطى كما وصفت (١) ـ استبدلت مكانها مع مصر ، فأصبحت فى قلب العالم الجديد بنصفيه الشرقى والغربى ، كمصر فى قلب العالم القديم بين قاراته الثلاث، وأصبح المحيط الاطلسى هو البحر المتوسط الجديد ، بينما تحول البحر المتوسط التاريخى الى بركة صيد آسنة كبلطيق جنوبى

ولعلنا لا نسرف فى التصور والاستنتاج اذا قلنا ان هذا الانقلاب التدهورى قد دمغ تطورنا الاجتمـــاعى وتركيب مجتمعنا التاريخى بآثاره ، وسلبه امكانيـات واحتمالات نموه الداخلى بمثل ما سلبه موقعه الخارجى.

فمن المعـروف أن التطور الاجتمـاعى الذى حدث فى بريطانيا وغرب أوربا عامة ، وأزاح الاقطاع الى المؤخرة ودفع الى الصدارة بالبورجوازية التجـــارية أولا ثم بالرأسمالية الصناعية ثانيا ، بدأ منذ وبسبب انقلاب

---

(1) D. Whittlesey, Earth & State, 1944, pp. 96 ff.

العلائق المكانية وعلاقات ما وراء البحار الاستعمارية الجديدة

ومن الثابت أن قوة التجار كطبقة كانت فى نمو واضح فى مجتمع مصر الوسيطة ، وبدأ نفوذهم ونفوذ طوائفهم فى القاهرة والمدن يتعاظم وكثرت مؤسساتهم وخاناتهم ونقابات الحرفيين والصناع ، كأنما هى ارهاصات عصر المركانتلية . وحتى قبل الحملة الفرنسية نجد آثار هذا النفوذ رغم أن التجارة كانت قد هوت الى نقطة الصفر تقريبا

وليس من المستبعد لهذا أنه لو ظل فيض التجارة العالمية يتقنل فى مصر بغير أسر طريق الرأس ، لتضخم حجم ونفوذ طبقة التجار وسكان المدن الى الحد الذى يزيغ نفوذ الارض الزراعية وسلطة الاقطاع ، ويديل من الاقطاع الى البورجوازية مختزلا ومعجلا لدورة تطورنا الاجتماعى . وبمعنى آخر ، فمن الممكن أن ضياع طريق التجارة بدد احتمالات وامكانيات تطور مجتمعنا وترك الاقطاع يخضرم مجمدا فى تاريخنا بلا انقطاع حتى قلب العصر الحديث . لقد سلب الفرب البحرى قدر مصر الاجتماعى الممكن وعطل تحقيق شخصيتها الانسانية الكامنة مثلما سلبها موقعها الجغرافى وقدرها الدولى الكائن ..

دور القناة

ومهما يكن من أمر ، ومهما طال الانتظار ، فقد كانت مصر على موعد مع قدرها لتستعيد مكانها الحقيقى فى الاطار العالمى مع شق قناة السويس فى ستينات القرن الماضى . وهذا هو الدور الخامس والاخير فى دورات

موقعنا الجغرافى ، ولكنه وحده ثورة كاملة ، ويتطلب دراسة خاصة

فقد جاءت القناة أكبر عامل اختزال catalyst فى جغرافية النقل الكوكبية ، أعادت توجيه القارات ورجت القيم الجيوماتيكية . فبعملية جراحية جغرافية، صغيرة نسبيا ، اختزلت قارة برمتها هى افريقيا ، وأسرت طريق الرأس وأعادت وضع الشرق العربى ومصر فى قلب الدنيا وفى بؤرة الخريطة . وكما يقول هوسكنز « من المحتمل ان عملا ما من أعمال الانسان المادية لم يؤثر على علاقات الامم بصورة أكثر عمقا .. ومن الصعب أن نتصور انجازة أخرى فى حدود القدرة البشرية يمكن أن تغير أوضاع الطبيعة أكثر منها » (١)

والحقيقة أننا لا نعرف فى أوقيانوغرافية العالم مائة ميل لها ما للقناة من خطر ونتائج . فمنذ أن شقت ، ولكن بالأخص منذ حل البخار محل الشراع الذى كانت تعاكسه رياح البحر الاحمر ، أصبحت شريان المواصلات العالمية وعنق الزجاجة فى شبكة الملاحة وتحولت الى قبلة علمانية كأنما الدنيا كلها على ميعاد فيها. باختصار، أصبحت مركز الثقل فى حركة العالم ، والقارات « معلقة » اليها

وقد كان أبسط معنى لهذا كله أنه جدد شباب موقع مصر الجغرافى وأعاد الى الجسم المريض دورة الدم والحياة . لقد أتت القناة هدية الموقع الى مصر ، وهدية مصر الى العالم . فكم أعطت القناة للعالم وكم أعطى العالم لمصر ؟

من السهل أن نقول ان أوربا الغربية تدين للقناة

(١) Middle East, p. 59

بالجزء الاكبر من طفرتها الصناعية والحضارية الحديثة حتى وصلت الى درجة التشبع over-industrialisation فهى التي قربت ثروات المستعمرات والمداريات ووضعتها عند أطراف أصابعها بأرخص التكاليف . وهى التى قدمت لها الخامات والاسواق فى عصر الفحم فى القرن التاسع عشر ، وهى الان التى تقدم له الوقود مع الخامات والاسواق فى عصر البترول فى القرن العشرين . ويكفى أنها فى النهاية تستقطب حولها ١٤ ٪ من حجم التجارة الدولية . بل قد يقال ان القناة مسئولة عن مساعدة الغرب على نزح ثروات مستعمرات الخام ووأد فرص التصنيع بها . غير أن مصر نفسها ـ ودعك من فضلها المجحود ـ كانت ضحية مماثلة . فقد ظلت القناة معزولة عن الاقتصاد المصرى لا تساهم فيه الا رمزا

حقا لقد وضعت القناة ، التى تكاد تلخص موقع البلد ، وضعت يد مصر على نبض العالم كله ، وأصبحت لها بمثابة مقياس ضغط حساس أو جهاز عصبى دقيق، وأعطتها نافذة أو طاقة على الدنيا . وحقا ربما كان لهذا نصيب فى سبق مصر النسبى الى الحضارة الحديثة اذا قيست ببلاد مماثلة . ولكن علاقة الرخاء المتبادلة بين وادى النيل وطريق السويس التى كان يفترض استعادتها ، أتت مع ايقاف التنفيذ ان صح التعبير ، لأن مصر لم تكن تملك القناة وظلت مجرد « متفرجة » لا مستثمرة ، بينما عاد الاستعمار وخاصة بريطانيا التي ورثت من قبل موقع مصر الجغرافى الوسيط ليسرق موقعها الحديث !

ولكن منذ « الاسترداد » ولأول مرة منذ حفر القناة تحققت تلك العلاقة ، ولم يعد شك فى خطورة دور الموقع

فى البناء الاقتصادى المصرى . فمنذ التأميم ، ودخل القناة الخالص يقفز كل عام ، وهو يطفر الان بمعدل ١٠ ملايين جنيه فى المتوسط ، حتى لتضخ اليوم فى الاقتصاد القومى ١١٠ ملايين جنيه ـ عملة صعبة خالصة . فاذا علمنا أن محصول القطن لا يقل أكثر من ذلك كثيرا جدا ؛ أدركنا أن ها هنا فى الموقع ثروة قومية ثانية ومحصولا وطنيا أساسيا

واذا علمنا بعد ذلك أن هذه الحصيلة توجه وجهة بناءة هى السد ـ وقد أشرنا من قبل الى العلاقة الأسية بين عملية القناة وعملية السد ، سياسيا واستراتيجيا ، تآمرا استعماريا ونضالا وطنيا ـ أدركنا أننا بهذا نوظف القناة على النيل ونستثمر الموقع ، الذى هو بطبيعته عنصر خارجى لا يمكن التحكم فيه تماما ، فى الموضع الذى نملكه مباشرة . ونحن بهذا لا نكثف اقتصاد الوادى فقط وانما نعمق أساسه أيضا . واذا كان الموضع ـ الوادى ـ قد حقق الموقع ـ القنال ـ بعماله ومائه وسكانه ، فقد بدأ الموقع الان يرد دينه الى الموضع

هذا ، وينبغى أن ندرك تطور وظيفة القناة فى العقود الاخيرة ، قبل أن نتطلع الى مستقبلها . لقد بدأت القناة واستمرت طويلا كحلقة الوصل بين الشرق الأقصى والغرب ، وبوجه خاص بين الهند وبريطانيا حيث كان دورها التقليدى هو « شريان الامبراطورية » . وكانت القناة تعكس قطاعا للتجارة التقليدية بين الشرق والغرب أو بالأصح بين الجنوب والشمال كما عرفت منذ يوسف ومحمد : خامات من الجنوب ، ومصنوعات من الشمال

ولكن وظيفتها بدأت تتطور جوهريا منذ الحرب العالمية الثانية ، فقد صفى دورها الاستعمارى القديم أو كاد وأصبحت « شريان الزيت » أساسا وحلقة وصل بين

الغرب والشرق الاوسط خاصة . وبعد أن كانت عنق الهنـــد ، أصبحت بحق عنــق أوربا التى تعيش على البترول ، وتعيش فى البترول على الشرق الاوسط . واذا كان الخليج العربى هو « خليج الزيت » بامتياز ، فان قناة السويس هى « قنـــــاة الزيت » بالضرورة ، لأن حركة البترول فيها تمثل ٧٢٪ من مجموع الحمولة ، بينما تحتكر هى بدورها نقل ٧٠ ٪ من بترول الشرق الاوسط الذى يتحرك غربا . فهنـــاك اذن « زواج اقتصادى » وثيق بين بترول العرب وقنــاة العرب . والقناة اليوم هى أهم ممر عالمى استراتيجى لأهم سلعة استراتيجية فى العالم (١)

لكن مرة أخرى يكشف الموقع نفسه كعامل غير مضمون تماما . فمرة أخرى عادت المنافسة التاريخية بين طريق الخليج ـ الشام ، والبحر الاحمر ـ القناة فى صـــورة جديدة . فأنابيب البترول عبر الجزيرة والهلال الخصيب هى احياء جديد « للاوفرلاند روت » البرى وترجمـــة حديثة لطرق القوافل القديمة .. وقد وصلت طاقة هذه الانابيب الآن الى ٥٠ مليون طن مقابل ١٦٣ للقناة . لقد نما بترول الشرق الاوسط فى رعاية وتحت وصـــاية القناة ، فهل شب الان بفضل الانابيب عن هذه الوصاية ؟ وهل يمكن أن تكون الانابيب القائمة والمقترحة ـ وما أكثرها ـ أسرا نقليا يمكن أن يصنع بقناة الســويس ما صنعت قناة السويس بطريق الرأس ؟

الواقع أنه لا مبرر مطلقا لهذه التخوفات التى يحاول بعض المغرضين بثها . فقد اطرد نمو حركة البترول فى القناة باستمرار رغم الانابيب . بل أن الانابيب لا تعمل

(١) جمال حمدان ، بترول العرب ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٢ ـ ١٧٠

كلها بكامل كفاءتها وذلك تحت منافسة القناة بينما أخذت ميزات وفورات الانابيب بالنسبة للقناة تقل وتتضاءل . أما عن مشاريع الانابيب المقترحة البديلة فهى تتحطم على صخرة مبدأ مرور بترول العرب فى أرض العرب ، بينما المشاريع غير العربية فى ايران وتركيا واسرائيل هى مشاريع سياسية أكثر منها اقتصادية ، وهى أشبه بالنسبة لموقع مصر بمشاريع داليدا والبوكيرك الفاشلة بالنسبة لموضعها ، وهى مثلها تصطدم بحقائق الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية والسياسية . وهذا يقال أيضا عن حلم اسرائيل وخيالها المريض فى قناة بحرية جديدة بين خليج العقبة والبحر المتوسط لتأسر بها حركة السويس

كذلك ثبت أن تطورات الانتاج والتسويق فى البترول العالمى لن تمنع زيادة تدفق البترول عبر القناة . فظهور البترول المغربى والليبى غرب القناة قريبا من السوق الاوربية ، ودخول الاتحاد السوفييتى فى ميدان التجارة العالمية الى شرق وغرب أوربا ، وزيادة العرض عن الطلب فى السنوات الاخيرة ، كل هذه ظاهرات فى المدى القصير، والمقدر أن الطلب العالمى سيزداد باطراد

على أنه اذا كانت الانابيب قد ظنت الخطر الذى يمكن أن يهدد القناة ، بينما أن الناقلات هى نقطة قوتها وعميلها الطبيعى، فقد انقلب الوضع أخيرا فى الستينات ، ولم يعد الخطر يكمن فى الانابيب بل فى الناقلات . والقاعدة كانت حتى قريب هى أن القناة ضابط نمو الناقلات حجما وأبعادا ، ثم أخذت الناقلات تتضخم غاطسا وعرضا ، فبدأت القناة توسع نفسها خطوة بخطوة . وهكذا اذا كان بترول الشرق الاوسط قد نما فى ظل القناة ، فانها الان باتت تنمو معه حجما وحركة ، عمقا واتساعا . غير أن الجديد فى هذا السباق هو

الناقلات العملاقة الماموث التى تصل الى ربــع او نصف المليون وربما قد تصل الى المليون من الاطنان ، والتى تؤذن بابتلاع ونسخ النـــاقلات الصغيرة والمتوسطة فى المستقبل القريب ، والتى تجد طريق الراس المهجـور اقتصاديا لها واليه تحولت بالفعل

ما مغزى هذا التطور الخطير ؟ هل شبت الناقلات عن وصاية القناة ؟ أهو انذار بدورة جديدة من الأسر النقلى ؟ هل انتقل الموقف من منافسة بين القناة والانابيب الى صراع بين طريق السويس وطريق الرأس ؟ لقد قدر أن الاتجاه الجديد اذا استمر بلا مواجهة فسوف تفقد القناة نسبة من دخلها البترولى ، بحيث لا تزيد فى ١٩٨٠ عن ٨٠ مليون جنيــه ، بينما اذا اتسعت الى العرض والعمق المناسبين فيمكن أن تغل فى ذلك التاريخ ٢٢٥ ــ ٢٥٠ مليون جنيه . فالموقف جاد ، والمكسب والخسارة تستحق كل صراع . من هنا فان مصر ، التى تدرك تماما أن المكان هو المكانة والمنزل هو المنزلة وأن القناة يمكن أن تكون واديا ثانيا ، قبلت ولم يكن بد من أن تقبل التحدى على الفور

وهنا لا بد أن نلاحظ أن القناة كما هى الان انما هى قناة جديدة وشيىء مختلف تماما عن القناة التى تركها الاستعمار . فهى الان أكثر من الضعف سعة ، أى أننا قد أضفنا منذ التأميم قناة جديدة الى القناة القديمة فى الواقع . أما بعد أن تتم معركة التوسيع ، فلن تكون القناة القـــديمة اكثر من مجرد نواة متواضعة . ومن الطريف أن القناة فى أيام انشائها الاولى كانت تسمى « ترعة » السويس ، وهكذا هى حقا اذا قيست بقنـــاة اليوم

لقد كانت السويس برزخا فتركهـا الاستعمار ترعة ،

ولكن التأميم حولها الى قناة ، وقد وجب الان أن تتحول الى « مضيق » صناعى بمعنى الكلمة . ان مصر لا تملك الا أن تحافظ علي حيوية هذا الشريان مهما كانت التكاليف الابتدائية ، ومهما بدت غير اقتصادية فى المدى القصير بالنسبة الي عائداته المباشرة ، لان هذه التكاليف تدفع فى المدى الطويل . ولا شك أنها فاعلة

والخلاصة أن هناك الان تطورات عالمية واقليمية وتكنولوجية فى عالم البترول ، ولكن مستقبل القناة البترولى وغير البترولى ليس حرجا فى أى معنى كما يحاول البعض أن يصوره . واذا كانت الولايات المتحدة تبحث من الان عن موضع لقناة جديدة تضاف الى بنما لمواجهة الزيادة المنتظرة فى الحركة الدولية ، فان قناة السويس بالتوسع أجدر . وموقعنا ليس أقل ضمانا أو رسوخا من موضعنا

وانها لحقيقة حاسمة مثلما هى فأل حسن أننا ملكنا زمام كل منهما فى وقت واحد حين « أممنا » النهر والقناة . والاثنان معا يؤكدان سلامة الاساس الطبيعى لبنائنا البشرى رغم كل الشبهات والشكوك ، وأن «كنانة الله » ، « مصر المحروسة » ، يمكنها أن تنطلق الى مستقبلها وأهدافها مطمئنة الى أنها سيدة نفسها ومالكة أمرها من يمين أو شمال بلا أدنى شك أو قلق ، لأن ما كان أبوه التاريخ وأمه الجغرافيا فهو من صنع الله !

الفصل السابع

تعدّد الأبعاد والجوانب

أبعادنا الاربعة

سواء من حيث الموضع أو الموقع ، تحتل مصر مكانا وسطا : وسطا بين خطوط الطول والعرض ، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الانتاج ، وبين القارات والمحيطات ، حتى بين الاجناس والسلالات والحضارات والثقافات . وليس معنى هذا أننا أمة نصف ، ولكننا أمة وسط : أمة متعددة الجوانب متعددة الابعاد والافاق ، مما يثرى الشخصية الاقليمية والتاريخية ويبرز عبقرية المكان فيها ..

فى الموضع

فاذا بدأنا بالموضع وجدنا أخص خصائصه أنه يمثل احدى الحالات النادرة من « تراكب البيئات » . لقد تمكنت الحضارة الحديثة ووسائل النقل بالجملة من أن تخلق أخيرا بيئات تركيبية منقولة تتواقع فى نقطة واحدة عن طريق الاحتكاك الحضارى (١) . ولكن الطبيعة خلقت منذ البداية بيئة طبيعية تركيبية تراكبية فى مصر

(١) E.D. Chapple; C.S. Coon Principles of Anthropology, N.Y., 1947, p. 95.

حين أوصلت النيل من منابعه وبخصائصه الموسمية من قلب افريقيا الى عتبة البحر المتوسط . فالبيئة المصرية ، كتربتها ، بيئة « منقولة » ، من النوع الذى يعرف فى الجغرافيا البشرية بالبيئات المتدخلة intrusive أو الغريبة exotic أو الممدودة projected فهي تشبه فى وضعها المورفولوجى ما يعرف فى جنوب شرق أسبانيا بالهويرتا Hüerta (والكلمة تحريف لروضة العربية) او الواحات الساحلية الفيضية التى تتباين بوضوح مع الوسط الاستبسى الفقير الذى يعرف بالفيجا Vega فالموضع فى مصر ليس موضعيا فى أصله ، وليس نبتا محليا ، بل تراكبت فيه خطوط العرض المتباعدة جدا والمتفاوتة جدا

ولو نحن عبرنا عن دخلها المائى بصيغة مطرية — وهى التى لا تكاد تعرف المطر محليا — أى لو حولنا ايرادها المائى الى المكافىء المطرى rainfall equivalent لبلغ نحوا من ٨٠ بوصة فى السنة ، أى قدر ما يصيب الغابة الاستوائية أو الموسمية فى هضبة البحيرات أو الحبشة مثلا ! فكأنها

بهذا وبكتلتها البشرية قد يصح أن تقع الى جانب الايراوادى مثلا أكثر منها الى جانب البحر الاحمر . وهي من الناحية العمرانية والمورفولوجية أشبه بعامة بشريحة من الصين منها بجاوة

وهكذا أخذت مصر مائية الموسميات دون أن تأخذ منها رطوبتها الوائدة ومناخها القاسى ، أخذت منها « صهاريج tanks » الهند فى صورة الاحواض ، ولكنها زرعت فيها محاصيل المعتدلات . وأخذت موقع البحر المتوسط البارز وليس موقع الحبشة السحيق . أى أنها جمعت بين محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما . وقد عبر البعض عن ذلك كله بقوله انها جغرافية

« مقطرة مرشحة » تلك التى ظفرت بها مصر من الطبيعة

وقد ظلت مصر طويلا مزرعة شتوية تعتمد على مائية صيفية ! فكانت تمارس حياتها الزراعية شتاء وتقضى الصيف فى « بيات ـ ماذا نقول ؟ ـ صيفى » ! .. كان « النيل الاحمر » كما يعبر لابلاش يعطينـــا « مصر الخضراء » ، بينما كان « النيل الاخضر » يترك مصر « صحراء سوداء » نصف العام .. (١) ومع ذلك جمعت بين محاصـيل البحر المتوسـط المعتدلة والمحاصـيل المدارية . على أن شخصيتها الزراعية الكامنة لم تكتمل وتتحقق الا بعد الرى الدائم ، فهنا أصبحت محاصيل تنتشر عادة بين عشرات من خطوط العرض ابتداء من المنطقة المعتدلة الباردة وحتى المنطقة المدارية الحارة ـ أصبحت تختزل جميعا فى الدرجات العشر التى تترامى عبرها مصر . فالى جانب الحبوب والفواكه المعتـدلة ودون المدارية التى تؤلف « المحاصيل الانتقالية » التى تميز العروض الوسطى ، أصبحت تجمع ـ أو توشك ـ بين الكتان والقطن ، والبنجر والقصب ، بين المعتدلات والمداريات . والواقع أننا يمكن أن نقول ان زراعتنـا الشتوية تجعلنا فى نطاق البحر المتوسط بينما تنقلنـــا زراعتنا الصيفية جنوبا الى النطاق السودانى والموسمى

ويلخص المقريزى موقع مصر بحسب نظرية العصور الوسطى فى « الاقاليم الســـبعة » حين يقول « مصر متوسطة الدنيا قد سلمت من حر الاقليم الاول والثانى ، ومن برد الاقليم السادس والسابع ، ووقعت فى الاقليم الثالث فطاب هواؤها وضعف حرها وخف بردها، وسلم أهلها من مشاتى الأهواز ومصايف عمان وصواعق تهامة

---

(١) P.V. de la Blache, Principles of Human Geog., Lond., 1926, p. 408.

ودماميل الجزيرة وجرب اليمن وطواعين الشـــام .. وحمى خيبر » • (١)

تعدد الأبعاد

لكن تعدد الجوانب حقيقة أوضح فى الموقع . فمصر حلقة بين العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته . ومن الناحية البشرية والاجتماعية البحتة كانت حضارة مصر العربية التى تزرى بحضارة أوربا الوسيطة شمالا تنتكس أثناء مجاعات العصـــور الوسطى الرهيبة الى ما يذكر بحضارة العالم الزنجى جنوبا بعجزه وتواكله ونميمته ورقه . أى أنها كانت تتأرجح الى حد ما بين حضارة رأسها المتوسطى وحضارة جذورها النيلوتية . ولكنها أكثر من ذلك كانت حلقـــة الوصل بين مشرقه والمغرب . ومعنى هذا أن مصر لها بعدان أساسيان هما البعد الافريقى والبعد الاسيوى ، وكل منهما ساهم فى تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة . فالبعد الافريقى أمدنا بالحياة ـ بالمـاء والســكان ، ولـــكن البعد الاسيوى أمدنا بالحضارة ـ وبالثقافة والدين منذ العرب • وحتى فى العصر الحديث وفى الجانب السياسى تمثل البعدان فى حركات الوحدة السياسية التى دخلتها مصر : مع السودان أولا ثم مع سوريا بعد ذلك

هكذا تتحدد لنا أبعاد أربعة فى توجيه مصر : الاسيوى والافريقى على مستوى القارات ، والنيلى والمتوسطى على المستوى الاقليمى . غير أن من الواضح أن هــذه الأبعاد تتداخل فى بعضها البعض غالبا كما يفعل النيلى والافريقى ، هذا فضلا عن أن الكل يتداخل مع الاطار العربى الكبير • بيد أن الاطار العربى ليس مجرد بعــد

(١) الخطط ج ١ ص ٤٠

توجيهى أو اشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته ، ولهذا فلن نعرض له هنا حتى نعود اليه فى نهاية البحث بدراسة مستقلة مستفيضة . وفيما عدا هذا ، فان كلا من تلك الابعاد الاربعة كان يجذب مصر فى اتجاهه ويكون أو يلون شخصيتها بدرجات متفاوتة من عصر لآخر . ومن الأهمية بمكان أن نقيم كلا منها ومدى اسهامه فى الشخصية المصرية وتوازنات التفاعل المتطور بينها جميعا

البعد الأسيوى

من بين البعدين القاريين ، يذهب الثقل والخطر دائما وأساسا للبعد الأسيوى الذى يأتى مبكرا باستمرار ، بينما يغلب أن يتأخر الافريقى زمنيا . فرغم أن مصر فى افريقيا موقعا ، فقد كانت أبدا فى آسيا وقعا . ففى علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة أسيوية أكثر منها — أو بقدر ما هى — افريقية (١) والانحدار التاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشمال الشرقى . وان نظرة الى الخريطة تكشف لنا حقيقة بسيطة ولكنها دالة . فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ولكنه يجنح بتحيز واضح نحو الشرق ، قل تقريبا بنسبة الثلث — الثلثين . ولو كان النيل يجرى أكثر غربية لتغيرت بلا شك اتجاهات التاريخ ، على الأقل فى جزئياتها

وبعد هذا فان الدلتا مفتوحة مكشوفة من الشرق والغرب ، تؤدى تلقائيا الى سيناء التى تحمل فى اقليم جفارها جسرا بريا الى آسيا هيأته الطبيعة بكثبانها الرملية وبما تختزن من مياه الامطار لأن يكون المدخل

---

(١) W. Fitzgerald, Africa, 1950, p. 418.

الشرقى لمصر ومفتاحها الام (١) . بل ان سيناء - التى شبهها البعض بأنها تصغير شديد للجزيرة العربية بيئة وتركيبا (٢) - كانت دائما تثير السؤال : افريقية أم أسيوية ؟ وأيا كان الرد ، فهى حلقة الوصل بين القارتين، وهى موصل جيد الى القطاعات الشمالية الهامة من مجالنا الاسيوى ..

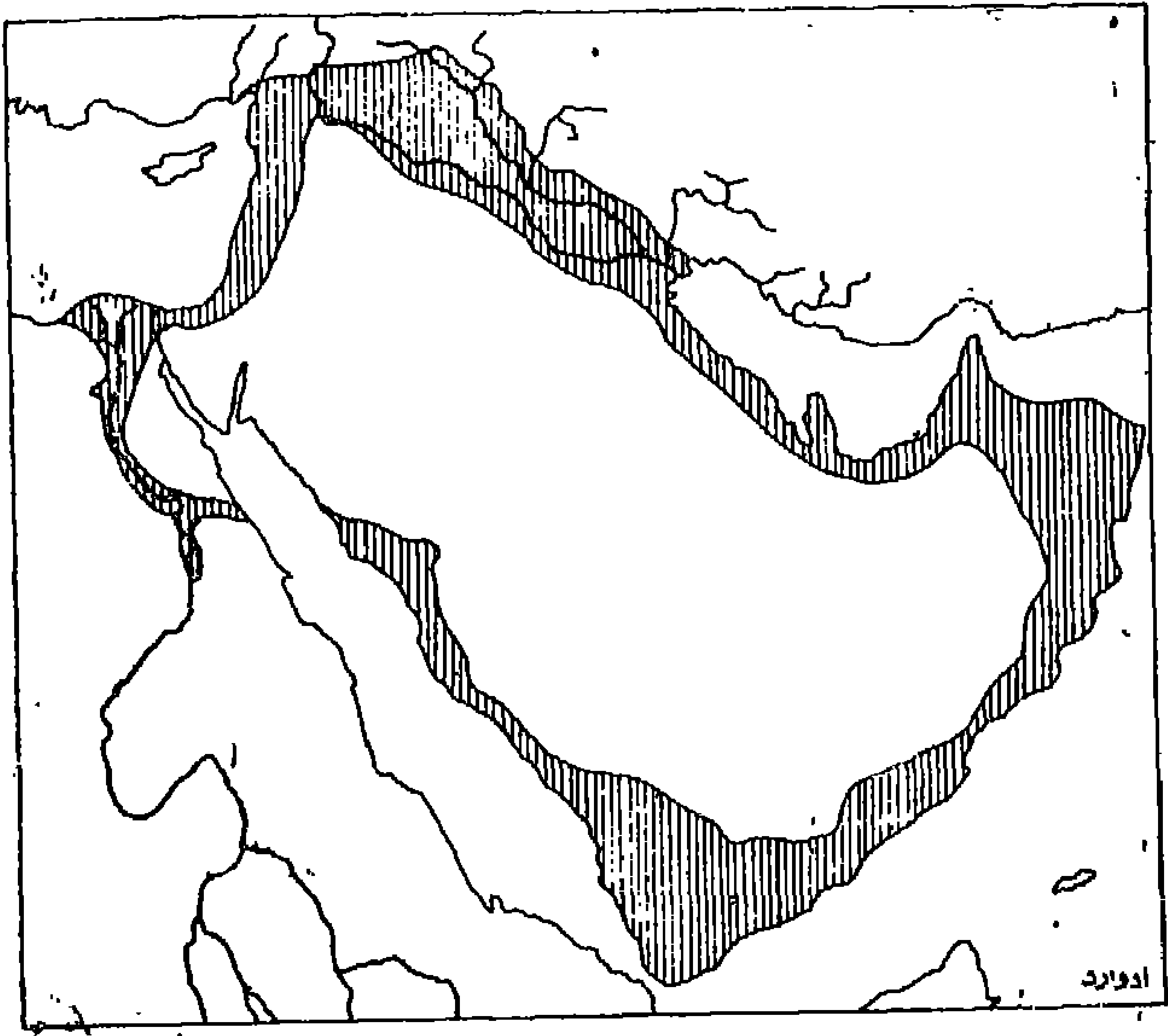
والى جانب سيناء يأتى البحر الاحمر كدهليز طويل يفضى بمصر الى غرب الجزيرة العربية حتى اليمن ، مثلما كان طريقا لها الى القرن الافريقى ، وبذلك يشارك فى البعدين الاسيوى والافريقى . وهنا كان وادى الحمامات - طريق قنا القصير (١٠٠ ميل فقط) يقوم كخاصرة للصحراء الشرقية بدور مناظر ولكنه مصغر لدور شريط سيناء . ومنذ التاريخ المصرى القديم وهو يلعب دورا تكميليا فى توجيه مصر الاسيوى وارتبط فيه أساسا بالقطاعات الجنوبية الأقل أهمية . واذا كان المصريون القدماء قد سموا هذا الطريق « طريق الآلهة » اعتقادا منهم بأنه طريق أجدادهم الاول (٣) ، فربما جاز لنا بالمقابلة أن نصف طريق سيناء « بطريق الغزاة » لكثرة ما عبرته الجيوش

ومن محصلة هذه الضوابط الأولية - جنوح النيل الى موقع شرقى ، وطريقى سينا والقصير - دخلت مصر فى علاقة حميمة مع غرب آسيا . والواقع انه قبل أن يولد العالم العربى وحتى اليوم كانت مصر لهذا تكون قطاعا حيويا مما دعوناه فى مكان آخر (٤) « الحلقة

---

(١) عباس عمار ، المدخل الشرقى لمصر ، القاهرة ، ١٩٤٦ .
(٢) Myres, p. 47.
(٣) احمد فخرى ، المرجع المذكور ، ص ٨٣
(٤) دراسات فى العالم العربى ص ١٤

السـعيدة » وهى تلك الحلقة من الاراضي الخصـيبة أو الأكثر غنى التى تحيط بالجزيرة العربية . وكانت مصر تدخل فى هذه الدائرة عن طريق شريط سـيناء الشمالى من ناحية ووادى الحمامات من ناحية اخرى . وكانت تلك دائرة كاملة تجرى فيهـا تيارات التـاريخ والحياة بلا انقطاع كالدائرة الكهربية المغلقة . وكانت مصر قطبا أساسيا من أقطاب هذه الدائرة . ولهذا كانت تقف على بوابة افريقيا وتنظر الى نافذة آسيا



(شكل ٤) « الحلقة السعيدة » فى المشرق العربى : لاحظ موقع مصر كقطاع فى الدائرة

من هنا كان المحور الشمالى الشرقى هو بوابتهـا الرئيسية ومدخلها الأول ، كان بجدارة «ترموبيل مصر»

منه دخلت جميع الموجات التى اكتسحت البلاد فيما عدا أقلية نادرة أتت من الغرب كالليبيين فى مصر القديمة والفاطميين فىالعصر الاسلامى ، أو من الجنوب كالنوبيين والاثيوبيين فى العصر القديم . غير أن من المفيد أن نذكر أن طريق القصير يتضاءل كلية بجنب طريق سيناء ، فلا نكاد نعرف موجة أو حملة أتت عن طريقه يقينا الا حملة الهند فى القرن الماضى . على أنه من الناحية التجارية لم يعدم قدرا كبيرا من الأهمية حيث كان مخرجا ومدخلا أساسيا لتجارة المرور بين البحرين عن طريق الصعيد والوادى ، لا سيما أن القطاع الشمالى من البحر الاحمر لم يكن مرغوبا فى ملاحته لأخطار العواصف والشعاب المرجانية كما كانت تتهدده أحيانا الاخطار الشمالية كأيام الصليبيات ، هذا فضلا عن أنه كان طريق الحج التقليدى فىالعصور الوسطى . وتنعكس كل هذه العوامل على تاريخ موانى جبهة هذا الطريق خاصة القصير

وبغض النظر عن القيمة النسبية لكل من طريقى سيناء والقصير ، فقد صبا أغلب نشاط مصر الخارجى فى الجبهة الاسيوية . فكانت كل الحركات الخارجة من مصر وكل معاركها التاريخية تتم على أرض أسيوية . وقد كان اطار النشاط المصرى فى آسيا لا يخرج تقليديا عن الهلال الخصيب حتى أقدام الاناضول ومشارف الفرات وتخوم العرب البتراء . واذا كانت مصر لم تصل فعليا فى مدها الاسيوى الى قلب العراق فضلا عن فارس بينما وصلت قوى مختلفة من كل منهما أكثر من مرة الى مصر ، فليس هذا لقصر ما فى نفس الحركة المصرية ، بل أن العكس هو الصحيح ، فقد كان لمصر بعد آخر برمته هو البعد الافريقى ، بينما لم تعرف العراق أو

فارس أبعادا أخرى مماثلة

ولكن هذا الزحف نحو الشرق Drang nach Osten اتسعت رقعتـــه فى القرن التاسع عشر حتى شملت الاناضول وكادت تشرف على اسطنبول مرة ، كما توغلت فى نجد والحجاز حتى اليمن من الناحية الاخرى . وفى كثير من فترات التاريخ كانت ولاية مصر تشمل ضمنا جزءا قل أو كبر من الشام وايالاته ، كما تمددت الى غرب الجزيرة العربية أكثر من مرة

ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن دائرة الحلقة السعيدة قط ، سواء قبل الاسلام أو بعده . فمن الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائما طرفا فى قصة التوحيد بفصولها الثـــلاثة . فمواطن الأديان التوحيدية فى فلسطين وسيناء والحجاز ترسم فيما بينها مثلثا أو سهما رأسه يشكل مماسا لمصر فى سيناء . فقد انصبت هذه الرسالات جميعا فى مصر على التوالى ، وان كانت كل فرشة منها تطفى وتغطى على سابقتها حتى سادت أخراها فى النهاية . والى هذا ، فان مصر لعبت فى مراحل الدعوة الى ثلاثتها دورا أو آخر ، فكانت لموسى قاعـــدة ومنطلقـــا ، ولعيسى ملجأ وملاذا ، بينما كانت مع النبى محمد هدية ومودة

غير أن اهمية البعد الاسيوى فى الشخصية المصرية ــ التى تنعكس حتى منذ فجر التاريخ فى العنصر السامى المؤكد فى اللغة المصرية القديمة ، الحامية أساسا ــ زادت واكتملت خاصة منذ العرب حين أخذت مصر الشخصية العربية كاملة فى اللغة والثقافة والدين ، بل لم تلبث أن أصبحت بها قلب العالم العربى والعروبة وهمزة الوصل بين المشرق والمغرب ، بين آسيا العربية وافريقيا العربية. ومنذ العروبة يلاحظ أن كل الدماء القريبة أو البعيدة

التى انصبت أو تسربت الى مصر ، جماعات أو أفرادا ، جاءت كلها تقريبا من الجبهة الاسيوية باستثناءات قليلة . فبجانب العرب ، يصدق هذا على عناصر الأكراد والتركمان والغز والديلم ممن أتوا كمماليك الأيوبية والملوكية ، كما يصدق على الأتراك فيما بعد ومعهم الشراكسة ثم فى القرن الاخير الارمن وغيرهم . وفى نفس القرن اشتدت هجرة ودخول عرب الشام ولبنان وفلسطين الى مصر .

أما فى الوقت الحاضر فلا جدال أن الثقل الاكبر من السياسة القومية لمصر الثورة يتجه الى الجبهة الاسيوية ، عودا فى الحقيقة على بدء قديم قدم التاريخ . وقد أكدت قضية فلسطين هذا التوجيه وحتمته تماما مثلما فعلت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى . ومنذ حرب فلسطين ثم منذ الثورة ، خاضت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الاسيوية بما فى ذلك اليمن . فمن الواضح اذن أن البعد الاسيوى هو البعد المحورى فى توجيه مصر الخارجى ، وأنه أساسا علاقة أخذ وعطاء من طرفين ، تمتاز بالاستمرار والاطراد دون ذبذبة أو تقطع ..

البعد الافريقى

كما يتداخل الكل مع الجزء والعام مع الخاص ، يتداخل هذا البعد مع البعد النيلى .. حتى ليمكن أن نزعم أن القطاع الأكبر من بعدنا الافريقى انما هو ببساطة بعدنا النيلى ، يكمله من يمين قطاع ثانوى نسبيا على طول البحر الاحمر وشرق افريقيا ، ومن شمال قطاع أخطر يجمع المغرب العربى والصحراء الكبرى . ولهذا يحسن أن نتحدث عن البعد الافريقى

بايجاز وتعميم قبل أن نركز على جوهره البعد النيلى

وواضح أن أرض مصر جزء من جسم إفريقيا ، أما السكان فمن النظريات ما تربطهم بالقرن الافريقى أصلا وترى قرابة ما بين المصريين القدماء والصوماليين (١) . غير أننا اذا قبلنا نظرية عصر الجفاف التى أعقبت العصور الحجرية القديمة ، فلعلها لا تحتم بالضرورة أن يكون المصريون من أصل غير محلى أو اقليمى . وأيا ما كان فان هناك اتجاها متزايدا هذه الايام - ربما كرد فعل متطرف لمحاولات الاستعمار المتطرفة لتمزيق القارة - للبحث عن تلك الاصول فى مجال الاركيولوجيا الافريقية والانسان الاول . غير أن هـذا اتجاه تحف به مزالق علمية كثيرة ككل ما يتصل بالماضى السحيق ، وقد يرتب نتائج ضخمة على فروض ونظريات تخمينية . والذين يفعلون ذلك ربما كانوا يفعلون أسوأ مما يفعل أصحاب الفرعونية ، فهم لا يعودون فقط الى الماضى البعيد المكتوب ، ولكن الى الماضى السحيق قبل المكتوب وقبل التاريخ ولا نقول قبل الانسان العاقل !

وانما حسبنا أن نقول ان مصر التى كانت طليعة ومهد الحضارة فى القارة ، قد صدرت اليها كثيرا من انجازاتها منذ فجر التاريخ . وخارج البعد النيلى ، فلقد تأكد هذا مرارا على محور البحر الاحمر منذ رحلات بونت الدالة ، كما يحتمل على محور الصحراء الكبرى حيث وجدت أدلة على المؤثرات الحضارية المادية والثقافية بين بعض قبائل نيجيريا وغرب افريقيا وبين القبائل النيلوتية فى أعالى النيل (٢)

---

(١) C.G. Seligman, Races of Africa, H.U.L.

(٢) عبد العزيز كامل ، دراسات فى افريقية المعاصرة ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٧٢ - ٧٩

ولكن العلاقات على محور شمال افريقيا جاءت من نوع آخر أدخل فى الوجود العربى الكبير . وهى والبعد النيلى بمثابة ذراعين طويلتين ضخمتين تنتهيان الى مصر لتتصلا عن طريقها بالحلقة السعيدة فى المشرق العربى .

فمنذ البداية دخلت مصر مع الليبيين فى احتكاك بعيد المدى بالغارات والحملات ، وبالتسرب والتوطن ، سواء فى غرب الدلتا أو جبهة الفيوم والصعيد . بل وأسسوا كما رأينا احدى الاسرات فى تاريخ مصر

كذلك فما أكثر ما امتد التوسع والنفوذ السياسى المصرى الي برقة خاصة أيام البطالسة والعرب . وكانت مصر بوابة التعريب بالنسبة للمغرب كله ، وتواترت العلاقات المتبادلة فى العصور الوسطى ، فكان طريق الحج ـ الذى ترمز اليوم اليه العشرات من اضرحة ومقابر الشيوخ المغاربة على طول ساحلنا الشمالى الغربى ثم الى قلب الدلتا ابتداء من سيدى برانى الى سيدى المرسى الى السيد البدوى ... الخ ـ كان هذا الطريق رافدا سنويا أو دائما يصب مؤثراتهم بهدوء فى مصر . وكان طريق التحذير الساحلى الشهير بنيرانه (١) يؤكد هذه العلاقة ، التى وصلت الى قمتها فى الغزو الفاطمى لمصر . واليوم يمثل أولاد على بمريوط حلقة وصل بشرية بين مصر والمغرب الكبير

من السهل اذن أن نرى أن البعد الافريقى فى كيان مصر يتفق فى معظمه وباستثناء هوامش ثانوية مع المجال العربى سواء فى ذلك فى دائرة النيل أو الصحراء أو المغرب . من هنا يبرز السؤال : أين وكيف تقع مصر بين العروبة والافريقية ؟ وما العلاقة بين الوحدة العربية والوحدة الافريقية ؟ وهنا تصر الاتجاهات الاستعمارية

---

(١) رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٥٥

على ابعاد وعزل العرب ـ لا سيما مصر التى تلعب اليوم فى السياسة دورا قياديا فى افريقيا مثلما لعبته قديما فى الحضارة ـ عن القارة ، وتزعم أن الصحراء الكبرى فاصل طبيعى كالمحيط يقسم القارة الى قارتين ، ويحدد ثنائية أساسية هى ثنائية العرب ـ الزنوج ، ويجب أى وحدة افريقية .

والنظرية ـ التى تكاد تبدو كأنها الوجه الآخر لنظرية الاستعمار الاخرى عن « وحدة البحر المتوسط » ـ تنتهى الى خلق تعارض مقصود بين فكرتى الوحدة العربية والوحدة الافريقية . فهما ـ هكذا هى تصور ـ خطان متعامدان : اذا قلت بالوحدة الافريقية شطرت الوحدة العربية ، وان أنت قلت بالوحدة العربية مزقت الوحدة الافريقية . ومن ثم تبدو النظرية كلها سلاحا ذا حدين بل متعدد الحدود ، يمزق كل شىء وفى كل اتجاه سواء فى العروبة أو فى افريقيا ، وهذا بالضبط هو الهدف الاساسى سياسيا ..

تلك هى القضية كما يضعها الاستعمار ، ولكنها فى الحقيقة وببساطة قضية مزيفة . فمن ناحية لم تكف المؤثرات العربية أو المصرية عن اختراق الصحراء منذ فجر التاريخ القديم . ومن المبالغة أن نتكلم عن الصحراء كمحيط رملى فى عصر الطيران . ومن ناحية أخرى ـ وهذا أساس كل خلط وخطأ ـ فليس المقصود بالوحدة الافريقية الا « وحدة عمل » ، وحدة تضامن فى المجال الدولى سياسيا واقتصاديا وحضاريا مواجهة لضغوط الاستعمار المشتركة . أما الوحدة العربية فوحدة كيان ومصير . الأولى لا تستهدف الوحدة الدستورية ، والثانيةجوهرها الوحدة الدستورية والاندماج السياسى، أى أن الوحدتين من مستوى مختلف ، وهو اختلاف فى

النوع لا الدرجة ، ومن ثم لا تعارض بينهما . ولهذا فليس على مصر جناح أن تولى وجهها شطر افريقيا وبعدها الافريقي كما فعلت دائما ، وليس لها أن تنسى أنها بوابة القارة وحارسها فى الشمال الشرقى ، ونقطة الارتكاز بالنسبة لها فى التضامن الاسيوى الافريقى . كل أولئك دون أن تضعف عروبتها فى أى معنى .

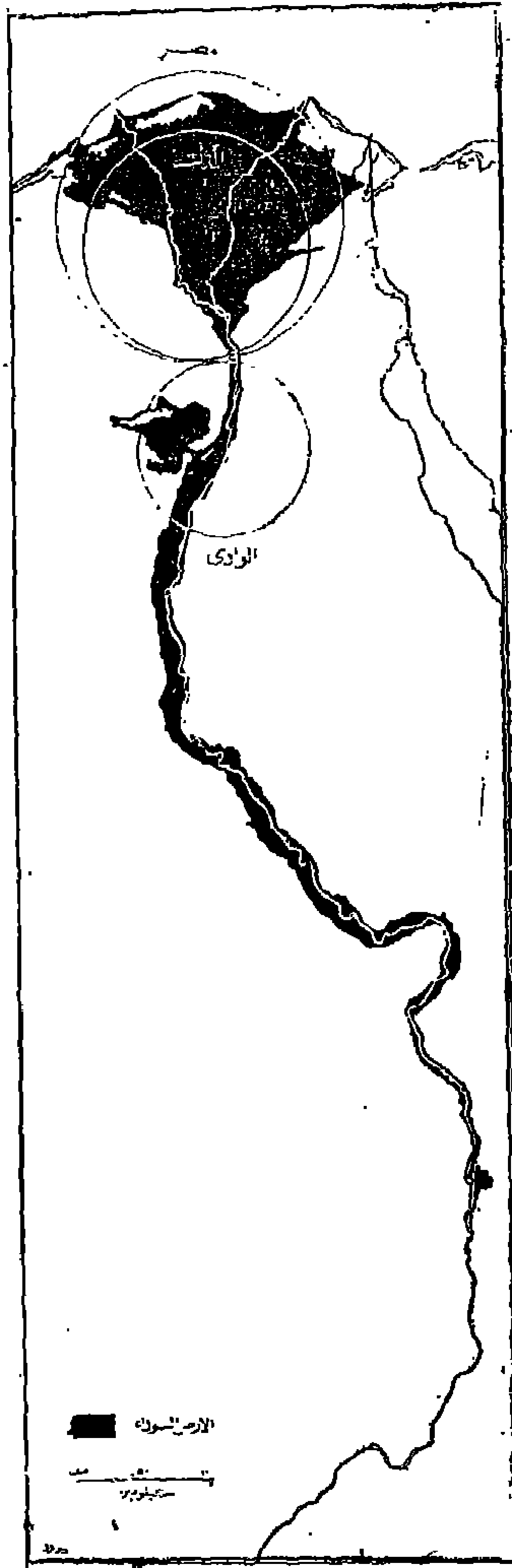
ومن هنا نرى أن ما طالب به البعض أخيرا من النص دستوريا على أن مصر جزء من افريقيا بمثل ما ينص على أنها جزء من الامة العربية ، انما هو قياس مع الفارق وينبع من منظور خاطىء يضع الوحدة العربية على نفس مستوى الوحدة الافريقية . فأن ننص على عروبتنا فى الدستور ، هو تعبير سياسى عن مضمون قومى ، ومن ثم هو أمر فى موضعه السليم . اما أننا جزء من افريقيا ، فحقيقة جغرافية بديهية مجردة لا يستتبعها بالضرورة أى التزام سياسى أو قومى حتمى، ولذا فمكانها الطبيعى فى كتب الجغرافيا ولكنها جديرة بأن تبدو فى الدستور فضولا وتزيدا لا محل له

البعد النيلى

أما البعد النيلى فسيلاحظ ابتداء أن نمط الصعيد الخطى الطولى linear ليس « اقتصاديا » من حيث العمران أو المواصلات أو الانتاج لان كل هذه المجالات انما تخدم الحد الادنى من السكان اذا اعتبرنا وحدة المسافة . ويكفى أن نعلم أن الاثنى عشر الف كيلومتر مربع ونيفا التى تؤلف مساحة الصعيد وتمتد نحو ٨٠٠ كم من الشمال الى الجنوب يمكن أن تستوعبها برمتها دائرة مكتنزة قطرها ١٢٥ كم . ان شكل جغرافية الوادى الاقتصادية قد لا يكون الأمثل للجغرافى

الاقتصادى ، ولكنه لنفس السبب مثالى للاستراتيجي ولأغراض الحضارة والتاريخ . فالصعيد الخطى هو فى الحقيقة الذى وسع رقعة مصر الكلية بأن أضاف اليها الرقعة الكبرى من غلافها الصحراوى . ولو كان الصعيد ملموما كالدلتا لكانت رقعة مصر الكلية أصغر مما نعرف بكثير . وأهم من هذا أن الصعيد الخطى هو الذى أعطى لمصر عمقا حضاريا فى افريقيا — هو سهم مرسل نحو قلب القارة حمل حضارة مصر وثقافتها ، مخترقا الصحراء فى مضاء ونفاذ يتحاشى بهما — بقدر الامكان الميكانيكى — الاحتكاك بحواجز الصحراء العنيدة . ولو كان الصعيد ملموما كالدلتا لتغير بلا مراء تاريخ علاقة مصر بالقارة ولكانت أسيوية أكثر مما هى الان ولأعطت ظهرها للقارة الأم بصورة أو بأخرى . وعلى العكس من هذا ، لو أن نيل النوبة بثنيته المسرفة فى الالتواء ، مضى مستقيما مباشرا لكان رباطا أوثق . ومع ذلك كله فقد كانت الصحراء أبدا عائقا خطيرا فى سبيل تعميق هذا البعد النيلى وتمديده سواء غربا أو جنوبا ، كما كانت جنادل النيل — التى يعدها البعض الحد الشمالى للمؤثرات الزنجية أو المتزنجة فى حوض النهر — عقبة أخرى فى طريق الشريان الوحيد الى قلب القارة . ولهذا كانت حدود النفوذ المصرى لا تتعدى غالبا الشلال الثانى أو الثالث ، ولو أن النفوذ الحضارى توغل كثيرا حتى اثيوبيا القديمة .

ويقدم حزين نظرية مناخية ثاقبة تفسر جزئيا ميكانيكية التوجيه الجنوبى النيلى لمصر القديمة كمكمل حينا أو كبديل حينا آخر للتوجيه الشمالى الاسيوى . فهو يقترح أن الذبذبات المناخية — التى لاينبغى بالضرورة أن تكون بعيدة المدى طبيعيا — والتى عرفتها مناطق



(شكل ٥) المساحات الدائرية فى مصر

شمال المشرق العربى حتى العصور الكلاسيكية ، كانت تسبب الاضطرابات والقلاقل فيها ، وتطرد البدو فى غارات تشل مجرى التجارة بين مصر والبعد الأسيوى من ناحية كما تغريهم بغزو مصر فى شمالها خاصة من ناحية أخرى . فعندئذ تنسحب القوة المصرية الى معقلها التقليدى فى الجنوب فى الصعيد لا سيما حول طيبة حيث تأخذ صبغة دينية تحفزها تلقائيا الى أرض البخور والمر والعطور ــ بونت والصومال ، فيسود التوجيه الجنوبى ويتبلور البعد النيلى الافريقى (١)

Drang nach Süden على أن الاتجاه الجنوبى لمصر لم ينقطع طوال العصور القديمة وبعدها . فكانت تلك التخوم الجنوبية هى فيما يبدو أرض « النهس » عند المصريين القدماء واقليم « المريس » فى العصر القبطى . وكلها يبدو تاريخيا كهوامش وأطراف على المنطقة الحضارية التى قلبها مصر ، اليها تصل مؤثراتها وعناصرها ببطء نوعا وبفارق زمنى ، وفيها تخضرم بعد أن تكون قد تطورت أو ربما اندثرت فى القلب نفسه ، وتبدو بذلك الى حد ما كما لو كانت متحفا جغرافيا حيا لتاريخ مصرى انطوى

وقد كان هذا الاشعاع المصرى يتم ــ كقاعدة ــ على محاور ثلاثة كالحزمة : محور النيل أساسا ، ثم أودية الصحراء الشرقية ، وطرق قوافل الصحراء الغربية (٢). فمصر الفرعونية اتصلت بالنوبة منذ البداية وهى فيما يظن التى أعطتها اسمها نسبة الى الذهب ــ نب ــ الذى اجتذبها هناك . وعن مصر أيضا أخذت النوبة الحضارة

---

(١) S.A.S. Huzayyin, Arabia & the Far East, Cairo, 1942, pp. 30-1.

(٢) عبد العزيز كامل ، ص ٦٤ ــ ٦٧

وتأثرت لغتها باللغة المصرية ثم القبطيــة ، بل يعتقــد البعض ــ ربما مجرد تخمين ــ أن اللغة النوبية هي بقايا حفرية بشكل ما للمصرية القديمة . وقد توسعت الدولة الوسطى فى الحملات التأديبية على النوبة ، حتى اذا كانت الدولة الحديثة كان قد تم تمصيرها جيدا وأسست العاصمة نباتا قرب الشلال الرابع . كذلك احتكت مصر باستمرار بالبجا فى مرتفعات البحر الاحمر واشتبكت معهم فى معارك تأديبية اخضاعا وردا على غاراتهم المتكررة ، كما اشتبكت معهم فى علاقات حضارية وثقافية فأعطتهم كثيرا من حضارتها الى جانب ديانتها عبادة ايزيس

وكما صدرت مصر عناصر حضــارتها وعقيدتهـــا الفرعونية الى الجنوب ، كررت دورها مع المسيحية ثم الاسلام . فرغم أن المسيحية اتخذت فى مصر شــكلا خاصا بها حتى أصبحت القبطية فى معنى ما ديانة من الديانات التى توصف بأنها « جغرافية وعنصرية » معا أى تتحدد باقليم معين وبشعب معين ، فانهــا لم تلبث أن امتدت جنوبا وبعيدا بين النوبة والبجا ، بل توطنت المسيحية وتوطدت فى النوبة خاصة حيث نشأت مملكتان هامتان هما دنقلة وعلوة . ومن الغريب أن المسيحية بعد أن هجرت فى مصر ، اتخــذت من النوبة معقلها على الطريق ، فظلت تقاوم المد الاسلامى طويلا حتى سقطت مملكتا النوبة فى القرن الرابع عشر

وبالمثل تخلفت المسيحية فترة بين البجا ، أما فى الحبشة فكانت نهاية ــ وقمة ــ الاشعاع الدينى لمصر ، حيث ارتبطت كلية بالكنيسة المصرية ، وحيث اعتصمت القبطية أساسا فى المعقل الاخير لتصبح الحبشة اكبر جزيرة قبطية فى افريقيا بعد أن هاجرت تقريبا من الموطن الأم وتخلفت نوعا ما على الطريق . وبهـــذه الهجرة

الحقيقية أصبحنا نجد أن ملامح الماضي فى النواة المصرية هى ملامح الحاضر على أطراف منطقتها الحضارية أو أبعادها النيلية

ومع الاسلام يتأكد دور مصر من جديد . فرغم أن من الثابت الآن أن تعريب السودان سبق اسلامه بكثير ، وأن اسلامه عن طريق الجزيرة العربية والبحر الاحمر رأسا سبق اسلامه عن طريق النيل ، فقد لعبت مصر دورا هاما فى دفع المد الجديد وكقاعدة كبرى لتعريب السودان . فمنذ الفتح العربى لمصر اتجه زحف الاسلام الى السودان ، أما عقبة النوبة المسيحية فقد احتواها الاسلام وغزاها طويلا وعميقا بالانتشار الفشائى الفعال قبل أن يغزوها بالقوة الحربية . ثم انفتح الطريق كاملا

واذا كنا نرى من هذا أن تعريب السودان فى العصور الوسطى لم يكن دور مصر وحدها ، فقد ظل البعد النيلى كذلك منكمشا على نفسه طويلا حتى انطلق فجأة واخيرا فى القرن التاسع عشر أيام الامبراطورية المصرية ــ العربية ــ الاسلامية فى حوض النيل وشرق افريقيا . وقد وصل هذا الزحف نحو الجنوب بسرعة الى بحر العرب ــ الغزال ولكنه توقف أمام الاستوائية بسبب « السد » ، لأن النيل الذى كان ينبغى منطقيا أن يكون طريقا متصلا الى قلب القارة وأعالى الحوض لا يلبث أن يتحول ــ لنفس الاسباب التى جعلته شريانا هائلا ــ الى حاجز مصمت هو السد . فاضطر المد الشمالى الى الدوران حوله وتخطيه الى ساحل البحر الاحمر فى ارتريا والصومال . ولكنه لم يكن قد بدأ بالكاد حتى ظهر له سد جديد سياسى لا طبيعى هذه المرة هو الاستعمار البريطانى فارتد الى الابد (١) . ومما له مغزاه

(١) هوسكنز ، ص ٧٩ وبعدها ، محمود كامل ، القانون الدولى العربى ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٨

أن السودان « العربى » انما ينتهى عند بحر « العرب » بالذات

وهنا سيلاحظ من الناحية السياسية أن حدود الامبراطورية المصرية العربية الاسلامية قد تعدت حدود حوض النيل بالفعل ، وأنها تقدمت على محورين النيل والبحر الاحمر ، وتعبر بذلك أوضح تعبير عن تداخل البعدين النيلى والافريقى لمصر . كذلك تعرض هذا البعد لمحاولات البتر أو التقليم الاستعمارية . فحاول الاستعمار البريطانى أن « يقلب » الانحدار الطبيعى والتاريخى للحوض بعيدا عن مصر ، فسعى الى فصل جنوب السودان توجيها له الى شرق افريقيا والمحيط الهندى ، وحاول تحريف وجهة السودان الشمالى نحو البحر الاحمر بدلا من مصر النيل . وأخيرا يلاحظ أن مصر بعد أن كانت قد تحولت الى دولة « مختلطة » جيوبولتيكيا تتألف من النواة الكثيفة الأم ومن نطاق « واسع » تابع ، عادت دولة كثيفة نووية كما بدأت

وعند هذا الحد ، يمكن أن نجمل خصائص البعد النيلى فى كيان مصر بصفة عامة . بعد أصيل وجوهرى لا شك ، لم يعرف الانقطاع بل لعله بعامة زاد عمقا على العصور . غير أنه بعد هذا يغلب عليه الطابع الحضارى والسياسى أساسا ، وهو من هذه الزاوية من طرف واحد بالضرورة : ايجابا فى الشمال وسلبا فى الجنوب . ولكن هذا انما يعنى النواحى البشرية ، أما طبيعيا فهذا بعد هيدرولوجى بالغ الخطورة بحسبانه أساس الوجود المصرى كله ، وهو ما يمنحه تلك الاهمية السياسية الخاصة

البعد المتوسطى

ان البحر المتوسط بعد من أبعاد التوجيه المصرى ،

قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية . فالبلد اذ يطل عليه بجبهة بحرية مشرفة مترامية نوعا ، واذ يمثل البحر أحد ضلوعه الاربعة ، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور المصرى باعتبار الضلع الغربى ميتا والجنوبى والشرقى شبه ذلك ، نقول ان البلد بهذا لا يملك الا أن يتفاعل مع البحر ويتعايش . غير أن السؤال هو الى أى حد ، وكيف يستقر البعد المتوسطى فى وجودنا ؟

فالبعض من مثقفينا يود أو ود يوما أن يجعلنا جزءا من حضارة وعالم يتصورونه هو البحر المتوسط . غير ان هذا الاتجاه أدنى فى الحقيقة أن يكون « رجعة » تاريخية الى نظرية سادت وروج لها كثيرون فى الغرب ، ولكنها حتى فى ذلك الغرب أصبحت اليوم بالية أو شبه ذلك . والاشارة هنا بطبيعة الحال الى نظرية « وحدة البحر المتوسط » الكلاسيكية التى يفترض أن الاستعمار الاغريقى ثم الرومانى حققاها بالقوة بين شاطئى البحر الشمالى والجنوبى حين كان شمال افريقيا من جبل طارق الى السويس بل الى الاسكندرونة خاضعا لهما . ولكن من الواضح أن تلك كانت وحدة قهرية مفروضة من طرف واحد ، وسلبية من الطرف الآخر ، ولا يمكن أن تحسم علاقة

كذلك تكاد النظرية أن تنتهى منطقيا الى تصور « قارة وسطى » — أو شبه قارة بين القارات الثلاث تتحلق حول البحر ، أو على الأقل تفصل افريقيا شمال الصحراء عن بقية القارة . ومن الناحية الاخرى ، فقد تلقف النظرية بعض من الكتاب الاستعماريين فى عصرنا هذا وعمل على بعثها والدعوة اليها لأهداف سياسية بعيدة وهى توجيه المنطقة ، سواء مصر أو غير مصر من

دول البحر العربية ، توجيها أوربيا يجرها الى عجلتها السياسية ، أو على الاقل حتى تتطلع الى أوربا كقبلة حضارية ، وزعموا فى هذا الصدد أن « أوربا تبدأ عند الصحراء » (١)

لكن الواقع أن هذه النظرية المبتسرة يمكن ان تجعل من جنوب أوربا ملحقا لافريقيا ، وليس العكس بالضرورة . فاذا كانت الصحراء فاصلا ، فالألب فاصل كذلك . واذا قيل ان « أوربا تبدأ عند الصحراء » ، فقد قيل بالمقابل « عند البرانس تبدأ افريقيا » (٢). واذا كان الساحل الاوربى قد طغى سياسيا على الافريقى ، فقد طغى الثانى على الاول قرونا وقرونا . كذلك فان توسع المعمور وآفاقه منذ العصور القديمة خطوة خطوة ، أبرز أوربا كاملة مثلما كشف عن افريقيا كاملة فى النهاية ، وعاد كل من شاطئى البحر المتوسط يرتبط — والانسان حيوان برى أولا — بظهيره القارى أساسا . وفى النتيجة فتلك النظرية لا يمكن أن تسلخ شمال افريقيا عن افريقيتها أكثر مما تسلخ جنوب أوربا عن أوربيتها

أما حقيقة العلاقة داخل البحر المتوسط ، فنمو وتطور تاريخى مر فى أدوار متعاقبة مرتبطة وثيقا باستراتيجية العلائق المكانية الكبرى فى العالم القديم . فقديما كما رأينا لم تكن دائرة المعمور الفعال لتزيد بالتقريب عن الشرق القديم وحوض البحر المتوسط ، اما أوربا شمال الألب وافريقيا جنوب الصحراء فكانتا اما ضبابا وبرابرة واما مجاهيل وبدائيين . فكان طبيعيا جدا أن يستقطب البحر ذلك العالم لا سيما وهو يتوسطه كما يدل الاسم . كان قبلة أو بؤرة مشتركة للجميع بما

---

(١) Fitzgerald, Africa.

(٢) W. Z. Ripley, Races of Europe. 1900, p. 272

فيهم مصر . من هنا علاقاتنـــا الفرعونيـــة الحضـــارية والتجارية بكريت المينوية ثم باليونان وروما الكلاسيكيتين عدا الشام وقبرص ... الخ

أما فى العصور الاسلامية فقد أصبح البحر المتوسط بعدا حقيقيا وخطيرا فى كياننا حيث كان كل من البحر ومصر مواقع خطى وحلقات حتمية فى طريق تجارة المرور العالمية . فالتحمت مصر بالبحر ، ولكن بالذات خاصرته الوسطى ، وكانت الاسكندرية ودمياط مع البندقيـــة وجنوة وبيزا كالمدن المترابطة على البعد ، وامتد بينها جسر بحرى بمعنى الكلمة . فكانت الاسكندرية والقاهرة موطنا دائما ، خاصة أيام المملوكية ، لمستعمرة نشطة متجددة من تجار المدن الايطالية (١) . وبالمثـــل كانت علاقاتنا الكثيفة مع الشام تتم بالبحر أكثر منها بالبر . حتى الاخطار الخارجية جاءتنا على البحـــر ، فأكدت الصليبيات بعدنا المتوسطى وان يكن عسكريا

واذا كان العصر العثمانى قد شهد هجرة تجارة المرور العالمية ، فان توجيهنا المتوسطى لم ينقطع تماما ، وانما انتقلت البؤرة من خاصرة البحر الى حوضـــه الشرقى أو اللفانت بمعناه الواسع . وحتى مع الخاصرة لم يعدم الأمر ان حلت التجارة المحلية محل العالمية ، ولو أنهـــا كالجدول بعد نهر . والواقع أن العثمانية ربطتنا مع اللفانت ومع الاناضول أكثر مما نتصور عادة ، فقـــد اشتد الاتصال بعاصمة الاسلام « اسلامبول » وسواحل البلقان فى اليونان وألبانيا ... الخ . وانتقل كثير من مهاجرى هـــذه المناطق الطاردة الينـــا ، أو جنودها ، وأقاموا أو انصهروا ابتداء من الانكشارية حتى أرناؤوط وألبان محمد على ... الخ ، وبقيت أسماؤهم المعربة

(١) Clerget, Le Caire, t. II.

تكشف أصولهم أحيانا

(وقد يمكن أن نذكر هنا ـ عابرين ـ بعض مثل هذه الاسماء ، التى تستخدم على الطريقة التركية اللام فى النسبة ، والتى لا زالت تنتشر بيننا . فثمة الدرمللى (من مدينة دراما فى مقدونيا) ، والسلانكلى (سلانيك) ، الجريدلى أو الجريتلى (كريت) ، الاسلامبولى (استانبول) ، المستيرى (موناستير فى البلقان) ، الأزميرلى (أزمير) ، هذا عدا قبائل الموراليا (من المورة) فى الشرقية الان . وهذا ـ بالمناسبة ـ يذكر بمجموعة مماثلة من الاسماء المشتقة من جبهة الالتحام بين الاناضول والشام : كالعنتبلى (من عينتاب) ، المرعشلى (مرعش) ، المردنلى (ماردين) ، أورفلى (أورفا) ، الخربوطلى (خربوط) ، البابلى (الباب قرب حلب) وانلى (بحيرة وان) ، وهكذا ... الخ ..)

هذا ، ومع محمد على والتغريب والأوربة ، استمر ارتباطنا بشرق الحوض ، ولكن أضيف اليه غربه خاصة فرنسا وايطاليا ، الى أن انقرضت بالتدريج العلاقة مع شرق الحوض . ثم جاءت قناة السويس فأعادت تأكيد البعد المتوسطى فى كيان مصر ، ولو أننا نكون أقرب الى الحقيقة اذا قلنا حققت عالمية مصر ، التى لم يعد البحر المتوسط الا حلقة فى سلسلتها

تلك هى دورات المد والجزر فى بعدنا المتوسطى ، ومنها نرى أن بوصلة مصر الجغرافية كانت تعكس ـ ولم تملك الا أن تعكس ـ نبض البحر وحوضه ، فكانت ذبذباته تنتقل كالموجات ليتردد صداها محليا . ولعل أبرز ما كان ذلك فى المدن العواصم وموانى الساحل ، فكانت اقدارها ومصائرها وأجرامها تتحدد بتلك الذبذبات والاشعاعات . فابان الكلاسيكية خلقت

الاسكندرية من لا شيء لتصبح قلب العالم الهلليني البطلمي وذلك بموقعها المناسب لأغراض الاستعمار البحري على جبهة الالتحام بين الظهير المصرى (الهنترلاند) والنظير اليونانى (الفورلاند) . غير أن هذا كان يتركها من وجهة الظهير أشبه بمدينة غريبة أجنبية لصقت بسيف البحر المصرى كما رأينا أكثر منها نبتا انبثاقيا طبيعيا ..

أما فى العصور الوسطى ومع علاقات البندقية وجنوه فكان لرشيد أهمية الطريق ، حتى اذا تحول التوكيد الى شرق البحر كانت الصدارة لدمياط وتنيس حيث لا تزال الاولى تحتفظ بآثار تلك العلاقة الشامية فى وظائفها المعاصرة . وقد ورث محمد على هذا الوضع ، ولكنه فى اندفاعه نحو الغرب عاد أولا الى رشيد ، الا ان حاجته الى نافذة حقيقية على أوربا — كحاجة شبيهه فى الروسيا بطرس الأكبر — أدت به الى اعادة خلق الاسكندرية — مثلما خلق هذا سان بطرسبرج . ورغم طفرة الاسكندرية ودورها فى تجارتنا وعلاقاتنا الخارجية ، فقد جاء الطيران ليقلل نوعا من دور البحر ودورها النسبى ولينقل الثقل المطلق الى القاهرة الداخلية (١)

من هذا كله تتضح أبعاد الموقف . فلا جدال أن البحر المتوسط بعد ، وبعد هام ، فى توجيهنا الجغرافى . فهو نافذة لمصر على الشمال ، وضابط ايقاع لنبضها الحضارى والمادى . غير أن من الواضح أنه توجيه متقطع يشتد حينا ويضعف حينا ، أى أنه مذبذب بين شد وجذب . ثم ان دور مصر فيه استقبال أكثر منه ارسال ، وان كانت العلاقة عكسية فى التاريخ القديم ، كما أن دوره

(١) Clerget, t. I; Hamdan, Studies in Egyptian Urbanism, pp. 22-3.

هو فى كيان مصر ربما تضاءل على مر التاريخ باطراد ، وذلك لأن دور البحر المتوسط ككل قد قل نسبيا مع اتساع العالم

أما ما نرى من خطورة علاقاتنا بأوربا المعاصرة عن طريقه فهى لا تجعل منه الا محطة طريق أكثر منها محطة وصول . فرغم أن الجزء الاكبر من تجارتنا الخارجية وعلاقاتنا الحضارية تعبر البحر المتوسط اليوم ، فان نصيب دوله منها محدودة الى حد بعيد ، ومعروف كقاعدة عامة فى التجارة الدولية أن العلاقات التبادلية بين كل دول الحوض ضعيفة بصورة ملحوظة لتشابه الانتاج فيه (١)

وبعامة فبعدنا المتوسطى حضارى أكثر منه طبيعيا ، واقتصادى أكثر منه بشريا . وهو فى النهاية وعلى خطورته وأهميته ، بعد تكميلى لا يرقى بالقطع الى مستوى البعد الاسيوى أو العربى الذى هو أسبق وأثبت . وعلى أية حال ، فلعلنا لا نغالى اذا قلنا ان دور البحر المتوسط فى مصر أقل منه فى معظم بلاد الحوض ، ويكفى فى هذا الصدد أن نقارن بالشام أو بالمغرب فضلا عن أشباه الجزر الاوربية الثلاث

وخلف هذا التحديد والحدود ترقد الجغرافيا . فأولا ، الحوض كله تطوقه وتغلفه حلقة جبلية متصلة تقطع الساحل الشريطى المختنق عن الداخل مما يجعل الأول بيئة طاردة تقذف بالسكان الى البحر كمجتمعات أمفيبية حقا ــ وذلك باستثناء مصر . فهنا ، وهنا فقط ، تنكسر الحلقة وينفسح السهل الساحلى وينفتح الى وادى النيل الضخم . فعوامل الطرد فى البر لا توجد ، بل له على العكس كل الجاذبية . ومن ثم كان نداء النهر

(١) Siegfried, Mediterranean, p. 179

أقوى بكثير جدا من نداء البحر

ثانيا ، نجد أن كل وحدات الحوض تطل على البحر بجبهة بحرية مستطيلة ممدودة كالمغرب والشام مثلا ، ولكن مصر ــ كفرنسا فى هذا الصدد ــ تطل عليه عموديا أو رأسيا . فالنيل ــ كالرون ــ يتعامد على البحر فى نقطة تماس أكثر منه بجبهة تواز ، لا سيما أن قطاعا كبيرا من قاعدة الدلتا بحيرات ومستنقعات تفصل عن البحر . كذلك ولذلك فان مصر ــ كفرنسا ــ لها علاقتها بالبحر ولكنها ليست العلاقة الوحيدة فى كيانها ، فكما أن فرنسا دولة بحرين ، فكذلك مصر ، وكما أن لفرنسا قاعدتها الارضية الضخمة خارج الحوض ولها أبعادها فى غرب أوربا الاطلسية ومشارف وسط أوربا ، فكذلك لمصر أبعاد أكثر أهمية فى آسيا وافريقيا

وأخيرا ، يلاحظ أن مصر هى أبعد وحدات الحوض عن سواحله المقابلة الهامة ، كما أنها مناخيا الوحيدة فى الحوض التى لا تتبع أساسا مناخ البحر المتوسط . ولعلنا ان أردنا أن نضع دور البحر المتوسط فى ميزان قيمنا الاقليمية ، أن نقترب من الحقيقة أو أن نقربها اذا قلنا انه أقوى بالتأكيد من دور البلطيق فى توجيه الروسيا مثلا ، وأشبه بالتقريب بدور البحر المتوسط فى توجيه فرنسا

تعدد لا انفصام

كيف تفاعلت أبعاد مصر الاربعة ، خاصة البعدان الاسيوى والافريقى ، فى شخصية مصر ؟

من الخطأ أن نتصور العلاقة بين البعدين الافريقى والاسيوى لمصر التاريخية أو المعاصرة على النحو الذى يحاول البعض أن يصور به العلاقة بين البعدين الاسيوى

والاوربى للروسيا القيصرية مثلا . صحيح أن مصر هى أكثر أجزاء افريقيا أسيوية وأقلها افريقية ، بمثل ما أن الروسيا كانت أكثر أجزاء أوربا أسيوية وأقلها أوربية ، ولكن « ازدواج الشخصية » الذى ينسب الى الروسيا لا يصدق على مصر . فقد كانت الروسيا تتجه بكليتها الى جانبها الاسيوى حين كانت تلقى رفضا أو هزيمة أو صدا فى أوربا ، والعكس (١) . ولكن الابعـــاد الافريقية والاسيوية بالنسبة لمصر ليست مناورة أو تكتيكا سياسيا بل هى عناصر أصيلة فى كيانها الحضارى والتاريخى . وليس صحيحا مطلقا أن مصر فى السنوات الاخيرة لم تتجه وجهتها الافريقية القوية بوضوح الا بعد أن لاقت المتاعب فى المشرق العربى وحدثت الردة الانفصالية فى سوريا ..

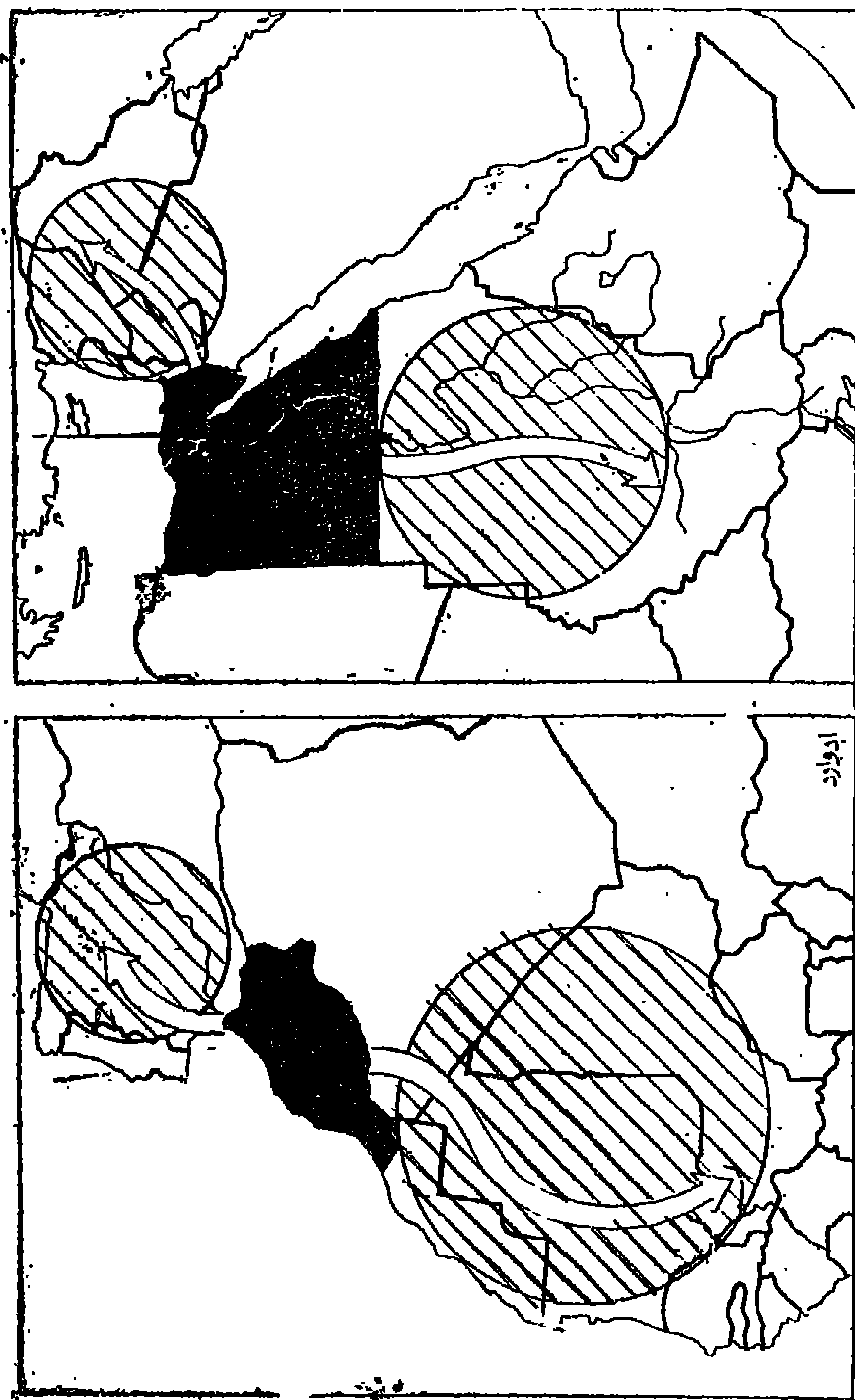
وبين تركيا ومصر مشابهات على السطح قد تغرى بالمقارنة . فتركيا جسر بين آسيا وأوربا بمثل ما أن مصر جسر بين آسيا وافريقيا . بل ان الجسم الاكبر فى كل منهما يقع فى قارة ، بينما لا يقع فى القارة الاخرى الا قطاع صغير : سيناء وتراقيا على الترتيب . وفى كلا الحالين انما يفصل بينهما ممر مائى عالمى خطير . أضف الى ذلك التناظر القريب فى حجم السكان . ولقد تمددت تركيا فى أوربا حتى فينا كما وصلت مصر الى البحيرات فى افريقيا ، واندفعت كل منهما فى آسيا من الناحيـــة الاخرى . ولكن كل هذا تشابه مضلل لأنه سطحى ، وسطحى لأنه جزئى فربما ليس أكثر من تركيا نقيضـــا تاريخيا وحضاريا لمصر . هى بلا تاريخ ، بل بلا جذور جغرافية ، انتزعت من الاستبس كقوة « شيطانية » مترحلة ، واتخذت لنفسها من الاناضول وطنا بالتبنى . وبلا

(١) G. B. Cressey, Asia's Lands & Peoples, 1952.

حضارة هى ، بل كانت طفيلية حضارية خلاسية استعارت حتى كتابتها من العرب. ولكن أهم من ذلك انها تمثل قمة الضياع الحضارى والجغرافى ، غيرت جلدها وكيانها أكثر من مرة : الشكل العربى استعارته ثم بدلته بالشكل اللاتيني ، والمظهر الحضارى الاسيوى نبذته وادعت الوجهة الاوربية . انها بين الدول بلا تحامل الدولة التى تذكر بالغراب يقلد مشية الطاووس . وهى فى كل أولئك النقيض المباشر لمصر ذات التاريخ العريق والأصالة الذاتية والحضارة الانبثاقية ... الخ

بعد هذا ربما انصرف الذهن لثالث وهلة الى بريطانيا بموقفها بين أوربا والكومونولث : فهى موقعا جزيرة ـ ارخبيل ـ على ضلوع أوربا بمثل ما أن مصر جزيرة صحراوية على مشارف افريقيا . وكل منهما امتاز بقدر ما من عزلة خفيفة ، ثم ان امتدادات بريطانيا تقع خارج القارة الى الكومنولث كما أن مصر تتعدى افريقيتها الى آفاق العالم العربى . ولسنا نريد بعد هذا أن نتتبع المقابلة الى عنصر الاستمرارية والمحافظة الذى عرفته كل منهما ولا الى أن كلا منهما أكثف وحدات قارته سكانا وأقدمها سياسيا وكانت له الصدارة فيها لفترة أو أخرى . ولكن الشىء الهام أن حيرة بريطانيا وتذبذبها بين القارة والكومنولث (غير المنظور) لا مثيل لها فى حالة مصر التى لا تجد تعارضا أو انفصالا بين بعديها الحيويين

ولعل أقرب تشبيه الى ثنائية الابعاد المصرية هو المثل المراكشى . فكل من مصر والمغرب الأقصى (مراكش) يتناظر فى موقع الركن والزاوية فى افريقيا ومن ثم فى دور المحط وقاعدة الاحتشاد والتوزيع ، فكان لكل منهما توجيه جغرافى مزدوج عبر التاريخ : مصر شمالا الى الشام وآسيا وجنوبا الى السودان وحوض النيل وشرق



((شكل ٦)) البعدان الاسيوى والافريقى لمصر ، ومقارنة مع المغرب

افريقيا ، ومراكش شمالاً الى اسـبانيا وجنـوبا الى « شنقيط » (موريتانيا) وغرب افريقيا . ولكن البعد الشمالى الاوربى لمراكش ، بعد أن كان « المغرب الاوربى» بكل معنى ، لم يلبث أن بتر تماما ، بعكس نظيره المصرى. وقد كان هذا مما نقل مركز الثقل الى البعد الجنـوبى نهائيا فى حالة مراكش ، بينما ظل نظيره المصرى مهملا أو ضعيفا

وفيما عدا النيل ، فموريتانيا بالنسبة للمغرب هى كالسودان بالنسبة لمصر . بل ان تسمية السودان فى حوض النيل تكرر تسمية مماثلة فى المغرب حيث لا زال السكان ــ بحسب الأصل ــ ما بين «بيضان وسودان» . وكما كانت مصر (الواحة الصحراوية) هى القـاعدة البشرية التى بدأ منها تعريب السودان ، كانت مراكش (الواحة الساحليـة المتوسطية) هى القـاعدة البشرية « للمرابطين » فى اسلام وتعريب موريتانيا حتى السنغال ــ ومعروف أن كلمة سنغال هى تحريف فرنسى لاسم الصفة من صنهاجة كبرى القبائل البربرية المستعربة فى العصور الوسطى والتى شاركت فى الزحف جنوبا . وكما كانت مصر رائدة النيل ، كانت مراكش سـيدة غرب الصحراء الكبرى بلا جدال

والخلاصة ان دور مصر الثنائى فى آسيا وافريقيا أشبه ما يكون بدور المغرب الثنائى فى أوربا وافريقيا . وفى كلا الحالين كانت هذه الثنائية أصيلة صحية فى كيان الشخصية الاقليمية وليست « انفصاما » مرضيا نتيجة للمضاربات الانتهازية السياسية كما عرفت بلاد أخرى فى الشرق والغرب

الفصل الثامن

الاستمرارية والانقطاع

فرعونية أم عربية ؟

الاستمرارية

لعل أنسب مكان لهذه الخاصية المتأصلة فى الشخصية المصرية ـ الاستمرارية ـ هو نهاية المطاف أو قريبا منها ، لأنها صفة مشتركة بين كل جوانب الشخصية الاخرى . فما من كاتب تعرض لتاريخ مصر أو حضارتها دون أن يصر فى الحاح على عنصر الاستمرارية فى كل مقوماتها ومقدراتها . وقد ضربت مس بلاكمان مثلا معروفا حين تتبعت خلال التاريخ منذ الفراعنة حتى الوقت الحالى عشرات من الملامح الاجتماعية والثقافية ، والتقاليد والعادات ، والالفاظ والافكار ، ابتداء من المحراث حتى شم النسيم ومن وفاء النيل حتى الختان . فالماضى دائما يعيش فى الحاضر أو يرقد خلفه . وربما بالغ البعض وأسرف فى المبالغة فقال « مصر التى لا تتغير Immutable Egypt » ، وتحدث عن حضارة أبى الهول . وربما استنتج البعض أن روح المحافظة الشديدة هى طابع قومى عميق الجذور

والمؤكد أن القاعدة العامة فى الخلفية التاريخية لمصر هى الاستمرارية بقدر أو آخر . ولكن المهم الا نبالغ فى

تقديرها وتقريرها ، فليس صحيحا تماما أن الحياة فى مصر كانت تكرارا لانهائيا لمعادلة ميكانيكية كما يصور مارش فيليبس بقوله « ان مصر بالتأكيد ــ من بين كل بلاد العالم ــ هى التى تقترب فيها الطبيعة أشد ما تقترب من الانتظام الميكانيكى والتكرار الميكانيكى . ونمط ترتيب الاقليم نفسه نمط رياضى بسيط من التكرار الذى لا يتقدم ولا يتغير » (١) . ومثله يفعل فيدن حين يقول عن مصر الحديثة المعاصرة « .. أمامك ترقد مصر القديمة بلا تحنيط ، وانما محفوظة فى بلسم الشمس وفى غرائز السكان المحافظة » (٢) . فالمغالاة الكاسحة هنا جد واضحة

والحقيقة أن الاستمرارية المصرية لا تعنى التكرار repetitive ، بقدر ما تعنى التراكمية Cummulative ولعل قولة نيوبرى أدنى الى أن تعبر عن هذه الحقيقة : « مصر وثيقة من جلد الرق ، الانجيل فيها مكتوب فوق هيرودوت ، وفوق ذلك القرآن ، وخلف الجميع لا تزال الكتابة القديمة مقروءة جلية » (٣) . اننا يمكن أن نضعها قاعدة عامة انه اذا كانت جغرافية مصر تراكبية أساسا ، فان تاريخها تراكمى فى الدرجة الاولى . واذا كان ثمة استمرارية ــ واستمرارية لا شك هى ــ فانها معتدلة ونسبية

وليس من الصعب بعد هذا أن نفسر تلك الاستمرارية . فالمركب الحضارى الذى نمته مصر منذ البداية كان يمثل ، فى واقع الأمر ، حالة تلاؤم بيئى Symbiosis محكمة ، وحقق علاقة فعالة Workable connection مع ظروف

(١) Works of Man, p.61.
(٢) Land of Egypt, p. 8.
(٣) P. E. Newberry, «Egypt as a Field for Anthropological Research, Brit. Assoc., 1924, p. 19

البيئة الطبيعية لم يكن من السهل دائما التقليل من قوتها أو التجويد عليها ، ومن هنا بدت حضارة بطيئة الخطى ثقيلة القدم كما يقول برودريك (١) . كذلك لا شك أن دور الصحراء فى مصر كان سلبيا أكثر منه ايجابيا اذا ما قورن بالعراق مثلا . فهو فى مصر منع اغراق الحضارة المحلية فى طوفان من التيارات الاجنبية ، بينما فى العراق مكن للتيارات أن تتوالى بلا انقطاع وترج الوجود الحضارى والبشرى المحلى كل مرة . ولا شك أن دور البداوة والرعاة فى تاريخ العراق الواحة الاستبسية أقوى منه بكثير فى تاريخ مصر الواحة الصحراوية . كما أن موقع مصر كان أبعد عن قلب آسيا مصدر الهجرات والتيارات التاريخى . وبينما خضع البدو والرعاة المحيطون لمصر فى أغلب مراحل التاريخ ، خضعت العراق فى مراحل كثيرة لحكم الرعاة البدو (٢) . وهكذا فان مصر كان لها على العراق ميزة « الدفاع بالعمق » : كانت تستطيع دائما أن تشترى الزمان بالمكان .. ولهذا فان الموقع والموضع وفرا لمصر استمرارية تاريخية تخلو من الهزات العنيفة والانقطاعات الفجائية ـ بعكس العراق تقريبا

وقد ظلت هذه الاستمرارية تتمثل فى نوع من التوازن الاستاتيكى ، Static equilibrium فى جوهره طوال الجزء الاكبر من تاريخ مصر . ويتضح هذا خاصة فى الزراعة العمود الفقرى للحضارة المادية واللامادية المصرية . فتاريخ الفن الزراعى المصرى يمكن أن يقسم كما رأينا بوضوح الى عدة مراحل « جيوتكنية » تحتل واحدة منها بعينها (مرحلة الفن القديم) الجزء الاكبر من تاريخ

(١) Brodrick, Tree of Human History, p. 104

(٢) Benjamin Thomas loc. cit., p. 424.

مصر . وهى اذا كانت قد خضرمت وازمنت طويلا وعاشت تاريخا ألفيا طويلا ، فان المرحلة الباليوتكنية لم تكن توازنا ميتا بل كانت بلغة هربرت سبنسر « توازنا متحركا Moving equilibrium » بفضل تغييرات صغيرة وحركات قصيرة ولكنها تراكمية . فمنذ أيام اليونان اخذت مصر بالطنبور ومنذ البطالسة أدخلت الجاموس ومنذ الفرس الابل ، ومنذ العرب عرفت محاصيل جديدة كالقطن والارز . الخ ... أما المرحلة الجديدة مرحلة الفن الزراعى الحديث (النيوتكنى) فقد اعتمدت فى تحريكها على قوى حضارية خارجية وكانت انقلابا اقتصاديا وحضاريا جذريا كاملا . فانقلاب الرى الدائم كما رأينا هو بالنسبة لمصر كالانقلاب الميكانيكى بالنسبة لانجلترا ، وانقلاب القطن كالانقلاب الصناعى

ولا شك أن انقلاب الرى والزراعة الحديث قد غير وجه مصر تماما ، وأحدث انقطاعا أساسيا فى كيانها . كان عملية تتابع للسكنى Sequent occupance بكل معنى للكلمة . لقد غير وجه اللاندسكيب الحضارى كلية حين خلق حالة من « الهيدرولوجيا المقلوبة Inverted hydrology فبعد أن كانت مصر تتحول أثناء الفيضان الى بحيرة موسمية كبرى متصلة تنقطها القرى وحلات الأكوام وتختطها الجسور النحيلة ، انعكست الصورة تماما فأصبح الوادى الأنجافا الا من آلاف الترع والمصارف . ومع هذا الانقلاب الهيدرولوجى تحرر المسكن القروى من اسار القرية النووية المجمعة وانطلق نحو التبعثر بدرجة أو بأخرى سواء كعزب او كتراب من المنازل poussière de maisons

كذلك تغيرت وجهة مصر كما تغير وجهها : فبعد

اقتصاد الحبوب المنوع والكفاية الذاتية ، قلبت زراعة المحصول الواحد الاقتصاد بطنا لظهر ، ووجهته من السوق المحلية الى السوق العالمية . ومن المحقق أن هيكل الاقتصاد المصرى المعاصر فى تطور داخلى ونيد لكنه جذرى ، من ارهاصاته مفارقات تطورية مثيرة ، فقد بدأت مزرعة قطن لانكشير التقليدية تصدر الغزل والمنسوجات الى أوربا بما فى ذلك بريطانيا ، بينما أخذت صومعة غلال روما التاريخية تستورد القمح من دول أخرى من بينها ايطاليا ! على أن الذى لا شك فيه هو ان الانقلاب الذى بدأ بالرى والقطن كان بداية وأداة الانقلاب الحضارى الحديث وعملية « التغريب » . ولا شك أن القطن بالذات كان وسيلة شرائنا لهذه الحضارة الأوربية

ومن الناحية الاجتماعية فلا جدال ان مصر اليوم تحمل مجتمعا يختلف كما وكيفا عن مجتمع مصر القديمة التقليدى . فلا مجال للمقارنة بين حجم السكان بالامس واليوم بعد أن تضاعف سكان الوادى بل وتخطوا فعلا ضعف الطاقة القصوى القديمة . وأما كيفا فالثورة السياسية الاشتراكية طفرة فلتة فى تاريخ مصر غيرت كل تركيبها السياسى والاجتماعى ، مثلما أتت ثورة التحرير قلبا كاملا لتاريخنا الاستعمارى الذى طال وأزمن ..

تلك اذن ملامح انقلابنا الحضارى الحديث وهذا نتجه النهائى . وقد يرى البعض ان هذا الانقلاب المعاصر هو أخطر عملية انقطاع حضارى فى تاريخ مصر . وانه لكذلك . الا ان هذا لم يكن مقصورا على مصر أو بضع حالات غيرها ، بل أتى ظاهرة عالمية معدية . ولهذا قد يجوز لنا أن نقتطعها من شريط الزمن ، وحينئذ ستتبقى

لنا استمرارية نادرة فى الحضارة المادية عبر القطاع الاكبر من التاريخ المصرى .

واذا كان توينبى يقول انه عبثا بحث عن الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديثة ، ويعلن لذلك ان الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم ، فان هذا صحيح بالتأكيد فى الجوانب اللامادية ، كما يصدق كذلك على كثير من نواحى الحضارة المادية . ولكن هناك بقايا ورواسب مادية لا زالت تكمن — ربما على استحياء وفى خباء — فى النسيج الحضارى المادى المعاصر . ولعل الزراعة الحوضية أهم هذه الخيوط : نعم هى تحتضر منذ قرن وأكثر ، ومع ذلك فلم يدفنها نهائيا الا السد العالى .

واليوم لم تعد مصر الفرعونية الا مكدسة فى المتاحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين ، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر . ولهذا فنحن ننتهى الى ان الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها ، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية

ويمكننا أن نخلص من هذا كله الى أن هناك أربع علامات كبرى فى تاريخ مصر الحضارى أثرت تأثيرا هائلا فى كيانها : اكتشاف الزراعة وبدء الحضارة نفسها ، ثم التعريب والاسلام ، ثم تحول التجارة الى طريق الرأس ، وأخيرا وحديثا الحضارة الغربية . كل واحدة من هذه كانت انقلابا كاملا وانقطاعا جوهريا . هناك اذن بطريقة ما تطور عن طريق الثورة **evolution by revolution**

ولكن شدة ترامى الوراء التاريخى لمصر يجعلها جميعا تبدو غير متعارضة مع الاستمرارية العامة أو محطمة

لها . وهى اذن — فى معنى — ثورة بطـــريق التطور
revolution by évolution

من هذه العلامات يمكننا أن نستبعد اكتشاف الزراعة باعتباره نقطة ابتداء لا تقاس الى ما قبلهـــا . كما ان تحول التجارة لم يكن تغييرا بقدرماكانهبوطا وانحدارا. وأما الحضارة الغربية فهى طارىء حادث جدا وليس مقصورا على مصر بل هى أولحضارة عالمية فى التاريخ. ولهذا لا يتبقى لنا فى تاريخ مصر سوى انقلاب التعريب الذى من بعده أصبحت جزءا لايتجزأ من العالم العربى وعاشت غالبا اقليما أو رأسا فى دولتـــه السياسية وفى ظل وحدته القومية . ولهذا اذا كنا نقول ان انجلترا مثلا تمتاز بالاستمرارية السياسية والانقطـــاع الاجتماعى ، بينما تمتاز فرنسا بالاستمرارية الاجتماعية والانقطـــاع السياسى (١) ، فاننا يمكننا أن نقول ان تاريخ مصر يمتاز بالاستمرارية فى حضارتها المادية والانقطاع فى حضارتها اللامادية ..

الانقطـــاع

تلك الاستمرارية المادية التى تسود التاريخ المصرى لاينبغى اذن أن تغفلنا عن ذلك الانقطاع الهام للغاية فى الناحية اللامادية : فى الحياة الثقـــافية والروحيـــة : التعريب والاسلام . صحيح ان الانقطاع لم يكن بالمعنى « الجنسى » بقدر ما كان بالمعنى الحضارى ، وصحيح ان التعريب — وأكثر منه التبشير بالاسلام — مضى أبطأ وأقل مدى فى مصر منه فى بلد كالعراق الذى هو أقرب موقعا الى البلد الأم وأدخل موضعا للبـــدو والرعاة . ولـــكن هذا الانقطاع يظل أعظم حقيقـــة فى تاريخ مصر

(١) H. J. Fleure, ed., La Personnalité géog. de la France, La Blache, 1946, p. XV.

الثقافى والروحى ، ويمثل نقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى . ولا بد أن ندرك ان اهمال هـذه الحقيقة أو الاهتمام بها قد أصبح له مغزاه السياسى الخطير. فهناك من يحاول أن يبالغ فى جانب الاستمرارية فى كياننا لا ليبرز اصالة ما ولكن ليقلل من جانب الانقطاع ، وبالتالى ليضخم فى البعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا بذلك عن عروبتنا ويطمس معالمها

هم يفعلون ذلك حين يتساءلون فى كلام له خبىء « فرعونية أم عربية » ؟ ونود ان نضيف ، بين قوسين ، انهم قد يخفون نفس السؤال وراء قضية اخرى جديدة هى المقابلة بين الوحدة العربية والوحدة الافريقية . فهم يرتبون على المقدمات السابقة أن مصر « ليست عربية ولكنها مستعربة » ، « ليست عربية ولكنها متكلمة بالعربية » ، « ليست عربا ولكن أشباه عرب » . لقد اندثرت كلمة « المستعرب Mozarabe » فى المغرب الاوربى ومعه ، ولكن هناك الآن من يبدو انه يعمل لبعثها فى المشرق العربى !.. والهدف من كل هـذه الدعاوى هو دائما تخريجات سياسية واضحة ترمى الى التشكيك فى عروبة مصر وبالتالى الى عزلها عن العالم العربى

ونبدأ فنقول ان مصر لم تكن الوحيدة التى أثير حولها هذا الجدل، فالسودان وصف بأنه افريقى وليس عربيا، والمغرب زعموا انه بربرى لا عربى ، وقيل عن لبنان حينا والشام حينا آخر انه فينيقى أو سورى وليس عربيا ، والعراق كذلك لم ينج من الاتهام . بمعنى آخر ان كل أجزاء العالم العربى خارج الجزيرة العربية دمغت بصورة أو بأخرى بأنها ليست عربية ولكنها مستعربة على أساس ان السكان قبل التعريب لم يكونوا عربا « جنسيا » . ولكن هذا الاساس ينهار من اللحظة التى

يتطلب فيها « عروبة جنســـية » ، فالعروبة مضمون ثقافى لا جنسى أولا . ومع ذلك فكل الغطاء البشرى الذى يغطى ما يعتبر الآن العالم العربى هو أساسا فرشـــة واحدة من جذر واحد . وعلى الاقل فان الاختـــلاط والانصهار الدموى بين العرب الوافـــدين والســـكان الاصليين حقيقة تاريخية بعيدة المدى . على ان الذى يكشف خواء المناقشة من أساسها ويجعلها جوفاء حقا أنها تمثل منطق مزايدة وهروب : ففى عقر دار العرب ستظل تجد « العرب العاربة » و « العرب المستعربة » ! ولكننا لا نسمع من يقول ان عرب الشمال ليســوا عربا ولكنهم متكلمون بالعربية . ولا ندرى الى أى مدى يمكن المضى فى تجريد جزء آخر من العرب العاربة بدورها من اصالتها !

والواقع ان هذا المنطق من شـــأنه أن يجعل العرب كالامريكيين : فهو يخلق فى الذهن ما يمكن أن يسمى **hyphenated-Arabs** على غرار **hyphenated-Americans** بمعنى أنه يخلق لنا فى مصر شعبة فرعوبية (فرعونية ـ عربية) ، وفى العراق شعبة أشوربية (اشورية ـ عربية) ... الخ ! وكل هذا يتجاهـــل ان أكثر من ثلاثة عشر قرنا تجمع بين الجميع فى اطار واحد يجب مثل هــذه العرقية الشعوبية .

وهو أكثر من هذا يتجاهل ان العروبة نقيض الامريكية تماما فى أصولها : فالاخيرة نشأت من هجرة أجزاء من شعوب متنافرة لتتصاهر وتنصهر معا فى بوتقة وطن جديد عبر المحيط ، بينما ان العروبة قامت من هجرة جزء من شعب واحد لتتصاهر وتنصهر مع شـــعوب متباينة فى أوطان قديمة متلاصقة . الاولى تحولت فى الواقع الى أوربا الصغرى **Little Europe** بينما خلقت

الثانية بلاد العرب الكبرى Greater Arabia

أين الحقيقة اذن فى عروبة مصر ؟.. أين هى من الفرعونية القديمة ؟ .. أهناك حقا فارق بين نوع العروبة شرق السويس وغربها كما يزعم بعض الدعاة ؟.. ثمة عدة حقائق . فاذا بدأنا من البداية ، فان أول مايجبهنا هو ان الفرشة الجنسية الاساسية التى كانت تغطى نطاق الصحارى فى العالم القديم من المحيط الى الخليج كانت تنتمى الى أصل واحد متوسطى . وفى العصر المطير ، حين كانت الصحراء سفانا يسودها صيد الحجرى القديم ، كانت كثافة السكان مخلخلة جدا ولكنها غطائية عالمية بصفة عامة . وفى هذا الاطار كانت الحركة والهجرة والترحل ظاهرة دائمة ، ومن ثم كان الاختلاط الجنسى أساسيا ولا محل لعزلة أو نقاوة ما .

وكل الذى حدث بعد ذلك مع عصر الجفاف أن تجمعت كل مجموعة من هؤلاء السكان فى رقعة محدودة ، وبذلك تحول الغطاء العالمى الى الارخبيل الجزرى الذى نعرف الآن . ومعنى هذا انه حدث « تقطع » فى الغطاء القديم المتجانس جنسيا الى عدة رقع متباعدة جغرافيا ولكنها تظل متجانسة جنسيا . وهذا بالدقة مفتاح انثروبولوجية عالمنا العربى . فشعوب المنطقة ــ قبل العرب والاسلام ــ هم أساسا وأصلا أقارب انفصلوا جغرافيا ، ابتداء من العراق الى الشام الى الجزيرة العربية ومن مصر الى المغرب أو السودان . والتوطن المحلى والمؤثرات الدخيلة الموضعية والتزاوج الداخلى الذى حدث بعد ذلك ، لايمكن أن ينتج أكثر من ابتعادات محلية ضئيلة لا تغير من وحدة الاصل الدموى وتجانس العرق فى كثير ، وان تطورت اللغات والالسن ما بين سامى وحامى . ويظل العالم العربى أو بيت العرب

الجغرافى الكبير هو « دوار العـــرب » ، بمعنى الاسرة الموسعة التى تضم عدة أسر نووية أو خلوية . هــذه واحدة .

أما الثـــانية فحقيقة تاريخية تؤكد السابقة وان كنا نغفل عنها دائما . نحن نعرف ــ دينيا وتاريخيا ــ أن اسماعيل هو أبو العرب العدنانيين ، ولكنا نعرف أيضا انه ابن ابراهيم العراقى من هاجر المصرية . واذا كان لهـــذا أى معنى انثروبولوجى ، فهـــل يمكن ــ اليس كذلك ؟ ــ أن يكون الا شيئا واحدا ، وهو أن العرب أصلا أنصاف عراقيين أنصاف مصريين ؟ قد يبدو هذا للوهلة الاولى تخريجا ثوريا ، ولكنه منطق أولى للغاية. وكم يبدو غريبا أن يلح من يلح على أن العرب واليهود « أبناء عمومة » لأن اسحق أبا اليهود اخ غير شـــقيق لاسماعيل أبى العرب ، بينما نتغافـــل عن علاقة الأبوة والبنوة بين المصريين والعرب ، فضـــلا عن العلاقة غير المباشرة بين المصريين والعراقيين ، على نفس الاساس ؟ وتأسيسا على هذا ، فهل يكون تعريب العراق أو مصر فيما بعد الا عملية زواج أقارب مباشرة ، ولا نقول نوعا من التلقيح الذاتى أو الزواج الداخلى على نطاق جغرافى عريض ؟

وثمة بعد هـــذا حقيقة لغوية تؤكد علاقة القرابة . فالثابت المحقق الآن ان اللغـــة المصرية القديمة ، وهى حامية تصنيفا ، كانت تشمل نسبة هامة من المؤثرات والكلمات السامية ، وقد أثبت البعض اشتراك أكثر من عشرة آلاف كلمة بين المصرية القديمة والعربية (١) حتى ليعتبرها بعض الفيلولوجيين لغة انتقـــالية بين الحامية والسامية . وقدكتب فى هذا كثير بما لايدع مجالا لاطناب

---

(١) محمد عزة دروزة ، الوحـــدةالعربية ، بيروت ، ١٩٥٧ ص ٢٧

ثم يأتي أخيرا عامل الهجرة . فمن الثابت كذلك أن عرب الجزيرة لم يكفوا عن الخروج منها والتدفق على مصر أو التسلل اليها طوال التاريخ المكتوب وقبله . ومن المتفق عليه بعامة أن ما لم يسجل التاريخ أكثر مما سجل من موجات سامية قديمة الى مصر (١) . وكانت صحراء سيناء وأطراف الدلتا بالنسبة لهم منطقة انتقال وتأقلم الى أن يتم اندماجهم وتشربهم . ومعنى ذلك بوضوح أن تعريب مصر سبق في بدايته الفتح العربي والعصر الاسلامي ، وانه قديم في مصر مثلما كان قديما في السودان ، وان كان الفتح نفسه هو الخطوة الحاسمة ...

ولعلنا الآن ، بعد هذه المؤشرات والمفاتيح ، بحيث نستطيع أن نحدد حقيقة تعريب مصر . فحين التقى العرب بالمصريين وتصاهروا واختلطت دماؤهم ، لم يكن ذلك في الحقيقة الا لقاء أبناء عمومة أو أخوة في المهجر ، او هو كان لقاء آباء بأبناء أو أجداد بأحفاد . وقد يكون الاصح أن نقول اعادة لقاء ـ بعد أن باعدت بينهم الصحراء التي استحدثها عصر الجفاف . واذا كانت قد تبلورت بعض ابتعادات ثانوية أو تعديلات جسمية مكتسبة على المدى التاريخي والبعد الجغرافي ، فقد جاءت الموجة العربية ـ في مصر كما في غيرها من البلاد العربية ـ أشبه بعملية « خض » أو تقليب عميق لجزيئات متماثلة أصلا ، تعيد مزجها حتى لا تتخثر أو تتحجر . والمد العربي بهذا وبنتائجه يبدو ـ في معنى ـ كما لو كان عودا الى نمط العصر المطير ، حيث نشر العرب مؤقتا شبكة غطائية متجانسة على وجه المنطقة

---

(١) يوسف ابو الحجاج ، وحدة الوطن العربي ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٤٩ ـ ٥١

جميعا ، وصلت ما انقطع وأعادت تأكيد الوحدة الاولية
وانطلاقا من هذا مرة أخرى ، يمكن أن نصفى بعض المتناقضات التى تبدو على السطح فى العلاقة بين الفرعونية والعروبة . فاذا صحت دلالة السند الدينى عن الجانب المصرى فى أصل العرب ، فقد عاد العرب بدورهم ليعطوا مصر جانبا عربيا فى أصلها ، عادوا ليعطوها أبوة جديدة . فالعلاقة الدموية اذن علاقة متبادلة على التعاقب والتناوب . انها علاقة دائرية أكثر منها خطية ، الكل فيها أب وابن على التوالى ، والكل فيها فى النهاية مضاف ومضاف اليه أكثر منه فاعلا ومفعولا به

ولكن لما كان العرب هم الأب الاخير فى السلسلة ، فان القول بأن مصر فرعونية أصلا عربية مصاهرة قد يكون منطقا « جاهليا » ـ منطق ما قبل الاسلام يعنى ـ ونوعا من الردة التاريخية تنسب الابن الى الجد دون أبيه ، أو قبل أن تنسبه الى أبيه . وانما الاصح أن نقول ان مصر فرعونية بالجد عربية بالأب ، وكل من الجد والأب من أصل جد أعلى واحد مشترك . غير أن العرب هنا ، وقد غيروا ثقافة مصر ، هم « الأب الاجتماعى » فى الدرجة الاولى ، وليسوا « الأب البيولوجى » الا فى الدرجةالثانية حيثكانوا بالضرورة أقلية عددية بالقياس الى المصريين .

ولنفس هذه الاسباب يمكن أن نفهم لماذا يقال ان العرب اذا كانوا قد عربوا مصر ثقافيا ، فان مصر قد مصرتهم جنسيا . فأما تعريب مصر ثقافيا فأمر لا يحتاج الى تفسير . وأما تمصير العرب جنسيا ـ الذى قد يبدو مناقضا للأصل الجنسي المشترك الواحد بين الطرفين ـ فليس فى الحقيقة الا من قبيل تغليب الاغلبية

العددية على الاقلية دون أن يعنى فارقا أساسيا فى الاصل والنوع بين الطرفين .

وعند هذا الحد من المناقشة يمكن أن ننظر الى الفرعونية وغيرها من دعاوى الرجعة التاريخية historicism والوطنيات الضيقة كالفينيقية والاشورية ... الخ من زاوية جديدة ومنظور علمى . لاشك ان المقصود بمثل هذه الدعوات نفى القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المنغلقة . وهى لهذا مرفوضة ابتداء ودون مناقشة

ولكن من الناحية العلمية ، ينبغى أن ندرك أنها انما تقوم على الجهل وحده ، وانها فى الحقيقة سلاح مفلول يرتد الى صدور أصحابه . فهم لايدركون أنهم اذ يهربون من الحاضر القومى الواحد ، ويرتدون الى وطنياتهم الشعوبية القديمة البائدة ليعتصموا بها منه ، فهم عبثا يحاولون الافلات ، ولا يثورون عليه الا ليقعوا ثانية فى دائرته المحيطة الفلابة

فكل هذه الوطنيات هى ـ أصلا وقبل العرب ـ أجزاء لا تتجزأ من أصل واحد مشترك قديم ، وكانوا جميعا أقارب بمثل ما أن أصحابها اليوم وبعد العرب أقارب . وفى النتيجة فان دعاواهم الشعوبية الضيقة فاشلة علميا فى الافلات بهم من العروبة ، أما كل ما تنجح فيه عمليا فهى أن تصمهم بالحفرية والتحجر والردة التاريخية التى تضع الماضى الميت قبل حاضر حى واقع ينبض ويتفجر بالحيوية

وهنا يحسن أن نشير الى بعض النظريات التى تحاول أن تضفى على انفصاليات الرجعة التاريخية هذه رداء علميا ، ولتكن نظرية الاثنيم ethneme التى يقدمها سبايسر . فهو يقترح حدا أدنى للوحدة المتجانسة من

الارض أو الناس ليكون الحد الانسب لمفهوم الامة بالمعنى السياسى ؛ وليكون فى الحقيقـــة مقياســـا لدعاوى أو ادعاءات التوحيد السياسى ، ويدعو ذلك الحد بالاثنيم • أما أسسه فتشمل اللغة والدين والبيئة الجغرافية .. الخ ..

ومن هذا المنطق لا يرى ان العالم العربى وحدة واحدة وانما يتحلل الى عدة وحدات ، بمعنى انه ليس أمة واحدة بل عدة أمم . وهو يبدأ بتخصيص مصر بالذات كاثنيم مستقل ، فيقول « من الناحية الاثنولوجية ، عرب هم المصريون . ولكن على الاساس الاثنيمى لفكرة الدولة التقليدية ، فان مصر تتطلب ان تخصص على حدة بمعزل عن الدول العربية الاخرى » (١) . وعدا ما فى النص من تناقض صريح ، فالمؤكد ان مصر او ايا من الدول العربية ليست أمة كاملة فى ذاتها ومستقلة ، وانما هى شعب من أمة ، وشعبة من اثنيم واحد هو العالم العربى كله .

هذا ، ولسنا بحاجة الى ان نضيف أن قوى الرجعة التاريخية والوطنيات الضيقة تكمن بعد هـــذا أولا فى الرجعيات الحاكمةحفاظا بالطبععلى وجودها الانفصالى، ثم فى الاقليات المختلفة سواء عرقية أو لغوية أو طائفية. وكلها تجد قوى أجنبية تبارك موقفها آليا ، ونعنى بهذا الاستعمار ، وهذا وحده دليل على خطأ اتجاهها

غير ان مثلهذه القوى تجهلانأعظم امجادها كوطنيات انما تحققت فى اطار القومية الكبير ، وليس فى حدود كياناتها الضيقة القديمة . وبالنسبة لمصر ، فقد يبدو غريبا انها حققت قمم تاريخها لا فى عصر الفرعونيـــة ـــ

(١) E. A. Speiser, Cultural Factors in Social Dynamics in the Near East, in Social Forces in the Middle East, ed. S. N. Fisher, N. Y. 1955, pp. 5-7.

على سموقه وشموخه ــ وانما فى عصرها العربى . وعلى سبيل المثال ، فان التوسع المصرى الفرعونى لم يصل فى أقصاه الى ما وصل اليه توسع القرن التاسع عشر ، وأعظم معارك مصر لم تكن معــارك تحتمس الثالث أو رمسيس الثانى ، وانما صلاح الدين وقطز وبيبرس ، وهكذا . والخلاصة ان دعاوى ودعوات الوطنية الضيقة الانفصالية ليست رجعة فحسب بل وانتكاسا ايضا

ويبقى فى النهاية أن نعرض للنظرية التى تقول ان هذا أكثر عروبة وذاك أقل من حيث النسب ، وتنتهى بذلك الى اصطناع « مقياس مدرج » للعروبة يصنفون عليه طبقات ودرجات من العرب . والتصنيف يبــدأ عادة بالادعاء بأن العرب انما يوجدون فقط فى آسيا العربية ــ شرق القناة ــ أما غربها فليس ثمة الا أشباه عرب أو أنصاف عرب أو متكلمون بالعربية ومستعربون .. الخ . وغالبا ما يستهدف هذا الادعاء التشكيك فى عروبة مصر خاصة ، محاولة لعزلها عن المشرق العربى . واذا بدا أن هذا يسىء الى مصر ــ على السطح فقط كما سنرى ــ فانه جدير بأن يسىء أكثر الى من يقع غربها ، والا فماذا نقول عن المغرب أو السودان

غير أن هذا منطق مردود . فما دام الاصل الجنسي القاعدى مشتركا فى العالم العربى قبل العرب ، فليس يهم تماما بعد ذلك كم قطرة دم عربى انصبت هنا أو هناك . وبهــذا تبقى العــروبة والتعريب فى جوهرها المنشود مضمونا ثقافيا أساسا . واذا كان لابد من مقياس مدرج للعروبة ، فليس جنسيا هو ، ليس كمية الدم العربى التى أضيفت ، ولكنه كمية اللسان العربى التى استعيرت . بمعنى آخر ، مقياس العروبة ، مثلما هو أساسها اللغة ، لا الجنس .

الفصل التاسع

بين الوطنية المصرية
والقومية العربية

مشكلة الضخامة وقضية الزعامة

.. وبحرية نتبنى التقليد او الاتجاه الجديد الدارج حاليا من التمييز بين كلمتى الوطنية والقومية ، وذلك من قبيل اليسر والسهولة ، رغم ان البعض قد يتحفظ فى هذا الصدد . والمهم أن نحدد طبيعة العلاقة بين « المصرية » ــ كما يضعها البعض ــ والعروبة . ما وضع مصر فى العالم العربى ودورها فيه ؟ ما مستقبلهما معا ، والى أين ؟ أى مشاكل أو معوقات على الطريق بينهما ، وحقيقتها ؟ ماذا أعطت مصر للعرب وماذا أخذت ، وماذا يمكن أن تعطى وأن تأخذ ؟ كل هذه وغيرها أسئلة تبحث عن الاجابة العلمية الدقيقة ، ونرجو أن يكون فى هذا الفصل الختامى من شخصية مصر بعض مساهمة فيها

لقد رأينا أن مصر تشترك مع غيرها من وحدات العالم العربى فى كثير من السمات والخصائص ، وأن خيوطا كثيرة تشترك فى النسيج الاقليمى لكل منها ، ولعل العراق بالذات هو أقربها شبها بمصر حتى ليعدان بمثابة « نظائر جغرافية » . غير أن هذه الملامح المشتركة فى النوع غالبا ما تختلف من وحدة الى أخرى فى النسب والأهمية أى فى الدرجة ، ومن هنا تتولد توليفات

وتركيبات متباينة بقدر أو آخر . ومن هنا بالتالى تكون الطوابع المحلية والالوان الاقليمية . ومن هذه الزاوية وحدها يمكن أن نرى ما تتفرد به مصر فى الوطن العربى ــ شأنها فى ذلك شأن بقية دوله تماما ــ من شخصية ذاتية وعبقرية مكان ، دون ان نعنى او ندعى انها بدع فى ذلك أو أعجوبة

وضع خاص ؟

وأول ما تنفرد به مصر الضخامة ، ضخامة الحجم التى تجعل منها حجرا شامخا ، وهى حقيقة أدركها وأحس بها دائما جيرانها طوال التاريخ قديما وحديثا (١) فمصر وحدها اليوم ثلث العرب أو انقص منه قليلا : ٣٠ مليونا من ١٠٠ مليون بالتقريب . وهى بهذا تفوق أيا من المغرب العربى الكبير كله أو آسيا العربية ، كما تفوق اى دولتين عربيتين أخريين معا ، ولا يفوقها بالكاد الا اكبر ثلاث دول أخرى معا (المغرب، الجزائر ، السودان). واذا التفتنا الى جيران العرب المباشرين ، فان مصر هى الدولة العربية الوحيدة التى تناظر الوحدات الكبرى فيها مثل تركيا وايران واسبانيا ... الخ

ويضاعف من ضخامة مصر النسبية ويؤكدها فى المجال العربى أن جاراتها المباشرة تأتى ــ كما يتفق ــ من صغار العرب حجما (ليبيا ، فلسطين ، الاردن ... الخ) بالمقارنة الى الاطراف الأبعد حيث تسود الاحجام المتوسطة (الجزائر ، المغرب ، العراق) . والصورة العامة لأثقال الدول العربية أشبه شىء بدوامة فى حوض مائى تحركها ذراع ضخمة من مصر فى الوسط ، وحضيض الدوامة حولها ، بينما جوانبها الحائطية المرتفعة نوعا فى

---

(١) ويلسون ، ص ١٣١

الاطراف . والنتيجة الطبيعية ان « الانحدار الجيوبولتيكى » شديد الحدة بين مصر وجاراتها . ويكفى ان نذكر ان مجموع سكان الجارات المشتركة معها فى الحدود يبلغ نحو ١٦ مليونا ، أى بنسبة ١ : ٢ تقريبا

ولكن مصر لا تستمد ثقلها من الحجم الخام وحده ، بل ومن تجانسها الشديد . فهى ليست حجرا ضخما فقط بل انها حجر وحيد الى ذلك كما قلنا . فوحدتها الجنسية واللغوية مطلقة ، وأقليتها الدينية تعد محدودة اذا قورنت ببعض البلاد العربية الأخرى ، وكل من الأغلبية والأقلية على حدة لا يعرف التشيع أو التشرذم الطائفى ، والكل يؤلف وحدة وطنية على درجة نادرة من التماسك فى الوطن العربى . ولهذا فان مصر بتجانسها ووحدتها تتحرك ككتلة واحدة عادة دون أن تعرف الانقسامات والشظايا التى تفكك كثيرا من الشقيقات العربية ، مما يمنحها ثقلا فعالا ووقعا يزيد عن ثقل عدة وحدات صغيرة لها نفس مجموع حجمها . ولهذا فان الاستقرار السياسى ـ حتى فى ظل الاقطاع ـ سمة واضحة تتباين بسهولة مع أحوال المشرق العربى مثلا

ومن المثير حقا أن تنعكس هذه الوحدة مع تلك الضخامة على أغلب مجالات الحياة فى مصر حتى البسيطة منها . فنحن نجد دائما قلة معدودة من وحدات ضخمة فى كل شىء : ابتداء من مشاريع السدود والقناطر الى محاصيل الزراعة فى الحقل ـ بعكس سوريا مثلا . وفى التغير السياسى تسجل مصر المعاصرة ثورة واحدة خلاقة مقابل طوفان من الانقلابات العابرة فى سوريا مثلا . وحتى فى الصحافة اليومية نجد قلة من وحدات قوية فعالة مقابل « مظاهرة » صاخبة من وحدات متواضعة فى الشام . وهكذا وهكذا

والنتيجة المنطقية لهذا كله أن مصر مركز الثقل الطاغي وقطب القوة فى العالم العربى ، ينتشر ظلها وشبه الظل بل والصدى بعيدا فى آفاقه . ومع أن المصريين لا ينتشرون بأى كثرة خارجها ، فوجودها محسوس بقوة هناك ، بينما يصعب المثل على غيرها من الشقيقات الا بوجود فعلى لأبنائها وجالياتها المهاجرة فيها . من هنا كانت مصر أكثر من عضو ضخم فى الجسم العربى ، انها رأس ، ورأس موح مؤثر ، ثم هى جهاز عصبى مركزى فعال .

وهى فى الحالة الاولى بمثابة جيروسكوب العالم العربى الذى يرسى سفينته فى وجه العواصف الخارجية ويمنحه من وزنه ليمنع تميعه أو ضياعه بين الضغوط والاغراءات . وهى فى الثانية كبوصلة العالم العربى التى تتحسس نبضه وترصد تيارات العالم ثم تحدد اتجاه القافلة .

ومن الملاحظ فى هذا الصدد أن مصر كانت أسبق الدول العربية الى المجال العالمى وأقدرها عليه . فاذا قلنا ان الدول الحديثة الاستقلال التى نفضت عنها الاستعمار أخيرا ، تجد نفسها فى مرحلة تكوين سياستها فى الأسرة الدولية أمام ثلاثة آفاق : الدائرة المحلية ، والاقليمية ، والعالمية ، فلعل مصر هى الوحيدة بين العرب التى اقتحمت الدائرة العالمية من قبل وأصبحت من محاورها مثلما أصبحت العالمية نفسها محورا من محاور العمل المصرى فى المجتمع الدولى

ومن هذه الأوضاع جميعا تحتمت على مصر بانتظام مسئولية الحماية والدفاع عن العروبة ، ابتداء من الصليبيات والتتار حتى الاستعمار الأوربى الحديث والاستعمار الصهيونى الاحدث . ومن حسن الطالع وتمام

التوفيق أن نهضت مصر بتلك المسئوليات وكانت عند حسن ظن العرب ، فحفظت عليها عروبتها واسلامها وكيانها ضد غزاة العصور الوسطى ، وردت لها اعتبارها ورفعت قامتها فى وجه غزاة الأمس القريب ، وهى الان تتأهب لاستئصال السرطان الصهيونى .

ومن نفس هذه الأوضاع ينبع عداء القوى الأستعمارية لمصر ـ أحيانا الى درجة الحقد . فهم يعلمون عن يقين أن ها هنا قلعة العرب وها هنا مفتاح القلعة ، فكانت دائما الهدف النهائى لضرباتهم ومؤامراتهم . ونحن نسمع دائما وبانتظام عن محاولات « عزل » مصر ، ولا نكاد نسمع عن مثلها بالنسبة للبلاد العربية الاخرى

بكل تلك الخصائص الموضعية اذن تنفرد مصر بين العرب . ولكن موقعها الجغرافى يأتى ليمنحها المزيد من التفرد . وأبرز ما فى هذا الموقع أنه كالقلب من الجسم ، واسطة العقد ، وهمزة الوصل بين آسيا العربية وافريقيا العربية . واذا كان المتفق عليه أن مصر جزء من المشرق العربى ، وان كان البعض رآها تجمع ما بين المشرق والمغرب ، فانها هى التى « قدمت » المغرب العربى الى المشرق تاريخيا وجغرافيا

وحسبنا أن نتصور ـ كمجرد تخيل أكاديمى بحت ـ أن النيل كان ينتهى فى السودان الى البحر الاحمر مثلا ، وكانت مصر صحراء مطلقة ، وخرج العرب كما خرجوا تماما ، فهل كان يقدر للوطن العربى أن يظل على تجانسه ووحدته وتماسكه الراهن ؟ أغلب الظن أن لا . ونحن اذا نظرنا الى هيكل النمط العمرانى الفعلى فى الوطن العربى ، فسنجد مصر فيه كالعقدة البشرية ، فعندها وحدها تلتحم ذراعا العروبة فى افريقيا ـ المغرب والسودان ـ بالحلقة السعيدة التى تطوق المشرق العربى

وبحكم هذا الموقع كانت مصر دائما ملتقى العرب ومجمع الأسرة ، وأحيانا ملجأ وملاذا وخط دفاع اخير عن التراث العربى . ففي العصور الوسطى حين بدأت أخطار الاندلس وقلاقل المغرب ، تدفق العلماء والصناع على مصر (كابن خلدون ، مثلا بارزا) ، ومن العراق مع الطوفان المغولي وبعده انتقلوا بالآلاف الى مصر (١) . وفى العصور الحديثة خاصة القرن الاخير كانت مصر بؤرة تستقطب موجات النازحين والمهاجرين من الشام من المثقفين والمضطهدين . وفى كل الحالات كانت تلعب دور المنار للاسلام ودور المنبر للعروبة

ويتميز موقع مصر فى العروبة بعد هذا بصفة هامة . فمصر من الدول العربية القليلة التى لا حدود لها مع غير العرب . فهذا العمق الجغرافى لم يمنحها الأمن والسلامة الاستراتيجية فحسب ، بل جعلها طوال التاريخ تتعامل وتتفاعل مع عرب وعروبة ، بعكس أطراف العالم العربى نفسه حيث تعرضت للمؤثرات الاجنبية المتاخمة . وبعض من أطراف العروبة تعرف ملامح خلط ثقافى وحضارى بل وجنسى خطير . فثمة مؤثرات التهنيد فى كل الجنوب العربى ، ومؤثرات التعجيم فى الخليج العربى ، والتتريك فى تخوم سوريا ، وثمة كانت أخطار الصبغة الاسبانية فى هوامش المغرب ، وبالمثل المؤثرات الزنجية فى السودان

ولكن من كل هذا ومثله نجت مصر بحكم أنها دائما جزيرة عربية يحيط بها العرب من كل الجهات . ومن هنا ، وسواء عد التاريخ عاملا من عوامل الترشيح أو من عوامل التكثيف ، فان مصر مع التاريخ تزداد عروبة ،

---

(١) Hitti, The Arabs, p. 190

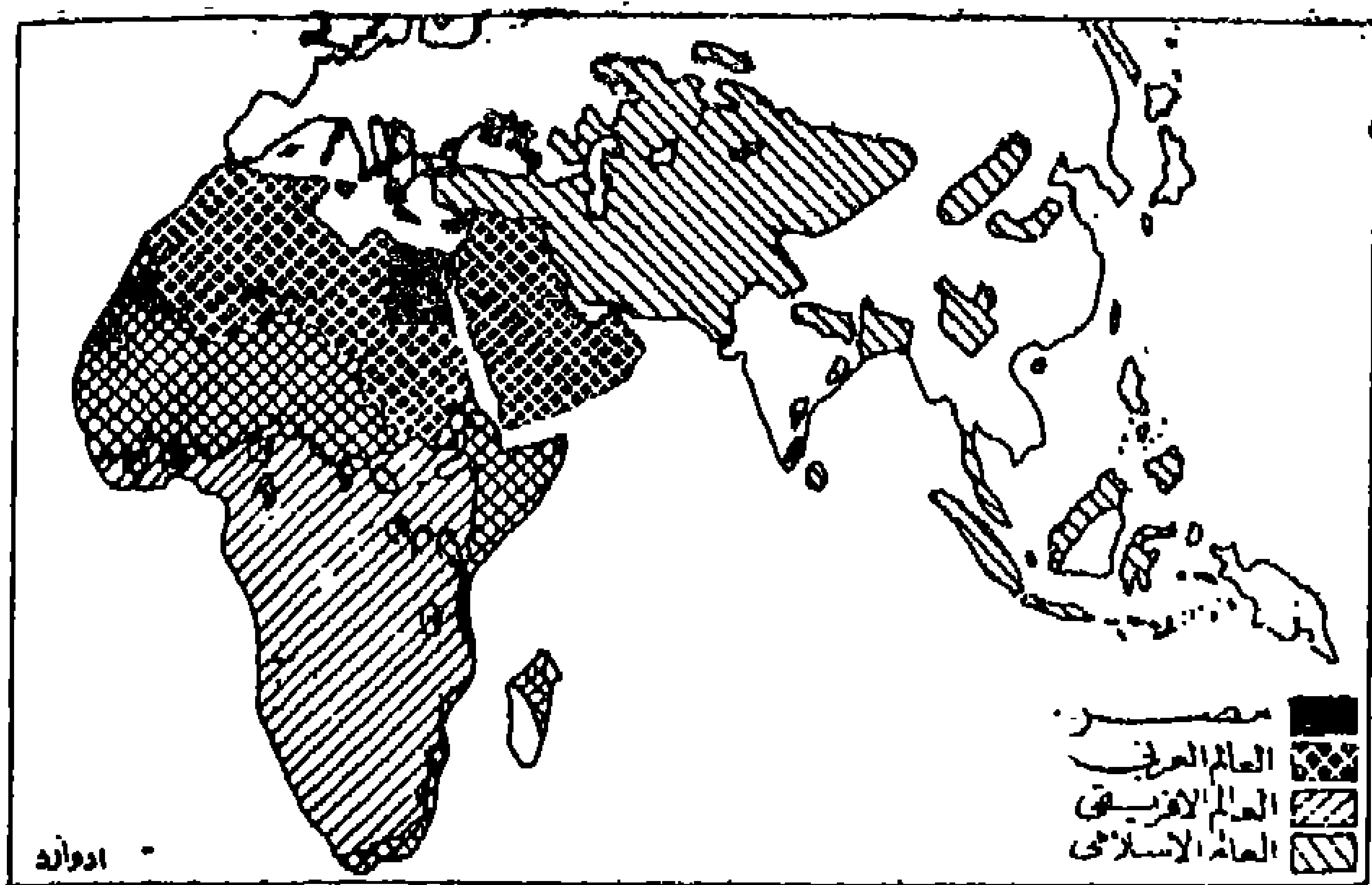
وعروبتها تزداد عمقا وكثافة ، ربما بعكس الاطراف . وفى ضوء هذه الحقيقة تبدو غريبة حقا بل وجاهلة تلك التخرصات التى تثار من حين الى حين عن عروبة مصر بالذات .

وعدا هذا ، فمن نفس هذه الحقيقة تنبع حقيقه أخرى لا تقل خطرا ودلالة . فبحكم هذا الموقع ، وبحكم هذه العلاقات النقية مع العروبة الخالصة ، فان مصر — وحدها تقريبا — هى التىامتصت وتمثلت واستوعبت عناصر وعينات من كل الشعوب العربية أو معظمها . فعدا الدم العربى من الجزيرة ، ثمة انصب الشوام دائما واستقروا وذابوا ، وبالمثل فعل الليبيون والسودانيون . ومن المغرب الكبير أتى الحج بالمغاربة فكان منهم من أقام وانصهر على الطريق

واذا كانت بقية البلاد العربية قد تبادلت الهجرات والجاليات كل مع جاراتها العربية المباشرة ، فان الاطراف البعيدة قل أن تتلاقى بطبيعة الحال ، فالعراق لم يعرف مغاربة مثلا تذوب بين ظهرانيه ، أو سودانيين ، ولا السودان عرف عراقيين أو مراكشيين بدرجة مذكورة ... الخ . وفى النتيجة تبدو مصر ، فى حدود تجانسها القاعدى الاساسى مع ذلك ، بوتقة العالم العربى فى معنى ما ، وهى بهذا المعنى خير تصفير كما هى خير تكبير للعالم العربى ، وقاسم مشترك بين أجزائه

وتأكيدا لنفس هذا المعنى ، ليس صدفة أن نجد مصر نسبيا أكثر البلاد العربية شبها بكل أو بأكبر عدد من البلاد العربية الاخرى ، وذلك فى الملامح الجسمية والسحنة واللون ... الخ ، دون أن يخل هذا — مرة أخرى — بجوهر تجانسها وتميزها العام . فهى بما فيها

من مؤثرات ليبية ، أقرب العرب الى صفات المغاربة . ثم لعلها أن تكون أقرب فى تلك الصفات الى البلاد العربية الاسيوية بصفة عامة من أى من المغرب أو السودان مثلا . بل حتى بالامتداد الجغرافى تبدو مصر قاسما مشتركا فى العالم العربى . فاذا كانت العروبة بامتدادها الطبيعى أسيوية ـ افريقية ، فان مصر ببيتها الافريقى ونافذتها الاسيوية خير ما يشخص ويلخص العروبة



« شكل ٧ » موقع مصر كبؤرة لعوالم ثلاثة : الدائرة العربية ، والدائرة الاسلامية ، والدائرة الافريقية

على هذا الوضع اذن تستقر مصر كعضو فى الجسم العربى . ومعظم القوميين العرب يرون فيها « وطنا ثانيا » لكل عربى أيا كان موطنه . هل ترانا اذن نبالغ أو نصدر عن شوفينية الوطنية الضيقة التى نبذناها لتونا ، اذا وصفناه « بالوضع الخاص » أو « العلاقة الخاصة » ؟ بغير قصد ـ بالتأكيد ـ من استعلاء أو طبقية أو تباعد نقولها ، فان هذا ما يعبر عنه العرب

انفسهم ، بل على العكس تماما ان هذا الوضع الخاص نفسه كان دائما سلاحا ذا حدين ، فلطالما استغله أعداء مصر وأعداء العروبة ضد مصر وضد العروبة . فهذا الوضع الخاص لا يعنى بداهة الا شيئا واحدا هو « الزعامة الطبيعية » فى العالم العربى ، أو أن مصر فى العالم العربى كالقاهرة فى مصر ، وهذا بالدقة ما يفزع الاستعمار

وبحقد من ثم حاربه فى ميدانين : الاول محاولة عزل مصر نفسها عن بقية العرب ، والثانى تشويه تلك الزعامة والتشهير بها وتحطيمها . واذا بدا هذان الميدانان من المناطق الحساسة الدقيقة التى يمكن أن تنزلق فيها المناقشة وتنساق الى مزالق عاطفية ، فاننا نرى أن الابتعاد المتعمد عن طرح هذه القضايا الشائكة هو بعينه الذى ترك المجال للدعايات الملفقة أن تتسرب الى بعض النفوس . ولكن مع الوعى العربى الجديد ، فان المناقشة العلمية الصحيحة الرصينة على أساس الجغرافيا والتاريخ جديرة بأن تبدد كل شك مدسوس . ولنبدأ بقضية العزلة

عن العزلة السياسية

فأما عن دعوى العزلة السياسية فهى امتداد أو انعكاس لقضية العزلة الجغرافية التى فندنا من قبل . ويكفى هنا أن نقول انه تماما مثلما تمددت أبعاد المكان ووحدة الجغرافيا من المقاطعة nome السابقة للأسرات، الى « الوجه » السابق للتوحيد ، فقد استمرت الحركة مطردة فى نفس الاتجاه من مصر ما قبل التعريب الى مصر العربية بعده . ولا شك أن دور مصر العربى فى التاريخ كان يكون أعظم لولا شرنقة الصحراء المحيطة ،

ومع ذلك فان أثر المواصلات الحديثة هو بمثابة اختزال والغاء لهذه الصحراء . واذا كان الاسلام قد غزا الصحراء - الصحراء الكبرى - بالجمل ، فالطيارة اليوم انما تحذفها

ومن ناحية المسافة الجغرافية البحتة ، نجد أن مصر بموقعها الأوسط وبمساحتها وحدودها المعروفة ، قريبة بالفعل من الرقعة الكبرى فى الوطن العربى - بل ان بعض البلاد العربية أقرب مسافة الى مصر أو أجزاء من مصر ، من بعض اجزاء مصر الى بعضها البعض . فدمشق أقرب - كما يطير الطائر - الى القاهرة ، من القاهرة الى أسوان . وقد يبدو غريبا أن بغداد أقرب أو لا تقل قربا الى القاهرة من رفح الى جبل العوينات ، أو أن بنغازى أقرب الى الاسكندرية من الاسكندرية الى حلايب وهكذا ..

رغم هذا كله ، فقد روج الأعداء فكرة مشوهة عن عزلة موهومة لمصر عن العروبة خلال القرن التاسع عشر بالذات . وقد راجت الفكرة حتى غزت بعض المثقفين فى المشرق العربى ، وكادت تصبح من المسلمات حتى بين البعض منا . والواقع أن هناك سوء فهم بقدر ما هناك من مغالطة فى هذا الصدد . فأولا ينبغى أن نفرق بين الاتجاه الحقيقى للشعب والمصالح العابرة للرجعيات الحاكمة ، ثم لا بد أن نعتبر الواقع الاستعمارى المفروض

فأصل دعوى العزلة هو ما حدث للاسرة الحاكمة من انطواء على نفسها بعد أن حطمت بريطانيا سياسة محمد على فى المشرق العربى وطردته منه ، فكان رد الفعل العزلة السياسية عن العروبة (١) . ولئن صح هذا فهو

(١) محمد أنيس ، القومية العربية، فى دراسات فى العالم العربى ، وزارة التربية والتعليم ، سبق ذكره ، ص ٣١٩

يدل فقط على أن الرجعية الحاكمة فرضت العزلة على مصر الشعب ، ولا يدل بحال على أن مصر الشعب انسحبت (كيف ؟!) من العروبة . بل ان من المحتمل أن نفس الظاهرة تكررت فيما بعد فى نهاية تاريخ الرجعية مثلما بدأت مع بدايته

فهناك من يرى أن مصر بدأت تتجه اتجاها عربيا فى الأربعينات الماضية خاصة ، كنتيجة لصراعات التوازن الأسرية بين الرجعيات الحاكمة فى المشرق العربى ، فرحبت الملكية المصرية بانشاء جامعة الدول العربية كرد - جزئيا على الاقل - على سياسة الهاشمية ممثلة فى أطماع سوريا الكبرى » (١) . ثم زاد الاتجاه العربى بالضرورة مع حرب فلسطين ، حتى اذا كانت الهزيمة حاولت الرجعية الحاكمة العزلة مرة ثانية قبل أن تأتى نهايتها مباشرة على يد ثورة لم تقم الا لتأكيد الاتجاه العربى وعروبة مصر . ومعنى هذا وذاك بوضوح أن سياسة العزلة عن العروبة أو الاتجاه اليها كانت أساسا مسألة مناورات تكتيكية تحتمها مصالح الرجعية الحاكمة ، ولا تدل على واقع الشعب الطبيعى أو اتجاهه الحر ..

غير أن هذا ليس الا جانبا واحدا من الصورة . والجانب الآخر أن مصر ، التى خضعت كما خضع المشرق العربى قرونا « للاستعمار الدينى » التركي الذى استغل صفته الدينية هذه ليخدر العرب عن حقيقته الاستعمارية ، مصر هذه لم تلبث أن وقعت مبكرا فريسة للاستعمار الاوربى الحديث ، بينما ظل الاستعمار التركى جاثما فى المشرق . ولهذا فبينما تحول كفاح مصر الى

---

(١) B. Shwardran, Jordan : A State of Tension, N. Y., 1958, pp. 220-230.

صورة استقلال وطنى استغرقها تماما لدرجة أجلت مؤقتا الهدف العربى النهائى ، كان لا مفر للكفاح السورى مثلا أن يأخذ شكلا عربيا مباشرا ضد الاتراك ، مما بدا معه الهدف العربى أساسيا ومباشرا

ومن هنا حملت سوريا بالضرورة مشعل الدعوة العربية ، بينما بدت مصر بالضرورة أيضا مشغولة عنها. ومن الواضح أن ليس فى هذا عزلة طبيعية ولا مقصودة عن العروبة ، ويكفى أن سوريا مثلا حين أصابها الاستعمار الاوربى أجلت هى أيضا الهدف العربى رغما عنها الى حين ، بينما حين نفضت كل من مصر والمشرق هذا الاستعمار برزت الدعوة العربية فيهما متعاصرة بصورة لها كل مغزى . بل لقد نزعم أن الدعوة العربية كما ظهرت من مصر جاءت أكثر نضجا ووضوحا منها كما جاءت من سوريا الحرب الاولى

فاذا كان لا شك فى سبق وأصالة وتقدمية الدعوه السورية المبكرة فى العشرينات ، فمن الثابت كذلك أنها لم تخل جزئيا من دوافع معينة بحثت عن القومية العربية كبديل عن الاسلامية التركية ، كما أن مما له مغزاه أن نفس هذه الدوافع الجزئية ، حين أوشك تحقيق القومية العربية أن يكون أمرا واقعا ، نكصت عنها وتخندقت فى انفصالية الوطنيات الضيقة . ولهذا قلنا ان الدعوة المصرية وان جاءت أكثر تأخرا زمنيا فقد جاءت أكثر نضجا قوميا ، حتى ليمكن أن نميز بين مرحلتين من الدعوة الى القومية العربية : المرحلة العاطفية أو الرومانتيكية كما ظهرت فى سوريا العشرينات ، والمرحلة الواقعية أو العلمية كما ظهرت فى مصر المعاصرة

هذا التصحيح يستدعى اذن وقفة محققة عند عزلة مصر المقولة فى القرن الماضى . ولا شك ابتداء أن

الاستعمار البريطانى « أغلق » مصر عموما فى المجال السياسى . ولكنه لم يغلقها ويقطعها عن العالم العربى فحسب كما يقال ، ولكن أيضا عن العالم الاسلامى الذى كان لا يزال وحدة فعالة يمثلها الاستعمار التركى . من هنا ووجهت مصر بفترة متميعة مليئة بالمتناقضات ومن ثم بالحيرة . فقد كان ثمة أبعاد أربعة متصارعة ، منها ما هو أصيل أو دخيل ، قهرى أو انتهازى ، تعرض عليها بالحاح . أولها الوطنية المصرية الضيقة كما فرضها عليها الاستعمار كأمر واقع وكما أرادتها الرجعية الحاكمة كمصلحة ذاتية انفصالية . ثم على النقيض من هذه المحلية المفرطة كانت العالمية الأوروبية التى جلبتها معها قوة اغراء الحضارة الجديدة الكاسحة . يلى هذا بعدان أحدهما خارجى قريب العهد هو الاسلامية التى كانت تمثلها تركيا عدة قرون ، والثانى داخلى قديم قدم مصر الاسلامية وهو العروبة

وفى وجه هذه الاختيارات ، تعددت الاتجاهات الحزبية وتصارعت بحسب المصالح الضيقة ، وتجسد هذا فى البرامج الحزبية المختلفة . فقوى الاستعمار والرجعية الحاكمة صاحبة « مصر قطعة من أوربا » ، وطفيلياتهم من بورجوازية المثقفين النامية وبعض الأقليات نادت بالوطنية المصرية ، فرفعت الفرعونية راسها لتكون الاطار الفكرى . واذا كانت « مصر للمصريين » تبدو شعارا تحرريا ضد ــ استعمارى ، فقد كانت ايضا شعار تلك الانفصالية الخبيثة . ونحن ندرك الان أيضا أن بعض من يدعو اليوم الى « افريقيا للافريقيين » لا يقصد بذلك فى الحقيقة الا عزل مصر عن المشرق العربى . ومن هذا البعض نفس العناصر التى رفعت الشعار الأقدم

وقد ارتبط « بمصر للمصريين » اتجاه آخر أوسع

قليلا هو « وحدة وادى النيل » . ولكنه فى الحقيقة لم يكن يخرج عن اطار توجيه الرجعية الحاكمة الانعزالية أو ضغط الاستعمار الجاثم . ذلك أن توزيع العالم العربى بين القوى الاستعمارية فى القرن الماضى ادى الى تقسيمه الى ثلاث وحدات كبرى كل تمثل دائرة مفتوحة داخليا مغلقة خارجيا ، وهى المغرب العربى تحت الاستعمار الفرنسى ، وآسيا العربية تحت الاستعمار التركى ، يبقى بينهما الاستعمار البريطانى فى حوض النيل بمصر والسودان (١)

وعلى طرف النقيض من هذا كله ظهرت دعوة الاسلامية ممثلة فى تيار « الجامعة الاسلامية » وفى الارتباط بالخلافة العثمانية . وهذا الاتجاه استغل تقليد التاريخ الوسيط الذى كان العالم الاسلامى فيه نوعا من الاطار المتميع يدور داخله نوع من الوحدة الاكثر تميعا . وجاءت حركة الجامعة الاسلامية مناورة من تركيا لاستبقاء هذا الوضع والابقاء على كيانها المنهار . ومن الناحية الاخرى رأى فيه بعض المصريين مخرجا وملجأ من الاستعمار البريطانى الغاصب . ولعل هذا هو السبب فى أن البعض خدع به وعبرت عن ذلك بعض الأحزاب . ولكن حقيقته انكشفت مع بروز عنصرية الوطنية التركية واستعلائها وخطط التتريك ... الخ . ومن هنا انشطرت تلك العناصر بالتدريج عن دعوة العثمانية ، فى الوقت الذى بدأت دعوة القومية العربية تؤكد نفسها كهدف مستقل .

والذى نراه فى هذا المناخ السياسى المتلاطم من اجل توجيه مصر ، هو أنه على علاته وأخطائه لم يكن بلا فائدة تماما بل ربما كان ضروريا بمعنى ما من المعانى . فقد

(١) أنيس ، السابق ، ص ٣٠٥

كان أساساً فترة اعادة تفكير فى كياننا ومكاننا ازاء تحديات العالم الحديث ، وكانت فترة العزلة المفروضة مناسبة للتعرف على حقيقة ذاتنا وللاختيار على أساس من التجربة والخطأ . باختصار ، كانت بحثا عن شخصية مصر وعبقريتها المكانية ، واستكشافاً لمفتاح أو معادلة او صيغة لجغرافية مصر السياسية . لهذا كان ثمة صراع فكرى حاد وشاق ، وحدثت عمليات عزل وانتخاب قاسية ، انصهرت مصر فى بوتقتها ايديولوجيا الى ان خرجت منها بوضوح الرؤية الكامل لكيانها وجوهرها

فاذا الاسلامية وحدة عقيدة وتعاون لا وحدة قومية ومصير ، واذا وحدة وادي النيل جزء من كل فقط ، واذا الوطنية المحلية جزىء قاصر ناقص من نفس الكل ، اما هذا الكل فهو العروبة وحدها ، وقدرنا هو القومية العربية ، ومصير مصر هو الوحدة العربية ، وهذا ما عبرت عنه بصورة نهائية وحاسمة مصر الثورة . ولم تكن فترة العزلة المفروضة تلك اذن فترة اجترار للذات وانغلاق على المصرية ، بل أساسا فترة استبطان ذاتى جبلى بالنتائج الحاسمة التى ستتمثل فى العروبة الكاملة. واذا كانت تلك الفترة قد استغرقت بعض الوقت ، فان التعرف على الذات القومية هو — كنمو الذات القومية نفسها — عملية تطور نامية وتدرج تاريخى مديد

وفى هذه الرحلة المفعمة ساعدت عوامل متعاقبة على تصفية المواقف المتعارضة ، منها تصفية الاستعمار الدينى التركى ، ثم الضغوط الاستعمارية المشتركة على كل الوطن العربى وما تلاها من تصفيتها ، ثم كانت تصفية الرجعية الانفصالية الحاكمة ؛ الى أن كانت كارثة فلسطين بمثابة « اختبار الاحماض » فى صحة اعادة اكتشافنا لعروبتنا ، فحسمت الموقف الى الابد . وهكذا

كانت فترة العزلة المفترضة فترة تشتت وتشعب فى اتجاهات الشعوب العربية كما لو خلال عدسة مفرقة . ولكنها لم تلبث أن تحولت الى حزمة أشعة متوازية ، وانتهت أخيرا الى التجمع والالتئاء المصيرى بعدسة مجمعة

قضية الزعامة

وهذه أيضا فى حقيقتها قضية مزيفة مفتعلة ، لأن الجغرافيا حسمتها مرة واحدة والى الابد . فان دور مصر القيادى والريادى فى العالم العربى لم ينقطع أبدا حتى فى الفترات التى آلت فيها الزعامة الشكلية الى غيرها . بل اننا نوشك أن نقول ان الزعامة العربية خارج مصر لم تكن فى جوهرها الا مرحلة تجريبية أو تجربة مرحلية : عابرة وموقوتة ـ قل فترة أو محطة حضانة . كذاك كانت تجربة الشام الأموى : قصيرة العمر متواضعة الاساس حتى لقد اضطرت لكى تبقى على نفسها أن تهاجر الى قاعدة ارضية بعيدة هى المغرب الاوربى . وكذاك من بعدها كانت تجربة العراق أطول عمرا وأرسخ بنيانا بما لها من موضع ثرى عريض الثراء وموقع كان طليعيا ـ موقع رأس الحربة ـ فى العالم الاسلامى المتمدد حينذاك نحو الشرق . ولكن موضع العراق كان يتضمن دائما جرثومة ضعف هى نظامه النهرى ولهذا هوى عند أول اهمال . أما الموقع البارز فى العالم الاسلامى فقد كان يفقد مغزاه بسرعة فى عالم علمانى باطراد حتى انتهى الى مجرد موقع هامشى على ضلوع العالم العربى : الى خط دفاع أمامى حطمته الطرقات المغيرة أكثر منه قلب دفين يعتمد على الدفاع بالعمق

والواقع أننا ننسى أن تركز الزعامة مؤقتا فى كل من

الشام والعراق فى صدر الدولة الاسلامية انما يعكس الجغرافيا التاريخية السابقة للاسلام فى الشرق الاوسط، حيث أن هذا وذاك كانا مراكز السيطرة اليونانيــة ـ الرومانية والفارسية على الترتيب ، فكان طبيعيــا أن تتركز القوة الصاعدة الجــديدة فيهما بحــكم الاندفاع التاريخى . ولكن بمجرد أن تكونت للقوى الجديدة منطقة واضحة وأبعاد محددة ، ثبت أن هذا التركز القديم لم يعد صالحا ، وانبثق قلب جديد أصيل وطبيعى لم يكن مفر من الانجذاب والتحرك اليه عن المركزين السابقين ، تماما بمثل ما انتقل من قبل من الجزيرة العربية نفسها اليهما ولنفس الاسباب الجغرافية الكامنة

وغير العراق والشام كان المغرب : حين تطلع بصورة أو بأخرى (الفاطمية) الى الزعامة فى العالم العربى هجر أرضه بكل بساطة وبلاغة ليمارسها من مصر ! وهكذا كانت التجربة التاريخية الحرة تؤكد باصرار أن الزعامة التى آلت الى مصر العربية هى زعامة طبيعية وملمح اصــيل فى شــخصيتها الاقليميــة . وحتى تحت نير الاستعمار الاوربى الحديث ـ حتى حين انحسر مبكرا فى وحدات خارج مصر بينما كان لا يزال يجثم فيها ـ كانت مصر بلا جدال القلب الحضارى للعرب cultural hub وظلت « واحة العرب »

ويلخص هذا جميعا ما يقتبسه واحد من اكبر رواد دعوة القومية العربية الحديثة فى دور مصر . « لقــد زودت الطبيعة مصر بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى انهاض القومية العربية لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الافريقى والاسيوى منها . كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم اليها العالم العربى بحكم الســياسة

والظروف .. وكل ذلك من الموقع الجغرافى الى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة ، وتشكيلات الدولة .. مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية » (١)

والواقع أن كل الشعوب العربيـة وكل القوميين والمثقفين العرب المخلصين يؤمنون عن يقين بزعامة مصر ويبايعونها بها بلا تردد . أما أنها ــ هذه الزعامة ــ مشكلة ومثار صراع فهـذا لم يكن قط الا من فعل الرجعيات الأسرية الحاكمة والاقطاع السياسى ومناورات ودسائس الاستعمار من ورائهم . وفى هذا السبيل أطلقوا سلسلة من التخرصات والافتراءات لا تصمد للمناقشة الموضوعية الهادئة ، كما حاولوا أن يختلقوا زعامات اصطناعيةمضادة ، ولكن دون جدوى كذلك

فعن الاولى صوروا ضخامة مصر فى العالم العربى كأنها جليفر فى بلاد الاقزام ، وتحدثوا عن « بروسيا العرب » لينتهوا الى خرافة « الاستعمار المصرى » .. وقد خدعت هذه الدعاية بعض العرب بالفعل ، حتى لقد اقترح بعضهم منذ بضع سنين تقسيم مصر الى وحدتين تفاديا « لطغيانها » على الاتحاد بثقلها الضخم (٢) ! وعدا هذا فهناك من زعم أن مصر ليست متخلفة فقط ، بل وحديثة عهد بالاستقلال ..

غير أن الذين يروجون لمثل هذه الافتراءات هم عادة نفس الذين قالوا ان الفتح العربى كان استعمارا (كذا !) (٣) ، وهم الذين ينسون أن أحدا لم يقل ــ وقد

(١) ســاطع الحصرى ، آراءوأحاديث فى الوطنية والقومية ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١١٨

(٢) محضر محادثات الاتحـاد الثلاثى بين سوريا والعراق ومصر ، الاهرام ، ٦٣/٦/٢٢ ، ص ٣

(٣) Nevill Barbour, A Survey of N. W. Africa (Maghrib), 1959, p. 16.

حكمت مصر أكثر من قرنين من دمشق وبغداد (١) — ان الأموية كانت استعمارا شاميا ، أو أن العباسية كانت استعمارا عراقيا ! ولعل هذا هو الرد المنطقى على اكذوبة الاستعمار المصرى

ومن الناحية الأخرى كانت سياسة الاستعمار البريطانى التقليدية فى المنطقة هى اختلاق زعامات ملفقة مصطنعة ليدقوا اسفينا عميقا بين العرب ويخلقوا محاور متعارضة واقطابا متنافرة تقطع غائرة فى الوحدة القومية وتتعامد عليها . وينبغى الا نتحرج علميا فى مناقشة هذه المحاولات ، التى اعتمد الاستعمار فيها احيانا على النواحى الدينية أو التاريخية واحيانا أخرى على النواحى المادية المباشرة . وكانت تلك المحاولات تتردد غالبا بين العراق والسعودية بالتحديد .

فعن الأول ، صورت بريطانيا العلاقة بينه وبين مصر على أنها مساجلة تاريخية (بل وقبل تاريخية !) واصطنع له عقدة العباسية . غير أن عدم التكافؤ الحاد جعل المناورة الاستعمارية سخرية سياسية ضخمة بل قميئة ، وكان العراقيون أنفسهم أشد المستنكرين لها . ومن بعد العراق حاولت بريطانيا أن تصنع من مؤسس السعودية « ملك الملوك » فى الشرق العربى — هذا تعبير تشرشل مهندس المشروع نفسه — ولكن بفشل اشد سخرية لأن الجغرافيا ضده الى درجة تجعل منه فضيحة جغرافية حقيقية !

وقد أعاد الاستعمار الجديد نفس الكرة مع خلفائه على التعاقب ، وعلى أساس الثروة البترولية الضخمة التى تدفقت فى السعودية ، جنبا الى جنب مع الاساس الدينى للثيوقراطية الحاكمة المستبدة بالاراضى المقدسة .

---

(١) شارل عيسوى ، ص ٤

ولا شك أن البترول ، كسلاح وكثروة أسرية اقطاعية بحتــة ، قد جــدد أوهام الاستعمار ، غير أنه لم يكن للبترول ولا غير البترول مهما كان أن يقلب أو يهــز ميزان القوى الطبيعية فى المنطقة كما حسمتها الطبيعة منذ البداية . وتحطمت بصورة كاسفة كل محاولات افتعال زعامات مضادة

ونعود لنتساءل : ثم ما المقصود بالزعامة ؟ أليست هى صميم الديموقراطية القومية، اذا كانت الديموقراطية تعنى عد الرءوس ، وكانت الرءوس متساوية كما ينبغى؟ انها اذن لا تعنى طبقية اقليمية داخل العروبة ، وانما تعنى أولوية بين أكفاء primus inter pares ، وأسبقية لا رياسة فى حلبة مفتوحة تظل تترك دار العرب « مائدة مستديرة » . انها انما تعنى دور قائد الاوركسترا ، تعنى الشــقيقة الكبرى أكثر منهــا حق وراثة الابن الاكبر primogeniture

ولكن حتى دور الشقيقة الكبرى هذا يود المغرضون لو يجحدونه أو يجرحونه . غير أن مصر فى أى مرحلة من تاريخها العربى مهما تواضعت (سواء قبل البترول أو بعده !) لم تكن قط الشقيقة الكبرى بمجرد السن والحجم (فى حين أنها الســاذجة بمقياس اللماحيــة والجمال كما يلمحون) . ولهذا فان دورنا القيادى يظل قائما ، ويظل قائما لا كمجرد زعامة كم خام . ومع ذلك كله فليس دور الزعامة الجغرافية ادعاء فظا غليظا ، وانما ممارسة متواضعة صامتة ، وهو بهذا لا يمكن أن يكون تشريفا أو تخليدا ، بل هو تكليف وتقليد : تكليف من الجغرافيا ، وتقليد من التاريخ . انها ليست أبهة أو نعرة سياسية بل مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة

أما الذين يضغطون على ضخامة حجمها ووزنها فانهم

يسيئون تصوير الحقيقة ، كأنما قد أصبحت قوة مصر نقطة ضعف لها وحجمها عبئا على نضالها القومى مثلما قد أصبح على نضالها الاقتصادى محليا ! فجزء من هذه الضخامة النسبية مرده الى تفتيت الاستعمار للعالم العربى ، وبدلا من أن يفكر البعض فى تفتيت مصر كان أجدر بهم أن يفكروا فى اعادة تكتيل الوحدات الجغرافية الطبيعية الكبرى فى الوطن العربى كاقليم الشام مثلا . فليس سليما أن تتم الوحدة العربية الكبرى على أساس الوحدات المفتتة حاليا . ومثل هذا جدير بأن يخلق قدرا معقولا من التوازن داخل دولة العرب الكبرى يجب كل مخاوف حقيقية او وهمية

كذلك فان فى تهجير فائض السكان المصرى الى أنحاء الوطن العربى التى تعانى من تفريط السكان ، ما يمكن أن يحل مشكلة مصر السكانية جنبا الى جنب مع مشكلة تقارب أحجام الوحدات العربية السياسية . ولعله قد آن الاوان بالفعل فى عصرنا الحديث لأن تحدث حركة انتشار وخروج من الوحدات الزراعية بعد أن حدثت مع الاسلام من الوحدات الصحراوية

ويبقى بعد هذا ان مصر لايمكن الا أن تكون النواة النووية فى الوحدة العربية . ويمكننا بلا غلو أن نقول ان الوحدة العربية بغير مصر « كهاملت بغير الامير » كما يقولون . والذين كانوا يهدفون الى عزل مصر عن بقية العالم العربى يسيئون اليها بالتأكيد ، ولكنهم يسيئون أكثر كثيرا الى بقية العالم العربى ، لأن مصر تكاد تكون الوحدة السياسية العربية الوحيدة التى يمكنها ــ ان اضطرت ــ أن تسير وحيدة بالحد الادنى من الاخطار فى غاب السياسة الدولية المعاصرة بدوله المamوث وعالم الكتل الدينوصورية الكبرى Grossräume وهى من قبل

قد أصبحت قوة مرموقة فى المجال الدولى ، ومؤثرة فيه تأثيرا ايجابيا خلاقا ، وهى الدولة العربية الوحيدة التى تؤثر بقوة فى كثير من الدول خارج العرب بل تعد من زعماء العالم الثالث المبرزين . ومع ذلك فان مصر ، أكثر من غيرها ربما ، تدرك ألا ضمان ولا كيان حقيقى لها الا بالوحدة وفى ظلها

ومن الناحية الاخرى ينبغى على مصر نفسها أن تدرك مغزى هذا الدور الذى ألقته الطبيعة عليها . انه أساسا واجب التضحية والبذل للدول العربية ، وواجب النموذج والمثل الذى تتطلع اليه • وتلك رسالة اشق وأدق مما قد يكون بعضنا على استعداد لأن يتصور .. فهى تمنى من ناحية الاستعداد للبذل المادى ومن الدخل القومى ، والبذل العسكرى من الدم المصرى ، أى تعنى باختصار العطاء أكثر من الاخذ . ومن ناحية ثانية تمنى ان على مصر أن تكثف قواها واقتصادها وتعمق وتعصر حياتها لتكون أهلا للقيادة ، فان من المسلم به فى السياسة ان الشعوب كالافراد : تسعى بلهفة الى أقاربها البارزين الناجحين النابهين ، وتتوارى من الخاملين الفاشلين

وكما ان الكيف لا الكم سيبقى أبدا مفتاح مستقبل مصر جميعا ، فى الحضارة ، فى العلم ، فى السكان ، فى الانتاج .. الخ ، فكذلك سيظل الكيف قبل الكم اساس وضعها ومكانها فى الوطن الكبير ، دار العرب . واذا كانت القيادة والزعامة مسئولية تمارس وواجبا من القيادة يحقق ، فلعل الاختبار النهائى لزعامة مصر قد يرقد فى أن ترقى الى مسئوليتها عن استرداد فلسطين للعرب . واذا صح أن نقول ان لا وحدة للعرب بغير زعامة مصر ، فربما صح أن نقول انه لا زعامة لمصر بين العرب بغير ذلك . .

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ــ ص : ب ٢١

انجلترا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافوره :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Maktab Attijari Asshargi
P.O. Box 2205
SINGAPORE

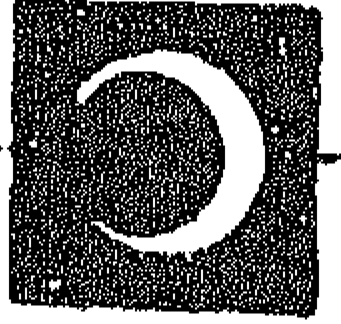
البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Soa Paulo. BRAZIL

في الوقت الذي تجابه مصر ، ومن حولها شقيقاتها العربيات ، مد الحقد الاستعماري والغدر الصهيوني للمرة الثانية في غضون عقد واحد تقريبا ، لا يملك كل عربي في مصر والوطن الكبير الا أن يتفقد ذاته ، يرصد كشف حسابه قوة أو ضعفا ، يقوم أهدافه ، ويقيم خططه واسلحته . وهذا الكتاب ، الذي يصل الحاضر بالماضي ويزاوج الجغرافيا بالتاريخ ، يحاول ان يتعرف على شخصية مصر وجوهر كيانها ، لتكون تلك المعرفة بالذات سلاحا فكريا في نضالنا البطولي الشجاع . والكتاب يقدمه مؤلفه للعالم المتخصص والقارىء المثقف والمواطن العربي جميعا على حد سواء – وهل مصر الا في عقولنا وقلوبنا ووجداننا جميعا ؟

معادلة القوة في تركيبها دولة وامة ، العلاقة العضوية بين أرضها وناسها ، بين نيلها وفلاحها ، وجهتها التاريخية وتوجيهها الجغرافي ، حقيقة العلاقة بين عروبتها والفرعونية ، دورها العربي الرائد ومكانتها العالمية المتفتحة ، نقاط القوة ومواطن الضعف في الجسم الوطني ، وخطوط الحركة ومجالات التقدم الممكنة كما تخرج من بين مقوماتها ومعوقاتها ، الى اين في العرب ومع العرب ، أبعاد الوجود المصري في الزمان والمكان ، في الحضارة والثقافة ، وكذلك في السياسة والاقتصاد : تلك بعض القضايا والاسئلة التي تثيرها الدراسة ، بالتأكيد لا لتضع دستورا او بوصلة للعمل المادي والحضاري أو القومي لمصر – يكفي جدا في مثل هذا مجرد مؤشرات ! – ولكن لتختزل عبقرية مصر وروحها الدفينة في صيغة واضحة متكاملة محددة المعالم والابعاد ..

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

الأدب الثوري عبر التاريخ

محمد مفيد الشوباشي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيرى

العدد ١٩٧ ربيع الثانى ١٣٨٧ أغسطس ١٩٦٧

No. 197 — Août 1967

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج٠ع٠م ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة .



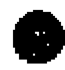
كتاب الهلال



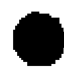
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــة
الفنان حلمى التونى

الأدب الثورى عبر التاريخ



محمد مفيد الشوباشى



دار الهلال

الفصل الأول

أثر الاقتصاد فى الأدب

يرى فريق كبير من الناس ان المال هو صاحب السلطان المطلق فى الوجود ، يمسك بزمام البشر ، ويوجههم أينما شاء ، متحكما فى ميولهم ورغباتهم ، مسيطرا على عقولهم وضمائرهم . ولم ينفرد هذا الفريق من الناس العاديين باعتناق الرأى المذكور ، ولكن شاركهم فى اعتناقه لفيف من المشتغلين بالفلسفة ، وصاغوا منه مذهبا فلسفيا محصله ان العامل الاقتصادى هو وحده المحرك للتاريخ البشرى ، وانه يستحيل ادراك ذلك التاريخ الا على ضوء التفسير الاقتصادى دون غيره

وعيب هذا المذهب انه يمتحن الموضوع من زاوية واحدة ، ويغفل سائر زواياه ، فالعامل الاقتصادى يلعب دون شك دورا رئيسيا فى مجرى التاريخ ، ويتحكم فيه آخر الامر ولكن فيما بين ذلك تلعب عوامل أخرى دورها أيضا ، وهى اذا تأثرت بالعامل الاقتصادى فانها تؤثر فيه أيضا . ومن بين هذه العوامل المعتقدات الدينية ، والمثل الاخلاقية ، والتقاليد الموروثة ، والميول والاهواء ، والمعية الافذاذ من القادة والعلماء والادباء ..

وفكرة تأثر الادب بالاقتصاد تبدو غريبة لاول وهلة ، وبعض الناس لا ينكرونها وحسب ، ولكنهم يستنكرونها أيضا ، فكيف تقوم صلة بين الماديات التي يزدرونها ، والادب وهو من المعنويات التي يقدسونها ؟

ولكن الادب لم يترفع قط عن الحياة ، ولم يستنكف أن يساير الاقتصاد فى تطوره ، متأثرا به ومؤثرا فيه ــ وان كان لم يلازمه خطوة خطوة فى مسيره ــ واذا كان ذلك يبدو واضحا للمطلع على سجل التاريخ ، فان الذى يكتنفه بعض الغموض ، ويحتاج الى ايضاح ، هو لماذا يتطور الادب تبعا لتطور الاقتصاد ؟ ولماذا يعود ويطوره بدوره ؟ أو ، بعبارة أخرى ، ما هى الصلة التى تقوم بينهما ، وتجعل تأثر كل منهما بالآخر محتوما ؟

هناك من يفسر تلك الصلة بأن التحسن الذى يطرأ على اقتصاد مجتمع من المجتمعات يرفع بطبيعة الحال مستوى معيشته ، أو مستوى معيشة الطبقة المتميزة من أفراده ، وينعكس ذلك على عقليتها وذوقها الجمالى. وليس من الطبيعى أن يقف الادب والفن بمعزل عن حركة التطور هذه ، فلا يتأثران بها ، ويؤثران فيها على التوالى

ويحسن هنا ان نلفت النظر ثانية الى ان الادب ــ كما قال أحد المفكرين ــ لا يتبع الحالة الاقتصادية ارتفاعا وانخفاضا على نحو ما يحدث للاسهم فى بورصة العقود ، فهناك ظروف متعددة قد تزيد حركة تقدمه سرعة ، وقد تعرقلها ، ولكن الاثر الحاسم فى الحالتين يكون آخر الامر للعامل الاقتصادى

بيد أن الادب فى رحلته عبر التاريخ لم يكن يرتقى مستوى فحسب ، بل كان يمر بأطوار عديدة ، ويتغير فى كل طور كيفا . فما هى عوامل هذا التطور

والتغير ؟.. انها عوامل عديدة سيرد بيانها فى حينه . ولكن العامل الحاسم هنا هو العامل الاقتصادى أيضا ...

لذلك قيل ان وسيلة الانتاج فى مجتمع ما تحدد العلاقات بين أفراده تحديدا لا دخل لارادتهم فيه .. فأفراد المجتمع البدائى مثلا كانوا يشتركون جميعا فى الحصول على القوت الضرورى عن طريق الصيد والقنص ، واقتطاف ثمار الشجر . وهذا العمل المشترك الذى تفرضه طبيعة حياتهم القاسية يسوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، فتنعدم الفوارق الطبقية ، وتسود ميول ومثل أخلاقية وفكرية مختلفة عن ميول ومثل المجتمعات المنقسمة الى طبقات متنافرة متصارعة ..

بيد ان القوى المنتجة تتغير على التوالى فى ظل النظم السياسية المختلفة المتعاقبة ، وهى نظم الرق والاقطاع والرأسمالية والاشتراكية ، فتتغير العلاقات الاجتماعية بين الافراد تبعا لذلك ، كما تتغير معتقداتهم وميولهم ، ومن غير الطبيعى ان يبقى الادب ـ وهو تعبير عن اتجاهات المجتمع الفكرية والعاطفية ـ بمنأى عن هذا التغير ..

اعتادت المجتمعات البدائية أن تقتل الاسرى لان الابقاء عليهم كان غير مجد ، بل كان ضرره يزيد على نفعه ، فالانتاج الصناعى كان فى حكم العدم ، والصيد والقنص لم يكن يوفر فائضا من القوت . فاضطر أفراد تلك المجتمعات الى الاعتماد على أنفسهم فى الحصول على ما يسد الرمق ، ولم تتسع لهم منادح من الوقت للتفكير فى شىء غير ملء بطونهم . فلا غرابة

الا يكون لهم نشاط أدبى ، وأن يقتصر نشـــاطهم الفنى على صنع أدوات زينتهم الخشنة الفجة

بيـد ان مثل تلك المجتمعات لا تعدم اناســا ينشدون الراحة من عنــاء الجرى وراء القوت ، فيتوســلون اليها بادعاء القدرة على درء أذى الارواح الشريرة ، واستدرار عطف الارواح الخيرة ، ويحترفون الـكهانة ، ويتفرغون لصياغة الابتهالات الساذجة ، وتأليف قصص خرافيــة يحاولون بها تثبيت ما ابتدعوا من معتقــدات وثنية .. واذا هـذا الدغل الذى لا يخرج فى بادىء أمره عن محيط الخرافة ، يصبح النواة الاولى لنشأة الادب

وتتقدم صـناعة أدوات الصيــد ، وآنيــة المـأكل والمشرب ، ويتعلم الإسرى هــذا النوع من الانتــاج البــدائى ، ويصــبح الابقــاء عليهم أجـدى من قتلهم ، وتزداد الحاجة اليهم على قدر تقــدم الصنــاعة ، فيكثر عددهم على مر الزمن ، وتتكون منهم طبقة العبيـــد ، ويؤدى هــذا التطور الاقتصــادى الى حلول عصر النظام العبودى ..

ويهتدى النــاس الى الزراعة فى ظل ذلك النظــام ، ويشتغل بها العبيــد الى جانب اشتغالهم بالصنــاعة ، وتنشأ الملـكية الفردية ، وينقسم المجتمع الى ســادة وأرقاء ، ويزداد ثراء مالكى الاراضى الزراعية والرقاب ، ويستفحل جشعهم واسـتبدادهم واستغلالهم ، ويشتد ضيق العبيــد بذلك العنت ، فيخوضون غمــار صراع طبقى يتطور ويبــلغ فى بعض الاحيــان حـد التمرد ، ويسفر فى أحيــان أخرى عن ثورة عارمة كثورة العبيــد التى قادها سبارتاكوس

يضطلع العبيــد فى ظل النظــام العبودى بالانتــاج ،

وبذلك تتغير القوى المنتجة ، ويفرض هــذا الوضــع الجديد علاقات جديدة محتــومة بين أفراد المجتمع ، ويملى عليهم مثلا فكرية وأخلاقيــة مستجدة ، ويكيف ضمائرهم تكييفا غير خاضع لارادتهم ، وينعكس ذلك ، بطبيعة الحال ، على الادب والفن ، فينقلهما الى طور جديد ..

بيــد ان الوضــع الاقتصــادى فى المجتمع العبودى يمد الانتــاج الفكرى والفنى بسبب فريد من أسبــاب الازدهار السريع ، ذلك ان السادة يضيقون بالبطالة ، بعد القاء عبء العمــل على كاهل العبيــد ، فيزجون وقت فراغهم بالتهافت على الادب والفن ، والتمــاس التسليــة بتذوق قطوفهما ، فيكثر عدد المشتغلين بهما ، ويجدون فى اقبــال النــاس على ما ينتجون حافزا لهم على تجويده

ولــكن المعتقــدات الموروثة لا تتبدد بسهولة ـ لاسيما حين تكون ذات نفع للطبقة الحاكمة ـ فتظل القصص فى العهد العبودى دينيــة الاهــداف حتى بعــد أن يتحطم احتكار رجال الدين لها . وليس معنى ذلك انها تخرج على حكم التطور ، فهى تتفــــرع ، ويتولد بعضــــها من بعض ، ويرتفع مستواها بازدياد خبرة مؤلفيها ، ونمو الوعى والذوق ..

وهى تحاول ـ ككل عمــــل أدبى وفنى ـ أن تصور الواقع وتفسره . ولما كان الناس فى ذاك العصر يدركون ظواهر الوجود بحسبهم المشتعل ، لا بعقلهم القــاصر ، ويفسرونها تفسيرا وهميا لا عقليــــا ، فمن الطبيعى أن تعكس قصصهم مفهومهم الوهمى للحياة ، وتفســيرهم الخرافى لغوامضها ، وأن تنسج من خيــوط التصـــور

الخيالى عالما اسطوريا لا يعمــره بشر ، ولــكن آلهــة وأنصاف آلهة ، وأبطال عمالقة ... ولا تقع فيه أحداث دنيوية طبيعية ، ولــكن خوارق ومعجزات ...

وينمو الادراك العقلى شيئا فشيئا ، ويظهر فى أواخر العهد العبودى مفكرون وأدباء يتحولون الى عالم الواقع ، ويحاولون فهمه على حقيقته ، وتفسيره عقليا ، ولــكن يصــعب عليهم أن يتخلصوا كل التخلص من رواسب المعتقدات الاسطورية ، فاذا أعمالهم تجمع بين التفسير العقلى السليم لبعض ظواهر الوجود ، والتفسير الوهمى الضال لبعضها الآخر ...

وقد بلغ النظام العبودى أوج ازدهاره فى بلاد الاغريق، وفى روما القديمة ...

ويهتدى الحرفيون فى بعض المجتمعات الى صــهر الحديد ، وادخال تحسينــات على أدوات النســيج ، واستعمال المحراث فى فلاحة الارض ، فتتقدم الصناعة والزراعة ، ويزداد اهتمام العمال والصناع بعملهم نتيجة لتوفيقهم فيه ، ولا يخفى ذلك على سادتهم ، بل لايخفى عليهم أن تشجيعهم يزيدهم اقبــالا على العمل ، واتقانا له ، فيمنحوهم بعض الامتيازات ، ويخففوا من قيــود عبوديتهم . وعندئذ يصبح النظام العبودى عائقا للتطور الاقتصادى ، فلا يلبث أن ينهار ليحل محله النظــام الاقطاعى ... ويتحول العبيــد الى اقنان ، ولا يملك سيدهم حق قتلهم ، وان كان يملك أن يبيعهم لمن يشاء متى شاء ..

ويطرد التقــدم الزراعى والصنــاعى فيزداد غنى الســادة الذين يملــكون وســائل الانتــاج ، وتتوفر لهم أسبــاب البــذخ ، وتصــقل حيــاة الرفاهيــة

أذواقهم ، وتهذب نفوسهم ، ويؤثرون الادب العاطفى الحماسى على الادب الوهمى الاسطورى ، ويستخفهم الشعر الغنائى الرقيق الالفاظ ، الموسيقى الصياغة ، الممجد لجمال المرأة ، المعبر عن الحب النبيل ، ويحتضنون رجال الادب والفن ، ويحتفلون بهم ، ويبذلون لهم العطاء ... ولا يلبث الجانب الاكبر من الانتاج الادبى أن يتحول الى النوع الذى يروق لاولئك السادة ، فيشرح معتقداتهم ، ويعبر عن ميولهم ، ويصف مغامرات الحب ومغامرات الحرب ، ويشيد بالرقة والظرف والكياسة فى مجال المعاملة والمجاملة ، وبالقوة والبطش فى مجال المنافسة والمقاتلة ...

ولا تقف رغبة الامراء والاشراف فى رفع مستوى معيشتهم عند حد ، فتنشط الصناعة والتجارة لتلبى مطالبهم المتزايدة ، وتتسع دائرتهما ، ويكثر عدد المشتغلين بهما ، وتتكون عندئذ طبقة وسطى تزداد بدورها غنى ونفوذا وخبرة وعلما ، وسرعان ما تدرك انها أقوى وأقدر من طبقة النبلاء ذات السلطان ، وأولى أن تمسك بزمام الحكم ، فتعمل على التخلص منها والحلول محلها ، وتتحين الوقت المناسب فتحقق ذلك

ويحل عهد النظام الرأسمالى ، ويملك أصحاب رؤوس الاموال وسائل الانتاج ، ولكنهم لا يملكون الرقاب ، فلا يحق لهم قتل العمال أو بيعهم ، ولكن يحق لهم استغلالهم ، ولا منجى للعمال من ذلك الاستغلال ، فهم لا يملكون شيئا ، ولذلك يضطرون الى بيع قوة العمل نظير أجر زهيد لايزيد عن القدر الذى يسد الرمق ..

واذا كان النظام الرأسمالى لم يقض دفعة واحدة

على الملكيات الصغيرة ، فان كبار الملاك يجورون شيئا فشيئا على صغارهم فى ميدان الزراعة ، والمصانع الضخمة تبتلع الورش الصغيرة ، والمتاجر الكبرى تخنق الدكاكين ، والاحتكارات تتحكم فى الاسواق

وتضطر الطبقة الحاكمة الى توسيع نطاق التعليم — لا رغبة فى رفع مستوى الشعب ، ولكن رغبة فى رفع مستوى الانتاج وتنشيط رواجه — فيزداد عندئذ رواج الادب ، ويتكيف بالوضع الجديد ، ويعبر عن فرحة السادة الجدد بانتصارهم على السادة السابقين ، ويشيد بالحرية التى ظفروا بها بعد طول الاستعباد ، ويسبح فى آفاق الاحلام ، ويستكمل مقومات الادب الرومانسى

ويتسع نطاق الانتاج بالجملة ، وتنمو الطبقة المتوسطة باطراد ، وتروج السلع بتزايد مستهلكيها ، وترتفع أثمانها فيتدفق المال فى خزائن منتجيها والمتجرين بها ، ويخلو منه وفاض الفقراء ، ويكتظ الموسرون بالشبع ، وتتوفر لهم أسباب اللهو فينساقون وراء تياره ، ويتهالكون على المتع المبتذلة ، ويضحون فى سبيلها بالمثل الاخلاقية ، والكرامة الانسانية ، فى حين يكابد المعوزون مختلف ألوان الحرمان ، وتخلو حياتهم الخشنة من كل بهجة . ولا يطول سكوتهم على هذا الغبن ، ويتحول تذمرهم الى صراع ينشب بينهم وبين مستغليهم ، ويزداد على مر الزمن اشتعالا. ويصعب على الادباء ذوى الضمائر الحية أن يقفوا من ذلك الصراع فى صفوف المتفرجين ، أو صفوف اللامبالين ، وتأخذهم الغضبة للحق والعدل ، فيجردون أقلامهم ، ويدافعون بها عن المظلومين ، ويقارعون بها الباطل ، ويتطور الادب على أيديهم ليعبر عن الطبقة التى

تناضل لتصبح مصدر السلطات فعلا لا قولا ، ويهبط من سبحات الاحلام الى دنيا الواقع ، ويصور النضال الطبقى الجديد ، فيفضح مخازى الطبقة التى توشك أن تنهار ، ويزعزع أركانها ، ويضعف معنويتها ، ويدعم الطبقة ذات الحق الفعلى فى تولى السلطان ، ويبث فيها الايمان بحقها والثقة بنفسها ، فلا تلبث كفتها أن ترجح فى ميدان الكفاح على كفة خصومها ، وتتمكن فى بعض البلاد من دحرهم ، وانتزاع زمام الحكم من أيديهم ، واستبدال النظام الاشتراكى بالنظام الرأسمالى ، ويغلب تيار الادب الاشتراكى الواقعى عندئذ على سائر التيارات الادبية ...

فالنظم السياسية اذن وليدة أوضاع اقتصادية تلعب على مسرح المجتمعات دورا ، ان لم يكن الدور الوحيد ، فهو على الاقل الدور الرئيسى الحاسم

بيد أن التطورات الاقتصادية ، وما يتبعها من تطورات سياسية واجتماعية ، تتم فى ظل ظروف طبيعية مؤاتية لا تؤثر فيها عوامل خارجية طارئة ، فهى أشبه بتطور الشجرة التى تنبت وتنمو وتتفرع وتثمر فى حالة توفر التربة الصالحة ، والرى الكافى ، والجو الملائم ، ولكن نموها قد يبطىء وقد يسرع على نحو غير عادى ، نتيجة لعوامل خارجية ، بل ان ضربة فأس تصيب جذعها قد تطيح بها ..

ومن أهم العوامل الخارجية التى تؤثر فى تطور الأمم فتعوق تقدمه حينا ، وتزيد سرعته حينا آخر ، وقد تصيبه بالشلل التام فى بعض الاحيان ، كوارث الطبيعة المدمرة ، وغارات الأمم الغازية ، والاتصال بحضارات أخرى ..

وبتأمل كل اتجاه من اتجاهات الأدب فى مختلف أطوار التاريخ نجد أنه يشرح معتقدات طبقة اجتماعيـــة من طبقات المجتمع ، أو فئة من فئاته ، ويفسر مفاهيمها للواقع ، ويعبر عن ميولهـــا .. وهو ينمو بنموها ، ويزدهر بازدهارها ، ثم يضمحل باضمحلالها

وبانتقال مجتمع ما من النظام القبلى الى النظـــام العبودى ثم الى النظام الاقطاعى فالرأسمالى فالاشتراكى يتحول أدبه من أدب خرافى الى أدب أســطورى فأدب كلاسيكى ، فأدب رومانسى ، فأدب واقعى اشتراكى .. ومن ثم يبدو الرباط الوثيق بين الادب والاقتصـــاد واضحا للباحث عن الحقيقة

ولايستقيم شيء فى الوجود ان لم يلائم شكله مضمونه. واذا قلنا ان النظام الاجتماعى لمجتمع ما هو شكله أو قالبه، فالقوى المتصارعة فيه تكون عندئذ مضمونه .. ومتى تغير هذا المضمون فلا بد أن يتغير القالب ليلائمه

الفصل الثانى

معنويات الحياة وماديّاتها

الفكرة السائدة عن الادب والفن عند فريق كبير من الناس أنهما واحة وريفة الظلال يلوذ بها الانسان ليرطب جفاف المعاملات المادية اليومية . ومن ثم نشأت مظنة قيام فاصل حاسم بين الادب والفن من ناحية ، والحياة المادية من ناحية ، وازاء هذه التفرقة التعسفية انقسم المتأثرون بها الى فريقين متعاديين أحدهما يتطرف فى تمجيده للادب والفن فيحتقر الحياة ، وثانيهما يتحمس لاحياة فيحتقر الادب والفن المترفعين عنهـــا ، المحلقين فى سبحات الاحلام والاوهام

ولكن حدة الخلاف القائم بينهما جديرة أن تخف اذا فطن كل منهما الى قيام صلة لا تنفصم بين معنـــويات الحياة وماديّاتها ، فالمعنويات تتولد من الماديات وتظل متأثرة بها ، مؤثرة فيها ، مقتفية أثرها فى حركة تطورها .. وعلى ذلك يخطيء من يحاول الفصل بينهما ، وتمجيد احداهما على حساب الاخرى

كان أفلاطون يفسر الاحاسيس الجمالية « بأنها وليدة ذكرى حياة سالفة قضاها الانســـان فى الملأ الاعلى بين الآلهة والملائكة » .. وهو بذلك ينكر وجود جمال فى هذه

الحياة الدنيا جدير باستثارة تلك الاحاسيس ، والايحاء بالآيات الأدبية والفنية

ولم يعد أحد يؤمن بتلك الخرافة الافلاطونية ، ولكن الخياليين ما زالوا يؤمنون بخرافة أخرى هى ان الابداع الفنى وليد وحى مجهول المصدر ، وقد تكون الموهبة الفنية مصدره .. فاذا لم يكن الجمال الذى يتراءى للانسان ذكرى حياة سماوية سابقة قضاها بين الآلهة والملائكة ، فهو على الاقل من ايحاء وحى لا صلة له بالعالم الأرضى .. ونحن لا ننكر الدور الذى تلعبه موهبة الفنان ، ولكن رأينا أنها تستوحى آياتها الفنية من عالم الواقع لا من عالم مجهول

وقد شرحنا فى الفصل السابق كيف تنبثق المثل الفكرية من العلاقات الاجتماعية والصراع الطبقى، وكيف يقف الوضع الاقتصادى وراء ذلك .. ونحن نذهب هنا الى أبعد من ذلك فنقول ان كل فكرة تنبت من الواقع المادى ، أو تتفرع من فكرة متولدة منه ، وليست هناك فكرة ما يبتدعها الانسان من لا شىء ..

تنبه هيجل الى ظاهرة قوضت مذهب عزل الأدب والفن عن الحياة الواقعية ، فقد لاحظ أن وعى الناس ينمو ويتطور على مر الزمن ، وأنه يتكشف على نحو جديد فى كل مرحلة تطورية مرتبطا فى ذلك بأوضاع عصره الاجتماعية .. كان ذلك الفيلسوف أول من فطن الى الرابطة المتوشجة بين تطور الادراك الانسانى وتطور نظامه الاجتماعى . وكان كشفه هذا جديرا أن يهديه الى ناموس تطور المجتمعات لولا أنه ــ وهو الفيلسوف المثالى الشاطح وراء الخيال ــ أدرك الحقيقة الواقعية على وضع معكوس ، فظن أن التطور الاجتماعى وليد تطور الفكر ، ولم يفطن الى أن تطور الفكر لاحق للتطور

الاجتماعى ، وان ظل متفاعلا معه ، يتأثر به ويؤثر فيه على التوالى .. كانت الحقيقة فى متناوله ، ولكنه عجز عن الامساك بتلابيبها ، ولعل ذلك يرجع الى وقوعه تحت سيطرة أفلاطون الذى رأى أن الفكر المبدع سابق على الحياة الدنيوية ، ومستقل عنها

وهناك من يسألون ما أهمية هذا الخلاف بالنسبة للفنان ؟ ماذا لو أن الفكرة سابقة على الواقع أو أن العكس هو الصحيح ؟ أليس هذا الخلاف أشبه بالخلاف القائم حول الدجاجة والبيضة وأيهما أسبق الى الوجود ؟

ليس الجدل الدائر حول هذا الموضوع مجرد جدل نظرى ، أو ممارسة لرياضة عقلية ، ولكن كلا من طرفيه يعبر عن مفهومه للوجود ، ويفسر أسباب تطوره ، ويستهدف من وراء شرحه وتفسيره دعم الوضع السياسى الذى يؤيده .. فالقائلون بأن الفكرة سابقة على الواقع المادى ، ومستقلة عنه ، ينسبون تطور الوجود ، وتقدم البشرية الى العباقرة الافذاذ أصحاب الافكار الخلاقة ، ويبررون بذلك تحكم الفئة الممتازة من الناس فى رقاب الشعوب .. والقائلون بتولد الفكرة من الواقع ينسبون تطور الوجود وتقدم البشرية الى الجموع الكادحة التى تعمل وتنتج فتغير الاوضاع الاقتصادية ، ومن ثم تتولد مثل فكرية جديدة ، ويزداد الوعى العام نموا ، وتتهيأ الظروف لظهور ذوى الافكار الخلاقة الذين هم مدينون لمجتمعهم بقدر ما هم دائنون له .. فالفضل فى الازدهار الحضارى يرجع ، فى المقام الاول ، الى كل هذه الجموع ، فهى بذلك جديرة أن تكون صاحبة السلطان ..

لهذا أصبح الايمان بالفردية فلسفة المعسكر الرأسمالى

الاستعمارى ، والايمان بالجماعية فلسفة المعسكر الاشتراكى .. ولم تنحصر هاتان الفلسفتان فى حدود عالم السياسة ، ولم تتصارعا فى معتركها فحسب ، ولكنهما امتدتا أيضا الى عالم الادب حيث واصلتا صراعهما المرير

احتضن المجتمع الراسمالى مذهب الفن للفن خدمة لأغراضه ، فهذا المذهب ــ كما هو ظاهر من اسمه ــ يحاول أن يجرد العمل الفنى من أى مضمون اجتماعى ، وأن يجعل شكله غاية فى ذاتها . ولعل الفيلسوف الالمانى « كانت » هو الاب الشرعى لهذا المذهب . ألم يقل ان العمل الفنى مطلق فى ذاته ؟ ثم ألم يشترط له أربعة شروط هى تجرده من أى غرض ، وعالميته ، وعدم احتمال فنائه ، والتسليم دون تردد بأنه جدير بالاعجاب العام ؟ .. ألم يخلع عليه صفات الاطلاق والعالمية السرمدية التى تأبى الخضوع للتطور التاريخى ؟

كانت الاعمال الادبية أفتك الاسلحة التى جردتها البورجوازية فى وجه الاقطاع ، واستعانت بها على دحرها ، فلا عجب اذا خشيت أن تعيد الاشتراكية الكرة فتدحرها بها ، ولا غرابة اذا توسلت بكل وسيلة لتحطيم ذلك السلاح ، أو تفله على الاقل . وقد حال تظاهرها بالغيرة على حرية الرأى دون مصادرة كل عمل أدبى مناهض لها ، مقوض لأركانها . ولم تجد طريقة لدرء ذلك الخطر الا تسفيه الادب ذى المضمون الاجتماعى ، والدعاية للأدب الشكلى المجرد من أى مضمون هادف . واذا أصابت دعايتها هذه بعض النجاح ، وبثت العراقيل فى سبيل الادب الاشتراكى ، فان نجاحها هذا جزئى موقوت ، وهزيمتها النهائية محتومة ..

وهناك مذاهب فنية أخرى ابتدعها العالم الرأسمالى

أيضا ليوقف زحف الادب الاشتراكى ، وهى السريالية والانطباعية والوجودية والتكعيبية وغيرها ، وكلها تحاول أن تفصل الحس عن الفهم ، وتجعله هو وحده باعث العمل الفنى . فالفن لا يعكس صورة الحياة ويفسرها ، ولكنه يعبر عن احساس الفنان ويحلله ..

وقد رد نيدوشيفين على ذلك بقوله : « من الخطأ أن نحصر الفن فى دائرة الاحساس . أو أن نزعم أن الادراك الحسى البدائى للعالم هو المنبع الوحيد للفن . والتفرقة بين الفن والعلم على أساس أن محتوى الاول هو الاحساس وحده ، ومحتوى الثانى هو الفكر وحده ، تفرقة خاطئة . والنقد الصورى الرجعى لا يكف عن ادعاء أن الفن لا يحتاج بحال الى المحتوى الفكرى ، والهدف من ذلك واضح ، وهو حرمان الابداع من قوة المعرفة الفعالة ، وجعله مجرد تسجيل للاحساس الذاتى .. »

وخوفا من أن يرمينا قارىء بمظنة التجنى على أدباء العالم الرأسمالى ، واتهامهم بما هم منه براء ، ننقل فيما يلى آراء بعضهم فى رسالة الادب

قال سومرست موام ، قبيل وفاته ، ردا على سؤال وجه اليه عن مسئولية الكاتب : « أحسب أن المشكلات السياسية والفلسفية لا تصلح مادة لكاتب القصة الاصيل ، فهى تكبل القصة بالقيود ، وتعوقها عن الحركة . ثم ان تدفق السرد وحركته هما اللذان يميزان الكتابة القصصية عن سائر أنواع الكتابات ... »

وقال ستيفان سبيندر عن العلاقة بين الادب ومشكلات العصر : « أنا لا أزال أشعر بأن انغماس الكاتب فى الصراع السياسى والاجتماعى الدائر حوله لا يجعله أقدر على متابعة أحداث عصره ، فالعكس هو الصحيح ، لان انغماس

الكاتب فى هذا الصراع يضلله ، ويحجب عنه حقائق عصره ، بل وحقائق العصور الاخرى »

ومما تفاخر به ليهمان أنه هو وبعض زملائه لم يتخلوا فى أثناء الحرب الهتلرية عن حريتهم ، وظلوا مستمسكين بحقهم فى اتخاذ الموقف الذى آثروه ، فقابلوا تلك الحرب بالوجوم عندما كانت الحال تتطلب الحماسة . ووصفوا فى شعرهم أشجار الورد التى تكسو حائط البستان ، والعصفور الذى يقفز على حافة النافذة ، والحبيبة ذات الحسن الفتان ، وذكريات الحب الذى ولى بمتعه وأشجانه ..

وقد علق أحد الكتاب الاحرار على موقف ليهمان المذكور بقوله : « الفرار من ميدان الجهاد فى سبيل الحق والخير فرار ولو كان باسم الحرية »

وقال كولين ويلسون : « كفانا ما كابدناه من (المذهب الانسانى) التقليدى ، ومن التقدم العلمى ، فانهما لم يؤديا الا الى الفرقة بين الناس ، وانتشار الفساد ، واشتعال الحروب العالمية المتعاقبة ... »

وقال بيل هوبكينز : « ان أسباب الضعف البشرى المتزايد مسجلة بالتفصيل فى سجل تاريخ نصف القرن الاخير ، وهى الوطنية والاشتراكية والعمالية والنازية والفوضوية .. »

وقال ستيوارت هولرويد : « الثقافة العلمية التى سادت المسرح الاوربى خلال ثلاثة القرون الاخيرة هى التى سممت مختلف أنواع الانتاج الفنى »

ان قصد أولئك الادباء جميعا واضح من أقوالهم المذكورة كل الوضوح ، فهم يريدون ابعاد الادب والفن عن معترك الحياة ، وتجريده من كل مضمون فكرى يكشف الحقائق ، ويفضح الاستغلال ، ويشد عضد

المناضلين فى سبيل الحق ، ويمكنهم من تسديد الضربة القاضية للنظام الرأسمالى

وهم يبررون مذهبهم هذا بأنه هو وحده الذى يكفل للاديب حرية التعبير عن خواطره ومشاعره . والخطأ الذى يعتور مذهبهم يرجع الى افتراضهم أن كل أديب مشغول بذاته دون غيرها ، لا يعنيـــه الا التعبير عن مشاغلها وأهوائها الخاصة، وما داموا هم كذلك فلايخطر ببالهم أن يكون هناك أدباء غير مكبلين بقيود الانانية ، يشاركون جموع الناس فى مشاعرهم ، ويغضبون للحق ويثورون على الظلم ، فاذا عبروا عن ذلك الغضب وتلك الثورة عبروا عما يشعرون به دون أن يصدر ذلك عن ضغط أو ارغام ، فارادتهم مندمجة فى ارادة الشعوب المناضلة فى سبيل الخير والعدالة الاجتماعية

قال لينين فى معرض الحديث عن حرية الاديب : «نحن لا نود انقاذ الفنان من السيطرة البوليسية الفاشـــمة فحسب ، ولكن من سيطرة رأس المال أيضا ، وسيطرة قيود الحرفة ، ومما هو أهم من ذلك كله وهـــو سيطرة ذاته الفوضوية ... »

والمقصود من هذه العبارة الاخيرة سيطرة وهم الحرية المطلقة ..

وقد تعرض اسكندر كاراجانوف لقضية حرية الاديب فقال :

« ان خضوع الكاتب لذاتيته يتستر عادة تحت شعار (الحرية المطلقة) ، والتحرر منه يحتاج الى جهاد كبير

وفى البلاد الغربية تتضخم الدعاية لحـــرية الاديب المطلقة ، ولكن الحياة هناك تمدنا بأمثلة تلو أمثلة عن خضوع الكاتب ، بوعى وبغير وعى ، لسيطرة رأس المال .. ومن ثم للمثل الفكرية الرجعية .. ان الكاتب فى

العالم الرأسمالي ـ وهو عبد للأوهام الذاتية ـ يخدع نفسه فيما يكتب ، وهذه أخطر وسيلة لخداع الجماهير

وهل يتمتع الكاتب الامريكي بالحرية عندما يتغاضى ـ مثلا ـ عن التفرقة العنصرية ؟ أو يقع فريسة للدعايات العسكرية فيؤيد سياسة حافة الحرب والارهاب الذرى وتسابق التسلح ؟ ان الفنان الذى يناصر القوى التى تستعبد الشعوب هو فى حقيقته عبد لتلك القوى . ولا يكون الفنان حرا حقا الا حين يدافع بشعور فياض ، وعقيدة راسخة ، عن قضية الحرية ، ويؤيد تأييدا ايجابيا تحرير الشعوب التى ما زالت واقعة فى براثن الاستعباد .. انه لا يمارس الحرية فعلا الا حينما يدرك حقيقة ما يجرى فى معترك الحياة ، وخسة الدور الذى تلعبه القوى الغاشمة ، وينصت لنداء عقله وضميره فيكرس قلمه لخدمة قضية التقدم ، وللدفاع عن مصالح الانسانية ، وحق الناس جميعا فى التمتع بالرخاء والسعادة ..

ليست الثورة على نظام الحكم القائم هى دائما دليل حرية الأديب ، ففى عهد الحكومات الغاشمة المستبدة بالشعوب تصبح ثورة الاديب عليها مشروعة ، لا سيما اذا كان الدافع اليها حب الشعوب ، وهدفها تحقيق الحرية الاجتماعية .. لقد كان الادب الروسى قبل عام ١٩١٧ أشد الآداب العالمية ثورية .. كان خصما عنيدا للحكومة القيصرية المتعسفة ، ولنظامها الرأسمالى الجائر ، ولكن الثورة على حكومة اشتراكية تخدم الشعب وتتوخى مصلحته لا تقوم دليلا على حرية القائمين بها ، بل على عبوديتهم للقوى الاستغلالية المعادية للشعوب ..

ان المقابلة بين حرية الاديب ، وخضوعه لغيره ، تظل

محض شكلية حتى يوضع لها هذا السؤال : لمن يخضع الاديب ؟ أو لأى قوى يخضع ؟ .. »

ان الاديب المشايع للنظام الرأسمالى الاستقلالى يخضع لقوى الشر ، ويسخر قلمه لخدمتها ، على عكس الاديب الاشتراكى الذى يحظى بشرف خدمة القوى الخيرة التى تناضل فى سبيل الحق والخير

ان اخلاص الكاتب الاشتراكى لعقيدته يجعل مثلها الفكرية هى مثله ، ولا يصبح ثمة فارق بين مقاصد عقيدته ومقاصده الذاتية ، والافكار لا تصبح قوة مبدعة للعمل الفنى الا على قدر تغلغلها الى صميم كيان الكاتب، وامتزاجها بحاجات قلبه وعقله

وقد أهاب كاراجانوف بأدباء عصرنا قائلا :

« ان معركة رهيبة تخوض الافكار غمارها فى هذه الايام . والرجل الذى أعمت الذاتية الرجعية بصيرته هو وحده الذى يستطيع أن يلهو بأوهام (الحرية المطلقة). والحياة لا تسمح لأديب أن يتهرب من اختيار احد طريقين ، فهو يواجه السؤال الاتى دائما « فى اى الجانبين أنتم يا أعلام الثقافة ؟) .. ان الحرية التى تتيح القدرة على الخلق الفنى ليست من نصيب الفنان الذى لا يجود بروحه للشعوب ، ولا يكافح فى سبيل حريتهم عن ايمان »

ومن الطبيعى أن يكون فى العالم الرأسمالى أدباء شرفاء يشاطرون الادباء الاشتراكيين رأيهم فى الادب وضرورة أشتراكه فى المعركة السياسية الدائرة بين القوى الرجعية المستغلة والقوى التقدمية المناضلة فى سبيل تحقيق الحرية والعدالة للجميع

وفى الحقبة الاخيرة كال الكاتب الامريكى « أرشيبالد ماكليش » عبارات اللوم لادباء قومه المنطوين على أنفسهم ،

المترفعين عن الحياة العـــامة ومشكلاتها السياسية ، المحجمين عن خوض غمارها حتى ولو كان ذلك ضروريا للدفاع عن أنفسهم ، وعن الحرية العامة التى لا يزدهر الادب دون توفرها

ولم يبحث هذا الكاتب عن السبب الاساسى لانحراف أولئك الادباء ، واكتفى بأن نسبه الى انتشار مذهب الفن للفن فى بلاده ، وكان أجدى أن يذكر لنـــا لماذا انتشر المذهب المذكور كل ذلك الانتشار

كتب أديب أمريكى زنجى قصة وصف فيها حيـــاة قومه ، وألوان الشقاء التى يعانونها • وتصـــــدى ناقد أمريكى لتلك القصة ، وبدلا من أن يناقشها من الناحية الموضوعية والجمالية رأى تجريدها من أية قيمة أدبية على أساس أنها مجرد عمل من أعمال الشكاية والاحتجاج

وسفه ماكليش رأى ذلك الناقد ، ولم يجد ســببا لتورطه فيه الا تأثره بمذهب الفن للفن ، ولو أنه خطا خطوة أخرى فى تقصى الحقيقة لوجد أن التعصب العنصرى الاهوج هو السبب الرئيسي لذلك التورط ، وليس مذهب الفن للفن الا ذريعة لمقاومة الادب الثورى

واذا محصنا ما تقدم على ضوء ما شرحناه فى الفصل السابق وجدنا أن الادب الاشتراكى الواقعى نشـــأ مع الطبقة العاملة التى ظهرت على المسرح السياسى بعد تغير الوضع الاقتصادى فى أوربا ، وحلول النظام الرأسمالى محل النظام الاقطاعى ، وأن ذلك الادب ظل ينمو مع نمو الطبقة المذكورة ، ويعينها على رفع الحيف عنها ، واحقاق حقها . وما دامت الاشتراكية قد حققت انتصارا حاسما على خصومها فى بلاد كثيرة ، وانتصارها فى سائر بلاد العالم محتوم طبقا لسنة التطور ، فلا مفر من أن ينتصر الادب الناطق بلسانها ، ويغلب تياره على سائر التيارات

الادبية المعبرة عن معتقدات نظام آيل للزوال.

واذا كان انتصاره محتوما فلا يعني ذلك أن يكف أنصاره عن النضال ، فعلى قدر استبسالهم فيه يقترب يوم النصر . وهم يحتاجون الى فهم الادب الاشتراكى على حقيقته حتى يستطيعوا رفع كفاءته الى أسمى مستوى ، ولذلك اخترنا مقتطفات مما قاله بعض المفكرين الاشتراكيين فى صدد تعريف الادب الواقعى الاشتراكى ، وشرح خصائصه المميزة . وفيما يلى ترجمة تلك المقتطفات :

« التمسك بالمذهب الواقعى الجدلى فى الادب يفرض مكافحة المثل الفكرية التى تعزل الفن عن المشكلات الاجتماعية والتطور التاريخى، وتتلاعب بالالفاظ والمعانى، وتحصر الفكر فىعالم التجريد ، وتزيف الحقائق الواقعية ، وتفتتها فى سبيل أغراض مذهبها .. على أن مكافحة أساليب المثالية المختلفة ينبغى ألا تؤدى الى تبسيط المذهب الواقعى الجدلى ، فان منهجه ينقلب الى نقيضه اذا اتخذنا منه نموذجا جاهزا لدى التطبيق نفصل عليه الوقائع التاريخية بدلا من اتخاذه مرشدا لنا فى دراستنا للتاريخ »

« أن انعدام التناسب بين القاعدة الاقتصادية المادية ، وبنائها الاعلى المعنوى ، هو أحد تناقضات المجتمع الطبقى ، فليس هنا اذن (تركيب) ، أو (وصفة جاهزة) لتوليد العمل الفنى مباشرة من (الواقعية المادية) . وليس ثمة مفتاح عام لحل مشكلات الوجود جميعها ، فالآية الفنية لا ينحدر مستواها لتصبح معادلة من المعادلات الاقتصادية أو الاجتماعية ... »

« ان الهبوط بالفن الجمالى الى حيث يصبح بحثا اجتماعيا أوليا ، واستخلاص البناء الأعلى الفكرى بطريقة

آلية من القاعدة الدنيا الاقتصادية ، مع اهمال الصلات التى تؤلف بينهما ، والغفلة عما ظل حيـــا من الافكار وذيولها التى يرجع أصلها الى ما قبل التاريخ، والاقتصار على ابراز العامل الاقتصادى السلبى ، واهمال أى عامل من عوامل الانتاج العملى المركبة المتكاثرة أو اصغار شأنه .. ان ذلك جميعه قصور يشـــوه المذهب الواقعى الجدلى ... »

« أن التبسيط والمذهبية الضيقة الأفق يكشـــفان الستر عن عجز الفنان والناقد ازاء تعقد الحركة الواقعية لسير الوجود ، وتنوع الحياة وغناها .. ان العمـــل الكروكى لا يفسر شيئا ، ولا يبتعث أية هزة شعورية حتى حين يتضمن آراء سياسية صائبة .. كذلك تكشف الكروكية المصوغة حيثما اتفق ضعف أيديولوجية الفنان، وتنم على الادب الصادع للأمر .. فالعمل الفنى ينبعث من ذهن الفنان ووجـــدانه ، ويستجيب لدافع داخلى ، لا لنماذج جاهزة مفروضة . وهو لا يزدهر الا بين أحضان الحرية الدافئة الخلاقة »

« لم يحاول فلاسفة الاشتراكية أن يسنوا القوانين للفنون ، وأن يتسلطوا على ضمائر الفنانين ، فقد أيدوا الشعراء الثوريين ، وأسدوا لهم النصح ، وحاولوا ايقاظ ضمائرهم ، وشحذ مشاعرهم ، ولكنهم لم يحاولوا قط قهر الهامهم ، والتعرض لحريتهم ..

« بيد أنهم طالبوا معتنقى المذهب الواقعى الجـدلى بتحليل الحقيقة الحيـــة ، وحذروهم مغبة الجمـــود العقائدى ، وضيق الافق ، والطائفية والوصوليـــة . وقالوا عن الروح الطائفى الذى يستفحل ويطغى باسم صيانة المذهب من كل شائبة ، والمحافظة على نقائه ، انه يتجمد فى حالات التعصب الاعمى ، ويختنق فى صـــيغ

محدودة ، ويفرض قواعد جمالية معينة ، ويفرس الروح الكنسى ، ويجرد الماضى من كل مضمون ، ويضيق الخناق على الحاضر ، ويموه محتملات المستقبل . وهو يستبدل التبرير بالتحليل ، والرغبة بالحقيقة ، والرسم الكروكى بالحياة ..

« وهل أنكر فلاسفة الاشتراكية القصة ذات الرسالة السامية ؟ هل رفضوا الشعر ، والدراما الملقحة بالآراء السياسية والاجتماعية ؟ كلا بالطبع . فكم بذلوا من جهد لتنشيط الشعر الثورى والأدب الثورى ، وكم طالبوا الفنان أن يعمل على توسيع دائرة ثقافته ، وعلى التثبت من مصادر علمه ، وصدق حكمه ، وأن تكون له أستاذية فى مهنته تهيىء له سبيل الاضطلاع بدوره .. دور الموقظ المرشد .. بيد أنهم يرفضون أدب الدعاية العاطل من كل فن ، المعتمد على عبارات الاقناع بدلا من تصوير الحياة ، المكتفى بالكروكية التى تورث الضلال والعقم ..

« فالآراء السياسية لا تستطيع ، فى نظرهم أن تقوم مقام الموهبة الفنية ، ثم ان الشعور الصادق والعقيدة السليمة لا يكفيان لتمكين الكاتب من ابداع آيات أدبية ذات قيمة ، فلا بد أن يتفجر العمل الفنى من الواقع الاجتماعى ، وأن تنسج خيوطه من مادة الحياة . وهو لا يستحق البقاء على مر الزمن الا بقيمته الفنية المرتكزة على سمو المضمون ، وتألق الشكل، وحسن الختام .. »

« ليس هناك عمل أدبى أو فنى يمكن أن يفلت من السلطان الاجتماعى ، واذا أشادت الرأسمالية الغربية بحرية الفن فانها تستعبد الفنان استعبادا أشد من كل ما عرفته العهود التى سبقتها . لقد أصبح العمل الفنى فى ظل نظامها سلعة تتحدد قيمتها بمقدار الربح الذى تحققه . ويتوقف مقدار هذا الربح على وسائل الترويج

التى تملكها دور النشر وادارات المسارح والمعارض الخاضعة للسلطان الرأسمالى ، ويتوقف كذلك على مجاراة الفنان للآراء والاذواق التى يفرضها أعضاء هيئة (أركان حرب) النقد البورجوازى على الجمهور . والفنان الذى يظن نفسه حرا فى هذا المعترك انما يوهم نفسه بذلك . وهو يتنازل فى الواقع عن حريته الحقيقية ليظفر بتلك الحرية الوهمية »

« ان الطبقات الحاكمة تعد الادب والفن حكرا لها . ولكن التناقض والصراع المتحكمين فى قاعدة المجتمع (أى وضعه الاقتصادى) ، والمتسببين فى اهتزازها ، يؤثران حتى فى بنائه الاعلى (أى نظمه وفنونه وآدابه) فالادب والفن غير منعزلين فى آفاق أثيرية بعيدة عن التأثر بالاضطرابات الارضية ، ولكنهما منغمسان فى معترك الحياة حيث الافكار المتنابذة تتقارع ، وحيث المبارزة التى لا رحمة فيها تقع بين القديم والجديد ، فتتساقط فى المعمعان حتى الافكار الصامدة للطعان ، وتترتب على انتصار بعض المعتقدات ، واندحار بعضها تغيرات عميقة الجذور تؤثر فى حياة الناس المادية »

« ان تاريخ الآداب والفنون يبدو غير مفهوم على حقيقته متى أقيم حاجز بينه وبين الصراع المادى . وهو ليس مجرد سجل لذلك الصراع ، ولكنه عامل من عوامله . وما ذلك الا لان الافكار التى تنبثق من الصدور تتجسد فى وقائع وأحداث .. »

« يجد الكاتب نفسه ، حين يشعر بعجزه ، مغرى كل الاغراء بمداراة ذلك العجز بستار من مثل فكرية فلسفية ، أو سياسية ، ويتخذ لنفسه اتجاها عقيديا ليكتسب جمهورا من القراء ، ويتحف الناس عندئذ بأدب غث .. »

نخلص مما تقدم الى أن النظام الرأسمالى أصبح فى هذه الايام ــ وهي أواخر أيامه ــ عائقا للتقدم الاقتصادى بعد أن كان فى أول عهده عامل تقدمه الرئيسى . فهو يعمل ، من ناحية ، على الحد من الانتاج ليحافظ على أعلى مستوى للاسعار ، ويحصل على أوفر نصيب من الربح دون اهتمام بمصلحة الشعوب الشديدة الحاجة الى السلع الاستهلاكية ، العاجزة عن دفع الثمن المحدد لها .. وهو يوفر ، من ناحية أخرى ، ما يستطيع توفيره من الايدى العاملة ، ويخفض أجورها الى أدنى مستوى ممكن . وقد أسفر ذلك عن اشتداد التناقض بين مطالبه الجائرة ، ومطالب القوى الشعبية العــــادلة ، ونشب بينهما الصراع المحتوم الذى لا تزال هذه القوى تحرز فى ميدانه انتصارا تلو انتصار

تداعى النظام الرأسمالى ، وتفاقمت أزماته الاقتصادية وأخذ ينحدر الى هاوية الافلاس ــ على الرغم من تمتع طبقته الراقية بالرفاهية ــ وترتب على أفلاســـه المادى افلاس معنوياته ، وظهرت مثله الفكرية والاخلاقية على حقيقتها ، ووضح مدى بعدها عن النزاهة ، فهى تضطلع بخدمة أغراضه على حساب الحق والخير والعدل . ولم يعد أدبه يجد فيها مضمونا يلائمه ، فاستعاض عن فقره الموضوعى بالزخرف الشكلى ــ وهذه حال جميع الاداب فى مختلف عصور الانحلال ــ واتخذ عبارة الفن للفن شعارا ، وجعل منها مذهبا يحاول أن يصد به زحف الادب الواقعى الاشتراكى المشتبك فى معـــركة تحرير الانسانية من قوى الاستغلال

الفصل الثالث

أثر العلم في الأدب

اذا كان التيـــار الرئيسى لادب مجتمــع ما يعبر عن معتقدات طبقته ذات السلطان ، فان الادب بعامة « شكل من أشكال نشاط المجتمع الذهنى والعاطفى » ، أو هو ـ على حد تعريف الناقد السوفييتى نيدوشيفين ـ « وعى فنى للواقع ، أو أنعكاس لمفهوم الواقع تتفاوت درجـــة موضوعيته .. » أى يتفاوت قربه أو بعده عن الحقيقة بمقدار المستوى الذى وصل اليه الوعى العام ، أو بمقدار ادراك الناس لظواهر الوجود وأحداثه .

فالمجتمعات البدائية التى تدرك الوجود بحسها ، لا بعقلها ، تتمثله على غير حقيقته ، فهو لا ينعكس فى ذهنها طبقا لواقعه ، ولكنه ينعكس صورا وهمية ، مخـــــالفة للواقع ، تنسجها احاسيسها المضطربة .. وفى هذه الحالة لا يختلف الوعى الفنى للوجود عن وعى الناس له ، فهو يتمثله كما يتمثلونه ، ولا تخرج مهمتـــه عن تجسيد ما يتمثلونه فى صور فنية ..

وكلما نما ادراك البشرية العقلى ، وتهذب ادراكهـــا الحسى ، اقترب فهمها لظواهر الكون من الحقيقة ، واقترب الادب ايضا من الحقيقة ما دام أنه يعكس فهم مجتمعـــه للواقع ..

ولما كان كل تيار من مختلف التيارات الادبية يعبر عن معتقدات طبقته وميولها ، فيمكن تعـريفه بأنه وعى فنى للواقع من وجهة نظر الطبقة التى يعبر عنها ٠

فالتيارات الادبية تختلف فى ادراكها لمشكلات عصرها السياسية والاجتماعية ، ولكن ادراكها لحقائق الوجـود لا يتجاوز المستوى الذى وصل اليه ادراك عصرها العلمى، وعلى ذلك يرتبط تطور الادب بتطور المعرفة الانسانية ٠٠ وما دامت هذه بدورها مرتبطة بالتقدم الاقتصادى والعلمى فهو بالتالى مرتبط بهما

يتسع نطاق العمل ويتنوع متأثرا باطراد مطـالب الانسان وتنوع رغباته ، وتولد بعضها من بعض ، وتصبح القوى الانتاجية اقدر على زيادة الانتاج ، وعلى رفع مستواه بمقدار ازدياد خبرتها وفطنتها ، وتهتدى بهـذه الزيادة المطردة الى المبتكرات العلمية ، وتسخرها لتحقيق اغراضها الانتاجية ٠ ويتقدم العلم على قدر اقبالها عليه ، وافادتها منه ويحدث أثره فى الناس فيصرفهم عن الاوهـام ، ويبصرهم بالحقائق ، ويزيدهم اهتماما بها ، وتقـديرا لاهميتها ، ويصبح المنار الذى يهتدى به النشـاط الانسانى فى مختلف مجالات الحياة ، ولا يشذ النشاط الادبى عن ذلك ، فيتحول شيئا فشيئا عن عالم الوهم الى عالم الواقع ، وعن التفسير الوهمى للوجود الى تفسيره علميا ، وينتقل فى مراحل تطـوره من مرحلة خلـق الاساطير الخرافية الى مرحلة تصوير الوجود على حقيقته، ويصبح عملا ذا رسالة انسانية سامية بعد أن كان عمـلا يثبت الخرافات فى الاذهان ، ويعوق تطور المعرفـة الواقعية ٠٠

قال الناقد بيلينسكى فى تعريفه للادب انـه « تفكير

وشرح بالصور ٠ » وكل من يسلم بوجاهة هذا التعريف يسلم بأن الادب يصعد في مدارج الرقى كلما صار أقدر على كشف الحقائق الواقعية ، وشرحها فى صدق وامانة ٠

ولكن العالم الرأسمالى لم يعدم أدباء وفلاسفة يأبون على الادب أن ينضم الى موكب التقدم الانسانى ، ويصرون على ابقائه مرتبطا بالخرافة ، متردیا فى هوة الجهل على نحو ما كان عليه فى عهد طفولة الانسانية ، مستهدفين بذلك تجريده ــ كما قلنا ــ من مضامينه التفهمية الثــورية ، والحيلولة دون قيامه بدور فعال فى المعركة السياسية التى يشترك فيها ضدهم

وليس عجيبا أن الفيلسوف هيجل الذى اهتــدى الى قانون التطور ، وقرر « أن تقدم الوجود يتم بفعل صراع محتوم يدور بين نقيضين يكمنان فى كل كائن من كائناته المادية والمعنوية ، وينتهى دائما بانتصار النقيض الجديد على القديم » ٠٠ ليس عجيبا أن يتناسى ذلك الفيلسوف ــ مجاراة لمذهب قومه الرسمى فى الادب ــ قانون التطور الذى كان له شرف كشفه ، وأن يتجنى على الحقيقة فيزعم أن العصر الذهبى للادب انقضى بانقضاء عهد الاغريق ، وأن الصراع بين الادب الواقعى والادب الوهمى الاسطورى وانتصار الاول ، منذ بزوغ العصر الحديث ، على الثانى ــ وهو انتصار النقيض الجديد على نقيضه القديم ــ لم يؤد ، طبقا لسنة التطور ، الى تقدم الحركة الادبية ، بل أدى الى عكس ذلك ، فقضى على الادب ، وأدال دولته

هذا الفيلســوف المتحيز لا يعتــرف الا بالادب الاسطورى الخرافى ، أما الالوان الادبية الاخرى فليست فى رأيه أدبا ! ٠٠ وقد قال فى ذلك : « الفكرة لا تتبع طريق الصعود فى محيط علم الجمال كما تفعل فى محيط المعرفة ، بل العكس بالعكس ٠٠ فعلى قدر تقدم الفكرة

وبلوغها حد الكمال ، يتبدد الجمال ٠٠ ان الفن لم يعد يشبع حاجات الروح التى حاولت الشعوب القديمة تحقيقها ، ووجدت بغيتها فى رحابة .. لقد أدى الفن الاغريقى رسالته فى عصره السعيد ، أما ثقافة عصرنا التأملية فتحصرنا فى محيط الارادة ، وفى محيط الحكم على الاشياء ، وتشغل بالنا بالشواهد العامة التى تعالج كل ما هو خاص على أساسها ، فالاوضاع العامة والقوانين والواجبات والحقوق والمبادىء هى المقررات المتحكمة فى كل شىء ٠٠ وهذا هو السبب فى أن عصرنا لا يلائم الفنون على العموم ، وفى هذه الظروف يكون الفن شيئاً متعلقاً فى نظرنا بالماضى ٠٠ !!

وليس بعجيب أن يصادف هذا الرأى الرجعى ، فى العالم الرأسمالى ، هوى فى النفوس ، وان يهتم المغرضون بترويجه ليفلوا سلاح الادب الثورى ، وقد احتاج ترويجه على أوسع نطاق الى الانحدار بتفسيره الى المستوى الدارج ٠٠ وراح مفسروه يزعمون أن الحضارة تنقسم الى جانب معنوى ، وجانب مادى ، وأن جانبه المعنوى يزدهر خلال تأخر جانبه المادى ، والعكس بالعكس ! ٠٠ وما الفقر الاخلاقى الذى تكابده الانسانية اليوم الا نتيجة حتمية لتقدم العلم وما أسفر عنه من غنى مادى ! ٠٠ ولكن هذه المغالطة التى تنطلى على البسطاء لا تخدع ذوى البصيرة الذين يعلمون حق العلم أن الفقر الاخلاقى المتفشى فى العالم الرأسمالى لا يرجع الى الغنى المادى ، ولكن يرجع الى التكالب على الماديات ، والتناحر فى سبيل الفوز بها ، وتحجر العواطف فى معترك الكسب والخسارة ٠٠ أما التقدم العلمى فى ظل الاشتراكية ، حيث يحل التعاون والتآخى محل التناحر والتنابذ ــ فكفيل برفع مستوى الناس المادى والمعنوى على السواء

ويبدو أن مذهب « كانت » الجمالى هو الذى أشعل اعجاب هيجل بالادب والفن الاغريقيين ، وجعله يبنى رأيه فيهما على أساس اتصافهما بالصفات الاربع التى اشترط « كانت » توفرها فى الجمال الخالد ، وهى بعده عن أى غرض او هدف ، وعالميته وخلوده واستثاره بالرضى التام العام ..

وينخدع فريق من الناس فى هذا الرأى ، ويؤمنون بصحته عندما يجدون أن الادب الاغريقى ظل صامدا لغوائل الزمن حتى اليوم .. ولكن لابد أن يلاحظ القارىء ـ وضعا للامور فى نصابها ـ أن الادب الاغريقى لم يحتفظ بالبقاء الى اليوم لقيمته الموضوعية ، ولكن لانه أثر قديم تعتز به الانسانية كما تعتز بغيره من الاثار الموروثة عن جدودها الاقدمين الذين خطوا الخطوات الاولى فى سبيل نقلها من الطور البدائى الى الطور الحضارى ..

وقد قيل ان قوس « أوليس » الهائلة لا تثير فينا اليوم أى انفال اذا قيست بآلات الدمار الحديثة .. ولكننا ننفعل بمغامرات « أوليس » على أساس أنها تثير ذكرى مرحلة عظيمة من مراحل تطور الانسانية ..



يظن بعض الناس أن صلة الادب بالعلم هى صلة التابع بالمتبوع ، أو هكذا ينبغى أن تكون . فاذا وصف العرب ، مثلا ، خيولهم ونياقهم وغيرها من وسائل تنقلهم ، فعلى شعراء اليوم وصف السيارات والقطارات ، والطائرات ومركبات الفضاء وما اليها من وسائل النقل التى ابتكرها العلم الحديث . واذا وصف الاولون ما يعانون من جو الصحراء القارى وجب على شعرائنا وصف آلات تكييف الهواء وما توفره لنا من متعة

فالادب الحديث المتطور فى نظر أولئك القوم هو الذى يلاحق المستحدثات العلمية ، ولا يعنى الا بوصفها ، بل ان هناك أناسا يذهبون الى أبعد من ذلك فى تطرفهم فيزعمون أن الادب الذى لا يجول فى الفضاء مع الصواريخ ، ولا يحوم بين الكواكب ، ويصفها على ضوء آخر الكشوف العلمية .. أدب أرضى مختلف ..

ونحن اذا تصفحنا تاريخ الادب وجدنا أن العلم استطاع ، فى أحيان كثيرة ، أن يغير على بعض الاعمال الادبية .. بل ان هناك افرادا من علماء اليونان والرومان والعرب ، مثل « يرمينيدس » و « لقريطس » و « ابن مالك » - نظموا بعض الموضوعات العلمية البحث شعرا ، أو شرحوها باسلوب أدبى ، وفى رأى الدوس هاكسلى أن قصيدة « هيسيود » المسماة : « الاعمال والايام » عبارة عن شعر فلسفى علمى خالص . ولكنه يرى - أى هاكسلى - أن العلم دائم التغير ، وأن الادب الذى يطرق موضوعات علمية يفقد قيمته حين تتغير تلك الموضوعات .

ومما جاء فى الكتاب المذكور (١) : «لقد ظهرت السيارات والقطارات والالات فى الشعر الحديث حقا ، ولكن هل يعنى ذلك ان هذه المبتكرات أثرت فيه فعلا !

ان شعر « هوميروس » يشتمل على وصف الخيل ، وطرق تربيتها ، والشعر المعاصر الذى يصف المبتكرات العلمية الحديثة يصفها بنفس طريقة هوميروس . فهو اذن لم يستحدث جديدا ! وتأثره بمبتكرات العلم ليس بالتأثر الذى نقصده ..

ونحن لا نسلم بأنه قدم جديدا الا اذا اهتدى الى منهج يصلح لتناول التجريدات العلمية ، وهذا لم يحدث الى الان ! » ..

---

(١) كتاب « الادب والعلم » ترجمة محمد على الشوباشى

ويلقى هاكسلى فى كتابة المذكور سؤالا يميط اللثام عن وجهة نظره ، وهذا السؤال هو : « أنستطيع ان نتبين من قراءة شعر ت . س . اليوت أنه يعيش فى عصر المبتكرات العلمية الحديثة ، ام لا نستطيع ذلك ؟ »

ويجيب الكاتب على سؤاله بالنفى .. وينتهى من ذلك الى ان الادب المعاصر لم يتأثر بعلم عصره ..

واول ما يلاحظ على هذا السؤال انه يبدأ بالتخصيص. ويحاول ان ينتهى الى التعميم .. هو سؤال يتعلق بالشاعر ت . س . اليوت وحده ، فى حين يريد سائله ان تتعلق الاجابة عليه بشعراء العصر جميعا . فكأنما اليوت يمثل شعراء العصر قاطبة ، أو كأن كل شعر معاصر لا يختلف فى شيء عن منظومات ذلك الشاعر . فاذا لم يتأثر ت . س . اليوت بعصره ، أى بعصر المبتكرات العلمية الخارقة ، فلا بد ان سائر شعراء جيله لم يتاثروا بعصرهم مثله ! ...

والملاحظة الثانية ان السؤال المذكور غير محدد ، والرد عليه غير دقيق ، فمهما يكن الرأى فى رجعية « اليوت » ، واستغراقه فى الغيبيات ، فمن المتعذر عزله عن عصره ، والجزم بعدم تأثره به ، وكل ما يمكن ان يقال فى هذا الصدد ان تأثر اليوت بعصره ليس عميقا ، وليس مباشرا ... ويلاحظ أخيرا على كتاب هاكسلى انه – فى مجموعه – لم يهتم بايضاح علاقة الادب بالعلم الا فى الحدود الشكلية التى ذكرناها ، ولم يتعرض الا لأثر العلم المباشر فى الادب ، فغفلا آثاره العامة التى نقلت مختلف أوجه النشاط البشرى – ومن بينها الادب ، الى المرحلة التقدمية التى بلغتها فى الايام الاخيرة .. وفى أغلب فصول الكتاب اقتصر المؤلف على وضع الادب مقابل العلم ، وشرح اوجه الشبه واوجه الاختلاف بينهما ، خاضعا فى

ذلك لديدين مفكرى الغرب الذين لا يفطنون الى علاقات الموجودات بعضها ببعض الا من حيث اتفـــاق بعض صفاتها او اختلافها . اما تأثر بعضها ببعض ، وتأثـير بعضها في بعض ـ من ناحية المفهوم الشامل لذلك التأثير والتأثر ـ فهو آخر ما يهتمون به .

وقد أخذ هاكسلى فى كتابه المذكور برأى نيدوشيفين فى الفرق بين الادب والعلم ـ وليست هذه أول مرة أو آخر مرة يقتبس فيها هاكسلى آراء من الفكر الروسى ـ ومما قاله فى ذلك : « مهمة رجل العلم ليست التحقق من صواب واقعة بعينها ، أو خطئها ، وانما هى الوصول الى تعميمات مجردة تنتظم جميع الوقائع المنتمية الى نوع واحد ، وتخضعها لمنطق معين متماسك ، أو لقانون عام . أما مهمة الاديب فهى التركيز على حالة فردية ، وتعمق فحصها الى الحـــد الذى يؤدى الى الرؤية الواضحة ، فأية واقعة محددة ـ سواء أكانت خاصة أم عامة ـ هى نافذة يفتحها الاديب على العالم .. ان العلوم الطبيعية ذات طابع تشريعى ، فهى تعنى بصياغة قوانين عامة لمستكشفات التجارب الفردية ، أما الادب فذو طابع تصويرى ، وغايته ان يتناول الوجود الفردى العشوائى الهلامى ويصوغه صياغة ادبية شـــديدة التنظيم .. »

ونحن نرى أنه أهتدى فى قوله هذا الى الصواب ، ولكنه لم يهتد اليه الا بعد ان استرشد برأى غيره .. فالادب يكشف العام عن طريق كشف الخاص ، ويمكن القارىء بذلك من الرؤية الواضـحة ، فمهمته اذن لا تختلف عن مهمة العلم ، وهى كشف حقائق الوجود .. أو ، كمـا يقول هاكسلى ، فتح نافذة على العالم ، وهنا تتضح الصلة الوثيقة بين الادب والعلم ، فكلاهما يحاول كشف الحقائق

الواقعية ، وان توسل كل منهما بوسيلة تختلف عن وسيلة الاخر .. وهنا تتضح ايضا صلة تطور الادب بتطـــور العلم ، فالادب يزداد قدرة على فهم الوجود بازدياد قدرة التقدم العلمي على كشف الحقائق ..

ولكن هذا الرأى يلقى اعتراضا عنيفا من جانب أعداء الحقيقة .. أولئك الذين يريدون للادب والفن أن يبقيا منعزلين عن الحياة ، مترفعين عن خوض معتركها ، سابحين فى متاهات الوهم .. وحجتهم أن الادب يشرح أثر الشيء فى النفس ، ولا يشرح حقيقته الموضـــــوعية . وطالما استشهدوا بأبيات كيتس التى لعن فيها من فسر قوس قزح ، فسلبه بذلك شاعريته .. واستطردوا فقالوا ان الزهرة عند عالم النبات هى ملتقى طائفـــة من القوانين الطبيعية .. هى مجموعة خلايا تنشأ وتفنى على اسس كيميائية ، ولكنها فى نظر الفنان كائن جميل متكامل .. وهذا القول يصدق على جميع الظواهر الطبيعية الجميلة

وقد عبر الدكتور زكى نجيب محمود عن رأيهم بقوله فى كتابه « الشرق الفنان » : هما نظـــرتان الى الوجود مختلفتان .. نظرة الفنان الذى يمس الكائنات بروحه — اذا صح هذا التعبير — ويقف عندها لانه ينشدها لذاتها ، ونظرة العالم النظرى الذى يضع بينه وبين الكائنات حاجزا من قوانينه ونظرياته .. ولهذا كانت النظرة العلمية دائما بحاجة الى تحليل وتعليل .. وأما النظرة الفنية فلا حاجة بها اليهما ..

وأول ما يلاحظ أن اصحاب هذه الوجهة من النظر يرون أن الادب — من شعر ونثر — فن جمالى لا يعنى الا بأثر الظواهر الطبيعية الجميلة فى النفس ، فاذا عنى بمشكلات الناس الدنيوية انحدر من برجه العاجى الى الحضيض ..

ويلاحظ ايضا أن الادب فى نظرهم وليد الادراك الحسى ، وأن الادراك العقلى يفسده ..

ونحن لا نستهين بقيمة الادب الجمالى ، ولكننا نعده مجرد زينة ، فهو فى ميدان الادب المختلف الانواع كالحديقة الى جانب القصر المنيف ، أو كالزهرية فى ركن غرفة الاستقبال الفخمة . ونحن نقر بأنه غير مطالب بشرح حقيقة الاشياء الجميلة ، فبحسبه وقعها من النفس

واذا كان انصار علم الجمال ينكرون اهتمام الادب بالمشكلات الاجتماعية ، فهم ـ كما هو معلوم ـ لا ينكرون اهتمامه بمشكلات الانسان الفرد .. بل انهم يرحبون بالادب الذى يبث اليأس فى قلوب الناس .. بالادب الذى يصور عذاب الانسان الضائع ، وتمزق روحه ، وتخبطه فى ظلمات اليأس دون أن يستبين بصيصا من أمل .. ولكن الا يحتاج تصوير تلك الاحاسيس الى ماينكرونه على الادب ؟. الا يحتاج الى تحليل وتعليل للمسببات والنتائج ؟.. ولكن الباطل يوقع صاحبه دائما فى التناقض

أما الاعمال الادبية التى تنظر فى مشكلات مجتمعها ، وتحاول التنقيب عن اسبابها الرئيسية ، وكشفها للعيان، فهى اشد حاجة الى الالمام بالحقائق الموضوعية ، والى تناولها بالتحليل والتعليل . واذا أنكر انصار علم الجمال هذه الاعمال خشية من نتائجها السياسية والاجتماعية ، فان انكارهم لها لا يقدم ولا يؤخر ما دام أن بصماتها هى التى تملأ صفحة التاريخ الادبى .. وحسبنا أن نذكر منها ، على سبيل المثال قصص بلزاك وديكنز وتولستوى ودوستويفسكى

***

انتقال العالم كله من عصر الى عصر يوم توصل

كوبرنيكس وجاليليو الى كشفهما العلمى العظيم ، وعرفنا الناس بحقيقة شكل الارض وموضعها من فلك السماء . فمنذ ذلك الحين توالت الكشوف العلمية ، واسفرت عن نتائج بهرت الانسانية ، فهل كان لذلك تأثير فى الادب ؟

قال عباس العقاد فى كتابه عن فرنسيس بيكون : كان الطموح والاستطلاع سمة العصر كله ، وكان العلم المنشود يومئذ بابا من ابواب الطموح والاستطلاع

وتوسع جون فريفيل فى شرح ذلك ، وبين أثره فى الادب اذ قال فى كتابه « الادب والفن فى ضوء الواقعية » : احتاج عصر احياء العلوم الى عمالقة ، فأنجب العمالقة .. عمالقة العلم والعاطفة والمعرفة .. واذا أردنا تفسير الازدهار الادبى والفنى الزاهر فى ذلك العصر فلا يكفى أن نثير موضوع ظهور العباقرة بالجملة . فمن أين استمد أولئك العباقرة هذا التحرق الى الاستطلاع ، وهذا التشبث بالبحث والتحليل ، وهذه الحاسة الادبية والنقدية المرهفة ، وهذا التفاؤل الظافر ؟.. ان كشف أمريكا ، وتمكن ماجلان من الدوران حول الارض ، والانتصارات التوسعية ، ونشر الكتب على نطاق واسع بفضل اختراع حروف المطبعة .. كل هذا وسع الآفاق والنوافذ ، وضمن التطور السريع للعناصر البورجوازية النامية فى المجتمع الاقطاعى المتدهور ، على أن المثل الفكرية البورجوازية التى كانت تنادى بالاختيار الحر وبقاء الاصلح ، وتقارع بذلك أمراء الاقطاع ورجال الكنيسة ظلت مؤمنة بحرية الرأى ، وحرية الكلمة المكتوبة ، وبمستقبل الادراك العقلى والعلوم .. وبمقدرة الانسان .. ان هذه السمات جميعها هى التى ميزت الاعمال الادبية والفنية فى عصر احياء العلوم ، وكانت وحيا لكبار الادباء والفنانين .. »

عندما صاح بيكون صيحته قائلا : « اطو الكتاب وافتح كتاب الطبيعة .. ينبغى ان يتبع الكتاب العلم لا أن يتبع العلم الكتاب » بدأ أهل الفكر والفن ينصرفون عن تقاليد التفكير القديمة ، ويتحولون من التأمل المجرد الى التمحيص العملى للواقع .. وبدأت عقلية الناس تتحول من عقلية وهمية الى عقلية واقعية تفهم الواقع على حقيقته . وادركت الطبقة المستقلة ان هذا التحول يكشفها على حقيقتها ، فأهابت بفلاسفتها ان يدحضوا تعاليم بيكون الثورية ، التى تكفلت بزعزعة الاقطاع ، ودفع عجلة التطور الى أمام، فراحوا يشككون فى وجود الواقع المادى ، أو ينكرون وجود الحقيقة الموضوعية ، ويزعمون أن الدنيا أوهام تمثل فى رءوسنا ..

وها هى ذى الرأسمالية المستقلة الحديثة لا تزال تتشبث بفلسفة الوهم وفن الوهم . ولم تكتف بذلك ، بل أخذت تشن حربا شعواء على العلم بعد أن رأت أن الفلسفة الواقعية تستعين به على كشف الحقيقة ..

زعم الرأسماليون ان العلم مسئول عن ازهاق الارواح بالجملة فى الحروب ، ولكن العقلية الواقعية تدرك انهم هم وحدهم المسئولون عن ذلك ، فهم الذين يشنون الحروب لتحقيق اطماعهم . وزعموا أن العلم مسئول عن طغيان الماديات على المعنويات ، وعن الاستخفاف بالمثل الاخلاقية والانغماس فى متع الدنيا الرخيصة . ولكن تمحيص الواقع يدلنا على ألا شأن للعلم بشىء من ذلك ، فهم الذين يتكالبون على الماديات ، ويستخفون بالمعنويات ، ويضحون حتى بالشرف فى سبيل الحصول على المال

واذا كان العلم قد اعان الفلسفة الجدلية الواقعية على ادراك الحقيقة ، فان الفلسفة بدورها أعانت الادب والفن

على ادراكها ، وهذا ما حدا أعداء الحقيقة الى محاربة اتجاه العلم والفلسفة والادب والفن الى الواقعية

ان العلم اذ يكشف كنه آية ظاهرة طبيعية ويفسرها يبدد الخرافة التى تغلفها . وكلما اتسع نطاق الكشف العلمى، ضاق بالتالى نطاق الخرافة . ولا مفر من أن يتأثر الادب بذلك فيتصرف تياره التقدمى عن التفسير الخرافى للوجود، ويتحول من أدب وثنى أسطورى الى أدب انسانى واقعى . وفى هذا المجال يظهر أثر العلم الرئيسى فى الادب والفن ..

الفصل الرابع

أثر الفلسفة فى الأدب

يرى بعض أدبائنا المتأثرين بالاتجاه الادبى الرجعى فى أوربا الغربية أن المذاهب الادبية آفة الادب . وسند ذلك الرأى أن الادب لا يزدهر الا فى ظل حرية مطلقة لا تتقيد بمذهب او اتجاه

ونحن نؤمن ايمانا راسخا لا يساوره أدنى شك فى أن الادب لا يترعرع ويثمر الا فى فسحة الحرية . ولكن ، أية حرية ؟ ... اننا نشفق على الحرية أن يخلط أولئك القوم بينها وبين الفوضى ... انهم يتحدثون عن حرية نظرية لا وجود لها فى عالم الواقع ... يتحـــدثون عن الحرية المطلقة التى لا يتقيد ممارسها بمذهب أو نظام ، ويزعمون أن الفنان الذى لا يتشبث بها ليس بفنان ... انهم ينادون بالبوهيمية الادبية التى لم يعد العصر الحاضر يستسيغها ، ويضعون تعريفا طريفا لكل من الفنان الحر والفنان العبد ، فالاول من لا مذهب له ، والثـانى من يستمسك بمبدأ يؤمن به ويدافع عنه

ولم يقتنع أولئك الادباء برد معارضيهم ، وهو أن كل اتجاه فى الادب والفن يستند الى مذهب فلسفى بذاته ، ويستمد منه عناصره وكيـــانه ... حتى الاتجاه الذى

ينادون به يستند الى المذهب الفوضوى ، ويستهدف أهدافه ..

ان اولئك الادباء ، وهم دعاة مذهب الفن للفن فى الادب، يدينون بالمذهب الذاتى فى الفلسفة ، فيغفلون عن الصلة المتوشجة بين الفرد والواقع المحيط به ، وعن تأثر كل منهما بالآخر ، ويحسبونه ـ أى الفرد ـ وحدة مستقلة لها أفكارها وأحاسيسها النابعة من وجدانها وحده .. فهو على ذلك غير مرتبط بما حوله ، وغير مقيد بقيود من حوله ، ولا شأن له بشواغلهم واهتماماتهم ... بل عليه أن يغمض عينيه ويصم أذنيه عن هذه الشواغل والاهتمامات حتى لا تشوب استقلاله وحريته شائبة

ويقابل هذا المذهب الذاتى مذهب «الجدلية الواقعية» الذى يؤكد صلة الفرد بمجتمعه ، وبالواقع المحيط به ، وصلة أفكاره وأحاسيسه بذلك المجتمع والواقع ... ان الفرد وليد مجتمعه وعصره ، وكذلك أفكاره وأحاسيسه تتولد منهما . وهذه الافكار والاحاسيس تتضاءل وتفقد كل مضمون ذى قيمة بمقدار انعزال صاحبها عن مجتمعه؛ فى حين أنها تقوى وتعمق وتزداد قيمة بمقدار اشتداد صلته بمجتمعه وتأثره باتجاهاته الفكرية والعاطفية ، ومشاركته لها فيها

ويترتب على ذلك أن الكاتب الذى يدين بالمذهب الذاتى ، يستقى أفكاره من ذهنه ، ويتوسل الى ذلك بالتأمل المجرد ، ومن ثم تجيىء أفكاره انعكاسا باهتا لما اختزنه ذهنه من أفكار حصلها عن طريق القراءة أو السماع ، أو عن طريق تجارب قديمة انطمست معالمها . أما الكاتب الذى يدين بالمذهب الجدلى فينفعل بالواقع المحيط به ، ويستقى منه أفكاره وأحاسيسه ، وينسقها بحسب ما يتطلبه الفن ، ويفرع منها ما يفرع بحسب

ما يستطيعه الابتكار ..

وليس أمام الاديب أو الفنان غير هذين النهجين ، ولا مفر من اتباع أحدهما. بيد أن كليهما مر على كر العصور بمراحل متعددة ، واتخذ أشكالا مختلفة .

فالادب الاسطورى القديم كان يعكس الوجود الواقعى على غير حقيقته ، كان يعكسه على النحو المموه المرتسم فى مخيلة مجتمعه القليل المعرفة ، القاصر الادراك العقلى فهو لذلك يعد — على الرغم من اعتراض المعترضين — أدبا وهميا لا علاقة له بالواقع . واذا كان هناك باحثون يأخذون بهذه الوجهة من النظر ، فأغلب الباحثين الغربيين يرون أن رموز الادب الاسطورى القديم تستهدف الواقع . وهناك مفكرون يقفون من هذين الفريقين بين بين ، ولا يقطعون فى الامر برأى . وقد انضم اليهم عباس العقاد فقال فى كتابه عن فرنسيس بيكون ص ١٨٥ « أما أن جميع الخرافات والقصص التى نظمها الشعراء كانت لهوا ، ولم تكن رموزا وعظات ، فذلك ما أمسك عن ابداء الرأى فيه ، ومن هؤلاء الشعراء الذين بقيت آثارهم هومير نفسه .. وقد جعله بعض المتأخرين ضربا من التنزيل ! فلا صعوبة فى القول بأن خرافاته لا تنطوى على دخائل المعانى التى تنسب اليه ... »

ولا نكران أن مؤلفى الملاحم الاسطورية القديمة لم يكونوا منعزلين عن مجتمعهم ، أو مشتغلين بميولهم وآرائهم الخاصة ، بل كانوا يشاركونه فى معتقداته ، ويقاسمونه آماله وآلامه ومخاوفه ، ويعبرون عن هذه وتلك فى أعمالهم الادبية ... انهم لم يكونوا انعزاليين بحسب المفهوم الحديث لمذهب الفن للفن ، ولكنهم لم يكونوا أيضا واقعيين مادام أن المجتمع الذى عبروا عن أفكاره وأحاسيسه لم يكن كذلك

وطلعت البشائر الاولى للاعمال الادبية الواقعية في الجزيرة العربية ، فلأول مرة في تاريخ الادب اهتم الشعر بامتحان الواقع ، ومحاولة ادراكه على طبيعته ، وتصويره على حقيقته ، وتحليل العواطف الانسانية المتأثرة بالواقع الحقيقى ، الخاضعة لضابط الادراك العقلى السليم ...
وكان أهم أنواع الشعر العربى فى ذلك الوقت شعر الغزل، وشعر الفخر . فأما النوع الاول فهو ذاتى ، ولا ضير في ذلك ما دام أنه صادق التعبير عن العواطف الانسانية السليمة ، غير مشوب بشائبة الانعزال عن المجتمع ...
وأما النوع الثانى فبعضه ذاتى أيضا ، وهو الذى يزهى الشاعر فيه بنفسه ، ويفاخر بشجاعته ونخوته ونجدته وسائر شمائله وسجاياه ، وبعضه اجتماعى ، وهو الذى يكرسه الشاعر لمجتمعه ، أو لقبيلته ، فيعبر عما يخالج أفرادها من مشاعر ، وما يساورهم من خواطر ، ويؤكد صلته الوثيقة بها ، فهو جزء لا ينفصم عنها ، وخواطره ومشاعره وأخطاؤه وتوفيقاته مستمدة جميعها منها .

وهل أنا الا من غزية أن غوت
غويت وان ترشد غزية أرشد

وكانت قصة « عنترة » أول قصة عالجت مشكلة اجتماعية ذات خطورة ، وهى مشكلة الجنس والطبقة ، وكذلك كانت قصة « كليب » أول قصة اهتمت بالتطور التاريخى فسجلت احدى مراحله ، وهى مرحلة الانتقال من العصر القبلى الى العصر الاقطاعى

ومن قبيل تحصيل الحاصل أن نقول ان واقعية الادب العربى القديم كانت بدائية بالنسبة لمفهوم الواقعية الاشتراكية الحديثة التى تولى عنايتها الرئيسية لحركة التطور المتولدة من الصراع بين المتناقضات

وتأثر شعراء أوربا فى العصر الوسيط بالادب العربى ،

فنظموا شعرا عبروا فيه عن عاطفة الحب ، وشببوا فيه بالمرأة . ثم جاء شعراء عصر النهضة ومن تلاهم فعبروا في مسرحياتهم ، وسائر أعمالهم الادبية ، عن ميول البورجوازية ومطامحها ، وسخروا من معتقدات الاشراف واهتماماتهم

وما انتصر البورجوازيون على الاقطاع حتى أرادوا أن يتمتعوا بحريتهم المستردة الى أقصى حد ، فنادوا بالصراع الحر ، والاختيار الطبيعي ، وبقاء الاصلح . وسعى المتسلحون بالمال والسلطان الى تحقيق مطامحهم ، ونالوا فوق ما تمنوا ، ولكن الطمع لا يشبع ولا يرتوى ... واستفحلت العصامية ، واشتد الايمان بالفردية ... ومن ثم ظهرت القصص التى تشيد بالبطولة والابطال ، وتضع البطل فوق المجتمع ، وتنسب اليه القدرة على الاتيان بالمعجزات . واذا الصورة التىتعكسها له أشبه بصورة بطل الاساطير ، واذا هى تبتعد كل البعد عن الواقع الحقيقي ، وترتد الى الوراء فتشبه قصص عصر الجهل والخرافة

ونهج كاتبو سير الشعراء والقصصيين والقادة نهجا شبيها بنهج تلك القصص ، فأنكروا ما بين هؤلاء وعصرهم من صلة ، ومن تأثر متبادل ، وفسروا أعمالهم على أنها انعكاس لشخصيتهم ونفسيتهم . ومما وقع تحت بصرى بهذا الصدد بحث فى شعر أبى نواس لكاتب عربى معاصر نحا فيه هذا المنحى ، وقال عن ذلك الشاعر انه كان حاد الطبع ، عصبى المزاج ، قلقا متقلبا مترددا ؛ يحاول اكتساب الشهرة باعتناق كل طريف من الآراء ، وارتكاب كل غريب من الافعال . وقد يثير فضيحة أو « جرصة » فى سبيل تلك الغاية ، وهذا يفسر منهج أبى نواس الشعرى ....

ولسنا ننكر ما لنفسية الشاعر من أثر في شعره . ولكننا لا ننكر أيضا - استكمالا لتفسير الواقع - تأثير مجتمعه وعصره ... فلو عاش أبو نواس في مجتمع غير مجتمعه ، وفي عصر غير عصره ، لاختلف عن أبي نواس الذي نعرف . فالذي يلتمس الشهرة في عصر اللهو عن طريق المجون يلتمسها عن طريق الجد في عصر يسود فيه الجد ، ويأنف فيه الناس من المجون ، ويحاسبون عليه أصحابه أو يهملونهم ... ثم ان طبع أبي نواس ، حتى ولو كان وراثيا ، لا يستطيع ان يحتفظ طويلا بالبقاء في بيئة لا تلائمه .

تطور الادب عبر القرون متأثرا بالنظرة الفلسفية الى الوجود . فما هب من عالم الفلسفة تيار جديد يشجب المذهب التأملي ، ويقول بضرورة استعانة الفلسفة بالكشوف العلمية للوصول الى التفسير الصحيح للوجود حتى هب كذلك تيار ادبي ، مشتق منه ، يشير على مبدعي الادب ألا يعتمدوا في ابداع آياتهم على التأمل المجرد ، بل عليهم - اذا أرادوا أن ينتجوا أدبا حيا قيما - أن يتصلوا بمعترك الحياة اتصالا مباشرا ، ويتبينوه على حقيقته ، ويستخلصوا منه ، كما قلنا موضوعاتهم وافكارهم

ولابد للوقوف على حقيقة التيارات الفلسفية والادبية الحديثة أن نعود ثانية الى عصر النهضة ، وأن نلم المامة سريعة بما استجد في ميدان فلسفته من مذاهب.

كان فرنسيس بيكون أول من حمل حملة شعواء على الفلسفة التأملية ، ونادى المفكرين - كما قلنا في الفصل السابق - أن يطووا كتبهم ، وأن يفتحوا كتاب الطبيعة ..

وكان من الطبيعي أن يتصدى لهذه الثورة الفكرية المنذرة بتغيير الاوضاع ، كل من تتطلب مصلحته بقاء الاوضاع على ما هي عليها ، وأن يستنهض فلاسفة عصره

الاضطلاع بدحضها . ولم يلبث « هوبز » و « لوك » ان تطوعا لهذه المهمة ، وبنيا معارضتهما لفلسفة بيكون على التشكيك فى حقيقة الوجود المادى الواقع خارج ذهن الانسان .. قالا ان الانسان يدرك العالم المادى القائم حوله بحواسه ، فهى التى ترسم فى ذهنه صورة ذلك الوجود المادى ، ولكن حواس الانسان قاصرة ، ولا يمكن ان يطمئن الى ان صورة الوجود التى تنقلها الى الذهن مطابقة للاصل .. ولو أنها خلقت على نحو آخر لنقلت الى الذهن صورة للوجود مختلفة عن صورته الحالية ..وعلى ذلك تكون محاولة دراسة الوجود المادى الواقع خارج الذهن غير مجدية ، ولا مفر من أن تقتصر الدراسة على الوجود الماثل فى ذهن الانسان .. وليست هناك وسيلة لذلك الا التأمل المجرد

ولم يشأ الفيلسوف « بيركلى » أن يقف عند هذا الحد ، بل جمح به الخيال كل الجموح ، فأنكر وجود المادة ، وقال ان الوجود المادى الذى نتمثله غير موجود خارج ذهننا أصلا ، فهو وهم تعكسه على ذهن الانسان حواسه المضطربة . ولعل خير وسيلة لتقريب هذه النظرية الى الفهم هى ان نضرب السراب مثلا ، فالسائر فى الصحراء يراه ماء وهو ليس بماء ، ولكن بيركلى لا ينسب مثل هذه الظاهرة الى انعكاس الاضواء ، ولكن الى اضطراب الحواس !

ونسج الفيلسوف الالمانى « كانت » على هذا المنوال اذ زعم ان الذات لا تستطيع ان تتجاوز نطاق الحواس وهى لذلك تعجز عن ادراك الموضوع الواقعى ، ويكون المظهر الموضوعى هو القابل وحده للمعرفة .

وكذلك يؤدى مذهب « فيخت » الوهمى الى استبعاد الموضوع الواقعى ، والانحصار فى الذات او « الانا »

أى أنه ما دام لا يوجد واقع مادى خارج ذهن « فيخنت » ـ او غيره ، فيكون هو وحده الموجود ! ..

وتأثرت بعض الاعمال الادبية بهذه المذاهب الفلسفية الوهمية ، ولم تلبث ان تكاثرت وتنوعت وتفرعت ، وأصبحت لها ايضا مذاهب أدبية متعددة ..

ونختار من ادبنا المعاصر مثالا لتلك الاعمال لعله يلقى الضوء على ما نحاول شرحه ..

فى مسرحية «رحلة قطار» ـ وهى لاحد كتابنا المرموقين ـ يرى السائق امامه نورا احمر ينبثق من اشارة المرور ، فيوقف القطار ، وينزل منه وينزل الركاب ويسألونه عن سبب وقوفه ، ويومىء الى « السيمافور » ، فتتجه اليه الانظار ، ويوافق بعضهم على أن النور أحمر فعلا ، ويراه بعضهم أصفر ، فى حين يراه اخرون اخضر .. وبعد أن يستأنف القطار سيره يتضح للجميع أنه لم يكن هناك نور أصلا ..

هذا مثال للعمل الادبى الذى تأثر بفلسفة « بركلى » فأنكر الواقع الموضوعى ، وهو ليس بدعة فى عالم الادب، فالشعراء والكتاب الذين يدينون بالوجودية والسريالية والتأثرية وما شاكلها لا يسألون انفسهم عن حقيقة الواقع، ولا يشغلون به ، فكلّ ما يعنيهم منه هــو اثره .. هو الصورة المنعكسة منه على نفوسهم واذهانهم ، أما مطابقة هذه الصورة له فلا تعنيهم فى شىء .. ان الحقيقة عندهم هى القائمة فى أذهانهم ، أو المتمثلة فى وجدانهم ، وليس ثمة حقيقة غيرها ..

ولكن التقدم العلمى يدحض تلك المذاهب الفلسفية التى تنكر وجود الواقع المادى ، أو تراه يخالف الصورة المنطبعة عنه فى أذهاننا .. وهو ، أى التقدم العلمى ، يقيم على مر الايام براهين متعاقبة قاطعة بأن العالم المادى الموجود خارج

الذهن مطابق لصورته التى نتمثلها . وها هى ذى المقاييس التى يبتدعها العلم باطراد ، والنتائج التى يؤدى اليها كل كشف علمى ، تنفى أى شك يقوم حول هذه الحقيقة ..

ثم ان الطبيعة فتقت عينى الانسان ليتبينها بهما على حقيقتها ، ولهذا أيضا خلقت له سائر حواسه ، ولولا أن الانسان استطاع بحواسه أن يرى الوجود على حقيقته لتخبط فيه خبط عشواء ، ولما وفق فى مساعيه الدنيوية كل هذا التوفيق .. لولا ان السائق يرى نور الاشارة على حقيقته لاصطدم قطاره وتهشم من اول رحلة ..

لقد فتحت الشعوب عينيها ، وأرادت أن ترى الحقيقة فرأتها .. أرادت أن تدرك أسباب شقائها فأدركتها ، وأن تعرف مسببى شقائها فعرفتهم .. وهيهات أن يستطيع أحد اسدال غشاوة الجهل على عينيها مرة أخرى ، وتمويه الحقيقة عليها ، وارجاعها الى عصر الظلمات .. وقد تمكن بعضها من تحقيق الاشتراكية فضمن اطراد تقدمه وارتقائه فى كل مجال بعد تخلصه من الذين حالوا دون ذلك فيما مضى ..

وفى هذا الصدد نذكر قول جون فريفيل : ان تقدم المعرفة فى ظل النظام الاشتراكى كفيل بتقدم الفن والادب لانه ينمى وعى الانسان ، ويعمق احساسه ، ويحيل قدرة حواسه البدائية الى قدرة اجتماعية

ولكن فلاسفة الرأسمالية يزعمون — كما قلنا — أن تقدم المعرفة ، ونمو الادراك العقلى ، يفسدان الادب ، بل يديلان دولته .. وقد حاولوا أن يتخذوا من اعجاب بعض الناس بالادب الاغريقى الاسطورى سندا لزعمهم ومهدوا لذلك الزعم الباطل بزعم أشد منه بطلانا .. وهل هناك قول أشد بطلانا من قولهم أن الأدب الحقيق

بالتقدير هو الذى يتولد من ادراك الانسان للوجود بالحس دون العقل ؟ .. ان باعث الادب فى زعمهم هو الوهم المتولد من حس مضطرب ، أما أدب الحقيقة فليس بأدب !! انهم يريدون من الادب أن يغمض عينيه عن الحقيقة ، ويعكس للناس الوهم فيشغلهم به عنها .. وما دام الادب الاغريقى وليد حس مضطرب لا سلطان للعقل عليه فهو وحده الجدير أن يعترف به ، وأن يتخذه الادباء نموذجا ينسجون على منواله

وقد تأثر لفيف من أدباء الغرب بهذا التمويه — ومن الاسف أن بعض أدبائنا انخدعوا فيه — وحاولوا أن يحاكوا الادب الاغريقى ، ولكنهم أحسوا أن هذه المحاكاة لا تكون مقبولة اذا التزمت الاصل التزاما ، أو اذا بدت للناس مكشوفة ، فخلعوا على الادب الاغريقى رداء جديدا يخفى قسماته ، ويلائم ذوق العصر .. وما الادب الوجودى والسريالى والتأثرى الا بعثا لذلك الادب العتيق فى صور عصرية ..

واذا أردنا أن نبصر القارىء بالقيمة الحقيقية لأدب الوهم وأدب الحقيقة ، وأن نبين أثر كل منهما فى ترقية الشعوب فان سجل التاريخ الادبى ييسر لنا هذه الغاية ..

نمت الفلسفة الاغريقية متأثرة فى بادىء أمرها بالفلسفة المصرية القديمة ، ثم استطاع بعض مفكرى الاغريق تخليصها شيئا فشيئا من ربقة الديانة الوثنية ، وبعد سلسلة من التطور جاء أرسطو فنحا فى بعض أعماله الفلسفية منحى واقعيا ، واعتمد أحيانا على الاستقراء — فى بعض بحوثه البيولوجية والنفسية — الى جانب اعتماده على القياس . وكان ذلك كفيلا بأن يوقظ العقول من سباتها ؛ ولكن الادب الاغريقى الاسطورى كان قد

ثبت المعتقدات الوثنية فى الاذهان الى حد أن الفلسفة الارسطالية المستنيرة لم تستطع أن تبدد غيومها

وانتشر ذلك الادب الاسطورى فى أوربا خلال العصر الوسيط فزاد الناس انعزالا عن الدنيا الواقعية ، وانغماسا فى دنيا الاوهام والخرافات ، وظل العصر الوسيط فى أوربا عصر الظلمات حتى سطع الادب العربى فى سمائها ونشر النور فى ربوعها ، وفتح أمامها طريق التقدم الحضارى ..

ولا يتعجل القارىء الاعتراض ، فنظرة الى تاريخ الادب العربى ، والى رحلته لاوروبا تؤيد ما نقول ..

لقد تحول ذلك الادب ، كما سبق ان قلنا ، عن عالم الاساطير الى عالم الواقع بعد أن ازدهرت التجارة فى البلاد العربية ، وانتشرت قوافلها فى مختلف بلاد العالم المعروف وقتذاك ، فاتصل العرب بأمم مختلفة الافكار والعادات والميول ، وأحدثت رحلاتهم المتوالية الى البلاد الاجنبية أثرها ، فاتسع أفقادراكهم ، واشتعل خيالهم ، ونمت معارفهم وعلومهم ، وساعدهم على ذلك ذهن أصيل عكست عليه طبيعة بلادهم صفاءها ، وهمة ماضية شحذتها خشونة حياتهم القاسية .. وما بلغ ادراكهم العقلى الرشد حتى استعانوا به على فهم الوجود الواقعى بدلا من استعانتهم بالادراك الحسى . وسار شعرهم على درب التحول فراح يصور لهم الواقع المادى والمعنوى المحيط بهم تصويرا صادقا أمينا ، فيزيدهم انصرافا اليه ، والماما به ، وادراكا لكنهه ، وهكذا طلع على العالم أدب انسانى يخدم الانسان بتحليل مشاعره ، وتبصيره بحقيقة تصوراته ، وحقيقة الحياة التى يحياها ، وكنه الصراع الذى يدور فى معتركها ..

ولم يلبث التقدم فى ميدان المعرفة ، وميدان الادب أن

هذب النفوس الكريمة وطهرها من نزعات الجسد ، فعرف العربى الحب العذرى ، ولم يلبث أن عبر شعراء العرب عن ذلك الحب ، فظهر شعر الغزل العربى فى عالم الادب ، وقد اعترف كثيرون من المفكرين الغربيين بأن هذا الشعر هو الذى رقق مشاعر الاوربيين ، وهذب نفوسهم ، وصعد بهم فى مدارج الرقى ، فهم فى الواقع مدينون له بحضارتهم ..

هذا هو تاريخ الادب العربى الذى تأثر بنمو الادراك العقلى ، وتقدم المعرفة ، وذاك هو تاريخ الأدب الاغريقى الذى بقى أسيرا فى ربقة الجهل

ويحسن أن نثبت هنا شيئا مما قاله بعض الباحثين الغربيين المنصفين فى هذا الصدد .. قال روبير بريفو فى كتابه : « التروبادور والعاطفة الرومانسية » ص ٨٤ :

« ان فلسفة الفضيلة .. فلسفة الحب التى طال ارتباطها بالشعر العاطفى البروفانسى المقتبس من الاندلس، والتى سادت دوائر الحب فىالجنوب الفرنسى ، استمدت منالاسلام أصولها.. والشعراء البروفانسيون المتتلمذون على الشعراء العرب ، ظلوا يستغلون الصوفية ، ويستعينون بمذاهب الطهر العربية ، ويستمدون منها معانيهم العاطفية .. »

وقال « لوى جيليه » فى كتابه عن دانتى : « حقق الشعراء التروبادور ــ المتتلمذون على الشعراء العرب ــ عملا خارقا للعادة .. اتجهوا بشعرهم الى المرأة ، ورفعوها الى مرتبة التقديس ، وأحدثوا بذلك ثورة أدبية بالغة الاثر ، فخدموا الاجيال المتعاقبة ، ونقشوا المعالم الاساسية للحضارة فى أفئدتنا ، وأحدثوا فى عالم الادب تغيرا كليا . ان ذلك النوع من الحب الذى عبروا عنه ــ وهو منقطع الصلة تماما بعواطف جيلهم ــ ابتداع

معنوى حقيقى ، لقد أصبحت المرأة دنيا .. أصبحت عقيدة .. »

وقال بريفو ، فى كتابه المذكور ، عن شعر الغـزل العربى : « انه يمجد الحب بحسبانه أسمى الوان السعادة ، ومصدرا لأشرف أنواع الالهام .. ولا يستطيع المرء أن يزعم أن منظومات التروبادور ترقى الىمستواه »

وقال « اميل لوكا » عن الشاعر البروفانسى « برنار دى فينتادورن » ، (فى كتابه تطور الحب) : « .. هو أسبق زملائه الى الاحتفال بالحب الطاهر . وهو بذلك صاحب أكبر فضل على الحضارة الاوربية .. »

وقال نيكلسون فى كتابه « تاريخ الادب العربى » . « ليست المشاعر الرومانسية التى تجلت فى أغانى الحب، والتى حلت فى العصر الوسيط محل الروح الحربية .. وليست خلجات التأثر بجمال الطبيعة الا انعكاسا لملامح الشعر العربى الاندلسى الذى هو أقرب الى مخاطبـة الذوق الاوربى .. »

ونختتم ما تقدم بقول بيير ديكس فى معرض مقارنته بين الشعر البروفانسى الذى يحاكى شعر الغزل العربى، وبين منظومات الاغريق الملحمية : « ليقل المرء ما يشاء عن هذه الانسانية المستفيضة التى فجرتها مفاتن الطبيعة، وعن الجدة اليانعة فى ذلك الشـعر المنقطع النظير .. لا سيما حين يصف اضطراب قلب المرأة اذ تقع فى حبائل الحب .. ان عظمته لا تتصل من قريب أو بعيد بذلك القلق الذى ينتاب الانسان خوفا من القضاء المكتوب ، وانما تقوم على الايمان بالحياة ، والتغنى بسحر الربيع .. لقد تبدل العالم الاغريقى الوثنى فى ذلك الشـعر الجديد ، وبدأ صوت المرأة يتردد خلال ابياته ، فى حين لم يكن هذا الصوت يعلو فى الشعر القديم الا ليناى

بالويل والثبور ، وعظائم الامور .. »

نلخص ما تقدم فى أن الاعمال الادبية كانت فى نشأتها الاولى أسطورية ، ولا ضير فى ذلك ما دام أنها كانت تعكس تصورات مجتمعها البدائى .. ولا نحسب أن أحدا يجحد أهمية أدب الاغريق ، ولا يرجع ذلك الى قيمته الموضوعية ولكن الى قيمته الاثرية بحسبانه ثمرة أول تفتق لموهبة الانسان الفنية ..

وخطا الادب فى طريق التقدم خطوة بعد خطوة مسايرا اتساع معارف الانسان ونمو وعيه . وكان يزداد فى كل خطوة اقترابا من الحياة الواقعية ، وتطلعا الى شرحها على حقيقتها ، وتفسيرها عقليا لا حسيا .. وقد أعانه على تحقيق ذلك تقدم الانسانية فى ميدان العلم والفلسفة .. فما بلغ أولى مراحل الرشد حتى أبى أن يظل أداة للترويح عن العاطلين، وترويج فلسفة اليائسين ، وتثبيط همم المناضلين . وسرعان ما نزل من سبحات الاوهام ، وخاض معترك الحياة .. وبث فى الجزيرة العربية همم فرسان القبائل ، وأعانهم على الذود عن حياضهم ، ونجدة أصدقائهم وجيرانهم ، واسترداد حقوقهم المهضومة .. وهذب الحب فجعله منبعا للفضائل ، وحافزا لانبل الغايات ، ووسيلة لانتقال الانسان من عصر البربرية الى عصر الحضـــارة .. وفطن أدباء غرب أوربا لقوة أثره فاتخذوا منه سلاحا ينازلون به الاقطاع ، ويدكون صرح دولته . واستطاع « سيرفانتيز » أن يحسن استعماله فى السخرية من الفرسان النبلاء ، والنيل من هيبتهم ومكانتهم . واستعان به « كورنى » على تمجيد الفضائل، وتزيينها فى عيون الناس ، وحثهم على الاستمساك بها ، والاضطلاع بجلائل الاعمال ، وتحقيق الامجاد .. وصاغ راسين من ذخائر الادب مسرحيات أشاد فيها بالجد ،

وندد بالحب ، فالحب فى ذلك الاوان كان لهوا يلهو به النبلاء والاشراف .. وفضح « بلزاك » فى قصصه دنايا الرأسماليين، وأساليبهم الاستغلالية ، فخضد شوكتهم ، وقرب أجلهم ، وكشف « دستويفسكى » مدى بؤس الشعب الواقع فى قبضة الحكم القيصرى الفاشم فمهد سبيل الثورة عليه

ويطول بنا الحديث لو شرحنا بلاء الادب فى معترك الحياة ، ومساهمته الفعالة فى دك عروش الاستبداد والاستغلال ، وهو الان ، بواقعيته الاشتراكية يعين على بناء الحياة السعيدة المأمولة .. واذا حاولت أبواب الرأسمالية أن تكبحه ، أو تبعده عن ميدان النضال ، فلتعلم أن المارد انطلق من قمقمه منذ زمن بعيد ، وهيهات أن يعود اليه ثانية

الفصل الخامس

الأدب والحياة السياسية

اذا قال قائل ان ثمةعلاقة وثيقةبين الادب والاقتصاد، أو بين الادب والعلم ، أو بينه وبين السياسة ، عجب أناس لهذا القول .. وانكره آخرون ، وثار عليه فريق ثالث مؤكدا وجود عداء مستحكم بين هذه المتناقضات . ومرجع هذا العجب والانكار والثورة الى فكرة محصلها أن الادب ينبعث من وجدان مبدعه ، ويستمد الحيوية والجمال من شعوره وتصوره ، فكيف تكون هنالك اذن علاقة بين الادب ، وهو من حاجات الروح ، وبين الشواغل الدنيوية ، وهى من حاجات الحياة الارضية ؟ ..

وقد فات هؤلاء ان معنويات الحياة ، كما قلنا تنبع اصلا من مادياتها ، وان هذه وتلك متداخلة متوشجة ، يستمد بعضها وجوده وازدهاره من بعض .. وليس ثمة شىء فى الوجود ، سواء أكان ماديا أو معنويا — منقطع الصلة بغيره من الموجودات ، منعزلا فى فراغ .. ألم تنبت الفضائل لتجابه الرذائل ؟ ألم تنبثق فكرة الحق والخير لتقاوم الظلم والشر ؟ .. أليس من أهداف العدالة تنظيم العلاقات المادية بين الناس ، وتهيئة الجو

للازدهار المادى ؟ ... ثم الا تستهدف النظم السياسية تمهيد السبيل للتقدم الاقتصادى ، فتبقى مادامت ملائمة لذلك التقدم ، وتنهار متى أصبحت عقبة تقف فى سبيله ؟ ..

ان كل نظام سياسى يخدم مصالح طبقة اجتماعية تتعارض مصالحها مع مصالح سائر طبقاته . اما النظام الاشتراكى فيتوخى ازالة الفارق الطبقى بين الناس ، ورفع مستوى معيشتهم ، ومراعاة مصالحهم جميعا . ومن الطبيعى أن يكون لكل أديب رأى فى نظام بلده ، وأن يميل اليه أو ينفر منه . ولكن ليس طبيعيا أن يظل هذا الرأى والميل مكتومين فلا ينعكس لهما أثر فى أعماله الأدبية ..

ومن التعنت أن ننعت كل أديب يشيد بنظام بلده السياسى ، ويصور الحياة السعيدة التى يعيشها مجتمعه فى ظله — بأنه أدب دعاية ، أو أدب مذهبى . وما أشد خلط بعض نقادنا بين أدب الدعاية والادب المذهبى ؟! ..

ان بيننا نقادا يتعمدون هذا الخلط عن غرض ، وقراء يميلون الى تصديق أولئك النقاد ، ولكننا لا نكتب ما نكتب لهؤلاء ، ولكن للقراء الحسنى النية ، المستعدين لكد أذهانهم فى سبيل الوصول الى الحقيقة دون التشبث بآراء وهمية علقت بأذهانهم من قراءتهم لبعض البحوث الادبية الغربية المغرضة ، أو استماعهم الى الأحاديث التى تصك آذانهم فى مجالس اللهو الادبى

وهناك مع ذلك رأى مشترك بيننا وبين أولئك النقاد يرددونه ونحن لا نكاد نخالفهم فيه ، مؤداه أن الانتاج الادبى والفنى تعبير عن آراء منتجيه ، وتصوير لمشاعرهم المتولدة من تجارب ذاتية

من هذه البداية نبدأ بطرح سؤالنا : هل تتبدل آراء منتج الادب والفن فى مشكلات الحياة ؟ وتتباين مشاعره من رضى وسخط ، وحب ونفور ، كل حين وحين بلا ضابط ؟ أم يخضع تبدلها لمذهب أو لمبدأ يعتنقه ؟ أليس لكل انسان فلسفة فى الحياة ومذهب ؟ .. نحن نعرف ان كثيرين سيندفعون الى الاجابة على هذا السؤال دون ترو ، ويقولون : « لا ، فهناك فريق من الناس لا مبدأ لهم فى الحياة » . ولكن لو تروى هؤلاء المتعجلون لادركوا أن الذين يبدون فى نظرهم بلا فلسفة ، وبلا مذهب ، هم الذين يدينون بفلسفة الانانية والانتهازية ، واشباع الرغبات دون ما نظر الى ما يترتب على ذلك من اضرار بأنفسهم وبالاخرين ، واذا عاد المعترضون فقالوا ان هذا الاتجاه لا يعد مذهبا أوفلسفة بحال ، فنحن نكتفى باحالتهم الى مذاهب يقرون بأنها فلسفية كالفلسفة الابيقوريةفى العصر القديم ،والفلسفة البرجماتية الامريكية فى العصر الحديث لندلهم على أن لهذا الاتجاه صروحا من الفلسفات ــ ولو أنها صروح من ورق ..

ونسارع الى موضوعنا الاصلى فنقول ان معتنقى الفلسفة الذاتية النفسية هم دعاة « مذهب » الفن للفن الذين يدعون التحلل من كل « مذهب » ــ يلاحظ أنهم يطلقون اسم « مذهب » على اتجاههم ، ثم يحملون على الادب « المذهبى » ــ معللين ذلك بحرصهم على « حرية الادب » التى تتنافى مع التقيد بأى مذهب من المذاهب! .. أما غير هؤلاء فهم الذين يقرون بأن لهم مذهبا فى الحياة يعتنقونه ، ويلتزمونه فيما ينتجون من أدب وفن ..

ونستطيع أن نقول لمن اقتنعوا بهذه البديهيات

انه لا يوجد أدب وفن غير مذهبيين ، فلا داعى لمـــــا يبدون من تقزز وتشنج كلما عرضت لهم عبارة الفن أو الادب المذهبى ..

واننا نحس كذلك أن هناك قراء تجول الان بأذهانهم فكرة « الادب الحيادى » التى يحاول مروجـــوها أن يفرضوا على منتج الادب والفن أن ينظر الى الحيـــاة نظرة حيادية سلبية عند تصويره لمشكلاتها ونقائضـــها المتضاربة مهما تكن حماسته لمذهب معين فى الحياة ! . ان هذه الفكرة وهمية لم يحققهـــا مؤلف قط ، ولن يستطيع تحقيقها ابدا ، فكلّ انســان لا يتأمل ظواهــر الوجود ، ولا يدرك مشــكلاته ، ويفطن الى اتجاهاته الا على ضوء مذهب معين حتى ولو كان مذهب الفـــردية الانتهازية النفعية . واذا بدا للناس محايدا ازاء مشكلات مجتمعه المحيطة به ، أو بدا غير مكترث بها ، فهــــو يفسرها التفسير الذى يتفق وفلسفته ، اى يتفق ومنفعته ، ولابد أن يبدو موقفه منها ، وتفسير المتحيز لها فيمـا اذا اتخذها موضوعا لانتاجه الادبى

وقد آن لنا أن نقول ، واثقين من عدم التباس قولنا على القراء ، ان الادب الاشتراكى هو الذى يصــــور لنا مختلف مظاهر الحياة ، وألوان نشاط مجتمعاتهـــا المادية والمعنوية على ضوء الفلسفة الاشتراكية . أو هو الادب الذى يدين مؤلفه بالاشتراكية ، ويدرك الحيـــاة على ضوئها ، فاذا عبر لنا عن آرائه ، وصور لنـــــا مشاعره فى الموضوع الادبى الذى يطرقه طلع علينا فيما صوره وعبر عنه بأدب اشتراكى

ولعل المعترضين يوافقوننا على رأينا اذا عرضـــناه فى هذه الصيغة المعروفة التى رددها كثيرون من فلاسفة الغرب ونقاده : « الانسان ابن عصره » . وفى الواقع

ان هذه حقيقة يصعب انكارها . فالمؤلف الاصـــــيل أشد الناس تأثرا بمجتمعه وتقاليده ، واهتماما بمشكلاته وأزمات ضميره ، ومرجع ذلك الى حساسيته المرهفة ، وذهنه المتوقد ، ووعيه الصاحى . انه يفكر بعقليـــــة مجتمعه ، ويشعر بشعوره . وليس القصـــــد من ذلك أن لكل مجتمع اتجاها فكريا وشعوريا واحـــدا ، وأن المؤلف يسبح مع ذلك التيار دون تفكير ، ودون ضمير . كلا ، فان تيارات مختلفة من الفكر والشعور تتنـــازع كل مجتمع . والمؤلف يتأثر بأحد هذه التيارات ويؤيده، ويعبر فى أعماله الادبية عما يتولد عنه من معتقـــدات وعواطف . وهنا قد تعرض للقارىء هذه الاســـئلة :

هل المؤلف اذن مجرد مترجم لعصره ؟ أين اذن الابتكار الذى يتميز به مبدعو الادب والفن ؟ أين ســــــبقهم لعصرهم ، وتبينهم لما لا يتبينه سائر الناس ، وشعورهم بما لا يشعر به غيرهم ؟ ... ونحن نســـلم دون ريب بوجاهة تلك الاسئلة . وننكر ان يكون مبــــدعو الادب والفن مجرد أبواق لعصرهم ... انهم لا يعكســـــــون نشاط مجتمعهم الفكرى والضــــميرى كما تعكس المرآة الصورة . ولكنهم يفسرونه ، ويكشفون عن أســــبابه الاولى ، ويصلونه بظروفه وملابساته ، ويلمحون بنظرهم الثاقب ما سوف يؤدى اليه تطوره . وهم يجيئــــون بالجديد الطريف من الاراء والمعانى عن طريق التوليـــد والتفريع والاشتقاق . اننا لا نستطيع ان نزعم مثلا بأن الرسام لم يبدع لوحته لأن لها أصلا فى الطبيعــة نقــل عنه ، ولكننا ننكر عليه الاصالة والابداع اذا عكس ذلك الاصل على نحو ما تفعل الآلة الفوتوغرافية . ولابد أن نشير هنا الى أن المؤلف لا يتعمد أن ينقل لنا تيــارات عصره كافة كما ينقلها المتفرج غير المهتم ، ولكنه يسجل

لنا تضاربها بتأييده للتيار الذى تأثر به ، ومناهضته للتيار الذى نفر منه . أى بتعبيره الصادق عن رأيه ، وتصويره الصادق لشعوره . وتتوقف قيمة عمله الادبى فى هذه الحالة على موقفه من هذا التضارب ، أهو يؤيد التيار الذاتى المنحل ، المنشق عن تيار الجموع ، أم يتأثر بمشكلات قومه ، ويشاركهم فى أحاسيسهم ، فعل الرجل الشريف الحساس ، ويقف موقف المؤيد للتيار الثائر على الظالم ، المتشوف للحق والعدل ، ولحياة أفضل للجموع العانية

واذا كان هناك من لا يزال ينكر أن المؤلف يستمد مفاهيمه وميوله من بيئته ومجتمعه ، ويصر على أنه يستوحيها من عقله ، أو من ضميره ، مقتنعا بالرأى الذى يقول ان المعتقدات والميول مغروسة اصلا فى أعماق الانسان ، فاننا نسأل هذا المفكر عن السبب ، مثلا ، فى أن عقلية قطان الاصقاع المنعزلة المتخلفة من الريف تتشابه بينما عقلية قطان المدن تتنوع وتختلف عنها اختلافا كبيرا ؟ ولماذا لا يطلع على العالم من بين أفراد القبائل التى لا تزال موجودة الى اليوم أدباء كبار كأدباء البلاد المتحضرة ؟ بل اننا نسألهم كيف تكون حال رجل يعزل عن الناس جميعا عزلا تاما منذ طفولته ، ويعيش وحده دون أن يرى انسانا ، هل يحسبونه يفكر ويشعر ويتحدث كسائر الخلق ، ويستمد ذلك من المعتقدات والميول المغروسة فيه أصلا ، او يستلهمه استلهاما ؟ لا ، فان ذهنه سيكون خاويا دون شك ، وخياله مقصوص الجناح ، وقلبه عاطلا من كل عاطفة . بل ان لسانه سيعجز حتى عن النطق . انه لن يصل حتى الى مرتبة الحيوان الاعجم اذ ستنقصه تجاربه . . .

لو تأمل ذلك المفكرون ، وقلبوه على مختلف

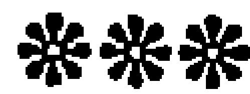
نواحيه ، لما فاتهم مدى ارتباط كل فرد بمجتمعه مهما بلغ من تميزه عن سائر الناس ، ومدى تولد آرائه وأحاسيسه من ينبوع ذلك الارتباط. ونحن لا نكرر هذه البديهيات الا لانه لا يزال هناك اتجاه كبير الخطر فى عالم النقد الادبى وغيره من عوالم النشاط الفكرى يؤمن أصحابه بأن الاديب او العالم المتميز فوق مستوى البشر ، وأنه يستوحى آياته وأفكاره الى اليوم من مهابط الوحى فى الاولمب أو فى وادى عبقر !

علينا الان أن نسأل عن كنه المثل الفكرية للامم ، وقيمها الاخلاقية ، وكيف نشأت ، ولماذا تمت وانتشرت وتوطدت أركانها ؟

اننا نستطيع أن ندرك ، بقليل من التمحيص والتأمل ، أن تلك المثل والقيم تضطلع بأكبر قسط فى توطيد نظام الامم ، ودعم أمنها ، ومقاومة ما يعكر صفوها ، فالقوانين تستهدف اخضاع الخارجين على النظام بما تفرضه من عقاب . والمثل الفكرية والاخلاقية تستهدف نفس الهدف بالهداية . فهى تنفر الناس من ارتكاب ما يفصم الروابط الاجتماعية ، ويزعزع أصول المعاملة المتواضع عليها بين الافراد ، ويشوب علاقات الود المتوشجة بينهم . وهناك مثل تستهدف من ناحية اخرى تهدئة ثائرة الحانقين على نظام حكم بلادهم ، واستلال الضغن من قلوب المظلومين فى ظل النظام الجائر ، وحثهم على الرضى بالواقع . فهى قد تنادى بالمحبة فى ظل حكم يستثير عداء الجموع بالسماح للقوى أن يستبد بالضعيف فيزيده ضعفا ، والغنى أن يستغل الفقير فيزيده فقرا ... وهى تمجد الصبر والتسامح ليمتد عهد الاستغلال دون أن يخشى عليه المستغلون الزوال ، وتشيد بالاخلاص ليظل المسود المغبون مخلصا

لسيده الذى يغبنه ، وتملأ الاذهان بالاوهام لتشـــغلها عن مدى الغبن الذى تعانيه الجموع الشعبية على أيدى عصبة الاغنياء المستبدين بها ، العاملين على بقائهـــا فى حمأة الجهل والفقر واليأس ...

ان القيم الفكرية والاخلاقية تصدق وتزدهر فى ظل نظام عادل يستهدف القضاء على الاستغلال ، والنهوض بمستوى الطبقة الشعبية الى الحد الذى تســـود فيه المساواة بين الناس . وهى تشوه وتتعفن فى ظل نظام جائر يستغلها أو يستغل بها عامة الناس ، فاذا فاحت رائحتها ، فطن الناس الى زيفها ، وقوضوا أركان النظام المستعين بها ، واستجابوا للقيم الجديدة التى كانت تتصدى لها وتقاومها وتحليها عن الميدان ، وأيدوا النظـــــام الجديد المستند اليها



واذا نظرنا ، من زاوية أخرى ، الى نظام الحكم الذى يسود مجتمعا ما ، نجد أنه هو الذى يحدد العـــلاقات بين طبقات الناس . ومن طبيعة هذه العلاقات تنشـــأ معتقدات وأفكار وقيم معينة تعمل بدورها على توطيـــد بنيانه . ففى ظل نظام الرق تصبح العلاقة بين شطرى المجتمع علاقة مالك الرقبة بالعبد . ومن طبيعة هـــذه العلاقة يتولد احتقار السادة الاحرار للعمل اليـــــدوى الذى يضطلع به العبيد ، بل احتقار حتى القيام بادارته . وتتفرغ أولئك السادة للمغامرات الغرامية ، والمغامرات الحربية . ويعدون الاستحواذ على قلوب النســـــاء ، والفوز بوصالهن مفخرة أى مفخرة ،كما يعدون الفروسية صفة تسمو على سائر الصفات ، وتؤهلهم للســــيادة التى ينعمون بها

ومن بين ظهرانى هذه الطبقة يطلع المثالون والمصورون

الذين يمثلون أو يصورون الناحيةالوحيدة التى يعرفونها من جمال المرأة ، وهى جسدها البض الذى لم يخلق ـ فى زعمهم ـ الا لمتعة الفرسان الذين يحسنون السطو على النساء كما يسطون على الامصار . وينحت الفنانون كذلك أجساد الابطال فيبرزون عضلاتهم القوية ، فالقوة الجسدية هى التى تجعل من الرجل ـ الى جانب الفروسية ـ بطلا مرموقا . ويطلع من بين هذه الطبقة كذلك الشعراء الذين يصورون فى ملاحمهم غمار الحروب التى يخوضها السادة الفرسان ، ويحققون فيها الاعاجيب . ويطلع أيضا الفلاسفة الذين يفسرون الوجود تفسيرا تأمليا بحتا . أى تفسيرا لا يستند الى علم وتجربة وقياس ومن أين لهم العلم والتجربة وهما لا يتولدان الا من العمل الانتاجى ، ويبدى هؤلاء الفلاسفة فى أعمالهم الفلسفية احتقارهم للحياة الدنيوية ، واعتزازهم بالتأملات المجردة ، ولا شك أن هذا المنحى فى التفكير وليد احتقار العمل .

ومن ذلك يتضح فى جلاء أن العلاقة بين طبقة السادة وطبقة العبيد فى ظل نظام الرق تحدد المفاهيم والقيم ، وأن الآداب والفنون والعلوم الصادرة فى ذلك العصر تعكس تلك القيم والمفاهيم وتوطدها فتوطد النظام الذى تخدمه من حيث تدرى أو لا تدرى حتى ليدخل فى الروع انه سيخلد أبدا

***

وفى ظل نظام الاقطاع تنقلب العلاقة بين الناس الى علاقة الامراء والنبلاء بالرعية والأقنان . ويحتاج هذا النظام الى توطد عقيدة الولاء للامير وللطبقة ذات السلطان ، فيحيط أولئك السادة أنفسهم بمظاهر البذخ الباهرة ، ويشيدون لسكناهم القلاع الضخمة ،

والقصور الفخمة ، ويكثرون من الاتباع والجند والخدم، وبذلك يبدون فى نظر عامة الناس من طينة غير طينتهم ، ويتمكنون من بث التهيب والرهبة فى نفوسهم . ولكن احتمال الناس الغبن لا يمكن ان يطول بالقمع الغاشم وحده ،فلابد من استعمال وسائل الخداع ،وأهم ما اهتدى اليه الملوك والامراء واصحاب الاقطاع من تلك الوسائل شعوذة الكهنة والمتجرين بالدين . ويدلنا التاريخ على أن أولئك المشعوذين توسلوا الى توطيد النظام الاقطاعى بوسيلتين ، اولاهما ادعاؤهم ان الامير يستمد سلطانه من الله مباشرة او انه ظل الله فى أرضه أو أبن الله ، وبذلك تخضع الرعية له خضوعا اعمى . وثانيتها تخويف من لا يخضع لاوامر الامير ، ومن لا يخضع لارشاداتهم وتوجيهاتهم بحرمانه من الجنة ، وعلى ذلك يكون مصيره نار جهنم . ويستفحل سلطان الكهنة والمتجرين بالدين ؛ ويصادرون الحريات ، ويشيعون الارهاب ، ويرمون كل ساخط على الظلم بالزندقة ، ويصبغون تفكير الناس كله بالصبغة الدينية ، ويتصدون لتفسير الفلسفة ، ويحتكرون ذلك ، ويسخرونها فى تأييد وجهات نظرهم . ويعكس الادب والفن هذه الحال فيقتصران على ترديد المعتقدات الدينية السائدة فى أعمال ادبية مصطنعة ، عاطلة من كل قيمة فنية ، وتنقلب المسرحيات الى مسرحيات دينية تدعو الى التسليم بالواقع ، والرضا بما هو كائن ، وتتوعد من لا يذعن للواقع الظالم بعذاب الدارين . ويقتصر النحت والتصوير على ابتداع تماثيل الارباب والانبياء والقديسين وصورهم . وهكذا نجد الادب والفن يتبدلان مع تبدل نظام الحكم ، ويعبران عن النشاط الفكرى الغالب فى عصرهما

تشتد قبضة الكهنة والمتجرين بالدين ، فى ظل نظام

الاقطاع ، على قدر ضعف ذلك النظام وتصدعه . فهى عبثا تحاول أن تسنده بوسائلها العتيقة ، وتوطد أركانه من جديد ، وعبثا يحاول الادب والفن ، العاملان على خدمتها ، ذلك أيضا ، فان كل نظام يقوم على تميز طبقة بعينها وطغيانها ، ينطوى بطبيعته على عوامل انهياره . ومن عوامل انهيار النظام الاقطاعى أن التوسع فى امتلاك الاراضى الزراعية ، وتحول رؤساء القبائل الى ملوك وأمراء اقطاع ، وازدياد غناهم هم وأعوانهم من الاشراف ذوى الألقاب ... يتطلب كما قلت بناء القلاع والقصور، والاكثار من اسباب الرغد والرفاهية ، وتجييش الجيوش، وتزويدها بالملبس والسلاح ، ورفع مستوى مظاهر الجاه والسلطان ، واقامة النصب والتماثيل ، والاهرام — كما حدث فى مصر الفرعونية — وتشجيع الادب والفن اللذين يدعمان النظام القائم ... ويتطلب كل ذلك بدوره أن تنشط التجارة ، وتزدهر الصناعة ، وتنمو الاداب والفنون الملائمة للنظام الاقطاعى ، ومن ثم تظهر طبقة التجار ، ورؤساء الحرف ، والعلماء والادباء والفنانين ورجال المهن الحرة كالاطباء والمحامين وغيرهم ممن أشرنا اليهم من قبل ، وتنمو هذه الطبقة وتتكاثر ، ويكبر وعى العمال والصناع بارتفاع مستوى الصناعة والعمل ، وتحس هذه الطبقة الجديدة بفداحة الغبن الذى يحيق بها ، ثم تقيس نفسها ، وهى المتمكنة من العلم والفن والخبرة، بالسادة المتميزين العاطلين المجردين من كل ميزة ، ولا تلبث أن تتبين ميزتها عليهم ... ويؤدى ازدهار الاعمال التى تقوم بها الى ازدياد غناها ونفوذها ، وتغلب سلطان الصناعة على سلطان الزراعة . ويطمع رجال الحكم والمتجرون بالدين فى مالها فيستدينون منها . واذا هى تضيق بالتحكم فيها وتتوق الى التحرر،

فيخرج من صلبها الشعراء والكتاب الذين يتغنـــون بالحرية ، وينتقدون الاوضاع القائمة ، ويتجرأون بمقدار شعورهم بقوتهم وقدرتهم ، فيســـخرون من الاشراف الفرسان الذين يتحكمون في رقابهم ، وينـادون بالاخاء والمساواة بعد ندائهم بالحرية ، ويحرضون الشـــعب بهذه النداءات على الثورة ، ويستجيب الشـعب الذى عانى الجوع والعرى والاضطهاد لنداءاتهم ، ولا تلبث نار الثورة أن تندلع ...

ومن الجلى أن هذه الطبقة الجديدة ذات الفنى والنفوذ الناميين ، وهى نقيض طبقـــة الاشراف ، تعتنق أفكارا وقيما ومثلا أخلاقية ، وتتصف بصفات وســـــجايا مختلفة كل الاختلاف عما يعتنقها ويتصف بها المتحكمون فيها ، ومن الطبيعى أن يعبر رجال الادب والفن المنتمون اليها ، الصادقون المؤمنون بما يكتبون عن تلك الافـــكار والقيم والمثل ، الى جانب نقدهم وهدمهم للمثـل التى تقوم عقبة فى سبيل تقدم طبقتهم . وبذلك تظهر بشائر الادب الرأسمالى ، أو أدب الطبقة الرأسمالية .

ان هذه البشائر تبدو أول ما تبدو فى اواخر حـــكم الاقطاع ، وتقتصر وهى لا تزال فى ظل ذلك الحـــــكم المؤذن بالسقوط ، على نقد معتقداته ، لا سيما ما يتعلق منها بقدسية الحاكم ... ثم يحن بعضـــها الى العصر القديم الذى كانت تعيش فيه المجتمعات بجوف الغابات حيث لا سيد ولا مسود ، ويشرئب بعضها الى مســـتقبل تتخلص فيـــه من الحيف الذى لعقت مرارته . وأول ما يلفت النظر فى تلك البشائر أنها تحاول التخـلص شيئا فشيئا من ربقة الكهان والمتجرين بالدين ، وتتحول رويدا رويدا من تصوير الانبياء والقديسين ، والوقائع التاريخية الدينية ، وأصحاب السلطان من أمراء واشراف ،

وما خاضوه من وقائع حربية ، الى تصـــوير نماذج من أفراد الطبقة الجديدة النامية وامتداح مزاياها والتنويه بنشاطها ... هذا الى نقدها للطبقة ذات السلطان ، كما سبق أن قلنا

وما أن تتخلص الطبقة الجـــديدة من تقويض أركان الاقطاع ، ويستتب لها الحكم حتى تتسم آدابها وفنونها بطابع جديد ، بل يتغير مبناها ومعناها تغيرا كليـــــا . فالحرية التى كانت هذه الطبقة الموسرة النـــامية تتلهف على انتزاعها من أيدى الاقطاعيين المستبدين بها ، لم تعد أمنية وهدفا كما كانت وانما أصبحت حقا مقررا لافـــراد تلك الطبقة وحدهم ... بيد أنها لا تبقى مرتبطـــــة بشعار « الاخاء والمساواة » ، محتفظة بمعناها القـــديم — وهو رفع الحيف عن الجموع الواقعة فى عبـــــودية الاستغلال والفقر والجهل — ولـــــكنها تكتسب المعنى الاسبق الذى كان الاقطاع يخلعه عليها .. وهو حــــرية السادة ذوى السلطان فى استغلال الشعوب ... لقـــد الفتح طريق الاثراء أمام البورجوازيين على مصراعيه بعـــد تخلصهم من سادتهم السابقين ، فترددت عبارات : حرية المنافسة فى سبيل الاثراء ، وتنازع البقاء ، والبقـــــاء للاصلح ... ثم عبارات : حرية التجار ، وحـــــرية التجارة ... والباب المفتوح .. ثم عبارات : ســـودى يا بريطانيا واحكمى ... وألمانيا فوق الجميع ... هذا هو مفهوم الحرية عند البورجوازيين بعد أن أصـــبحوا ذوى السلطان

حققت هذه الطبقـــة فى بادىء الامر ما كانت تتمنى ، ثم حققت مالم يكن يطوف حتى بأحلامها . وأســـفرت المنافسة بين أفرادها المحظوظين فى سبيل مضـــــاعفة الارباح الطائلة عن اهتمام كل فرد منهم بنفســـــــه

وبمصلحته دون غـــيرهما ، والانصراف الى اموره دون سواها ، فاستفحلت أنانيته ، واعتزل فى عالمه الخاص ، فلم يعد هناك عالم عام يهتم به كما اهتم من قبـــل ... لم تعد هناك مشكلات اجتماعية يشغل بها ، أو يشــعر بوجودها ، وانما اصبحت اهتمـــاماته كلها شـــخصية فردية ..

امتلأ زهوا بنفسه ، وفرحا بحاله . واقبـــــل على مباهج الحياة ، ومتع الحب ، وتزود منها قدر طاقتــه فى نهم جنونى . ولم يكتف بالنعم الدنيوية المتاحـــة ، فراح يتطلع الى متع من نوع اسمى بين مناظر الطبيعـــة الخلابة ، وبين آثار الاغريق الفنية والادبية ، وشـــجع الفنون والاداب التى تنتج له تحفا فنية يزخرف بهـــا قصوره ، وموضوعات أدبية جديرة بازجاء أوقات فراغه، والدفاع عن وجهات نظره ، والمد فى أجل سلطانه

يجنح رجال الادب والفن فى بدء هذا العهد بتصوير أحلام أولئك السادة ، والتعبير عن خلجات أفئـدتهم ، وينشأ الادب الحالم وينمو ويزدهر ، ثم تطلع على القراء قصص الحب السعيد المتقلب فى أول أمره على الوسائد الحريرية ... ثم تعقبها قصص تستهدف تســـــلية أولئك المنعمين ، والترفيه عنهم

ويستمر ابتزاز المال ، ويسفر ذلك عن تكدســـــه أكداسا فى أيدى القلة من الجشعين الذين لا يشبعون ، ونضوب نزره اليســـير الذى كان فى أيدى الكثرة من الجموع المغبونة . ومن ثم ينقسم المجتمع الى حفنـــــة من المختنقين بالمال يقابلها شعب يعانى التجـــوع والعرى والمرض . ولا تلبث بوادر الضيق بتلك الحال ، والتمرد عليها أن تبدو بين صفوف المغبونين ، ولا يعدم هـؤلاء ، بين صفوف الادباء والفنانين ، من يغضب لحالهم ، ويعبر

عن سخطهم ، ويهب لنصرتهم ، فيرفع النقاب عن وجه الرأسماليين الزائف ، ويظهر وجههم الحقيقى ، ويصور اندفاعهم الجنونى وراء المغانم على نحو تنضب معه آخر قطرة من انسانيتهم .. ويقوم النقد الواعى الشريف بدور رئيسى فى هذا الصدد ، فيهيب بضمائر الكتاب والفنانين أو يناشدهم أن يرجعوا عن سبحاتهم وتأملاتهم المجردة ،وينزلوا الى معترك الحياة ، ويشتركوا فى حل مشكلات البشرية على نحو يمحق الظلم ، ويوطد الحق ... اليس الادب والفن محاكاة للطبيعة ؟ ومعترك البشرية وما حوى من مشكلات أهم ظواهر الطبيعة ، وأخطر أنواع نشاطها ؟ ..

ونزل كتاب انجليز ، مثل تشارلز ديكنز الى ميدان الواقع ، وصوروا ما يحدث فى معتركه من احتقار الطبقة ذات المال والسلطان للشعب الضعيف الفقير ، ومن أهدارها لآدميته ، ومصادرتها لارزاقه ، وعبثها بمقدساته وأعراضه ...وكذلك صوروا ضعة الانتهازيين والوصوليين والوسطاء الذين يعيشون على تملق الاثرياء، منتبصرين لهم ، بل باذلين لهم كل عون فى عصفهم بالضعفاء ... ثم ظهر على رأس الذين اتجهوا فى فرنسا هذا الاتجاه « بلزاك » ، الكاتب القصصى الذى رأى ببصيرة الفنان الواعى مالم يره بعين المفكر . كان يؤمن بالكاثوليكية ، ويؤيد النظام الملكى ، ولكنه رأى من عيوب عقيدته ومذهبه السياسى مالم يره عدوهما . ووصفه أحد النقاد الفرنسيين بقوله : ظهر بلزاك ، فتبددت القصص المصطنعة ، والحفلات الماجنة ، وتكشفت الحياة الحقيقية .. تكشف العالم الحقيقى بما فيه من طبقات ، ومن أصحاب بنوك ، ووكلاء أعمال متجولين ، وتجار وموظفين وسكان قصور ومحتالين وسيدات

وغانيات ... تبددت المشاعر الرقيقة أمام الاطماع وفواجع المال ، ولم تعد هناك الا مشاعر جافة متولدة من الروابط الاقتصادية الظالمة ... لقد تحولت كرامة الانسان الى مجرد « قيمة » قابلة للتحويل . وأصبح كل شيء يباع ويشرى حتى الاولاد والاباء ! ... ان الورقة ذات العشرة القروش أصبحت مطبوعة على فؤاد كل فرد من افراد ذلك المجتمع . لقد احتل المال مكان الفطنة والفضيلة والجمال ، و « احتلت » المتع المادية مكان القيم المعنوية • وازداد فيه الانسان ، وهو يصارع الانسان والمجتمع ، شقاء وألما •• وخضع فيه الحب لقراطيس المال ، واشاع الارث الاحقاد بين الاقرباء • وأصبحت « البكر » « رأسمال » ، والزواج مضاربة ، والقوانين كعيون خيوط العنكبوت التى تقع فيها الذبابة الصغيرة ، وتفلت الكبيرة ، واضطر حتى الوديع ان يعتدى على غيره ليحمى نفسه ، ويخدع الناس حتى لا يخدع . وعاش كل انسان لنفسه فحسب ، « وويل للمغلوب » . واضطر الشريف ان يميت ضميره ليحتفظ بمنصبه ، ويرقى فيه •• وكابد فيه العالم والفنان ألوان الاحتقار ، والتردى فى هوة الشقاء ••

هذه صورة عامة للمجتمع وهو فى أوج النظام الراسمالى •• والادب والفن الشريفان الواعيان يعمدان فى هذه المرحلة الى ابراز عيوبه التى ألمعنا اليها ، فيساعدان بذلك على اضعافه ، فلا يلبث ان يصيبه التصدع والانهيار

والى جانب أولئك الكتاب الواعين الذين صوروا لنا كيف انطلق من القمقم فرسان المعترك الاقتصادى ، فى ظل النظام الراسمالى ، وكيف جالوا وصالوا ، وهشموا الرؤوس ، ومزقوا الاوصال ، وبعثروا الاشلاء ، نجد كتابا آخرين ، على راسهم دوستويفسكى ، صوروا

لنا الرؤوس المهشمة ، والاوصال الممزقة ، والاشـــلاء المبعثرة ... صوروا لنا بشاعة معركة المال التى تتجلى دائما عن ضحايا يفتك بهم الجوع والعرى والمرض .. صوروا لنا العاجز الضائع الذى أظلمت الدنيا فى وجهه بعد ان كشر له البؤس عن انيابه ، فأغرق همـــومه فى الكأس التى لم يستطع عنها صبرا ، وباع ما تمتلك يداه ليذيب عقله فى سلافها .. ولم يلبث ان « شرب » ملابسه حتى حذاءه ، ثم شرب أثاث بيته ، ثم ملابس زوجته ، ثم ملابس اولاده الذين اضطر الاناث منهم الى بيـــع اعراضهن ، واضطر الذكور الى مد ايديهم للسؤال ... وقد برع دوستوييفسكى فى تصوير بؤس الاطفال .. ان دمعة على خد طفل هى أفدح مأساة تصاب بها الانسانية ولكنها لم تستطع ان تحرك ذرة من انسانية فى صدور عبيد المال !! ..

ويتأثر الفن كذلك بالبؤس الذى يغتـــــال الابدان والنفوس ، فيتردد الانين الذى يمزق الاحشاء فى بعض المقطوعات الموسيقية . وتظهر فى معارض الصور لوحات لهياكل آدمية غائرة الخدود ، ذابلة العيون ، تطأطىء فى حسرة وذلة ..

ومن الطبيعى أن تنتشر الجريمة فى مثل هذا المجتمع الذى لا يهدأ ولا يعقل .. هذا المجتمع الذى يتطاحن فيـــه الافراد ويتكالبون على المادة ، وتتدهور فيه الاخلاق وتنحل .. ومن الطبيعى ايضا أن تتولد من ذلك مشكلات فردية مختلفة يهرع الى تصويرها نفر من القصصيين أقل أصالة من السالفين ، تتسم أعمالهم الادبيـــة ، على الاغلب ، بالسطحية والضحالة اذ لا تنقب عن الاسباب الرئيسية للمشكلات التى تصورها ، ولكنها تعنى بالتشويق والاثارة قبل أى شىء آخر

واغلب هذه القصص بعيد عن ان يدخل فى نطاق الاعمال الادبية ، فهو يجنح الى نوع القصص البوليسية ، أو القصص الجنسية التى تصور الجرائم الخلقية ، والشذوذ السلوكى بأسلوب غث لا صلة له بالادب . وأقل هذه القصص ــ وهو على قلته بالنسبة للنوع الغالب المذكور ، يغمر سوق الكتب الاوربية ــ يصور الخيانات الزوجية ، وخيانات المحبين ، وتمرد الاولاد على أهلهم ، وانزلاقهم الى طريق الغواية . ان الانحلال الخلقى عند الذين أفسدتهم وفرة المال ، والحاح الحاجة على الذين أشقتهم قلته ، يدفعان نساء هذين الطرفين ورجاله على السواء الى الرذيلة ، والخيانة الزوجية ، وتأثر الابناء بالاباء ، وافلاتهم من قبضتهم ، وانتهاج نهجهم ... هذه هى الموضوعات التى يطرقها الادب الرأسمالى ، ويطرق أمثالها عندما يدب اليه الانحلال ، أما المشكلات العامة فلا يكاد يلتفت اليها ، أو يعنى بالتماس حل لها عن طريق صدق تصويرها

ولا يختلط فى ذهن القارىء الادب الواقعى الذى تنعكس فيه مشكلات عصره ، عندما يصدق فى تصويره ، بالادب النقدى الذى يعنى بابراز العيوب السلوكية عند بعض الافراد ــ حتى ولو كانت هذه العيوب عامة ، وتترتب عليها مشكلات اجتماعية ــ فان هذا اللون من الادب ، على أهميته الجزئية ، لا يرقى الى مستوى الادب الذى يعكس المشكلات العامة الناشئة عن ظلم النظام السياسى والاجتماعى ..

واذا ساهمت قصص موضوعية متميزة مثل قصص بلزاك بنصيب كبير فى تقويض النظام الرأسمالى ، بكشف سوءاته ، وزعزعة ثقته بنفسه ، وبقيمه ومثاله ، فان قصص الخيانات الزوجية ، والمشكلات الفردية ، وجرائم

السرقات وابتزاز المال عملت كذلك على الوصول الى نفس النهاية ولكن من طريق آخر ... فأفراد الطبقة التي تؤيد النظام الرأسمالي يتأثرون من حيث يشعرون - أو لا يشعرون - بأشخاص القصص المكتوبة ، أو المعروضة على الشاشة فيشغلون مثلها بذاتهم ؟ ولابد ان ينتهى اشتغال كل فرد بمشكلاته الخاصة دون المشكلات العامة الى تحوله من فرد مهتم بأمور مجتمعه ، عامل على تحسينها ، ورفع مستواها ، لفرد منعزل عنه ، يقول لك انه لا يهتم من أمور دنياه الا بزوجته وأولاده ومشكلاتهم ، ثم يدع الأرض ، فيما عدا ذلك ، تنعى من بناها .. ومن ثم تتفكك الدعامة التى يستند اليها ذلك النظام ، وهى الطبقة التي تؤيده ..

ولا يفوتنا أن نذكر أن الرسم الكاريكاتورى النقدى يزدهر كذلك أثناء ازدهار الادب النقدى ...

وتبلغ البلبلة الفكرية عندئذ حدا بعيدا . وتقوى الفردية المغرورة الى حد تنكر فيه الحقيقة الموضوعية . فالحقيقة عندها ذاتية ليس الا ، وما من حقيقة فى الوجود عداها . ويهمل رجال الادب والفن فى هذه الحالة حقائق الحياة الواقعية ، ويسجلون فى أعمالهم الادبية والفنية حياتهم كما تبدو لعيونهم الحالمة ، وأخيلتهم الواهمة ، فتبتعد هذه الاعمال عن الحياة الحقيقية ، وتعكس صورا شوهاء حسبما بدت لاذهان مريضة . وقد تبدو صور الشقاء البشعة فى هذه الاعمال أكثر بشاعة ، فتكون حينئذ هادفة نافعة برغم بعدها عن الاتقان الفنى المعتمد على محاكاة الواقع بعد الوصول الى أغواره . وقد تتحول الصور فيها الى تجريدات بحت .. الى مجرد رموز شبيهة برموز السحرة والمشعوذين ، فيقبل عليها بعض الناس

بحسبانها أحاجى و « فوازير » ، ويرضـون غرورهم بتوهمهم أنهم توصلوا الى حلها !

وعندما يصل الادب والفن فى مجتمعات محمومةهاذية الى هذا الحد من التدهور يكون ذلك ايذانا بأن الراسمالية تلفظ أنفاسها الاخيرة ، وبأن فجر الاشتراكية قد بزغ وأوشك أن يفجر الدنيا بنوره .

ومنذ مستهل هذا القرن اشتدت مقاومة الشـعوب للراسمالية الظالمة ، وتمكن بعضها من الانتصار عليها ، واقامة النظام الاشتراكى العادل مقام نظامها الفاسـد الجائر ، ومن يمن طالع مصر العربية ان كان شعبها من بين هذه الشعوب المنتصرة ـ ومن ثم اشتد تيـار الفن الاشتراكى فى الدول الاشتراكية والراسمالية على السواء، وتصدى للتيارات الفنية الرجعية يقارعها ويقوض اركانها. وراح يكشف الستر عن بقايا المثل الفكرية القـديمة المعيقة للتطور ، وينوه بالمثل الفكرية الانسانية الجديدة الدافعة بالتطور الى الامام ، ويكتسب الخبرة يوما بعـد يوم ، ويرقى شكلا ومضمونا ..

الفصل السادس

الأدب والصراع الطبقى في مصر القديمة

لم تكن مطالب المعدة تترك لرجال القبائل البربرية مندوحة من الوقت للتفكير فى شيء غيرها ، أو الانصياع لغير الحاحها ... فلا غرابة اذا قضى اولئك القوم طوال يومهم فى الصيد والقنص تفاديا للموت جوعا ... كانوا فى سباق مع الموت ، فأى عجب اذا هم لم يشغلهم شاغل عن طلب السبق فى هذه الحلبة الرهيبة

هكذا حال وضع أولئك القوم الاقتصادي القاسي دون انبثاق أية بشائر أدبية أو فنية ، ما دام ان حاجات الجسد كانت تصرفهم عن حاجات الروح

ولكن ، كيف اذن أتيح بزوغ البشائر الاولى للادب والفن ؟ ..

قال العلامة « برنال » فى كتابه « رسالة العلم الاجتماعية » أن النشاط الفكرى لم يشتغل بالانتاج الفنى الا يوم انفصال الكاهن فى العصور البدائية عن قومه المنصرفين طوال وقتهم الى الجرى وراء قوتهم ، وتفرغه لذلك الانتاج ...

ورأى « برنال » ان تفرغ الكاهن لتلبية المطالب المعنوية يعد أول خطوة خطتها الانسانية فى بناء حضارتها

وسبق للمؤرخ « هنرى توماس باكل » ان تنبه لاثر الفراغ فى نشأة الفن وازدهاره ، وقد قال عن ذلك فى كتابه « تاريخ الحضارة الانجليزية » أن الادب والفلسفة لم يظهرا فى عالم الوجود الا يوم اهتدى الانسان الى الزراعة فاستطاع أن يختزن قوته ، ويجد منادح من الوقت للتأمل والتفكير بعد أن كان يقضى يومه مشغولا بالسعى المتواصل لسد رمقه ، باحثا بين الغابات والبرارى عن الثمار والعشب ، أو متوغلا فى الاحراش وراء طريدته ، أو خائضا فى الماء لصيد السمك والحيوان البرى ...

ويضاف الى ما تقدم ما قيل من ان الادب والفن لم يزدهرا فى بلاد الاغريق الا بعد سيادة نظام الرق ، وانصراف السراة الى العمل الفكرى ، تاركين العمل اليدوى للعبيد

وقال ارنسبت فيشر عن العلاقة بين الادب والاقتصاد ، وعن حافز انبثاق الموهبة الفنية :

— ان الانسان يتحكم فى الاشياء ويجعلها ملك يده عن طريق تحويلها ... والعمل هو عملية تحويل الاشياء الطبيعية . لكن الانسان لا يعمل فحسب بل يحلم أيضا .. يحلم بالسيطرة على الطبيعة بوسائل خارقة .. يحلم بأن يتمكن من تغيير الاشياء وتشكيلها فى صور جديدة بوسائل سحرية ... ان السحر فى الخيال يقابل العمل فى الواقع ... فالانسان — من أول عهده — ساحر ...

اهتدى الانسان الى الزراعة ، وتمكن من انتاج قوته بعد أن كان يبذل فى البحث عنه قصارى جهده ، وطوال وقته ... فبدأت نظرته الى الوجود تتغير ، ومعتقداته تتبدل ... أخذ يشعر بأن مصيره — من ناحية توفر

قوته على الاقل ـ لم يعد نهبا للقـــدر المـكتوب ، بل أصبح رهينا بارادته وعمله ...

ازدهرت الزراعة أول ما ازدهرت فى مصر القديمة ـ بحسب ما يذكره التاريخ ـ ومن ثم نشأت على ضفاف النيل الادنى أولى المعتقـدات الدينيـــة المستوحاة من الحياة الزراعية

لم تعد هناك قوى خفية تتحكم فى الانسان ، وتكيد له ، وتنكل به ، بل أصبحت له آلهة تعطف عليه ، وتمده بآلائها ... وقد تغضب عليه فى بعض الاحيان لسبب من الاسباب ، وترى أن تمنع عنه نعمها فتصـــيب الزرع بالآفات ، أو تسلط عليه فيضانا عاليا يتلفه بالغرق ، أوفيضانا منخفضا يتلفه بالعطش . وكان لابد فى هـذه الحالة من استعطاف الآلهة واسترضائها ، فصاغ لهـــا الـكهنة الابتهالات والادعية ، ونقشوا النقوش وصنعوا التعاويذ ، فوضعوا بذلك نواة الفن الاولى

اهتدى اولئك القوم القدامى الى الزراعة ولـكنهم لم يهتدوا الى الطريقة العملية لمعالجة آفاتهـــا ، فحاولوا معالجتها بسحر الفن ، وهكذا ارتبط الفن منذ نشأته الاولى بالاقتصاد ، أو جاء ثمرة للظروف الاقتصادية على نحو ما تنبت الثمرة الشهية من خشب الشجر

اكتسى جانب كبير من أرض مصر بخضرة الزرع بعـد ان سخرت فئة قليلة من الاقوياء فئة كثيرة من الضعفاء فى فلاحتها ، واصبح اولئك الاقوياء أمراء ، وطمع بعضهم فى أملاك بعض، ودارت بينهم حروب كانت تنتهى دائمابخضوع الاضعف للاقوى . واتصلت تلك الحروب الى أن تمخضت عن انقسام مصر الى اقليمين كبيرين هما الوجه البحرى والوجه القبلى ... واحتاجت السيطرة على فيضـــان النيل ، ودرء ويلاته ، وصـــد غارات الغزاة الاجانب

الطامعين فى خيرات البلاد ، الى حكومة مركزية قوية تمسك بزمام نهر النيل ، وتسيطر على فيضانه ، وتمسك بزمام الامن فتضرب على أيدى المفسدين والغزاة الفاتحين ، وتهيأت بذلك ظروف مكنت « مينا » من ضم الوجهين القبلى والبحرى أحدهما للاخر ، ومن تنصيب نفسه فرعونا عليهم

وقوى سلطان مينا نظرا الى تلك الظروف ، وخضع له أمراء الولايات المصرية خضوعا كاملا . وأسلم الشعب زمامه لامرائه وفرعونه ، ونشأ أدب يستهدف دعم هذه الاوضاع ، وجادت قريحة الشعراء الموالين للحكومة بمثل هذه المنظومات :

« أسرع يا سائق المحراث
فالامير ينظر ... ويرقب »
« السماء تعمل وفق رغباتنا
ما دمنا نعمل للامير .. »
« أيها الثور ادرس لنفسك
فسيكون التبن من نصيبك
أما الحبوب فستكون لسادتنا ... »

واكتسب الفراعنة من الجاه والسلطان ما رفعهم الى ما فوق مرتبة البشر ... الى مرتبة الآلهة ... وعمل الشعر على تثبيت ذلك فى الاذهان ...

« عينا فرعون تخترقان كل جسم
هو رع الذى ينظر بأشعته
هو يضىء أكثر مما تضىء الشمس ،
ويجود بخصب لا يجود بمثله نيل فياض ..
وهو يمنح الطعام لمن يتبعه ... »

والابيات التالية مختارة من « انشودة النصر » ، وهى من أناشيد الدولة القديمة ، ترجمة الدكتور عبد

المنعم أبو بكر :

« عظيم هو الملك سيد بلده ...
فى حين سائر الملوك اناس عاديون ..
عظيم هو الملك سيد بلده ...
فهو مثل السيد يحجز فيض النهر
عظيم هو الملك سيد بلده ...
فهو كمكان رطب فى وهج النهار
عظيم هو الملك سيد بلده ...
فهو كحصن ذى أسوار
وهو كملاذ يرد المعتدين
وهو كملجأ يحمى الخائفين
وهو كظل ... كنبات رطب فى الصيف
وهو كركن دافىء فى الشتاء
وهو كصخرة تصد رياح العاصفة ... »

واذا كانت حدة الخوف من الموت جوعا قد خفت بعد انتقال المجتمعات البدائية من عصر الصيد والقنص الى عصر الزراعة ، فان حدة الخوف من الموت عموما لم تخف فى هذا العصر الاخير ، وعرف الكهنة كيف يتخذون من ذلك الخوف دعامة يوطدون بها أركان سلطانهم ، فابتدعوا الاساطير ، وخلقوا للناس آلهة تسعد من تشاء وتشقى من تشاء ، ولوحوا للناس بالدار الباقية ، وبشروا الخاضعين لهم بالسعادة فى الدارين

وكما أصبح لفرعون سلطان دنيوى قوى اقتضته حاجة الناس الى التقدم الاقتصادى ، واستتباب الامن والنظام ، أصبح للكهنة سلطان دينى ، قوى أيضا ، اقتضته حاجة الناس الى قدرة فوق قدرة البشر توفر لهم السعادة فى الدنيا ، وتدرأ عنهم شر ما يخبئه الغيب نشأت فى بادىء الامر ديانات متعددة ، مختلفة

المذاهب . وحال تعصب أتباع كل منها دون قيام معبد مركزى على غرار الحكومة المركزية ، واضطر الكهنة ، لتفرق كلمتهم ، الى أن يخضعوا خضوعا تاما لفرعون ، بل حتى الى أن ينصبوه رئيسا دينيا لهم ، ويعترفوا بألوهيته ، ويثبتوا هذه العقيدة فى أذهان الناس

واذا كان رجال الدين قد أدركوا قدر حاجتهم الى معونة فرعون ، فقد أدرك فرعون بدوره مدى حاجته اليهم . وعلى ذلك راح كل منهم يرفع من قدر الآخر ، ويمده بأسباب القوة . ووقع الشعب فريسة لذلك التحالف ، وأسلم قياده لهاتين السلطتين المستبدتين ، فلم يصعب عليهما تسييره كيفما شاءتا ، وتسخيره فى بناء المعابد الفخمة ، والاهرام الضخمة ، والقصور المنيفة

ولم ينقطع الادب والفن عن اسداء خدماتهما الجليلة الى هاتين السلطتين ، فظل الشعراء يتفننون بآلاء فرعون ، ويؤكدون ألوهيته ، ولم يقتصروا على ذلك بل استمدوا موضوعات شعرهم من الاساطير الدينية فعملوا على زيادة تمكنها من عقول الناس ووجدانهم . وصنع المثالون أروع التماثيل لفرعون وغيره من ذوى السلطان، ونقش الفنانون أبدع الصور على جدران المعابد ، فخلع هؤلاء وهؤلاء على رجال السلطة المدنية والسلطة الدينية هيبة زادت من قدرتهم على التحكم فى الرعية ، واخمدت ـ الى حين ـ بوادر الاستياء والتمرد

ومن الطبيعى ان يتطلب تمهيد أرض مصر القديمة للزراعة ، والسيطرة على فيضان النيل ، وبناء القصور والقلاع والمعابد والاهرام وما اليها من المنشآت ... من الطبيعى ان يتطلب هذا التقدم العمرانى تقدما علميا يؤازره ، وعلى هذا ازدهرت علوم الهندسة والعمار والفلك والميكانيكا وغيرها من العلوم الصناعية ، ولم يؤد

هذا التقدم العلمى فى الدولة القديمة الى ارتفاع مستوى المعيشة المادى فحسب ، ولكنه أدى الى ارتفاع المستوى الفكرى أيضا ، وتعددت مطـالب الحياة وتنـوعت ، ونهضت التجارة الى جانب نهضـة الصناعة ، وبنيت السفن لتنقل البضائع المصدرة والمستوردة ، واحتك المصريون بالشعوب المجاورة فازدادوا خبرة بالحيـاة وبالناس ، وأغاروا جيشهم على ليبـيا وعاد بالغنـائم الوفيرة ... وازداد الغنى كما ازداد الطمع فى الغنى

قال أدولف ارمان فى كتابه « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » ما يلى :

« ... وقد تلا العصر الذهبى الذى بلغتـه الدولة القديمة عصر تدهور وانحطاط سريع ، فمنـذ منتصف الاسرة الخامسة بدأت تلك الفئة الارستقراطيـة التى نشأت من بين موظفى الملك تستقل باماراتها . واخـذ أمراء الاقاليم يقللون شيئا فشيئا من الصلات التى كانت تربطهم بالملك وتجعلهم يعتمدون عليه ... وفقـد الملك سلطته شيئا فشيئا ، ثم أخذت هـذه الاحوال تنتشر وتتفشى بوضوح ، وهى التى قضت بتفكك المملكة التام فى القرون التالية ... »

لم يؤد ذلك الى ضعف شوكة فرعون وحده ، ولكنه أدى كذلك الى ضعف المنشقين عليه من الامراء والنبلاء ، وكان الشـعب الذى ازداد وعيه قـد ضاق بحكمهم الغاشم ، واستفزه الظلم والسخرة ، فانتهز فرصـة ضعفهم ، وثار عليهم ناشدا تحقيق العدالة الاجتماعية ، ولكن ثورته كانت تفتقر الى قيادة وتنظيم ونظـرية ثورية ، فأفلت زمامها ، وسطا الذين أنهكهم الفقـر على الذين أتخمهم الغنى ، واستولوا على ما ملكت أيديهم ، وظنوا ان العدالة الاجتماعية تتحقق اذا هم أصبحـوا

أغنياء ، وأصبح الاغنياء فقراء ...

وقد وصف الاديب الحكيم بوادر تلك الثورة فى رسالة وجهها الى فرعون ، وفيما يلى بعض فقراتها :

« امتنع الناس عن دفع الضرائب ، وهتكت أستار المعابد والقصر الملكى ، وانقلبت أوضاع المجتمع رأسا على عقب ... الاشراف ينوحون ، أما المعدمون فمبتهجون .. وأولئك الذين يرفلون فى الثياب الفاخرة أصبحوا فى أسمال بالية ، فى حين أصبح الفقراء يمتلكون كل شىء ... والذى كان يستجدى جرعة ماء يشرب اليوم جعة قوية ... والذى لم يكن يملك رغيفا يملك اليوم مخزن غلال ، والذى لم يكن فى حوزته ثور واحد يملك اليوم الثيران ... ان لديك الحكمة والبصيرة والعدالة ، ولكنك تترك الفساد ينتشر فى الارض ، وتسكت عن ضوضاء المتعاركين... ألا ترى كيف يضرب بعضهم بعضا ؟.. لقد كذبوا عليك ، فالبلاد تشتعل ، والناس على شفا الهلاك ، وهذه السنوات كلها سنوات حرب أهلية .. »

ولا يجمل بنا ان نسكت على ملاحظة ابداها ارمان فى كتابه المذكور ، ومؤداها « ان شعوب الشرق هى التى تخضع للحكم الفردى الاستبدادى بخلاف شعوب الغرب التى ابتدعت الديموقراطية ، وحكمت نفسها بنفسها » هذه الفرية تدحضها ثورة الشعب على الحكم الفرعونى الغاشم فى أواخر الدولة القديمة ، والجدير بالتنويه ان الثورة المذكورة هى أول ثورة فى التاريخ شنها الشعب على حكم استبدادى غاشم ، فى حين ان الشعب الفرنسى خضع لحكم نابليون المطلق بعد تنكره لمبادىء الثورة الفرنسية المجيدة ، والمناداة بنفسه امبراطورا . كذلك استسلم الشعبان الالمانى والايطالى لاستبداد هتلر

وموسيلينى حتى بعد أن وضحت للشعبين مســــاوىء حكمهما كل الوضوح . أما الحكم الديموقراطى فالعرب هم مبتدعوه ، وهم الذين طبقوه التطبيق السليم ... ولسنا نقصد المفاضـــلة بين الشعوب كما فعل أرمان ، فالشعوب سواسيـــة فى الاصـــل ، وهى لا تختلف الا باختلاف ظروفها الدائمة التطور

ومما يدحض فرية ارمان ايضا هذا القول الذى أورده هو نفسه فى ص ٢٦ من كتابه المذكور : « كان الشـــعب فى الازمنـــة المتأخرة ، يعتبر عصر بنـــاة الاهرام عصر ظلم للطبقة الدنيا لانها كانت مسخرة قسرا .. » فالشعب المصرى لايرضى ، كما لا ترضى شـــعوب العالم كله ، بالحكم الاستبدادى الاستغلالى ، واذا سكت عليه وقتا ما فسكوته ليس الا سكوت من يتربص ويترقب فرصة الانقضاض عليه ...

ظلت الفوضى ، بعد تلك الثورة ، متفشية فى أرجاء مصر مدة تتجاوز قرنين من الزمان. ثم ظهرت فى «طيبة» أسرة مالكة جديدة أطلق أفرادها على أنفسهم اسم «انتف» وما تولوا زمام الحكم حتى بدأت مصر عصر أزدهار جديد لم يلبث أن فاق سابقه

وضع الفراعنة الجدد نصب أعينهم ــ الى جـــانب توطيد النظام وكفالة الامن ــ توفير الرخـــاء للبـــلاد ، فعملوا على احياء الصناعات المندثرة ، وتنشيط التجارة الراكدة والزراعة المتدهورة ، وتشجيع التوسع العمرانى ولم يتوانوا عن رعاية العلوم التى تكفل التقدم فى هـــذه الميادين .. وترتبت على ذلك نتيجته المحتومة وهى تزايد عدد المشتغلين بالحرف المذكورة ، وامتلاء خزائنهم بالمال، واشتداد نفوذهم . ولم تلبث أن تكونت منهم ــ على نحو ما ذكرنا فى أحد الفصول السابقة ــ طبقة متوســـطة

تفوق طبقة النبلاء خبرة وفطنة وعلما وغنى . وماشعرت بما اكتسبت من قدرة وتميز حتى أخـــذت تناضل فى سبيل الخلاص من سيطرة الطبقة التى تتحكم فيها دون مبرر . ولم يخف عليها ان أفتك الاسلحة التى تستعملها تلك الطبقة ، وترهب بها الناس لابقائهم خاضعين لها . . هى المعتقدات الدينية الوثنيـــة ... ولم يخف عليهـــا كذلك ان انتصارها على خصـــومها يحتاج الى أسلحة فكرية تفل أسلحتهم ، والى فرسان من الشعراء والكتاب يحسنون صقل تلك الاسلحة وشحذها وتسديدها الى كل مقتل .ولم يعدم ميدان الادب مثل أولئك الشعراء والكتاب

ظهر التيار الادبى الجديد المحتوم ، وعبر بالاناشيد والاغانى المقنعة عن معتقدات الطبقة الجديدة المناهضة للطبقة ذات السلطان . وأهم معتقداتها ، أو اتجاهاتها الفكرية ، هى ان التفكير فى الحياة أولى من التفكير فى الموت ، وان انفاق الوقت فى التمتع بالحياة أولى من انفاقه فى خشية زوالها ، والتفكير فى الحياة التى تعقبها ومن أمثلة الشعر المعبر عن المعانى المذكورة هذه الابيات:

« أين الفراعنة الآلهة الذين عاشوا فى الازمنة الغابرة ؟
وأين أولئك الذين شيدوا الدور ؟
لم يعد لديارهم وجود ! .. فماذا حدث لهم ؟
لقد سمعت أقوال الحكيمين ايمحوتب ، وددف حور ،
فالناس يرددونها فى كل مكان
كيف حال ديارهما ؟ ..
لم يعد لها وجود . فهى كأن لم تكن ..
ولا أحد يأتى من هناك فينبئنا عن حالهما ..
ابتهج اذن ودع القلب ينسى ...
اتبع نداء قلبك ما حييت ..
ابتهج ولا تدع قلبك يقنط

وانجز أعمالك على الارض ،
ولا تعذب قلبك ..
احتفل اذن باليوم السعيد
ولا تمله أبدا ...
لا يسمح لاحد بأخذ متاعه معه ،
ولا أحد ممن ذهبوا يعود ... »

ولا شك ان الصراع دار فى ميدان الادب بين هذه المعتقدات الجديدة والمعتقدات القديمة . ونحن نعترف بأن ليس لدينا نماذج من الشعر الذى حاول نصرة القديم على الجديد ، ولكننا نستشهد على وجود مثل هذا الشعر بما أورده ارمان فى ص ٤٣١ من كتابه سالف الذكر اذ قال :

« ولا شك فى انه كانت فى مصر الفرعونية أغنيات للشراب ، أكثر ابداعا من الناحية الفنية ، نعرف انها كانت تنشد بمصاحبة « الجنك » فى حفلات الامراء ، وانها على نقيض الدعوة الى السرور تدعو الشاربين الى تذكر الموت القريب .. »

ونعود للدعوة البورجوازية الى الاستمتاع بالحياة فنذكر الاغنية التالية ، وهى من أغانى الدولة المتوسطة :

« فى صحتك أيتها السيدة ،
اشربى حتى تثملى ،
واحتفلى بهذا اليوم السعيد ...
واستمتعى بحديث جليستك ،
ولا تضيقى ذرعا بالسرور .. »

وتجيب السيدة هاتفة :

« هاتى ثمانية عشر كوبا من النبيذ
انظرى .. انظرى ، انى أحب أن أشرب حتى أثمل
فجوفى « جاف » كالقش .. »

واذا كان الادب الاوربى ، خلال القرن التاسع عشر ، قد كشف الستر ، فى ميدان الصراع الايديولوجى ، عن مخازى الطبقة البورجوازية وانحلالها الخلقى ، فقد سبقه الشعر المصرى القديم فى هذا المجال بكشفه عن انحلال الطبقة المتوسطة المشابهة لها فى ذلك الاوان . وفيما يلى أبيات من ذلك القبيل ، وهى مترجمة بقلم الدكتور عبد المنعم أبو بكر :

« ... أجل ، لم يعد فى العالم عدل ونظام ، فالاخوة أصبحوا أهل سوء . وكل شخص يسرق أمتعة جاره ، والوديع يهلك ، والقوى يصل الى أغراضه .. والمخلص بائس ، والفضائل هجرت ... والذى يعتمد عليه أصبح لا قلب له . ولم يعد على وجه الارض أهل حق وعدل »

وكما دعت هذه الطبقة المصرية العصامية القديمة الى الاستمتاع بمباهج الحياة دعت كذلك الى الاستمتاع بالحب . وهب من ميدان أدبها تيار شعر عاطفى أشبه بالشعر الرومانسى البورجوازى ، ومن نماذجه هذه الابيات التالية التى تناجى به الحبيبة حبيبها :

« انى معك فى البستان ،
وقد غرست لك فيه الزهور ،
والاعشاب ذات الرائحة الذكية ..
ما أبدع البركة التى حفرتها فيه بيدى !
وما أجمل هذا المكان حينما نتنزه فيه ،
وحينما تضع يدك على يدى ...
قلبى مفعم بالسرور
لاننا نسير جنبا الى جنب ..
ان سماع صوتك يسكرنى ... ويحيينى ..
ولقاؤك عندى أشهى من كل طعام وشراب

وفى الابيات التالية تعبير صادق عن مشاعر العاشق :

« سأرقد فى حجرة نومى

لشدة ما أصابنى من حيف
وسيزورنى عندئذ جيرانى ،
وتأتى معهم حبيبتى ...
وسيخجل عندئذ الاطباء
لانها هى وحدها التى تعرف كنه دائى ... »
ولا تحضر حبيبته ، وهو يقبـل التضحية بكل شىء
نظير التحدث اليها مرة واحدة ..
« ها هو ذا بيت حبيبتى ...
بابه مفتوح على مصراعيه ..
ها هى ذى تخرج غاضبة ، وتؤنب البواب
آه لو انى بوابها حتى تؤنبنى ! »
وفيما يلى أبيات رقيقة تعبر بها عاشقةعن لوعةالحب:
« انى حضرت ونصبت الفخ ...
قلبى يهفو اليك لنفتح الفخ معا ،
أنا وانت بمفردنا ...
ما أجمل أن تكون معى هنا
عندما أنصب الفخ ...
الاوزة تنوح بعد أن ابتلعت الطعم ،
ولـكن حبك يربكنى
فلا أستطيع فك الفخ ...
ماذا عساى أقول لامى ؟ ..
كنت أرجع اليها كل يوم ،
حاملة ما صدته من طيور .
وأنا اليوم لم أصد شيئا
لان حبك أربكنى ... »
فى مقابل الادب الاسطورى الوثنى الذى تشجعـــه الطبقة الحاكمة وتخيف به الناس ، وتصرفهم بتهاويله عن عالم الواقع الى عالم الاوهام ، ينظم شعراء الطبقـة

الوسطى هذا الشعر العاطفى الانسانى الذى يصل الناس بالحياه ، ويزيدهم حبا لها ، وتعلقا بها ، واستخفافا بما يطلقه الادب الرسمى من صيحات الويل والثبور ، وبما يتوعد به من عظائم الامور . ومن ثم تدور المعركة التى لا مفر منها بين الادب الرسمى ، والادب الثورى ، وينعقد النصر الذى لابد منه للادب الجديد النامى ...

وفى ميدان الفن قامت معركة مماثلة بين القديم والجديد ، وظهرت الصور والنقوش التى تمثل عامة الناس من عازفين وعازفات وراقصات ، ومن حرفيين ومهنيين ، وزاحمت تماثيل ذوى السلطان وصورهم ونقوشهم

ولا نكران ان الاعمال الادبية والفنية التى ذكرناها ، وقلنا انها كانت تعبر عن معتقدات الطبقة الوسطى فى مصر القديمة ، ليست فى الواقع أعمال تلك الطبقة ، ولكن الذى لا شك فيه انها رجع صداها ، فكل ما نعرفه من أدب مصر القديمة وفنها وجدناه مدونا فى مقابر الملوك والامراء ، أو منقوشا على جدران المعابد ، فمن الطبيعى أن يكون خاصا بالطبقة الحاكمة ، فاذا عبر بعضه عن معتقدات تناقض ما تؤمن به الطبقة المذكورة ، وتتفق وبعض المعتقدات التى تروجها الطبقة الوسطى ، فلا شك انه تأثر بتلك المعتقدات التى بلغ من رواجها ونفاذ أثرها أن تسربت اليه ، وطبعت بصماتها على صفحته

وسبق أن ذكرنا قول ارمان : « ولا شك انه كانت فى مصر القديمة أغان للشراب ، أكثر ابداعا من الناحية الفنية ، نعرف انها كانت تنشد فى حفلات الامراء ، وتدعو الى تذكر الموت بدلا من الدعوة للسرور .. » فاذا قطع هذا المؤرخ المدقق بوجود أغان تعبر عن وجهة نظر معينة خاصة بالامراء ، ولم يحتفظ لنا التاريخ بها ، لاسيما بعد أن تردد رجع صداهما فى الادب والفن

أنرسميين ... ومن باب أولى ألا يحتفظ بهما تاريخ مصر الذى لم يكن يسجل الا آثار الملوك والعظماء

محصل القول ان التحول الاقتصادى الذى طرأ على مصر القديمة عندما انتقل مجتمعها من عصر العيش على الصيد والقنص الى العصر الزراعى ... أسفر عن تحول معتقدات ذلك المجتمع من مجرد أوهام مبهمة رهيبة يطلقها الخوف من المجهول وكوارثه ، الى أوهام من نوع مختلف ... الى قصص اسطورية تلعب فيها الآلهة الوثنية أدوار البطولة ، فتمد الناس بأسباب الحياة ، وتكافىء المحسنين الخيرين على حسناتهم ، والمطيعين على اطاعتهم ، وتعاقب الاشرار المسيئين على سيئاتهم ، والعاصين على عصيانهم .. واهتم ذوو السلطان بهذه الاساطير ، وشجعوا الكهنة على الاكثار منها وترويجها ، واتخذوا منها وسيلة للسيطرة على الشعب . واتجه اليها الادب والفن الثوريان يستمدان منها موضوعاتهما ... ثم اقتضى التقدم الاقتصادى أن تظهر طبقة جديدة تشتغل بالصناعة والتجارة ومختلف العلوم ، وان تزداد على مر الزمن عددا وثروة ونفوذا ، وتكتسب باطراد خبرة وفطنة ومعرفة ، ويطلع لها أدب وفن يعبران عن مثلها الفكرية . وعلى قدر اختلاف مصالحها ومصالح الطبقة الحاكمة تختلف مثلهما الفكرية وتتناقض ، ويصارع بعضها بعضا فى سبيل تأييد أربابها ، ونصرهم على خصومهم . وفى معمعان هذا الصراع يشتد نشاط الادب والفن ، وتتنوع مبتكراتهما ، ويخطوان خطوات واسعة فى سبيل التقدم ، ويحققان نهضة مزدهرة

من ذلك نرى كيف ان نهضة الادب والفن فى مصر القديمة اقتفت أثر الاقتصاد فى تطوره ، وتشكلت وفقا لمقتضياته ، سالكة فى ذلك نفس الطريق الذى تسلكه عادة فى سائر البلاد

الفصل السابع

الأدب والحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية

الحقيقة الهامة التى سبق لنا التنويه بها هى أن الادب العربى سبق غيره من آداب الامم الغابرة فى تحرى الواقع على حقيقته ، وتصويره كما هو فى دقة وبراعة وأمانة

وقد أرجعنا ذلك الى موقع الجزيرة الذى جعلها ملتقى للامم المحيطة بها ، والى وضعها الاقتصادى الذى فرض عليها الاتجار مع تلك الامم منذ العصر الجاهلى .. والى ما أسفر عنه ذلك الموقع وذلك الوضع من اتصال العرب بشعوب مختلفة ، واكتسابهم معارف متنوعة ، ثم نمو ادراكهم العقلى تبعا لذلك ، وفطنتهم الى الحقائق الموضوعية بعد انخداعهم فى شطحات الخيال ، واهتمامهم بالدنيا الواقعية بعد ضلالهم فى دنيا الاوهام .. واذ وصلوا الى هذه المرحلة من التطور الفكرى ، فمن الطبيعى أن يتجه أدبهم مثلهم الى الواقع ، ويستمد منه موضوعاته

بيد أن ما تقدم يشرح العوامل الخارجية التى أثرت فى الادب العربى أيام الجاهلية ، ويتطلب استكمال الشرح أن نذكر أيضا ، أثر وقتذاك من عوامل داخلية . .

من المعروف أن العرب كانوا فى الجاهلية متفرقين قبائل وشيعا وسط صحرائهم القليلة الموارد والمراعى . وقد دفعتهم هذه القلة فى الموارد والمراعى الى التكالب عليها ،

والحرب اما فى سبيل الظفر بها ، أو فى سبيل الذود عنها ، ثم استجدت أسباب أخرى للحرب كالاخذ بثأر من ماتوا فى معارك سابقة ، أو كنجدة الصديق أو غوث الملهوف . وقد أصبح القتال ، بعد تعدد أسبابه ، ديدن تلك القبائل ، فتأصلت فى رجالها صفات المروءة والشجاعة والنخوة ، وراح شعراؤها يفاخرون بتلك الصفات فيزيدونها تأصلا فى النفوس .. ولم تكن القبيلة المنتصرة تكتفى باغتصاب عيون الماء والمراعى والاسلاب ، ولكنها كانت تسبى نساء خصومها أيضا . ومن ثم نما فى صدور فرسانها شعور بمسئوليتهم عن سلامة حياضهم ونسائهم على السواء ، وتوطد بينهم تقليد من أهم تقاليد الفروسية ، وهو القتال فى سبيل صون شرف المرأة وعزتها وكرامتها .. ومن ثم أيضا سمت مكانة المرأة العربية عند الرجل .. بيد أنها ما شعرت بالمنزلة التى رفعها اليها حتى أخذت تعز وتدل ، وتتجمل وتتهذب لتزداد تمكنا من قلبه . وأكبرت فى نفس الوقت شجاعته ، وقدرت استبساله فى سبيل حمايتها ، فزاده ذلك تعلقا بها وتقديرا لها ، وأشعل بين جوانحه حبا لم تعرفه الشعوب الاخرى فى ذاك الاوان .. حبا يتلهف ويحن ، ويتقلب بين الامل واليأس ، ويسبح فى عالم الاحلام ، ويوحى الى الشعراء بمعان غير مألوفة ، فطلع عندئذ على العالم شعر الغزل العربى الذى يعبر عن ذلك النوع الجديد من الحب

وكانت الشعوب غير العربية تخشى حينذاك القحط ، وترجف خوفا من ثورات الطبيعة ، ومن المرض والموت والاحلام وما الى ذلك من الظواهر التى لا تستطيع تفسيرها وتعليلها . وكانت تستعين بالابتهالات والسحر والشعوذة لاسترضاء قوى شريرة تتوهم أنها تريد بها ضرا ... فى حين أنف الفرسان العرب أن يستسلموا

للمخاوف ، ويسترسلوا وراء الاوهام ، وعلمتهم الحروب المتواصلة أنهم يستطيعون تحقيق مطالبهم ، وتوفير حاجاتهم ، ودرء الشر عنهم بحد سيوفهم ، لا باستعطاف قوى شريرة مبعثها الخوف والجهل ، ولسنا ننكر أنهم كانوا يلجأون الى الكهانة والعرافة وزجر الطير ، ولكن دافعهم الى ذلك كان التفاؤل والتشاؤم ، ولم يكن الخوف من المجهول بحال ، فهم كانوا المتحكمين آخر الامر فى مصائرهم . ولسنا ننكر أيضا أنهم كانوا يعبدون الاوثان ، ويحجون الى آلهتهم فى مكة ، ولكن كان للعبادة وقت معين يعودون بعده الى حياتهم اليومية ، حيث لا يعتمدون الا على بأسهم وشجاعتهم

كان العربى يذكر آلهته عندما تحيق به فى حروبه هزيمة ، ولكن سرعان ما كان يثوب الى رشده ويعلم أن مصيره فى يده ... كان يحارب خصما يعرفه تمام المعرفة ، لا خصما موهوما ، وكان يعلم كيف يجابهه وينتصر عليه ... وشتان ما بينه فى ذلك وبين الذين يتوجسون خوفا من المجهول ...

وقد يقال ان الامم المختلفة القديمة كانت تخوض ميادين القتال كالعرب ، فلماذا لم تتأصل فيها صفات كصفات العرب ، ولماذا لم تتحرر مثلهم من لوثة الاوهام الخرافية ، ولم يتحول أدبها من أدب أسطورى الى أدب واقعى ؟ والرد على ذلك غير خاف ، فتلك الامم لم تكن تبتلى بمحنة الحرب الا فى أوقات متباعدة ، فى حين كان العربى يتوسد فى كل ليلة رمحه ، ويغمض فى نومه احدى عينيه ويفتح الاخرى ترقبا لهجوم مفاجىء من خصمه ، وتأهبا لمقاومته ، فمن الطبيعى الا يعتمد فى هذه الحالة الا على نفسه ، وأن يكتسب صفات حضور الذهن ، وسعة الحيلة وسرعة التصرف

هذه هى الظروف الاقتصادية التى طبعت حياةالعرب فى عصر الجاهلية بطابع خاص ، وفتقت ذهنهم تفتقا لم تصل اليه أذهان الشعوب التى عاصرتهم ، وأصلت فيهم صفات سامية لم يقدر لها أن تتأصل فى غيرهم من الشعوب الا بعد ردح من الزمن ، ووجهت شعرهم الى الواقع فهدته الى الطريق السليم ونشير هنا الى بيت من الشعر لشاعر عربى قديم ، فهو يدل على أن اتجاه العرب الى الواقعية كان عن وعى وقصد ، ولم يكن اعتباطا :

وان أجمل بيت أنت قائله   بيت يقال اذا أنشدته صدقا

وتطور المجتمع العربى بعد ظهور الاسلام فجاراه أدبه فى تطوره ... لقد أنسدل الستار على عصر الجاهلية ، وتحول العرب من قبائل متفرقة متناحرة ، مختلفة الاهداف ، الى أمة متحدة لها أهداف واحدة ، بل لها رسالة انسانية كبرى آلت على نفسها الاضطلاع بها

وهذب الاسلام النفوس ، ورقق المشاعر ، فتحول الحب الجاهلى الجنسى الى حب طاهر ، ولاول مرة فى التاريخ ظهر شعر نبيل يعبر عن لواعج الحب العفيف

ونشر الاسلام معتقدات ومثلا فكرية وأخلاقية جديدة على العرب ، فغير مفهومهم للحياة ، واستمد الشعر العربى من ذلك موضوعات ومعانى ذات جدة وأصالة

ومن أمثلةشعر الغزل الطاهر قصائدالشعراء العذريين ومن نحا نحوهم ، وهى تعد فريدة فى عالم الادب قاطبة. ونذكر من هذه القصائد أبياتا على سبيل المثال :

قال كثير :

وكنت اذا ما زرت سعدى بأرضها
أرى الارض تطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفـرات البيض ود جليســـها
اذا ما انقضت أحـدوثة لو تعيـــدها
مخصرة الاوســـاط زانت عقـــودها
بأحســن ممـــا زينتهـــا عقـــودها
يمنيننـــا حتى تـــرف قلوبنـــا
رفيف الخزامى بات يطـــل بجودها

وقال أيضا :
ومـــاذا عليهـــا لو أشـــارت فسلمت
علينـــا بأطـــراف البنـــان وأومت
ولا يحسب الواشـــون أن صـــبابتي
بعـــزة كـــانت غمـــرة فتجـــلت
وقال جميل فى معمر :
وانى لارضى مـــن بثينـــة بالـــذى
لـــو أبصره الـــواشى لقـــرت بـــلابه
بـــلا وبـــأن لا أســـتطيع وبالمـــنى
وبالامل المرجـــو قـــد خـــاب آمله
وبالنظرة العجـــلى وبالحـــول ينقضى
أواخـــره لا تلتـــقى وأوائـــله

وقال أيضا :
يقولون جاهـــد يا جميـــل بغـــزوة
وأى جهـــــاد غـــيرهن أريـــد ؟
لـــكل حـــديث بينهن بشـــاشة
وكـــل قتيـــل بينهن شـــهيد
وقال أيضا :
لا والـــذى تســـجد الجبـــاه له
مالى بمـــا دون ثوبهـــا خـــبر
ولا بفيهـــــا ، ومـــا هممت بـــه
ما كـــان الا الحـــديث والنظـــر

ورفع قيس بن الملوح محبوبته الى مرتبة التقديس اذ قال :

وكنت اذا صليت يممت نحوها
بوحي وان كان المصلى ورائيا

وهو يوحد حبيبته فلا يشرك بها حبيبة أخرى :

وشب بنو ليلى وشب بنو ابنها
وأعلاق ليلى فى فؤادى كما هيا

وقال قيس بن زريح :

فان يمنعوها أو يحل دون حبها
مقالة واش أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عينى عن دائم البكا
ولن يذهبوا ما قد أجن ضميرى

ويصف ابن الطثرية ما لحبيبته من مكانة ومهابة وحرمة :

بنفسى من لو مر برد بنانه
على كبدى كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل أمر وهبته
فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

وقال آخر يصف بعد منال الحبيبة :

وكنت اذا أرسلت طرفك رائدا
لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر
عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ولا يرضى ابن الرومى فى حبه بأقل من امتزاج الروحين:

أعانقها والنفس بعد مشوقة
اليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كى تزول حرارتى
فيشتد ما ألقى من الهيمان

كأن فؤادى ليس يروى غليله
سوى أن يرى الروحان يمتزجان

ونكتفى بما تقدم شاهداً على ما قلنا ، فمن أراد زيادة فدواوين الشعراء العرب زاخرة بمثل هذا الشعر

وعلى اثر ظهور الاسلام زحفت جيوش العرب على البلاد المجاورة لتنشر تعاليم الدين الحنيف . ولم تلبث أن فتحت مستعمرات الروم فى آسيا الصغرى وشمال الجزيرة ، وتجاوزتها الى بلاد الفرس والهند حتى وصلت الى تخوم الصين . وزحفت غربا ففتحت مصر . وأسفرت هذه الفتوحات عن امتلاء خزانة الدولة العربية بالمال ، وانتعاش الحركة الاقتصادية والثقافية فى الجزيرة ، وظل هذا الانتعاش يزداد حتى بلغ مستوى حضاريا رفيعا ...

وكثر عدد من جرى فى أيديهم المال ، وازداد طلب أسباب الرخاء ، فنشطت الصناعة والتجارة لسد الحاجات الجديدة المتزايدة ، وحدث ما يحدث دائما فى مثل هذه الحال .. نشأت – على نحو ما ذكرنا من قبل – طبقة جديدة من التجار والمهنيين ورؤساء الحرف ، واتسعت بهم المدن اتساعا كبيرا ، وعرفوا فى الحياة المدنية الجديدة متعها الخاصة بها ، وازدادوا انغماسا فى هذه المدن بمقدار ازدياد غناهم وسلطانهم ...

انتشرت الملاهى العامة والخاصة ، وانعقدت فى كل بيت مجالس الشراب والغناء ، وحلقات الطبل والزمر والرقص ، وأقبل عليها الفرحون بمالهم وجاههم ، واقدموا على مغامرات اللهو والمجون ، ترددت أصداء الطيش والعبث فى كل مكان

ولا يعقل ان يعيش الشعراء والادباء بمعزل عن هذه الحياة اللاهية ، والا يتأثروا بها ويصفوها فى شعرهم ..

وتاريخ الادب العربى شاهد على انها كانت بالفعل عميقة الاثر فى نفوسهم ، وانها انعكست فى كثير من أعمال ذلك العصر الادبية . ومن اقدر الشعراء الذين وصفوا مجالس الشراب واللهو « ابن الرومى » و « أبو نواس »

ومن الطبيعى ان تكون لهذه الطبقة من الناس ميول ومثل فكرية وأخلاقية خاصة بها ، وأن ينوه الشعراء المنتمون اليها بهذه المثل والميول . ومن ثم بدأ يظهر شعر يستخف بالتحرج فى الدين وفى السلوك ، ويدعو الى انتهاز المتع المتاحة فى هذه الحياة الجديدة ، ويصف جمال المرأة الجسدى ، ومتعه الرخيصة

ويتأثر حتى الشعراء العذريون بهذه النزعة الجديدة فيقول كثير :

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن
عليك شجا فى الحلق حين تبين
وان هى اعطتك الليان فانها
لغيرك من خلانها ستلين

ويبدأ الغزل المتهتك فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، ويبلغ ذروته فى شعر بشار بن برد

وتستفحل الانتهازية بين أفراد تلك الطبقة ، وتدين بمذهب البقاء للأقوى ، وتستبيح التناحر فى سبيل الغلبة والظفر بالمال ، ولا ترحم من يعجز عن مغالبتها . وقد عبر بعض الشعراء عن هذه المثل الفكرية ، ومن هؤلاء المتنبى اذ قال :

ومن عرف الايام معرفتى بها
وبالناس روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم اذا ظفروا به
ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وفى مقابل هذا التيار الشعرى الذى ينمو ويشتد

بمقدار نمو واشتداد الطبقة التى يعبر عنها ... يهب تيار من الشعر مضاد له يسفه الحياة الجديدة ويحن الى الماضى ... ففى الابيات الاتية يعبر « المتنبى » عن ضيقه بالحياة الحضارية المتصنمة ، وعن حنينه الى حياة البادية البعيدة عن الصنعة والتكلف :

من الجآذر فى زى الاعاريب ؟
حمر الحلى والمطايا والجلابيب
نفسى فداء ظباء ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا خرجن من الحمام ماثلة
أوراكهن صقيلات العراقيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البداوة حسن غير مجلوب

ويضيق المتنبى حتى بتقدم المعرفة ، ونمو الادراك العقلى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

ويضيق بالكفاح والقتال فى حياة ذلك العصر :

يقول بشعب بوان حصانى
أمن هذا يسار الى الطعان ؟
أبوكم آدم سن المعاصى
وعلمكم مفارقة الجنان

كذلك يضيق الطغرائى بتغير أوضاع عصره الاجتماعية وسيادة الانتهازيين

تقدمتنى اناس كان خطوهم
وراء خطوى اذ أمشى على مهل
ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الاوغاد والسفل

ويهجو جرير الفرزدق ، ويندد بفجره ، ويحذر « اهل المدينة » من الرجس :

لقــد ولدت أم الفرزدق فاسقا
فجاءت بوزواز قصــــير القوادم
يوصــــل حبليــه اذا جن ليــــله
ليرقى الى جاراتــــه بالســــلالم
هو الرجس يا أهل المدينــة فاحذروا
مداخل رجس بالخبيثـــات عالم

ونكتفى بما تقدم فالاستشهاد بمثل هذا الشعر يطول

واذا كان الشعر قد عبر عن مختلف الاتجاهات الفكرية التى سادت « الطبقــة البورجوازية » ــ أو الطبقــة المتوسطة من سكان المدن ــ عقب نمو تلك الطبقة وازدياد سلطانها ، فان القصص اضطلعت بمثل ذلك أيضــا ، فقد اشتركت ، فى مطلع الاسلام ، مع الشعر العذرى ، فى تنزيه الحب عن رغبات الجسد ، وتصوير الوفاء فى أرقى مراقيه ، وخير نماذج هذه القصص سير الشعراء العذريين أنفسهم ، فالمحب فيها يظل مقيما على عهــد حبيبته برغم العوائق التى تحول دون لقائها ، وبرغم ما يسببه له اخلاصه من عذاب ، ومن أذى ، وهو يتلهف على الوصال لا لغرض الا الائتناس بمنية قلبه ، وامتاع نظره بحسنها ، وتشنيف سمعه بحديثها ، ولا ينــال طول البعاد ، وتصاريف الزمن من لهفته العارمة ... وليست القصص الاوربية الرومانسيــة التى راجت فى مستهل العصر الحديث الا وليدة التطور الطبيعى لتلك القصص العاطفية

وبنمو الطبقة المتوسطة وازدياد نفوذها ظهرت قصص أدق صياغة ، واقرب الى الشـــــكل القصصى الفنى ، وعكست مضامينها كل ما اشتملت عليه الحضارة العربية

وقتذاك من خير وشر ، ومن صلاح وفساد ، وكل ما اتصفت به الطبقة الموسرة النامية من سمو وجدانى ، وانحلال خلقي ، وكل ما هب على المجتمع الجديد من تيارات فكرية وعاطفية . فالقارىء يكاد يشاهد من خلالها محاريب الطهر والفضيلة الى جانب مجالس اللهو والمجون ، ويكاد يحس في بعض الاحيان توزع نفس البطل بين التمسك بالفضيلة ، والاستسلام لمغريات الرذيلة . وهى تعكس ما يحدث فى معترك الحب من تضحية وايثار ، ومن مكائد وخيانات ، وما يعتمل فى نفوس الازواج والزوجات من اساءة ظن وغيرة وقسوة ، ومن حسن ظن وثقة ورحمة ، وتعكس ايضا ما يقع بين الناس من تضارب المصالح ، ومن احداث الغدر والانتقام ، ومن المساعى الحميدة فى سبيل السلام والوئام .. ولا يتسع المجال هنا لذكر مختلف انواع تلك القصص ، وعرض موضوعاتها ، وشرح مضامينها الاجتماعية والسياسية ، فبحسبنا ما ذكرناه عنها

وما طغى الفساد على تلك الطبقة ، وفقدت قدرتها على الخلق والابداع حتى اصاب أدبها الانحلال ، وحلت الصنعة الجوفاء محل الاصالة الفنية ، ولا عجب فى ذلك مادام الادب صورة لمجتمعه

الفصل الثامن

الأدب الفرنسي وقضايا المجتمع

كان الادب الفرنسي حتى اواخر العصر الوسيط عالة على الادبين الاغريقي واللاتيني ، ولا نستثنى من هـــذه الحال الا نهضة شعرية ازدهرت فى الجنوب الفرنسي حاكى القائمون بها شعر الغزل العربي ، ثم اخذت تلك النهضة تحدث بعض الاثر فى أدب شمال فرنسا

ولم يطرأ تغير على أدب المحاكاة المذكور الا بعد ان نشأت طبقة من التجار ووكلاء الاعمـــال والممـــولين والمهنيين والمثقفين ، واخـــذت تنمو نموا مطـردا بسبب الظروف الاقتصادية التي أشرنا اليها في معرض حديثنا عن نشأة مثل تلك الطبقة فى مصر القديمة ، وفى الجزيرة العربية ، فان ازدياد غنى أمراء الاقطاع ونبلائه زاد من قدرتهم على شراء مختلف السلع ، وعلى بناء القصور وفرشها بأفخر الرياش ، وتجييش الجيوش وتزويدها بعدة الحـــرب . ونافس بعضهم بعضا فى احاطة انفسهم بأسباب الجاه ، وزيادة قدرتهم على الغزو والبطش ، فأدى ذلك ، بطبيعة الحال ، الى ازدهار الصناعة والتجارة لتلبية طلباتهم المطردة الزيادة ، ونماء الطبقة المذكورة تبعا لذلك ، وازدياد غناها وثقافتها وسلطانها . وقد تأثرت بالفـــكر والادب

العربيين كما تأثر به نبلاء الاقطاع وشعراؤه من قبل ، ولكنها لم تقف عند حد محاكاته ، بل تعلم ادباؤها من واقعيته التعبير عن واقعهم ، وبدأوا يكتبون قصصهم ، وينظمون شعرهم ، بلغتهم المحلية بعد أن كانوا يقتصرون على النظم والكتابة باللاتينية ، وتحولوا من تصوير القديسين والقديسات على نحو ما كان الاغريق يصورون آلهتهم ، ومن نسبة المعجزات الاسطورية اليهم ــ وهى أشبه بالمعجزات الاسطورية الاغريقية ــ تحولوا من ذلك الى التعبير عن معتقدات طبقتهم ، وعن ميولها وتطلعاتها .. وقطع التقدم العلمى فى أثناء ذلك شوطا بعيدا ؛ وظهرت له كشوف قضت على المعتقدات القديمة ، وترتب على ذلك كشف أمريكا ، وتدفق المال على فرنسا كما تدفق على غيرها من البلاد الأوربية . وقوى ايمان أبنائها بالعلم فأقبلوا عليه وتبحروا فيه ، واقترن هذا النشاط العلمى بنشاط أدبى متجدد . واكتسبت الطبقة البورجوازية النامية من الخبرة واتساع المعرفة والغنى ما جعلها تشعر بأنها أرفع مستوى من الطبقة الارستوقراطية ماديا ومعنويا . وراح الأدب المعبر عن أفكارها وخوالجها يطاولها قوة واقتدارا . وتجرأ على طبقة السادة ، ولم يكتف بنقدها ، بل راح يسخر من تقاليدها ومعتقداتها ومفاهيمها ، ويشيد بمواهب طبقته ، ويؤيد معتقداتها ، ويؤكد قدرتها على التحرر من سلطان السادة ، وانتزاع زمام الحكم من أيديهم ، وهكذا هب فى عالم الادب الفرنسى هذا التيار الادبى الجديد الذى انتقل الى مرحلة هامة من مراحل التقدم

ورثت فرنسا فى القرون الوسطى ــ شأنها فى ذلك شأن سائر الدول الاوربية الغربية ــ مفهومها للحب عن

الاغـريق ، فلم تعـرف منه الا جانبه الجنسى ... لم تعرف لواعج الحب وأحلامه ، ومباهجه وآلامه ... ولم تعرف سحر دلال المرأة العفيفة ، وفتنة لطفها ولباقتها .

ثم غزاها شعر العرب زاحفا مع جحافلهم ، واستطاع أن يضرم بين جوانح أهلها حبا من نوع جديد لم يعرفه قبلا ... حبا تنفثه المراة بجمالها المعنـوى الى جانب جمالها المادى ...

وكان الجنوب الفرنسى قد بلغ وقتذاك مرحلة متقدمة من مراحل التطور الاقتصادى — مرحلة لم يبلغها امراء الشمال — نظرا الى اتصاله تجاريا بالامم الشرقية ، وتاق امراؤه الى رفع مستوى معيشتهم ، ووجدوا فى أمراء الاندلس قدوة لهم ، فراحوا يتشبهون بهم ، ويمهدون لانفسهم أسباب عيشة رغدة كعيشتهم ... ووصلت الى أسماعهم قصائد الغزل العربى ، فخفقت لها جوانحهم ، وتأثرت بها نفوسهم الضائعة بخشـونتهم البربرية ، التواقة الى السمو فى مدارج الحضـارة . وشرع أحـد أولئك الامراء — وهو جيوم دى بواتييه — فى نظم شعـر يحاكى به تلك القصائد ، وأقتـفى أثره أدباء من امارته اشتهروا باسم الشعراء التروبادور .

بذلك افتتح الكونت « جيوم دى بواتييه » عهـد احتفال نبلاء الاقطاع وفرسـانه بالحب ، والزلفى الى المرأة ، وخطب ودها ، والحرص على مرضاتها ، والقتـال من أجلها ، والتضحية بكل نفيس فى سبيلها . ثم أصبح تقديس المرأة — وهو التقليد العربى الاصل — أهم تقاليد الفروسية الاوربية فى العصر الوسيط .

بيد أن هذا التقليد قوبل فى أول أمره ، من الاوفيـاء للقديم ، بمعارضة شديدة ، وقد استندوا فى مقاومته الى أنه ينال من صفات الفروسية ، فهو يستل الشجاعة

من قلوب الفرسان ، ويحيل أقدامهم الى خوف ، وقوة شكيمتهم الى ضعف ، وغلظتهم الى رقة ... ويتحول بهم من ميادين القتال الى خدور النساء ، ويعرضهم للامتهان ، كما يعرض بلادهم للمخاطر ... ومن ثم قام صراع فكرى بين أنصار تقاليد الفروسية القديمة وهذا التقليد الجديد ... وسرعان ما اشترك الادب الفرنسى فى هذا الصراع ، وأيد فيه الجديد ، ومكنه من الانتصار على القديم ..

ظهرت قصص تؤيد مساواة المراة بالرجل ، وتؤيد حقها فى أن تحب من تشاء ، وتتزوج بمن تريد ، ومن أمثال تلك القصص الجديدة الشكل والمضمون قصة « انياس » وقصة « طيبة » وقصة « طروادة » ..
وقد تحدث عنها « بييرديكس » فى كتابه « القصة فى سبعة قرون » فقال : « انها تختلف اختلافا واضحا عن الملاحم القديمة ، وتتميز بأسلوبها الشعرى الموسيقى المتحرر من التراكيب المعقدة ... انها تدل على أن مؤلفيها اتخذوا موقفا ازاء العالم الواقعى أقرب بلا شك الى الادراك العقلى السليم ... والذى يلفت النظر هو هذه الجراة العلمية المحاطة باطار وثنى ، وهذا الايمان الراسخ بالعقل البشرى ... »

وأهم تلك القصص الثلاث قصة انياس ، ومحصلها أن بطلتها ، وهى فتاة فى مقتبل العمر تدعى انياس ، تتعرض لما كانت بنات جنسها يتعرضن له فى ذلك الاوان ، وهو التزوج برجل يفرضه عليها أهلها ... ولكنها تعارض رغبة أهلها ـ وهو يحدث لاول مرة فى تاريخ الادب الاوربى ـ وتصر على الزواج بمن تحب ... وهو البطل « انياس »

ومن تعليق بييرديكس على هذه القصة قوله : « ...

لم يسبق أن تعرض أحد لمثل موضوع تلك القصة ..»
وليتحدث من يشاء كما يشاء عن فواجع الملاحم القديمة، ولكن أين تلك الفواجع من هذا السحر ، وهذه الجدة المنقطعة النظير ، وهذا الاضطراب الذى تعانيه الفتيات عندما يواجهن الحب ... ان العظمة التى تحققت هنا لا تمت بصلة الى الهلع الذى يستحوذ على الانسان عندما يواجه مصيره المكتوب ، ولكنها عظمة الايمان بالحياة والانسان ، وعظمة التغنى بجمال الربيع ... بل عظمة عالم ارتفع فيه صوت المرأة فغير معالمه القديمة .. ولم يكن هذا الصوت يرتفع قط ليعبر عن الحب والسعادة .. ان لدينا هنا تعبيرا جديدا عن عواطف جديدة .. »

ويعترف بييرديكس بالدور الخطير الذى لعبه الحب الجديد ـ العربى المصدر ـ فى بعث الحضارة الاوربية ، فهو يقول : « ان عظمة مؤلفى هذه القصص الفرنسية الاولى تنبع من ذلك الكشف الباهر للعامل الذى يلعب الدور الرئيسى فى كل ناحية من نواحى حضارتنا الحديثة ... كشف الحب الجديد الذى يحسب فيه للمرأة حساب ، والذى أصبح مادة للاحلام ، وللمثل العليا التى تضىء فنوننا .. لقد عرف أولئك المؤلفون كيف يعبرون عن الجديد الناشىء فى عصرهم ... عن العلاقات الحاسمة بين الانسان والعالم الذى يعيش فيه ... هذه العلاقات التى سوف تتمخض عنها وسيلة جديدة لفهم الذات ، وفهم العالم وعلاقاته العاطفية ... بيد أن الوعى الذى نشأ فى بلادنا مع هذه القصص الاولى ليس وعيا عاما مجردا يشغله « القدر المكتوب » ، و « المصير المحتوم » ، بل هو شعور بالجديد الموضوعى الحقيقى الذى نشأ مع الازدهار الاقطاعى وهو فى ابانه ، ومع التقدم الذى حققه المجتمع ... ان كاتب قصة

« انياس » مبدع واقعى يعبـــر عما يجـــول فى أذهان معاصريه ... »

ثم ظهرت قصــة الكاتب النورماندى « كريتيان دى تروا » دعاها « اريك وانيد » ، واعتبرها بعض نقــاد عصرنا الحاضر فاتحة القصة الحديثة ... عالجت هذه القصة أخطر مشكلات عصرها ، وهى مشـــــكلة الحب الجديد الذى قسم المجتمع الفرنسى وقتـذاك الى فريقين متشاحنين متنابذين ، فريق مرحب به وآخر ســاخط عليه ، ودار فيها السؤال : أهذا الحب يطفىء جـــذوة الشجاعة فى صدور الفرسان حقا أم يزيدها تأججا ؟

ان مقاومة بعض الفرسان الاقطاعيين للحب الجـديد لا ترجع الى أســباب اخــلاقية فحسب ، ولـــكن الى أسباب سياسية أيضا ، فالحب الجـــديد يتناقض فى نظرهم مع الدور الاجتماعى الذى ينبغى للسيد أن يلعبه وهو يمس مانسجته حياة ذلك العصر الاجتماعية من علاقات بين الافراد

وتتمثل عظمة هذا الـكاتب الالمعى فى اتخاذه موقفـا تقدميا من المشكلة التى يعرضها ، فهو مع الجـــديد النامى ضد القديم المتداعى ، ان « رقة » الحب الصادق لم تضعف قوة اريك ، ولم تبدد شجاعته ، ولكنها زادته قوة وشجاعة ، ولقد أصبح أشد اقداما على المخاطر حتى يسمو قدرا فى عينى حبيبته ...

ومنذ ذلك الوقت أصـــبح حب المرأة أهم تقاليـــد الفروسية . ولكن الفرسان اندفعوا منذ ذلك الحين فى تياره الى حد أنه لم يعد يشغلهم شاغل غيره . لقـــد انصرفوا الى مغازلة النساء وأهمــلوا ما عدا ذلك من شئون الحياة ، فأعوزتهم التجربة والخبرة بالحيـــاة ، وضحلت معارفهم ، وانحطت مداركهــم فى الوقت الذى

احتكت فيه الطبقة البورجـــوازية بالعمل ، فازدادت خبراتها ، واتسعت معارفها وسمت مداركها .. وهكذا أصبح الحب الذى أحدث فى فرنســــــا نهضة أدبية واجتماعية فى إبان عصر الاقطاع سببا فى تدهـــور طبقة النبلاء ، وضياع هيبتهم ونفوذهم .

وعندما بدأ البورجوازيون يشتبكون فى صراع مرير مع النبلاء الفرسان فى سبيل الظفر بالحرية والسلطان اتخذوا من استسلام خصــــومهم لعاطفة الحب مغمزا يسددون اليه طعناتهم المصمية ، واســـتعانوا بالادب والدين على تسديد تلك الطعنات

وتجلى ذلك أوضح ما تجلى بظهور مذهب الجانسينية فى محيط الدين ، وظهور مسرحيات كورنى وراسين فى عالم المسرح ..

ويتحصل مذهب الجانسينية فى أن الانسان ضعيف بطبعه ، عاجز عن فرض ارادته ، والتحكم فى مصـيره ، مستسلم لعاطفة الحب المذلة ... وهذه سـيئات لابد من عقابه عليها فى الاخرة ... بيد أن للانسان أملا فى الفوز بعفو ربه اذا هو التزم الاستقامة التزاما صارما ، وترفع عن أخطاء البشر ، بل حتى عن هناتهم الهينة .

فالجانسينية اذن تبصر الانسان بالضعف ومعرته ؛ وتستحثه على الاهابة بعزيمته ، والاســتعانة بها على مقاومة المفاسد ، لاسيما مفسدة الحب التى هى من أشد أسباب ضعفه ، وهو اذا انتصر فى المعركة مع نفسه الامارة بالسوء ضمن السمو والمجد فى الحياة الدنيا ، والجزاء الحسن فى الاخرة .

ومن الواضح أن الجانسينية عرضت بطبقة الاشراف اذ أشارت الى ضعف الانسان واستسلامه للحب ، ونددت بهمـا ، وأنها عبرت عما يصبو اليه البـورجوازيون من

تجنب أسباب الضعف ـ ومن أهمها الحب ـ والتماس اسباب القوة ، واحتلال مكان السيادة .. لقد وصمت الحب بأقبح الوصمات ونسبت اليه اسباب العجز والهوان والشقاء جميعا ، وقصدت بذلك كشف الستر عن ضعف طبقة الاشراف وحث البورجوازيين على التماس القوة للاطاحة بها . (والجدير بالذكر ان البورجوازية عادت بدورها فتعلقت بالحب بعد ظفرها بالسلطان ، ثم انغمست الى اذنيها فى حمأة الحب الرخيص .)

أما الادب الذى اشترك مع البورجوازية فى معركتها ضد الاقطاع ، ونفث فى معتقداتها القوة والروح ، فقد ظهر على خشبة المسرح الفرنسى بظهور « كورنى » ثم « راسين »

وفى الحق ان كلا هذين الكاتبين الشاعرين النابغين نهج فى مسرحياته نهجا يختلف عن نهج الاخر . فبينما حرص « كورنى » على تصوير الانسان القوى ، المتحكم فى أهوائه ، المسيطر على مصيره ، المحلق الى « المثل الاعلى » ، سلك راسين الطريق المضاد فصور الانسان الضعيف ، المستسلم لاهوائه ، المتخبط فى حبائل الحب ، المتعثر فى قيد المقدور له

ولكن الجدير بالذكر أن الاختلاف بين هذين الكاتبين ينحصر فى المنهج ولا يتعداه الى الغاية ، فان كليهما عبر عن معتقدات طبقته وميولها ومطامحها ، وقصد اظهار امتعاضها من أولئك الضعفاء المستسلمين للحب ، وتطلعها الى اكتساب القوة والارادة الكفيلتين بتحقيق ما تصبو اليه . وقد توسل « كورنى » الى ذلك بتمجيد الفضيلة والعزة والحزم والطموح ، وحث الناس على الاضطلاع بجلائل الامور وتحقيق الامجاد ، فى حين توسل « راسين » بتحقير الضعف وفتور الهمة ،

والاستسلام للاهواء ، وبتبيان العاقبة السيئة لتلك الرذائل التى تقف حائلا دون تحقيق العظمة الروحية والمادية . وقد حرص على وصف الحب بأنه سبب كل منقصة ، ومصدر كل بلاء

واشتدت بعد ذلك حركة مقاومة طبقة النبلاء ، وازدادت اعتمادا ، فى جهادها ، على معونة الادب ... ومن المعلومات الشائعة أن كتاب « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو ، ومسرحيتى « حلاق اشبيليه » و « فيجارو » لبومارشيه ، كانت من أفتك أسلحة البورجوازية فى معركتها ضد الاقطاع . ونحن نضيف الى هذه المؤلفات قصة لروسو لم تكن أقل بلاء فى تلك المعركة ، وهى قصة « هيلويز الجديدة »

وبقيام الثورة الفرنسية التى أسفرت عن انتصار البورجوازية الحاسم على دولة الاقطاع لم تعد للطبقة الجديدة المنتصرة حاجة الى الادب الثورى ، فنكص على أعقابه ، وتوارى عن معترك الحياة ... ولكن الى حين ...

وبعد أن أطمأنت البورجوازية الى حاضرها ومستقبلها وحققت ما كانت تصبو اليه من مال وجاه وسلطان ، استسلمت لاحلام المنتصرين السعداء ، وأبت الا أن يكون الادب وسيلة لمتعتها وتسليتها ، وخضع الادب لهواها ، وعاد عبر التاريخ الى جبل « أولمب » بحثا عن الموضوعات المسلية ، واستوحى وحيه ، وعرض آيات ذلك الوحى فى صيغ جديدة . ثم عرج على عصر الاقطاع ، فصور بعض أحداثه تصويرا يرضى السادة الجدد . ومن الذين أحرزوا السبق فى هذا المضمار كاتب القصة المعروف « اسكندر دوماس » الاب . وها هى ذى قصصه تمسخ التاريخ ، وتزيف وقائعه ، ولا تستهدف غير تسلية

القارىء وامتاعه ..

واتجهت ميول الطبقة الجديدة اتجاها مضـــــادا لاتجاهات الطبقة الدائلة وكذلك تناقضت معتقـدات كل من هـــاتين الطبقتين على النحـــو الـــذى شرحـه « بليخانوف » .. فأصبح السعى وراء المـال ، وتحقيق الربح الطائل موضع فخار البورجـــوازية بعد أن كان الترفع عن العمل ، والعيش عالة على الكادحين ، موضع فخار النبلاء ... ولم تعد المرأة فى العهد الجديد تحتـل المكانة الرفيعة التى كانت تحتلها فى العهد القديم ، بل أصبح أصحاب المال والاعمال ينظرون اليها نظرتهم الى السلع التى يتجرون فيها ، ويبذلون فى سبيل امتلاكها ما تساويه من ثمن

وفى مقابل تقاليد الفروسية التى تحلى بها الفرسـان النبلاء فى أوج عزهم ، وهى الشجاعة والمروءة والجود والنجدة والايثار والتضـــحية ، اتصف البورجوازيون بصفات مضادة للتقاليد القديمة ، غرسها تكالبهم على المال ، وتناحرهم فى سبيل الاستزادة منه ، وهـــذه الصفات هى الجبن والخسة والبخل ، وجمود الحس ، والأثرة ، وتضحية المرء بغيره فى سبيل مصلحته

وعلى الرغم من ظهـــور الادب الرومانسى الذاتى فى المجتمع الرأســـمالى ، ذلك الادب الذى عاد الى طرق موضوعات شعر الغزل القديم ، فشبب بالمرأة ، وصور أحلام الحب ، ووصف لواعجه وحرقاته ، فقدظلت المرأة فى ذلك المجتمع ــ على عكس ظاهره الخداع ــ خاضعة لامرة الرجل ، مسلوبة الحرية والارادة ، لا تعـــدو أن تكون أمة يسخرها كما يشاء ... أو أن تكون ــ على أحسن الحالات ــ دمية يلهو بها .

ولا نكران أن البورجوازية الرأسمالية كانت ثورية فى

أول عهدها ، وانها خطت بالبشرية خطوة واسعة فى طريق التقدم الاقتصادى، بل والتقدم الحضارى ، ولكن سيطرة المال عليها أعمتها عن سبيل الحق والخير ، وانضبت مشاعرها النبيلة ، ودفعتها الى العبث بمثلها وأخلاقياتها ، وانحدرت بها الى هوة الانحلال والتدهور

ولكن المجتمع البورجوازى ، برغم تفشى الانحلال فى أوصاله ، لم يعدم أدباء أحرارا أخذتهم العزة بالنفس ، والغضبة للحق ، فضاقوا بالسكوت على مخازى مجتمعهم ، وافتتحوا عهد أدب جديد يعكس لذلك المجتمع صورة صادقة تبرزه على حقيقته

ومن أولئك الادباء الاحرار كاتب القصة الموهوب « أونوريه دى بلزاك » ، وقصصه خير نموذج لذلك الادب الثورى الجديد . ويحسن أن ندع الحديث عنه لمواطنه « جون فريفيل » ، فقد أحسن اذ قال :

« كانت القصص قبل بلزاك تعكس حياة البطالة . وتكتفى بشرح شواغل القلب البعيد عن وسواس المال وكانت مطالب أبطالها ألا تكون لهم مطالب ... ثم ظهرت قصص بلزاك فتبددت القصص المصطنعة ؛ والحفلات الماجنة التى يميس فيها كل خليع غرير ، وكل متسكع عاطل ، وتكشفت الحياة على حقيقتها .. تكشف العالم الحقيقى بما فيه من طبقات ، ومن أصحاب بنوك ، ووكلاء أعمال وتجار وموظفين ، وسكان قصور ، وعسكريين وشرطة ، ومحتالين ، ومحتالات . وغانيات وسيدات راقيات ...

لم يعد بلزاك يحلل المشاعر فى ذاتها ، منفصلة عما حولها ، ولكنه ربطها بالاحوال الاقتصادية ، وصور لنا الحياة من جانبها الجدى القاسى المتولد من تضارب المصالح المادية ، واستطاع قارىء قصصه أن يفشى عالم

الربا والمضاربات و « الكمبيالات » ، وقوائم الجرد و « التفليسات » واجراءات التقاضي ..

وابلزاك مائة قصة تصور ماذكرنا وتثبته ، فهو يعرض مجتمعه على أنه مجتمع يسود فيه المال ، وينشب أظافره في كل مكان ، ويحصل صاحبه على كل شيء ، حتى الاب يحصل به على بنات وأبناء .. مجتمع تنطبع فيه الورقة ذات العشرة القروش على أفئدة أفراده جميعا ، وتلهج بذكرها جميع الالسنة .. مجتمع ينهشه الاستغلال الهمجي ، ويستميت أفراده في انقضاضهم على المناصب ، ويحتل فيه المال مكان الفطنة والفضيلة والجمال ، ويفوز فيه الوغد بالعيش الرغد ، ويزداد فيه الانسان ، وهو يصارع الانسان والمجتمع ، شقاء والما ، وتتحول فيه المودة الى كراهية ، ويخضع فيه الحب « لقراطيس » المال ، وتصبح فيه البكر « رأسمال » والزواج مضاربة ، وتغدو القوانين كخيوط العنكبوت تفلت منها الذبابة الكبيرة ، ويتخبط فيها الذباب الصغير ، ويرى الناس النزاهة والاستقامة ضعفا مستنكرا ، ويصبح على الانسان أن يغتال الناس حتى لا يغتالوه ، وأن يخدعهم حتى لا يخدعوه .. مجتمع حقود اناني قاس لا يخزيه أن يجاهر بشعاريه : كل انسان لنفسه ، وويل للمغلوب

هذه هي الاتهامات التي وجهها بلزاك للرأسمالية الاستغلالية ، وقد استخلص منها الكتاب الواقعيون نتائجها الثورية ... »

ومن القاصين الفرنسيين الاحرار الذين اشتركوا في نقد المجتمع الرأسمالي الاستغلالي ، ونددوا بما ارتكب من أعمال النهب واغتيال الحقوق ، فزعزعوا دعائم مكانته ومنعته ، وخلخلوا اركان حكمه .. القاص المشهور « اميل زولا » الذي صور شقاء العمال في عصره ،

وسجل حركة تطور الراسمالية وتوغلها ، وأظهر كيف تضخمت المتاجر الكبيرة بابتلاع المتاجر الصغيرة ، متجرا بعد آخر ، وكيف اتسعت المصانع بابتلاع دكاكين الحرفيين والصناع ..

ومن ادباء فرنسا الاحرار ايضـــا « فيكتور هوجو » الذى صور لنا ضياع الفقراء المعوزين فى العالم الرأسمالى وتخبطهم فى ليل من الشقاء لا يشع فيه بصيص من أمل، فاذا أصـــاب أحدهم التـــوفيق لاحقه ماضيه القاسى ، وجاذبه ليرده ثانية الى موطن الذل والمهانة ..

وقد سبق الكاتب النرويجى « ابسن » كتـــاب فرنسا وغيرهم الى محاولة انصـــاف المرأة الاوربية المهضومة الحق ، وتمكينها من احتلال مكانة لائقة بها فى المجتمع ، فكتب مسرحيته الشـــهيرة « بيت الدمية » ومحصلها ان بطل المسرحية ، وهو موظف فى مصرف ، أصيب بمرض خطير اقتضى عـــلاجه أن يســـافر الى مصحة ، وأعوزه المال ، فعملت زوجته على توفيره له ، واضطرت الى تزوير توقيع أبيها للحصول عليه . وجاءت لزوجها بالمبلغ المطلوب ، وعندما سألها عن مصدره أنبأته أنها أقترضته من أبيها .

سافر الزوج الى المصحة ، وشفى من دائه ، وعاد الى عمله فى المصرف ، وترقى فى المناصب حتى أصـــبح رئيسا مرموقا .. ثم علم بأمر التزوير ، وبأن هنـــاك دليلا عليه ، فخشى ان يفقد منصبه ، وثار على زوجته ، وعنفها على تدخلها فى شئون الرجال ، وتجاوزها حدود وظيفتها ، وهى تدبير شئون المنزل ، ورعاية أطفالها .. وقال انها ، بعد الذى ارتكبته ، لم تعد صالحة لتربيـــة أولادها . ثم علم ان زوجته حصلت على دليل التزوير ، ولم يعد هناك شىء يدينها ، فهدأ باله ، وقال انه يصفح

عنها ، ولا يجد بأسا من ان تعود الى الاشراف ثانية على شئون البيت والاطفـــال ، وتثور الزوجة بدورها على زوجها بعد أن تكشفت لها خسته ، وتنبئه انها لن تعيش معه تحت سقف بيت لا تعدو ان تكون فيه مجرد دمية .

ان هذه القصة لم تفضح خسة الرجل البورجوازى فحسب ، ولكنها كشفت الوضع الذليل الذى وضـــع المرأة فيه ..

وبانحلال الطبقة البورجوازية الرأسمالية انحل أدبها ، وتخلى الكاتب او الشاعر عن مسئوليته تجاه ما يجرى فى عالم الواقع ، وتوفر على شرح ميوله الخاصة ونزواته .. ولم يعد يحرص على تصوير الحقيقة الموضوعية كما هى فى الواقع ، ولكنه اكتفى بتصويرها على نحو ما تبدو له ...

وهب تيار أدبى جديد يناهض تيار الادب البورجوازى المنحل .. تيار يناصر القوى الشعبية الناهضـــة التى تحاول الخلاص من دولة الاستغلال والاستعمار .

ونختم هذا الفصل بكلمة لجون فريفيل شرح فيهـــا أعمال المضطلعين بابداع هذا الادب الجديد ، قال :

« ... ان مؤلفاتهم تعكس التناقض الكامن فى المجتمع البورجوازى الاستعمارى الاستغلالى ، وتعكس كذلك رغبات الشعب الكادح الذى لم ينظم فى بلادنا صفوفه بعد .. وقد نبعت ارادة القضاء على استغلال الانسان للانسان من صلب الاســـتغلال نفسه ، ومن التطور التاريخى ، ومن عصف الرأسمالية الغربية بالشعوب . وقد أشعلت هذه الارادة ضرام الصراع ، ولم تعـــد تسمح بأية تعمية وتضليل ... »

الفصل التاسع

تطور الأدب فى روسيا

بزغت الخيوط الاولى من بشائر النهضة الفكرية فى روسيا عقب المشروعات الاصلاحية التى تمت فى عهد بطرس الاكبر . وكان من الطبيعى ان يتطلع القائمون بتنفيذ تلك المشروعات الى اوربا الغربية التى كانت قد خطت وقتذاك خطوات واسعة فى سبيل التطور الحضارى، - وان ينقلوا عنها ، ويقتبسوا منها الافكار التى تلائم طابع نهضتهم الجديدة ، والخبرة التكنيكية التى تعينهم على مواصلة التقدم فى ميادين الصناعة والزراعة والاقتصاد

ولم يمر زمن طويل حتى شملت تلك النهضة فرع الادب الذى أخذ يحبو ويدخل مرحلة المحاكاة التى كانت الطبقة التى يعبر عنها لاتزال تجتازها .. وظهرت فى السوق الادبية قصص منقولة عن الغرب . ولم تكد تلك السوق تنتعش بالقصص المذكورة حتى تهيأت الظروف لظهور القصص المقتبسة من الغرب ، والمحاكية لقصصه

وبعد أن بلغ الوعى مرحلة معينة من النمو ضاق القراء الواعون بأدب المحاكاة ، وطالبوا بأدب قومى يعبر عن معتقدات الشعب الروسى وامانيه . ولكن هذا الضيق اشتط ببعض الناقدين ، وانحرف بهم من

النقيض الى النقيض .. فأخذوا يطالبون بأدب يحافظ على التقاليد القديمة ، ويعبر عنها ، ويصور الشعب الروسى « الاصيل » المتمسك بتلك التقاليد . لقد ضاقوا بالغرب، وبكل ما هو مستورد من الغرب ، ونظروا شزرا الى كل من يعيش من مواطنيهم عيشة الغربيين ، ويحاكيهم فى الملبس والمظهر والسلوك . وعدوه كالغريب سواء بسواء . واصروا على أن الشعب الروسى الاصيل لا يتمثل الا فى أولئك الذين حافظوا كما قلنا ، على التقاليد القديمة ، وظلوا يرتدون الجلباب والخف ، ويدخنون النرجيلة ، ويغلظون فى القول ، ويعيشون العيشة البدائية المتوارثة عن الجدود الاقدمين ..

ومن تضارب هذين النقيضين استطاع النقد الروسى السليم ، فى أول عهده بالظهور ، يتبين وجه الاتجاه الادبى الصحيح ، فحمل حملة شعواء على أدب المحاكاة ، وعلى الادب الرخيص الذى لا يستهدف الا اثارة القارىء توخيا للرواج وتحقيق الارباح . ومما قيل فى هذا الصدد : « ليس كل ما تصدره المطابع فى هذه الايام يمكن ان يسمى أدبا . اننا اكتسبنا خبرة بمرور الزمن ، وأصبحنا أصلب عودا من ذى قبل . ان نقل روايات أجنبية قيمة كقصة « دومبى وولده » يعد حدثا هاما فى عالم أدبنا . لكن قصص « اسكندر دوماس » و « أوجين سو » وغيرها مما ننقله الى لغتنا لا تعد أدبا بحال ... هذه القصص كتبها مؤلفوها خبط عشواء مستهدفين الربح دون سواه . واقبال قرائها عليها يرجع الى المزاج لا الى التقدير الادبى . انها كالمتعة التى يتيحها التدخين مثلا لبعض الناس ... والقارىء يقبل عليها كما يقبل على القصص الخرافية مدركا من بادىء الامر ما هو مقبل عليه .. وليس فى قصده الا أن

يرجى الفراغ . فلا يجوز ان نبنى على مثل هذه الهواية حكما على ذوق الجمهور الادبى ٠٠ »

ثم عرج النقـــــاد على الادب الواقعى فى قولهم عن بوشكين : ان بشائر شعر بوشـــــكين كانت أميل الى المثالية ، والى النوع الغنائى ، الا انها كانت تشتمل مع ذلك على عناصر الحياة الحقيقية ٠ وقد تولـد ذلك من شجاعته التى أدهشت الجميع .. من اقدامه على اتخاذ الواقع الروسى ، لا الاجنبى ، مسرحا لشعره ٠ فهو لم يصور لنا قاطع الطريق الايطالى والاسبانى اللذين اعتدنا أن نقرأ عنهما . ولكنه صور فى شعره اللصوص الروس الحقيقيين الذين يحملون السكاكين العريضة والهراوات الغليظة ، لا الغدارات والمدى ، وفى حالة الرعب يهـذى الواحد منهم بذكر حبل المشنقة ، والجلاد الرهيب ٠٠ »

ولكن النقـــاد الروس لم يغمضوا أعينهم ، فى نفس الوقت ، عن النقيض الاخر فى الاتجـــاه ، ذلك النقيض الرجعى المناهض لكل تطور وتقدم . لقد ناهضوه كمـا ناهضوا أدب المحاكاة ، رافضين التسليم بأن روسـيا الحقيقية الجديرة بأن يعكسها الادب هى روســــيا المحافظة على القديم ، المعرضة عن الاخذ بأسباب التقدم .. فالادب الاصيل فى نظرهم هو الذى لا يغفل عن حركة التطور ، وعن تسجيل انتصار الجديد على القديم .

وواصل النقاد الروس الحملة على الادب الزائف ، وتأييد الادب الاصيل المدرك لحركة التطور . فأفسحوا بذلك مجال ظهور القاصين الروس العمالقة الذين يقدرهم اليوم أدباء السوفييت حق قدرهم ، ويعدونهم عمـــد حلقة التطور التى أدت الى ظهور الادب الســـــوفييتى الحديث ٠ وكما يستند الادب السوفييتى الحديث الى آيات السلف ، ويستمد منها القوة والتجدد والأزدهار ،

كذلك يرتكز النقد السوفييتي المعاصر الى دعامة وطيدة من ماض عريق انبثق خلاله الاتجاه الواقعي الانساني الثوري في عالم النقد .

اذا حاولنا ان نتبين قسمات القصة السوفييتية على حقيقتها ، وان نتفهم خصائصها وأهدافها ، فيجمل بنا أن نستعين على ذلك بمقارنة نعقدها بينها وبين القصة الروسية السابقة عليها ... فان على ضوء القديم وتطوره تتضح قسمات الجديد .. بيد أن القصة الروسية السابقة على ثورة أكتوبر لا تفهم بدورها على الوجه الصحيح ، وكذلك النقد الواعي الذي ظهر منذ النصف الاول من القرن الماضي ، وتأثر الأدب به ... الا اذا ألممنا بالظروف والاوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت قائمة في روسيا وقتذاك .

كانت روسيا يومئذ بلدا زراعيا يرزح تحت عبء النظام الاقطاعي الغاشم . وكان الفلاح الروسي « قنا » أشبه بالعبد ، يتحكم سيده فيه ، وفي أسرته ، بل وفي كل ما يملك – اذا كان يملك شيئا – ويبيعه مع الارض اذا باعها . ولم يكن هناك غير طبقتين . طبقة الاشراف المالكين للارض ، المتحكمين في الرقاب . وطبقة المحكومين الاذلاء المستغلين « بفتح الغين » الذين قصم الذل ظهورهم ، وطمس الجهل وعيهم ، فصبروا على الضيم كاظمين غيظهم ... ولكن اصلاحات بطرس الاكبر وما تبعها من تقدم في ميداني الصناعة والتجارة ، ومن اطراد في نمو الوعي والمعرفة ، أسفرت عن ظهور الطبقة الوسطى التي تكرر حديثنا عنها ، وهي طبقة قوامها التجار والمهندسون والمحامون والاطباء والموظفون وغير هؤلاء من شاغلي الوظائف العامة ومن المشتغلين بالمهن التي أوجدتها تلك النهضة لحاجتها اليها . وتضخمت

هـذه الطبقـة الجديدة على مر الايام ، وازدادت ثروة وقدرة ووعيا ، وتشبعت بالاراء الحرة التى تلقنتها عن طريق الاحتكاك بالغرب ، والاطلاع على مؤلفاته ، والوقوف على نظرياته ، وآمنت بالعدالة الاجتماعية وفقا للمفهوم الغربى . فتصدت للنظام الاقطاعى تندد به وتقاومه ، لا سيما عندما استفحل التناقض بين مصالحها ومصالح طبقة الاقطاعيين المستغلين .

من صلب هذه الطبقة المتوسطة ظهر النقـاد الذين رأوا أن الادب انعكاس للحقيقة الواقعية فى صور فنية ، وأنه يكتسب الجمال الفنى بقدر صـدقه فى تصوير الواقع ، ويحقق هدفه بقدر تبصير الناس بحقيقـة واقعهم ، ويبلغ الذروة فيما اذا رأى الناس فيه أنفسهم حتى لكأنهم ينظرون فى مرآة .. وواضح ان مثل هـذا الادب الثورى الذى يبصر الناس بحقيقة اوضاعهم ، ينمى وعيهم ، ويضاعف سخطهم على ما يحيق بهم من ظلم ، ويستحثهم على الاطاحة بنير العبودية ، والخلاص من المستبدين المستغلين . ولكن الادب الذى تأثر بهـذا النقـد لم يكن مطلق اليدين ، فقد كبله رقباء القيصر بالاغلال وأرهبوه بالوعيد ، فحام حول ما أراد أن يقوله ، ولجأ الى الحيل الصياغية ليبين ما يستهدفه ، ولـكنه لم يفصح كل الافصاح ... وامتلأت قصص ذلك العصر بمشاهد البؤس والعوز والتخبط فى ظلمات اليأس ، ولكن بصيصا من الامل لم ينبثق من خلال تلك الظلمات

وتأثر بعض أدباء الطبقة الارسـتقراطية ، المالكة للاقطاعيات ، بالوعى الديموقراطى الذى غذته القصص بموضوعاتها المثيرة ، فانضموا الى حملة الاقلام . وظهر على رأسهم الكونت ليوتولستوى الذى فضح بأسـلوبه الفنى الرائع المبين بربرية الاقطاعيين فى معاملتهم للفلاحين

المستعبدين . ولكنه كان يؤمن بالمذهب المادى البحث فى الفلسفة ، وبأن الانسان لا يستطيع ان يتحكم فى ظروف الحياة ، وانما ظروف الحياة هى التى تتحكم فيه ، وبأنه لا يملك الا الصبر على المكروه والتسليم بالواقع ، والصفح عن الظالمين وكسر حدة ظلمهم بالتسامح والمحبة .. !
وجاراه تورجنيف الذى كان يلقى الضوء بين حين وحين على قسوة نظام الاقطاع الذى لعق الفلاحون مرارته ، بيد انه كان يعنى على الاغلب بتصوير علاقات حب قدر له دائما ان يمنى بالاخفاق . ولكن دوستويفسكى هو الذى برز فى تصوير الذين ضعضعتهم قسوة الحياة ، وكادت تسحقهم ، فانحدروا الى حضيض الرذيلة يائسين، وأصيبوا بالعلل العقلية بعد الانحرافات الخلقية . فاذا صور لنا هذا الكاتب القوى التعبير اتقياء صالحين استهدفوا هداية الناس وخيرهم ، جعل مظهرهم ينم على العته والبله ، او جعلهم كذلك فى أعين من يحيطون بهم من الناس الكافرين بالفضيلة والخير ، اللهم الا اذا استثنينا بعض العاهرات اللواتى يجدن فى نبلهم الراحة والطمأنينة .

ونختصر القول فنقتصر على ابداء ملاحظات عامة على قصص ذلك العصر ... كانت أغلب تلك القصص تعبر عن اليأس المطبق ... يأس فى الحب . ويأس من الخير . ويأس من الخلاص . كان كتابها يعكسون الواقع من ناحيته السطحية غافلين عن حركة تطور الظروف ، وقدرة الناس على زيادة ذلك التطور بسرعة ...

وهناك ظاهرة أخرى تلفت النظر فى قصص ذلك العهد .. فقد كان مؤلفوها واقعين تحت تأثير المذهب الشكلى الغربى فى الفن برغم محاولتهم الاستجابة لدعوة النقد الى أدب واقعى وثيق الصلة بالحياة الحقيقية .

كانوا يختارون موضوعات قصصهم وأشخاصـــها من واقع الحياة . ولكنهم لم يتوخوا من وراء اختيارهم هذا تصوير الحياة الحقيقية من اعراض زاوية يقدر ما توخوا اتقان عملهم الأدبى من الناحية الفنية • ولا عجب فهم لم يخضعوا فى هذا لذوقهم الفنى فحسب ، ولكنهم خضعوا كذلك لذوق الطبقة التى كانوا يكتبون لها ، وهى طبقة المثقفين الذين تفذت ثقافتهم بلبان الثقافة الغربية ... كان أولئك الكتاب يختارون لقصصهم الموضـــوع الذى يلائمها من ناحية الشكل الفنى المقبول فى تلك الايام ... كان لابد أن يكون الموضوع طريفا غير مألوف ، يتعقد ثم ينتهى الى حل مقبول غير متوقع ... وكان التشويق ، دون الصدق الفنى ، هو اساس نجاح القصـــة . كذلك كانوا يختارون لقصصهم أشخاصا من المجتمع لا يمثلون الفريق الاكبر من أعضائه ، ولا يدلون على اتجـــاهاته الفكرية والسلوكية الغالبة ، ولكن أشـــخاصا من ذوى الاطوار الغريبة ، والميول الشاذة •• أشخاصا غرباء عن المجتمع ، يعطون عنه فكرة خاطئة ، ولا يخدمون الا شكل القصة التى تصبح بهم غريبة طريفة تشوق القارىء ، وتستحوذ على لبه .

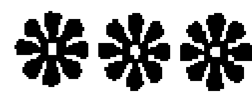
ولكن قولى المتقدم لا يعنى الاقلال من شأن مزايا تلك القصص التى فاقت قصص عصرها فى البلاد الاخرى ، وبهرت محافله الادبية ... لقد تأثرت بالنقد الواقعى ، وبظروف عصرها ، فأعرضت عن ســـــبحات الوهم ، وارتبطت بالواقع على نحـــــو ما ، وعكست جوانب من الحياة الاجتماعية ـ وان لم تكن تلك الجوانب ذات دلالات دقيقة فى أغلب الاحيان ـ وتميزت بصياغة فنية رائعة ، وأسلوب يستحوذ على لب القارىء بدقة نظمه ، وجمـــال رونقه ، وقوة أدائه . ومما يجدر بالذكر أن نقاد الغرب

المنصفين اعترفوا لدوستويفسكى بتميزه عن كتابهم فى قدرته الخارقة على تصوير أشخاص قصصه ، وعمق تحليله لنفسياتهم ، وتفسيره لاسباب سلوكهم وتصرفاتهم. واشتهر ليو تولستوى بصدق تصويره لعيوب المجتمع الارستقراطى الروسى الذى ينتمى اليه ، ولاساليب استبداده بالطبقة الدنيا ، ووسائل استغلاله لها . وتفرد تورجنيف بأسلوب عاطفى شفاف ، ومعان شعرية أخاذة.

وظل التطور يحدث أثره فى هذا التراث الادبى الثمين، ويقترب به شيئا فشيئا الى الواقعية الصحيحة . ودخلت القصة الروسية فى طور جديد عندما طلع تشيكوف على العالم بأقاصيصه الرائعة . لقد تميز هذا الكاتب عمن سبقه من مؤلفى القصة بأنه لم يحاول أن يثير القارىء بتصوير جوانب غريبة من المجتمع ، وأفراد منحرفين من شواذه ، وبالتعبير عن حرقات الحب اليائس ، وصرخات النفس الملتاعة الضائعة ، ولم يلجأ الى الاسلوب الغريب الصاخب الهادر ، أو الاسلوب الناعم المتأنق المبهرج .. لقد حاول أن يصور الحياة على حقيقتها ، فعكس لنا فى أقاصيصه مشكلات تبدو بسيطة لاول وهلة ، ولكنه يتناولها على نحو دقيق يفتح الاعين على أغوار الحياة الحقيقية ، وصراع نقائضها ، ويعبر عن المعانى المقصودة بأسلوب بسيط كبساطة الحقائق الواقعية حين تتخلص من شوائب الاكاذيب .. أسلوب لا يستمد قوته ورونقه الا من قوة الحق وجمال الصدق ..

ثم ظهر الكاتب العملاق المخضرم الذى كتب القصة فيما قبل ثورة أكتوبر وفيما بعدها ، ذلك هو مكسيم جوركى الذائع الصيت .. ان من يقرأ قصصه ينزل الى معترك الحياة الحقيقية ، ويرى كل ركن من أركانها التى لم يخف شىء فيها عن بصر ذلك الاديب النافذ ، وعن بصيرته ..

يرى تضارب المصالح ، وتصادم الاغراض ونوازع الخير والشر ·· يرى العاملين الجادين على اختلاف أهوائهم وأهدافهم ·· ثم يرى فى قصصه الاخيرة انتصار القوى الخيرة على القوى الشريرة ·· لم يكن جوركى يكتب للمنعمين المرفهين ، أو للاهين من أهل البطالة ، أو للباحثين عن مغامرات الحب وصور الجمال ، ولكنه كان يكتب للشعب المناضل فى سبيل الحياة ، لقد ساءل نفسه : «لمن أكتب ؟ ولماذا أكتب » وعرف الجواب ، فعكس لقرائه ، وهم كثرة الشعب الجاهدة ، حقيقة حياتهم ، وتوخى بذلك أن يجنوا الفائدة من معرفتهم لحقيقة حياتهم ، لا أن يجنوا المتعة من زخرفة أدبية فارغة ··



يسهل علينا بعد الشرح المقتضب المتقدم أن نلمح القسمات الجديدة التى تميز بها الادب السوفييتى ، ولكن لا بد لنا كذلك من امتحان الظروف التى نشأ فيها لنصبح أقدر على تبين تلك القسمات ··

لم تصبح الطبقة المثقفة القديمة هى وحدها التى تقرأ القصص الادبية ، ولكن انتقال روسيا من الطور الزراعى الى طور صناعى من الطراز الاول ، أتاح ظهور طبقة جديدة تشرئب الى الثقافة ، وتنهل من معينها ، وتقبل على تلك القصص وتلتهمها ، هذه الطبقة هى التى نشأت بين جدران المصانع بعد حركة التصنيع الجبارة ، وشعرت بعد تحررها من الحيف القديم بحاجتها الى رفع مستواها المعيشى والفكرى ، ورد اعتبارها بالخلاص من ربقة الجهل بعد الخلاص من ربقة المستغلين ··

بيد أن بعض أفراد هذه الطبقة الجديدة التى شغلت جانبا من أوقات فراغها بالاغتراف من معين الاداب

والفنون ، لم يلبثوا أن انتقلوا من جانب القراء الى جانب المؤلفين وكتبوا قصصا صوروا فيها حياتهم وحيـــــاة زملائهم المليئة بالجهد فى ســـبيل تحقيق الامال • واذا كانت هذه القصص تفتقر الى التعبير الفنى السامى الذى يتسم بالمرانة على الخلق ، فانها تستعيض عنه بالصدق فى السرد ، وبواقعية التجربة •• وقد مرت بروســيا محن عديدة بعد ثورتهـا •• ابتليت بالحـــرب الاهلية ، وبما أعقب ذلك من دماروضطراب فى حالتها الاقتصادية، ثم تعرضت لهجوم الجيوش النازية الغاشمة • فتعددت تجارب شعبها وتنوعت • وعبر عن تلك التجـارب أناس مختلفو المشرب والذوق والثقـــافة •• بل والجنس ، وازدحمت سوق الادب بقصص اختلط فيها الغث بالثمين• وكاد القراء يضلون بين اتجاهات تلك الكتب المتضـــاربة لولا أن استطاع النقد الســوفييتى الامســـاك بالزمام ، وتحديد الاتجاه الصحيح • ورد الضـــالين الى الطريق المستقيم • ولم تلبث القصة السوفييتية أن اســـتقامت بفضل توجيه النقد السليم ، وتناسقت مع وضع الشعب السوفييتى ، وانضمت الى سائر القوى البناءة العاملة على اقامة صرح الحياة الجديدة المتسامية • وسرعان ما ظهـــر مؤلفون سوفييتيون للقصة ، ومن أمثال أولئك الافـــذاذ شولوخوف ، وألكسى تولستوى ، وأوستروفسكى وغيرهم ممن سجلوا فى قصصهم تجارب الحربين الاهلية والعالمية الثانية ، وتجارب المحن التى كابدها الشعب خلالهـــا ، وأعمال البطولة التى أقدمت الجموع عليها ســـواء أكان ذلك بمقاومة قوى الشر خلال تلك المحن ، أو بالمعاونة على توطيد قوى الخير واقامة صرح الحيـــاة الجـــديدة •• ولا يقتصر فضل تلك القصص على تسجيل تلك التجارب وتلك البطولات ، ولكنها زادت الشعب خبرة بها وافادة

منها وحماسة لها ، وقدرة على الصمود والصعود في طريق التقدم ..

لم تعد القصة السوفييتية اليوم أداة للتسلية والمتعة ، أو وسيلة ينفس بها كل من المؤلف والقارىء عن همومهما وقلقهما واخفاقهما ، ولكنها أصبحت قوة فعالة فى المجتمع تعين على دك عقبات التقدم ومضاعفة سرعته .. واذا صورت القصة القديمة زوايا الحياة المظلمة ، وفلول قواها الرجعية ، فان القصة السوفييتية تصور الحياة الحقيقية فى حركتها الصاعدة . واذا كان أسلوب القصة القديمة يخدم شكلها الجمالى ، فأسلوب القصة السوفييتية يخدم مضمونها وهدفها . واذا كانت الموضوعات الماضية لا تختار الا على أساس صلاحيتها للبناء القصصى ، فاختيار موضوعات القصص السوفييتية يتم على أساس صلاحيتها لابراز حركة التطور على أوضح وجه ، وتمكينها من مواصلة تقدمها ومضاعفة سرعته . واذا كان مؤلف القصص القديمة يبحث عن اليائسين والمرضى والمخبولين ، وذوى الافكار العجيبة ، والميول الغريبة ، ليصورهم فى أعماله الادبية ، وينجح بذلك فى اصطياد القراء وتحقيق الشهرة ، فان الكاتب السوفييتى يختار أشخاص قصصه من بين الذين يكدون فى اخلاص ، ويؤمنون بالمستقبل الزاهر ويعملون على سرعة مجيئه ، ولا يعتورهم وهن أو يأس أو خبل ..

لم يعد الكاتب السوفييتى فنانا حرا وفق مفهوم الحرية القديم .. أى لم يعد طليقا من كل قيد ، يصور أوهام عقله المريض ، وينفث سمومه بين الناس دون تحمل أية مسئولية بدعوى حرمة الفن وحريته .. ولكنه أصبح مسئولا عن المجتمع يبصره بحقيقة أوضاعه ، ويشحذ همته ، ويقوى آماله ، ويعينه على تحقيق أهدافه ..

الفصل العاشر

الأدب السوفيتي والالتزام

كان الادب على الاطلاق يستهدف قبل الثورة الاشتراكية امتاع القارىء باقتطاف نماذج شائقة من وحي الواقع أو من نسج الخيال ، وتصويرها فى صيغ جمالية ، فجاء الادب السوفييتى يستهدف تنوير القارىء بعرض الحقائق الواقعية فى صور صادقة حية ٠ لقد نهج نهجا يختلف كل الاختلاف عن نهج الادب السابق عليها ، فلم يعد يحاول اثارة الفضول ، أو استدرار العطف والاشفاق ، أو اشعال لواعج الشجن ، أو خلجات الاضطراب والجزع ، ولكنه قصر جهده على تصوير ظواهر ثورة أطاحت بالقديم لتبنى الجديد ، ونضال شعب آلى على نفسه أن يذلل العقبات القائمة دون الحياة المأمولة التى يحاول اقامة صرحها ، والمستقبل الزاهى الذى انعقدت عليه آماله ٠ لقد اندفع فى تلك السبيل متجاوزا فى حماسته مرحلة التخيل والتأمل والتنقيب والتحليل ، ومعرضا عن مساحيق التزويق والتنسيق ٠٠ ولا عجب أن استخف المغرضون من أدباء الغرب ونقاده بذلك الادب الصادق السليم البسيط ، وتباكوا على الادب الروسى السابق عليه ٠٠

لم يعد مؤلفو القصة السوفييتية يبحثون عن شخوص

لقصصهم بين مرضى النفوس والعقول فى مجتمع منحل ، ولكنهم راحوا يصورون مجتمعا هب من سباته ، ونفض عنه عيوبه ونقائصه ، وعقد عزمه على تحقيق الآمال الجسام ، والاحلام الضخام .. ولم يعد أولئك المؤلفون يعنون بتصوير الاحداث غير الطبيعية ، وتحطيم أعصاب القارىء بمفاجآتها غير المتوقعة ، ولكنهم راحوا يصورون عمليات البناء الجديدة .. انهم لم يعودوا يخدعون القارىء بتصوير الجوانب الشاذة من الحياة على أنها الحياة الواقعية الحقيقية ، ولكنهم عمدوا الى الصدق فى تصوير الحياة الطبيعية فى حركة تطورها الصاعد ..

اعتاد المؤلفون غير السوفييتيين أن يصوروا التجربة فى عملهم الادبى بعد فترة تهدأ خلالها العواطف المشتعله ، وتتضح الاسباب والنتائج والمعانى بعد استقرارها ، أى أنهم اعتادوا ألا يقتبسوا صور التجربة من واقعها ، ولكن من ذكرياتها ، ولكن الكتاب السوفييت اضطروا الى تصوير تجاربهم ابان الثورة ، أى وقت اشتعال عواطفهم ، فلا عجب اذا افتقد أدبهم فى هذه الحالة بعض عناصر الادب المتعارف عليها ، فغلبت فيه الحماسة على الروية ، والتعميم على التفصيل ، والتعبير المباشر على التعبير الفنى .. ونذكر هنا تشبيها لتوماس مان فى هذا الصدد نورده برغم غلظته .. قال ان الجزار الذى يتقن عمله يضع اللحم فى الثلاجة حتى اذا برد قطعه حسبما يريد ، أما اذا حاول تقطيعه وهو لا يزال ساخنا عجز عن تحقيق ذلك . والاديب فى هذا مثل الجزار ، فهو لا يستطيع تصوير عواطفه على الشكل الذى يريده ، الا اذا صبر عليها حتى تبرد

وقد ترصد نقاد الغرب الادب السوفييتى منذ نشأته ، ولم يحاولوا فهم الظروف الجديدة التى لابسته ويمتحنوه على ضوئها ، ولكنهم وضعوه فى ميزان نقدهم التقليدى ،

فجسدوا عيوبه ، وغفلوا عن حسناته ، وراحوا يبحثون عن أسباب تلك العيوب التى جسدوها فى غير ميدان الادب ، راحوا يبحثون عنها فى ميدان السياسة ، فزعموا أنها ترجع الى كبت الحريات ، وتسخير المؤلفين فى خدمة النظام الجديد ..

لا ينبغى للاديب فى نظرهم أن يعيش فى عالم الواقع ، ويدرك الحياة على حقيقتها ، ويشارك قومه فى معتقداتهم ومشاعرهم وأحلامهم وآمالهم .. لا ينبغى له أن يكون وطنيا شريفا مخلصا ، بل عليه أن يكون أنانيا يعيش لذاته ، ويدور بعينيه عن عالم الواقع الى باطنه ، ويقتصر على تصوير نزعات جسده ، وأوهام نفسه المكدودة ، وذهنه المريض .. ان نقاد الغرب يريدون الاديب سادرا لاهيا ، همجى التفكير خرافى الخيال ، يعيش فى عصر الاساطير والاوهام . فاذا عاش فى حاضره ، واعتنق معتقدات قومه ، وآراء عصره ، وتطهر من أضاليل الخرافات والاساطير ، ووقف أدبه على خدمة الواقع ، ودفع التطور الصاعد الى الامام ، فلا بد أنه مرغوم على ذلك ، ولا بد أن أدبه مصطنع مفتعل ، ولا بد من بكاء وولولة على حرية الاديب المفقودة ! .. ان الاديب فى نظرهم يختلف عن سائر الناس ، ودنياه تختلف عن دنياهم ، فاذا شاكلهم وعاش مثلهم فى هذه الدنيا ، وتشابهت نظرته ونظرتهم اليها فكيف يكون أديبا متميزا ؟ لابد أن ينعزل عن الناس ويتعالى عليهم وعلى ما يشغل أذهانهم ، ويجيش فى صدورهم ، ويستنفد جهودهم حتى يعترف به أولئك السادة أديبا ، ويعترفون بانتاجه أدبا جديرا بالتقدير ..

ولكن الامور أخذت تستقر فى روسيا السوفييتية شيئا فشيئا ، وبدأت الحقائق تتضح والاخطاء تستبين ، واستطاع الكتاب أن يميزوا بين الاحلام الصادقة الممكنة

التحقيق ، والاحلام الشاطحة وراء الاوهام • ونشط النقد ، وعمل على تبصير حملة الاقلام بالعيوب القديمة ، وبوسائل تلافيها ، وبرسالة الادب الحنة • ورأى نقاد الغرب حتى في ذلك تدخلا في عمل الاديب ، واهدارا لحريته ولكن الادب السوفييتى أفاد من توجيه النقد ، فعمقت نظرته الى الحياة الواقعية ، واستطاع رويدا رويدا أن يدركها على حقيقتها ، ويتبين حركة تطورها ، ويبرز العقبات التى تعترض صعودها ، ويكشف عن وسائل التغلب عليها ، وأخذ يتحول الى أدب نقدى سليم لا ينقد بقصد الهدم ولكن بقصد البناء ، ولا يضعضع معنوية المخطئين بل يقويها ، ويقوم اعوجاجهم ، ويسدد خطاهم • واستطاع الاسلوب الادبى بعد طول المرانة أن يكتسب الطواعية والسلاسة ، ودقة التعبير ، وأن يستعيض ببساطته وصدقه عن حسن السبك التقليدى القديم

استطاعت فيرا بانوفا بأسلوبها البسيط البليغ أن تصور لنا فى قصصها الواقعية الصادقة نشأة المزارع الجماعية وازدهارها بفضل جهود المواطنين الصادقة ، وأن تشرح وسائل تذليلهم للعقبات التى اعترضت سبيلهم ، وأن تعبر عن مختلف عواطفهم وخوالجهم خلال الكفاح المرير ، وبعد الانتصار الذى يمهد لانتصارات تالية • ولا شك أن قصصها وأمثالها تعد من أهم حوافز العمل الانشائى الذى اضطلع به الشعب السوفييتى ، فقد عكست جهاد شعب ناشىء فى سبيل بناء مستقبله المرموق •• ولكن الغرب لا يريد أدبا يخدم قومه ووطنه ، وانما يريد أن تظل الشعوب جاهلة ضعيفة فقيرة محتاجة اليه تابعة له • وراح نيقولاى بوجودين يكتب عن الثورة الاشتراكية مستلهما ذكريات التجربة ، لا التجربة نفسها • ولعل القارىء يذكر تمثيلية « أجراس الكريملين »

التى نشرتها له مجلة الشرق فى العام الماضى • فقـد قال بعض قرائها انهم أحسوا لدى قراءتها كأنهم عاشوا خلال تلك الثورة ، وشاهدوا الفوضى التى سادت البـلاد اثر اشتعالها ، وخبروا حالة البؤس التى كابدها النـاس ، وتعرفوا على العناصر المنحلة من خونة ولصوص وانتهازيين ومتشائمين وانفصاليين . ولقد استطاع بوجودين بعـد عرض صور واقعية حية لتلك الحال الحاملة على اليأس ، أن يطلعنا على ما بذل العاملون المؤمنون بوطنهم وعقيدتهم من جهد ليبدلوا ذلك الواقع المرير ، ويحملوا الضـالين ، دون ارغام ، على خدمة وطنهم حتى ولو كانوا لا يؤمنـون بالاشتراكية ، فالوطن فى حاجة الى جهد أبنائه أجمعين ،

وبذلك أخذت الامور تستقر شيئا فشيئا حتى تبـدت بشائر الامل منبثقة من ظلمـات اليـأس • واسـتعان شولوخوف أيضا بذكريات الثـورة فكتب قصصه التى تصور الدور الذى لعبه مواطنوه القوازق فى الحـرب الاهلية • لقد كانوا سوط عذاب ألهب به القياصرة ظهور الشعب الروسى • وقد أرادت السلطة المناهضة للثورة أن تستعين بهم لقمعها ، ولكن عيونهم أخذت تتفتح وتـدرك الحقائق ، وأخذ ضميرهم يستيقظ ، فانضموا زرافات بعد زرافات الى الثوار ، وأصبحوا قوة من قوى النصر لايستهان بها ، وتحولوا الى مواطنـين مخلصين بعد أن كانوا من الخوارج الطغاة •• ونهج فادييف نهج شولوخوف فأجاد برغم أنه لم يحلق تحليقه •• وهناك أوستروفسكى الذى كانت حياته الخاصة مثالا لحياة الجهاد والتشبث بالامل والاستبشار حتى فى أحلك السـاعات وأخطرها . لقـد استطاع هذا الكاتب أن يعكس فى قصصه ما يتميز بـه من ارادة لا تفل ، وايمان بالنصر لا يتزعزع ، فأصبحت هـذه القصص نبعا لا ينضب لآمال أمة بأسرهـا . كأن

ينتقى شخوص قصصه من الشباب المجاهد المخلص الذى تنقصه التجربة ، ويشير الى العقبات التى يصادفها ، ويكشف الاخطاء التى يرتكبها ، ويصور عوامل القنوط التى تحيط به ، ولكنه لا يلبث أن يلقى الاضواء على سبل الخلاص ، فتعود الثقة الى النفوس أقوى مما كانت عليه ، ويتحقق النجاح بعد اليأس منه . لقد بثت قصص أوستروفسكى فى الشعب السوفييتى طاقة حياة ، ودفعت به فى طريق الصعود قدما .. وهناك أستاذ القصة الكبير ألكسى تولستوى . لقد درس هذا الكاتب حركة التطور التاريخى على أساس علمى ، فاستطاع أن يصور تحول الحياة فى روسيا من الوضع القديم الى الجديد ، وأن يمتحن الحاضر على ضوء الماضى ، ويتبين الحقيقة بعد أن وضعها مقابل الزيف .. وتمكن بذلك من توطيد ثقة الشعب السوفييتى بنفسه وبحاضره ومستقبله ..

وسما شعر ماياكوفسكى فى تلك الاثناء الى اوجه ، وتغنى به الشباب السوفييتى فى المحافل والاندية ، واستمد منه القوة والعزم والايمان بالمستقبل . لقد عبر شعر ماياكوفسكى عن الواقع السوفييتى الجديد ، فحطم الصيغ البيانية القديمة كما حطمت الثورة الاشتراكية الوضع القديم ... ولم يلتزم القافية أو الاوزان السالفة ولم يتدله ويذوب رقة كشعراء السلف ، ولكنه تميز بأسلوبه القوى الغنى العارم الصارم وتعبيره عن الحق ... ولم يطرق الموضوعات التقليدية ، ولكنه كان يصور الحال الخاصة فاذا الحالة العامة تتضح من خلال تصويرها .... كانت الوقائع البسيطة اليومية التى يصورها تلقى الاضواء على الوقائع العامة .... كانت المشكلات الصغيرة التى يطرقها تكشف أغوار المشكلات العامة ... وهكذا زاد هذا الشعر وعى الشعب

السوفييتى ، ونفث فيه من قوته قوة ، ومن ثقته ثقة وأملا ..

ثم حدث بعد ذلك ان امتدت السنة الحرب العالمية الثانية الى روسيا السوفييتية ، واقتحمت جحافل الفاشية الغاشمة أراضيها ، وهب الشعب السوفييتى مدافعا عن وطنه ومتصديا لهجوم المعتدين البربرى ، ولم يعد شاغل يشغله خلال ذلك النضال الا رد العدوان وقهر الاعداء . ولم ينعزل الادب السوفييتى فى تلك الاثناء ولم يتحول عن مجازر ميادين القتال الى مغانى الاحباء ومباهج اللقاء .... بل اضطلع بتصوير مغامرات البطولة التى أقدم عليها المقاتلون السوفييت والوقائع الحربية التى انعقد لهم فيها النصر . بيد انه لم يصور الابطال السوفييت عمالقة طوال الرماح والسيوف ، ولم يقدرهم بعدد الارواح التى أزهقوا ، والقلاع التى هدموا ، ولكنه صور شجاعتهم ومروءتهم ونجدتهم . صور ما رأوا من وحشية المعتدين ، ومن تنكيلهم بالنساء والاطفال والعجزة من بنى وطنهم ، وكيف كان ذلك أقوى دافع دفعهم الى البطش بالاعداء .... لقد غنى الادب السوفييتى خلال ذلك القتال المروع بقصص الحرب التى لم تعن بالوقائع الحربية قدر ما عنيت بابراز النواحى الانسانية فى المدافعين عن وطنهم ، والأفعال الوحشية التى ارتكبها المعتدون الطغاة . ان هذه القصص زادت الشعب السوفييتى ايمانا بنفسه وبانسانيته وقدرته على الذود عن حياضه ، وحفظ كيانه ومواصلة السير فى الطريق التى رسمها لنفسه .

وما انقشعت غيابة تلك الحرب الكريهة ، واستعادت الحياة هدوءها واستقرارها حتى زاد اقبال الشعب السوفييتى على مختلف مناهل الادب ، وعلى البحوث

النقدية المنيرة للاذهان ، الموقظة للوعى الادبى ، وبدأ يتخير ما يقرؤه ، وينبذ الانتاج التافه ، فأحدث ذلك رد فعل مفيد فى ميدان الادب ، وأرغم الكتاب على زيادة التجويد ، والناشرين على تخير ما ينشرون ، فازداد مستوى الانتاج الادبى ارتفاعا . وازدادت الصلة الفكرية بين جمهوريات الاتحاد السوفييتى توثقا ، وأقبل الشعب الروسى على قراءة المؤلفات الادبية الواردة من الجمهوريات السوفييتية الاسيوية ، وأفاد منها ، ووسع بها آفاق اطلاعه ، واكتسب خبرات جديدة والتهم قراء تلك الجمهوريات كذلك ما ورد لها من الانتاج الادبى الروسى ، وانصهر هذا كله وتمخض عن أدب أكثر جدة ، واصدق تعبيرا عن الامة السوفييتية الحديثة ... وكان من الطبيعى ان ينزع السوفييتيون الى توسيع دائرة اطلاعهم ، وزيادة معارفهم ، فأقبلوا على آيات الادب الغربى يلتهمونها ، ويقارنون بينها وبين آيات أدبهم فنشطت حركة الترجمة ، ولم يبق كتاب غربى ذو قيمة لم يترجم الى اللغة الروسية . وأفاد الادب السوفييتى من ذلك أجل فائدة ، وخرج من نطاقه المحلى الى النطاق العالمى ، وتلقفته أقلام المترجمين ، ونقلته الى مختلف اللغات الحية ، وفاز بتقدير القراء المعجبين فى كل صقع من الاصقاع المتحضرة ..

وازدادت القصص السوفييتية الحديثة اهتماما بالنقد ، واسترشدت به فراحت تكشف عن رواسب الماضى ، وتفضح العيوب المتخلفة عن العهد الزائل المقيت وترسم سبل التخلص منها ، وتصور الجهود التى تبذل فى تلك السبيل ..

ولعل قصة « طلبة وطالبات » التى نقلتها دار الشرق الى العربية خير نموذج لتلك القصص النقدية . فقد عرضت لنا شخوصا ، مختلفين من الطلبة وأساتذتهم

بعضهم لا يزال ذاتيا لا يفكر الا فى مصلحته الشخصية ، وبعضهم الاخر يقبل على العمل البناء ، ويبذل ما وسعه فى سبيل تقويم المعوج ، ومعالجة الفساد والانحلال . والقارىء لا يستطيع لدى قراءة القصة الا ان يضيق بالأولين ويمقتهم ، ويقدر الآخرين ويعجب بهم ...... بل انه لابد مدرك ألا مجال لدوام عناصر الانحلال فى المجتمع الجديد السليم

بهذا يعاضد الادب السوفييتى القوى المجددة الصاعدة وينصرها على قوى الرجعية والانهزام ..... واذا كان نقاد الغرب لا يزالون ينافحون عن أدب الانحلال فان جموع القراء فى مختلف الامصار أصبحوا قادرين اليوم على التمييز بين أدب يخدم المجتمع ويبنيه ، وأدب يفككه ويدمره . ان الادب السوفييتى الواقعى يصور العاملين الشرفاء المضحين بذاتهم من اجل قيمهم والانسانية جمعاء بينما يصور الادب الذاتى المنعزلين المهتمين بشواغلهم الخاصة دون الشواغل العامة .. ان لاول يربط بين أفراد الامة ، ويحفزهم الى انكار الذات والعمل فى سبيل المجموع ، اما الثانى فيفكك الامة اذ يفصل كل فرد عن المجموع ويشغله بذاته وأطماعه الخاصة

ولعل كتابنا يعون ماتقدم، ويطهرون نفوسهم واذهانهم مما شابها من تعاليم نقاد الغرب وكتابه ، ويخلقون أدبا ينبع من النواحي الشريفة من حياتنا ، ويعبر عن معتقداتنا ، ويعالج مشكلاتنا ، فنحن أحوج ما نكون الى أعمال أدبية تصور آنا الناحية الصاعدة من واقعناتصويرا صادقا يدعم الامل والثقة ، ويدفع عجلة تطورنا الى أمام ، ويؤدى بذلك واجبه الوطنى المفروض عليه

الفصل الحادى عشر

النقد الثورى فى روسيا

ظل النقد الادبى فى أوربا الغربية ، حتى أوائل القرن التاسع عشر ، محصورا فى دائرة لم يتخط حدودها منذ نشأته ، وهى امتحان الاعمال الادبية من الناحيتين الجمالية واللغوية ، ثم الحكم بعد هذا الامتحان لها او عليها .. واذا كان قد طرأ عليه تطور وهو محصور فى تلك الدائرة ، فهو أنه انقسم الى مذهبين أولهما مذهب النقد الذاتى وثانيهما مذهب النقد الموضوعى ، اما المذهب الاول فيعتمد فيه الناقد على ذوقه الفنى فى الحكم على العمل الادبى او الحكم له . وأما الثانى فيتناسى فيه الناقد ذوقه الخاص عند تقدير ذلك العمل ويمتحنه موضوعيا ، ويحكم له أو عليه بمدى التزامه لقواعد الكتابة المستنبطة من الايات الأدبية العالمية

وخرج النقد عن هذه الدائرة على يد الناقدالفرنسى « سان بيف » الذى قرر فى العقد الرابع من القرن الماضى ، أن العمل الادبى خلق وأبداع ، وأنه من نفحات العبقرية ، فكيف يجوز للناقد أن يخضعه لتقديره الذاتى ؟ او يحاول تقييده بقيود الاعمال الادبية السابقة عليه ؟ .. وقد انتهى « سان بيف » من ذلك الى أن

مهمة الناقد يجب أن تنحصر فى تفسير الايات الادبية على نحو ينير بصيرة القارىء ، ويبصره بأسرار جمالها . وهذا اقل ما يجب أن يؤديه النقد للعبقريات

وقد ترتب على ذلك أن وضع النقد المؤلفين موضع التقديس . ثم ظهر ذلك التقليد الذى لا يزال يتمتع بالسيطرة فى أوربا الغربية ، وهو أن يتأدب النقد امام المؤلف ، فلا يتدخل فى عمله ، ولا يوجهه ، ولا يعترض على اتجاهاته أيان اتجهت ، أو انحرافاته كيفما انحرفت

ولا نكران أن استخفاف المؤلفين الرومانسيين بالقيم الاخلاقية ــ ذلك الاستخفاف المترتب على تدليل النقاد لهم ، وتهليلهم لكل ما ينتجونه من أدب منحل مسف ما دام يتحلى ببراعة الاسلوب وجمال الشكل ... لا نكران أن ذلك قد أثار أصحاب الضمائر النقية والاخلاق القويمة من أهل القلم . وخير من نطق بلسان هؤلاء هو الناقد الفرنسى « جيراردان » الذى لم ينقد انحرافات الادب الرومانسى فحسب ، ولكنه حمل حملة شعواء على الرومانسية بحسبانها مذهبا غير خلقى .

وظهرت فى الغرب بعد ذلك مذاهب متعددة فى النقد . وانقسم النقاد الى فرق يعتنق كل منها أحد تلك المذاهب ، ويدافع عنه ، وينقد غيره ، بيد أن هذه المذاهب جميعها كانت خاضعة لمذهب رئيسى هو مذهب الفن للفن ، أى أنها كانت تعترف للمؤلفين بحقهم فى كتابة ما يشاءون كما يشاءون ، مدعية أن ذلك من مقتضيات الحرية الجديرة بأن توضع فوق كل اعتبار ، وأن يغتفر كل شىء فى سبيل صيانتها وتوطيدها !! ..

أما فى الطرف الآخر من أوربا ، أى فى روسيا ، فقد ظهر فيها خلال النصف الاول من القرن الماضى

ناقد زلزل أركان هذه المذاهب ، وفضح فساد معاييرها. ذلك هو فيساريون بيلنسكى

رأى ذلك الناقد الفيلسوف أن الفن لا يستعرض الصور الجمالية بغير هدف ، ولكنه يعكس الحقيقة . وهو لا يولد خارج الحياة الواقعية ، ولكنه ينبع منها ، ويبتدع أصدق النماذج لظواهرها .. ومما قاله : « العمل الفنى » حكم .. هو تحليل للمجتمع .. هو صرخات الالم وترانيم الفرحة . وهو سؤال تحتاج الاجابة عليه الى سؤال جديد ..

وقف ذلك الناقد الفذ قلمه على هدم مذهب الفن للفن ، وتسديد خطوات الادب ، وتنبيه المؤلفين الى حقيقة الرسالة التى يجب أن يضطلعوا بها . ولم يلبث النقد أن استرد على يديه كرامته ، وعرف قدره ، وقام بواجبه . فالناقد لم يعد خادما للمؤلفين ، ينهك نفسه ليزين بضاعتهم الزائفة ويروجها ، ولكنه أصبح لهم استاذا وموجها ، ثم حكما آخر الامر ..

ومن أشهر ما كتب بيلنسكى ، رسالة وجهها الى جوجول ، وأخذ عليه فيها الانحراف الذى طرأ عليه ، وممالأته للحكم القيصرى الغاشم بعد نقده له . وقد شرح ميزات مؤلفاته السابقة على هذا الانحراف ، وقارن بينها وبين مآخذ مؤلفاته المنحرفة

ونبع من تلاميذه ناقد صارت له هو أيضا مكانة مرموقة فى عالم النقد ، وأعنى به « نشير نيشفسكى » . لقد دحض هذا الناقد الرأى المثالى الذى يقول أن الذهن يبتدع الافكار دون اتصال بالواقع ، والخيال يخلق الجمال ، ولا وجود للجمال فى عالم الواقع .. وقرر ان الانسان يفقد صلته بالجمال على قدر ابتعاده عن الحقيقة الواقعية ، واحتباسه فى حدود عالم مصطنع ..

فالجمال ليس من ابتداع الوهم الفنى ، على نحو ما تلقنه الفلسفة المثالية ، ولكن الادب الجمالى يعكس ما هو جميل فى الحقيقة الحية الواقعية «١» وهو يجل الفن عن الوقوف عند حد محاكاة الطبيعة بغير وعى ،ولا يرى له أن يقف فى المؤخرة ، ولكن عليه أن يمثل الحياة ويحكم عليها فى نفس الوقت

ينكر « تشيرنيشفسكى » نظرية الفن للفن كما أنكرها « بيلنسكى » ، ويؤكد رسالة الفن الاجتماعية والايديولوجية ، ومهمته التربوية .. فعمق المضمون يجب ان يتجاوب مع جمال الشكل . وهو لا يعزل الفن عن النشاط العملى ، وانما يربطه به وبالمصلحة العامة . فكل ما يمثل المصلحة فى الحياة على نحو هام هو مضمون الفن ، والتطبيق هو الذى يتيح وحده كشف الاكاذيب والاباطيل الكامنة فى الوقائع والآراء والمشاعر .. وفى الفن كذلك «٢» . و«تشيرنيشفسكى» لا يجهل أن الجمال أبعد ما يكون عن الخلود سواء فى عالم الطبيعة أو عالم الفن ، وأن مقياس الحياة يتغير بتغير ظروفها ، والاحساس بالجمال يختلف من عصر الى عصر . وكذلك يختلف بين طبقة وطبقة . ولذلك كان من المهم ان يدرس الفن الظروف التاريخية فى تدبر ووعى .. بذلك تكون آراء هذا الناقد قد اشتملت على جرثومة الفكرة الصحيحة عن الفن كما قال بليخانوف

وماذا كان رأى بليخانوف فى الادب والفن ؟ .. شرح ذلك الفيلسوف العلاقة فى أى بلد بين الفن وأوضاع ذلك البلد الاقتصادية — وفى آخر هذا الكتاب

(١) جون فريفيل فى كتابه « الادب والفن فى ضوء الواقعية »
(٢) المرجع السابق

بعض آرائه فى هذا الصدد وأستند فى ذلك الى شواهد من ميول افراد قبائل بدائية مختلفة ، ومن ذوقهم الجمالى ، ولاحظ أن هذا الذوق يرتقى آخر الامر ، بارتقاء الاوضاع الاقتصادية، فالفرد من قبيلة الهوتنتوت مثلا لا يسلم بما بلغه تمثال « فينوس ميلو » من سمو فنى . وبذلك لا يكون هناك جمال مطلق ، ولكن جمال تختلف الفكرة عنه باختلاف الظروف والعصور .

وبرغم أن بحوثه فى العلاقة بين الفن والاقتصاد قد انحصرت فى دائرة ضيقة ، فأنها ألقت اضواء كاشفة على بعض الجوانب الخافية فى هذا الموضوع . ولكن فضل بليخانوف على النقد لا يقف عند هذا الحد . فقد ناقض ما يحاول الفنان أن يدعيه لنفسه من حرية مطلقة ، واستقلال عن المجتمع ، وسخر من برجه العاجى، ومن تعاليه على الحياة ، وأكد أنه مرتبط بعجلتها ، شأنه فى ذلك شأن سائر البشر . وقد راعه التفاوت المفزع فى الرزق . بين طبقة الاقطاع ذات السلطان فى ذلك الوقت ، وبين الطبقة الشعبية من فلاحين وعمال ، ولاحظ الاصطراع الخفى والظاهر بين هذين النقيضين ، وما يسفر عنه من تقدم فى مختلف نواحى المعرفة .. وفى الادب والفن .. فأخذ يشرح تفاصيل تأثيره فى المثل الفكرية والاخلاقية وفى العلوم ، وفى الآيات الادبية والفنية .. ويشرح كيفية تطويره لها ، ورفع مستواها .. وانتهى بذلك الى أن تطور الفكر والفن لا يمكن تفسيره الا بعد ربطه بالتطور الاجتماعى.

ومن جهوده فى ميدان النقد ايضا دراسته للصلة بين الشكل والموضوع ، أى بين القالب والمضمون ، وقد رأى أن أهمية المضمون تفوق أهمية الشكل ، وقرر انهما يترابطان ويمتزجان فى الآيات الفنية الخالدة ،

ويتنافران ويختلفان فى فنون الطبقات المتداعيـــــة المنهـــارة .. وأكد أن الفن لا يشتمل على غاية فى ذاته ، ولكن غايته فى أهدافه . وهاجم فى النهـــاية التبسيط الكروكى للواقعية ، وعده خطرا داهما

ولكن بليخانوف لم يلبث أن وقع فى نفس الاخطـــاء التى دأب على التحذير منها ، والتزم التزمت الضيق الافق ، فصور الاثر الاقتصـــادى فى المعنويات على أنه مباشر ميكانيكى ، وفاته أن هذا التصـــوير هو الكروكيـــة بعينها ..

بيد ان النقد الاشتراكى ظل الى ذلك الحين يفرض على المؤلف ان يقف موقفا حياديا من وقائع قصصه ، ومن تصرفات شخوصها . وفاته أن الزام المؤلف بذلك يطفىء جذوة مشاعره ، ويعوق نشاطه الذهنى ، ويحيله الى آلة تسجيل ، كما يحيل أعماله الادبية الى صـــور فوتوغرافية لسطحية الواقع . ويبدو أن هذا الخطـــأ ظل سائدا فترة من الزمن لسببين ، أولهمـــا حسبان النقاد أن تدخل المؤلف فى عمله الفنى ، وعدم كتمـــان رأيه فيه ، يحيله من انتاج موضوعى الى أنتاج ذاتى . وثانيهما أن تدخله هذا يفسد جمـــال العمـــل الفنى ويحوله الى مجرد دعاية .. ولعل النقاد الذين أخذوا برأى انجلز فسروه تفسيرا خاطئا ، فقد قال : « أن روائع الاعمـــال تعبر جميعها عن رأى فى الوجود ، وتترجم عن موقف معين حيال النظام الاجتماعى القائم ، وعن نقـــد .. وأمل واتجاه . ولكن ذلك الاتجاه متولد من العمـــــل الفنى نفسه ، ومن كونه صـــــورة للحقيقة . اذ ليس للمؤلف ان يتدخل ليملى حكمه أو يفرضه ، لان الوقائع التى جاء بها وعرضها لا تحتاج قط الى شـــفيع . والصورة المسلم بصحتها لمجتمع متعفن توقظ الرغبـــة

فى قيام مجتمع شريف »

ظل هذا الرأى جاثما على حركة تطور الادب الاشتراكى حتى جاء لينين فاجتثه من أساسه اذ قرر أن الاشتراكية تشتمل فى ذاتها على « الروح » الحـــزبى . وقد أهاب بالكتاب السوفييت فى أثناء ثورة ١٩٠٥ أن يتخذوا موقفا انحيازيا اذ على رجال القلم فى ابان نضال الجموع الحاشدة وحماستها ان يضعوا أنفسهم فى خدمة المـــلايين ، بل عشرات الملايين من العاملين ..

ووجد النقاد الرجعيون فى هذا القول مجالا للتضليل. وتعالى صياحهم مرددا مزاعمهم القديمة الباطلة عن حرية الفنان ، وحيادية الفن . وفاتهم أن قول لينين المذكور لا يحد من حرية الفنان ، ولكن يوطدها وينميهـــا . وأن حيادية الفن وهم من الاوهام ، وباطل من الاباطيل .. فمطالبة الكاتب الاشتراكى باعلان رأيه فى عمله الفنى لا يعقل لسانه ، بل يطلقه . ولا يقيد حريته ، بل يحيلها من مجرد حرية نظرية الى حرية عملية حقيقية . ان قول لينين المتقدم الذكر لا يعنى الا هدم تلك الحيادية الوهمية التى كانت تحرم المؤلف حرية ابداء رأيه ، وتجعل منه آلة لا رأى لها ولا شعور .. ان تلك الحيادية تجعل العمل الفنى مجرد شكل جميل لا هـــــدف له ، فى حين أن الانحيازية التى نادى بها لينين تجعله قوة محركة لتطور الحياة . وليس معنى الانحيازية ان يهمل المؤلف ، ناحية الشكل الفنى فى عمله الادبى ، فان ضعف البناء الفنى فى العمل الادبى يسقطه لا محـــالة .. ان دعوة لينين المذكورة تستهدف رفع مستوى الشكل والمضـــمون فى العمل الفنى سواء بسواء . والا سقط العمل الفنى ولم يحدث اثره المطلوب ، وعلى أثر هذه الدعوة تعدلت آراء كثيرة كان النقد الاشتراكى يروجها دون أن يفطن الى

مبلغ عرقلتها لحرية المؤلفين .. كان هذا النقد يطـــالب الفنان أن يعزف بفنه عن موضوعات معينة ، وأن يقبل على أخرى .. وكان يحاول أن يرسم له خط سيره . ولكنه لم يلبث أن حاد عن تلك الطريق التعسفية المعرقلة لحرية الكاتب ، الخانقة لموهبته الفنية . وأعلن ان الذى يحدد قيمة العمل الفنى هو الموقف الذى يتخذه المؤلف منه ، لا موضوعه ..

ورأى « جدانوف » أثناء ذلك ان نجاح المؤلف فى خلق عمله الفنى يتوقف على مدى وعيه لصراع النقائض فى الموضوع الذى يصوره ، وعلى وقوفه الى جانب النقيض الصاعد ضد النقيض الرجعى المنهزم ، وتشجيعه له ، والقاء الضوء على وسائل نجاحه

وقال « اليكسى تولستوى » وهو يتحدث عن طريقة كتابته لقصصه التاريخية انه يدرس العصر الذى وقعت فيه الاحداث التى يصورها دراســة عامة ، ثم يدرس هــذه الاحــداث وظروف نشــأتها وتطورها دراســة تفصيليــة ... وأبان ان الـكاتب الاشـتراكى يتميز عن غيره من الـكتاب بادراكه لحركة التطور التـاريخى المنبثقة من صراع النقائض ، فهــذا الادراك ينــير له الحقائق المتطورة على أوضح وجه ، ويعينـــه على دقة تصويرها ..

وقــد أجمــع النقــاد السوفييت اليوم على ان صدق تصــوير الواقع فى بلادهم يقتضى من الكاتب السوفييتى أن يقلع عن تصــوير الانحلال البورجوازى الذى انقضى عهــده ، ويقبــل على تصــوير الحركة الـكبرى التى تدب فى المجتمع الســوفييتى من أقصــاه الى أقصــاه وهى حركة بنــاء الاشــتراكية ... ثم ان صدق شعور ذلك الـكاتب بالواقع يقتضى كذلك اســتبدال التفاؤل

والامل فى المستقبل بالتشاؤم والشك اللذين صورهما الادب الروسى القديم ، ويصورهما ادب الغرب الراهن

وعاد النقاد السوفييت المعاصرون الى مناقشة معتقدات الغرب عن رسالة الفن ، وحرية الفنان ، ومقارنتها بمعتقدات السوفييت النقدية . والى القارىء شذرات من بحث فى هذا الصدد عنوانه « حرية الكاتب » للناقد اسكندر كاراجانوف

« يرى مشايعو الفردية الذاتية ان حرية الفنان تتوفر بابتعاده عن مجتمعه ، والتعبير عن شخصيته مستقلة عن سائر العالم . ولكن هذه الحرية خداعة ، وليس موقف مثل هذا الفنان الا انعكاسا موضوعيا لمعتقدات الجبهة الرجعية فى مجتمعه ، ولمثلها الفكرية واخلاقياتها ... »

« ان مشايعى الفردية الذاتية ينصبون أنفسهم مدافعين عن شخصية الفنان وحريته فى الابداع الفنى . ولكنهم لايدافعون فى الواقع الا عن حق الاعمى فى أن يظل أعمى ...

« أن النقاد الغربيين المتظاهرين بنقد الحضارة الرأسمالية ، وهدم أوهامها الضالة ، يحاولون فى حقيقة الامر أن ينقدوا جميع القيم الانسانية ويهدموها ، والا يدعوا للانسانية الا عالما يسوده الاكتئاب العالمى والعزلة الفكرية ... »

هكذا استطاع النقد السوفييتى الحديث أن يصل الى التفسير الصحيح لحرية الكاتب ، والى دحض تمويه النقد الرجعى لها . ان هذا النقد الاخير يعزل تلك الحرية عن الواقع ، ويتغنى بها كما يتغنى الشعراء الشاطحون وراء الخيال دون أن يحددوا مدلولها ، فى حين استطاع النقد السوفييتى تحديد هذا المدلول

بعد ربطها بالواقع . فالكاتب الحر لا يستطيع أن يرى العسف والاستغلال ثم يتغاضى عنه ، وتتحجر مشاعره فلا ينفعل بنضال المغبونين ، وهم جماهير الشعوب ، ولا يقف الى جانبهم ، ويؤازرهم فى نضالهم . انه يمارس حريته الحقيقية بالانفعال للحق والخير ، وبالمنافحه فى سبيلها ... ألم يكن هذا ديدن الاحرار فى جميع العصور . أما الكاتب الذى ينعزل عن معترك الحياة ، ولا يشهر قلمه فى سبيل الحق والخير ، فيستحيل أن تكون بين جوانحه نفس خيره كريمه . وهو بانعزاله يؤيد المستغلين من حيث يريد أو لايريد . ثم ان هؤلاء المستغلين سيحتضنونه بطبيعة الحال ، ويهللون لانتاجه ، فلا يلبث أن يجد نفسه فى صفهم ، وأن يعكس فى مؤلفاته معتقداتهم وأمانيهم ، وبهذا يقع فى ربقتهم ، ويصبح لهم عبدا ، ويفقد البقية الباقية من حريته

ويربط النقد السوفييتى الادب بعصره ، ويرى ان انعزاله عنه يفقده كل قيمة . وسنعود الى الناقد السوفييتى المعاصر « كراجانوف » مرة أخرى . فقد نشر بحثا بعنوان « الكاتب وعصره » جاء فيه :

« ما هى اذن حدود التجارب الخاصة التى يعكسها الكاتب العصرى فى انتاجه ؟.. ما هى حدودها الحقيقية ، لا الحدود التى يبتدعها خصوم الادب المنفعل بمشكلات عصره الاجتماعية والسياسية ؟.. أيستطيع الكاتب أن يهرب من الاحداث العامة التى تقرر ، دون مراء ، مصيره ومصير قومه ؟.. بل ومصير المهنة العزيزة التى يزاولها ؟ .. »

ويربط النقد السوفييتى كذلك بين الادب ومجتمعه. فالادب الرفيع لا يعبر عن خوالج الكاتب الذاتية ، ورغباته الحسية الخاصة ، ولكنه يعبر عن نشاط

مجتمعه ، وعن تفاعل مؤلفه بذلك المجتمع . والادب لا يستهدف الترفيه عن مجتمعه ، أو يقيم نفسه معلما يلقى دروسه على تلاميذ صغار ، ولكنه يستفيد من مجتمعه ويفيده دواليك . ويأخذ منه ويعطيه دون انقطاع . قال ليونيد براستسوف عن آداب مختلف الشعوب السوفييتية :

« بيد ان هذه الاداب جميعا تتصف بصفة واحدة مشتركة لافتة للنظر ، هى انها تصغى للشعب اصغاء طالب العلم ، ثم توجهه توجيه الاستاذ الواعى الدقيق. وانها تتصل بحياة المجتمع اتصالا عضويا ، فتستمد غذاءها من حياة الشعب ، ثم تعود فتغذيها بدورها .. ويترتب على ذلك ان الادب وما يتعلق به يجب أن يجابه الحياة التى تسيطر على مجرى الادب وتوجهه هو ومختلف ظواهره ... »

ونختتم ما تقدم بتلخيص رأى النقد السوفييتى المعاصر فيما ينبغى أن يكون عليه الادب الحر الشريف : « ان الادب والفن السوفييتى مرتبطان أوثق ارتباط بحياة الناس وصراعهم فى سبيل بناء الاشتراكية .. ان الكتاب والفنانين والنحاتين ومؤلفى الموسيقى وجميع ذوى النشاط الفكرى والثقافى يساهمون بجهودهم الخلاقة فى الاعمال البناءة التى يقوم بها المجتمع السوفييتى ، ويؤدون بذلك خدمات فعالة للشعب .. ان الطريق الرئيسى للتطور هو أن يتصل الادب والفن اتصالا غير منفصم بحياة الناس ، ويصورا فى صدق وأمانة خصوبة واقعنا وغناه ، ويكشفا فى قوة حجة جهود الشعب السوفييتى العظيمة لتبديل الحياة ، وشرف مقاصده وأمانيه ، وسمو مستواه الاخلاقى . ان الرسالة العليا للادب والفن هى أن يستنهضا

الناس للكفاح فى سبيل انتصارات جديدة يحققانها فى ميدان العمل البنائى ... ان التصوير الصادق لحياة مجتمعنا فى الاعمال الادبية والفنية يقتضى الكشف عن الجوانب الطيبة المشرقة فى واقعه ، ونقد عيوبه ، وهتك الستر عن جوانبه السلبية التى تعوق تقدمه ، والتنديد بها ... ان الفنان الصادق سيجد نماذج صالحة لاعماله الابداعية فى حياة مختلف الناس ، وبين جدران المنشآت الجماعية والصناعية ومزارع الحكومة والجماعات . وسيستطيع بمقارنة الجوانب الطيبة بالسيئة أن يؤيد الطيب ، ويبرزه باخلاص فى صور مشرقة . اما المؤلف الذى لا يبتهج لانتصارات قومه فسيقتصر فى عمله على تصيد السيئات والسلبيات ، والتنقيب فى صناديق القمامة ، ودس محتوياتها القذرة على الناس على زعم انها خصائص الحياة ... »

لقد استطاع النقد السوفييتى أن يصل الى الحل الصحيح للمشكلات النقدية حين فطن الى ان المعنويات تنبع من الماديات وتتفاعل معها ، وحاول تفسيرها على هذا الاساس .. وقد استطاع أن يرى الصلة بين الفن والحياة الواقعية.. وتفاعلها حين فطن الىالروابط العامة بين الاشياء ، وفحص الامور على ضوئها ، وقد أخذ النقد فى سائر البلاد الحرة بوجهة نظره ، وألقى الى الوراء بتعاليم النقد الرأسمالى السىء القصد

خاتمة

اذا نظرنا الى نهضتنا الادبية الحديثة على ضوء ما قدمناه وجدنا ان بوادرها الاولى لاحت فى أفق حياتنا بعد أن فتحنا نوافذنا المغلقة ، وأطللنا منها على أوربا ، فبهرنا تقدمها الفكرى ، وحدانا الى نفض الغبار عن كواهلنا ، والاخذ بعد طول السبات بأسباب النهوض ..

وانتشر التعليم بعد اقبال الناس عليه ، وكثر عدد الملمين بالقراءة والكتابة ، وتطلع كثيرون منهم الى نهضة جدودهم الادبية ، ونقبوا عن آثارهم ، وتكفلت المطبعة الاميرية بنشر بعض الدواوين العربية القديمة ، فراجت سوق الشعر ، وظهر شعراء محدثون حاكوا أسلوب الشعراء القدامى ، وان عبروا فى أحيان كثيرة عن معتقدات عصرهم وميوله . ثم نهض الشعر وقتذاك نهضة مرموقة بفضل محمود سامى البارودى ..

وأعقبه شوقى وحافظ اللذان انصرف نشاطهما الاكبر الى نظم الشعر السياسى ، وتأجج كثير من قصائدهما بالعاطفة الوطنية ، وبالثورة على الاستعمار البريطانى ، واكتسب أساوبهما بعض الجده

والاصالة ..

ثم ظهر كتاب عيسى بن هشام الذى انتصر للتقدم العصرى فى الميدان الحضارى ..

وكانت هذه الاعمال الادبية تعكس فى اغلب الاحيان معتقدات الطبقة الوسطى التى اطرد نماؤها فى تلك الاونة ، وتعبر عن ميولها ، ولكن كان ينقصها نضج الوعى والتمرس ..

وما أن انتشرت القراءة انتشارا يجزى المضطلعين بالكتابة حتى تزايدت الكتب المطبوعة وتنوعت . وعكف المتطلعون الى أوربا على الروايات الاوربية المسلية فترجموها الى العربية ، ونشروها فلاقت من القراء اقبالا لا بأس به ، وغرست فيهم البذور الاولى للميل الى القصة الحديثة . ولكنها لم تكن ذات أهداف سياسية واجتماعية ، فلم تمس شغاف قلوب القراء ، ولم تنل من اهتمام القراء ما ناله شعر عصرهم

واشتدت الحركة الوطنية بعد ظهور مصطفى كامل ، واستعاد المصريون اعتزازهم بوطنهم وذاتهم ، وبعد أن كان التيار الوطنى هو الغالب على الشعر ظهر شعراء تملكتهم العزة بالنفس ، فعبروا بالشعر عن آرائهم وميولهم الذاتية ، ووصفوا الشعر الذى لا يعبر عن الذات بأنه شعر مناسبات !.. واعلام أولئك الشعراء هم شكرى والعقاد والمازنى ... وقد مهدوا لظهور الشعر الرومانسى الذى حمل لواءه شعراء مدرسة ابولو

وعلى الرغم من ان هؤلاء الشعراء الذاتيين أثروا حركتنا الادبية وعمقوها ، وحرروها من ربقة محاكاة الادب العربى القديم ، فقد عجزوا عن أن يحققوا لها الاستقلال ، ولم يستطيعوا الا أن يربطوها بعجلة الادب الاوربى ، فاذا مال البورجوازيون المصريون فى ذلك

الوقت الى محاكاة الاوربيين واستوردوا جميع السلع من بلادهم ، فلا عجب اذا سار أولئك الشعراء على منوال مواطنيهم وحاكوا شعراء الغرب ، واستوردوا منهم مختلف الموضوعات والافكار والمعانى

وكان الشغل الشاغل للقوى المصرية الثورية منصرفا وقتذاك الى مناهضة المستعمرين ، فلا عجب اذا اقتصر الادب الملتزم فى تلك الحقبة على طرق الموضوعات الوطنية ، والتعبير عن مشاعر تلك القوى الثورية ، والاشتغال بها عن كشف مخازى الطبقة الموسرة من المصريين الممالئين للاستعمار ، ومدى استغلالهم للطبقة الفقيرة من مواطنيهم ، لاسيما طبقة الفلاحين ...

ثم ظهرت باكورة القصة المصرية الطويلة ، وهى قصة « زينب » لحسنين هيكل ، وتلتها قصة « دعاء الكروان» لطه حسين . وقد حاولت كل من هاتين القصتين تصوير الحياة فى الريف المصرى ، واظهار العلاقة غير الانسانية بين ملاك الاراضى والفلاحين ، ولكنهما اقتصرتا على كشف نوع واحد من اعتداء هؤلاء السادة على مسوديهم ، وهو الاعتداء على العرض ، واغفلتا الاعتداء على سائر حقوق الفلاحين

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية انتهى فى عالم الادب المصرى عهد استنفد أغراضه ، وبدأ عهد جديد ...

فى ذلك الوقت ظهر لفيف من شباب مصر الثورى طالب بأدب يقلع عن محاكاة أدب الغرب ، وينصرف الى تصوير الحياة المصرية على حقيقتها ، وتسجيل نشاط مجتمعها ، وابراز التناقض الناشب بين مختلف فئاته ، ومناصرة قواه التقدمية على قواه الرجعية . وظهرت فى عالم النقد مدرسة وضعت أسسا وقواعد لتلك الدعوة

ولم تلبث أن ظهرت قصص لنجيب محفوظ اضطلعت

بتصوير مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية المصرية . وبرغم انها لم تتخذ موقفا معينا من الصراع الذى صورته ، فقد أدت رسالة جلى ، وخطت بالقصة المصرية خطوة واسعة الى الامام ...

ثم ظهرت ليوسف ادريس قصص وطنية صورت الصراع الذى كان محتدما بيننا وبين الاستعمار وعملائه. وظهرت له قصص أخرى ريفية صورت استغلال أصحاب الاراضى الزراعية للفلاحين

وما عم الاستبشار بهذه النهضة القصصية ، وانعقدت عليها الامال الكبار حتى هبت عليها من الغرب الاوربى رياح مخربة حولت مجراها من عالم الواقع الى عالم الغيب . ونشط النقد الرجعى الذى روج للبدع الادبية الاوربية المنحرفة

بيد ان الامل كبير فى أن يفطن رواد القصة العربية الحديثة الى أهمية الخط السليم الذى التزموه فى مطلع حياتهم الادبية ، ويدركوا الفائدة التى يمكن أن تجنيها نهضتها الادبية من عودتهم الى التزامه

واستهوت القصة القصيرة لفيفا من شبابنا المخلص المؤمن بالواقعية الاشتراكية فى الادب ، وحققت على يديه تقدما ملحوظا

وحاول شعراؤنا الشبان أن يستنبطوا لونا جديدا من الشعر أقدر على تصوير الواقع ، والتعبير عن المشاعر الصادقة . وهم لايزالون يتلمسون طريقهم فى هذا المجال . ولا شك انهم يصبحون أقدر على تحقيق هدفهم فيما اذا أقلعوا عن الميل الى الغموض

أما المسرح فقد حظى فى الايام الاخيرة بجانب كبير من اهتمام أدبائنا ونشاطهم ، وظهرت على خشبته مسرحيات عديدة موفقة ..

ملحق : رأى بيلخانوف في الأدب والفن

الموضوع الذى نناقشه هو الادب والفن . ولكن الاسترسال فى بحث أى موضوع يحتاج منذ البداية الى تعريفه . فعلينا لذلك ان نبدأ فنحدد ما نقصده بكلمة « فن » ، بيد اننا نجد من ناحية أخرى ان الاسترسال فى بحث أى موضوع هو وحده الذى يؤدى بلا جدال ، الى تعريف مناسب لذلك الموضوع ، ويترتب على ذلك اننا لسنا فى وضع الان يمكننا من تعريف الفن .. فكيف نتغلب على ذلك التناقض ؟.. احسب انه يمكن التغلب عليه بالطريقة الاتية وهى ان أختار للفن منذ الان تعريفا مؤقتا ، ثم أعمل على تصويبه وسد نقصه كلما ازداد الموضوع وضوحا فى معرض البحث ..

فما هو التعريف المؤقت الذى اختاره منذ الان ؟ ..

ذكر « تولستوى » فى بحث بعنوان « ما هو الفن ؟ » عدة تعريفات للادب والفن رأى ان كلا منها يتناقض بدوره مع سائرها ، ورآها جميعها كذلك غير مرضية . وفى الواقع انها غير متناقضة وغير معيبة الى الدرجة التى بدت له ، ولكن لنفرض انها سيئة كما يقول ،

ولننظر فيما اذا كان التعريف الذى اختاره فى النهاية للفن مقبولا . لقد قال :

« الفن وسيلة من وسائل الاتصال الانسانى ، والفرق بين وسيلة الفن هذه ووسيلة الكلام ان الانسان ينقل بهذه الوسيلة الاخيرة آراءه الى أذهان غيره ، أما وسيلة الفن فتمكنه من نقل أحاسيسه .. »

وسأكتفى الان بذكر ملحوظة واحدة ..

يرى تولستوى أن الفن يعبر عن عواطف الانسان فى حين تعبر الكلمات عن آرائه . وهذا غير صحيح لان الكلمات لا تشرح الاراء وحدها ولكنها تشرح المشاعر كذلك بدليل أن الشعر يتكون من كلمات ..

ومما قاله تولستوى نفسه :

« تعمل وظيفة الفن على ان يستعيد الفنان من نفسه عاطفة كان قد اختبرها . وبعد أن يستعيدها يعمل على بثها فى النفوس بوساطة الحركة والتخطيط والاوان والصور المنعكسة فى كلمات . ويتم ذلك على نحو يمكن الناس من اختبار تلك العاطفة فى العمل الفنى « كما اختبرها هو فى عالم الواقع » ويبدو مما تقدم انه لايمكن النظر الى الكلمات ، وهى وسيلة من وسائل الاتصال الانسانى ، على انها غريبة عن الفن ولا صلة لها به ..

وليس صحيحا كذلك ان الفن لا يعبر الا عن عواطف الانسان . لا ، فالفن يعبر عن عواطف الانسان وعن أفكاره كذلك ، وهو لا يعبر عنها تعبيرا سلبيا ، ولكنه يعكسها فى صور حية . هذه هى خصائص الفن التى تميزه ..

يرى تولستوى أن الفن يبدأ عندما يريد الانسان أن يبث فى غيره عاطفة اختبرها فيعمد الى ابتعاثها فى نفسه من جديد ، ويعبر عنها بدلائل خارجية معينة . أما أنا

فأري ان الفن يبدأ عندما يبتعث الانسان في نفسه عواطف وآراء اختبرها وهو تحت تأثير الواقع المحيط به ، ويعبر عنها في صور مجددة . ومن تحصيل الحاصل أن نقول انه يعمد الى ذلك فى أغلب الاحيان بقصد نقل ما فكر فيه وشعر به الى غيره من النـاس .. ان الفن ظاهرة اجتماعية ..

هذه هي التصويبات التى اردت ــ مؤقتا ــ أن أصوب بها تعريف تولستوى للفن ..

ولـكنى أطلب اليك كذلك ياسيدى القارىء أن تلاحظ الرأى الاتى الذى قرره مؤلف قصة « الحرب والسلام » (يقصد تولستوى طبعا)

« يوجد فى مختلف المجتمعات على اختلاف الحقب وعى دينى شائع بين افراد المجتمـع يفرق بين الخير والشر ، وهـذا الوعى الدينى هو الذى يحدد قيمـة الخوالج العاطفية التى يبثها الفن »

وسنتبين من هذا البحث مبلغ صحة هـذا الراى . بيد انه ، على أية حال ، رأى جدير بالعناية البالغة لانه يقترب بنا من مشكلة الدور الذى يلعبه الفن فى تاريخ التطور البشرى ..

وما دمنا قد توصلنـا الى تعريف أولى للفن فهـذا يمهد لى شرح وجهة نظرى . وانى أبادر فأقرر دون لف ودوران ان الفن « ظاهرة اجتماعية » انظر اليها من زاوية التصور الواقعى للتاريخ ..

فما هو هـذا التصور الواقعى المادى للتاريخ ؟ ..

هناك فى الرياضيات ، كما هو معلوم ، برهان مسلم به ، أو برهان غير مباشر . وقياسا على ذلك سأنهج هنا نهجا أدعوه « التفسير غير المباشر » أى انى سأبدأ بشرح التصور المثالى (الوهمى) للتاريخ ، وسأشير الى نواحي

الاختلاف بينه وبين نقيضه ، وهو التصـــور الواقعى للتاريخ ..

يقوم التصوير المثالى للتاريخ ، أو تقوم أبقى صـــورة من صوره ، على اعتقاد مؤداه ان السبب النهائى الحاسم فى تطور التـــاريخ البشرى يرجع الى تطور معـــارف الانسانية وأفكارها . وقد كان هذا الاعتقاد هو المسيطر على العقول جميعها خلال القرن الثامن عشر ، ثم انتقل الى القرن التاسع عشر . وقد ظل « ســان سيمون » و « اوجوست كونت » متشبثين به ، ولو ان وجهـــة نظرهما اختلفت فى بعض مواضعه عن وجهات نظر من سبقوهما من فلاسفة القرن الثامن عشر . فان « سان سيمون » يسأل مثلا عن منشأ نظام الاغريق الاجتماعى ، ثم يجيب على سؤاله بما يأتى : « كان « النهج الدينى » يقوم عندهم أساسا للنهج السياسى .. فهـــذا النهج الاخير كان يقاس على الاول .. » وهو يذكر لنا ، تدليلا على صحة رأيه ، ان « الاولمب » الاغريقى ، وهو مقر آلهة الاساطير ، كان كذلك مقرا لاجتماع « الجمعيـــة الجمهورية » ، وتشريعات مختلف البلاد الاغريقيـــة تشترك رغم اختلافها فى مظهر عام واحد هو انها جميعها ذات صبغة جمهورية . ولم يقف « سان سيمون » عند هذا الحـــد ولـــكنه رأى كذلك ان النهج الدينى ، أو النظام الدينى الـــكامن وراء نظام الاغريق الســـياسى ، ناشىء بدوره من مجموعة « مفاهيمهم العلمية » أو عن نظرتهم الى « نظام الـــكون العـــلمى » ، وبذلك تكون « مفاهيم » الاغريق العلمية فى نظره هى أساس حياتهم الاجتماعية ، وتطور هذه المفاهيم ، أو التصورات ، هو الدافع الاساسى للتطور التاريخى ، والعـــامل الرئيسى الذى يحدد تحول أشكال الحياة الاجتماعية عبر التاريخ

من شكل الى شكل ..

ويرى « أوجوست كونت » كذلك ان تحليل هـذا الموضوع يدل فى نهاية الامر على ان حـركة الجهـاز الاجتماعى بأسره تقوم على « الافكار » وهـذا الرأى ترداد لاراء من سبقوه من الانسيكلوبيديين الذين زعموا ان « الفكر » هو الذى يحكم العالم

والمفهوم الواقعى للتـاريخ يناقض هـذا الرأى كل المناقضة . فبينما يرى « سان سيمون » ، وهو ينظر الى التاريخ من الزاوية المثـالية ، ان علاقات الاغريق الاجتماعية نابتة من معتقداتهم الدينية ، أرى أنا المشايع للفهم الواقعى ان اجتمـاعات « الاولمب » الجمهورية (السياسيـة) ليست الا انعكاسـا لنظـام الاغريق الاجتماعى . واذا كان « سان سيمون » قد تساءل عن منبت عقائد الاغريق الدينية وأرجعها الى نظرتهم العلمية للوجود ، فانى أرى ان نظرتهم العلمية هذه قد تحددت فى مراحل تطورها التاريخى بتطور القوى الانتاجية التى كانت تحت امرة الشعب الهيلينى وقتذاك

هذا رأيى فى التاريخ بوجه عام ، فهل هو صحيح ؟.. لست هنا بصدد التدليل على صحته ، ولـكنى سأسألك أيها القارىء ، أن تسلم جدلا بأنه صحيح ، وأن تتخذه معى نقطة بداية لبحث مشكلة الفن . ومن الواضح ان البحث فى مشكلة الفن الخاصة سيكون فى نفس الوقت محكا لصحة نظرتى العامة للتـاريخ ، فاذا كانت هـذه النظرة خاطئة عجزنا ونحن نتخذها نقطة بداية لبحثنا ، عن السير قدما فى تفسير تطور الفن . أما اذا وجـدنا أنفسنا ، بعد الاستعانة بها ، أقدر على تفسـير ذلك التطور ، فسيكون هذا دليلا قويا على صحتها ..

بيد انى أتوقع اعتراضـا منـذ البـداية . فقد ذكر

« داروين » فى بحثه « أصل الانسان والانتخاب الطبيعى فى علاقات الجنس » عدة وقائع تدل على الدور الهام الذى تلعبه « حاسة الجمال » فى حياة الحيوانات . ويمكن الاشارة الى هذه الوقائع ، والى النتيجة المستخلصة منها ، وهى ان « حاسة الجمال » لا يمكن أن تفسر الا على أساس « بيولوجى » (علم الاحياء) . أى لا يمكن أن تفسر على أساس « الفهم الواقعى » للتاريخ . وسيقال لى انه لا يجوز ان ينسب تطور هذه الحاسة عند الانسان الى عامل واحد فقط هو الوضع الاقتصادى للمجتمع الذى يعيش فيه . ولما كان رأى « داروين » فى تطور الاحياء مادى الاتجاه دون شك ، فسيقال لى كذلك ان علم الاحياء المادى يزودنا بدلائل باهرة تدحض نظرية التفسير المادى الواقعى للتاريخ

وانى أقدر رجاحة هذا الاعتراض ولذلك سأعمد الى مناقشته . ومما يضاعف فائدة تلك المناقشة اننى عند الرد على ذلك الاعتراض سأرد فى نفس الوقت على اعتراضات أخرى شبيهة به يمكن استخلاصها من حياة الحيوانات « السيكولوجية » . ولنحاول أولا ان نحدد ، على قدر الامكان ، النتيجة التى يمكن استخلاصها من الوقائع التى أدلى بها « داروين » ولننظر لذلك فيما استخلصه هو نفسه من تلك الوقائع

جاء فى الفصل الثانى من القسم الاول (الطبعة الروسية) من كتابه « أصل الانسان » ما يلى عن « حاسة الجمال » : « قيل ان هذه الحاسة انسانية ، أى خاصة بالانسان .. ولكننا عندما نجد ذكر الطير يتأنق أمام الانثى فى عرض ريشه الجميل وألوانه الزاهية ونرى الطيور العادية لا تبدى مثل زهوه وخيلائه ، يتبدد لدينا كل شك فى ان الانثى تعجب بجمال

أليفها الذكر . وما دامت الانثى تتزين في كل مكان بريش الطيور ، فان جمال هذا الريش يخرج عن نطاق الجدل . ثم ان حرص الطيور المفردة ، وطيور البساتين، على تزيين أعشاشها وملاعبها بما تجمعه من الاشياء المبهجة الالوان ، يدل على ابتهاجها بمثل هذه الزينة . ولا شك كذلك فى ان الالحان العذبة التى ترسلها ذكور الطير فى فصل الربيع ، أى فصل الحب ، تدل بدورها على ان اناث الطير تعجب بها . واذا قيل ان هذه الاناث تعجز عن تقدير الالوان الجميلة ، ومظاهر الزينة ، والحان ذكورها ، فمعنى ذلك ان الجهد والعناء اللذين تبذلهما تلك الذكور فى عرض مفاتنها على الاناث يضيعان عبثا ، وهذا لا يمكن التسليم به .. »

ومما قاله « دارون » فى كتابه المذكور « يخيل الى ان استحالة تفسير السبب فيما تحدثه الالوان من بهجة وانشراح أشبه باستحالة تفسير السبب فى الاستمتاع بالرائحة الطيبة والرائحة الشهية . وسواء تمكنا من تعليل ذلك أو لم نتمكن فمما لا شك فيه ان الانسان كغيره من الحيوانات الادنى مرتبة منه ، يستمتع بمثل ما تستمتع به من الالوان والانغام ، واناقة الاشكال والظلال .. »

هكذا تدل الوقائق التى ذكرها « دارون » على ان الحيوانات تستطيع ،كبنى البشر، أن تستمتع بالجمال ، وان أذواقنا الجمالية تطابق فى بعض الاحيان أذواقها ، ولكن تلك الوقائع لم تفسر لنا « أصل » تلك الاذواق الجمالية ..

واذا كان علم الاحياء يعجز عن تفسير أصل تلك الاذواق ، فهو يعجز من باب أولى عن تفسير تطورها التاريخى . ولكن لندع « داروين » يعاود حديثه :

« ليس تذوق الجمال ، أو الجمال الانثوى على الاقل ، ذا طبيعة خاصة يدركها الانسان. ودليل ذلك انه يختلف كلية باختلاف الاجناس البشرية . وقد يختلف بعض الاختلاف حتى بين أفراد أمة لم يختلف جنس شعبها. واذا اتخذنا من الحلى القبيحة والموسيقى البشعة التى يعجب بها المتوحشون معيارا للحكم كان لابد أن نقرر ان موهبة الذوق لم تتطور عند أولئك المتوحشين وتصل الى ما وصلت اليه مثيلتها عند بعض الحيوانات كالطيور مثلا .. »

فاذا كان تصور الجمال يختلف حتى بين أفراد الامم المنحدرة من جنس واحد كان معنى ذلك ان الاختلاف المذكور لا صلة له « بعلم الاحياء » ، وقد قرر «داروين» نفسه ان البحث عن ذلك يجب أن يتجه الى ناحية أخرى . وفى الطبعة الثانية من كتابه المذكور وردت عبارة هذه ترجمتها : « ومع ذلك ، فان مثل هذه الاحاسيس الجمالية ذات صلة وثيقة ، لدى الشعوب المتحضرة ، بالاراء المركبة ، والتفكير المدرب .. » (هذه الجملة لم ترد فى نسخة الكتاب الروسية) ..

ان هذا الذى قرره « داروين » ذو أهمية كبرى فهو ينقلنا من علم الاحياء الى علم الاجتماع . اذ من الواضح ان أسبابا اجتماعية ، كما يرى « داروين » نفسه ، هى التى تحدد الحقيقة القائلة بأن أحاسيس المتحضرين الجمالية ذات صلة بالافكار الحضارية المركبة . ولكن هل أصاب « داروين » عندما ظن ان الصلة بين الفكر والذوق الجمالى لا تتوفر الا عند المتحضرين ؟ لا ، ومن السهل ان نتبين خطأه . ولنضرب مثلا لتوضيح ذلك : من المعلوم ان جلود الحيوانات ومخالبها وأنيابها استأثرت بمكانة مرموقة بين أدوات زينة المتوحشين ،

فما سبب ذلك ؟ .. أهو تناسق فنى بين ألوانها وأشكالها ؟ .. لا ، فالمتوحش الذى يتزين مثلا بجلد النمر ومخالبه وأنيابه ، أو بجلد الجاموس البرى وقرونه ، يرمز بذلك الى قوته ومهارته فى صيد تلك الوحوش . فالذى يقهر الخصم الماهر لابد أن يكون أمهر منه ، والذى يقهر القوى يكون كذلك أقوى منه . وليس من المستبعد أن يكون للخرافة أيضا أثر فى هذه الحالة . فقد حدثنا « سكولكرافت » عن قبائل الهنود الحمر فى شمال أمريكا فقال ان رجالها مغرمون بالحلى المصنوعة من مخالب الدببة الشهب التى لا تعرف تلك البلاد حيوانات أشد منها فتكا ، ويرجع ذلك الى ان الهندى المحارب يرى ان وحشية تلك الدببة وشجاعتها تنتقل الى من يتزين بمخالبها . فهذه المخالب فى نظر « سكولكرافت » زينة من ناحية ، وتميمة من ناحية أخرى ..

ويستحيل فى هذه الحالة أن نتصور ان أولئك الهنود لايعجبون بتلك الانياب والمخالب والجلود الا لتناسق ألوانها وأشكالها . كلا ، فالعكس هو الارجح ، أى ان هذه الحلى لم تستعمل أول الامر الا على أنها شواهد الشجاعة والمهارة والقوة . ثم حدث بعد ذلك وبسبب انها شواهد القوة والمهارة والشجاعة ، ان أخذت تستثير المشاعر الجمالية ، وتكتسب خصائص الزينة. ويترتب على ذلك ان «آراء المتوحش الجمالية» ليست ذات صلة « بالاراء المركبة » فحسب ، ولكنها فى بعض الاحيان تنشأ بالذات من أثر مثل تلك الاراء ..

وها هو ذا مثل آخر : من المعلوم ان نساء بعض القبائل الافريقية تزين معاصمهن وسيقانهن بالخواتم والخلاخيل الحديدية ، وقد تلبس زوجة الرجل الغنى

ما يزن ثلاثين أو أربعين رطلا من تلك الحلي . ولا شك ان ذلك متعب مرهق ، ولـكن المرأة التى تتقيـد بالاغلال أو أغلال العبودية كما يسميها « شواينفورت » ، تجد متعة فى حمل أغلالها ... فمـا سـبب المتعة التى تستشعرها المرأة الزنجيـــة وهى ترزح تحت عبء قيودها ؟ ! سبب متعتها انها تجد بذلك نفسها ، كمـا يجدها غيرها ، جميلة ! .. ولـكن ، ما سر جمـالها هذا ؟ ! .. انه نتيجة تزاوج مركب للافكار . وقد قال « شواينفورت » ان الولع بتلك الزينة يستبد بالقبائل التى بدأت تستقبل عصر الحديد أو القبائل التى تجد الحديد معدنا نفيسا ، اذ ان الاشياء النفيسةتبدو جميلة لانها تتصل بفكرة الثروة . فاذا تحلت امرأة من قبيـلة « الدنكا » بعشرين رطلا من خلاخيل الحديد مثلا بدت لنفسها ولغيرها أجمل مما لو تحلت برطلين منها فقط ، ذلك لانها تبدو فى هذه الحالة أشد فقرا . ومن الواضح ان المهم هنا ليس جمال خواتيم الحديد وخلاخيـله ، ولـكنه التزاوج بين هذه الزينة وفكرة الثروة ..

وهذا مثال ثالث : ان قبيلة « الباتوكاس » فى أعلا نهر « الزمبيزى » تعد الرجل قبيحا اذا هو لم يحطم أسنانه القاطعة العليا . فمن أين نشـأت هـذه الفكرة الجمالية ؟ .. لقد نشـأت كذلك من تزاوج الافكار ، فرجال تلك القبيلة يخلعون أسنانهم القاطعـة تشبهـا بالحيوانات المجترة . ولا شك ان هـذا العمـل يبـدو فى نظرنا غير مفهوم . ولـكن « الباتوكاس » قبيلة ريفية تكاد تعبـد عجولها وبقرها . وهنـا يبـدو من جـديد ان كل ما هو نفيس هو كذلك جميل ، والتصور الجمالى ينبثق من أفكار مختلفة عنه فى نوعها

ونذكر أخيرا مثالا ضربه « داروين » نفسـه وهـو

يتحـــدث عن المستكشف « ليفنجســـتون » قال :
ان نساء « ماكولولو » يثقبن شفتهن العليا ويدخلن بها حلقــة كبيرة من الخيزران أو من المعدن يطلقن عليهــا اسم « بيليلى » . واذا سئــل زعيم القبيــلة عن سبب تزين النســاء بتلك الحلية أجاب وهو ولا شك مندهش لهذا السؤال السخيف : « السبب هو طلب الجمال .. وهل يملك النساء من أسباب الجمال غير تلك الحلى ؟ ان زينة الرجال هى اللحى والنساء محرومات منها .. وأى صنف من النساء تكون المرأة التى لا تتحلى شفتها بتلك الزينة ؟ » بيد انه يصعب تحديد المصـــدر الذى نشــأت منه عادة لبس « البيليلى » . ولاشك ان البحث عن هــذا المصــدر يجب أن يدور فى محيط الافكار التى وصل تزاوجها الى أقصى درجات التعقيد . ومن الخطأ البحث عنه فى ثنايا قوانين علم الاحياء اذ لا علاقة بينهما كما هو واضح

وأرى انه يحق لى ، بعــد ذكر الامثلة السابقة ، أن أؤكد ان المشــاعر التى تســـتثيرها الالوان والاشكال المنسقة الصيــاغة ، تتزاوج فى الذهن ، حتى فى ذهن الرجل الهمجى ، بأفكار مركبة أعقــد تركيبا . وان هناك على الاقل ، عددا عديدا من هــذه الالوان والاشـــكال المنسقة لا تبــدو جميــلة الا بفضــل ذلك التزاوج ..

ولــكن كيف تستيقظ هــذه المشــاعر؟.. ومم تتولد الافكار المركبة المتزاوجة مع مشاعرنا التى تجيش لدى رؤية بعض الاشياء ؟ لا جدال ان علم الاحيــاء يعجز عن الاجابة على هذين السؤالين ، فالاختصاص هنــا لعلم النفس . واذا كان التصــور الواقعى للتاريخ أقدر على هدايتنــا الى حل لهذا المشكل .. واذا وجــدنا ان التزاوج المذكور ، والاراء المركبة ، تتحــدد آخر الامر

وتتشكل بفعل أوضـــاع القوى المنتجة فى مجتمع ما ، وفى ظروف ذلك المجتمع الاقتصادية ، فيجب التسليم ، بناء على ما ذكر ، بأن مذهب « داروين » لا يتناقض مع المفهوم الواقعى المادى للتاريخ ، ذلك المفهوم الذى حاولت شرحه فيما تقدم ..

ولا أستطيع أن أطيل الحديث عن العلاقة بين مذهب « داروين » وذلك المفهوم ، ولـكنى سـأدلى مع ذلك ببضع كلمات أخرى فى الموضوع

تأمل الاســـطر التالية التى وردت فى كتاب داروين « أصل الانسان » (ص ٩٩ من الطبعة الثانية الانجليزية)

« يحسن أن أبدأ فأقول اننى أود ألا أصر على أنه اذا بلغت المواهب الفكرية لحيوان اجتماعى مستوى المواهب الفكرية الانسانية فى نشاطها ومدى تطورها ، فلا بد أن يكتسب ذلك الحيوان نفس احساسنا الادبى . وكذلك نجد بعض الحيوانات تشعر بالخطأ والصواب ، وتتمتع بنوع من الذوق الجمالى ، ولـكنها تعجب بأشياء مختلفة عن التى نعجب نحن بها ، وتسلك طرقا سلوكية مختلفة عن التى نتبعها . واذا قلنا على سبيل المثال ان النـاس ينشأون ويشبون فى ظروف تطابق ظروف خلايا النحل كل المطابقة ، فيصعب فى هذه الحالة أن نشك فى أن اناثنا اللواتى لم يتزوجن سيجدن من واجبهن ، كملكات النحل ، أن يقتلن اخواتهن وأمهاتهن ، ويحاولن قتـل أولادهن ولا يفكر أحد فى التعرض لهن . ومع ذلك يخيل الى فى مثل هذه الحالة ، ان النحلة ، أو أى حيـوان اجتماعى آخر ، يتحلى بنوع من الشعور أو الوعى الذى يفرق بين الخطأ والصواب

ما المستفاد من هذا القول ؟.. المستفاد ان معتقدات الانسان الادبية ليست مطلقة ، بل هى تتغير بتغـير

الظروف التى يعيش فيها . ولكن ما الذى يخلق هذه الظروف ، وما الذى يطورها ويغيرها ؟.. لا يتعرض « داروين » لهذه الاسئلة قط . ولكننا اذا اكدنا ودللنا على ان أوضاع القوى المنتجة ، وتغير تلك الاوضاع نتيجة لتطور تلك القوى ، هى التى تخلق الظروف السابقة الذكر وتطورها ، اذا أكدنا ذلك ودللنا على صحته ، بعيدين عن أن نصطدم بما قرره «دارون» ، نكون قد أتممنا عمل ذلك العالم ، وأوضحنا ما عجز هو عن ايضاحه . واننا سنصل الى ذلك مستعينين فى دراسة الظواهر الاجتماعية بنفس المذهب الذى أدى أجل الخدمات فى محيط علم الاحياء ..

ولن يكون من الطبيعى ، على العموم ، أن نقيم خلافا بين « الداروينية » (يقصد مذهب داروين) وبين وجهة النظر التاريخية التى أدافع عنها ، فان داروين يرود ميدانا مختلفا كل الاختلاف . انه يبحث فى نشأة الانسان بحسبانه من الاجناس الحيوانية . أما الفلسفة المادية الحديثة فتحاول تفسير الحياة التاريخية لتلك الاجناس . وطريق بحثها يبدأ حيث ينتهى بحث « الداروينية » ، وعملها لا يغنى عما أمدنا به داروين من علم ، وكذلك لا تغنى كشوف داروين الرائعة وكشوف تلاميذه عن بحوثها . بيد ان تلك الكشوف تمهد السبيل للبحوث الواقعية كما يمهد العالم الطبيعى سبيل الدرس الكيميائى دون أن يقف بذلك حجر عثرة فى طريق البحوث الكيميائية ، والامر جميعه ينتهى الى هذه النهاية . فقد كانت « الداروينية » فى وقتها خطوة تقدمية حتمية فى تطور علم الاحياء ، وقامت بتوفير أدق المطالب التى كان ينتظرها المتحمسون لهذا العلم وكشوفه . فهل يمكن أن يقال مثل ذلك من وجهة

النظر الواقعية فى تفسير التاريخ ؟.. أيمكن الجزم بأنها كانت خطوة تقدمية حتميـــة فى تطور العلم الاجتماعى ؟ وهل هى قادرة اليوم على تلبية جميـــع مطالب هـــذا العلم ؟.. أجيب على ذلك بالايجاب ، وأؤكد اجـــابتى أشد توكيد .. وآمل أن أبرهن بالحجج المقنعة على ان ثقتى فى صحة ما أؤكده ليست مبنية على غير أساس

اذا عدنا الى علم الجمال بدا لنـــا مما قاله «داروين» انه ينظر الى تطور الذوق الادبى من نفس زاوية نظره الى تطور الاحساس الادبى • فالناس فى نظره ، وكذلك عدد غير قليل من الحيوانات ، يتمتعون بذوق جمالى. أى انهم يشعرون بنوع من المتعة « الجمالية » حين يقعون تحت تأثير بعض الاشياء والظواهر الطبيعية . ولـــكن تلك الاشياء والظواهر الطبيعية التى تتيح لهم متعـــة تذوق الجمال تتوقف على الظروف التى نشأوا فيها ، وعاشوا وعملوا متأثرين بها . ويرى داروين كذلك ان تمتع الانسان بالذوق والتخيل الجمالى يرجع الىطبيعته البشرية . وان الظروف المحيطة به هى التى تحدد كيفية تحول ذلك الذوق والتخيل من مجرد ممكنات الى واقع فعلى ، وهى التي تفسر اتصاف رجل اجتماعى ما بأذواق وتصورات معينة دون غيرها ..

هذه هى النتائج النهائية التى تستخلص استخلاصا آليا مما قاله داروين فى هذا الصدد • ولا شك أنه لا يوجد أحد من معتنقى مذهب التفسير المادى للتاريخ يمكن أن ينازع فيها ، فهؤلاء على العكس يرون فى تلك النتائج دليلا جديدا على صدق نظرهم ، ومما لا شك فيه أنه لم يخطر ببال أحد منهم أن ينكر الصفات الاجتماعية للطبيعة البشرية ، او أن يفسرها بطريقة تعسفية • فالذى قالوه

في هذا الصدد ينحصر فى أن الطبيعة البشرية متطورة ، فلو أنها ليست كذلك لاستحال تفسير حـــركة التطور التاريخى التى تتمثل فى ذلك الحشد من الظـــــواهر الطبيعية الدائمة التغير

بيد انه ما دامت الطبيعة البشرية « تطور نفسها » عبر التطور التاريخى ، فلابد أن يكون هناك سبب خارجى يدعو الى تطورها • ويترتب على ذلك ألا تنحصر مهمة المؤرخين وعلماء الاجتماع فى بحث خصائص « الطبيعة البشرية » فى ذاتها

لنمتحن خاصية من خصـــــائص « الطبيعة البشرية » كالميل الى « المحاكاة » مثلا ، لقد رأى « تارد » الذى كتب بحثا ممتازا عن قانون « طبيعة المحاكاة » أن تلك الطبيعة هى روح المجتمع • وجاء فى معرض تعريفه لها أن كل مجتمع عبارة عن جمهور من الناس يحاكى فى حاضره بعضه بعضا من ناحية ، ويتخذ له من ماضيه نموذجـــا يحاكيه من ناحية اخرى •• ومما لا يتطرق اليه شك أن « المحاكاة » لعبت دورا ضخما فى تاريخ صراع الافكار والاذواق والعادات والاخلاق • وقد ابرز الفلاسفة الماديون الذين ظهروا فى القرن الثامن عشر اهمية ذلك الدور • ومما قاله الفيلسوف الفرنسى « هيلفسيوس » فى هـــذا الصدد : « يتكون الانسان بحذافيره من المحاكاة » •• غير أن البحاثه « تارد » المشار اليه لم يتخذ من مثل هـــذا القول الواقع فى خطأ المبالغة مقدمة لبحوثه فى قوانين المحاكاة

وعندما استعادت أسرة « ستيوارت » العــــرش فى بريطانيا ، وأرجعت نظام الاشراف القديم البائد ، لم يبد على أولئك الاشراف أى ميل الى محاكاة التزمت الـــذى اتصف به ممثلو ثورة البورجوازية الدنيا المعروفون باسم

« البيوريتان » ، بل استمسكوا ، على العكس ، بالعادات والميول المناقضة تماما لعادات « البيوريتان » وميولهم • لقد ادى تزمت « البيوريتان » الى اندفاع خصومهم فى تيار اباحية خرجت عن حد المعقول ، وأصبح محببا اليهم أن يعجبوا بكل ما حرمه « البيوريتان » ، ويتهالكوا عليه• كان البيوريتان متحرجين فى الدين فطاب للطبقة الارستوقراطية حينذاك أن تجاهر بالكفر • واضطهد البيوريتان الاحرار من كتاب الادب والمسرحيات ، فما زالت دولتهم حتى كان ذلك ايذانا بنهضة ادبية ومسرحية كبرى • وكان البيوريتان يقصون شعر رؤوسهم ، ويستنكرون الزى المبهرج ، فما عادت اسرة ستيوارت الى الحكم حتى أصبح الشعر الطويل والزى الثمين من دلائل الاناقة الحديثة • وحرم البيوريتان لعب الورق ، ولكن سرعان ما أصبح الميسر فى ظل الحكم الجديد فتنة أولع الناس بها •• وهكذا دواليك •• ومجمل القول ان « المحاكاة » لم تلعب دورها فى تلك الحقبة من التاريخ ، وانما نقيضها هو الذى لعب دوره • ان الميل الى مناقضة الواقع يدخل كذلك فى دائرة خصائص « الطبيعة البشرية » ، ولكن لماذا بلغت تلك المناقضة الداخلة فى خصائص « الطبيعة البشرية » اقصى عنفوانها حين لعبت دورها فى دائرة العلاقات بين الاشراف والبورجوازية الدنيا فى بريطانيا خلال القرن السابع عشر ؟! •• السبب فى ذلك هو الصراع الحاد الذى دار وقتذاك بين طبقة الاشراف والبورجوازية ـ أو بتعبير أدق ـ بين الاشراف و « الطبقة الثالثة » من المجتمع عموما

ويمكن القول ، بناء على ما تقدم ، انه برغم ميل الانسان الشديد الى المحاكاة ، فان ذلك لا يظهر الا فى حدود علاقات اجتماعية معينة • ومثال ذلك ما حدث فى

فرنسا خلال القرن السابع عشر عندما اقدمت البورجوازية على محاكاة الاشراف ، برغم انها لم تصب فى ذلك نجاحا كبيرا « انظر تمثيلية موليير « البورجوازى الشريف » .. وفى حدود علاقات اجتماعية اخرى مختلفة يتبدد الميل الى المحاكاة ، ويخلى مكانه لنقيضه الذى سأطلق عليه فى الوقت الحاضر اسم « التناقض »

ولكن لا ، فانا أعرض الموضوع عرضا غير صحيح . فان الميل الى المحاكاة لم يتبدد فى بريطانيا كلية خلال القرن السابع عشر . واغلب الظن انه كان يبدو فى عنفوان قوته من خلال علاقات الافراد المنتمين الى طبقة بعينها حيث كان بعض هؤلاء يحاكى بعضا . وقد قال « بلجام » عن الطبقة الراقية فى ذلك العصر : « لم يكن أولئك القوم ملحدين عن عقيدة . ولكنهم أنكروا الدين منذ البداية حتى لا يقال عنهم أنهم من « حليقى الرءوس » أى من « البيوريتان » ، وحتى لا يجهدوا انفسهم فى التفكير . « كتاب الشعب ورجال الادب فى انجلترا خلال القرن الثامن عشر » . ويمكن القول دون خوف من التورط فى الخطأ ان أولئك القوم كانوا ينكرون الدين تشبها ومحاكاة ، بيد انهم اذ كانوا يحاكون الملحدين المفكرين كانوا يناقضون البيوريتان فى نفس الوقت .

لقد كانت المحاكاة مصدرا للتناقض .. واننا نعلم أن محاكاة ضعاف العقول من أشراف الانجليز للملحدين الذين كانوا اكثر منهم فهما ، وحسبانهم الالحاد موضعا للتباهى والتفاخر يرجع الى تناقضهم مع البيوريتان ، بل انه رد فعل لتزمت خصومهم هؤلاء . ورد الفعل هذا كان بدوره نتيجة من نتائج الصراع الذى دار بين هاتين الطبقتين . وهكذا نرى أن وراء هذه الظواهر الفكرية المعقدة حقائق ذات طابع اجتماعى

وعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نمتحن النتيجة التى استخلصتها من بعض بيانات داروين ، وان نتبين مدى صحتها ، وحقيقة مفهومها ، تلك النتيجة التى تقرر أن « الطبيعة البشرية » هى التى قد تتيح للانسان التمتع بنوع من التصورات والاذواق والميول • ولكن تحول استعداد الانسان هذا من مجرد امكانياته الى واقع فعلى يتوقف على الظروف المحيطة به ، أى بالانسان •• وبسبب تلك الظروف تصبح له تصورات وميول وأذواق بذاتها دون غيرها •• واذا لم تخنى الذاكرة فان أحد مواطنى الروس الواقعيين سبق له أن قال ما يأتى :

« عندما يصل قدر من الطعام الى المعدة يبدأ عملها طبقا لقوانين الهضم • ولكن هل تزودنا هذه القوانين بالاجابة على السؤال الاتى : « لماذا تتمتع معدتك أنت يوميا بوفرة من الطعام الشهى المغذى بينما لا تستقبل معدتى انا مثل هذا اللون من الطعام الا نادرا ؟! •• وهل تفسر لنا تلك القوانين لماذا تكتظ معدة انسان كل يوم بألوان المأكولات بينما يكاد غيره يموت جوعا ؟ •• ان تفسير ذلك يخرج ، كما يبدو ، عن نطاق قوانين الهضم ، ولا يمكن التماسه الا فى نطاق آخر خاضع لقوانين مختلفة •• كذلك حال عقل الانسان • فاذا كابد العقل حالة معينة ، أو أمدته الاوضاع التى تحوطه بتأثيرات معينة ، فانه ينسج منها نسيجا يخضع لبعض القوانين العامة • وتختلف النتائج اختلافا كليا باختلاف التأثيرات التى يتلقاها العقل • ولكن ما هى العوامل التى أوجدت العقل فى مثل تلك الاوضاع والحالات ، والتى حددت قدر تلك التأثيرات ومميزاتها ؟ •• ان قوانين العقل لا تستطيع أن تفصل فى هذا

« وهاك مثلا آخر • تصور كرة من المطاط تسقط من

برج عال ·· انها تخضع فى سقوطها لقانون بسيط معروف هو قانون الميكانيكا · فاذا اصطدمت بسطح مائل تغير اتجاهها ، وخضعت فى ذلك ايضا لقانون ميكانيكى آخر · ونرى نتيجة لذلك ان انحراف سيرها ناتج دون شك من مركب القانونين المذكورين · ولكن ما الذى أقام السطح المائل فى طريق الكرة ؟ ·· من أين جاء هذا السطح المائل ؟ ·· ان هذين القانونين عاجزان عن حسم هذا السؤال · ما الذى اوجد الظروف التى أخضعت سير الكرة الى مركب هذين القانونين ؟ ·· ان أحد هذين القانونين او مركبهما لا يفسر لنا ذلك ··

انى على يقين من أن تاريخ المثل الفكرية يتعذر فهمه على كل من لم يدرك هذه الحقيقة البسيطة حق الادراك

ولنستأنف الآن بحثنا ·· عندما تحدثت عن المحاكاة أشرت الى الاتجاه المناقض لها واسميته « التناقض » · ولابد الان من امتحان هذا الموضوع على نحو أدق ·

نحن نعلم أهمية الدور الذى لعبه « التعبير » عن مشاعر الانسان والحيوان · ذلك التعبير الذى شرحه داروين تحت عنوان « مبدأ التضاد » (الجمع بين المتضادين) قال : « ان حالات معينة من حالات عقل الكائن الحى تؤدى به الى الاقدام على تصرفات اعتادها فى الاصل ، وقد يظل يمارسها · وسنرى انه ، فيما اذا استبدت به حالة عقلية مضادة كل التضاد لما سبقها ، سيدفعه ميل قوى غير ارادى الى الاتيان بحركات وتصرفات ذات طبيعة مضادة كل التضاد هى الاخرى ، برغم أنه لم يكن يمارس مثل تلك الحركات والتصرفات من قبل ·· » وقد ضرب لنا داروين أمثلة دلل بها تدليلا مقنعا على أن « مبدأ التضاد » له أثره الفعلى فى جانب كبير من المشاعر

وطرق التعبير عنها • وانى لاتساءل ألا نســـتطيع تبين جذور هذا الاثر فى تطور العادات والتقاليد ؟ ••

قال داروين •• « عندما يلقى الكلب بنفسه تحت أقدام سيده ، وينام على ظهره ، فان تصرفه هـــذا يدل على الخضوع التام ، فهو نقيض الى أبعد حد ممكن لمختلف حالات المقاومة « وهنا تظهر عملية « مبدأ التضاد » ظهورا يلفت النظر • واعتقد انها تظهر كذلك فى الحالة الاتية التى رواها الرحالة بورتون • قال : « عندما يمر زنوج قبيلة « وانياموزيزى » بقرية تقطنها قبيلة معادية يتجردون من أسلحتهم ليتحاشوا أى احتكاك بهم ، فى حين أن كل واحد منهم لا يتجرد من سلاحه عادة حتى فى قريته • فاذا كان لسان حال الكلب الذى ينقلب على ظهره أمام سيده أو أمام كلب اخر يقول ، كما لاحظ داروين ، « انظر •• انما انا عبدك » ، فان زنوج قبيلة « وانياموزيزى » يحاولون ، بتجردهم من أسلحتهم وقت الحاجة اليها ، أن يوحوا الى اعدائهم الا شىء أبعد عن اذهانهم من التفكير فى الدفاع عن أنفسهم • وكأنما يقـــولون لهم : « نحن نثق فى شهامتكم كل الثقة • »

ان الفكرة واحدة فى كلتا الحالتين ، وكذلك طريقـــة التعبير عنها ، اى طريقة التعبير بفعل هو النقيض المباشر للفعل الاخر الذى كان لابد من وقوعه فى حالة ما اذا كانت هناك نية العدوان بدل نية الخضوع

كذلك يتجلى لنا « مبدأ التضاد » واضحا كل الوضوح فى العادات التى تستهدف التعبير عن الحزن • وقد ذكر لنا كل من داود وشارلز ليفنجستون أن المرأة الزنجية تبدو للناس دائما مزدانة بكامل حليها ، الا فى حالـــة حزنها على ميت

ويعتنى الزنجى من قبيلة نيام نيام كل الاعتناء بتصفيف

شعره ، وتعاونه على ذلك زوجاته : بيد انه يهمل شعره كل الاهمال دلالة على حزن يكابده لوفاة احد اقربائه

ويرتدى بعض زنوج افريقيا ، كما قال الرحالة « دى شايو » ، ملابس قذرة تعبيرا عن حزنهم لموت أحد رجال القبيلة من ذوى المقام • ويعبر الوطنيون فى « بورنيو » عن مثل هذا الحزن بخلع ملابسهم القطنية « السارونج » وارتداء ملابس من لحاء الشجر مما كان يرتديه اجدادهم الاقدمون • كذلك يلبس بعض رجال القبائل فى منغوليا ثيابهم مقلوبة لنفس السبب • وواضح من هذه الحالات جميعها ان بعض الافعال تعبر عن مشاعر تناقض المشاعر التى تعد طبيعية وضرورية ومفيدة فى مجرى الحياة العادية ••

ففى مجرى الحياة الطبيعية يعد استبدال الملابس النظيفة بالملابس المتسخة امرا مفيدا مرغوبا فيه • أما فى فترة الحزن فان « مبدأ التضاد » يقتضى استبدال الملابس المتسخة بالملابس النظيفة ووطنيو « بورنيو » الذين تحدثنا عنهم ، يفضلون لبس الاردية القطنية على التستر بلحاء الشجر ، ولكن « مبدأ التضاد » يحملهم على ستر اجسادهم بما لا يؤثرون ، أى ستر اجسادهم بلحاء الشجر تعبيرا عن حزنهم • ويرتدى سكان منغوليا ملابسهم على نحو طبيعى كما يرتديها سائر الناس • ولكنهم للسبب الذى ذكرناه يقلعون عما بدا لهم طبيعيا فى مجرى الحياة العادية ، ويرتدون ملابسهم مقلوبة عندما يحدث لهم حادث محزن يعكر صفو تلك الحياة العادية

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ــ ص . ب ٢١

انجلترا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishoposthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافوره :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Maktab Attijari Asshargi
P.O. Box 2205
SINGAPORE

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Soa Paulo. BRAZIL



هذا الكتاب

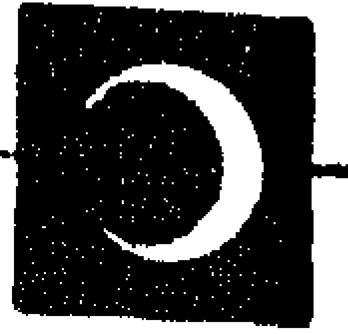
يبحث هذا الكتاب في عوامل تطور الادب عبر القرون ويكشف صلة هذا التطور بالصراع الطبقي

يؤدي التطور الاقتصادي المستمر الى ظهور طبقات اجتماعية جديدة تنمو وتكبر وتشتد الى الحد الذي تمكنها من الاطاحة بالطبقة التي تحكمت فيها واستغلتها ، ومن ثم تحل محلها في الامساك بزمام الحكم وتستبدل بنظام الحكم العتيق نظاما سياسيا ملائما لمبادئها واهدافها

وكل طبقة جديدة تعتنق منذ نشوئها افكارا ومعتقدات تستعين بها على تأييد حقها وتوطيد سلطانها ، وكشف الستر عن عيوب الطبقة المستبدة بها ، وتقويض أركانها . ولا يلبث أن ينبثق تيار أدبي يساندها في نضالها، ويعبر عن افكارها ومعتقداتها وآمالها، ويناهض أفكار ومعتقدات الطبقة التي تناصبها العداء

والكتاب اذ يستعرض نضال الادب عبر القرون في سبيل تأييد الجديد التقدمي ، وتقويض اركان القديم الرجعي ، يقدم الشواهد والامثلة على صحة ما ذهب اليه

١٥
قروش



ممنوع الهمس

قصة اضطهاد الزنوج في أمريكا .. كما رأيته

١٩٦٨

كامل زهيري

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيري

العدد ١٩٨ جمادى الآخرة ١٣٨٧ سبتمبر ١٩٦٧
No. 198 — Septembre 1967

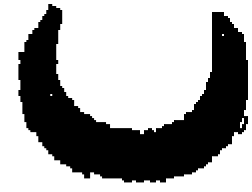
مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج.ع.م . والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة .



كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشـــة
الفنان حلمى التونى

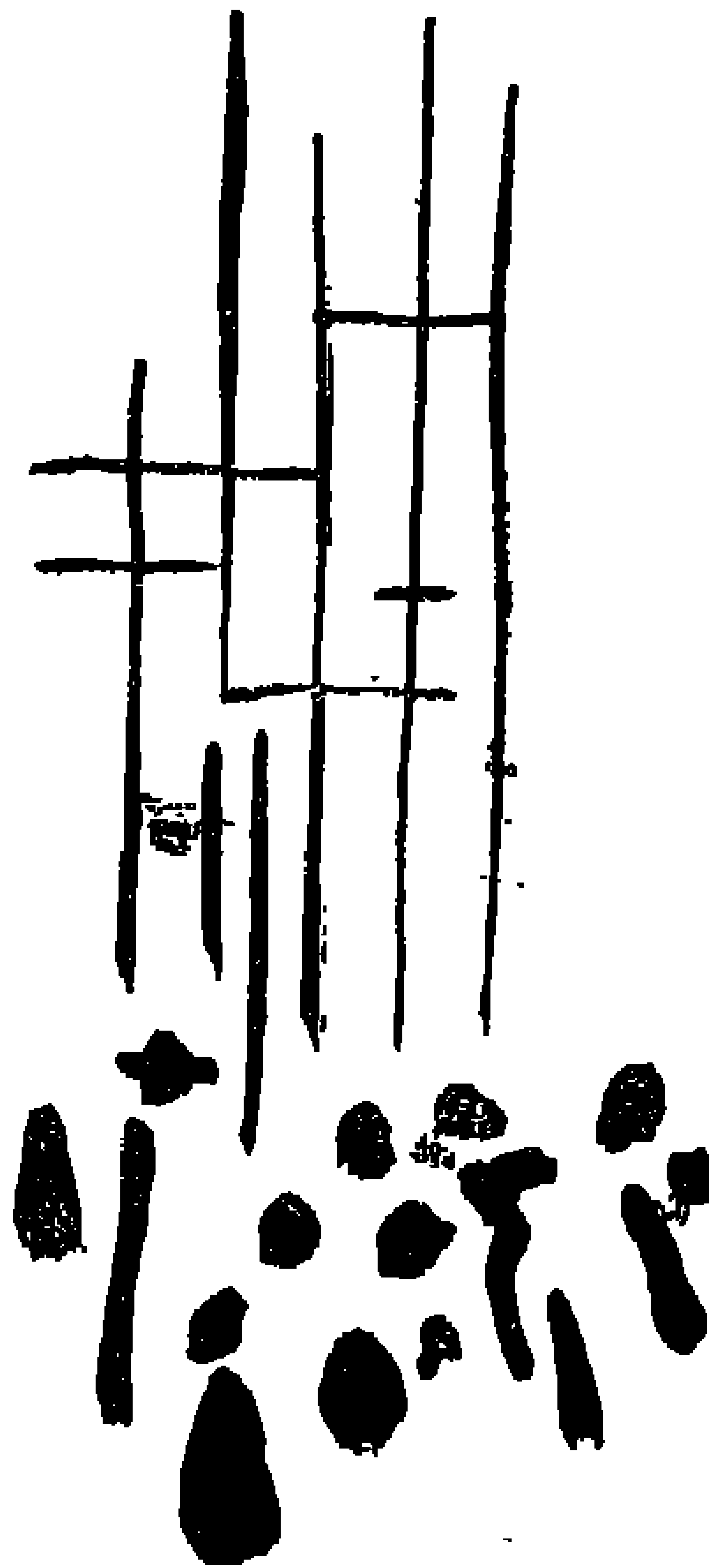
كامل زهيري

ممنوع الهمس

دار الهلال

نيويورك..

مدينة السكتة القلبية



نيويورك صاخبة ، مرحة بلا مناسبة ، غاضبة بلا سبب ، بيوتها من زجاج ، أعمدتها حديد ، تسافر فيها الى أعلى : فى الاسانسير ·وترتفع فى لمح البصر ، من الارض الى الطابق المائة والخمسين · الذين يركبون يبلعون لعابهم ، حتى يقاوموا ضغط السرعة على آذانهم ، والذين ينزلون كأنهم يهبطون « أخلاقيا » .. فالهبوط الاخلاقى هو الهبوط الحقيقى !

ونيويورك تهتز وتتحرك ..

كنيدى يجلس على كرسى هزاز · البارات معتمه أو خافتة ، الضوء كالشمع ، والصوت همس ، ولكن العلامات مضيئة ، تتحرك ، ولا تتركك تسرح ، لابد أن تحلم واقفا .. وأن تتحدث قبل أن تفكر ..

يتحدثون ويشربون بسرعة . الطبق يقدم اليك ، ويؤخذ منك قبل أن تأكله ، القهوة تقدم مع الاكل ، لا يوجد « قبل الاكل » « وبعد الاكل » . يوجد أكل فقط ، أكل ·· أكل · مضغ ·· مضغ ·· مضغ · وقد يمضغون لا شىء ·· اسمه عندهم اللبان

يتحدثون بسرعة ، وتعجب كيف يفكرون ومتى ؟

المفكر يفكر بسرعة المنولوجست . قال لى مخــــرج مسرحى ان اعداد مسرحية لشكسبير يســـتفرق ثلاثة أعوام ، حتى يتعلم الممثل الامــريكى كيف يوازن ويوفق بين سرعته العادية ونغم شكسبير البطىء

ولا تجد فى نيويورك طفلا يدبدب ، ولا شيخا يدب . ولا عصفورا يزقزق . لان السرعة تخيف الطفل والشيخ والعصفور

وهى مدينة السكتة القلبية .

الرجل لا يموت على سريره . فى وسط مكتبــه ، أو على حافة الرصيف .

أهم الحوادث هى الحريق .

كل شىء يحترق . يمتص الاعصاب .. ويحرقها ، ويحترق .

صوت عربات البوليس يصرخ . صـــــوت عربات المطافىء يعوى . نيويورك صاخبة ، مرحة بلا مناسبة ؛ غاضبة بلا سبب ، وكل شىء له ضجة ، مثل ضـــجة المسمار الكهربائى الذى يخترق الاســـفلت .. ماعدا الانسان ، الذى يتزحلق . يحمله سلم كهربائى ، وتنقله عربة . وتستقبله شاشة تليفزيون . ويحدث زوجته أو حبيبته بالتليفون .

كل شىء « تمكنك » بفتح التاء والميم . . من كلمــة الماكينة .

اذا أطل الرجل من النافذة لن يرى الســماء ، ولن يشهد الارض ، سيرى نافذة جاره · منذ ســــــــنوات

يعيشان معا ، ولم يقرئه السلام . ولو حدث فهو أقل سلام فى العالم . فالسلام فى أمريكا حرفان : هاى ! وهو اختصار لكلمة واحدة أيضا هى : هالو !

ناطحات السحاب جميلة من الخارج ، لانها نظيفة قاطعة كحد الموسى . تلمع لانها من الصلب الابيض . زجاجها كالمرآة .. حجارتها تلمع كالزجاج . ولكنك تحس أن ناطحات السحاب ليست لها جذور فى الارض.

انها مجرد كميات هائلة من الحجارة أو الحديد والصفيح والزجاج . كومت بعضها على بعض ، فوق سطح الارض .

الفرق بين أى بيت فى الخارج : فى أوروبا وآسيا وعندنا ، أن بيوتنا لها جذور فى الارض كجذور الشجرة، وأحيانا كجذور الازهار داخل الارض . بيوتنا ضعيفة ضعف الانسان . مائلة .. ليست قاطعة كالسيف . أنها خطوط تقريبا ..

ولكن العمارات فى نيويورك حديد على أسفلت .

والشوارع أرقام : الشارع ٩٠ ، والشارع ٤٢ ، والشارع ١٣ لا تعرف بأسماء العظماء أو الادباء او العلماء .

وهذا وحده يؤكد الطابع التجريدى فى البناء والاسماء ... والحياة .. ويشعرك بالغربة ..

فكيف تحب رقما ؟

ولا أحد على نواصى الشوارع . لو وقفت على الناصية ، تقاذفتك المارة ، وأزعجتك الحركة . فتهرب الى داخل مكان .

والهواء عاطن . ساخن بارد فاسد . مكيف ، البار

بهتكييف هواء ساخن . وفى الركن مروحة كهربائية باردة . الكهرباء فى كل شىء حتى الشمس !

ولا تبحث عن الشمس فى نيويورك . فكيف تصل اليك ، وتخترق كل هذه الحجارة العالية !

ولا تبحث عن الهواء أو الشيخ أو العصفور ..

فكل من يعيش فى نيويورك متوسط العمر . فى العنفوان . الرجل طويل . أنيق . حليق، شعره نظيف . أسنانه لامعة . منذ عشرين عاما أو يزيد ، يطيع أوامر مصانع جيليت .. وفرشاة الاسنان « المفضلة » كولجيت ! فى عينيه شرارة القلق . وفى خطاه ثبات المقامر ، ولكنك تلمح ذبولا تحت العينين . وحزنا فى التجاعيد .. لا تمحوه مياه الكولونيا . ولا تضيئه مستحضرات التجميل !

والمرأة شابة دائما . نحيفة . تتفجر بالحيوية .. بيضاء .. قصت شعرها .. ونفشته ، أو صبغته .. الروج مسبوك . والكحل محبوك . وكله طراز واحد من هوليوود . الثياب الداخلية قليلة ، رقيقة . هفهافة . تدرك ذلك بسهولة . لان الثوب الخارجى ينسدل على الجسد بلا « كلاكيع » أو مبالغات !

أغلبهن سكرتيرات فى مكاتب . وعند رجال أعمال . ثقافتهن من مجلة « المختار » وغذاؤهن الغالب السندوتش ، وشرابهن المفضل الشمبانيا . تسألك عن مركزك بعد اسمك .. وأحيانا قبل أن تبدأها الكلام !

وأروع مافى فتاة نيويورك : أجادة السذاجة وصناعة الابتسام واغرب مافيها كثرة التدخين . والتدخين حتى فى الشوارع .

فاذا أقدم يوم السبت ماتت المدينة .

والجميع يتمتعون بعطلة نهاية الاسبوع خارج المدينة. يشمون هواء الله لاول مرة منذ خمســة أيام . ولعلهم ينـــامون في بيوتهم على السرير لاول مرة . لانهم كانوا ينامون في الايام السابقة وهم واقفون . فقد كان كل شيء يتحرك كمروحة الطائرة . وكان الرجال يجرون كخيول السباق التى حقنت حقنا صناعية حتى تنشط وتكسب السباق الكبير . وبعد السباق ترتمى على الارض لاهثة بلا حراك .

والسباق الكبير جائزته في نيويورك البقاء في نيويورك!

هارلم



النظرة عندنا ، بعدها ابتسام ولقاء .

ولكن النظرة بين البيض والسود مختلفة .. انهـــا قتال بمسدسات مكتومة الصوت . وقد تذكرت ماكتبه سارتر عن النظرة من انها تحمل معنى العداء.. فالحنان مستبعد . والقتال مستحب . والنظرة كوبرى معلـق لا يصل الى شيء !

أنت شيء آخر غيرى ..

والكارثة انني لا أستطيع أن أعرفك ..

اللقاء مستحيل .. لان الجليد العاطفى يتســاقط بينى وبينك .. على التو ، وبمجرد النظر ..

انها حرب أهلية باردة بلا دم ، ولا قتال ..

وذهبت الى هارلم ، حى الزنوج فى نيويورك ..

وهارلم كانت فى الاصل حيا أبيض ، يسكنه البيض .. وهو على حافة حديقة عامة كبيرة .. ولكـن بعض الزنوج .. نجحوا فى أن يحصلوا على بعض الشقق او الغرف .. وبدأوا يسكنون الحى ، واكتشف البيض أن

الزنوج يزحفون عليهم ! فتركوا لهم الحى بأكمله حتى أصبح جزيرة سوداء .. فى بحر أبيض ..

وهارلم تبدأ من الشارع ١١٢ .
ولم أعرف الحى بالرقم . ولكننى عرفتـــه بتجربة غريبة .
فحين ركبت الاتوبيس من وسط نيويورك فى الشارع ٤٢ . حيث الملاهى الصاخبة ، والانوار المضـــاءة فى عز النهار ، اتجه الاتوبيس الى شرق المدينة .. الى هارلم .
وكانت فى الاتوبيس وجوه عديدة من البيض والسود لم أنتبه لها كثيرا .. فقد كنت أقلب النظر فى الشارع ، وأسرح فى العمارات الضخمة على الجانبين ..
وحين اقتربنا من الشارع ١١٢ ، بداية حى الزنوج ، التفت الى داخل الاتوبيس لفتة عادية ، لالقى نظرة !

وفوجئت بمشهد عجيب ..
لقد أصبح الذين يركبون معى فى داخل الاتوبيس من السود . أختفي البيض فجأة ، وكأنك رفعت البقع البيضاء من لوحة سوداء .
واكتشفت أن جميع الركاب البيض نزلوا من الباب الخلفى فى المحطات السابقة ..
وعرفت أننا نقترب من حى الزنوج .. ولم أســأل أحدا عن العنوان ..

ونزلت الى هارلم ..
وهارلم مدينة شبه مستقلة فى نيويورك ..
شوارعها عريضة كشوارع نيويورك ، ولكنهـــا أقل ازدحاما ..

بيوتها قزمة .. اذا قورنت بناطحات السحاب ..

وألوانها صفراء داكنة ، تشبه البيوت الانجليزية العتيقة .

الحجارة فيها أهم من الزجاج الذى يلمع فى بيوت نيويورك ..

وأحسست أننى أمر فى بومباى .. أو فى مدينة آسيوية .

فاللون الاصفر ، والاسود ، والاحمر ، هو اللون الغالب .. وكل شىء مضروب فى سواد أو صفار ..

واقتربت من حديقة جرداء ..

الشتاء جرد أشجارها من الاوراق ..

وعلى المقاعد يجلس التعساء ، والعاطلون .. والفاسدون الذين فشلوا فى أن يرتفعوا الى مصاف رجال العصابات ، فأصبحوا شراذم يشربون أرخص أنواع البيرة ، ويضحكون على الرغم منهم لابوخ النكت ، وأفظعها لفظا ، وأبشعها معنى ..

والامريكى يضحك كثيرا ..

وقد قال لى أمريكى صحفى ، يحب الشرقيين ، صفا لى بقلبه ، وحدثنى حديث القلب :

ــ اننا فى أمريكا نحب أن نضحك كثيرا ..

اننا نحب أن نضحك معك .. ولكننا نخاف ــ خوف الجنون ــ من أن يضحك علينا أحد ..

والزنجى الامريكى ــ على تعاسته ــ يتشبث بطريقة الحياة الامريكية ، وأولها الضحك ..

ولكنهم فى هارلم يضحكون من التعاسة ..

انهم « يجهشون بالضحك » !

ووجدت كنيسة في بدرون . .تنزل اليها بعدة سلالم تحت الارض . . علقت الصليب على الجانب ، كما تعلق اعلانات الصيدليات !

ولمحت على النافذة الزجاجية اعلانا يشبه اعـلانات صابون الحلاقة . .

القسيس « . . . . . . » يحيى حفلة موسيقى . . وبعدها الصلاة . .

وأحسست أن الدين ــ عندهم ــ يرتعش بالموسيقى!

وأن الغناء والطرب والحركة لا تعنى ماتعنى عندنا من معان . .

ولذلك فالقسيس ــ غير المتفرغ ــ قد يلعب البيانو ، أو يعزف على الجيتار .. ثم بعدها يعمد طفلا ..

ودخلت الحديقة ، فاذا بالاطفال كثيرون . .

واذا برجل يصيح من بعيد بازدراء :

ــ ابتعد ياشاب !

واكتشفت انه ينذرنى بالابتعاد ، حتى لا تصيبنى كرة من كراته التى يطيح بها ، بقوة هرقلية . .

انه يلعب الجولف ..

وابتعدت ، ولا داعى للاعتذار ! لانه كان يبعد عنى أكثر من مائة متر . .

فصـــاح فى ، بعد ان ابتعدت ، بأعلى صــوته ، كأى جنتلمان :

ــ شكرا !

وجلست ، بعد أن أتعبنى اللف . .

وكأنما أصـــابنى الوهم أننى تســـــــممت من أكلة وأنا فى الغربة . فجلست أقلب صفحات الجريدة ..

فللزنوج جرائدهم اليومية ، ومجلاتهم الاسبوعية ، وأقلامهم الجادة . ورسومهم الفكهة .

ولهم مجلة أسبوعية تشـــبه مجلة « لايف » : نفس الحجم ، ونفس الطباعة ..

اسمها « ايبونى » أى العاج .. أو « عسل وطحينة »!

وهو اللون الذى يحلم به السود ، كما يحلم البيض بلون الزمردة الزرقاء ، أو كما تحلم الفتاة الزنجيـــــة بانسياب شعرها ، دون كى أو عناء !

ومجلتهم تعالج مشاكل الزنوج ..

فتتحدث عن دور أجدادهم فى الحرب الاهلية

ثم تتحدث عن نجوم الزنوج ..

وللزنوج نجوم ، أغلبهم فى مجال الغناء والموســـيقى والرقص .. أو الرياضة ..

ومن الزنوج أبطال رياضيون أفذاذ ..

بعضهم عنيف ..

والملاكمة أبطالها زنوج ..

وقد حلل أحــد الكتــاب ظاهـــرة تفوق الزنوج فى الرياضة ، وخاصة فى الملاكمة ، بأنهم يفرجون عن أزماتهم الاجتماعية فى حلبات الرياضة ..

انهم يكرهون البيض .. والملاكمة انتقـــــام شرعى لمايلاقونه من عذاب خارج الحلبة ..

ولكن الرياضة على كل حال معبودة الجماهير ..

ولعبة « البيسبول » التى تعبدها الجماهير أبطالها ـ فى الغالب ـ من الزنوج ..

لان فيها استعراضا .. ولان فيها تجمعا .. ولان فيها تحرشا ومباراة وتفوقا ..

والامريكيون يعشقون الاستعراض والتجمع والتفوق .. ولذة الاقتحام ..

وفى مجلة « ايبونى » أحاديث وكتابات أغلبها ، ان لم تكن جميعها ، عن الزنوج ، يختلط فيها الدفاع ، مع فن الصحافة الامريكية والاثارة ..

وأغرب مافى هذه المجلات انها تنشر اعلانات غريبة ..

والصحف تعتمد على الاعلانات أكثر الاعتماد ..

ولكنها تنشر اعلانات « زنجية » أو طبعات « سمراء » من اعلاناتها البيضاء !

فشركة فورد مثلا ، تنشر اعلانا عن سياراتها ..

ولكنها لا تصور الرجل والمرأة رجلا وسيدة من البيض كالمعتاد ..

انها تصور رجلا أسود وسيدة سوداء .. يقولان نفس الكلام الذى يقوله الرجل الابيض والسيدة البيضاء فى الاعلان الآخر :

ــ يالها من روعة وراحة ومزاج .. !

أو اذا أردت أن تدخن أقل عددا وأمتع كيفا ، فاشرب سجائر وسيجار « وينستون » ..

يقولها شاب زنجى يصورونه مبتسما من شدة المتعة والبهجة .. بل والطرب المشدود .

وبارات هارلم كثيرة ..
مظلمة ككل بارات أمريكا ..
انها كهوف على سطح الارض ..

لا تبين فيها خطاك .. كأنك تدلف الى قبو من قباء الخمر .

وتعجب كيف يعيش فيها الناس ..

يجلسون قليلا .. ويقفون كثـــيرا .. ويترنحون كأعواد الحطب ..

وفى كل بار « بنك » هو البنك الامريكى الذى اشتهر فى العالم باسم البار « الامريكانى »

طويل يمتد من أول البار حتى النهاية .. من الخشب الاصم ..

وهو الشيء الوحيد « المتماسك » فى هذا الحفــــل الساهر الذى لا يدعى اليه احد ، ويشترك فيه أى عابر سبيل ، متى دفع الحساب ..

وفى البار ماكينة تضع فيها « العملة » ، وتضغط على زر ، فتنزل علبة سجاير .

وماكينة أخرى تضع فيها العملة ، وتضغط على زر ، فتسيل الى اذنيك ألحان الجاز ، والموسيقى الزرقاء .. التى تقطر بالشجن ، كأنك تعتصر عنبة ، أو تقــود قلبا سهل الانقياد ..

. . .

وخرجت اتجه الى الحديقة مرة اخرى، وليس للغريب سوى الحدائق .. ومررت بدكان فيه عرافة علقت صورا غريبة ، والوانا عجيبة .

علقت ستائر مزركشة ، فجعلت الدكان المكشــوف على الشارع كأنه مخدع !

وفى داخل الدكان الغريب ، أو المخدع المريب ، سيدة شعرها أسود لامع منسدل .. قد تكون من أصــــل

مكسيكى أو أســـبانى .. فالالوان فى غرفتها خضراء وبنفسجية زرقاء ، صفراء ، مما يميزها عن بقية الالوان البنية الشائعة فى هارلم .

وهى ترمقك بالنظرات الواسعة الباردة .. كأنهـــا تمثال من الغيب .. يقرأ مافى رأسك .. ويرى مستقبلك .. فلا تطيق هذا الود المفروض عليك من أول نظرة .. وتبتعد ..

وعرجت على الحديقة .. مارا بكنيسة عملاقة ..

ان كل شىء فى هذا الحى ملىء بالغبار .. غبـــار ، وضباب غريب ..

هل هى الوحشة !

حتى الهواء غريب .. يشبه الصهد الذى يرتفع من الاناء الذى يغلى ، اذا رفعت عنه الغطاء قليلا ..

انه بخار الحزن !

ورأيت أطفالا يلعبون .. والاطفال نعمة . لانهـــم لا يعرفون شيئا . . وأحيانا تصبح تلك البراءة نعمة العمر وجائزة الحياة ..

وأردت أن أستريح الى صدر طفل صغير .

أن أحدث طفلا .. أى طفل .

عندهم ـ بلا شك ـ ترتد حواجز اللون ، وعقـــدة الطبقة ، وفوارق الثراء . ويذوب كل ما يفصل الانسان عن الانسان ..

واذا بثلاثة أطفال وصبية يقتربون منى .

والاطفال عديدون فى هذا الحى .. يلعبون فى الشوارع لعب الحوارى ..

وأدركت أن المنازل تضيق بهم .. فيطردهم أهلهم الى عتبات المنازل ، أو حواف الحدائق ، أو أركان الشوارع الخلفية ..

واذا بفتاة طويلة ، أطول من عمرها .. فى التاسعة. وفتى طيب يلبس نظارة ليس له عمر . وطفل فى السادسة .. مضحك .. شقى ، أسنانه بيضاء جدا ، ومكسرة كأنها قطع السكر حين توشك أن تذوب ..

عرفت انه عفريت ، لانه يحب اضطهاد « الفتى الطويل الطيب الذى يلبس النظارة »

سألته :

ـ هل تذهب الى المدرسة ؟

فقال :

ـ لا ..

فقلت :

ـ باللعار ! .. وهو تعبير أمريكى ذائع الاستعمال ! أردت أن أذيب به مايربك الحديث فى دقائقه الاولى

وقلت له : ماذا تريد أن تكون حين تكبر ؟

فهز كتفيه ، وفتح فمه ، وظهرت أسنانه البيضاء اللامعة الساذجة ، فعرفت انه لا يعرف . !

وضحكت الفتاة ـ الذكية ـ لتقول انها تذهب الى المدرسة مع هذا الفتى الطويل !

وقالت لى الفتاة : هل هذه آلة سينما ؟
وكنت أحمل معى الكاميرا ..

فقلت لها :

ـ انها كاميرا عادية ..

فقال الفتى الصغير وهو يقفز :

ـ التقط صورتى ..
وسألنى الفتى الطويل صاحب النظارات :
ـ هل هذه آلة تصور وتحمض فى نفس الوقت ؟
فقلت : لا .. انها عادية !
وانعقدت صداقة ـ على الفور ـ بيننا نحن الاربعة..
فقلت :
ـ لن التقط صوركم الا اذا غنيتم اغنية ..

وقد أوحي لى ذلك مارأيته منهم .. فقد كانوا يجلسون فوق مسند الاريكة الخشبية . .ولا يكفون عن الحركة . وكانوا بين الحين والآخر يضربون بأيديهم ، كأنهم يمسكون « الوحدة » .

أنهم يميلون ويتململون بطرب داخلى ، لا تعرف مصدره .. والزنوج أمة النغم ..

وضربت لخمة مع الصفير الشقى ..

وأخذوا يتحاورون فى ارتباك أول الامر ، وأنا ألح عليهم ، ثم راحوا يغنون أغنية شائعة بين الزنوج ..

أضرب الارض ، ولا تعد الينا
.. يا جونز
أضرب الارض ،ولا تعد الينا..
أضرب الارض ، ولا تنظروراءك
يا جونز
انك أردأ الرجال ..
أضرب الارض ، ولا تعد الينا،
ولا تنظر وراءك ، أضرب الارض
فأنت بلاشك رجل ردىء . .
انك أردأ الرجال يا .. جونز !
....

وهبط المساء على هارلم ، حى الزنوج فى نيويورك كأنه أول ليل فى عمرى ! ••

فلقد كان مغرقا فى السواد ••

وبدأت أنسحب من الحى ، وأنا مثقل القلب ، متعب القدمين ، معتل المزاج •

وغرقت هارلم فى الكآبة ، كأنك غمست كسرة خبز فى كأس من الماء ••

وازداد عدد الزنوج فى الشوارع ، وبدأت امواجهم تتلاطم كالمياه الثقيلة العميقة الغور ••

وهناك فى النافذة ، امرأة زنجية تتحدث بأعلى صوتها مع جارتها حديث كل مساء . والاطفال يعـــودون الى بيوتهم كأنهم لم يشبعوا بعـــد من التراب واللعب .. والرجال يترنحون جميعا .

بعضهم سكارى ، ولهم حق فى ان يترنحوا •• وغير السكارى يترنحون أيضا ، وكأنهم خرجوا من حلبةملاكمة بعد أن تصادموا بكل قواهم . وظلوا يتصادمون ، حتى انهدم فيهم كل شيء .. وبدا عليهم انهاك شديد .

والشوارع مليئة بالمضروبين الذين يترنحون من غير سبب ظاهر .

وابتعدت عن الميدان ، الذى يفصل حى الزنوج عـن بقية نيويورك .. واذا بمنظر غريب يفاجئنى .

مقعد من مقاعد الحدائق جلس عليه بعض العواجيز .. والاطفال ..

ولكننى تفرست فى الجالسين ولم أصدق ..
هل هى صدفة حقا ؟

لقد جلس عجوزان أبيضان ، رجل وامرأة على المقعد من ناحيـــة الشرق . حى البيض .. وجلس عجوزان آخران ، رجل وامرأة أيضا من السود من ناحيـــة حى الزنوج فى الغرب ..

فكيف حدث هذا التقسيم ؟

ولم أصدق أنها صدفة ؟ وألححت على نفسى لنفسى على أنها مجرد صدفة ..

من المستحيل أن ينفصل البيض عن السود فى الحياة. وأن يحدث هذا الانفصال حتى على مقاعد الحدائق !

ولكنه منظر جعلنى اتفرس النظر فى مشكلة الزنوج.. لألاحظ كل شىء ، حتى ولو كان صغيرا ويبدو تافها .

جيمي

أعظم لاشيء في العالم



وعدت الى الفندق فى وسط حى نيـــــويوك . الى « جيمى » الزنجى الذى يعمل فى الفندق وتذكرت اننى حين سألته عن اسمه فاجأنى :

ـ سمنى ماشئت !

جيمى، أو جون، أو جوهان، أو ديك.. أو حتى ابراهام ... وهز كتفيه قائلا :

ـ ماذا يهم ؟

وبدا لى جيمى كأنه يبيع اسماء عديدة .. ولا يلزمك أن تقبل اسما معينا ، لانه يبدى اســـتعداده ليغيره ، ويفصله حسب الطلب ..

ودهشت .. لماذا لايعبأ جيمى باسمه ..

أن كثيرين ينطقــون أســـماءهم بشىء من الاصرار والضغط على الحروف .. وكثيرين يصطنعون الحيـاء أو الاستحياء أو شيئا من التواضع المفتبط .. ولكنهم ، على أى حال ، يقولون أسماءهم بشىء من الجدية .

ولكن جيمى يقبل أن تسميه أى اسم .

وتنبهت الى جيمي الذى يعمل فى المصعد يوم الاحد .. وهو يوم العطلة المقدس فى نيويورك . ويحمل الحقائب ، ويوزع البريد ، ويحضر الثلج ، ويوصى على المكوه ، ويقدم لك أى خدمة .. ويقبل منك أن تناديه بأى اسم ..

والفندق الذى كنت أعيش فيه فى نيويورك مزدحم كعادة فنادق نيويورك : الفخم كالمتواضع .. وأكثر الاماكن ازدحاما هو المدخل والبهو . فان الناس يقفون جوار عفشهم ، ولا تعرف اذا كانوا قادمين أو راحلين . والوجوه تتغير .. والحركة لا تنقطع .. كأنك فى محطة سكة حديد .

ولكن جيمي كان الوحيد الذى يتحرك بسرعة خاطفة وسط هذا الزحام .

كان لا يصطدم بأحد ، ولا يرتطم بحقيبة ، وكان يحمل لفة أو يركن شنطة ، أو يزق عجلة ، أو يلفق لنفسه اسما جديدا حسب ما يراه فى الزائر الجديد .

وجيمى يسير راقصا .. أو يرقص سائرا .

والرقص سير الطبيعة فى زنوج امريكا ..

ولا تختلف فى البائس والسعيد .. والمغتبط والتعيس

انهم يتململون ويترنحون ويتهادون ويسرعون ويرتدون .. وهناك نغم خبىء يهدهد رءوسهم .. ويدفع أكتافهم الى الامام ، وأرجلهم الى الوراء ..

وجيمى لم يكن استثناء من بقية شعبه ..

كان يسير راقصا ويرقص سائرا باستخفاف وخفة .

فاذا وقف ضحك .. واذا سار مال .. واذا ضحك دمعت عيناه .

ومن الناس من يسيرون فى الشارع ودموعهم قريبة .. لا تكاد تصطدم بهم صدفة ، أو توقفهم عن السير لحظة .. حتى يبكوا على صدرك .. وانت الغريب !

وجيمى من هؤلاء ..

عيناه مكحلتان بالحزن ، لامعتان بالسرور .. والحزن والبهجة يتراقصان فى نفس الوقت .. كأنهما اعلان يومض ثم ينطفىء .. ليعود الى اللمعان .

وظللت أربعة أيام أتابع جيمى بالنظر .. وأهاجمه بالسؤال ، وأدقق فى شخصيته ، علنى أعرف هذه السعادة دون سبب . وهذا الحزن المركون على جنب .. المستقر فى أعماقه .

وأثارنى استخفافه بنفسه ، وتخففه من أى شىء ، وتنازله عن أسمه بسهولة ..

وأدركت فى النهاية أنه يريد أن يفلت من كل شىء .. من عواطفه .. وموقفه .. ووضعه .. انه يحس انه شىء فى الفندق ، وليس شخصا ..

لا أحد يحس بضرورته .. ولا يحتاج اليه ..

ولذلك فهو يقوم بأى شىء .. لانه لا يختص بشىء محدد ..

وقد أعطاه هذا الاستخفاف خفة غير عادية فى الحركة .. ساعدته فى حياته العملية .. لان يصبح أعظم لا شىء .. فى الفندق .

وساعدته هذه الخفة ان يكون سريع البديهة ..

يتخيل ماذا تريد قبل أن تتكلم ، وتجعله يطيع دون أن تأمر .

وأدركت أن جيمى قرر ـ ذات يوم ـ ان يتنازل للناس عن كل شيء .

ولذلك تنازل جيمى عن اسمه .. وهو أول ما يملكه الانسان فى حياته وآخر ما يقبل التنازل عنه ، وصار يقبل أن تقول له أى اسم ..

ولعله فى باطن نفسه يفضل أن تناديه بأى اسم ، على أن تناديه كما ينادون على الخدم .. بصوت مبهم لايخرج عن هذه الحروف :

ـ بيست ..

أو . يا ! ..

أو أن تناديه باشارة متعجرفة من طرف اللسان !

شارع
الغيظ



كرهت السرعة بعينى ، ورأسى .. ثم كرهتها أخيرا بأنفى • !

وقد كان اعظم كاتب امريكى فى عصره ــ وهو هنرى جيمس ــ يعيش فى باريس كالمخبول الذى تاه فى جمال امرأة . وكان يلعن أمريكا ، لان رائحتها « آيس كريم ، وموز ، وكوكاكولا » ولو أنه عاش حتى الآن لاكتشف رائحة جديدة تنفذ الى الخياشيم • وهى رائحة غريبة تشبه « النفتالين » ••

وظللت أفر من الاماكن التى ارتادها لأن الرائحة الغريبة كانت توقظ أنفى ، وتثير غيظى ، حتى أدركت فى النهاية انها مسحوق كالدقيق ، يضيفه أصحاب المحلات لغسل وتنظيف الاطباق .. بسرعة ..

ومللت كل هذا الاضطراب والازدحام ، الذى لا أملك فيه شيئا .. وأخذت الرائحة نفسها تظهر لى فى كل مكان أذهب اليه فى نيويورك .. حتى أصبحت كالفكرة الثابتة ، فقد ظهرت لى فى كل طبق يقدمونه ، بل وفى كل

اعلان أراه .. وخشيت أن أتخيل هذه الرائحة فيمن يعبرن الطريق من نساء ! ..

ولعله خوف باطنى من الكيمياء .. !

فبعض الناس يتشاءمون من الاطباء تشاؤما خفيا ، رغم انهم يتشدقون بالعلوم الحديثة ..

ولم أسترح الى رائحة النفتالين ـ رمز السرعة الاكيدة والنظافة المضمونة ـ الا حين دعانى صديقى الزنجى الكاتب لقرية جرينتش .. فى قلب نيويورك ..

والقرية اسم أطلقوه على حى ، شاءوا أن يجعلوه مختلفا تماما عن نيويورك ، مع أنه فى قلب نيويورك ..

والحى يشبه مستعمرة العراة .. لانه فريد فى كل شيء .. فى ميوله وعاداته ..

البيوت قصيرة ، وبيوت نيويورك ناطحات سحاب ..

الشوارع تعرف بالاسماء وشوارع نيويورك بالارقام ..

ايجار الغرف معقول .. وايجار الغرف فى نيويورك جنونى ..

وأحسست أن أهل نيويورك أنشأوا حيا كاملا للتثاؤب .. والراحة ..

فالشوارع واسعة تشبه شوارع المدن الاوربية .. وفيها أشجار .. وهذا وحده ميزة كبيرة .. رغم أن الاشجار ذابلة ، وأعوادها سوداء ، وعروقها صماء ..

وشبان « قرية جرينتش » ملتحون غالبا .. متعبون من السهر والسهاد والضنى لاتفه الاسباب ، أو أغمض العلل .. كأنهم عائدون من الميدان .. أو لم يناموا أربعة أيام أو خمسة .. أغنيتهم المفضلة .. أغنية

مش عايز أنام ..
أو عايز أموت ..

وفتيات الحى ـ غير الزائرات أو السائحات ـ يلبسن ثيابا محزقة ، وجوارب ممزقة .. والجوارب سوداء تشبه جوارب الباليه .. يتركن شعورهن كموضة الحرب الاولى ..

راسمالهن العناد ..

فاذا قالت نيويورك ان الموضة هى الشعر الطويل المرسل . قصوا شعورهن كالفتية الصغار ، واذا هتفت بيوت الازياء بأن الموضة هى الثياب الفضفاضة ، لبسن بنطلونات سوداء ..

جميلات مشمئزات ..

وكان واضحا ـ بعد جولة ـ ان الحى يشبه الحى اللاتينى فى باريس . وأن الفتيات نسخة أمريكية من فتيات سان جرمان دى بريه .. ولكن الفتية ـ بدقونهم ـ نسخة من رعاة البقر .. بدون بقر ..

وسألت صديقى :

ـ ولكن ما معنى هذا الاسم .. قرية جرينتش ؟

هل هو صاحب توقيت جرينتش المشهور !

فقال ضاحكا :

ـ يجوز !

ولم لا ؟

انهم هنا يغمزون ولا يتكلمون .. يغنون ولا يأكلون .. يعيشون على الحب .. أرخص الملاذ !

وقال الصديق :

ـ هل تعرف سر تسمية الكاتب الامريكى « هنرى ميللر » احدى قصصه بهذا الاسم الغريب أيضا :

« مدار السرطان » ..

قلت : تقريبا !

قال :

ـ لقد كتب « هنرى ميللر » يسخر من الامريكيين الذين ظنوا انه ألف كتابا طبيا ، لان فى اسمه كلمة السرطان !

مع أن الرجل يكتب ـ كما تعلم ـ ذكرياته فى باريس .. كأمريكى غاضب مغضوب عليه .

وهو يقصد ـ فى الغالب ـ أن يقول انه يعيش فى الحياة على خط وهمى مثل مدار السرطان .. ومدار الجدى ..

انه خط فى الوهم .. لا يوجد فى الحقيقة !

وقال الصديق :

ـ ولم لا ؟ لعلهم قصدوا ذلك ..

فالذين بدأوا السكن فى هذا الحى فى بداية القرن .. كانوا أدباء وكتاب مسرح وشعراء .. ومجددين .. وقد هجروا نيويورك ، وجاءوا الى الحى ليعيشوا على سجيتهم ..

ولعلهم قصدوا رمزا ساخرا يقصدون به انهم يفرون من الزمن ..

لان توقيت جرينتش ، هو التوقيت الوحيد المفترض الذى ليس فى الحقيقة !

انه مجرد افتراض ، ووهم !

قلت : ولكن الحى يكاد يكون صورة مصغرة من الحى اللاتينى ..

فقال : ان الادباء كانوا يعيشون هنا على اعانات من آبائهم ، ثم يلعنونهم ـ خلسة ـ فى أشعارهم ..

قلت :

ـ ولكنى أحس أن هناك شبها آخر ..

ـ ألأن الحب هنا مباح .. ؟!

فقلت : لا ..

أن وجه الشبه بينهما أنه ليس فيهما بنك واحد ..

ان المحلات المتجاورة كلها حانات ، ومحلات أزياء ، ومكتبات ومحلات بقالة .. ومأكولات محفوظة ..

ولا يوجد جزارون ، ولا رجال مال ..

وقلت متحمسا : ولكن أميز ما فى القرية ـ بحق ـ هو مكتبات الاسطوانات ..

وحكيت للصديق عن تلك التســـــجيلات لكثير من المؤلفين والقصاصين والشعراء بأصواتهم

فولكنز . هيمنجواى . اليوت .. ايلوار

وبالطبع أشعار الزنوج ورواياتهم وقصصهم الشـــعبى .. ثم أغانيهم الشائعة ، ومنها تلك الاغنية الشـــائعة هذا الشهر :

مش عايز أنام ..
أو عايز أموت ..

وقلت : لقد عثرت على تسجيل لمسرحية من فصــل واحـــــد . لعلها أغرب مسرحية من نوعهــا . وهى من تأليف « جان كوكتو » ولكنها مترجمة .

وهى حوار طويل . بين عاشـــــقة متيمة ، ورجل لا

يهتم .. وابنمها « الجميل لا يعبأ » ..
والحوار مونولوج مستمر .. تلقيه الممثلة . ولا يتكلم فيه الممثل كلمة واحدة .. وقد سجلتها أنجريد برجمان بصوتها .
فقال الصديق :
ـ أنها خير من يمثل العاشـــقة التى تهلوس .. لانها أعرق محبة بلا أمل !
قلت :
ـ المسرحية كلها كلام المرأة .. وجان كوكتو هو خير من يصور هذه الحالة ، لأنه يكره المرأة بخبث وذكاء ..

والجديد فى المسرحية انها ذات فصل واحد . تقطعه الممثلة فى نفس واحد ..

انها تصرخ وتهدد وتتوعد وتتقرب وتعتذر ثم تشتم ثم تهدد وتبكى .. ثم تشتعل حتى الهياج
تهدد بالانتحار ، وتهدد بأن لها حبيبا آخر ، ثم تتوعد .. ثم تعود تستحلفه بالذكريات ..
تتحدث فى التليفون ، ثم تمزق الجريدة التى يقـرأ فيها الرجل ، ثم تهدد بالقاء نفسها من النافذة ..
ولكن أين هو ؟
انها تريد أن تمسك الماء .. والجميل لا يعبأ ..

. . . .

وقال لى الصديق الزنجى ، وهو يؤلف كتـــابا عن الادب الزنجى ان قرية جـــــرينتش كانت أول مكان يستضيف أدباء الزنوج .. وينشر لهم قصصهم ..
فقد ظهرت فيها مجلات جـــديدة ، وماتت لأنها لا تتجدد .. وظهرت دعوات عـديدة للانتبــــاه الى أدب

الزنوج وشعرهم وموسيقاهم . وجميع أدباء أمريكا ـ دون استثناء ـ أو حاموا حوله .. عاشوا فى هذا الحي..

وقال الصديق :

ـ لقد كان ريتشارد رايت يعيش على مسيرة أمتار من هذا الشارع ..

وقصة ريتشارد رايت قصة مليئة بالتعاسة والموهبة

وفى المثل الفرنسي يقولون :

ـ الموهبة كالجريمة ، لا يمكن أن تختفى !

وكان ريتشارد رايت يؤمن بأن موهبته جريمة لا يمكن ان تختفى ..

فقد كان أصغر أخوته التسعة .. وكان أبوه فقيرا وشرسا .. عاش فى ضنك . كفلته عمته .. واشتغل في مزارع القطن

وهاجر مع افواج من الزنوج الى الشمال .. وبدأ يكتب .. واكتشف موهبة شاعرية متدفقة .. وقدرة رائعة على التحليل والوصف ..

قلت :

ـ ولكن الذى يحيرنى حقا هو البطل عند هذا الكاتب .. انه دائما شاب فى سن المراهقة ..

ـ أن أكثر الادباء الامريكيين كتبوا عن هذه السن بالذات . . ساروريان الارمنى الاصل كتب عن بطل صبى يافع

وسن المراهقة هو السن الذى يحلم فيه الكاتب ويحلم فيه القارىء ..

وسن المراهقة هو سن الامل والتوقع ..

وأمريكا هي بلاد الآمال وبلاد الذين ينتظرون دورهم ! أو هكذا يقولون فيما بينهم .. أو هذه هي الصورة التى صوروها بها .. فهى بلاد غرباء ولاجئين ووافدين ونازحين .. عبروا البحار وليس على أجسادهم سوى بعض الثياب .. وليس فى جيوبهم سوى بعض المال ، أو خطابات التوصية .. ولكن صدورهم بها آمال كبيرة وأحلام وتوقعات ..

ولذلك فأمريكا هى بلاد النجاح العظيم جدا ، أو اليأس العظيم جدا !

وقاع اليأس فيها ليس له قرار ..

والزنوج يعيشون فى قاع القاع .. ويقول المثل المشهور بينهم ، وكأنهم يتحدونه ، ولا يناقشونه ، ويستسلمون له :

ــ الزنجى آخر من يلتحق بوظيفته، وأول من يطردمنها!

. . . .

وريتشارد رايت عقدته هى الخوف من الموت ..

واسرع موت فى أمريكا بمسدس • وأرخص ميت هو الزنجى ..

بل انهم ــ ويا للغرابة ــ يتسامحون حين يقتل الزنجى زنجيا آخر .. ويحكمون على القاتل بأخف الاحكام ..

وكأنهم بذلك يوجهون للزنوج دعوة الى القتل ! ..

لانهم يريدون أن تختنق الاخلاق والقيم عند الزنوج .. فيصبحوا مجرد طغمة من السفلة والاشرار ..

ولذلك كان ريتشارد رايت يكتب عن ادجار الان بو الشاعر الامريكى والقصاص الذى أخترع قصصا

خيالية مليئة بالرعب .

قصص كلها خيال مرعب .. التصور « مسكونة » والبيوت أطلال .. والجماجم تتكلم .. والموتى فى ريعان الشباب . والعمر طائر كالغراب ! .. والحياة رعب مقيم ، وسجن يزهق الروح ، ويرهق البدن .. والخيال جامح ملىء بالمخاوف ، كالبحر الملىء بالصدف يغطى وجه الحقيقة كما يغطى أى بحر أى شط . . فتختفى الارض ، ويغوص القارىء مع الكاتب فى قاع البحر ، الذى ليس له قرار !

. . . .

وكانت القرية قد بدأت تنام .. وبدأت المصابيح تذوى كأنها شمعة .. وقد اختلط ضوء الفجر بضوء المصابيح .. كلاهما لا ينطفىء . كأنما فى عناد متبادل !

وقال لى الصديق :

ـ الغريب أن ريتشارد رايت حين كان يسكن فى هذه القرية ، كان لا يكتب الا فى مثل هذه الساعة .. حين يختلط ضوء الفجر بضوء المصابيح فى عناد غريب . وعندما تصبح القرية صامتة هامدة ، كأنها جثة تنتظر قاتلها .

وكان ريتشارد يحب أدجار آلان بو .. لكنه يضيق به ريهزأ منه ، لانه كان يقول :

ـ لو عاش ادجار آلان بو بين الزنوج لما احتاج الى كل هذا الخيال .. ولما أحتاج الى أختراع الرعب ..

فقد كان يكفيه ان يصف حياتنا ، فتفوق الحقيقة شطط الخيال .. لان أسرع موت .. بالمسدس . . وارخص ميت هو الزنجى .. ومدينتنا مدينة تؤمن بالسرعة والتجارة

وودعت صديقى الكاتب ورائحة النفتالين تعود الى أنفى

رجال تقريباً



. . .

. .

عشت أياما فى ذلك الحى الغريب الذى أصبح كعبة المتأدبين ، ورنين كلمة القرية يبهجنى .. لاننى فى قرية حقيقية داخل نيويورك ..

واكتشفت فى الاسماء التى يختارونها للمحلات بهجة وتخففا وطيف فكاهة ..

فبعض المحلات على اسم بعض الاقاصيص التى ألفها أوجين أونيل الكاتب المسرحى ، وقد ألفها فى قرية جرينتش ، ومن الطف محلاتهم محل « المصباح الغازى » أو « ضوء الغاز » .. والامريكيون لا يزالون ، على انبهارهم بالاضاءة الكهربائية والميكانيكا ، يحنون الى ضوء الغاز وضوء الشمع . ففى أعماقهم ريفيون غلاظ الجسم ، رقاق القلب . وآية الاحتفال عندهم ، أن يجتمعوا حول مائدة تضيئها شموع ذابلة واهنة ، فهم اعنف رومانتكيين ظهروا فى العالم حتى الان ، ولعلهم آخر الرومانتيكيين فى العصر الحديث ..

فقد سبقهم رومانتيكيون فى روسيا وفرنسا وانجلترا ... وماتوا ، وانقضى زمانهم .. أو كاد ينتهى تماما ..

ومن العسير أن تجد فى روسيا الآن رومانتيكيا مثل القصاص تورجنيف ، أو فى انجلترا مثل الشاعر شيلى .. ولكن الرومانتيكية فى أمريكا لا زال لها صولجان كبير وقد تكون السينما هى سر هذه المعجزة ! ..

ولعل السر أيضا فى أن معرفة الشعوب الاخرى تتطلب نوعا من الهجرة النفسية والحنين الى البعيد ، وقد سبقت أوربا الى ذلك السفر فى الخيال .. حين كتب بودلير عن سحر الشرق وعطوره .. بل لقد كان بودلير يعشق جان دوفال ، وهى فتاة زنجية لعلها من جزر جواديلوب .. فى أعماق المحيط الهادى ..

وكانت جان دوفال تمثل لبودلير العطر والخيال ، والسفر الى بعيد فى رحلة من الشوق الماجن .

وبعدها كان رامبو يحلم أيضا بالصومال ، وقد هاجر اليه وقتا ، وكتب فيه أروع أشعاره التى يتفتح فيها قلب الشاعر على اللون ، وعلاقة الالوان بالانغام ..

والشعر لون يتلى ويتلوى من الالم ..

وهناك أيضا الرسام جوجان ،الذى هاجر الى المحيط الهادى ليرسم غاباته وحرارته ودخانه .. وأجسامه العارية الدافئة ! ..

ولكن الرومانتيكيين فى أوروبا مهدوا — بقلوبهم وخيالهم وشوقهم — الى معرفة الشرق .. ومعرفة الاخرين ..

وفى أمريكا مسحة من الرومانتيكية العجيبة ، وهى أحيانا رومانتيكية مريضة ، فهى تبيع ابتسامة النجوم للمتفرجين ، وأحيانا تبيع سيقانهم الملونة على شاشات

بيضاء ، وهذه القصص التى يصورون فيها اليابان جنة خضراء فيحاء ، أو يصورون ألف ليلة وليلة بعين غريبة هى عين الرومانتيكى ، الذى يزوق كل شىء ، ويزركش كل بيت ، ويلمع كل صفحة .. حتى لقد أصبح والت ديزنى بطلا شعبيا عندهم ، لانه باهر الريشة ، يسيل الحنان فى ألوانه والخيال يرق فى لوحاته .. المتحركة .

وظللت أسأل نفسى ما هو السر وراء هذه القرية ، ولماذا تبدو للجميع خفيفة الظل ..

وادركت فى النهاية أن سر ظرف هذه القرية هو قلة الاضاءة ..

فالقرية ـ على اتساعها ـ اضاءتها ضعيفة . وفوانيسها قديمة بعضها منقول نقلا من القرن الثامن عشر ، بل ويشبه مصابيح لندن التى كانت تجرى تحتها قصص شارلز ديكنز !

وقلة الاضاءة مرتبطة بهذا المزاج الرومانتيكى الغريب .. لان الضوء الغامر يحاصر النفس ، ويؤذى العين ، ويفتح الحواس من شدة الانتباه .. ولكن الضوء الخافت يثير الخيال ، والهمس واللمس .. أو هكذا شاء الامريكيون فى قريتهم الغريبة ..

. . . .

وقال لى الصديق الزنجى الذى يجمع مقالات عن كتاب زنوج .. وهو شاب هادىء كروح النعناع ، لا يتحرك كثيرا كدأب أهل بلده ، ولكنه يتقلب ويموج من الداخل ، ويظهر ذلك فى ابتسامته الغريبة اللامعة..

وقد أثارتني ابتسامته ، لانني لاحظت أن كل الزنوج يبتسمون ابتسامة لامعة ، ولعل ذلك لان أسنانهم بيضاء ناصعة ، وعيونهم سوداء دافئة وهذا التناقض يلقي عليهم لونا من الاسى المبتسم

قال لي الصديق :

ـ ان شعراءنا الرومانتيكيين أعظم شعراء رومانتيكيين في العالم ..

فسألته :

ـ وهل هم كثيرون ؟ ..

ـ منذ خمسين سنة على الاقل ، والشعر الزنجي يفيض كالنهر .. وفي هذه القرية بالذات ظهر أعظم شعرائنا ، واكثرهم جراة .. وهم اول من أرسلوا شعرهم ، وتخففوا من الاوزان التقليدية ..

قلت له :

ـ ولماذا تركوا الشعر التقليدي وقوالبه المعهودة .. فقال :

ـ لعله القلق ..

ان القلق يفيض على القالب ، ويمزق الشكل ، القلق لا ينسجم مع القوالب الجامدة ، ولابد أن يفيض على حافة القالب الشعري .. كما يفيض السائل على حافة الاناء ..

وقال الصديق ، وهو يهمس مبتسما في غير مجال ، وكأنه يسر لي سرا :

ـ شعراء الزنوج أروع شعراء ، لان عندهم أكبر مأساة معاصرة ..

واغلب شعرهم رومانتيكى ، لان الزنجى يحس فى بلاده بالغربة ..

واسمع هذه القصيدة التى قال الشاعر فيها :

لماذا تبحث وجوهنا السوداء فى السماء ..

هل نبحث عن شيء ..

هل فقدنا غاليا ، ونحن نجوب الارض الغريبة ..

وانظر الى نفس العناوين التى كان يختارها الشعراء ـ خطابات وجدت جوار منتحر ..

ان هذه الخطابات من الشعر كتبها صاحبها فى قرية جرينتش أيام الشباب ، حين كان الشعراء الشبان يشربون النبيذ فى الجرادل ..

واخذ الشاب المؤلف يدق على المائدة بأصبعه بقلق .. حتى انسجمت اصابعه ، وهو يقول لى قصيدة أخرى .. خيل لى انها على وزن « مال واحتجب .. وادعى الغضب » .. لانه كاد ينقر نقرة الرومبا ..

مات وانتهى ..
عمره النضر ..
مات وانتهى ..
عمره ذهب !

وقال الصديق ، ليس معنى ذلك ان الزنوج لم يملئوا قصائدهم ابتسامات وطربا وفكاهة ..

فانظر الى هذه القصيدة التى تبدأ :

ـ وسأوقد شمعتى لكم من الجانبين علها تضيء .. علها تضيء ..

قلت للصديق الزنجى ؟
ـ ولكن بماذا يحلم الشاعر الزنجى ؟
فقال :
ـ أحيانا بالعودة الى أفريقيا .. قبل ان ينتقـل الى أمريكا عبدا مكبلا بالحديد فى سفينة شراعية ثم فلاحا فى أرض لايملكها ..

وهناك شاعرة كانت تكتب عن افريقيا . كمـا تتخيلها ، وتتخيل افريقيا مجرد طريقة فى السير ..
والقصيدة اسمها : الى فتاة زنجية ..
وفيها :

ان شيئا يشبه الملكات القديمات
يهتز فى مشيتك

ان الشاعرة تتخيل الحرية مجرد كبرياء . ومجرد مشية فى خيلاء .. ونفس المؤلفة كتبت كثيرا عن الشخصيات الزنجية الشعبية مثل « القطن ملك » أو « سـام سميلى » أو « سام البسام الضحوك » ..
وخيل الى ـ وهو يتكلم عن شخصياتهم الشـعبية أنه يحدثنى عن شخصياتنا الشـعبية التى تعيش على النكتة المستخفة .. والتى تشـبه « أبو على عامل أرتست » .. فسام يضحك لاقـل سبب .. مع أن الضحك بلا سبب .. قلة أدب !!
ونفس هذه الحكمة زنجية أيضا ..
ولكن الرومانتيكية فى شعر الزنوج كانت عنيفـة ساخطة أيضا ..
فمن شعرائهم من تحدث عن سخطه على هـذه الملايين التى « لا تقول الا نعم .. » وهو يعلن فى مطلع ملحمته ـ لان قصيدته طويلة :

لعنة الله على جيل الخدم
والحشم وعمال المصاعد وعمال
العنابر وزراع القطن وكلهم
سود وكلهم قال نعم !!

لعنة الله على كل من قال نعم !

وكثيرون من شعراء الزنوج كانوا يدعون الى الثورة والتمرد .

« أنت يا سوزى ، هزى ذلك
الطفل فى مهده ..
واذهبى يا حنا ، أحضرى
العشاء ..
وأنت يا جيم ،أحرث الارض..
وأنت يا سامبو .. اذهب الى
جهنم ..
فقد أغرقتم الارض كلها فى
العرق »

وشعراء الزنوج ملأوا أشعارهم حنينا الى الهجرة وشوقا الى البعد .. وكأن فى أعماق الزنوج تلك الرومانتيكية التى قذفت بشيلى الى اليونان .. وبرامبو الى الصومال ، وجوجان الى المحيط الهادى .. وقذفت بهم الى خارج أمريكا ..

وقلت لصديقى الكاتب ..

ـ أن الرومانتيكية هجرة فى الخيال ، وخروج عن حدود النفس الى آفاق بعيدة .

وفى كل انسان هذا الاحساس الرومانتيـــكى الذى يربط المجنون بضوء القمر ، ويربط البحر بالصخرة .

لكنه عند الرومانتيكيين يعنف ويشتد ..

وسألنى :

ــ هل قرأت قصة « الرجل الخفى » للكاتب الزنجى رالف اليسون ؟

قلت : لا ..

قال : ان اليسون كاتب شاب ظهر أخيرا ..

وهو يكتب عن هارلم .. وحى الزنوج ، ونيويورك ، وحياة الملونين والبيض .

ــ ولماذا اختار اسم « الرجل الخفى » . لقد حسبتها قصة تشبه القصص البوليسية الانجليزية .

فقال :

ــ لا .. لقد تصورها القراء أول الامر كذلك ، ولكنهم اكتشفوا أنه يرمز الى الرجل الاسود .

وهو يقصد ان الرجل الاسود هنا رجـــل خفى .. ما دام الناس يلقون عليه النظر ، وكأنهم لا يرونه ..

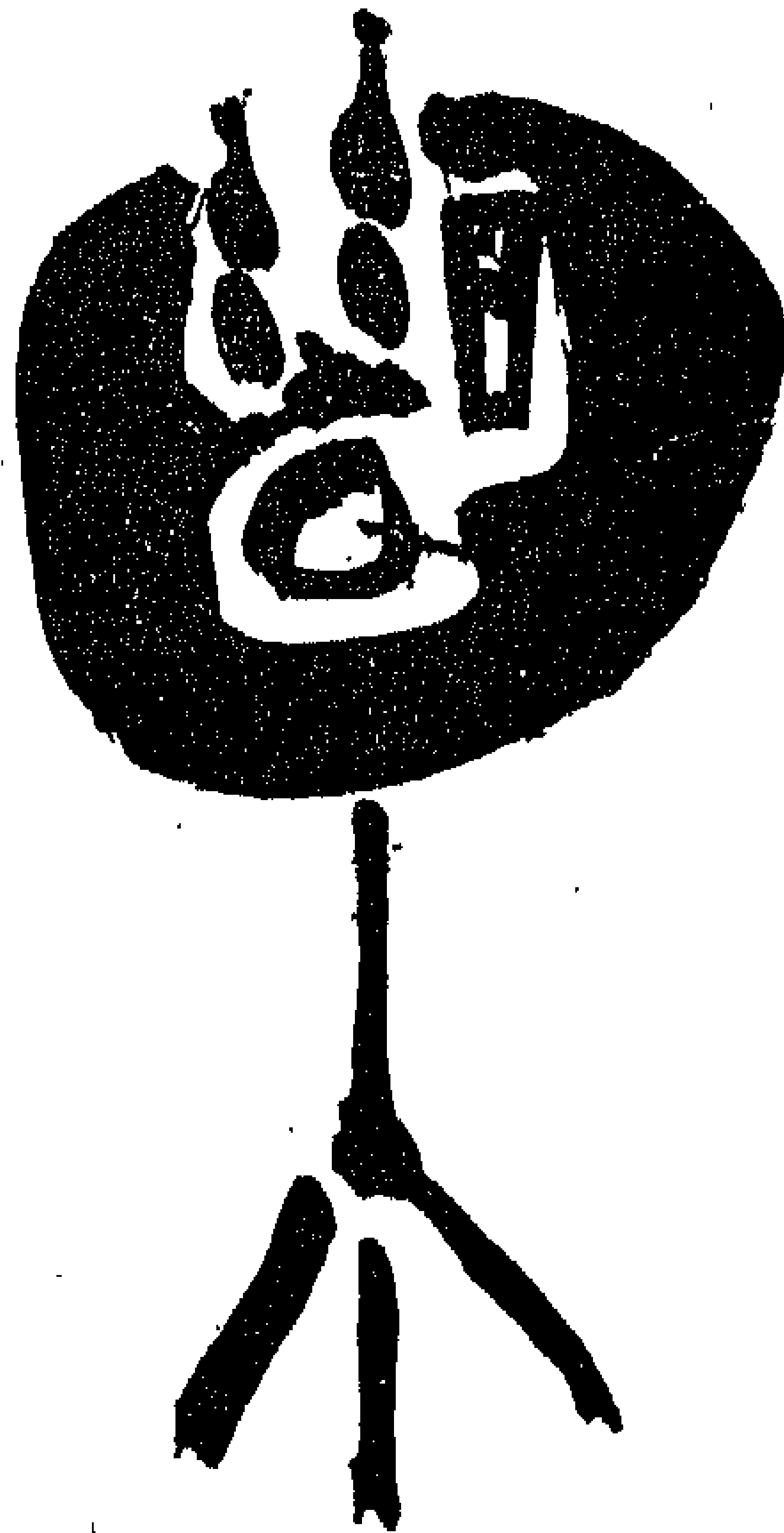
انه قمة الاحساس بالانكار .. والنفى .. والالغاء .. لان الرجل الخفى مهاجر وموجود ومواطن منفى ، انك تحكم عليه بالانكار رغم وجوده ، والاختفاء رغم ظهوره .. ورغم انه يتنفس ويتكلم ويمشى على قدمين .

والمؤلف يقصد أن يقول :

ــ اننا نعيش تقريبا .. ونموت تقريبا .. ورجال تقريبا .. لاننا من دخان وألم وتعب . قبـــل أن نكون لحما ودما .. اننا « تقريبا » ..

وسكت محدثى الوديع .. وابتسم .. فأضاءت أسنانه البيضاء وجهه ، والقت عيونه السوداء العميقة ظلا من الاسى الخافت .. فبدالى كل شيء كأنه مصباح خافت الضوء .. يتماوج فيه الظل والنور ، فلا تعرف أين نوره وأين ظله .. وكأنه رجل خفى لا أسمع منه الا صوتا هامسا يشكو .

يسقط المجد



باب مسرح الجيب فى الشارع السـابع فى نيويورك باب ضيق لا يدل شىء على انه باب مسرح . . تصعد الى الصالة على سلم يشبه سلم الحريق .

شباك التذاكر على « البسطة » . التـذاكر غالية . الحيطان سوداء فاحمة أو بيضاء ناصـعة . بها ذوق وتبسيط بلا مهارة ، ثم تصل الى الصالة التى تشـبه الردهة الواسعة . مدت فيها الكراسى المريحة القليلة . والمسرح لا توجد به ستارة ، لان شعار المسرح :

ـ ضم الجمهور للممثلين . .

الجمهور من البيض . والممثلون من السود .

والمسرحية عن الزنوج ، ولذلك فهى مأسـاة المتفرجين والممثلين معا .

ولكنها آية فى الغرابة . .

مقززة ، مرعبة ، مخيفة ، تنتفض من الانفعـال والصراخ ، والخبث .

كتبها الكاتب الفرنسى « جان جينيه » الذى تبنـاه جان بول سارتر ، وكتب عنه كتابا ضخما اسـمه

« القديس الشيطان » ..

وجان جينيه قديس شيطان ، وشاعر كاتب ..

احتل المكان الذى كان يحتله البير كامو ، منذ أعوام..

قالوا عنه فى باريس انه لص مجرم وأفاق متعطش للدم ، وقال عنه سارتر .. وماذا يهم .

يكفيه انه شاعر . لانه هو اللص الوحيد الذى كتب اعترافاته فجاءت آية فى الادب والانفعال ..

وجان جينيه أديب منتقم ..

تخصص فى أدب الصدمة ، أو أخراج القــــــراء بالصدمات ، يحكى لك كل ما يتهم أوروبا بالفضــــائل المزيفة ، وينزع عن وجهها الاصباغ الزائفة .

وقد أجاد جان جينيه الـــكتابة عن الغيظ .. لانه نفسه غاضب مفتاظ لا يرضيه شيء فى هذه الحضــارة الهائلة ، اذا سألوه :

ــ ما الذى يغضبك ؟ ..

قال : أى شيء وكل شيء ..

ومسرحيات جان جينيه تجتاح كل مسارح أوروبا .. وأمريكا .. مع انه كاتب يجافى الادب ، ويشـــذ عن الذوق ، ويبصق فى وجوه متفرجيه . أو تصـــــل انفعالاته الى حد الصرع .

وجينيه يبحث عن الغيظ فى أى مكان .. ويكيــــد للسادة كيدا عظيما ، وقد وجد فى مأســــاة الزنوج بأمريكا « فرصة » للغيظ .. فكتب مسرحيته الشاعرية الغريبة ..

وتلقف الزنوج فى أمريكا مسرحيته ! ..

وقال جينيه ان المسرحية هزلية ، للبهلوانات فقط ..

كتبها ليمثلها ممثلون زنجيون على جمهور من البيض.

وقد سرح خاطري ، وانا أشهد المسرحية .. لقد رايت شيئا يشبه ذلك من قبل !

وتذكرت هاملت لشكسبير ..

ففي هاملت مسرحية صغيرة داخل المسرحية الكبيرة .

وهذه المسرحية الصغيرة تبدأ بطائفة من البهلوانات يدخلون قصر الملك .. يرقصون ويقفزون . صبغوا وجوههم بالاصباغ .. حتى لا تكشف عن عواطفهم الحقيقية . ينطقون بالكلام وكأنهم لم يقصدوه . ويضحكون أو يبكون .. فيختلط الضحك والبكاء والجد بالهزل .. ولكنهم في نفس الوقت يشيرون من بعيد الى مأساة هاملت ، وعلاقة أمه بعمه .

بالتلويح لا التصريح ..

وبالفكاهة بدلا من الجد ، يغمزون ويلمزون .. ولكن الغمز يثير مكامن الوجيعة .. فكأنك تضع سكينا في جرح .. أو دبوسا في ورم أليم ..

والبهلوانات أو البهاليل يتكلمون عن المأساة بأسلوب عبيط ، والفرق ــ كما يقولون ــ بين المأساة المفجعة والملهاة المضحكة خيط رفيع ..

وجينيه أخذ هذه الفكرة ، أغلب الظن من شكسبير..

ونقلها الى مأساة الزنوج .. أراد أن يرسم مأساة الزنوج للجمهور الابيض . كما رسم البهلوانات مأساة هاملت للملك عند شكسبير بطريق الغمز الجارح ..

فلماذا لا يجعل المتفرجين البيض يتفـــــرجون على جرائمهم وأخلاقهم ..

ولماذا لا يشتمهم .. وكأنه تمثيل فى تمثيل ! وكأن الامر بيد البهاليل ..

ولماذا لا يجرحهم ويحرجهم ..

ولذلك قلب جان جينيه الآية ..

فجعل مسرحيته تدور حول محاكمة زنجى قتـــــل سيدة بيضاء ..

وهو يقصد فى الحقيقة أن يثير انفعـــــال المتفرجين البيض ، لان الذى يحدث فى الحق ، هو أن البيض هم الذين يقتلون الزنوج ويمثلون بأجسامهم ، ويعلقـــونهم فوق أعمدة الكهرباء !

فاذا صرخ القاتل الاسود فى ضحيته : يا للذة القتل ! انفطر قلب المتفرج الابيض ، لانه سمع مثل هذا الكلام من رجل أبيض يقول :

ــ يا للذة قتل الزنوج !

ولذلك أعلن جان جينيه أن المسرحية هزلية يمثلهـــا بهلوانات وهى فى الحقيقة مأساة مرعبة ! لانهـــا تلوح دون ان تصرخ بمأساة الزنوج فى الحقيقة ..

ولذلك ، ألغى المؤلف الستار بين الجمهور والممثلين ..

وبدأت المسرحية بأن يدخل الممثلون ليحدثوا الجمهور الابيض ، ويقدموا أنفسهم ..

وفى منتصف الفصل الاول ، ينتقى الممثلون متفرجا من البيض ، يطلبون منه أن ينتقل من صفوف المتفرجين الى المسرح ، ليقدموا له وردة فى أدب وحفاوة .. ثم

ينهالون عليه ذما وشتيمة .. ويعود المتفرج الابيض الى مسرح المتفرجين قبل أن تدور معـــركة ، و « تبوظ » المسرحية !

ودخل أول الامر زنوج نحاف . يلبســـــون ملابس السهرة السوداء ، امتشق قوامهم .. وطالت رقابهم.. وكأنهم فى حفلة ساهرة « ملوكية » ..

قدموا انفسهم .. وانحنوا فى تكريم ملحوظ ..

ثم دخل فريق آخر فى جوف المسرح ، خمســـة قضاة يلبسون ثياب السهرة المنشاة ، وسيدة فاضلة تلبس فستان سهرة مزركشا وعلى وجوههم جميعـــا أقنعة مطلية .. لا يتكلمون ولكنهم يعتلون منصـــة عالية ، ويتخذون سمت القضاة ..

الذين يتكلمون هم الجانى الذى قتل .والشهود الذين شاهدوه ..

والجثة البيضاء يضعونها فوق مائدة .. ولكنها جثة فى الخيال .. ولذلك يرمزون لها بكفن أبيض ممـدود على المائدة ..

كفن مغطى بالزهور الصناعية ..

وبدأت المحاكمة بدقات على المنصة ..

ويسأل القضاة :

ـ لماذا قتلتها أيها اللعين ؟ ..

فيقول القاتل :

ـ قتلتها لانى أحبها ..

وقال : أنا متوحش ، أبتهج للقتل . فأنا آكل لحم .. أسود .. متوحش ، همجى .. شرير .

وشهد شاهد بأنه قتلها . وهي تنزل من دارها ..

وانه قتلها ، وليس لها جريرة ..

انه سفاح مهووس .. وهو لم يحبهـا .. لانه لم يعرفها انه شرير ، لانه يقتل ، ويكذب .. فهو لم يحبها لانه لم يلتق بها .. لقد قتلها لمجرد أنها بيضاء .. مجرد صدفة !

أهذا سبب للقتل ..

مجرد أن يكون حزنك تحت جلدك .. فيصـفر لونك من الكمد ، أو يكون حـزنك في قلبك فحما .. فتصبح أسود اللون .. يعتبر هذا سببا للقتل ..

اى كلام هذا الذى يقوله المتهم ..

لقد قتل بلا سبب .. لمجرد اللون .. وهـو مجرد صدفة .. فالناس يولدون ولا يختـارون ألوانهم .. فكيف يصبح اللون « الابيض » مبررا للجريمة ..

ثم تكلم أحد الممثلين عن عقدة السود .. واحساسهم بالضياع .. احساس الكآبة المخنوقة ، والاشـفاق على النفس .. والحزن المتكبر ..

احساس المشفق أن يكون نصيب كل انسان حسب لونه .

ولذلك صرخ الممثل :

ـ أنا أكره القمر لانه أبيض ..

وأكره اللبن .. لانه أبيض ..

وأكره الماء والنجوم .. والورق .. والاسـنان .. وكل ما هو أبيض .. حتى بياض العين ..

ولذلك قتلت هذه البيضاء اللعينة .. !

ان لبنى أسود .. وقمرى أسود .. وصبحى أسود ..

ويا لسواد الليل اللعين !

فالليل هو وطننا الذى يقبل — وياللعار — أن يأوى بين جناحيه العظيمين السود والبيض والصفر والحمر معا ..

ثم يصرخ مشفقا غير معتذر :

— لقد أحرجنى الليل ، وهو من بنى وطنى !

ولكن المحاكمة تستمر .. فلا بد للقاتل من قصاص .. ولابد للجريمة من نهاية ..

ويبحث القضاة . هل كان هذا القاتل يحب القتيلة فعلا .

ويكتشفون كذبه .. فهو مرة يقول أنه قتلها وهى تجلس الى ماكينة خياطة .. وتارة يقول انه قتلها عندما كانت تسير متأبطة ذراع حبيبها ! وهو يروى رواية وسرعان ما ينقضها ..

انه كاذب ..

لقد قتلها بالصدفة ..

وهذه أبشع جناية ، وانكى جريمة ..

أن يقتلها لمجرد أن القمر أبيض ، أو اللبن أبيض ..

انه ينتقم من القمر واللبن .. ومن بياض العيون ..

ويحكمون عليه بالاعدام .. لا لانه قتل .. ولكن لانه كذب ، وادعى أنه كان يحبها ..

فياليته أحبها ثم قتلها .. قتل المحب الغيور ..

بل ليته قتلها لمجرد التسلية .. لمجرد قتل الوقت.. قتل العابث الملول .

ولكن يا للعار .. ان أشد المجرمين قسوة يقشعر بدنه من هذه الجريمة التى ليس لها سبب .. سوى بياض اللبن !

....

وماجت الصالة بالانفعال ، والصرخات المتشنجة تهز الحاضرين .. وحين تم اعدام القاتل .. انحنى الممثلون بأدب واحتفاء .. واعتذروا للسادة المتفرجين عن هذه التمثيلية الوقحة .. وعن شتم السود للبيض .. وقالوا لهم نأسف لان التمثيل حبك ، وللخيال أحيانا عذر ، وحبكة ..

وخرج المتفرجون لاول مرة من مسرحية ، وقد اشتروا تذكرة ليحسوا بالاسف ..

وقال لي صديق أمريكى صحفى كاتب ، ونحن ننزل من مسرح الجيب :

ـ ان جينيه الفرنسى لم يعبر تماما عن مأساة الزنوج !

انه غريب عنهم .. وهو لا يعبر بصدق الا عن مأساته الخاصة ..

انه يبحث عن اى غيظ فى اى بلد ..

ان المأساة ليست كما صورها جان جينيه ..

فقلت :

ـ ولكن المأساة نفسها صورت فى قصص الكاتب الامريكى الزنجى ريتشارد رايت ..

لقد تحدث في قصته « أمعاء السمكة » التى كتبها

قبل أن يموت ، عن الخوف والرعب يصيب الزنوج فى الجنوب ، حين يهتاج البيض ويخرجون فى المـــدينة يحملون المشاعل يبحثون عن أى أسود .. ليقتلوه ..

أليس القتل هنا لمجرد اللون هو أفظع الجرائم ..

فقال الصديق ملحا :

ــ ولكن هناك كتابا من الزنوج ظهروا بعد ريتشارد رايت مثل بالدوين .. وهم يكتبون عن الزنوج من زاوية غير عنصرية ..

من زاوية انسانية ..

فريتشارد رايت هاجر الى باريس ولم يعش بين الزنوج منذ نهاية الحرب ..

فقلت :

ــ ولكنه يتذكر طفولته .. ويكتبها !

ولم أشأ ان أكثر الكلام ، فقد لاحظت أن صـــديقى ــ وهو أمريكى شاب صادق القلب ــ كان يحس بالحرج .. وكانت المسرحية لا تزال تهزه كما كانت تهزنى .. وان كان احساسنا يختلف ..

فلقد أفرجت عما كنت أحس به من ضيق ..

ولكنها أوقعته فى حرج ، وضيق وكآبة ..

فأردت ان أغير الحديث ، وقلت ، ولكن :

ــ أين هذا الكاتب الجديد بالدوين ..

فقال :

ــ لقد أصبح من أثرياء الكتاب المعاصرين عندنا .. ولكنه لا يظهر فى المجتمعات ..

فسألته :

ـ لماذا ؟

فقال الصديق ضاحكا :

ـ لعله يحس بالحرج أيضا .. لانه كتب آلام الزنوج وباع هذه الالام فى كتب وأدب .. واشتراها منه جمهور القراء ولا يزال يحس بالحرج والألم .. لان آلام الزنوج صنعت له مجدا وشهرة .. وقد بقى أهله وأبناء عمومته يعيشون فى الشقاء والتعاسة ..

وتفرع الحديث فى ألوان عديدة .. وكان الليل قد انتصف وافترقت عن الصديق .. وسرت فى الشارع السابع مبتعدا عن مسرح الجيب .. وفى ذهنى صورة اتخيلها للكاتب الذى يشـــتهر فى المجتمع ، لانه باع له الآلام ، والدموع ، وبقيت بعده الالام والدموع ..

وتوقفت لحظة ، وكأننى لا زلت أحدث صديقى لاقول :

ـ يعتذر للمجد ..

وقلت لنفسى ، وكأننى أحاور نفسى :

ـ لا .. لا ..

بل يسقط المجد ..

لا ..
لا أستطيع



قلت له : ـ ولكنك تقول ان مشكلة الزنوج تحل ببطء شديد

قال : ـ ولكن هذه حياتنا !

قلت : ـ انك تقول ان الاختلاط بين السود والبيض ممنوع فى الجنوب ، مكروه فى الشمال ..

وكل عام تقبل تلميذتان ـ بالكاد ـ فى المدارس .. أليس هذا تقدما ؟

قال : انه تقدم بلا شك !

قلت : ـ لو فرضنا أنكم استمررتم بهذه السرعة أو بذلك البطء ، ففى أى عام ستحل المشكلة .. عام ٢٠٠٠ ؟

وقال الاستاذ وارد المحامى الزنجى ، وهو يتحسس أصابعه بأصابعه ، والابتسامة على شفتيه :

ـ لا تحدثنى عن السنين ..

قلت ملحا ، وأنا لا أقصد أن أجرح شعوره .. ولكننى صممت على أن أفهم منه ، لانه محام مشهور ، ورئيس لجنة الدفاع عن الحقوق المدنية فى ولاية انديانا ، وهى لجنة للدفاع عن مساواة الزنوج فى الانتخاب والتعلم ، والاكل فى المطاعم ، والنوم فى الفنادق :

ـ ولكن الحساب واضح !

اذا ظلت المدارس تقبل ٢٪ من تلاميذ الزنوج كل عام ، فان عام ٢٠٠٠ هو العام المرتقب لحل المشكلة ..

وتكهرب الجو ..

وبدأ القلق على أصابعه التى كان يفركها بشدة ، ولم يبد على عينيه ، لانه كان يغطى عينيه بنظارة سوداء ..

فهو محام ضرير !

كان قد أقبل مع شابين من الزنوج يقودانه ، وكانا يلبسان النظارات الطبية ، والملابس الغامقة . ولا يتكلمان ، وكانا يبدوان كالمريدين أو التابعين ، ولعلهما أعضاء فى نفس اللجنة ..

بدا عليهما القلق ، وأحسست انهما يتقدمان بصدريهما الى الامام ، وكأنهما يوشكان أن يتدخلا فى الحديث .. لولا أن المحامى وارد قال مرة أخرى :

ـ لا تسألنى عن سرعة التقدم ..

المهم ان هناك شيئا ..

قلت للاستاذ وارد ، كأننى أعلل لهجتى أو أفسر الحاحى :

ـ لقد حكى لى صديق جاء من ولاية « الاباما » فى الجنوب هذه القصة ..

لقد كان يقف فى طابور طويل ينتظر الاتوبيس وكان يسبقه خمسة رجال من البيض ، خامسهم رجل أسود !. وكان هو السادس ! ويليه فى الصف رجال ونساء عديدون بينهم بعض الزنوج ..

وحين وقف الاوتوبيس جوار الطابور ، على المحطة ، صاح السائق بصوت عال :

ـ ستة من البيض فقط .

ومعنى ذلك أن الزنجى الذى جاء ووقف فى الطابور لن يسمح له بالصعود ..

فهل تصدق هذه القصة ؟

قال الاستاذ وارد :

ـ هذا شىء طبيعى فى الجنوب ! ولكن الجنوب يتطور الآن !

وساد الصمت من جديد ، وكأننا قد يئسنا من الاتفاق على أمر بديهى ..

ودارت الافكار فى رءوسنا ، ونحن لا نتكلم ، حتى قال :

ـ انك لا تعرف شيئا عن حياتنا فيما مضى !

لقد كنا مثلا نكافح فى المدارس والملاعب العامة حتى يسمح لنا بأن نستحم فى حمام السباحة !

ومع ذلك ، فقد كانوا لا يسمحون للزنوج بالاستحمام الا فى آخر يوم ، وقبل تفريغ الحمام من الماء .. أى بعد أن يشبع البيض استحماما وسباحة ..

وتبادل الشابان اللذان يجلسان مع المحامى وارد النظر !

ولم تفارق وارد ابتسامته الذكية المتفائلة ، وهو يقول :

ـ هل تعلم أن الزنجى فى هذه الولاية ، كان لايستطيع منذ عشر سنوات أن يخرج من بيته ليشرب فنجان قهوة ، فلو خرج ضربه البيض .

ثم قال : وكانت المحاكم تحاكم الزنجى المضروب وتترك الابيض الضارب ..

قلت له : وهل هذا معقول .. ؟

قال المحامى وارد :

ـ معقول جدا .. بمنطق القانون !

لقد كانت المحكمة تبحث فى الطريق الذى سار فيه الزنجى فاذا وجدت أنه دخل مقهى بعيدا عن بيته ، فانه يكون ـ فى هذه الحالة ـ قد استفز مشاعر البيض .. ويستحق الضرب والاعتداء ..

وفزعت قائلا :

ـ لماذا ؟

فقال المحامى وارد والابتسامة لا تفارقه :

ـ اذا كان الزنجى قد ذهب الى أقرب مقهى من بيته فهو رجل مسالم ، أما اذا ابتعد ، ولو بضعة أمتار ، عن هذا المقهى . ليذهب الى مقهى آخر ، فانه بلا شك مذنب ، يتحرش بالبيض ويثير الفوضى ، وينشر الاضطراب

وقال بلهجة القانونى المحترف :

ـ وهذه جنحة بالطبع .. !

وسكت المحامى ، وهو يفرك أصابعه بأصابعه ، كأنه يتشبث بشىء بينها ..

ولم أتكلم ..

فقد أدركت أن المحامى الكفيف ، يتشبث بقدر من الامل ، لا يريد أن يتنازل عنه لاحد ..

وأحسست أنى اثقلت عليه ..

فمن الوحشية أن أصمم على أن أصل معه الى خاتمة فى الحديث ..

فالخاتمة معروفة ..

وهو يتشبث بالامل ، فتركته له ..

وفى جامعة أنديانا ـ بولاية أنديانا ـ وهى تتوسط

الولايات المتحدة الامريكية ، وتقع على حافة التسامح مع الزنوج فى الشمال ، واضطهاد الزنوج فى الجنوب ، تعرفت بمعيد يحضر للدكتوراه ..

زنجى نحيل طويل القامة .. نحيف الوجه ، يمسك كتبه بحب ، ويرافق ورقه أو كتابا أو صحيفة ، يضحك أخيرا ، ويسخر كثيرا !

والشاب له أخت شقيقة ، هاجرت الى شيكاغو فى أقصى الشمال ، وله أقارب عديدون فى الجنوب ، وهو يدرس الدكتوراه فى وسط أمريكا ..

وهو متيم بالنظريات السياسية ، ويحب موسيقى الجاز بالطبع . ويتكلم فى كل شيء .. قد يحدثك اليوم عن نصيب اليابان فى بترول المنطقة المحايدة بين السعودية والبحرين ، أو يحدثك عن نصيب الزنوج فى الحرب الاهلية الامريكية ودورهم فى الاستقلال ، ثم ينتقل بك الى أيام احتلال المكسيك للشاطيء الغربى من أمريكا .. ثم يحلق بك فى شعر الزنوج أو شعر افريقيا الحديثة ..

وهو لذلك موسوعة فكرية متنقلة .. ولكنه خفيف الظل باسم الثغر ، وهو فى الجامعة يحترمونه احتراما خاصا ، لانه يتفوق فى أى شيء ، حتى أنهم يسمونه : ميداس ..

وميداس هو اله من آلهة اليونان ، كان يحول اى شيء الى ذهب متى لمسه ..

وتوطدت أواصر الثقة بين « ميداس » الزنجى وبينى وأخذت اراقبه فى روحاته وغدواته ..

فهو أول زنجى يحظى باحترام ملحوظ حتى يخيل اليك أنك ستقابله فى يوم من الايام وزيرا او رجلا على جانب كبير من النفوذ ..

واكتشفت ذات يوم أنه يحب معاكسة الفتيات البيض

.. وانه جرىء يتحدث مع أية فتاة دون أن يتحرج كما يتحرج دائما بقية الزنوج .. أو يتحرج عادة بعض الشبان البيض ..

وخيل الى ان هوايته أصبحت جنونا

وأنه يريد جمع الفتيات كما يشغف البعض بجمع طوابع البريد ..

فكل يوم على موعد او .. لقاء !

.. .. ..

ثم اكتشفت بعد أيام أن « ميداس » الزنجى لم يقابل فى حياته ولا فتاة بيضاء .. ! !

فكلما أعطى موعدا لفتاة لم يذهب اليها لسبب من الاسباب حتى أصبحت هذه المحاولات كاللعبة الغريبة ..

وذات يوم قال لى انه يحب أن يتزوج فتاة بيضاء .. ولكنه بلا شك يؤمن فى قرارة نفسه انه لو تزوج فتاة بيضاء فسيقتل أو سيشنق ..

وحكى لى « ميداس » الزنجى بصوت حالم مخنوق ، أنه لا يزال يذكر حين كان طفلا ، كيف قتل شاب زنجى ، وسحل على الارض ، حتى سبح فى الدم ، لانه اتهم بالاعتداء على فتاة بيضاء ..

والقصة التى يرويها الزنوج أن الفتاة كانت تشتغل عاملة أسانسير . وأن الفتى الاسود داس على زرار الاسانسير .. فنزل .. واكتشفت الفتاة أن الذى داس على النور فتى زنجى .. فاغتاظت ..

ولم يكد يخطو داخل الانسانسير خطوة حتى داست على الزرار والباب مفتوح .. فهلع قلب الفتى ، واندفع الى داخل الاسانسير خوفا من أن تنقطع رقبته ..

ولكن الفتـــاة اغتاظت مرة ثانيـــة ، وادعت أنه هجم عليها .. و .. و

وقامت قيامة المدينة .. وهرب الفتى .. فتجمـع الرجال الغاضبون فى الليــل .. يحمـلون المشــاعل ، ويبحثون فى صناديق القمامة ، وأسطح المنازل .. حتى وجدوا الفتى .. فقتلوه ..

فقلت له :

ـ ولكن لماذا تضيع وقتك فى كل هذه المحاولات مع كل فتاة بيضاء ..

فأطرق ثم ضحك على طريقة الامريكيين ، وقال :

ـ لعلنى أريد أن أثبت لنفسى أننى استطيع .. ولكننى لا .. لا استطيع .. !

إلى
الجنوب



بدت لى أمريكا كأنها مفرمة ، تفرم لحمى .. وأصبحت التفرقة بين البيض والسود ، وما رأيته بعينى فى هارلم حى الزنوج فى نيويورك كالضباب الذى يحجب عنى كل ما رأيته فى أمريكا من مسارح عظيمة ، أو بنايات ضخمة أو مصانع هائلة !

وعدت الى الفندق متعب القلب ..

وكان على أن أعد حقائبى بسرعة لاسافر من نيويورك

وأصبحت أضيق باللون الداكن الذى يطل على من كل ناحية .. حتى من النافذة ..

فمهما رفعت الستائر ، فان لونا داكنا يظل منسدلا بينى وبين السماء .. لون لا أستطيع أن أرفعه ، أو أن أشقه ، ستار دائم ...

وانكتم جو الغرفة ..

وفتحت تكييف الهواء .. فعلا صوته ، واصبحت الغرفة كأنها زورق من زوارق الصيد البخارية التى يعلو فيهـا أزيز الموتور ..

وضقت بنفسى : أى حياة !
لقد أصبحت من كثرة السفر كرجل يطارده القانون..
حقائبى دائما مفتوحة ، ملابسى دائما مستعدة للطى واللف .. الاثاث الوحيد الذى أملكه هو ملابسى وبضع حاجيات وفرشاة أسنان جديدة اشتريتها ..

حتى السرير ..

ونظرت الى السرير ، وأنا حانق ..

لقد أصبح السرير فى حياتى كالتاكسى .. استأجره ليلة ، أو بضع ليال ، ثم أتركه لاذهب الى سرير آخر .. وفندق آخر .. ومدينة أخرى .. وأناس آخرين ..

وتخبطت فى الغرفة ، والتوت قدماى ، وكأننى تائه يشق طريقه فى زحام .. مع اننى وحدى ..

وسرحت ، ولا أعرف لماذا .. فى الكاتب الزنجى الامريكى « ريتشارد رايت » ، الذى هاجر الى فرنسا ، ومات فى الغربة منذ عام ..

وتعلق خيالى باسم ريتشارد رايت .. الذى ظل يتردد فى رأسى ، وانسجم اسمه ، واختلط مع صوت موتور آلة التكييف

ـ ريتشارد ..

ـ رايت ..

ـ ريتشارد ..

ـ رايت ..

ـ رايت ! رايت ! ريتشارد رايت !

وزاد اللون الداكن داخل الغرفة ، حتى أصبحت ... رمادية ..

ونظرت الى النافذة علنى أرى جزءا من السماء .. متشفعا .

ولكن السماء .. كانت هى السماء ، مثقلة بالضباب وأثقال الصناعة ..

والتفت الى المرآة ، فهى الشيء الوحيد الصافى اللامع فى الغرفة .. وهى النافذة الحقيقية فى الغرفة .. لانها تكسر الجدران .. ولو فى الخيال ، وتفسح صدرها لغرفة أخرى مماثلة ..

ونظرت الى نافذة الوهم ، ونافذة الغرفة قد أقفلها الضباب ..

وعاد الى رأسى ذلك الايقاع الغريب :

ـ ريتشارد رايت .. رايت ..
ومأساة الزنوج ..

أى تعاسة !

واقتربت من المرآة ..

واكتشفت أننى أفعل شيئا غريبا ..

أفعله لاول مرة فى حياتى ..

لقد أخذت أتفرس فى وجهى مليا ..

ولم يفتنى أن أسأل نفسى وأنا أنظر لماذا أفعل ذلك ..

فأنا أحيانا ـ ككل الناس ـ أحملق فى المرآة . وكعادة الناس أيضا أخطف النظر خطفا الى وجهى ، وأتذكر ما عودونا عليه فى أيام الطفولة من خوف من النظر فى المرآة ..

ولكننى .. هذه المرة ضبطت نفسى ، وأنا أحملق فى المرآة طويلا .. وكأننى أبحث عن شيء بالذات ..

لقد كنت أبحث عن لونى ••

وأخذت أحزم حقائبى بسرعة ، وأنا أفكر :

ـ ان الحياة فى أمريكا تضيف اليك صفة جديدة للانسان كالطول والحجم والذكاء والتعليم والخبرة ••

صفة هامة هى اللون ••

وأسرعت الى المطار ، وأنا أحمل لونى معى ••

• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •

وقال لى الاصدقاء :

ـ أن كل ما رأيته فى هارلم ، أو شيكاغو ونيويورك ، وواشنطون •• وكل هذه المدن فى الشمال لا يساوى شيئا مما ستراه فى الجنوب ••

ان الجنوب هو قلب المشكلة ، هناك المشكلة مشتعلة •

ـ ولكن كيف أسافر الى الجنوب •• وهل يسمحون لى بالسفر ؟

قالوا :

ـ السفر للزنوج والملونين مسموح به ، لان القطارات والطائرات تابعة للحكومة الفيدرالية ، وقوانينها تمنع التمييز بين البيض والسود ولكن ••كيف تعيش هناك••

ان الولايات لها قوانينها الخاصة •• وكثير من ولايات الجنوب لا تسمح بالمساواة بين البيض والسود ••الفنادق مغلقة •• والمطاعم موصدة فى وجوه السود ••

قلت :

ـ والسمر ؟

ـ •• •• •• !!

وسألت :

ـ حتى ولو كانوا من الاجانب ؟

فقالوا ..

ـ انها مخاطرة !

وتعقدت المشكلة ..

فما فائدة السفر الى جنوب أمريكا ثم تقفل فى وجهى المطاعم ، وأطرد من الفنادق .. وينظر البيض الى بعين العداء فى الشوارع ؟

ونصحنى الناصحون فى الشمال أنه لا سبيل الى أن أشق طريقى بمفردى ..

فلا بد من أن أذهب مع جماعة ، ولتكن جماعة من الصحفيين أو أساتذة الجامعات .. حتى لا أبدو مصلحا أو متطفلا ..

وحدثت المفاجأة ..

قسم الصحافة .. فى جامعة انديانا سينظم لعشرين صحفيا ، يمثلون ثلاث عشرة جنسية من أنحاء العالم رحلة خاطفة الى مدينة اتلانتا عاصمة ولاية جورجيا ..

وجورجيا ولاية من ولايات الجنوب العاتية .. وستقوم الجامعة ، وللجامعات شأن كبير .. بالاتصال مع حكومة الولاية ومع عمدة المدينة ، ومع رئيس البوليس .. ومع جامعة اتلانتا .. ومع وزارة الخارجية الامريكية .. وترتب كل ما نحتاجه من أوراق ، وستحدد المواعيد .. وليس علينا سوى الاستعداد للسفر !

ومما زاد فى بهجة أستاذ الصحافة فى جامعة انديانا الذى يرتب الرحلة ، ان ولاية جورجيا كانت قد أعلنت قبل أيام ، انها سمحت لتلميذتين فى سن الثانية عشرة بدخول المدارس مع البيض ..

وفرح الاستاذ .. وطير فرحه لمجموعة الصحفيين ، وقال انه رتب كل شيء ..

وكانت فى الاذهان أحداث ولاية الابانا .. ومدينة ليتل روك .. التى حدثت منذ عام ..

حين رفض حاكمها أن يذعن لاوامر ايزنهاور بأن يقبل تلميذة زنجية فى مدرسته . وقامت القيامة ، وأرسل

ايزنهاور قوات الجيش .. حتى ينفذوا بالقوة - ان لزم - قرار رئيس الجمهورية ..

وكانت سعادة الاستاذ تطفح على وجهه ..

لان مدينة اتلانتا عاصمة جورجيا أثبتت أنها « أعقل » و « أرزن » من مدينة ليتل روك ..

وقال لى بعض الاصدقاء : ان كيندى حين جاء الحكم قال كلاما حول مشكلة الزنوج . وقال ان أمريكا لاتستطيع أن تتجاهل تكرار حادث « ليتل روك » ثانية ..

ومعنى هذا الكلام أن فضيحة ليتل روك هزت سمعة أمريكا فى خارج أمريكا .. وان كل هذه الملايين التى

تصرفها أمريكا على الدعاية يمحوها - فى لحظة - خبر عن التفرقة العنصرية ..

وقال لى نفس الاستاذ أنه ينعى على الصحافة الامريكية اهتمامها « المثير » بحادثة « ليتل روك » ، فقد نشرت الاف الكلمات عن مأساة ليتل روك ففضحت أمريكا . من حيث لا تدرى ..

وقال لى المتحمسون : ولهذا السبب ، اقتنع أهل ولاية جورجيا بأنه لا لزوم للفضائح ..

وان التطور نحو المساواة سيحدث لا محالة ، ولذلك

أذعن ــ كما قال لى المتحمسون ــ أهل جورجيا • وقبلوا تلميذتين فى مدرسة ابتدائية هذا العام ••

ولم أشأ أن أعارض الذين حدثونى بما شاهدته فى هارلم ، أو شيكاغو • ولم أشأ أن أتحدث عن الشمال وعذاب الزنوج فيه ••

وتركت كل شيء ، حتى أرى بعينى •• ثم بعد ذلك أحكم بما رأيت ••

وانتظرنا أياما ••

ولكن أنباء الرحلة لم تبد فى الافق ••

وأحسسنا ــ مجموعة الصحفيين وأنا ــ أن هناك مشكلة لا ندرى سببها •• تعطل سفرنا !

وانتظرنا أسبوعا ثم أياما • حتى جاء أستاذ الصحافة فى جامعة أنديانا ليعلن أن بعض التعديلات ، أو بعض التحفظات قد أجريت على الرحلة ••

وقال الاستاذ : نعم سنذهب •• ولكن •• !

فصرخنا معا : ولكن ماذا ؟

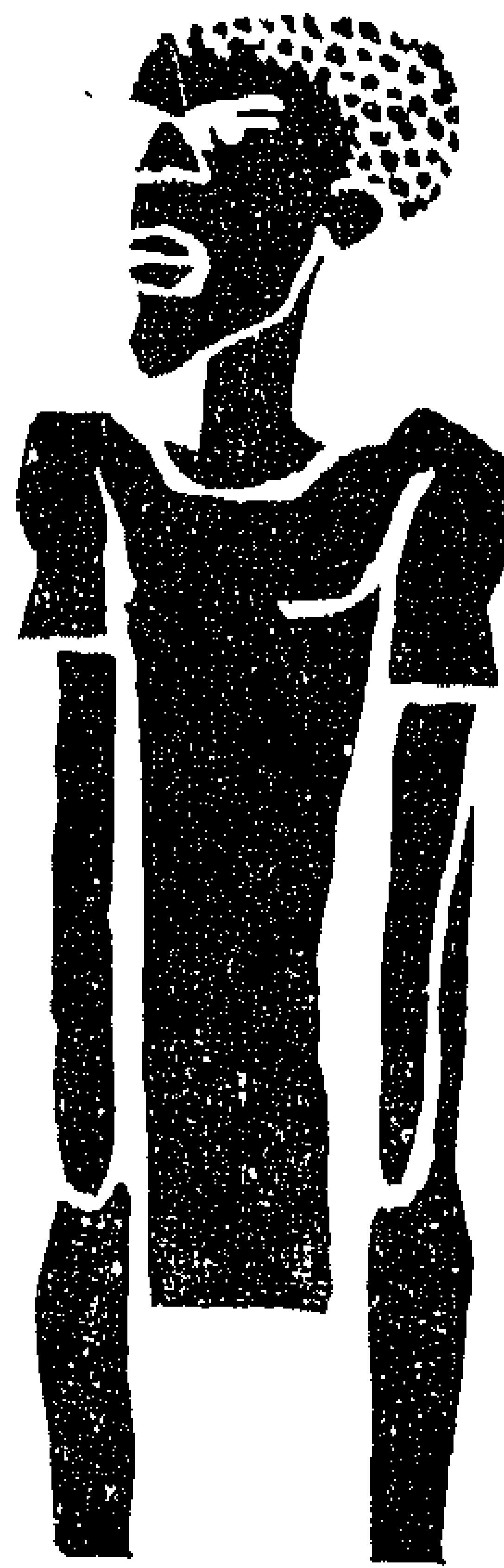
فقال الاستاذ بسرعة غير عادية ، وبلهجة حاسمة ليخفي اضطرابه : على الصحفيين الذين أتوا من أفريقيا أن يلبسوا ثيابهم الوطنية فى داخل الولاية ••

وكان معنا صحفيان من نيجيريا ، ومن سيراليون ، صحفيان زنجيان ••

ووقعنا فى الحرج !

لاننا اكتشفنا اننا نحمل المشكلة معنا •• قبل أن نذهب!

ممنوع
الهمس



تستطيع أن تحس التغير بين شمال امريكا وجنوبها بأنفك وجسمك قبل أن يسعفك النظر ..

فكل ماكان مشدودا متوترا في الشمال ، انحنى في الجنوب وتراخى ، كأنه عنقود كبير ، التوى على حافة طبق !

فالارض تنبض ، ووجهك يلفحه نسيم ساخن متثاقل ... والتراب يغلب على الاسفلت .. والهواء مثقل برائحة ما كأنها خليط مطبوخ من الخضرة والخشب .. والشجر صفصاف .. جذعه ضخم .. ولكن ظله خفيف .. لان شدة الضوء تجعل الظل كأنه طلاء مؤقت على الارض ..

والشوارع واسعة ، لا يعبرها طفل بمفرده . والبيوت من دورين أكثرها خشب .. بيضاء أو بنفسجية أو بمبة .. لابد من خضرة حولها .. حتى ولو أختصرت الخضرة الى أصص الزرع .. اللاكيه يلمع في الضوء .. وكانت هواية الازواج دهن البيوت بالبوية أيام السبت بعد الظهر .. والكراسى « الهزازة » الخشبية في مداخل

البيوت ، أو الشرفات التى تشرف على الارض .. أو تغطس فى حدائق صغيرة لا تكفى لرجل واحد يتمدد على راحته .. وعلى الكراسى عواجيز لا تعرف من اين أتوا .. وماذا ينتظرون .. وفيم يحلمون .. يضعون تحت أسنانهم أعواد العشب ــ وهذه عادة أمريكية ــ وكأن هذا هو آخر أعمال الانسان فى نهاية الحياة !

كل شىء يطلبه الضوء .. والضوء يفتح الغامق .. ويكسر الخطوط .. ويخترق الستائر . فتحس أن مدينة اتلانتا عاصمة جورجيا مدينة واضحة .. ليس فيها شوارع خلفية وليس فيها أركان جانبية أو مخابىء ظليلة ..

لقد أفشى الضوء كل أسرار المدينة ففضحها ..

والضوء فضاح ..

والحر يخرج الناس من بيوتهم .. الغرف مفتوحة الابواب .. الحدائق الصغيرة أسوارها قصيرة .. الناس يتحدثون من النافذة والشرفات .. أو من فوق الحواجز التى لا تعلو على الركبة الا قليلا ..

وحديث الشوارع كحديث المخادع ..

فالحر « يفرهد » الجسم .. والسر على اللسان .. ينطق بما كتمه الصدر .. وسرك الدفين فى جيب غيرك .. وهم يغضبون فى الشارع ويلعنون ويحبون ويسرقون ويلعبون على المكشوف ..

قال لى صديق ، ونحن نعبر الشارع الرئيسى :

ــ فى هذا الشارع ماتت مرجريت ميتشام ، مؤلفة الرواية الشهيرة : « ذهب مع الريح » ..

ولم ينتظر صديقى ، حتى أستوضحه . فقد كنـا نعبر الشارع وقال :

ـ لقد داستهاسيارة ، بينما كانت تجلس مسترخية على كرسى هزاز فى فناء بيتها !

« وذهب مع الريح » قصة الحرب والحب والحريق بين الجنوب والشمال .. الحبيبة من الجنـوب .. والحبيب من الشمال .. بين الشمال والجنوب حـرب .. وبينهما حب . وفوقهما وحولهما وفيهما حريق .. والحريق الذى حدث فى القصة حدث فعلا فى اتلانتا أثناء الحرب الاهلية ..

و « ذهب مع الريح » صورة للحب العنيد النبيل الاهوج، الحب كأجمل كارثة .. أجمل من الحـريق والفرق والفيضان .. ولكنه حريق وفيضان وقدر مكتوب !

ولذلك فاتلانتا تشم فيها رائحة القدر . المصـابيح الكهربائية كأن بها زيتا .. والصـور المعلقة فى البيوت دقيقة ، بذل فيها فنانون مجهولون جهدا واعصـابا .. والكنائس رهيبة مخيفة كالبوارج .. والدين له سطوة .. والمستشفيات كالحصون ، تجعلك تحس أن الاخسان هو الممر الضيق بين الاغنياء والفقراء الذين ينزلون من صلب العبيد ..

فاتلانتا بلاد زراعية الاصل اقطاعية المزاج ..

ثروتها القطن .. وأيديها العاملة هم العبيد السود .. والملاك البيض هم سادتها المخلدون .. أو المنحدرون .. أو المنحلون ..

وعلى التو ، تحس فى كل ما تراه لمسة أرسـتقراطية

وكبرياء .. أو عجرفة ..

حتى فى الالوان ..

فالامريكيون فى الشمال شغوفون بالالوان الزاهية ، كل شيء لامع ساطع ، لا بد أن يكشف عن سعره وثمنه قبل مادته ورسمه . والالوان صفراء حمراء . مخططة مضحكة . ولكنها فى الجنوب وقورة منتقاة .. فيها ذوق ولها مذاق .

واتلانتا هى عاصمة الكوكاكولا .. فى العالم ..

فأول زجاجة كوكاكولا فى العالم ظهرت من هذه المدينة الحارة .. وان كان اهل اتلانتا يفضلون المشروبات الروحية !

وشركة كوكاكولا لها سطوة .. فهى تبنى الكنائس .. وتنفق على بعض الجامعات .. كما تعبىء الشراب للعطشى .. فى أى مكان ..

وأهل الجنوب ينظرون الى انفسهم على انهم هم قلب وأصل امريكا .. وينظرون الى أهل الشمال بشيء من الازدراء .. على الرغم من أن الشماليين هزموهم فى الحرب الاهلية ، وأرغموهم على تحرير العبيد !!

ولكن أهل الجنوب من البيض لا يزالون يتمسكون بأفكارهم .. ويعتقدون أن الله خلق البيض ، ووضعهم فوق السود وهم خلاصة البيض ، والسود « زبالة » السود !

وكل أبيض ، مهما نضج عقله يقول لك :

ــ لقد ورثت ذلك عن أبى ، فلماذا أغيره ؟

وهم ينظرون الى أهل الشمال بشيء من الكراهية ..

وقد تحولت هزيمتهم الى كبرياء واضحة ، وكراهية مكتومة . وهم يتمسكون بالتقاليد ، ويعتقدون أن أكبر شرف نالوه هو أنهم انهزموا فى الحرب ..

ولا يزال كثيرون منهم يسمون الشماليين :

« اليانكى » ...

بلهجة الزراية وصعوبة الابتلاع ..

ولا تجد واحدا من البيض لا يقول لك :

ـ لقد مات أبى او عمى او خالى على الاقل فى الحرب الاهلية .. مع أن مائة عام تماما مضت على هذه الحرب!

ودخلنا المدينة متوجسين ..

فمعنا صحفيون من أفريقيا .. وهم زنوج بحكم اللون ..

وكنا نعلم أن هذه اول مغامرة يقوم بها جمع من الصحفيين لزيارة الجنوب للبحث عن مشكلة البيض والسود ..

وقد حجزت لنا جامعة اتلانتا عدة غرف فى أكبر فندق من فنادق المدينة .. وعرفنا بعد ساعات ، ان هذه هى أول مرة ، تقبل فيها ادارة الفندق رجالا ملونين وسودا ، كنزلاء دون ان تقبلهم خدما أو نافخى بوق !

وأصبحنا نسرع الخطا خوفا من الحديث مع أحد ..

فالمدينة كلها تتفرج علينا ..

وكان صديقنا الصحفى النيجيرى وهو شاب رقيق العاطفة الى حد الحساسية الشديدة ، يلبس ثوبه الابيض ، ونظارته الطبية ، ومنظره لوحده مظاهرة ..

وصديقنا الاخر ، من سيراليون ، يلبس ثوبه الوطنى

البنى الذى يشبه الجلباب ، وهو يشبه الملاكم الغاضب ، يقرقع بالضحك .. متظاهرا .. قلقا ..

وكأننا أتينا الى اتلانتا لنضحك !

والناس ينظرون الينا مدهوشين :

ـ ما الحكاية ؟

ـ ما الذى أتى بهم الى قلعة الجنوب !

ـ هل هى مؤامرة من الشمال لاستفزاز الجنوب ؟

وأحسست أننى أسير على حبل ..

وقال لى زميل صحفى :

ـ لاول مرة فى حياتى احس أننى تحفة !!

وكان كل شىء مرسوما لنا . والتعليمات مشددة لا نحيد عنها ، علينا ان نسير معا ، ولا يفترق واحد عن الآخر ..

ثم ننزل الى غرفة ـ ستقفل علينا ـ لنأكل معا . ولا نختلط بالنزلاء البيض .. حتى نقابل العمدة فى الصباح ، ونقابل أساتذة الجامعة ، ورئيس البوليس ، ومدير المدرسة التى قبلت الفتاتين الزنجيتين الصغيرتين هذا العام .. حتى نقتنع !

وهمس لى بعض الاصدقاء من الوفد أن سبب تأخير الرحلة عن موعدها أن أصحاب الفنادق فى المدينة عقدوا اجتماعا قبل أن نصل . وأعلنوا حالةالطوارىء . وأخذوا يبحثون :

ـ هل يقبلون وفدا صحفيا فيه ملونون ؟

والسابقة خطيرة .

ورفض أصحاب الفنادق أول الامر ، خوفا من ان يعلم أهل المدينة من البيض ، فيجتمعوا ويغضبوا ، وتحدث مخاطر او مفاجئات ..

وتدخلت واشنطون . وألحت بقبول الوفد ، خوفا من الفضيحة او تمسكا بمبدأ جديد .

وأخيرا وصلوا الى حل وسط .

ان ننزل فى أرقى فندق ، حتى لا نختلط الا بعلية القوم ! وان يلبس زملاؤنا السود ملابسهم الوطنية ، حتى يبدو أنهم ليسوا من الزنوج المواطنين !

وأن نسير معا ، حتى يبدو أننا وفد عابر وزائر لن يقيم طويلا .

وأن نأكل الافطار فى غرفنا .

. . . .

وثارت مناقشة طويلة حين أقاموا لنا حفلا ! حضره أساتذة الجامعات ، وصحفى أشقر يترأس جريدة محترمة ، تدافع عن الغاء التفرقة العنصرية ، وبعض المحامين الذين جاءوا ليتفرجوا علينا و ...

وكان السؤال :

ـ الى متى ؟

وقال مدير البوليس :

ـ بصراحة ، انك تناقش العاقل من البيض ، فتجده راجحا فى كل شىء ، وحين تأتى سيرة المساواة بين البيض والسود ، يتقلص وجهه ولا يقبل المناقشة ..

وقال عمدة المدينة ، وقد قيل لنا انهم انتخبوه ، لانه من أنصار الغاء التفرقة ، وهو يملك عدة مصانع ،

ومتاجر ، ويعادى حاكم الولاية الذى يعارض المســاواة بين البيض والسود .

ـ المسألة تحتاج الى صبر طويل

ـ وحتى متى ؟

فهز كتفيه حائرا .

وكان السؤال الذى يحيرنا حقا :

ـ هل يمكن ان تبقى هذه التفرقة فى المطاعم والمساكن والسينمات والمسارح والسيارات ؟

وأخيرا ، وصلنا الى رأى اتفق عليه أغلبية الحاضرين :

ـ ان حل مشكلة الزنوج فى الجنوب ستستغرق على الاقل ثلاثة أو أربعة أجيال ..

وسألنا :

ـ وما عمر الجيل ؟

ـ ثلاثون أو عشرون عاما !

ومعنى ذلك ان هذه الاوضاع ستبقى مائة عام أخرى !

وراعنا الاستخفاف او الاستسلام للواقع !

ـ ولكن ماذا نستطيع ؟

انها أمور يستوى فيها الاستخفاف والحماس ، ما دام اشد المتفائلين يعتقد أن المشكلة لن تحل غدا

. . . .

وهبط الليل ، وصفت السماء صفاء الحلم السعيد !

وراعنا الفرق بين الجو فوق ، والجو تحت !

واختلط فينا الاحساس بالخجل والاشفاق والغيظ.. وقلة الحيلة !

وقرر صديقان من الهند ، وانضممت لهما ، أن نذهب

لنسمع موسيقى الزنوج ! الآن ، وعلى الفور ، وبأى ثمن !
وذهبنا الى حانة « الطاووس » ..
وصعدنا اليها فى ممر طويل ضيق يميل بشدة ، كأنما نتسلق جبلا
الممر لا يتسع الا لشخص واحد . والميل شديد . يلخص فلسفة الحانات ، والوصول الى الشر ، واللذة
الصعود صعب ، والانزلاق — أو الهبوط عائدا — سهل .
وأصحاب الحانات ، فنانون — أحيانا — فيما يرسمونه ويخرجونه فى مداخل الحانات ، فبعضهم يرسم لك كهفا وحجارة ، وأضواء وممرا ضيقا ، كأن صاحب هذه الحانة يريد ان يردك الى عهد الكهف ، وانطلاق الشهوات بلا حساب
الممر الطويل العالى ، ليشعرك انك تصعد على جبل ، خصيصا ، لتذنب !
مع أن صعود الجبال — عادة . للتوبة ، لا لارتكاب المعاصى
وهذه هى الفكرة !
وفى نهاية الممر ، تلقفتنا سيدة فى قفص ، لتقطع التذكرة .. فاذا بها غالية الثمن ، بالنسبة لما يوحى به ذلك الممر الذى يشبه عنق زجاجة مبتورة
وأطل علينا بضعة زنوج ، كأنهم مصارعون على الاستيداع أو من الهواة الذين يجمعون بين وظيفتين !
وفوجئنا بعد الممر الضيق ، بدهليز رفيع طويل
ولم تتوقف المفاجأة عند ذلك ، الا حين وصلنا الى الصالة نفسها ، فاذا بها بهو كبير كأنه بهو فى قصر من قصور الرومان .

فى اتساع ملعب كرة القدم . ومع ذلك فليس فيه موطىء لقــــدم

ولفحت اسماعنا الموسيقى ، كأن سخونتها تهب من فرن قريب

وكانت المغنية الزنجية تغنى أغنية تقطر شجنا :

ـ يا ناس نفسى

أمد جسمى على الارض وأتمدد

وعبق المكان بالموسيقى والاغانى ومشاعر العنـــــاء والشوق الى المستحيل كما يختنق مكان صغير بدخان كثير

ودارت الالحان بلا انقطاع ، كأنهم لا يتعبون . وقل احتشام الجمهور .. فأصبح لكل سجيته .

والاغانى الزنجية تتردد من الجـــــوقة الزنجية على الجمهور الزنجى فى الصالة الزنجية حتى أصـــــبح الجميع يمسكون بالوحدة جمهورا ومطربين وموسيقيين وسقاة

وشدت المغنية الزنجية ثوبها الابيض على جســـدها بأحكام شديد وكأنها ولدت به ..

وغنت .. فأثارت مكامن الشجن ..

والغناء عند الزنوج بكائيات أو غزل ..

وصوت المغنية كاللؤلؤة التى تشق الزجاج . نافـذ لاسع .. والسامعون ــ من شدة الوجد ــ أصــــبحوا من زجاج .

وبكائيات المغنية تعاتب القدر ، ولكنها لا تلعنه .لانها تخاف أن تستثير القدر . ولكنها تلعن « الحظ » الذى

حكم .. وتتكلم عن هجر المحبين وافتراق الاحباب وشوق العشاق

والبكائيات فيها ظرف .

ظرف المساكين الذين يبتلون فيضحكون . ويرفضون الكآبة ، والضحك له سر لا يدركه عديم الخيال !

ولو تفرست فى النغم لوجدته لحنا يربط الروح بالجسد .. معتم مضىء .. يتهدج .. به نبض .. وله ايقاع .. يصيبك بالقشعريرة .. ثم بالدفء .. فتصيبك رجفة ، فتزحزح قدما ثم تحركها ، وتحرك الثانية ،كأنك مأمور برغبتك ..

والتراشق فى الكلمات ، والتتابع فى النغم ، يهزك ويهدهدك . فلا تملك الا أن تحرك يدك أيضا . وضرب الموسيقى يربط بين اقدامك ويديك ، فتهتز وتضرب بيدك على أى شىء ..

المائدة أو صدرك ..

ويغطى الغناء على كل صوت وكل حركة ، ويتخفف الحاضرون من أحزانهم ، كما يتخفف المصيفون من ملابسهم .. فلا يكترث أحد باصطدام الاكواب .. أو زحزحة الكراسى .. حين يتململ السامعون من شدة التوتر أو الغناء .. ولا يكترث أحد بالسقاة ! رفعوا الاكواب أو وضعوها ! . ملئوها أو اختلسوا منها رشفات ..

حلال عليهم !

فكل شىء مباح فى صالة الطاووس !

ويا للطرب !

كأن القاعة تطير .. والجالسون يرفضون أن يلمسوا الارض بأقدامهم .. يريدون أن يبقوا فوق الارض .. ولو شبرا واحدا على الاقل ..

ويتدفق دمك كأنه نافورة فى يوم احتفال ! ويبتلع بعض الحاضرين أكوابهم ، وتتلاحق الكئوس بدلا من أن تتباعد وتدرك أن بعضهم لم يغرق أحزانه بعد . أو لا زالت به بقية من أحزان لا تذوب ..

ويحس كل نشوان بقوته . وهى ليست فى الحقيقة قوته .. انها الخمر بالطرب !

وينفلت العيار ..

فتقف سيدة زنجية سمينة ، كانت تجلس فى عائلة . والصالة مليئة بالعائلات ..

استبد بها الطرب ، وأثارت الاغنية اشجانها ووجيعتها . فلم تستطع الجلوس .. وقفت تهتز على الايقاع ، وهى ترفع يديها . والناس يتسامحون . وكأنها تصلى .. لان فى وقفتها شفاعة ، وابتهالا ، واخلاصا .. وان قل الادب !

ثم انتقلت المغنية الى دور فيه خلاعة مستحبة .. ودلال غير مكشوف :

ـ اسمعنى أنا أقول ممكن .. وانت تقول مستحيل !

ولم تكد الصالة تسمع هذا اللحن حتى ماجت من فرط الدلال ، ولكن الفرحة لم تتم .. فقد خرجت أصوات السكسفون النحاسية والاوتار الحزينة ، تنقل المتفرجين من مزاح الى نواح وكأنها موجة ثقيلة تدفعهم ولا يملكون لها مقاومة !

ويغنى المغنى الذى كان يلعب على الاوتار ، والمغنية ترد عليه :

ساعات أحس ..
انى يتيم ..
ساعات أحس انى يتيم وبعيد
عن بيتنا ..
وساعات أحس انى فى العلالى ..
نسر عالى
رميت على الجنب غلبى
وحدفت قلبى ..
فى العلالى ..
تدفنونى فى الغرب
تدفنونى فى الشرق ..
هنا .. وهناك ..
صوت الطبل فى ودانى ..
عشان باحس ..
انى .. يتيم ..
ووحدانى ..

وطار صواب الحاضرين .. وعرف الجرح ميعاده ! وعلت الموسيقى ، فأخذ العازفون يضربون الاوتار فى نشاط عجيب . كلما فاض بهم الحنان نشطت أيديهم على الاوتار ، ونشطت صدورهم فى الابواق .. حتى تحس أن الزنوج أمة زعماؤها مطربون ، وقضيتها ملحنة ..

وصدق الذين قالوا لى ، قبل أن أصل اتلانتا :

ـ خذ أى أربعة زنوج ، من الذين يدخلون السينما أو الذين يخرجون من السجن .. أو الذين يلتقون عند

نهاية شارع . وستجد أنهم يصلحون لتكوين فـــرقة موسيقية ..

فالنغم فى دماء الزنوج ..

انه يتدفق فى طريقة كلامهم .. لانهم يأكلون الحروف الحادة .. وينطقون الحروف الخفيفة . . ويخترعون ألفاظا وتعابير ، ولا تهمهم اصول اللغة الانجليزية .وهذا ما يعيبه عليهم البيض الذين ينحدرون من أصــــل اسكتلندى أو ايرلندى وهم فى الغالب علية القــوم فى أمريكا ..

والزنوج يلعبون بالنغم لعبا .

فتسلية الاطفال عندهم هى النفخ فى الابواق ، وتسلية الامهات هى أنامه الابناء على أغان تردد الاســــاطير والملاحم والحكايات الشعبية الساذجة التى ترجـــع الى عصر العبيد ، ومزارع القطن ، والذين ماتوا وهم يهربون ... أو ماتوا لانهم لم يستطيعوا الهرب .

وقد أصبحت الاغانى الزرقاء ، والاغانى الروحيـــة ، وموسيقى الجاز مبعث الفخر عند الزنوج بل ومبررا للاستعلاء على البيض .

فقليلا ما تجد فرقة جاز فى أمريكا ، لاعبــوها من البيض .

وقليلا ما تقبل فرقة زنجية أن تضم الى أعضـــائها نافخ بوق أبيض ...

فهم يقولون بصراحة وكبرياء :

ــ الموسيقى لا تجرى فى دمائهم :

....

ونسيت كل ما حدث لنا فى خارج قاعة « الطاووس »

وانسجم صديقاى الهندبان على النغم ... وانتبهنا لما نرى ونسمع .. وقد توالت علينا ألوان الغنـــاء ، كأنهم ينهلون من نهر متدفق الشباب . ولم يتركوا بابا ، ولا معنى ، ولا خلجة الا أصابوها ... فى نشاط !

واذا بالساقية الزنجية ، وقد لبست ثوبا أســود يشبه ثوبا لسيدة أرستقراطية من علية القوم . تبذل صدرها ، واحتشم كسمها ... فزاد من روعتها انها تجمع بين الحشمة والتبذل فى توازن شديد .

ومالت علينا الساقية تهمس كلاما لا نفهمه فهى تأكل فى الكلام أكلا . وفهمنا أن فتاة قريبة منا تطلب منــا أن ننتقل الى مائدتها المجاورة ..

ولم نفهم من هى .. ولمـاذا تطلب ذلك .. !

ولكن المسافة لم تكن طويلة ، اذ لا يفصل بيننا سوى متر واحد .. فى هذا الزحام الصاخب ..

واذا بالفتاة ، وقد اقتربنا منها تلبس نظارة ســوداء قاتمة ، وتسلم علينا ، وتقدمنا الى صديق وصديقة ..

والصديق شاب يبدو انه من الاغنياء . ويبـــدو من اطمئنانه فى جلساته انه يشرف « ماليا » على هــــذه الجلسة على الاقل !

وصديقته سمراء صبغت شعرها باللون الاصــفر .. فاشمأز نظرى ، أول الامر ، من هذا التناقض الظاهر ، وان استدعى انتباهى تصميمها أن يكون جسمها أســـمر ، وشعرها أشقر !

ولكن تبادل التحية الودية ، وكأننا أصــدقاء ، جعلنى لا أقف عند هذا التناقض طويلا .. وان كان له مغزى لم

أدركه على الفور

وأشارت الينا الفتاة الثانية ، من وراء نظارتهاالسوداء، وكأنها تأمرنا ، وتتوقع الطاعة على الفور ..

ـ أجلسوا ..

فجلسنا !

والنظارات السوداء فى الليل موضة أمريكية ، تستبد بأجمل الفتيات ، وهوليود ترى ليزتيلور أو مارلين مونرو وميرنالوى وغيرهن . يلبسن نظارات سوداء غامقة ، فى عز الليل ، حتى أصبحت لاترى جميلة فاتنة الا وغطت عينيها بنظارة سوداء

وكأن كل جميلة تريد ان تقول لك :

ـ ما فائدة الجمال ؟

فى نفسى وقلبى متاعب ، أو ابك معى على هذا الجمال .

وكانت الفتاة من هذا النوع الذى يبكى على جماله فهى تشبه التفاحة الناضجة ، المفرطة فى النضوج ،حتى تخشى على جلدها الناعم من العطب . ولابد ان يصيبها العطب مادامت بمثل هذا الجمال

واحترت من أين أبدأ فى النظر اليها . ففى كل ركن راحة وارتواء !

عيناها واسعتان ، صممت على أن تزيدهما رتوشا ، ورموشها طويلة ، مكحولة كحلا طبيعيا ..

فجاء مكياجها كمن يحسن خطه ، ويبذل فيه عناية وشغفا

وكان واضحا أن الفتاة مفرطة الجمال ، وأنها تعرف ذلك وان أى كلام فى جمالها او ثناء عليه كلام معاد .. فسكتنا ، ولم يتكلم أحد

ويبدو أنها تعودت دهشة الناس من جمالها ، وتعودت أن تنعقد ألسنتهم على هذا النحو الغريب

فبدأت تتكلم

فاذا بها آية فى الحديث . تلوك الكلام ، وتنطقه على طريقة بنات الجنوب ، اللاتى يرسمهن تنيسى وليامز فى مسرحياته أو أرسكين كالدوليل فى رواياته ..والتى تحاول مارلين مونرو أن تقلدهن ، وأحيانا تصيب !

فالكلام همس لين وحنان دفين . والكلام لا تعرفه ان كان كذبا أو صدقا ..

ماذا يهم أن يكون كذبا ، متى كان الكذب على هذا الحال، وبهذه الطريقة

وسألتنا الفتاة من أى بلد أتيتم ؟ فأجبنا ..

فقالت :

ـ وهل أعجبتكم الموسيقى ؟

فقلت :

ـ هائلة .. ليس بعد هذا كلام ..

وأنا أنظر اليها !

فابتسمت

ومالت وهى تلبس نظارتها الســـــوداء ، ولازلت أرى عينيها واسعتين مكحولتين ، رمشها طـــويل .. ظله على وجنتيها ، يلقى لونا يشبه فى ملمسه الخوخة الجميلة .. الناضجة

وقالت مبتسمة :

ـ لا أقصد هل أعجبتكم موسيقى « هؤلاء » ؟

فقلت ، وانا أقصد اطالة الحوار ، بدلا من السكوت والاعجاب فى صمت .

ــ انها عالية

فقالت : ألا تعرف سر ذلك . ؟

الزنوج فى ولاية اتلانتا كانوا يعملون فى مزارع القطن، وقد ورثوا أغاني افريقية الاصل . وكان اغلبهم يموتون فى السفن الشراعية قبل أن يصلوا الى الشواطىء ، والباقون ينقلون الى المزارع ليعملوا

والذين يحاولون الفرار تكفيهم رصاصة

وكانت من تقاليد السادة ان يضربوهم بالسياط حتى يغنوا بصوت عال

وتململت منزعجا ، فقالت :

ــ لقد كان الصمت أو الهمس محرما عليهم . لان السادة كانوا يخشون ان يتهامسوا ، فيتآمروا على الهرب .. ولذلك كانوا يدورون عليهم بالسياط حتى يرفعوا عقائرهم بالغناء

وهذا هو السر الذى يقولونه عن سبب هذا الغناء الحزين العالى .. الذى توارثوه جيلا بعد جيل

وأحسست انى أريد أن أسألها ، ولكن لماذا تقولين « هؤلاء » بلهجة الاشارة الى الزنوج ..

ومن أى جنس أنت ؟

وكنت أقلب النظر فى شعرها الاسود ، فاذا به ناعم نعومة « غير زنجية » . العيون أسبانية والشعر هندى فاحم . واللون مكسيكى او خليط من الشمال والجنوب ..

ولا تستطيع أن تعرف حقيقة أمرها بسهولة ، ولعلها أدركت ما أريد ، فقالت :

ــ أمى فرنسية ، وأبى مكسيكى .. وجدتى ..

وأخذت تذكر أسماء جنسيات وأجناس ، وكأنهاخلاصة مغامرات عنيفة تشبه هروب نابليون ، أو مغـامرات دون جوان

قلت لها ، وأنا احاول أن أجس النبض عن المهنة التى تشغلها :

ــ ولكنك ، بهذا الجمال تستطيعـــين ان تذهبى الى هوليوود

فقالت متشمئزة :

ــ ولكننى باردة !

فلم أفهم شيئا

وفتحت حقيبتها ، وهى تدفع لى بطاقة !

فاذا بها قد كتبت عليها اسمها :

ــ بات .. بيكو .. أى بات « الطاووس » وهو اسـم المغنى الذى نجلس فيه

وتحتها بحروف أنيقة .. المهنة :

ــ مسافرة !

عصر السرقة



بدا لى كل شىء « معبأ ملفوفا » ..

الاكل فى علب محفوظة من القصدير .. المشروبات فى زجاجات أصبحت شهيرة كنجوم السينما ! والطبيخ يحملونه دائما فى أكياس من الورق • القمصان يضعها المكوجى في كيس من النيلون • المخلل أو الزيت يعبئونه فى ورق مقوى . !

حتى الانسان .. « معبأ » فى سيارات ..

ويكفى ان ترى هذا الحشد السريع من السيارات الذى يسير أمامى :

متى يلتقون كتفا لكتف ؟

ان هذه الملايين العديدة « معبأة » كل واحد لوحده فى فرديته ، أو فى سيارته ، كأنها معطف من الحديد ..

والسيارة عند الامريكى تشبه الفراندة عند بعضنا . يحس أنها ملحقة ببيته . ينتظر فيها انفراج نسمة الليل من كتمة الصباح . وكذلك الامريكى .. السيارة هى كل شىء فى حياته المتحركة القلقة ..

انه يأكل فيها ، ويشرب ، ويحب ، ويشهد السينما — فى حفلات خاصة للسيارات — ويقبض الشيكات ، لان البنوك فتحت أبوابا تطل عليك فى سيارتك ،تسلمهاالشيك وتقبضه ، وأنت فى مكانك ، على عجلة القيادة ..

وكنت أحيانا أحس أن السيارة للامريكى أكثر منمجرد فراندة .. انها عند الرجل بنطلونه !

لذلك تشهد فى السيارات المارةأمامكشماعاتكثيرة. وملابس كثيرة وقمصانا . وكأنهم يلبسون ، ويقلعون فى السيارات •• وضحكت •• فماذا كان يمكن لعصابة آل كابونى أن تصنع لولا هذا الاختراع المبارك

ان كل حديث فى سيارة مختصر والامريكيون ملوك الاختصار •• كل شىء له رمز •• وكل رمز له حرف •• وكأن مفكريهم يفكرون فى سيارات • كل شىء له طابع مؤقت

واخذت اتدبر هذه الظاهرة الامريكية وأنا فى طريقىالى « مدينة الاشباح »

وهى مدينة تشبه « اللونابارك » او مدينة الملاهى

وكنت قد لمحت سيدة شابة ، تسوق سيارتها وهى تلبس الشورت القصير جداً ، وكأنها فى منزلها !

ومدينة الاشباح تستقبلك بالموسيقى والتهليل ..

والمدينة ليس فيها أشباح ، ولكن صاحبها أراد انيعيد تسجيل الماضى القريب من حياة الامريكيين ، أيام رعاة البقر ، والهنود الحمر . فأحضر من أنحاء أمريكا كلها كل ما تبقى فيها من « روبابيكيا » وأقام مدينة بأكملها تصور منتصف القرن التاسع عشر

الحوارى صغيرة ضيقة جداً ..

على مشارف المدينة مطعم ، تدخله من هذا الباب القصير الذى يعلو على الركبة ، ويصل الى الصـــدر ، ولا يغلق ، والذى اعتاد أن يقتحمه أوغاد السينما بضربة من قـــدم ، وطلقة من مسدس

وفجأة يصل البطل لينهى « القعدة » فى دقيقة !

وبعد المطعم ، تجد بنكا ، ومطبعة بدائية ، تطبع باليد ، وتكتب باليد !

ثم تفاجئك التماثيل الشمعية لرجال امريكيين بـــدت عليهم البداوة والغلظة .. اطلقوا لحاهم ، لانهم يعيشون فى الصحراء قبل ان يمد الحديد ، وقبل ان تصل المياه المنتظمة

وهؤلاء هم الذين كانوا يبحثون عن الذهب فى كاليفورنيا .. وبعضهم وجد الذهب ، فجن جنونه .. وترى الجنون ناطقا فى العيون الواسعة الغليظة النظرات .. ولو أنهـــا عيون من الشمع والى جوار التمثال تمثال آخر لسيدة من طراز القرن التاسع عشر

شقراء رفعت شعرها الى الوراء ، لتظهر رقبتهـــــا البيضاء الناصعة هذه المرة من الشمع . وانزلت ثوبهـــا فوق كتفها .. فكشفت عن صدر « عظيم » وأسدلت ثوبها حتى أصبح يتجرجر على الارض ، وياللغرابة من هــــذه المبالغة فى اسقاط الثوب من أعلى الصـــــدر واســـداله تحت القدم ..

ولكنه الاغراء .. ولا اقصد اغراء المراة .. للرجل ،

ولكنه اغراء الذهب الذى فى جيب الرجل .. للمرأة..

والتمثالان يجلسان على مقعد .. فى عرض الطريق ، يكشفان لك قصة هذه المنطقة باختصار ..

الذهب ، والمرأة ، والاقتحام ..

وفى مدينة القرن التاسع عشر بأمريكا تحس ان أمريكا اكتشفت سر سحر الملابس الداخلية .. فكل شيء يكشف ولا ينكشف أو يكشف حتى يخطف : وهذا الدلال المصطنع، الذى ينفث العطر الساخن والمساحيق والطلاءات ..التى اصبحت فيما بعد احتكارا لهوليوود ، ليست بدعة طارئة ..

انه ميراث من عصر البحث عن الذهب ..

وكدت أشم هذا العطر من تماثيل الشمع ..

ووقفت أمام التمثالين الشمعيين ضاحكا ..

فقد جلس الى جوارهما عجوزان .. رجل وسيدة..

الرجل الحى فى حضن السيدة الشمعية .. والسيدة ـ ويبدو انها زوجته ـ فى حضن الرجل الشمعى ..

فكان التناقض مضحكا .. وضحك الزوجان .. لان بعض الاقارب يلتقطون صورهم « تذكارا » من مدينة الاشباح !

وعجبت لهذه « التقاليع » التى يصمم عليها الامريكيون، ويحبونها ويعتبرونها علامة الحرية الفردية

فلا شك أن تلك الرقصات الغريبة التى تطيح بشبابهم

كل موسم .. وتلك التقاليع المتعاقبة تغذى فيهم روح الفردية الى أقصى حدودها .. الى حد تشجيع النزوة..

وقد حكى لى صديق تذكرت قصته بعد ان شاهدت السيدة التى تسوق السيارة بالشورت ، وبعد أن شاهدت العجوزين اللذين يلتقطان صورة منافية للحشمة ، وهما فخوران

وهى قصة سائق أتوبيس ، كان من خيرة السائقين الذين أمضوا ما يقرب من العشرة اعوام ، يشتغل فى خط واحد فى مدينة سان فرانسيسكو ..

وذات يوم ، طرأ له خاطر غريب .. نفذه على الفور ..

قرر أن يسوق سيارته ، بعد أن أخلاها من الركاب، وأن يسير بها ولا يتوقف مهما كان الثمن ..

ومشى فى شارع لا يتوقف بين سان فرانسيسكو الى لوس انجيلوس .. وهى مسافة تشبه المسافة بين القاهرة وأسوان

وقامت قيامة الشركة ..

وأبلغوا البوليس .. سرق السائق سيارة !

وقالوا : جن جنونه

وقالت الصحف : أغرب مغامرة لسائق فى تاريخ السيارات الخاصة والعامة !

وقبض على الرجل طبعا ..

وسأله البوليس : لماذا فعلت ذلك ؟
فقال : من شدة السأم ..

فقطب رجال البوليس جباههم ، ولم يفهموا

وسألوه : لماذا لم تعد الى محطتك كالمعتاد !
فقال : جوابى هو سؤالكم .. لاننى أعود كل يوم الى محطتى كالمعتاد ..
فزادت اجابته من حيرة رجال البوليس .. وقالوا انه لص فاشل .. من هؤلاء الذين يسرقون التماثيل والمسلات ويحاولون سرقة الكبارى .. ومن هؤلاء نجد الكثيرين !
لصوص عاديون ، ولكنهم مصابون بجنون العظمة ..
بدلا من أن يسرقوا سيارة .. يسرقون أوتوبيسا !
والتقطت الصحف هذه القصة ، فنفخت فيها وكبرتها .. حتى أصبحت مانشيتا

وهاج كثيرون من الامريكيين ، وماجوا ..
وقالوا : اتركوا السائق ، انه أروع سائق عرفه تاريخ الاوتوبيس ..
ان له شخصية .. ان له فردية ..
انه رجل يسترد حريته ، بعد أن أعدمها السأم ، وقتلها الروتين !
وبالفعل ، نجا السائق من المحاكمة ، بعد ان تنازلت الشركة عن الدعوى ، وأقام له زملاؤه حفلة ، وكتب الكتاب يدافعون عن حرية السائق .. الذى سرق أتوبيسا !

. . . .

ومشيت فى حارة صغيرة ، تتصدرها حانة مظلمة وفندق .. من الخشب .. به بلكونة .. واعلان عن : المبيت ليلة واحدة والدفع مقدما
واذا بصفارة قطار تنطلق من المدينة ، والناس يتصايحون :

ــ القطار أوشك أن يبدأ ..

ولم أعرف فى البداية ما الذى حدث ..
وأى قطار يتكلمون عنه ..

فقد لفت نظرى بيت صغير ، وقد تدلى من نافذته تمثال شمعى .. أو على الاصح تدلى قدمه فقط .. دلالة على أن شيئا خطيرا يحدث داخل المنزل ، ويوشك واحد من سكانه أن يقفز بنفسه من النافذة !

لعله حريق .. او حادثة سطو !

ودخلت الحارة الضيقة ، وصوت القطار الذى لا افهم سره يهز المدينة ..

واذا بأناس يتجمعون حول قفص ، لا يتعدى قامة الرجل الا قليلا ..

القفص يشبه الاقفاص التى يضعون فيها حيوانات السيرك ..
وقال الناس : هذا هو سجن المدينة ..

لقد كان الزاحفون على الذهب ، يتقاتلون ، وكان القانون لم يتأكد بعد ، الفرد يضع قانونه بيديه ، حتى السجن لم يصبح بعد سجنا من قضبان ، وحجارة ، وحراس ..
مجرد قفص ..

وأسرع بقية المتجمعين نحو قطار المدينة الذى لم ينقطع عن الصفير ..

فاذا به قطار يشبه قطارات القرن التاسع عشر التى كانت تقطع الطريق أبطأ من الدواب

واذا بالسائق يلبس ثيابا مهلهلة ، وقد لطخ وجهه

بالشحم وذرات الفحم حتى أصبح سائقا حقيقيا ..

والكبار يندفعون الى القطار ، قبل الاطفال ، اويحملون اطفالهم ، ويلقون بأنفسهم الى العربات ، كأنه آخر قطار بعد منتصف الليل

ودخلنا عربة ، والجميع يتضاحكون ، وكأنهم ينتظرون اطفاء تورتة حفلة عيد ميلاد ..

والاطفال أصبحوا فى هذه الرحلة المزيفة هم الرجال الآمرون وصيحات الامهات أو الآباء لا تتوقف محذرة ، أو ضاحكة ، والجميع مستعدون للرحلة ، مع ان الرحلة تستغرق خمس دقائق أو ستا . واهتزت عربات القطار ، وتحركت ،وعلى الوجوه بشاشة الانطلاق ! ..

ولم يكد يتحرك القطار ، حتى جاء « قاطع التذاكر » يلبس ثياب القرن التاسع عشر .. زرقاء ، على القبعة نقش مذهب ، وعلى الذراع اشرطةوعلامات،ويلبس نظارة مستديرة — لا تدرى من أين أتى بها لانها تحفة قديمة — بل ولا تدرى من أين أتى صاحب المدينة بهذا الرجل لانه نفسه تحفة وكأنه كمسارى على الاستيداع ، يتسلى بما كان يعمل به فى سابق شبابه وعنفوان عمره ..

وفجأة دخل علينا مهديهم المنتظر ، الذى كان يترقبه الجميع والذى ركبوا من أجله فاذا به شاب قاطعطريق .. يحمل مسدسا زنته عدة أرطال ، لا يمكن ان يطلق زناده بأصبع واحدة ..

وقال الشاب الذى يغطى وجهه بايشارب أسود .. وقد لمعت اسنانه من وراء هذا الحجاب :

— نقودكم وجواهركم على الفور ! ..

وصفر القطار فى هذه اللحظة وسائقه مزهو وانخلعت قلوبنا ..

وضحك الرجال وقام بعضهم ، وكأنهم « يعافرون »مع قاطع الطريق ، الذى كان يقطع طريق أجدادهم .. فى هذا المكان بالذات ..

وتبادلوا بعض الكلمات .. كأنها حلبة استعراضية .. والقطار يعود الى محطته ، لينزل فوج ، ويطلع فوج .. ليمثلوا هذه التمثيلية الصغيرة على « الطبيعة » ..

ولا يزال فى الاطفال بقية من خوف ، وفى النساء طيف من الهلع المستحب ، وفى الرجال شهامة مزيفة !

ونزلت ضاحكا نصف ساخر ..

فاذا بسيدة شبه بدينة ، قارب عمرها من الخمسين ، ولكنها تصبغ شعرها بدقة ، وتزجج حواجبها بتفنن .. وتكشف عن صدرها مثل ساكنات مدينةالاشباح . . فتبدو انها امرأة نصف .. تكاد تندس خلسة بين بنات الثلاثين أو تندس ـ بعد التنازل ـ بين نساء الاربعين ..

جلست مكانها .. لاتريد أن تنزل ..

وبدا لى من همهمة النازلين الذين لا يحملون معهمأطفالا ولا يصحبون معهم سيدات ، آن هذه السيدة تركب منذ الصباح ، وتدفع أجرة السفر فى قطار المفاجآت كل مرة . .

وبدت بجوار النافذة .. تصلح أصباغها كأن اصبعها أصبع ساحر يحرك يده بطريقة خاطفة ..

وأصلحت ثيابها .. وتحركت فى قعدتها ، تستعد للمرة التالية ..

وتكوم بعض الشباب الذى يتطلع فى مثل هذه المناسبات ، فحدجتهم بنظرة حاسمة . وكأنها تقول لهم :

ـ وانتم مالكم .. عايزه أخاف تانى .. !

الغريب
والصمت



إبتسمت لنفسي مشفقا عليها ، أو مغتبطا بها لا أعرف

كأنني كنت أرى نفسى ، رجلا غريبا طويل القامة يحمل حقائبه بيديه ، ويميل مع ثقل الحقيبتين ، كأنه سقاء يحمل دلوين من الماء !

فقد كنت أشق طريقي فى مدينة « الباسو » لاول مرة ..

غريب لا يعرف أحدا ، ولا يعرفه أحد ..

ويبدو أن السفر الكثير يعود الانسان ان يتحدث كثيرا مع نفسه .. ويكشف بعض الجوانب التى لم يدركها أو لم يعبأ بها فى حياته العادية ..

فالمسافر يقظ ، ينام بعين واحدة ..

وبدا كل شيء لى فى المدينة مقفرا ..

الحركة فى الشارع الرئيسى تكاد تنعدم .. أغلب الدكاكين نائمة أو مقفلة .. أرخت ستائر حديدية حديثة أنيقة .. بل والطيور فى السماء قليلة لغير ماسبب .. وكأن المدينة قد هجرت منذ ساعات ..

اليوم عطلة ..

واكتشفت أن اليوم قد عام فى ذاكرتى .. لا اعرف فى أى يوم أنا ، هل هو السبت أم الاحد ..

وماذا يهم ..

انك فى الغربة تتخفف من كل شيء .. ومن كل ارتباط .. حتى من ذلك القيد الغريب الابدى وهذا التقسيم الحسابى .. سبعة أيام فى كل أسبوع .. تستطيع أن تختلس منها يوما وتطرحه .. او تضيف اليها يوما مادمت لا تعرف أيام الاسبوع على التحديد ..

وسرت فى الطريق ، وأنا أفكر ، وخطاى تتعثر ..

ـ ما هو السر ؟

ألأنك تستطيع أن تنام اسبوعا متواليا .. ويا للسعادة ، أو ان تصحو سبعة ايام بلياليها .. ويا للفجور!

ألأنك سيد الموقف ، ومالك وقتك ؟

بدأت أحسب الحسبة ، لقد كان مقررا أن أسافر الى الجنوب « الجوانى » فى أكتوبر ..وتذكرت أخيرا اليوم.. الرقم .. ولكننى لم أستطع أن أتذكر هل هو يوم سبت أم يوم احد !

المهم أن أسير .. وأن أجد مكانا لى فى هذه المدينة المقفرة

ولكن ماذا يهم الآن ..

. . . .

وهبطت على نسمة من الغبطة رغم تعبى ..

غبطة السفر الى مدينة لا تعرفها ولا تعرفك ، فلاشك أن فى كل انسان نصائح قديمة تتكوم فى داخل نفسه كأنها

حيوان شبه أليف ·· آلاف النصائح التى لقنها لنـــا المعلمون والآباء والامهات ··

وأمهاتنا يجزعن على « الضنى » ..

ــ لا تبتعد عن نهاية الشارع !

ــ احذر العبور عند ملتقى الطرق !

ــ لا تبعد كثيرا عن المنزل حتى لا تتوه ..

كل هذه النصائح التى تهضمها وترسب فى جـوفك مخاوف ، تذوب عندما تسافر .. لانك تستطيع أن تبتعد عن نهاية الشارع ، وتستطيع ان تعبر الطرق ·· بـــل وتستطيع أن تتوه سعيدا ··

انك ترفع حظر التجول الذى ترثه منذ الطفولة ..

وكدت أضحك مستلقيا على قفاى لـــولا أن الحقيبتين ثقيلتان . تكادان أن تخلعا ذراعي وتشداني الى الارض .. حين تذكرت الافلام الامريكية العادية التى يبدأونهـــا بموسيقى منفردة ، أو أغنية حالمة ، وصوت منفرد وحيد .. ويظهر البطل وحيدا يدخل مدينة لا تعرفه ، لا يملك فيها شيئا سوى الجرأة أو الوقاحة ، والوقاحة عادة فى امريكا مسدس كبير يطل من حزام سميك ··

وتذكرت البطل فى روايات رعاة البقر ..

كيف يصل الى المدينـــــة لاول مرة .. اما هاربا من مطاردة أو « هاجحا » لاى سبيل .. ثم تقابله المدينـــة بالكراهة .. لان المدينة تسيطر عليها عصابة ، ويصطدم البطل عادة بالعصابة ويفوز عليها ، ويغادر المدينة .. بعد أن يفوز ــ عادة ــ بفتاة بيضاء حزينة .. !

والقصص « الغريبة » على ما فيها من افتعال تصـــوير

لامريكا فى هذا الجزء .. الفاضى المتسع ..

ان ما أراه الآن هو نفس الجو الذى يظهر فى افلام رعاة البقر ..

فورائى جبل .. وصحراوات .. وفراغ ..

وأمامى مدينة ، بيوتها صغيرة ،ومقاهيها قليلة،وبنوكها عديدة ، وكنائسها قديمة ..

وضحكت لاننى لم أكن أضع فى فمى تلك البوصة العشبية التى يضعها بطل الافلام الامريكية فى فمه ، يلوكها ثم يقطعها بأسنانه ثم يقذفها على الارض .. وهو يفكر وحيدا ..

ولعلها عادة أمريكية ترمز الى المسافر الذى يقطع طريقه فى قفار ، وصحراوات ، ثم يقتطف اى نبات على الطريق ، ويضعه ــ نصف نائم ونصف حالم ــ فى فمه ..

ان هذه القشة تلخص الرحلة الطويلة التى سبقت مجىء « البطل » الى المدينة ..

لقد كان وحيدا سارحا ..

ولكننى وصلت الى مدينة « الباسو » فى أقصى جنوب أمريكا ، على حدود المكسيك ، وليس فى فمى قشة ، وليس فى حزامى مسدس ..

ودخلت المدينة متهيبا ، نصف متعب !

ولم يطل الوقت حتى اكتشفت أن كل شىء فى المدينة يختلف عن بقية المدن الامريكية فيما عدا الاعلانات ، والمحلات التجارية ، والطرق الواسعة ومحطات البنزين على الطريق ، والكنائس التى تشبه الصيدليات : الخدمة فيها ليلا ونهارا

واغمضت عينى قليلا .. وأنا اكتشف سر الخلاف انه الضوء ..

ففى نيويورك مذاق أوربا ، ألوانها داكنة قاتمة .. ضباب ودخان وسحاب .. مكاتب مغلقة، أنوار كهربائية .. ظلال قاتمة مكتومة .. أما الشاطىء الغربى – فى كاليفورنيا – فتنفتح فيه الالوان ، وتصفو كأنما كل شىء ، غسله ماء المطر .. ألوان صافية زرقاء حمراء . فيها صفاء المحيط العظيم وعمقه ، وألوان الاثرياء النظيفة .. ولهذا يعيش فيها أهل الفن الذين يتمتعون فى هوليوود .. ويعيش فيها أصحاب المعاشات من كبار الجنرالات ! انها جنة الارتيستات .. والمحالين الى المعاش ..

ولكن الجنوب يختلف .. فألوانه مكسيكية .. دافئة حارة .. صهد الضوء ، وحرقة الشمس .. واصفرار الصحراء .. وكان يكفى أن نرى الشمس فى السماء .. انها تكتمل عند الغروب كما لا تكتمل فى أى مكان آخر ..

السماء عالية مفرودة كقلع المركب فى عز البحر وعز السرعة وسط السفر . الريح تفردها تماما . والهواء نسمة ضعيفة كأنفاس الطفل .. والالوان عظيمة تشبه الوان الكاميرا ..

وادركت سر جودة التصوير الفوتوغرافى فى أمريكا .. انه صناعى .. والصناعة أسهل من الحرفة .. ولكن هناك سرا آخر ..

الالوان هنا ألوان فوتوغرافية كالتى تراها فى الوان الافلام الضخمة .. الالوان غير مخلوطة .. ولكنها جميلة وفخمة .

وهذه هى أمريكا ..

الفرق بين ألوانها وألوان أوربا هــو الفــــرق بين الفوتوغرافى والرسام ..

والفرق بين شاشة السينما الملونة ولوحة من لوحات سيزان أو جوجان هو الفرق بين أمريكا وأوروبا

اللون فى لوحة سيزان أو ماتيس فيه رعشة الفنــان .. عصارة النفس . لون داخلى يمتزج بلون خارجى ، كما يمتزج نهران . اللون مدروس مطبوخ . لا يدرك سر « تلقيمته » سوى الذى يحسه ويعانيه ! لانه عــــذاب مذوب فى حنان .

ولكن اللون الذى أراه بسيط غير مركب . عظيم . فخم . ولذلك فكل شىء فى أمريكا «لميع» كصور الكارت بوستال ! ..

والسحاب جميل بهيج بنفسجى .. والسماء صــفاء والجو « سداح مداح » ! ..

وأصابتنى رعشة من التهيب ..

وهذا هوالجنوب . الذى يعيش على البترول،أغنياؤه أصحاب ملايين . أعظم المغامرات فيه كانت البحث عن الذهب . وحين انتهى الذهب بدأ البحث عن البترول وفى هذه الارض انسان جديد عنيف .

بدلا من أن يرفع يديه الى السماء . يحفــر الارض بأظافره .. لان الارض هى التى تهبه كل شىء .. الذهب والبترول ..

وانسان الجنوب يختلف تماما عن انسان الشمال فى أمريكا

فهنا مزارع القطن بآلاف الفدادين • وهنا البترول وهنا أرستقراطية عنيدة ترجع الى أول أبيض ينزل الى أمريكا ..

وفى أمريكا فرعان ارستقراطيان . فرع من ايرلنده ، نزل فى أقصى شمال أمريكا .. ومنها عائلات كينيدى ، ولودج وغيرهم •• وفرع نزل الى الجنوب •• الى فرجنيا وجورجيا ..

والارستقراطى فى الجنوب مزارع ومالك جبار . سيد عنجهى ، واقطاعى متسلط ، وحين فاضت فى أيديهم الاموال أصبحوا يحتقرون الشماليين ويستعلون عليهم ..

وتكساس مثلا ولاية اشتهرت بالكبرياء .

الرجال طوال اشداء •• يلبسون الثياب السوداء فى الليل •• وثياب رعاة البقر فى الصباح • يعتقدون أن تكساس أم الدنيا . أغنياؤهم متكبرون . وفقراؤهم فشارون .

وتذكرت حين نزلت الى مطار « هدسون » عاصمة تكساس •• ذلك التمثال المضحك الضخم الذى وضعوه داخل المطار ، يشبه المسلة فى طوله ، ولكنه تمثال لراعى بقر ، مسدسه فى وسطه ، وعلى رأسه قبعة طويلة ملوية فوق حاجبيه ، وعلى وجهه ابتسامة الزهو •• وتحت هذا التمثال الذى يكاد يبتلع المطار كله نحت شعار أهل تكساس الشهير :

ــ راجل واحد يطفش مظاهرة !
ولا شك ان آية الفردية تنعقد لاهالى الجنوب ..
كل يشق طريقه .. على طريقته .. بالمسدس .. بالعنف . بالضرب . بالوقاحة . بالجراة . بالذهب . بالعافية .

. . . .

وتعبت ، وأنا أحمل حقائبى .. فقد بدات الاسئلة فى قلبى تتوالى :
ــ لقد جئت للجنوب لبحث مشكلة الزنوج !
ــ لماذا يرضى الزنوج بشقائهم ..
ــ وهل يرضون به !
ــ ان مزارع القطن لازالت تشغل العمال اليدويين على طريقة تشبه طريقة العبيد القديمة !
ــ انهم يسمونهم « الذين تعرق ظهورهم » لانهم يحملون على ظهورهم أطنانا وأحمالا وأثقالا .

وتذكرت وأنا أسير ، أغنية زنجية قديمة منذ أيام العبيد أى منذ مائة سنة . لا يزال البعض يرددونها .. حتى الآنلان فيهامرارة وفكاهة ، كطعم مشروب الزنوج .

ــ سيدى الكبير وعدنى
لما يموت يعتقنى
لكن دابابن ناوى يعيش على طول
بدل الشهر شهرين
ودقايق
وبدل السنة سنتين

ودقايــق ..
وباين مش ناوى يعتقنى !

وانقلب الجو ، على أن السماء لا زالت صحوا ، والنسيم لا يزال هينا ..

وبدا لى الهدوء فراغا شاسعا وصمتا مخيفا .

واحسست بغربة غريبة ..

وقررت أن أقف ، لابحث عن أى ســيارة تنقلنى الى داخل المدينة المهجورة الواسعة ..

وتأكد لى أن اليوم يوم أحد .. والمدينة صامتة .. والعربات لا تصل الى هذا الطريق المهجور ..

وعرجت على طريق جانبى .. به بضعة أشــجار .. وجدول ماء .. يبدو انه يأتى من فوق جبل .. أو أن صاحب الملك شقه بطريقة الآبار الارتوازية ، ولكن ماذا يهــم

فقد وضعت حقائبى .. انتظر .. تحت ظل الشجرة الخضراء التى يهتز ورقها دون ضابط

واستراحت نفسى من هواجسها — فى هذه المدينــة الصامتة ، حين نظرت الى الماء القليل الذى لا يتوقف عن الجريان رغم اصطدامه بالحصى والصخر ..

وأحسست كأنى أغسل عينى فى ذلك المــاء

وقررت أن أؤجل كل شىء .. كل اهتمام . وكل هم . أن أضعها على الارض .. كما وضـــعت حقائبى على الارض

وبدأ احساسي بالوحدة يفتر ..

لأنني كنت أنقل نظرى بين الشجرة والمـاء

واذا أحسست بالوحدة ـ وهذه تجربتى بعد طول سفر ـ وكنت غريبا ، لا تجد من تحدثه ، أو تهدأ اليه ، أو تتفاهم معه .. فاختر أقرب شجرة ، وأقرب غدير ماء.

وأجلس الى جوارهما

وستحس انك لم تعد وحيدا ..

ان المـاء واحد ، والشجر واحد .. فى أى مكان

الهزيمة والحنان



تعلقت عيناى بالسماء سابحا

وفجأة ، عدت أكثر من عشر سنوات ، حين كنت فى الهند

وكان أول منظر أثر فى حياتى ، حين ذهبت للهنـد ، هو السماء

فقد كادت عيناى تضيعان فى ارتفاع السماء وروحى تذوب فى فضائها المتسع

والعجيب اننى بعد عشرة أعوام ، أو يزيد ، أكتشف نفس الظاهرة

ولكن السماء نفس تلك السماء العالية المبالغـة فى العلو . لا يهتز فيها ريح ، أو تمر شبهة من ضباب !

انها فى لون أزرق أبيض .. ممتقع مثل لون الطباشير!

وفى الهند ، أدركت أن هذا الارتفاع العظيم ، بسبب الحرارة الشديدة وارتفاع السحاب ، يوهم الانسـان بالضآلة

فيحس بالضآلة ، والخوف من الضلال !

ولست أدرى هل هو أحد أسباب التصوف فى الهند! فارتفاع السموات العلا الى هذا السمو ــ أمام العين ــ يشعر الانسان بالرهبة وشىء من الضياع ..

وقد عشت سنين مع هذا التفسير ، حتى فوجئت بسماء مدينة « الباسو » ، التى تشبه سموات الهند فى ارتفاعها الشديد تماما

وغيرت رأيى

ان السماء عالية هنا .. ولكن البلد لا تشعرك بالروحانية .. انها تشعرك بالوحدة القاسية .. بين اتساعها وضآلتك

وقالوا لى :

ــ ان الباسو قطعة من أسبانيا ، لان المكسيك تبعدعن المدينة نصف ساعة . وتستطيع ان تعبر الحدود بالترام . ولن يطالبوك بكثير من الرسميات . وتستطيع أن تقضى يوما ، أو يومين ، ثم تعود الى أمريكا

ولم انتظر طويلا

ففى المكسيك تأثير اسبانيا فى اللغة والالوان والموسيقى،

وفيها مفتاح غرب أمريكا وجنوبها

فقد كانت المكسيك تحكم هذه الاراضى ، حتى حاربتها أمريكا ، وطردتها بعد حرب عوان !

وبقى نفوذ المكسيك بعد انسحابها فى هذه المناطق

وهناك من الزنوج من يتحدث الاسبانية ، ولا يجيد الانجليزية

ولم انتظر طويلا ..

وذهبت سيرا الى حافة الحدود . وعبرت الميـادين الواسعة ، المليئة بالنوافير (تشبها بالمكسيك) ، وان كان الامريكان قد ملئوا تلك النوافير بالتماسيح ! احتفـاظا بالطابع المحلى !

ومدينة الباسو الامريكية تكاد تحتضن مدينة جواريز المكسيكية ، كتفا الى كتف

والمدينتان لا يفصل بينهما سوى مخفر متواضـــع للبوليس

وتستطيع أن تنتقل بين أمريكا والمكسيك فى خـط دائرى للترام

يبدأ الخط من حافة مدينة الباسو ،ويعبربكالحدود، ويشق مدينة جواريز ، ثم يعود بـــك ــ دائرا ــ الى مدينة الباسو من جديد ..

وامتلأ الترام بالاسبان والمكسيكيين ، والســـيدات والاطفال والاسبتة والحاجيات ولوازم العائلات ، وفتيات جميلات شعرهن أسود ، وملامحهن شرقية ..

والفرق كبير ناطق بين المدينتين المتجاورتين ..

ففى الباسو حديد وزجاج ونيكل وشنـابر نظارات واعلانات .. وفى جواريز ترام وقـدم وفن وكل شىء يبدو مباحا !

وقد وصلت بعد انتهاء موعد الكرنفال السنـوى .. ولكن الميادين والشوارع كانت لا تزال مزدحمة بآثاره ، ملطخة بألوانه .. فالشوارع مسدودة ـتقريبا ـبالعربات المكشوفة ، وعليها تماثيل ضخمة ودمى ملونة من دمى

الكرنفال الضاحكة والساخرة ! واعلام صغيرة تهتز فوق أعواد الترام . والتزاحم على الغرباء مسألة طبيعيـــة ومتوفرة

فهذا يريد ان يصورك على حصان من الخشب ، وقد لبست قبعة مدببة مكسيكية ، وحذاء طويلا ، ولبست صديريا من الصوف الملون بالالوان العديدة .. النبيذى الغامق ، والبنفسجى العميق •• والاخضر الزرعى •• والاصفر فى لون المانجو .. !

وهذا يدعوك الى فندقه ــ مجانا ــ باستثناءالمشروب، وبالغرفة بلكونة تشرف على الميدان والمقهى ، وتستطيع أن تسمع منها الاغانى الاســبانية والمكسيكية •• التى ستملأ الميدان بعد ساعات !!

وهذا يدعوك أن تشترى تماثيل خشبيـــة ، آية فى الفن ، والحساسية للعذراء ، أو دون كيشوت وصاحبه سانكوبانزا

والى جوار حائط قديم ، جلس مغن اعمى شاب •• يقطر صوته بالحنان والعذوبة والحب .. يغنى ،ويعزف، ووراءه « أركان حربه » وحاسبو اجره واحسانه..وهم لا يقلون عن عشرة من الافذاذ أو الافظاظ !

وسرعان ما يأخذك الحماس من تماثيل دون كيشوت الخشبية ، وقد نحتوه فى خشب سهل مطيع ، تمثالا طويل القامة ، نبيل القسمات ..

نموذج من النبل « العبيط » الذى تميز به الشرقيون وقتا طويلا ..

وتأخذك تلك الالوان الزاهية ، والنقـوش الدقيقة ،

فاذا بالمكسيك .. خليط من دم الثور، والنوافير البيضاء، والبلكونات الرخامية ، والدنتيلا النسائية الرقيقة !

دم عريق مسفوح ! مخلوط بالنبيذ والنغم !

فالموسيقى الاسبانية تسيل فى كل أركان الشوارع ، وبين الاطفال ، والمغنين الاكفاء ، وجوقات المتطوعين يومين فى الاسبوع .. وبقية الاسبوع ، عمل بالكاد ، وشوق شديد الى الموسيقى ..

وبين جواريز والباسو ، وبين المكسيك وجنوب أمريكا ينفتح لك باب يكشف لك سر الزنوج .. وسر تفوقهم فى الشعر والموسيقى والنغم ..

فلقد عاش الزنوج عبيدا زهاء مائتى عام أو يزيد .. جاءوا بهم من أفريقيا ، ونزلوا أول الامر فى شاطىء فرجينيا .. وعملوا فى زراعة الدخان . ثم بدأوا يزرعون القطن .. ولكن الحزن تفجر فى الحانهم نغما ولهيبا وشعرا ..

وقد قال لى شاعر زنجى :

ـ يكفى أن تحس أنك زنجى ، حتى تحس أنك تحمل مأساة خاصة . تستطيع لو وهبت شيئا من الحساسية ان تعبر عنها .. شعرا أو غناء ..

أن مأساة الزنجى ، عند الرجل الحساس ، لا تختلف عمقا من مأساة هاملت ، أو دون جوان ..

قلت للصديق :

ـ ولكن الجنوب يفيض بالكراهية للسود ، أكثر من الشمال ..

فقال :

ـ لهذا هاجر كثيرون من الجنوب الى الشمال ، حتى

ان كثيرا من رجال الصناعة أصبحوا يشتكون من هـذه الهجرة المستمرة .. خوفا على «الايدى» العاملة السوداء، وبسمونها أصحاب « الظهور المبتلة » ايماء ورمزا للعرق الغزير !

وتحدثنا عن الهجرة ..

كيف أن أكثر القصص الامريكية فيها حديث هـذا الانتقال من الجنوب الى الشمال ..

فالامريكى ـ بطبعه ـ لا يحب البقاء ، فى مكانه . وهو دائم السفر ..

والابيض ينتقل من ولاية الى ولاية من باب الترف أو السياحة .. أو البحث عن عمل ..

ولكن الاسود يتنقل من الجنوب الى الشمال بحثا عن عمل ، أو هربا من اضطهاد ، أو خوفا من عقاب ..

وأكثر القصص الزنجية ، بطلها يقتل فى الجنوب ، أو يهرب الى الشمال ..

مثل تلك القصة الرائعة التى تصور أمريكا زنجيا قتل وهرب ، ثم تاب ..

وتصور حياته بعد التوبة فى الشمال ، بين أهله فى هارلم

وقصص ريتشارد رايت كلها مليئة بهذا الهـارب من العقاب ، حين يتجمع البيض ، وقد صمموا أن يقتلوه ، بعد اتهامه بالاعتداء على بيضاء !

وقد حكى لى صديق زنجى ، أنه لا يزال يفكر فى القصة التى سمعها وهو طفل ..

كيف قتل البيض ثلاثة زنوج ، واتهموهم بأنهم قتلوا

رجلا أبيض ..
وحقيقة القصة أن الشريف (حاكم المدينة) احب زوجة رجل من البيض .. وحدثت بين الرجل وزوجته مشادة عنيفة ، انتهت بأن خطفت الزوجة سكينا كبيرا ، وطعنت زوجها ..
وخرج الزوج ــ جريحا ــ وتعثر بضعة أميال الى بيت صديق ، وهناك مات ..

وتكتم الشريف الخبر ..
ولم يفتح أى تحقيق ..

ولكن البيض ثاروا ، وقتلوا ثلاثة زنوج انتقاما فظيعا لجريمة وهمية ..

ومن هنا كانت هذه المأساة ــ وحدها ــ تفجر من شعراء الزنوج وقصاصيهم معينا من الالهام والواقعية .من الهزيمة والحنان

فهذه مارجريت وولكر ، الشاعرة تقول :

ــ « لا أريد الجنوب . ولا أريد كابوسا من الحريق والزيت »
وهذا شاعر آخر ، في قصيدة اسمها « أغنية فتاة سوداء » يقول :

ــ قلبى انكسر
في الجنوب
شنقوا حبيبى
وعلقوه
فوق الشجر
سألت ربى :

ليه الصلا
والعـذاب !
مادام حبيبى
فى الجنوب
شنقوه
وفوق الشجر
ربطوه
بعد الصلا
والعذاب

وقصص السحل فى الشـوارع ، قصص دامية ، وهى تشبه أفلام السينما من فرط الانفعال فيها ، والحركات المريبة ، والصاخبة ..

اذ يزحف البيض .. الغاضبون حين يأتى الليل ، وهم يحملون المشاعل .. ويتزعمهم متطرفون ومتطوعون .. وهم فى العادة - وهذا يتكرر كل مرة - يقتحمون السجن .. ويخطفون « القاتل » أو المتهم .. ليقتلوه بأيديهم .. حتى يصنعوا العدل بأيديهم ، لا بيد الدولة ..

قبل الصباح ..
يأتى الفجر ..
ويقدم الزحام ..
ليرى الجثة المعلقة فى الشمس ..
ويشتاق النساء الى النظر ..
لكن ولا واحدة ..
تنظر فى أسى ..

من عيونها الزرقاء التى تشبه الحديد ..

وحتى الاطفال البيض، يصورهم شاعر الزنوج، المرتجف بالفزع والغيظ ، فيقول :

ـ وأطفالهم يقدمون ..
ففيما بعد سيصبحون قتلة ..
فيرقصون ..
حول ذلك الشيء الفظيع الذى يتدلى ..
من الشجر ..

وهذه الحياة المستحيلة ، حقا ، فى الجنوب تراها فقط في فرص العمل الضيق ، وانخفاض مستوى المعيشة ، وفى تصعلك الزنوج ، وتسيد البيض . بل ان صـــغار البيض ، هم غالبا أكثرهم حماسا للتفرقة بين البيض والسود ..

انهم صغار المستبدين ..

فالمالك الكبير ، منذ أيام المزارع ، كان يكتفى بوضـــع القانون ، وتحديد الاجور ، وكان لا يظهر الا كل يوم أحد ، فى حانة المدينة الصغيرة .. يخبط على كتف هذا الابيض الفقير ، وكأنه صديق قديم ..

فلا يملك ذلك الابيض الفقير الا أن يتحمس لمجرد أنه أبيض ، وأنه أصبح صديق المالك الكبير ، وحقيقة أن الفقر والثروة يفصلان بينهما . فهذا ينعم فى قصره المنيف .. وذلك ينام فى مقهى أو حتى على حافة المزارع !

ولكنــه لا ينسى تلك الخبطة على كتفه ، ومعناها أنه أبيض ! !

وهذه وحدها ميزة ، عليه أن يحتفظ بها ، ويفخر بها ، ويتمسك بها تمسك المستبد بضحيته !!

فاذا أتت فرصة رائعة ، ذات يوم سبت ، حين يقل العمل ، ويخف النشاط ، ويتخفف الناس من مسئولياتهم

وهنا ــ عادة ــ تحدث الحوادث ، كما تحدث حوادث الاعياد والعطلات الصيفية والمناسبات ..

زنجى عاكس بيضاء ..

فاذا بالخبر يسرى كالنار فى المدينة ..

همس ــ ويا للعار ــ بأغنية ماجنة ، أو غير ذلك ، من تماحيك البيض ..

فاذا بذلك الرجل الابيض « الفقير » يصبح فارسا ، كأنه يمتطى صهوة جواد من جياد الشياطين ..

يريد أن يشرب دم الزنجى ، على الفور ، وفى جرعات طويلة .

. . . .

وقلت لنفسى :

ــ اى مأساة حقيقية لو أحب فتى زنجى فتاة بيضاء .. أو أحبت فتاة سوداء زميلا أبيض .. من فتية الجامعات ، او فتية المحلات التجارية ، أو عاملات المزارع !

لاشك أنه الدمار !

فهناك قصص زنجية أدبية عديدة تحكى هذه القصة ، التى تشبه مأساة روميو وجولييت الخالدة ، بين البيض والسود . وغالبا ، يكون البطل من البيض ، والبطلة « مولدة » ، سمراء ، شبه بيضاء .. وحين يكتشف أن بدمها قطرة من دم الزنوج ، تحدث المأساة ..

فكيف ينفصلان ، وقد اعتادا أن يتقابلا معا ، وأن يسترقا النظر والهمس .. والاحلام السعيدة !!

ولكن مثل هذه القصة تنتهى كالعادة بحب مستحيل . وتنتهى قصة ضوء القمر ، والزرع ، ولقاء الشوارع ، وهمس التلاطف ، ودموع الاشفاق من بعيد ، الى مظاهرة تطلب رقبة الفتى ..

فاذا فازوا به علقوه فى شجرة ..

واذا فاز بالحياة ، فر عبر الحدود الى المكسيك !!

واخذت أفكر :

ـ هل قصة الحب المستحيل هى العذاب الوحيد الذى يتعذبه الزنوج !!

وتذكرت ذلك الفتى الذكى الأريب ، الذى قابلته فى الشمال ، حيث يتمتع الزنوج ببعض التسامح ، وكيف يحلم دائما بأن حياته سوف تنتهى بحب بيضاء ..

وستنتهى بفاجعة ..

وقد كان هذا الاحساس يشبه عنده احساس المتشائم المتوجس دائما ، الذى يخشى من السقوط ..

ان ما يقوى المأساة هو الاقتراب والبعد ..

الحب المستحيل !!

ولست ادرى ما الذى جعلنى أفكر فى الحب المستحيل طيلة الوقت .. حتى ذهبت الى فيلم يعرض مأساة دون جوان ، من زاوية جديدة ..

فيلم اسمه : عقاب دون جوان ..

. . . .

يبدأ الفيلم ـ الذى شاهدته ـ فى دار تشبه القصور

الاسبانية مدخلها خافت الضوء .. تتدلى من ردهته نباتات طويلة رقيقة واهنة .. وزهور صفراء شديدة الصفرة .. والديكور يشبه رسوم والت ديزنى ..

وأول صورة فى الفيلم يظهر شيطان ، متمدين ، يقول :

ـ أيها السادة ، سنحدثكم اليوم عن جهنم ..

والشيطان ، كبير الشياطين ، عينه اليسرى مريضة ، مغطاة كعين قرصان ..

ومساعداه شيطانان متمدينان ، يلبسان ثيابا فرنسية من طراز لويس السادس عشر ..

يبدو من حركاتهما الكبرياء والنفاق والخبث ..

وآية النفاق تلك الاحاديث التى تسمع فى البلاط الملكى .. لغة متحذلقة .. ذلاقة لسان . تكبر وترفع . خطوات مرسومة .. وكلمات محسوبة ..

ويصرخ الشيطان الكبير من وراء مكتبه الزجاجى :
ـ تصوروا أنها تتمسك بعفتها الآن ..

فيقول المساعدان :

ـ من هى ؟
فيقول كبير الشياطين :

ـ فتاة عفيفة من الارض تهدد كل شىء نصنعه .. أيها السادة ، اننا فى خطر ..

فليس من المعقول أن نجرب معها كل الغوايات ، فلا تسقط ، ان هذا حقا أمر خطير ..
ويتحذلق المساعدان فى نفاق وتكلف ..

ويعلن الشيطان الكبير قراره الاخير ..

لقد قرر أن يستخدم الرجل الذى أغوى كل امرأة فى الارض .. وله تاريخ طويل .. سوف يستخدم دون جوان

ودون جوان ـ البطل الشهير ـ ضيف على جهنم منذ سنوات ..

ويأمر الشيطان الكبير باحضار دون جوان الذى يحضر.

فيظهر شاحب اللون ، كفتية الاساطير .. سمهرى القوام . يدخل من باب يكاد يقترب من قامته ..

ويقول له الشيطان الكبير :

ـ سأخفض عقوبتك فى جهنم ..

سنخفض اقامتك فى جهنم ٢٠٠ سنة ، لو نجحت فى غواية هذه الفتاة ..

وهى على أى حال ليست صعبة ، وأنت بطل الاساطير الماجنة والعفيفة ! فاستعمل معها خبرتك وفنونك !

ويوافق دون جوان ، أخيرا ، على شرط أن يصحب معه خادمه العجوز ..

ويقول دون جوان للشيطان ان خادمه قضى معه أكثر من مائة عام فى جهنم . ويتمنى لو يقضى ليلة واحدة .. فى الارض ..

ـ فاسمح له بالنزول ..

ويهبط دون جوان وخادمه ..

والخادم عجوز متصاب .. له كرش هلوك . تطيب له كل الملذات ، حتى ولو كانت فى جهنم ..

وينزلان الى الارض بالقرب من شجرة ..

ولا تكاد أقدامهما تلمس الارض ، حتى يريا شيطانا كانا يعرفانه من جهنم ..
ويقول لهما الشيطان :

ـ لقد أرسلنى ابليس معكما . لأراقبكما .. وأرصد عليكما حركاتكما ..

ويتحول الشيطان الى قطة سوداء .. تجرى بين أقدام دون جوان وخادمه ..

ويقترب دون جوان وخادمه من بيت العائلة التى قرر ابليس افسادها ..

البيت فى الطريق الرئيسى الذى يوصل الى قلب المدينة .. والسماء هادئة

ورب العائلة قسيس ساذج ..
يأكل ويبسمل .. ويدعو الله كل ليلة ، حين يخلو لنفسه ، أن يخفف من سذاجته ، وأن يقلل من عبطه ، وأن يجعل زوجته تفهمه .. ولو قليلا ..

ويدخل دون جوان وخادمه ، فيدعوهما للاكل .. ويتحدث رب العائلة مع المسافرين مرحبا . ويقول دون جوان للعائلة انه كاتب مؤرخ يهتم بكتابة سيرة دون جوان.

وبينما المائدة ممتدة . اذا بالسماء تبرق وترعد .. والمطر ينهمر ..

فلا يجد المضيف مناصا من استضافة الضيفين الوافدين ..

ويكتشف صاحب البيت ، الطيب القلب ، تلك القطة السوداء ، التى تندس بين أقدام ضيوفه ــ وهى الشيطان

الجاسوس .. فيقدم لها صاحب البيت شيئا من طعام. .

وبعد العشاء ، يستمر الحديث عن السفر ..

ويهبط الليل كثيفا ..

فيدعو صاحب البيت ضيفيه الى حيرتى الضيافة ..

وتبدأ المهمة والغواية ..

وينسل خادم دون جوان - العجوز المتصابى - الى غرفة الزوجة ، التى تقرأ فى سريرها كتابا عن الحب والمغامرات .. وتغطى جسدها تماما .. باحكام متين !

والليل هامس بالشطحات للذى يقرأ فى جنح الظلام ..

فيقترب خادم دون جوان من سيدة البيت .. هامسا .. فتصده ..

ثم ينتقل الفيلم الى الأب ، رب العائلة ، الذى يصلى . وتبدو عليه الطفولة الساذجة .. ويدعو - فى نهاية صلاته - أن يوفقه الله حتى تفهمه زوجته !

وينتقل الفيلم الى دون جوان ، فاذا به يقص على الفتاة الأقاصيص ، ويحبك لها شتى الفنون والفتن ..

وتقول له الفتاة :

- قبلنى !

فيفاجأ دون جوان ، ويقبلها بلا اشتهاء ..

مجرد قبلة عابرة !

فتقول له الفتاة الشابة ، ساخرة :

- وهل هذه قبلة !

وتقبله الفتاة قبلة جديدة شابة ، مليئة بالعنفوان والصبا . ثم تسأله الفتاة أن يحكى لها قصة هذا الرجل الذى يكتب سيرته :

دون جوان ..
فيقول دون جوان :
ـ مات بطعنة رجل غيور !!
ويتفرس دون جوان فى الفتاة فلا يستبد به شيء غير الحنان !!
فهو لا يدرى ما الذى يجذبه اليها ، وهو الخبير بحال النساء . فجمالها فريد فى نوعه ولونه ..
انها متوسطة أميل الى القصر من الطول ..
ولكن شعرها طويل شديد السواد يصل الى قدميها .
عيونها ضيقة
ولكن رموشها طويلة ، يزيد من طولها كحل شديد السواد ..
وفمها رقيق ، كورقة الورد ، أو قلب البراعم الوليدة ..
ولكن أسنانها متضاربة ، وان جمعها تناسق غريب !!
وجهها وجه طفلة رقيقة ..
ولفتاتها لفتات أنثى ، تفيض بالانوثة ، وتضج بها أحيانا ..
وأخذ دون جوان يتفرس فيها ..
وهو يبحث سر هذه الجاذبية الغريبة التى تجذبه اليها
هل هى الراحة الغريبة فى هذا التضارب بين قامتها المتوسطة وطول شعرها وغزارته ... وبين ضيق عينيها وطول رموشها ، وفمها الرقيق واسنانها الدقيقة المتضاربة
ان هذا التزاوج يثير الراحة ، لانها ليست صارخة الجمال ولكنها كامنة الفتنة ، تشبه الفاكهة الرقيقة فى خطوطها وانحناءاتها !

وينتقل الفيلم بعد ذلك ، الى مخدع الام التى لا زالت تصد الخادم ..

والخادم يحاول معها كل الاحابيل والحيل

يهمس فى أذنهـــا ، ويلمس عنقها ، ويداعب أطراف أصابعها •• فتنهره ، وتصده ••

فلا يعدم الخادم الشوق ليغويها ••

وقد نزل من الجحيم ساعات ••

فيستخدم معها حيلته الاخيرة !

ويبكى !!

يزحف باكيا •• ويقول :

ـ أصارحك ولا تخافى ••

لقد نزلت من الجحيم • وسجنت فيه مائة عام ••

ولن أعيش هنا الا ساعات قليلة ••

وقد أتيت اليك بكل أشواق السجين ••

وتنهار ••

وتقول ، وهى تقبله بين دموعه :

ـ لقد استخدمت معى كل الحيل •• فلم تنفع ســوى اثارة عاطفة الامومة !

وهنا يظهر الشيطان الحارس ، الذى أرسله كبـــير الشياطين ليسهر على نجاح المهمة ••

ويتحول من قطة سوداء الى رجل ••

ويهرع الى غرفة الزوج •• مولولا ••

والزوج نائم فى سريره ، فيوقظه الشيطان ، ويقـــدم نفسه !

ـ انا الشيطان !

فلا يصدق الزوج بالطبع ، ويقول فى هدوء :

ـ هذا مثير حقا !!

فيصرخ الشيطان :

ـ لن تصدقنى •• ولكن جريمة تجـــرى فى بيتك ، وتحت سقفك ••

فيومىء الزوج فى سذاجة :

ـ هذا مثير حقا !
بل هذا مستحيل !

ـ ان زوجتك ترتكب معصية مع خادم ضيفك ..

فلا يتحرك الرجل ، وكأنه يسمع هاجسا من الهواجس

ـ ألا تصدقنى ؟ !
اليك مفتاح الغرفة ، المقفلة عليهما !

ويلقى الشيطان بمفتاح الغرفة على السرير !

فيتحرك الزوج مع الشيطان الرقيب ، الى غرفة الزوجة وفى طريقهما ممر طويل ، يمر منه الزوج والشـــيطان ، ثم يقتربان من دولاب داخل الحائط ••

فيفتح القسيس باب الدولاب ، وينتهز فرصة اقتراب الشيطان من باب الدولاب ، ويدفعه الى داخله ، ويقفـــل عليه ••

ويصيح :

ـ ها !! لقد سجنت الشيطان فى دولاب
ان هذا أروع عمل فى حياتى ••
شكرا لله !!

ويعود الزوج الى غرفته ، وهو لا يفكر فى زوجته ، •• بل يفكر فى الطريقة التى سيعلن بها الى أهل القرية ، وزبائن كنيسته ، كيف انعم الله عليه ، وهو فى نهاية العمر ، فسجن الشيطان فى دولاب ••

ويمضى الليل ، ويقترب الموعـــــد الذى حدده كبـــير الشياطين للانتهاء من المهمة ..

ويبدو أن دون جوان قد نسي مهمته التي أتى من أجلها ، والتي سوف تنقذه من عذاب الجحيم مائة عام ..

فلقد أغرق في الحديث مع تلك الفتاة ـ الطفلة الانثى ـ يقص عليها قصص الشوق.. والحب العنيف.. والليل الطويل والشحوب ، والسهر والحديث العذب ..

وينقضي الموعد .. بلا جدوى ..

فيعود دون جوان خائبا ، بعد أن يودع الفتاة .. بشوق عنيف ..

ويعود الخادم وقد أغوى السيدة ، وأخمد شـوقه ونزوته ..

ويستقبل كبير الشياطين دون جوان ثائرا هائجـا ..

هل فشل آخر سلاح مع تلك الفتاة ؟ ! ..

ويصيح بغيظ يتفجر :

ـ ولكن كيف ؟

كيف ترضى ، وأنت دون جوان ، أن تقبلها بين عينيها ، وفي شعرها ، وعلى مفرقها ، وبين حاجبيها ، وبين أناملها .. فقط !!

ويقول دون جوان :

ـ لذ لنا حديث الخيال عن العفة والهوى المكتوم !!

ويقول كبير الشياطين :

ـ أيها الخائب ..

أرسلتك لتغويها ، فأغوتك هذه اللعينة المتكبرة ..

فيقول دون جوان :

ـ ولكنك لا تعرف سحرها ..

سحر عيونها الضيقة ورموشها الطويلة .. وقامتهـا المتوسطة وشعرها الاسود الطويل الذى يغطيها ..

أنت لا تعرف ـ وكيف تعرف ـ شفتيهـا الرقيقتين كالندى •• كالياسمين ••

فيصرخ فيه كبير الشياطين :

ـ اخرس ! كفى . كفى !

يا للخسارة !!

انها لازالت تهدد الشر !

وينكس دون جوان رأسه حالما ..

لقد أراد أن يفشل ، لانه أحبها حب العفاف ، وكان يستطيع أن يغويها ..

فكيف يشرح للشياطين أنه أحبها ..

ويأمر كبير الشياطين بالقبض على دون جـوان ، من جديد .. فيسحبه الحراس ، والشرر يتطاير ..

ويسأل الحراس كبير الشياطين :

ـ ماذا نفعل به •• ؟

السجن الف عام • النزول به الى حضيض الجحيم ؟!

فيصرخ كبير الشياطين :

ـ بل دعوه يحلم ..

دعوه يحلم .. فسوف يراها فى حلمه ، ويتذكر حبه الذى فارقه فى الارض ..

دعوه يحلم ، ففى الحلم المستحيل اقصى العذاب !

وتنتهى قصة الفيلم ـ بين ذهولى ..

فلقد عاقب الشيطان دون جوان شر العقاب .. بأن يتذكر الارض ، ويحلم بالمستحيل ..

وياله من عذاب ..

أن يحكم عليه بالشوق مائة عام .. أو يزيد ..

وهذه الاسطورة التى أصبحت فيلما ، تصور طبعة جديدة من « عقاب » دون جوان

الفتى المتمكن من الحب ، حين يقهره الشوق !

فليس يعصى على الحب شيء !

وليست جهنم هى العقاب . ولكن الشوق المستحيل هو جحيم العذاب !

. . . .

ولكن قصص الزنوج كلها ، فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن ، تمر بقصة الحب بين الاسود والبيضاء أو بين الابيض والسوداء .. حبا « مستحيلا » ، ليست فيه تلك الرقة والشفافية عند دون جوان ، أو روميو وجولييت ، أو تريستان وايزولد ، ولكنه حب «مستحيل» بأمر المتاريس التى ينصبها البيض ، لو مال أسود الى بيضاء !

ان عذاب دون جوان الاسود عذاب أرضى ، محاط بالخوف والدم !

فالأبيض فى الجنوب ، يستبيح لنفسه حب أى سوداء ولكنه لا يسمح للاسود أن يحب بيضاء

فمصيبة المصائب تقع ، ويشحن جو البلدة بالهيستريا والصراع

مع أن السود يغرقون البيض بالحب والحنان أحيانا فقد قال لى شاب زنجى :

— ان أغلب هؤلاء البيض المتشنجين فى الجنوب ، كانوا يرضعون فى طفولتهم من صدور زنجيات مربيات !

والعجيب أن الابيض يدعى أن الاسود «قذر» بطبيعته ،

وهو ينسى أن السود هم الذين يرضعونه ، وهو طفل وهم الذين يعدون له الطعام ... فالابيض يستخدم الاسود ، ويأتمنه على أطفاله ، وأكله ، ولبنه .. ثم يدعى بعد ذلك قذارته !

وعلاقة الحب بين السود والبيض علاقة محاطة بالتوتر والمغامرة ، وقد كانت فى الماضى حبا كريما من الزنوج ، وبغضا ونزقا من البيض .. فالابيض يطالب بأن يحب (بفتح الحاء) ، والا يطالبه أحد بأن يحب

وكان هذا هو « الجو » الاجتماعى فى مطلع هذا القرن .. حتى ان الزنوج ملأوا أشعارهم وقصصهم بالابتهالات والشكوى والانين . ثم تجد هذه النغمة تتغير فى أدبهم الجديد .. فيصبح الابتهال غيظا ، والالم المسكين صراخا

وقد تطور الادب مع تطور قضية الزنوج ، ووعيهم !

فبعد أن كان الزنجى هو « الحيوان » العاطفى ، الذى يئن ويغنى وبعد أن كان هو حامل الفأس فى الغابة ، أو عبد المزرعة الواسعة تغيرت الامور ، واتجهت اتجاها آخر

ففى الايام الاولى ، كانت الشكوى تغنى .. فى الاغانى الدينية والعاطفية على السواء . ولكنك تلمح الآن لهجة اعتراض وتحد :

اذا كان لابد ان نموت

فلن نموت كالكلاب

وهذا شاعرهم هوجز يقول :

ذات يوم
ستكون لنا أرض فيها شجر
وببغاوات فصيحة
ونهار فى صفاء الماء
أرض ، ليست هذه الارض .
حيث الطيور غربان رمادية !

وقد تفوق الزنوج فى عالم الادب والشعر والالحان الشعبية وموسيقى الجاز . وان كانوا قد اشتهروا بأنهم ملاكمون أشداء ولاعبو بيسبول بارزون

والمضحك حقا ان هذا الذى اشتهروا به ليس هو دلالة العبقرية ، وأن الذى يخفى على الناس هو أن الزنوج هم أكثر الامريكيين « اصالة » فى التفكير والتلحين والشرود ...

فقد كانت أمريكا الى عهد قريب تعتبر « ريف » أوربا ، لا يميزها شيء من أوربا الا فى الحجم ، أو الكم .

فالذين نزلوا بوسطن كانوا يقلدون الايرلنديين ..

والذين نزلوا فرجينيا أو نيو اورليانز كانوا يقلدون الفرنسيين

كانت كل جنسية تهاجر الى أمريكا تنقل شيئا من حضاراتها وكثيرا من عاداتها وتقاليدها ..

وقد لمست بنفسى ذلك الشعور عند الامريكيين ، من أنهم تنقصهم الاصالة والعراقة .. وانهم يعوضون ذلك بالنشاط الشديد ، والحركة المجنونة .. حتى لقد قال لى صديق أمريكى :

— ان ميزة عدم الارتباط «بتاريخ قديم» ، انك تستطيع أن تفعل أى شيء .. فى حرية !

وفى نفس الوقت الذى يحس فيه الامريكيون بضعف هذه الجذور التى تمتد الى الماضى ،يحرصون على «صناعة» تقاليد ، والتحايل على ذلك بفنون عديدة

فأسماء عائلات القرن السادس عشر فى انجلترا وايرلندا ، تجدها أسماء لمطاعم ، وأسماء لقاعات فى فنادق ، مثل تيودور • وويلز ، وغيرها ..

ولكنها تقاليد ، لو تعمقت ، فلن تبلغ أكثر من العصر الفكتورى بمدة طويلة !

وعقدة « التقاليد » تصبح أحيانا هوسا .

لان الامريكيين يعلمون انهم قفزوا قفزة واسعة الى الصناعة والماكينة ، ولم يمروا على الحرف الدقيقة التى تتطلب فنا ودراية وحيلة ... فلست تجد دانتلا اسبانيا ، ولا فخار هولنده ، ولا نقوش دمشق ، ولا زجاج تشيكوسلوفاكيا .. وغير ذلك من فنون الحرف التى لها تقاليد موروثة ، وتعاليم مخصوصة !

ولذلك يتأنق الامريكيون هذه الايام فى اصطناع شىء من التقاليد ، وكثير من الذوق المرفه ..

فلقد أنفقت زوجة كيندى بضعة آلاف على اختيار بضعة لوحات من أوتريللو ، الرسام الفرنسى ، لتضعها فى البيت الابيض .

وقد لا تصدق ذلك الزحام فى المعارض ، والمتاحف.. ولكن آلافا يذهبون ، وقد لا يفهمون ! ولكنهم – على أى حال – يذهبون .

وقد حدثت لى حادثة فى نيويورك لم أكن لاصدقها لو حكيت لى .

فقد أقام معرض جوجنهايم ، وهو من أكبر المعارض في نيويورك ، عرضا لاعمال الرســـام الفرسى الشـــهير ماتيس .

وتكأكأ الناس على المعرض ، ولم يعد فيه موطىء لقدم من شدة الزحام .

وكتبت الصحف ، وتحذلقت النساء ، وأصبح المعرض حديث المجتمع ... ثم حدثت المفاجأة المذهلة .

لقد اكتشفت احدى السيدات أن لوحة من لوحات ماتيس معروضة بالمقلوب ! ولم يكتشف أحد من الحراس او الامناء أو الخبراء هذه الحقيقة حتى انقضى أكثر من ثلاثة أسابيع !

وكانت فضيحة .

وحين سألت صديقى الشاعر الزنجى ، هل يتفوق الزنوج فى الرسم والنحت ، قال : لا .. ولكن الشـــعر والنثر والموسيقى . تفوقنا فيها تفوقا شاسعا . وقال الصديق :

ــ ألم تلاحظ الفرق بين الاغانى الزرقاء ، والاغانى الروحية

قلت :

ــ الزرقاء عاطفية ... والروحية فيها مسحة من دين .

فقال :

ــ لقـــد اكتشـــف الدارسون أن الايقـــاع فى الزرقاء يختلف عن الروحية .

ففى الاغانى الزرقاء يجملك الايقاع تحرك الايدى ،

والاذرع ، والجسم ، والارجل ... علامة الجزل والطرب والنشوة .

أما الاغانى الروحية ، فالايقاع يحرك فيك الرأس والصدر فقط .

وهذه دقة « خبيثة » تفوت النظر المضطرب ، أو السطحى ، ولا يدركها غير القلب اليقظ .

قلت :

ـ الايقاع فى الجاز يكاد يقترب من الطبل الافريقى !

فقال الصديق الشاعر :

ـ طبل الجاز وارد افريقيا .

ولست أذكر اسم ذلك الباحث الذى قارن بين طبول الجاز ، وطبول الموسيقى الفرنسى برليوز ، فى سيمفونيته الخيالية .

انه يستخدم طبولا قوية معبرة ! ولكن طبول الجاز متقاربة ، متلاحمة فيها نبض وعنفوان طبيعى .

وقال الصديق :

ـ ان موسيقى الجاز ليست أفريقية كلها ، وليست زنجية كلها .

فقلت :

ـ هل تعنى انها تأثرت بالموسيقى الغربية .

ان هناك من يقول ان الزنوج سمعوا الحانا «فرنسية» .. فى نيوأورليانز ... وتأثروا بها .

ويستشهدون على ذلك بأوبرا كارمن لبيزيه ...

فقال :

ـ هذا مستحيل !

ـ لو صح أن الزنوج سمعوا أغانى الفرنسيين فى

نيواورليانز ، فان هذا وحده لا يكفى « لتموين » كل هذه الثروة من الانغام العديدة المنوعة !

وقال :

ــ ان موسيقى الجاز أفريقية الاصل . ولكنها أيضا تعبر عن احاسيس رجل الطبقة الوسطى فى أمريكا بعواطفه وخيبته ، وأمله ...

ــ وتعبير عن السرعة والصناعة .

ــ تماما .. سر موسيقى الجاز هو ذلك الايقاع السريع الذى تجده حولك .. حتى فى الجنوب .

فالسرعة والقفز ايقاع تتعود عليه ما دمت تعيش فى أمريكا . ولا شك أن هذه السرعة صدمت أذان الزنوج أول الامر ، ولكنهم استطاعوا أن يعبروا عنها بليونة ومهارة !

. . . .

فاذا كانت « المدنية » الامريكية فيها حضارة ... فالحضارة للزنوج ، والمدنية للبيض .

وقد أكتشف الامريكيون أنفسهم هذه الحقيقة ، ففى الوقت الذى عكف فيه الامريكيون على جمع المال والمضاربة وفنون الايجار والتقسيط .... هبط الزنوج الى أعماقهم ، يكشفون عن آلامها ، ويكتبون عن احلامهم ...

وحين صدمت المدنية الامريكية لاول مرة ، صدمة عظيمة ، مثل صدمة الازمة الاقتصادية فى عام ١٩٣٠ ، اكتشف الامريكيون أن نظامهم ليس كما تخيلوا ..

وبدأ الازمة الاقتصادية تكشف عن أزمة ضمير ، سماها الامريكيون بالزلزال . كان أخطر من الزلزال الذى ابتلع سان فرانسسكو !

ومحور الازمة العنيفة التى تهز الضمير الامريكى هى الصراع بين ما أملك ، وما أنا عليه فعلا .

هل قيمة الانسان بما عنده . أو بما فيه من مواهب ، وافكار ، وقدرة ؟!

والفرق دقيق .

وقد طرحه ادباء أمريكا جميعا بيضا وسودا ..

وليس غريبا بعد ذلك أن يعطف ارسكين كالدويل أو جون شتاينبيك على الزنوج ..

وليس غريبا بعد ذلك أن ينظر المثقفون البيض الى الزنوج على انهم أهل حضارة وأصالة ... فينظر بقية البيض الى هؤلاء المثقفين نظرة الزراية .

وليس غريبا أن يتهم البيض المتطرفون هؤلاء الكتاب بأنهم « ليبراليون » ، أى متحررون ... وهذه وحدها صفة تعطل الاستاذ عن الترقية فى جامعته ... !

وطبيعى ان الذى يجمع المال ، أو الذى يعمل عند جامع المال ، لا يتنبه الى أن تقدير المثقفين من البيض للزنوج مرجعه الى تقدير نفسى له ما يبرره !

. . . .

وأعجب ما تصل اليه ــ بعد ذلك ــ أن الزنوج هم أكثر الامريكيين فنا ، وحضارة ، وتوهجا ، وأكثرهم تأثيرا على الثقافة .. ورغم ذلك ، فهم أقل الامريكيين حظا ونصيبا فى كل شىء !

وقد أحسست أن ظاهرة «اضطهاد الزنوج» متركزة على الزنوج،ولكنها مسألة طبيعية وخفية داخل المجتمع الامريكى واحترت فى تفسيرها

حتى كشفها لى أحد علماء الاجتماع ، الذين يدرسون تاريخ الجنسيات المختلفة فى أمريكا

فقد قال لى : ان امريكا تكونت من وفود وأفواج وأمواج من المهاجرين

لم تكن تحدث ثورة فى اوربا ، حتى تطفح بالمهاجرين والهاربين الىأمريكا

ومنذ مجاعة البطاطس فى ايرلنده فى القرن السابع عشر، وأمريكا تستقبل أفواجا وأفواجا

وقد بدأت الهجرة من غرب أوربا ، ومن ايرلندة وقال :

ــ الارستقراطية الامريكية الآن هى التى ترجعالىأصل ايرلندى مثل عائلات كابوت لودج ، وكيندى !

وقد اجتاحت أوربا ثورات عديدة بعد الثورة الفرنسية، فكانت الامواج والافواج تصل

من فرنسا ، ثم من ألمانيا ، ثم من وسط أوربا . واليونان . وبولنده !

وكانت كل جنسية تستقر فى منطقة ، وتحاول أن « تقتحم » لنفسها مكانا ، وكانت بالطبع ، تجد الصعوبات فى أول الامر . ثم تستقر لها الامور . فتنقلب نظرتها تماما ــ كيف ؟ !

انها تحاول أن تنظر الى الوفود « الجديدة » نفس النظرة التى كانت تلقاها من الذين استقروا وتيسرت احوالهم من قبل . نظرة الكبرياء !

مثلا ، الالمان حين وصلوا ، لم يكونوا يعرفون اللغة ، وكانوا يلاقون مشاق كثيرة ، وكان الايرلنديون والانجليز ،

وهم أسبق منهم فى التوطن ، ينظرون اليهم نظرة استعلاء وكبرياء !

ــ وماذا حدث ؟

ــ انتظر الالمان حتى جاءت حربنا مع المكسيك . وهم بطبيعة الحال عسكريون ونظاميون . فانخرطوا فى هذه الحرب . ونجحوا

فبدأ المجتمع يفسح لهم الطريق و « يعترف » بهم ،
قلت :

لكن مشكلة « الاعتراف » هى قلب المشكلة

فكيف لم « يعترف » أحد بالزنوج مع أنهم استقروا منذ ثلثمائة وخمسين عاما ؟ !

ــ قبل أن أرد عليك . هناك نقطة هامة ، هى التى أردتها من حديثى

ان الوفود القديمة تعامل الوفود الجديدة معاملة التأفف والضيق .. حتى يكسب الوفد الجديد مكانته ، فيحاول أن يخلص مالاقاه من قبل فى الآخرين ! وهكذا !
قلت له :

ــ ولكن لى تفسيرا أحسن ، ولا أعرف مدى صحته ، وهو فى اتجاه آخر تماما .

فضحك قائلا :

ــ التفسير الاقتصادى !

قلت :

ــ الى حد ما ، يفسر لى ــ على الاقل ــ سر أزمة الزنوج!
ان عقلية الامريكيين الغالبة عقلية « نفعية »
قيمة الشيء بفائدته . وبأهميته العملية
اذا ما احتجت شيئا ، فله قيمة .

واذا استغنيت عنه ، أصبح شيئا منسيا .
الى هنا نتفق .
قال :
ــ لا تنس انها عقلية رومانتيكية أيضــا . جمعت بين الرومانتيكية والروح التجارية .
قلت :
ــ اريد ان أقول ، ان البيض يربطــون بلا وعى بين الزنوج ، وبين الاقطاع وزراعة الدخان والقطن . وقد دخل الامريكيون عصر الصناعة من أوسع أبوابه ، وهم يشرفون الان على عصر الذرة ...
وهم لذلك لا يعرفون ماذا يصنعون بالعشرين مليون زنجى الذين تخلفوا من أيام العبودية ، والاقطاع ، والقطن .
وقلت موضحا :
ــ ان الامريكى تعود أن يترك السيارة التى لا يحتاج إليها ، وان يركب اخرى ، بمنتهى البساطة
ــ وماذ تريد أن يفعل . أن يبقى متعلقا بسيارة قديمة !
ــ لا ، ولكن اريد ان اقول ان الامريكى يقيس الاشياء بنفعها فاذا لم تنفع ، ألقاها بعيدا . وهو ــ بلا وعى ــ يحس كأن الزنوج ارتبطوا بمرحلة انقضت ، ولن تعود انه يعتقد ان الزنوج انتهى دورهم ، بظهور الآلة !

. . . .

وهذا التفسير على قسوته ، هو سر المرارة الشديدة التى تحسبــها عنــد الزنوج . « الآلة » الانســانية ، و « الحيوان » العاطفى كما يقول غلاة المتطرفين
ولهذا يريد الزنجى أن « يقتحم » المجتمــــع الامريكى بنفس قواعد اللعبة المقررة !

فهو يبرز فى الرياضة ، ليصبح نجما فى « البيسبول » ، والملاكمة .

وهو يبرز فى الغناء ، حتى يصبح الها ومعبود الجماهير .. وصيدا للاعلانات ..

وكل هذه الفنون « اقتحام » من النوع العنيف .. الذى يفرض نفسه بلا منازع .

ولكن الزنوج بدأوا يستخدمون وسائل الضغط والعناد ، والغضب على البيض ... وقد تجمعت لهم الآن قوة اقتصادية لا بأس بها ... وعدد وفير من الذين يأكلون ، ولو اقفلوا أفواههم يوما واحدا ، لاقفلت عشرات المحلات التى ترفض استقبالهم ! .

وهذه القوة « السلبية » تصبح لضخامة العدد ، وشدة التضامن قوة ايجابية

ولقد تذكرت مقاومة غاندى ، التى كانوا يلقبونها بالمقاومة السلبية ، وهى فى الحق مقاومة ايجابية ، لانها فعالة وشديدة الاثر .

وقد اكتشف غاندى ــ بعبقريته ــ ان الرأسمالية الانجليزية الضخمة عمادها الآلة ، والانسان المطحون ، فماذا لو اخترع غاندى مغزلا .. ليهدم به هذه الآلة العملاق .

وفى الهند يتجمع مائة ألف أو مائتا ألف ليسمعوا خطيبا ، أو ناصحا .

وهذا « الزحام » الطبيعى كان يعطى المقاومة «السلبية» طابعا ايجابيا .

فقد كان يكفى أن يقول غاندى :

ــ أجلسوا على قضبان السكك الحديدية فى وجه القطار

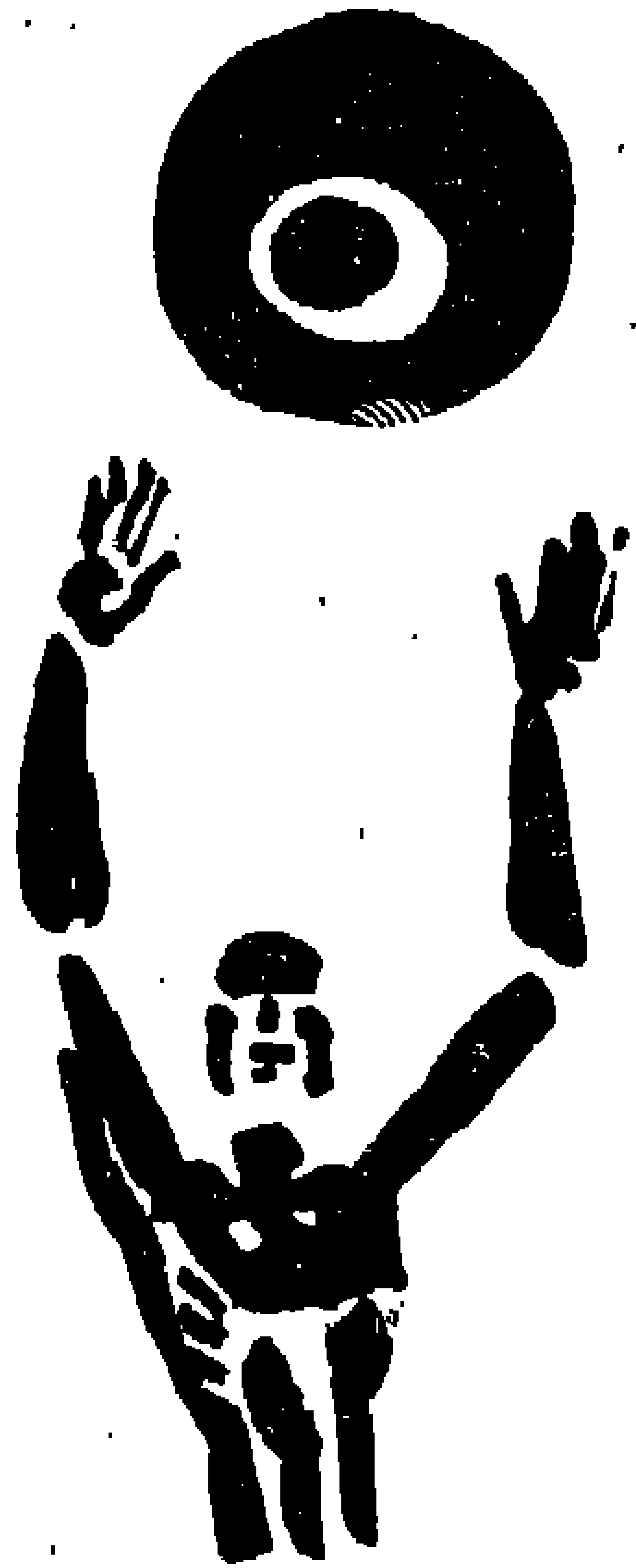
الانجليزى الذى يحمل السلاح ، حتى تغطى الطرق بالبشر فوق البشر . ولا يستطيع القطار الحراك !

وقد بدأ الزنوج يكتشفون فكرة المقاومة السلبية ، فلم يعد يكفيهم الانين والشكوى والابتهال

وانك لتجد دليل ذلك فى أدبهم الذى أصبح احتجاجا وغيظا .. بعـــد ان كان هزيمة وحنـــانا .. وبكائيات

نيويورك ـ انديانا ـ اتلانتـــا ١٩٦٢

الشمس النحاسية



عدت من أمريكا بجرح فظيع .

فاجعة . حزن عميق ، صامت . فقد طال فيه الكلام .

وقد ذهبت الى أمريكا ، قادما من الشرق . ولم تكن رحلتى لامريكا هى أول رحلة فى حياتى .

فأول رحلة كانت الى الهند . وفيها فقدت عــذرية المسافر !

وللمسافر أول مرة عين جديدة تندهش لكل شيء .

وحين ذهبت الى فرنسا ، لم تكن هذه الدهشة هى التى أحسست بها ، وكأننى فقدت تلك البراءة الاولى .

فالسفر الاول كالحب الاول .

ثم تقلبت بين بلاد العالم العديدة . لاننى أحب السفر دائما . و « أظن » اننى أحب الناس جميعا .

وقد قاسيت فى حياتى عذاب الوحــدة — ولذلك فاننى أعشق الحوار والحديث مع الاخرين . وقد يكون هــذا تعويضا .

ولهذا أحب الرحلات والاسفار .

ولكننى كنت أسأل نفسى دائما ! لماذا أحب السفر ؟

هل لاننى أحب أن اقطع أوصال ما يستقر فى نفسى من عادات ، ومن علاقات ؟ بحثا عن الجديد !

هل لاننى لا أطيق الحب المستديم ، والرابطة الخانقة

وهل فى هذا شذوذ ؟ .. وجنوح ؟

هل هو القلق المستبد أم الشوق دائما الى جديد ! ..

هل هى رغبة فى أن أحب ، وأن أبتعد ، ثم أحب، وأن أعود .

لون من اللعب بالفراق .

وقد يكون البعد غنيمة ولكنه عذاب

وكثيرا ما غصت فى نفسى ، أسافر فيها الى الداخل ، وكثيرا ما حملت نفسى الى السفر ، فيصيب ما يشبه شفاء غلة العطش .

وأصبحت أتذوق الاسفار .

واكتسبت مرانا . حتى أصبحت أستطيع أن أتصور ــ تقريبا ــ البلد قبل أن أصل اليه .

ففى كل مدينة فى العالم ، أحياء قديمة ، وأحيــــاء جديدة . وكثيرا ما ينتخب الاغنيـــاء أنظف الاماكن ، وأصحها ، وأشمسها ، وأهواها . ولم أجد استثناء واحدا بين الشرق والغرب . فالاغنياء يسورون بيوتهم ، ويفتحون نوافذها على الشرق والشمال ، للشمس والهــواء . ويزرعون الحدائق ، ويفرشون المداخل بالطنافس ، وقد يعوى كلب للحراسة على الضيف الغريب .

وفى كل مدينة أيضا أحياء فقيرة ، وحوارى ضيقة ، وبيوت متداعية ، وزحام شديد ، وأطفال عديدون .

نفس القصة .

والكنيسة كذلك . تختار موقعا سيكلوجيا هائلا ، على الدوام .

المكان المرتفع .

فلا تجد ذروة جبل ، أو قمة تل ، الا وعليها بناء دينى

ومحطة السكة الحديد .. وسط المدينة . حولها الشوارع العتيقة ، بلا استثناء . والفنادق الرخيصة ، والبيوت القديمة ، وأحيانا المطاعم القذرة .

وقد يكون هذا ، لان المحطة تعتبر من أقدم المبانى فى أى مدينة .

حتى لو جددوا مظاهرها ، وطلوا مبانيها الخارجية .

والسوق ، الى جوار المحطة ، أو فى وسط المدينة .

وأروع الاسواق هو سوق الخضار فى الفجر . رائحة فياحة . ونشاط نظيف . والذين يتعاملون مع الصبح المبكر لهم اخلاق وكلهم لا يختلف من مدينة الى أخرى .

رجال ونساء وصبية الفجر والصباح المبكر .

وكثيرا ما تمتعت بالتجوال ـ بلا برنامج ـ فى المدن اقف عند منظر غير مألوف .

عند تمثال قديم . أحدث المثال دون أن أقابله . اذرع حديقة عامة ، فأحب الاماكن الى هذه الاماكن العامة التى لا يقفل فيها باب الدخول ، ولا باب الخروج .

وكثيرا ما يدور حوار صامت بينى وبين مبنى قديم ،

او كوبرى صغير ، او رصيف طويل .

واصبحت لا ارى المدن ببيوتها وعماراتها .

ولكننى أحس ان للعمارات وفن العمـــارة تاريخـــا وشخصية وكلاما .

.. واستمع الى كلمات الحجارة .

« صوت الصمت » كما يقول أندريه مالرو .

وكثيرا ما يمر فى ذهنى هذا الخاطر الغريب ــ وهــو ليس بالغريب تماما :

ــ يمر الناس وتبقى الحجارة .

وهنا ينكسر قلبى ، كما ينكسر رغيف جاف .

لكنها هى الحياة . تأخذها او تدعها .

لــكن اطيافا من سذاجة الطفل ــ لا زالت راسبة فى قلبى ــ تطوف فى ذهنى وتلح

ــ نعم يمر الناس ، وتبقى الحجارة

وكثيرا ما وقفت عند تفصيل دقيق مما أراه . فاذا به يكبر فى ذهنى ، كأننى ألقيت حجرا فى جوفى . فتنـــداح ذكريات وخواطر .. وأطياف أحزان .

فقد تعلمت من الاسفار درسا .

ان الظواهر تخدع البصر والقلب .

ووراء كل الاحجـــــار والمباني والخضرة والمياه هناك البشر .

ولكل انسان قصة وحكاية .

لو كتبناها لخرج الادب عن كل ما نعرفه عن الادب .

ففى الناس اقاصيص طويلة ، وحـــكايات كالليـــالى

المتوالية المتعاقبة . وكل قلب فيه أحراش وأعشـــــاب متشـابكة .

وأصبحت بعد حين ، لا أعبأ بالميدان والحجر والمبنى .

فهناك البشر على الدوام ..

قد يطربنى طفل يتلوى قصدا فى مشيته ، أو صغيرة فى ضفيرة ، او عجوز على عصا ، أو رائعـــة الحسن تمشى على الارض كالأثير طربا وخيلاء ، وبدأت أبحث عن الايدى الخشنة أو الايدى المعروقة .. والايدى الملوثة بالطـــلاء والزيت والشحوم وطين الزرع ودهان الحيطان

نعم ...

فالحياة هى البشر

وليست شيئا سواهم ..

وهكذا تمنيت أن أعرف الناس على طبيعتهم ، وسجيتهم، سيان عندى اللهو أو العبادة ، فيهما صورة الإنسان .

وكم وقفت أطل على المدن ، فلا أرى على البعـــد الا بصيصا من النور ، خافتا يكاد يخنقه أو يزيحه الظلام . وكم تخيلت أن حول هذا الضوء أيضا بشر يعيشون

لهم أحلام وأحزان ومشاريع وثرثرات وهبات وغضبات وحماقات ..

وكثيرا ما ترفقت فى الحكم على الناس أو تبـــاطأت فى القستوة عليهم ..

لا أريد أن أدوس هذا الضوء البسيط بالاقدام ، فقـــد يكون حول هذا البصيص الصغير بشر . اناس وأطفــــال ونساء وفتيات وحصوة ملح وجرعة ماء .

حياة ما يسمونهم « صغار الناس » .

وهكذا لم أكن أتصور انني سأكتب كتابا عن أمريكا يدور حول الكراهية والاضطهاد ٠

لكنى لم أستطع أن أترك القلم ٠ أو أن أسكت ٠

فعلى البعد ، ومن وراء هذه الناطحات الضخمة المتلألئة الانوار ، ومن وراء هذه المكاتب العصرية الانيقة ، وتلك القصور الهائلة ، كانت تلوح لى كلما أطللت من غرفة فندقى أضواء صغيرة مختنقة ٠

فى احشاء المدينة ، وقاعها ، وحول هذه الاضواء القليلة هناك أيضا بشر ٠ لهم قضية لا أستطيع نسيانها ٠

جرح وسكين ٠

وخرجت من أمريكا بهذا القلق ٠ ولم أعبأ كثيرا بتلك الارقام التى يغالون فى بيانها واذاعتها ، وأصبحت لا أذكر عن أمريكا وراء الصورة المضيئة والفاتنة ، واللعوب ، واللامعة ، سوى هذه البقعة العريضة السوداء التى تمتد من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال ٠

. . . .

واصبحت قضية الزنوج من قضايا عمرى ، ولم أحس أنها قضية تبعد آلاف الكيلومترات ويفصلنا عنها محيط وبحار ومرافىء ٠

وحين استطعت بعد سنوات زيارة داكار ، عاصمة السنغال ، قالوا لى :

ـ هل زرت جزيرة جورى ٠ انها لا تبعد غير ربع ساعة باللنش ؟

وفى الجزيرة ، المهجورة من غير زيارات السياح فى

الصباح ، والتى لم يعد يسكنها من البشر سوى بعض الصيادين ، سرت فى حواريها الضيقة الرائعة ، التى تظللها أشجار استوائية ضخمة ، وتصبغها ألوان أفريقية حمراء دافئة ، وقذفنى التراجمة ـ المتطوعون من الاطفال والشحاذين ـ الى السجن •

ففى هذه الجزيرة ـ الرائعة الجو ـ اللطيفة النسيم ، الصافية السماء ، كانوا ينقلون الزنوج ، ويسجنونهم أياما فى سجن منحوت فى صخرة ضخمة ، تطل على المحيط مباشرة •

وفى هذا السجن ، وفى الغرف الصغيرة المظلمة ، كان العبيد يربطون بالسلاسل أسابيع ينتظرون رسو السفن، وبدء الرحلة المضنية عبر المحيط ، حتى يصلوا الى الشاطىء الامريكى •

فاذا كانت أمريكا بالنسبة للرجل الابيض حلما ، أخذ يداعب كل من لفظتهم ثورات ومجاعات أوربا ، فان أمريكا كانت هى الوحل الذى هوى فيه الرجل الاسود •

مكبلا بالسلاسل ، ومحشورا فى السفن الشراعية ، منقولا الى أرض جديدة لا يعرفها ، محكوما عليه بالعبودية•

وقد كانت أمريكا حلما • ولهذا أقاموا تمثال الحرية الواضح الملامح ، الواسع العيون ، الرافع اليد اليمنى • حلم كانوا يرونه وعيونهم مفتوحة •

فهذا والت وايتمان ، شاعرهم العظيم ، يتغنى بأرض الخيرات ، والقمح الوفير والشلالات والصحراوات ، والجليد والرمال ، وعيدهم الاهم هو عيد الشكر على هذه النعمة التى أصابوها أو صنعوها •

وحتى فرانز كافكا ، هــــذا الاوربى ، الذى يمثل فى أقاصيصه عقدة الاضطهاد والنفى ـ الى الداخل ـ والقلق المتوتر المشدود ، كتب قصة ـ لم يكملها ـ عن أمريكا . كأنها حلم يطوف بكل الاوربيين •

من ضاقت بهم حوارى ميلانو ، أو ضواحى فيينا ، أو قرى أيرلنده ، أو شواطىء فرنسا ، أو مدن ألمانيا كانوا يشدون رحالهم الى هذه الارض الجديدة •

فكيف بهؤلاء الزنوج ينقلون من بلادهم ـ فى تجـارة عالمية محكمة الروابط ـ الى جزر الكاريبى فى البداية ، ثم ينقلون بعد ذلك أفواجا الى أمريكا ، وتصبح تجارة العبيد أربح تجارة فى ذلك القرن •

واتضحت لى حقيقة أمريكا من جذورها •

ان أول زنجى وصل الى أمريكا عن طريق أوربا • وكان الاسبان والبرتغاليون ـ الذين وصلوا الى ساحل غينيا ـ هم أنشط التجار وأقساهم • ودخلت تجارة العبيد ضمن قائمة التجارة الاوربية • وفى فجر القرن السادس عشر ، بل فى السنة الاولى ، قررت أسبانيا السماح بنقل العبيد الى أمريكا •

وكانت الثروات الهائلة ـ البكر ـ فى أمريكا تحتـاج الى طاقة هائلة من العمـــل • وحاول الاوربيـــون فرض العبودية على الهنود ، سكان أمريكا الاصلية ، ولم ينجحوا، فجاءت تجارة العبيد ، ونقلهم بالسلاسل عبر المحيـط • وتكونت الشركات الهولندية والفرنسية والبلجيكية لبيع البشر • ثم تنافس الانجليز مع الاسبان • وكانت الحرب على المستعمرات ، والعبيــد . ثم تنافس الانجليز مع الاسبان والهولنديين ، وفاز الانجليز بحق احتكار تجـارة

العبيد ونقلهم الى أمريكا ٠

وفى ظل هذا الاحتكار جنت بريطانيا ثروات طائلة ، لانها أنشأت مراكز عديدة فى أفريقيا لهذه التجارة ٠

ويقول أحد التجار فى كتاب قديم كان العبيد يفضلون الهرب من « السفينة السجن » ويغوصوا تحت الماء ، فيموتوا ، أو يأكلهم سمك القرش ٠ وكان العبد يربط بالعبد ٠ وكانوا يسمون الرحلة « العبوة » ٠ وكانوا يحشرون فى قاع السفينة ، فلا يستطيعون الحركة طوال الرحلة ٠ واستخدموا العبيد فى زراعة الدخان فى البحر الكاريبى ٠ ثم جاء القطن ، فكان كارثة على الزنوج ٠ لانه يحتاج الى عمل مستمر وحشد كبير ٠

وبدأت الحشود ترسل الى فرجينيا ، ثم ماريلاند ، ثم كارولينا ، وجورجيا ٠

. . . .

وليس صحيحا أن الزنوج رضوا بالعبودية ، أو كانوا ، كما تصورهم أفلام البيض ودعاياتهم يمثلون الرضا الساذج ، ففى بداية تاريخهم صفحات مهجورة أو مجهولة من المقاومة ٠٠

مؤامرة كاتو فى ريف شارلستون ١٧٣٩ ، أقلقت البيض ، وأضرمت النيران ، وانتهت الى تقوية القوانين المعادية للعبيد ٠

نيويورك ١٧٤٠ تشتعل بالثورة ٠ ثمانية عشرة يعدمون شنقا ٠ وثلاثون يموتون حرقا ٠

والعجيب أن صفحات الزنوج تسجل أبشع الحقائق عن الانجليز ، ومع ذلك ، فهم يروجون فى أفريقيا وآسيا انهم هم الذين تزعموا حركة تحرير العبيد ، وكانوا يحاربون العرب من أجل ذلك الهدف الانسانى النبيل !

وكان الانجليز أنشط الاجناس فى تدعيم وتوسيع العبودية ٠

وكانوا أنشط الاوربيين فى التجارة والاستعمار وبيع العبيد ٠

ولم يعرض الانجليز على العبيد فكرة تحريرهم ، الا أثناء الثورة الامريكية ٠

أرادوا أن يستميلوهم الى جانب انجلترا ، ورفض الجنرال واشنجطون ـ فى السنة الاولى ـ تطوعهم فى الثورة ولكنه اضطر أخيرا الى قبولهم كمحاربين وبحارة

ولا تسجل سجلات الثورة اسم أى زنجى ، فلم يكن يذكر الاسم ، وكان يكتفى بالقول : متطوع زنجى ، أو زنجى مجهول ٠

وحين بدأت أول ثورة ديمقراطية فى أمريكا ، بمناسبة دستور الاستقلال ، ١٧٨٧ ، علت الاصوات ضد فكرة تحرير العبيد ٠

وظلوا بلا أسماء أو حرية أو كيان ٠

حتى بعد أن تطورت أمريكا تطورات هائلة ٠

التجارة تتسع ، وأمريكا تشترى لويزيانا ١٨٠٣ ، والامريكيون يهاجرون اليها،ولكنهم يحملون معهم العبيد، وحتى فى حرب ١٨١٢ ، كان الزنوج يحاربون ، أملا فى الفوز فى النهاية بالحرية ٠ ولكن الحرب تنتهى والعبودية تبقى

الانتقال والتعمير فى كل مكان ٠

ممالك القطن تعم أمريكا ، والعبيد باقون ٠

وعلى الرغم من اقفال سوق العبيد فى أفريقيا رسميا

فى عام ١٨٠٨ ، الا أن التجارة السرية وتهريب العبيد ظلا يمولان حقول القطن الشاسعة .

وظلت أمريكا تضع القوانين تلو القوانين ، تمنع العبيد من رفع القضايا ، أو حلف اليمين ، أو عقد الزواج ، وتعتبر أولادهم غير شرعيين — لان القانون لايعترف لهم بحق الزواج — ويمنع الزنجى من أن يضرب أبيضا ، حتى فى حالة الدفاع الشرعى ، وانتهاك شرف زنجية يعتبر عدوانا ، على مالكها الابيض ، لا على الانسانة التى أصابتها الجريمة !

وقائمة التحريم عجيبة وشاذة .

ممنوع تعليم القراءة والكتابة .

ممنوع سير أو تجمع أكثر من سبعة أشخاص من السود ، دون ان يصحبهم سيد أبيض مسلح .

ممنوع التجول بين مساء السبت وصباح الاثنين .

ممنوع الانتقال من مزرعة السيد ، الا باذن كتابى .

الممنوعات على السود ، والحرية للبيض .

والشيء الوحيد الذى حرم منه البيض — وهذا نص صريح فى القانون — هو تحرير العبيد ، حتى لو انتقلوا الى الديانة المسيحية !

وبدأت الاغانى الحزينة ، والشجاعة ، وبدأت حركات العصيان ، والاحراق ودس السم — أحيانا — وأصبحت مشكلة هرب العبيد « أهم » مشكلة يعانيها الاقتصاد الامريكى . حتى أن زنجية فى كارولينا الشمالية هربت ١٨ مرة ، وكانت تعاد دائما الى ضيعة المالك الابيض .

. . . .

وحين أصدر لنكولن نداء يطلب المتطوعين فى الحرب الاهلية ، تقدم الالاف من الزنوج •

ولكنه رفض هذا التطوع بضغط من جنرالات الاتحاد ومن الكونجرس •

وقال لنكولن انه يخشى قبول الزنوج ، فيرفض البيض القتال فى صفهم ، حتى فى سبيل قضية واحدة •

وبدأ تحرير العبيد ، لاول مرة فى أمريكا ، كعقاب ، للمالك الابيض الخائن •

يعاقب بتحرير عبيده !

وفكر لنكولن فى ارسال الزنوج الى خارج أمريكا : الى أفريقيا أو البحر الكاريبى •

ثم فكر فى تعويض الملاك البيض عن تحرير عبيدهم •

وفى السنة الثانية من الحرب ، رأى لنكولن أن تحرير العبيد سيساعد على انهاء الحرب بسرعة • وعرض قرار تحرير العبيد على مجلس الوزراء ، فعارضه المجلس ،وقرر الانتظار •

وبعد عام آخر ، أصدر قراره بأن العبيد الذين لا يزالون ثائرين على ملاكهم البيض المعارضين للوحدة الامريكيين يكون لهم الحق فى الحرية •

وفى قرار التحرير الاخير ، دعا الزنوج الى التطوع لانهاء الحرب •

ومات ٣٨٫٠٠٠ زنجى فى سبيل الوحدة الامريكية ،أى ما يزيد ٤٠ فى المائة على عدد البيض الذين ماتوا فى سبيل هذه القضية الامريكية الكبرى !

ورغم ذلك العرق فى الحقول ، والدم فى الميادين فى حرب

الاستقلال والثورة ، والموت فى حرب الوحدة ، ظهـــرت جماعة الكوكلوس كلات ـ لاول مرة فى عام ١٨٦٧ ، تعارض تحرير العبيد بالقتل والارهاب

ونزح الآلاف من الزنوج من الجنوب الى الشمال

. . . .

وبدلا من أن تحل المشكلة تفاقمت أخطارها

فقد نزح الزنوج من الريف الجنوبى ، الى المدن الشمالية، وبدأت معارك الضواحى فى المدن الصناعية

ومن هنا نشأت احياء السود فى كل المدن

على الاطراف القاصية ، وعلى الحدود ـ الشائكة ، وبين الفريقين حرب لا تخمد من الكراهية

وأصبح فصل البيض عن السود هواية كل المشرعين الامريكيين

حصار السود بالقوانين . واقفال المســاكن والمدارس والمستشفيات والاماكن العامة فى وجه الزنوج .

وكان أعقـــل الامريكيين البيض ، وأكثرهم سماحة يقولون :

ـ اذا أرادوا المساواة ، فليبتعدوا وينفصلوا عن البيض فى أحياء مقفلة وخاصة .

وظهرت هارلم فى نيويورك ، وهارلم فى كل المدن الامريكية

وكما يقول أحد الممثلين الزنوج :

ـ المشكلة ليست فى أن المؤلفين البيض يختارون للسود أدوارا محددة بالذات . ولكن المشكلة أصعب من ذلك .

لانهم يختارون طريقة « رد الفعل » التى على الممثل أن يؤديها

انهم يرسمون دور الزنجى ، وكذلك رد فعله أمام الممثل الابيض

وهكذا أصبحت المشكلة امام الزنوج ليست فى انعدام المساواة ، وانكار الحقوق ، بل فى أن البيض يرسمون كذلك طريقة ردود الافعال التى « يختارها » الزنجى . فالزنوج يحتجون بلا شك على انعدام المساواة

لكنهم اذا أرادوا أن يحتجوا ، فعليهم أن يحتجوا فى طريق محدد مرسوم ، هو السعى أمام المحاكم العليا ، أو المقاومة السلبية ، أو الدعوة الى التطور البطىء والتدريجى

أى أن البيض يفرضون الظلم ويفرضون وسيلةلاحتجاج على الظلم أيضا

وهذا هو أخطر ما فى قصة الزنوج

وهكذا بعد أن سارت احتجاجات الزنوج فى طـــريق الثورة والعصيان ، بدأت احتجاجاتهم تسير فى الطريق الذى رسمته لهم البيض

الطريق الديمقــراطى ، أو الســلبى ، أو الاحتجــاج بالاشعار والاغانى

وكان أعظم زنجيين فى تاريخ الزنوج ، هما دى بوا ، أعظم عقلية زنجية ، انتهت فى النهاية الى الحياة فى غانا ، واكتساب الجنسية الغانية ، ودى بوا هو أستاذ نكرومه وازيكوى وغيرهما من زعماء افريقيا

ثم جارفى الذى كان يدعو الى عودة الزنوج الى أفريقيا وليتركوا هذه القارة الأمريكية بخيراتها وبيضها وذنوبها

. . . .

وقد تأكد لى من زيارتى لأمريكا أن قضية تحرير ومساواة الزنوج تلقى من العنف ما يدعو الى التشاؤم .

واستطيع أن أؤكد أن المجتمع الامريكى يخلو من التراث الثورى ـ الذى يقبل فكرة المساواة ويناضل لتحقيقها

فعلى الرغم من السيئات والفظاعات التى ارتكبتها الرأسمالية الفرنسية ، فقد لمست بنفسى أن التقاليد الجمهورية فى داخل فرنسا ، قد رسبت فى ضمير الفرنسى العادى ـ حتى أن هذا المواطن يقبل المساواة بين الاجناس كأمر طبيعى

، المساواة واحترام الحضارات واحترام الجهد الانسانى ليس شيئا تنص عليه الدساتير

انما هو احساس حضارى يتعمق حتى يصل تحت الجلد كما يقولون ، ولابد أن يتنفسه المواطن حتى يصبح أمرا عاديا ، بلا تعكفا او تفضل

ولابد أن يسقط حاجز اللون ، وحواجز التفرقة عموما ، وهذه قيمة حضارية عالية ، أظن أن المجتمع الامريكى ـ بتطوره الراسمالى ، وقيمه ومثالياته لايهضمها بسهولة

ولست أظن ان المساواة بين المواطنين شىء تنص عليه الدساتير ، فيصبح حقيقة . لان المساواة لابد أن تكون امرا طبيعيا ، لانها أمر طبيعى

وبمعنى آخر ، فان المجتمع الامريكى الذى يقوم على التفرقة الاجتماعية ـ كأساس حضارى يقدسونه باسم الفردية والحوافز والتقدم ، لا يمكن أن يهضم التنازل عن تفرقة اللون

فالذى يهضم تفرقة اللون ، انما يمهد لتفرقة الثروة ، وتفرقة الحظوظ والاقدار . وهذا الذى يدافع عن حدود

الالوان ، انما يدافع أو يمهد للدفاع عن فوارق الثروات وتفاوت الخطوط فى الحياة

وحتى الآن ، فان الذى يرسب فى المجتمع الامريكى الرأسمالى ــ تاريخيا ــ هو أن حل مشكلة الزنوج انما يأتى بالابعاد والاقصاء الى أفريقيا مثلا

وهو ليس حلا يهضم المساواة فى داخل أمريكا وانما يتقبل المساواة على أن تكون بعيدة عن حدود هذه القارة

والذى رسب فى المجتمع الامريكى ، هو أن اشتراك العبيد فى ثورة الاستقلال ، أو حرب الوحدة لا يشفع لهم المطالبة بالمساواة

فاذا ما تقررت المساواة فى الدستور الاتحادى ، قامت الكوكلوكس كلان ، بالارهاب لمنع تطبيق القوانين

واذا ما سألت أمريكيا عاديا عن هذه الجماعات الارهابية ، وجدته يوافق على وجودها ، ضمنا ، لانه يتصور أن هذا الارهاب هو الذى يحمى البيض من التطرف فى المساواة !

وهذه هى نفس الفكرة التى تجعلهم يؤمنون ان البطالة هى الضمان للنظام الاقتصادى ، ليكون صحيح البدن قويا

والامريكى العادى يؤمن بفكرة التوازن ، ولذلك فهو يقيم نظاما متطرفا خوفا من التطرف

وهذا هو أخطر ما وصل اليه المواطن العادى فى امريكا

ان يقلب الاوضاع ، فيتصور أن التفرقة العنصرية هى شىء طبيعى ، لا مدعاة للاحتجاج عليها ، واذا كان لابد من الاحتجاج ، فليكن احتجاجا هادئا ، وتطورا بطيئا « على الطريقة الامريكية »

وهذا هو الذى جعل القضية تطول كل هذا الوقت ،
ولا تجد حلا

وهذا هو الذى جعل القضية تتفاقم

وقد جرب الزنوج كل شيء للاحتجاج الهادىء ، فلـم ينجحوا

وهم يجربون الآن الاحتجاج الصارخ واستخدام العنف

لان من يزرع الاضطهاد يحصد الثورة

وكل ثورة ـ كما يقولون ـ هى اصلاح مؤجل

وثورة الزنوج تهز أمريكا من الساحل الى الساحل ،
ومن مزارع الجنوب الى هارلم

وليست هذه سوى بداية النهاية

فأنصار التفرقة يستطيعون فرض البـداية ، ولكنهم لا يستطيعون فرض النهاية لمأساة قديمة ، تتجدد كل صباح .. وتنزف دما متواصلا لا ينقطع !

القاهرة ١٩٦٧

كتب أخرى لكامل زهيرى

لمحات عن كافكا مع آخرين ١٩٥٤

بدلا من الخوف لانورين بيفان ١٩٥٦

جميلة مع آخرين ١٩٥٨

مذاهب غريبة ١٩٥٨

الدولة فى النظرية والتطبيق لهارولدلاسكى ١٩٥٨ و ١٩٦٤

تحت الطبـــــع

منازعات فى الاشتراكية والديمقراطية

فهرس

دار الهلال تقدم : لاحسان عبد القدوس

- البنـات والصيف
- لا انام
- فى بيتنا رجل
- النظارة السوداء
- اين عمرى ؟
- الطريق المسدود
- انا حرة
- شفتاه
- شىء فى صدرى
- بئر الحرمان
- منتهى الحب

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد – ص .ب ٢١

انجلترا :

ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافوره :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Maktab Attijari Assharg
P.O. Box 2205
SINGAPORE

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
S. 25 de Marco, 994,
Caixa Postal 7406,
Soa Paulo. BRAZIL



هذا الكتاب

بعد اكثر من مائة عام من اعلان ابراهام لنكولن تحرير العبيد ، لايزال الزنوج فى امريكا يلاقون الوان الاضطهاد والتفرقة . وقصة الزنوج تكشف الفارق بين الديموقراطية النظرية ، وبين الحقيقة المريرة

وهذا الكتاب هو أول كتاب يصدر بالعربية لرحلة قام بها المؤلف فى امريكا ، واقام فيها بين الزنوج

ان المجتمع الامريكى الذى يقوم على التفرقة العنصرية هو الذى يساعد اسرائيل التى تقوم على التفرقة العنصرية ، وسيادة الجنس الابيض

وفى هذا الكتاب تفسير لما رآه الكاتب وسجله بأمانة لمشكلة من اخطر مشاكل العصر ، وسؤال من اخطر الاسئلة :

ـ ما هى حقيقة أمريكا ؟ !

١٠
قروش

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

دراسات في النظم والمذاهب

دكتور لويس عوض

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيرى

العدد ١٩٩ رجب ١٣٨٧ أكتوبر ١٩٦٧

No. 199 — Octobre 1967

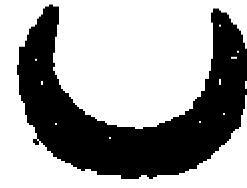
مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج . ع . م . والاسعار الموضحة أعلا بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة .



كتاب الهلال

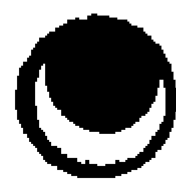


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنان حلمي التوني

دكتور لويس عوض

دراسات في النظم والمذاهب



دار الهلال

الطبعة الثانية
١٩٦٧

تصدير

هذه طائفة من الابحاث نشرت عامتهـا فى جريدة « الشعب » وقلتها القليلة فى جريدة « الجمهورية » ، ويلاحظ فيها أمران : أولهما ان بينها وحدة موضوعية من حيث انها جميعا تتناول النظم والمذاهب الاجتماعية والسياسية فى جذورها النظرية ، وثانيهما انها جميعا تتناول فكر « اليسار » الاوروبى منذ عصر الثـورة الفرنسية الى اليوم ، فتبدأ بمقدمات الفكر البورجوازى الثورى الذى مهد للثورة الفرنسـية وتنتهى بالفـكر البورجوازى الثـورى الذى واجه الثورة الروسية . بعبارة أخرى ، تتناول هذه الابحاث الفكر اليسارى غير الشيوعي أو اليسار الخـارج عن اطار الاشتراكيـة الماركسية .

والمتأمل فى هذه الابحاث يستطيع أن يرى بوضوح ان الفكر البورجوازى لم يكن فقط تقدميا أيام صراعه مع قيم الاقطاع فى القرن الثامن عشر ، ولكنه حافظ باستمرار على تقدميته حتى فىمواجهة القيم الاشتراكية الجديدة التى جاءت بها حضارة الطبقة العاملة ، فليس هناك من يستطيع أن يزعم أن هارولد لاسكى أو برتراند رسل أو جان بول سارتر أقل تقدمية فى القرن العشرين

من ديدرو وفولتير وروسو فى القرن الثامن عشر بغض النظر عن وزن كل فيلسوف من هؤلاء الفلاسفة . والسر فى نضارة الفكر البورجوازى « اليسارى » هو اهتمامه الدائم بمشكلة الانسان من حيث هو انسان ، لا من حيث هو كائن طبقى ، مما جعله يدرك المتناقضات الجديدة فى نمو الحضارة الحديثة ويضعها موضع الاعتبار. فاذا كان الفكر البورجوازى اليمينى قد غدا فى أيامنا هذه قوة تخلفية تشد المجتمع الى الوراء ، واذا كان الفكر البورجوازى المعتدل فكرا مبلبلا مذبذبا يتأرجح بين قيم الجمود وقيم الحركة بحيث يؤدى الى الانتهازية الفكرية بين المثقفين ، فان الفكر البورجوازى اليسارى لا يزال فكرا ثوريا خلاقا يتطور مع تطور المجتمع ويتفتح لآلام الانسانية وآمالها . فان دل هذا على شيء فهو ان كل فكر يلتزم بالانسان من حيث هو انسان لن يكون فكرا تخلفيا مهما جادلنا فى صحة نتائجه . فالمقدمات السليمة شرط جوهرى لبلوغ النتائج السليمة . وان لم تكن وحدها الضمان الكافى لبلوغ النتائج السليمة. والمقدمات الفاسدة أو الناقصة لا يمكن أن تؤدى الى النتائج السليمة مهما كان منهج التفكير سليما

والنظم والمذاهب التى يتناولها هذا الكتاب ليست كل ما هنالك من نظم ومذاهب ابتكرها الفكر البورجوازى الثورى أو التقدمي. فهناك عشرات من المفكرين وعشرات من المذاهب بعضها نابع من الفكر الليبرالى وبعضها نابع من الفكر الاشتراكى وبعضها مزيج من الليبرالية والاشتراكية ، وهى لكثرتها تحتاج الى مجلد آخر من هذه الدراسات فى النظم والمذاهب ، بل وربما احتاجت الى مزيد

لويس عوض

ديدرو

— ١ —

فى ١٩١٣ اجتمع مجلس الشيوخ الفرنسي لينظر فى موضوع الاحتفال بذكرى مرور مائتى سنة على مولد الفرنسي العظيم ديدرو ، أحد «الفلاسفة» الذين مهدوا بالفكر والعلم للثورة الفرنسية . واقترح السياسى الراحل ، ادوار هريو ، رئيس الحزب الراديكالى ، وكان يومئذ أصغر الاعضاء سنا فى مجلس الشيوخ ، نقل رفاته الى البانتيون ، مقبرة الخالدين فى باريس . واستمع المجلس الى اقتراحه فى فتور ولم يأخذ به ، وأظهر الكاتب المحافظ موريس باريزعدم ارتياحه الى هذا القرار ، فوصف ديدرو بأنه ليس شخصية قومية ، وانما كان مجرد مفكر صاحب عبقرية ثورية فذة فى نسف كل المبادىء والعمد التى يستند اليها المجتمع

وهذا التعارض فى الرأى بين هريو الراديكالى ، أى المؤمن باصلاح المجتمع من جذوره ، وباريز المحافظ ، تعارض طبيعي : لان المحافظين لا يرون فى عمل ديدرو

ومعاصريه من أمثال فولتير وروسو الا جانبهم السلبى ، وهو تقويض دعائم المجتمع الارستقراطى القديم المحافظ، أما الفكر التقدمى فى كل زمان ومكان فيرى فيهم الى جانب ذلك جانبهم الايجابى ، وهو الدعوة لاقامة مجتمع جديد متطور

واسم ديدرو مقترن فى الاذهان بشيئين : فلسفة الشك التى كان من أكبر دعاتها ، والموسوعة ، أو دائرة المعارف ، فقد كان على رأس جماعة « الانسيكلوبيديين » أى كتاب الموسوعة ، وهى جماعة بالمعنى العرفى تألفت من فلاسفة فرنسا وعلمائها فى القرن الثامن عشر لوضع « انسيكلوبيديا » أو دائرة تكون مرجعا علميا نزيها فى مختلف العلوم والفنون والآداب . وكان هدفهم من وضع هذه الموسوعة هو اشاعة التنوير بوجه عام وتصفية معارف معاصريهم من الخزعبلات التى غرسها رجال الدين فى العقول ، وتدريب الناس على المنهج العلمى والعقلى فى التفكير والمعرفة ، حتى عرفت حركتهم بحركة التنوير ، بل عرف عصرهم كله بعصر التنوير. واشترك فى وضع هذه الموسوعة مع ديدرو فولتير وروسو وهولباخ وهلفتيوس ودالامبير وكوندياك وغيرهم من أفذاذ المفكرين والعلماء فى القرن الثامن عشر ، ولكن ديدرو كان عصبها الحى والمكافح وحده حتى أتمها بعد أن انفض عنه أكثرهم لأسباب مختلفة

ولم يكن فلاسفة الموسوعة وعلماؤها كلهم شيعة واحدة ، بل كانوا مدارس متناقضة فى الفكر والعقيدة ، وان اتفقت كلمتهم على تقويض دعائم المجتمع الارستقراطى الارهابى الفاسد، وتحطيم الروحانية الزائفة والخرافات الجاهلة التى كان رجال الكهنوت يباركونها وينشرونها

لتثبيت دعائم الاقطاع . ومثال ذلك أن لاميترى وهلفتيوس وهولباخ اشتطوا فى وضع أسس الفلسفة المادية ودعوا للالحاد دعوة صريحة ، وهو ما جزع له فولتير الذى كان يعتقد ، رغم مناهضته الجبارة لجهالات الكنيسة وتعصبها ، ان الالحاد لا يقل خطرا على المجتمع من الدين المزيف ، لأن الدين عنده من وسائل التنظيم الاجتماعى التى لا غناء عنها فى ضبط الرعاع ومن يدخل فى حكمهم . وهو أيضا ما جزع له روسو لأنه كان يعتقد ان المادية والالحاد يحطمان روح الانسان ويدمران أنبل عواطفه

أما موقف ديدرو فكان طابعه العام : الشك ، فهو فى هذا يشترك مع فولتير ، وهو القائل ان الشك سبيل الحقيقة واليقين. ولكن ديدرو الذى نشأ نشأة كاثوليكية جنح من العقيدة الكاثوليكية الى المذهب الالهى ، أو « الديزم » ، المتفشى يومئذ بين مثقفى أوروبا ، وهو المذهب القائل بأن الله موجود ، وبأنه خلق الكون ، ولكن صلته بالكون صلة صانع الساعات بساعة هائلة متقنة ، محكمة الاتقان ، صنعها منذ الازل وأدار لوالبها منذ الأزل ، وهى تدور وستدور الى الابد ، بحسب ما أودعه فيها من قوانين ورسمه لها من نظام . ولانها ساعة كاملة الاتقان ، فكل ما فيها متقن وصحيح ، وان بدا لنا غير ذلك أحيانا ، وهى لا تعطب أبدا ، وبالتالى فالله لا يصلحها أبدا ، ولا يتدخل فى الخليقة بين الحين والحين لتقويمها كما يظن الناس ، لأنها كاملة من كمال الله

ثم انتقل ديدرو من هذه الفلسفة « الالهية » الى الفلسفة المادية وظل يؤمن بالمذهب الطبيعى حتى مات سنة ١٧٨٤ عن واحد وسبعين عاما

ولد ديدرو فى ١٧١٣ لأب يتاجر فى أدوات الطعام ، وربى ديدرو فى حداثته عند الجزويت تربية دينية ، وأراد له والداه أن يكون قسيسا ، فحلق رأسه وهو فى الثانية عشرة من عمره لاعداده لسلك الكهنوت . وأظهر فى حداثته امتيازا فى الدراسة وميلا الى العنف معا ، ثم أدخله أبوه كلية داركور بباريس حيث تفوق ، ولكن أخذ عليه تغشيش التلاميذ فى تمرينات اللغة اللاتينية .

واستولى هوميروس وفرجيل وافلاطون ويوربيديس على مشاعره فكان لذلك أكبر الاثر فى تكوين عقليته . وكتب فى بحثه « وضع مشروع جامعة لمدينة بطرسبرج » انه ظل سنوات لا ينام قبل تلاوة هوميروس كما يتلو القسيس المواظب صلواته قبل النوم

وبعد أن أتم دراسته عجز عن الاستقرار فى مكتب محام بسبب نهمه العقلى الشديد الذى كان يدفعه للانتقال من دراسة الآداب الى دراسة العلوم الى دراسة اللغات . ثم تزوج حين بلغ الثلاثين وأنجب أربعا ماتوا الا واحدة . ولم يكن ديدرو سعيدا مع زوجته فيما يبدو لأنه اتخذ لنفسه عشيقة تدعى مدام بوزيو ، كانت كثيرة المطالب ، فأخذ يكتب كثيرا ليأتيها بالمال . وفى هذه الفترة بين ١٧٤٦ و ١٧٥١ كتب ديدرو أهم أعماله وهى « أفكار فلسفية » و « رسالة عن العميان وضعت للمبصرين » و « دور الطيش » الى جانب رسالتين تأخر نشرهما هما « نزهة الشكاك » و « كفاية الدين الطبيعى » .

وما أن ظهر كتابه الصغير « أفكار فلسفية » حتى قرر برلمان باريس مصادرته واحراقه ، لما ورد فيه من دفاع عن حياة العاطفة وتهجم على الزهد وتمجيد للعلم

القائم على الميكرسكوب والتلسكوب وتشنيع على الفلسفة الغيبية والتأمل النظرى وانكار للوحى والمعجزات ودعوة لمذهب الشك . وفى ١٧٤٩ قبض على ديدرو وأودع سجن فانسين حيث قضى ستة أسابيع بسبب « كتاب العميان »

ولكن أهم من هذا كله أن ديدرو كان فى هذه الفترة يعد العدة لاصدار « الموسوعة » العظيمة ، فقد أراد صاحب مكتبة اسمه ليبريتون أن يصدر ترجمة فرنسية لاول دائرة معارف ظهرت بالانجليزية سنة ١٧٢٨ فى مجلدين ، وهى الموسوعة التي وضعها افرايم تشيمبرز . ثم عدل هذا الناشر عن فكرة الترجمة واتفق مع ديدرو على اصدار موسوعة فرنسية باسم : « الانسيكلوبيديا أو القاموس التحليلى للعلوم والفنون والصناعات » ، بالاشتراك مع العالم الرياضى دالامبير وغيره من العلماء والمفكرين

وصدر المجلد الاول من « الموسوعة » فى ١٧٥١ فاهتزت له الاوساط الفكرية ، وفى العام التالى صدر الجزء الثانى ، ولكن الجزءين معا صودرا ، لاشتراك قسيس يدعى دى براد كان من أصدقاء « فلاسفة » التنوير فى كتابة بعض مواد الموسوعة ، وكان هذا القسيس قد أعلن كبير أساقفة باريس هرطقته بسبب رسالة دكتوراه وضعها عدت خارجة على الدين ، وقيل ان ديدرو عاونه فيها . ولكن أمر المصادرة لم ينص على منع الاستمرار فى اصدار الموسوعة فاستمر العمل فيها ، ورفع الكونت ارجنسون أمر المصادرة ، وبعد قليل وجدت الحكومة نفسها فى موقف محرج ، فقد اضطرت الى رجاء ديدرو ودالامبير ان يستمرا فى اصدار الموسوعة

وثارت عاصفة أخرى عند صدور المجلد السابع فى ١٧٥٨ الذى احتج عليه الاساقفة ، وتخلى روسو عن الجماعة لاختلافه معهم فى الرأى . وزاد فى حنق رجال الدين ان هولباخ ، وهو من دعائم الموسوعة نشر كتابه « كشف القناع عن المسيحية » فى ١٧٥٦ وان هلفتيوس نشر كتابه « فى الذكاء » فى ١٧٥٨ ، وهو كتاب أمر البرلمان باحراقه لما فيه من فلسفة شهوانية

وهنا توقف دالمبير وغيره ، ولكن ديدرو ظل وحده صامدا ثم عاد فولتير لمساعدته حتى أتم بقية مجلدات الموسوعة ، (وهى ١٥ مجلدا) ونشرها معا فى ١٧٦٥ ، ولكنه لم يفرغ من مجلدات اللوحات الا فى ١٧٧٢

وهذه قصة « الانسيكلوبيديا » المشهورة التى زلزلت الفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر وكانت من أكبر الالغام التى نسف بها الفرنسيون الباستيل والاقطاع

— ٢ —

كان ديدرو من أسبق المنادين بشرف العلوم والفنون التطبيقية ، وهو مبدأ استقر اليوم تماما فى البلاد المتقدمة فى الصناعة ، ولكنه لا يزال جديدا على البلاد المتخلفة صناعيا . وقد يبدو لنا اليوم ان دعوة ديدرو هذه دعوة غير ذات بال ، لان العقلاء لا يختلفون فى أمرها . ولكننا ننسى ان القرن الثامن عشر لم يكن يفكر كما نفكر نحن . وكانت الكثرة المطلقة من الناس تؤمن بشرف العمل العقلى وبخسة العمل اليدوى ، وبشرف العلوم والفنون النظرية ، وبخسة العلوم والفنون التطبيقية . فكان ديدرو من أسبق المفكرين المدافعين

عما يسميه « الفنون الآلية » . وهذا الدفاع هو الذى مهد لان تسير الثوره الصناعية سيرا حثيثا فى كل مجتمع آمن بشرف العمل الآلى

ومن أشهر ما كتب ديدرو فى هـذا المعنى قوله فى « دائرة المعارف » تحت مادة « الفن » :

« اذا نحن بحثنا منتجات الفن فى مختلف صوره ، وجدنا ان بعضها وليد عقل الفنان أكثر مما هو وليد عمله اليدوى ، بينما نجد ان بعضها الآخر على عكس ذلك . وهذا الفرق يؤدى الى نتيجتين : أولاهما ان بعض الفنون تحظى بمكان أسمى من بعضها الآخر فى مقياس القيم ، وثانيتهما تقسيم الفنون الى فنـون انسانية وفنون آلية . وهذا التقسيم فى جوهره تقسيم سليم ، غير انه أدى الى نتيجة مؤسفة ، وهى انه جعل بعض الناس الجديرين بالتقدير العظيم والنافعين أعظم النفع موضعا للاحتقار ، وانه شجع فينا ميلا طبيعيا الى الكسل ، ميلا سوغ لنا الاعتقاد بأن الاشتغال الكثير بدراسة الاشياء المادية واجراء التجارب العملية وما شابه ذلك يحط من كرامة الانسان من بعض الوجوه . ثم انه جعلنا نعتقد ان مزاولة الفنون الآلية ، بل ودراستها ، يحط من قدرنا الى مستوى مواد خفيضة ، البحث فيها مضن والفكر فيها وضيع والعرض فيها عسير . فالاشتغال بها يعد وصمة ، الى جانب كونه مرهقا ، من حيث ضآلة قيمتها وكثرة عددها .. وهذا التحيز كان من الاسباب التى جعلت المدن تمتلىء بصغار الطغاة من الجهال والكسالى المتعجرفين . وهو تحيز رفض أن يقره بيكون ، وهو من أعظم عباقرة انجلترا ، وكولبير وهو من أعظم وزراء فرنسا ، وكل أهل الذكاء والحكمة فى

كل العصور ، فبيكون عد تاريخ الفنون الآلية أهم فرع من فروع الفلسفة الحقة ، ولذا فلم يكن بالمفكر الذى يحتقر تطبيق هذه الفنون . أما كولبير فكان ينظر الى انشاء الصناعات والمصانع نظره الى أرسخ مصدر لثروه هذه البلاد (يقصد فرنسا) . وفى رأى المفكرين العصريين من ذوى الرأى الراجح فى قيم الاشياء أن الرجال الذين هيأوا لفرنسا كل حفاريها ورساميها ومثاليها وفنانيها من نوع ، والرجال الذين تفوقوا على الانجليز فى آلة النسيج وعلى أبناء جنوا فى صناعة القطيفة وعلى أهل البندقية فى صناعة الزجاج ، خدموا الدولة خدمة لا تقل عن خدمة من حاربوا أعداءها ودحروهم . ولعل فى نظر الفيلسوف ان أمثال لبران ولوسيور وادران ومن رسموا معركة الاسكندرية وحفروها على المعادن ، ومن صوروا انتصارات قوادنا على النسيج ، أعظم فضلا ممن أحرزوا هذه الانتصارات نفسها ! واذا نحن وازنا بين المنافع الحقيقية التى أصبناها من أرفع العلوم وأشرف الفنون فى عرف الناس من جهة وبين المنافع الحقيقية التى أصبناها من الفنون الآلية من جهة أخرى ، لوجدنا ان ما يحظى به كل جانب لا يتناسب مع نفعه الحقيقى ، وان تقدير الناس لمن ينفقون وقتهم فى جعلنا نتصور اننا سعداء يتجاوز بكثير تقديرهم لمن يكابدون ليجعلونا سعداء بالفعل . وانها لمقاييس عجيبة حقا تلك التى تطلب من الناس أن يكونوا نافعين ، ومع ذلك تزدرى النافع منهم ! »

ومن العبث أن نعزل دعوة ديدرو لاحترام الخبرة الآلية والعمل الآلى من سياق الثورة الصناعية التى وجدت فى مثل هذه الدعوة خير تعبير عن فلسفتها وخير معبد لطريقها . وهو لم يقصد بدعوته هذه الغض من

العلوم والفنون النظرية ، وفى مقدمتها الفلسفة ، ولكنه أراد أن يوضح آلاء العلوم والفنون التطبيقية على بنى الانسان ، فهذه العلوم والفنون ليست الا الوجه العملى للعلوم والفنون النظرية نفسها على حد قوله ، كما أراد أن يؤكد شرف هذه العلوم والفنون

واختار ديدرو ثلاثة من الاختراعات الحديثة التى غيرت تاريخ البشرية وهى الطباعة والبوصلة « أو ما يسميه الابرة المغطسة » والبارود ، ليوضح فضل العلوم والفنون التطبيقية على الانسانية . ولم يكتف بذلك بل غمز تسرع الفلاسفة فى الحكم على بعض الاختراعات . فالفيلسوف مونتاني مثلا استخف باختراع البارود قائلا انه قاصر حتى كأداة للقتال ، ولو انه عاش مائة عام أخرى للمس بنفسه مدى نفعه للجيوش المتحاربة . كذلك ذهب الفيلسوف ديكارت الى سخافة استخدام العالم اليوناني القديم للمرآة لتجميع أشعة الشمس وتوليد الطاقة الحرارية منها ، وقد أثبتت التجارب صواب أرشميدس وخطأ ديكارت . وهذه الاخطاء التى ارتكبها الفلاسفة ناجمة عن اغراقهم فى التأمل النظرى وبعدهم عن التجربة العملية

وعند ديدرو ان كل فنى « فنان » ، فالمخترع فنان والعامل الآلى فنان والصانع اليدوى فنان ، لان الفن عنده هو تطبيق العلم . وحدود العلم هى الدراسة النظرية والتفكير النظرى ، أما حدود الفن عنده فهى التطبيق العملى للفكرة النظرية . فالفلسفة ذاتها بعضها علم وبعضها فن . أما العلم فيها فهو الميتافيزيقا أو البحث فيما وراء الطبيعة ، وأما الفن فيها فهو ما نسميه « علم الاخلاق »

وبهذا التعريف العام للعلم والفن استطاع ديدرو أن يقسم الفنون ذاتها الى نوعين : فنون انسانية ، كالادب والتصوير والنحت والموسيقى الخ . وفنون آلية نجدها فى الصناعات . والفنون الانسانية فى رأيه قد أخذت حظها من العناية والتمجيد ، فهى ليست بحاجة الى من يدافع عنها أو يثبت شرفها . وهو فى هذا يقول فى معرض الدفاع عن الفنان الصانع :

« آن الاوان لان نعطى للفنانين حقوقهم . فالفنون الانسانية تغنت بأمجادها بما فيه الكفاية . فلتستخدم الآن ما بقى فى عقيرتها من صوت فى التغنى بأمجاد الفنون الآلية . ان واجب الفنون الانسانية أن تنتشل الفنون الآلية من حضيض الاحتقار الذى حطها التحيز فيه هذا الزمن الطويل ، وأن واجب الملوك أن يحموا هذه الفنون الآليـــة من الفقر الذى لا يزال يفت فيهـــا . وان « الاسطوات » على اعتقاد بأنهم حقراء لأن الناس تعودوا أن يحتقروهم ، فلنعلمهم أن يحسنوا الظن بأنفسهم : فهذا هو السبيل الأوحد للاقتراب بانتاجهم من مرتبـــة الكمال . اننا نطلب رجلا ينهض من المحافل الاكاديمية ويسعى الى المصانع ويجمع المعلومات عن هذه الفنون فى صورة كتـــاب يغرى الفنانين بالقراءة النافعـــة ، والفلاسفة بالتفكير على نهج نافع ، والوجهـــاء بأن يستخدموا أخيرا ما لهم من سلطة وثراء فيما ينفع . »

فليس كثيرا بعد هذا أن نسمى ديدرو فيلســوف الثورة الصناعية فى فرنسا كما نسمى فرانسيس بيكون فيلسوفها فى انجلترا . واذا كنا قد رأينا مدرسة أدبية وفنية كاملة فى القرن العشرين ازدهرت فى أكبر مكان ولا سيما فى الاتحاد السوفييتى تلتمس فى نبضـات

المحرك « الموطور » وخفقات « البستم » وضجيج « الكرنك » مادة خصبة للالهام الادبى والفنى ، فقد وجب ان نذكر ان دنيس ديدرو كان بشيرها الاول منذ مائة وخمسين سنة فى بوادر الثورة الصناعية البورجوازية ، ولم يكن فكره هذا يسيرا فى عصر لبس أشرافه الشعر المستعار وطرزوا أكمامهم الحريرية بالدانتيلا ..

- ٣ -

اقترنت نظرية التطور باسم داروين ولامارك ، وهذا أمر طبيعى لأن داروين ولامارك هما واضعا أساس هذه النظرية بالمعنى العلمى الكامل . ولكن الناس ينسون عادة أن نظرية التطور شغلت أذهان الفلاسفة قبل أن تشغل أذهان العلماء . وكان دنيس ديدرو أحد الفلاسفة الذين إهتدوا الى هذه النظرية قبل داروين بمائة سنة . أو على الاصح قبل صدور «أصل الانواع» فى ١٨٥٩ بمائة سنة . فنجد طلائع نظرية التطور فى مؤلف ديدرو المشهور « رسالة عن العميان » (١٧٤٩) وفى « رسائل الى مدموازيل فولان »

فهو فى « رسالة عن العميان » يناقش المذهب الالهى أو « الديزم » الذى يقول ان كل ما فى الطبيعة كامل وخير ، فهى خالية من النقص والشر ، وان ما يبدو لنا نقصا أو شرا فى الطبيعة انما هو وهم يتوهمه عقل الانسان الذى لا يرى الا الاجزاء ويخفى عليه الكل ، وهو مذهب يلغى الشيطان من الوجود ، ولا يرى فى قوانين الطبيعة الا خيرا صراحا . وديدرو يرى أن هذا الكمال الذى يتحدث عنه أصحاب الديزم كمال مزعوم ،

وان الطبيعة فيها من وجوه النقص شيء كثير . والذين يقولون بكمال الطبيعة قوم يرون ما تنجح الطبيعة فى عمله ، ولا يرون ما تفشل فى عمله

الطبيعة عند ديدرو مادة ، وهذه المادة مكونة من جزيئات أو ذرات ، وهذه الجزيئات أو الذرات تجتمع وتتحد وتتفاعل فتتألف منها الاجسام وكل شيء فى الوجود ، لا فرق فى ذلك بين الجمادات والاحياء . ومن هذه الكائنات ما يستطيع أن يتأقلم مع ما حوله من أشياء الطبيعة وقوانينها فيبقى ويعيش ، ومنها ما يعجز عن التأقلم فيموت ويبيد . فهناك اذن فى الطبيعة نوع من الغربلة والتصفية ، وهو ما نظر اليه داروين فيما بعد وسماه بقاء الأحياء « بالانتخاب الطبيعى » ، وهو ما نظر اليه لامارك فيما بعد وسماه بقاء الاحياء « بالتأقلم » . أما ديدرو فكان يسمى هذه العملية « التوافق » و « التناقض » . فالاحياء التى تتوافق وتنسجم مع الطبيعة وقوانينها تبقى وتزدهر ، أما الاحياء التى تتناقض مع الطبيعة وقوانينها فتفنى وتندثر . وان ما نراه حولنا من كمال ظاهرى فى الطبيعة انما هو نتيجة لهذه التصفية وهذه الغربلة ، فهو قائم على الموت والاندثار والاختفاء بمثل ما هو قائم على الحياة والازدهار والبقاء . هناك أنواع كثيرة من الكائنات والحيوانات الممسوخة بادت لأنها عجزت عن التأقلم مع ما حولها من بيئة وقوانين طبيعية ، وهذا سر تطور الاحياء ، أو بلغة ديدرو نفسه : « ان كل التركيبات الخاطئة فى المادة اختفت ولم يبق من الاجهزة الا تلك الاجهزة التى ليس فى تركيبها تناقض مع الاشياء (أى عجز عن التأقلم معها) والتى توافرت فيها القدرة على ابقاء نفسها وادامة وجودها »

ومن هنا نجد ان ديدرو كان رائدا من رواد نظرية التطور . وهو لم يعتمد فى استخلاص نتائجه الخطيرة هذه على دراسة النبات والحيوان وعلم البيولوجيا عامة ، ولكن كان أكثر اعتماده على التأمل الفلسفى ، وعلى علم الفيزياء ، ولذا كان طبيعيا أن يقف فى تأملاته عند هذا الحد

فالذين يتحدثون عن كمال الطبيعة وينكرون ما فيها من وجوه النقص هم عند ديدرو أناس يبصرون ما نجحت الطبيعة فى عمله ولا يبصرون ما فشلت الطبيعة فى عمله.

وغنى عن الايضاح ان كل فلسفة تنكر وجود النقص والشر فى الطبيعة والحياة فلسفة تتضمن الدعوة الى قبول كل ما هو كائن على علاته ، بل تزين كل ما هو كائن على علاته ، وهى لهذا فلسفة متفائلة مسرفة فى التفاؤل ، استقرارية مسرفة فى الاستقرار ، تسد الطريق على كل من يفكر فى ان الطبيعة أو الحياة أو المجتمع فيها نقص وشر ، وأنها بحاجة الى تغيير وترقية واصلاح . وهى من قبيل فلسفة الدكتور بانجلوس صاحب مذهب « ليس فى الامكان أحسن مما كان » ،

ولقد رأينا كيف سخر فولتير ، صاحب ديدرو وزميله فى « دائرة المعارف » ، من الدكتور بانجلوس وتفاؤله المسرف فى قصته « كانديد » . وليس غريبا أن تتبنى الارستقراطية الانجليزية والارستقراطية الفرنسية المذهب الالهى أو فلسفة « الديزم » هذه قبيل الثورة الفرنسية ، حينما لاح فى الأفق تمرد الطبقة المتوسطة على حكم الاقطاع والاشراف ، لتلقى فى روع الناس أن كل ما فى الطبيعة والحياة والمجتمع كامل وقائم على الخير ، وان ما يراه الناس من مظاهر النقص والشر

وهم من وهم العقل وخداع من خداع الحواس . وليس غريبا أن تنظر الطبقات الممتازة فى فرنسا وانجلترا الى ديدرو وكل من ينقدون كمال الطبيعة والحياة والمجتمع نظرها الى من يمهد لثورة تعصف بعالمهم الجميل

وهذا فيما أعتقد هو المعنى الباطنى الذى عبر عنه ديدرو فى « رسالة عن العميان لمنفعة المبصرين » ،

فالعميان عنده هم أولئك الذين فقدوا القدرة على الحكم الموضوعى ، فلم يعودوا يميزون بين الخير والشر وبين النقص والكمال ، واختلطت فى أذهانهم وضمائرهم ، بل وفى حواسهم أيضا قيم الاخلاق . وهو فى هذا يقول :

« أما أنا فقد كان واضحا عندى دائما ان حالة أعضائنا وحواسنا تؤثر تأثيرا عظيما فى معتقداتنا الميتافيزيقية والاخلاقية

« فليس بين الدلائل الخارجية التى تثير عاطفة الرحمة فينا وتعلمنا معنى الالم ما يؤثر فى العميان الا الشكوى ،

ولذا فانى قليل الاحترام لعطفهم وشفقتهم . فأى فرق هناك عند الاعمى بين من يسيل بوله ومن ينزف دمه دون أن يتوجع ؟ بل ونحن كذلك . لا تخالجنا عاطفة الرحمة اذا خفيت علينا الاشياء بسبب بعدها أو ضآلتها

كما تخفى على الأعمى بسبب عماه . ان فضائلنا مرتبطة ارتباطا وثيقا بطريقة احساسنا وبدرجة تأثرنا بالاشياء الخارجية ! .. اننا نأسى لحصان يتألم ، ولكننا نسحق نملة دون أدنى تفكير ، رغم أن مبدأ الانفعال فينا واحد فى الحالين . آه يا سيدتى ما أعظم الفرق بين فكرة الاخلاق عند العميان وفكرة الاخلاق عندنا ! وما أبعد الفرق أيضا بينها عند الأصم وعند الأعمى ! وما أشد

قصور فهمنا للاخلاق فى نظر كائن حاسته أقوى من حاستنا !

« وبالمثل فان أفكارنا وأفكارهم الميتافيزيقية لا تقل عن ذلك اختلافا : فما أكثر مبادئهم التى نراها مجرد سخافات ، والعكس صحيح ! .. مثال واحد أسوقه ، وأعتقد انه لا يقبل الجدل : وهو ان الحجة الكبرى التى تستخلص من عجائب الطبيعة حجة واهية جدا بالنسبة للعميان . فالسهولة التى نخلق بها ، اذا صح هذا التعبير ، المرئيات الجديدة باستخدام زجاجة صغيرة (يقصد المنظار) أعقد على افهامهم من كواكب النجوم التى حرموا من رؤيتها حرمانا تاما . وهذه الكرة الغامرة الضياء التى تتحرك من الشرق الى الغرب ، هذه الشمس ، لا تدهشهم بقدر ما تدهشهم نار صغيرة يستطيعون أن يذكوها أو يطفئوها »

من هذا ترى أن ديدرو كان من أسبق المفكرين الى توضيح فكرة النسبية فى فهم الاخلاق وفى الادراك الميتافيزيقى . ومنه ترى انه وضع قدرة الانسان على الانفعال وعلى الادراك على بساط البحث ، وشكك فى قدرة الانسان عامة على الحكم الموضوعى ، وربط بين تكوين القيم وتكوين المنطق الذى نحكم به على الاشياء وبين الاحساسات التى نستمدها من الطبيعة والحياة والمجتمع . ولكنه لم يقف من مشكلة القيم الأخلاقية والميتافيزيقية موقف الشكاك على طول الخط ، لان النهاية المنطقية لفلسفته هى ان الحكم الموضوعى ممكن لو استطعنا أن نزيل أسباب العمى أو الصمم الذى يخرب حواسنا ويزيف احساساتنا بصورة مؤقتة أو بصورة دائمة . فالخلل عنده فى حواسنا أكثر مما هو

فى العالم الخارجى . وحواسنا المختلة هى مصدر ادراكنا المختل وقيمنا المختلة واحكامنا المختلة . وهذا يعطى الامل فى أن اصلاح هذه الحواس يؤدى فى النهاية الى اصلاح القيم الانسانية المختلفة . فالتعليم أو التنـوير مثلا من وسائل صلاح هذه الحواس لأنه يزيل عمى العميان ، ويجعلهم يبصرون ما يبصره بقية الناس

فولتير

- ١ -

اقترن اسم فولتير بالدعوة الى التسامح أكثر مما اقترن اسم غيره من المفكرين . وهو صاحب القول المشهور : انى أخالفك رأيك ولكنى أدافع حتى الموت عن حقك فى ابدائه . والتسامح عند فولتير مقترن بحرية العقيدة وبحرية التعبير معا . وقد شغله التنديد بالتعصب والدعوة الى التسامح فكتب « رسالة فى التسامح » يحمل فيها على اضطهاد الانسان للانسان بسبب عقيدته أو رأيه ، ويوضح منافاة التعصب لجوهر الديانات

وفى « القاموس الفلسفى » « ١٧٥١ - ١٧٦٣ » يعرف فولتير التسامح على الوجه الآتى :

« التسامح . ما هو التسامح ؟ انه ثمرة الانسانية . اننا جميعا مجبولون على الضعف والخطأ ، فليغفر كل منا حماقة أخيه ، وهذا أول قانون من قوانين الطبيعة

« ومن الواضح ان الفرد الذى يضطهد فردا آخر هو

أخوه فى الانسانية لأن له رأيا يخالف رأيه ، هو وحش . وهذا لا عسر فى ادراكه . فما بالك بالحكومة وبالقضاة وبالأمراء الذين ينكلون بمن لا يدينون بدينهم »

وهو فى « رسالة فى التسامح » يؤكد ان التسامح له جذور فى القانون الطبيعي وفى الحق الطبيعى ، وان التعصب منافس لهما . وهو فى هذا يقول :

« القانون الطبيعى هو ذلك القانون الذى تعلمه الطبيعة للانسان ، فأنت تربى ولدا ، فهو مدين لك بالاحترام بوصفك أباه ، وهو مدين لك بعرفان الجميل بوصفك المحسن اليه . وأنت تزرع الارض بيديك ، وهذا يعطيك الحق فى ثمرات هذه الارض . وأنت تقطع وعدا أو يقطع الغير لك وعدا ، ولا بد من الوفاء بالوعد

« وفى كل حالة ، يستند القانون الانسانى على القانون الطبيعى . وفى كل مكان على وجه الارض نجد أن أس القانونين جميعا هو : عامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به . وتطبيقا لهذا المبدأ لا يمكن لرجل أن يقول لرجل آخر : أعتقد عقيدتى وآمن بما لا يطيقه ايمانك والا كان جزاؤك الموت . هذا ما يقوله الناس فى أسبانيا والبرتغال

وجوا . وفى بلاد أخرى يكتفى الناس بقولهم : آمن والا أبغضتك ، آمن والا أنزلت بك كل ما أستطيع من ضرر . أيها الوحش ، أنت لا تدين بدينى ولذا فأنت مجرد من الدين ، وهذا يجعلك وباء بين جيرانك وفى مدينتك وفى بلادك

« ان حق التعصب حق همجى ومناف للعقل . انه حق النمر ، بل هو أفظع من ذلك بكثير ، فالنمور تفترس لتأكل أما نحن البشر فيمزق بعضنا بعضا من أجل فقرات ... »

ويعود فولتير الى وصف التعصب الدينى فى أسلوب يفيض بالشاعرية الساخرة ، موضحا ان وراء كل تعصب دينى عملية من عمليات النهب الاقتصـادى . فيروى أسطورة صغيرة يقول فيها انه فى ليلة من الليالى استغرق فى التأملات ، فقد سحره جمال الطبيعة وانسجام أفلاكها اللامحدودة ، وهو شعور لا تعرفه الدهماء .

وكان أعظم ما أثار اعجابه الذكاء الكامن وراء هذه القوى العجيبة يديرها ويسيرها . فتقول نفسه : ان من لا يروعه هذا المشهد لا ريب أعمى ، ومن لا يتبين خالقه لا شك غبى ، ومن لا يعبده لا محالة مجنون . ولو ان انسانا كان يسكن المجرة فهلا يسبح بحمده كما يسبح سكان هذه الارض ؟ ان النور فى الشعرى هو النور فى هذه الارض وفى كل مكان ، وقياسا على هذا فان قوانين الفلسفة الاخلاقية التى هى لب كل عبادة لابد ان تكون واحدة فى كل مكان . فحب الوالدين الرؤومين والبر بالعجزة المحتاجين الخ كلها مبادىء صحيحة فى كل زمان ومكان . « فواجبات القلب واحدة فى كل مكان ، على عتبات عرش الله ، ان كان له عرش ، وفى قرار الهوة السحيقة ، ان كانت هناك هوة سحيقة »

وفيما هو مستغرق فى هذه التأملات ظهر له جنى وحمله الى صحراء تكدست فيها أكوام من عظام ، وهو نفس الجنى الذى تجلى له مرارا ليعلمه أن الله يحاسب بطريقة غير طريقتنا ، وان عمل الخير خير الف مرة من الجدل فى معنى الخير . وبين عظام الموتى رأى طرقا محفوفة بأشجار دائمة الخضرة ، وفى نهاية كل طريق وقف رجل مهيب الطلعة يتأمل عظام الانسانية الهالكة وحطامها فى أسف عميق ، ويذرف الدمع السخين ،

وبدأ الزائر يلقى أسئلته الكثيرة على الجنى ، ولكن الجنى أجابه : لن أجيبك على شىء حتى تذرف الدمع السخين. وطاف به بين أكوام العظام قائلا : هذا دميم ! ثلثمائة ألف جاء فى التوراة انهم كانوا يرقصون أمام معبودهم العجل أو يضاجعون نساء مدين . وهذا دميم ! الآلاف المؤلفة من المسيحيين الذين فتك بعضهم ببعض لخلافات

ميتافيزيقية ، وكان كومهم كبيرا يبلغ السماء ، ولذا قسم الى عدة أكوام . وهذا كوم اثنى عشر مليونا من الامريكيين « يقصد الهنود الحمر » الذين قتلوا فى وطنهم لأنهم لم يعرفوا المعمودية ، أما المسلمون فكوم ضحاياهم صغير لان من طلب منهم « الأمان » وعرض عليهم الجزية عفوا عنه

وبعد أن أراه أكوام العظام طاف معه بأكوام أخرى ، فاذا بها زكائب من الذهب والفضة وعلى كل منهـــا اتيكيت تقول : « أموال الزنادقة المقتولين فى القـــرن الثامن عشر والسابع عشر والسادس عشر » أو « ذهب الامريكيين وفضتهم » وهكذا دواليك

فتعلم الزائر انه ما من حرب تشب باسم الدين الا وكان غرضها نهب أموال الغير . وبكى الزائر

ومشى الجنى بالزائر فى الطرق ذات الأشجار دائمة الخضرة حتى بلغ الرجال الحكماء الذين جاهدوا طول حياتهم لينقذوا العالم من العنف واللصوصية . بلغهم واحدا بعد واحـــد . فرأى يوما بومبيليوس وسمعه يقول : « كان سلفى قاطع طريق وكنت أحكم شعبا من قطاع الطرق . فعلمتهم الفضيلة وعبادة الله ، وبعد موتى نسوا ما علمتهم أكثر من مرة . ونهيتهم أن يضعوا الاصنام فى المعابد لأن الله الذى يمشى فى الطبيعة بالحياة

لا يمكن تصويره . وفى عهدى لم يعرف ألرومان الحروب ولا الفتن ، ودينى قام على عمل الخير » فقبل الزائر يده

ومضى الى الثانى فوجده فيثاغورس ، وسمعه يقول : ان فخذه لم يكن أبدا من ذهب كما أشاع الناس ، وانه لم يكن قط ديكا كما جرت الرواية فيه ، ولكنه حكم أتباعه بالعدل وعلمهم ان العدل هو أندر فضيلة وألزم شىء فى الدنيا ، وهداهم الى أن يحاسبوا ضمائرهم مرتين كل يوم

ثم انتقل الزائر الى زرادشت ، فوجده يجمع نيران السماء فى بؤرة مرآة محدبة ، وسط قاعة بها مائة باب ، كل باب منها يؤدى الى الحكمة ، فتعاليم زرادشت تسمى الابواب وعددها مائة ، وعلى البـاب الرئيسى كتبت هذه العبارة : « ان خامرك الشك ولم تعرف ان كان عملك خيرا أو شرا فأحجم عنه » وهكذا قطع الطريق على السوفسطائيين

وبلغ سقراط وعرفه بأنفه الافطس وسمعه يقول : أنا علمت تلامذتى ان القمر وعطارد والمريخ ليست آلهة ، وان الله واحد وهو سيد الطبيعة ، لهذا اتهمنى الكاهن انيتوس لحزازات شخصية بافساد النشء ، وأقنـع بذلك مجلس الاثينيين فسلمنى المجلس لسمام الجمهورية فأعطانى كأس السم ومت فى السبعين بدلا من الحادية والسبعين . ومع ذلك فأنا لا أفكر فى الكاهن انيتوس الا وأرثى له

وأخيرا انتهى الزائر الى رجل وديع النفس لم يتجاوز الثلاثين بكثير . وعجب لمرآه فقد كانت يداه وقدماه مثقوبة بالمسامير يثر منها الدم وكان جنبه طعينا بحربة ،

وعلم منه أن الكهنة هم الذين فعلوا به كل ذلك ، وسأله: « اأردت أن تعلم قومك دينا جديدا » فأجابه : « مطلقا ! كل ما قلته لهم هو : « أحبوا الله بكل قلوبكم وأحبوا اخوتكم فى الانسانية كما تحبون أنفسكم » ، وهو مبدأ قديم قدم العالم ، ومع ذلك فقد نكلوا به . وسأله الزائر عن اسمه فنهره الجنى ، وعلم الزائر ان هذا معلمه ، أيا كان اسمه ، وشاع فى نفسه الهدوء واستيقظ من الرؤيا

— ٢ —

قبل ان تتبلور مبادىء الثورة البورجوازية الكبرى ؛ الثورة الفرنسية ، فى شعاراتها الثلاثة : الحرية والمساواة والاخاء ، ظل الفكر الفرنسى قرنا كاملا يصوغ فلسفة الحرية وفلسفة المساواة وفلسفة الاخاء . فلما نشبت الثورة فى ١٧٨٩ كانت تستند الى ايديولوجية كاملة التكوين ، بل ان هذه الايديولوجيا كانت قد انتقلت من ادمغة المفكرين الى عقول المثقفين ثم الى قلوب العامة أنفسهم ، فأصبحت بمثابة « دين » جديد ، يعتنقه المثقفون بالعقل وتعتنقه العامة بالعاطفة ،

ولم يبق أمام الثورة الفرنسية الا ان تترجم هذه المجردات الفلسفية والعواطف الانسانية الجديدة الى نظم وتشريعات ومؤسسات وأفعال ومواقف عملية

وكان جوهر هذه الايديولوجيا نظرية الحق الطبيعى أو القانون الطبيعى : فبهذه النظرية استطاع الفلاسفة والمفكرون والفقهاء ان ينسفوا مبدأ حق الملوك الالهى ، وان يجعلوا الشعب مصدر السلطات بعد ان كانت

السلطات كلها تنبع ممن يملكها بالحق الالهى ، وهم الملوك والاشراف ورجال الدين ، وبهذه النظرية استطاع الفلاسفة والمفكرون والفقهاء ان يدعوا الى عقيدة متفائلة هى « تقدم الجنس البشرى » او امكان تقدمه على اية حال ، وهى عقيدة كانت ثورية فى مجتمع اقطاعى لانها فتحت باب الامل امام سائر الطبقات والافراد فى مزيد من المعرفة ومزيد من الرخاء ومزيد من الحرية والمساواة والاخاء ، باصرارها على وحدة الانسانية فى العقل او فى الفكرة ، وبالتالى فى الحقوق الطبيعية المترتبة على وحدة الجنس الانسانى .

ولكن خطأ ان نظن ان الفلاسفة الذين مهدوا للثورة الفرنسية ، رغم اشتراكهم فى الايمان بنظرية الحق الطبيعى او القانون الطبيعى ، كانوا جميعا ابناء مدرسة واحدة ، فقد كان لكل منهم منهجه فى التفكير وفهمه للمجتمع وادراكه لمقومات الفطرة الانسانية . ففولتير شيء وروسو شيء آخر ، ومونتسكيو شيء ومابلى شيء آخر . بل لعل من الانصاف ان نقول أن بعض هؤلاء الفلاسفة كان طرف نقيض للبعض الآخر . واذا كانوا كلهم قد اتفقوا على فساد « العهد البائد » ووجوب تغييره ، فقد رسمت كل جماعة منهم صورة للمجتمع الجديد غير ما رسمته الجماعة الاخرى .

وهذا يفسر تعدد التيارات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية فى الثورة الفرنسية ذاتها ، وتلاطم هذه التيارات تلاطما لم يعرف العالم لعنفه مثيلا فى تاريخ الثورات . ومن الخطأ ان نفهم الصراع القانونى والدموى الذى اشتد صخبا وعربدة من ميرابو ولافاييت الى دانتون ومارا وشوميت وروبسبيير وبابيف وبونابرت

على انه مجرد صراع شخصى على السلطـة . فقد كان هـذا الصراع صراعا تاريخيا بين ايديولوجيات متعددة تعتنقها قطاعات مختلفة من المجتمع البورجوازى نفسه ، بيمينه ووسطه ويساره . ومحنة الثورة الفرنسية التى بدت فى غزارة ما أراقت من دماء ابنائها جاءت من انها لم تكن ثورة مرتجلة تستوحى مبادئها من ظروفها العملية بل كانت حرب عقائد فكرية واجتماعية متعارضـة ، تبلورت ورسخت فى نفوس النـاس رسـوخ العقائد الدينية ، او هى حرب أهلية تزيت بزى ثورة . ولولا ان هـذه الايديولوجيات المتعارضة كانت تامة الاختمار كاملة التكوين واسعة الانتشـار بين مختلف اجنحـة البورجوازية الفرنسية لما اتسم الصراع الثورى بهـذه الدموية الوحشية

وهـذه جنـاية الفكر الفرنسى على الثورة الفرنسية وهبتـه الخالدة لها فى وقت واحد . فهو قد جعل منها مسرحا للجرائم النكراء ، وهو قد جعـل من مضمونها الفكرى والاجتماعى بذرة كل فكر ثورى وتطورى ورجعى الى يومنا هـذا . فبـذور الديمقراطية منها ، وبذور الشيوعية منهـا ، وبذور الفاشـية منهـا ، وبذور الاشتراكية على اختـلاف مدارسـها منها ، ومنهـا الفوضـوية والعدمية والمثالية والمادية ، وكل ما نرى حولنا من احلام اجتماعية جميلة أو سقيمة .

ويمكن ان نقول ان قطبى الرحى فى الفكر الفرنسى الذى مهـد للثورة الفرنسيـة هما فولتير وروسو . وكلاهما آمن بنظرية الحق الطبيعى او القانون الطبيعى ، ولـكن شتان الفرق بينهما ، ففولتير كان يؤمن بالعقل اما روسو فكان يؤمن بالعاطفة

ولد فرانسوا مارى ارويه ، فهذا اسم فولتير الاصلى، لاسرة متوسطة فى ١٦٩٤ ومات فى ١٧٧٨ ، قبل الثورة بعام واحد ، عن اربع وثمانين سنة ، وكان أبوه من رجال القانون يعمل موثقا للعقود ، فأراد والده ان ينشأ هذه النشأة القانونية ، ولكن فرنسوا المحب للآداب اختط لنفسه خطة اخرى ، فسعى بذكائه البراق حتى لمع نجمه فى الاوساط الارستقراطية حيث عرف بنقده الساخر للبلاط ولرجالات فرنسا .

وقبض عليه وهو بعد فى الحادية والعشرين ، بتهمة نظم أبيات يهجو فيها الوصى على العرش ، الدوق دورليان ، هجاء مقذعا وزج فى الباستيل . ولم يكن هو ناظم هذا الشعر ولكن سمعته كساخر جعلته موضعا للشبهات ، ثم افرج عنه ، ولكنه بعد سنوات تهجم بعبارات ساخرة على شريف من أشراف الدولة ، وهو ما كان لا يغتفر من شاعر تافه المنبت مثله ، فاعتدى عليه بالضرب أولا ، ثم سجن ، ثم نفى أخيرا من البلاد ، فنزح الى انجلترا حيث أتيح له ان يدرس المجتمع الانجليزى والديمقراطية الانجليزية وأن يتشرب بفلسفة نيوتن ولوك .

وكانت شهرته كشاعر قد استقرت فى فرنسا قبل سفره الى انجلترا ، واتخذ لنفسه اسم فولتير فى ١٧٢٢ . ثم عاد فولتير الى فرنسا ، وفى ١٧٣٤ أصدر كتابه المعروف « رسائل فلسفية » غفلا من اسم مؤلفه ، ولكن الكل كان يعرف أن فولتير هو صاحب هذا الكتاب الذى كان فى ظاهره وصفا لحياة الانجليز وفى حقيقته نقدا للمجتمع الفرنسى . ثم انتقل فولتير الى برلين فى ١٧٤٩ ليقيم فى بلاط فريدريك

الاكبر عاهل بروسيا الذى كان يحيط نفسه بالفلاسفة والكتاب والفنانين . وكان فولتير يرى فى فريدريك الاكبر المثل الاعلى « للمستبد المستنير » ويرجو أن يجعل منه حاكما صالحا يخدم الانسانية بهذا الاستبداد المستنير الذى يجعل من صاحبه خير اداة لنشر التنوير . ولكن يبدو ان استبداد فريدريك كان اكثر من استنارته ، فتشاجر معه فولتير بعد ثلاث سنوات ومضى الى سويسرا حينا ثم استقر نهائيا فى عزبته بفرنيه . وفى فرنيه عكف فولتير على كتابة المقالات والمسرحيات والاشعار والرسائل التى يندد فيها بالجهل والطغيان ويدعو للتنوير والتسامح ويدافع عن حرية الفكر وحرية التعبير وسائر الحريات العامة حتى غدا بحق زعيم حركة التنوير ورسول التسامح والرمز الحى للدفاع عن حرية الفكر وسائر الحريات . وسدد فولتير اكثر سهامه الى الدور الذى يلعبه رجال الدين فى طمس العقول ونشر الجهالة والخرافات بين العامة ليسلس قيادهم ، فكان حجر الزاوية فى دعوته الفكرية والاصلاحية هو الايمان بالعقل الذى هو عنده الدليل الاول على انسانية الانسان ، والآصرة الاولى التى تربط جميع بنى الانسان . التنوير والتسامح وصيانة الحريات ، هذه عنده هى مفاتيح كل اصلاح .

وما كان فولتير ليثق كل هذه الثقة بأن التنوير أساس كل اصلاح لولا ايمانه بأن الانسان عاقل بالطبع ، وأن كل ما فيه من فضائل هى ثمرة هذا العقل . وهذا عنده هو جوهر نظريته فى الحق الطبيعى أو فى القانون الطبيعى . انظر الى هذا الحوار الذى

يحدد فيه فولتير رأيه فى القانون الطبيعى وفى الحق الطبيعى ، وهو من « القاموس الفلسفى » :

« ب ــ وما تعريفك للعدل والظلم ؟

ا ــ انه الفطرة التى تجعلنا نحس بالعدالة .

ب ــ وما تعريفك للعدل والظلم ؟

ا ــ هو ما يبدو كذلك لكل بنى الانسان .

ب ــ ان الانسانية مؤلفة من عقول كثيرة . وقد ذكروا ان الاسبرطيين كانوا يمجدون أنواعا من السرقة يعاقب عليها اللصوص فى اثينا بالعمل فى المناجم .

ا ــ هذا هراء وسفسطة ، فاسبرطة لم يكن فيها مجال للسرقة لان كل شىء كان ملكا شائعا . وما تسميه « سرقة » هو عقاب على الجشع .

ب ــ كان الرومان يحرمون زواج الاخت أما المصريون والاثينيون بل واليهود فكانوا يجيزون زواج الرجل من اخته لابيه ..

ا ــ هذه كلها قوانين قائمة على العرف وعلى التقاليد التحكمية وعلى العادات التى تزول . اما القانون الجوهرى فيبقى دائما . ارنى بلدا واحدا يرى شرفا فى سرقة ثمرة كد الغير أو الحنث بالوعد أو الكذب بغية الاضرار أو الافتراء على الناس أو القتل أو الاساءة لمن احسن اليك أو ضرب الوالدين اللذين يطعمانك .

ب ــ هل نسيت ان جان جاك (يقصد روسو) ، وهو من آباء الكنيسة العصرية قال : « ان أول رجل اجترأ على اقامة سياج حول قطعة من الارض وزرعها كان عدوا « للجنس البشرى » وكان ينبغى استئصاله ، هو مؤسس المجتمع المدنى ، وأن ثمرات الارض للجميع ، وان الارض ليست ملكا لاحد » ؟

ا ـ ... ان كاتب هـذا الـكلام يبـدو انه حيوان غير اجتماعى : فبـدلا من ان ينهب أرض جار عاقل مجد ، كان ينبغى عليه ان يتشبه به فيما عمل ، ولو ان كل رب أسرة حذا حذو هـذا الرجل العاقل المجد لتكونت من ذلك قرية جميلة فى أسرع وقت .

ب ـ اذن فأنت تظن ان من يسطو على الرجل الذى يحيط حديقته ودجاجه بسياج وينهبه شخص لا يحترم واجبات القانون الطبيعى .

ا ـ نعم ، نعم . أعيد عليك ان هناك قانونا طبيعيا ، وهو غير مبنى على الاضرار بالآخرين او الشماتة فيهم .

ب ـ أظن ان الانسان لا يميل الى الشر ويفعله الا اذا وجد فيه نفعا له . ولـكنى أرى أناسـا بلا عدد يجدون نفعهم فى شقاء الآخرين ، وأرى الانتقام شـهوة بالغة العنف وأمثلة مآسـيها تروع النفوس ، وأرى الطمع وهو اشد وأفظع قـد غمر الارض بطوفان من الدماء ، حتى انى كلما رسمت لنفسى صـورة الانسان خيل الى انه شيطان مريد . وعبثا أفتش فى نفسى عن فكرة العدل وفكرة الظلم . وكلما ذكرت القديس ليو يتمسح فى اتيلا الهمجى والقديس جريجورى يتـملق الطاغية فوكاس فى خسة لا قرار لها ، ولويس الثانى عشر الضعيف الذى نسـميه لويس الطيب يتحالف أسفل تحالف مع البابا اسكندر السـادس الذى لوثه الحب الآثم ولطخته دماء ضحاياه العديدين ممن اغتالهم أو دس لهم السم ، وكلما ذكرت الـكاردينال مازاران الذى التمس حماية كروموبل وطرد نسل شارل الاول من فرنسا مرضاة له ، وهم أبناء عمومة لويس الرابع عشر ، كلما ذكرت هـذا ومائة من الامثـلة الاخرى

المتشابهة تبلبل خاطرى ولم أعد أعرف ما الخير وما الشر .

ا ــ صحيح .. ولكن هل تمنعنا الايام العاصفة من الاستمتاع بالشمس المشرقة ... واذا كان اتيلا قاطع طريق والكاردينال مازاران وغدا ، فهل يمنع هذا ان هناك أمراء ووزراء شرفاء ؟.. أليست فكرة العدالة قائمة دائما . فانما تقوم كل القوانين على فكرة العدالة هذه . ان اليونان كانوا يسمون القوانين « بنات السماء » وهذا لا يعنى غير بنات الطبيعة . أليست فى بلادك قوانين ؟

ب ــ نعم .. بعضها صالح وبعضها سىء .

ا ــ ان فكرة القانون هذه كامنة فى قرارة كل انسان اذا كان سليم العقل ، فمن اين استقينا فكرة القانون اذا لم نستقها من فكرة الحق الطبيعي ؟ .. لا جدال فى اننا استقيناها منها .

ب ــ انت على صواب ، فهناك حق طبيعى . ولكن اقرب الى الطبيعة أيضا أن ينسى الناس ان هناك حقا طبيعيا .

ا ــ طبيعى أيضا ان يكون الانسان أعور أو ذا قتب أو أعرج أو ممسوخا أو معتل الصحة . ولكننا نفضل من الناس الاصحاء .

ب ــ وهل هناك عقول عوراء وممسوخة كثيرة ؟..

ا ــ صمتا ! وارجع الى مادة « السلطة » من هذا القاموس .

فعند فولتير اذن ، برغم كثرة مظاهر الشر فى الحياة والمجتمع ، هناك « حق طبيعى » هو مصدر القانون الطبيعى كما انه مصدر فكرتنا عن العدالة والقانون

وعن الخير والفضيلة . ولولا ان فى الانسان هذه الفطرة السليمة التى تهديه الى العدالة والفضيلة لتبلبل أمره وعاش كالحيوان . فالانسان اذن مفطور على الخير وعلى العدل وعلى تمييز الحق من الباطل ، وفطرته هـــذه هى التى تملى عليه استنكار القوانين والنظم والاخلاق الفاسدة .

ولـكن هــذا الحق الطبيعى وهــذا القانون الطبيعى او هــذه الفطرة الانسانية قد تصاب بعاهة من حين لآخر فتعجز عن التمييز . فالطمع مثلا او السلطة المطلقة ، او الجهل ، اشياء تعمى عين العقـــل . ووجود ذوى العاهات بيننا لا ينبغى ان ينسينا ان النـــاس بوجه عام أصـــحاء العقول أصـــحاء النفوس ما لم تفســـدهم المفسدات .

واذا اتفقنا على وجود هــذا الحق الطبيعى وهــذا القانون الطبيعى ، واذا اتفقنا على سلامة الفطرة الانسانية فى مجموعها ألا يترتب على ذلك أن نثق فى قدرة الناس فى مجموعهم على الاهتداء الى التشريعات الصالحة على عكس ما يقول به أصحاب نظرية الحق الالهى ؟.. ان المعركة عند فولتير أولا وقبل كل شىء معركة تنوير ، والتسامح وحرية الفكر وحرية التعبير وسائر الحريات العامة كلها ضمانات لرقى المعرفة وانتشـــار النور بين بنى الانسان .

— ٣ —

كان محور الجدل بين مفكرى القرن الثـــامن عشر موضوعا يبدو لاول وهلة انه من صميم الدين والاخلاق،

ولـكنه كان فى حقيقة الامر أساسا للفكر السيـــاسى والاجتماعى بل والفكر الاقتصادى الى درجة ملموسة . وهــذا الموضوع الذى شغل اذهان مفكرى القرن الثامن عشر هو الفطرة الانسانية أو الطبيعة الانسانية : أهى فطرة خيرة أم فطرة شريرة ، والعالم الذى نعيش فيه ، أهو عالم قائم على الخير أو عالم قائم على الشر . وليس معنى هـذا ان من أولئك المفكرين من أنكر وجود الخير أو وجود الشر ، ولـكن مذاهبهم تعـددت فى جوهر الطبيعة الانسانية وجوهر الوجود فى مجموعه : أيهما الاصيل فيه وأيهما المـكتسب : الخير أم الشر ، ومن هـذا تفرعت مناقشـة علة ما فى الـكون من فساد وما فى اخلاق الناس وسلوكهم من عطب .

أما راى فولتير فى هـذا الموضـوع الذى كثر حـوله اللجاج فهو واضح فى اكثر أعماله ضمنا وتصريحا . وهو مبلور فى « قاموسه الفلسفى » حيث يقول مثـلا تحت مادة : « الانسان ، هل ولد شريرا ! ؟ »

« أليس من الثابت ان الانسان لم يولد فاسدا وانه ليس ابن الشيطان ؟.. فلو ان طبيعته كانت فاسـدة لارتكب الجرائم المنكرة والاعمال الوحشية ما ان تعلم كيف يمشى ، ولاستعمل أول سكين تصـــل يده اليه لطعن كل ما أثار سخطه ، ولشـــابه بالضرورة الذئاب والثعالب الصغيرة التى تعض بمجرد ما تنبت لها النواجذ

« أما الانســان فهو على العكس من ذلك ، وهو فى جميع بلاد العالم كالحمل فى طباعه ابان طفولته . فلماذا اذن وكيف يتحول الانسان فى احايين كثيرة الى ذئب أو ثعلب ؟

« أليس تفسير ذلك انه يولد خلوا من الخير والشر

وان التعليم والمثل الذى يحتذيه والحكومة التى يخضع لها هى التى تحدد نزوعه الى الفضيلة أو الرذيلة ؟ »

ثم ينتقل فولتير بعد ذلك الى القول بأن النساء ارق قلبا وأكثر انطباعا على الخير من الرجال بحكم توفرهن على تربية أطفالهن . ويسوق للتدليل على رأيه بعض الاحصاءات الاولية التى تفيد بأن عدد الخارجات على القانون فى السجون أو من المحكوم عليهن بالاعدام اقل كثيرا من عدد الخارجين على القانون . ثم يذهب الى ان بعض المهن التى يزاولها الناس من دون بعضها الآخر تشيع القساوة فى نفوسهم .

ففولتير اذن على خلاف فلاسفة « الفطرة » كان يعتقد ان الانسان يولد بغير « فطرة » ، أو يولد ونفسه صفحة بيضاء يمكن أن ينقش عليها حب الخير أو يلطخها النزوع الى الشر بحسب البيئة التى ينشأ فيها . ومن هنا كان ايمان فولتير بخطورة اثر التعليم والتنوير فى كل اصلاح اجتماعى وسياسى .

ولكن فولتير لم يكن يواجه الفلاسفة من دعاة الفطرة الخيرة والفطرة الشريرة فحسب ، بل كان يواجه مدرسة كبرى من مدارس الفكر الرجعى فى عصره ، هى مدرسة الفيلسوف لايبنتز التى كانت تبشر بالمذهب المعروف القائل ، انه « ليس فى الامكان أحسن مما كان » . وخلاصة فكر هذه المدرسة ان كل شىء فى الكون والحياة والمجتمع مرتب ومنظم تنظيما طبيعيا عاقلا ومعقولا بحيث نستطيع القول بأن العالم الموجود هو افضل عالم ممكن . فاذا كان به قصور أو شر فذلك لان القصور أو الشر فى طبيعة الاشياء من ناحية ، ولان ما يبدو قصورا أو شرا انما هو كذلك فى جزئيات الحياة

لا فى كلياتها . بل ان القصور الجزئى والشر الجزئى انما ركبا فى الاشياء من أجل غاية سامية هى تحقيق الكمال الكلى والخير الكلى . فنحن اذن نعيش فى افضل عالم ممكن . بل ان من أتباع هذه المدرسة

من نفى وجود الشر بتاتا وذهب الى ان ما نتوهمه شرا فى الحياة انما هو شر فى الظاهر فقط ، اما الحقيقة فهى ان كل شر ظاهر مسخر لتحقيق خير أكبر قد لا ندركه لبعده عنا أو لسموه عن ادراكنا .

وواضح ان هذا المذهب مذهب مسرف فى التفاؤل ، وانه قد يستخدم فى مجتمع فاسد لاشاعة التفاؤل الزائف بين الناس ليرتضوا أوضاع الحياة على علاتها ، كما يستخدم لتسفيه كل نقد لنقائص الحياة ولشرور المجتمع . وهذا ما حدث فعلا فى القرن الثامن عشر قبل الثورة الفرنسية ، فقد وجدت فلسفة « ليس فى الامكان أحسن مما كان » دعاة كثيرين بين فلاسفة الارستقراطية الذين أرادوا أن يصوروا للناس انهم يعيشون فى ظل « أفضل عالم ممكن » ليسدوا الطريق على كل دعوة لاصلاح المجتمع وتقويمه .

وهكذا كتب فولتير روايته المشهورة « كانديد » ليسخر من أنصار هذه الفلسفة ويظهر تعارض رأيهم مع ابسط حقائق الحياة وأبسط قوانين المنطق .

فكانديد اسم فتى وسيم المحيا صبوح الوجه حلو الشمائل يفيض بنضارة الشباب وصراحته فكان كل ما يدور فى قلبه يرتسم على وجهه الصبوح الصريح . وفى هذا يقول فولتير لعل هذا الفتى سمى كانديد ، ومعناها الصريح فى هذا القلب الصريح والوجه الصريح والمحيا الصريح . وكان كانديد يعيش فى قصر شريف

اقطاعى من أشراف عصره بولاية وستفاليا من اعمـــال المانيا ، اسمه البارون توندر دن ترونخ . وكان خـــدم القصر القدامى مشتبهين فى انه ابن سفاح انجبته أخت البـــارون من سيـــد كريم من أهـــل الجيرة ، أراد أن يتزوجها فأبت لا لشيء الا لانه لا يستطيع ان يعدد فى نسبه أكثر من واحد وسبعين جدا من الفرسان . اما بقية شجرة أسرته فقد عدا عليها الزمن فدرست وانطوت مع السنين الغابرات .

وكان سيـــدى البـــارون رب القصر أقوى أشراف وستفاليا ، وكانت لسيدتى البارونة بنت فى الســـابعة عشرة من عمرها غضة بضة تتوهج الصحة فى خـــديها وكان اسمها كونجوند . وكان لسيدى البارون ابن جدير بأن يكون ابن أبيـــه . وقد جاءه أبوه بمؤدب فاضـــل هو الدكتور بانجلوس ليعلمه علم الـــكونيات الـــكونية وعلم اللاهوت اللاهوتى وعلم الميتافيزيقا الميتافيزيقية . فكان الفتى كانديد يحضر هـــذه الدروس ويستمع اليها فى اصغاء شديد مع ابن البارون توندردن ترونخ .

وكان عند المؤدب بانجلوس حلم واحد فى حيـــاته وهو أن يصبح أستاذ الفلسفة فى جامعة وستفاليـــا ، وكان يؤمن بالفلسفة العظيمة القـــائلة « انه ليس فى الامكان أحسن مما كان » ، واننا نعيش فى أفضل عالم ممكن . ويدلل على ذلك بأن الانوف خلقت لتحمل النظـــارات وبأن السيقان خلقت لتلبس الجوارب الحريرية ، وأن الاحجار موجودة فى الطبيعة لتبنى بها القصور والخنازير لتؤكل طول العام . وعنده ان القائلين بأن كل ما فى العالم خير فلاسفة سفهاء فأصح من ذلك ان يقولوا اننا نعيش فى أفضل عالم ممكن بدليل ان قصر سيدى البارون هو أفضل قصر فى وستفاليا .

وكانت الآنسة كونجوند تتنزه ذات يوم فى الغـــابة المجاورة للقصر ، فرأت الدكتور بانجلوس يعطى درســا فى الفلسفة التجريبية العملية لوصيفة أمها ، وهى بنت جميلة طيعة . فاشتاقت كونجوند الى تعلم مثل هــذه العلوم العملية ، وذهبت تتأمل التمرينات العملية المتكررة حتى حفظتها وعرفت معرفة تامة كل علة وكل معلول فى الدكتور بانجلوس ، وبخاصة العلة الـكافية التى تخرج منها النتيجة بحسب تعاليم الفيلسوف لايبنتز وبشيره الدكتور بانجلوس . وذهبت تحلم بأن تكون هى العــلة الـكافية عند كانديد وان يكون هو أيضا علتها الكافية.

والتقت كونجوند بكانديد فى القصر فاحمر وجههــا خجلا واحمر وجهه خجلا ، وكانا وراء ستار. فأسقطت منديلها فانحنى كانديد والتقطه وأعاده اليها ، وأمسك بيدها المتدة وقبلها فى أدب وهو لا يعرف انه ارتكب جريمة . ولـكن البارون توندر دن ترونخ رأى الجريمة وعرف انها جريمة وفهم العلة والنتيجة ، فركل كانديد ركلا موجعا وطرده من القصر ، اما سيدتى البــارونة فتكفلت بصفع كونجوند بعد ان افاقت من اغمائها .

وهكذا بدأت الحياة تقسو على كانديد ، فتشرد طويلا حتى بلغ قرية مجاورة اســـمها فالدبرجهرفترار بكدد كدروف . وكان خـــاوى الوفاض يتهافت من الجوع والاعياء . وتوسم فيه رجلان فى زى عسكرى فتـــوة الفتيـــان فأقبلا عليه وأكرماه بالطعـــام والشراب رغم اعتذاره لهما بأنه لا يملك شروى نقير ، فانتعش الامل فى نفسه وازداد ايمانه بحكمة الدكتور بانجلوس القائلة بأن كل ما هو موجود موجود للخير . بل ان السيدين أعطياه مالا وأبيا أن يأخذا صكا وكان مدار حديثهما أن

الناس ما خلقوا الا ليساعد بعضهم بعضـــا ، ثم بدأ احدهما يسأله ان كان يحب . فقاطعه كانديد الولهان يؤكد حبه للآنسة كونجوند . ولـكن السيد عاد يقول : « لا ! لا ! انما كنت أسألك ان كنت تحب ملك البلغار» . فأجابه كانديد ببساطة انه لا يحبه لانه لم يره أبدا . ولـكن السيد أقنعه بضرورة شرب نخب أحسن ملك فى اوربا ، وبعد الانخاب قالوا له : كفى ! انت منـذ الآن بطلنا المنقذ !

وفجأة وجد كانديد نفسه جنديا فى جيش البلغار ، وبعد أسابيع من التدريب الشاق راجع نفسه فلم يجد لهذه النتيجة علة ولم يفهم لبطولته سـببا واضحا . وخطر له ذات يوم أن ينصرف ، فانصرف فى هدوء . ولـكنه ما بعد فرسخين حتى تجمهر حوله اربعة أشداء ألقوا به فى السجن الحربى بتهمة الفرار من الجيش . وخيره المجلس العسكرى بين الجلد على الطريقة البلغارية فتشترك الاورطة كلها فى جلده ستـــا وثلاثين مرة أو الاعدام رميا بالرصـــاص . فاختـــار الجلد مؤكدا ان الانسان خلق مخيرا لا مسيرا . ولـكن بعد الف جلدة أخذ يضرع اليهم أن يعدموه . فعصبوا عينيه وجعلوه يركع، ولولا ان ملك البلغار مر فى ذلك الوقت وسأل عن جريمته وتيقن من سذاجته لاصبح فى خبر كان . ولـكن الملك عفا عنه ، وبعد اسابيع أبرأ الطبيب جراحه .

واشـــتبك ملك البلغار مع ملك الابار فى معركة ، واصطف الجيشان وجها لوجه فى احسن حلة . وكانت المدافع علة كافية لقتل ستة آلاف جندى من كل فريق ، والبنادق علة كافية لازالة عشرة آلاف مقاتل من أفضل عالم ممكن ، اما السونكى فكانت علة كافية لقتل بضعة

آلاف اخرى حتى تجاوز القتلى ثلاثين ألفا ، واقام كل من الملكين صلاة شكر فى معسكره ، وانطلق كانديد من هذه المجزرة بين الجثث ليفكر فى مسألة العلل والمعلولات .

وفى قرية بعيدة كاد ان يتضور جوعا ، وكان هناك رجل يعظ الناس فى الخير ويحضهم على الاحسان للفقراء . فاقترب منه كانديد وطلب حسنة ليشترى رغيفا ، فسأله الرجل ان كان يؤمن بأن المسيح الدجال يمشى الآن بين الناس فلما اجاب كانديد انه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع وذكره بأنه جائع انهال عليه سبا وشتما ، وكاد يصيبه الاذى لولا ان رجلا طيبا اسمه جيمس اخذه فى بيته وعنى بشأنه . وكان جيمس هذا ينسج السجاجيد العجمية فى هولندا ، فأخذ يعلم كانديد هذه الحرفة . واهتزت نفس كانديد لما رآه من عطف جيمس عليه فقال لصاحبه ان الدكتور بانجلوس قد علمه صدقا حين علمه ان كل ما هو موجود للخير .

وفى اليوم التالى التقى كانديد بشحاذ تتقزز النفس لرؤيته ، مهلهل الثياب شائه الخلقة أكلت القرح طرف أنفه وبعض فمه ، ولكن كانديد الطيب أخذته به رحمة فأعطاه المال القليل الذى أخذه من صانع السجاجيد ، وهم بالانصراف . ولكن الشحاذ استوقفه قائلا : « ألا تعرفنى ؟ .. انا صديقك بانجلوس » . فأخذ كانديد العجب والاسى لما رآه من سوء حال أستاذه ، واستفسر منه عما جرى له ولكونجوند . فعلم منه ان كونجوند قد ماتت . وما ان سمع كانديد بموت حبيبته حتى مادت الارض تحت قدميه وذهب يكفر بكل ما تعلمه عن الدكتور بانجلوس من ان كل ما يوجد للخير ، وانه ليس

فى الامكان احسن مما كان ، وان هـذا العالم أفضل عالم ممكن . وازداد حزنه حين علم بأن عسكر البلغار اغتصبوها وأطاحوا براس أبيها البارون الذى أراد حمايتها ومزقوا أمها البارونة اربا اربا وفتكوا بأخ كونجوند ودمروا القصر تدميرا . اما فى وصف حاله فقد قال الدكتور بانجلوس ان هـذا المرض الخبيث الذى شوه وجهه وهو الزهرى انما جاءه من حب باكويتا وصيفة البارونة ، وقد أخذته باكويتا من راهب عالم أخذه بدوره من كونتيسة عجوز كانت قد أخذته من كابتن فى الخيالة أخذه من مركيزة أخذته من اسبانى .

وظن كانديد ان الشيطان لا بد ان يكون أصل هـذه السلسلة المتصلة من الداء الخبيث ، وهم بنقض نظرية استاذه الدكتور بانجلوس فى ان هذا أفضل عالم ممكن وان كل ما يوجد يوجد للخير ، لولا ان بانجلوس بادر بتصحيحه قائلا : ان كل هـذا التسلسل فى العلل والمعلولات لا غناء عنه فى بنـاء أفضل عالم ممكن . فالاسبانى قد جاء به من جزيرة فى امريكا ، ولولا ان الاسبانى ذهب الى امريكا لما عرف الاوربيون الكاكاو وغيره من خيرات امريكا . فواجب كانديد ألا يتسرع فى نقض تعاليم أستاذه وأن يستمسك بالحكمة القائلة : ان كل ما يوجد يوجد للخير .

— ٤ —

برغم محنته الشديدة ، بعد ان اصابه الداء الخبيث ، داء الزهرى ، ظل الاستاذ بانجلوس على ايمانه الثابت بفلسفة التفاؤل الذى لايحد بحدود . وأراد به تلميذه

كانديد خيرا فأوصى به صديقه المحسن جيمس ليأخذ بيده وينفق عليه حتى يبرأ من علته . وبالفعل أخــذ جيمس الدكتور بانجلوس تحت رعايته ، واستخدمه كاتب حسابات فى متجره . وبعد فترة رحل معه ومع كانديد الى لشبونة لقضاء اعماله .

ولم يغير بانجلوس شيئا من طباعه ومبادئه ، فأخــذ يهدى جيمس الى فلسفة التفاؤل المسرف ، ويعلمه ان كل شيء فى الحياة على خير حال ممكن ، او بلغته هو : ليس فى الامكان احسن مما كان . ولــكن جيمس كان يجيبه : « لابد ان البشر أفسدوا طبائعهم شيئا ما .. فهم لم يخلقوا ذئابا ومع ذلك فقد صاروا ذئابا .. والله لم يعطهم مدافع او سونكى ، ومع ذلك فقد صــنعوا المدافع والسونكى ليدمر بعضهم بعضا . ومن أمثلة هذا الفساد ذلك القانون الذى يقضى بالحجز على ممتلــكات المفلسين فيضيع على الدائنين حقوقهم ! »

وهنا يجيبه الدكتور بانجلوس : « كل هذا لازم ولا غناء عنه . ومن المصائب الخاصة يتألف الخير العام . وهكذا فكلما ازدادت المصــــائب الخاصة ازداد الخير العام .. »

وما ان انهى بانجلوس عبـــارته المتفائلة حتى هبت عاصفة عاتية جعلت سفينتهم كريشة تتقاذفها الامواج . وهجم الموج على سطح السفينة فاختطف بانجلوس ، ولــكن جيمس الطيب تشبث به قبل ان يغرق وظــل يجذبه حتى استطاع ان يتسلق الى سطح المركب ، غير ان جيمس الطيب فقد توازنه فسقط فى البحر وغرق جزاء له على بطولته . كل ذلك ولشـــبونة على مدى النظر ، وأراد كانديد ان يقفز لينقذ صــاحبه المحسن

اليه ، ولكن الدكتور بانجلوس رده عن ذلك قائلا : لابد ان هناك حكمة فى هذا : لابد ان جيمس قام بهذه الرحلة الى لشبونة ليفرق .

وبعد قليل غرقت السفينة وغرق كل من فيها الا كانديد وبانجلوس وبحار شرس عربيد .

وما ان بلغ ثلاثتهم المدينة حتى زلزلت الارض زلزالها واندلعت منها ألسنة اللهيب فتداعت المنازل ، وفى دقائق معدودة صارت المدينة الجميلة الى خرائب وأكوام من تراب . أما عدد الضحايا فكان ثلاثين الفا . وكان ثلاثتهم من الناجين . وأخذ البحار العربيد يمشى بين جثث القتلى باحثا عن مال ينهبه وعن شراب يشربه. وجلس كانديد وبانجلوس بين أشتات الناجين وكانوا يطعمون ويبلون خبزهم بدموعهم ، فأخذ بانجلوس يعزيهم قائلا : « ان ما حدث ما كان يمكن الا أن يحدث، ولا بد ان ما حدث كان للخير . فاذا كان هذا البركان فى لشبونة فمحال ان يكون فى مكان آخر ، ومحال ان يكون شىء فى غير موضعه ، وكل ما فى الدنيا خير .. »

وسمعه رجل من محاكم التفتيش يقول هذا الكلام فاتهمه بالزندقة لان الايمان الصحيح يقول : ان الزلزال والبركان هما عقاب الله للانسان على خطاياه . واحاط الحرس الاشداء بالدكتور بانجلوس وبتلميذه كانديد واقتادوهما الى السجن حيث جلدا بالسياط جلدا مبرحا . ثم شنقوا بانجلوس وقذفوا بكانديد فى عرض الطريق . وهكذا خرج بانجلوس من أفضل عالم ممكن وهو يقول كل ما يحدث يحدث للخير !

وشد كانديد رحاله الى امريكا حيث صادفه حسن الطالع فجمع اكداسا من الذهب وثمين الدرر من

الدورادو . وكان قد علم ان حبيبته كونجوند حية ترزق فعاد الى اوربا للبحث عنها وكان فى معيته فيلســـوف متشائم يدعى مارتن على نقيض بانجلوس المتفـــائل . فأصبح كل لحظة يسمع مارتن يقول : ليس فى الامكان أسوأ مما كان ، بعد ان كان يسمع بانجلوس فى كل لحظة يقول : ليس فى الامكان احسن مما كان . وبدأ بحث كانديد عن حبيبته كونجوند .

وبلغ كانديد البندقية وفى يوم الـكرنفال التقى فى بهو فندقه بستة رجال وراء كل منهم تابع يخاطبه قائلا : يا صاحب الجلالة : وظن اولا انهم من المحتفلين بالكرنفال، ولـكنه عرف فيما بعد ان أحدهم هو السلطان احمـد الثالث الذى عزله ابن أخيه السلطان محمود من عرش تركيا وشنق وزراءه ، والثانى هو ايفـــان امبراطور روسيا الذي عزل وهو في المهـــد ورباه أبوه وأمه فى السجن ، والثالث هو تشارلز ادوارد ملك انجلترا الذى تنازل له أبوه عن العرش فحاول الـدفاع عن العرش ولـكنه طرد وفقد ثمانمائة من أتباعه رؤوسهم. والرابع هو ملك بولندا السابق الذى احتلت بلاده ففقد عرشه. والخامس هو ملك آخر لبولندا فقد عرشـه مرتين فى ظروف متشابهة . والسادس هو ثيودور ملك كورسيكا الذى أصبح مفلسا لا يملك ثمن قميص .. فأعطـــاه كانديد جسنة .. وأحس بزهو عظيم

وأعلن الفيلسوف مارتن لـكانديد ان هذا يؤيد رأيه فى الحياة . فعزل الملوك والتنكيل بهم شيء من روتين الحياة ، ولا داعى للحزن عليهم فهنـــاك ملايين البشر أجدر منهم بالرثاء .

وعلم كانديد ان حبيبته كونجوند وأخاها البـــارون

وبانجلوس قد أسرهم الترك وباعوهم بيع الرقيق . فعجب لذلك عجبا شديدا فقد رأى بنفسه بانجلوس معلقا فى المشنقة بلشبونة . اما كونجوند فكانت تغسل الصحون فى سراى أمير بترانسيلفانيا وباع كانديد أكثر جواهره التى جمعها فى امريكا لتجار من يهود اسطنبول بأبخس ثمن ليفتديهم ويعتقهم .

وروى الدكتور بانجلوس على كانديد كيف نجا من مشنقة محكمة التفتيش فقال : ان يوم اعدامه كان يوما مطيرا وفى عجلة الجلاد لم يحكم حبك الخية ، وهكذا ظنوه مات وهو حى ، وبدأ الطبيب فى تشريح جثته فصرخ ففر الطبيب كأنه رأى الشيطان . ثم ابتسم بانجلوس وأضاف : ألم أقل لك اننا نعيش فى أفضل عالم ممكن وان كل ما يحدث يحدث للخير ؟

اما كونجوند فقد وجدها كانديد شائهة الخلقة كأنها عجوز شمطاء من كثرة المحن ، فارتاع وطار الحب من قلبه ، ولكنه رغم ذلك طلب يدها وفاء بوعده . وهنا تدخل اخوها البارون الجاحد ورفض أن تتزوج اخته سليلة الاشراف من رجل لا نبالة فى دمه وصاح قائلا : انه يفضل الموت على ذلك . ولم يكن كانديد فى الحقيقة حريصا على هذا الزواج ، ولكن العناد والكبرياء المجروحة جعلاه يرد البارون المتغطرس الى حياة الرق التى كان يحياها ، ويتزوج من كونجوند .

وهكذا عاش كانديد مع كونجوند بين صديقيه الفيلسوف المتفائل بانجلوس والفيلسوف المتشائم مارتن فى ضيعة صغيرة اشتراها بما تبقى له من مال . وكان الفيلسوفان يتجادلان عامة النهار والليل فى الفلسفة والميتافيزيقا بدلا من أن يزرعا الحقل : هذا يقول اننا

نعيش فى أفضل عالم ممكن وذاك يقول اننا نعيش فى أسوأ عالم ممكن

وكان للجماعة جار من دراويش الترك واسع الحكمة ، فاحتكمت اليه الجماعة لتعرف لماذا خلق الله الانسان وما الخير وما الشر . وأجابهم الدرويش هازئا : اذا أرسل عظمة السلطان سفينة الى مصر أتراه يفكر ان كانت فئران السفينة سعيدة أم شقية ؟ ثم أوصد الدرويش بابه دونهم

ولكن الحكمة أتت كانديد من مكان آخر . ففى عودتهم من بيت الدرويش رأوا شيخا وسيم المحيا يتنزه راضى البال فى بستانه الصغير الجميل . واستضافهم الشيخ وقدم لهم قهوة ، وعطرت بناته لحاهم بالطيب . وعجبوا لهدوئه وسعادته واسطنبول فى ثورة جارفة خنق فيها وزيران والمفتى وأعدم مئات على الخازوق فأجابهم الشيخ انه يعيش فى عزلة وهدوء لايسمع بمفت ولا يستقصى أنباء وزير ولا يزعج نفسه بشئون السياسة والفلسفة ، وانما يزرع بستانه بيديه ويبيع ثمار كده للغير وهذا هو سر سعادته

وعادت الجماعة الى حقل كانديد ، وعاد بانجلوس ومارتن الى جدلهما الميتافيزيقى الذى لا ينقطع . فبانجلوس يثبت ان فطرة الانسان خيرة وان كل ما يحدث يحدث للخير ، واننا نعيش فى أفضل عالم ممكن ، ومارتن يثبت عكس ذلك . فنظر اليهما كانديد وقال :

كل هذا قد يكون صحيحا ، ولكن فليزرع كل بستانه

وهذا كان رأى فولتير فى الجدل البيزنطى الذى انتشر فى عصره حول الفطرة الانسانية

نقش على قبره : « أعد الناس ليكونوا أحرارا » ، وهو نقش متواضع ينم عن اتزان صاحبه وتجنبه الاسراف فى كل شىء . فلو قد كان فولتير من المسرفين أو ممن يستسلمون للعاطفة الهوجاء لتتطلع الى المستقبل القريب وهو على فراش الموت فرأى الثورة الفرنسية تندلع سنة ١٧٨٩ ، أحد عشر عاما بعد وفاته ، وصاح قائلا : « انقشوا على قبرى : هنا يرقد فرنسوا مارى ارويه الشهير بفولتير ، ولد عام ١٦٩٤ وتوفى عام ١٧٧٨ : جعل الناس أحرارا »

فلقد كان فولتير فى طليعة نفر من الكتاب والمفكرين والعلماء فى القرن الثامن عشر مهدوا لقيام الثورة الفرنسية بالفكر والقلم وزلزلوا طغيان الملكية وطغيان الكنيسة فى أوربا كلها ، لا فى فرنسا وحدها ، بل وفى العالم كله ، فما من ثورة زلزلت طغيان الملكية وطغيان الاقطاع وطغيان الكهنوت فى اية بقعة من بقاع الارض الا وكانت متأثرة بطريق مباشر أو غير مباشر بأفكار فولتير وروسو ومونتسكيو وديدرو ودالمبير وعامة الكتاب المعروفين باسم كتاب «الموسوعة» أو « الانسكلوبيديين »

وقد كان أثر فولتير فى ايقاظ الشعور الثورى وتنبيه الناس الى مفاسد الاستبداد المادى والروحى أعظم من اثر أى مفكر آخر من أبناء جيله باستثناء روسو ، أو ربما كان أعظم من أثر أى مفكر آخر مع اطلاق القول ودون احتياط فيه . فاذا اردت الدليل الملموس على هذا الاثر العظيم فأذكر انه بين قيام الثورة الفرنسية

وعام ١٨٣٥ طبعت مجموعة أعماله الكاملة أربعا وثلاثين طبعة اى بمعدل طبعة كل عام ونصف تقريبا بل أذكر انه نشر فى السنوات السبع الواقعة بين ١٨١٧ و ١٨٢٤ من أعماله الكاملة ٣١٦٠٠ مجموعة تتكون من ١٥٩٨٠٠٠ مجلد

ففولتير اذن كان فى عصره ولا يزال فى عصرنا هذا كاتبا مقروءا على أوسع نطاق ، وهو يمتاز على غيره من الكتاب بأن قراءه من جميع الطبقات ، فالاشراف وسراة الناس والمترفون أنفسهم وجدوا فى الماضى ويجدون فى الحاضر متعة فى قراءته لا تعدلها متعة وحكمة فى أفكاره قل أن تبلغها حكمة رغم ما يكيله لهم ولجورهم من سخرية مريرة . والمثقفون يأنسون اليه والناقمون على مظالم المجتمع يلتمسون فى أعمال فولتير الكثيرة ألذع فكاهة وأمر سخرية وألمع ذكاء ، أكاد أقول فى كل جملة خطها قلمه ونقد بها المجتمع العبودى

واذا أردت أن تتحقق من أثر هذا المفكر العظيم والساخر النادر فى بنى عصره فاعلم انه حين زار باريس آخر زيارة له بعد غيبة سبع وعشرين سنة كان يقيم ابانها فى بلدة فرنيه على الحدود السويسرية ، أعلنت المدينة ذلك اليوم اجازة رسمية فيها ونصبته الاكاديمية الفرنسية رئيسا لها وتجمهرت الجماهير حول مركبته فى مظاهرة عظيمة تحييه وتهتف له بطول الحياة . وفى المساء مضى فولتير الى مسرح الكوميدى فرانسيز ليشهد تمثيل مسرحية من مسرحياته اسمها « ايرين » ، مثلتها ترحيبا بمقدمه ، فوجد طريقه الى مدخل المسرح بين صفين من أجمل نساء المجتمع قد اصطففن لاستقباله ، وتعطل التمثيل ولم يرفع الستار عشرين دقيقة كاملة

كان النظارة يحيون أثناءها هذا الكاتب الشيخ الذى كان يومئذ فى الرابعة والثمانين من عمره ، وهو مطل عليهم من مقصورته . وحول الفندق الذى أقام فيه فولتير احتشدت الجماهير من كل طبقة تحييه هاتفة : « عاش فولتير منقذ كالاس »

فمن يكون كالاس هذا الذى ارتجت له ضمائر الفرنسيين فى تلك الحقبة البعيدة حتى نظمت من أجله المظاهرات واستقبل بسببه فولتير فى باريس استقبال الفزاة الفاتحين

لم يكن كالاس رجلا واحدا ، بل كان أسرة بكاملها مكونة من اب وأم لهما جملة أولاد وبنات ، وكان أحد هؤلاء الاولاد شبه أبله وقد أقدم على الانتحار ، فجر انتحاره الى سلسلة من المآسى أحاقت بالاسرة كلها . فقد كان آل كلاس يدينون بالمذهب البروتستانتى وفرنسا كما هو معلوم بلد كاثوليكى . وذهب بعض رجال الدين الكاثوليك الى أن الولد لم يمت منتحرا بل مات مقتولا بيد والده لانه أراد أن يتحول من البروتستانتية الى الكاثوليكية . ولم يكن هناك أى دليل فى يد الكنيسة الكاثوليكية على صحة هذه التهمة ، ولكن كالاس قبض عليه بالرغم من هذا وأعدم وسجنت بناته فى بعض الاديرة ونفى اولاده

وقد بحث فولتير قضية كالاس بنفسه وانتهى رايه الى أن الرجل راح ضحية التعصب الدينى

وقد جاهد بقلمه وماله سنوات طويلة حتى حكمت المحكمة ببراءة كالاس بعد ادانته . وكتب فى ذلك عددا كبيرا من الكراسات والخطابات ، وهاجم الرأى العام الذى استسلم فى هذه القضية لشعور الغوغاء والمتعصبين

حتى انتصر فى النهـــاية . وبعد تبرئة كالاس رد الى زوجته اعتبارها وأفرج عن بقية أفراد الاسرة

من أجل هذا الكفاح فى سبيل العدالة لقى فولتير كل هذه التحية الحارة بين قومه

ويخطىء من يحسب ان فولتـــير كان ثائرا بالمعنى المفهـــوم المقتــرن بالعنــف ، فهــو قــد كان فى طليعـــــة كتاب عصره فى الدفاع عن الحـــريات الشخصية والحريات العامة والمساواة أمام القانون ، كما كان عدوا للعنف ، يبغض الاستسلام للعاطفـة ، وينادى بأن التعصب هو العدو الاول الذى ينبغى أن يحارب حتى يعم التسامح بين الناس

ولو انه عاش ليرى الفظائع التى ارتكبتها الثـــورة الفرنسية باسم المبادىء العالية التى بذرها هو وكتاب عصره فى نفوس الناس لما ابتهجت نفسه لما رأى ، بل لاشمأز من التطرف الذى ذهب اليه زعماء تلك الثورة ، ووجد فى تعصبهم الاعمى لمبادئهم ومصالحهم نقيضـــا واضحا لما كان ينادى هو به من الاعتدال والتسامح واحترام الذات الانسانية وتحكيم العقل فى كل شىء . فهو ما هاجم الاستبداد الاقتصـــادى والروحى الذى كانت تفرضه الملكية والاقطاع والكنيسة الكاثوليكية الا لخروجه على العقل ، وتجاوزه كل معقول

وليس هناك أبعد من الشقة التى تفصل تفكير فولتير القائم على العقل ، من تفكير جان جاك روسو القائم على العاطفة ، رغم ان كليهما كان يعمل لغاية واحدة ألا وهى تقويض الملكية والاقطاع والكنيسة الكاثوليكية

ففولتير كان يبغض روسو ويدرك ان دعوته لتقديس الغرائز الفطرية فى الانسان واطلاقها من عقالها الذى

حبستها فيه الحياة المدنية والاجتماعيـة دعوة مؤدية حتما الى تعصب وحماسة وعاطفية من نوع جديد

وفولتير لم يكن يرى ما رآه روسو من أن الانسان مفطور على الخير أو خير بالفطرة . وان ما به من شرور انما هو وليد الحياة الاجتماعية والمدنية المصطنعة فلا سبيل الى اذكاء هذه الفطرة الخيرة الا بالثورة على الحياة الاجتماعية وعلى المدنية المصطنعة ، والعودة الى الطبيعة العذراء ، والى الفطرة المطلقة . كذلك لم يكن فولتير يرى ان الانسان مفطور على الشر لا سبيل الى اصلاحه أو ترقيته أو التقدم به نحو مستقبل شريف سعيد

وانما اتخذ فولتير لنفسه طريقا وسطا وهى الاعتقاد بأن فى الانسانية شرا كثيرا هو وليد العوامل المختلفة وأهمها الجهل والاستبداد والاسترقاق والاستغلال والهوس العاطفى والتعصب ومجانبة العقل والعلم والتسامح . وهذا الشر الكثير يمكن ازالته لانه حادث وليس قديما ، ومكتسب وليس أصيلا . وازالة هذا الشر تكون بالتنوير والقضاء على الخرافات وتدعيم سلطان العقل ، ونشر التسامح فى نفوس الناس وتقليم أظافر المستبدين والمستغلين

وقد كان هذا الاتجاه الى العقل والتنوير طبيعيا فى فولتير ، لأن فولتير كان ابن عصره ، بل كان قمة عصره

وهل يعرف القرن الثامن عشر الا بأنه «عصر العقل» ؟ وهل له صفة الا انه « عصر التنوير » . . وقد بلغ الايمان بالعقل والتنوير أسمى درجاته فى فولتير ، ووجد فى كتاباته أقوى دعوة وأوضحها وأجملها تعبيرا

وحين نقول ان فولتير كان ابن القرن الثامن عشر انما نقصد انه كان رمزا لحضارة الارستقراطية وحكم

الاشراف الذين جاهد فولتير فى سبيل تقويض دعائمهما

فقد كان فولتير نفسه من طبقة الاشراف ، وقد قضى فترة من حياته فى البلاط ، وكان كفيره من أبناء طبقته الاذكياء يطمع فى أن يلعب دورا سياسيا فى بلاده ، ولكن آماله خابت لكثرة من أغضبهم من رجالات الدولة والكنيسة ، فقد كان فولتير صاحب نفس ساخرة وصاحب سخرية لاذعة ، لا يرى نقصا ويسكت عليه ، فكان يرسل الفكاهات الموجعة فى أكبر الكبراء وفى أئمة الكهنوت كلما رأى فيهم اعوجاجا حتى استفز منهم نفرا عديدا ، وحين كثر أعداؤه فى البلاط وفى المجتمعات الارستقراطية لم يعد له سبيل الى البقاء بينهم ، واضطر الى الانزواء من باريس الى بلدة فرنسيه عشر سنوات كاملة مع عشيقته مدام دى شاتليه . وكانت مدام شاتليه من مثقفات النساء فى زمانها . فكانت تحيط فولتير بجو الدرس والعلم والادب اللازم لازدهار ملكاته ووفرة انتاجه . فكانا يستيقظان فى الصباح الباكر ويعكفان على الاطلاع والكتابة عامة اليوم ، ولقد تعلمه الرياضة أو تشرح له نظريات نيوتن . وقد بلغ من توفرهما على العمل انهما كانا لا ينامان أكثر من أربع أو خمس ساعات يوميا

وحين ذاعت شهرة فولتير كأديب ومؤرخ دعاه ملك بروسيا العظيم فردريك الاكبر ليقيم فى بلاطه فانتقل الى بلاطه بعد وفاة مدام دى شاتليه . وكان فريدريك نفسه ملكا مثقفا يحمى الثقافة والمثقفين ويقربهم منه ويسخو فى وصلهم ويحيط نفسه بكوكبة من كبار أهل الفن والعلم والادب . ولكن فولتير على شدة اعجابه بفريدريك ، وفريدريك رغم شدة اعجابه بفولتير كانا فى شحان دائم ، يتخاصمان فى النقاش ويأخذ كل منهما

الآخر بالعنف واللجاج ولا سيما وان فولتير الساخر كان دائم التعريض ببعض من فى معية عاهل بروسيا من رجال الفكر . وهكذا انتهى هذان الصديقان الى فرقة ، وفر فولتير من بلاط فريدريك الاكبر بعد أربعة أعوام عاصفة ، وقدغضبعليه فريدريك غضبا شديدا واوشك ان يزج به فى السجن

واستقر فولتير فى بلدة فرنيه التى خلد ذكرها بمقامه فيها خمسا وعشرين سنة متصلة الى آخر سنة من عمره . وفى هذه السنوات الخمس والعشرين قويت دعوة فولتير الى الاصلاح واشتد نقده لمفاسد النظام القائم حتى غدا اللواء الذى تجمع حوله الجمهوريون واعداء الاقطاع وكل راغب فى الثورة على استبداد الملكية والكنيسة . وقد كان فولتير يرجو فى أول الامر أن يجد من الملك ما يطمع فيه من مكافأة وتشجيع ، وحين يئس من ذلك ادرك ان مكانه الطبيعى مع الشعب . فغذى بكتاباته جميع الاتجاهات الثورية التى تجمعت فى استيلاء الشعب على الباستيل عام ١٧٨٩

ولكن فولتير رغم تغذيته للتيارات الثورية التى كانت تتلاطم فى فرنسا مع الملكية المستبدة والاقطاع الفاشم والكنيسة المتعفنة خادمة الملكية والاقطاع ، لم يكن يفهم بالثورة على هذه الاشياء جميعا ما كان يفهمه غيره بها . وانما كان يقصد بالثورة سحق التعصب والجهل ونشر التسامح والعلم وازالة الاسترقاق والاستغلال واقرار الحرية والمساواة أمام القانون . أما الثورة التى يسودها الغضب والتطرف وتذهل الناس عن رشدهم، فلم تخطر له على بال

من أجل هذا نستطيع ان نقول ان فولتير رغم انه مهد

كل هذا التمهيد الخطير للثورة الفرنسية كان فى حقيقة الامر ابن عصره ، ذلك العصر الذى يسمونه عصر العقل والتنوير

تقول : وكيف يكون عصر الاقطاع أو الارستقراطية الظالمة عصر العقل والتنوير من ناحية ، وكيف ينطوى على كل هذه المظالم والمفاسد والجهالات التى يحدثنا عنها التاريخ من ناحية أخرى ؟

استمع الى قول برناردشو فى تفسير الثورات تفهم معنى هذا التناقض العجيب فى طبائع الاشياء

فالرأى عند شو ان الثورات لا تندلع بسبب نجاح الدعوة الى الاصلاح ، ولكنها تندلع بسبب فشل هذه الدعوة . والثورة الفرنسية كغيرها من الثورات لم تنشب لان الناس استمعوا الى أقوال فولتير وأمثاله من المحذرين ، ولكنها نشبت لأنهم لم يستمعوا الى أقوالهم . فلو قد استمع الناس للدعوة الى الاصلاح لصلحت حالهم فزالت أسباب الثورة عليهم من تلقاء نفسها

وهذا ماكان يقصد اليه عقلاء الارستقراطية، وأمامهم فولتير ، بالعقل والتنوير . بالعقل والتنوير ينبغى ان يتم الاصلاح . . فان لم يتم الاصلاح بالعقل والتنوير، تم بالعاطفة والتدمير

روسو

١

كان عجيبا أمر هذا الرجل الذى امتلأت حيـاته بالمتناقضات الهوجاء . فقد قضى أخصب فترة فى حياته، الى السابعة والثلاثين من عمره ، خاملا لا ينبىء شىء فى سيرته بأنه سيخرج منه هذا الاديب العظيم والفيلسوف الكبير والثـورى الخطير الذى دكت فلسـفته قلاع الارستقراطية والاقطاع . ثم هبط عليه الوحى فجـأة ولازمه اثنتى عشرة سنة فزلزل بكتاباته الفكر الاوربى والمجتمع الاوربى ، ولا زال حتى اليوم يزلزل الفكر والمجتمع فى كل مكان على وجه الإرض فيه طغاة وعبيد وفيه تستغيث فطرة الانسان الملهمة من أسر الحيـاة المدنية وتحتج العاطفة المتمردة على ارهاب العقل والعلم والنظام . وبعد أن زلزل الدنيا بكتاباته عاد اليه خموله الاول وانتهى كما بدأ رجلا ضائعا بين الاحلام السعيدة والاحلام السقيمة حتى مات فى ١٧٧٨ عن ست وستين سنة

ولد جان جاك روسو فى مدينة جنيف عام ١٧١٢ لأسرة فرنسية الاصل استوطنت سويسرا زمنا فرارا من الاضطهاد الدينى ، فقد كانت من الهوجونوت أو البروتستانت الفرنسيين الذين نزحوا عن فرنسا اتقاء لعنت الكاثوليك . وماتت أمه وهى تلده فلم يبق له الا أبوه الطيب الغريب الاطوار ..

وكان والد روسو صانع ساعات فى جنيف ، لقن ابنه جان جاك حب الحرية وحب جنيف ، وكان يقول له فى طفولته : « أحب وطنك يا جان جاك » ولم يكن وطنه هذا فرنسا بحضارتها الزاهرة ، الظالمة ، ومجتمعها الملكى الاقطاعى المعقد الذى اختلط فيه البذخ الفاسق والفكر المستنير ، بل جنيف الجمهورية البسيطة المتواضعة التى يعيش فيها الناس عيشة بسيطة ساذجة قريبة من الطبيعة . وكان أبوه يقول له : « انت جنيفى ، وفى يوم من الايام سترى أقواما غير قومك ولكنك لن ترى مثلهم أحدا » . وكان الأب لا ينسى أن يعلم ابنه ان نظام الحكم الجمهورى الديمقراطى البسيط فى جنيف خير الف مرة من نظم الحكم فى أعظم البلاد وأرقى المجتمعات

كل هذا تعلمه جان جاك روسو فى طفولته ، فلا غرابة اذا تركت هذه التعاليم فى نفسه أثرا عميقا لم تمحه الايام ، أثرا لا بد من فهمه لفهم نظريات روسو ، الاجتماعية والسياسية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بنظم الحكم ، ففى حديث لروسو عن الديموقراطية نجد أن وراء أفكاره الاساسية يتمثل مجتمع جنيف الصغير المحدود ، الشبيه بمجتمع المدينة ـ الدولة أو الدولة ـ المدينة فى العالم القديم ، أو فى العصور

الوسطى ، لا المجتمع القومى الضخم فى أمة من الحجم الكبير . ولم يكن غريبا أن يوقع روسو كتاباته حين بدأ يكتب : « جان جاك روسو : مواطن من جنيف » وكان يفعل هذا فى فرنسا التى انتقل اليها ليتبوأ فيها مكانة بين أقطاب الفكر الانسانى

ولم يكن هذا كل ما أخذه روسو عن أبيه . فقد كان أبوه مغامرا كثير الاحلام ، أفاقا يكره حياة الاستقرار ، عنيف الطبع ، قلق النفس يهيم على وجهه فى الآفاق . وكانت له نفس طفل كبير، وكان لا يمل قراءة الروايات . وقد روى جان جاك روسو أنه لما كان فى السادسة من عمره كان هو وأبوه يجلسان يقرآن الروايات حتى تظهر تباشير الصباح فينهض أبوه خجلا ويقول : « هيا ننام ، اننى طفل اكثر منك »

هذه هى المدرسة الغريبة التى تعلم فيها جان جاك روسو . وكان فى حداثته يلتهم كل ما تصل اليه يده ، فقرأ بلوتارك وهو بعد فى السادسة وحفظه عن ظهر قلب ، وأتى على أكثر القصص فى هذه السن الباكرة ، فتحول الى ولد حالم خجول يعبد البطولة ويعيش بين أبطال الخيال ، ونزع الى الوحدة وتأججت فيه العاطفة والتهب الوجدان

وتخلى عنه أبوه وهو بعد فى العاشرة فهجره وتركه لرحمة الاقدار . ولم تقس الحياة على جان جاك الصغير فى هذه الفترة الحرجة من حياته ، فلقى مودة ورحمة ممن قابلهم . ولكن حياة التشرد هذه جعلته يشبه أغرب الفتيان ، فنشأ فتى حالما كسولا مولعا بالتسكع متقلبا لا يعتمد عليه ، خاليا من الارادة يتحول مع كل ريح ، لا مطمع له فى الحياة الا العيشة الهادئة القليلة

الضوضاء التى ينعم فيها بأحلام المراهقة وبارضاء طباعه الشهوانية

وفى فرنسا التقى روسو سنة ١٧٢٨ ، وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره ، بسيدة تكبره سنا هى مدام دى فارانس كانت تقيم فى بلدة انيسى . وعلق قلبه بها واختلط فى نفسه هيام العاشق واحساس الفتى الذى حرم عطف الام منذ ولادته ، فكان يسمى هذه السيدة الشابة « ماما » . وأقصته السيدة فارانس عنها بعض الوقت ليشق طريقه فى الحياة ويبنى مستقبله ، فأخذ يتشرد سنوات من بلد الى بلد سيرا على الاقدام ، فقطع الطريق من أنيسى الى تورين عابرا جبال الالب ، ثم مشى من تورين الى ليون ومن ليون الى لوزان ومن لوزان الى نيوشاتل ومن نيوشاتل الى باريس . وأخيرا عاد الى « ماما » فى بلدة شامبيرى حيث انتقلت . ولم تجد مدام فارانس وسيلة لرد هذا العاشق الشاب ورق له قلبها فقبلته فى دارها . وأقام جان جاك معها ثلاث سنوات ، بين ١٧٣٨ و ١٧٤٠ ، على مقربة من شامبيرى كانت له بمثابة الحياة فى فردوس أرضى . وقد لازمته صورة مدام دى فارانس طول حياته فكانت آخر صفحات خطها فى حياته تفيض بعرفان الجميل « لماما » الطيبة هذه ..

وفى أثناء مقام روسو بشامبيرى كان يلتهم كل ما يستطيع أن يلتهمه من أعمال الادباء والمفكرين دون نظام ولاترتيب. فقرأ أعمال مونتانى ولابروييز وبيل وبوسويه وفولتير ، وتأثر بفولتير بوجه خاص ، ولكنه رغم كل هذه المحاولات لتثقيف نفسه ظل ناقص التكوين اذا قيس بمفكرى عصره الذين تعاونوا على وضع دائرة

المعارف . وكان علمه بالقدماء لا يتجاوز بلوتارك وتاسيت وسينكا وشيئا من أفلاطون وربما فرجيل . غير ان فطرتهالخصبة جعلته ينتفع من دراساته الناقصة غير المنظمة أعظم انتفاع . أما أستاذه الاول الذى علمه كل شىء فى الحياة فهو الطبيعة

ولم تكن مدام دى فارانس تحبه كما يحبها ، فلم تلبث ان فتحت عش غرامه لسواه . فانطلق روسو فى ١٧٤١ الى باريس حزينا ، وكان يومئذ فى الثلاثين من عمره ، لا يملك الا دراهم قليلة ومخطوطا لكوميديا ومشروعا لكتابة النوتة الموسيقية بطريقة جديدة

وفى باريس تصعلك روسو زمنا بين القهاوى والصالونات . وفى هذه الفترة تعرف على أقطاب الأدب والفكر فىعصره : تعرف على فونتنيلوماريفو والفيلسوف كونديالك ، وصادق ديدرو صاحب دائرة المعارف . وتوسط له أصحابه فعين سكرتيرا لسفارة فرنسا فى البندقية سنة ١٧٤٣ ، ولكنه لم يلبث أن تشاجر مع السفير وعاد الى باريس فى العام التالى

وأخذ يجهز للمسرح روايات موسيقية تافهة مقتبسة من فولتير ورامو . وعاون ديدرو قليلا فى دائرة المعارف. وفى ١٧٥٤ تعرف روسو على الفتاة التى اقترن اسمه باسمها الى أن فرق الموت بينهما وهى تيريز ليفاسير ، وكانت تعمل خادما فى فندق ، وأنجبت له صاحبته عدة أبناء ، فكان يودعهم الواحد بعد الآخر فى ملجأ اللقطاء متذرعا بمختلف المعاذير

وظل روسو على هذه الحال من الصعلكة على هامش الحياة الادبية التافهة حتى ١٧٤٩ حين بلغ السابعة والثلاثين من عمره . ثم حدث له حادث قلب حياته

راسا على عقب . فقد كان يسير فى طريقه الى سجن فانسين ليزور صديقه ديدرو الذى القى عليه القبض بسبب دائرة المعارف . وكان يقرأ فى الطريق مجـــلة ادبية ، فقرأ فيها اعلانا عن جائزة تمنحها أكاديميـــة ديجون لكاتب أحسن بحث عن الموضوع التالى : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على افساد الاخلاق أم على ترقيتها » . وهنا تزاحمت فى رأسه الافكار وكأنمــا « اخترقه ألف شعاع من نور » ، وجلس تحت شجرة على جانب الطريق وهو فى بحران . ومنذ تلك اللحظة أحس روسو بأنه « يعيش فى دنيا غير هذه الدنيا » وانه « أصبح رجلا آخر » . فقد تفتحت أمامه آفاق الفكر ، وأحس بأنه اهتدى الى « الحقائق العظمى » التى بنى عليها فلسفته المستقبلةكلها. انالاجابةعلىسؤالأكاديمية ديجون كان نقطة الابتداء فى حياة فكرية أخصب ما يكون

وامسك روسو بالقلم ولم يلقه الا بعد سنوات طويلة . فما ان ظهرت « رسالة عن تقدم العلوم والفنون » حتى نالت الجائزة ولكنها نالت أكثر من الجائزة فقد اهتزت لها الاوساط الفكرية والادبية . وتفرغ روسو للتفكير والكتابة . انه عرف الاجابة عن كل شيء : العودة الى الطبيعة . الانسان خير بالفطرة وحر بالفطرة والمجتمع يفسد الفطرة ويسترق الانسان . فليكن النداء الجديد اذن : العودة الى الطبيعة . انه يعرف الان ماذا يريد . انه عدو الفلاسفة عدو العلماء . العـلم لا يهدى الى المعرفة والعقل لا يهدى الى الحقيقة : الفطرة وحدها تهدى الى المعرفة والحقيقة

وكان روسو يعمل صرافا ، فترك الصرافة وأراد أن يكسب قوته عاملا . وتخلى عن ثيابه البورجوازية ،

فخلع سراويله البيضاء وقمصانه الناعمة وسيفه واكتفى ببدلة متواضعة ليعيش مخلصا لمبادئه

وفى سنة ١٧٥٣ أصدر روسو رسالته التالية : « رسالة عن منشأ انعدام المساواة بين الناس » . ثم اعتكف فى مونمرنسى بين أحضان الطبيعة حيث كتب قصته الخالدة « هلويز الجديدة » فى ١٧٦١ . وفى ١٧٦٢ أصدر « العقد الاجتماعى » و « أميل » . وهنا بدأت الحكومة الفرنسية وحكومة جنيف تضطهدانه معا ، واضطربت حياته ، فلجأ الى انجلترا فى ١٧٦٦ حيث نزل ضيفا على الفيلسوف دافيد هيوم ، ووجد من الانجليز تمجيدا عظيما . ولكنه لم يلبث أن تشاجر مع مضيفه وعاد الى فرنسا سنة ١٧٦٧ . وعكف على اتمام « اعترافاته » التى كان قد بدأها فى انجلترا . وانتهت حياة هذا المفكر العظيم كما ينتظر أن تنتهى ، فقد اضطرب عقله فى نهاية عمره واستبدت به عقدة الاضطهاد حتى مات

— ٢ —

« ان أول رجل أقام سياجا حول رقعة من الارض ، ورأى أن يقول : (هذه ملكى) ، ووجد أناسا يصدقونه لسذاجتهم هو المؤسس الحقيقى للمجتمع المدنى . ولو ان انسانا اقتلع هذا السياج أو ردم الخور المحدد للارض وصاح فى الناس قائلا : (حذار ان تصدقوا هذا الدجال ، فان نسيتم يوما ان ثمرات الارض ملك لنا جميعا ، وان الارض نفسها ليست ملكا لأحد ، فقد قضى عليكم القضاء المبرم) لو ان انسانا فعل هذا لأنقذ

البشرية من جرائم وحروب وجنايات قتل وفظائع ومآس لا تعد ولا تحصى »

هذا ما كتبه جان جاك روسو سنة ١٧٥٣ فى رسالته : « خطاب عن منشأ انعدام المساواة بين البشر » ردا على السؤال الذى طرحته أكاديمية ديجون على رجال الفكر فى القرن الثامن عشر وهو : « ما هو منشأ انعــدام المساواة بين البشر ، وهل يجيزه القانون الطبيعى ؟ » فكانت نظريته هذه بداية معارك فكرية لا تنتهى ، معارك فكرية لا تزال رحاها دائرة بيننا حتى اليوم

ولم يكن جان جاك روسو أول من ناقش مبدأ الملكية الخاصة من المفكرين ، فقد سبقه الى ذلك مفــكرون عديدون تبدأ سلسلتهم بأفلاطون وبلغت قمتها فى توماس مور . ولكن روسو أخرج هذه المناقشة من حيز الجدل الفلسفى البحت ومن دائرة الاحلام الطوبوية الى مجال البحث الاجتماعى وجعل منها قضية من قضايا الرأى العام

وهكذا رأى روسو ان انتقال الانسانية من حيــاة الطبيعة والفطرة الى الحياة الاجتماعية والمدنية كانت دعامته الاولى ظهور مبدأ الملكية الخاصة ، ورأى أن ظهور المجتمــع المدنى كان بداية الكوارث التى حلت بالجنس البشرى منذ أن خرج على قوانين الفطــرة والطبيعة . ومن هذه الكوارث الحروب والجرائم ، ولكن ليس أقلها شأنا عند روسو انعدام المساواة بين البشر وفقدان التكافؤ بينهم وهو الاصــل فى ضياع حريتهم واسترقاق بعضهم البعض الاخر

فعند روسو ان الانسانية فى حالة الفطرة كانت تعيش فى شيوعية بدائية لا تعرف نظام الملكية الفردية ، فلما

عرفت الزراعة وصناعة المعادن عرفت معهما نظام الملكية. وهذه النظرية ليست مجرد فكرة مرتجلة فقد أيدتها الدراسات الاثنولوجية والانثروبولوجية التى أجريت على المجتمعات البدائية فى القرنين الاخيرين . اما النظريه التى تفرد بها روسو فهى : ان ظهور المدنية بظهور الزراعة والصناعة ، كان بداية انهيار الجنس البشرى وتفشى الشرور فيه . وهو يسمى هذا الانتقال من حياة الفطرة الى حياة المدينـة « ثورة عظمى » فى تاريخ الانسانية : « الصناعة والزراعة هما الفنان اللذان أحدثا هذه الثورة العظمى : ويقول لنا الشعراء ان أول ما مدَّن الناس وخرب الانسانية ، هو الذهب والفضة ، أما الفلاسفة فيقولون انه الحديد والحنطة »

والاصل عند روسو ان هناك نوعين من عدم المساواة بين الناس ، أحدهما « طبيعى » ، نسميه طبيعيا لأنه من عمل الطبيعة ، « وقوامه تفاوت الناس فى السن والصحة والقوة البدنية والصفات العقلية أو الروحية ». والآخر « معنوى » أو « مدنى » ، نسميه كذلك لأنه يتوقف على العرف أو ما اصطلح عليه الناس واتفقوا « وقوامه الامتيازات المختلفة التى يتمتع بها بعض الناس على حساب بعضهم الآخر ، كالتفاوت فى الثراء والتكريم والسلطة ، بل وفى القدرة على فرض الطاعة على الآخرين » ، أو بعبارة اخرى ، ان التفاوت بين الناس بعضه طبيعى ، وبعضه مكتسب

وفى حياة الفطرة لا مكان الا لنوع واحد من التفاوت ، هو التفاوت الطبيعى . وفى حياة الفطرة يحكم القوى الضعيف ، ويسود العنف لا الحق ، وتسيطر الطبيعة لا القانون ، وهذا النمط من الحياة يسميه جان جاك

روسو فردوس « السعادة الحقيقية »

ثم حدثت معجزة فى تاريخ البشر قلبت أحوالهم رأسا على عقب ، وهذه المعجزة جعلت الضعيف يحكم القوى وجعلت الحق يسود على العنف وجعلت القانون يسيطر على الطبيعة . هذه المعجزة هى ظهور المدنيـــة التى أخرجت الانسان من فردوس السعادة الحقيقية وأدخلته فردوس السعادة الوهمية

ولكن انسان الفطرة عند روسو ليس مجرد وحش ضار كما يتبادر للذهن أو كما يزعم المتشائمون ، فهو قد جبل على الفضائل الفطرية ، وينبوع هذه الفضـــائل الفطرية كلها عاطفة الرحمة . فحياة الفطرة ، رغم سيادة القوة والعنف والطبيعــة فيهـــا على الضعف والحق والقانون ، يحكمها مبدأ أكبر شامل هو مبدأ الرحمة . وآية شمول هذا المبدأ ان الجنس البشرى فى مجموعه ، بأقويائه وضعفائه ، بأصحائه ومرضاه ، بشبابه ومسنيه وأطفاله ، برجاله ونسائه ، جنس ضعيف وسط هذا الكون العاتى . لهذا ركبت فيه الرحمة بالطبيعة حتى لا يهلك ، بل انه فطر على الرحمة قبل أن يفطر على التفكير . والدليل على ذلك ان الوحوش نفسها جبلت على الرحمة والتعاطف ، مما يتمثل فى حدب الحيوان على الحيوان وتعاونه معه لدرء الخطر المشترك

ولكن الانسان يختلف عن الحيوان فى شىء خطير هو قدرته على التقدم ، أو ترقية النفس ، اذا واتتـــه الظروف . وهكذا نمت ملكات الانسان التى تعينه على التقدم أو الرقى ، وكانت أهم ملكة أعانته على تحقيق هذا التقدم أو الرقى هى ملكة « الفهم » . وكان العامل الاول فى نمو ملكة الفهم فى الانسان هى « الحاجة » ،

فالحاجة ام الفهم والادراك والذكاء والاختراع وكافه ما تفوق به عقل الانسان على عقل الحيوان . وبمقدار ما اشتدت حاجة الانسان نما فهمه وذكاؤه ، وضرورات الحياة كانت دائما حافزه الاول على تكملة كل نقص فى الطبيعة ، بل والسيطرة عليها

وبالفهم والذكاء اكتشف الانسان الزراعة والصناعة ، وبهما بدأت حياته المدنية التى كانت وبالا عليه . كانت المدنية وبالا عليه لأنها غيرت مقاييسه وطمست فضائله . فاذا القوى يفلح الارض أو ينتج المصنوعات ، واذا الذكى يستولى على ثمرات كده . ولو ان الناس كانوا متساوين فى ملكه الفهم فى انتقالهم من الفطرة الى المدنية لما اختلت موازينهم الاولى ، ولكن تفاوت الناس فى ملكة الفهم مكن اكثرهم فهما وحذقا ومكرا ، من أن يصبحوا سادة الموقف فى هذا المجتمع الجديد

وقد أدى اكتشاف الزراعة الى تقسيم الارض وظهور نظام الملكية ، وأدى الاعتراف بنظام الملكية الى ظهور فكرة العدالة ، التى تنظم ما هو لى وما هو لك . وبظهور فكرة العدالة ظهرت فكرة القانون منظم العدالة وحاميها. وبظهور نظام الملكية انعدمت المساواة فى توزيع ثمرات الطبيعة ، بل وفى توزيع الطبيعـــة نفسها ، أى ظهـــر التفاوت الشديد فى الغنى والفقر ، وازداد اعتماد من لا يملكون على من يملكون ، وبازدياد هذا الاعتماد فقد الفقراء حريتهم ودخلوا فى الأسر والعبودية طائعين او كارهين بحكم الحاجة والضعف معا : الحاجة لانها اعتماد على الغير ، والضعف لان القوة الطبيعية لم تعد كافية لحماية النفس فى المجتمع المدنى الذى نظم أجهزة وأنظمة جماعية ، هى أجهزة الدولة وأنظمتها ، لحماية الأمن

والعدالة والحرية وغير ذلك من المبادىء التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية المدنية ، وجوهرها حماية الضعيف من القوى وحماية صاحب الحق من المغتصب ، واحلال القانون محل العنف ، وهى مبادىء يرى روسو انها نابعة جميعا من مبدأ الملكية وضمان حريتها وصيانة أمنها

وهكذا قبل النـــــاس الدخول فى المجتمع المدنى والخضوع للنظم الاجتماعية والسياسية حرصا منهم على حماية أمنهم وحرياتهم المكتسبة . ولكنهم اذ فعلوا ذلك تخلوا عن أمنهم وحرياتهم الطبيعية ، وخرجوا من الفردوس الحقيقى ودخلوا الفردوس الزائف

وهنا يسأل روسو هذا السؤال الخطير : اذا كانت صفة الانسان الاولى هى الرحمة ، فلماذا لم تسيطر الرحمة على المجتمع المدنى فتنقذه من كل هذه المساوىء الناجمة عن انعدام المساواة الاجتماعية ؟ وهو يجيب على ذلك بقوله : إن عاطفة الرحمة تكون على أقواها فى الاحياء التى يتوحد فيها الفرد والمجموع

فاحساس الفرد بالوحدة مع المجموع يجعله يحس باحساسه ويتألم لآلامه ويخف لنجدته . وكلما قوى الاحساس بهذه الوحدة قويت عاطفة الرحمة ، وهى ينبوع كل الفضائل الاجتماعية عند روسو . وهـــذا الاحساس بوحدة الفرد مع الجماعة يكون على أشده فى حياة الفطرة ، وكلما اقترب الانسان من حياة الطبيعة ، ويشتد ضآلة كلما ابتعد الانسان عن حياة الطبيعة وانغمس فى الحياة المدنية . ومن هذا يستخلص ان انعدام المساواة الطبيعية بين البشر فى حياة الطبيعة تكاد آثاره ألا تحس بسبب قوة التعاطف بين الناس ، أما الحياة

المدنية فهى تقتل عاطفة الرحمة فى قلب الانسان وتقيم الحواجز بين الناس وتجعل من كل فرد جزيرة مستقلة وعالما مغلقا على نفسه . ومن هنا كان انعدام المساواة المدنية بين البشر فظيع الآثار فى كيان الانسانية ، وان الانتقال من الحياة الطبيعية الى الحياة المدنية هو بمثابة سقوط الانسان من طهارته الاولى الى رجس العالم المادى

— ٣ —

بعد ان اذاع جان جاك روسو آراءه عن منشأ انعدام المساواة بين البشر وتعرض لمشكلة الانتقال من المجتمع الطبيعى الى المجتمع المدنى واجه مشكلة الحياة الاجتماعية فى مجموعها . ولعله أدرك ان آراءه فى انعدام المساواة تثير من المشاكل اكثر مما تحل ، فالنهاية المنطقية لآرائه هى : اذا كان الانتقال من مجتمع الفطرة الى مجتمع المدنية بمثابة سقوط للانسان من كماله الاول ، فهو اذن يدعو الناس الى تحطيم المدنية والمجتمع المدنى والعودة الى الطبيعة عودة تامة . وهذا شىء قد يكون ممكنا فى احلام الشعراء ، اما فى نظريات الحكم والسياسة والاجتماع فهو شىء غير ممكن

لهذا نجد أن روسو حين كتب كتابه المشهور « العقد الاجتماعى » ليوضح فيه نظريته فى نظام الحكم وفى اساس السيادة تخلى عن بعض آرائه الاولى فى رسالته عن العلوم والفنون ، وفى رسالته عن انعدام المساواة . وهو لم يكتف بتغيير موقفه بل ذهب الى نقيض ما كان يدعو اليه . واذا كانت الفكرة الشائعة فى رسالتيه

الأوليين هى حب الحرية الفردية المطلقة وبغض السلطة وكل تنظيم اجتماعى بغضا لا نجد له مثيلا الا فى نظريات الفوضويين ، فان الفكرة الشائعة فى « العقد الاجتماعى » هى حب الحرية الجماعية والاعتراف بالسلطة وبالتنظيم الاجتماعى . فالمجتمع ليس شركة بالمعنى المألوف حتى يمكن حله . وما دام لا يمكن حله والعودة بأبنائه الى الحياة الفردية المطلقة ، فلا مناص لكل مفكر اجتماعى من الاعتراف به . وهذا ما أوقع روسو فى كثير من المتناقضات الفكرية

فالمشكلة عند صاحب « العقد الاجتماعى » اذن لم تكن صيانة الحرية الفردية بقدر ما كانت صيانة الحرية الاجتماعية أو المدنية . وشغله الشاغل فى هذا الكتاب هو أن يبحث عن أسلم نظام اجتماعى يصون هذه الحريات الاجتماعية أو المدنية . وكثير من المتناقضات التى وقع فيها روسو ناشىء من اصراره على بعض نظرياته الاولى

فهو مثلا يبدأ « العقد الاجتماعى » بعبارته المشهورة : « ولد الانسان حرا وهو مع ذلك يرسف فى الاغلال فى كل مكان » فهو اذن لايزال يفترض ان انسان الفطرة يتمتع بحرية « طبيعية » وانه فقد هذه الحرية الطبيعية بدخوله فى المجتمع المدنى . ولكن قبول روسو للمجتمع المدنى فى « العقد الاجتماعى » جعله أولا يضع للحرية مفهوما جديدا ، وجعله ثانيا يرى فى المجتمع المدنى خطوة متقدمة على المجتمع الطبيعى ، وجعله ثالثا يلتمس اسباب فساد الجنس البشرى لا فى مجرد التنظيم الاجتماعى ولكن فى النظم الاجتماعية الفاسدة التى تسود البشر ، وجعله رابعا يبحث عن اسلم أساس

للتنظيم الاجتماعى يكفل للانسان حقوق الانسان وحرياته، وهذا الاساس هو نظرية العقد الاجتماعى .

اما الاغلال التى يرسف فيهـــا الانسان فى كل مكان فمصدرها عند روسو شيء واحـــد هو « السلطة » . وهنا تبدأ المشكلة . كيف ظهرت الســـلطة وما مدى شرعيتها ، اما السلطة النابعة من القسر والارهاب فهذه لا يعترف بها روسو ، ولذا فان كل سلطة شرعية عنده لا بد ان تستند الى « الاتفاق العام » ، وهو فى هـــذا يقول : « وما دام ليس لانسان ما سلطة طبيعية على اخوته فى الانسانية ، وما دامت القوة لا تكسب حقا ، امكننا ان نستخلص ان المواضعات القائمة على الاتفـــاق العام هى اساس كل سلطة شرعية تقوم بين الناس » .

وبقيام هـــذه السلطة الشرعية يتجرد الانســـــان من حريته . واذا كان الفيلســـوف جروتيوس يقول بأن الناس يتنازلون برغبتهم عن حريتهم للسلطة المهيمنـــة عليهم فان روسو يرفض هذا الرأى ويقول فيه : « ان التنازل عن الحرية تنازل عن الانسانية وتسليم فى حقوق الانسان بل وفى واجباته أيضا . وهذا التنازل لايتمشى مع طبيعة الانسان ، فكلمة (العبودية) وكلمة (الحق) كلمتان متناقضتان ، كل منهما مانعة للأخرى » .

فلا بد اذن لتفسير الســـلطة من البحث عن اتفـــاق اول بين النـــاس ، وهو ما نسميه العقد الاجتماعى . « والعقد الاجتماعى ينشأ من ضرورة التعاون بين الناس ضد القوى الطبيعية » . وجوهر العقد الاجتماعى هو :

« ان كلا منـــا يخضع شخصه وكل قوته بالاشتراك مع الآخرين للتوجيه الاعلى الصادر من ارادة المجموع .

واننا نعتبر بصفتنا الجماعية كل عضو فى المجتمع جزءا لا يتجزأ من المجموع .

« وهذا الاشتراك فى جماعة يخلق فورا كيانا معنويا وجماعيا يحل محل الشخصية الفردية لكل طرف متعاقد ، كيانا قوامه عدد من الاعضاء مساو لما فى المجتمع من أصوات . ويستمد من هذه الحقيقة وحدته وهويته المشتركة وحياته وارادته ، وهذا الشخص العام المكون على هذا النحو من اتحاد كل الاشخاص الآخرين ، يكتسب اسم صاحب السيادة » .

فمصدر السيادة عند روسو اذن هو الارادة العامة او ارادة المجموع ، والمجتمع كله فى هيئته التعاقدية هو وحده صاحب السيادة ، وارادة المجموع ليست لغزا

خفيا يجوز لكل ان يؤوله حسبما يرى ولكنها شيء واضح يمكننا ان نتعرف عليه باحصاء اصوات اعضاء المجتمع نفسه . وما ان يتحد الناس بطريق التعاقد الاجتماعى فى هذا المجتمع الواحد ، حتى يصبح كل عدوان على أى فرد من أفراد هذا المجتمع عدوانا على المجتمع كله ، وكل عدوان على المجتمع كله عدوانا على كل فرد على حدة . وكل طرف فى هذا العقد الاجتماعى « يلتزم ضمنا بأن من يرفض اطاعة ارادة المجموع ، أيا كان الرافض ، يجب اجباره على الطاعة بقوة المجتمع كله ، وليس لهذا من معنى الا اجباره على ان يكون حرا »

ومن هذا نرى ان روسو كان يعتقد بأن الفرد الاجتماعى يجد حريته الفردية فى طاعة المجموع ، وان الحرية لا تتعارض مع القسر اذا جاء القسر من ارادة المجموع الذى تعاقد معه الفرد على ان يكون عضوا فيه أو جزءا منه . ولكن كل قسر يتعارض بداهة مع

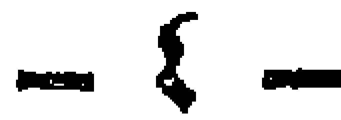
الحرية . فالانسان لا شك يخسر شيئا بخضوعه لهذا القسر : هو يخسر « حريته الطبيعية » ولكنه يكسب مكانها شيئا آخر . اما الحرية الطبيعية التى يخسرها الانسان بالعقد الاجتماعى فهى حقه المطلق فى الحصول على كل ما يستطيع الحصول عليه . واما ما يكسبه من العقد الاجتماعى فهو حريته المدنية ، وحقه فى ملكية كل ما يملك ، وحريته المعنوية التى تجعل منه سيد نفسه بالمعنى الحقيقى . والحرية الطبيعية التى يفقدها الانسان حرية زائفة ، بل هى اسم آخر للعبودية . ذلك لان طاعة الانسان لنوازعه وشهواته عبودية ، اما طاعة القانون الذى نضعه بأنفسنا فهى الحرية الحقيقية

وهكذا نرى ان روسو قد وسع مفهوم الحرية حتى شمل طاعة القانون وارادة المجموع ، ولكنه اشترط ان يكون هذا القانون من عمل الفرد المتعاقد نفسه ، أى ان الفرد اشترك فى تشريعه ، واشترط ان تكون الارادة العامة المشرعة للقوانين هى ارادة المجموع حقا ، الممثلة فى اغلبية اصوات اعضاء المجتمع .

بل اكثر من ذلك ، فان روسو وجد ان العقد الاجتماعى فى المجتمع المدنى يحل محل عدم التكافؤ الطبيعى تكافؤا من نوع جديد هو المساواة امام القانون والمساواة بحكم القانون وبحكم الاتفاق العام ، وهى مساواة يصفها روسو بأنها اخلاقية وشرعية لانها تزيل الآثار السيئة المترتبة على عدم التكافؤ الطبيعى بين الناس فى القوة وفى الذكاء وتجعلهم سواسية فى حقوق الانسان . وهذه عند روسو خطوة الى الامام يرقى بها الانسان فى انتقاله من الفطرة الى المدنية وبدخوله فى العقد الاجتماعى .

فروسو اذن قد غير كثيرا من افكاره الاساسية عندما

كتب العقد الاجتماعى ، ولم تعد المشكلة عنده كيف نتقذ الانسان من المجتمع المدنى ، بل كيف ننقذ الانسان من مساوىء المجتمع المدنى ، أو كما قال هو : ان المشكلة هى ايجاد شكل من اشكال الاشتراك فى المجموع يستخدم قوة المجموع كله فى الدفاع عن شخص كل مشترك وفى حماية أمواله ، شكل من اشكال المجتمع يتحد فيه كل فرد مع المجموع ، ومع ذلك يظل كما كان مطيعا لنفسه وحدها ويحافظ على حريته السابقة » .



عرف جان جاك روسو « السيادة » فى « العقد الاجتماعى » بأنها ممارسة الارادة العامة او اعمال ارادة المجموع ، وقرر ان السيادة مقدسة لا تقبل التصرف ، اى لا تقبل ان تنقل الى الغير ولا تقبل التجزئة ولا يجوز انتهاكها .

اما انها لا تقبل التصرف او النقل الى الغير فمعناه عنده ان صاحب السيادة وهو كائن جماعى لا يمكن ان يمثله الا نفسه ، فهو وحده السيد على نفسه وعلى جميع اجزائه . واذا ظهر فيه سيد عليه سقطت عن المجتمع صاحب السيادة سيادته ، فاذا حدث هذا ، لم يعد للدولة وجود .

وهذا عينه ما يجعل السيادة شيئا غير قابل للتجزئة فالارادة اما ان تكون عامة او خاصة ، اى ارادة المجموع او ارادة جزء من المجموع . فان كانت الارادة ارادة المجموع ، كان اعلانها عملا من اعمال السيادة وهذا يشكل القانون . اما اذا كانت ارادة جزء من المجموع ،

فهى اذن ارادة خاصة ، ولا تشكل الا عملا من اعمال الحكم ، وهى فى أعلى حالاتها لا تتجاوز ان تكون قرارا من القرارات . فمبدأ السيادة اذن ملازم واصيل فى فكرة القانون لانه المعبر عن الارادة العامة كما تقررها اغلبية الاصوات . وهذا ما يجعلنا نستخلص ان الدولة صاحبة سيادة ، بينما ان الحكومة ليست صاحبة سيادة .

ولكن روسو يفرق بين ارادة المجموع وارادة الجميع ، ويقول انهما لا يتطابقان دائما . فارادة المجموع التى يحسن ان نسميها الارادة العامة لا تهدف الا للخير العام فقط ، اما ارادة الجميع فهى مجموع ارادات فردية او خاصة ، وهى تدخل فى اعتبارها المصالح الخاصة . فالارادة العامة تهدف الى الخير العام وهى دائما صحيحة . فالناس لايريدون الا ما كان فيه خيرهم . ولكن ليس معنى هذا ان مداولات الناس وافكارهم دائما صحيحة ، فالناس رغم انهم دائما يريدون الخير، قد لا يرون طريقهم الى الخير . فالشعب كثيرا ما يضلل، ولكن الشعب غير قابل للافساد . ولقد يبدو احيانا ان الارادة العامة تريد شرا ، ولكن الارادة العامة لا يمكن ان تريد الشر الا فى الظاهر فقط .

وهذه السيادة التى يتمتع بها جسم المجتمع او الكائن الاجتماعى بفضل العقد الاجتماعى تعطى المجتمع صاحب السيادة السلطة المطلقة على كل من فيه ، وهذه السلطة المطلقة المباشرة بتوجيه من الارادة العامة هى ما نسميه بالسيادة ، لان السيادة اذا خلت من السلطة كانت مجرد سيادة اسمية . فكل انسان بموجب العقد الاجتماعى يتخلى للدولة ، وهى جسم المجتمع او الكائن

الاجتماعى ، عن المقدار اللازم من سلطاته وأمواله وحريته الذى يهم الجماعة ان تتحكم فيه . ولكن صاحب السيادة وحده ، وهو الكيان الاجتماعى الممثل فى الارادة العامة المقررة بأغلبية الاصوات ، هو الذى يقدر مدى مايلزمه أخذه من سلطات الافراد وأموالهم وحريتهم . وهو لا يمكن ان يفرض على اعضاء المجتمع من القيود ما لا تنتفع به الجماعة : « ومن هذا نرى ان السلطة صاحبة السيادة ، رغم انها مطلقة ومقدسة ولا يجوز انتهاكها ولا يمكن انتهاكها ، لا تتجاوز ، ولا يمكن ان تتجاوز ، ما تواضع عليه الناس بالاتفاق العام ، ومنه نرى ان لكل انسان الحق فى التصرف فيما يتركه له هذا الاتفاق العام من مال وحرية ، بما يجرد صاحب السيادة من كل حق فى فرض واجبات على رعية من رعاياه تتجاوز ما يفرضه على غيره من الرعايا ، فلو فعل ذلك لاصبح الموضوع خاصا لا عاما ، وبهذا خرج عن اختصاص الكيان الاجتماعى صاحب السيادة » .

وهدف العقد الاجتماعى هو المحافظة على الاطراف المتعاقدة . ومن اراد تحقيق هذا الهدف اراد ضمنا تهيئة الوسائل المؤدية لتحقيقه ، وهذا يتضمن بعض التضحيات والمجازفات . فالذى يريد المحافظة على حياته ولو أدى ذلك الى تضحية حياة غيره ، وجب ان يكون على استعداد عند الاقتضاء ان يضحى بحياته للمحافظة على حياة غيره .. وليس للمواطن ان يحدد بنفسه مدى ما يمكن ان يتعرض له من تضحيات ، فهذا من شأن القانون المعبر عن الارادة العامة . وبالتالى فاذا قال له رئيس الدولة المطبق للقانون : « ان فى موتك منفعة للدولة » فقد وجب ان يموت ، لانه ما عاش فى أمن على حياته

حتى هذه اللحظة الا بناء على هــذا الشرط ، « ولان حياته لم تعد مجرد هبة من الطبيعة ، بل منحة مشروطة من الدولة » .

وهكذا نجد ان روسو يرى انه بمجرد دخول الانسان فى العقد الاجتماعى ، يجعل من حيــاته ذاتها منحة من المجتمع يمنحها بشروط . اما فى الحالة الطبيعية للانسان اى قبل دخوله طرفا فى العقد الاجتماعى ، فحياته هبة من الطبيعة وحدها وليس لاحد عليه حقوق لانه وحده القائم بالدفاع عن حياته . وهذا ما يحتم علينا مثلا ان نرضى باعدامنا اذا قتلنا ، لان المجتمع يحمينا من الموت باعدام القتلة . وبالمثل ، فان كل من ينتهك الحقوق الاجتماعية يعد ثائرا على الجماعة . فــكل خارج على قوانين الجماعة خارج على الجماعة نفسها وفاقد لصفة العضوية فيها ، بل هو بمثابة عدو لها . فاذا دمرته الدولة لم تدمر فيه مواطنا ولــكن دمرت فيه عدوا .

ولــكن فى الوقت نفسه يجب ان نذكر انه ما من مذنب الا وامكن اصلاحه ورده الى طريق الخير . فليس اذن من حق الدولة اعدام جان لا خطر فى بقائه على قيــد الحياة . وما دام صلاح الجانى ممكنا فاعدام الجانى ، ولو كان لضرب المثل الرادع ، ليس من حق الدولة . ثم ان كثرة العقوبات دلالة اكيدة على ضعف الحكومة او فسادها .

والعقد الاجتماعى فى صياغته القانونية ، هو الدستور الذى يتراضى عليه ابناء المجتمع ، وما ينبع من الدستور من قوانين . لهذا يجب أن يفصل الدستور على قامة المجتمع فلا يكون ثوبا فضفاضا لا يصلح للحكم السليم ، ولا ثوبا ضيقا لا يكفى لحفظ الذات : « ولــكل كيان

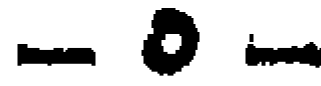
سياسى قوة قصوى لايستطيع هذا الكيان ان يتعداها ، فان ازداد حجمه فقد بهذا الازدياد قوته ، لان كل اتساع فى الرابطة الاجتماعية يعنى استرخاءها ، وبوجه عام ان الدولة الصغيرة اقوى نسبيا من الدولة الكبيرة » .

ولما كان أفضل الدساتير ما فصل على قامة المجتمع ، فان افضل القوانين أيضا ما فصل على قامة المجتمع ، فالقوانين الصالحة ليست القوانين الصالحة فى ذاتها ، ولكن القوانين الصالحة لشعب معين .

وما دامت غاية المجتمع او الارادة العامة هى تحقيق « اكبر خير للجميع » ، فالوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك هى التشريع الصالح ، وكل تشريع صالح يتوخى هذه الغاية وحدها . فاذا سألنا : وما تعريف هذه الغاية ؟ وجدنا ان كل تشريع صالح يستهدف تحقيق مبدأين : هما الحرية والمساواة . « الحرية ، لان كل تبعية فى الاعضاء تفت فى قوة جسم الدولة ، والمساواة ، لان الحرية لا وجود لها الا بالمساواة » . وهنا يعرف روسو المساواة بقوله انها لا تعنى ان ينعم كل انسان بنصيب واحد من السلطة او الثراء ، ولكن تعنى « ان السلطة ينبغى الا تستفحل حتى تبلغ مبلغ العنف ، وينبغى أن تمارس دائما بناء على المقام والقانون ، اما عن الثراء ، فلا يجوز ابدا ان يثرى انسان حتى يستطيع شراء غيره ، او يفتقر انسان بقوله انها : طاعة قانون نضعه لانفسنا »

وفكرة الحرية فى « العقد الاجتماعى » مساوية للفضيلة ، حتى الحرية الفردية نفسها مساوية للفضيلة ، وهى حالة لا يمكن للانسان أن يبلغها الا فى ظل الحياة الاجتماعية القائمة على قسر الذات بارادة الذات . اما الحرية الفطرية فهى حرية حيوانية تجعل من الانسان

عبداً لشهواته ، وبالتالى فهى والعبودية سواء . اما الحرية الاجتماعية التى يحقق بها الانسان هذه الحياة الفاضلة من طريق الخضوع لقوانين تفرضـــها الارادة العامة ممثلة فى اغلبية الاصوات ، هذه الحرية الاجتماعية لا تتأتى الا اذا كانت كل القوانين نابعة من الارادة العامة و « الارادة العامة » عند روسو شىء يختلف عن « الرأى العام » ، وهى تقـــابل « الروح العـــامة » او « روح المجموع » ، وهى روح تتميز بأنها غيرية اخلاقية عاقلة لا يحفزها الا التفكير فى خير الجماعة ، وهى تضـــحى الصالح الخاص من اجل الصالح العام . اما الرأى العام فقد يقدم الصالح الخاص على الصالح العام .



لم يكن جان جاك روسو أول من تحدث عن العقـــد الاجتماعى ، فقد سبقه الى ذلك فيلسوفان خطيران هما توماس هوبز ، وهو امام من أئمة الرجعية الحديثة ، وجون لوك وهو امام من ائمة الحرية الحديثة . ولـكن كلا من هوبز ولوك تصور ان العقد الاجتماعى عقد مبرم بين الحاكم والمحكوم ، بموجبـــه يتراضى الطرفان على المبادىء التى يسير عليها الحكم ، والغايات التى ينبغى على الدولة ان تستهدفها .

والجديد الذى ادخله روســـو على نظرية العقـــد الاجتماعى ، هو انكاره لحالة التعـــاقد بين الحـــاكم والمحكوم ، وقوله ان العقد الاجتماعى عقد قائم بين ابناء المجتمع انفسهم وفيما بينهم ، وليس عقداً قائماً بينهم وبين ولاة الامر فيهم . وغاية الناس من الدخول فى هذا

العقد هى أنهم يتعاقدون على التعاون للتصرف فى هيئة جماعة واحدة او مجتمع واحد ، لا بصفتهم افرادا لكل منهم كيانه المستقل .

أما العلاقة بين الحاكم والمحكوم فهى علاقة الوكيل بموكله ، فلما كان من المستحيل على افراد المجتمع جميعا ان يجتمعوا فى مكان وزمان واحد ليتشاوروا فى أمورهم ويقترعوا على قراراتهم المعبرة عن ارادتهم ، ولما كان من المستحيل عليهم ان يشتركوا جميعا فى تنفيذ ما تريده الارادة العامة من القوانين ، لذلك كله فالشعب يعين من الاشخاص من يشاء ويعزل منهم من يشاء فى الوقت الذى يشاؤه للقيام نيابة عنه بوضع القوانين والاشراف على تنفيذها . وحق التوكيل جزء لا يتجزأ من سيادة الشعب مطلق غير قابل للانتقاص ، فأى انتقاص منه انتقاص لسيادة الشعب مصدر السلطات .

وفى جميع الاحوال ، وأيا كان نوع الحكم أو نظامه ، يكون الوكيل مسئولا أمام موكله خاضعا لرقابته ، حتى لا تتهيأ أمامه فرصة الانحراف من العمل للصالح العام الى العمل للصالح الخاص ، أو لتنمية « ارادة خاصة » تتعارض مع « الارادة العامة » .

فالحكومة اذن هى وكيل الشعب صاحب السيادة المفوض منه لتطبيق قوانينه ، وهى تحمل هذه الوكالة او التفويض بحكم انها منتخبة من اغلبية المواطنين لاداء هذه المهمة . وهذا الانتخاب هو ما يعطى الحكومة شرعيتها .

لهذا قسم روسو الحكومات الى ثلاثة أنواع : حكومة يضطلع بأعباء الحكم فيها الشعب كله أو أغلبيته ، فالمواطنون فيها أو أغلبهم حكام يقومون بالوظائف العامة

التى تقوم بها الحكومة . وهـذه عنـده هى الدولة الديمقراطية .. وحكومة تنحصر أعباء الحكم فيها فى نفر قليل من المواطنين يصلون الى السلطة بطريق الانتخاب او بطريق الطبيعة « يقصد الامتياز فى القوة والذكاء .. الخ » او بطريق الوراثة ، وهذه هى الدولة الارستقراطية . ودولة تتركز الحكومة فيها فى يد حاكم واحد هو الذى يوزع السلطات على كل من عداه ، وهذه هى الدولة الملكية .

وفى جميع الاحوال يصر روسو على ان الفيصل فى شرعية الحكومة أو عدم شرعيتها هو انها منتخبة أو غير منتخبة ، وعنده ان اسوأ أنواع الحكومات ماكان وراثيا ، وذلك فضلا عن انعدام شرعيته .

اما الحكومة الطبيعية ، أى المفروضة بالامتياز من أى نوع كان ، فهى عديمة الشرعية ، ولكنها أقل سوءا من الحكومة الوراثية .

وهنا يختلف روسو فى تعريف الديمقراطية عن غيره من المفكرين . فعنده ان السلطة التنفيذية يجوز فيها التفويض . اما السلطة التشريعية ، وهى واضعة القوانين ، فالتفويض أو التوكيل فيها غير جائز . او بعبارة اخرى ان النظام النيابى الذى فيه توكل اغلبية الناخبين اشخاصا يجتمعون فى هيئة برلمان يشرع القوانين لا تقوم به الديمقراطية الحقيقية .

فالديمقراطية الحقيقية لا تتوافر الا اذا مارس الشعب صاحب السيادة سيادته مباشرة دون وسيط ، والتمثيل النيابى لا يغنى عن الديمقراطية المباشرة « فالسيادة لا يمكن ان تمثل ، فهى كامنة أساسا فى الارادة العامة ، والارادة لا تقبل التمثيل ، فهى ان لم تكن نفسها كانت

شيئا آخر ، ولا مكان لخد وسـط بينهما ... وكل قانون لم يصدق عليه الشعب بشخصه قانون باطل ، أو هو فى حقيقة الامر ليس قانونا . ان شعب انجلترا يحسب نفسه حرا ، ولـكنه يخطىء خطأ فاحشا ، فهو حر فى فترة انتخاب أعضاء البرلمان . وما ان يتم انتخاب أعضاء البرلمان ، حتى يعود الشعب الى عبوديته ويعود صفرا كما كان » .

اذن ما حقيقة هذا النظام النيابى الذى اقترن بفكرة الديمقراطية ؟ ان ما يسميه الناس عادة بالديمقراطية هو عند روسو « ارستقراطية منتخبة » وهو بغير شك ارقى من الارستقراطية الوراثية ومن الارستقراطيـة الطبيعية ، وأقـرب نوع من أنواع الحكم الى الفكرة الديمقراطية ، لان قوامه حكام منتخبون من الشعب ، مسئولون امامه . ولـكنه رغم ذلك ليس الديمقراطية نفسها ، لان فى الديمقراطية الحقيقية الشعب لا يتنازل عن سيادته لاحد بتوكيل او تفويض ، وانما يمارس ارادته العامة مباشرة وبنفسه فى كل ما يتصل بتشريع القوانين التى هى عند روسو الشرط الاوحد للحيـاة الاجتماعية والمبرر الاوحد لدخول النـاس فى العقـد الاجتماعى .

اما الديمقراطية الحقيقية ، وهى اشتراك المواطنين مباشرة فى تشريع قوانينهم ، فيقول روسو فيها انها لم توجد أبدا ولن توجد أبدا ، لجملة اسباب ، منها ان حكم الـكثرة للقلة ضد طبائع الاشياء ، ومنها ضخامة الدول وضرورة صغر حجم الدولة بحيث يمكن لمواطنيها ان يلتقوا فى صعيد واحد للنظر فى قوانينهم ، ومنهـا صعوبة تبسيط الامور بحيث لا تتعقد المسائل المعروضة

للبحث ، ومنها استحالة تفرغ جميع المواطنين للشئون العامة ؛ ومنها التفاوت الشديد بين المواطنين انفسهم فى الغنى والفقر ، مما يجعل بعضهم بالضرورة طغاة وبعضهم الآخر أتباعا لهم يأتمرون بأمرهم .

ومن هذا يتضح ان روسو بنى فكرته عن الديمقراطية الصحيحة على فكرة « المدينة الدولة » التى عرفتها اليونان القديمة وعرفتها مدينته الاولى ومسقط رأسه وهى جنيف . فالمدينة الدولة هذه بقلة عدد سكانها هى اقرب شىء نعرفه لهذه الديمقراطية المثلى التى يشارك فيها كل مواطن بشخصه فى الشئون العامة ، وهى ديمقراطية لم تتحقق فى يوم من الايام بمعناها الكامل ، أو يمكن ان تتحقق فى ظروف مثالية لا سبيل الى توافرها .

والخطر الذى تستهدف له الديمقراطية هو تعدد الارادات وتطاحنها فى داخل الكيان السياسى . ومنشأ هذا الضعف عنده هو التناقض الذى قد يوجد بين الارادة العامة وارادة الجميع . وهما ارادتان يخلط بينهما الناس جميعا رغم تميزهما : فالارادة العامة هى الارادة الثابتة لكل أعضاء الدولة ، فهى روح المجموع ؛ وهى لا تفكر الا فى الصالح العام ، اما ارادة الجميع فكثيرا ما تتأثر بالمصلحة الخاصة وتقدمها على المصلحة العامة .

ودرءا لهذا الخطر يرى روسو منع قيام المجتمعات الخاصة داخل المجتمع العام ، لانها تشكل خطرا على المجموع بسبب ارتباطها بالمصالح الخاصة. . وبالمجتمعات أوالتجمعات أوالجماعات الخاصة، يقصد روسو الاحزاب وسائر التنظيمات التى يمكن ان ترعى مصالح طوائف

معينة بالذات أو تعبر عن ارادتها الخاصة وأمانيها الخاصة ، وفى هذا يقول : « فمن الجوهرى اذن ، اذا اردنا للارادة العامة ان تتمكن من التعبير عن نفسها ، الا توجد مجتمعات حزبية داخل الدولة ، وان يهتدى كل مواطن الى أفكاره بنفسه » دون توجيه من أية جماعة يمكن ان تذكره بالمصالح الخاصة .

ولكن روسو فى الوقت نفسه يقول : ان الحكومة الديمقراطية هى أقل أنواع الحكومات جمودا واكثرها نزوعا الى التغير والتطور . وهى اكثرها استعدادا للحروب الاهلية والتشنجات الداخلية بسبب هذا النزوع الى التغير والتطور ، بل هى اكثرها حاجة الى اليقظة والشجاعة للمحافظة على نظامها الديمقراطى ، فعلى كل مواطن فى النظام الديمقراطى ان يردد كل صباح قول الكونت بالاتين لبرلمان بولندا : « انا افضل اخطار الحرية على هدوء العبودية » ، كما ان عليه ان يتسلح بالقوة والشجاعة اللازمتين لحماية هذه الحرية .

ومنشأ هذا الخطر على حرية المواطنين هو جنوح القلة الحاكمة الى استخدام جهاز الحكم لخدمة الصالح الخاص بدلا من خدمة الصالح العام . وحكم الاقلية المتازة او الصفوة او الارستقراطية لا خير فيه ما دامت الهيئة الحاكمة منتخبة ، بل لعله انفع للمجتمع ان تحكم القلة العاملة بدلا من الكثرة ، فليس من الضرورى ان يشتغل عشرون الف مواطن بما يستطيع ان ينجزه مائة مواطن بطريقة أفضل . ولكن وجه الخطر فى حكم القلة هو نزوعها الطبيعى الى ان تحيد عن الصالح العام الى الصالح الخاص .

بابيف

سأحدثك اليوم عن العاطسين فى الزكائب ولكنى لن احدثك عن جميع العاطسين بل عن آخر من عطس منهم وهو فرنسوا بابيف ، ولا بأس من ان نتفق على تسميته : آخر العاطسين . فلو عرفت من هم العاطسون فى الزكائب لاتفقت معى على ان من رابع المستحيلات ان يتحدث عنهم كاتب فى مقال واحد ولو كان حديثه مجرد سرد أسمائهم ، فأسماؤهم اكثر عددا من ان يحتويها مقال . ولعلك تعلم ان التاريخ حين تعرض لهم ـ وقد تعرض لهم التاريخ كثيرا ، ذكر انه قد عطس فى الزكيبة منهم فى شهرين هما يونيو ويوليو ١٧٩٤ عدد يبلغ ١٢٨٥ شخصا . ولم يكن هؤلاء اول من عطسوا ولا آخر من عطسوا ، فقد سبقهم الى ذلك كثيرون وخلفهم فى ذلك كثيرون . وكان عصرهم ، عصرا كلُ من فيه يعطس أو يوشك أن يعطس . وكان منهم قوم نابهون يراهم البعض أبطالا ويراهم البعض أبالسة وترتجف لذكرهم أوراق التاريخ كما ترتجف أوراق الغابة اذا هبت عليها الاعاصير .

تقول : وما هـذا الاغراب فى الـكلام ، ومن يكون هؤلاء العاطسون فى الزكائب ؟ وكيف يعطس رجل فى زكيبة والناس لا يعطسون الا فى المناديل ؟

ولـكن هكذا شاءت فكاهة أولاد البلد من ابناء باريس أيام الثورة الفرنسية ان يقولوا عن كل من فصمت رأسه المقصلة انه عطس فى الزكيبة ، فقد كانت هناك تحت المقصلة زكيبة تتلقى الرؤوس المفصومة ، او تعطس فيها الرؤوس كما كانوا يقولون .

من هـــذا ترى ان ذلك العصر كان عصرا عاطسا . عطس فيه ملك ضعيف وملـكة جميلة وعطس فيه نبلاء كثيرون ورعاع كثيرون وزعماء فحول جاءوا من المجهول ودخلوا التاريخ برهة ثم خرجوا منه الى المجهول . ولكن يا لها من برهة اضطربت فيها نواميس الوجود فارتجت لها الدنيا وشحب لها وجـــه الزمان وحملقت الشهب والافلاك فى كرة الارض تستطلع ما الخبر ..

هيبير . مارا . شوميت . دانتون . فابر ديجلانتين . ديمولان . سان جوســـت . كوتون . دافيـــد . روبسبيير . كلهم جعلوا الغير يعطس ثم عطسوا بدورهم فى الزكيبة .

وكان آخر العاطســـين بابيف . ولولا ان الجنرال الشاب بونابرت ظهر ليعلم الفرنسيين كيف يقتلون غيرهم بدلا من ان يقتل بعضـــهم بعضا لمـــا كان بابيف آخر العاطسين .

فاذا أردت ان تعرف فيم كانت كل هـــذه الجلبـــة الشـــديدة التى بدأت فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ بســـقوط الباستيل وانتهت فى ٢٨ يوليو ١٧٩٥ بسقوط روبسبيير

« أى اعدامه » وجدت القصة المألوفة فى كل الثورات الكبرى : المبادىء والسلطة اللازمة لتطبيق هذه المبادىء والرجال الساعين لتقلد السلطة من اجل المبادىء . ويختلط كل هذا بالطبيعة البشرية : بالايمان والارتجال. بالاخلاص والانتهازية . بالطموح والطمع . بالتجرد والشهوات . بالوفاء والغدر . بالشجاعة والنذالة . بالصفاء والاحقاد ، وما بين هذه النقائض كلها من حدود وسطى . كل يفسر المبادىء من زاويته وكل يعتقد أو يقول ان الثورة قد تجسدت فيه ، لان لكل عقلا ونفسا وتكوينا وارتباطات مادية وروحية تختلف عن غيره . وفى مثل هذا الغليان الفكرى والنفسى والمادى يصبح التطرف تهمة والاعتدال تهمة والتسامح تهمة . حتى نابليون بونابرت الذى وضع حدا للثورة الفرنسية قبل هو ابن الثورة البكر الذى انقذها من فوضى الارهاب ونشر مبادئها خارج حدود فرنسا ، وقيل بل خانها حين سخرها لينشىء امبراطوريته المترامية .

ولو عرفت كيف نشأت الثورة الفرنسية ولماذا اندلعت وماذا أكلت لعرفت انها كانت ثورة الطبقة الوسطى على الاقطاع ، أو قل ثورة الطبقات الوسطى على الاقطاع ، فوسط المجتمع مكون من طبقات وطبقات .

ولو ذكرت ان شعار الثورة قبل ان يكون « الحرية والمساواة والاخاء » كان « الحرية والملكية » « التملك والامن ومقاومة الطغيان » بنص المادة الثانية من « اعلان حقوق الانسان » المشهور الصادر عام ١٧٨٩ ، ولو ذكرت ان بونابرت حين أتم انقلاب ١٨ برومير (٩ نوفمبر) ١٧٩٩ وحاصر البرلمان وشتت النواب اذاع فى بيانه الى الشعب الفرنسى ان أهداف الثورة هى « الحرية

والمساواة والاخاء » كان « الحرية والملكية (التملك) لادركت ان الثورة الفرنسية كانت ثورة البورجوازية على الارستقراطية كما نقول بلغة اليوم ، أو ثورة الطبقة المتوسطة على طبقة النبلاء ، وان هذه الثورة قدست حق التملك الفردى بمقدار ما قدست فكرة الحرية ، وان كان كل ما قيل فيها من كلام عن المساواة لم يقصد به المساواة الاقتصادية بين الناس ، وانما قصد به شيء آخر يختلف عن ذلك كل الاختلاف وهو المساواة أمام القانون والمساواة فى الحقوق والواجبات والمساواة فى فرص الحياة ، أو ما نسميه نحن اليوم تكافؤ الفرص .

لهذا كله فان فرنسوا بابيف حين جاء يحدث الناس قائلا : ان الثورة لن تكتمل الا اذا طبقت نظام الملكية المشتركة فانما كان يقول قولا غير مألوف فى زمانه ، ولئن كان قد وجد من يستمع له فى تلك الفترة المضطربة ويتعاون معه فى التآمر على قلب نظام الحكم فان ذلك لا يعنى انه كان يعبر عن امانى الكثرة من بنى قومه بل يعنى انه كان يتزعم « جناحا » صغيرا قويا قد يكون قادرا على الشغب ولكنه غير قادر على تقلد السلطة . فهو اذن رجل جاء قبل أوانه ، ولم يكن غريبا ان ينتهى أمره الى العطس فى الزكيبة ، فقد عطس فيها قبله أناس أقل منه تطرفا فى الاحلام مثل روبسبيير وسان جوست وكوتون ، أناس كانت تهمتهم الاولى انهم متطرفون .

ومع ذلك فاسم بابيف يوحى للاشتراكيين بنوع من الابوة فى المذهب ، فهو قد وضع الخطوط العريضة لها اكثر من نصف قرن قبل ان يضع فلاسفة الاشتراكية وعلماؤها خطوطها العريضة ، ووضع بعض خطوطها المفصلة اكثر من قرن قبل ان يضعوا خطوطها المفصلة .

وهو لم يكتف بوضع هذه الخطوط على الورق بل اقترن النظر عنده بالكفاح . فحاول ان يجرى تجربة عملية لاقامة مجتمع اشتراكى فى فرنسا عام ١٧٩٦ .

ولد فرنسوا نويل بابيف عام ١٧٦٠ وأعدم عام ١٧٩٧ عن سبع وثلاثين سنة . وكانت حياته مضطربة منذ بدايتها ، فقد كان أبوه بروتستانتيا من أتباع مذهب كالفن ، والبروتستانت قلة فى فرنسا لا ترتاح اليهم الكثرة الكاثوليكية ولا يرتاحون اليها . فلا عجب ان ينبت بابيف الصغير فى جو غير مألوف ، وان تتفتح ملكاته فى سن باكر شأن أبناء الاقليات المضطهدة .

وقد أوفد اتباع كالفن اباه الى الخارج ليبحث فى امكان التعاون بين اتباع كالفن واتباع لوثر ، فكلهم شيع من البروتستانت وكلهم مضطهد من الكاثوليكية فى تلك الايام . وبقى بابيف الاب فى الخارج ، واشتغل ضابطا فى جيش ماريا تيريزا ثم اتخذت منه ماريا تيريزا مؤدبا لاولادها .

وحين عاد بابيف الاب الى فرنسا عاش فى فقر مدقع حتى قيل ان ولده فرنسوا تعلم القراءة من الجرائد المهملة التى كان يلتقطها من الشوارع . ولكن بابيف الاب علم ابنه الرياضة واللغة اللاتينية وغرس فى نفسه حب الاطلاع والايمان بالشعوب . وتقول الرواية فيه انه حين حضرته الوفاة عام ١٧٨٠ أعطى ولده نسخة من كتاب بلوتارك فى سير العظماء ، وعلمه أن أعز أمانيه فى الحياة امنية لم تتحقق ، وهى ان يلعب فى فرنسا عين ذلك الدور الذى لعبه كايوس جراكوس فى روما القديمة وهو الزعيم المحارب الذى حرر العبيد وأخذ من الاغنياء ليعطى الفقراء . وقبل أن تفيض روحه جعل ولده يقسم على

سيفه أن يدافع عن صالح الشعب حتى الممات

وكان فرانسوا يومئذ فى العشرين من عمره ، وحين نشبت الثورة كان فى التاسعة والعشرين . وكان يعمل مسجلا لحقوق النبلاء فأحرق ما تحت يديه من محفوظات ببلدة روا من اعمال السوم . ثم انخرط فى سلك الثوار واشتغل بالصحافة وتقلد بعض مهام الثورة فى منطقته ، فكان يبيع الاملاك المصادرة ويوزع الاراضى على فقراء الفلاحين ويحرض أصحاب الحـــانات على عدم دفع الضرائب

وقد أوغر تطرفه صدور الاغنيـــاء عليه فسجنته السلطات المحلية مرارا ، واخيرا انتقل بابيف الى باريس عام ١٨٩٣ حيث تقلد وظيفة فى مكتب التموبن ، ولكنه لم يلبث أن تملكه الهياج لما راى من بشاعة الحرمان الذى كان يعيش فيه أهل باريس . وكشف عن أموال مختلسة فى حسابات التموين ، وأعلن ان السلطات تنشر المجاعة عمدا فى المدينة لتستغل حاجة الناس الى الطعام، وطالب بتشكيل لجنة لبحث هذه الحـالة ، فشكلت اللجنة ولكن الحكومة لم تلبث ان حلتها ، وزجت بابيف فى السجن متهما باختلاس الاموال العامة ايام كان يعمل فى الريف ، وهى تهمة لا يعلم أحد على وجه التحقيق ان كانت صحيحة أم ملفقة

واشتد التناحر بين زعماء الثورة فى سبيل المبادىء وفى سبيل السلطة ، فسقط مارا ، ثم سقط هيبير ، ثم سقط شوميت ، ثم ســقط دانتون ، ثم ســقط ديمولان ، ثم بلغ العنف قمته ولا سيما عند انتعاش الملكيين الذين كانوا يهــددون الجمهـورية ، واختصر روبسبيير اجراءات المحاكمة فسالت الدماء انهــارا .

واخيرا سقط روبسبيير « الذى لا سبيل الى افساده » وصاحباه الناريان سان جوست وكوتون وأعدم من بعدهم سبع وثمانون من أنصارهم فى الكومون . وبسقوط روبسبيير فى ٢٧ يوليو ١٧٩٤ انتهت حكومة الثورة وقامت مكانها حكومة جديدة من نوع جديد هى حكومة الادارة

وكان الشعب قد سئم منظر الدماء ، فأعطته حكومة الادارة الطمأنينة والهدوء ، وألغت قوانين المشبوهين وسائر الاجراءات الاستثنائية ، ولكنها سلبت الشعب أرزاقه . وضارب الحكام والتجار والممولون وكل ذى حظوة فى عملة البلاد ونهبوا الاموال المصادرة وتاجروا فى تموين الجيش وفى تموين المواطنين . وألغت حكومة الادارة دستور الثورة الذى صدر عام ١٧٩٣ ليعطى حق الانتخاب لكل المواطنين ، وأقامت مكانه دستورا جديدا عام ١٧٩٥ يقصر حق الانتخاب على طبقات معينة من الملاك

فى مثل هذا الجو جمع بابيف حوله فلول الثوريين واصدر جريدته « منبر الشعب » ، وأخذ يكتب فيها المقالات بتوقيع « جراكوس بابيف » مهاجما دستور الادارة داعيا لاحياء دستور الثورة . وامتدت مطالبته بالمساواة السياسية الى المطالبة بالمساواة الاقتصادية . واغلقت حكومة الادارة « منبر الشعب » وزجت ببابيف وشيعته فى السجن . وكان بابيف فقيرا لا يملك شروى نقير . فماتت بنته جوعا وهو فى السجن . ثم أفرج عنه ، وما أن أفرج عنه حتى أنشأ ناديا سياسيا ثوريا سماه « جمعية المتساوين » وأصدر النادى بيانا يسمى « بيان المتساوين » يقول : « فلتلغ الملكية الفردية الزراعية فالارض ليست ملكا لاحد .. نحن نعلن اننا

ما عدنا نحتمل ، ومعنا الكثرة المطلقة من الناس ، الكد والعرق فى خدمة الاقلية الضئيلة وفى سبيل منفعتها . كفى ما كان من أن أقل من مليون فرد يتصرفون فيما يملكه أكثر من عشرين مليونا من اخوانهم فى البشرية .. ان مشروعنا لم يسبق لاحد ان خطط او نفذ ما هو أعظم منه . ومن العباقرة والحكماء من تحدثوا عنه بين الحين والحين بصوت راجف خفيض . ولكن ما من أحد بينهم وجد الشجاعة الكافية ليعلن الحقيقة كلها .. فيا أبناء فرنسا ! افتحوا عيونكم وافتحوا قلوبكم لتمتلىء بهذه السعادة الكاملة . واعترفوا بجمهورية المتساوين واعلنوا معنا قيامها ! »

وكان طبيعيا أن تحل حكومة الادارة هذه الجماعة ، وتولى الجنرال نابليون بونابرت بنفسه اغلاق هـــذه الجمعية التى كانت تدعو دعوة خطيرة تتنافى مع حق الملكية الذى أقرته الثورة الفرنسية

وبدأت « جمعية المتساوين » تعمل بعد حلها كجهاز سرى ، وأخذت تحيك خيوط مؤامرة تطيح بحكومة الادارة . وأعدت دستورا ينص على « ملكية السلع المشتركة بين جميع أفراد الأمة » ، ووضعت برنامجا تخطيطيا مفصلا ينص على اعادة توزيع سكان المدن المكتظة على القرى ، وفرض العمل على جميع القادرين عليه ، وتناوب الناس فى القيـــام بالاعمال الشاقة أو الاعمال الكريهة على النفس ، وتولى الدولة تربية جميع المواطنين وتعليمهم بالتساوى بحيث تضمن للصغار التغذية الجسمية الكافية وللكبار التغذية العقلية الكافية وتجعل من الجميع مواطنين صالحين ، وكفالة الدولة للغذاء الاساسى وكل ضروريات الحياة لجميع

المواطنين ، مع اشتراط ان يتناول المواطنون طعامهم على موائد جماعية مشتركة ، ثم اشراف الدولة على التجارة الخارجية وفرض رقابتها على جميع المطبوعات

ونحن نبتسم اليوم اذ نقرأ هذا الكلام لانه يذكرنا بتلك الاحلام الاشتراكية الساذجة التى نجدها فى كتابات أفلاطون أو توماس مور . ولكن هده الاحلام الكثيرة الساذجة بالذات هى التى جعلت من الثورة الفرنسية مرتعا خصبا غريبا اختلطت فيه الحقيقة بالخيـــال ، وامتزجت فيه المثل العليا بمختلف الوان الهوس وبأحط غرائز الحيوان

وكان لبابيف أنصار فى الجيش والبوليس ، وأعد بابيف عدته للقيام بثورته فى يوم من أيام مايو ١٧٩٦

ولكن عين الحكومة كانت يقظة الى ما يفعل فى الخفاء . وفى عشية الانقلاب نم على بابيف وانصاره من الزعماء جاسوس من رجال الحكومة فقبض عليهم جميعا وزجوا فى السجن . وارادت الحكومة ان تجعل من بابيف عبرة لمن يعتبر فنقلته الى ميدان فندوم فى قفص كأنه حيوان كاسر

ودافع بابيف عن نفسه امام القضاء دفاعا مجيـــدا ست جلسات متتالية فجاء دفاعه أشـــبه بكتاب تزيد صفحاته على الثمانمائة صفحة ظلت نحو مائة عام مهملة فلم تنشر نشرا كاملا الا عام ١٨٨٤

انكر بابيف انه كان يتآمر لقلب نظام الحكم بالعنف رغم توافر القرائن على ذلك . ولكنه اعترف بأنه يدعو الى تطبيق نظام اشتراكى من طريق تنوير النـــاس واقناعهم بصحة نظرياته . وكانت حجة بابيف الاولى فى دفاعه انه لم يأت بجديد فى شىء مما ذهب اليه ، فهو

ما فعل الا أن استلهم فلسفة ديدرو وهلفتيوس ومابلى وجان جاك روسو ، فاذا كان الاتهام يعده « مجنونا خطرا » فما جنونه الا من جنون هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الذين تعدهم الثورة الفرنسية ذاتها مصدر وحيها ومنبع الهامها . فحقيقة الامر هى ان حكومة الادارة هى التى خانت مبادىء الثورة لا « جمعية المتساوين »

وبعد مداولات طويلة انقسمت فيها المحكمة على نفسها صدر الحكم بادانة بابيف . وكان أحد أبنائه قد هرب له خنجرا صنع من الصفيح ليواجه به الطوارىء . وحين سمع بابيف الحكم بادانته طعن نفسه بالخنجر لينجو من حد المقصلة ويموت بيده لا بيد أعدائه على عادة الرومان . وتمزق جسده تمزيقا بليغا ولكنه لم يمت . وفى صباح اليوم التالي وهو ٢٧ مايو ١٧٩٧ سيق الى المقصلة حيث عطس فى الزكيبة كما يقولون ، وعطس معه ثلاثون من أتباعه ، وأما الباقون فقد نفوا أو حكم عليهم بالاشغال الشاقة

سان سيمون

نقرأ اليوم له فننكر ان بينه وبين الاشتراكية صلة أو سببا ، ولكنه رغم ذلك فى عرف عامة المؤرخين مرحلة من مراحل الفكر الاشتراكى . ولئن كانت الاشتراكية قد تغير اليوم مدلولها وتعددت اليوم مدارسها ، فهذا لا يمنع ان لها روادا أوائل بذروا بذرتها ، ومن هؤلاء الرواد الذين بذروا بذرة الاشتراكية فى العصر الحديث رجل شاذ ، عاش شاذا ومات شاذا ، وتناسخت روحه بدرجات متفاوتة فى مدرسة ضخمة من الكتاب والمفكرين ورجال السياسة والاعمال ، أو قل فى مدارس متعددة ، بعضها يناقض البعض الآخر . وذلك الرجل الشاذ هو الكونت دى سان سيمون

كانت حياة سان سيمون حياة وسطا فقد ولد عام ١٧٦٠ وتوفى عام ١٨٢٥ عن خمس وستين سنة ، وبهذا يكون قد قضى شبابه فى عصر الاختمار الفكرى والعاطفى الذى انتهى بانفجار الثورة الفرنسية ، وقضى رجولتـه فى عصر التشنج الاوروبى الذى بدأ باعلان حقوق الانسان وانتهى بسقوط نابليون

ولم يكن سان سيمون من عامة الشعب بل كان من نبلاء قومه ، فهو سليل الدوق سان سيمون الذى كان مؤرخا فى بلاط لويس الرابع عشر ومترجما لعصره فى مذكراته المشهورة ، لهذا وقف الكونت سان سيمون حائرا بين عالمين حين نشبت الثورة الفرنسية . فقد نزل عن لقبه ورضى ان يكون من عامة الشعب لا يؤمن بالنبالة والنبلاء . ولكنه رغم ذلك وقف وقفة المتفرج من احداث الثورة الفرنسية لا يجد لنفسه مكانا فى زحمتها ، وينظر اليها نظره الى شىء مخرب رهيب . وحين صفى نابليون الثورة داخل فرنسا وشرع السلاح ليذكيها خارجها بحد الحسام لم يجد سان سيمون فى بطولاته ما يدعو للتفاؤل ، وحين تألف التحالف المقدس من روسيا والمانيا والنمسا بعد سقوط النسر الكبير فى واترلو لم يبتهج قلب سان سيمون بسقوط النسر الكبير ، ذلك لأنه كان يرى فيما يجرى حوله من أحداث السياسة طوال ذلك الجيل المتشنج شيئا غير ما يقوم عليه المجتمع ويهدف اليه .

ففى الثورة الفرنسية كان يقول ان مبادءها وتياراتها السياسية كانت منفصلة عن الحقائق الاجتماعيةوالواقع الاجتماعى ، وفى الدكتاتورية النابليونية كان يقول ان نابليون يفترض ان أهداف المجتمع هى الحرب والقتال والفتوحات التى تكدس النصر فوق النصر ، وحقيقة الأمر ان المجتمع ليس له الا هدفان هما الانتاج والاستهلاك . وفى انتصار التحالف المقدس على نابليون كان يقول : صوابا حقا كان القضاء على نابليون الذى عاش بالسيف ، ولكن الحلف المقدس نفسه ليس لديه ما يعطيه للعالم الا السيف .

فلم يكن غريبا اذن ان يعيش سان سيمون بمعزل عن أحداث عصره ، ينظر اليها ويدرسها ولا يشارك فيها . واقتصرت مشاركته فى الثورة الفرنسية على الاتجار ببعض الاموال المصادرة وجمع من ذلك مبلغا لا بأس به . ولكن شريكه فى هذه التجارة سلبه أكثر ما ربح . فانصرف سان سيمون من عالم المال الى عالم الدرس والتفكير ، وكان يعلم ان عصره عصر العلم والصناعة ، أو فاتحة عصر العلم والصناعة ، وكان يؤمن ان مستقبل البشرية مرتبط بتقدم العلم والصناعة ، لذلك كان طبيعيا ان يقبل على ألوان من الدرس غير ما يقبل عليه كثير من الآخرين .

وسكن سان سيمون أولا فى دار بالحى اللاتينى فى باريس أمام مدرسة الهندسة « البوليتكنيك » وعكف على دراسة الطب . وعربد كثيرا فى فترة من حياته بدافع الفضول كما كان يقول أو لدراسة الجانب الاخلاقى من الحياة على الطبيعة ! ثم تزوج ليقيم فى داره صالونا يتردد عليه أهل الفكر والثقافة ! ولكنه سرعان ما طلق زوجته ، وعاد يجرى وراء أحلامه الشاذة وكانت سيدة المثقفين فى عصره كاتبة شهيرة تلمع لا فى باريس وحدها ولكن فى كل مجتمع أوروبى يتقن الثقافة ويحذق التفكير والتعبير ، الا وهى مدام دى ستايل . فتقدم اليها سان سيمون يعرض عليها الزواج قائلا انها أعظم امرأة فى العالم وهو أعظم رجل فى العالم .

ولم يبق الا أن تقبله زوجا لينجبا أعظم ولد فى العالم . ولكن مدام دى ستايل ردته خائبا وهى تضحك من هذا الطفل الكبير .

وانطلق سان سيمون فى اسفاره باحثا عن الفكر

والمعرفة ، فرحل الى انجلترا ورحل الى ألمانيا ، ولكنه عاد منهما خائبا لأنه لم يجد فيهما شيئا مما كان يبحث عنه !

كان سان سيمون كأكثر عباقرة عصره رجلا غير متزن ، وقد انعكست قلة اتزانه لا فى سلوكه وحده ولكن فى بعض أفكاره كذلك . ورغم ايمانه بأن الأرستقراطية التى قضت عليها الثورة الفرنسية أرستقراطية بائدة وينبغى ان تبيد ، فقد كان ممتلئا بأمجاد أسرته ممتلئا بعبقريته الخاصة حتى لقد درب خادمه الخاص على أن يوقظه كل صباح قائلا « انهض يا سيدى الكونت ! تذكر ان أمامك أعمالا جساما تؤديها ! » ولم يسلم سان سيمون فى عهد الارهاب فاستضيف فى السجن فترة من الزمن ، وحين كان فى السجن خيل اليه أن شبح جده الاكبر شارلمان بدا له فى الرؤيا ليبشره بأن آل سان سيمون وحدهم قد قدر لهم أن يكون منهم بطل عظيم ومفكر عظيم . أما البطل فهو شرلمان ، وأما المفكر فهو سان سيمون نفسه الذى قدر له أن يبلغ فى فتوحات الفكر ما بلغه شرلمان فى فتوحات الحرب .

ولكن سان سيمون رغم شذوذه كان دائب التفكير فى مقومات المجتمع الذى كان يعيش فيه لعله يهتدى الى موضع العلة منه وان يوفق الى علاج . وهذا ما وصل اليه :

ان عصره هو عصر الثورة الصناعيةوالتمدد التجارى، والثورة الفرنسية التى جاءت لتدعم هذا وذاك قد جنحت أحيانا الى الاستبداد اليسارى باسم الفقراء والقضاء على الفقر والى الاستبداد اليمينى باسم الملاك

وحماية الملكية الخاصة . وقد ترسب فى يقين سان سيمون أن للطبقة المالكة وظيفة اجتماعية كبرى ، وهذه الوظيفة ليست خدمة نفسها ولكن خدمة الشعب . فماذا أصاب المجتمع من الثورة الفرنسية ؟ انها لم تلغ الاستبداد ولم تلغ الفقر . ولماذا عجزت الثورة الفرنسية عن الغاء الاستبداد والفقر معا ؟ان علة ذلك العجز كامنة فى الفلسفة التى قامت عليها الثورة الفرنسية ، ألا وهى الفلسفة العقلية التى حطمت سلطان الكنيسة وخلخلت تماسك الطبقات والعلاقات الاقطاعية القديمة المستتبة دون ان تقيم مكان سلطان الدين الذى يجله الناس باختيارهم من داخل نفوسهم سلطانا آخر يجله الناس باختيارهم من داخل نفوسهم ودون أن تقيم مكان العلاقات الاقطاعية المستتبة علاقات انسانية جديدة مستتبة .

والخطأ الذى ارتكبته الفلسفة العقلية التى قامت عليها الثورة الفرنسية هو عند سان سيمون انالفلسفة العقلية فصلت الانسان عن الطبيعة . فهى من ناحية تعتقد فى كون تحكمه قوانين رياضية وطبيعية وميكانيكية وعضوية أزلية أبدية ثابتة لا تتغير ولا يمكن ان تتغير ، وهى القوانين التى وضع أساسها ديكارت ونيوتون ولابلاس وعامة العلماء فى القرن الثامن عشر ، ومثلها قانون القصور الذاتى وقانون الجاذبية ألخ . وهى من ناحية أخرى تؤمن بأن الانسان وحده مختار يقررمصيره ويصرف كل شيء يتصل به بمحض اختياره . فالعالم المادى فى الفلسفة العقلية عالم قائم علىالجبر والضرورة، والحياة الانسانية فى الفلسفة العقلية حياة قائمة على الحرية والاختيار . وفى هذا فصل للانسان عن الطبيعة.

وحقيقة الامر عند سان سيمون ان الانسان ليس الا

جزءا من الطبيعة . واذا كان الانسان جزءا من الطبيعة فلا بد ان الحياة الانسانية والحياة الاجتماعية تخضع لقوانين تسيرها بمثل ما يخضع العالم المادى وسائر العضويات لقوانين تسيره وتسيرها . وهذه القوانين التى تتحكم فى الحياة الاجتماعية يمكن استخلاصها من التاريخ ومن علم التاريخ .

ويرى سان سيمون ان دراسة التاريخ تدلنا على أن هناك فترتين تتناوبان التاريخ البشرى بانتظام همافترة التماسك الذى يسميه « التوازن » وفترة التخلخل الذى يسميه « الانحلال » . وعنده أن العصورالوسطى الاقطاعية تمثل فترة التوازن وقد أعقبتها فترة من الانحلال أو الانهيار هى ما يسمونه عصر النهضةالاوربية وحركة الاصلاح الدينى . وقد أعقبت هذا العصر وهذه الحركة فترة منالتوازن تمثلت فى حضارة الأرستقراطية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حتى وضعت الثورة الفرنسية حداً لهذا التوازن بما جاءت به من انهيار فى السلطة وفى العلاقات بين أبناء المجتمع .

والحل عند سان سيمون هو أن يسعى المجتمع من جديد الى اقامة هذا التوازن الذى فقده ، وما دام التاريخ علما والاجتماع علما ففى الامكان اعادة تنظيم المجتمع على أساس علمي راسخ على قوانين علمية بدلا من هذا الأساس الفلسفى الميتافيزيقى الذى أرسته الثورة الفرنسية ، وبدلا من الافكار المجردة التى نشرها الفلاسفة العقليون فى القرن الثامن عشر عن الطبيعة والانسان والعلاقات الاجتماعية .

وتنظيم المجتمع الصناعى الجديد تنظيما علميا هو عند سان سيمون ليس من شأن الفيلسوف أو السياسى

المتفلسف او رجل الكهنوت ولكنه مشكلة صناعية من شأن العلماء وكبار رجال الصناعة والاقتصاد . ووظيفة السياسة هي مجرد الاشراف على العمل وتنظيمه والاشراف على الظروف التي يجرى فيها العمل وتنظيمها، وحل المشكلات الاجتماعية ان هو الا توفيق بين المصالح المتعارضة وتنسيقها وفى عبارة واحدة : التخطيط أو ما نسميه اليوم بالتخطيط .

وهكذا يدحض سان سيمون ثلاث مدارس من مدارس الفكر السياسى والاجتماعى كانت تعتمل فى عصره :

١ ــ مدرسة الحرية الليبرالية لا مكان لها لأنها تصر على حرية الفرد ، وعند سان سيمون أن الفرد ينبغى أن يخضع للمجتمع كما ينبغى أن يخضع الجزء للكل .

٢ ــ مدرسة الكهنوت التى راعها ما رأته من تخلخل اجتماعي وانساني أو « انهيار » فى الحياة الاجتماعية والعلاقات الانسانية نتج عن الثورة الفرنسية ، فلم تر حلا الا عودة الناس الى أحضان الكنيسة الكاثوليكية و « توازن » العصور الوسطى . وعند سان سيمون أن الماضى قد مضى ولا سبيل الى احيائه ، والعصور الوسطى رغم أمجاد جده شرلمان وكل ما فيها من آيات الجمال التى يحبها لا تتفق ونمط الحياة أو مقتضيات المجتمع فى عصر الصناعة . فلننظر الى الامام نظرة المتفائل ولا ننظر الى الوراء نظرة المتشائم

٣ ــ مدرسة المساواة من أشياع بابيف وهم الذين يسوون بين البشر لا فى الحقوق والواجبات وحدها ولكن فى الدخل أيضا قدر المستطاع . وهؤلاء عند سان سيمون منفصلون عن الواقع تماما . فعند سان سيمون أن المجتمع سلم أو على الاصح هرم مدرج من ثلاث

مصاطب وينبغى ان يكون كذلك . وفى قمة هذا الهرم طبقة « العلماء » وفى وسطه طبقة الملاك وفى قاعدته طبقة من لا يملكون شيئا . وهو تقسيم متأثر بالهرم الاجتماعى الافلاطونى فى « جمهورية » أفلاطون ، ذلك الهرم الذى يجلس الفلاسفة فوق قمته وتتألف قاعدته من العبيد.

ولكن سان سيمون لا يجلس الفلاسفة على قمة هرمه الاجتماعى ، بل يجلس العلماء ليقوموا بتنظيم المجتمع أو تخطيطه على أساس علمى . وهو يقترح لذلك انشاء مجلس يسمى « مجلس نيوتون » تنفق عليه الجماعة ليكون بمثابة الراس المفكر لجسد المجتمع ويرى أن يكون قوامه ثلاثة من علماء الرياضة ، وثلاثة من علماء الطبيعة ، وثلاثة من علماء الكيمياء ، وثلاثة من علماء وظائف الاعضاء، وثلاثة من الادباء ، وثلاثة من الرسامين ، وثلاثة من الموسيقيين . فالعلم عند سان سيمون ليس العلم بالمعنى الضيق ولكنه يرادف المعرفة الانسانية أو النشاط الروحى والفكرى . ومهمة هذا المجلس عنده هى التفرغ للاكتشاف والاختراع والابتكار فى كل علم وفن، وهو يوصى بوجه خاص أن يتوفر هذا المجلس على اكتشاف قانون جديد للجاذبية غير ما اكتشفه العلامة نيوتون ، قانون يمكن تطبيقه على السلوك الاجتماعى الذى تسلكه هيئات المجتمع وأفراده حتى يمكن أن يحفظ به التوازن الاجتماعى .

ويسمى سان سيمون هذا المجلس مجلس نيوتون لأنه يزعم انه رأى فى الرؤيا العلامة نيوتون يجلس على يمين الله مكان البابا الذى تقول فيه خرافات البسطاء انه يفصح للناس بلغتهم عما يجرى فى ضمير الله . واحسب ان هذه كانت طريقة سان سيمون فى التهكم

بقدسية الكهنوت وفى التعبير عن فكرته القائلة ان معرفة الله تكون من خلال العلم لا من خلال تعاليم الكنيسة ، وهى فكرة أفاض فى شرحها الفيلسوف الانجليزى بيكون أيما افاضة .

ولم يقل سان سيمون بأن مجتمع العباقرة هذا يقوم بحكم المجتمع ، فوقتهم وتكوينهم اثمن من ذلك ، فالعباقرة هم الذين يخططون للانسانية مستقبلها ويصوغون مصيرها .

أما الحكومة فى الدولة فهى مهمة أبناء المجتمع من الطبقة المالكة التى لا تحتاج الى العمل لتعيش ولا تتقاضى عن ادارة دفة الحكم شيئا . وما على أبناء الطبقة العديمة الملكية الا الخضوع لحكم هذه الطبقة المالكة ان أرادوا الخير لأنفسهم ، فهى أكثر منهم استنارة وأكثر رشدا ، كما ثبت من تجربة الثورة الفرنسية حين حكم المعدمون أنفسهم بأنفسهم ، فاضطربت شئونهم وتعرضوا للمجاعات . ولكن فليعلم الجميع ان الغاية من كل حكم ومن كل تنظيم اجتماعى انما هى ترقية « أفقر الطبقات وأكثرها عددا » عقليا واخلاقيا وجسميا

ويرى سان سيمون انه لا مكان فى العالم الا لأربع حكومات هى الفرنسية والانجليزية والالمانية والايطالية، توزع فيما بينها مسئولية حكم العالم ، لان كل ما عداها متخلف عنها !

هذا مجمل فلسفة سان سيمون !! التى بدأت عام ١٨٠٢ بكتابه « رسائل ساكن فى جنيف » .

ولكن سان سيمون تدرج فى الحياة تدرجا انتهى به الى اعادة النظر فى بعض نظرياته الجوهرية . فقد أتى اسرافه ورحلاته وتهالكه على الملذات وصالونه الأدبى

على كل ماله ، فلم يعد يملك شروى نقير . وحين اكتمل افلاسه اضطر الى أن يشتغل ناسخا فى مونمارتر يعمل تسع ساعات يوميا ليجد ثمن قوته . وخف أحد خدمه القدامى الى معونته فآواه ووصله . وظل سان سيمون يواصل القراءة والكتابة كلما فرغ الى نفسه فى المساء بعد عمله المرهق.ولكن لم يعد أحد يحفل بمايكتب أوينشر

وقد ظهرت آثار هذا الفقر المدقع فى آخر كتاب وضعه سان سيمون وهو « المسيحية الجديدة » . فقد كان من قبل يخالف كبار المحافظين من أمثال جوزيف دى ميتر كلما ذهبوا الى أنه لا منقذ للمجتمع من الفوضى التى أشاعتها فيه الثورة الفرنسية الا اعادة سلطان الدين والكنيسة بين أبنائه . وكان سان سيمون ينادى من قبل بأن فى وسع العباقرة رد التوازن الى المجتمع وأفراده . فتحول عن هذا الرأى وأعلن أن المجتمع لن يتوازن الا اذا ساده دين من الاديان .

ولكن سان سيمون لم يقبل المسيحية الكاثوليكية ولم يقبل المسيحية البروتستانتية ، بل نادى بأن مجتمعه يحتاج الى مسيحية جديدة غير هذه وتلك ، مسيحية تبرز ما فى الدين من بر بالفقراء وعطف عليهم . وهو فى كل ذلك لم يتخل عن هرمه الاجتماعى ، ولكنه غدا أشد اهتماما بمصير قاعدته السفلى من عديمى الملكية ، مؤكدا ضرورة العمل السريع على الاخذ بيد الفقراء وتحسين حالهم لان لهم فى مال الاغنياء نصيبا . وكانت أهم الحجج التى ساقها سان سيمون هى أن البر واجب على النبالة وان فى توفر العباقرة والملاك على تحسين أحوال الفقراء مصلحة للعباقرة والملاك جميعا ، وان مصلحة الاغنياء هى مصلحة الفقراء ، فليفهم الأغنياء ذلك فان كانوا لا يفهمون فقد وجب افهامهم . وما دامت

مصلحة الاغنياء ومصلحة الفقراء واحدة ، فقد وجب أن يتجه الحكام الى جماهير الشعب المعدمة رأسا وأن يتراضوا معها حتى يتجنبوا ما يمكن ان تلجأ اليه الجماهير الساخطة من أعمال العنف والتخريب .

ساءت حال سان سيمون فى آخر أيامه سوءا ما بعده سوء . فقد توفى خادمه المحسن اليه وتركه دون معين ، ولم يعد يجد من يطبع له كتبه فكان ينسخها بنفسه ويرسلها الى العلماء والوجهاء لعله يجد بينهم من يهتم به وبأفكاره ، ولكنهم تجاهلوه جميعا . ولعل أصدق وصف لهذه المرحلة اليائسة من حياته قد خطه هو بقلمه حين كتب :

« خمسة عشر يوما لم أذق فيها الا الخبز والماء ، وأنا أعمل بغير نار فى مدفأتى ، بل لقد اضطررت الى بيع ثيابى لأتمكن من دفع تكاليف نسخ كتابى . لقد أصابتنى هذه البأساء من فرط حبى للعلم ولخير المجموع وبسبب رغبتى فى ايجاد سبيل الى حل الازمة الرهيبة التى تملكت اليوم المجتمع الاوربى كله حلا بغير عنف . ولذا أجدنى أصارع بأسائى دون خجل واسأل العون اللازم حتى اتمكن من المضى فى عملى » .

وأخيرا رضيت أسرة سان سيمون بأن ترسل اليه معاشا صغيرا . وفى عام ١٨٢٣ حاول أن ينتحر فأطلق الرصاص على نفسه ، ولكنه نجا من الموت ، وبقى على قيد الحياة حتى وافاه الأجل عام ١٨٢٥ وكان أحد تلاميذه الى جواره فنظر اليه وقال : « لقد دارت حياتى كلها حول فكرة واحدة ، وهى أن أضمن لجميع بنى البشر نمو ملكاتهم حرة من كل قيد . وبعد أن يعاد نشر عملنا بثمان وأربعين ساعة ، سوف يتكون حزب العمال : ان المستقبل لنا » . ثم وضع يده على جبينه واستراح

شارل فوربيه

وهذا ثانى ثلاثة من أقطاب الفكر السياسى الاوربى الذين وضعوا أساس الاشتراكية التعاونية ، وهؤلاء هم: سان سيمون وشارل فورييه وروبرت أوين .

أما سان سيمون ، فقد انصرف الى التأمل الفلسفى والاجتماعى أكثر مما انصرف الى التخطيط العملى ، وكل شغله الشاغل أن يضع فلسفة الاشتراكية التعاونية ، وان يرسم خطوطها الكبرى ، وان يشرح مبرراتها الاجتماعية والانسانية .

ولكن فورييه وروبرت أوين ، لم يكتفيا بالفلسفة النظرية ، بل اجتهدا فى ايجاد نظم عملية يمكن ان يسير عليها المجتمع ، فيحقق هذه الاشتراكية التعاونية ، بل لقد خرج فورييه كما خرج أوين من مرحلة تخطيط النظم العملية الى مرحلة محاولة اجراء التجارب الاجتماعية والاقتصادية الفعلية ، ومن هنا كان وجه التشابه الشديد بين شارل فورييه الفرنسى ، ومعاصره روبرت أوين الانجليزى ، رغم ان كلا منهما كان يدرس ويفكر ويعمل فى استقلال تام عن زميله فى الفكر والمذهب

ولقد فشل شارل فوربيه كما فشل روبرت أوين فى تطبيق نظامه الاقتصادى ، وكان فشل كل منهما لأسباب مختلفة . ورغم اختلاف أسباب الفشل هذه ، ورغم اختلاف نظام فوربيه عن نظام أوين فى كثير من التفاصيل ، فان بين شخصيتى هذين الرجلين من وجوه الشبه ملامح عديدة . فكلاهما كان صلبا فى الحق عنيدا . وكلاهما كان مثابرا على الرأى والعمل بدرجة نادرة . وكلاهما كان على نظافة خلقية واستقامة لا يتطرق اليها الشك ..

ولد فوربيه بمدينة بيزانسون فى شرق فرنسا لأب قماش ، أى تاجر قماش ، كان يتجول ببضاعته من قرية الى قرية . وحين بلغ فوربيه الابن سن العمل اشتغل كاتبا فى دكان .

ولكن الاضطراب والقلق الذى كان يحيط به ، لم يمنعه من متابعة الدراسة وادمان الاطلاع . وقد ذاق فى حداثته بعض ما ذاقه المضطهدون أيام الثورة الفرنسية ، فصادرت الثورة أملاك أسرته ، وكاد شارل فوربيه نفسه أن يفقد رأسه على حد المقصلة ، حين حاصرت جنود الثورة التابعة للمؤتمر الوطنى مدينة ليون ، ولكنه نجا من الهلاك .

فلم يكن غريبا اذن ان تضطرب نفس فوربيه لكل هذه الأحداث الشاهقة التى كانت تجرى فى عصره وهو بعد فى عنفوان الشباب . ولم يكن غريبا اذن ان يحاول فوربيه كما حاول سان سيمون وروبرت أوين دراسة المجتمع المتشنج الذى يحيطه ، والحضارة المتشنجة التى جعلت من أوربا كلها قارة يسودها الصراع ويشتبك

فيها السلاح ويعلو فيها الصياح بالمبـــادىء والمذاهب والشعارات .

وأدرك فورييه كما أدرك سان سيمون وروبرت أوين، ان علة أوربا فى عصرهم الثائر ، ان هى الا الثـــورة الصناعية التى قضت على خمول الاقطاع والاستبداد ، وأحلت الآلة محل الانسان ، بل ونظرت الى الانســان نفسه نظرها الى مجرد آلة منتجة يمونها صاحبهابأرخص وقود ويديرها أطول مدة ممكنة ، ليتحقق له أكبر ربح حتى تستهلك وتصبح خردة فيقـــذف بها فى عرض الطريق . ورأى فورييه كما رأى روبرت أوين ، أنأبشع الجرائم الانسانية ترتكب باسم المنافسة الحـرة التى يقوم عليها الاقتصاد الليبرالى ، فرأس المال الصناعى والتجارى يعربد عربدة لا حد لها ، ويسترق اليـــد العاملة استرقاقا لا حد له ، بدعوى تنمية الصناعة ، وهو يفعل كل هذا بحجة تخفيض نفقات الانتاجومضاعفة كميته وتحسين نوعه ، حتى ينخفض ثمنه فينتفع بذلك المستهلكون .

أما نتيجة هذا الاقتصاد الليبرالى القائم على حـرية التجارة وحرية الصناعة وعدم تدخل الدولة فى تنظيم العلاقة بين المنتج والمستهلك وبين رأس المال والعمال ، فلم ير فورييه أنها تحقق شيئا مما كان يرتجى ، ولا تثمر الا البطر فى نفوس أصحاب الاعمال ، والمرارة فى نفوس العمال ، والقلق الاجتماعى فى نفوس الناس عامة، فالمالك خائف على ما ملك ، والمعدم طامع فيما لم يملك، وشرعة المجتمع كله هى التحاسد الأعمىوالتصارع المجرد من كل قيم أخلاقية تحت ستار المنافسة الحرة .

وقد أتاح مقام فورييه فى مدينة ليون له ، وأتاحت

له صلته الوثيقة بعالم الصناعة ، ان يشهد بنفسه نتائج الثورة الصناعية فى بلاده . فقد كانت ليون مركزا هاما من مراكز صناعة النسيج ، ورأى فوربيه هذه الصناعة تنمو فيها وتزدهر أيام الثورة الفرنسية وفى عهد نابليون نموا عظيما وازدهارا يخطف الابصار . ولكنه رأى أيضا أن هذا النمو وهذا الازدهار انما كان على جثث المواطنين الذين كانوا يعيشون فى فقر يزرى بكرامة الانسان .

بل لقد رأى فوربيه بنفسه أرباب المتجر الذى كان يعمل فيه يخزنون شحنة من الأرز عامدين ان تتعفن ، وبعد ان تعفنت قذفوا بها فى مياه البحر بميناء مرسيليا ، كل ذلك ليتجنبوا عرضها فى الاسواق حتى لا ينخفض سعر الأرز ، وقد أعانهم ذلك فعلا على التحكم فى السوق

من اجل هـــذا كله ثار فوربيه على حضارة عصره وانكر فلسفة عصره ، بل وثار على الحضارة الاوربية والفلسفة الاوربية عامة ، متهما اوربا بأنها « غسلت الانسانية فى بحار من الدماء مدى ثلاثة وعشرين قرنا علميـــا » أى منذ اليونان الى يومه ذاك . وتقمصته روح غريبة من تلك الارواح التى تتقمص المصلحين ، فتصور ان العناية الالهية قد تخيرته من بين الناس ليكون رسول الاصلاح فى هذا العالم ، وان الله قد اختاره ، وهو « مجرد كاتب فى متجر يوشك ان يكون أميا » ، ليحمل كلمته الى بنى البشر ، وليكشف عن الاضاليـــل التى تزخر بها كتب السياسة والاجتماع والاخلاق . وانتهى الى ان « القانون الالهى يشرع اول ما يشرع لتنظيم شـــئون الصناعة ، وهى اول وظائف الانسان » . وهو يعترف بأنه ليس اول من فكر فى هذا الامر ، فقد سبقه الى ذلك المفكرون والحكومات ، ولـــكن المفكرين والحكومات بدلا من ان

ينظموا الصناعة ، شجعوا ما يسميه فورييه « التطاحن الصناعى والغش التجارى فى زى المنافسة الحرة » . وهذا ما جاء فورييه ليكشفه للناس ويقيم مكانه نظاما اجتماعيا وصناعيا جديدا ، يقوم على التعاون بدلا من التطاحن ، وعلى الامانة بدلا من الغش ، وعلى تعيين الحدود بين الناس بدلا من ترك الامر فوضى فى يد المستغلين العتاة والساخطين المخربين على حد سواء . وبعبارة مختصرة أراد فورييه ان يحل التخطيط الاقتصادى والاجتماعى محل الحرية الاقتصادية والاجتماعية .

وبعد أعوام وأعوام من حياة العزلة ودراسة المجتمع ، نشر فورييه أبحاثه عام ١٨٢٠ . وكان من رأيه ان ينقسم السكان داخل المجتمع الكبير الى مجموعات صغيرة مكتفية بذاتها ، وقوام كل منها يتراوح بين ١٦٠٠ شخص و ٢٠٠٠ شخص . وقد اطلق على كل مجموعة من هذه المجموعات اسم « فالانستير » ، ورأى ان هذه المجموعات ينبغى ان تعتمد على رؤوس الاموال الخاصة والاستثمار الخاص ، فالملكية الخاصة عنده مصونة ولكن ينظمها النظام الاجتماعى وهو نظام الفالانستير الذى لا يقوم على المساواة الاقتصادية المطلقة بين جميع الناس ، بل يعترف بالفوارق الطبقية المستمدة من الفوارق فى الدخل وفى مكان المواطنين فى السلم الاجتماعى .

وفى الفالانستير يتعاون رأس المال والعمال على الانتاج . ويحدد حد ادنى لنفقات المعيشة يتقاضاه كل مواطن يعمل ، هو حد الكفاف ، ثم يوزع الفائض بين ابناء الفالانستير بالنسب التالية : خمسة على اثنى

عشر هى حصة العمال ، واربعة على اثنى عشر هى حصة رأس المـال ، وثلاثة على اثنى عشر هى حصة الادارة واصحاب المواهب من الفنيين . وفى الفالانستير يعمل بالمبدأ التالى : يتقاضى القائم بالعمل السائغ نصيبا اقل مما يتقاضاه القائم بالعمل الشاق او الـكريه ، وبالمثل يتقاضى القائم بالعمل الضرورى نصيبا اكبر مما يتقاضاه القائم بالعمل الاقل لزوما وان كان هـذا العمل نافعا ، وقياسا على ذلك فانتاج الاشياء النافعة مقدم على انتاج الـكماليات .

اما من ناحية العلاقات الاجتماعية بين ابناء الفالانستير، فقد رأى فوربيه ان يعمل بنظام التصويت العام فى كل مجموعة ، وان يتساوى ابناء الاغنياء وابناء الفقراء فى التعليم وفيما يتعلمون . غير ان فوربيه ، كان لايشجع الجمع بين ذوى الدخول المتفاوتة جدا فى صعيد واحد.

وبعد ان رسم فوربيه صورة هذه المدينة الفاضلة ، لم يبق الا ان يضع رسمه موضع التنفيـذ ، ليثبت بالتجربة سلامة نظامه . لا بد اذن من ممولين اغنيـاء لتمويل هذه المدينة الفاضلة . وهكذا اعلن فوربيـه للجمهـور انه سيـنتظر فى داره كل يوم وقت الظهر ليناقش مشروعه مع أى ثرى من الاثرياء يهمه ان يجرى هذه التجربة .

وقد لبث فوربيه عشرة اعوام كاملة ينتظر فى الوقت المحدد ، ولم يخلف موعده مرة واحدة ، ولـكن ما من احد تقدم ليعاونه على تحقيق حلمه السعيد . وحين مات عام ١٨٣٧ مات وفى نفسه حسرة ، ولـكن ايمانه لم يتزعزع أبدا بسلامة نظرياته . وقد أقيمت بعـد وفاته بعض هـذه الوحدات او الفالانستيرات فى فرنسا

وفى الولايات المتحدة ، ولـكنها منيت بالفشل هنا وهناك

وقد أسهب فوريه طويلا فى تفصيل نمط الحياة فى الفالانستير وفى وصف سعادة الناس فيها وشرح مقومات هذه السعادة .

وحجر الزاوية الذى يبنى عليـه فوريه نظريتـه الاجتماعية ليس فيه جديد ، فهو نفس الحجر الذى بنى عليه جان جاك روسو وأتبـاعه وكل من تأثر به فكرتهم عن امكان اقـامة الفردوس الارضى اذا عرف الناس سبيلهم الى ذلك .

والاساس فى هذه الفكرة ان الانسان خير بالفطرة ، وان كل ما نراه حولنا من مظـاهر الشر والشقاء هو نتيجة لظهور النظم الاجتماعية الفاسدة التى تتلف علاقة الانسان بالانسان ، وتخرب فطـرة الخير فى النـاس وتوجههم الى التنابذ والتطاحن .

وفى ذلك يقول فوريه : ان « العواطف » الانسانية هى أساس السلوك الانسانى ، وان ما نراه من شـقاء مرده الى ان الناس لم يدركوا حقيقة هـذه العواطف الصـافية ، وجوهرها المجبول على الخير ، فأقاموا مجتمعا يمزق البشرية الى أفراد وطبقـات وشعـوب متناحرة ، ويفتت وحدة الجنس البشرى ، الى جزيئات أو ذرات تتصادم تصادما أعمى ، مما أسـلم المجتمع لنقيضين هما : الفوضى المعربدة ، والنظام الارهابى .

فلو عرف الناس ان القانون الاول الذى يحكم بنى الانسان ، كما يحكم العالم الطبيعى هو «قانون الجاذبية» الذى اكتشفه نيوتون ، ولو طبقوا هـذا القـانون على المجتمع البشرى ، لـكان فى هـذا حل لجميع مشاكلهم .

فالاصل ان البشر يتجاذبون ولا يتنافرون ، والاصل انهم يتعاونون ولا يتنافسون ويتخاصمون ، وكل نظام اجتماعى سعيد ، ينبغى ان يقوم على هذا المبدأ السعيد

انظر الى دورة الانتاج والتوزيع فى المجتمع ، تجد ظاهرتين : الاولى ان الانسان يمقت العمل وينفر منه . رغم ان الطبيعة قد جعلت العمل عنصرا لازما فى حياة الفرد والمجتمع ، ومصدر خير لهما . وعلة هـذا المقت وهـذه النفرة ، ان العمل قد غدا شيئا بغيضا بسبب العوامل والظروف المفتعلة ، ومنها مثلا احساس الانسان بالاستغلال ، أو اكراه الانسان على القيام بعمل لم تعده الطبيعة له . فليس غريبا اذن ان ينفر الناس من العمل. ومهمة المنظم الاجتماعى هى ان يزيل كل هذه الاسباب التى تنفر الانسان من عمله بازالة الاستغلال من ناحية ، وبوضع كل امرىء فى العمل الذى وهب له . هـذا من ناحية الانتاج . اما من ناحية التوزيع ، فيرى فورييه ان السبب الاول لنفرة الانسان من الانسان وبغضه اياه هو سوء التوزيع . واعادة التوزيع على أسـاس عادل ومحدد هو الانصبة او الحصص التى اقترحها فورييه ، كفيل بازالة التنافر والشقاق بين النـاس . وبازالة اسباب النفرة الاجتماعية تظهر فطرة الانسان الخيرة بما أودعه الله فيها من غريزة التجاذب ، ويعيش الجميع فى مجتمع سعيد أساسه التعاون والتآخى ، واقبـال الانسان على عمله اقبال المحب له الراضى به ، لا اقبال المجبر المسوق . وهـذا خير ضمان لاشاعة الرخاء ، والقضاء على الفقر الذى يدفع الناس دفعا الى التنافر بدل التجاذب .

فلا غرو بعد كل هذا ان ينظر فورييه الى نفسـه معتقدا انه اول من أسس « علم الاجتماع » كما كان

نيوتون أول من أسس «علم الطبيعة» ، فهو قد اكتشف قانون الجاذبية بين الاحياء ، كما اكتشف نيوتون الجاذببة بين اجرام الـكون .

وقد وجدت كتابات فورييه من يؤمن بها من مريديه ، فتكونت منهم مدرسة فكرية تعرف بمدرسة الفالانستير ، وقد تولى زعامة هذه المدرسة بعد وفاة فورييه ، مفكر فرنسي يدعى فيكتور كونسيدران ، عاش بين ١٨٠٨ و ١٨٩٣ ، وحاضر كثيرا داعيا لمذهب أستاذه فورييه ، شارحا نظرياته بتركيز يفوق تركيز استاذه ، وبمنطق مرتب خال من الاغراب والاسراف يفوق منطقه . ومع ذلك فقلمـــا يذكر النـــاس كونسيدران ، لانه لم يأت بجديد ، ولم يضف الى مذهب فورييه شيئا ذا بال .

هذه نبذة عن المفكر شارل فورييه ، الذى آمن بسلامة فطرة الانســـان وبصـــفاء « نوازعه » و « غرائزه » و « عواطفه » الطبيعية . وما رأى فى الانسان الا صورة نفسه الجميلة ، فلقد كان فورييه جميل النفس حقا ، يكره القسوة ويؤمن بالايثار ، وقد أثر عنه انه كان يشقى ليسعد غيره . فحين كان صبيا فى المدرسة ، كان يتعرض للأذى ومبرح الضرب ، ليدافع عن صغار التلاميذ . وقد روى عنه انه سعى على قدميه تحت المطر المتواصل ساعات طويلة ، لينجد خادمة لا يعرفها ، ولـكن جاءه ان سيدتها تعذبها عذابا أليما .

لم يكن صاحب هـذه النفس الجميلة وهـذا الفكر القوى بغير شذوذ ، شأنه فى ذلك شأن أغلب العظماء ، فقد كان يعتزل الناس اعتزالا غريبا ، وفى عزلته يبنى المدن الفاضلة فى الهواء ، كما يبنى النـاس القصـــور فى احلام اليقظة . بل لقد بلغ من فنائه فى فكرة هـذه

الفالانستير المثالية انه كان يخطـــط أبنيـــة مجتمعاته التعاونية الصغيرة هذه ، ويحدد مســاحة كل بنـــاء وحجمه . وكان فورييه فى أفكاره الغريبة هــذه يعتقد انه وصل الى معرفة عمر العالم فى المستقبل ، فقدر ان العالم سينتهى بعد ثمانين ألف ســنة . وكان يحصى رحلات الارواح بين الارض والافلاك ، ويقدر ان الروح سوف تنتقل ٨١٠ مرات بين الارض وغيرها من الكواكب المـأهولة ، فقد كان فورييه يقطع بأن بعض الـكواكب مأهولة ، كان يؤمن بأن الارواح تتجدد فيها الحيـــاة بالتقمص ويحسب بحساب يشبه حساب اليازرجة ان الروح ستحيا ١٦٢٦ حياة حتى نهاية الزمن .

ومع كل هذه الافكار الغريبة التى ملأت حياة فورييه كالاشباح ، فنحن نذكره بين عظماء الفكر الســياسى والاقتصادى والاجتماعى ، لانه كان من أسبق من وضعوا أساس الاشتراكية التعاونية ، ولانه كان ذا أثر خطير فى تاريخ الفكر الاشتراكى بوجه عام .

روبرت أوين

ـ ١ ـ

عنـدما تكلمت عن المفكر الفرنسي سـان سيمون ، اوضحت كيف ان هذا المفكر الذى عاصر الثورة الفرنسية والانقلاب الصناعى فى بلاده راى العلم والآلة يملآن الدنيا بالتقدم والفقر معا ، وأمعن النظر فى المستقبل فرأى ان المجتمع بحاجة الى تنظيم جديد ينسق العلاقة بين الانتاج والتوزيع ، وبين المنتج والمستهلك ، وبين طبقات المجتمع المختلفة على أساس جديد يجنب المجتمع بشاعة العنف والاحتكاك بين الملاك وعديمى الملـكية بوجـه خاص ، وبين الاغنياء والفقراء بوجه عام . وكان الحل الذى اهتدى اليه هو مجتمع هرمى الشكل قمته من العباقرة الموجهين ، ووسطه من الملاك الحاكمين ، وقاعدته من المعدمين العاطلين ، مجتمع فيه الملـكية وظيفة اجتماعية تصان لانها تسخر فى خدمة الشعب ، مجتمع تتعاطف فيه الطبقات ولا تتحارب لان مصالحها واحدة ، وهى تتعاطف وتتآخى بقوة الدين السائد الذى يبرز معـانى

الاخاء الانسانى ولا يستغل الغيبيات للقضاء على هذا الاخاء .

ولم يكن سان سيمون وحده بين أبناء عصره الذى أراد أن يجنب المجتمع الصناعى التجارى مساوىء العنف الاجتماعى ، فقد كان هناك بين معاصريه رجلان أحدهما فى انجلترا هو روبرت اوين ، والاخر فى فرنسا هو شارل فورييه يحلمان بما يحلم ، ولكن كلا منهما اختط لنفسه منهجا فى الفكر والعمل غير منهج سان سيمون

وكان الحل الذى تقدم به روبرت اوين ، هو اقامة مجتمع ينهض لا على الشعور الدينى وبر الاغنياء بالفقراء ، فهذه عنده أشياء مطاطة غامضة الحدود قابلة للتأويل والتضليل ، ولكن على التعاون العملى بين أصحاب الاعمال والعمال وبين المنتج والمستهلك ، وبين أبناء المجتمع بوجه عام . واقامة هذا المجتمع التعاونى هى عنده الضمان الوحيد لالغاء العنف من قاموس السياسة والاجتماع . فروبرت اوين اذن أبو التعاون بالمعنى الحديث

ولم يكن أوين كسان سيمون نبيلا ثم أفلس ، بل كان فقيرا ثم أثرى ، ولكنه عاد فافتقر بعد أن بدد كل ما جمع من مال على محاولاته لتحقيق أحلامه الاجتماعية ونظرياته السياسية

وكان اوين يصغر سان سيمون بنحو عشر سنوات ، فقد ولد عام ١٧٧١ وعمَّر حتى عام ١٨٥٨ حين توفى عن سبع وثمانين سنة . وقد ولد لأب سروجى من ولاية ويلز يصنع سروج الخيل . وبدأ روبرت أوين حياته العملية كاتبا فى دكان مانيفتورة . وقد ترك أهله

فى سن العاشرة ليكسب قوته بكده ، وتقدم فى الحياة بسرعة هائلة ، فما أن بلغ العشرين حتى كان على رأس مصنع من مصانع القطن فى مدينة مانشستر به خمسمائة عامل يأتمرون بأمره . وكان أوين فى كل ذلك يرقب التوسع الصناعى والثورة الآلية فى بلاده بعين يقظة متأملا نتائجهما فى ظل الاقتصاد الليبرالى الحر القائم على حرية العمل وحرية التجارة بغير ضابط أو رابط ، فراعه ما رآه من عربدة رأس المال المطلق الحرية الذى كان يقدم الكسب على النفع ، ويقدم الآلة على الانسان

ولعل من أبلغ عباراته التى كتبها فى وصف هـذه الحالة ، ما لاحظه من « الاهتمام البالغ بالآلة الصماء واهمال الآلة الحية وعدم المبالاة بها » وما هذه الآلة الحية التى كان يتحدث عنها الا العامل . وتلفت أوين حوله فى مجال المجتمع الصناعى البريطانى الذى حرر رقيق الارض من اغـلال الاقطـاع ، فوجد انه قد كبل الطبقة العاملة بأغلال أشد قسوة وصلابة ، فكتب يقول : « أن نظام الرق الامريكى نظام فاسد وأحمق وسوف يظل فاسداً أحمق ما بقى ، ولكن استرقاق الرجـل الابيض للرجل الابيض فى مصانع انجلترا كان فى هـذه الفترة التى لم تعرف القيود أفظع بكثير من عبـودية العبيد فى المنازل ، تلك العبودية التى رأيتها فيما بعد فى جزر الهند الغربية وفى الولايات المتحدة ، وقد كان هؤلاء العبيد من وجوه كثيرة ، ولا سيما فيما يختص بالصحة والغذاء والكساء أحسن حالا بمراحل من أولئك الاطفال والعمال المضطهدين المنحطين فى مصانع بريطانيا العظمى »

وكان رأى أوين ان عمال بريطانيا لم ينفردوا وحدهم

بهذا الانحطاط الذى شاركهم فيه أرباب الاعمال انفسهم، فقد استولى عليهم الجشع وجردهم من كل روح انسانية . وهو يحدثنا عن اختباره الشخصى مع شركائه فى الصناعة فيقول : « لقد سئمت تماما أولئك الشركاء الذين دربوا فى الحياة على شيء واحد ، وهو أن يشتروا بثمن رخيص ويبيعوا بثمن غال . فهذه المهنة تحط من أسمى ملكات الطبيعة الانسانية وكثيرا ما تدمر هذه الملكات السامية . وقد اقتنعت اقتناعا تاما نتيجة تجربتى ابان حياتى الطويلة التى تقلبت أثناءها فى جميع مراتب المهنة والصناعة والتجارة ، انه من المحال صياغة الخلق السامى فى ظل هذا النظام المشبع بالانانية . فالصدق والامانة والفضيلة لن تكون الا مجرد أسماء بلا مدلول ، كما هى اليوم ، وكما ستظل دائما ، أسماء بلا مدلول ما بقى هذا النظام . ففى ظل هذا النظام لا سبيل الى قيام أية مدنية بالمعنى الحقيقى ، لأن كل أبناء المجتمع يدربون فى حياتهم المدنية على التناحر فيما بينهم ، بل وفى كثير من الاحيان ، على أن يحطم بعضهم البعض الآخر بما اصطنعوا من تعارض فى المصالح . وان هذه الطريقة فى توجيه شئون المجتمع طريقة سافلة سوقية قائمة على الجهالة والوضاعة ، ولن يظهر أى تحسن دائم وشامل ومحسوس الا اذا حلت محلها طريقة أخرى فى تكوين الخلق وجمع الثروة »

ولكن كل هذا التفسخ الاجتماعى والاخلاقى الذى لاحظه روبرت أوين لم يدفع به الى الشك فى سلامة الفطرة الانسانية ، بل ظل يؤمن الى آخر يوم فى حياته بتلك العقيدة التى نشرها جان جاك روسو واضرابه من مفكرى القرن الثامن عشر الذين مهدوا للثورة الفرنسية،

وهى ان الانسان خير بالطبع ، وان الفطرة الانسانية سليمة فى أرومتها وفى ينابيعها الاولى ، وان ما فيها من فساد انما داخلها من الحياة الاجتماعية . فالخطأ عند أوين كالخطأ عند فورييه ، ليس فى غرائز الانسان أو نوازعه وليس فى سعيه وراء مصالحه ، ولكن فى الطريقة التى يستخدم بها هذه الغرائز أو النوازع ، وفى الطريقة التى يسعى بها لتحقيق مصالحه . ولو ان الانسان عرف كيف يستخدم غرائزه السليمة فى تحقيق مصالحه الحقيقية ، لساد المجتمع « الانسجام » بدلا من التناحر ولعاش الناس فى سعادة ورخاء

وقد رأى روبرت أوين ان التعليم والمؤثرات الاولى هى مفاتيح كل اصلاح حقيقى . وعنده ان المؤثرات الاولى تصوغ خلق الاطفال وعقلهم واحساسهم بما يعجزون عن تغييره أو التحكم فيه ، عندما يكبرون ويرشدون ، ومن هذه المؤثرات الاولى ، التعليم الذى يتلقاه الناس فى سن التكوين . وقد قضى أوين عامة حياته يبشر بضرورة تغيير مقومات التربية والتعليم فى سن التكوين ، واحلال المبادىء السامية والمعارف الصحيحة محل المبادىء السافلة والمعارف الخاطئة ، فبهذا وحده يمكن للانسانية أن ترفل فى الخير وأن تتآخى فى سعادة شاملة غامرة ، وبهذا وحده يمكن للانسانية أن تدرك أن تعارض المصالح بين الناس تعارض زائف ، وصوابه توافق الناس فى المصالح

ولكى يثبت أوين صحة نظريته القائلة بامكان اقامة مجتمع تعاونى يقوم على توافق المصالح لا على تعارضها ، رأى وجوب اجراء التجربة أولا فى جماعات أو مجتمعات أو جمعيات محدودة مستقلة عن غيرها حتى يمكن أن

نضمن نجاحها ، ثم تنظيم هذه المجتمعات الصغيرة فى المجتمع الكبير . وهى عين التجربة التى رأى المفكر الفرنسى فورييه اجراءها

ولكن أوين ذهب الى غير ما ذهب اليه فورييه فى تصور هذا المجتمع الصغير القائم على التعاون . وبينما كان فورييه حبيسا فى عالمه النظرى الجميل ، لا يجد سبيلا الى تحقيق أحلامه التعاونية فى عالم الواقع ، خرج اوين كالفارس المغوار يجاهد لبناء هذا المجتمع التعاونى بشتى السبل ، وخرج من الدعوة بالفكر الى التنظيم . وفى حين كان فورييه يعتقد فى اقامة مجتمع تعاونى يقوم على رأس المال الخاص وعلى الفوارق الطبقية ، كان اوين يعتقد فى اقامة مجتمع تعاونى يقوم على المساواة المطلقة . والسلم الاجتماعى عنده موجود ولكنه قائم على السن ، فالاطفال يعزلون عن الوالدين فى جماعته التعاونية حين يبلغون سن الثالثة حيث يسهر على تنشئتهم مربيات ومعلمون من طراز خاص . والكبار الناضجون هم الذين يتألف منهم المجلس الحاكم للجماعة ، بشرط الا يكونوا ممن أقعدتهم الشيخوخة . أما التعامل والتبادل ، فيقدر فيهما كل شىء على أساس ما يبذل فى انتاجه من ساعات العمل ، أى أن ساعة العمل هى وحدة تقدير القيمة عند روبرت أوين

وقد أتيحت لأوين فرصة تطبيق نظرياته التعاونية بصورة عملية .. فحين آلت اليه ملكية مصانع النسيج فى نيولانارك باسكتلندا كانت جمهرة عماله من حثالة الرجال والنساء السكيرين والسكيرات الذين يعيشون فى جو من القذارة تشمئز منه النفوس ، ولا سبيل الى الاعتماد عليهم فى انجاز العمل أو اتقانه ، كما كانت

جمهرة عماله من الاطفال الايتام الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والعاشرة ، وكانوا يومئذ يستوردون من ملاجىء الأيتام . وكانت صناعة النسيج بوجه عام فى تلك الايام صناعة ناشئة ، لا يمارسها الا ابأس العمال وأقلهم استقلالا واحساسا بكرامة الانسان ، نظرا لما لابسها من الاستغلال البشع وظروف العمل القاسية

وقد ظل أوين ربع قرن ينظم هذه الجماعة ويرقى احوالها ، ينشر التعليم بين ابنائها ، ويرفع اجـــورهم ويخفض ساعات عملهم بالنسبة الى المألوف بين عمال النسيج ، حتى جعل منها جماعة راقية نظيفة تتمتع بمستوى معيشى عال . وحين مرت بصناعة النســيج فترات كساد ، لم يتخل أوين عن عماله ، بل تولى حمايتهم من الجوع والتشريد . وكان من الاساليب التى لجأ اليها فى كل هذه الخطوات الاصلاحية ، انه حدد حصة شركائه من الارباح ، وخصص الفائض كله لترقية مجتمعه الصغير وتحسين حاله . فشاعت الثقة بينه وبين عماله ، وأحبوه حبا ما بعده حب ، رغم انه كان جبارا عنيدا ، يستبد برأيه ويرهب عمـــاله ليتقنوا عملهم

وبعد أن رأى أوين نجاح تجربته فى ادارة مصـــانعه بنيولانارك ، تيقن من أن رقى المجتمع الاكبر كله ، والانسانية جمعاء ، شىء ممكن التحقيق . فلو ان كل المصانع حذت حذوه فى تعليم الاطفال وتدريبهم باللين والحسنى ، وفى انصاف العمال ورفع مستواهم ، لتبدل المجتمع كله من حال الى حال . الانسان عنده عجينة لدنة يمكن صياغتها على كل وجه ، واذا كان هو قد استطاع أن يفعل كل ذلك بحثالة العمال فى نيولانارك ،

فكيف يقال ان اصلاح المجتمع من طريق التعاون حلم من الاحلام ؟

— ٢ —

كان روبرت أوين أول صاحب مصنع حدد الارباح المستحقة للاستثمار واستخدم الباقى فى الخدمات الاجتماعية التى تهدف الى ترقية عماله . وقد فعل ذلك ليضرب لغيره مثلا عمليا على ان قيام الانتاج على الفكرة التعاونية مبدأ سليم

ولكن أساليب أوين فى تحديد الارباح واستخدام الفائض فى الاصلاح الاجتماعى أغضبت شركاءه فى مصانع نيولانارك فانفضوا من حوله واضطر باستمرار الى البحث عن شركاء جدد حتى أوشك اليأس أن يتسرب الى قلبه ، وأوشك أن يعتقد أن أصحاب رأس المال قوم جهال جشعون لا نفع فيهم . وأصيب أوين بغمة شديدة حين رأى أصحاب مصانع النسيج يتواطأون مع الساسة وأعضاء البرلمان لتخريب قانون يحرم تشغيل الاطفال ، وزاد من غمته انه رأى الوزير بيل الذى كان يثق فيه يتزعم هذا التخريب

وقصد أوين الى لندن راجيا أن يجد من علماء الاقتصاد فيها عضدا ومن المسئولين نصيرا فلم يجد الا مفكرين يتقنون النظريات ولا يملكون من الخبرة شيئا . بل لقد اتهم أوين اقتصاديى عصره انهم لا هم لهم الا بناء النظريات لتبرير فساد النظام الاقتصادى القائم على حرية استغلال الانسان للانسان . وشهد اوين مؤتمرا حضره انبه علماء الاقتصاد فى عصره ونخبة من رجال

الدين والسياسة والاعمال ومحبى الاعمال الخيرية ليتداولوا فى شئون مجتمعهم وفيما يسمونه الاصلاح الاجتماعي ، فراعه ما رآه من جهلهم بحقائق الامور . وشرح لهم أوين ان أسباب البطالة التى كانت متفشية يومئذ انما كانت تسريح الجنود بعد انتهاء الحروب النابليونية وانتهاء سوق الصناعات الحربية وصناعات تموين الجيوش التى كانت تشغل جزءا كبيرا من الانتاج ، والتقدم الآلى الذى أدى الى اختصار اليد العاملة وفرض البطالة على الملايين من العمال باحلال الآلة مكان العامل

كل هذه الحقائق الأولية وجد أوين ان رجال عصره يجهلونها أو يتجاهلونها . بل ووجد ان أصحاب الاعمال يجهلون كل شيء عن مصانعهم ولا تربطهم بها صلة الا ما تدره عليهم من ربح . فقد كان يدير مصنعا من مصانع النسيج لم يتكرم صاحبه بتفقده الا مرة واحدة ليريه لأحد زائريه من الاجانب ، رغم ان صاحب المصنع كان يقيم فى بلدة مجاورة

ولكن اوين رغم كل ما رآه فى أعضاء هذا المؤتمر من جهل وتقصير لم يقطع الامل من تعاون الطبقة الحاكمة ، فقد احسنوا الاستماع اليه بسبب انزعاجهم من اشتداد القلق بين الطبقات الفقيرة ، وبسبب ما عرفوه فى اوين نفسه من نجاحه فى اسعاد عماله واشاعة الهدوء فى نفوسهم

وظل اوين يؤمن بأن وزراء بريطانيا وأمراءها وكبار رجال الدين والاقتصاد فيها ممن أحسنوا الاستماع اليه فى ذلك المؤتمر راغبون حقا فى الاخذ بيد الطبقات

الفقيرة ، مخلصون حقا فى هذه الرغبة ، معترفون حقا بمسئولياتهم الاجتماعية

فلما حضر مؤتمر الملوك الذى انعقد عام ١٨١٧ فى مدينة اكس لاشابيل رأى فى هذا المؤتمر وسمع ما جعله يفقد الامل فى منهجه الاول وهو الاعتماد على علية القوم فى اجراء الاصلاح الاجتماعى ، واختط لنفسه منهجا آخر يقوم على اصلاح المجتمع من أسفله والاعتماد على العمال أنفسهم فى اصلاح حالهم

فقد كان أوين يتحدث الى دبلوماسى من الدبلوماسيين القدامى ويشرح له ان تقدم العلم يجدد الامل فى أن تمتلىء الدنيا بالرخاء والخيرات لو عرف الناس كيف يتعاونون على ما فيه مصلحتهم جميعا ، وان تقدم العلم يجعل التربية الصالحة والتعليم الراقى والغذاء الكافى وسائر مقومات المدنية فى متناول كافة الناس بعد أن كانت وقفا على القلة القليلة من أبناء المجتمع

وذهل أوين حين أجابه ذلك الدبلوماسى الخطير ان كل ما يقوله صحيح ولكنه لم يأت بجديد ، فالطبقة الحاكمة فى أوربا تعرف كل هذا حق المعرفة ، ولكنها لا ترغب فى شىء منه لسبب بسيط ، فلو ان الجماهير تقدمت وتعلمت وارتقت وتمتعت باستقلالها الاقتصادى، فلن تستطيع الطبقات الحاكمة فى أوربا أن تسيرها كما ترى أو تسخرها فيما ترى أو تملك لها زماما . وكتب أوين يصف شعوره بعد أن سمع هذا الكلام :

« بعد هذا الاعتراف الذى أدلى به الى الوزير لم يعد لى فى المناقشة ما يسوغ . فقد تكشف لى أن أمامى واجبا شاقا طويل الامد ، وهو اقناع الحاكمين والمحكومين بجهلهم المطبق الذى يدفعهم الى التصارع بما يتنافى

تنافيا مباشرا مع مصلحتهم وسعادتهم جميعا . وعندئذ رأيت المعتقدات الخاطئة التى ينبغى على التغلب عليها بين جميع الطبقات وفى جميع البلدان من طراز خطير ، وان ازالة هذه المعتقـــدات يتطلب فوق الصبر المديد والمثابرة التى لا حد لها ، حكمة الثعبان ووداعة الحمامة، وشجاعة الاسد كما يقول الناس »

وذهب أوين يدعو لمجتمعه التعاونى ، ولكنه لم يصب الا تأليب السلطات عليه واشتط فى القول وغلا فى خطبة من خطبة الى خطبة • هاجم الدين كما تعلمه الكنيسة واعلن انه أول عدو للحقيقة • ولم يكتف بمهاجمة الدين المنافى للعقل بل هاجم نظام الملكية الخاصة ونظام الاسرة . وتيقظت السلطات الى خطر الدعوة التى كان يبشر بها ، فناصبته الكنيسة العداء وتخلى عنه أصدقاؤه مخافة الشعور العام

ورأى أوين ان أوربا قارة مريضة لا ينفع فيها طب ولا دواء ، وقرر الرحيل الى الدنيا الجديدة ، وهو يرجو أن يجد فى أمريكا الفتية حقلا بكرا يتفتح لبـذور أفكاره فيجرى فيه من التجارب ما يشاء . وفى الولايات المتحدة اشترى أوين من احدى الشيع الدينية الالمانية تعرف بجماعة راب مدينـة اسـمها نيوهارمونى بولاية انديانا وزمامها البالغ ثلاثين الف فدان . وفى ٤ يوليو ١٨٢٦ نشر « اعلان الاستقلال العقلى » الذى نادى فيه بالتحرير مما سماه أعداء الانسانية الثلاثة : « الملكية الخاصة والدين المنافى للعقل ، والزواج » . وأعلن أن جمهوريته الصغيرة هذه مفتوحة الابواب يمكن أن يؤمها كل مجتهد وكل مخلص من أى شعب كان ، يريد أن يعيش فى مجتمع يتعاون فيه كل أبنائه لخير المجموع ،

ويملكها جميع ابنائها سواسية

ولكن هذه التجربة الغريبة فشلت فشلا ذريعا لجملة عوامل ، منها غيبته فى أوربا مما كف عنها قبضـــته الحديدية التى سير بها الامور فى نيولانارك ، ومنها أن أوين فتح أبواب هذه « المدينة الفاضلة » كما يقولون لكل من هب ودب فدخلها الأفاقون وأشرار القوم دون رقيب أو حسيب ، ومنها ان اوين اتخذ لنفسه شريكا خسيسا يدعى تايلور ، بلغ من خسته ان اوين أراد أن يستبعده من الشركة فأعطاه رقعة من الارض مجاورة للمدينة ، وفى الليلة السابقة على تنفيذ الاتفاق هرب تايلور هذا الى مزرعته عددا ضخما من آلات الزراعة وعددا ضخما من الماشية ، فأصبحت فى اليوم التالى ملكا له . وكان أوين يحرم شرب الخمر فى مدينته ، فأقام جاره تايلور مصنعا لتقطير الويسكى ، وأنشـأ أوين مصنعا لدبغ الجلود فأنشأ تايلور مصنعا مماثلا لينافسه ويقضى عليه

وهكذا اختلت أمور هذه الجمهورية التعاونية أو هذه المدينة الفاضلة التى أقامها روبرت أوين ، فلم تعمر ثلاث سنوات وحين تحقق أوين من فشلها باع ما فيها من عقار لبعض الافراد

ولم يثبط هذا الفشل من عزيمة أوين فأجرى تجارب أخرى لاقامة مجتمعات تعاونية فى انجلترا وايرلندا ؛ وأنفق فيهـا مالا بغير حســـاب على أدوات الزراعة والصناعة لينتفع بها أبناء هذه المجتمعات التعاونية . وضاع كل ماله فى هذه المغامرات التجريبية حتى غدا معدما وتكفل أبناؤه باعالته ، وبعد أن كان أوين صاحب حظوة لدى كبار قومه لم يبق له بينهم من يسانده

كل هذه الكوارث التى حلت بروبرت أوين لم تخمد جذوة ايمانه بامكان قيام مجتمع تعاونى يتكافل جميع أبنائه على الانتاج لخير المجموع . فلما كان عام ١٨٣٢ وصدر قانون الاصلاح النيابى الذى أعطى حق التصويت لابناء الطبقات المتوسطة دون أن يعمم هذا الحق على الطبقات العاملة ، اشتد القلق بين عمال بريطانيا ، وبدأوا يطالبون بحق التصويت العام

وبدأ أوين صفحة جديدة فى كفاحه الاجتماعى فاشترك فى « الحركة التعاونية الاوينية» واشترك فى تنظيم نقابات العمال ، ولكن كل هذه الحركات والتنظيمات لم تلبث أن ماتت ولم يبق فى انجلترا الا حركات اجتماعية تنذر بالعنف والتنابذ بين الطبقات كحركة الميثاق والحركة المناهضة لقانون الغلال ، وهى حركات تتنافى وتعاليم أوين الاساسية وهى ان كل اصلاح اجتماعى ينبغى أن يقوم على التعاون بين طبقات المجتمع وأفراده وهيئاته وطوائفه لا على التنابذ بينهم . فلم يكن بد من أن يبتعد أوين فى شيخوخته عن كل هذه التيارات العنيفة

ولم يبق لاوين الا الرؤى وأحلام اليقظة وهكذا قضى شيخوخته بين أشباح شبابه الغابر ، أشباح أصحابه ومعارفه من الشعراء والمفكرين والمصلحين فى انجلترا وأمريكا من أمثال شلى وتوماس جفرسون وتشانج ، ممن كانوا يستمعون اليه فى اهتمام ويعطفون على مشروعه العظيم فى اقامة مجتمع تعاونى . انهم قد ماتوا جميعا ولكن أشباحهم قد عادت الى الحياة ، واوين يراهم ويحدثهم ويضرب لهم المواعيد فيلتقون ، فاذا به على عهده بهم يرون مدينته الفاضلة على مدار الأفق يمكن أن تبصرها العيون

لقد اختلط عليه فى شيخوخته الحلم والحقيقة ، ولكن نفسه لا تزال ممتلئة بالرجاء . ان النـــاس لا يفهمـون الآن ولكنهم سيفهمون عما قريب . ولعـل من حسن حظهم ان نظمهم القائمة على تعارض المصالح بين الافراد والجماعات تعود عليهم بالكارثة بعـــد الكارثة ، وفى « وسط اسباب الرخاء العميم ، انهم جميعا يعيشون فى فقر او فى خطر محدق من آثار الفقر فى الغير » ، ولكن « مبدأ الاتحاد » سوف يســود قريبا بدلا من « مبدأ الانقسام » ، وعندما تدرك الانسانية ان سعادة النفس « لا يمكن أن تتحقق الا بالسلوك الذى يزيد من سعادة المجموع » ، عندئذ فقط تتحقق المدينة الفاضلة التى رآها روبرت اوين فى الاحلام

واخيرا رحل اوين عام ١٨٥٨ الى ويلز حيث القرية التى ولد فيها ، خرج منها فقيرا وعاد اليها فقيرا ، عاد اليها ليموت فى دار مجاورة لدكان أبيه الذى كان يصنع فيه سروج الخيل

وانتهت بهذا قصة هذا الفارس الغريب ثالث ثلاثة من فلاسفة عصره وضعوا أسس التعاون وهم : سان سيمون وشارل فورييه وروبرت أوين : رأوا المجتمـع الزراعى الاقطاعى وقد اكلته الثورة الفرنسية كما تأكل النار الهشيم ، ورأوا الآلة تحل محل الانسان فى كل مكان تحت لواء يسمونه آنا بالديموقراطية ويسمونه آنا آخر حرية التجارة ، ورأوا حرية الاقوياء فى ان يفترسوا الضعفاء وحرية الضـــعفاء فى ان يحقدوا على الاقوياء ويتجمهروا عليهم ، وسمعوا الناس فى كل مكان يقولون : الحرية هى انقسام الناس فى سبيل تحقيق مصالحهم . فقالوا : لا انقسام ولا تناحر بين الانســان والانسان

لان المصالح فى حقيقتها واحدة وانما تعاون الـكل من أجل الـكل

ولعل أوين قد اشتط فى بعض ما ذهب اليه من آراء ، ولعله تفاءل أكثر مما ينبغى فى ايمانه بسلامة الفطـرة الانسانية وتصوره ان هناك سائلا سحريا اسمه التربية أو التعليم يمكن أن يحيل الناس بين يوم وليلة أو بين جيل وجيلٍ الى مخلوقات تدرك هذا المثل الأسمى وهو التعاون ، ولكنه رغم ذلك كله مثل نادر من أمثلة كفاح الانسان بالفكر والفعل لتحقيق سلامه ورخائه

مدرسة إيكاريا

رأينا كيف وضع سان سيمون وشارل فوريه وروبرت اوين أساس الاشتراكية التعاونية ، وما صادفه كل منهم فى حياته الخاصة والعامة من عنت ومشاق . ولم يبق الا ان نرى كيف انتهت آراؤهم ، وكيف كان مصير مدارسهم الغريبة هذه فى تلك الفترة الغريبة من تاريخ البشرية . فقد نشأت حول كل من هؤلاء الثلاثة مدرسة تبشر بتعاليمه وتحاول أن تترجمها من عالم الفكر والخيال الى عالم الحقيقة والواقع .

وهذه قصة لا تقل غرابة عن سير هؤلاء المفكرين المصلحين . فهى قصة طائفة من المغامرات التجريبية التى جرى أكثرها فى الولايات المتحدة الامريكية ، وهى تعد بحق أساس الاشتراكية فى امريكا .

اما سان سيمون ، فقد رأينا كيف ان تلميذه اليهودى اولاند رودريك ، حضر وفاته عام ١٨٢٥ وحفظ آخر كلماته وقد كانت هذه الكلمات الاخيرة تبشر بدعوة جديدة الى دين اشتراكى ، فهذه عنده كانت أوامر العناية الالهية التى شبه له انه أداتها ومبعوثها الى اخوته فى

الانسانية . ومن هذا كان ان تحولت هـذه المدرسة الى « دعوة » لها صحابتها وكهنتها واتباعها ، ولم يكن قائدها رودريك نفسه ، بل رجلا آخـر يدعى بروسبير انفانتان ، وهو مهندس فرنسي غريب الاطوار .

وقد بدأ انفانتان دعوته فى تواضع . فأصدرت جماعة سان سيمون بعد وفاة مؤسسها جريدة تهيىء ابناء الطبقة العاملة لهذه الافكار الاشتراكية الجماعيـة . وتدعو للفكرة العالمية وتنادى بالغـاء الملكية الفردية والرسوم الجمركية . ولـكن سرعان ما تحول تلامذة سان سيمون الي هيئة من « الآباء » تقود « أسرة » سان سيمون ، واتخذت الحركة مختلف مظاهر الهوس الدينى

فذات يوم فى الصباح الباكر ، دق باب انفانتان تابع من الاتباع يدعى ديختال ، يهودى الاصل، وأيقظ انفانتان من نومه فى الساعة السادسة والنصف صباحا . والقى اليه انه كان فى كاتدرائية نوتردام فى الليلة السابقة ، فأوحى اليه ان « يسوع يعيش فى انفانتان » ، وانه قدر فى الغيب لانفانتان ومعه امرأة من النسـاء ان يبشرا بالانجيل الجديد بين الناس ، فهو ابن الله وهى بنت الله ! واستقبل انفانتان هـذه النبوءة بادىء الامر فى حرص شديد . قائلا انه لايستطيع ان يؤمن ان المسيح قد تسجد فيه الا حين تظهر هـذه المسيحة المنتظرة ! ثم رجا صاحبه أن يتركه ليعود الى فراشه ويتم نومه ، فتركه اليهودى ديختال وانصرف ، ولـكنه لم يلبث أن عاد بعد قليل صائحا ان الساعة قد أتت ، وانه لا بد لانفانتان من ان يعلن فى الناس انه ابن الله ! ويبدو أن الهوس كان قد ألهب خيال انفانتان فى تلك المهلة القليلة ، فقد نهض من فراشه ولبس بنطلونه ، وهتف باللاتينية قائلا : « أنا ابن الانسان ! »

واصبح انفانتان منذ ذلك يعرف بالمسيح ! واطلق لحيته تشبها بالمسيح ، ولبس قميصا طرزت على صدره كلمة « الاب » . اما اشياعه من اتباع هذه العقيدة الاجتماعية الانسانية ، فقد تفردوا بين الناس بملابس حمراء وبيضاء وبنفسجية تميزهم عن سواهم ، ووضعوا لانفسهم طقوسا وشعائر أشبه بطقوس الدين وشعائره .

وهنا بدأ الاضطهاد . فقد التفتت السلطات الى جماعة سان سيمون ، واغلقت قاعة اجتماعاتهم ، فخرج انفانتان فى اربعين من مريديه الى ضاحية فيلمونتان بالقرب من باريس ، وهناك اقاموا ديرا أو ما يشبه الدير ، وفى هذا الدير كانوا يتولون جميع الاعمال اليدوية ، فيفلحون الارض ويصنعون السلع ، وهم يأملون ان تخشوشن ايديهم الناعمة فتصبح أكفا غليظة شدادا كأكف العمال والكادحين !

ونشطت السلطات فى عهد لويس فيليب ، فقدمتهم الى المحاكمة بتهمة الدعوة الى مبادىء مخلة بالآداب العامة . وسجن « الاب » انفانتان فترة قصيرة شفته من النبوة ، ولما خرج من السجن عاد الى مزاولة عمله الاصلى وهو الهندسة . ولم يجد انفانتان بأسا من هذا ، فهو قد انتظر ظهور رفيقته فى النبوة لتشد من أزره ولتثبت صدق رسالته ، فلم تظهر هذه السيدة رغم طول انتظاره . ثم ان استاذه سان سيمون كان شديد الايمان بالمهندسين ، وقد ادخلهم مجلس العباقرة الذى وضعه على راس مجتمعه الفاضل .

وعلى غرار ما فعله استاذه سان سيمون الذى زار امريكا ، فحاول اقناع السلطات المكسيكية بوجوب حفر قناة بنما ، زار المهندس انفانتان مصر وحاول اقناع

السلطات بوجوب حفر قناة السويس . ولـكن انفانتان لم يوفق فى تحقيق فكرته التى حققها من بعده فردينان دلسبس دون ان يعترف له بفضل او سبق . ثم عاد انفانتان الى فرنسا حيث تقلد وظيفة مدير فى سـكة حديد باريس ليون ، وكان فيها مديرا ناجحا عمل على تدعيمها ، فوفق عام ١٨٥٢ الى تحويلهـا الى شركة باريس - ليون - البحر المتوسط ، وهى لا تزال تعرف بهذا الاسم الى اليوم . ولـكن هذه كانت نهاية «رسالة» انفانتان ، الذى وجد ان المجتمـع لا يفسـح مكانا للمهندسين بين النبيين ! ..

وهكذا بدأت الاشتراكية الحديثة ، بغض النظر عن مقوماتها النظرية ، اشبه شىء بالاحلام الخيالية التى تقض مضجع طائفة من المفكرين الشواذ ومن شايعهم من الاتباع . كل يحاول ان يبنى نظاما مثاليا بالحبر على الورق ، ثم يحاول ان يخرج هـذا النظـام الى حيز التطبيق العملى بطريقة مرتجلة لا تقوم على الدراسـة والادراك العملى ، ولـكن تقوم على الايمان وحـده ، الايمان بأن فى امكان الانسانية ان تضع حدا لما ترزح تحته من نظم اجتماعية فاسدة ، باقامة جمهوريات مثالية ، أو مدن فاضلة كما يقولون ، وهى مثالية وفاضـلة فى عالم الخيال ، ولـكن حين تخرج الى عالم الواقع يتبين قصورها . وحين شاع استعمال كلمة الاشتراكية لاول مرة فى فرنسا وانجلترا نحو عام ١٨٣٥ ، كان معناها فى العرف العام امثال هـذه التجارب الخيالية التى كان يجريها أتباع سان سيمون وفورييه وروبرت أوين .

ولم يكن حظ الدنيـا القديمة من هـذه التجارب الاشتراكية كبيرا ، فقـد كان أصحاب هـذه المذاهب

الاشتراكية المختلفة فى شبه يأس من تحقيق آمالهم فى اوربا نفسها . وجذبتهم امريكا اليها لانها كانت يومئذ ارضا بكرا .

ولقد رأينا كيف جرب روبرت اوين اقامة مجتمع اشتراكى تعاونى فى امريكا ، فمنذ ان نزلها عام ١٨٢٤ وانشأ فيها الحركة الاوينية التى انتهت باقامة نحو اثنى عشر مجتمعا تسير على مبادىء اوين .

اما حركة شارل فورييه التى كانت تهدف الى اقامة الفالانستير أو الفالانج الصغير الذى يشارك فيه العمال ارباب الاعمال فى الربح بنسب معينة رغم قيام الجماعة على الملكية الخاصة ، فقد نقلها الى امريكا رجل يدعى البرت برسبين ، وأخذ يدعو لها على صفحات « النيويورك تربيون » وصادفت الفكرة هوى فى نفوس الكثيرين ، فتألف نحو من اربعين جماعة فوريرية حاولت اقامة الفالانستير فى مختلف انحاء امريكا .

ولم يكن الاشتراكيون وحدهم السباقين الى اجراء تجاربهم ، فقد انتشرت نحو منتصف القرن الماضى الجماعات الدينية فى امريكا من كل ملة ومذهب ، وكان الكثير منها ينشىء مجتمعات محدودة مغلقة من هذا الطراز ، ومن هذه الجماعات ما مزج فكرة الاخوة فى الدين بفكرة الاصلاح الاشتراكى . ويرى الاستاذ ادموند ولسن أن كل هذه التجارب الدينية قد شغلت عمال امريكا والطبقات الساخطة فيها زمنا ، فأجلت انتظام العمال فى التنظيمات العمالية ، وعوقت سعيهم الى الاشتراكية . وقد قدر عدد هذه الجماعات كلها بما فيها الجماعات الاشتراكية بأكثر من ١٧٨ جماعة ، كل جماعة منها تضم عددا يتراوح بين ١٥ عضوا و ٩٠٠

عضو . ومن المؤرخين من يضيف الى هذه الاعداد اعدادا غفيرة تبلغ مئات الآلاف من الاعضاء ، ولكن لا سبيل اليوم الى حصرهم على وجه الدقة . والمعروف ان جماعات أوين وفورييه وحدها كانت تشغل نحو خمسين ألف فدان .

وكانت للجماعات الاشتراكية مزارعها الجماعية ومطاحنها ومخابزها وعنابرها وقاعات الطعام المشتركة لجميع اعضائها .

ولم يقدر لهذه الجماعات ان تدوم اكثر من عشرة اعوام ، الا اقلها ، ومنها ما اندثر بعد عامين لا اكثر فقد كانت مختلف بذور الانحلال تدب فيها منذ نشأتها ، فان درت ربحا اختلف اعضاؤها على تقسيم الربح ، وان خسرت ألقى كل منهم المسئولية على الغير ، وكانت خليطا عجيبا من المثقفين الذين لا يفهمون طبيعة العمل اليدوى والعمال ناقصى التعليم الذين لا يسمون الى فهم المثل الاشتراكية .

ولكن كان بين هذه الجماعات الاشتراكية جماعة تعرف بجماعة ايكاريا قدر لها ان تصمد زمنا . وقد أنشأ هذه الجماعة فى أمريكا محام فرنسى يدعى اتيين كابيه ، نشأ فى عصر الثورة الفرنسية ولمع نجمه فيه فنجح فى السياسة والمحاماة .

فلما انطوت الثورة الفرنسية وانطوى نابوليون وعادت اسرة البوربون الى حكم فرنسا ، اصبح كابيه موضع اضطهاد شديد من الملكية نظرا لتطرفه فى الايمان بالافكار الجمهورية الثورية . ودام هذا الاضطهاد فى أيام لويس فيليب ، وخير كابيه اخيرا بين السجن والنفى ، فاختار النفى ، ونزح الى انجلترا . واشتط كابيه فى

نزعاته اليسارية ، فأخذ يتقارب من شيعة بابيف زعيم المساواة ايام الثورة الفرنسية ، وكانت فلولها لا تزال قوية بزعامة بورناروتى خليفة بابيف .

وكتب كابيه اثناء اقامته فى انجلترا ، قصة خيالية بعنوان « رحلة الى ايكاريا » وصف فيها الحياة السعيدة فى جزيرة خيالية تدعى ايكاريا يسودها النظام الاشتراكى ، حيث السكان يعملون بنظام قوامه ضريبة الدخل التصاعدية ، والغاء التوريث ، وتنظيم الدولة للأجور والتعليم العام وتأميم المصانع وتحسين النسل بالاشراف على اختيار الازواج واصدار جريدة واحدة تشرف عليها الحكومة .

اما ايكاريا هذه فهى بلد ايكاروس ، وهو شخص اسطورى روى اليونان عنه انه أول من حاول الطيران ، ففعل شيئا مما فعله عباس بن فرناس عند العرب ، فصنع لنفسه جناحين ألصقهما بالشمع الى كتفيه وطار بهما ، حتى اذا ما اقترب من الشمس أذابت حرارتها الشمع ، فسقط على الارض قتيلا .

وقد سحرت هذه القصة خيال الآلاف المؤلفة من المثقفين والعمال الفرنسيين فى عهد لويس فيليب ، حتى بلغ اتباع كابيه عام ١٨٤٧ عددا يتراوح بين مائتى ألف واربعمائة الف شخص . وتألفت حركة « ايكارية » ضخمة ترمى الى تجربة الايكارية فى عالم الواقع . وأصدر كابيه بيانا مشهورا بعنوان « هيا بنا الى ايكاريا ! »

وكان كابيه مقتنعا بأن اوربا قد صارت الى قارة عليلة لا ينفع فيها طب ولا دواء ، ولهذا كان طبيعيا ان يتمثل ايكاريا فى امريكا البكر . ونصحه روبرت اوين ان يقصد الى ولاية تكساس ، وهكذا وقع كابيه عقدا مع شركة

امريكية على شراء مليون فدان . واجتمع فى ميناء الهافر ٦٩ مواطنا ايكاريا ممن تبعوا كابيـــه فوقع معهم على رصيف الميناء « عقودا اجتماعية » تنص على انشـــاء جمهورية شيوعية ...

ولــكن الايكاريين حين بلغوا مدينة نيوارليانز بالولايات المتحدة اكتشفوا ان الشركة الامريكية قد نصبت عليهم ، فأعطتهم عشرة آلاف فدان بدلا من مليون ، ووجدوا ان هذه الاراضي لا تقع على النهر كما كان متفقا فى العقــد بل كانت تقع على بعد مائتين وخمسين ميـــلا منه ولا سبيل الى بلوغها الا بعد قطع قياف جرداء لم تطأها قدم انسان . كذلك اكتشفوا ان هذه الاراضي لم تكن قطعة واحدة متصلة بل نتفا متفرقة هنا وهناك .

واخيرا بلغوا ايكاريا بعد ان اجهدتهم الملاريا وأصيب طبيبهم بلوثة فى عقله . ثم لحق بهم كابيه وزمرة اخرى من المهاجرين . وبعد كفاح مرير فى سبيل العيش انتقل الايكاريون أخـــيرا الى ولاية الينوى حيث استقروا ..

ولــكن الايكاريين لم يجدوا النعيم فى الينوى . فقد اثمرت فلاحتهم وسائر جهودهم حقا ولــكن بما يسد رمقهم لا اكثر من ذلك . وكانوا يعملون فى جلد عظيم دون نتيجة باهرة وظلـــوا يتلقون الاعانات من أهلهم وانصارهم فى فرنســـا ، فلما نشبت فى بلادهم ثورة ١٨٤٨ ، ووعدت العمال بتأميم المصانع انصرف عمـــال فرنسا عن التفكير فى ايكاريا وانقطعت عن الايـــكاريين المعونة . وكثرت ديونهم . وكانوا يعقـــدون اجتماعات سياسية لا عدد لها ، يناقشون فيها أمورهم ، ويلقون فيها الخطب المستفيضة بالفرنسية ، ويكثر بينهم الجدل والشقاق ، فقد عجزوا عن تعلم الانجليزية الا بعد عشرات

الاعوام ، وكان مصدر شقاقهم الدائم الفجوة الواسعة التي وجدوها بين نظرياتهم الفرنسية الجميلة وواقعهم الامريكى المرير .

اما كابيه فقد وعدهم فى قصته عن ايكاريا بجمهورية يحكمها رئيس ونظام برلمانى هو خليط من مبادىء المؤتمر الوطنى الذى عرفته الثورة الفرنسية ، ومن الدستور الامريكى ، ولـكنه بدلا من ان يبر بوعده نصب نفسه دكتاتورا على ايكاريا . وحرم على الايكاريين التدخين وشرب الويسكى ، وتدخل فى شئونهم الخاصة ، واقام بعضهم على بعض جواسيس . فلما استفحل استبداده تجمهروا أمام نافذته وأنشدوا نشيد المارسيليز، وتحدوا سلطانه علنا فى اجتماعاتهم قائلين : « اترانا قطعنا ثلاثة آلاف ميل لنفقد حريتنا . » وفى عام ١٨٥٦ عقـدوا اجتماعا عاما وعزلوه بقرار من الاغلبية بل وأخرجوه من ايكاريا . فانتقل كابيه الى مدينة سانت لويس .

ونشبت فى ايكاريا ثورة ثانية عام ١٨٧١ على اثر اعلان الـكومون فى باريس ، فثار الجيل الجديد المتوقـد بمثاليات الشباب ، على الجيل القديم الذى تحول درجة درجة الى زمرة من الفـلاحين العمليين على الطريقة الامريكية . وطالب الشباب بمساواة الرجال والنساء فى الحقوق السياسية ، كما طالبوا بنزع حدائق الشيوخ ، وجعلها من المرافق العامة . وانفصلت من ايكاريا جماعة حطت رحالها فى كاليفورنيا ثم تلاشت . واخيرا حلت جماعة ايكاريا نفسها رسميا عام ١٨٩٥ بعد أن صـارت الى مجتمع لا يختلف فى كثـير أو قليـل عن غيره من المهاجرين الى امريكا .

وهكذا انتهت تجربة اشتراكية من أغرب ما عرف رواد الاشتراكية الاوائل .

جول ميشليه

ان قلت عنه انه كان مؤرخا لم تنصفه . وان قلت عنه انه كان مفكرا غمطته بعض ما له . وان قلت عنه انه كان فنانا لم تصف الا وجها واحدا من وجوهه الكثيرة . فقد كان المؤرخ الفرنسي العظيم جول ميشليه مؤرخا وفنانا ومكافحا من طراز عظيم ، استغرقت حياته نحو ثلاثة ارباع القرن الماضى ، فعاصر ثلاث ثورات فى بلاده ، ثورة ١٨٣٠ وثورة ١٨٤٨ وثورة ١٨٧٠ ومع ذلك فقد كتب أعظم ما كتب عن ثورة ١٧٨٩ ، تلك الثورة التى تعرف للخاص والعام باسم « الثورة الفرنسية » ولم يكن لبلاده من قبله ماض فصنع لها ماضيا ، أو قل لم تكن بلاده من قبله تفهم ماضيها فحاول هو أن يجعلها تفهمه . كان يكتب التاريخ بقلب الفنان وبعقل المفكر وبصبر الباحث المدقق وبريشة الشاعر ، فيقرؤه عظماء عصره فى كل بلد بشغف شديد.

هذا هو الطابع ابن الطابع جول ميشليه ، فقد كان بباريس فى أوائل القرن الماضى طابع فقير يدعى مسيو ميشليه ، اقام فى كنيسة خربة مظلمة مهجورة ، واقام

فيها مطبعة يرتزق منها . وفى هـذه الـكنيسة الخربة المظلمة المهجورة ، ولد جول يحيط به جو المسغبة والفقر المدقع ، فأسرته لم تكن تجد ثمن الوقود الذى تستدفىء به فى الشتاء ولم تذق طعم اللحم او النبيذ حتى بلغ جول الخامسـة عشرة من عمره ، بل كانت تعيـش على الخضروات المسلوقة وحـدها لتنفق على تعليم ولدها الصغير . وتعلم جول صف الحروف وهو فى الثانيـة عشرة من عمره ، فكان يعاون أباه فى صناعته ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ولا سيما فى عطلات الدراسة ، حين كان اقرانه من التلاميـذ يعودون الى ذويهم ليتمتعوا بأطيب الاوقات . وفى المدرسة كان جول غلاما خجولا منطويا على نفسه يوشك الا يعاشر أحدا ، ويوشك الا يعاشره احد . فان عاد الى داره وجد اباه وأمه فى شجار مستمر .

ولـكن جول ميشليه رغم كل ذلك استطاع ان يبنى لنفسه دولة صغيرة ، مستقلة ، فى بدروم المطبعة حيث كان يسكن ، وظل يعكف على الدرس والتحصيل حتى أتم علومه ، وهو لم يتمها كما يتمها الشاب العادى ، بل نبغ فى اللاتينية واليونانية ، ثم اتقن الانجليـزية والايطالية والالمانية . وذهب يرحل فى كل مكان ، باحثا عن شيء هو التاريخ ، لا التاريخ الذى يستقى من كتب التاريخ ولـكن التاريخ الذى يستقى من دراسة المجتمع وآثار الحضارة التى انتهجها كل مجتمع من المجتمعات . فلم يترك متحفا أو معرضا أو أثرا من آثار المعمار فى غرب أوربا الا زاره ودرسه بشخصه ، وتجول بين دور الـكتب فى اوربا يدرس وثائقها ومحفوظاتها ومخطوطاتها حتى أتى على شيء كثير مما فيهـا . كل ذلك ليكتب

« تاريخ فرنسا » بوجه عام و « تاريخ الثورة الفرنسية» بوجه خاص . وعين أستاذ التاريخ فى الكوليج دى فرانس ، فما ان نشبت ثورة فبراير ١٨٤٨ حتى أوقفت السلطات محاضراته اعتقادا منها انها تخل بالامن العام ، ولكن سرعان ما أعيد ميشليه الى كرسى الاستاذية ، فلما اعلن لويس بونابرت نفسه امبراطورا على فرنسا عام ١٨٥١ باسم نابوليون الثالث ، فألغى فيها الجمهورية وأعاد الملكية ، فصل ميشليه من كرسى الاستاذية مع تجريده من المعاش . ولما رفض ميشليه أن يقسم يمين الولاء للامبراطور أو للنظام الملكى فصل من وظيفته بدار المحفوظات كذلك . فعكف على اتمام كتابه العظيم فى « تاريخ الثورة الفرنسية » . وتحمل الحرمان فى شجاعة لا مزيد عليها فكتب يقول : « من عرف كيف يكون فقيرا فقد عرف كل شىء » .

ولم يكن تاريخ الامم والشعوب قبل ميشليه يتجاوز أن يكون سلسلة من سير العظماء والابطال والقواد من ناحية وسلسلة من الحوادث والمعارك والدسائس من ناحية أخرى .

اما ميشليه فقد أرسى أساس التاريخ على منهج جديد اذا أردنا ان نصفه لم نجد خيرا من عبارة ميشليه نفسه فى كتابه « تاريخ الثورة » فقد كتب يقول :

« وهناك شىء آخر يرسيه هذا التاريخ بوضوح ، وهو شىء ثابت الصحة فى كل وجه من الوجوه ، وذلك ان الشعب كان فى العادة أهم من قادته . فكلما اوغلت فى التنقيب ازداد اطمئنان نفسى الى أن خير ما هنالك كامن تحت السطح ، فى الأعماق المظلمة . وقد أدركت ان الخطأ كل الخطأ ان نعتبر أولئك المتحدثين الاذكياء

الاقوياء الذين يعبرون عن افكار الجماهير الممثلين الوحيدين فى دراما التاريخ . فالفير يدفعهم اكثر مما يدفعون الفير. ان الممثل الاول فى دراما التـــاريخ هو الشعب . وقد اضطررت ، لاكتشف الشعب من جديد وأرده الى دوره الطبيعى ، ان انتقص من احجام تلك الدمى الطامحة ، التى يحرك الشعب خيوطها ، تلك الدمى التى تعودنا حتى الآن ان نفتش عنها وان نتوهم فيها المحرك الخفى للتاريخ » .

فميشليه اذن ينظر الى التاريخ نظره الى دراما عظيمة تستغرق الامة كلها بل تستغرق الانسانية كلها ، وهذا هو الفنان فيه ، وهو يرى ان الممثـل الاول فى هـذه الدراما هو الشعب نفسه الذى يمسك جميع الخيوط رغم انه محتجب وراء ستار ، وهذا هو العالم فيه . وقد كان ميشليه يحتقر نابليون احتقارا شديدا ويتهم المؤرخين الذين يبلورون تاريخ الثورة الفرنسيـــة فى اشخاص بابيف أو روبسبيير أو نابليون بأنهم مؤرخون « ملـكيون » بالفطرة ، ولو زعموا انهم من أعداء الملكية وانصار الجمهورية ، فالمؤرخ الجمهورى يبدأ بالشعب وينتهى بالشعب ، ويدرس الابطال دراسته لاشخاص تبلورت فيهم روح الشعب وآماله وآلامه ...

وهو لهذا لا يستطيع أن يفصل التاريخ عن الجغرافيا وعن الاقتصاد وعن الاجتماع وعن العقائد والفنون والآداب وغير ذلك من وجوه النشاط الانسانى. فهو حين يتحدث مثـــلا عن عصر لويس الرابع عشر تراه يربـــط ما بـين دسائس البلاط وكوميديات وأحوال فرنسا الاقتصادية فى ذلك الزمان . وهو حين يتحدث عن بلدة أو منطقة أو مقاطعة تراه يقف أمامهـــا طويلا ويتملى من معالمهـــا

وشخصيتها ، ثم يرسم لها صورة متكاملة مفصلة ، كثيرا ما تفيض بالشعر وبسحر البيان . وهو لا ينسى صغار الشخصيات التاريخية وسط ضجيج الفحول ، ويعنى بوصف العادات والتقاليد والازياء عنايته بوصف أحداث التاريخ . فميشليه اذن أول من كتب « تاريخ المجتمع » أو « تاريخ الحضارة » كما نؤثر أن نسميه نحن فى هذه الايام . واذا أردت أن تعرف مجمل رأيه فى تكامل المعارف الانسانية وترابطها الوثيق فاذكر قوله فى خطبة من خطبه : « ويل لمن حاول ان يعزل دائرة من معارف الانسان عن غيرها من الدوائر ... ان العلم كله واحد : فاللغة والادب والتاريخ والطبيعة والرياضة والفلسفة علوم يبدو بعضها أبعد ما يكون عن بعضها الآخر ، ولكنها فى الواقع مترابطة ، أو على الاصح فهى جميعا تكون نظاما واحدا » .

وقد بلغ من يقظة ميشليه الى أثر المحيط المادى فى حياة الانسان الروحية انه كتب يقول : « ان الانسان قد شكل روحه بحسب وضعه المادى ، وانه لشىء عجب فهناك روح الرجل الفقير وروح الرجل الغنى وروح التاجر .. ويبدو ان الانسان مجرد امتداد لمركزه فى الحياة » .

ولقد يخيل لقارىء هذا الكلام ان ميشليه كان ماديا فى نظرته الى التاريخ وأنه كان قريبا من الاشتراكيين فى نظرته الى الحياة . ولكن حقيقة الامر هى ان ميشليه كان مثاليا عنيدا فى مثاليته ، كما كان يرفض الاشتراكية كحل لأوجاع المجتمع . كان يتمسك بالملكية الفردية مع ايمانه بحقوق الطبقة العاملة وحرياتها ايمانا عميقا ، وكان أخوف ما يخافه أن تؤول موارد فرنسا الى طبقة

من الموظفين العموميين يديرونها ويصرفون وجوهها ؛ وكان يقول انه لا مفر من تآخى الطبقة المتوسطة مع أبناء الشعب كفاتحة لكل اصلاح ، كما كانت الطبقة المتوسطة تفعل أيام المد الثورى فى الثورة الفرنسية

وليس أدل على أصالة هذه المثالية فى ميشليه من قوله فى تحديد معنى الشعب ، « ان الشعب بالمعنى الاسمى لهذه الكلمة ، يصعب وجوده فى الشعب ذاته . فان ما الاحظه هنا وهناك ليس الشعب ذاته ولكن طبقة من طبقاته أو قطاع جزئى من الشعب ، قطاع عابر وممسوخ . أما الشعب فى صورته الصادقة وفى أقوى قوته ، فلا يشاهد الا فى العبقرى ففى العبقرى يسكن الروح العظيم »

وهذا القول لا يتعارض مع ايمان ميشليه بأن الشعب هو مصدر كل شيء ومنبعه . وان الشعب هو صانع التاريخ وموجهه ، وان « الانسانية تخلق نفسها » كما كان يعتقد . فالشعب يفعل كل ذلك والانسانية تفعل كل ذلك متخذة من العظماء والعباقرة أدوات لها لا أكثر ولا أقل

واذا كان ميشليه قد تأثر بالفكر الالمانى الى حد من الحدود فالأثر الاكبر فى حياته كان لفلسفة المفكر الايطالى فيكو

ففى عام ١٨٢٤ كان ميشليه ، وهو يومئذ فى السادسة والعشرين ، يقلب صحائف مراجعه التى يدرس منها التاريخ ، فعثر على اسم مفكر ايطالى مغمور يدعى جيوفانى فيكو . وتقصى ميشليه أمر فيكو فعرف انه كان عالما فقيرا من أبناء نابولى ، عاش قبله بمائة عام ، ولم يحتفل به الناس كثيرا ، لضعة منبته واشتهاره

بالشذوذ ، وقد حالت ظروف حياته بينه وبين الجامعات، ولكنه ظل يدرس ويبحث عن شيء جديد لم يسمع عنه أحد من قبل ، وذلك هو « علم التاريخ »

فقد كان فيكو يؤمن بأن التاريخ علم كسائر العلوم ، له مبادئه وقوانينه ، وليس مجرد طائفة من سير العظماء والنابهين ، كما كان الناس يفهمونه فى أيامه ، وانتهت به أبحاثه الى نشر كتاب خطير الدلالة عام ١٧٢٥ عنوانه : « مبادىء العلم الجديد فى طبيعة الأمم ، وفيه تبين أيضا المبادىء الجديدة فى قانون الشعوب الطبيعى » ولكن هذا الكتاب رغم خطورة دلالته لم تهتز له الدنيا ، حتى جاء ميشليه فسلط عليه الاضواء

وكان حجر الزاوية فى هذا « العلم الجديد » الذى دعا اليه فيكو ، ان تاريخ الأمم علم يمكن أن تطبق عليه قواعد العلوم الطبيعية التى وضعها الفيلسوف الانجليزى فرانسيس باكون ، إلا وهى المشاهدة والتجربة ، أو كما قال فيكو : « ان الحياة الاجتماعية بلا جدال من صنع الانسان ، وبالتالى فان فى الامكان ، بل من الواجب ، أن نكتشف مبادىء هذه الحياة الاجتماعية ، فى التغيرات التى أصابت الذكاء الانسانى نفسه » . وهو يخرج بهذا الرأى وهو انه « لا بد أن تنسجم الحكومات مع طبيعة المحكومين ، بل ان الحكومات نتيجة لهذه الطبيعة » ان القدر لا يتدخل فى تاريخ الامم ، والعناية الالهية لا تفسر حوادث التاريخ

وقد وجد ميشليه فى مذهب فيكو حلا لكثير من مشاكله ، فكانت هذه نقطة الابتداء التى بنى عليها فلسفته ، وهى ان التاريخ هو العلم الذى نفسر به كيف تبنى الانسانية نفسها بنفسها. التاريخ هو علم الحضارة .

فلندرس « الأديان واللغات والسيطرة والتجارة والاوامر والامبراطوريات والقوانين والاسلحة والاحكام والعقوبات والحروب والمصالحات والمحالفات » . فان درسنا كل هذه الاشياء وما بينها من علاقات تكشف لنا مغزى التاريخ البشرى ، واستخلصنا قوانين تطور البشرية

هذا هو العلم الجديد الذى وضع أساسه فيكو ، وقضى ميشليه عامة حياته يقيم أركانه .. علم التاريخ

هذه عجالة عن جول ميشليه ، حياته ، وآثاره ، وكفاحه من أجل المبادىء الديمقراطية الجمهورية التى كان يعتقد أن نابوليون الاول خانها وأخرجها عن معناها بتوسعه الامبراطورى ، وان نابوليون الثالث نكسها باعادته النظام الملكى الى فرنسا الجمهورية

وقد اضطرب ميشليه لحرب السبعين بين المانيا وفرنسا أيما اضطراب . وقبل أن تنشب هذه الحرب وقع مع كارل ماركس وانجلز وغيرهما من مفكرى ذلك العصر بيانا فى سبيل السلام

وكان ميشليه بمنفاه فى بيزا بايطاليا ، حين جاءه نبأ سقوط باريس أمام جحافل الالمان عام ١٨٧٠ فأصابه الفالج ، ولكنه لم يلبث أن شفى ، ثم جاءه النبأ باقامة حكومة شيوعية فى باريس هى حكومة الكومون التى دامت شهرين ونصف شهر ، ثم تتالت عليه أخبار الحروب الاهلية فى بلاده ، فحكومة الكومون قتلت رهائن الحكومة البورجوازية وأعدمت رئيس أساقفة باريس .
والحكومة البورجوازية اتخذت من فرساى مقرا لها ، وضربت باريس بالمدافع وغزتها بجيشها الذى قاومه

سكان باريس مقاومة باسلة مريرة ثمانية أيام كاملة ، سقط فيها بين عشرين ألفا وثلاثين ألف رجل وامرأة . وأصاب الفالج ميشليه مرة أخرى حين جاءته هـذه الانباء ، فشلت ذراعه اليمنى وفقد النطق

وعاد ميشليه الى فرنسا حيث عولج وشفى . وانقطع من جديد لاتمام كتابه عن الثورة الفرنسية حتى أتمه ، ثم توفى عام ١٨٧٤ . ونقل جثمانه الى باريس ، حيث شيع جنازته أكثر من عشرة آلاف شخص ، تتقدمهم وفود أوفدتها شعوب عديدة ، من بولندا ومن رومانيـا ومن ايطاليا ، ومن كل شعب دافع عنه هذا المؤرخ المكافح الذى تقمصته روح الشعوب ! ..

تأملات فى فلسفة نيتشه

كلما ذكر اسم الفيلسوف الالمانى فريدريك نيتشه اهتزت نفوس السامعين : فمن الناس من يشمئز لذكره او تتحرك فيه عوامل البغض العميق ، ومنهم من يمتلىء قلبه بالاعجاب وتتمتم شفتاه بعبارات التمجيد ، ومنهم من يحزن اسفا على الانسانية الشقية التى أنجبت مثل هذا المفكر الشقى ، ومنهم من يطرق فى تأمل لأنه يرى فى تأملاته صدقا عظيما ، وعلى الجملة فاسم نيتشه ليس من تلك الاسماء التى تقابل فى فتور . وليس هذا آية من آيات عظمته أو رفعة مكانته بين الفلاسفة ، فهو ليس أعظم شأنا من هيوم أو لايبنتز أو سبينوزا ، وهو قزم بين الفلاسفة ان هو قيس بأرسطو أو بأفلاطون أو بديكارت أو بكانت أو بهيجل . ولكننا مع ذلك لا ننفعل حين يجرى أمامنا ذكرهم وننفعل حين يجرى أمامنا ذكره

فكل تفكير فى نيتشه وفى مدرسته اذن تخالطه العاطفة ، بل العاطفة القوية ، أيا كان لون هذه العاطفة

وعلة ذلك أن نيتشه نفسه تخالط تفكيره العاطفة ،

بل العاطفة الجامحة الملتهبة . فهو ليس فيلسوفا من أولئك الفلاسفة الذين يعتمدون على المنطق والتفكير المجرد ، فهو اذن فيلسوف من طراز جان جاك روسو أو كارل ماركس أو فريدريك انجلز أو كيركجورد ، أى فيلسوف من فلاسفة الفكر الملتهب

ولكن هناك أيضا علة أخرى تجعلنا نتخذ موقفا عاطفيا من فلسفة نيتشه ، وتلك هى ان فلسفة نيتشه تؤثر فى موقفنا من الحياة تأثيرا قويا مباشرا ، وتتدخل فى سلوك المؤمنين بها وفى موقفهم من الانسانية كلها ، فهى فلسفة ذات نتائج فردية واجتماعية ، ولو أخذ بها الافراد والمجتمعات لتحولت تحولا سريعا من أساسها . ومن الفلسفات ما يؤيد أو يدحض بالرأى ومن الفلسفات ما يبشر به أو يكافح بالرأى كذلك ، وفلسفة نيتشه من هذه الفلسفات التى لا يسعك الا أن تبشر بها أو تكافحها

خذ مثلا الفكرة الشائعة بأن نيتشه رسول الحرب وعدو السلام وموقظ القومية المتعصبة ، وانه ملهم الروح العسكرية البروسية فى الحرب العالمية الاولى وملهم الروح النازية فى الحرب العالمية الثانية ، وأن فلسفة نيتشه هى الينبوع الذى تسقى منه الفردية المطلقة ويروى منه طلاب البطولة والسيطرة

هذه الفكرة الشائعة لها بعض ما يبررها فى كتابات نيتشه ، ولا سيما فى نظريته عما يسمونه « السوبرمان » أو « الانسان الكامل » . واذا كان لهذه الفكرة بعض ما يبررها فى كتابات نيتشه فليس غريبا أن يمتزج تفكيرنا فيها وتقليبنا لها بشتى ألوان العواطف الحادة الصاخبة

أقول ان هذه الفكرة الشائعة عن نيتشه لها « بعض »

ما يبررها ، لأن أكثر الناس لا يقرأون لنيتشه ولكن يقرأون عنه وانتشار الفكرة بالعنعنة يضيع كثيرا من الحق . فنيتشه مثلا لا صلة له بتدعيم الروح العسكرية البروسية فى الحرب العالمية الاولى كما يذهب البعض ونيتشه مثلا لم يكن موقظ القومية المتعصبة . ونحن نعلم أن نيتشه لم يكن بروسيا وانما كان المانيا من أصل بولندى ، وانه كان فخورا بأصله البولندى هذا . ونحن نعلم كذلك ان الالمان لم يحفلوا به أو بآرائه كثيرا أثناء حياته حتى لقد قضى العشرين سنة الاخيرة من حياته طريدا يتنقل بين مختلف بلدان أوربا بعد أن عجز عن الاستقرار فى المانيا

وقد ذكر الاستاذ س. ا. م. جود ، أستاذ الفلسفة السابق بجامعة اكسفورد ، ان أستاذا ألمانيا أراد قبيل الحرب العالمية الاولى أن يلقى محاضرة عن نيتشه ، ولم يجد نسخة من كتابه « ما وراء الاخلاق » فى أصلها الالمانى فأرسل الى انجلترا يطلب نسخة من الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب . فاذا كان الامر كذلك فالناشرون الالمان لم يكونوا فى تلك الايام مكترثين بنيتشه أوبفلسفته حتى يعيدوا طبع كتبه ، والقراء الالمان لم يكونوا بين حرب السبعين والحرب العالمية الاولى مقبلين على التهام كتب نيتشه هذه التى تقوى فيهم الروح العسكرية وتقدس حقهم فى السيطرة كما تذهب الشائعات

وانما اختلطت فى الرأى العام كتابات أستاذ آخر من أساتذة الجامعات الالمانية عاصر هذا الفيلسوف هو تريتشكه بكتابات نيتشه . فتريتشكه وليس نيتشه هو المفكر الذى الهب الالمان واذكى فيهم روح القتال والايمان الأعمى بتفوقهم العنصرى وحقهم فى السيادة

أما نيتشه فلم يفعل من ذلك شيئا ، بل على العكس من ذلك فقد كان كثير التعريض بعيوب الالمان كثير الذكر لفضائل الأمم الاخرى ، ورغم ايمانه بأن فى الالمان خيرا كثيرا ، لم يكن يرى ان فيهم ما يميزهم حقا على غيرهم من الأمم ، بما فى ذلك اليهود والساميون بوجه عام .

كذلك لم يكن نيتشه من دعاة القومية الالمانية ، بل كان من أكبر الدعاة لازالة الحدود بين الدول واقامة مجتمع عالمى ، وعنده ان رجل المستقبل ينبغى أن يكون مواطنا عالميا لا مواطنا فى دولة واحدة بالذات . وهو القائل انه « لا بد أن تنتهى هذه الحالة السخيفة فى أوربا ، فهل تستند هذه القومية الثيرانية الى فكرة واحدة ؟ وأية قيمة ايجابية هنالك فى تشجيع هذا الغرور المتغطرس اذا كان كل شىء يدلنا اليوم على ازدياد مصالحنا المشتركة واتساعها ؟ » وهو القائل ان الانسان الكامل أو السوبرمان الذى ينبغى علينا أن نعمل على تنشئته يجب ألا يقترن بوطن واحد ولكن بجميع الاوطان ، ونموذجه عند نيتشه نابليون وجوته وبيتهوفن وشوبنهاور وفاجنر ، وهؤلاء « لم ينتموا الى الوطن الا بالتظاهر أو فى لحظات ضعفهم أو ربما فى شيخوختهم »

فالفكرة الشائعة عن نيتشه ـ وهى انه موقظ القومية المتعصبة وملهم العسكرية البروسية ـ اذن ليست كلها فكرة صحيحة ولا كلها فكرة دقيقة وانما هى من تلك الافكار الرائجة التى لا تنبع من أصحابها بل تنبع من المفسرين والشراح والمروجين والدعاة لرأى خاص ممن يأخذون من صاحب الرأى بعض رأيه ويغفلون بعضه الآخر

ولكنى أعود فأقول ان هذه الفكرة الشائعة رغم

شططها لها « بعض » ما يبررها . ومنشأ الفكرة هو نظرية نيتشه فى السوبرمان أو الانسان الكامل ، أو على الأصح الانسان الفاضل

فقد تأثر نيتشه بنظرية داروين فى التطور ، وبنى عليها نظرية أخرى خلاصتها ان فى الانسان غرورا طبيعيا يجعله يعتقد انه آخر مرحلة من مراحل الحياة العضوية ، ولكن تاريخ تطور الاحياء يدلنا على ان عملية التطور لن تقف عند حد الانسان ، بل ستستمر فى المستقبل ومنها سينشأ نموذج من البشرية أرقى من الانسان الحالى وأقرب الى الكمال ، يمكن أن نسميه « السوبرمان » . فاذا لم تكن عوامل التطور الموجودة تؤدى بالضرورة الى ظهور السوبرمان فيمكن أن نعمل على توجيهها بحيث تنتهى بظهوره

والصورة التى تخيلها نيتشه للسوبرمان غير واضحة، ولكن الذى لا شك فيه ان السوبرمان فى نظره سيكون انسانا أو على الأصح فردا عبقريا من طراز نابوليون أحيانا ومن طراز فاجنر أحيانا أخرى ومن طراز شوبنهاور أحيانا ثالثة . ثم تطورت الفكرة فى عقل نيتشه فلم يعد السوبرمان عنده فردا عبقريا ، بل أصبح فصيلة أو سلالة من الافراد العباقرة ، وبهذا نصل الى نمط سوبرمانى . وظهور السوبرمان على وجه الارض ليس بالضرورة أمرا محتوما ، بل ان ظهوره متوقف على ارادة الانسان ، ولا بد لظهور السوبرمان من أن يعيش الانسان على نسق خاص يؤدى الى هذا الظهور

وقد يحسب البعض ان رقى الانسانية وتقدمها يقترن بتحقيق السعادة لبنى الانسان ، ولكن « التطور لا يجعل

من السعادة هدفا له » عند نيتشه . والسوبرمان أو الانسان الفاضل لا يختلف عن الانسان العادى فى انه أدنى الى السعادة ، بل يتميز عنه بالقوة ، وتتمثل هذه القوة فى الارادة الجبارة وفى مباشرة السلطان « فلا بد من ظهور نوع أقوى ونموذج أعلى من البشر ، تكون الظروف المكتنفة لنشوئه ورعايته مختلفة عن الظروف المكتنفة لنشوء الرجل العادى ورعايته »

ولكى نوطىء لظهور هذه الفصيلة الراقية من البشر لا بد أن يتعلم الناس القوة والصلابة والقسوة ، وأن يبغضوا الضعف والدعة والراحة والقناعة والتسامح والرحمة والتواضع والاخاء والمساواة وكل ما من شأنه أن يمشى بالرخاوة فى عضد الانسان وفى نفسه وفى عقله

فأول واجب علينا اذا أردنا أن نمهد لظهور السوبرمان هو ليس التخلى عن الاخلاق المسيحية فحسب ، بل مقاومة هذه الاخلاق التى تمجد الضعف وتحول دون ظهور السوبرمان الذى يتوكل على نفسه فقط ولا يتوكل على الله . ان « ارادة القوة » هى الدافع الاول فى التطور ، فالمجد للاقوياء وسحقا للضعفاء والمحتاجين ، والخير والرحمة كلمتان تنبغى ازالتهما من القاموس . « كن صلبا ، لا تراع جارك » ، و « تألم فالالم مصدر العظمة » ، هذه هى الشعارات التى نادى بها نيتشه .

« ان الحرب والشجاعة قد أثمرتا أشياء أعظم مما أثمر الاحسان .. فلتحى حياة الطاعة والحرب » . الالم يطهر النفس ، والخطر مدرسة الابطال ، أما الشكوى والأنين وانتظار الرحمة فمن سجايا العبيد . والاخلاق المسيحية كلها تقوم على البر بالضعفاء ، وهؤلاء يعرقلون طريق الاقوياء ، فالخطر الاول على الانسانية الفاضلة

كامن فى الاخلاق المسيحية

لهذا تدور أكثر كتابات نيتشه حول فكرة واحدة هى تحرير الانسانية من الاخلاق المسيحية ، واقرار نوع جديد من الاخلاق لا مكان فيه للخير والشر ، لانه يتجاوز الخير والشر ويعلو عليهما . فالاخلاق كلمة لا معنى لها الا فى قاموس العبيد ، والفضيلة عملة يشترى بها الضعفاء السعادة فى الحياة الدنيا أو فى الدار الآخرة ، فالاخلاق صفقة وتجارة وهى لاتلتزم الا لنفعها . الاخلاق المسيحية عند نيتشه « أخلاق المنفعة » ، والمسيحية هى « اللعنة الوحيدة الكبرى ، وهى الانحراف الوحيد الهائل المتغلغل الذى تجوز مقاومته بأية وسيلة مهما كانت مسموعة او خفية أو دنيئة ، وأنا أسميها الوصمة الوحيدة الخالدة فى جبين البشرية » . والعبيد لا يستحقون الا السعادة أما الاقوياء فهم يستحقون السيادة . و « كل ما نبع من القوة فهو خير وكل ما ينبع من الضعف فهو شر »

فهل غريب بعد كل هذا أن يقترن اسم نيتشه بالدعوة للحرب وان يعرف بأنه أكبر عدو للسلام ؟ وهل غريب بعد كل هذا أن تجد النازية فى فلسفته الدعامة الفكرية والروحية التى أقامت عليها دعوتها للقوة والسيادة والتفوق السوبرمانى ؟

ومع ذلك فنحن نجد تناقضا أصيلا فى فلسفة نيتشه. ومنشأ هذا التناقض هو ان نيتشه يمجد الحرب من ناحية ويلغى أول شرط من شروط الحرب من ناحية أخرى ، وهو وجود المتحاربين

فهو يكتب شارحا مذهبه فى النخبة المتفوقة قائلا :

« كيف يمكن أن نمجد أمة فى مجموعها ؟ فحتى بين الاغريق كانت العبرة بالافراد

« ان أمر الاغريق يثير اهتمامنا وهم على جانب عظيم من الاهمية لانهم نشأوا عددا ضخما من الافراد العظماء . كيف أمكنهم أن يفعلوا ذلك ؟ هـذه مسـألة يجب أن تدرس

« وأنا لا يهمنى الا صلات شعب من الشعوب بتنشئة الانسان الفرد ، وقد كانت الظروف بين الأغريق مؤاتية بصورة غير مألوفة لتنمية الفرد ، ولم يكن هـذا على الاطلاق بسبب خصائص الخير فى الشعب الاغريقى ، بل بسبب تصارع غرائزهم الشريرة »

من هـذا يتضح أن نيتشه لم يكن يفكر فى الامم والشعوب حين وضع نظريته فى السوبرمان وفى ارادة القوة ، وانما كان يفكر فى الافراد الافذاذ وحدهم . فاذا أضفنا الى هذا اتجاهه الواضح نحو العالمية من دون القومية والى وضع حد للتناحر بين الامم والشـعوب خرجنا بنتيجة واحدة لا سبيل الى تجاهلها ، وهى أن فلسفة نيتشه فلسفة تتصور العالم مجتمعا واحدا مكونا من أفراد متفاوتين تتصارع فيهم ارادة القوة أو ينبغى أن تتصارع ولا تتصور العالم مؤلفا من مجتمعات متفاوتة تتصارع فيها ارادة القوة أو ينبغى أن تتصارع

وبهذا المعنى نجد أن هناك تناقضا بين تمجيد نيتشه للحرب وبين نظريته الاساسية فى تقديس ارادة القوة فى سبيل تنشئة السوبرمان الفرد . فالحرب كلمة لا معنى لها فى عالم خلا من الامم والشعوب . فالذى يمجده نيتشه فى الواقع وحقيقة الامر هو تنازع البقاء وتنازع

السلطان بين الافراد بوصفهم أفرادا لا أكثر ولا أقل

كذلك لا نجد ان النـــازية قد أنصفت نيتشـه حين استغلت مذهبه في الصـــفوة الفاضلة بين أفراد المجتمع لتنادي بأن فى الجنس الآرى من صفات الســيادة والسوبرمان ما يؤهله للسيطرة على غيره من الأجناس ، وهو ما قصد الا الافراد ، ولا نجد ان النـــازية قد انصفت نيتشـه حين جعلت من مذهبه فى التطاحن بين الافراد لبلوغ الذرا مذهبا يبـارك التطاحن بين الأمم ليسود بينها أقواها فى ارادة القوة وهو الأمة الجرمانية .

فالنازية اذن قد مزجت شوفنية تريتشـكه العنصرية بفلســفة نيتشـه الفردية وجعلت من بربرية نيتشـه الاجتماعية بربرية سياسية ، فأخرجتها عن معنـــاها الاصلى

هذه بعض التأملات فى فلسفة نيتشـه صاحب الكتاب المشهور « هكذا قال زارادشت » ذلك الفيلسوف المعذب الذى كابد أفظع الاسقام عامة حياته وقضى السنوات العشر الاخيرة من عمره فى ظلام الجنون حتى توفى عام ١٩٠٠ عن ستة وخمسين عاما .

والحق ان فلسـفة نيتشـه كفلسفة روسو وكير كجارد مؤسس الوجودية أقرب الى حكمة زعيم روحى منهـا الى فلسفة فيلسوف منظم التفكير يستخدم العقل والمنطق فى الاثبات والاقناع . فكثير من وجوهها غامض وهى فى مجموعها أقرب الى الشعر منها الى النظام الفكرى ، وادراكها يتطلب ملكة غير المنطق لأنها من الرمز الصاخب المحموم أو من الالهام المهموس . هى عقيدة روحية ، وهى موقف من الحياة ، وهذا ما يجعل بعض الناس

يقبلونها جملة أو يرفضونها جملة وهم فى الحالين على اضطراب عظيم

ومن الناس من يرى أن جنون نيتشه لم يبدأ فى أواخر أيامه بل لازمه طيلة حياته ، ويستخلص من ذلك ان كل ما كتبه هذيان مجنون ، ولكن أثر نيتشه فى الفكر المعاصر لا سبيل الى تجاهله أو ازالته ، فقد تلون به أدب برناردشو وأدب اندريه جيد وأدب بعض الوجوديين ولا سيما البير كامو ، كما تلون به أدب القصصى العظيم د. هـ. لورانس الى حد كبير . وفى كل بلد من بلاد العالم شيعة نيتشوية تؤمن بمناهضة الاخلاق الدينية فى سبيل بناء السوبرمان الذى تتمثل فيه ارادة القوة بحسب ما تصوره نيتشه

وقد أدى غموض آراء نيتشه وكثرة ما فيها من التناقض الى تحوير فلسفته ولا سيما بين عامة الناس ، والى استخدامها فى أشياء لم يقصد اليها صاحب هذه الفلسفة . فنيتشه اذن من الفلاسفة القلائل الذين لا يجوز الكلام عنهم الا مع الاشارة الى المتن والنص ، بل الى المتون والنصوص ، فهو كثيرا ما يناقض نفسه أو ينتقل من الهام الى الهام ، تقرؤه آنا فتحسب أنه متشائم أشد التشاؤم وتقرؤه آنا آخر فتخاله يرنو فى أمل زاخر الى مستقبل عظيم

وقد قدر لابن القس هذا ان يكون أكبر داعية عرفه التاريخ لمناهضة الاخلاق المسيحية ، ومن المفكرين من يرى فى هذا التناقض الغريب وفى هذه الثورة العارمة على بيئته المتدينة ثورة فى نيتشه على نفسه ومحاولة منه للهرب من نفسه المسرفة فى الايمان المسيحى . وهى

اشبه ما تكون بثورة الصوفى على ذات الله كلما أحس بأن الروح الاكبر مبتلعه لحما وعظمـــا ، فهو من فرط خشيته أن يكون قديسا آثر أن يكون شيطانا . وقد كان نيتشه شيطانا بالفكر لا فى الحياة ، فحياته البائسة ليس فيها أحداث تذكر الا انه اشتغل زمنا أستاذا بجامعة بال بسويسرا حتى أقعده المرض ، وان امه المتدينة المسرفة فى التدين كانت دائمة الصلاة من أجل شفائه روحا وجســـدا ، وقد أوشكت أن تحـــرق مخطوطاته المليئة بالتجديف كفارة للمسيح لعله يعفو عنه ، وحياة المرض المتصل والآلام المبرحـــة التى كان يكابدها تفسر لنا حلمه الدائم بما يسميه بلوغ الانسانية « الصحة العظمى » . ففلسفته اذن حلم ضخم ، أو قل كابوس هائل ، عوض به نيتشه كل ما كان ينقصه فى هذه الحياة

صفحات من تولستوى

- ١ -

كان الكاتب الروسى العظيم ليو تولستوى فى قمة مجده ، وقد أشرف على الستين ، حين جاءه خطاب من شاب فرنسى فى مقتبل حياته يدعى رومان رولان ، قيض له فيما بعد أن يكون اماما من أئمة الادب العالمى بفضل ما وضع من روائع السير والقصص التى توجها بقصـــته الخالدة « جان كريستوف » (١٩١٢) وهى قصة أهلته لجائزة نوبل للأدب عام ١٩١٦

وحين قرأ تولستوى رسالة الشاب الفرنسى اضطربت لها نفسه واغرورقت عيناه بالدموع ، وأراد أن يجيب لفوره ، ولكن مشاغل الحياة الكثيرة حالت بينه وبين ذلك جملة أسابيع

ومضت الايام ، ثم تسلم الفتى رولان ، وكان يومئذ فى الحادية والعشرين من عمره ، رسالة من تولستوى مؤرخة ٤ أكتوبر ١٨٨٧ تبدأ بعبارة : « أخى العزيز . . » ثم تمضى لتشرح وجهة نظر تولستوى العظيم ، فى معنى

ألحياة السعيدة ومقوماتها ، وفى دهشة وطرب ، فما كان يظن ان عملاقا من عمالقة الأدب ، يعنى بالرد على شاب مغمور مثله

فأى خطاب هـــذا الذى جلب الدمـوع الى عينى تولستوى ، وأى رسالة هذه التى ملأت نفس رولان دهشة وطربا ؟

كان رومان رولان الشـــاب يؤمن بأدب شـكسبير وبموسيقى بيتهوفن ايمانا يقرب من التعبد ، فاذا به يقرأ ذات يوم ترجمة فرنسية لكتاب تولستوى « ماذا عسى أن نفعل » ، فيضطرب له اضطرابا شديدا . ذلك ان تولستوى ، شرح فى هذا الكتاب فلسفته فى الفن والحياة ، فتهجم على فن شكسبير وبيتهوفن ، ونادى بأن العمل اليدوى من مقومات الحياة الشريفة السعيدة .

فلا غرابة اذن فى أن يضطرب هذا الفتى الذى يقدس شكسبير وبيتهوفن ، ويعد نفسه لحياة الفكر والثقافة من دون العمل اليدوى . ولا غرابة اذن ، فى أن يرسل الى استاذه العظيم مستفسرا مستوضحا ، والقلق يملأ نفسه على سلامة ادراكه وصحة معتقداته

اما تولستوى ، فقد كانت حيـــاته مصداقا لأدبه وفلسفته . فقد ولد عام ١٨٢٨ لأسرة نبيلة فى ياسنايا بوليانا ، ورث عنها لقب كونت ، وتأدب فى صباه على يد مؤدبين من الفرنسيين والالمان على عادة الارستقراط الروس فى عصره ، حتى دخل جامعة كازان . ولكن الكونت تولستوى ترك الجامعة قبل التخـرج ، وبدأ حياته الاجتماعية بين موسكو وبطرسبرج «وهى لننجراد اليوم » . وكان كسائر اشراف روســـيا يومئذ يملك رقيق الارض ، أى الفلاحين الذين يعملون فى أرضه ،

فأخذ يضع مختلف المشروعات لتحسين أحوال من يملكهم من الرقيق . وفى سنة ١٨٥٤ تطوع للخدمة فى الجيش لمحاربة الاتراك ، ولكنه لم يلبث أن عاد الى بطرسبرج ، بعد أن سئم حياة الجيش . ونشرت أول قصة من قصصه « الطفولة » سنة ١٨٥١ ولكن اسمه لم يلمع فى سماء الأدب الا بعد أن نشر قصصه عن معارك سباستوبول التى وصف فيها فظائع الحرب

وفى عام ١٨٦١ قام تولستوى برحلة طاف فيها بكثير من بلاد أوربا الغربية . ثم عاد الى باسنايا واستقر فيها ، وعكف على انشاء قصصه الخالدة ، فكتب « الحرب والسلام » بين سنة ١٨٦٥ وسنة ١٨٦٩ ، ثم فرغ من « أنا كارنينا » سنة ١٨٧٧ . ثم اشتد القلق الروحى والفكرى والنفسى الذى كان يعانيه تولستوى ، فتركزت أفكاره على تعاليم الكنيسة الارثوذكسية التى وجدها قاصرة كل القصور . وبدأ يحاول اصلاح مفهوم العقيدة المسيحية ، فبلور أفكاره فى « الاعتراف » الذى كتبه سنة ١٨٧٩ ، وظل من بعد ذلك يكتب داعيا لعقيدته الاجتماعية والاخلاقية والدينية الجديدة ، فهاجم نظام الملكية الفردية ، وندد باستغلال الانسان للإنسان . وأراد تولستوى أن يطبق مبادئه فى حياته ، فتنازل عن أملاكه ووزعها على فلاحيه، وشاركهم عملهم اليدوى ، وتحرر من قيود الاسرة ، فتحطمت حياته العائلية

وفى ١٨٨٦ كتب تولستوى قصة «موت ايفان اليتش» التى بناها على اختباره الشخصى . ثم كتب فى ١٨٨٩ قصته المشهورة « كرويتزر سوناتا » التى عبر فيها عن آرائه الجديدة عن الحياة الجنسية ، والعلاقة بين الرجل

والمرأة . وفى ١٨٩٨ وضع تولستوى كتابه المشهور فى فلسفة الفن : « ما هو الفن ؟ » وجعل من هذا الكتاب ، وسيلته لتعريف حدود الفن ، وفقا لعقيدته الاشتراكية، ولعقيدته الدينية الثائرة على الكنيسة وعلى أصول المسيحية المتوارثة ، وفى نهاية حياته كثرت منازعات أسرته ، بسبب مبادئه الاشتراكية وتبديده أملاكه ، فنغصت حياته ، وفى ١٩١٠ مات تولستوى عن اثنتين وثمانين سنة ، بعد أن أصدرت فيه الكنيسة الروسية قرار الحرمان

أما جوهر رأيه فى الفن فهو ان الفن الصحيح ، هو ما وضع عن الناس وللناس ، وعن المجتمع وللمجتمع ، وعن الحياة وللحياة ، ولذا كان كتاب تولستوى : « ما هو الفن ؟ » حملة شديدة على مذهب الفن للفن ، وتجريحا قاسيا لاتباع هذه المدرسة . والفن الاصيل عنده ، هو ليس الفن الطبقى الذى تشعر بجماله وتدرك مغزاه طبقة واحدة من طبقات المجتمع ، بل الفن الانسانى الذى يشارك فى فهمه والاحساس به جميع الافراد ، وجميع الطبقات ، وسائر أبناء الانسانية . والمقياس الحقيقى لكل فن فى المستقبل ، هو قدرة هذا الفن على التقريب بين أبناء البشرية ليتحدوا فى الشعور . وصورة الفن فى المستقبل هى الصورة التى يدركها الجميع ويشارك فيها الجميع . أما وظيفة الفن الصحيح فهى التعاون مع الدين والعلم لاصلاح النفس البشرية من الداخل واقرار السلام فى كل قلب وعقل ، وفى كل القلوب والعقول ، حتى تقوم المحبة بين الناس مقام القانون ، ولا تعود الانسانية بحاجة الى أدوات التنظيم الاجتماعى ، كالمحاكم والبوليس والهيئات الخيرية

وسلطات التفتيش على المصانع ، وغيرها من الوسائل التى يكفل بها المجتمع أمنه من الخارج ، دون أن ترقى لها نفس الانسان

وذات المنطق الذى استخدمه تولستوى ليسفه الفن الطبقى ، ويحدد غاية الفن بأنها التقريب بين أبناء الانسانية فى الشعور ، استخدمه تولستوى أيضا فى التنديد بالطبقية فيما يزاوله الناس من أعمال ، حين يفرقون بين العمل العقلى والعمل اليدوى ، ويرفعون من شأن العمل العقلى ، ويحطون من شأن العمل اليدوى

لهذا حمل تولستوى فى كتابه : « ماذا عسى أن نفعل ؟ » على أولئك الذين يزعمون ان العمل العقلى أشرف واقيم وانفع للانسانية من العمل اليدوى ، ولهذا نادى تولستوى بأن الانسان لا يعرف السعادة الحقيقية، ولا يتصف بالصدق والاخلاص والانسانية والخلق القويم ، الا اذا احترم العمل اليدوى ومارسه بنفسه

فليس غريبا اذن ، أن ينزعج الكاتب الشاب رومان رولان ، حين يقرأ كل هذه النظريات فى الفن والمجتمع التى تحطم مثله العليا تحطيما ، وأن يقرأها لكاتب عظيم مثل تولستوى ، يجله ويؤمن بعبقريته

فشكسبير الذى كان رولان يمجده تمجيدا ، هو عند تولستوى أديب ثانوى القيمة ، يتنافى أدبه مع الفكرة الانسانية العليا ، لأن أدبه أدب طبقة معينة بالذات ، استمد منها وكتب لها ، وليس ادبا انسانيا يتناول الشعور الانسانى الذى يشاركه فيه كل الناس ، ويعبر عنه بطريقة انسانية يفهمها كل الناس . وما يقال عن ادب شكسبير ، يقال عن موسيقى بيتهوفن

والأديب الشاب رومان رولان ، يؤمن بالفكر وبحياة الفكر ، وبالفن وبحياة الفن ، وبالعلم والثقافة العليا ، وبكل هذه القيم التى اصطلح مجتمعه على القول بأنها قيم شريفة راقية ، أشرف وأرقى من حياة العمل اليدوى . فليس غريبا اذن أن يضطرب هذا الكاتب الشاب الذى يعد نفسه اعدادا لكل هذه القيم العليا ، حين يقرأ فى تولستوى العظيم ان العمل اليدوى لا يقل شرفا عن العمل الفكرى ، بل لعله يتجاوزه شرفا من حيث انه نوع من النشاط الانسانى ، يستطيع كل أبناء البشر أن يشاركوا فيه ، وأن يجدوا فيه رابطا خلقيا ونفسيا يربط بينهم

ومن هنا كان ان رولان الشاب ، أرسل الى أستاذه يستفسر قائلا : « لم يفرض علينا العمل اليدوى كشرط أساسى من شروط السعادة الحقيقية ؟ وهل لزام علينا أن نتخلى بمحض ارادتنا عن النشاط الفكرى فى العلوم والفنون التى تبدو غير متفقة مع العمل اليدوى ؟ »

فيجيبه تولستوى قائلا : انه لم يشترط هذا الشرط الذى ذهب اليه أخوه العزيز ، ولم يقل بأن الانسانية ينبغى ان تتخلى عن النشاط الفكرى الذى يبدو غير متفق مع العمل اليدوى . فان كان رولان قد فهم هذا ، فهو قد أساء الفهم ، فهو لم يجعل من العمل اليدوى مبدأ من لم يمارسه سقطت عنه انسانيته ، وانما نظر اليه على انه شىء أخلاقى من أرفع طراز ، من احتقره سقطت عنه انسانيته .

احتقار العمل اليدوى عند تولستوى ، مناقض لمبادىء الدين والأخلاق والمدنية ، لأنه يجعل المجتمع قائما على الرق والعبودية ، فيه فريق ممن يشتغلون

بالعمل الفكرى ، يستغلون فريقا من القائمين بالعمل اليدوى ويعاملونهم معاملة العبيد . وفى هذا يقول تولستوي لرولان :

« فى مجتمعنا الفاسد ، ذلك المجتمع المكون من اناس يفترض فيهم انهم متمدنون ، يصبح العمل اليدوى فرضا واجبا علينا لا أكثر ، لأن العيب الرئيسى فى ذلك المجتمع ، انه كان ولا يزال مجتمعا متحررا من العمل اليدوى . ولقد استفاد المجتمع بهذه الوسيلة من عمل الطبقات الفقيرة الجاهلة البائسة ، التى أصبحت مكونة من عبيد كعبيد العالم القديم لكن دون أن يرد لهم الجميل » .

فالرجل المتدين حقا ، هو الذى يتنزه عن الاستفادة من هذا التناقض الملموس فى المجتمع ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ومثله الرجل الذى هذبت نفسه المبادىء الانسانية ، أو صقل ضميره وعقله التأمل الفلسفى . فالانسان المتمدن الصالح الخلق ، هو الانسان الذى لا ينتظر من غيره ان يخدمه الا فى أضيق الحدود ، وهو الذى يكون على استعداد للعناية بنفسه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وان يبادر الى خدمة غيره ما استطاع الى ذلك سبيلا .

والانسان المتمدن لا يخدم الآخرين ليدخل السعادة على نفوسهم فقط ، بل يخدمهم ليدخل السعادة على نفسه هو فى المقام الاول . فالعمل من أجل نفع الغير واسعاد الغير، هو سبيل الانسان الى السعادة الحقيقية، بل هو الشرط الاول للسعادة الحقيقية .

ولما كان العمل اليدوى محقق النفع ، يسعد الغير بما لا يدع مجالا للبس ، ولما كان العمل العقلى موضع

نظر ، فمنه النافع حقا ، ومنه العقيم الذى لا يضر ولا ينفع ، بل ومنه السيء الذى يعود بالضرر على النفس وعلى الغير ، كان طبيعيا أن يقدم الانسان الفاضل العمل اليدوى على العمل العقلى بصورة غير ارادية . وهذا التفضيل فى حد ذاته مظهر من مظاهر الصدق والخلق القويم

— ٢ —

فى الموازنة بين العمل الفكرى والعمل اليدوى، يضرب تولستوى المثل التالى : كاتب يؤلف كتابا ، أو رسام يرسم صورة ، أو موسيقى يضع لحنا . وكل عمل من هذه الأعمال الفنية ، بحاجة الى عشرين مرحلة من مراحل العمل اليدوى لاخراجه واتمامه . فالكتاب ورق ومداد وطباعة وتوزيع ، وكل شيء من هذه الأشياء له قصة طويلة من العمل اليدوى ، وكذلك قماش الصورة وألوانها والفرش التى استخدمت فى رسمها ، والاطار الذى يحيط بها . وقس على ذلك اللحن الذى لا يمكن عزفه الا بآلات ، بعضها وترى ، وبعضها نحاسى ، وبعضها خشبى أو عاجى ألخ .

المهم فى كل هذا ، ان الكتاب أو الصورة أو القطعة الموسيقية ، قد تكون أشياء تافهة عديمة القيمة ، بل لعلها تكون مؤذية مفسدة للفكر أو للذوق ، أى باختصار ليس هناك ما يضمن نفع ما ينتجه الفكر . أما سائر الادوات المساعدة التى يخرج بها الكتاب أو الصورة أو اللحن الى الوجود ، فليس هناك من يشك فى نفعها . وبالتالى فان كل ما ينتجه العمل اليدوى نفعه مضمون.

وهذا من الأسباب التى تجعل تولستوى ، يقـــدم العمل اليدوى على العمل الفكرى .

والعمل الفكرى عند تولستوى ، علما كان أو فنا ، ليست له قيمة الا اذا نبع من موهبة أصيلة . والموهبة الأصيلة أشبه شيء بالالهام الذى يهدى صاحبه الى عمل ما فيه الخير . وهى فطرة لا تحصل بالتعليم . فالعالم الأصيل والفنان الأصيل ، ينتج علمه وفنه بوحى من فطرته لا نتيجة للدرس والاجتهاد . والفرق بين العالم الاصيل والعالم الزائف ، وبين الفنان الأصيل والفنان الزائف ، كالفرق بين النبى والكاهن : النبى نبى بفطرته التى تهديه الى حقيقة وحقائق الاشياء ، والكاهن مهما تعلم يبقى كاهنا . ولكن كثيرا ما يحدث فى الحياة ، أن يلبس الكهان رداء الأنبياء ، ويبشرون فى الناس بتعاليمهم القاصرة المحدودة . وبالمثل ترى المزيفين من العلمـــاء والفنانين ، يحتلون فى الحياة مكانا ممتـــازا ، ويكونون طبقة منتفعة من عرق الملايين وكدهم ، متعـــالية على غيرها من الطبقات الكادحة ، طبقة تنادى بالعلم للعـــلم وبالفن للفن ، وتقيم فى العلم والفن كهنـــوتا من نوع جديد ، كل ذلك ليدوم امتيازها ، وتعظم منافعها .

فتولستوى اذن ، لم يقل بتقديم العمل اليدوى على العمل الفكرى بصورة مطلقة ، ولكنه قال بوجوب التمييز بين نوعين من العمل الفكرى : احدهما نابع من الموهبـــة الفطرية ، وهذا هو الخاص والنادر ، وهو مقدم على كل شيء ، والآخر ثمرة التحصيل والاكتساب ، وهذا هو الشـائع المألوف ، وهو لا يؤهل أصحابه لأى مركز ممتاز فى المجتمع والحياة ، لان نفعه غير محقق ، بل لانه يحتمل الاضرار بالغير كما يحتمل نفع الغير . ومثل هذا

النوع من العمل الفكرى ، علما كان أو فنا ، يقع عند تولستوى فى المرتبة الثانية بعد العمل اليدوى .

وهو يعبر عن رأيه هذا بقوله فى رسالته الى رومان رولان : « ان العمل اليدوى واجب على الجميع ، كما انه يسعد الجميع ، أما النشاط الفكرى فهو نشاط فريد لا يتوجب على أحد ، ولا يسعد به الا من يملكون هذه الموهبة . » وهؤلاء عند تولستوى قلة ، ومقياس الموهبة الحقيقية التى تؤهل صاحبها للعمل الفكرى الخالق ، هو التضحية فى سبيلها ، أو على حد قوله :

« ولا سبيل للتعرف على هذه الموهبة واثباتها ، الا اذا ضحى العالم أو الفنان براحته وبكل ما يتمتع به ليسير وراء موهبته . » أما الموهبة التى تعود على صاحبها بالسعادة والثراء ، فموهبة زائفة ، وهو يعود فيؤكد فكرته بقوله : « وما من انتاج للعلم الحقيقى أو الفن الحقيقى ، الا ما كان وليد التضحية ، لا وليد المنافع المادية . »

لهذا يرى تولستوى ان العالم يتخلص من آفة لتفترسه آفة من نوع جديد . فسلطان الكهنة قد بدأ يتقلص فى عصرنا هذا ، بعد ان كانوا يحكمون الدنيا باسم العقيدة . ولكن حل محل كهنة الدين ، كهنة من نوع جديد ، وهؤلاء هم كهنة العلوم والفنون ، وهم الآن يحكمون المجتمع باسم المحافظة على الحضارة . هم يزيفون العلم ويزيفون الفن كما كان الكهنة يزيفون الدين ، كل ذلك لينعموا بالجاه والسلطان ، وليحتلوا مكانا ممتازا بين أبناء المجتمع . وبعد أن كانت رسالتهم الاولى هى العمل على رقى الانسانية ، تراهم يتنكرون لهذه الرسالة ، فهم لا يكتفون بتزييف العلم والفن ،

بل يحرمون الجماهير من حقها فى العلم والفن ، «وبهذا يقعون فى الخطأ الاكبر ، الا وهو التناقض الدائم بين المبدأ الذى ينادون به والطريقة التى يعملون بها . »

ولهذا يقول تولستوى : « ان مرد الدور الزائف الذى تقوم به العلوم والفنون فى مجتمعنا ، هو ان الناس الذين يصفون أنفسهم بالتمدن ، وعلى رأسهم العلماء والفنانون ، أصبحوا طبقة ممتازة كطبقة القساوسة ، وبالتالى شابهم ما يشوب كل طبقة تتحجر وتنغلق على نفسها من ضلال ، وهو التنكر للرسالة التى جاءت لتحقيقها بتزييف هذه الرسالة ، وبمنع انتشارها بين الناس ، حتى تظل حكرا لهذه الطبقة وحدها ، ومصدر امتيازها على بقية طبقات المجتمع . ومن هذا نجد

«ان الكثرة المطلقة ممن يلقبون أنفسهم بالعلماء والفنانين، يعلمون حق العلم ، ان ما ينتجونه لا يساوى ما يستهلكونه ، وهذا هو السبب الأوحد الذى يجعلهم يبذلون كل هذه الجهود ليثبتوا ان نشاطهم لا غناء عنه لخير الانسانية ، شأنهم فى ذلك شأن الكهنة فى كل العصور . »

هؤلاء هم العلماء المزيفون والفنانون المزيفون . أما العلماء والفنانون الحقيقيون ، فهم لا يستأثرون لأنفسهم بأى حق أو امتياز . هم يعملون فى صمت ، وانتاجهم النافع يتحدث عن نفسه .

والعلم الحقيقى وجد فى كل زمان ومكان ، والفن الحقيقى وجد فى كل زمان ومكان ، وهما باقيان على وجه الارض ، لا تنطفىء لهما شعلة ، ولا يكابر فيهما مكابر . هكذا يقول تولستوى .

ولكن العلماء المزيفين ، والفنانين ، وكل مزيف من

سدنة « الحضارة » وحماة « التقدم » ورعاة «الثقافة» أحد رجلين : أما رجل ينادى بأنالعلم للعلم يطلب لذاته، والفن للفن يطلب لذاته ، وهؤلاء سفهاء سخفهم واضح، وأما رجل ينادى بأن غاية العلم هى الخير ، وغاية الفن هى الجمال .

فان سألت أحدا منهم : وما الخير وما الجمال ؟ اجاب : هذه اقانيم مطلقة لا سبيل الى استكناهها ولا طريق الى تعريفها .

وهكذا يكذب العلم المزيف والفن المزيف على الناس، « لأن الانسانية فى كل عصر من العصور ، لا عمل لها فى أثناء تقدمها الا تعريف الخير والجمال . » وأيا كان مدلول الخير أو مدلول الجمال ، فكل تعريف لهما يلتقى فى وصف الانجيل القائل : « كل ما يجمع الناس فهو خير وجمال ، وكل ما يفرق بينهم فهو شر وقبح . »

« هذه الحكمة البسيطة كما يقول تولستوى ، اجتمع عليها كل الفلاسفة والتقت عندها سائر الأديان . وهى حكمة بديهية لا يحتاج اثباتها الى منطق المناطقة ، ذلك لأن العالم بأسره يعرف ذلك القانون ، فهو منقوش على قلب كل منا . »

فتولستوى اذن ، يرى انه لا علم الا ما حقق خير الانسانية ، ولا فن الا ما حقق لها الجمال ، وهو اذن يرى انه لا خير ولا جمال الا ما جمع قلوب الناس ، ودعم الروابط التى تربط بين بنى الانسان بوحى هذا العلم وهذا الفن وهو فطرة الحب المودعة فى كل قلب .

واذا كان هذا مقياس الخير والجمال الذى استقر لدى تولستوى من جوهر الدين والحكمة والفلسفة ، كان كل علم وفن لا يجمع بين قلوب البشر ولا يدعم روح

الاخاء بين أبناء الانسانية ، علما زائفا وفنا زائفا ، أو علما تافها وفنا تافها . فما بالك بتلك العلوم والفنون الجهنمية التي تبتكرها عقول العلماء والفنانين ، ولا تجني الانسانية منها الا الحروب الممزقة والبغضاء القاتلة ؟

ما بالك بتلك « العلوم القانونية والعسكرية والاقتصادية والسياسية والمالية التي تفرق ولا توحد، والتي لا تهدف الا الى تحقيق رفاهية أمة من الأمم على أنقاض غيرها من الامم ، وتمكن لشعب من ان يغتال شعبا » وما بالك بتلك المخترعات الجهنمية التي تسخر للتدمير والابادة واسترقاق الانسان للانسان ؟ انها بغير شك علوم شريرة وثمرتها ثمرة مرة .

بل ان تولستوي يذهب الى أبعد من هذا ، فينوه بتفاهة النتائج التي توصلت اليها العلوم التطبيقية . وهو في هذا يقول : « ولو ان الخير كان حقا المقياس الذي تقاس به العلوم والفنون ، لما اكتسبت أبحاث العلوم الوضعية هذه الأهمية التي اكتسبتها ، وهي الخالية من كل نفع في تحقيق خير الانسانية الحقيقي ، ولما لقيت من باب أولى أعمال الفن بيننا كل هذا الاحتشاد ، وهي لا تفيد في شيء الا تسلية الكسالى على أكثر تقدير » .

فتولستوي يرى ان الحكمة البشرية لا تتمثل في المعرفة . ومن الخطأ الاعتقاد بأن البشر يزدادون حكمة كلما ازدادوا علما ، « فما أكثر ما في الكون من حقائق وأسرار يمكن العلم ان يكشف عنها ، وانما حكمة الانسان تتمثل في معرفته نظام الأشياء التي تصلح معرفتها له ، وتتمثل في ترتيبه معارفه بحسب أهميتها . »

فما هو أهم علم تجب معرفته على الانسان ؟

« أهم علم يمكن للانسان ان يعرفه ، بل تجب عليه معرفته ، هو العلم الذى يمكنه من ان يحيا حياة يحدث فيها أقل ما يمكن من الشر ، ويفعل فيها أكثر ما يمكن من الخير . وأهم فن يجب على الانسان معرفته ، هو الفن الذى يعرف به كيف يتجنب الشر وكيف يفعل الخير بأقل جهد ممكن . » فهل ورد ذكر هذا العلم الخطير وهذا الفن الخطير ، بين العلوم والفنون ، التى يزعم العلماء والفنانون انها تحقق خير البشرية ؟ كلا . ان تولستوى لا يجد لعلم الحياة الفاضلة ولفن الحياة الفاضلة مكانا بين العلوم والفنون ، وما مكانهما الطبيعى عنده الا فى المقدمة وهذا عنده دليل زيف العلوم والفنون

لهذا قال تولستوى الشيخ ، ينصح رومان رولان الشاب ، ان يبدأ حياته بنبذ ذلك الوهم الضخم ،الذى بناه أكثر مفكرى القرن التاسع عشر، فى أدمغة معاصريهم، وهو خرافة « التقدم » ، تقدم الانسانية عن طريق العلم الوضعى المادى ، وعن طريق الفن الكلاسيكى الذى يمجد جمال الصورة قبل أى شىء آخر ، وخرافة تفوق العمل الفكرى على كل عمل آخر فى الحياة . فليعلم هذا الشاب ، وهو بعد فى مقتبل العمر ، أن الحياة هى الحب ، وان الحب هو الحياة . وان كل مجهود انسانى لا يقوى روابط الاخاء والتعاطف بين أبناء الانسانية مجهود عقيم ، وان السعادة كل السعادة هى انكار الذات ومحبة الآخرين ، وأن التقدم كل التقدم هو فى تعاون البشر على البقاء ، لا فى تنازعهم على البقاء .

ماكس فيبلين

منذ ان وضع ماركس تفسيره الاقتصادى للتاريخ ظهر له تلامذة كثيرون وظهر له أعداء كثيرون ، ومن تلامذته الكثيرين تلميذ قوى الحجة كبير الجمهور درس المجتمع الامريكى ونقده نقدا مريرا ، واستطاع بفضل درسه ونقده ان يضيف شيئا جديدا الى نظرية أستاذه فى التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وهذا التلميذ هوماكس فيبلين الذى كتب ثلاثة كتب هى « نظرية الطبقة المتمتعة بالفراغ » و « الملاك الغائبون » و « المصالح الحقيقية والرجل العادى » . وأهم هذه الكتب الثلاثة هو الكتاب الأول .

وأيا كان الرأى فى فلسفة ماركس وفى نظرياته الاقتصادية والتاريخية فان آراء فيبلين من الطرافة بحيث تستحق ان نلم بها وان نتأملها . وسواء وجدناها صائبة أم خاطئة فلا شك اننا سنجد فيها متعة شديدة .

فالرأى عند فيبلين ان أكثر ما نراه فى الطبقة العليا وفى الطبقة الوسطى من خصائص راجع الى ما يسميه الاقتصادى الكبير آدم سميث « شهوة الانسان التى لا

تحد بحـــدود للتظاهر » . ولما كانت الطبقة الدنيا فى المجتمع مصابة بهذا الداء الانسانى العضال ، فهى تضيع كل وقتها فى تقليد الطبقات العليا فى كل ما تفعل ، أو فى أكثر ما تفعل . فداء التظاهر اذن يسرى فى جميع طبقات المجتمع بدرجات متفاوتة . فكلما ارتفعنا فى السـلم الاجتماعى اشتدت وطأته ، وكلما هبطنا خفت حدته ، ولكن مهما اختلفت درجاته فهو يسرى فى جسم المجتمع كله .

وبعد أن يقرر فيبلين حب الانسان للتظاهر ينتقل الى تطبيق هذا الرأى على ما يشاهده من أحوال المجتمع . ويخرج من هذا بأن المجتمع يحكمه قانونان هما « قانون الفراغ الظاهر » و « قانون الاستهلاك الظاهر » .

فعند فيلبين ان الانسان لا يطلب المال لذاته ، وانما يطلبه لمنافعه . ولقد يكون هناك بين الناس من يطلب المال لذاته ولكن هذه حالات مرضية لا يجوز أن نأخذ بها . فلو ان قارون كان يعيش وحده فى جزيرة خلت من الناس لكان رغم ماله الكثير أبأس البؤساء واضعف الضعفاء . وانما الذى يطلبه الناس ليس الثراء نفسه ولكن ان يعرف الناس بثرائهم ، فهم يحبـون ان يعلنوا عن ثرائهم وان يظهروه للناس ، اظهارا . وسبيل الاثرياء الى اظهار ثرائهم شيئان : استهلاك السلع واضاعة الوقت . واستهلاك السلع لا قيمة له ، او يفقد اكثر قيمة اذا حدث خفية دون أن يلحظه الناس ، فلا بد اذن من ان يكون هذا الاستهلاك واضحا ومنظورا ما امكن ذلك ، وان تقوم حوله اكبر ضجة ممكنة . وكذلك القول فى اضاعة الوقت ، أو ما اصطلح النـاس على تسميته بالفراغ . لا يكفى ان يتمتـع الاثرياء بالفراغ

ولـكن يجب ان يعرف جميع النـــاس انهم يتمتعون بالفراغ .

هــذان هما قانون الاستهلاك المنظور وقانون الفراغ الواضح اللذان يذهب ماكس فيبلين الى انهما يسيطران على المجتمع . وهو يدلل على صدق رأيه هذا بدراسة آثاره فى المجتمع واستقصائها فى كل ما تفعله الطبقــات المترفة وغير المترفة . فيتناول مئات الشــواهد الدالة عليه ويحللها تحليلا قد يكون خاطئا او مبالغا فيه ولـكنه على كل حال آية فى الذكاء . هو يراه فى القبعات العالية التى يلبسها سراة القوم فى بلاد الغرب . وهو يراه فى تربية الـكلاب الخالصة السلالة ، وهو يراه فى الخصور النحيلة التى تفرضها نساء المجتمع الراقى على أنفسهن، وفى مقاييس الجمال عند الاثرياء بوجــه عام . بل هو يراه فى بعض اساليب الهجاء فى اللغة وفى دراســــــة اليونانية واللاتينيــــة وفى تمسك بعض الجامعات بلبس الروب الجامعي ، وهو يراه فى اقبال بعض الطبقـــات على المراهنة وفى طبع الـكتب غير المقصوصة الاطراف. وهكذا وهكذا .

انظر مثلا الى الرجل الثرى كيف يثبت ثراءه ويعرضه على الناس عرضا بالاستهلاك الواضح المنظور . وهو لا يكتفى بما يراه الناس من اســـتهلاكه الشخصى فتراه يحيط نفسه بحاشية لعلها تستهلك اكثر مما يستهلك .

وكلما ازداد عدد هــذه الحاشية وكثر استهلاكها فى عيون الناس قوى الدليل على ثرائه . فهناك الخــدم والحشم وهنــاك الشــوفير والسكرتير ، وليس من الضرورى ان يكون لـكل من هؤلاء عمل لا سبيل الى الاستغناء عنه ، ولـكن المهم فيهم انهم مستهلـكون نيابة

عن الوجيه نفسه ، أو قل هم وسائله فى الاعلان عن كثرة استهلاكه بل ان الوجيه يهتم بالباس أفراد حاشيته زيا خاصا ما امكنه ذلك ، زيادة منه فى الدلالة على انهم يستهلكون باسمه .

ولكن المستهلك الاكبر باسم الوجيه هو بطبيعة الحال زوجته ، والثرى يعرض ثراءه على الناس من خلال زوجته وما تستهلكه من اسباب التجميل وفاخر الثياب وغالى الحلى وأنيق الحفلات .. الخ .

وكما يتفنن الثرى فى الاعلان عن ثرائه باستهلاك السلع استهلاكا مباشرا ومن طريق حاشيته ، تراه كذلك يتفنن فى اضاعة الوقت فيما يسمى بالحياة الاجتماعية فى النوادى والاستقبالات وفى الرحلات وحياة اللهو .. الخ ، كل ذلك ليتضح فراغه للجميع .

والاصل فى الاستهلاك الظاهر والفراغ الظاهر انهما يقومان على العبث والترف والاسراف والاتلاف . فالاستهلاك النافع او ما لا غناء عنه لا فضل فيه لاحد على أحد ولا يميز أحدا على أحد الا فى اضيق الحدود . استهلاك الطعام اللازم للتغذية أو الملابس اللازمة للكساء مثلا يشترك فيه اغنى الاغنياء وأى خادم فى حاشيته . فكيف يميز المليونير نفسه عن غيره من الناس؟

انه يفعل ذلك بالاقبال على ما لا نفع فيه أو الزائد عن الحاجة ، أو ما يجمل الناس وصفه فيسمونه « الترف » . وكلما قل نفع الشىء المستهلك ارتفعت قيمته فى نظر الثرى . حتى زوجته وما يحيط به من حاشيته . فالغنى لايريد زوجة نافعة تطهو له طعامه وتخيط ثيابه وتمسح البلاط فى داره ، بل انه لايريد زوجة تربى له أولاده ، فكل هذه أشياء نافعة يمكن

أن يقوم بها الطهاة والخياطون والخدم والمرضعات والمربيات . نعم ، كلما قل نفع الزوجة ارتفعت قيمتها. بل أكثر من ذلك ، كلما ازداد اسرافها واتلافها ارتفعت قيمتها . فالثرى ليس بحاجة الى زوجة تكتفي بثوبين او ثلاثة كل عام او لا تكترث بما بين الحلى الزائفة والحلى الثمينة من فرق ، فمثل هذه الزوجة لاتجعل استهلاكه واضحا او ظاهرا ، ومثل هذه الزوجة مدعاة للخجل لا للتباهى فى المجتمع .

بل ان مظاهر الاتلاف والاسراف وقلة النفع ينبغى ان تتجاوز ثياب الزوجة وأدوات زينتها الى قوامها وتكوين جسمها . فزوجة الثرى ليست بحاجة الى الخصر الممتلىء والايدى القوية التى تحتاج اليها زوجة الفلاح أو العامل الولود أو العاملة فى بيتها وخارج بيتها . لهذا فان الطبقات العليا فى المجتمع قد اصطنعت لنفسها مقاييس للجمال غير ما ألفته الطبقات الاخرى ، وعندها ان المرأة لا تكون جميلة الا اذا كانت دقيقة الخصر دقيقة اليدين دقيقة القدمين هشة العظام ناعمة البشرة بالطلاء والمساحيق ، ولا تصلح لعمل شىء ويخدشها كل شىء فيه أبسط غلظة . بل ان هذه الدقة والرقة ينبغى ان تمتد كذلك من جسمها الى عواطفها واحساساتها ، فهى تتأفف لاقل ما يؤذى ولا بأس ان يغمى عليها لاتفه الاسباب .

هذه كانت بعض مقاييس الجمال والثراء فى القرن التاسع عشر .

ولكن ماكس فيبلين يرى ان مقاييس الذوق والجمال قد اصابها تحول واضح من القرن الماضى الى القرن العشرين ، وهو يعزو هذا التحول الى ما أصاب الانتاج من تحول .

فهو يرى ان غزارة الأنتاج فى القرن العشرين جعلت كل هـذه السلع التى كانت فى وقت من الاوقات وقفا على الطبقة العليا فى متناول أبناء الطبقة المتوسـطة بل وفى متناول أبناء الطبقة الدنيا . لم يعد اقتناء السيـارة أو الذهاب الى الـكوافير أو معارض الازياء أوصالونات الفن أو النوادى أو سباق الخيل والـكلاب أو استخدام الطلاء ووسائل التجميل الخ .. وقفا على أصحاب المال الوفير ، بل غدت كل هذه الاشياء فى متنـاول بسطاء الناس الذين ذهبوا يتشبهون بالسراة فى مظهرهم وفى عاداتهم ، حتى فقدت هـذه الانواع من الاسـتهلاك ما كان فيها من مظاهر التفرد والامتياز ، وبالتالى فقـدت قيمتها فى نظر أصحابها الاصليين ، لان القصد منها لم يكن ابتفاء ما فيها من قيمة حقيقية بل ابتغاء التظـاهر وعرض القدرة على الاستهلاك .

لهذا نجد ان المثـل الاعلى للأنوثة قد تغير فى القرن العشرين ، ولم تعد « سيدة القصور » بأناملها الدقيقة وخصرها الدقيق وعواطفها الرقيقة هى النموذج الذى يرسم ويحتذى ، بل أصبحت « المرأة » الممتلئة أنوثة ، البسيطة الثياب الطبيعيـة فى كل شيء هى النموذج الجديد بين طبقة السراة ، وما من شك فى ان بقيـة طبقات المجتمع تحتذى هذا النموذج الجديد .

هذه أمثلة قليلة من الامثلة الـكثيرة التى يوضح بها فيبلين نظريته فى قانون « الاستهلاك الظاهر » وقانون « الفراغ الظاهر » ، وهما القانونان اللذان يذهب هـذا المفكر الاقتصادى أو الاقتصادى المفكر الى تفسير معالم المدنية بهما ...

وهو يخرج من ذلك بقوله ان هذه المدنية القائمة على

الاسراف والاتلاف تحدد قيمة الاشياء لا بمقدار نفعها للناس ولكن بمقدار عدم نفعها لهم . وعنده ان كل هذا الاسراف والاتلاف سوف يختفي بظهور التنظيم الاجتماعي والتخطيط الاشتراكي الذي سيجعل المنفعة مقياس القيمة ويضع حدا للتباهي بالاستهلاك .

وما من شك في ان بعض نظرات ماكس فيبلين صادقة تصف بعض علل المجتمع على حقيقتها ، ولكن الخطأ كل الخطأ ان نذهب معه الى انها تفسر كل شيء أو تحل كل اشكال .

وقد جرت عادة المفكرين والعلماء والفلاسفة من اصحاب النظريات الخطيرة والمذاهب ان يؤمن كل منهم بأن نظريته تشخص كل ما في الانسانية وفي المجتمع من علل وأمراض ، وان مذهبه يعالج كل ما تشكو منه البشرية من أوجاع وأوصاب . وهما في الحالين على خطأ عظيم ، فالتعميم في التشخيص والاطلاق في العلاج سذاجة في الفكر والعمل تؤذي اكثر مما تفيد . لان الانسانية سواء في وجودها الفردي او في وجودها الاجتماعي أعقد من ان تفسرها نظرية واحدة أو أن تجد علاج مشاكلها الكثيرة في مذهب واحد .

انظر مثلا الى ما نسميه المدنية ، فهي ليست مجرد خصور دقيقة واحذية لامعة وقبعات عالية ومنتديات وصالونات ومعارض أزياء وحلبات سباق ، وانما هي ايضا علوم وفنون وآداب وفكر وفلسفة وسلوك طيب جميل وبر ورحمة وأشياء أخرى كثيرة قد لا يكون لها نفع مادي مباشر أو غير مباشر ، ونحن مع ذلك نتمسك بها ونؤمن بأن لها نفعا روحيا وبأنها أجزاء لا تتجزأ من التراث الانساني الحي الذي ينبغي ان نحافظ عليه محافظتنا على الحياة .

ونحن نعلم ان العلوم والفنون والآداب والقوانين فى وجوهها المجردة العليا انما هى ثمار من ثمار «الفراغ» الذى يحدثنا عنه ماكس فيبلين ، وهكذا الحال فى كل فكر عال وشعور عال . فلــولا الفراغ لمــا انصرفت الانسانية من مواجهة حاجاتها المباشرة وضرورات حياتها المادية بالعمل والفكر اليومى الى تأمل حاجاتها فى الاجل الطويل ومقومات رقيها جيلا بعد جيل . نحن نعلم ان الفقيه لا يشرع والفنــان لا ينحت أو يرسم أو يبتكر الالحان والعالم لا يتفرغ لمعادلاته والشاعر لا ينظم الشعر ليثبت للناس أو ليعلن فيهم انه متبطل ينعم بالفراغ ، ولـكنه يفعل ذلك بفضل ما ينعم به من فراغ من ناحية وبفضل ما به وبالانســانية عامة من نازع يدفعها الى الرقى المادى والروحى .

ونحن نعلم ايضا كما يقول الفيلسوف المعاصر جود : اننا كثيرا ما نعول الناس لا لنعرض على الغير قدرتنا على الاستهلاك بكثرة عدد من نعول وبقلة نفعهم فى الحياة ، ولـكن نعول الناس رحمة بهم ومودة ووفاء منا للمعانى الانسانية الجميلة التى لو خلت منها الدنيا لغدت مجرد غابة تسعى فيها الوحوش الضارية . نحن مثــلا نعول الآباء والامهات حين يبلغون سن الشيخوخة أو نعلم انه ينبغى علينا أن نعولهم ، ولقد نعول بعض العجزة أو الفقراء أو الايتام أو ندعو المجتمع ان يعولهم بغض النظر عن نفعهم فى الحياة . ولو كان رائدنا هو طلب المنفعــة لتشبهنا بتلك القبيلة الهمجية التى حدثنا عنها هيرودوت فقال ان بنيها يأكلون فيها آباءهم اذا مابلغوا سن الستين لئلا يصبحوا عالة عليها .

فالامر اذن ان ما ذكره ماكس فيبلين صحيح ولكنه

صحيح فى حدود . فقانون « الفراغ الظاهر » وقانون « الاستهلاك الظاهر » يفسران حقـــا مظاهر الحيـــاة الاجتماعية وبعض وجوه النفس الانسانية ولـكنهما لا يفسران كل شيء فيها ، بل لا يفسران الا أقلها . واذا كانت شهوة التظاهر تؤثر فى السلوك الانسانى كل هــذا التأثير العميق الا ان السلوك الانسانى شيء معقد تعقيد النفس الانسانية نفســها ، تلك النفس التى اجتمعت فيها النقائض ، تراها من زاوية فتحسب انها قطعة من الجحيم ، وتراها من زاوية أخرى فتحسب انها روضة من رياض الفردوس .

دنيس دى روجمون

« خرج ديوجين ومصباحه فى يده باحثا عن الانسان الحق . وليس عجيبا عندى انه لم يجده فخير طريق تلاقى فيه الانسان الحق هو أن تكونه بنفسك . »

« روجمون »

قل فى مصر من يسمع بهذا المفكر الكبير السويسرى الاصل الذى احتل مكانة ممتازة فى الادب الفرنسى منذ الحرب العالمية الثانية واحتل مكانة ممتـازة فى الفكر العالمى منذ سنوات ، حتى لقد ترجمت أعماله الى ثمانى لغات ، وأهم هذه الاعمال كتاب « نصيب الشيطان » الذى أحدث ظهوره فى أواخر الحرب العالمية ضجة كبرى بين أوساط المثقفين فى العالم كله ، ثم كتاب « الحب فى العالم الغربى » .

ورغم أن دنيس دى روجمون لم يحظ فى مصر أو بين قراء العربية بجمهور يذكر فقد كان لـكتاباته صـدى ملموس فى بعض الحركات الادبية المصرية التى لم يتجاوز مجالها القاهرة والاسكندرية فأصدرت جماعة من المثقفين المصريين والاجانب المحليين ممن يكتبون بالفرنسيـة

سلسلة من المؤلفات الادبية بعد الحرب مباشرة تحت عنوان « نصيب الرمال » أو « لا بار دى سابل » مقفاة على كتاب روجمون المشهور « لا بار دى ديابل » وهو « نصيب الشيطان » .

اما « نصيب الشيطان » هذا الذى يحدثنا عنه روجمون فهو نصيب الشيطان فى حياة الانسان . وقياسا على هذا نستطيع ان نفهم ان ما قصدت اليه الجماعة المصرية هو نصيب الرمال وهى رمز العقم والخراب والسعى الذى لا طائل وراءه من حياة الانسان ، وهو غير ما قصد اليه روجمون ، لان روجمون ، لم يبلغ هذا المبلغ من اليأس الذى بلغته جماعة المثقفين المصريين الملتفين حول شعار « نصيب الرمال » ، واكثرهم من فلول الحركة السيريالية المصرية ، تلك الحركة التى ازدهرت ابان الحرب العالمية الثانية ثم ذبلت حين وضعت الحرب اوزارها .

وجوهر المشكلة عند دنيس دى روجمون ان اس الفساد فى حضارتنا الحديثة هو اننا حورنا الدين فاحتفظنا بايماننا بالله ورفضنا الاعتراف بوجود الشيطان ، وقد فعلنا ذلك لنتخلص من مسئولية مكافحة الشيطان داخل نفوسنا وخارج نفوسنا ، فنحن نفسر ما نأتيه من شر وما نقارفه من خطايا بل ونفسر ما فى الكون كله من فساد تفسيرا عقليا أو تفسيرا علميا .

فالعالم الاخلاقى يقول لك ان الشر شىء نسبى ، فما يعد شرا فى مكان ما أو زمان ما أو ظرف ما ليس بشر فى مكان أو زمان أو ظرف آخر .

والعالم النفسى يقول لك ان الخطيئة حالة جنون أو

عته أو اضطراب فى الغدة النكفية أو من مضاعفات المركبات الكثيرة التى اكتشفها علم النفس فى اللاوعى كمركب اوديب ومركب اليكترا ومركب النقص الخ ... وبالتالى فنحن لسنا أشرارا نستحق العقاب بل مرضى نحتاج الى العلاج .

والعالم الاجتماعى يقول لك ان الجريمة وليدة البيئة المادية القاسية والعوامل الاجتماعية الفاسدة التى تدفع الفرد دفعا الى السقوط .

وبالتالى فنحن لسنا أشرارا : اما لان الشر لا وجود له واما لاننا مسيرون الى الشر بقوة الجبر المادى أو الجبر النفسى أو الجبر الاجتماعى ، بل وربما الجبر الالهى عندبعض الناس كما فى بعض المذاهب البروتستانتية

ومن مظاهر رفضنا الاعتراف بوجود الشيطان ان بعضنا يتمسك بتلك الصورة المخيفة التى رسمها الرهبان فى الماضى للشيطان لارهاب الناس من الرذيلة وهى صورة مضحكة وسخيفة فى الوقت نفسه ، فما زال من الاوربيين المؤمنين من يتصور ان الشيطان كان ممسوخا ذا قرنين احمرين وذنب طويل .

وقد ورد فى كتاب لجان فير عن احوال الشياطين ظهر عام ١٥٦٨ ان للشيطان دولة فيها ٧٢ أميرا و٧ر٤٠٥ر٩٢٦ شيطانا مقسمين الى ١١١١ فيلقا كل فيلق منها يشتمل على ٦٦٦٦ شيطانا أو كلبا من كلاب جهنم ، « ما عدا السهو والخطأ » . واصرار بعض الناس على هذه الصورة يدل على رغبتهم الخفية فى عدم الاعتراف بوجود الشيطان ، فهى من السخافة بحيث تجعل ضمائرهم فى حل من قبولها .

ومن الناس من يحكم العقل او المنهج العلمى فيقول

ان الشيطان لا وجود له ، وانما الموجود هو الشر ، اما الشيطان فهو فكرة رمزية . ولكن روجمون يذكر ان الكتب المقدسة تحدثنا عن الشيطان اكثر مما تحدثنا عن الشر ، وعنده ان كون الشيطان فكرة رمزية هو دليل وجوده الحقيقى لان الحقائق العليا لا يعبر عنها الا الرمز .

وأهم صفة من صفات الشيطان هى الاستخفاء . والله يتجلى فى الخليقة ولكن الشيطان يستخفى فيها . وقد قال بودلير فى قصيدة من « شعره المنثور » : « ان امكر حيل الشيطان هى انه يقنعنا بعدم وجوده » . وهذا أصدق قول وجده روجمون فى تصوير الشيطان . وهذه أول الاعيبه فى الاستخفاء ، فان اقتنعنا بعدم وجوده كففنا عن البحث عنه لمنازلته .

وتختلف أساليب الشيطان فى الاستخفاء ، مثلا :

١ ـ نحن نبحث عنه حيثما وجدت الخطيئة أو الرذيلة ولا يخطر لنا قط ان نبحث عنه فى فضائلنا . واستخفاء الشيطان فى الرذيلة غباوة منه وما هو بغبى بل هو ماكر وذكى ، فهو اذن يستخفى حيث لا يعقل ان نبحث عنه ، أى يستخفى فى الفضيلة . فما الرذيلة عند روجمون الا فضيلة منحرفة . واذا كان الله لم يخلق الرذيلة بل لم يخلق الا الفضيلة ، استنتج العقل ان الشيطان هو خالق الرذيلة . وهذا غير صحيح ، « فنحن نعرف ان الشيطان لا يستطيع ان يخلق شيئا ولا حتى مجال نشاطه ، وانما كل ما فى استطاعته ان يفعله هو أن يلوى وأن يمسخ ما هو موجود وما أحسن الله صنعه . وان رذائلنا ذاتها ليست فى حقيقتها من خلق الشيطان بل هى مجرد فضائل منحرفة » .

٢ ـ يستخفى الشيطان فى كل نظرية تنفى عن الانسان مسئولية شروره وخطاياه سواء أكانت جبرا نفسيا أم ماديا أم اجتماعيا أم دينيا يجرد الانســان من حرية الاختيار وبالتالى يرفع عنه تبعة ما يرتكبه من آثام .

٣ ـ يستخفى الشيطان فى كل ما يفسد المقاييس او يزيل القيم . وفى هذا يقول روجمون : « ان الانســان هو المخلوق الوحيد فى الخليقة الذى يستطيع ان يقول ما ليس مطابقا للواقع ، وان يكذب بارادته المبنية على التفكير . وهذا الـكذب أو التدليس أو الغش أو عدم الاخلاص او الافساد أو طمس الحقائق ، سمه ما شئت من الاسماء ، مظهر وجود الشيطان ، لان الشيطان منبع الـكذب . وهناك طريقتان للـكذب : احداهما ، وهى أخفهما ، ان تزن احدى عشرة اوقية وتقول لزبونك انك وزنت رطلا . هى أخفهما لان كذبك منسوب الى مقياس ثابت لا يتغير ، ولو وزن الزبون ما اخذه لعرف انك سرقته . وثانيتهما ، ان تتلاعب فى الميزان نفســه اى تطمس المقياس وتخرجه عن حقيقته ، وهذا ما يجعل التحقق محالا . ثم تنسى مع الايام انك أفسدت الميزان. ومهما اصبحت امينا بعد ذلك فى استخدام هذا الميزان المختل فلن يصدق لك فكر أو فعل أو قول . هذا هو الـكذب الصرف . وهو شيطانى فى جوهره .

فالشيطان اذن يستخفى فى الفلسفة القائلة بأنه « لا شىء خير أو شرير فى ذاته » وما شاكل ذلك من النظريات النسبية التى تلغى « القوانين » و«المقاييس» و«القيم» او تخل بها وتفسدها .

فكيف نعرف الجريمة حيث لا يوجـد القانون ... وكيف نميز الخطأ حيث يختل ميزان الصواب .. وكيف

ندرك الخطيئة او الشر حيث المقاييس والقيم معدومة أو مطموسة .

٤ ـ وكما يستخفى الشيطان فى « النسبى » نراه كذلك يستخفى فى « المطلق » . يستخفى مثلا فى فكرة « الحق المطلق » التى تجعل الناس ينكلون بمعارضيهم ويبطشون بهم افظع البطش ويحرقون أحرار الفكر على الخازوق ، ويزجون بهم فى غياهب السجون . وهو يستخفى مثلا فى فكرة « الخير المطلق » أو الفضيلة المطلقة التى تجعل الانسان يدمر الانسان باسم العدالة دون رحمة وبلا غفران . حيثما وجدت « طاهرا » يطالب بتدمير « خاطىء » بلا رحمة ولا غفران ، فاعلم أن الشيطان قد تقمص هذا « الطاهر » . والاسراف فى الفضيلة هو الوجه الآخر للاسراف فى الرذيلة ، وكما قال باسكال : « من أراد أن يرتقى الى ملاك انحط الى حيوان » .

وفى ذلك قال مونتين : « كلمة بينى وبينك : انا اجد توافقا تاما بين الفضيلة التى تعلو على مستوى السماء والرذيلة التى تنحط عن مستوى الارض » .

والخلاصة : كن انسانا ...

٥ ـ يستخفى الشيطان وراء القناع الذى نلبسه لا لنخفى حقيقتنا عن الآخرين فحسب ، ولكن لنخفى حقيقتنا عن انفسنا كذلك . نحن ننسب الى انفسنا الفضل فى كل خير أو نجاح نحققه ولو كنا مجرد أدوات فى تحقيق هذا الخير أو هذا النجاح ، فان أصابنا شر أو خيبة بادرنا الى القاء التبعة على الغير ، أو على القدر ، أو على الظروف ، ولو كانت جذور هذا الشر ضاربة فينا أو أسباب هذه الخيبة نابعة منا ..

وفى هذا يقول روجمون : « وهكذا فكل منا بوصفنا وطنيين ، يحس بالزهو الشخصي اذا انتصر وطنه ، فان احاقت به الهزيمة خص القادة وحدهم بالمسئولية عن الهزيمة »

أتعرف كيف يستخفى الشيطان وراء هذا القناع ؟ ان كلا منا يجزع من الاعتراف بأنه مسئول عن حياته . والشيطان يستغل فينا هذا الجزع ، فيجعلنا نقول دائما : ليس الخطأ خطئى ، انما المخطىء هو الشخص الآخر

وقد جعل دنيس دى روجمون من بحثه فى أساليب الشيطان مقدمة لبحث آخر وهو فى كيفيـــة استخفاء الشيطان فى حياتنا ومعتقداتنا السياسـية والاجتماعية والفلسفية والنفسية ، فوجـــد ان الشيطان لا يكتفى بافساد البشر فرادى ، فى حيـــاتهم الخاصة ، ولـكنه يسعى لافساد المجتمع البشرى كله من طريق استتاره فى معتقدات الناس ونظمهم وبقية وجوه حياتهم العامة

ويرى دنيس دى روجمون ان الشيطان يستخفى فى كل ايديولوجيا تسلب الناس ارادتهم الحرة أو تبشر بأن الانسان مسير بقوة جبر اكبر من قوته ، أيا كان نوع هذا الجبر ، وبالتالى فهو غير مسئول عن اعماله . وعند روجمون ان النـــازية هى أوضح ثمرة لهذا النوع من التفكير والشعور

فالنازية قد لاقت صدى فى نفوس الناس لا فى المانيا وحدها ولـكن فى كثير من بلاد العالم لانها تعفى الناس من المسئولية الاخلاقية ، ومن هنا تجردهم من الشعور بالخطيئة . وقد ادرك هتلر رغبة الناس الخفية الدفينة فى اللاوعى فى ان يتحللوا من المسئولية الاخـــلاقية ،

فاستغل لا وعى المجموع أمهر استغلال

اليس هو القائل عام ١٩٢٤ فى كتابه « كفاحى » انه لا ينبغى مخاطبة الجماهير بالحجة وبمنطق العقل : فمنذ بدأت الدنيا نجد « ان القوى التى احدثت اكبر تغيرات فى العالم لم تكن منبثقة من المعرفة العلمية ولكن من التعصب المسيطر على نفوس الجماهير ومن الهستيريا الحقيقية التى تدفعهم الى الامام » ؟ وأليس هو القائل أيضا فى الكتاب نفسه : « ان جميع حركات التاريخ الكبرى ـ انفجارات بركانية فىالعواطف وفىالاحاسيس الروحية أشعلتها ربة البؤس القاسية أو مشعل الكلمة ألقى الى الجماهير . ولا يغير أقدار شعب من الشعوب الا عاصفة من العاطفة المضطرمة » ؟

كان هتلر ينادى بأنه مبعوث العناية الالهيـة لانقاذ الشعب الالمانى ، وان الشعب الالمانى سائر الى مصيره العظيم بقدر « خفى » محتوم ليقود الانسانية كلها الى « النظام الجديد » أو « العهد الجديد » فسحر شعبه وسحر الكثيرين بفكرة « الرسالة » وأذاب ارادة الفرد فى ارادة الجماعة وأذاب ارادة الجماعة ذاتها فى ارادة التاريخ ، فجعل الجماهير تتدفق بقوة التيار فى مجرى واحد عرم ، مسلوبة الارادة ، نحو محيط هائل مجهول. فالمنبع خفى والمصب خفى والتيار يجرف كل من يقف ليسأل : أيان ولماذا ؟. وبهذا الذوبان فى الكل الكبير أصبح الفرد مجردا من المسئولية الاخلاقية فى مسعاه ، بل بهذا الذوبان فى الكل الاكبر أصبحت الجماعة ذاتها مجردة من المسئولية الاخلاقية فى مسعاها

فالمسئولية قائمة على الاختيار ، والاختيار قائم على العقل ، والعقل ليس أداة صالحة للكفاح فى فلسفة واضع كتاب « كفاحى »

كذلك اخلى هتلر نفسه وشعبه من كل مسئولية اخلاقية حين دأب على اظهار نفسه وشعبه فى مظهر الضحية البريئة التى تحاول ان تحطم اغلال فرساى ورفع الحصار المضروب على المانيا . فالخطأ دائما ليس خطأ المانيا ولكن خطأ الدول الاخرى

ويرى روجمون ان هتلر لم يخلق هذه الافكار والاحساسات فى الشعب الالمانى ولكنه اذكاها واستغلها فحسب ، فهذه الافكار والاحساسات كانت دفينة فى العقل الالمانى وهى ليست قاصرة على العقل الالمانى فهى دفينة فى عقل كل فرد وكل أمة تنتظر من يوقظها لتنطلق؛ وأساسها رغبة الانسان فى التخلص من شعوره بالمسئولية عن اخطائه وخطاياه ، فهو ينسب كل خطأ وكل خطيئة الى جبر أقوى منه وأعلى ويسمى هذا الجبر أحيانا « اللاوعى » واحيانا « القدر » واحيانا « التاريخ » ، وهكذا دواليك . فان كانت هناك مسئولية فالشخص الآخر دائما هو المسئول

وعند روجمون ان منشأ هذه الفلسفة هو الاعتقاد الاصيل بأن « الانسان » شرير بالطبع ، وان الفطرة الانسانية فطرة شريرة بالارومة لا بالسقوط . وهذه العقيدة قد تبلورت فى الفكر الالمانى اكثر مما تبلورت فى سواه . فمارتن لوثر حين وقف أمام المرآة فانتابه هياج عنيف وقذف بالمحبرة فى وجهه انما فعل ذلك لانه تصور انه يرى الشيطان فى المرآة . وحيث يقال ان الانسان شرير بالطبع ترتفع المسئولية عن الشر ، ولا يكون احد من البشر فى نهاية الامر مسئولا عما نراه حولنا من جرائم وحروب وفساد ضارب فى جميع وجوه الحياة الانسانية بل ان الشر نفسه يصبح مستحيل التعريف تختلف مقاييسه بحسب أهواء الامم والافراد

وكما يرى دنيس دى روجمون أن الشيطان يستخفى فى الفلسفة النازية فهو يرى أيضا انه يستخفى فى الفلسفة الديمقراطية

وهناك جملة ادلة على ذلك . فكما ان هتلر كان يعزو دائما كل ما عانته المانيا من بؤس الى عامل خارج عن الالمان ، فهو آنا معاهدة فرساى وانا البلشفيك وآنا اليهود ، ولا يفكر اطلاقا فى ان الشعب الالمانى نفسه قد يكون شريكا فى المسئولية عن هذا البؤس ، نجد ان الديمقراطيات قد أخطأت نفس هذا الخطأ فاعفت نفسها من كل مسئولية عما فى العالم من ظلم واضطراب وحملت المانيا النازية كل تبعة ، بل ان الملايين من الناس فى العالم الديمقراطى كانت تعتقد ان الشيطان ذاته قد تجسد فى شخص هتلر . وحقيقة الحال ان العالم الديمقراطى مسئول أيضا عن ظهور النازية بتجبره مع المانيا فى معاهدة فرساى وبتغذيته النازية فى المانيا لتحول دون انتشار الشيوعية ، ومسئول أيضا عن تحطيم عصبة الامم لانه اتخذ منها اداة لتقنين الجور الدولى والاجرام الدولى وكلما نوجزه فنلقبه بالاستعمار وعدم احساس الدول الديمقراطية باشتراكها فى المسئولية عن الاخطاء والخطايا الدولية مظهر من مظاهر كمون الشيطان فى معتقداتها وسلوكها

ولكن المعتقدات الديمقراطية تنبع من افتراضات ومسلمات على نقيض الافتراضات والمسلمات النازية . فالفكرة الديمقراطية تنبت من الايمان بأن الانسان خير بالطبع او ان الفطرة الانسانية سليمة بالارومة ، وسقوط الانسان ناشىء من تعرضه لعوامل خارج نفسه ، أى أن الشر أو الشيطان ليس قابعا فى النفس الانسانية بل

مداخل لها من الخارج ، بل ان اعتقادنا فى فطرة الانسان الخيرة هو الاساس فى ايماننا بوجــود الله ورفضنــا الاعتراف بوجود الشيطان . وهذا الايمان قد يسر على الدول الديمقراطية ان تهنىء نفســها بأنها دول خيرة مفطورة على الخير ، وبأن الشيطانية التى تسود المجتمع الانسانى كلها آتية من المانيا النازية

ويرى روجمون ان هــذا التفكير سفيه ، ولا يقل سفاهة عن نقيضه وهو الاعتقاد بأن الطبيعة الانسانية شريرة بالفطرة . وعنده ان مصــدر هاتين الفلسفتين واحد : وهو رغبة الانسان فى « اسقاط » نفسه على العالم الخارجى كما يقول علماء النفس

فالقائل بأن الانسان خير بالفطرة انما يريد ان يطمئن نفسه على ان نفسه ملائكية فيزعم انه يعيش فى عالم من الملائكة . ولما كان المؤمن بسلامة الفطرة الانسانية لا يجد دليلا حقيقيا واحدا على انه انسان خير حقا نراه ينسب هذا الخير لجميع الناس او للانسانية حتى يضفى هذه الصفة على نفسه باعتباره أحد أفراد الانسانية

كذلك القائل بأن الانسان شرير بالفطرة يحس احساسا عميقا بما جبلت عليه نفسه من الشر ، ويأبى ان ينفرد وحده من بين الناس بهذه الجبلة الشريرة فيشــرك الانسانية كلها فى هذه الفطرة الشريرة

وحقيقة الحال هى ما تقول به الاديان من ان الخير والشر كامنان معا فى النفس الانسانية ، وان الصراع بينهما لا يجرى فى الخارج ولكن فى قلب الانسان نفسه .

وروجمون يبنى فلسفته كلها على هذه الفكرة الدينيــة ، ويرى ان كل ما عدا ذلك من فلسفات وافكار ناجم من رغبة الانسان فى التخلص من مسئولياته الاخلاقية ، اما

بتبرير الشر واشاعة الفوضى فى مقاييسه استنادا الى ان جميع البشر اشرار بالطبع ، واما بتجسيده خارج النفس ثانه عدو خارجى استنادا الى ان الفطرة الانسانية « اى فطرة المتكلم » فطرة خيرة

ومن قبيل الافكار الشيطانية التى تزين للناس فى العالم الديمقراطى عدم البحث عن الشيطان فى قلوبهم والبحث عنه فى قلوب غيرهم ، تلك الافكار التى تزين لبعض الناس عدم مقاومة الشيطان اطلاقا . ومن ذلك ، الفكرة القائلة « اننا جميعا مذنبون » . فقد أصدرت « جماعة اكسفورد » بيانا بهذا العنوان وهذا المضمون عام ١٩٣٩ وكانت غايتها توزيع المسئولية عن اضطراب العالم بالتساوى بين الجميع ، وبذلك جردت الديمقراطية تماما من حقها الادبى والاخلاقى فى مقاومة النازية . وهذا الرأى عند روجمون نابع من المبدأ الديمقراطى القائل بأن « جميع الناس متساوون » . اما هو فيرى ان الناس والمذاهب طبقات فى الخير والشر ، ومن هذا يحكم بأن الناس ليسوا متساوين فى المسئولية

والخلاصة ؟ الخلاصة ، ان خلاص الانسانية عند دنيس دى روجمون لن يكون الا بقبول جميع افرادها مبدأ المسئولية ، وكلما ازدادت المسئولية فى حياة الانسان كان فى ذلك هزيمة للشيطان

لقد دمرت الديمقراطية هتلر والنازية ، فهل دمرت الشيطان ؟ كلا . لان الشيطان كامن فيها كمونه فى هتلر والنازية . والديمقراطية بعد ان دمرت هذا العدو الخارجى المحب للحرب تبحث عن عدو جديد تنازله وتدمره بعد ان تحمله المسئولية عن كل ما فى العالم من شرور . فاذا لم تجد هذا العدو الخارجى اسقط فى

يذها لأنها لم تتأهب قط للحياة بغير اعداء

« ان النوع الوحيد من انواع البطولة الذى امكن للغرب ان يتصوره ، منذ ان كف الغرب عن احراق المسيحيين وغدا المسيحيون يتسامحون مع الزنادقة ، هو الموت بالرصاص فى سبيل الوطن او الحرب . فاذا امتنعت الحروب فمن ذا الذى يصنع الابطال ؟ ومن ذا الذى سيوقظ روح التضحية ؟ ولمن تكون وفى سبيل ماذا تكون التضحية ؟ ان الانسانية لم تكن فى يوم من الايام اقل استعدادا للسلام مما هى اليوم . فهى لم تكن فى يوم من الايام أقل احتراما للفضائل التى تستطيع الروح وحدها ان تبلغ بها مبلغ الحماسة والتشنج . وكيف يعيش الانسان بغير حماسة او تشنج » ؟

فاذا ساد السلام ولم تجد الانسانية ذلك الشيطان الخارجى الذى تحطمه أقام ساسة العالم معبودا جديدا اسمه « التقدم » او « الرخاء » . أو قل خلقوا عدوا خارجيا جديدا هو « التخلف » أو « الفقر » ، واتفقوا على ان الشيطان قد تقمصه

ولكن الجماهير لن تتحمس أو تتشنج لقراءة احصاءات الاقتصاديين ، وللانسان انسانية لا تقنع بحضارة الفريجيدير وبالاخاء المادى ، لان فى الانسان روحا فوق ما فيه من مادة

لقد غدا الانسان صفرا بالحروب وغدا صفرا بالانتاج الضخم وهو اداة الرخاء . لابد اذن من العمل على تقوية الشخصية الانسانية التى قضت عليها الحرب ويوشك ان يقضى عليها الرخاء . ولابد اذن من تقوية الروابط بين البشر ، ولابد اذن من تنمية احساس الانسان بالمسئولية عن نفسه وعن اخوانه فى البشرية :

« فبغير احساس كل منا بالمسئولية نحو الغير لا سبيل الى اقرار الحريات العامة : والدكتاتورية تصبح شيئا لا مفر منه فى كل مجتمع شعار ابنائه (كل لنفسه والله للجميع) وهو شعار من لايؤمنون بالله »

وأسلم طريقين لتقوية الشخصية الانسانية وتنمية المسئولية الانسانية هما تطبيق اللامركزية فى جميع وجوه المجتمع الانسانى من ناحية ، وفهم الانسان على حقيقته وهو انه كائن من روح وجسد ، ومن فكر ومادة ، ومن لا وعى ووعى ، ولا مجال للاختيار او المفاضلة بين قطبى الوجود ، فجوهر الانسان منهما معا

هارولد لاسكي

- ١ -

« الدولة نظريا وعمليا » كتاب من أهم كتب هارولد لاسكي ، استاذ العلوم السياسية السابق بجامعة لندن وهو فى الوقت نفسه من أهم الكتب التى ظهرت فى علم السياسة فى القرن العشرين . ورغم ان هذا الكتاب ظهر لاول مرة عام ١٩٣٥ ، فهو لايزال الى اليوم مرجعا هاما ، لكل من يطلب العلم بالنظم ومذاهب الحكم والسياسة والقانون

وحجر الزاوية فى هذا الكتاب ، هو نظرية لاسكى فى الدولة ومقوماتها التى من اخص خصائصها سلطة الاجبار ، اى قوة اجبار رعاياها على طاعتها ، بل قل ان هدف هذا الكتاب ، هو اثبات ان المبرر الاوحد لسلطة الاجبار هذه التى تتمتع بها الدولة ، او تمارسها على كل حال ، سواء تمتعت بها ام لم تتمتع ، «والسند الاوحد الذى يمكن ان يؤهلها لطاعة من تمارس فيهم سلطتها ، هو مدى اجتهادها فى الوفاء بأقصى حاجات رعاياها » . وليست العبرة فى ذلك بما تقول الدولة

انها ستفعله ، ولكن العبرة فيه بما تفعله الدولة فعلا. وكل ما نتعلمه من نظريات فلسفية وقانونية عن الدولة ومقوماتها ، هو عند لاسكى مجرد مقياس نقيس به الاشياء ، وهو لا يغنى عن التطبيق العملى فتيلا

والعظة التى نستخلصها من دراسة التاريخ ، هى ان نظام الدولة فى تغير مستمر . وهذا يدلنا على انه ليست للدولة نظرية واحدة ثابتة ترسم مقوماتها المطلقة الثابتة ، ان عرفناها ودرسناها وطبقناها ، امكننا ان نقيم نهائيا الدولة المثلى التى لا سبيل الى تغييرها ولا ضرورة لتغييرها ، وبهذا نكتب آخر سطر فى تاريخ البشرية الذى ما هو الا سلسلة لا تنقطع من النظم المتغيرة والمذاهب المتجددة . فمثل هذه الدولة المثلى لا وجود لها الا فى أحلام الفلاسفة وأوراق المشرعين

وقد كان ماكيافيلى من اسبق من دونوا هذه الملاحظة، وجعلوا منها قانونا أو ما يشبه القانون . وهى ان التاريخ يسير فى حلقات او دورات ، يتغير فيها وجه الدولة لا محالة ويخرج منه وجه جديد ، وتتصدع فيه وحدة الدولة لتحل محلها وحدة جديدة

ويفسر لاسكى هذا التحول الدائم فى شكل الدولة بظاهرة انسانية يبلورها فى قانون او ما يشبه القانون ، وهذه الظاهرة هى « اتجاه النازع الانسانى الدائم نحو اقرار مزيد من المساواة فى المجتمع » ، وهو اتجاه لاحظه علماء السياسة منذ أقدم العصور ، لاحظه ارسطو فى الكتاب الثالث من مؤلفه « السياسة » (١/٥/٨) ، واتفق عليه بعض المفكرين من مختلف المدارس مثل روسو وتوكفيل

فالرأى عند لاسكى اذن ان « كل تمايز داخل الدولة

يحتاج الى تبرير فى رأى الناس . فحرمان الناس من بعض الامتيازات يؤدى دائما الى المطالبة ، اما بالغاء هذه الامتيازات ، او بتعميمها عليهم . والناس يحتملون عدم المساواة ما داموا مقتنعين بأن المجتمع يعطيهم خير ما يمكن الحصول عليه من نفاذ عدم المساواة . ولكن ما أن يبدأوا يعتقدون ان هناك فرقا واضحا بين ما لديهم وما هم أهل لتوقعه ، حتى ينصرف انتباههم على الفور ، الى وجود وجه من وجوه عدم المساواة ، تقوم الدولة بحمايته بفضل ما لديها من سلطات السيادة . وعلى وجه العموم كان هذا تاريخ التسامح الدينى ، وكان تاريخ حق الانتخاب ، وكان تاريخ تدخل الدولة فى العمليات الاقتصادية . بل ان من الظواهر ذات المغزى الخاص ، انه كلما اتسعت قاعدة التصويت ، ازداد تدخل الدولة

ولا نغالى اذا قلنا ان منح الطبقة العاملة حق التصويت قد حول الدولة الى تنظيم قادر على ارضاء مطالب مواطنيه ، بمقدار ما تستطيع الدولة ان تحد من الفوارق الكبيرة التى يخلقها مجتمع اقتصادى خال من المساواة فما من عمل من اعمال الانعاش الاجتماعى الذى تقوم به الدولة اليوم ، الا وكان سبيلا الى توفير بعض وجوه اليسر على الاقل للفقراء ، مما يوفره الاغنياء لانفسهم »

هذا اذن حجر الزاوية فى نظرية لاسكى عن الدولة ومقوماتها ووحدتها اى تماسكها

الدولة عنده تنظيم أو نظام اجتماعى يملك قانونا اعلى سلطة للاجبار على مواطنيه ، وتمتد ولايته تقليديا داخل حدود اقليمية واضحة ثابتة

فالدولة لا تكون دولة ، الا اذا كانت تملك هذه القوة

القاهرة العليا التى نسميها الاجبار أو الالزام ، فبغير هذه السلطة تنتفى طاعتها اللازمة لصيانة وحدتها وحفظ تماسكها ، وهى لا تباشر هذه السلطة على كل مواطن من مواطنيها فحسب ، ولكن على كل جماعة داخل حدودها ، مهما كانت وظيفتها أو هدفها أوحجمها أو طريقة تكوينها ، سواء أكانت هيئة سياسية أو عسكرية او ادارية او اقتصادية أو ثقافية أو دينية الخ . والدولة بما لها من قوة قاهرة عليا ، هى التى تلزم كل من فيها من أفراد وهيئات ، بالارتباط معا فى كل واحد ، وتعصم هذا المجتمع من التصدع والتشقق

وهذه القوة القاهرة العليا هى ما يسمى بسلطة « السيادة »

ولكن هذه الدولة التى تبسط سيادتها على جميع مواطنيها ، فرادى ومجتمعين ، وعلى اقليمها ، جزءا وكلا ، لا تستطيع ان تبسط هذه السيادة الا من طريق اشخاص ، فكل تنظيم أيا كان نوعه ، وأيا كانت وظيفته لا يستطيع ان يقوم بوظيفته الا من خلال اشخاص

لهذا فالدولة بحاجة الى جماعة من الناس او «كادر» كما يقول البعض ، يتولون باسمها مباشرة هذه السلطة القاهرة العليا . وهذه الجماعة او هذا الكادر هو ما نسميه « بالحكومة »

ومن الناس من يخلط بين الدولة والحكومة ، وهذا خطأ فاحش ، والتفرقة بينهما قد غدت من أوليات علم السياسة فالحكومة فى حد ذاتها ، ليست صاحبة القوة القاهرة العليا ، وليست صاحبة السيادة ، « فما الحكومة الا اداة الدولة كما يقول لاسكى ، والحكومة قائمة لتنفيذ اغراض الدولة ، وهى ليست فى حد

ذاتها سلطة الاجبار العليا ، ولكنها مجرد جهاز للادارة يعمل على تحقيق اهداف هذه السلطة . فهى كما يقول علماء السياسة ليست صاحبة السيادة بالمعنى الذى يجعل الدولة صاحبة السيادة . وانما يحدد اختصاصها بما ترتئى الدولة ان تضفيه عليها من سلطة ، فان تجاوزت هذه السلطة ، فى الحدود المنصوص عليها ، فهى تسأل وتحاسب ، وقد غدا مبدأ مسئولية الحكومة عن اتيان أعمال تتجاوز السلطات المرسومة لها ، محور كل دولة حل فيها حكم القانون محل السلطة التقديرية التعسفية ، كأساس للسلوك السياسى »

لهذا نجد ان الحكومة قد تتغير والدولة ثابتة . ولقد يتضح عجز الاشخاص القائمين بالحكم ، او خروجهم على ما حددته لهم الدولة من اختصاص ، ورسمته لهم من غايات ، فيستبدل غيرهم بهم دون أن يؤثر ذلك فى نظام الدولة

وقد كان يحدث فى الماضى ، ولا يزال يحدث ، ان تخلط الحكومة ذاتها بين نفسها وبين الدولة ، فتحسب انها والدولة سواء . وقد عرف التاريخ ملوكا كلويس الرابع عشر يقولون : « انا الدولة » ، وبذلك يجعل من ارادته الخاصة ومن ارادة الدولة شيئا واحداً

لهذا لجأت الانسانية الى وضع الدساتير المكتوبة ، واعلان حقوق الانسان ، والنص على مبدأ فصل السلطات ، وما الى ذلك من وثائق وقوانين لرسم الحدود بين سلطات الدولة وسلطات الحكومة ، ولمنع الحكومة ، وهى مكونة من أشخاص غير معصومين ، من مباشرة سلطات السيادة التى هى وقف على الدولة وحدها

ولا يكفي في الدولة ان تكون كما اسلفنا ، صاحبة السيادة المتمتعة بالسلطة العليا ، او القوة القادرة الملزمة لكل ما تحتها ، ولكل ما يدخل في مجالها ، وانما ينبغي ان تكون القوة القاهرة ، قاهرة لا بالفعل وحده ولكن بالقانون كذلك . وليس المقصود بهذا فحسب ، أن تصرف الدولة شؤون مواطنيها بطريق القانون ، وانما المقصود ان تستند هذه السلطة العليا الى سند قانوني ، يقرر شرعيتها ، فشرعية الدولة لا تقل اهمية عن قوتها القاهرة ، بل ان السيادة لا تكون سيادة الا اذا قامت على مبدأ السلطة الشرعية في أي وطن من الاوطان . فلو لم يكن الامر كذلك ، ولوكانت القوة القاهرة وحدها تكفي لاضفاء السيادة على الدولة ، لامكن لاى عصابة قوية ، ان تستولى على مقاليد الحكم في اى بلد من البلاد ، وان تبسط سيادتها عليها بقوة تسلطها فيها ، ومثل هذه السلطة المستندة الى القوة وحدها لا تجب طاعتها ، بل تجب الثورة عليها ، فما نسميه الدولة اذن ، ليس مجرد السلطة العليا ، ولكن هو السلطة الشرعية العليا ، وسلطة السيادة التى ننسبها للدولة تتضمن القوة القانونية ، أو القانون القوى

وهذا المفهوم النهائى للدولة ، هو أساس كل تفكير في النظم والمذاهب ، وهو جوهر الفكر السياسى ، وفلسفة السياسة في كل عصر من العصور

اما القوة القاهرة ، فأمرها معروف ، نترجمها الى لغة الواقع فنجد انها في نهاية الامر ، اشخاص يتخذون القرارات ويصدرون الاوامر ويسنون القوانين ، وينفذون هذه القرارات والاوامر والقوانين بما لديهم وتحت

امرتهم ، من جنــــد وشرطة وقضاة وموظفين . فقوة الاجبار التي تملــكها الدولة اذن ، شيء يسير لا يختلف في فهمه اثنان

وانما الذي اختلف عليه الفلاسفة ، وذهبوا فيــــه مذاهب شتى ، هو الاجابة على هذا الســـــؤل : من اين تستمد سلطة الدولة شرعيتها ؟

ولعــــل بعض من قرأوا في « جمهورية » افلاطون ، يذكرون قول ثراسيماخوس على سبيل الجدل ، ان العدالة ليست الا حكم الاقوى ، وحين نقول العدالة انما نقصد القانون الذي به تتحقق العدالة ، فالقانون هو حكم الاقوى ، والحق هو القوة . وكلنــــا يعلـــم ان ثراسيماخوس لم يكن وحده في اليونان القديمة ، وليس وحده في تاريخ الفكر ، فمن الناس فريق كان ولا يزال عاجزا عن التمييز بين الحق والقوة ، وبين القــــانون والسلطة

ولــكن الضمير الانساني بوجه عام ، يقشعر من هذه الفكرة التي تؤمن بها فئة من البشر ، واكثر الناس يأبون ان يقبلوا ان السلطة المتحكمة فيهم ، تستمد شرعيتها من القوة وحدها ، وان الرابط الوحيد بينهم وبين الدولة المسيطرة عليهم ، هو الخوف من بطشها ، والرغبة في اتقاء شرها . ولا ادل على بطلان هذه الفكرة ، من ان الناس في حياتهم الخاصة والعامة ، يطيعون الدولة في اكثر الاحيان ، لا عن مخافة ، ولــكن اعتقادا منهم بأن في طاعتها خيرهم . فان كان هناك سائق واحد من كل عشرة لا يحترم اشارة المرور الا خوفا من الغرامة ، فهناك تسعة يحترمونها لانهم يرون نفعها لهم

واذا كان الضمير الانساني بوجــــه عام ، يرفض ان

يسلم بأن السلطة تستمد شرعيتها من مجرد القوة ، فلا غرابة اذن ، ان نجد ، ان اكثر الفلاسفة يعرضون عن هذا الرأى ، بل ويستنكرونه

واكثر الفلاسفة قد اتفقوا ضمنا او صراحة ، على ان شرعية السلطة مستمدة من شيء آخر غير القوة ، شيء يجعل طاعة الناس للدولة ليس محض خضوع ، شيء ينبع من احترام الناس للدولة ، وربما من حبهم لها ، وعلى كل حال ، من اعتقادهم ان فى طاعة الدولة نفعا لهم

وهنا يختلف الفلاسفة ، فيذهب كل مذهبا . ولقد يتفقون ضمنا أو صراحة ، على ان قوة القهر فى الدولة ، لا سبيل الى فصلها عن الغايات التى تستخدم فيها هذه القوة القاهرة ، ولكنهم يختلفون فى تحديد هذه الغايات

انظر مثلا الى ارسطو ، وهو يقول فى كتابه عن « السياسة » ان الغاية من الدولة هى تحقيق « الحياة الخيرة » وهى كما ترى ، عبارة شاملة تحتمل الف تفسير ، ولا سبيل الى فهمها الا بعد تحديد معنى « الخير » فى الحياة ، ومن زاوية من ومتى يكون الشيء خيرا ، وكم فى المائة من هذا الخير مادى ، وكم فى المائة منه روحى ، ولمن يكون هذا الخير ، فان كان للجميع فلمن من الناس قبل سواه ، وهكذا دواليك مما لا سبيل الى الاجابة عليه الا بدراسة ارسطو لا فى كتاب « السياسة وحده » ولكن فى عامة كتبه

وانظر مثلا الى الفيلسوف الانجليزى هوبز ، وهو من أهم الفلاسفة الذين سحرتهم « السلطة » او تلك القوة القاهرة التى تملكها الدولة ، تجده يمجد هذه القوة القاهرة ، لانها مقترنة فى فكره بغاية اولية يعتقد انها

اولى الغايات ، وهذه الغاية هي حفظ الامن فى المجتمع. فقد كان هوبز يؤمن بأن صيانة الامن أو اقرار النظام ، هو أول ركن من اركان المدنية . فهوبز اذن ، شأنه فى ذلك شأن ارسطو ، لا يفصل قوة القهر التى تملكها الدولة ، عن غاية بعينها تسخر فى سبيلها هذه القوة ، وان كان قد خالف ارسطو فى تحديد هذه الغاية

والفيلسوف الانجليزى لوك ، انظر اليه تجده يتحدث عن الدولة قائلا : انها الجهاز الذى يستخدمه المجتمع ، ليسن له القوانين وليضع له القواعد اللازمة ، لضمان حق الحياة والحرية والتملك ، فبغير هذه الاشياء الثلاثة ، لا يستقيم للحياة معنى . وما دام المجتمع قائما ، فهو بحاجة الى جهاز الدولة الذى يحقق له هذه الغاية . فلوك أيضا لا يفصل قيام السلطة المجبرة فى المجتمع ، عن الغاية التى تستخدم فيها هذه السلطة

من هذا كله ، ومن غيره ، يستخلص لاسكى ان كل بحث فى السلطة ، انما هو بحث فى الغاية او الغايات التى تنادي الدولة بأنها ستحققها لابناء المجتمع ، ثم هو بحث فى مدى نجاح الدولة فى تحقيق هذه الغاية او الغايات التى نادت بها . ومنه ايضا يستخلص لاسكى ان شرعية هذه السلطة العليا ، وأساس كل سيادة للدولة على مواطنيها ، قائمة على الغاية التىمن اجلها قامت الدولة، واتفاق هذه الغاية مع ما ينشده المواطنون من اهداف فى الحياة

وممارسة السلطة أو السيادة عند لاسكى اذن ، ليست شيئا مطلقا من كل قيد او شرط ، وانما هى مرتبطة بتحقيق ما يراه الناس ، انه الغايات الاساسية فى الحياة

فاذا سألت هذا السؤال الطبيعى : وماذا تظن غاية الدولة التى هى مصدر شرعيتها فى كل عصر من العصور، وفى كل بلد من البلاد ؟ اجابك لاسكى بهذه العبارة الشاملة الجامعة : هى تحقيق اكبر خير للمجموع ، او على الاصح ما يعتقد المجموع ان فيه اكبر خير له ، فهذا وحده هو المبرر لقيام سلطة عليا او قوة قاهرة فى اى مجتمع من المجتمعات

فان عدت الى السؤال من جديد : وما اكبر خير للمجموع ؟ اجابك لاسكى بأنه ليست هناك اجابة واحدة على هذا السؤال . فليس هناك مجتمع واحد ثابت فى الزمان والمكان ، وانما هناك مجتمعات انسانية متعددة يتطور كل منها وتتسع غاياته وتعمق جيلا بعد جيل ، فما كان يحلم به الانجليز مثلا انه اكبر خير لهم منذ مائة عام ، اقل بكثير مما يحلمون به اليوم . من اجل هذا ، يتغير وجه الدولة بطريقة أو بأخرى ، كلما تغير اعتقاد الناس فيما يحقق خير المجموع

— ٢ —

حينما عرف هارولد لاسكى الحرية ، اراد ان يحدد معالمها بأبسط الحدود ، فجاء تعريفه لها تعريفا واضحا لايترك مجالا لشبهة أو لبس ، ولكنه جاء فى الوقت نفسه ، يسيرا ساذجا ، قد لايرضى به الفلاسفة ولا المتفلسفون . وما كل هذه البساطة والسذاجة التى نجدها فى كتابات لاسكى ، نتيجة لقلة فى العلم او ضحولة فى الفكر ، فقد كان لاسكى من اعرف العارفين بمعانى الحرية المعقدة ، وبتاريخها المعقد فى كل فكر سياسى واجتماعى وفلسفى ، منذ اليونان حتى عصرنا هذا ،

وكان الى جانب علم الاستاذ العظيم يملك تفكير المفكر العظيم ، وكان اجمل ما فى عمله وفى تفكيره ، وضـوح المعانى ووضوح الـكلام ويسر فى الفهم والافهام . فلا غرابة اذن ان تقرأ كلام لاسكى ، فتحسب انك لا تقرا جديدا ولا عميقـا ، رغم جدة تفـكيره وعمقـه ؛ فهو الذى عبر عن حيرة عصرنا هذا بين النظم والمذاهب ، ورأى ان عقدة العقد فى المجتمع الحديث ، هى كيف يجمع المجتمع بين الفكرة الاشتراكية اللازمة لنمـوه المادى ، والفكرة الديمقراطية اللازمة لنموه الروحى

وهكذا يعرف لاسكى الحرية بقوله : « أقصد بالحرية انتفاء القيود المعرقلة لوجود الظروف الاجتماعية التى تكون فى الحضارة الحديثة الضمانات اللازمة لسـعادة الفرد »

وما دام لاسكى قد جعـل من سـعادة الفرد غاية الحرية ، فهو يقبل بعض القيود ويرضى بالاجبار أحيانا فى سبيل تحقيق هذه السعادة ، ويضرب على ذلك مثلا هو اجبار الناس على تعليم ابنائهم

وكل قانون عند لاسكى ينطوى على قسر واجبـار وحد من حرية الانسان فى الاختيار ، فالقانون اذن ينقض الحرية . وهذه نقطة يختلف فيها لاسكى عمن سبقوه الى تعريف الحرية من الفلاسفة المثاليين . فهو ينكر صحة ما يقوله روسو ، من ان من الممكن اكراه الناس على الحرية ، وهو ينكر ما يقوله هيجل والمثاليون عامة من ان الناس يجدون حريتهم فى طاعة القانون

فالفكرة المثالية عن الحرية تقول : ان الفرد ما هو الا جزء صغير من المجتمع الذى ينتمى اليه ، وان شخصية الفرد لا تستطيع التعبير عن نفسها تعبيرا حقيقيا كاملا ،

الا بوصفها جزءا من هذا المجتمع . وبالتالى كلما ذاب الفرد فى المجتمع المحيط به ، وجعل من نفسه صورة صغرى لهذا الكل الاكبر ، أو نسخة مصغرة منه ، احس بحريته كاملة غير منقوصة . فهو لايريد الا ما تريده الجماعة ، وهو لا يكره الا ما تكره الجماعة ، وهو لا يفكر الا بعقل الجماعة ، ولا يضطرب الا بخلجاتها

فاذا ما وصل الفرد الى هذه الحالة من الذوبان فى الجماعة وتقمصته روحها حتى غدا هو وهى شيئا واحدا ، وجد فى القانون التعبير الاسمى عن شخصيته ، ووجد فى طاعة القانون اكمل درجات حريته ، لان القانون هو المعبر عن ارادة الجماعة ، المحقق لحاجاتها ، المنمى لشخصيتها وملكاتها . فالحرية اذن فى الفلسفة المثالية ليست فى رفع القيود المفروضة على الفرد ، بل فى قبول الفرد القيود المفروضة عليه

وهذا هو المعنى الحقيقى لقول هيجل فى تعريف الحرية ، ان الحرية ادراك الضرورة او الاعتراف بها . والضرورة العليا ممثلة فى شخصية الدولة كلها ، لا فى شخصيات المواطنين ، والضرورة العليا هى ما يراه المجتمع كله انه ضرورة ، وليس ما يراه فرد من افراده او طائفة من الناس انه ضرورة . والقانون هو الذى ينظم شئون الدولة ويعبر عن شخصية المجتمع ، ويحقق ارادة الجماعة كلها ، فهو اذن التعبير الاسمى عن الضرورة العليا ، والارادة العليا التى يشترك فيها الجميع وينبغى ان تعلو على كل ضرورة فردية

وكل هذا عند لاسكى كلام فيه بعض الحق ، ولكن فيه باطلا كثيرا . وفى هذا الكلام بعض الحق لان خير الجماعة وخير الافراد كثيرا ما يلتقيان على مبدأ الاجبار

والقسر والحد من حرية الافراد ، التى تباشرها الدولة او المجتمع ، بسن القوانين الملزمة لجميع بنيها

خذ مثلا قانون التعليم الاجبارى . عند لاسكى ان الحرية تصبح كلمة جوفاء بغير معنى اذا لم يهيأ عقل الانسان لاستعمالها والانتفاع منها . والجاهل قد يكون حرا حقا ، ولكن حريته هذه هراء فى هراء لانه لم يتدرب على الانتفاع منها او على ممارستها . والتعليم يعين الانسان على معرفة امكانيات الاستفادة من حريته ، وعلى ادراك مداها ، بل وعلى الاستزادة من هذه الاستفادة وعلى توسيع هذا المدى . والتعليم يعود بكل هذا الخير ، لا على الجماعة وحدها ، ولكن على الافراد كذلك . من هنا نجد ان قانون التعليم الاجبارى ، دعامة من دعامات الحرية ، لا حرية المجتمع وحده ، ولكن حرية الافراد كذلك . والدولة اذ تجبر الناس على تعليم ابنائهم ، انما تدعم حريتها وحرية مواطنيها على حد سواء .

ولكن لاسكى ، رغم كل هذا ، يرى ان ارغام الناس على تعليم ابنائهم ، فيه انتقاص فعلى لحريتهم ، وان ترك الناس فى جهالتهم ، ليس حدا من حريتهم الفعلية ؛ بل الحد من حريتهم الفعلية هو ان تفرض عليهم العلم فرضا . وعند لاسكى ان قانون التعليم الاجبارى قد ينتقص حقا من حرية المواطنين ، ولكنه يزيد من امكانيات انتفاعهم بالحرية ، ويؤهلهم لتعميق معنى هذه الحرية . ونحن نتمسك بهذا القانون ونعده دعامة من دعامات الحرية ، لا لان القيد هو الحرية ، ولا لان الحرية هى فهم ضرورة القيد والاعتراف به ، بل لاننا نعلم ان فيه نزولا عن حرية صغرى من اجل بلوغ حرية

كبرى . واذا أردنا ان نسمي الأشياء بأسمائها ، وأن نمسك عن السفسطة ، لقلنا ان قانون التعليم الاجبارى يصادر حرية الافراد حقا ، ولكنه يصادرها من اجل خير الافراد والجماعة معا ، وانه يصادر القليل ليعطى الكثير ، ويكبل الناس بالقيد فى مرحلة من مراحل الحياة ، ليجعلهم اكثر انتفاعا من حرياتهم فى بقية مراحل الحياة

وانما كان أحرى بفلاسفة الضرورة ، أن يقولوا ان كل قانون قيد ونقص لحرية الانسان ، ولكن فرض القيد ونقض الحرية ، قد يكون لازما ونافعا فى بعض الاحايين . وما تقوله فى القوانين التى تفرض التعليم ، يمكن ان تقوله فى بعض القوانين الاخرى ، التى تفرض الضرائب ، او تحفظ الامن ، أو تضمن نظافة الشوارع ، او تكفل الحقوق ، او تصون صحة المواطنين

وأسس الخطأ فى مفهوم الحرية فى الفلسفة المثالية ، هو عند لاسكى تجريد فكرة الدولة وفكرة المجتمع وفكرة الانسانية ، وجميع هذه المدلولات وتفريغها من محتوياتها المادية . فالمجتمع عند المثاليين مثلا ، هو فكرة مجردة شاملة منفصلة عما يحتويه المجتـــمع من أفراد وأسر وطبقات ووظائف وعلاقات . والتجريد فى حد ذاته شيء نافع ، بشرط الا تنسى محتواه الاصلى ، فنتحدث عنه كما نتحدث عن فكرة غيبية الهية مطلقة ، نابعة منذ الازل ، باقية على حالها الى الابد ، غير خاضعة للتطور ، ولا يمكن مناقشتها على ضوء اختبار الناس

فقولنا مثلا : ان الحرية هى قبول ما يسنه المجتمع او ما تسنه الدولة من قوانين ، قول قائم على افتراض جملة أمور أهمها : (١) ان المجتمع كامل أو ان الدولة

كاملة ، وما كان كاملا لا يسن الا القوانين الكاملة . (٢) ان المجتمع أو الدولة شيء بسيط ليس فيه الا ارادة واحدة وضرورات واحدة ، يشعر بها جميع أبناء المجتمع بدرجة واحدة

أما الدولة الكاملة والمجتمع الكامل ، فلا وجود لهما الا فى أذهان المفكرين : بل والمفكرين الحالمين . وانما الموجود على وجه الارض ، مجتمعات ودول تتفاوت فى مراتب الرقى والتخلف ، ولقد ترتفع وتنحط فى مختلف مراحل تاريخها ، ولكنها لن تبلغ الكمال أبدا ، لان الكمال شيء لا وجود له ، وهدف أو حالة أو وضع لا ثبات فيه ، وانما الموجود سعى الى الكمال على احسن تقدير ، أو حركة وصيرورة ونمو .

وأما المجتمع البسيط الذى لا ينطوى الا على ارادة واحدة ، ولا يختلف ابناؤه على معنى الضرورات ، فهو أيضا شيء لا وجود له بالمعنى المطلق الصادق على كل مكان وزمان وظروف وأفراد وطبقات وهيئات .. الخ

وفى ظروف معينة ، قد تتحد ارادة جميع ابناء المجتمع وتتفق على شيء لا يجادل أحد فيه ، او ينبغى أن تتحد وتتفق ، كما يحدث مثلا حين تغزى أمة أو تستهدف لخطر خارجى ، اذ نجد جميع ابناء هذه الامة قد اجتمعت كلمتهم على طرد المعتدى أو ينبغى ان تجتمع

ولكن هذا الظرف هو الشاذ لا القاعدة ، فالقاعدة هى ان أبناء المجتمع ، أفرادا كانوا أو طبقات أوطوائف أو هيئات ، يختلفون فى فهم مقومات سعادتهم ونموهم ورقيهم ، بل ويختلفون فى تقدير أهمية وظائفهم فى الحياة ، وما ينبغى ان يتحقق لهم من اسباب الامن والرخاء . وهذا التباين فى فهم السعادة ومقوماتها ،

الذى يبلغ احيانا مبلغ التعارض ، يجعل من بعض القوانين التى يسنها المجتمع أو تسنها الدولة أشياء خالية من صفة الكمال التى ينسبها المثاليون للدولة وقوانينها ، وللمجتمع وشرائعه

وأقرب الى الصدق عند لاسكى ان يقال : ان ما نسميه الحرية ، انما هو مجموعة من الحريات التى تتعدد وتزداد ، أو تقل وتنكمش ، بحسب الظروف التاريخية التى تمر بها كل دولة ، او يمر بها كل مجتمع ، وان تاريخ الحرية انما هو جهاد الانسانية ، أو قل الناس لازالة القيود التى تحول دون تمتعهم بالسعادة ، او على الاصح دون تمتعهم بما يعتقدون ان فيه سعادتهم فاذا ما قبل الناس راضين القوانين المقيدة لحريتهم ، فهم يقبلونها لانهم يعتقدون ان فى قبول هذه القيود ضمانا لسعادتهم

وقد ادرك الناس باختيارهم ان من اهم مقومات الحرية ، اشتراك كل فرد من افراد المجتمع على قدم المساواة ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، فى سن ما سوف يلتزم به من قوانين . لهذا جاهد الناس حتى استطاعوا أن يستخلصوا من حكامهم حق التصويت العام ، الذى يعطى كل فرد من أفراد المجتمع ، فرصة اختيار حكامه كلما انقضت فترة معينة . وبممارسة هذا الحق ، يشترك كل فرد فى سن القوانين التى تحد من حريته .

وبعد ان استخلص الناس من حكامهم حق التصويت العام الذى انبنى عليه الحكم الديمقراطى ، ادركوا ان الحكم الديمقراطى وحده غير كاف لتحقيق ما ينشدونه من سعادة .

بل ان من الناس من ذهبوا الى أبعد من هذا . فبعد

ان كانوا يطالبـون الدولة بالكف عن سن القوانين التى تحد من حرية الافراد والهيئات والطوائف، أو بالاكتفاء بالحد الأدنى من التدخـــل والتقنين والتنظيم ، بدأوا يحسون بأن ازالة القيود واطلاق الحريات ، تجعل من الحرية طريق الشقاء لا طريق السعادة ، بالنسبة لعدد عظيم من أبناء المجتمع . فنادوا بتقييد الحرية فى بعض وجوه الانتـــاج ، وطالبوا بتدخل الدولة للتوجيـــه والتخطيط ، واشاعة الضمان الاقتصادى والاجتماعى ، ومن هنا كان الاتجاه نحو الفلسفة الاشتراكية فى الانتاج أو فى التوزيع أو فيهما معا .

ولكن لاسكى يرى ان الاشـــتراكية التى لا تقـترن بالديمقراطية تهدر الحرية ، وهو ينبه الى ما تستهدف له الحرية من خطر فى العصر الحديث ، بسبب حـرص الناس على العدالة الاجتماعية والأمن الاقتصادى اللذين ييسرهما التخطيط والتنظيم والتوجيه . وعنـــده أن الرجل العادى لا يستطيع أن يصيب السعادة لمجرد انه يحيا فى دولة ديمقراطية ، ولكن عنده أيضا ، أن الأمن الاقتصادى لا يؤدى وحده الى اسعاد الناس أو كفـالة حـريتهم . فلا بد اذن من الجمع بين الاشـــتراكية والديمقراطية .

وأهمية التمسك بالديمقراطية فى المجتمع ، مهما كان قائما على التخطيط والتوجيه ، تكمن عند لاسكى فى ان الديمقراطية تعنى فى النهاية الرجوع الى كل فرد من أفراد المجتمع بصفة دورية منتظمة ، ليختـــار الحكام الذين يريد ان يسنوا له قوانينه من أجل تحقيق سعادته . وعند لاسكى أن المبرر القوى بل المحتم لهـذا الرجوع الى الأفراد ، هو أن كل فرد فى المجتمع أعرف من غـيره

بما يحقق سعادته أو لا يحققها . ولاسكى لا ينكر ان الناس فى كثير من الأحوال ، لا يعرفون ما خيرهم وما ضرهم ، وان ضمير الانسان هذا الذى يجب أن نحتكم اليه بانتظام ، قد يكون ضميرا تقوده الحماقة وتملؤه الجهالة ، ولكن لاسكى رغم ذلك يرى ان الانسان لادليل له فى الشئون العامة ، غير عقله وضميره ، وما يعتقد — حقا أو وهما — ان فيه خيره ومصلحته . فان أخطأ فى الاختيار فهو المضار من هذا الخطأ ، وحسبه أن احساسه بالحرية نابع من الاستجابة لوحى ضميره ومن الاسترشاد بهدى عقله .

ولو اننا استندنا الى قصور عقل الناس ، وغى ضمائرهم ، لنطلق يد العقلاء والحكماء فيهم ، يسنون لهم القوانين ، ويضعون لهم الشرائع ، دون الرجوع اليهم ، تحقيقا لما يرون هم فيه خير الناس وسعادتهم ، لأعطينا لكل صاحب سلطان سلاحا يؤذى به الناس أكثر مما ينفعهم ، وزودنا الطغيان بفلسفة يستند اليها فىاستعمار الشعوب ، واسترقاقالمواطنين .
فكلنا نعلم ان أى شعب يخضع لوصاية شعب آخر بصورة من الصور ، هو وحده الذى يقرر ، وينبغى أن يقرر فى لحظة تاريخية معينة ، ان طريق الاستقلال والحرية هو طريقه الى السعادة . ولقد يخطىء الشعب المكافح من أجل استقلاله وحريته ، تقدير مصلحته أو سعادته ، ولكنه فى نهاية الأمر ، هو المرجع الأخير فى تقرير مصيره واملاء ارادته .

ولو قد سألت الانجليزى فى القرن الثامن عشر عن رأيه فى الأمريكى المطالب بالانفصال عن التاج البريطانى، أو سألت الفرنسى — قبل استقلال الجزائر — عن رأيه فى

الجزائرى المطالب بالاستقلال عن بلاد الحرية والمساواة والاخاء لقال لك أن هذا الراغب فى الحرية أحمق سفيه العقل ، لا يعرف خيره من شره ، وأن واجب الحاكم العاقل ، هو أن يرد المحكوم الثائر الى محجة الصواب لخيرهما جميعا ، ولو استخدم فى ذلك السونكى أو المدفع الرشاش .

وما يقال فى شعوب الانسانية ، يمكن ان يقال أيضا فى أفراد المجتمع الواحد . كل مواطن فى نهاية الأمر ، هو المرجع الأخير فى تقرير مصيره ، وفى تشريع مايساس به من قوانين ، لأنه وحده ، هو المرجع الاخير فى تحديد معنى سعادته ، والحاكم لا يملك ازاء هذا ، الا تنوير الناس ، وتبصيرهم بحقائق الأمور ، فان استناروا وتبصروا ، عرفوا كيف يختارون من يسن لهم القوانين التى تحد من حرياتهم الصغرى ، لتفتح أمامهم آفاقا رحيبة من الحريات الكبرى .

الاتحاد الاشتراكى

فى انجلترا اليوم كتلة من حزب العمال البريطانى تألفت منذ عام ١٩٥١ وتلقب هذه الكتلة نفسها بالاتحاد الاشتراكى .

وقد أصدرت هذه الكتلة الاشتراكية طائفة من البحوث لتعلن عن مبادئها ولتكشف عن سياستها وأهم هذه البحوث كتاب بعنوان : « الاشتراكية : بيان جديد بمبادئها » وكتاب آخر بعنوان : «الاشتراكية والسياسة الخارجية » ثم كتاب ثالث بعنوان : « الاشتراكية فى القرن العشرين » ، وهى جميعا ميسورة فى طبعة البنجوين المشهورة .

وليس لهذه الكتب مؤلفون وانما هى حصيلة مذكرات يضعها نفر من أعضاء الاتحاد الاشتراكى ، وتبحث وتنقح فى لجان هذه الكتلة العمالية ، فلا تخرج الى الجمهور الا بعد أن تصبح معبرة عن كل ما يتفق عليه أعضاء الكتلة .

وأهم ما فى بيانات هذا الاتحاد الاشتراكى انها تحاول تغيير مدلول الاشتراكية الذى توارثناه عن القرن التاسع

عشر على ضوء التجارب العملية التى أجراها القـــرن العشرون . واذا أردت أن تعرف مكانها بالضـــبط فى ميزان السياسة والاقتصاد ، فهى على يسار حـــزب العمال ولكنها تناهض المبادىء الشيوعية .

كل من قرأ شـــيئا عن تاريخ الماركسية يعـــلم ان الشيوعية قبل ظهور الفاشية كانت تخصص جزء كبيرا من كفاحها لا لمقاومة أعدائهـــا الطبيعيين من اقطاعيين ورأسماليين بل لمقاومة عدو مستتر كانت تعده أشـــد خطرا عليها من أعدائها السافرين . وذلك العدو هـــو الديمقراطية الاشتراكية .

ولكن مبادىء الاتحاد الاشتراكية يمكن وصفها بأنهـــا اشتراكية ديمقراطية لا ديمقراطية اشتراكية ، وهى على الحالين بعيدة كل البعد عن الفلسفة الاشـــتراكية التى أرسى أساسها ماركس وانجلز ولنين . هى تختلف عنها فى المبادىء وفى الاهداف وفى الوسائل .

يعود الاتحاد الاشتراكى الى احياء الشـــعارات التى اقترنت بالثورة الفرنسية فيذهب الى أن المبادىء التى ينبغى أن يقوم عليها المجتمع هى مبادىء الحرية والمساواة والاخاء . ولكنه يحمل هذه الشعارات مفهومات تتفق وطبيعة التطور الاقتصادى فى القرن العشرين كما يراه.

فالحرية عنده حرية فى الانتاج وحرية فى الاستهلاك ، فهى اذن حرية اقتصادية وليست مجرد حرية نظـرية أو معنوية يتمتع بها الفرد أو المجتمع ، وهذه الحـرية الاقتصادية لا سبيل الى تحقيقها الا :

١ ــ بحرية العمل أى حرية العامل فى اختيـــار نوع العمل الذى يصلح له .

٢ ــ التحرر من العوز الذى لا يتم الا بوفرة الانتـــاج

من ناحية وبالتقريب بين الدخول من ناحية أخرى وتقييد الاعلان من ناحية ثالثة .

والمساواة عند الاتحاد الاشتراكى لا تقوم على ايجاد مجتمع خال من الطبقات ولكنها تقوم على تكافؤ الفرص - وهو مبدأ قديم يرجع الى ١٧٨٩ ، وأساسه المساواة أمام القانون : المساواة فى الاعتبار والمساواة فى الفرص للحصول على ما يسميه رجال الاقتصاد السلع والخدمات .

والاخاء عند الاتحاد الاشتراكى مقترن بفكرة المسئولية الاجتماعية . فقد درج الناس على المناداة بحقوق الانسان فنسوا أن ينادوا بواجبات الانسان . وأول هذه الواجبات هو الاخاء الانسانى الذى يتخذ اشكالا مختلفة كالتكافل والتعاون بين جميع طبقات المجتمع وبين جميع أبناء كل طبقة . أما أول الحقوق فهو القضاء على كل امتياز طبقى يمكن أن يعرقل الاخاء أو يحول دون تكافؤ الفرص .

أما أهداف الاتحاد الاشتراكي فهى تحقيق الامن الاقتصادى بتحقيق ثلاثة أمور :

١ - الضمان الاجتماعى من طريق التشغيل الكامل مع مكافحة التضخم والتسابق بين الأجور والأسعار .

٢ - عدالة التوزيع من طريق تحديد الدخول لا بالتدخل الحكومى ولكن بالتدخل النقابى ، ومن طريق تعديل نظام الضرائب بما يؤدى الى اعادة توزيع الدخول ، ثم من طريق اعادة توزيع الملكية لا بالتأميم ، لأن التأميم فى ظل الديمقراطية لا يستقيم الا بالتعويض وهو أشبه شىء بنقل الملكية ، ولا بتفتيت الملكية بين المعدمين لأن هذا يضر بالانتاج ، ولكن بأيلولة الملكية الى الدولة تدريجيا

على أساس جعل ضريبة التركات عينية ، وبالادخار فى القطاع العام لتمويل المشروعات الجديدة بدلا من الاعتماد على الادخار الخاص ، وبقيام الدولة باستثمار أموالها فى المؤسسات الخاصة الناجحة القائمة بالفعل بدلا من لجوئها الى تأميم هذه المؤسسات كلية .

٣ ــ التنمية الاقتصادية وهذه لاتكون الا ببناء الدولة فائضا فى ميزانيتها وهو ادخار جبرى عام يتأتى من طريق الضريبة . فالمشكلة اليوم مشكلة تحقيق رؤوس الاموال اللازمة للتنمية الاقتصادية من عمليات الادخار . ففى القرن الماضى كان الاغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقرا ، ومن ارباح الاغنياء المتجمعة أمكن تمويل المشروعات . اما اليوم فالأغنياء أقل غنى والفقراء أقل فقرا وأوسع استهلاكا ، وبالتالى نشأ النقص فى الادخار. ويكون استثمار المال العام على الوجوه الآتية :

١ ــ فى المشروعات العامة التى يعزف عنها رأس المال الخاص كالسكك الحديدية .

٢ ــ فى المشروعات الضخمة الطويلة الأجل كاستخدام الطاقة الذرية .

٣ ــ فى رفع الدربة والكفاية الانتاجية بانشاء معاهد للأبحاث والتدريب .

٤ ــ فى الخدمات كالتعليم والصحة والاسكان والطرق

ما السبيل الى تحقيق كل هذا ؟

يقول الاشتراكيون المتطرفون بالملكية العامة لوسائل الانتاج بالوسائل الثورية ولكن هذا قد يؤدى بجانب الدكتاتورية الى رأسمالية الدولة . ويقول الاشتراكيون المتدلون بالتخطيط الاقتصادى من طريق التشريع ، ولكن قد ثبت من التجربة أن التخطيط بالتشريع ينتهى

بالبيروقراطية ولا يعطى الدولة الا الاشراف من الخارج
السبيل اذن هو تحقيق الاشراف من الداخل :

١ ـ بمساهمة الدولة فى ملكية المرافق الحيوية على أن يتم ذلك بالتشريعات البرلمانية ودون القضاء على القطاع الخاص ، فالاستثمار الفردى هو بمثابة الضابط الذى نضبط به نشاط الدولة بالملكية الفردية ونضمن به بقاء الحريات .

٢ ـ بمسئولية المديرين والمتصرفين فى السلطة الاقتصادية امام المجتمع على أن يكون مقياس الحكم عليهم لا تحقيق الارباح ولكن تحقيق الكفاية الانتاجية .

هذا هو برنامج الاتحاد الاشتراكى فى كلمات ، وهو موضع التأمل والمناقشة .

رسالة من غاندي

كانت لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة تعد العدة عام ١٩٤٧ لصياغة « الاعلان العالمى لحقوق الانسان » ذلك الاعلان الذى أقرته الجمعية العامة للامم المتحدة وأصدرته فى شهر ديسمبر من عام ١٩٤٨ بعد اجتماعها فى باريس .

ورغبت مؤسسة اليونسكو يومئذ فى التعاون مع لجنة حقوق الانسان وتبصيرها بأفكار المفكرين المعاصرين فى موضوع حقوق الانسان ، وهو موضوع خطير ما زال يتجدد البحث فيه كلما انطوى عصر ومر جيل .

وجه الاستاذ الدكتور جوليان هكسلى المدير العام لليونسكو فى ذلك الحين الرسائل الى المفكرين من رجال السياسة والفلسفة والاقتصادوالاجتماع والفقه القانونى راجيا كل منهم أن يوافيه ببيان يلخص فيه رأيه من وجهة نظر المفكر الذى يعيش فى القرن العشرين ، بل ومن وجهة نظر المفكر الذى كابد تطورات الاحداث العالمية فى هذه الحقبة القلقة من تاريخ البشرية ، وهى حقبة كما نعلم جميعا ونحس جميعا ، تسودها الحروب الفاجعة

والمخاوف التى تنهش النفس الانسانية نهشا . ولكن تسودها كذلك الآمال الكبار فى مستقبل باسم مشرق ملىء بالخير والرخاء .

وقد كان طبيعيا أن يكتب جوليان هكسلى الى المهاتما غاندى يسأله رأيه فى حقوق الانسان ، فغاندى لم يكن مجرد زعيم سياسى يقود أمة عظيمة ، فحسب ، بل كان حكيما من حكماء عصرنا له فلسفة خاصة وفهم خاص للحياة الانسانية ومثلها العليا ، كما كان محررا من أعظم طراز قضى حياته فى مكافحة التمييز العنصرى والتعصب الدينى .

وهذا نص رد غاندى على جوليان هكسلى :

مستعمرة بانجى
نيودلهى
٢٥ مايو ١٩٤٧

عزيزى الدكتور جوليان هكسلى ..

لما كنت فى تنقل مستمر فان بريدى لا يصل الى يدى أبدا فى موعده ، ولولا رسالتك التى وجهتها الى الباندين نهرو وأشرت فيها الى الخطاب الذى أرسلته الى لكان من الجائز ألا يصل خطابك الى يدى . ولكنى أرى انك قد تركت لمن كتبت اليهم فسحة من الوقت كافية تمكنهم من الرد عليك . وأنا أكتب اليك هذا الخطاب فى قطار متحرك ، وسيطبع خطابى هذا على الآلة الكاتبة غدا حين أبلغ دلهى .

وأخشى انه ليس فى استطاعتى أن أتقدم اليك بشىء يفى بأقل مرادك . وصحيح ان من أسباب عجزى ضيق وقتى ، ولكن أقرب الى الصدق أن أقول انى قارىء قليل المحصول من آداب الماضى والحاضر بالرغم من صدق

رغبتى فى الاطلاع على ما فى هذه الآداب من درر : فانا أحيا حياة عاصفة منذ صدر شبابى ، وهذا لم يترك لى متسعا من الفراغ اللازم للقراءة الضرورية .

وقد تعلمت من والدتى التى كانت أمية ولكنها كانت حكيمة ان جميع الحقوق المستحقة الواجبة الصيانة تنبع من القيام بالواجب على خير وجه . وعليه فحق الحياة نفسه لا نكتسبه الا اذا أدينا واجبنا كمواطنين عالميين . ولعله يسهل علينا ان نحدد بناء على هذه العبارة الاساسية واجبات الانسان رجلا كان أم امرأة ، وان نربط كل حق من حقوق الانسان بواجب من هذه الواجبات يقابله وينبغى أداؤه أولا . وكل ما خرج عن هذا من الحقوق نستطيع أن نثبت انه اغتصاب لايستحق حقا أن نكافح من أجله .

المخلص

م . ك . غاندى

هذا هو الخطاب القصير الذى أرسله غاندى الى جوليان هكسلى . ليس فيه الا ثلاث فقرات ، بل ليس الا فقرتان ، فالفقرة الأولى منه فقرة الاعتذار التقليدية التى نكتبها جميعا فى كل ما نرسل من رسائل لنطلب العفو عن التأخير . ولكن هذا الخطاب على قصره خطاب عظيم لأنه حوى فى كلمات فلسفة عميقة يعبر عنها المفكرون والشراع فى مجلدات لو أرادوا شرحها وتفصيلها ودراستها مطبقة على واقع الحياة والتاريخ .

وأول ما يبدو هنا فى خطاب غاندى هو تواضعه الجم . فهو لا يخجل من أن يذكر أن أمه كانت أمية لا تعرف القراءة والكتابة . وهو يعتذر بكفاحه العملى المتصل عن قلة محصوله من المطالعة . ولعل فى هذا

الاعتذار شيئا من الأدب التقليـــدى ، أو الاسراف فى الأدب المأثور عن بعض شعوب الشرق وأخصها أهـــل الصين ثم أهل الهند وأهل بلادنا ، ولكننا نستشف من خلال هذا التواضع روحا سامية تعصـــم صاحبهـــا عن الادعاء والجعجعة بسعة العلم .

ولكن يخطىء من يحسب أن هذا الكلام البسيط الذى يسوقه غاندى دليل السذاجة ، فهذا الكلام ليس بسيطا الا فى ظاهره ، وهو ينطوى على ايحاء عميق بمعان عميقة أراد غاندى أن يقولها ولكن أدبه منعه من أن يقولهـــا ، بل أوشك أن أقول ان غاندى انما قصد بهذا الـــكلام الساذج ان يتهكم على الفلاسفة والمفكرين وأهل العلم ، كبارهم والصغار ، وقد فعل كل ذلك فى لباقة السياسى الحصيف . وكأنى بلسان حاله يقول مؤنبا جوليـــان هكسلى وفلاسفة اليونسكو قائلا : انتم أيها السادة قد بقرتم بطون الكتب وأتيتم على علوم الاولين والآخـــرين لتهتدوا الى ما يسمونه حقوق الانسان ، وما أنتم بحاجة الى شىء من ذلك . خـــذوا الحكمة من أفواه الاميين والبسطاء والسذج ومن يعيشون على الفطرة لم تفسدهم المدنية فى جوهرها ، فالفطرة قريبة من منابع الوحى والالهام لأنها قريبة من أمنا الطبيعة وممن فطر هذا الوجود .

أن غاندى يقول ما قاله جيتى وانداده من قبل : أغلق كتاب العلم وافتح كتاب الطبيعة ، ولكنه يقوله فى بساطة لا تؤذى أحدا ولا تصعب على فهم ولا تحتاج الى بيـــان للدفاع عنها .

وأجمل ما فى قول غاندى هذا اننا لسنا بحاجة الى التعليم والتثقيف أو الى القوانين المفروضة علينـــا من الخارج سواء أكانت من وضع المجتمع الحـــاضر أم من

رواسب الماضى لنهتدى الى الاحساس بالواجب . فأمه الأمية التى تمثل هنا الفطرة الحكيمة قد اهتـدت الى فكرة الواجب بفطرتها دون حاجة الى تلقين من الخارج

وفى هذا القول شيء من فكرة الواجب عند الفيلسوف الالمانى كانط ، وهى فـكرة يربطها كانط بما يسـميه بالعقل العملى الذى يدرس به الانسان بالفطرة الواعية جوهريات هذا الوجود ومثلها الواجب والجمال .

والذى يمكن ان تستخرجه من قول غاندى هـذا استنتاجا هو ان تعريف الواجب وتحـديد ما « يجب علينا » قد يختلف من بيئة الى بيئة ومن عصر الى عصر ومن مجتمع الى مجتمع ، ولكن فكرة الواجب ذاتهـا مقترنة بفطرة الانسان ، وليس الانسان بحاجة الى علم كثير غير احساسه بانسانيته ليدركها .

وهذا الرأى فى جوهره صادق بدليل ما نشاهده من سلوك الناس . نراه مثلا فى أبسط الناس وأقلهم حظـا من العلم والمعرفة حين يجازفون بحياتهم لينقذوا غريقا أو ليردوا عدو الوطن أو لينتشلوا منكودا من محنته مما قد يعجز عنه المتعلم أو المثقف الذى يحسب لكل شيء حسابه .

ولكن غاندى ليس فيلسوفا ولا عالما من علماء الاخلاق ولهذا فهو لا يلقى علينا درسا مفصلا فى منشأ الاحساس بالواجب ، بل هو سياسى يدبر شئون المجتمع تدبـيرا عمليا .

ولهذا نراه يربط ما بين حقوق الانسان وواجبـات الانسان . ونفهم من كلامه الذى قل ودل ان للإنسان حقوقا مزيفة وحقوقا صادقة أو طبيعية أو مقدسة أو سمها ما شئت من الأسماء . وحقوق الانسان الصادقة

التى لا زيف فيها ، انما هى حقوقه التى يستمدها من قيامه بالواجب ويستحقها لوفائه لفطرته السليمة هذه التى تحدثنا عنها . فكما أن العامل يستمد حقه فى الأجر من قيامه بعمله ، وكما أن الطالب المجد يستحق النجاح لما ابداه من اقبال على التحصيل ، وكما أن المواطن الجاد فى مسعاه يكتسب بجده هذا حقه فى العلو والارتقاء ، كذلك يعلمنا غاندى أن بقية حقوق الانسان ، بل وكافة حقوق الانسان انما هى فى صميمها نابعة من قيامه بواجبات الانسان .

انظر مثلا الى حق الحرية . كيف يكون لانسان حق فى الحرية اذا لم يقم بواجبه فيحترم حق الغير وحريته؟ ان فكرة القانون والنظام قائمة على رسم هذا الخط الدقيق الذى يفصل بين الحقوق والواجبات ، وقس على هذا فى كل شىء ، تجد ان الحق نابع من الواجب ، والمجتمع الذى يذكر حقوق الانسان وينسى واجباته مجتمع معربد مآله الى زوال لكثرة ما تأكله الفوضى .

ولكن غاندى رغم حكمته وصدق زكانته لم يؤكد معنى آخر كان ينبغى أن يؤكده ، وهو ان المجتمع الذى يذكر واجبات الانسان وينسى حقوقه مجتمع عبودى سائر أيضا الى هلاكه لكثرة ما يشله الاستبداد . ولقد يخيل الى البعض ان غاندى انما أراد أن يقول ان الواجب سابق والحق لاحق ، أو ان الحق « مكتسب » من أداء الواجب ، وبالتالى فان ما كان مكتسبا فهو الفرع وما كان طبيعيا فهو الاصل . ولعل غاندى كان حقا يقصد الى هذا أو الى شىء منه ، فقد كان غاندى قاسيا على نفسه قاسيا على غيره .

ولكن الذى أراه أقرب الى التعبير عن جوهر الاشياء

كما أفهمها هو ان فكرة الحـــق كامنة فى فكرة الواجب كمونا لا سبيل الى نزعه . واذا كان يجوز لى أن أستعير من الفيلسوف الحلولى الهولندى عبارة من عبـــاراته المشهورة فانى أقول ان الحق بالنسبة الى الواجب أشبه شيء بمجموع زوايا المثلث بالنسبة الى المثلث . فكما أن كل مثلث مجموع زواياه ٢ ق ، وكما انه ليس هنـــاك سبيل الى تصور مثلث مجمـــوع زواياه ليس ٢ ق ، كذلك كل واجب يحمل فى أحشائه الحــق الملازم له ، وليس هناك سبيل الى تصور واجب لا يحمل الحــق الملازم له في أحشائه . والعكس صحيح .

رأى في الحرية

للفيلسوف الانجليزى الفريد نورث هوايتهد رأى فى الحرية عرضه فى كتابه « مجازفات فكرية » (١٩٣٣) ، وهو رأى يجذب المثاليين والماديين معـــا أو ينبغى أن يجذبهم

ومجمل هــذا الرأى ان المجتمع سواء فى أفراده أو فى مجموعه يتناوب عليه مبدأ الاطلاق ومبدأ النسبية فى فهم الحرية ، وأخص أسباب هــذا التناوب هو انتقال السلطة من طبقة الى أخرى . وبوجـــه عام نجد ان المجتمع الذى تسوده الطبقات المتاجرة والطبقات المهنية يدعو الى الحرية المطلقة بينما نجد ان المجتمـــع المهتم بالتنظيم الاجتماعى سواء أكان ارستقراطيا أم ديمقراطيا يقيد الحرية لانه ينسب الافراد الى الدولة

وعند هوايتهد ان المذاهب لا توجه المجتمع بقدر ما يوجه المجتمع المذاهب . والعمليـــة فى مجموعها ذات ثلاث مراحل : أولها الفريزة ، وثانيها الذكاء أو الفكر ، وثالثها الحكمة . فالفرد أو المجتمع يتطور أولا بالفريزة ثم يغلى فيه الفكر فى اتجاه الفريزة ثم يهتدى الى الحكمة التى تهذب الفكر وتجعله يحدد نفسه فى ضـــوء الواقع

القائم . أو قل ان الحكمة هى عملية تنسيق الفكر مع الواقع

وينطبق هذا الكلام على الفكر الحر وعلى كل دعوة تحررية . ولكن كثيرا ما نجد ان الفكر يستوحى بالفريزة ويزدهر بالذكاء ولكنه لا ينضج الا بالحكمة . والتاريخ ملىء بسير المفكرين من أمثال اخناتون ولوثر وكالفن وكرومويل وملتون وروبسبيير ، ممن اهتدوا الى مذاهبهم بالفكر الثائر الحر ، ولكنهم أرادوا أن يفرضوا أفكارهم الحرة على الناس بالقسر ففشلوا . واذا كانت بعض افكارهم قد انتشرت فيما بعد فذلك لعوامل أخرى

وهذا النوع من الحرية الطاغية يسميه هوايتهد البربرية الفكرية

وعند هوايتهد ان أعظم تقدم أصابته الانسانية هو التقدم من التحرير بالقوة الى التحرير بالاقناع ، وهذا فى نظره جوهر المدنية الذى عرفه اليونان فى عصر بركليس اكثر من أية أمة أخرى وعرفه افلاطون اكثر من أى فيلسوف آخر . وهو لا يتحقق الا بالتسامح والجدلية ورؤية شىء من الحق فى كل وجهة نظر

الحرية اذن منهج نسلكه بالفكر وبالفعل بمقدار ما هى مبدأ نثبته بالحجة والمنطق

ويرى هوايتهد ان التطور الاجتماعى الحديث قد عقد مشكلة الحرية . ففى الماضى كان الناس عادة يقابلون بين حق الملوك الالهى الذى يبرر القسر وبين الحق الطبيعى الذى يبرر الحرية ، وهو الذى عبر عنه روسو وغيره من دعاة الحرية بقولهم ان الانسان « ولد » حرا فلا ينبغى وضعه فى الاغلال

وكانت معركة الحرية منصبة على شخص الانسان .
ولكن التطور الاقتصادى والاجتماعى الحديث منذ الانقلاب الصناعى قد أوجد ظاهرة جديدة فى المجتمع هى « الشخصية المعنوية » مما لا يمكن أن تطبق عليه القواعد التى تطبق على الشخصية الطبيعية

فالصناعة لم تعد عملا فرديا ، والانتاج بوجه عام لم يعد ثمرة اجتهاد شخص واحد بل وظيفة تقوم بها شخصيات معنوية كثيرة فى المجتمع ، كالشركات المساهمة وشركات التوصية ونقابات العمال ونقابات المهن المختلفة والجامعات والمعاهد .. الخ .. وهذه الشخصيات المعنوية تطالب بنفس الحريات التى يتمتع بها الافراد أو الاشخاص الطبيعيون

ولما كانت هذه الشخصيات المعنوية بمثابة هيئات وجماعات ومراكز قوى فى المجتمع كانت الحرية التى تطالب بها فى واقع الامر هى حرية الفكر الجماعى وحرية العمل الجماعى ، وهذه مختلفة عن مفهوم الحرية الشخصية ، وبالتالى فان حصولها على نفس الحريات التى يتمتع بها الشخص الطبيعى قد يجعل كلا منها دولة داخل الدولة وينتقص من حقوق غيرها من الهيئات ومن حرياته ، وواجب الدولة هو الحد من حريات الاشخاص المعنويين فى المجتمع بحيث توفق بين حقوق الهيئات المختلفة لخير المجموع

ويسوق هوايتهد مثلا على ذلك الحريات التى كانت تظفر بها روابط الاسطوات فى العصور الوسطى « الجليد » فى صورة امتيازات وترخيصات . فكثيرا ما كانت هذه الامتيازات مصدر ازعاج لبقية طبقات المجتمع . وأشباهها كثير فى المجتمع الحديث

فالحرية فى المجتمع الحديث أساسها التنسيق بين وظائف هؤلاء الاشخاص المعنويين ، بما يحقق الانسجام الاجتماعى ، وهذا التنسيق يستلزم فرض بعض القيود على أجزاء المجتمع ليتحقق أكبر قسط من الحرية للمجتمع كله

والشخص المعنوى لم « يولد » حرا أو عبدا كما يولد الشخص الطبيعى ، ولا تسرى عليه دورة الحياة ،

فهو لا يموت الا باشهار الافلاس أو بالحل الاختيارى ، وقد لا يموت . وبالتالى فليس بينه وبين الدولة «عقد» اجتماعى أو عقد أزلى

وهناك وجه آخر للحرية فى المجتمع الحديث

فالتفكير فى الحرية ينصرف عادة الى حرية الرأى وحرية الصحافة وحرية العبادة وغير ذلك من الحريات الفكرية ، والانتقاص من هذه الحريات تقع تبعته على المجتمع أو على أفراده الحاكمين

ولكننا ننسى ان الطبيعة تحد من حرية الانسان بقدر ما يفعل الانسان بالانسان ، بل لعلها أشد جورا وأكثر قسرا . هى تشل حريتنا بالفقر وبالجهل وبالمرض وبعوامل التربة والمناخ . والمجتمع الحديث يحارب الطبيعة ليتحرر من ربقتها بازالة الفقر وتنوير العقل وكبح المرض والانتصار على التربة والمناخ

حرية الفكر اذن لا تكفى

ولا بد معها من حرية الفعل

وهذه عند هوايتهد معناها الانتصار على الطبيعة وتحطيم سلطانها على الانسان . وهو يلخص رأيه بقوله : ان « جوهر الحرية هو تحقيق الهدف » ويدعم رأيه بقوله : ان بروميثيوس لم يسرق من الآلهة حرية الصحافة

ليعطيها للبشر ، ولـكنه سرق منها النار أم المدنية والعلوم

وقصة جهـاد الانسـان فى سـبيل التحرر من أسر الطبيعة هو ما يسمى عادة بالتفسير الاقتصادى للتاريخ

هـذا رأى فيلسوف مثالى افلاطونى وهو يلتقى فى كثير من وجوهه بآراء أئمة الماديين

***

وهكذا يجتهـد المجتهدون فى تفسير معانى الحرية فيكشف كل منهم عن وجه من وجوهها ، ولن يصـل بحث فيها الى تمام لان مفهـوم الحرية يتطور بتطور الحضارات

ومن يتأمل رأى هوايتهد فى الحرية يجد انه يرادف دون أن يشعر بين فكرة الحرية وفكرة القانون ، وهـذا ما يجعله مفكرا افلاطونيا أصيلا

فالقانون هو القيد الذى يفرض باسم المجتمع للتوفيق بين الحقوق المتضاربة والحريات المتعارضة ، سـواء بالنسبة للأفراد أو بالنسبة للهيئات . وفكرة القـانون هى ضرورة التنسيق

أما الحرية بالمعنى المـألوف البسيط فهى ما يقيض لابناء المجتمع من مجال للفكر وللعمـل بعد مواجهـة ضرورات التنسيق بالقوانين ، سواء أكانت هذه القوانين نابعة من داخل النفوس أم مفروضة من الخارج بسلطان المجتمع الزاجر

برتراند راسل

— ١ —

ان قلت « عالم » صدقت . وان قلت « فيلسوف » صدقت . وان قلت « حكيم » صدقت . وهو فوق كل هذا رائد من اعظم رواد هذا العصر المضطرب الذى نعيش فيه . هذا الشيخ الفانى الذى قارب التسعين ولا يزال يملأ الدنيا علما وفكرا وحكمة وأملا وتفاؤلا ، وصفه الفيلسوف جود عن حق بأنه أحكم رجل فى عصرنا ، وقال فيه بعض الناس عن حق ، ما قاله مالك فى الخمر ، بل وعن حق أقذعوا اقذاعا . ومع ذلك فمنذ أيام فولتير ، لم ير العالم رجلا وقف كل حياته وجهده للدفاع عن قضية واحدة بسيطة هى قضية العقل والتسامح ، العقل فى كل شىء ، والتسامح فى كل شىء ، مثلما فعل برتراند رسل

وكيف ننتظر من مجتمع مسيحى ، ألا يضيق بمفكر يكتب له كتابا عنوانه : « لماذا لست مسيحيا » . وكيف ننتظر من مجتمع مؤمن ، ألا يضيق بمفكر يكتب له

كتابا عنوانه « مقالات شكاك » ، وكيف ننتظر من مجتمع محافظ ، ألا يضيق بمفكر وقف قلمه على نسف مقدسات الناس فى كتابه « الزواج والاخلاق » ، ومع هذا كله فمصدر ضعفه الهائل هذا ، هو مصدر قوته الهائلة أيضا ، وهو ايمانه بالعقل والتسامح فى كل شىء من الاشياء

وثق برتراند رسل بالعقل وثوقا هادئا وكاملا ومخيفا . فجعل من العقل مقياسه الذى يحتكم اليه فى كل شىء . فبالعقل قاس الاخلاق ، وبالعقل قاس القيم والمعتقدات والتقاليد ، وبالعقل قاس السلوك والغرائز والعواطف والمصالح . وهداه عقله الى شىء واحد مقرر عنده هو فلسفة « اللايقين » اذا جاز لنا ان نستعمل هذا التعبير . وسلط نور عقله هذا على كثير من الاساطير السياسية التى يسميها البعض نظما ومذاهب ، فبدد منها الصالح والطالح على السواء . ووفق فى كثير مما ذهب اليه وأخطأ فى كثير . ولكن دفاعه الباسل عن السلام سيبقى دائما أبدا جزءا لا يتجزأ من تراثه . ولكثرة ما كتب برتراند رسل فى السياسة والفكر السياسى ، يحسبه القارىء مفكرا سياسيا أولا وقبل كل شىء ، وحقيقة الامر انه عالم رياضى أولا ، وفيلسوف ثانيا ، ومفكر اجتماعى ثالثا ، ومصلح سياسى آخر الامر

أما مكانته الاولى ، فهي مكانة العالم الرياضى ، وقد استقرت له هذه المكانة منذ عام ١٩١٠ حين خرج على الدوائر العلمية ، وهو بعد أستاذ بجامعة كامبريدج بالجزء الاول من كتابه المشهور « مبادىء الرياضة » ، وهو فى أربعة أجزاء ، ذلك الكتاب الذى

وضعه بالاشتراك مع زميله العالم الرياضى والفيلسوف هوايتهد ، ثم خرج فى عام ١٩١٢ بالجزء الثانى ، وفى عام ١٩١٣ بالجزء الثالث ، وفىعام ١٩١٤ بالجزء الرابع. هـذا الـكتاب الذى يتواضع صـاحباه فيسميـانه « مبادىء الرياضة » ، ليس فى حقيقته من المبادىء فى شىء ، بل هو دعامة فلسفة رياضية كبرى تفسر الـكون برموز الرياضـة ، وتضع دعامة علم المعرفة الجديد ، الذى يربط الفهم والمنطق والادراك بالرياضيات

والواقع ان شخصية الفيلسوف والرياضى ، لا تتجزأ فى برتراند رسـل ، فهو منـذ ان نشر بحثـه عن « الرياضيات وما وراء الطبيعة » عام ١٩٠١ ، وموضوع ادراك الانسان للعالم المادى ، هو محور أبحاثه العلميـة والفلسفية ، لهذا اشتبكت نظرياته فى نظرية النسبيـة التى وضعها العلامة اينشتين اشتباكا لم يستطع الفكاك

منه أبدا . فوضع فيها مؤلفا يعرفه الخاص والعام هو « ألف باء النسبية » . أكاد أقول ، انه ليس بيننا نحن المثقفين المتطفلين على العلوم ، من عرف شيئا عن نظرية اينشتين فى النسبيـة ، الا عن طريق برتراند رسل ، الذى بسطها ويسرها لغير المشتغلين بالجبـر وبهندسة المنحنيات

وتتعدد مؤلفات رسل فى الفلسفة والرياضـة فيكتب « مجمل الفلسفة » ، ويكتب « تحليل المادة » ، ويكتب « تحليل العقل » ، ويكتب « المدخل الى الفلسـفة الرياضية » ، ويكتب « معرفتنا بالعالم الخارجى » ، ويكتب « المنطق والمعرفة » ، ويكتب « بحث فى معنى الحقيقة » ، ويكتب « المعرفة الانسانية » ، ويكتب « مشاكل الفلسفة» ، ويكتب «تاريخ الفلسفة الغربية» ،

ويكتب « التصوف والمنطق » ، وهى كما ترى مؤلفات يدور اكثرها حول محور واحد، هو عقل الانسان وقدرته على ادراك ظواهر الوجود ادراكا صحيحا ، أو باختصار حول قدرة العقل على المعرفة ، وسبل العقل الى الحقيقة . ومن هذه المؤلفات ، ما أحدث ضجة فى دوائر الرياضيين والفلاسفة سواء بسواء ، لا لشيوع روح الشك فيه فحسب ، ولكن لانه جمع من الجرأة والعمق والوضوح ما جعل أعقد مشاكل الفلسفة فى متناول رجل الشارع

ورغم كل هذه الاهتمامات الفلسفية والعلمية الصميمة ، لم ينشغل برتراند رسل لحظة واحدة عن مشاكل هذا العصر الصاخب الذى نعيش فيه ، ولا عن مشاكل هذا المجتمع المتغير الذى نعيش فيه . وكان دائما فى الطليعة ، يتحمل مسئولية الفكر والكلمة ، ويدفع ضريبة الفكر والكلمة ، فقدر لهذا اللورد النبيل ، سليل اللوردات النبلاء ، أن يترك مقعده الوثير فى مجلس اللوردات الى غياهب السجن ، وقدر له ان يعزل من كرسى الاستاذية بجامعة كامبريدج ، ليجابه عنت الحياة فى نيويورك ، يرمقه الناس بنظرة الريبة والتخوف ، وقدر له ان يجرد من لقب اللورد تحقيرا لشخصه ولفكره ، ليتوج بجائزة نوبل عام ١٩٥٠ ، اعترافا بفضله على الانسانية كلها . وها هو ذا اليوم ، يقف كالمارد ، رغم شيخوخته الفانية ، يقود المتظاهرين فى شوارع لندن ، احتجاجا على الاسلحة الذرية

ففى الحرب العالمية الاولى ، رفض شاب من المجندين حمل السلاح ، لان حمل السلاح فى نظره مناف لمبادىء السلام التى بذرتها فيه عقيدته المسيحية ، فصدر

الحكم بسجنه . وتصدى برتراند رسل للدفاع عن قضيته وعن قضية « معترضى الضمير » كما يسمونهم ، فى كراسة نشرها رسل على النـــاس ، فقدم للمحاكمة وقضت المحكمة بتغريمه مائة جنيه . وبعد ذلك بشهور، عرض رسل باستخدام الجيش بدلا من البوليس فى قمع اضراب قام به بعض العمال ، فحوكم مرة اخرى وقضت المحكمة بسجنه ستة شهور . ثم ما لبث ان تحدى الرأى العام والسلطات مرة أخرى ، حين دعا للسلم وســط الحرب العالمية الاولى ، وندد بأغراض الحرب ووسائلها ، ذاهبا الى ان الحرب لن تحل المشاكل القائمة بين الالمان والحلفاء ، فتعرض لسخط قومه وجرد من لقبه وعزل من وظيفته فى الجامعة . ولـكن برتراند رسل غير موقفه من الحرب ابان الحرب العالمية الثانية ، فكان من أعنف الداعين لمناهضة النازية والفاشية بقوة السلاح ، كذلك زار رسل الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٢٠ ، ومنذ ذلك التاريخ وهو فى مقدمة المناهضين للشيوعية نظريا وعمليا

وما كان ممكنا لمثل هــذا الرجل ان يقف من الذرة مكتوف اليدين ، لهذا كان طبيعيا فيه ومنتظرا منه ، ان يخصص جهده الاكبر منذ انتهاء الحرب العالميـــة الثانية لمناهضة التجارب الذرية ولتبصير الاذهان بالدمار الشامل الذى ينتظر العالم ان هو اشـــتبك فى حرب ذرية . ولم يقف برتراند رسل وحده هذه المرة ، بل وقف معه الآلاف من العلمـــاء والادباء فى كل ركن من أركان العالم

وقبل ان يجتمع أول مؤتمر لاقطاب العالم بجنيف فى صيف عام ١٩٥٥ ، عقد برتراند رسل مؤتمرا صحفيا فى ٩ يوليو عام ١٩٥٥ دعا اليه الصحفيين من اطراف

العالم ، ليقرأ عليهم نداء وقعت عليه طائفة من أعظم علماء العالم ، وفى مقدمتهم صديقه وزميله العلامة البرت اينشتين ، تناشد فيه الحكومات أن تتقيد أمام شعوبها بتجنب اشعال حرب عالمية تقضى فيها الاسلحة الذرية على الجنس البشرى . وهذا نص البيان :

« نظرا لان الأسلحة النووية ستستخدم لا محالة ، فى أية حرب قادمة

« ونظرا لان هذه الاسلحة تهدد بقاء الجنس البشرى

« فنحن نهيب بحكومات العالم ان تدرك ، وان تصرح علنا ، ان مراميها لا يمكن ان تخدمها حرب عالمية

« ونحن نهيب بها ، بناء على ذلك ، ان تجد الوسائل السلمية لتسوية كل ما بينها من اسباب الخلاف »

وكان هذا النداء ثمرة لمشاورات جرت بين اللورد رسل واينشتين ، انتهيا منها الى ضرورة اعلان نداء بهذا المعنى لتنبيه الاذهان قبل مؤتمر الاقطاب ، الى خطورة الاسلحة النووية على الجنس البشرى. وقد أعد برتراند رسل صياغة هذا النداء ، وتسلم رسل موافقة اينشتين على هذه الصياغة فى يوم وفاة اينشتين ، فكانت هذه آخر رسالة بعث بها هذا العالم العظيم ، الى اخوته فى الانسانية . نعم ، ان بداية الحضارة عند رسل هى الهرم ، ونهايتها هى القنبلة الذرية ، وقد كان يتفكه فى مرارة بتصويرهما معا فى صورة واحدة

فاذا أردت أن تعرف نظريات برتراند رسل فى الفكر السياسى ، وجدتها قليلة وبسيطة وفى متناول كل

الافهام . فجوهر المشكلة فى كل فكر سياسى ، هو فى نظره وعلى حد تعبيره « كيف نجمع بين تلك الدرجة من الهمة الفردية اللازمة لتحقيق التقدم ، وبين تلك الدرجة من التماسك الاجتماعى اللازمة لتحقيق البقاء »

وعند رسل ان تاريخ الانسانية تاريخ لايدل على وجود هذا التوازن ، فآنا نجد الفردية تعربد لدرجة تخل بالتماسك الاجتماعى ، وآنا نجد التماسك الاجتماعى يطغى ليخنق روح الفردية والابتكار . ولكن بقاء الجنس البشرى كله لم يكن مهددا فى يوم من الايام ، كما هو اليوم مهدد بسبب التقدم التكنولوجى العظيم ، وبحكم العلم فى المجتمع ، وظهور أسلحة الدمار الشامل، كالاسلحة النووية وما شابهها . من هنا وجبت السيطرة على هذه القوى الجبارة الجديدة ، وتسخيرها فى خدمة السلام وحده . والحل عند رسل هو السلام.. السلام بأى ثمن ، لان البديل وهو الحرب ، لم يعد انقراض المدنية فقط ، بل انقراض الجنس البشرى كله . وضمان السلام عنده لا يكون الا بظهور حكومة عالمية واحدة ، تحتكر سلطات البوليس الدولى واقرار الامن فى كل مكان ، وباعادة توزيع الثروة على جميع الشعوب ، بحيث لا تحقد أمة فقيرة على أمة غنية ، وبخفض معدل النسل فى جميع بلاد العالم وبخلق الجو الملائم لتفتح المواهب الفردية فى العلوم والفنون والآداب . ويعترف رسل بأن تحقيق هذه الغايات ، لايزال بعيد المنال على الانسانية ، ولكنه يراه أمرا ممكنا اذا سعى الناس اليه

ومن يراجع آراء برتراند رسل فى الفكر السياسى ، يجدها جميعا نابعة من موقفه الفلسفى العام : وهو الايمان العميق بالعقل والشك العميق فى العاطفة :

فأكثر النكبات التي تنزل بالانسانية جماعات وأفرادا ناجمة عن استسلام أبنائها للعاطفة والانفعالات ، بدلا من التبصر الهادىء الرشيد فى قيم الاشياء . وهو فى كتابه « المجتمع الانسانى بين الاخلاق والسياسة » ينحو باللائمة على قادة العالم فى كل زمان ومكان قائلا : « ان اغلب الزعماء السياسيين ، يبلغون مراكزهم بجعل مجموعات كبيرة من الناس ، تعتقد فى ان دوافعهم مصدرها الغيرية والايثار . ومن الواضح ان مثل هذا الاعتقاد ، يسهل الاستسلام له تحت تأثير الانفعال . والموسيقى النحاسية ، وخطابة الرعاع ، وشنق الخصوم بلا محاكمة ، والحرب ، كلها مراحل فى تقوية هذا الانفعال . واظن ان أنصار اللاعقل ، يعتقدون ان فرصتهم لخداع الجماهير ، بقصد استغلالهم ، تكون اقوى اذا جعلوها تعيش باستمرار فى جو الانفعال هذا . ولعل بغضى لهذه الطريقة ، هو الذى يجعل الناس يقولون انى أسرف فى ايمانى بالعقل »

من أجل هذا ، نجد برتراند رسل يحمل حملة عنيفة على كل الحلول الرخيصة والشعارات البراقة ، فهو مثلا يقول فى كتابه « آمال جديدة لعالم متغير » : « متى ينضب رصيد العالم من البترول الذى يمكن استخراجه؟ هل ستتحول كل الاراضى الصالحة للزراعة الى مجرد حفر من التراب ، كما حدث فى كثير من أجزاء الولايات المتحدة ؟ هل سيتكاثر السكان الى حد يجعل الناس يعودون كأسلافهم فى مجتمع الفطرة لا يجدون متسعا من الوقت للتفكير الا فى لقمة العيش ؟ هذه الاسئلة وأمثالها ، لا يمكن البت فيها بالتأمل الفلسفى العام . فالشيوعيون يعتقدون ان البترول سيجرى أنهارا اذا

لم يكن هناك رأسماليون . وبعض المتدينين يعتقدون ان القوت سيفيض فيضا عميما ، اذا تواكلنا معتمدين على العناية الالهية . ومثل هذه الآراء سطحية ، حتى حين يسمونها آراء علمية ، كما يصفها الشيوعيون »

وهـذا النفور من الحلول السهلة ، ومن الخرافات الفلسفية ، هو الذى جعل برتراند رسل ينفر من كل الفلسفات السياسية المتكاملة ، والنظم الاجتماعيـة المحددة المعالم ، فهـذه الفلسفات ، وهـذه النظم فى يقينه ، تسرف فى تبسيط مشاكل الانسانية ، وتسرف فى تبسيط حلها ، وتعد النـاس بجنات وهمية على الارض ان هم اتبعوا هذا الطريق أو ذاك . وكل ما يطلبه رسل من الناس ، هو تحكيم العقل فى كل ما يصادفنا من أفكار وأعمال

فهو يندد بالشيوعية ودعاواها ، ولـكنه لاينسى ان يندد أيضا ، بالحضارة الغربية ودعاواها ، حيث يقول فى نفس الـكتاب :

« ان بعض المناهضين للشيـوعية ، يحاولون خلق ايديولوجية لدول الاطلنطى ، ولهـذا فقد ابتكروا ما يسمونه بالقيم الغربية . وهذه القيم فى زعمهم ، تقوم على التسامح ، واحترام الحرية الفردية ، وعلى الحب الاخوى . وأخشى ان أقول ، ان هـذا الرأى مجاف للحقائق التاريخية

« فلو قارنا اوربا ببقية القـارات ، وجدنا انها تتميز بأنها قارة الاضطهاد . ولم ينته الاضطهاد منها ، الا بعد تجربة طويلة ومريرة أثبتت فشله . استمر الاضطهاد ، طالما كان البروتستانت والـكاثوليـك يأملون فى ابادة بعضهم بعضا . وصحيفة الاوربيين فى هـذا الصدد ،

اشد سوادا من صحيفة المسلمين أو الهنود أو الصينيين. كلا، لو أراد الغرب ان يباهي بتفوقه في شيء، فهو في العلم ومناهجه، وليس في القيم الاخلاقية »

- ٢ -

كلما دخلت الانسانية في دور جديد من أدوار الحضارة، كثر كلام المفكرين، والناس من بعدهم، عن وقوف الانسانية « في مفترق الطرق » ان كانوا من المعتدلين. فان كانوا من المتشائمين، تحدثوا عن قرب وقوع كارثة تطيح بالبشرية كلها، اما المتفائلون فيتحدثون عن تقدم الانسانية

وحديث التقدم أو الكارثة، ليس بجديد في هذا الطور الحضاري الذي تمر فيه الانسانية منذ الثورة الصناعية، ولكنه قد تجدد في الفترة الاخيرة تجددا واضحا، ولا سيما بعد الثورة الذرية الاخيرة التي تهدد البشرية بالفناء من ناحية، وتمنيهم بمستقبل باسم سعيد من ناحية أخرى

وقد كان العلامة اينشتين يرجح ان الجنس البشري آيل الى الانقراض في المستقبل القريب، فدراسة الجيولوجيا والبيولوجيا، تدلنا على ان انقراض الاجناس شيء مألوف في الطبيعة، ويرى اينشتين ان الجنس البشري سوف ينجح في استئصال نفسه بمهارة علمية فائقة

والانسانية عند رسل لم تبلغ بعد مرحلة الشيخوخة. بل لم تبلغ بعد سن الشباب، فهي لا تزال في طور المراهقة، من حيث نموها ومن حيث سيطرتها على

الطبيعة . والحرب القائمة بين الانسان والطبيعة عند رسل ، هي حرب التحرير الكبرى ، التي تخلص البشر فردا وجماعة وجنسا ، درجة فدرجة من أسر المادة من اغلال الضرورة . ولكن رسل لا يهون اطلاقا من الخطر الذي يتهدد البشرية ، فهذا الخطر في ظنه ماثل ، وهو قدير على ان يعصف بهذه الانسانية اليافعة التي لن ينجيها من الموت الباكر ، الا أن نضع حدا لحرب الانسان مع الانسان ، وأن تذكى حرب الانسان مع الطبيعة

وهو لذلك يستعرض الاطوار التي مر بها الجنس البشري ، منذ أن وجد الانسان بالمعنى المعروف ، أي منذ نحو مليون سنة ، ليقرأ في الماضي دلائل الامل في المستقبل

وبديهي ان اكثر ما يقال عن تطور الجنس البشري تقريبي ومبني على الافتراض والتخمين

ولكن هذا لا يمنعنا كما يقول رسل من ان نرجح انالانسان قد انحدر منسلالة القردة متسلقة الاشجار. وكانت هذه القردة تعيش عيشة هنيئة في فردوسها القديم وسط الغابات الاستوائية ، تأكل جوز الهند كلما جاعت ، ويضرب بعضها البعض الآخر به كلما شبعت . فهكذا كان مزاح القردة . وكانت هذه القردة المتسلقة ، على ذوح رياضية عالية ، لانها كانت تقضي عامة أيامها ، تتنقل بين الاشجار ، وتقفز بين الاغصان

وظل الحال على هذا المنوال بضعة ملايين من السنين ، قبل ظهور الانسان بالمعنى الذي نعرفه اليوم

ثم حدث في مجتمع القردة هذا شيء شبيه بما يحدث اليوم في مجتمعاتنا الحديثة ، فقد نشأت بينها مشكلة

كثافة السكان ، وكان لابد من ايجاد حـــل أو حلول ديموجرافية لهذه المشكلة

وحل مجتمع القردة مشكلة السكان كما نحلها اليوم بطريقتين : الهجرة والحرب

فالقردة التى كانت تعيش وسط الغابة ، ولا سبيل لها الى الاتصال بالعالم الخارجى ، تعلمت حسن الرماية بجوز الهند الذى كانت تتراشق به ليفنى بعضها بعضا ، وأدى تنازع البقاء هذا ، الى تخفيف ضغط السكان

أما القردة التى كانت تعيش على هامش الغابات ، فقد استطاعت أن تهاجر الى الحقول والسهول ، وهناك اكتشفت ان جوز الهند ليس الثمرة الوحيدة التى تجود بها الطبيعة على الاحيـــاء ، بل اكتشفت ان من ثمار الحقول ما هو أطيب واشهى

وكانت نتائج هــذه الهجرة الى الحقول والسهول ، شديدة الخطورة على مستقبل المجتمع الاول . فالقردة لم تعد تتسلق الاشجار ، بل اخذت تمشى على الارض ، وبالتالى فقد تعلمت ان تستخدم اطرافها فى غير التسلق والرياضة . بدأت تستخدم أيديها كأدوات تلتقط بها الاحجار ، وتتراشق بها بدلا من التقـاط جوز الهنـــد والتراشق به ، كما كانت تفعل فى القديم . ثم تبين لها ان الاحجار أشد فتكا من جوز الهند ، فبدأت تنظر لها نظرها الى أدوات يمكن اســـتخدامها ، واكتشفت ان الاحجار المسنونة خير من الاحجار المستديرة ، كأدوات للقطع والفتح

وهكذا تفوقت قردة الســهول والحقول فى الذكاء ، كما تفوقت قردة الاشجار فى الرياضة

ونما مخ قردة السهول والحقول ، أو نما مخ بعضها

درجة درجة ، حتى بلغت المرحلة التى جعلت علماء الجغرافيا البشرية يعدونها فى مرتبة البشر ، أو ما يقرب من مرتبة البشر

واستغرق هذا النمو نحو تسعة ملايين سنة قبل ظهور الانسان بالمعنى المعروف اليوم . وحين ظهر الانسان بالمعنى المعروف اليوم ، منذ نحو مليون سنة ، كان سلاحه الاول فى مجابهة الطبيعة ، وفى معركة البقاء هو ذكاؤه . والمعتقد ان نمو المخ ونمو الذكاء ، ظل فى اطراد الى تاريخ يقدر بنصف مليون سنة ، وعندئذ توقف المخ والذكاء عن النمو ، فقد توافرت فيهما جميع الامكانيات اللازمة لحياة الانسان

فالطبيعة لم تزد جديدا على مخ الانسان ، أو على ذكائه الفطرى منذ نصف مليون سنة ، والمعتقد افتراضا انه لو أتيح لطفل كان يعيش منذ خمسمائة ألف سنة ، أن يدخل مدرسة من مدارسنا اليوم ، لما تخلف فى شىء عن أقرانه أبناء القرن العشرين

فالانسان الاول، بعد أن اكتمل ذكاؤه ، لم يكن متخلفا عن انسان اليوم فى الاستعدادات الفطرية الموروثة ، وانما كان متخلفا عنه فى الاختبارات المكتسبة

فقد كانت تنقصه تلك الاداة التى يستطيع ان ينقل بها اختباره من فرد الى فرد ومن جماعة الى جماعة ومن جيل الى جيل

كانت تنقصه اللغة

وكانت أداته فى نقل اختباره ، هى التقليد المباشر ، وهى طريقة محدودة الاثر فى حياة الانسانية ، وان كانت نافعة على المستوى الحيوانى ، كالطير يعلم صغاره على الطيران

أما أصل اللغة فمجهول ، ولكن مما لا شك فيه ، انها نمت نموا تدريجيا . واستعمال اللغة ليس مقصورا على استعمال مخارج الاصوات ، فالقردة العليا من الناحية التشريحية ، ليس بها ما يمنعها من النطق ، وهى مع ذلك عاجزة عن الكلام . وقد أجريت تجارب لتعليم الانواع العالية منها نطق الالفاظ ففشلت هذه التجارب ، رغم مهارة الاساتذة المدربين

فمخ الانسان الراقى هو الذى مكنه من ان يطور الاصوات القليلة التى يستعملها الحيوان كاشارات أو دلالات ، وأن يضيف اليها وأن يربطها وينسق بينها حتى خرجت منها اللغة

وفى هذا المجتمع الانسانى الاول ، كانت أمام الانسان على قلة عدده مشكلات معيشية جسام . كانت هناك وفرة فى السهول والحقول ولكن الطعام رغم ذلك لم يكن ميسرا كما كان ميسرا فى الغاب . كان لا بد من السعى وراءه للعثور عليه . والمعتقد ان الناس كانوا يومئذ يعيشون جماعات صغيرة تبلغ كل منها نحو المائة ، فى تنقل كثير أو فى تنقل دائم وراء ثمار الارض ثم وراء الحيوان

واستعان الانسان بالصيد على حل مشكلة الغذاء ، والزمه طراد الحيوان باختراع الاسلحة البدائية ، ولعله اهتدى فى هذه الفترة من تاريخه الى استعمال النار . وهكذا كان الصيد ، أول مرحلة من مراحل التقدم التكنولوجى فى حياة الانسان

أما المرحلة الثانية ، فقد كانت ترويض الحيوان . ومن ترويض الحيوان نشأ المجتمع الراعى . وقد تبين للانسان أن الرعى أفضل من الصيد لسبب بسيط هو

انه أوفر انتاجا وأدعى لتنظيم حياة الانسان . فالصيد عمل فردى وهو يحل مشكلة القوت اليومى بصفة مؤقتة ، فالمشكلة تتجدد باستمرار مع الاستهلاك . أما ترويض الحيوان فهو أول نوع من أنواع الادخار والاستثمار الطويل الاجل ، وهو يحل مشكلة القوت لشهور وربما لسنوات

ثم كانت الثورة الثالثة فى وسائل الانتاج ، ألا وهى اكتشاف الزراعة . وقد كانت هذه أهم ثورة عرفها العالم قبل الثورة الصناعية

عرف الانسان الزراعة لأول مرة فى وديان الانهار ، فى مصر أولا وفى بلاد ما بين النهرين ثانيا

ويعتقد برتراند رسل ، ان الثورة الزراعية وجدت من المقاومة ما وجدته الثورة الصناعية . فالبدو الرعاة تصرفوا يومئذ كما تصرف المحافظون من أعداء الآلة فى القرن التاسع عشر ، كرسكين ووليم موريس ، ممن ساءهم أن تغزو الآلة المجتمع الانسانى ، وأن تحل محل الانسان ، فطالبوا بتحطيم الآلات والعودة الى الصناعات اليدوية

ولكن الزراعة انتصرت على الرعى فى نهاية الامر ، لأنها كانت أوفر انتاجا وأكثر تنظيما لحياة الانسان ، وبانتصار الزراعة انتصر الاستقرار على التنقل ، والحضارة على البداوة . وتحول الناس من الرعى الى الزراعة ، كما يتحول الناس اليوم من الزراعة الى الصناعة

وكانت آخر ثورة استحدثها الانسان فأتمت مقوماته التى أهلته للدخول فى الحياة المتحضرة ، هى اختراع الكتابة . وهكذا انتهت قصة ما قبل التاريخ بمعرفة

النار واللغة وأسلحة الصيد وترويض الحيوان والزراعة والكتابة . وكانت كل هذه هى الاجهزة الاساسية التى بنى بها الانسان حضارته

ومنذ أن بدأ الانسان تاريخه المعروف حتى الثـورة الصناعية التى تمت منذ مائتى سنة تقريبا ، لم يضف الى هذه المقومات الحضارية الا شيئين هامين هما : اختراع البوصلة التى ارتاد بها الانسـان البحار ، واختراع البارود الذى غير أسلحة الانسان

وانما قضى الانسان كل هذه الفترة الطويلة فى اتقان كل هذه المقومات التكنولوجية التى أقام عليها حضارته ، وفى نشر حضارته بالسلم والحرب فى مختلف أرجاء العالم ، وتعريف غيره من البشر عامدا وغير عامد ، بكل ما أتقنه من وسائل الانتاج . كذلك قضى الانسان كل هذه الفترة الطويلة فى انشاء النظم السياسية والدينية والفكرية والفنية التى تتمشى مع كل ما أصابه من تقدم تكنولوجى وفى نشر هذه النظم

وأخيرا قام الانسان منذ مائتى عام ، بأكبر ثورة عرفها منذ أن اكتشف الزراعة ، الا وهى الثورة الصناعية التى تقوم على الانتاج الآلى وتطبيق العلم على الانتاج . وقد سبق ازدهار العلم الطبيعى النظرى ، الانتاج الآلى بما يقرب من قرنين

وتوصف هذه الثورة بأنها الثورة الكبرى ، لأنها قد قلبت علاقة الانسان بالطبيعة رأسا على عقب ، وتوشك ان تقلب رأسا على عقب علاقة الانسان بالانسان

ويرى برتراند رسل فى الثورة الصناعية ، ثورة انسانية تحريرية من أعظم طراز

فالانسان عنده يتميز عن الحيوان بأن الانسان سيد

الطبيعة والحيوان عبدها ، والانسان المتحضر عنده يتميز من الانسان الفطرى بأن الاول أكثر من الثانى تحررا من أسر الطبيعة

فالانسان المشتغل بجمع القوت أو بمواجهة ضرورات الحياة ، لا يجد الفراغ الكافى للاشتغال بالعلوم أو الآداب أو الفنون أو السياسة ألخ ، فكل هذه وظائف انسانية لا سبيل الى تحققهـا ، الا اذا فاض الانتـاج على الاستهلاك

وقد كانت هـذه الوظائف فى الماضى مقصـورة على الطبقات الممتازة فى المجتمع ، وهى الطبقات التى توافر لابنائها هذا الفراغ الناتج عن فيض الانتـاج على الاستهلاك ، فتركز العلم والادب والفن والسياسة الخ .. أولا فى فئة محدودة هى الطبقة الارستقراطية ، ثم اتسعت الطبقة المتوسطة منذ الانقلاب الصناعى ، وشاركت الطبقة الارستقراطية القيـام بهذه الوظائف الانسانية العليا ، بفضل ما يسره لها الانتاج الآلى من فراغ . واليوم تسير الطبقة العاملة أيضا بفضل انتشار هذه الثورة الصناعية الى المشاركة فى هذه الوظائف جميعا

غير أن تحرر الانسان من ربقة الطبيعة ، لم يصاحبه تحرر من ربقة ماضيه . ففتوحات العلم الحديث التى نحطم بها قيود الضرورة قيدا بعد قيد ، لا يتجـاوز عمرها مائتى عام ، فى حين يرسف الانسان نفسيا وخلقيا فى أغلال تاريخه الطويل ، وعاداته التى رسخت فى أعماقه منذ عهد الغاب وعصر الصـيد والطراد وآجال الذل المرير والجشع المقيت والخـوف المتأصل والقسـوة الضارية . فهو لا يزال يفكر فى حل مشـاكله بالعنف

والتخريب وسفك الدماء ، وهو لا يزال يرى الحق من زاويته وحدها ، فخمس مجموع الانتاج الامريكى مثلا موجه للتسلح . وبقية دول العالم تخصص لأدوات الدمار جزءا مخيفا من انتاجها أو من دخلها القومى

وقد دخلت الذرة الآن فى حاضر البشرية دخولا لا سبيل للخروج منه . ونحن نحلم أعذب الاحلام بمستقبل بنائى سعيد ، تسخر فيه الذرة وكل ما وصل اليه الانسان ، لتحرير الانسانية نهائيا من أغلال الطبيعة بما يمكن أن تفدقه عليها من وفرة ورخاء ، يهيئان لها الفراغ الكافى للاشتغال بكل ما هو سام ونبيل . ولكننا نقف فى الوقت ذاته على شفا هاوية اذا استخدمت الذرة فى خدمة الحرب ، ولم تستخدم فى سبيل السلام

فالمشكلة اليوم اذن ، هى مشكلة تأقلم أو تكييف ، فاما أن تتأقلم الانسانية فى نظمها الاقتصادية والسياسية والفكرية والاجتماعية لهذه القوى الانتاجية والتخريبية الجبارة التى جدت فى العالم ، واما الكارثة والفناء والانطواء فى متاحف الحفريات مع الماموث والديناصور وغيرهما من الكائنات البائدة التى هلكت ، لانها عجزت عن ان تتكيف مع ظروف الحياة

— ٣ —

لخصت فيما سبق رأى برتراند رسل فى علاقة الانسان بالطبيعة ، وكيف صور تاريخ البشرية المادى على انه سلسلة من المعارك ، خاضها الانسان مع الطبيعة ، ليتحرر من أسرها درجة درجة ، بفضل ما هداه اليه ذكاؤه من استنباط موارد ووسائل جديدة

للانتاج ، ومن انتصارات تكنولوجية مكنته من استغلال هذه الموارد والوسائل

وبعد تحديد علاقة الانسان بالطبيعة ، يحدد لنا رسل علاقة الانسان بالانسان . فعلاقة الانسان بالانسان ، لا تقل أهمية فى حفظ ذاته ، وفى رسم ماضيه وحاضره ومستقبله ، عن علاقته بالطبيعة

كثيرا ما يقال عن الانسان انه حيوان اجتماعى بالطبع ، وهذا القول صحيح بغير شك ، ولكنه لا يمثل الحقيقة كلها . ففى الانسان جانب آخر من طبيعته ينتقص من هذه الاجتماعية ، ألا وهو الفردية . والانسان فردى بالطبع بمثل ما هو اجتماعى بالطبع ، وهـذا من المظاهر التى تميزه من الحيوان

فالاجتماعية المطلقة ، تسود مجتمع النمل والنحل والحيوانات الثديية ، رغم نزوعها الى شىء من الفردية خاضعة خضوعا واضحا لروح القطيع ولغرائز القطيع . أما الانسان فهو بين الكائنات وحده الذى تتصارع فيه الفردية والاجتماعية . وبينما نجد أن الحيوان يتكتل فى قطعان بحكم الفريزة وحدها ، نرى الانسان يتجمع فى قطعان ، عن تفكير ووعى لصيانة مصالحه ، فاجتماعية الانسان الفريزية ، تقف عند حدود معينة محدودة ، وأوضح هذه الحدود هى الأسرة . ويلاحظ أن المصدر الاول لكل ما يشوب علاقة الانسان بالانسان من قلق ، هو تعارض المصلحة الفردية مع مصلحة المجموع

وأول تنظيم اجتماعى معروف بعد الأسرة هو القبيلة . ومنشأ هذا التنظيم غير معروف ، ولعل القصـد منه كان فكرة الدفاع المشترك ، أو لعله كان أسلوبا تعاونيا للصيد وما شاكله . وعلى كل ، فقد ازداد حجم القبيلة

تدريجيا بتقدم الانسان

ولازم هذا النظام مجموعة من التقاليد والعـــادات الاجتماعية والاخلاقية التى لها قوة القانون ، لصيانة هذا النظام كتكافل أبناء القبيلة . سواء فى الانتاج أو فى رد الخطر الخارجى ، مهما قامت الشحناء بينهم فى الظروف العادية

ويلاحظ أن الكثرة الغالبة من علماء الاجتماع ، تجعل القبيلة سابقة على الأسرة

وبتقدم الزمن ، لم يزد حجم القبيلة فحسب ، بل اندمجت بعض القبائل المشتركة فى البيئـــة والظروف بعضها فى البعض الآخر ، ومنها ظهر تنظيم اجتماعى آخر ، هو الأمة . وحتى بعد ظهور الأمة ، ظلّ الولاء للقبيلة زمنا ، أشد وضوحا من الولاء للأمة ، ولم يزل هذا الشعور ، الا بفعل الدفاع المشترك . والتعبـير الموضوعى عن الأمة ، هو الدولة

وبعد نشـــوء الدول كان النازع الطبيعى فيها نحو الامبراطوريات

فحجم الوحدة الاجتماعية اذن ، يسير الى اتساع . والذى يحدد طريقة هذا الاتساع ومداه ، عاملان : أحدهما تكنولوجى ، والآخر نفسى

ولما كان لا بد فى كل تنظيم اجتمـــاعى ، من حكومة مركزية أيا كان شكلها ، كان أنسب حجم للوحـــدة الاجتماعية هو الحجم الذى يسمح للحـكومة المركزية صيانة الامن فيها من ناحية ، وللدفاع عنها ضد الخطر الخارجى من ناحية أخرى . وقد ظلت الطرق حتى زمن قريب جدا ، هى الوسيلة الوحيدة التى تتمكن بهـــا الحكومة المركزية من ارسال القوات فى أى مكان تنشب

فيه فتنة داخل نطاقها ، أو تنقل بها الجنود لقتال العدو الخارجى

فداريوس لم يستطع اقامة الامبراطورية الفارسية ، الا لانه شق طريقا من سوسا الى الساحل الغربى من آسيا الصغرى . وقد فشل رغم انتصاره فى مد رقعتها الى بلاد اليونان ، لأن هذا الطريق وقف عند حدود الاناضول الغربية

كذلك كانت الامبراطورية الرومانية تعتمد على الطرق. وحين انهارت تلك الامبراطورية ، اندثرت معها الطرق ، ولم يكن فى الامكان قيام شيء مكانها ، الا ملكيات صغيرة تافهة لا رباط بينها الا حيث انقذ الاسلام الحضارة من الانهيار

وقد ظلت الطرق العامل الرئيسى الذى يحدد حجم الامبراطوريات من داريوس الى نابليون ، وكانت الحكومات تعتمد على المشاة والفرسان فى صيانة الأمن وفى الدفاع ، وكان الحصان أسرع وسيلة للنقل والانتقال

وجاء أول تغيير هام باختراع القطار . والمظنون أن حملة نابوليون لروسيا ما كانت لتفشل ، لو ان القطار كان معروفا فى أيامه ، وبعد القطار جاء التلغراف ثم التليفون ، فربطا الحكومة المركزية بأقصى الاطراف ، من حيث استقاء الانباء أو ابلاغ الاوامر

ثم جاءت الطيارة ، فمدت ذراع السلطة المركزية عبر المحيطات والفلوات ، وقد أصبحت أبعد نقطتين اليوم على وجه الارض على بعد يومين بالطائرة

فمن الناحية التكنولوجية ، لم تعد هناك أى حد لحجم الامبراطوريات أو لحجم أى تنظيم اجتماعى أو سياسى من أى نوع كان . بل ان تقدم وسائل المواصلات

يعجل بقيام وحدة اجتماعية سياسية واسعة النطاق ، يمكن أن تشمل العالم كله ، تحكمها حكومة مركزية واحدة سواء أكانت هذه الحكومة مركزا لامبراطورية عالمية ، أو مركزا لائتلاف دولى من نوع الامم المتحدة

ولكن العوامل النفسية فى الامم والشعوب ، تؤخر قيام هذه الوحدة الضخمة وتقاومها ، وتجعل صيانة هذه الوحدة غير ممكنة ، الا بوسائل العنف والقمع . وهذه العوامل النفسية تتبلور فى الفكرة القومية . فالفكرة القومية هى العدو الطبيعى للامبراطوريات

والفكرة القومية ليست فكرة قديمة ، بل فكرة حديثة نسبيا ، ويمكن أن نقول : ان واضعة بذرتها هى جان دارك . فقبل جان دارك عرف العالم امبراطوريات تجمع شعوبا وأمما مختلفة ، كالامبراطورية الرومانية والامبراطورية العربية ، وكانت هذه الأمم والشعوب راضية ، رغم اختلافها ، بالعيش داخل اطار واحد كبير ، فيه حكومة مركزية واحدة

وقد التهبت هذه الروح القومية فى عصر النهضة ، ولا سيما فى انجلترا ايام اليصابات ، ثم اندلعت فى فرنسا أيام الثورة الفرنسية ، وقد علمها نابوليون للألمان والروس ، وعلمها مترنخ للايطاليين ، وهكذا انتشرت فى جميع أرجاء العالم . وهى اليوم القوة الوحيدة التى يمكن أن تعادل قوة الاخاء الايديولوجى فى العالم

وقد اقترنت الروح القومية فى كثير من الاحيان ، بفكرة التفوق العنصرى ، كما اعتمدت فى كثير من الاحيان على تزييف التاريخ عن قصد وعن غير قصد ، فجعلت

كل أمة تعتقد انها أرقى أرومة وأسمى عنصرا وأخصب ثقافة من غيرها من الامم ، كما جعلت كل أمة تفسر التاريخ من زاويتها فقط . فالفرنسى مثلا يتعلم ان نابوليون اوشك أن ينتصر انتصارا ساحقا فى ووترلو ، لولا ان طعنه البروسيون من الخلف . والالمانى يتعلم ان هزيمة ولنجتون كانت محققة لولا ان خف بلوخر الى نجدته . والانجليزى يتعلم أن ثبات الانجليز ومثابرتهم فى القتال ، هما اللذان أنزلا الهزيمة بنابوليون ، وما كان دور بلوخر فى ووترلو الا دورا مساعدا فحسب . ولكن التلاميذ الانجليز ، لا يتعلمون تعليق ولنجتون نفسه على المعركة وهو « انها كانت شيئا لطيفا جدا »

كذلك تحاول كل أمة أن تثبت ان الذى اكتشف نظرية التطور أو النظرية الذرية أو قوانين الجاذبية أو الامريكتين ، عالم من علمائها ، أو رائد من روادها

فالتقدم التكنولوجى يربط العالم ربطا ، ويمهد السبيل لقيام حكومة عالمية . ولكن الروح القومية تفك هذا الرباط وتمنع ظهور هذه الوحدة الشاملة

وقد جرب العالم فكرة الاتحاد العالمى مرتين : فى عصبة الأمم وفى الامم المتحدة . وفى كل مرة تبين ان الروح القومية أقوى من فكرة الاتحاد العالمى ، أو أن الروح الفردية أقوى من الروح الاجتماعية

والحل عند رسل هو اقامة حكومة مركزية فى العالم ، تملك سلطة التنفيذ والتشريع والقضاء ، وتصل يدها الطولى الى أقصى أرجاء المعمورة لاقرار النظام فيها ، ولو باستخدام العنف ، وتنقذ الانسانية وحضارتها من الانقراض المحقق الذى ينتظرها لو نشبت فيها حرب ذرية

ولا يجد رسل حرجا فى القول ، بأنه سيان لديه أن تقام هذه الحكومة المركزية بالتراضى بين الامم ، أو بانتصار دولة من الدول العظمى وتوحيدها العالم قسرا ، وهو يستند فى ذلك الى شواهد التاريخ التى تثبت أن حركات التوحيد القومى ذاته ، لم تتم فى كل دولة على حدة الا بظهور قوة مركزية قاهرة ، تبسط سلطانها على الولايات أو الامارات المحيطة بها ، وتصوغ منها دولة موحدة

والتسلسل الطبيعى فى نظره هو الاسرة ثم القبيلة ثم الامة ثم الامم المتحالفة ثم العالم كله

وتكون أول واجبات تضطلع بها هذه الحكومة العالمية ، حل مشاكل ثلاث : مشكلة السكان ، والمشكلة العنصرية، ومشكلة التطاحن المذهبى حتى تحقق الاستقرار المطلوب والسلام الدائم

وما من شك فى أن برتراند رسل حكيم من حكماء عصرنا ، اشتهر بكثرة دفاعه عن قضية السلام والعدالة الاجتماعية ، كما اشتهر بالدفاع عن الضعفاء ، وبالتنديد بالاستعمار

ولكن الحل الذى يوصى به لانقاذ البشرية والحضارة من الانقراض الذرى ، هو من شطط الحكماء ، لأنه يوطىء لظهور حكومة امبراطورية يكون مسرحها العالم كله

فقد يكون قيام الحكومة العالمية فى يوم من الايام ، لازما لصيانة السلام الدائم ، ولتعميم الرخاء فى جميع أرجاء الارض، ولازالة الصراعات الايديولوجية والعنصرية القائمة اليوم بين البشر . ولا بأس من أن نسلم مع برتراند رسل ، بأن مستقبل الانسانية كله يتوقف على

ظهور هذه السلطة المركزية التى يتحدث عنها

ولكننا نتلفت حولنا ، فلا نرى أى دليل يدل على أن العالم قد نضج فى الوقت الحاضر ، لظهور هذه الحكومة العالمية ، بل نرى أن ظهور هذه الحكومة العالمية فى المستقبل القريب ، قد يعرض العالم لزعازع أشد خطورة عليه من أوجاعه الحالية

فقيام دولة قومية ضخمة تملك أرقى الوسائل التكنولوجية بتوحيد العالم على غرار ما يقترحه برتراند رسل فكرة تقوم على التناقض

فالدولة القومية بوصف انها قومية ، دولة تبلورت فيها المصالح القومية والعقائد القومية بخيرها وشرها ، هذه المصالح أو العقائد التى يرى منها برتراند رسل مصدر الخطر الاول على السلام العالمى . وهى دولة يؤمن أبناؤها بتفوقهم العنصرى والثقافى الخ ، على بقية دول العالم ويفترضون لأنفسهم حقوق السيادة على بقية اخوانهم فى الانسانية ، وهذا ما يناقض فكرة الوحدة العالمية والحكومة العالمية التى لن يكون لها معنى أو يكون فيها خير ، الا اذا طبقت مبادىء الحرية والاخاء والمساواة والعدالة ، وغير هذا كله من المبادىء التى تنشدها الانسانية لجميع رعاياها فى كل ركن من أركان المعمورة

وبعبارة أخرى ، فان قيام دولة قومية بتوحيد العالم ، يؤدى بالضرورة الى قيام دولة امبراطورية لا تغرب الشمس عن أملاكها بالمعنى الحقيقى لا بالمعنى المجازى . وينتهى باسترقاق أمة كبيرة واحدة أو مجموعة متواطئة من الامم تملك وسائل البطش والارهاب لبقية شعوب الارض القليلة العدد الضئيلة الموارد

فالدولة القومية لا يمكن أن توتمن على انشاء الحكومة العالمية ، لان الفكرة القومية تناقض الفكرة العالمية ، وأيا كان الرأى فى هذه أو فى تلك ، فمحال أن ننتظر من حكومة تبلورت فيها الفكرة القومية أن تعمل على خدمة جميع شعوب الارض على قدم المساواة

وانما يقترب العالم من فكرة الاتحاد العالمى الحقيقى ، ومن فكرة الحكومة المركزيه العالمية ، حين تسوده فلسفة انسانية ايجابية ، قوامها الاخاء الانسانى ، والمساواة أمام القانون وتكافؤ الحقوق ، ويغلب فيه خير المجموع البشرى على خير الامم فرادى ، وهذا لن يكون الا اذا نزلت الدول الكبرى أولا عن فكرتها القومية ، وآمنت قبل سواها بالمجتمع العالمى.

أما قبل ذلك فالقومية هى السلاح الوحيد الذى تملكه الامم الصغيرة الفقيرة ، لتحمى نفسها من قومية الامم القوية الغنية

وبرتراند رسل يذكر شواهد كثيرة من التاريخ ، ليثبت ان حركات التوحيد القومى ذاته ، لم تتم الا بالعنف وفرض السلطان المركزى على الامارات والدويلات المحلية

ولكنه لا يذكر أن فى التاريخ شواهد أخرى تدل على ان اختفاء القوميات ، صغيرة كانت أو كبيرة ، لم يتم الا حين استغرقت الفكرة القومية فكرة انسانية جامعة أعلى منها ، تسوى بين سائر البشر فى الحقوق والواجبات ، كما حدث فى العالم المسيحى أيام العصور الوسطى التى امتدت نحو ألف عام ، وأيام العالم الاسلامى الذى امتد جملة قرون ، وان الفكرة العالمية لم تنقرض فى العالم المسيحى ، أو فى العالم الاسلامى ،

الا حين تحولت الى أداة سياسية قومية ، فى يد بعض البابوات وفي يد بعض الخلفاء ، فتشقق العالم المسيحى والعالم الاسلامى الى قومياته السابقة لتحمى كل قومية نفسها من عدوان القومية المركزية

فالفكرة العالمية لن تقوم لها قائمة ولن يكون لها معنى الا اذا اقترنت بايمان انسانى قائم على الفكرة الانسانية ومدعم بالايديولوجيا الانسانية ، ولا يشترط أن تزيل هذه الفكرة الانسانية الفكرة القومية تماما ، ولكن يجب أن تهذبها وتجعل منها أداة للدفاع عن النفس ، بعد أن كانت أداة للعدوان على الغير ، ووسيلة لتعارف الاقوام وتفاهمها وتعاونها ، بعد أن كانت وسيلة قوم لاسترقاق غيرهم من الأقوام وصبغهم بصبغتهم

ولا يشترط فى الفكرة العالمية أن تكون قائمة على الدين والا تناحرت الاديان وتحول السعى الى ربط البشرية فى عالم واحد ، الى صراع بين أقوام تسخر الدين الانسانى — لخدمة القومية ، كما حدث مثلا أيام الحروب الصليبية — بل وأيام كان الفربيون يوفدون المبشرين الى البلاد المختلفة ليمهدوا لهم الطريق

بل اننا لا نعرف حركة ناجحة أو ناجعة من حركات التوحيد التى يحدثنا عنها برتراند رسل ، الا وكانت قائمة على الفكرة الانسانية قبل أن تقوم على حد السيف . فالاسكندر الاكبر غزا الامصار حقا ولكن ما أن مات حتى انهار البنيان الشامخ الذى بناه ، لأن التاريخ لم يرو لنا أنه كان ينشر مع الموت حياة انسانية جديدة . أما يوليوس قيصر ، فقد وحد المشرق والمغرب زمنا ، لان الرومان كانوا يوزعون « العدالة » الرومانية ، و « القانون » الرومانى و « السلام » الرومانى فى بقاع

الارض أينما نزلوا . وقد كانت هذه ايجابية انسانية ، ربطوا بها أوربا زمنا ولم يتخل عنها الاوربيون حتى بعد أن دالت دولة الرومان

كذلك ربط نابليون أوربا بما نشره فيها من مبادىء الثورة الفرنسية أكثر مما ربطها بمدفعيته ، فقد حطم نابليون الاقطاع وحرر رقيق الارض خارج فرنسا ، وأرسى فى العالم كله قواعد القانون الحديث . ولو لم تسبق جنوده أفكاره ، لما ثار الاحرار فى كل مكان على « القومية » الفرنسية التى بلغت قمتها فى أيامه

ولنكولن يوم وحد الولايات المتحدة ، كانت لديه رسالة انسانية خالدة ، هى تحرير العبيد . واذا كان قد أيد رسالته بالبارود ، فقد ذهب البارود وبقيت الرسالة

فأين هى المبادىء الانسانية العليا التى تصلح أساسا لقيام مجتمع عالمى تهيمن عليه سلطة تنفيذية واحدة ، وسلطة تشريعية واحدة ، وسلطة قضائية واحدة ؟

لا شك أن بذورها موجودة فى « بعض » مواد ميثاق الامم المتحدة وفى أكثر مواد الاعلان العالمى لحقوق الانسان ، ولكننا لا نزال بعد فى أول الطريق ، والطريق لا يزال أمامنا طويلا غير ممهد . وخير الف مرة أن يتعثر العالم كما تعثرت الامم المتحدة من ان تضطلع دولة كبرى « قومية » أو مجموعة من الدول باقامة هذه الحكومة العالمية من طريق الاكراه

ولن ينزل الضعفاء عن القومية حتى ينزل عنها الاقوياء

جان بول سارتر

عندما احتل النازى فرنسا ابان الحرب العالمية الثانية امتلأت تلك البلاد بالمعذبين وكان من أكثر الناس عذابا رجل صغير ، بعينه حول شديد ، يعمل مدرسا فى مدرسة ثانوية يدرس الفلسفة والادب ويدرسهما . وكان هذا الرجل معذبا أكثر من غيره لأنه كان فى مقدمة من واجهوا مشكلة الحرية ـ التى سلبت من بلادهم ـ بكل وجدانهم وفكرهم وشجاعتهم

ودفعه العذاب الى تأمل القيود ، والبحث عن الحرية التى يحطم بها هذه القيود . وكان العذاب عظيما فكان التأمل عظيما والبحث عظيما أيضا .. وهداه تأمله وبحثه الى اعتناق تلك الفلسفة المشهورة التى يسمع بها كل الناس ولا يعرف حقيقتها الا الأقلون ، وهذه هى الفلسفة الوجودية التى اقترن اسمها باسم هذا المفكر الغريب الجسور جان بول سارتر

وفى بحثه عن الحرية اشترك سارتر فى حركة المقاومة ضد الالمان وسجن ، فيمن سجنوا من المقاومين . وفى ١٩٤٣ خرج جان بول سارتر على الناس بكتاب ضخم

غريب تقرؤه فتحسبه طلاسم من معميات الفكر الالمانى، هو كتابه عن « الوجود والعدم » ثم يتضح للناس ان هذه الطلاسم الفكرية ليست الا الدعامة الكبرى لفلسفة كبيرة هى فلسفة الحرية هذه التى يسميها أصحابها ويسميها الناس معهم : الفلسفة الوجودية

واذا أردت أن تعرف ما الوجودية فى كلمات فجوهر هذه الفلسفة هو حرية الانسان

ولكن هذه الحرية التى يتحدث عنها سارتر وأشياعه ليست بالحرية البسيطة التى يفهمها الناس ولكنها حرية هائلة مخيفة يرتجف منها أكثر الناس لانهم يرتعدون أمام مقدماتها ويرتعدون أمام مسئولياتها . هى حرية يقف فيها الانسان فى الكون وحيدا بلا عماد ، حرية يقف فيها الانسان عاريا أمام نفسه ويجابه مصيره بنفسه . لا يسأل الا نفسه عما كسبت نفسه

فالوجود عند سارتر فى ذاته وجود بلا غاية ، وجود سخيف فى عالم لامعقول ، والانسان موجود لا أكثر ولا أقل لا يعرف من أين أتى ولا الى أين هو ذاهب ، فهو بمثابة لقيط فى مكان موحش ، هو الطبيعة ، لا يجد حوله أبا ولا أما وليس له ما يعتمد عليه الا نفسه ، وكل ما يعرفه عن وجوده هو أنه محكوم ومسير ، تحكمه وتسيره قوى هائلة ساحقة بعضها لا يستطيع له دفعا . فهو يأكل ليحيا فان انقطع عنه الطعام هلك ، وهو يحب ويتناسل بقوة الجبر الذى لا يستطيع له دفعا ، وهو يمرض ويبرد ويشيخ ويتعب ، وهو يخضع لنواميس نفسية واجتماعية وكونية بعضها أقوى من ارادته

فلا فرق اذن بين الانسان ، هذا الذى يحكمه الجبر وتسوقه الطبيعة ، وبين الحيوان الذى يحكمه الجبر

وتسوقه الطبيعة ، لا فرق بين الانسان والحيوان الا في شيء واحد • وهذا الشيء هو الارادة العاقلة • نعم العقل هو الذى يميز الانسان عن الحيوان . الحيوان عبد أبدى للطبيعة لانه محكوم من الخارج بقوانينها ومن الداخل بغرائزه •• أما الانسان فهو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يقاوم الجبر ويتحرر من أسر الطبيعة وضعفها . وهو يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الحيوان ، لأن له عقلا يفهم به الاشياء ، عقلا لم يحظ به الحيوان

الانسان اذن وحيد فى الكون ليس له ما يعتمد عليه الا نفسه • والانسان اذن مسئول عن نفسه لان له عقلا يفهم به اغلال الحياة وارادة عاقلة يحطم بها هذه الاغلال. كل ما فى الطبيعة عبد مسير الا الانسان ، فهو وحده حر مخير • فلأن له عقلا فهو مختار • ولانه مختار فهو مسئول . الانسان عند سارتر مسئول . مسئول عن نفسه مسئول عن غيره .. فسارتر لا يقصد بالانسان فلانا أو علانا وانما يقصد كل الناس، كل أفرادالانسانية، كل انسان مسئول . مسئول عن نفسه وعن بقية اخوته فى الانسانية

وأول مظهر عملى لهذه المسئولية عند سارتر هو الحرية . كل ما فى الطبيعة يرسف فى اغلال لا يستطيع الفكاك منها ، الا الانسان وحده فهو قادر على الحرية . بل أكثر من ذلك الانسان ، لا تكتمل انسانيته الا اذا اكتملت حريته وبمقدار ما هو حر يمكن تسميته انسانا. فواجب الانسان الاول هو البحث عن الحرية والسعى اليها وتحقيقها . الحرية لنفسه والحرية لبنى الانسان

نعم الحرية من كل نوع . الحرية فى السياسة . الحرية فى المجتمع • الحرية فى الاخلاق • واذا كان الانسان

يشترك مع بقية أنواع الحيوان فى خضوعه لأسر الجبر الذى يحكم حياته العضوية ، فلا يزال أمام الانسان عالم رحيب يحقق فيه حريته ويمارسها . وهذا هو عالم القيم والقوانين التى تحكم الفرد والمجتمع . هذا العالم الرحيب من خلقه ومن ابتكاره فهو اذن من اختياره

ليس فى قوانين المجتمع ولا فى قيم الاخلاق ما هو ثابت وأزلى ولا يمكن تغييره . ليس فى الانسان طبيعة انسانية لا يستطيع الانسان أن يغيرها ويرقيها وينحو بها نحو خيره وكماله ، كل انسان قادر على صنع حاضره وتقرير مصيره . كل انسان يختار لنفسه والانسان هو ما يختاره لنفسه فى الحياة . الانسان هو مجموعة أعماله

ولأن كل انسان مسئول عن نفسه وعن اخوته فى الانسانية يخرج سارتر بالنتيجة الحتمية لهذه المسئولية، وهى ضرورة « الالتزام » . فالمسئولية تصبح عبئا والحرية تصبح شيئا بغير معنى ما لم « يلتزم » الانسان بالدفاع عنها . الانسان لا يكون انسانا الا اذا « التزم » بشىء واحد ، وهذا الشىء هو قضية الحرية : الحرية لنفسه والحرية لبنى الانسان . الحرية فى فرنسا والحرية فى كل مكان

الانسان الذى يستحق صفة الانسان لا يلزم بالحرية ولكنه يلتزم بها بمحض اختياره

من أجل هذه الحرية وقف سارتر وراء قضية الحرية فى كل مكان . ليس له صديق دائم ولا عدو دائم . انما صديقه هو صديق الحرية وعدوه هو عدو الحرية

من أجل هذا كافح سارتر الالمان والنازية سرا وجهرا حين داست بحذائها ارادة الشعب الفرنسى

فلما أن فعل هذا هلل له الشيوعيون فى كل مكان وأعلنوا انه صديق الحياة . فلما نشر مسرحيته « الايدى القذرة » عام ١٩٤٨ وصور فيها زعيما شيوعيا مزيفا يطغى لحسابه ويرتكب الجرائم باسم الجماهير الصاعدة، تنكر له الشيوعيون ورموه بكل ألوان السباب وهلل له المعسكر الغربى ايما تهليل . ولما هاجم اضطهاد الزنوج فى أمريكا وهاجم تفجيراتها الذرية أبغضـــه الامريكيون ايما بغض وهتف له اليسار فى كل مكان ، ولكنه لم يلبث أن ندد بالاتحاد السوفييتى أيام ثورة المجر فمجده الغرب وسبه الشرق بلا حساب

وهو اليوم كما ترى يقود كتاب فرنسا وفنانيها فى حملة رائعة دفاعا عن حق الجزائريين فى تقرير مصيرهم تلك الحملة التى دوت أصداؤها فى كل مكان منذ شهور قليلة حين وقع جان بول سارتر البيان المعروف ببيان الـ ١٢١ ومنهم زوجته أو صديقته الكاتبة الذائعـــة الصيت سيمون دى بوفوار والفنـــانة الكبيرة سيمون سنيوريه وطائفة كبيرة من أســاتذة الجامعات ورجال العلم والفن والقلم ، فنـــالهم من عنت الجنرال ديجـول شىء كثير

وليس فى مواقف سارتر المتناقضة هذه أى تناقض ، فهى جميعا مواقف منطقية ومنتظرة لانها تعبر تعبيرا طبيعيا عن فلسفته الوجودية : فهو وراء الحرية فى كل شىء وفى كل موقف وفى كل مكان « يلتزم » بها وحدها ولا يلتزم بشىء سواها

ومن يقرأ كتابة الصغير « الوجودية مذهب انسانى » يجد انه برغم معارضـــته لكثير من القيم الأساسية فى فلسفة الغرب يرفض الفلسفة الماركسية رفضا باتا .

بل ويرفض كل الفلسفات التاريخية ، بما فيها مثالية هيجل لأنها تصور الانسان على انه خاضع فى حياته وتطوره لجبر مطلق خارج عنه لا اختيار له فيه ، وهو جبر المادة أو الاقتصاد من ناحية أو جبر الروح والفكر المطلق من ناحية أخرى ، من كل ما ينفى مسئولية الانسان عن حياته وعن مصيره .

هذه هى مشكلة الحرية التى يضعها جان بول سارتر أمام كل انسان وهى حرية كما ترى مخيفة ومعقدة ، وأخوف ما فيها ان يحس كل انسان انه مسئول عن نفسه وعن مصيره وعن معتقداته وعن سلوكه بحكم انه مختار ، وأعقد ما فيها ان هذا الاختيار لا يكون اختيارا راقيا الا اذا كان اختيارا بين امكانيات خصبة متعددة ، وليس اختيارا بين امكانيات فقيرة قليلة . فأقرب الناس الى الحيوان رجل سلبى يستسلم لما تتركه له الطبيعة الطاغية أو المجتمع الطاغى من امكانيات محدودة ساذجة هى والجبر سواء بسواء . والانسان الراقى لا يحقق وجوده أو وجوديته الا اذا ارتقى وعيه وتعاطفه مع الحياة بحيث تمتلىء حياته بخصوبة لا حد لها وبامكانيات لا حصر لها ، وبحيث يصاب « بحيرة الاختيار » من هذه الامكانيات الخصبة المتعددة وبحيث يصاب بالقلق الدائم ، القلق العميق ، الذى لا مخرج منه الا الاختيار الراقى ، اختيار أفضل الاحتمالات والالتزام بكل قضية تخدم خيره وخير الانسانية . وليس من قضية عند سارتر تخدم خير الانسان والانسانية أرقى من قضية الحرية : الحرية للنفس والحرية للغير .

هذا هو القلق الوجودى الذى دعا اليه جان بول سارتر وأشياعه : قلق دائم فى سبيل مزيد من حرية

الانسان وتعميق قدرته على الاختيار والنمـــو والعـاقل الواعى .

من أجل هذا عادى سارتر كل العقائد والتقاليد التى تصور الإنسان على انه مجرد أداة فى يد الطبيعة أو مجرد كائن سلبى ، تحكمه نواميس فى الطبيعة أو المجتمـــع خارجة عن ارادته . ومن أجـل هذا عادى سارتر كل العقائد والتقاليد التى تشد الانسان الى الأرض شـــدا وتسلبه القدرة على تغيير مصيره .

هذا هو صاحب ذلك الكتاب الفلسفى العظيم « الوجود والعدم » وهو كتاب ان قرأه غير المتفلسفين لم يفهموا منه حرفا واحدا .

ولكن سارتر الفيلسوف خرج عن سنة الفلاسفة فعبر عن آرائه الوجودية بالأدب وبالسلوك .

كتب القصة الطويلة وكتب القصة القصيرة .

وكتب المسرحية وكتب المقال .

كتب قصة « الغثيان » وهي قصة تصور حياة مدرس فرنسى متفتح فى بلدة فرنسية صغير تافهـــة : الطبيعـة فيها مملة والحياة فيها مملة والناس مملون والمجتمـــع فيها قائم على الزيف وكل ما فيها يثير فى النفس الحية الغثيان . وصور فى هذه القصة كيف واجه هذا المدرس فريسة الملل والزيف ، مشكلة الملل والزيف بقبوله عزلة الفكر الحر وبرفضه أن يشارك فى حيـاة اللاصدق التى انبنى عليها مجتمع هذه القرية الظالمة . نعم الانســان القلق الممزق الذى يرفض فى « تعال » واحتقـــار كل « سخيف » و « لامعقول » فى الحياة هو الانسان الوجودى الصحيح .

« الباب المغلق » و « المومس المحتشمة » و « الذباب » و « الأيدى القذرة » و « الحائط » و « اسرى التونا » و « المواقف » كل هذه وغيرها آثار أدبية كتبها جان بول سارتر الى جانب اشرافه على مجلة « تان موديرن » أو « العصر الحديث » التى تجمعت فيها خلاصة الفكر الجديد فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية وفى هذه المسرحيات والقصص والابحاث لا يتعرض سارتر لشىء الا لمشكلة الحرية ومقامها فى النفس الانسانية وفى المجتمع الانسانى ويرسم فيها مشكلة الانسان الثائر على الجبر، ومشكلة الانسان الساعى الى الاختيار ، ومشكلة الانسان الرافض المتحدى ، الرافض لكل القيود المتحدى لكل الاغلال .

حتى فى حياته الشخصية يأبى سارتر وزوجته أو صديقته الكاتبة الوجودية الكبيرة سيمون دى بوفوار ، تمشيا مع الفلسفة الوجودية ، أن يرتبطا بقيد الزواج ، وهما مع ذلك يسيران مسيرة الأزواج المخلصين بغير قيد يربطهما من الخارج ، نحو عشرين سنة . فحين تعارفا وتحابا منذ زمن بعيد عرض سارتر على سيمون دى بوفوار الزواج ، فقالت: لا، انما نتزوج بمحض الاختيار. الآن وفى كل وقت من الاوقات . والعقد الشرعى فيه املاء يحد من الاختيار : فليكن زواجنا اذن زواجا قائما على التراضى بلا اشتراط ولا املاء ، فان بقينا معا فذلك لأننا نختار ذلك بمحض ارادتنا وليس لأن المجتمع يقرر لنا ما ينبغى أن نفعل .

دع كل الزهور تتفتح

صدرت منذ أيام الترجمة العربية لبحث وضعه حديثا ماوتسى تونج رئيس جمهورية الصين الشعبية ، واسم هذا البحث « معالجة المتناقضات بين صفوف الشعب » ، وقد قدم لهذه الترجمة ناشرها وهو الاستاذ لطف الله سليمان بمقدمة تحليلية علمية يوضح فيها بعض ما أصاب الفكرة الاشتراكية من تطور نتيجة لتحول بعض المجتمعات خارج الاتحاد السوفييتى كالصين ويوجوسلافيا الى مجتمعات اشتراكية .

والبحث فى مجموعه يدور حول المشاكل الناشئة عن الانتقال من القديم الى الجديد فى المجتمع الصينى بالذات . وليس هذا مجال مناقشة التطورات التى جرت فى الصين منذ استقرت مقاليدها فى يد ماوتسى تونج واشياعه ولكن للادباء والفنانين والنقاد ورجال الفكر بوجه عام نصيبا فى هذا الكتاب الصغير : ففيه دفاع عن حرية الفن وحرية الفكر وحرية النقد بليغ ، وفيه حسم لما يمترى به بعض الممترين من أصحاب اليمين وأصحاب اليسار من ان حرية الفكر والشعور

والتعبير تختفى فى مجتمع قائم على التخطيط أو ينبغى ان تختفى .

وأنا ما ذكرت قضية الحريات المعنوية الا وذكريات معها دفاع الشاعر الانجليزى العظيم ملتون صاحب ملحمة « الفردوس المفقود » عن حرية العقيدة وحرية التعبير فى مقاله المشهور « الأريوباجيتيكا » ، ثم دفاع الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت ميل عن حرية الرأى وهو موضوع كتابه المشهور « فى الحرية » ، ثم دفاع الاستاذ هارولد لاسكى عن الحريات السياسية ولا سيما الحريات المعنوية فى كتابه المشهور « الحرية فى الدولة الحديثة » .

وانى لأستطيع مطمئنا ان أضم الى هذه الكتب الثلاثة كتابا رابعا هو كتاب ماوتسى تونج هذا الذى نتحدث عنه ، أو على الاصح بعض صفحات من هذا الكتاب الذى لايتخذ من الحرية موضوعا له ولكنه يفرد للحريات المعنوية بابا من أبوابه باعتبارها مشكلة من المشاكل التى يواجهها المجتمع الصينى الحديث .

فماوتسى تونج يوصى باتباع أربعة شعارات هى :

١ ـ « دع مائة زهرة تتفتح » .

٢ ـ « دع مائة مدرسة فكرية تتصارع » .

٣ ـ « التعايش الطويل الأمد » .

٤ ـ « الاشراف المتبادل » .

بل هو يوصى بأن توضع هذه الشعارات فى المقدمة ويدافع عنها قائلا :

«ان سياسة دع مائة زهرة تتفتح ، ودع مائة مدرسة فكرية تتصارع ، انما تهدف الى تشجيع ازدهار الفنون وتقدم العلم ، وتهدف الى تمكين الثقافة الاشتراكية من

النمو فى بلادنا • فالاشكال والانماط المختلفة للفن يمكنها ان تنمو بحرية ، ويمكن للمدارس العلمية المختلفة ان تتصارع بحرية . نحن نعتقد ان اتخاذ اجراءات ادارية لفرض نمط فنى خاص أو مدرسة فكرية معينة ومنع أخرى ، مضر لنمو الفن والعلم ، ويجب ان تحسم مسائل الصواب والخطأ فى الفنون والعلوم خلال المناقشة الحرة فى الدوائر الفنية والعلمية ، وفى أثناء النشاط العملي فى الفنون والعلوم . ويجب ألا تحسم هذه المسائل بطريقة مختصرة ، فغالبا ما نكون فى حاجة الى فترة اختبار لنقرر ما اذا كان شيء ما صحيحا أو خاطئا .

وكثيرا ما كانت الأشياء الجديدة الصحيحة تفشل فى الماضى فى اكتساب اعتراف أغلبية الناس بها ، وكان عليها ان تنمو بطرق ملتوية وبعد نضال . وكثيرا ما كان ينظر لأول وهلة الى الاشياء الطيبة ، لا على أنها زهور عاطرة ، ولكن على أنها أعشاب سامة . وقد رفضت نظرية كوبرنيكوس عن النظام الشمسى ، ونظرية داروين عن التطور ، كنظريات خاطئة ، وكان عليها أن تنتصر على مقاومة مريرة » .

ولقد ألفنا ان نجد مثل هذا الدفاع فى كتابات المفكرين الديمقراطيين الليبراليين ، المتمسكين بالحرية بمعناها التقليدى المطلق القديم ، وألفنا ان نجد نقيضه فى كتابات مفكرى التخطيط الاجتماعى من أى نوع كان، ومنه التخطيط الاشتراكى ، ولا سيما دعاة المجتمع الخالى من الطبقات .

ومن هنا أهمية أقوال ماوتسى تونج . فهذه أول مرة فى حدود علمى نجد فيها توفيقا صريحا بين مبدأ التخطيط الشامل الذى تعمل الاشتراكية الشاملة على تحقيقه

باسم التحرير الاقتصادى وبين حرية الفكر والشعور والتعبير ، تلك الحرية التى تعمل الديمقراطية على تحقيقها باسم حقوق الانسان .

فماوتسي تونج يحدد الهدف الذى يريد تحقيقه بأنه ازدهار الفنون وتقدم العلوم وتنمية الثقافة الاشتراكية فى بلاده . وهو يرى ان الفن والعلم والثقافة من أى نوع كانت لا يمكن ان تفرض فرضا « بالاجراءات الادارية » على حد تعبيره ، وانما تنمو وتؤتى ثمارها فى جو من الحرية وضوء الشمس . بل هو يرى ان القسر فى شئون الفن والعلم والثقافة يضر ولا ينفع ، فضلا عن انه غير مجد كما يثبت لنا تاريخ الفكر من أقدم العصور .

فالمنهج عنده ان نترك كل الزهور تتفتح وتنضح أريجها تحت أنفاس الناس فان كانت ذات أريج اجتذب الناس أريجها وان كانت مجرد ألوان باردة لا عطر فيها تركناها لتذبل ولم نأسف عليها حين تذبل .

فأنت اذن فى العالم الذى يعيش فيه ماوتسي تونج ، اذا طابق القول العمل ، تستطيع ان كنت من أهل الفن ان تكون فنانا واقعيا أو فنانا رومانسيا أو فنانا رمزيا أو فنانا وجوديا أو فنانا سيرياليا أو فنانا كلاسيكيا تقليديا اذا أردت دون ان تتعرض لتعسف من الدولة أو من بقية مواطنيك ، فان لم تعجبك مدرسة من مدارس الفن هذه ، ففى مستطاعك ان تنشىء لنفسك ولغيرك مدرسة جديدة لم يسبقك اليها أحد ، وان كنت صاحب رأى فى الحياة أو فى المجتمع أو صاحب نظرية فى أى علم من العلوم فالحال نفس الحال . وانما الذى يثبت سلامة فنك واتزان فكرك وصواب علمك هو « المناقشة الحرة » بين رجال الفن والادب والعلم « والنشاط العلمى » فى

مجال الفنون والآداب والعلوم .

فأين هذه المعانى الجميلة من قول بعض الفنانين والأدباء والعلماء انك لن تكون فنانا ولا أديبا ولا عالما الا اذا اتبعت مدرسة معينة بالذات هى المدرسة التى ينتمون اليها ؟ فان كانوا من أصحاب الواقعية أو المادية ضاقوا بكل ماخرج عن المذهب المادى ضيقا معيبا ولو كان الامر بيدهم لحرموه تحريما . وان كانوا من أصحاب المدرسة الروحية أو المدرسة الكلاسية التقليدية فى الفن أو فى الأدب أو فى العلم أو فى أى وجه من وجوه التفكير الانسانى نادوا بالويل والثبور كلما رأوا شططا عن مذهبهم ، ولو قدر لهم لسحقوا كل مخالف وكل جديد؟

لقد كان أرسطو يعلمنا ان الحق واحد ومطلق ، وان الشيء لا يمكن ان يجمع بين نفسه وبين نقيضه وان التناقض سبيل الخطأ .

فعلمنا أفلاطون ان التناقض سبيل الصواب ، لأن الحق لا يظهر الا بالجدل وبظهور التناقض فى الأقوال والافعال والاشياء .

وقد كمل منطق أفلاطون منطق أرسطو ، ولا أقول نقضه كما يذهب البعض ، فعلمنا أفلاطون كيف نصل الى الحقيقة فى عالم متغير أبدا متجدد أبدا ، كما علمنا أرسطو كيف نصل الى الحقيقة فى عالم ثابت الاركان .

ولست أدرى ان كان ماوتسى تونج ممن يحفلون بالفلسفة فى حد ذاتها ، ولكن ايمانه العميق بمبادئه من ناحية وايمانه بضرورة تعدد المبادىء وتصارعها من ناحية أخرى هو التطبيق العملى لمنطق أرسطو ومنطق أفلاطون معا .

كذلك الشعار الذى يسميه ماوتسى تونج « التعايش

الطويل الامد » شعار يدل على عمق فهمه لطبيعة الفكر الانسانى القائم على التناقض فى سبيل الوصول الى الصواب .

فهو رغم ايمانه بمذهب معين من مذاهب الفكر لايقول بالتعايش المؤقت بين مذهبه وغيره من المذاهب ، ذلك التعايش الذى تمليه ضرورات معينة رهينة بأوقاتها ، أو ذلك التعايش النهاز للفرص الذى يسميه البعض تاكتيكا والبعض الآخر استراتيجية . ولكنه يقول بالتعايش الطويل الامد لانه يعلم ان الاهتداء الى الفكر السليم والعلم الصحيح لا يتحقق بين يوم وليلة أو بين سنة وسنة . وهو يضرب المثل بنظرية كوبرنيك فى الفلك وبنظرية داروين فى النشوء والارتقاء ليدلل على ان تصارع الافكار حتى فى المجال العلمى البحت قد يمتد عشرات السنوات ، ولعله يمتد فى بعض الاحوال قرونا طويلة . والفيصل فيه دائما ليس القسر أو الاجباروانما الاقتناع القائم على المعرفة .

أما نظرية ماوتسى تونج فى « الاشراف المتبادل » فهى البديل للنظرية القائلة « بالنقد الذاتى » ، وهى نظرية ليست شائعة بين المتطرفين من أهل اليسار فحسب ولكنها شائعة بين المتطرفين من أهل اليمين كذلك .

فالأصل فى نظرية « النقد الذاتى » ان جميع أبناء المجتمع متفقون فى الايمان بمذهب واحد أو بأيديولوجيا واحدة تقوم بينهم مقام الدين الذى لا يختلف فى أركانه اثنان ، وان وظيفة النقد فى هذا المجتمع قاصرة على دراسة التطبيقات العملية لهذه الايديولوجيا ومدى مطابقتها للمبادىء النظريةأو انحرافها عنها ، وهىقاصرة على تفسير الفقهاء لما هو غامض فى هذه المبادىء

وتخريجهم لما هو مجمل منها .

أما نظرية ماوتسى تونج فى « الاشراف المتبادل » فهى تفترض تعدد المذاهب أو الايديولوجيات فى المجتمع ، وتفترض ان تعارض هذه المذاهب هو السبيل الوحيد لغربلتها وتبين الفاسد منها من الصحيح . فحيث يسود مبدأ « الاشراف المتبادل » يشرف اتباع كل مذهب على تقويم أفكار اتباع غيره من المذاهب ومراقبة تطبيقهم لما اعتنقوا من الآراء .

ويرى ماوتسى تونج ان هذه المبادىء الديمقراطية مستوحاة من الظروف التاريخية التى أحاطت بتطور الصين فى ماضيها وتحيط بها فى حاضرها . وهو يصف هذه المبادىء بأنها مبادىء تصلح للمجتمع المتعددالطبقات كالمجتمع الصينى مثلا « فان البروليتاريا يمكن انتعتمد عليها ، وكذلك البورجوازية والناس الآخرون » .

هذه هى الاركان الأربعة للتفكير وللتعبير فى ديمقراطية الصين الشعبية كما أرساها الرئيس ماوتسى تونج . وهى تعد تحولا جديدا فى التفكير الاشتراكى أو اضافة جديدة الى التراث الاشتراكى ان كنت تؤثر هذه العبارة(١) .

---

(١) كتب هذا المقال منذ نحوعشر سنوات فى ١٩٥٨ ويبدو من تطورات الثورة الثقافية فى الصينالشعبية ان ماوتسى تونج قد عدل موقفه من مبادئه الاربعة تعديلاجذريا .

ضبط البروليتاريا

كشف جوليان هكسلى ، أستاذ البيولوجيا والمدير السابق لمؤسسة اليونسكو ، فى كتاب له اسمه «مقالات فى العلم الشعبى » عن حقيقة الدوافع التى تحدو بكثير من أبناء الطبقات العالية فى المجتمع الى الدعوة لتحديد نسل الطبقة العاملة . فقد كتب يقول : « ان ابراز الحقائق المتصلة باحصاءات السكان الحديثة أدى الى هبوط معدل المواليد فى القرن الاخير هبوطا سريعا . وقد لوحظ هذا بوضوح شديد فى الطبقات العالية . ولا سيما فى أسر الفنيين والمثقفين ، ولوحظ بدرجة أقل بين العمال الفنيين ، فأقل بين العمال غير الفنيين ، وكان الهبوط على أقل درجاته فى احياء الفقراء » .

ويخيل الى ان هذا هو المصدر الحقيقى لذلك الجزع الذى ينتاب أبناء الطبقات العالية ازاء تكاثر طبقة البروليتاريا .

فأبناء الطبقة المتوسطة مثلا يحددون نسلهم فى الظاهر بارادتهم وفى الواقع بغير ارادتهم لتقل الافواه المستهلكة لدخل الاسرة ، وبالتالى يحظى كل منهم بنصيب أوفر

من ذلك الدخل ينفق على رفع مستواه المعيشى . فبدلا من أن يكون لرب الاسرة عشرة أبناء تسوء تغذيتهم ويرث ملبسهم ويقف تعليمهم عند المراحل الاولية وتقل العناية بتنشئتهم ، فهو يؤثر ان يكتفي بثلاثة تحسن تغذيتهم ويرقى هندامهم ويتم تعليمهم فى الجامعات ، ويجد الاب والام والمجتمع عامة الوقت الكافى والجهد الكافى للعناية بتنشئتهم . وفى ذلك يقول جوليان هكسلى : « الكم أم الكيف فى السكان ؟ من ذا الذى يتردد فى اختيار الكيف ؟ » لهذا يجب ضبط نسل البروليتاريا اقتداء بما تفعله الطبقة المتوسطة .

ومن كل هذا تتفرع طائفة من الحجج فى الدفاع عن ضبط النسل ، منها مثلا ان كثرة الحمل تجهد المرأة وتضعف نسلها وبذلك تخرب نصف المجتمع ، ولكن أهم هذه الحجج ثلاث :

١ ــ ان كثرة النسل تنشر الفقر . وانتشار الفقر ينشر القلق الاجتماعى .

٢ ــ اننا لم نر دولة تشجع تكاثر السكان الا اذا كانت دولة عسكرية توسعية تطلب وقودا للمدافع . واذا كان لا بد على أسوأ الفروض من ابادة الفائض من البشر فمن الرحمة بهم ان يبادوا قبل ان ينعموا بالحياة ، أى من طريق ضبط النسل .

٣ ــ ان تحريم رجال الدين ضبط النسل تحريم غير سليم فهو يقوم على أن الهدف السماوى من الزواج ومن الصلة الجنسية عامة هو اثمار الاطفال ، ومن تدخل فى هذا فقد تدخل فى الحكمة السماوية من ناحية ، وجعل من الحياة الجنسية عربدة تتنافى مع الاخلاق من ناحية أخرى . وهذا التحريم مردود عليه بأن الله حين خلق

الانسان انما أراده ان ينظم شئونه بنفسه ، وان «التابو» اى التحريم الذى يفرضه المجتمع على العلاقة الجنسية فى ذاتها خرافة من بقايا الماضى . وقد كان هذا التابو قائما على التدخين وعلى استعمال الكلوروفورم فى الجراحة وعلى كل جديد عند نشأته ، ولكنه صائر الى زوال مع الايام كما يقول جوليان هكسلى .

كل مشكلة يدور البحث فيها فى حلقة مفرغة يعبر عنها الناس بحيرتهم فيما اذا كانت الفرخة أصل البيضة ام البيضة أصل الفرخة .

لهذا كانت الحيرة فيما اذا كان التكاثر أصل الفقر ام الفقر أصل التكاثر .

والاقتصاد البورجوازى بوجه عام يقول بأن التكاثر أصل الفقر ، ويشبه الدخل القومى بالفطيرة التى كلما زاد عدد الافواه ، قل نصيب كل منها ، وبالتالى لم يشبع منها احد . والعلاج فيه هو انقاص عدد الافواه .

والاقتصاد البروليتارى بوجه عام يقول بأن الفقر أصل التكاثر . بل ان كلمة بروليتاريا نفسها معناها الطبقة الولود أو شديدة الخصوبة كثيرة النسل التى لا تخدم الدولة بمالها ولكن بأبنائها . والاقتصاد البروليتارى يرى ان الفقر بسبب كثافة السكان لان كل ابن يولد للاسرة الفقيرة ليس عبئا عليها بل مصدرا جديدا من مصادر دخلها . فتوالد الفقراء هو سبيلهم الى رفع مستواهم المعيشي ، وهو أشبه شيء بانشاء الجمعيات التعاونية على نطاق فطرى . والعلاج فى هذا الاقتصاد العمالى هو تكبير الفطيرة وتحسين التوزيع لا تقليل عدد الافواه . والفطيرة هنا هى الدخل القومى الحاصل من الانتاج .

فالطبقة المتوسطة قليلة الولد لانها متوسطة ،وليست متوسطة لانها قليلة الولد .

وحين يقترب مستوى الطبقة العـــاملة من مستوى الطبقة المتوســـطة بازدياد دخلها الحقيقى وبرقيهـــا وفسادها معا بأسباب المدنية سوف تعمد هذه الطبقة من تلقاء نفسها الى ضبط نسلها والى طلب المشورة والتوسل الى ذلك بكل سبيل .

وحين يرتفع دخل العامل الحقيقى فلا يكون بحاجة الى استثمار عشرة أولاد فورا لاكتساب القوت اليومى ، سوف يؤثر من تلقاء نفسه استثمار ثلاثة اولاد استثمارا طويل الاجل بادخالهم المدارس وربما الجامعات . وحين يتعود العامل النظافة وقراءة الصحيفة يوميا والكتـــاب أحيانا ومتابعة الراديو والسينما والمسرح والاســـتضاءة بالكهرباء وربما شراء بعض الاجهزة التى تنتجها المدنية الحديثة بخيرها وشرها فسوف يهتدى من تلقاء نفسه الى ضرورة الحد من نسله .

بل سوف ينظر الى كل ولد جديد نظره الى دخيل رذل غير مرغوب فيه يريد ان يقاسمه دخله ويحرمه من نعيم المدنية الذى اعتاد عليه . وحين يتدهور عـــدد السكان نعود فنطالب المواطنين بالاكثار من النسل ، كما يحدث الآن فى دول الغرب .

أما قبل ذلك فان الدعوة الى تحديد النسل صرخة فى واد .

عندئذ فقط يحدث ما يقول به جوليان هكسلى ، وهو ان المجتمع يعوض بالكيف ما يفقده من كم .

فاذا حدثت المعجزة وأمكن تحديد النسل بغير اجراء هذا التحول الاقتصادى والاجتماعى فى حياة الطبقـــة

العاملة فسوف تكون خسارة المجتمع خسارتين: خسارة فى الكم دون تحسن فى الكيف .

من أجل هذا حدث فى عام ١٩٢٤ أيام حكومة العمال ببريطانيا ان بعض الهيئات الصحية فى أحياء الفقـــراء بلندن « حى باترسي وحى ستبنى » طلبت الى وزارة الصحة البريطانية الاذن لها باعطاء الارشادات العمليـة عن ضبط النسل ، فرفضـت الحكومة الاذن لها بذلك وهددت بسحب الترخيص الذى تمارس بموجبه تـلك الهيئات نشاطها .

ولعل فى موقف حكومة العمال هذا بعض المغالاة .

فليس فى تقديم المشورة لمن يسعى اليها ضرر ، وانما الضرر فى فرض المشورة على غير طالب لها .

المجاعة

هناك علم جديد اسمه علم السكان ، واسم هذا العلم فى لغات الغرب « الديموجرافيا » ، وهو علم خطير ، يدخل اليوم فى اكثر الدراسات الاجتماعية والاقتصادية وتعقد من اجله المؤتمرات ، وتنظم الحلقات

تقول : ولكل علم موضوع وهدف ، فما موضوع علم السكان وما هدفه .. اما موضوع علم السكان ، فهو بطبيعة الحال ، السكان فى كل بلد من بلاد الارض ، والسكان فى العالم كله ، لا أحصاؤهم وبيان عددهم اليوم فحسب ، بل احصاؤهم وبيان عددهم ومعرفة توزيعهم على كرة الارض فى كل العصور ، فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل . أما هدفه فهو دراسة الاسباب الخفية والظاهرة التى تسبب زيادة السكان او نقصهم ، واستخلاص القوانين السكانية والطبيعية والاجتماعية والاقتصادية التى تحكم زيادة المواليد او نقصها ، وزيادة الوفيات أو نقصها ، ان كانت هناك قوانين ؛ فمعرفة عوامل تكاثر الجنس البشرى ، وعوامل فنائه ، خطوة أولى فى سبيل المحافظة على هذا الجنس ، حتى

لا ينقرض كما انقرضت اجناس اخرى من الاحياء من قبل ، وهى أيضا خطوة أولى فى سبيل التنسيق بين تكاثر السكان ونمو الانتاج ، حتى يحظى كل فرد من أفراد الانسانية بنصيب كاف من الغذاء المادى والروحى الذى يكفل نموه نموا سليما ، ويكفل له اكبر قسط ممكن من السعادة فى هذه الحياة

وقد انتهى اكثر علماء السكان ، الى ان هناك علاقة ضرورية بين زيادة السكان أو نقصهم ، وبين زيادة الغذاء ونقصه ، أو كما يقول اللورد بويد أور المدير العام السابق لمنظمة الاغذية والزراعة التابعة لهيئة الامم المتحدة : « ان حجم السكان محدود بالمتوافر من الغذاء ، كما هو الحال بين أنواع الحيوان الاخرى »

نقول : وهذا أمر بديهى ، فلسنا بحاجة الى علماء فى السكان أو فى غير السكان ، لنكشف هذه الحقيقة الواضحة ، ولكن سواء اكانت واضحة أوغير واضحة ، فالاهتمام بها وابرازها ، يترتب عليه خطير الامور

فمن قائل : ما دام الامر كذلك ، وما دام انتاج الغذاء فى العالم كله ، أو فى وطن بعينه محدودا ، فلا بد اذن من ضبط النسل ومن تحديد السكان ، حتى تقل الافواه الآكلة ، فيزداد نصيب كل مواطن أو كل انسان من الطعام

ومن قائل : بل انه لا حدود يمكن ان تحد انتاج الغذاء فى العالم ، فما دام فى الانسان عقل خصب ونفس عاقلة وارادة قوية للحياة تغلب ارادة الموت فيه ، فهو قدير على ان يجعل من الفدفد القواء ، والصحارى الجرد تربة خصبة تملأ الدنيا بالخير والبركات ، وأن يجعل الارض الخصيبة أشد خصوبة وأوفر انتاجا .

فيتكاثر الناس ما شاء لهم الله أو الطبيعة أن يتكاثروا ، فلن يهلكوا من كثرة التكاثر ، فان هلكوا فذلك من شيء آخر ، وهو التطاحن أو القعود ، وهما من أمراض النفس لا من أمراض الطبيعة . والانسان لن يكون سيدا للطبيعة ، الا اذا كان سيدا على نفسه أولا ، فان تحقق له ذلك فما بقى أمره يسير

وسواء أكنت من هذا الفريق أم ذاك ، فهذا لا يغير من الموقف كثيرا ، وهو ان حجم السكان ، أى مجموع عددهم محدود بالمتوافر من الغذاء

تقول : وكيف تعرف ان هذا الكلام صحيح ؟

وهنا يجيبك علماء السكان قائلين : ان مجموع سكان العالم قبل اكتشاف الزراعة ، اى قبل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، كان نحو مليون نسمة لا اكثر على وجه التقدير ، وباكتشاف الزراعة زاد المتوافر من الغذاء ، حتى بلغ فى سنة واحد ميلادية نحو ٢٧٥ مليون نسمة ، موزعين على الوجه التالى : ١٠٠ مليون فى الهند ، و ٧٠ مليونا فى الصين ، و ٥٤ مليونا فى الامبراطورية الرومانية ، والباقى فى أجزاء العالم الاخرى . وقد كانت الهند والصين والامبراطورية الرومانية وهى تشمل مصر والشرق القديم وأغلب دول أوربا ، البقاع الوحيدة فى العالم ، حيث تطورت الزراعة

ولا تحسب ان هذه الارقام قد وضعت جزافا ، فقد أجرى فى الامبراطورية الرومانية تعداد فى سنة ٥ ميلادية ، يمكن ان تستخلص منه بعض التقديرات . كذلك لا تحسب ان هذه الارقام مقدسة منزلة من السماء صحيحة الى اقرب مليون ، فما هى الا تقديرات

من اجتهاد العلماء ، وقد يجد من الكشوف العلمية ما يدخل عليها بعض التعديل

ومن هذا ترى ان نمو السكان فى العالم القديم ، كان بطيئا ، فهو قد ازداد من مليون الى ٢٧٥ مليونا فى ثمانية آلاف سنة ، وكان معدل هذا النمو أو الزيادة أقل من ٣٠٠٠٠ نسمة سنويا ، بين سنة ٨٠٠٠ ق.م. وسنة ١ ميلادية

اما معدل نمو السكان من سنة ١ ميلادية الى سنة ١٦٠٠ ميلادية ، وهى الفترة التى تسمى عادة بالعصور الوسطى ، فقد ازداد الى نحو ١٠٠,٠٠٠ نسمة سنويا على وجه التقريب ، وهذه لا شك ، زيادة واضحة

ولكن الزيادة الحقيقية فى معدل نمو السكان ، وفى مجموع سكان العالم لم تبدأ الا منذ عصر النهضة ، أو ما يسمى بالعالم الحديث ، أى منذ سنة ١٦٠٠ ، وقد ظل معدل هذه الزيادة فى ارتفاع مطرد جيلا بعد جيل ، حتى بلغ تعداد سكان العالم نحو ٢٥٠٠ مليون نسمة وتجاوز معدل الزيادة السنوية الآن ٣٥ مليون نسمة ، اى ان سكان العالم يزدادون الآن سنويا نحو ٣٥ مليون نسمة

وليس هناك من سبب واضح لهذه الزيادة الخطيرة فى عدد السكان الا تقدم العلوم والفنون ، وتقدم وسائل الانتاج والتكنولوجيا ، وهو تقدم بدأ نحو عام ١٦٠٠ ، وظهر أثره فى وجهين : ترقية الزراعة من ناحية ، ومكافحة الامراض من ناحية أخرى

وكان اكبر معدل لزيادة السكان منذ ١٦٠٠ فى غرب أوربا ، لانها كانت مركز هذا التقدم فى العلوم والفنون ووسائل الانتاج والتكنولوجيا ، كما أن تفوقها هذا مكن

لها من استعمار القارات المتخلفة عنها واستجلاب مزيد من الغذاء منها الى جانب رقى الزراعة فيها

انظر مثلا الى انجلترا : كان عددها ٩ ملايين نسـمة سنة ١٨٠٠ فأصبح ٣٣ مليونا سـنة ١٩٠٠ ، بل ان هذا الاحصاء فى ذاته لا يمثل الحقيقة كلها ، اذ ينبغى ان يضاف اليه عدد الانجليز الذين هاجروا الى امريكا واستراليا وافريقيا وآسيـا ، وما انجبوا من ذرية فى هذه الفترة ، وحسابهم ليس بعسير ، فقد كان معـدل من هاجروا من الجزر البريطانية بين ١٨٠٠ و ١٩٠٠ يربو على مائة الف مهاجر سنويا ، أى عشرة ملايين فى قرن كامل ، تضاف اليهم ذريتهم فى هذا القرن

وتخطىء لو حسبت ان هذه الزيادة فى السكان كانت وقفا على بلاد اوربا وحدها ، فقد امتدت هذه الزيادة الى كل بلد دخلت فيه التكنولوجيا الحديثة ، وارتقت فيه العلوم والفنون . وانما تفوقت أوربا فى « معدل » الزيادة لانها كانت المركز الذى ينبعث منه هذا التقدم

فاليابان التى اخذت بأسـباب التقدم التكنولوجى قبل غيرها من دول آسيا ، ازداد عدد سكانها من ٣٥ مليونا فى سنة ١٨٧٢ الى ٨٣ مليونا فى سنة ١٩٥٠

ومصر التى سبقت غيرها من دول افريقيا فى الاخـذ بأسباب التقدم منذ سنة ١٨٠٠ ، ازداد تعدادها على الوجه التالى :

السنة		نسمة
١٨٠٠	« تقدير الحملة الفرنسية »	٢ر٤٠٠ر٠٠٠
١٨٤٦		٤ر٥٠٠ر٠٠٠
١٨٨٢	« أول تعداد »	٦ر٨٠٠ر٠٠٠
١٨٩٧		٩ر٧٠٠ر٠٠٠

١٩٠٧		١١ر٢٨٧ر٠٠٠
١٩١٧		١٢ر٧٥٠ر٠٠٠
١٩٢٧		١٤ر٢١٧ر٠٠٠
١٩٣٧		١٥ر٩٣٢ر٠٠٠
١٩٤٧		١٩ر٢١٠ر٠٠٠
١٩٥٧	« تقديرى »	٢٢ر٠٠٠ر٠٠٠

وقس على ذلك مختلف بلاد الارض التى يدخل عليها. التقدم العلمي والتكنولوجيا فالصين اليوم يزداد سكانها بمعدل ١٢ مليون نسمة سنويا ، والهند بمعدل ٥ ملايين نسمة سنويا ، ونوشك ان نقول انه ما من دولة من دول العالم لا تأخذ اليوم بأسباب هذا التقدم ، بطريقة أو بأخرى ، ومنها ما يفعل ذلك باجتهاده ، ومنها ما يفعله باجتهاد المستعمرين والمستثمرين من الخارج ، او باجتهاد المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة المشتغلة بتعريف الدول الناشئة بأسباب التقدم ، ولا سيما منظمة الاغذية والزراعة، ومنظمة الصحة العالمية، وبرنامج المعونة الفنية ، والى حد ما منظمة اليونسكو

وازدياد السكان لا ينجم عن ارتفاع نسبة المواليد فحسب ، ولكنه ينجم أيضا عن انخفاض نسبة الوفيات ، بتأجيل سن الوفاة من طريق التغذية الكافية وتعميم الطب الوقائى

واذا أردت الدليل الملموس على ذلك ، فاعلم ان متوسط عمر الانسان فى اوربا والولايات المتحدة نحو سبعين سنة ، لان الناس يأخذون بأسباب الطب الوقائى ، ولا يعرفون الجوع الا قليلا ، اما فى آسيا وفى افريقيا وفى امريكا الجنوبية ، فمتوسط عمر الانسان يتراوح بين ثلاثين سنة واربعين سنة

وليس معنى هـــذا فى لغة علماء السكان ، ان اكثر الناس فى هذه البلاد ، يموتون بين الثلاثين والاربعين ، ولـــكن معناه ان ارتفاع نسبة الوفيات بين الاطفـــال فى هذه القارات الثلاث ، يؤثر فى المتوسط العام لعمر سكان هذه المناطق ، لان هذا المتوسط انما هو متوسط من يموتون فى جميع الاعمار

فبالطب الوقائى تكافح الامراض المتوطنـــة كالملاريا والبيوز

وفى تقارير منظمة الصحة العالمية ان بعض منـــاطق العالم قد طهرت نهائيا من الملاريا ، بفضـــل مبيدات الحشرات ، وان عدد من يجرى تطعيمهم ضد السل فى الهند وحدها ١٧٠ مليون نسمة ، وان تطهير ضـــواحى جورجتاون فى غيانا البريطانية بمسحوق د.د.ت. نجم عنه انخفاض نسبة الوفيات بين الاطفال من ٣٥٠ طفلا من كل ألف طفل سنة ١٩٤٧ الى ٦٧ طفلا من كل ألف طفل سنة ١٩٤٩

فاذا سار الحال على هذا المنوال ، فالمقدر ان عدد العالم سيصل الى ٤٠٠٠ مليون نســـمة عام ١٩٨٤ ، بحساب معدل الزيادة الحالى ، وهو ضعف عدد سكانه عام ١٩٣٩ ، فقد كان يومئذ ٢٠٠٠ مليون نسمة . ولن تكون هذه الزيادة نتيجة لارتفاع معدل ازدياد السكان فى اوربا والولايات المتحدة ، بل نتيجة لارتفاع هذا المعدل فى القارات الناشئة ، وهى آســـيا وافريقيا وامريكا الجنوبية ، فالمقدر ان تطهير هذه القارات من الامراض المتوطنة وحدها ، وتعميم الطب الوقائى فيها ، سيضاعف عدد سكانها فى أقل من ثلاثين عاما

وهـــذه الزيادة الهائلة ، ليست فى حد ذاتها شيئا

فريدا ، فهى مشـــابهة لزيادة السكان فى اوربا ، ابان القرن التاسـع عشر ، ولـكن مع هـــذا الفرق الهائل ، وهو ان معدل زيادة انتاج الغذاء كان فى القرن التاســع عشر ، متمشيا مع معدل زيادة السكان أو قريبــا من ذلك ، اما معدل زيادة انتاج الغذاء فى منتصف القرن العشرين ، فهو بعيد كل البعد عن ملاحقة معدل ازدياد سكان العالم

من هذا ترى انه ليس بغريب ان نسمع بعض علمــاء الديموجرافيا يتحدثون عن قرب وقوع كارثة انسانية من اعظم طراز ، لا تقل فظاعة عن الـكارثة الذرية التى تهدد العالم اليوم ، بل لعلها أشد منها خطرا ، وانكى أثرا ، وتلك الـكارثة هى المجاعة الشاملة التى لا تفنى آلاف البشر فى ثانية واحدة كما تفعل الاسلحة النووية ، بل تدمرهم تدميرا مقسطا ، الموت أرحم منه ، ولا تقضى عليهم الا بعد ان يفترس بعضهم بعضا فى صراع ضروس من أجل القوت

فهل تعجب بعد هذا ، أن ترى طائفة من كبار المفكرين والعلماء يتشاءمون ، أو يصيبهم الجزع حين يقراون لغة الارقام هذه ، التى يجزع أمامها العقل ، ولا يدرى القلب أيطرب أم يرتعد منها ؟

وهل تعجب بعد هذا ، ان تجد مفكرا من طراز كبير، كجواهر لال نهرو ، يبشر فى بلاده بتحديد النسل ، وان ترى طائفة من الحكومات تقر دعاة ضبط النسل على وجوب تعليم البالغين وسائل منع الحمــل فى مراكز الصحة العامة ؟

والذى يزيد الطين بلة ، ان مشكلة السكان ، لاسبيل الى حلها ، الا بطريق واحد هو زيادة الانتاج الغــذائى

فى العالم كله ، وفى اقطار العالم كل على حدة . فالتنمية الصناعية مهما كان دورها فى رفع مستوى المعيشة ، فهى فى حد ذاتها لا تتجاوز ان تكون صفرا كبيرا ضخما اذا نحن نظرنا الى مشكلة اطعام العالم فى مجموعه

فتصنيع بلد من البلاد ، مهما زاد ثروتها القومية ودخلها القومى ، فهو لن يقلل عدد الافواه آكلة الطعام فيها ، واختصار الايدى العاملة فى الريف بادخال الزراعة بالآلات ، أو ما يسمى أحيانا مكنكة الزراعة لن يختصر عدد الآكلين ، او يختصر حاجتهم الى الطعام

ولقد يحسن التصنيع والزراعة بالآلات تغذية السكان فى بلد ما ، أو يحافظ على مستواهم الغذائى ، رغم تكاثرهم ، من طريق آخر هو طريق التبادل التجارى ، فبمصنوعاتهم يستطيعون ان يستغنوا عن تصدير قوتهم لاستيراد مصنوعات الغير ، وبمصنوعاتهم يستطيعون ان يستوردوا من الغير ما يحتاجون اليه من طعام . ولكن النهضة الصناعية فى بلد ما أو فى العالم كله ، لا تحل مشكلة الطعام اذا نظرنا الى العالم ككل ، وانما تعيد توزيع الاستهلاك الغذائى على كرة الارض على أساس اقرب الى العدالة ، وهى خطوة لازمة بغير شك ، ولكنها لا تغنى عن زيادة انتاج المواد الغذائية فى العالم ككل

وقد جاء فى تقدير منظمة الاغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة ، ان متوسط ما يحتاج اليه جسم الانسان للمحافظة على حرارته ، وللقيام بالنشاط العضلى يتراوح بين ٢٥٠٠ و ٢٦٠٠ سعرا . وقد كانت هذه السعرات قبل الحرب الاخيرة ، فى احصائيات سنة ١٩٣٦ ، موزعة توزيعا سيئا بين البشر ، فمنهم نحو ٤٤٠ مليونا يحصلون من غذائهم على ٣٠٠٠ سعر أو

اكثر للفرد الواحد ، منهم نحو ١٢٣٠ مليونا يحصلون من غذائهم على أقل من اللازم وهو ٢٥٠٠ سعر للفرد الواحد. فالمتوسط العام فى العالم ككل كان اذن ٢٤٦٠ سعرا للفرد الواحد ، وهو أقل من اللازم . وفى احصائيات ١٩٤٧ - ١٩٤٨ هبط متوسط نصيب الفرد فى العالم ككل الى ٢٢١٠ سعرات وهو دون اللازم بكثير ، وبلغ عدد من لا يحصلون من سكان العالم على مجرد حاجتهم للاحتفاظ بحرارة الجسم ، والقيام بالنشاط العضلى ، وهى ٢٥٠٠ سعر ٢٠٠٠ مليون نسمة

كذلك قل نصيب الفرد الواحد فى العالم ككل من البروتينات والفيتامينات ، وكثر الاعتماد على الاغذية الكاربوايدراتية الرخيصة لمجرد تسكين الجوع . وفى احصاء ١٩٤٨ - ١٩٤٩ انخفض عدد من يحصلون على ٧٠ جراما أو اكثر من البروتينات من ٦٨٠ مليون نسمة فى سنة ١٩٣٦ الى ٤٨٠ مليون نسمة فى سنة ١٩٤٨ . وبالتالى ارتفع عدد من لا يحصلون على البروتينات اللازمة وهى ٧٠ جراما من ١٠١٠ ملايين نسمة فى سنة ١٩٣٦ الى ١٨٣٠ مليون نسمة فى سنة ١٩٤٨ . وظلت حالة التغذية تتدهور باستمرار من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى سنة ١٩٥٢ ، فقد ازداد سكان العالم بنسبة ١٢ ٪ بينما ازداد انتاج الغذاء فى العالم بنسبة ٩ ٪ غير ان الموقف قد تحسن بعض الشىء منذ ذلك التاريخ

والحصيلة النهائية لكل هذه الارقام ، حسب احصاءات الامم المتحدة ، هى انه من كل ثلاثة اشخاص فى العالم هناك شخصان سيئا التغذية ، وانه لابد من مضاعفة انتاج العالم من المواد الغذائية ، فى الخمس

والعشرين سنة القادمة ، لتوفير الغذاء الصحى لكل فرد على وجه البسيطة ، اذا استمر تزايد السكان على النمط الحالى . والا تعرض العالم لمجاعة هائلة

فماذا ينقذ العالم من هذه المجاعة الهائلة التى يتحدث عنها المتشائمون من علماء السكان ؟

لن ينقذ العالم من هذه المجاعة الا اتباع أحد طريقين :

١ ـ زيادة انتاج المواد الغذائية بما يفى بحاجة العالم

٢ ـ ضبط النسل اذا لم يكن هناك سبيل الى زيادة انتاج الغذاء الكافى

وهذه هي الحيرة التى تقع فيها الامم المتحدة وعلماء السكان فى كل بلد من بلاد العالم

أما الدول الاشتراكية والدول القائمة على التخطيط والتنظيم والتنسيق ، فهى تؤمن بالحل الاول

وهو زيادة الانتاج الغذائى بما يتمشى مع معدل الزيادة فى عدد السكان ، والاتحاد السوفييتي مثلا يمنح الجوائز للأمومة الولود . والفكرة الاساسية فى هذه الفلسفة المتفائلة هى انه ليس هناك حاجز بين الانسان وما فى الطبيعة من خيرات لا حد لها الا ما يضعه الانسان لنفسه من نظم سياسية واقتصادية ، فبالتخطيط والتنظيم والتنسيق وبتوجيه المجهود البشرى الى الانتاج السلمى يستطيع الانسان استنباط هذه الخيرات من أقل البقاع ومضاعفة غلة الارض ونتاج الحيوان

واما الدول الديمقراطية والدول القائمة على الاقتصاد الحر فهى تؤمن بالحل الثانى وهو تحديد النسل بما يتناسب مع الغذاء ، وهو ايمان قائم على التشاؤم ، فهو يفترض ان خيرات الطبيعة ليست بغير حد ، وعمل الانسان هو ان يعرف هذا الحد ويؤقلم نفسه لما ترسمه

الطبيعة من حدود والا هلك بالمجاعات والحروب

ولعل من النقائض العجيبة فى حضارتنا الحديثة ان نجد أصحاب التخطيط والتنظيم فى الانتـــاج يؤمنون بالتخطيط فى كل انتاج الا انتاج النسل الذى يرفعون عنه القيود والحدود ، وان نجـــد اصـــحاب الحرية والاطلاق فى الانتاج يؤمنون بالحرية فى كل انتـــاج الا انتاج النسل الذى يخططونه ويضبطونه ويطالبون الغير بتخطيطه وضبطه

ولـكن هناك طريقا ثالثا بين التفـــاؤل والتشاؤم يرسمه لنا اللورد بويد أور ، وهذا الطريق هو « تثبيت السكان »

وتثبيت السكان عند اللورد بويد أور ليس من عمل فرد أو أمة ولا دخل للارادة فيه بل هو قانون طبيعى يسرى على جميع الاحياء حين يبلغون مرحلة معينة من التطور فى حياتهم المادية والفكرية . وهو يستخلص هذا القانون من دراسته لدورات السكان فى غرب أوربا

فالازدياد العظيم فى عدد سكان غرب اوربا انما كان مجرد « مرحلة » أو دورة من مراحل تاريخها ودوراته ، وقد بلغ قمته فى القرن التاسع عشر

فما ان جاء القرن العشرون حتى اتجه حجم السكان الى الثبات ان لم يكن الى التناقص الطفيف مع الازدياد فى متوسط طول عمر الفرد الواحد . انظر مثلاً الى هذه الاحصائية الخاصة بمعدل الزيادة السنوية فى ســكان انجلترا « متوسط عشر سنوات » :

	معدل الزيادة عن كل الف نسمة
١٨٧١ – ١٨٨٠	١٤
١٩٠١ – ١٩١٠	١١ر٨
١٩٣١ – ١٩٤٠	٢ر٧

ومن هذا الجدول يتضح الانخفاض فى معدل الزيادة الي درجة تقرب من ثبات السكان . بل ان الاتجاه كان فى انجلترا نحو الهبوط ، ففى انجلترا كان معدل زيادة السكان ١٫٥٢ فى سنة ١٨٨٠ « اى ان كل فرد كان يزيد الى فرد ونصف تقريبا » وهبط حتى بلغ ٠٫٧٨ فى سنة ١٩٣٧ وكان عدد سكان انجلترا ٤٥ مليونا عام ١٩٤٠ فقدر رجال الاحصاء انه سينخفض الى ٣١ مليونا عام ١٩٧٥ اذا استمر فى الهبوط بنفس المعدل . ولكن نشوب الحرب العالمية الثانية وضع حدا لهذا الاتجاه نحو الانخفاض ، فحل محله اتجاه نحو الارتفاع . وهذه ظاهرة مألوفة اثناء الحروب وما بعدها مباشرة حين يرتفع معدل المواليد ويظن ان ذلك يحدث للتعويض عمن تفنيهم الحروب

ولم تكن هذه حال انجلترا وحدها فقد مرت اكثر دول غرب اوربا فى هذه الدورة السكانية ، فمال متوسط معدل المواليد فى اربع عشرة دولة الى الهبوط فى فترة ما بين الحربين . وبعد ان كان ٢٦ فى الالف عام ١٩١٥ انخفض الى ١٧ فى الالف حتى عام ١٩٣٩ ، مما حدا ببعض المفكرين الاوربيين ان يتحدثوا عن «انتحار السلالة » ولكنه عاد فارتفع للتعويض الى ٢٣ فى الالف عام ١٩٤٧

فالرأى اذن عند اللورد بويد أور ان الانسانية قد مرت من الناحية الديموجرافية منذ أقدم العصور فى ثلاث مراحل :

ففى المرحلة الاولى كان معدل المواليد مرتفعا ولكن معدل الوفيات كان مرتفعا أيضا ويوشك ان يبلغ معدل المواليد ، مما جعل ازدياد السكان بطيئا ومتوسط

الاعمار قصيرا أى نحو ثلاثين سنة وهذه المرحلة انتهت فى اوربا نحو عام ١٦٦٠ ولا تزال تمر فيها بعض بلاد افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية

وفى المرحلة الثانية انخفض معدل الوفيـــات بتوفير الغذاء وتقدم الطب دون ان يصاحبه انخفاض فى معدل المواليد ، فنجم عن ذلك ازدياد سريع فى الســكان بلغ قمته فى اوربا فى القرن التاسع عشر وطال متوسط العمر الى الخمسين عاما . وهذا فيما يبدو هو الاتجاه السائد الآن فى اكثر بلاد العالم التى تمر اليوم فى نفس ظروف اوربا خلال القرن الماضى

أما فى المرحلة الثالثة فان ارتفاع مستوى المعيشـــة ارتفاعا جديدا ورقى التعليم قد خفضا معـــدل المواليد حتى توازن مع معدل الوفيات أو دنا منه ، فأفضى ذلك الى ثبات عدد السكان وربما الى نقصانه ، ولـكنه أفضى ايضا الى امتداد متوسط العمر الى سبعين عاما . وهذا ما حدث فى عامة دول غرب اوربا فى القرن العشرين

فاذا صـــح ما يقوله اللورد بويد أور عن اتجاهات السكان فلا خوف اذن من المجاعة التى يتحدث عنهـــا المتشائمون ، لان عدد سكان العالم فى مجموعه صـــائر فى النهاية الى ثبات حين تبلغ جميع الشعوب مرحلة معينة من المدنية والرقى ولـكن الى ان يتم ذلك ينبغى ان يعد العالم عدته لتغذية ٥٠٠٠ مليون نســمة حين تحل سنة ٢٠٠٠

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ ص : ب ٢١

انجلترا :

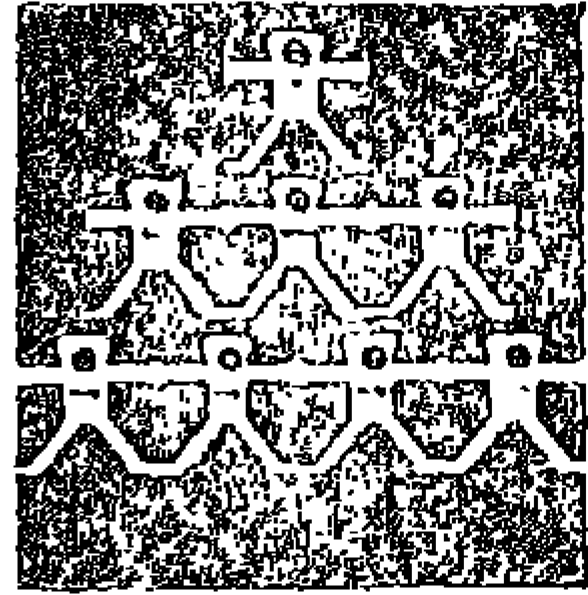
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopesthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافورة :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Maktab Attijari Asshargi
P.O. Box 2205
SINGAPORE

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406,
Soa Paulo, BRAZIL.



هذا الكتاب

مجمـــوعة من الدراسات نشرها الاســـتاذ الدكتور لويس عوض فى جريدة ((الشعب)) خـــلال عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ ، وكلها تدور حول موضوع واحد هو الحرية والاشتراكية، الى أى حد يلتقيان والى أى حد يتعـارضان ، وهذه هى مشـــكلة المشاكل فى العصر الحديث ..

والدكتور لويس عوض لم يعرض فى هذا الكتاب آراءه الخاصة وانما عرض آراء المفكرين الثوريين فى أوروبا منذ فولتير وروسو وبابيف من رسل الثورة الفرنسية ، الى سان سيمون وفورييه وروبرت اوين واصـــحاب الاشتراكية التعاونية فى القـــرن التاسع عشر الى برتراند رســــل وسارتر ولاسكى ، وفلاسفة الاشتراكية الديمقراطية فى القـــرن العشرين . فهذا الكتاب معرض للفكر البورجوازى الثورى الذى يرفض الاشـــتراكية الماركسـية اطارا ومع ذلك يحاول أن يقدم حلولا توفق بين الاشـــتراكية والديمقراطية ..

وسيجد القارىء ان بعض هـــذه الحلول مقنع وبعضها غير مقنـــع وبعضها يثير من المشاكل أكثر ممـــا يحل ، ولكنها فى جميع الاحـــوال تدفعنا للتفكير وتجبرنا على الوقوف أمامها باحترام ، لانها تمثل مجهود الفكر الانسانى الجاد لتحقيق مزيد من الحرية ومن المساواة ومن الاخاء على وجه الارض ..

١٢ قرشا

كتاب الهلال



إسرائيليات .. وما بعد العدوان

أحمد بهاء الدين

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيرى

العدد ٢٠٠ شعبان ١٣٨٧ نوفمبر ١٩٦٧

N. 200 — Novembre 1967

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات أمريكية او ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى ج . ع . م . والاسعار الموضحة اعلا بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان حلمى التونى

أحمد بهاء الدين

إسرائيليات

دار الهلال

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هى الطبعة الثالثة من كتاب « اسرائيليات » ..

وعندما طلب قسم النشر في دار الهلال اعادة طبعه ، نظرت نظرة سريعة فى صفحاته : فقد استجد بعد الطبعة الثانية حرب خاطفة شنتها اسرائيل على البلاد العربية ، وواجهت الامة العربية وما زالت تواجه أزمة من أكبر الازمات فى تاريخها الحديث ، وعادت من جديد كل المناقشات والآراء والانتقادات وقد اكتسبت سخونة جديدة ، ومرارة جديدة فى نفس الوقت .

وسألت نفسى : هل يجب أن يتغير فى الكتاب شيء ؟ ..

ووجدت أن ما أردت أن أقوله بهذا الكتاب ما زال قائما ، بل ان الاحداث أضافت دليلا جديدا عليه . ان صراع الاقدار المتصادمة بيننا وبين اسرائيل طويل . الحروب ستكون بعض صفحاته ، ولكن التحدى الحضارى الشامل بيننا كأمة عربية تفتح عينيها وتنفض الغبار عن نفسها وبين اسرائيل كموجة غزو أجنبية جديدة ، هذا التحدى الحضارى الشامل سيكون فى كل صفحات الصراع ، وهو الذى سيكتب الصفحة الاخيرة فيه .

هكذا ، رأيت أن يصدر الكتاب فى طبعته الثالثة كما هو .. على أن أضيف اليه ، فى صفحاته الاخيرة ، ما كتبت حول هذه القضية بعد حرب ٥ يونيو .. فهو يكمل الكتاب ، ويؤكد بعض ملامحه

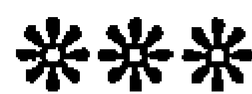
أحمد بهاء الدين
اكتوبر ١٩٦٧

مقدمة الطبعتين الأولى والثانية

مع أن اسرائيل موضوع تطرقه الصحافة والاذاعات فى شتى أنحاء البلاد العربية كل يوم بل وكل ساعة .. فان ما نعرفه عنها قليل !

يخيل لى أن أكثر حديثنا يتجه الى « اسرائيل بمعناها المباشر ، الماثل للعين المجردة » ، أى اسرائيل الدولة التى قامت بالغزو ، التى تحتل من الارض العربية مساحة محددة . اسرائيل التى قامت بفعل قوى أجنبية ، وما زالت تستمر بفعل هذه القوى . اسرائيل التى لا تقنع بما حققت : بل انها لا تكف عن طلب المزيد من المهاجرين ، وعينها دائما على المزيد من التوسع ..

اسرائيل ، بهذا المعنى المباشر الماثل للعين المجردة ، نتحدث عنه كل يوم وكل ساعة .. ولكن الذى لا نتحدث عنه كثيرا ، ولا نتوقف عنده الا نادرا هو : اسرائيل بمعنى التحدى الحضارى الذى تنطوى عليه .. التحدى الحضارى لهذه الأمة العربية . فقد كان قيام اسرائيل فى حد ذاته علامة من علامات ضعف المنطقة العربية وتخلفها الحضارى .



مهما كانت القوى التى ساهمت فى اقامة اسرائيل ،

فلا مفر من الاعتراف بأن الحركة الصهيونية النشيطة هى التى لعبت الدور الاساسى ، وهى التى جعلت تدخل هذه القوى الدولية لحسابها أمرا ممكنا

ومهما كانت ـ أيضا ـ هذه القوى التى ضحت بمصالح العرب : فلا مفر من الاعتراف بأن الحركة العربيـة كانت على درجة من الضعف والتفكك وعدم الدراية بحقـائق العصر ، جعلت انتصار هذه القوى عليها سهلا وممكنـا

تلك هى الحقائق التى يجب أن نواجهها •• واذا لـم نعترف بهذه الحقائق ونواجهها ، فكأننا لم نتعلم من كارثة فلسطين شيئا !

واذا كنا لا نعترف بهذه الحقائق ، كأننـا لا نعـرف ـ بعد ـ أبعاد الصدام مع اسرائيل ••

ان هذا الصدام ليس معركة عسكرية وليس معـركة سياسية • انه شىء أوسع من هذا وأعمق • انه معـركة حضارية • والحرب والسياسة ليسا سـوى عنصرين عابرين من عناصر واحتمـالات المعـركة الكبرى الطويلة الأمد ، هى هذه المعركة الحضارية ••

***

والكيان العربى الذى يسـتطيع أن يواجـه تحـدى اسرائيل ، ويتخطاه •• ليس مجرد حشد عسـكرى قوى أو عمل سياسى بارع • ان هذه أيضا عناصر هامة : ولكن الأهم منها أن يكون هذا الكيان نفسه مستكملا سـائر أسباب القوة الحضارية : من تقدم مادى ومعنوى وثقـافى وعلمى ••

ولكى نفهم التحدى الذى تفرضه اسرائيل علينا ، يجب أن نفهمها من الداخل •• يجب أن نفهم العوامل القـديمة

والجديدة التى تدخل فى تكوين هذا التحدى .. سواء كانت هذه العوامل موجودة داخل اسرائيل أو خارج حدودها .. سواء كانت هذه العوامل موجودة فى مجال السياسة ، أو الاقتصاد ، أو الفكر ، أو الفن ، أوالتراث..

اننى أطالب بأن تكون الجبهة التى نواجه عليها اسرائيل أوسع من الكيلومترات التى تتكون منها حدودها الجغرافية .. لأن هذه الجبهة بالفعل ، شئنا أم أبينا ، أطول من هذه الحدود .. وأعمق من المسافة التى تفصل بين خطوط الهدنة .. والبحر !

والكتاب الذى بين يديك محاولة فى هذا الاتجاه ..

أحمد بهاء الدين
مارس ١٩٦٥

الفصل الأول

مدخل إلى إسرائيل!

- أسرار العمل الدبلوماسي الصهيوني خلال نصف قرن.
- الفرق بين اليهودية والصهيونية.
- قيصر روسيا.. والخليفة التركي.. ثم إلى لندن.
- متى انتقلت قيادة الحركة إلى أمريكا؟
- وايزمان.. من روزفلت إلى ترومان.
- رد فعل العرب.

هذا الكتاب بالغ الاهمية ..

انه لا يستعرض تاريخ الحركة الصهيونية أو تاريخ اسرائيل .. ولكنه يركز على نقطة واحدة هى : العمل الدبلوماسى الصهيونى ، الذى كان يتم دائما على كل مستويات السلطة والنفوذ فى أوروبا وأمريكا ..

انه يروى قصة الحركة الصهيونية وهى تضغط على أبواب الخليفة التركى ، ثم القيصر الالمانى ، ثم رئاسة الوزارة الانجليزية.. وأخيراً : البيت الابيض والكونجرس فى الولايات المتحدة ..

ومؤلف الكتاب شاب اسمه « الن تايلور » والعنوان الاصلى للكتاب هو : Prelude To Israel أى « مدخل الى اسرائيل » . والكتاب نفسه مطبوع فى الولايات المتحدة الامريكية ، فهو لا يمكن أن يتهم بأنه متحيز ضد الصهيونية ، لأى سبب من الأسباب ..

وليست قيمة الكتاب فى أنه وثيقة خطيرة ضد الحركة الصهيونية وضد اسرائيل وضد الدول التى ساعدتها على أن تقوم .. ولكن قيمته أيضا فى انه درس خطير للعرب ، يفتح عيونهم على ما يدور فى هذا العالم من

تيارات تحتية ومن أساليب فى العمل السياسى ..

يقول المؤلف : ان هدفه من هذا الكتاب هو الكشف عن جذور الصهيونية كحركة سياسية ، وكيف تبلورت أهدافها ثم كيف انطلقت تعمل فى سبيل تحقيق هذه الاهداف ..

ومن البدء ، ينبه المؤلف الى أن القول الشائع بأن الصهيونية حركة دينية ، قول غير صحيح .. فهى فى الواقع حركة سياسية ، قامت تحمل الرد السياسى على نزعة معاداة السامية ، ذلك الرد الذى تلخص فى : خلق دولة صهيونية : وأعطاء « اليهود » صفة القومية

انها حركة سياسية ، غير دينيــة ، قامت فى شرق أوربا من جراء اضطهاد اليهود فى روسيا وبولندا والمانيا .. ولكنها ، طمعا فى تأييد يهود العالم ، عمدت الى استخدام تلك الفكرة الرومانتيكية ، « فكرة العودة » .. ومن هنا خلط النــاس بين « الصــهيونية » وبين « اليهودية » ، رغم ان الصهيونية فى أساسها حركة غير دينية ..

الخطأ الثانى الشائع ، الذى يقول المؤلف انه يريد أن ينفيه ، هو : الوهم الذى يظن أن قيام دولة اسرائيل جاء مصادفة ، نتيجــة للأمل القديم فى العودة الى فلسطين . وهذا غير صحيح . فالحقيقة التى يريد أن يثبتها الكتاب هى ان اسرائيل قامت نتيجة للجهد المخطط المنظم الذى بذلته الحركة الصهيونية . ان الصهيونية تبدو لمن يتأملها تأملا عابرا ، حركة مليئة بالفرق والشيع والأحزاب ، ولكن من يحلل سياستها وتصرفاتها ، يجدها تتم فى ترتيب وتنسيق عجيبين ، يوحى بوجود قيادة واحدة على الدوام . ويقول المؤلف هنا : انه قد يكون من المتعذر أن نثبت وجود قيادات

عليا تقوم بهذا التخطيط . ولكن النظر الى انسجام تصرفاتها يجزم بوجود هذا التصميم المدروس

ملاحظة ثالثة وأخيرة يسجلها المؤلف فى تقديمه للكتاب ، هى : ان كلمة الصهيونية فى كتابه انما تنصرف الي الصهيونية السياسية . ففى بدء الحركة الصهيونية كانت هناك صهيونيتان على الأقل : صهيونية ثقافية ، تهتم ببعث اللغة اليهودية والثقافة اليهودية ، وصهيونية سياسية لا تستهدف سوى اقامة الدولة اليهودية

وهذه الصهيونية السياسية ، كانت فى البدء مستعدة لاقامة الدولة فى أى مكان آخر ممكن ، غير فلسطين ، مما يؤكد انها كانت منصرفة فى الدرجة الاولى الى اسباغ صفة القومية السياسية على العنصر اليهودى ، وان فكرة « العودة » الدينية الى فلسطين لم تظهر الا فيما بعد ، كورقة رابحة لا غير ..

فكرة الصهيونية فى حد ذاتها ، عاشت خلال قرون طويلة كناحية من نواحى اليهودية والمسيحية على السواء . فى اليهودية كانت تعيش نتيجة ربط اليهودية بالملكة العبرية القديمة فى فلسطين . وفى المسيحية ، بدأت توجد منذ عصر كرومويل حين كان هناك اعتقاد بأن مرور ألف عام على رسالة المسيح سيضمن اعادة اليهود الى فلسطين

ولكن الصهيونية كحركة صهيونية ، ليست سوى مولود من مواليد القرن التاسع عشر . فقد بدا لبعض الوقت ان حركة التحرر والمساواة التى بدأت تغزو أوروبا سوف تحل مشكلة اليهود . ولكن اعترض ذلك عقبتان : العقبة الاولى جاءت من اليهود أنفسهم ، الذين كرهوا ما يحمله هذا التحرر من احتمال اندماجهم فى الآخرين .. حتى ان ناحوم جولدمان ، الرئيس الحالى

للحركة الصهيونية العالمية ، يقول : « ان اقامة دولة يهودية هدفه حفظ الشعب اليهودى من خطر التحرر والاندماج» . أما العقبة الثانية فكانت من أوروبا نفسها : فحين بدأ التسامح الدينى يسود ، أخذ التعصب القومى الذى كان بارزا فىالقرن التاسع عشر يتخذ مظهرا عنيفا ، جعل عملية تقبل اندماج اليهود فى القوميات البازغة يصبح صعبا من جديد ..

ثم جاء حادث هام : هو حادث اغتيال القيصر اسكندر الثانى فى روسيا عام ١٨٨١ ، فقد أرادت السلطات الروسية وقتها أن تجعل من اليهود كبش الفداء فى هذا الحادث ، فاندلعت عاصفة من ذبح اليهود واضطهادهم أدت الى موجة من الهجرة الى غرب أوروبا وأمريكا . ولكن ثلاثة آلاف من المهاجرين اليهود ذهبوا فى ذلك العام الى فلسطين . وفى عام ١٨٨٢ أقاموا « مستعمرة ريشون ليزيون » بالقرب من يافا

وفى نفس العام ، ظهرت فى روسيا لأول مرة حركة عرفت باسم chibbath Zion أى « حب صهيون » ، وكان أنصارها يتجمعون فى حلقات اسمها « أحباء صهيون »

كانت أهداف هذه الجماعات هى الهجرة الى فلسطين واحياء اللغة العبرية . وهكذا ظهرت لأول مرة بذور الصهيونية السياسية

وقد تم الاعتراف بهذه الجمعيات فى عام ١٨٩٠ تحت اسم « جمعية مساعدة الصناع والمزارعين اليهود فى سوريا وفلسطين »

كان رئيس هذه الحركة يحمل اسم « ليون بنسكر Leon Pinsker » . وكان قبل ذلك رئيسا لاحدى جماعات أحباء صهيون . وهو فى الواقع أول من دعا الى اقامة

وطن قومى لليهود ، دون التمسك بأى مكان معين لهذا الوطن ..

ولكن هذه الحركة لم تلبث أن تصدت لها معارضتان : الأولى من اليهود أنفسهم ، الذين عارضوا فكرة الوطن اليهودى أيا كان ، والمعارضة الثانية من الامبراطورية العثمانية اذ أصدر الباب العالى عام ١٨٨٨ فرمانا يقضى بمنع أية هجرة جماعيـــة يهـــودية الى أراضى الدولة العثمانية ، ولا يسمح للحجاج اليهود بقضاء أكثـــر من ثلاثة أشهر فى فلسطين ..

وتجمدت الحركة تماما ..

أما الرجل الذى دفع بهذه الحركة الى الوجود مرة أخرى فهو يهودى مجرى ، تعلم فى فيينا ، اسمه تيودور هرزل ..

كان هرزل قانونيا بدراسته ، ولكنه كان يعمل صحفيا يراسل احدى صحف فيينا من باريس ، حين أثيرت « قضية دريفويس » الشهيرة فى فرنسا ، عام ١٨٩٤

وأدرك هرزل ما تنطوى عليه ظروف هذه القضية من نزعة عدائية للسامية . ووصل هرزل الى نتيجة هى انه اذا كانت فرنسا بلد الحريات يمكن أن تهب عليهـــا عاصفة من هذا النوع ، فمعنى ذلك انه من الممكن أن تتخذ معاداة السامية أشكالا أشد عنفا وقسوة فى سائر بلاد أوروبا التى ليس لها أى حظ من التحرر الفرنسى ..

وفى صيف نفس السنة ، ١٨٩٤ ، أصدر هرزل كتابا صغيرا بعنوان « الدولة اليهودية » : يدعو فيه الى اقامة مستعمرة يهودية تحت وصاية انجلترا ، تكون فى فلسطين أو فى الارجنتين ، على أن تتطور بعـــد ذلك الى دولة يهودية قومية مستقلة ذات سيادة

ولا شك ان حديث هرزل عن امكان اقامة وطن قومى

لليهود فى الارجنتين ، يستوقف النظر . فهو يدل على ان الحركة الصـــهيونية ظهرت الى الوجود لأســـباب سياسية فقط هى الرد على حركة معاداة الســـامية ، وليس لتحقيق نبوءات اليهودية القديمة فى العودة الى فلســطين . وقد بقى جوهر الصــــهيونية هكذا دائما سياسيا تماما ، وغير دينى . صحيح أن فكرة « العودة » الرومانتيكية قد أدخلت عليها بعد ذلك ، ولكن لا لسبب سوى الاستفادة من جاذبيتها فى كسب الأنصار . أما الحركة الصهيونية فقد بقيت على الدوام كما ولدت : حركة علمية واقعية لا مذهبية .. حركة سياسية للرد على مشكلة سياسية معينة ، لا لتحقيق نبوءة دينية

كان لنشر كتاب هرزل ردود فعل مختلفة ، ولكنه جمع حوله عددا لا بأس به من الانصار ، شجعه على الدعوة الى عقد مؤتمر صهيونى عالمى ، وهى الفكرة التى سبق أن اقترحهـــا نفس الرجل الذى نحت كلمـــة « صهيونية » وهو ناثان برنباوم Nathan Birnbaum

وفى أغسطس عام ١٨٩٧ ، انعقد أول مؤتمر صهيونى عالمى ، فى مدينـــة « بال » الســـويسرية ، وفى خطاب الافتتاح ، قال هرزل : « اننا هنا لنضع حجر الاساس فى بناء البيت الذى سوف يأوى الأمة اليهودية » . ثم اقترح برنامجا من ثلاث نقط :

أولا ـ تشجيع القيام بحركة هجرة منظمة واسعة النطاق الى فلسطين

ثانيا ـ الحصول على اعتراف دولى بشرعية هـــذا التوطن فى فلسطين

ثالثا ـ انشاء منظمة دائمة لضم صفوف يهود العالم أجمع وراء القضية الصهيونية ..

ويقول المؤلف : ان هذه الأهداف الثلاثة ظلت وما تزال

هى المهمات الاساسية للحركة الصهيونية : جمع اليهود فى فلسطين . الحصول على تأييد الدول الاجنبية . وكسب اليهود الى صف الفكرة الصهيونية

واذا كان هرزل قد استخدم كلمة « دولة » فى التعبير عن هدف الصهيونية ، الا أن المؤتمر فى قراراته النهائية فضّل استخدام كلمة Heimstatte أى Homestead حتى لا يحدث رد فعل عنيف

ويرى المؤلف ان هرزل أثناء مناقشة الصياغة وهل يقال دولة أو وطن قومى ، قال : « لا تهم الصياغة ! .. سيقرأها اليهود على أى حال على انها « دولة يهودية »

وقبل أن يتم المؤتمر أعماله ، كان قد فرغ من وضع أول نظام للمنظمة الصهيونية العالمية ، بما فيها من أجهزة قيادية وأجهزة تقوم مقام وزارة الخارجية فى أى بلد . فمنذ عام ١٨٩٧ كان قد تم وضع الخطة ، ورسم الأهداف واقامة « جهاز حكومة » يتولى التخطيط والتنفيذ ..

وانطلق هرزل، بوصفه أول رئيس للمنظمة الصهيونية العالمية ، الى العمل ..

كان هرزل يعلم جيدا ، ان حجر الاساس فى اقامة هذا الحلم ، هو : موافقة الدول الاجنبية ذات الشأن ، نفس الخط الذى لم تتركه الصهيونية لحظة واحدة ، قبل قيام دولة اسرائيل وبعد قيامها ..

ولجأ هرزل أول الأمر الى أحد الحكام الاقوياء فى أوروبا ، هو الامبراطور غليوم الثانى : بداية المرحلة وراء الأقوياء من المانيا الى انجلترا ثم الى أمريكا ..

لجأ هرزل الى القيصر غليوم الثانى الذى كانت تراوده أحلام قدسية فى الشرق ، اذ قابله فى القسطنطينية ، عام ١٨٩٨ ، خلال رحلة القيصر فى أرجاء الامبراطورية

العثمانية . واقترح هرزل على القيصر اقتراحا خبيثا : اقترح عليه انشاء شركة لاستثمار الاراضى ، يباشرها الصهيونيون تحت حماية المانيا واشرافها. وقال القيصر: انه سيفكر فى الأمر . وطارد هرزل القيصر حتى قابله مرة ثانية خلال نفس الرحلة ، فى فلسطين ، يوم ٢ نوفمبر عام ١٨٩٨

ولكن القيصر كان قد عقد عزمه على الرفض . وقال ان مثل هذا العمل سوف تعتبره الامبراطورية التركية تدخلا غير مباشر فى شئونها . وقد يثير الدول الاخرى المتربصة بنهاية الامبراطورية التركية المريضة : انجلترا وفرنسا وروسيا ..

وقرر هرزل أن يقصد الباب العالى مباشرة . وفى مايو عام ١٩٠١ توصل الى مقابلة السلطان العثمانى فى القسطنطينية . وطرح عليه نفس الموضوع بشكل آخر ملائم له ، هو : أن يقوم اليهود بمساعدة السلطان على اعادة تنظيم المالية التركية المرتبكة ، واستثمار الاراضى المهملة فى الامبراطورية مقابل السماح بالهجرة الى فلسطين . ولكن السلطان قال : انه لا يستطيع أن يسمح بهجرة يهودية جماعية الى فلسطين

وازاء هذا الفشل ، نقل هرزل نشاطه الى الدولة التى اقترحها من قبل ، كراعية للحركة الصهيونية ، وهى انجلترا ..

وفى عام ١٩٠٢ ، دخلت المنظمة الصهيونية فى مباحثات جدية مع الحكومة الانجليزية بقصد اقناع انجلترا بمنح الحركة جزءا من شبه جزيرة سيناء ، يقيمون فيها وطنهم القومى ، كجزء من الامبراطورية البريطانية

كانت انجلترا فى ذلك الوقت تحتل مصر ، التى تتبعها شبه جزيرة سيناء ، وكانت سيناء بذلك أقرب مكان ،

تحت النفوذ الانجليزى ، الى فلسطين . ولا شك أن الحركة الصهيونية اختارتها ، رغم جفاف الطبيعة فيها كنقطة ملائمة للوثوب على فلسطين عندما يحين الوقت . فضلا عن أن سيناء أيضا مكان جرت فيه ذكريات دينية يهودية . ولنتذكر هنا ، ان بن جوريون ، بعد هذه المباحثات بنصف قرن ، انتهز فرصة حرب السويس التى شنها على مصر بالاشتراك مع انجلترا نفسها ، ليقف فى برلمان دولة اسرائيل ويعلن ضم سيناء الى اسرائيل !

المهم ، ان المباحثات توقفت .. لأن انجلترا ، كما يقول المؤلف ، وجدت معارضة مصرية .. لسنا نعرف قصتها بالضبط ، ولكنها فى رأى المؤلف : كانت أول اشارة الى معارضة العرب فى اقامة وطن قومى يهودى على أرضهم ..

وبعد سنة ، توصل هرزل الى عقد مشروع اتفاق آخر مع الحكومة البريطانية يقضى بمنح أوغندا للمنظمة الصهيونية بقصد تعميرها والتوطن فيها ، وقدم هرزل هذا المشروع الى المؤتمر الصهيونى السادس ، ولكن يبدو ان المؤتمر لم يتحمس للفكرة كثيرا ، أو وجدها محتاجة الى دراسة ، فقرر فقط ارسال بعثة الى أوغندا لدراسة امكانياتها ..

ومات هرزل عام ١٩٠٥ ، قبل اتخاذ أى قرار نهائى فى الموضوع ، فكانت النتيجة ان الحركة الصهيونية انقسمت بعد موته الى فريقين : فريق يرى ان المخرج الوحيد لليهود هو الاسراع بقبول أى عرض لاقامة دولتهم ، فى فلسطين أو فى غيرها ، وفريق يرى انه اما فلسطين والا فلا لأن فلسطين هى المكان الوحيد الذى يمكن أن ينجذب يهود العالم اليه

فلما جاء المؤتمر الصهيونى السابع عام ١٩٠٥ ، انتصر

الفريق الثانى ، واتخذ المؤتمر قرارا يعلن ان الحركة الصهيونية يجب أن تستهدف اقامة وطن اليهود القومى فى فلسطين بالذات

ومن عام ١٩٠٥ الى عام ١٩١٤ ، يوم نشبت الحرب العالمية الاولى ، كان التوطن اليهودى فى فلسطين يتزايد فى صمت والحاح ، حتى وصل عدد المستوطنين الجدد الى ١٢ ألفا ، يعيشون فى تسع وخمسين مستعمرة

وكان النفوذ الصهيوني ، قد هاجر بنفس الكثافة الى لندن حيث تركز هناك : فانجلترا كانت القوة العالمية الكبرى ، التى يمكنها أن تمنح اليهود ما يشاءون ..

كانت الحرب العالمية الاولى نقطة تحول تاريخية ، بل وفرصة ذهبية للحركة الصهيونية ..

فها هى الامبراطورية التركية ، واضعة اليد على فلسطين ، تدخل فى صدام مسلح حاسم مع انجلترا ، التى بدأت تتقبل الحركة الصهيونية وتبحث عن طريقة مناسبة لاستخدامها . والرهان على انهيار الامبراطورية التركية المريضة وانتصار انجلترا والحلفاء ليس صعبا . لهذا كان طبيعيا أن تجد الحركة الصهيونية فى هذه الحرب فرصتها الذهبية ، بشرط : أن تضع كل ثقلها الى جانب انجلترا وأن تتأكد من حصولها على الثمن المناسب ..

وبرز فى هذه المرحلة اسم « حاييم وايزمان » . وكانت ترشحه لقيادة الحركة الصهيونية ظروف كثيرة

فهو من جهة ، كان أحد الداعين الى تآلف واندماج كل التيارات فى الحركة الصهيونية ، والى ضرورة الجمع فى آن واحد بين الجوهر السياسى للحركة والورقة العاطفية الرابحة .. ورقة « العودة »

وهو من جهة أخرى ، كان قد توطن فى انجلترا وبدأ

فيها نشاطا سياسيا واسعا بالفعل . ففى سنة ١٩٠٤ هاجر هذا الكيميائى الروسى الى لندن حيث عاش وبدأ يتصل بالكتاب والصحفيين والساسة من جميع الاحزاب

وكان أول نجاحين له هما : أولا ، توصله الى عقد صداقة قوية مع لورد بلفور ، الذى لم يكن قد أصبح وزيرا بعد ، والذى قال مرة وهو يقدم وايزمان الى بعض أصدقائه : « هذا هو الرجل الذى جعلنى صهيونيا ! » ..

وثانيا ، توصله الى كسب « سكوت » رئيس تحرير المانشستر جارديان ، احدى الصحف الكبرى ذات النفوذ ..

وكان « سكوت » هذا هو الذى عرف وايزمان الى بعض الوزراء الانجليز لاول مرة : عرّفه على « هربرت صامويل » ، الوزير اليهودى ، كما عرفه على « لويد جورج » الذى أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد : وهكذا بدأ تمهيد الارض لكى تمارس الدبلوماسية الصهيونية عملها وتؤتى ثمارها ..

ويتساءل المؤلف : ترى ماهو السبب الدفين وراء تلك الموجة من تأييد الصهيونية ، التى نمت ، ويا للغرابة ، فى هذا المجتمع الانجليزى المسيحى ؟ ..

ويورد المؤلف رد المؤرخ الانجليزى الكبير ارنولد توينبى على هذا السؤال ..

يقول توينبى : ان المصدر الاول لهذه الموجة هو شعور دفين بالذنب لدى بعض غير اليهود ، الذين هم فى قرارة نفوسهم معادون للسامية ، رغم عدم رضاهم العقلى عن هذا الشعور ، فهم « يكفرون » عنه بتأييد اليهود علنا . والمصدر الثانى فى رأيه هو أن هذا نموذج انجلوسكسونى من نماذج المكيافيلية الممتزجة بالفرنسية !

اى نموذج من قدرة الانجلوسكسون على مزج أهدافهم السياسية والمصلحية بشعارات تبدو انسانية

واظن أن هذا التفسير الثانى هو الاصدق ، مع عدم استبعاد التفسير الاول استبعادا نهائيا ..

فمصلحة الانجليز فى تبنى هذه الحركة الصهيونية واضحة : فحيثما حل الاستعمار الانجليزى نجده يعمد الى أقرب مشكلة من مشاكل الأقليات فيخلقها اذا لم تكن موجودة ، وينميها اذا كانت موجودة ، وذلك بقصد استخدامها فى خلق مشكلة تصرف الشعب عن مشكلته مع الاحتلال . ولكى يوجد دائما « نقطة ضعف » داخلية فى المجتمع يبنى عليها وجوده ، واستمرار تدخله . ولكى يكون له فى النهاية قطاع من المجتمع مستفيد من وجود الاستعمار ومرتبط به

وفى منطقة كبرى بالغة الخطورة كالمنطقة العربية .. وابان ثورة عربية كانت تتبلور تحت جنح الظلام التركى المنسحب .. لماذا لا يوجد هذا الجسم الطارىء الغريب ، هذا الجسم الصهيونى ، الذى قدم نفسه لانجلترا بالتأكيد على انه مندوب لها ، وقطعة مرتبطة بها ، أبقى لها فى المنطقة من اى جيش مسلح ؟

فاذا غطت انجلترا هذه المصلحة بغطاء انسانى شفاف هو : الرغبة فى حل المشكلة اليهودية .. واذا كسبت الى جانب ذلك تأييد كل اليهود لها ، وتحولهم الى شبه عملاء لحسابها ، بأموالهم وانتشارهم الاوربى الكبير .. فلماذا ترفض انجلترا كل هذا الاغراء ..

ويضيف المؤلف الى هذا كله : ان كثيرا من الغربيين قد خلطوا بين الصهيونية والليبرالية ، وهى نزعة التحرر الانسانى والمساواة . فظنوا أن الصهيونية تحاول حل مشكلة اليهود ، وحل مشكلة اليهود خطوة منطقية مع

موجة التحرر الانسانى والمساواة . وجهلوا بسبب هذا الخلط أن « المتحررين » حقا هم اليهود الداعون الى اندماج اليهود فى المجتمعات التى يعيشون فيها ، أما اليهود الصهيونيون ، فهم انما يقدمون حلا عنصريا دينيا متعصبا ، وليس حلا انسانيا متحررا متسامحا ..

المهم ، ان الأداة الصهيونية فى انجلترا بدأت تتحرك ، بدرجة عالية من التنظيم والدراية ..

ففى نوفمبر ١٩١٤ ، كتب « حاييم وايزمان » الى صديقه رئيس تحرير المانشستر جارديان شارحا الخط الصهيونى فقال بالحرف الواحد :

« من الممكن الآن أن نقول انه اذا وقعت فلسطين فى دائرة النفوذ البريطانى ، واذا شجعت انجلترا بعد ذلك توطن اليهود هناك ، كمستعمرة بريطانية ، فاننا نستطيع أن نوجد خلال الثلاثين سنة القادمة حوالى مليون يهودى فى تلك البلاد : فيطورونها ، وينقلون الحضارة اليها ، ويكونون بمثابة حرس فعال لقناة السويس »

وقد أسعفهم فى هذا الجزء الاخير أن لورد كتشنر كان من رأيه أيضا ان فلسطين هى الموقع الاستراتيجى الذى يجب الاعتماد عليه للدفاع عن قناة السويس فى المدى الطويل .. فأخذوا ينشرون هذا ويذيعونه ..

تلك اذن هى الخطة الصهيونية لمرحلة الحرب العالمية الاولى :

١ ــ أن ينتصر الحلفاء ، وعلى رأسهم انجلترا
٢ ــ أن تكون فلسطين من نصيب انجلترا
٣ ــ أن تسهل انجلترا استيطان اليهود فى فلسطين
٤ ــ أن ينتهى الأمر بسيطرة اليهود على فلسطين ، فى مقابل استمرارهم فى خدمة مصالح انجلترا بحراسة قناة السويس لحسابهم

ويلاحظ المؤلف أن كل هذه النقط الأربع قد تحققت

وأضيف : انها تحققت حتى وقوع حرب السويس . فاشتراك اسرائيل مع انجلترا فى الهجوم على مصر ، بمناسبة تأميم قناة السويس ، فى المؤامرة المشهورة ، هو حدث غريب ساقته الظروف لتأكيد تنفيذ البند الرابع من هذا « التفاهم » ..

وأظن ان نظرة المصلحة الانجليزية فى موضوع الصهيونية كلها ، منذ مطلع القرن العشرين ، أصبحت واضحة تماما .. غير محتاجة الى تحليلات توينبى النفسية !

وفى ذلك الوقت كان لويد جورج وهربرت صمويل قد بدآ فى اقناع سائر الوزراء الانجليز بهذه السياسة . حتى تعهد سير ادوارد جراى وزير الخارجية باقامة مثل هذه الدولة فى المستقبل ، منضما بذلك الى أنصار الصهيونية فى مجلس الوزراء البريطانى

ولكن هذه السياسة ، مع ذلك توقفت قليلا مصطدمة بعقبتين :

العقبة الاولى : هى ان اسكويث رئيس الوزراء كان مرتبطا بسياسة احلال العرب محل الاتراك كأصدقاء وحلفاء لانجلترا فى الشرق الاوسط

والعقبة الثانية : ان كتلة كبرى من اليهود ، كانوا يرون أن حل مشكلة اليهود هو الدوبان فى المجتمع الاوروبى ، وأن خلق دولة صهيونية معناه زيادة النزعة المعادية للسامية فى أوروبا ، بدلا من اطفائها ..

ويروى المؤلف انه فى تلك الاثناء ، عرف وايزمان من لويد جورج ، الذى كان رئيسا للجنة المجهود الحربى ، ان انجلترا تبحث عن طريقة علمية لانتاج مادة الاسيتون واستخدامها فى انتاج المتفجرات بكميات كبيرة . وعكف

وايزمان سنة كاملة في أبحاث متصلة لهذا الفرض ، حتى نجح أخيرا فى انتاج المادة المطلوبة . وبناء على ذلك ، وبتوسط لويد جورج ولورد بلفور الذى كان قد أصبح وزيرا ، تم تعيين حاييم وايزمان فى مركز مرموق فى وزارة البحرية البريطانية . ويقول المؤلف ان وايزمان انطلق يعمل فى المجهود الحربى البريطانى دون أن يثير موضوع فلسطين . ولكن بلفور قال له مرة « أتعلم أنك بعد الحرب قد تحصل على القـــدس التى تريدها » فسبب انهماك وايزمان فى عمـله ، والثمن الذى كان يتوقعه ، لم يكن خافيا على أحد

فى تلك المرحلة بالضبط ، أى فى سنة ١٩١٥ ، بدأت الحكومة البريطانيـــة تتخــذ لأول مرة خطوات جــدية ورسمية فى اتجاه الصهيونية . وهى خطوات يقول المؤلف انها كانت مشــوبة بالحـــذر ، لعلم الوزراء المؤيدين للصهيونية بميل رئيس الوزراء « اسكويث » الى التزام جانب العرب ..

ففى مارس ١٩١٥ ، أرسل سير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا الى سير ادوارد بوكانان سفير انجلترا فى سان بطرسبورج ، عاصمة روسيا القيصرية فى ذلك الوقت .. أرسل اليه مذكرة يشرح فيها رأى الحكومة البريطانية فى العلاقة بين فلسطين والصهيونية العالمية . كانت المذكرة تقول ان فلسطين هى الثمن الذى يمكن بواسطته كسب تأييد اليهودية العالمية كلها الى جانب الحلفاء . وكانت تقول أيضا أنه لو أطلقت المنافسة بين العرب واليهود فى فلسطين فسوف تقع فلسطين تحت ادارة اليهود ..

وكانت تعليمات وزير الخارجية البريطانية الى سفيره تقضى بتسليم المذكرة الى « سازانوف » وزير الخارجية

الروسى . ورد الروس على المذكرة بالموافقة ، بشرط المحافظة على مصالح الكنيسة الروسية فى الأراضى المقدسة ..

وفى نفس السنة ، عين « مارك سايكس » مساعدا لوزير الحرب البريطانى ، وأصبح الشرق الاوسط بالذات داخلا فى اختصاصه . وبالتالى كان لا بد أن تتجه شبكة الدبلوماسية الصهيونية الى هذا الوجه الجديد ، بغية اصطياده . وبالفعل تولى أمره صهيونى انجليزى اسمه « موسى جاستر » ، اعترف سايكس بعد ذلك بأنه كان الرجل الذى حوله الى نصير للصهيونية ، بعد توليه منصبه الخطير

وبعد وصول مذكرة سير ادوارد جراى الى سان بطرسبورج بقليل ، وصل سايكس الى العاصمة الروسية ، حيث بدأ مباحثاته الشهيرة التى انتهت باتفاقية « سايكس ـ بيكو » المعروفة فى التاريخ العربى

كان المنطق الذى استخدمه سايكس هو : ان اليهود الامريكان يمكن أن يفيدوا قضية الحلفاء فائدة عظيمة بمساهمتهم فى اقناع أمريكا بدخول الحرب فعلا الى جانب الحلفاء . وقال سايكس لجورج بيكو وزير خارجية فرنسا : ان اعطاء الصهيونية حق اقامة وطن قومى فى فلسطين هو الورقة الوحيدة التى يمكن بها كسب يهود العالم بما فيهم يهود أمريكا . وعلى الفور أرسلت الحكومة الفرنسية أستاذا يهوديا فرنسيا ، اسمه فكتور باخ الى الولايات المتحدة ليقنع يهودها بأن انجلترا وفرنسا تضمنان حماية المستعمرات اليهودية فى فلسطين بعد الحرب . ولكن مهمة باخ فشلت فى أمريكا . فلم يكن اليهود هناك وقتها مهتمين بالامر ، فبدأ سايكس نفسه يفقد اهتمامه بالصهيونية بعد أن وجد انها لن

نسهم فى جر أمريكا الى الحرب ..

ولكن اتفاقية سايكس ـ بيكو لم تقض على أى حال بتسليم فلسطين الى العرب ، انما قضت بتسليمها للانجليز ، مما أبقى الفرصة مفتوحة على مصراعيها أمام الدبلوماسية الصهيونية لمواصلة العمل ..

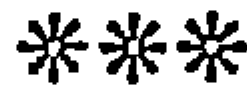
وفى أكتوبر سنة ١٩١٦ ، توصل الى سايكس صهيونى آخر ، أرمنى الاصل ، اسمه جيمس مالكولم ، نجح فى اثارة اهتمام سايكس من جديد بفائدة الحركة الصهيونية اذ أقنعه بأن هناك قاضيا صهيونيا كبيرا فى أمريكا ، هو القاضى برندايس « الذى تحمل اسمه الجامعة الامريكية التى أعطت بن جوريون دكتوراه فخرية منذ سنوات » ، وان هذا القاضى له نفوذ خاص لدى الرئيس الامريكى ويلسون ، وبالتالى يستطيع أن يساهم فى اقناع ويلسون بدخول الحرب الى جانب الحلفاء ضد ألمانيا . واقتنع سايكس من جديد بهذه الفكرة ، فعاد يستحث مجلس الوزراء البريطانى على قبول فكرة الدخول فى مفاوضات مباشرة مع المنظمة الصهيونية العالمية حول فلسطين . وأخيرا وافق مجلس الوزراء البريطانى . واختير مالكولم هذا وسيطا بين الطرفين . وبدأ ممثلو الصهيونية العالمية فىانجلترا يستعدون لانتهاز الفرصة الكبيرة التى انفتحت أمامهم ..

كان طلبهم الأول هو أن يسمح لهم باستخدام وسائل الاتصال الانجليزية للاتصال بالصهيونيين فىمختلف أنحاء العالم . وببساطة غريبة وافق مجلس الوزراء البريطانى على هذا الطلب الذى بدا له عاديا . ولم ينتبه ، فى رأى المؤلف الى ان هذه سابقة خطيرة فى التعامل الرسمى مع الصهيونية ، وفى ان وسائل المواصلات والاتصال البريطانية انما بدأت تستخدم فى الايحاء الى يهود العالم

كلهم بأن بريطانيا تؤيد الحركة الصهيونية بالذات من بين سائر التيارات اليهودية

وفى تلك المباحثات ، قدم الصهيونيون الى الحكومة الانجليزية مذكرة بعنوان « برنامج لانشاء ادارة جديدة فى فلسطين من وجهة نظر الحكومة الصهيونية » . وكانت المذكرة تقترح انشاء شركة يهودية شبه حكومية تحت رعاية حكومتى انجلترا وفرنسا ، مهمتها تشجيع اليهود على التوطن فى فلسطين واستثمارها ..

وكانت سنة ١٩١٦ سنة سعيدة فى حياة الحـــركة الصهيونية . فقد ترك اسكويث رئاسة الوزارة ، وحل محله لويد جورج ، الذى كان قد انضم الى معســكر الصهيونية بالفعل، كما عين لويد بلفور وزيرا للخارجية. وبهذا أصبحت القضية الصهيونية مكسوبة مقدما



بعد شهرين بالضبط من تشكيل الوزارة البريطانية الجديدة ، قرر مجلس الوزراء تكليــف مارك سايكس بالدخول فى مفاوضات رسمية مع الحركة الصهيونية . وانعقدت الجلسة الاولى فى بيت « موسى جاستر » ، الرجل الذى جاء ـ منذ قليل ـ ان سايكس قال عنه انه هو الذى كسبه الى هذه الصهيونية ..

حضر من الجانب الصهيوني موسى جاستر وهربرت صمويل ، وحاييم وايزمان وهارى ساشر ، وقد تكلموا جميعا فى ضرورة اعطاء اليهود صفة قومية ووضــــعا رسميا فى فلسطين ، مع منح نفس القومية لكل يهــود العــالم فى نفس الوقت ، دون أن يكون لهــذا أثر على وضعهم فى بلادهم من الناحية السياسية . كما طالبوا باباحة الهجرة الى فلسطين دون أى قيد

وقال سايكس ان هناك بعض الاعتبــارات التى قد

تحول دون تحقيق هذه المطالب كلها : فروسيا مترددة، والعرب سوف يعارضون ، وفرنسا ما زالت تطالب بأن تكون « سوريا الكبرى » كلها من نصيبها بعد الحرب ، بما فيها فلسطين

وكانت نقطة الارتكاز فى حديث الجانب الصهيونى : ان الكيان الصهيونى الذى سيولد سيكون جزءا من الامبراطورية البريطانية ، وحارسا مضمونا لهـا فى المنطقة ..

ويقول المؤلف معقبا على هذا الاجتماع : انه بالرغم من ان سكان فلسطين كانوا من العرب ، الا أن الصهيونيين لم يحسبوا حتى تلك اللحظة حسابهم قط. ولم يناقشوا موقفهم فى أى مؤتمر من مؤتمراتهم السنوية . لذلك فقد خرج الصهيونيون من هذا الاجتماع وفى ذهنهم ان المشكلة الحقيقية ، بعد كسب انجلترا ، هى اقناع فرنسا أيضا ..

وقد حل الصهيونيون مشكلة روسيا بالموافقة على مبدأ اقامة هيئات دولية تشرف على الاماكن المقدسة . فبقيت فرنسا التى تطالب بسوريا كلها بما فيها فلسطين .. ثم ايطاليا ، التى يوجد فيها نفوذ البابا المسيحى ..

وفى ٨ فبراير ١٩١٧ ، رتب سايكس لقاء بين سوكولوف وزير خارجية روسيا وجورج بيكو وزير خارجية فرنسا فى مقر السفارة الفرنسية بلندن ، وقال سوكولوف ان الصهيونيين يعتقدون انه من المهم جدا لمصالحهم أن تكون انجلترا هى التى تشرف على فلسطين بعد الحرب . ونجح سوكولوف فى كسب جورج بيكو ، ولكن بقى أن يكسب بقية الوزارة الفرنسية ، التى كان معظم أفرادها يتمسكون بضرورة استيلاء فرنسا على

سوريا الكبرى كلها ، وكان المتحمسون لهذا الهـــدف يسمون « بالحزب السورى »

وفى مارس سافر سوكولوف مع سايكس،والصهيونى الارمنى مالكولم الى باريس .. حيث بدءوا الضـــغط على الجهات الفرنسية ذات النفوذ . ومن هناك سافر سايكس مع سوكولوف الى روما حيث يقـول المؤلف « ان سوكولوف استطاع ، بعد جهد شديد ، أن يزيل مخاوف بابا المسيحيين بشأن مستقبل الفئـــات غير اليهودية فى فلسطين ، فى حالة اقامة وطن قومى لليهود هناك »

وعنـــدما عاد سايكس وســوكولوف من روما الى باريس ، قدم اليه « جول كامبون » سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية مذكرة باسم الحكومة الفرنســية تعبر فيها عن تأييدها لمطالب الحركة الصهيونية

ماذا تغير فى ذلك الوقت ، فجعـــل الفريق المؤيد للصهيونية فى الوزارة الفرنسية ينتصر ؟ ..

انه تدخل مباشر من البارون ادموند روتشـيلد ، الذى كان وايزمان قد أقنعه منذ زمن بالانضـمام الى جانب وجهة النظر الصهيونية داخل اليهودية العالمية ، فكان روتشيلد يحمل معه كل ثقل تلك الأسرة المـالية الشـــهيرة ، ذات الدور الطويل فى تاريخ الســـياسة الاوروبية ..

هكذا أعلن بلفور انه مستعد لاصدار بيان يعلن فيه تأييد انجلترا الرسمى لمطالب اليهود فى فلســـطين : ففرنسا موافقة ، وروسيا موافقة ، والبابا موافق ، والقاضى الصهيونى الأمريكى براندايس أكد له من جديد ان الرئيس الامريكى ويلسون موافق

وصدر وعد بلفور الشهير ..

صدر محتويا على ثلاث نقط :

أولا ـ تأييد انجلترا لاقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين

ثانيا ـ تعاون انجلترا مع اليهود لهذا الهدف

ثالثا ـ ان لا يؤثر هذا على حقوق المجتمعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين ، ولا على حقوق اليهود المقيمين فى مختلف أنحاء العالم

وكان هذا أقل مما طلبه اليهود . ولكن كان نقطة تحول بالنسبة لهم . وسهل الأمر لهم نجاحهم فى دفع لويد جورج الى الادلاء بتصريح قال فيه : « انه اذا أصبح اليهود أغلبية فى فلسطين ، فانه من الممكن عندئذ أن تصبح فلسطين (كومنولث يهودى) .. »

أى : يا أيها اليهود ! عليكم بالهجرة ! ويوم تصبحون أغلبية ، ستكون لكم فلسطين ..

***

بالرغم من أن الحركة الصهيونية كانت تتجه بسرعة الى التركيز على الولايات المتحدة الامريكية ، الا أن بريطانيا بقيت مركزا رئيسيا للنشاط الصهيونى ، طالما أن بريطانيا ما زالت هى الدولة المنتدبة فى فلسطين . وعلى هذا ظل حاييم وايزمان وكثيرون من قادة الحركة الصهيونية يركزون التأثير الصهيونى على مركز السلطة فى بريطانيا

وكان هذا بالطبع يقتضى منهم أيضا الالحاح فى توجيه الرأى العام الوجهة التى تجعل مهمتهم فى التأثير على الجهات العليا أكثر سهولة .. مع استمرارهم فى نفس الوقت فى كسب شتى العناصر اليهودية غير الصهيونية الى جانبهم من جهة ، وفى مواصلة الهجرة الى فلسطين رغم كل القيود من جهة أخرى ..

ولم تكن حكومة جوزيف تشيمبرلين على علاقة حسنة بالحركة الصهيونية ، ولكن وايزمان ورفاقه ظلوا على صلة مستمرة بكل الشخصيات التى يمكن أن تكون فى مركز السلطة يوما من الأيام . ففى ذلك الوقت بالذات، مثلا ، عمد وايزمان الى التعرف على ونستون تشرشل والتردد عليه أكثر من مرة والحصول على موافقته على مبدأ اسباغ صفة الدولة على المجتمع اليهودى فى فلسطين .. كما ظل حريصا على ابقاء نفس الصلة مع لورد هاليفاكس وزير الخارجية ..

فلما تألفت وزارة تشرشل سنة ١٩٤٠ ، لم يكسب الصهيونيون فقط رئيس الوزارة الجديد ذا الميول الصهيونية ، بل كسبوا أيضا وجود وزراء آخرين كثيرين فى هذا الاتجاه

يظهر هذا واضحا من قصة السفينة «باتريان» التى يرويها وايزمان فى مذكراته . فقد ضبطت السلطات البريطانية سفينة تحمل ٢٠٠٠ مهاجر يهودى يحاولون النزول فى فلسطين بشكل غير قانونى ، فمنعوا الباخرة من الاقتراب من الشاطىء . وتصادف أن انفجرت الباخرة وأصيبت بعطب ، وذهب وايزمان الى لورد لويد وزير المستعمرات يطلب منه اصدار أمر الى السلطات فى فلسطين بالسماح لهم بالنزول . وقال لورد لويد لوايزمان : لقد أصدرت أمرا بمنعهم من النزول ، لأننى أعرف انك سوف تذهب الى تشرشل وتستصدر منه أمرا بالغاء هذا القرار ، لقد سبقت وطلبت منه الا يتدخل فى ذلك ، فلا تتعب نفسك بالذهاب اليه

ثم يعقب وايزمان قائلا : ولكن لورد لويد نسى أن يسبقنى الى لورد هاليفاكس ، فذهبت اليه ..

واستصدرت منه أمرا بالسماح لهم بالدخول ..

***

كذلك نجح وايزمان فى اقناع الحكومة البريطانية بتكوين فرقة يهودية تقاتل الى جانب الحلفاء ، والغاء الاتجاه المضاد الىتكوين فرقة فلسطينيةعربية ويهودية. وكانت تلك الفرقة اليهودية هى نواة جيش اسرائيل ، الذى حارب خلال الساعات الحرجة التى تلت اعلان قيام دولة اسرائيل

وقد كان العمل من أجل ايجاد هذه الفرقة اليهودية عنيفا ومتواصلا فى جميع المجالات ، من الصحافة ، الى اقتراحات يقدمها النواب من حزبى المحافظين والعمال فى البرلمان ، الى ضغط واقناع لدى الساسة والقادة العسكريين . وفى سبتمبر سنة ١٩٤٤ أعلنت وزارة الحرب البريطانية انها قررت المساعدة فى تكوين مثل هذه الفرقة .. وبعد أن وجدت الفرقة ، أصبح لها علمها المستقل . وفى الاستعراضات العسكرية أصبحت تحمل هذا العلم ، مؤكدة فى الاذهان أن « اليهودية » أصبحت « قومية » لا مجرد دين .. وكان ذلك العلم هو نفس علم دولة اسرائيل اليوم ..

وفى أكتوبر ١٩٤٤ ، بعد شهر واحد من تكوينالفرقه الصهيونية المسلحة ، طلبت الوكالة اليهودية منالحكومة البريطانية تحويل فلسطين الى « كومنولث يهودى » وأن تسمح بهجرة مليون ونصف مليون يهودى الى فلسطين ، بحيث يصبح اليهود فى فلسطين أغلبيةتسمح باعلان الدولة . واستطاع وايزمان أن يحصل على موافقة ونستون تشرشل الشخصية على اقامة الدولة اليهودية ، على الأقل فى جزء من فلسطين . ويعتقد المؤلف أن حكومة العمال التى جاءت بعد تشرشل —

وخصوصا وزير خارجيتها ارنست بيفن - كانت أقل تعاونا مع الصهيونيين من حكومة المحافظين ، وأن حكومة تشرشل لو بقيت بعد الحرب لقامت هى باعلان دولة اسرائيل

***

وفى خلال ذلك كله كانت الوكالة اليهودية تخلق أمرا واقعا خطيرا فى فلسطين : بالهجرة السرية المستمرة ، وبالدعاية الهائلة بين يهود أوروبا ، دعاية كانت تجعلهم يتدفقون على مكاتب الهجرة السرية بالآلاف .. وبتهريب الأسلحة الى فلسطين على نطاق واسع ، وبتكوين جيش الهاجاناه ، وبالسيطرة على الاقتصاد اليهودى كله وبجهاز المخابرات الذى كان يشترك فيه كل يهودى يعمل فى حكومة فلسطين ، حتى أصبحت هناك دولة داخل الدولة ، دولة لها كل فروع الدولة وملامحها واجهزتها

ويقول المؤلف : انه حتى الأعمال الارهابية من قتل ونسف ، التى كان زعماء الصهيونية يستنكرونها فى تصريحاتهم ، كانت تتم بالتفاهم معهم .. بدليل أن بن جوريون رفض وقتذاك أن يتخذ أى موقف ضدهم ، وبدليل أن الوكالة تفاهمت مع هؤلاء الارهابيين بعد انتهاء المعركة تفاهما كاملا ، دل على وجود تفاهم سابق وقديم

على أن أخطر قرار اتخذته الحركة الصهيونية العالمية خلال الحرب العالمية الاولى كان : الانتقال بمركز الثقل فى نشاطها الى أمريكا !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

فى غضون الحرب العالمية الاولى ، قررت الصهيونية العالمية أن تلعب بورقة بريطانيا ، مؤمنة بأنها ستكون القوة الاولى المسيطرة على السياسة الدولية بعد النصر .

ويومها نجح تنبؤهم وامكن أن يضعوا أقدامهم الاولى فى فلسطين ..

وفى غضون الحرب العالمية الثانية ، أدركت الصهيونية العالمية انها لابد ان تنقل مركز نشاطها الى أمريكا ..

لماذا ؟ ..

لان نجم انجلترا اخذ فى الافول .. ولانهم بعد أن كسبوا من وراء بريطانيا حق اقامة وطنهم القومى فى فلسطين ، آن الاوان للخطوة الثانية وهى : خطوة الدولة اليهودية المستقلة ، وهذه خطوة قد تعارضها بريطانيا ، التى لم تفكر لحظة فى أن يكون مآل هذا « الكومنولث اليهودى » الى الاستقلال عنها . وفى هذه الحالة لن تقدر على الضغط على بريطانيا سوى أمريكا

ولم تكن امريكا قد دخلت الحرب بعد ، وكانت الصهيونية تعرف مدى حرص بريطانيا على حسن علاقات أمريكا معها ، ومدى رغبتها فى ادخالها الحرب الى جانبها : فلو استطاعت الصهيونية ان تقنع أمريكا .. فستكون بريطانيا كلها آذانا صاغية لصوت أمريكا!

وكان عليهم أن يكسبوا فى أمريكا ثلاث قوى :

- الرأى العام ..
- والكونجرس ..
- والحكومة ..

أما بالنسبة للرأى العام ، فسرعان ما تكونت الهيئات الداعية للقضية الصهيونية ، مركزة على الرأى العام المسيحى بالذات . وفى نفس الوقت الذى كانوا يركزون فيه على رجال الدين البروتستنت ، مستغلين تفسيرهم « للعهد القديم » ، كانوا يتصلون فى نشاط هائل باتحادات نقابات العمال ، وبالمجالس النيابية فى الولايات المختلفة ، وبأعضاء الحزبين : الجمهورى والديمقراطى .. فلم يأت

عام ١٩٤٤ حتى كانت برلمانات ٣٣ ولاية قد اصدرت توصيات تؤيد فيها المطالب الصهيونية ، وحتى كانت انتخابات ذلك العام حافلة بالوعود بتأييد مطلب الصهيونية

واكبر حليف لهم فى رأى المؤلف كان : جهل الراى العام تماما بقضية فلسطين ..

وقد حققت الصهيونية نفس النجاح بين اليهود الامريكيين ايضا . فبينما لم يكن الصهيونيون يمثلون اكثر من خمسة فى المائة من يهود امريكا قبل الحرب العالمية الثانية ، استطاعوا قبل نهاية الحرب أن يجعلوا اى يهودى يخاف أن يجاهر بأنه مختلف مع الصهيونية .. وبينما كانوا يشرحون ــ علنا ــ « حاجة اليهود الاوروبيين الى ملجأ » بعد جرائم النازية ، كانوا يعملون سرا من اجل فكرة اقامة الدولة وفى فلسطين بالذات ، بدليل أنهم حاربوا مشروعا لروزفلت لتوطين اليهود فى دول العالم بوجه عام ..

اما مع الكونجرس ، فقد بدأ الامر بقيد اسماء ٦٧ شيخا و ١٤٣ نائبا من مجلسى الكونجرس فى قائمة اعضاء منظمة صهيونية مستترة تحت اسم « اللجنة الامريكية لفلسطين » . وفى ديسمبر عام ١٩٤٢ ، وضع ثلث اعضاء الكونجرس توقيعاتهم الى جانب توقيعات ١٥٠٠ شخصية أمريكية أخرى على بيان يطالب بانشاء جيش يهودى

وفى أكتوبر عام ١٩٤٣ ، نجح الضغط اليهودى المنظم فى جعل الكونجرس يصل الى حد اصدار قرار رسمى بتأييد مطالب الحركة الصهيونية فى اقامة دولة يهودية فى فلسطين لولا ان الجنرال جورج مارشال ، القائد العام للجيش الامريكى ، تدخل مطالبا بايقاف القرار ، لان هذا قد يؤثر على المجهود الحربى فى منطقة حساسة هى المنطقة العربية ..

ولكن الجهد لم يتوقف .. انما استمر فى اصدار القرارات والبيانات والنداءات ، التى أدت بتراكمها من حيث الكم ، الى تغير كيفى فى الموقف .. فقد أصبح الكونجرس الامريكى فى أعوام قليلة مؤيدا للصهيونية.. بمزيج من الجهل بالموضوع والتأثر بالمصالح المحلية والضغط والاغراء والالحاح ..

وبقيت بعد ذلك السلطة التنفيذية العليا فى البلاد . وكالعادة : كانت الحركة الصهيونية تترك مهمة الاتصالات العليا بالشخصيات الكبرى الى رجلها المحنك فى هذا المجال منذ الحرب العالمية الاولى :حاييم وايزمان

وكان وايزمان يؤمن فى اتصالاته بحقيقة غريبة ثبت انها فى محلها : كان لا يضيع وقته مع الخبراء وكبار الموظفين الرسميين لان هؤلاء على خبرة كاملة بمثل هذه الموضوعات ، وكثير منهم يعرفون الشرق الاوسط جيدا ، فكانت الصهيونية تجد انه من الصعب دائما أن تضلل هؤلاء أو تحملهم على اتخاذ موقف ضدالعرب، أما الاتصال بالزعماء الكبار فكان أجدى : فهؤلاء خبرتهم بالمنطقة قليلة والتأثير عليهم من خلال المصالح السياسية المحلية ممكن .. ثم ان من سلطتهم أن يضربوا برأى الخبراء عرض الحائط ، الامر الذى كان يحدث كثيرا كما يقول المؤلف

ويقول المؤلف أيضا : انه فى خلال الحرب الاولى كان رأى الاجهزة المحلية البريطانية ضد الصهيونية ، لكن وايزمان قهر هذه الاجهزة باستيلائه على عقول رؤسائهم السياسيين فى لندن . وقد كرر نفس الشىء فى أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية

وقد كان روزفلت شخصية صعبة المراس بالنسبة

لوايزمان ، بينما كان ترومان على العكس تماما ٠٠

يقول المؤلف : ان وايزمان قابل روزفلت لاول مرة عام ١٩٤٠ ، ويومها حاول أن يجس نبض روزفلت ازاء مطلب اقامة دولة يهودية . ولكنه وجـد روزفلت من أولئك الساسة الدهاة واسعى الافق ٠٠ رفض أن يقع فى شراكه ، وقال انه يعتقد أن أى حل لمشكلة فلسطين يجب أن يكون حلا عربيا يهوديا

وفى عام ١٩٤١ ، ذهب وايزمان الى أمريكا للمـــرة الثانية ، ولكنه لم يتمكن من مقابلة روزفلت ، فقـــابل وزير الخارجيـــة الامريكية ســـمنر ولز الذى كانت الصهيونية قد كسبته الى جانبها بالفعل ، فانضم الى وايزمان فى محاولة اللف على روزفلت

وفى عام ١٩٤٢ ، أرسل روزفلت الى حاييم وايزمان يطلب منه القدوم الى أمريكا للمساعدة فى الابحـــاث العلمية التى كانت جارية لانتاج المطاط الصـــناعى ، فسافر وايزمان الى أمريكا فى أبريل عام ١٩٤٢ ، ليبقى هناك أكثر من عام متصل : يعمـــل فى الكيمياء بعض الوقت ، وفى السياسة الصهيونية كل الوقت ، نفس قصة الحاقه بوزارة البحـــرية البريطانية فى الحـــرب الاولى للمساهمة فى أبحاث انتاج مادة الاسيتون التى تستخدم فى صنع المتفجرات !

وقبل عودته ـ بعد هذه المدة الطويلة ـ الى لنــدن تمكن من مقابلة روزفلت مرة أخرى بحضـــور وزير الخارجية سمنر ويلز ، ومرة أخرى وجد وايزمان أن روزفلت ما زال مصمما على أن أى حـــل يجب أن يتم بموافقة العرب واليهـــود معا . وقال له وايزمان : لو انتظرنا موافقة العرب فلن نصل الى أى حل أبدا ..

واكد له أن خير وسيلة هى أن تقف أمريكا وبريطانيا معا وراء انشاء الدولة الصهيونية ، فلا يجد العرب مفرا من الرضوخ ازاء القوة الهائلة التى تواجههم ، وقال له: ان هذا هو ما حدث بالضبط يوم أصدرت بريطانيا وعد بلفور ولم يقدر العرب وقتها على عمل أى شيء ..

ولكن روزفلت لم يتزحزح . كان روزفلت يرى مصالح أمريكا البترولية البازغة فى الشرق العربى . وكان ذاهبا الى رحلة سوف يجتمع فيها مع الملك عبد العزيز آل سعود ، فبدأت النقمة الصهيونية تتحول ضده

وفى ١٨ اغسطس عام ١٩٤٣ ، وصل الامر الى تهديد روزفلت نفسه : فقد أعلن ايمانويل سيلر ، العضو الصهيونى فى الكونجرس ، انه سيطالب باجراء تحقيق فى أسباب معارضة الخارجيةالامريكية لمطالب الصهيونية المشروعة . وكان هذا ضغطا غير مباشر على روزفلت ، عن طريق التلويح باثارة تهمة معاداة السامية ، التى تثيرها الصهيونية فى وجه كل من يجسر على ان يختلف مع مخططاتها السياسية

ولكن روزفلت مات ، وجاء ترومان ، الذى وضع البيت الابيض فى يد الصهيونية ، بعد أن وضعت الصهيونية يدها على الرأى العام ، وعلى الكونجرس ..

***

بعد أيام قليلة فقط من وفاة روزفلت ، وتولى هارى ترومان مكانه .. كان الكاهن اليهودى « وايز » يزور الرئيس الجديد. وقبل المقابلة، كان ادوارد ستيتينوس، وزير الخارجية ، قد حذر ترومان من هذا اللقاء ، وحذره من الاستجابة لمطالب الصهيونية فى اقامة دولة يهودية فى فلسطين وفتح أبواب الهجرة غير مشروطة

اليها . وشرح الوزير لرئيسه أيضا سياسة الرئيس الراحل روزفلت حول هذا الموضوع . ورغم هذا كله فقد كانت زيارة الكاهن الصهيونى « وايز » بداية الاندفاع السريع لترومان فى اتجاه الصهيونية .. أو كما يقول المؤلف « فى خدمة الصهيونية »

وعند هذه النقطة ، يحاول المؤلف أن يلتمس لترومان الاعذار على هذا التأييد المتزايد ..

يقول : ان ترومان ، بسبب نزعته الليبرالية ، كان دائما على استعداد لان يتحمس لاداء خدمة لليهود أو لاى أقلية أخرى . وقد كانت هذه دائما وسيلة من وسائل الصهيونية فى كسب غير اليهود الى قضيتهم : بأن يوهموهم ان تأييد هجرة اليهود الى فلسطين يتفق مع المبادىء المتحررة ، فى حين أن الحل الحقيقى للمشكلة اليهودية هو فى استيعاب اليهود وذوبانهم فى الشعوب التى ينتمون اليها ويعيشون بينها ..

كذلك فان هذا فى رأى المؤلف نجاح للدعاية الصهيونية خلال الحرب ، التى ربطت فى الاذهان ربطا مضللا بين مشكلة اليهود فى أوروبا وبين هدف الصهيونية فى اقامة دولة اسرائيل ، رغم ان هذا شىء وذاك شىء آخر

وأخيرا يقول المؤلف : ان ترومان أشار فى مذكراته بعد ذلك الى انه يعتقد ان وعد بلفور باقامة وطن قومى لليهود كان يتفق تماما مع مبادىء ويلسون فى حق تقرير المصير التى أعلنها بعد الحرب العالمية الاولى ، ولو أن ترومان تمعن قليلا لادرك أن وعد بلفور كان عملا مناقضا على طول الخط لمبادىء ويلسون .. فلو طبق حق تقرير المصير حقا فى فلسطين ، بسكانها العرب ، لما أمكن أبدا ان يقوم اى وطن قومى لليهود هناك

ولسنا نظن ان هذه التفسيرات التى ساقها المؤلف لشرح الحوافز التى جعلت ترومان يندفع فى خدمة الصهيونية الى هذا الحد .. تفسيرات صحيحة .. فاذا قبلنا ان الرأى العام العادى يمكن تضليله عن الملامح الاساسية لقضية ما ، فمن المتعذر أن نقبل امكانية تضليل رئيس دولة كبرى ، بما لها من أجهزة وخبراء ومستشارين عن حقيقة يمكن أن يدركها أى تلميذ : وهى ان حق تقرير المصير يتعارض مع غزو شعب ما بشعب طارىء غريب ..

فالمؤلف يغفل الاعتبارات المصلحية والضغط السياسى الداخلى ، الذى جعل ترومان يندفع هذا الاندفاع

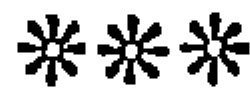
***

ويعود المؤلف الى سرد تطور الحوادث فيقول انه مع صيف عام ١٩٤٥ ، أصبح نفوذ الصهيونية على ترومان واضحا .. ففى ٣١ اغسطس اتخذ ترومان أول موقف علنى له الى جانب الصهيونية ، بمطالبة مستر كليمنت اتلى رئيس الوزراء البريطانى بأن يقبل مائة ألف مهاجر صهيوني جديد فى فلسطين . وقد كان بيرنز ، وزير خارجية امريكا ، قلقا من رد فعل هذا الموقف فى البلاد العربية ، فأعلن فى ١٨ اكتوبر « ان الحكومة الامريكية لن تساند أى قرار نهائى يغير الموقف الاساسى فى فلسطين بدون استشارة اليهود والعرب على السواء» . فكأن وزارة الخارجية الامريكية كانت ما تزال تحاول ان تتشبث بالرأى الذى كان روزفلت قد اتخذه من قبل ، والذى كان ترومان قد أحيط به علما على أى حال

وقد اعترف ترومان بعد ذلك فى مذكراته بأنه بينما كان يحاول الضغط على بريطانيا للتساهل فى مشكلة

الهجرة الى فلسطين ، كان الصهيونيون يجعلون مهمته اكثر صعوبة بمحاولتهم استخدام النفوذ الامريكى فى تأييد اقامة دولة يهودية . ففى ٣٠ أكتوبر عام ١٩٢٥ ، تلقى ترومان برقية من القسيسين : وايز ، وسيلفر ، يطالبان باتخاذ موقف لا فى تأييد قبول مائة ألف مهاجر جديد فحسب بل وفى تنفيذ « روح » وعد بلفور باقامة دولة يهودية ، رغم ان هذا هو « روح » المبادىء الصهيونية ، ولا يمت الى « روح » وعد بلفور بشىء

ويقول المؤلف ان استغراب ترومان هذا دليل آخر على سذاجته السياسية ، فلو كانت لديه اية فكرة عن العمليات الصهيونية فى أمريكا خلال الحرب لإدرك ان استخدام الصهيونية لمشكلة اليهود الاوروبيين ولوعد بلفور ولكل شىء لم تكن له غاية سوى استخدام امريكا فى اقامة دولة صهيونية ..



ومن هنا جاء قوله فى مذكراته « كنت أعتقد ان حل مشكلة اليهود الانسانية فى أوروبا أولى بالاهتمام من أهداف الصهيونية فى اقامة دولة يهودية » .. فهنا أيضا يتضح عجز ترومان عن فهم الصهيونية .. فالصهيونية لم تهتم أبدا بمشكلة اللاجئين اليهود كقضية انسانية لها ألف حل ، انما كانت تستغلها فحسب فى اقامة دولة يهودية ..

ففى خلال الحرب مثلا ، فكر روزفلت فى مشروع لاسكان اليهود اللاجئين فى بلاد العالم التى ترحب بهم . وعهد روزفلت بهذا المشروع الى «موريس.ل.ايرنست» ولكن ايرنست لم يلبث ان اكتشف ان المشروع الذى كان يظن انه عمل انسانى عظيم لانقاذ اليهود الاوربيين ، انما تنظر اليه الصهيونية على انه عمل

خطير يهدد اهداف الحركة الصهيونية ، فكتب يقول :
« لقد دهشت ، بل وشعرت بالاهانة ، عندما وجدت زعماء اليهود يهاجمون هذا المشروع ويصفوننى بأننى خائن . وقد اتهمونى علنا بأننى أعمل فى هذا المشروع واشجع استقبال اليهود فى شتى انحاء العالم لكى أخرب أهداف الصهيونية السياسية ، وهكذا وجدت ان كل أصدقائى من الصهيونيين يعارضون مشروع روزفلت . لقد وجدوا ان أهدافهم تهددها مشروعات روزفلت الكريمة الانسانية »

وقد تكرر هذا الموقف الصهيونى مرتين بعد نهاية الحرب ..

ففى ١٥ ديسمبر عام ١٩٤٦ عندما بدأت الامم المتحدة تدرس مشروعا يدعو الدول الاعضاء الى فتح ابوابها للاجئين اليهود ، تقبل الصهيونيون هذا القرار بفتور شديد ..

كذلك عندما بدأ مجلس النواب فى الكونجرس الامريكى عام ١٩٤٧ يدرس مشروعا لتقبل بعض المهاجرين فى الولايات المتحدة ، عبر الصهيونيون عن نفس البرود ازاء المشروع : فهدف اقامة دولة يهودية سياسية كان يعلو عندهم فوق كل اعتبار . وما كانت قضية اللاجئين اليهود تهمهم الا بقدر ما يمكن استغلالها فى هدفهم السياسى

***

وقد كان عام ١٩٤٦ فى الولايات المتحدة عام انتخابات ، وانتهز الصهيونيون الفرصة طبعا للحصول على أكبر قدر من المكاسب ..

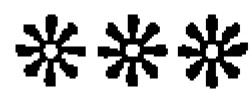
ففى ولاية نيويورك ، عرف ان توماس ديوى ، مرشح الحزب الجمهورى للرئاسة ، كان يفكر فى اصدار بيان

فى تأييد الصهيونية لفائدة هذا البيان فى حملته الانتخابية . وعلى الفور ، أسرع « ليمان » و « ميد » المرشحان عن الحزب الديمقراطى لمنصبى محافظ المدينة ونائبها فى الكونجرس ، الى ترومان ليبلغاه النبأ ويلحا عليه فى ضرورة اصدار بيان مماثل باسم الحزب الديمقراطى ، وكانت النتيجة أن صدر بيان آخر من ترومان أعلن فيه تصميمه على ضرورة ادخال مائة ألف يهودى الى فلسطين ، وأصبحت الدولة والحزبان الكبيران على السواء منغمسين فى تأييد الصهيونية تماما . فلما تذمر ترومان بعد ذلك من أسراف الصهيونيين فى الضغط عليه ، لم يكن ممكنا ان يتراجع عن الموقف الذى اتخذه بالفعل . كان أسفه متأخرا : فقد لوى الصهيونيون بالفعل ذراع الدولة ، واصبح قيام دولتهم وشيكا .

وقد كانت قيمة الحكومة الامريكية الكبرى فى هذه المرحلة بالنسبة للصهيونية ، هى الضغط على حكومة حزب العمال فى بريطانيا ..

فعندما القى ارنست بيفن بيانا فى يونيو سنة ١٩٤٦ عارض فيه قبول مائة ألف يهودى فى فلسطين ، رفع عضوا الكونجرس الامريكى عن ولاية نيويورك احتجاجا مباشرا الى الوزير البريطانى ، ولكن الاخطر من ذلك ان الصهيونية اتجهت الى أعضاء الكونجرس المرتبطين بها لتحركهم فى اتجاه هام : ففى ذلك الوقت بالضبط كان الكونجرس يدرس مشروعا لمنح انجلترا قرضا قدره ٣٧٥ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار ويقول المؤلف أن تهديد الصهيونية لبريطانيا بعرقلة هذا القرض فى الكونجرس، كان له أثر فعال جدا فى ارغام بريطانيا على التراجع واتخاذ موقف اكثر ملاءمة للصهيونية ..

ويذكر المؤلف ان ارنست بيفن شكا من انه كان فى مقدوره أن يصل الى حـــل يرضى العرب واليهود فى فلسطين لولا اصرار ترومان على حكاية دخول المائة الف يهودى ، وقال بالحرف الواحد : « اننى لا أستطيع ان أحل اي مشكلة حلا وديا ، اذا تحولت هــذه المشكلة الى ورقة فى انتخابات محلية ! » ..



ويعتقد المؤلف ان بيفن كان يرى بوضوح الفارق بين مشكلة اليهـــود كمشكلة انسانية عامة وبين قضيـــة الصهيونية فى اقامة دولة سياسية يهودية فى فلسطين..

كان هـذا الوضـــوح فى فهم الموقف فى بريطانيـــا ، كمـــا يقول المؤلف ، هو الشيء الـــذى لم يتحمـــله الصهيونيون ، فمضـــوا يتحدون الحكومة البريطانيـــة الى اقصى الحدود ، بالضـــغط الســـافر عليهـــا من خلال صنيعتهم ترومان ، وبالارهاب المسلح فى فلسطين نفسها .. فبينما كان وايزمان يعلن علنـــا استنكاره للارهاب المسلح الذى تمارسه عصابات « الهاجاناه » و«شتيرن» و « أرجون زفاى ليومى » كانت هذه العصابات كلها تعمل فى انسجام دقيق تحت قيـــادة وتوجيه الحركة الصهيونية التى يتكلم وايزمان باسمها ..

وفى نفس الوقت ظلت عمليات الهجرة غير الشرعيـــة مستمرة ، وقد نشر الصهيونيون دعاية واسعة فى العالم كله تقول ان تدفق اليهود من أوروبا فى اعقاب الحرب الى فلسطين كان عملا تلقائيا غير مرتب ، فى حين ان كل الادلة تؤكد ان هـــذه الهجرة كانت مدفوعة ومنظمـــة بواسطة شبكة صهيونية سرية واسعة . ويشير المؤلف هنا الى تقرير سرى لمخابرات الجيش الامريكى الثالث

فى أوروبا ، يقول انه تأكد وجود حركة صهيونية سرية هى التى تنظم تسلل ٢٠٠٠ يهودى كل اسبوع الى منطقة الاحتلال الامريكى فى أوروبا • وأن هذه الحركه تضم كثيرين من العسكريين اليهود الذين كانوا فى صفوف الحلفاء . وكانت هذه الحركة تنظم بعد ذلك تسللهم من جديد الى شواطىء البحر المتوسط ، وهناك يركبون سفنا أعدتها الحركة الصهيونية لنقلهم الى فلسطين . وهناك تقرير آخر يقول ان أطعمة هيئة الاغاثة الدولية UNRWA كانت تتحول الى مساعدة عملية التهريب غير الشرعية هذه ..

***

ومن اكبر الادلة على ان هذه الهجرة لم تكن تلقائية ، ان كل المهاجرين كانوا من الشبان والشابات الاصحاء الذين يمكن أن يلعبوا دورا فى اقامة اسرائيل ، ولو كان الامر أمر هجرة تلقائية لما تم هذا الفرز والاختيار

الدليل الثانى : هو انه عندما أذاع الجنرال الامريكى فردريك مورجان ، رئيس فرع هيئة الاغاثة فى المانيا ، هذا التقرير عن نشاط الصهيونية السرى ، لم يلبث أن صدر قرار بفصله من منصبه بتهمة معاداته للسامية !

كان الذى أصدر القرار هو مدير عام المنظمة ، هربرت ليمان : نفس الشخص الذى جاء ذكره منذ قليل ، حين ضغط على ترومان لاصدار بيان يؤيد هجرة اليهود الى فلسطين .. !

الدليل الثالث الذى يسوقه المؤلف على ان الهجرة لم تكن عفوية : هو انه حين بدأت بريطانيا تنفذ اجراءات فعالة لايقاف الهجرة .. بدأت على الفور حملة اكتتاب علنية من اليهود البريطانيين لتسهيل هجرة اليهود الى فلسطين ..

ونصل بعد ذلك الى المرحلة التى طرحت فيها القضية على الامم المتحدة

فازاء الشلل الكامل الذى أصيبت به بريطانيا من جراء الضغط الامريكى الهائل والعمليات الارهابية الضخمة فى فلسطين والهجرة السرية التى لا تنقطع ، قررت بريطانيا أن تحيل الامر الى الامم المتحدة

وعندما ظهرت فى أفق الامم المتحدة فكرة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، لم يكن التقسيم فى حد ذاته مرضيا لليهود الذين يريدون فلسطين كلها ، ولكنهم أسرعوا بالموافقة لسبب تكتيكى : فالتقسيم يحمل فى بذوره الاعتراف بحقهم فى اقامة دولة سياسية ، وهذا نصر كبير وخطوة ضخمة الى الامام بالنسبة لهم

وطبعا استطاع الصهيونيون أن يجعلوا الولايات المتحدة تعلن موافقتها على مبدأ التقسيم : وبهذا كسبوا نصف المعركة فى الامم المتحدة ، بحكم النفوذ الهائل الذى كان لامريكا فى المنظمة الدولية بعد الحرب

***

وفى نوفمبر ، اكتشف وايزمان ان الوفد الامريكى حاول ان يكسب رضاء العرب عن فكرة التقسيم بأن عرض عليهم أن يكون النقب جزءا من الدولة العربية . وعلى الفور ، استطاع وايزمان أن يتصل بترومان ، وبعد لقاء واحد معه ، أرسل ترومان تعليماته الى الوفد الامريكى بأن يسحب هذا العرض الخاص بالنقب من العرب!

يقول حاييم وايزمان فى مذكراته : « ان هذا القرار (من ترومان) فتح الطريق أمام قرار الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر .. »

وهذا صحيح ! ..

فأكثر الدول الاعضاء كانت واقعة تحت النفوذ المباشر لامريكا بعد الحرب . وقد بقيت بعض الدول الصغيرة تقاوم : هايتى ، ليبيريا ، الفلبين ، الصين ، اثيوبيا ، اليونان .. وهنا تحركت الاداة الصهيونيــة الهائلة فى جميع أنحاء العالم تمارس ضغطا لا مثيل له .. ضغطها كان معظمه يوجه من خلال الولايات المتحدة الامريكية : الحكومة الامريكية تضغط . أعضاء الكونجرس يضغطون على الحكومات الاجنبية رأسا ، وعلى حكومتهم لــكى تضغط على هــذه الحكومات ، شركة فايرستون للمطاط طلب منها ان تضغط على حكومة ليبيريا لــكى تصوت الى جانب التقسيم . القاضــيان افرانكفورتر ومورفى يتصلان بحكومة الفيلبين .. وهكذا ..

***

وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، أصدرت الامم المتحدة قرارها بالتقسيم ..

ويقول المؤلف : انه بعد أن تم اتخاذ القرار بالفعل ، بدات المناقشة حول سلامة الاســاليب التى اتبعتهـــا الصهيونية ، ومازالت هذه المناقشة فى رأيه قائمة الى الآن

ففى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧ ، كتب حاييم وايزمان الى ترومان رسالة ينفى فيهـا « الاتهامات » الموجهة الى الحركة الصهيونية من انها تمارس ضغطا غير لائق على وفود الدول فى الامم المتحدة . ولــكن ترومان نفســه كتب فى مذكراته بعد ذلك يقول : « الحقيقة هى ان الضغط الذى وقع على الامم المتحدة فى ذلك الوقت لم يكن له مثيل قط . وان البيت الابيض تعرض لضغط فى نفس الوقت ، ولا أظن ان البيت الابيض تعرض لمثل هــذا الضغط فى أى وقت . ان اصرار والحاح الزعماء الصهيونيين ، الذى تحركه دوافع ســياسية مصحوبة

بالتهديدات ، قد ضايقني وازعجني حقا بل ان بعضهم كان يطلب منا ان نضغط على دول ذات سيادة للحصول على الاصوات المطلوبة فى الجمعية العامة »

***

ورغم ان القرار صـــدر بالفعل ، الا ان الضغط لم يخف . بقى هدف آخر مهم وهو : الاعتراف !

وفى مجال الاعتراف الدولى ، لابد من الحصول على اعتراف أمريكا أولا .. ليسهل الباقى ..

ويقول المؤلف : ان ترومان ازاء هذا الالحاح والضغط الذى زاد عن حده ، اضطر الى رفض مقابلة أى ممثل صهيونى ، ولـكن بالرغم من تعليمات رئيس الجمهورية ، تمكن الصهيونيون من الوصول اليه

ففى مارس ١٩٤٨ طلب وايزمان مقـــابلة ترومان ، وبناء على تعليمات ترومان ، رفض هذا الطلب . وفجأة تلقى ترومان زيارة من مستر « ايدى جالوبسون » ، وهو يهودى أمريكى وصـــديق حميم وقديم لترومان ، وأخذ يلح عليه فى أن يقابل وايزمان . ويقول المؤلف ان ترومان ضعف أمام هـــذا الضغط الذى لا مثيل له ، وقابل وايزمان فى ١٨ مارس ، وفى هـــذا اللقاء تحسن الجو من جديد بين ترومان ووايزمان ، وانفتح البـــاب لقرار أمريكى جديد هو : الاعتراف باسرائيل يوم ١٤ مايو ، بعد احدى عشرة دقيقة فقط من اعلان قيام الدولة

ويعقب المؤلف قائلا : ان أمريكا جرت عادتها دائما على أن تكون حذرة ومتمهلة فى اعتـــرافها بأى حكومة جديدة . وخروجها عن هذه القاعدة ، على هذا النحو السافر ، يظهر لنا الى أى حـــد نجحت الصهيونيـــة فى استخدام السياسة الامريكية كأداة لها

الفصل
الثاني

الوثائق الإنجليزية

■ قراءة في الوثائق السرية لمجلس الوزراء البريطاني عن قضية فلسطين .

أعلن فى لنــدن هــذه السنة فتح باب الاطــلاع على الاوراق السرية الرسمية للحكومة البريطانيـــة خلال الحرب العالمية الاولى وما بعدها .. وهى تضم الوثائق المتصلة بقصة وعد بلفور للحركة الصهيونية باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . وهو الوعد الذى كان نقطــة البدء فى قيام دولة اسرائيل ..

وبعد ذلك كنت فى لندن بضعة أيام قليلة .. وفى لقاء مع صديق عربى يعمل هناك هو الاستاذ تحسين بشير الذى كان مشرفا على مكتب الجامعة العربيـــة فى لندن أثرت الموضوع وسألته اذا كان ممكنا الحصول على صورة من هــذه الوثائق . واستطاع أن يحصل على صــور كاملة لعــدد كبير من هــذه الوثائق التى تهم المــكتبة العربية والتاريخ العربى والسياسة العربية بغير شك وأرسلها الى جامعة الدول العربيـــة حيث تكون تحت تصرف كل باحث عربى .. وهى الوثائق التى أقدمها على هــذه الصفحات

والوثائق الانجليزية الرسمية ، لا تفاجىء المطلع على خفايا القضية الاسرائيليـــة بحقائق جديدة . فمن قرأ مذكرات وايزمان زعيم الحركة الصهيونية وأول رئيس

لاسرائيل « التجربة والخطأ » ومن قرأ كتابا مثل « مدخل الى اسرائيل » للباحث الاسرائيلى النزيه « آل تايلور » وغيره من الكتب ، لا يجد ما يفاجئه .. الا فى القليل النادر .. ولكنه مع ذلك يجد الكثير مما يؤكد ، ويوضح ، ويعلم

وأول ما يلفت النظر من القراءة السرية الاولى للوثائق : ان الفكرة الشائعة بأن الحركة الصهيونية كانت خلال الحرب العالمية الاولى مع الحلفاء تماما ، وضد الالمان والاتراك ليست الا وهما . فالوثائق تدل على ان الصهيونيين كانوا يدرسون فى واقعية شديدة امكانيات استفادتهم من الاتراك ، والالمان ، والحلفاء الغربيين على السواء . وكانوا على صلة سرية بكل هذه القوى فى نفس الوقت . واذا كانوا قد اختاروا الحلفاء الغربيين فى النهاية ، فلأنهم وجدوا أنهم الجانب الذى سيكتب له النصر ، والمستعد لمنحهم الثمن الاكبر ..

***

وسواء كانت الصهيونية تتصل بكل الاطراف ، أو كانت فقط تحاول الضغط على كل طرف بالتلويح لاحتمال اتفاقها مع الطرف الآخر ، فالنتيجة واحدة ..

ففى احدى الوثائق الانجليزية الرسمية ، نجد تقارير أرسلها رجال المخابرات الانجليزية فى المانيا خلال الحرب ، عن النشاط الصهيونى واحتمالاته فى المانيا ..

تتحدث هذه التقارير عن رد الفعل الذى أحدثه قيام « جمال باشا » الحاكم التركى لسوريا وفلسطين بتهجير بعض اليهود من يافا .. فيروى ان الصحف الالمانية تنشر مقالات للضابط الالمانى ف.س. اندريز الذى يعمل فى هيئة الاركان العامة الالمانية عن ضرورة مساعدة الحركة الصهيونية .. وان بعض النواب الالمان قدموا

استجوابا فى الرايشيستاج « البرلمان » لارغام الحكومة الالمانية على الضغط على الحكومة التركية الحليفة لها فى الحرب . وتروى التقارير أيضا أن جمال باشا كان فى زيارة لبرلين وانه تباحث فى موضوع اليهود وفلسطين مع فون كوهمان وأحد زعماء الحركة الصهيونية

ماذا كان يدور من بحوث فى هذه الاجتماعات بين الالمان والاتراك وزعماء الحركة الصهيونية الذين لا تورد التقارير أسماءهم ؟ ..

كان البحث يدور حول المزايا والتنازلات التى يمكن أن يمنحها الحكم التركى للصهيونيين فى فلسطين ، مقابل تأييد يهود العالم لتركيا والمانيا فى الحرب ضد الحلفاء ..

هذا ما يرويه تقرير مخابرات انجليزى آخر يقول : « وردت المعلومات التالية من مصدر يهودى موثوق به فى كوبنهاجن : قضى طلعت باشا بعض الوقت فى برلين لبحث المسألة الصهيونية ، وقد طلب من كراسو أفندى عضو مجلس النواب التركى « يبدو من الاسم انه تركى يهودى » (١) المجىء الى برلين وفوضه فى معالجة المسألة اليهودية مع تأكيدات بقبول الحكومتين الالمانية والتركية السياسة التى يوصى بها

« وفى الاسبوع الماضى جمع كراسو مؤتمرا من ٢٤ زعيما يهوديا ألفوا لجنة من عشرين شخصا تضم الدكتور ناثان والدكتور جيمس سايمون والاستاذ لودجشتاين والاستاذ اوبنهايمر لابداء الرأى فى الموضوع

---

(١) نشر الاستاذ عميد الامام فى جريدة الجمهورية فى ١٩٦٦/٢/٢٥ تعليقا على هذا الكلام ان اسم هذا النائب التركى هو عمانوئيل قره سو وهو زعيم يهود سالونيك، بالاضافة الى الدور الذى لعبه فى الاتصالات بين الصهيونيين والعثمانيين كان أحد ثلاثة انتدبهم مجلس النواب التركى لابلاغ السلطان عبد الحميد بقرار عزله

« وقـــد أوصت اللجنة باقامة شركة مصرح بها من جانب البرلمان على الطراز البريطانى من جميع اليهود فى تركيا . ولهذه الشركة التى يكون مقرها استانبول :

« السلطة فى منح الحكم الذاتى للمناطق التى يسكنها اليهود ، ليس فقط فى فلسطين وانما فى أى مكان آخر من الامبراطورية التركية ، ويكون لهذه المناطق السلطات الـكاملة على الضرائب والشرطة والمؤسسات البلدية ..

« وقد وافق طلعت باشا على المشروع ووعد بادراجه فى شروط الصلح . والمعتقد ان هـــذا الاقتراح سوف يكون له تأثير كبير على اليهود فى أوروبا لان تركيا تتعهد فيه بشىء تملك تنفيذه من الآن (لان فلسطين كانت تحت الحكم التركى) فى حين ان ما تعد به بريطانيا قد يمكن تحقيقه فقط اذا انتهت الحرب بدخول سوريا وفلسطين تحت حكمنا ! »

معنى هــذا التقرير ان الحكومة التركية العثمانيــة كانت قد وافقت بالفعل على اعطاء اليهود فى فلسطين « حق الحكم الذاتى بما له من ســلطات كاملة على الضرائب والشرطة والمؤسسات البــلدية » وهو قريب جدا من وعد بريطانيا لهم « بوطن قومى » .. الذى كان يسعى لاستصداره جزء آخر من الحركة الصهيونية ، يتركز نشاطه فى الطرف الآخر من خط القتـــال .. فى بريطانيا ..

هكذا كانت الحركة الصـــهيونية ، خـــلال الحرب العالمية ، تعمل فى المعســـكرين المتحاربين ، على نفس المستوى ولنفس القضية ..

ما أهمية هذه الحقيقة ؟

اهميتهـــا ان اساســـا جوهريا من أسس الدعاية الصهيونية المستقرة كحقيقة بديهية فى أذهان الغرب :

ان الحركة الصهيونيـــة حركة وقفت الى جانب دول الغرب « الديموقراطية المتحررة » ضـــد الاوتوقراطية والرجعية المتمثلة وقتـــذاك فى الامبراطورية الالمانيـــة والامبراطورية التركية العثمانية . أى انهم اختـــاروا اختيار مبدأ .. أما حقيقة سعيهم على نفس المستوى مع المعسكر الآخر للوصول الى نفس النتيجة ، فقـــد أهيل عليها التراب وأسدل عليها ستار الصمت !

نعود الى وثائق الحكومة الانجليزية فنجد أن تقارير رجالها تحذر من خطر اتفاق الصهيونية مع تركيا والمانيا على الاسس السابقة .. وتطالب بريطانيا وحلفـــاءها بالتصدى لهذا بمزيد من التنازل للصهيونية ..

اليهود .. أين هم ؟

حتى بعد صدور وعد بلفور الانجليزى بمنح اليهود وطنا قوميا فى فلسطين ، نجد تقريرا يقول « ان مشروع كراسو وطلعت باشا ينطوى على خطر التقليل من اثر وعد مستر بلفور ويعيد عطف العالم اليهودى على الدول المعادية لنا (المانيا وتركيا)

ويعمد التقرير الى عمل نوع من « تقدير موقف » كل من المعسكرين من اليهـــود فيقـــول « ان الاوراق الرابحة فى هذا الموضوع ما زالت فى أيدى الحلفاء ، ثم يعدد أسباب هذا التقدير .. فأهم الجاليات اليهودية فى العـــالم تعيش فى أرض تسيطر عليهـــا الحكومات المتحالفة ، مثل يهود الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وسالونيك « اليونان » وهؤلاء اليهود يعتمدون علينا من اجل مستقبلهم وهم يثقون بحسن نيتنا .. فى حين ان حكومات الاعداء لا تسيطر الا على يهود المانيا والنمسا والمجر وطائفة السيفاريم فى استانبول وادرنه وازمير ، وهم أقل أهمية من ناحية العدد والثروة !.. صحيح

ان يهود بولندا ورومانيا قد أصبحوا جزئيا تحت سيطرة العدو من جراء الاحتلال الالمانى العسكرى ، غير انه ينبغى ان نذكر ان كثيرين منهم فروا الى داخل روسيا وان الباقين قد غيرت الثورة الروسية مشاعرهم نحو روسيا ، ففيما يتعلق بالصهيونية والاستيطان اليهودى نجد اننا نسيطر على أهم التجمعات السكانية التى سيتوقف عليها مستقبل الصهيونية ! أما فيما يتعلق بالمصالح اليهودية العالمية ، منفصلة عن المصالح الصهيونية الصرفة ـ فنحن أيضا فى وضع أقوى من وضع دول الاعداء »

ثم نجد بعد ذلك ، فى هذا التقرير الرسمى من وثائق مجلس الوزراء البريطانى ، دراسة لتقدير موقف المعسكرين المتحاربين من « اليهود القاطنين حاليا ضمن حدود الامبراطورية العثمانية والمراكز اليهودية ذات الاهمية التاريخية والدينية فى نطاق هذه الامبراطورية » . وفى هذه الدراسة جدل يقارن بين اليهود الواقعين تحت سيطرة الحلفاء « ١٦٠ مستعمرة على طول الخط الحديدى بين يافا والقدس تضم ٣٠٥٠ مستوطنا و ١٥ر٦٢٧ فدانا و ٤ مستعمرات على خط العوجة تضم ٢٥٤٠ مستوطنا و ٥١٨٧ فدانا » وبين اليهود الواقعين على الجانب الآخر من خط القتال تحت سيطرة الاتراك « ٢٤ مستعمرة فى الجليل وسهل شارون تضم ٤٥١٥ مستوطنا و ٦٥ر٩٧٣ فدانا » ثم يعدد مناطق التجمع ذات القيمة المعنوية الاخرى « القدس ٧٠ ألف يهودى ، نابلس ٨ آلاف يهودى ، بغداد ٥٠ ألف يهودى »

والقتال بين الانجليز والاتراك فى الشرق العربى مستمر . فلما تسقط القدس فى يد الانجليز ، نجد التقارير الرسمية تقول ان هذا يرجح كفة الحلفاء فى

نظر الصهيونيين « فالقدس هى عصفورنا الذى فى اليد ، وقد بات من المشكوك فيه أن يتمكن الاتراك من استرداد القدس ، فى حين ان الانجليز ينتظر أن يضموا اليها باقى فلسطين » .. فالحلفاء الآن أكثر اطمئنانا الى تأييد الحركة الصهيونية واليهودية العالمية لهم ، بعد اللعب على الحبل بين الانجليز والالمان .. وان بقى القلق من مشروع طلعت باشا وكراسو أفندى .. فيقول التقرير « هكذا يبدو ان الاوراق الرابحة أصبحت فى أيدينا وانه من السهل علينا أن نقضى على أثر مشروع كراسو أفندى بدعاية مضادة ــ رغم انه لا يجب أن نتركه دون جواب»

نعم ، ان الامر ما زال موجبا للقلق ، فحتى وعد بلفور وسقوط القدس فى يد الانجليز ، يسجل تقرير انجليزى من تقارير مجلس الوزراء انه فى يوم ٢٣ يناير ١٩١٨ ، أذاع الراديو الالمانى تصريحا لطلعت باشا الى مراسل جريدة نوسيش زايتونج فى استانبول ، بحضور شيخ الاسلام ، قال فيه : « أن وعد مستر بلفور هو اكذوبة » ثم أخذ يعدد التنازلات التى تعرضها الحكومة التركية على الحركة الصهيونية ، وفى مقدمتها : قبول مبدأ الهجرة اليهودية الى فلسطين فى حدود امكانيات البلاد ومنح الحكم الذاتى لكل تجمع يهودى أكثر من خمسة آلاف نسمة !

ولا شك انه ، الى جانب النشاط الصهيونى فى لندن وفى برلين على السواء ، كان هناك تنسيق بين النشاطين هنا وهناك . صحيح ان النشاط الاعظم كان مبذولا فى لندن تحت زعامة حاييم وايزمان ، ولكن وحدة الحركة الصهيونية السابقة على نشوب الحرب ، وانتماء يهود ألمان وانجليز وروس ومن شتى الجنسيات الى هذه الحركة الصهيونية الواحدة ، كان يسمح لهم بالتنسيق

بين النشاطين فى العاصمتين المتحاربتين

ففى وسط الوثائق يفاجئنا تقرير مخابرات انجليزى من برن فى سويسرا مرفوع الى مجلس الوزراء البريطانى خلال الحرب يقول بالنص : « بالاشارة الى وزارة الحرب ٢٢٣ المضبطة الثانية ، صرح اللورد روبرت سيسيل بأنه يبدو ان اجتماعا ما قد عقد بين بعض رجال المال فى برن التقى فيه – على الارجح – المسيو كايو ، وأحد الرعايا الانجليز ويدعى كينجام وأحد رجال البنوك المصرية «!» برجال البنوك السويسرية والفرنسية . وقد بذلت محاولات لمعرفة حقيقة ما حدث بالضبط من مستر كينجام . واذا ظهرت أدلة على ان أحد الانجليز قد تباحث مع رعايا الاعداء ، فان الاجراءات سوف تتخذ ضده ! »

وأغلب الظن أن المشار اليه بأنه أحد رجال البنوك المصريين هو أحد اليهود المصريين .. ففى ذلك الوقت، أيام الحرب العالمية الاولى ، لم يكن المصريون الآخرون – من مسلمين وأقباط – مشتغلين بالبنوك بارزين فيها الى حد الدخول فى اتصالات دولية على هذا المستوى..

ولكن اغرب مافى التقرير انه يتحدث عن « رعايا انجليز ورعايا المان » . فى حين أن الحركة الصهيونية كانت قد حققت موقفها : الصهيونى الالمانى ليس المانيا والانجليزى ليس انجليزيا . فالصهيونية جعلت من اليهودية قومية ، وهى تتطلب من اليهودى أن يكون ولاؤه السياسى لها ، لا للوطن الذى عاش فيه وحمل جنسيته ..

واذا كان الصهيونيون قد لعبوا هذه اللعبة طوال الحرب ، فحاولوا التفاهم مع كل طرف من الطرفين المتصارعين على ماينالونه ساعة النصر فان الانجليز

بدورهم قد لعبوا نفس اللعبة المزدوجة على مستوى آخر : فقد كانوا يعدون العرب بشيء ، ويعدون الصهيونيين بشيء آخر ، ليستفيدوا من الطرفين في كسب الحرب ..

أما دور الساذج ، فلم يلعبه مع الاسف سوى العرب !!

ففي وثائق مجلس الوزراء البريطاني مذكرة تقول : « قال مدير المخابرات العسكرية أنه تلقى برقية من السير ريجنالد وينجت تقول ان الجنرال كلايتون « مدير المخابرات الانجليزية فى مصر » أوصى بضرورة ارسال الفيلق العربى وعدده حوالى ألف رجل من مصر الى العقبة لمساعدة فيصل فى أعماله . وقال مدير المخابرات العسكرية انه من الضرورى استشارة الفرنسيين ، ولهذا أبرق الى باريس والى الجنرال اللينبى « قائد القوات البريطانية في الشرق » يسأله المشورة »

وفى مذكرة أخرى « بالاشارة الى برقية السير ريجنالد وينجت رقم ١٢١٢ بتاريخ ١٥ نوفمبر ، ونظرا للأهمية الكبرى للتعاون العربى فى هذه اللحظة ، فان وزارة الحرب قررت زيادة المساعدات المقدمة للعرب من ٢٠٠ ألف جنيه الى ٥٠٠ ألف جنيه طبقا لما هو مقترح »

وهناك مراسلات كثيرة مع الجنرال مود ، قائد الجيش الانجليزى الذى كان يزحف على العراق بالتشديد فى الهجوم لمساعدة القوات الانجليزية الزاحفة على فلسطين ، ولتعطيل الأتراك وشل حركتهم العسكرية في شبه الجزيرة العربية

والتقارير عن الحالة العسكرية خلال هذه الفترة كثيرة ..

« .. اتخذت الترتيبات لتعاون العرب فى تدمير اجزاء من سكة حديد الحجاز شرقى نهر الاردن وبين حلب ودمشق . وجميع قبائل العرب تقريبا متعاونة معنا فى هذا العمل ولكن لا يبدو أن هناك أملا كبيرا فى اقدام الدروز على مساعدتنا قبل أن يصل الانجليز الى نقطة أكثر تقدما نحو الشمال »

هكذا كانت مساعدة العرب للانجليز جوهرية فى احرازهم النصر العسكرى على الأتراك فى الشرق العربى، وهو ماكوفئوا عليه باقامة اسرائيل فى بلادهم !

لقد تكلل العمل العسكرى بسقوط القدس ، فهذه مذكرة سريعة الى مجلس الوزراء البريطانى تقول « ذكر رئيس أركان حرب الامبراطورية ان القدس قد عزلت وسلمها عمدتها الى القائد البريطانى الذى ذكر انه لن يدخل المدينة رسميا قبل يوم ١١ ديسمبر . ويقرر المجلس اعلان النبأ على مجلس العموم البريطانى بعد ظهر ذلك اليوم .. »

وفى صفحة واحدة فى وثائق الحكومة الانجليزية نجد خبرين متواليين :

الاول يقول « استقبلت وزارة الحرب وفدا برئاسة اللورد روتشيلد لتهنئة الحكومة بالاستيلاء على القدس نيابة عن ممثلى الحركة الصهيونية » ..

والثانى يقول « استقبلت وزارة الحرب وفدا عربيا برئاسة الكونت زغيب يمثل الفلسطينيين والسوريين العرب مسلمين ومسيحيين . وقد تلا الكونت زغيب رسالة تهنئة الى حكومة صاحب الجلالة والقوات البريطانية بمناسبة الاستيلاء على القدس »

قمة الانتصار للسياسة ذات الوجهين : العـــرب والصهيونيون على السواء يهنئون بريطانيا بفتح القدس .. وكان العرب هم المخدوعون !..

اما الجنرال اللينبى الذى دخـــل القدس على رأس قواته ، فقد كانت تؤرقه مشكلة أخرى ..

نجدها فى وثيقة تقـــول « قدم رئيس هيئة أركان حرب الامبراطورية تقريرا الى وزارة الحرب عن برقية تلقاها من الجنرال اللينبى يسأل فيها عن الاعلام التى ترفع فى حالة احتلال الحلفاء مدينة القدس »

وترد وزارة الحرب البريطانية الرد الجدير بسياسة الدهاء والغموض والالتفاف « انه نظرا للطابع الفـــريد للمدينة ، وللمشاكل الدبلوماسية والسياسية المعقـــدة التى تثيرها ، فانه يجب ابلاغ الجنرال اللينبى بوجوب عـــدم رفع أى عـــلم فى حالة احتـــلال قوات الحلفاء للمدينة !! »

***

وبعد ..

واذا كانت هذه الفقرات السريعة من الوثائق الرسمية الانجليزية ، تجرد الحركة الصهيونية من المثالية التى تدعيها وتنصب بها على العالم . وتبرهن على أنهـــا لم تقف مع معسكر معين تؤمن به ايمانا مبدئيا .. وانما كانت تبحث عن تحقيـــق هدفها من كل ســـــبيل . فالسؤال التالى هو :

ما الذى جعل الانجليز والاتراك والالمان يتنافسون الى هذا الحد على خطب ود الحركة الصهيونية ومحاولة كسبها الى صفوفهم ؟

لقد كان من أهم أسلحة الحركة الصهيونية فى ذلك الوقت أن تقنع انجلترا بأنها ــ أى الحركة الصهيونية

ـ هى التى تمثل الاغلبية الساحقة ليهود العالم . ذلك ان هذه المسألة كانت محل نزاع شديد فى ذلك الوقت . فالواقع أن الحركة الصهيونية لم تكن الا تيارا من تيارات شتى تتصارع يهود العالم . وكانت نقطة الخلاف ببساطة هى أن الصهيونية تريد أن تحول الدين اليهودى الى « قومية » و « جنسية » ولذلك كان يطلق على الصهيونيين اسم « اليهود القوميون » .. هذا فى حين أن التيارات الاخرى كانت ترفض أن يتحول الدين اليهودى الى قومية ، فيفقد اليهودى الانجليزى قوميته الانجليزية واليهودى الفرنسى قوميته الفرنسية .. وهكذا .. ويصبح هؤلاء الانجليز اليهود ـ مثلا ـ مهددين دائما بأن يتهموا بأن ولاءهم ليس للبلاد التى انجبتهم ، وهى انجلترا .. الامر الذى يحرك نزعة معاداة السامية فى تلك البلاد من جديد ..

كان هذا هو الرأى السائد بين اليهود الانجليز ، ولكن زعماء الحركة الصهيونية صارعوا هذا التيار صراعا شديدا ، وتمكنوا من أن تكون لهم اليد العليا فى الدعاية والتأثير كما تمكنوا من أن يكون لهم صوت مسموع لدى الحكومة الانجليزية

نجد مظاهر هذا الصراع واضحة فى وثائق الحكومة الانجليزية ، فهذه فقرات من رسالة من وزير شئون الهند فى مجلس الوزراء البريطانى ، الى لورد سيسيل يفند فيها زعم الصهيونيين انهم يمثلون أغلبية اليهود فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩١٧

« عزيزى سيسيل

« بالاشارة الى المناقشة التى دارت بيننا بشأن موضوع الصهيونية وما أعربتم عنه مع اللورد بليز من أن آرائى التى أعتنقها هى آراء الاقلية اليهودية . اننى

ازاء هذا قد حاولت دراسة حقيقة الموضوع على قدر المستطاع ، وهاأنذا اعطيك الحقائق كمـــا تأكدت من صحتها فيما يلى :

« لقد حاولت أن اعرف اذا كان الصـــهيونيون لهم الاغلبيـــة فى صفوف اليهود وما مقدار هـــذه الاغلبيـــة بالنسبة لليهود الانجليز . وبما أنه لا يوجد أى استفتاء فى هذا المجال فاننى لا أجد الا دليلا غير مباشر هـــو التصويت الذى جرى فى صفوف هيئة تمثل الجـالية اليهودية عامة وهى « هيئة المندوبين اليهود »

« ان هناك لجنة مشتركة من « هيئة المنـــدوبين اليهود » و « الجمعية الانجليزية اليهودية » . وهـــذه اللجنة المشتركة نشرت فى جريدة التايمز بتاريخ ٢٤ مايو خطابا حبذت فيه اعطاء اليهود فى فلسطين حقوقا مدنية وحرية دينية وتسهيلا للهجرة والاستيطان الخ .. ولكنها عارضت الدعوة الصهيونية فى نقطتين هما :

« أولا : رغبة الصهيونية فى الاعتراف بوضع قومى لليهود المهاجرين الى فلسطين على أساس انهم يتمتعون بطابع وطنى بالمعنى السياسي المفهوم

« ثانيا : رغبة الصهيونية فى أن يتمتع يهود فلسطين ببعض الحقوق الخاصة زيادة على الحقوق التى يتمتع بها باقى السكان ..

« فالبيان يعارض فكرة الوطنية اليهودية وهى أساس مبدأ الصهيونية

« وهذا التصويت الذى كان بمثابة الاختبار العددى الوحيد الذى استند عليه فى الادعاء بأن الصـــهيونيين يكونون غالبية اليهود البريطانيين ـ هذا التصويت ـ كانت نتيجته ٥٦ ضد ٥١ صوتا

« ويجب أن نذكر فى صدد هذا الموضوع أن مبـــدأ

الصهيونية كان قد اختلط أثناء مناقشته ببعض المسائل الاخرى الفرعية التى أثيرت نتيجة لعدم التصرف السليم فى استعمال السلطة المفوضة للجنة

« ووحتى لو صرفنا النظر عن ذلك ــ ولا ينبغي صرف النظر عنه ــ فان كل ما يمكن أن يقال هو أن الآراء التى اعتنقها والتي صرحت بها فى مجلس الوزراء يعتنقها ايضا نصف الممثلين تقريبا للهيئة الوحيدة التى أفصحت عن رأيها

« واننى لا أستطيع ترك هذا الموضوع جانبا وأنا على وشك السفر من انجلترا والتغيب لبضعة أشهر دون ان اذكرك بأن الصهيونية كان مصدرها أجنبيا ، وقد أنشأها ثيودور هرزل من النمسا ، كما أن خليفته فى زعامة الحركة الصهيونية كان دافيد بدوره أو تووار بورج من برلين

« وهكذا نجد أن اليهود الاجانب « غير الانجليز » هم الذين لعبوا دورا كبيرا فى الحركة الصهيونية فى بريطانيا

« ومن بين زعمائها المعروفين فى بريطانيا الدكتور جاستر وهو من رومانيا والدكتور هيرتز من النمسا ، والدكتور حاييم وايزمان الذى أعتقد أنه من روسيا ــ وقد يكون هناك زعماء للهيئات الصهيونية فى بريطانيا ممن ولدوا فى بريطانيا . ولكن المؤكد أن اليهود الاجانب المولودين فى الخارج هم الذين يكونون الجزء الاكبر من الصهيونيين فى بريطانيا ..

وهكذا يتبين أننى كنت على صواب فى قولى ان اليهود المولودين فى بريطانيا هم فى غالبيتهم ضد الصهيونية وأن محاربة هذا المبدأ هى فكرة يعتنقها نصف عدد اليهود البريطانيين ــ على الاقل ــ اذن فما هو السبب الذى جعل حكومتنا تقوم بأى شيء فى هذا الموضوع

وسط مشغولياتنا الجسام وحيرتها ؟

« لقد ذكر أثناء المناقشة بمجلس الوزراء أن قدرة الصهيونيين على مساعدتنا لدىأمريكا كان أحد الاسباب الداعية لذلك . ورغم انني لم أقرأ صيغة البرقية التى أرسلتها الى أمريكا الا أنه يبدو أن الرئيس الامريكى ولسون لا يرغب فى اصدار تصريح قاطع بشأن اىالتزام حقيقى حاليا . لذلك فانني مضطر أن أنصح مرة أخرى بعدم استعمال اى صيغة كلامية من قبل اى ممثل للحكومة البريطانية ترمز الى وجود شعب يهودى بالمعنى السياسي أو أن اليهودى الذى يقطن حاليا فى بريطانيا او فرنسا أو ايطاليا أو أمريكا يعتبر مقيما فى المنفى

« ان مثل هذا التصريح سيكون بمثابة صدمة قاسية بالنسبة لليهود البريطانيين الذين يعشقون بريطانيا التى ولدوا فيها والتى ولد أجدادهم أيضا فيها طوال أجيال عديدة والذين يحبون انفاق حياتهم فى العمل من أجلها والذين تتركز أعظم آمالهم فى الاستمرار فى خدمتها »

ان وزير الهند « مونتاجو » هذا كان الوزير اليهودى الوحيد فى الحكومة الانجليزية ، وهو يقول لزملائه الوزراء فى الخطاب السابق ان يهود انجلترا فى غالبيتهم ضد الصهيونية . وهم يرفضون أن يصبحوا أبناء قومية أخرى اسرائيلية . بل انه يذهب الى أكثر من ذلك ويقدم الى مجلس الوزراء البريطانى مذكرة عنيفةيهاجم فيها ما قررته حكومة انجلترا من اصدار وعد بلفور ، مذكرة جعل لها عنوانا عنيفا هو « معاداة الحكومة الانجليزية الحاضرة للسامية » ، وهى مذكرة موجودة فى وثائق الحكومة الانجليزية الرسمية ، بعنوان : « معاداة الحكومة الحاضرة للسامية »

وقد جاء فى هذه المذكرة ما يلى :

« لقد وقع اختيارى على هذا العنوان لهذه المذكرة لا بدافع شعور بالعداء ولا لوسيلة للشجار مع وجهةنظر معادية للسامية يحملها بعض الزملاء الوزراء .. كل ما هناك أننى أود أن أسجل ما أعتقد من أن السياسة التى تتبعها حكومة صاحب الجلالة هى سياسة عداء للسامية من ناحية النتيجة مما قد يجعلها نقطة تجمع للمعادين للسامية فى كافة دول العالم

« ويؤكد هذا الرأى المراسلة التى تسلمتها أمس والتى جرت بين لورد روتشلد ومستر بلفور

« ان خطاب لورد روتشلد مؤرخ فى ١٨ يوليو بينما رد مستر بلفور سيؤرخ فى أغسطس عام ١٩١٧ وأخشى أن يكون اعتراضى قد جاء متأخرا وأن الحكومة ربما أصبحت عضوا فى مجلس الوزراء . الا أننى أشعر باعتبارى الوزير اليهودى الوحيد فى الحكومة أن من حقى أن يمنحنى زملائى فرصة للتعبير عن وجهة نظر أتمسك بها تمسكا شديدا

« اننى أؤمن ايمانا راسخا بأن هذه الحرب قد سددت ضربة لفكرة « الدولية » وانها قد فتحت المجال لبعث الشعور بالقومية الذى كان قد بدأ فى التراخى .. فقد أصبح من المتفق عليه ضمنا بين الساسة فى معظم الدول أن اعادة توزيع الاقاليم بعد الحرب يجب أن يتم على أسس قومية ..

« وفى هذه الظروف تقترح الحكومة الموافقة على تكوين أمة جديدة بوطن جديد فى فلسطين . والمفهوم أن هذه الامة ستتكون من اليهود الروس والانجليز والرومانيين وغيرهم

« لقد بدت الصهيونية لى دائما عقيدة سياسية لا يمكن أن يؤمن بها أى مواطن مخلص للمملكة المتحدة ،

ذلك أن اليهودى الانجليزى الذى يتطلع الى جبل الزيتون ويتوق الى اليوم الذى يستطيع فيه أن ينفض عن حذائه التراب البريطانى ويعود الى نشاطه الزراعى فى فلسطين انما يعترف بذلك بأنه لايصلح للاشتراك فى الحياة العامة فى بريطانيا العظمى .. بل ولا يصلح لان يعامل كمواطن انجليزى . لقد كان اعتقادى دائما أن الذين عكفوا على هذه العقيدة كانوا مدفوعين الى ذلك بسبب القيود المفروضة على حرية اليهود فى روسيا ولكن بعد أن تم الاعتراف بهؤلاء اليهود باعتبارهم يهود روسيين ، ومنحوا كافة حرياتهم ، يبدو من غير المفهوم أن تقدم الحكومة البريطانية على الاعتراف الرسمى بالصهيونية وأن يخول مستر بلفور سلطة التصريح بأنه يجب أن يعاد تأسيس فلسطين « كوطن قومى للشعب اليهودى » .

وانا لا أعلم على وجه التحديد ما ينطوى عليه هذا .. وان كنت أستنتج انه يعنى أن على المسلمين والمسيحيين فى فلسطين أن يخلوا السبيل لليهود الذين سوف يتمتعون بالافضلية ، ويصبحون مرتبطين بفلسطين ارتباط الانجليز بانجلترا أو الفرنسيين بفرنسا . كما يعنى ذلك أن الاتراك يعتبرون أجانب مثلهم فى ذلك مثل اليهود ، الذين سوف يعاملون منذ الآن كأجانب فى كل بلد آخر غير فلسطين

« اننى أحب هنا أن أؤكد أربعة مبادىء :

١ ـ لا توجد أمة يهودية . ان أفراد أسرتى مثلا الذين عاشوا فى هذا البلد عدة أجيال لا يربطهم بأى أسرة يهودية فى أى بلد آخر أى اتفاق فى رأى أو رغبة ـ ولا يجمعهم بها أى شىء أكثر من كونهم يعتنقون بدرجات متفاوتة نفس الديانة . ولا يصح القول بأن اليهودى الإنجليزى واليهودى المغربى ينتميان لامة واحدة تماما

كما أنه لا يصح القول بأن المسيحي الانجليزي والمسيحي الفرنسي ينتميان لامة واحدة أو ربما لجنس واحد ..

٢ ـ اذا قيل لليهود ان فلسطين هي وطنهم القومي فان كل دولة أخرى سوف تتجه فورا الى التخلص من مواطنيها اليهود وبذلك سوف نجد في فلسطين عددا ضخما من السكان يقومون بطرد أهلها الحاليين ويأخذون أحسن ما في البلد . ولسوف يحضر هؤلاء من كافة أجزاء الكرة الارضية يتحدثون مختلف اللغات ولا يستطيعون التفاهم مع بعضهم البعض الا عن طريق المترجم

«ان الحياة التي عاشها اليهود البريطانيون والاهداف التي وضعوها نصب أعينهم والدور الذي لعبوه في حياتنا العامة ومؤسساتنا يجعل من حقهم أن يعتبروا بريطانيين يهودا أكثر منهم يهودا بريطانيين . انني على استعداد لحرمان كل صهيوني من الحقوق المدنية بل انني أجد دافعا قويا لتحريم المنظمة الصهيونية باعتبارها غير قانونية وضارة بالمصالح الانجليزية ..

٣ ـ انني لا أعترف بأن فلسطين اليوم مرتبطة باليهود أو أنها مكان ملائم كي يعيشوا فيه .. ان الوصايا العشر قد أعطيت لليهود في سيناء . حقا ان فلسطين تلعب دورا كبيرا في التاريخ اليهودي . ولكن الامر كذلك أيضا بالنسبة للتاريخ الاسلامي الحديث . وقد أصبحت فلسطين بعد عهد اليهود تلعب دورا أكبر من أية دولة أخرى في التاريخ المسيحي . قد يكون المعبد اليهودي موجودا في فلسطين ولكن موعظة الجبل وصلب المسيح قد حدثا هناك أيضا

« واذا كانت ذاكرتي لا تخونني ، فان تعداد اليهود في العالم يبلغ ثلاثة أضعاف العدد الذي تستطيع فلسطين

أن تستوعبه حتى ولو طرد جميع السكان الموجودين حاليا . أى أن ثلث عدد اليهود فقط هو الذى يستطيع العودة الى فلسطين .. فماذا يحدث للباقين ؟..

« اننا كيهود انجليز نتعلم فى المدارس العامة والجامعات ونلعب دورنا فى السياسة وفى الجيش والخدمة المدنية فى بلدنا أكثر من ذى قبل . ومن دواعى سرورى أن التعصب ضد التزاوج قد بدأ يلين .. ولكن اذا أعطى اليهودى وطنا قوميا فلا شك أن الدافع لحرماننا من حقوقنا كمواطنين يصبح أقوى كثيرا . وسوف تصبح فلسطين الحى اليهودى للعالم . ولماذا يعطى لورد روتشلد تلك الاهمية الكبيرة للفروق بين اليهود البريطانيين واليهود الاجانب ؟ ان جميع اليهود فى شتى أنحاء العالم سيصبحون فى حالة اقامة الوطن القومى فى فلسطين يهودا أجانب

اننى لا أعلم كيف سيتم اختيار ثلث يهود العالم الذين لا تتسع فلسطين لاكثر منهم ، ولكن اليهودى بفض النظر عن البلد الذى ينتمى اليه سوف يصبح لزاما عليه أن يختار أمرا من اثنين .. أما أن يذهب الى فلسطين ويعيش مع يهود آخرين غرباء عنه أو أن يبقى كضيف غير مرغوب فيه فى البلد الذى يعتقد أنه ينتمى اليه ..

ولا يدهشنى أن تقدم الحكومة على هذه الخطوة بعد خطوة تكوين لواء يهودى فى جيشها . وهأنذا فى انتظار أن أسمع أن أخى الذى جرح فى الفرقة البحرية أو ابن أخى فى حرس المشاة قد يضطر تحت ضغط الرأى العام ــ أو بسبب تنظيمات الجيش ــ أن يصبح ضابطا فى لواء يتكون أساسا من أناس لا يفهمون اللغة الوحيدة التى يتكلمها وهى الانجليزية . ان انشاء فرقة يهودية يجعل

موقف اليهود فى الالوية الاخرى أكثر صعوبة ويفرض جنسيته على الذين لا يشتركون مع بعضهم البعض فى شىء » .

هذه المذكرة البديعة من الوزير اليهودى الوحيد فى الوزارة يؤكد بما لا يقبل الشك أن الامر لم يكن أمر ارضاء اليهود فى انجلترا ، ولا أمر اقتناع بعلاقة خاصة تربط اليهود بفلسطين ...

ولكن المسألة كانت كلها سياسية مصلحية تماما ..

لقد أفلح الصهيونيون فى أن يقنعوا انجلترا بأنهم فى مقابل اعطائهم وطنا قوميا فى فلسطين سوف يقدمون لها ثلاثة أشياء :

الاول : هو تأييد يهود العالم ، خصوصا فى روسيا التى كانت الثورة الشيوعية قد انفجرت فيها واخرجتها من الحرب ، وكانت انجلترا تبحث عن أنصار فى روسيا يمهدون لحروب التدخل التى خاضتها انجلترا بعد الحرب ضد روسيا ..

وفى الاوراق الرسمية البريطانية اشارات كثيرة الى أثر الوعد الانجليزى للصهيونية على يهود روسيا خاصة وشرق أوروبا عامة .. وفى رسالة للورد كيرزون اشارة الى القيمة الدعائية الكبرى لهذا الوعد .. ويبدو هذا الهدف السياسى سافرا وقحا فى الوثيقة التى تقول : « لقد بات من المرغوب فيه ، ومن الناحية الدبلوماسية والسياسية البحتة ، اصدار وعد يعطف على آمال المواطنين اليهود .. فلو أننا استطعنا اصدار مثل هذا الوعد ، فاننا سنكون قادرين على استخدامه دعاية مفيدة للغاية فى كل من روسيا وأمريكا »

لا انسانية فى الامر اذن ولا عاطفية ولا أى شىء ... الا المصلحة السياسية البحتة ... يضحى من أجلها

بكيان شعب فلسطين كله !

ثانيا ــ الشيء الثانى الذى أقنع الصهيونيون انجلترا بأنهم سوف يقدمونه لها هو مساعدتهم فى اقناع أمريكا بدخول الحرب الى جانب انجلترا .. فحتى ذلك الوقت لم تكن أمريكا قد اشتركت فى الحرب ..

وثمة اشارات الى ذلك كثيرة فى الوثائق.. وعلى هذا الوتر الحساس كان الصهيونيون يدقون بشدة واستمرار

فى احدى الوثائق نجد مذكرة تقول : « بالاشارة الى الاقتراح القائل بتأجيل المسألة (أى تأجيل اصدار وعد بلفور) فان القائم بأعمال وزير الخارجية يذكر ان وزارة الخارجية البريطانية تعرضت لضغط شديد بسبب هذه المسألة .. فان هناك منظمة ذات قوة بالغة وحماسة فائقة خاصة فى الولايات المتحدة الامريكية، والمعتقد ان هذه المنظمة ستسدى مساعدة كبرى للحلفاء . فعدم القيام بعمل ما فى هذا الصدد معناه فقد هذا التأييد »

وتبدأ أمريكا فى الظهور فى الصورة .. فهذه المذكرة تنتهى الى اقتراح « ضرورة الحصول على رأى الرئيس الامريكى ويلسون قبل منح أى وعد يعطف على الحركة الصهيونية »

فانجلترا تريد أن تربط أمريكا اليها .. وأن تقبض بعض الثمن مقدما

ثالثا ــ كانت الصهيونية تعد دول الغرب بوجه عام ، وانجلترا وامريكا بوجه خاص ، بأن تحول فلسطين من أرض عربية الى قطعة من الغرب ، فتضمن الدول الاستعمارية وجودا مستديما لها فى المنطقة ..

وهذه وثيقة رسمية انجليزية مرفوعة الى مجلس الوزراء البريطانى بتوقيع « و.كور » تتحدث عن ولاء الحركة الصهيونية ومساومتها لانجلترا وأمريكا تقول :

« من الصعوبة بمكان أن نحلل العوامل التى دفعت الصهيونيين الى أن يصبحوا أكثر منـاصرة لانجلترا ، ولـكننى عندما حادثت فى هـذا الشأن بعض أعضاء الصهيونية فى القاهرة أدهشتنى وجهـة نظرهم التى تتسم ببعد النظر ! فقد قال لى أحدهم : « لقد أيدنا الثورة التركية سنة ١٩٠٣ بالمال والتنظيم ، ولـكننا من الآن فصاعدا قد نفضنا أيدينا من الاتراك . فلن يضمن لنا الجو الذى نستطيع فيـه أن نجلب رؤوس أموال أمريكية ويهودية « الى فلسطين » الا حكومة أوروبية ». ويبـدو واضحا (الـكلام لـكاتب التقرير) أن مثلهم الاعلى هو فلسطين انجليزية أو فلسطين أمريكية ، وهم يفضلون فلسطين انجليزية نظرا لعلاقات انجلترا التجارية مع مصر ومركز انجلترا لدى العرب !

وفى فقرة أخرى من التقرير نجد فقرة مثيرة تقول : « واليهود فى القاهرة على اتصـال بالزعمـاء العرب ، ويلاحظ التصريح الذى أدلى به فؤاد الخطيـب وكيل خارجية ملك الحجاز الذى قال فيه : « اننا لا نتوقع أى صعوبة مع اليهود لاننا الآن نفهم بعضنا البعض ! »

الفصل
الثالث

مناقشات إسرائيلية

- المجتمع اليهودي في العالم.
- هجرة .. أو لا هجرة.
- الاندماج في المجتمعات الأخرى.
- أيهما يخدم إسرائيل ... التحرر .. أم التعصب؟

يقول بن جوريون : « .. أن اسرائيل ليس لها فى العالم غير حليف واحد وفى : هو الشعب اليهودى . ان اسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا أقارب لها .. سواء من ناحية الدين أو اللغة أو الاصـــل .. كتلك القرابات التى تربط مثلا بين الدول العربيـــة أو الاسكندنافية أوالبوذية أوالكاثوليكية أوالانجلوسكسونية .. اننا شعب يعيش فى هذا العالم بمفرده » ..

وهذا صحيح ! ..

فقد تكون خيانة الدولة التى كانت تستعمر فلسطين « انجلترا » لوثيقة انتدابها قد لعبت دورا رئيسيا فى اقامة دولة اسرائيل. وقد تكون رغبة الدول الاستعمارية الاخرى فى اقامة رأس جسر لها فى المنطقة قد لعبت دورا رئيسيا آخر . ولـــكن المؤكد أن القوة التى جاهـــدت وناضلت طوال خمسين سنة ، والتى ضغطت وساومت وتحالفت وتسللت لاقامة دولة اسرائيل ، هى اليهودية العالمية .. أو المجتمع اليهودى العالمى الذى كانت الحركة الصهيونية بالذات هى الاداة العنيفة المنفذة فيه ..

وما تزال هذه اليهودية العالمية تلعب دورها الاكبر فى حماية اسرائيل وفى النضال ضد العرب

وقد كنت أشعر دائما انه من المفيـــد لنا ان نفهم المجتمع اليهودى العالمى بقياداته وتناقضاته وخباياه ، الصهيونية منها وغير الصهيونية ، بوصف هذا المجتمع فى مقـــدمة القوى التى يرتبط بها نمو اسرائيـــل أو انكماشها ، بل يرتبط بها وجودها أو عدمه ..

والاصل ، هو أن الصهيونى غير اليهودى ..

اليهودى .. هو الفرد الانجليزى أو الفرنسي أو العربى الذى يعتنق الدين اليهودى ، تماما كالمواطن الذى يعتنق اى دين آخر

والظن الشـــائع عن الصهيونى هو انه اليهودى الذى يؤمن بضرورة قيام دولة اسرائيل ويساعدها بكل أنواع المساعدات .. حتى ولو بقى كما هو : يهوديا انجليزيا أو فرنسيا أو أمريكيا ..

ولـكن بن جوريون يقول لنا : لا ! ان هذه صهيونية مزيفة ! بل انه لايرضى أن يطلق عليها وصف الصهيونية !

ان الصهيونى فى رأيه هو اليهودى الذى يريد العودة الى جبل صهيون ، هو اليهودى الذى يحس انه اذا كان يعيش فى أى بلد آخر ، غير اسرائيـــل ، فهو يعيش فى منفى ! وانه آن الاوان لانتهاء عصر النفى والتشرد ، ولا بد من العودة الى ارض اسرائيل ! ..

ويستطرد بن جوريون ، فى محاضرة مطبـوعة له ، قائلا : « .. أما أولئك اليهود الذين يعتبرون أنفسهم جزءا من الشعب الامريكى أو الانجليزى أو الفرنسى ، أولئك اليهود الذين لا يشعرون انهم يعيشون فى منفى ، أولئك اليهود الذين لايرون ان مستقبلهم ومستقبـــل أولادهم وأحفادهم لا يمكن أن يوجد الا فى اسرائيل ..

هؤلاء اليهود جميعا انما يذوبون تدريجيا فى حضارة غير يهودية ولغة غير يهودية . ان هؤلاء الذين يطلقون

على انفسهم ـ كذبا ـ لقب الصهيونيين بحكم انتمائهم الى منظمات تحمل هذا الاسم ، هم فى الحقيقة خطر على مستقبل اليهودية .

وفى دراسة أخرى لـ « بن جوريون » ، نجد انه يدفع هذا المنطق خطوة أخرى الى الامام ، فيتساءل : من هو اليهودى ؟ وما هى مقومات الشعب اليهودى فى شتى أنحاء العالم ؟ ..

ويرد بن جوريون على هذه الاسئلة قائلا : ان ما يربط بين اليهود ليس الدين اليهودى ! بدليل ان الحركة الصهيونية فيها يهود متدينون ويهود لا دينيون ، أى يهود ملحدون لايؤمنون بوجود الله . ولا العنصر الواحد بعد هذا التشتت الواسع بين اليهود فى شتى البلاد والقوميات . ولا اللغة الواحدة بدليل ان اللغة العبرية كادت تختفى تماما قرونا طويلة ، ومعظم يهود العالم لا يعرفونها ولا يتكلمونها : ان ما ربط بين اليهود وجعل تلك الصفات الاخرى كالدين والعنصر واللغة ـ صفات قابلة لان تجمعهم من جديد ، هو صفة أخرى أساسية ، هى : رؤيا العودة .. الايمان بأن الخلاص هو فى العودة الى جبل صهيون حيث أقام داود معبده الاول .. أى الى أرض اسرائيل .

ويستطرد بن جوريون فى تأكيد صفة « العودة » و « استخلاص » الارض التى كانت لهم ـ كالعلامة الاولى المميزة لليهودى فيقول : ان شعب اليهود يختلف عن كل شعوب العالم . واليهودى نفسه يختلف عن كل من حوله فى أى مجتمع بسبب هذه الصفة بالذات ، فكل الشعوب نشأت واستمرت ملتصقة بالارض الخاصة بها . قد تحتلها دول أخرى . أو يستعبدها نظام حكم معين . قد تنمو وقد تضمحل . ولكنها دائما موجودة

فوق أرضها ، باستثناء اليهود الذين عاشوا عشرات من القرون مطرودين مما يعتبرونه أرضهم ، مصرين على العودة اليها . ومن هذه الصفة نشأت عزلتهم ، ونشأ انفرادهم بصفات خاصة بهم ..

والخلاصة التى يريد أن ينتهى اليها بن جوريون هى انه اليوم وقد قامت دولة اسرائيل عند جبل صهيون.. فقد جاءت لحظة الامتحان النهائى الحاسم لكل يهودى على وجه الارض : فمن لا يعود اليوم ليس «صهيونيا» بالتأكيد ، ثم هو يهودى يعرض نفسه للذوبان فى مجتمعات أخرى غير يهودية .. أى يعرض اليهودية ذاتها للانقراض .. ولا يتأخر بن جوريون عن ابراز الجانب العملى لهذه الفلسفة كلها ، فهو يقول فى مؤتمر للصهيونية العالمية : ان مشكلة دولة اسرائيل الكبرى هى الامن ، وأمن اسرائيل لا يحققه أى جيش مهما بلغ تسليحه ، انما يحققه ان « يعود » الى اسرائيل ، بسرعة ، مليونان من اليهود على الاقل فى كل عام .. الى ان تتم عودة يهود العالم أجمعين !

ويقول بن جوريون ، فى تحقير لبق لحياة اليهود خارج اسرائيل : انني لا أحتقر شايلوك الذى كان يعيش على الربا فى مدينة البندقية (يشير الى الشخصية الشهيرة فى مسرحية شيكسبير « تاجر البندقية ») فاليهودى طالما بقى فى مثل هذه الظروف ، مضطر الى مثل هذه الحياة ! »

أى ان اليهودى لا يمكن أن يكون كريما شريفا الا فى دولة يهودية هى دولة اسرائيل ..

هذا الكلام كله ، ليس عقيدة فردية يعتقدها دافيد بن جوريون وحده وانما هى وجهة النظر الاساسية التى تقوم عليها دولة اسرائيل

جولدا مابير ، أيضا ، لها محاضرة مطبوعة عنوانها : « ماذا نريد من يهود العالم ؟ » تقول فيها ، مثلا :

ـ ان اليهودى الانجليزى الذى ينشد بحكم انجليزيته نشيد « حفظ الله الملكة » كيف يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا ؟..

ـ اننى أصدق من يقولون ان اليهود فى أمريكا كانوا يبكون فى لحظات الخطر التى أحاقت بنا .. ولكننى أقول ان دموعهم لا تكفينا ! ..

لم تذكر جولدا مابير شيئا آخر هو : نقودهم !

ـ بعد قيام دولة صهيون .. لا يمكن أن يعد صهيونيا الا ذلك الذى يحمل حقائبه ويأتى على الفور !

ـ جميل جدا أن يعطينا اليهود فى الغرب تأييدهم وحماسهم وأموالهم . ولكن هذا لا يكفى . هذه المشاركة من بعيد لا تكفى . فمن بعيد ، لا يمكن أن تتم زراعة النقب ! وبقاء اسرائيل يتوقف على ما اذا كان ممكنا أن نزرع صحراء النقب وجبال الجليل ! اننى لا أستطيع أن أفصل أمن اسرائيل عن تعمير النقب وجبال الجليل ! اننى كلما سمعت أغانى اسرائيل يرددها اليهود فى نيويورك ولوس انجليس وشيكاغو رقص قلبى طربا ! ولكن ترديد الاغانى عن النقب فى نيويورك أو بوسطن لا يعمر النقب ! انما تعمرها هذه الاغانى اذا كانت تقنع الشباب اليهودى بالهجرة الى النقب ، والا فسوف يبقى اليهود يعيشون فى أمريكا .. ويغنون عن النقب من أمريكا .. ولكن النقب سوف يبقى خاليا مهجورا

ـ هناك فى روسيا ثلاثة ملايين يهودى . ولكن لا أحد يعرف هل يأتون الينا يوما أم لا يأتون قط ! .. ولكن يهود الدول الغربية .. الذين لهم مطلق الحق فى

الحضور .. والذين يؤيدوننا الى أقصى الحدود.. لماذا لا يأتون ؟ ..

انتهى كلام جولدا مايير ! ..

الى هذا الحد ، تذهب اسرائيل فى الضغط على يهود العالم الخارجى من أجل الحصول على مهاجرين جدد : خصوصا والارقام تقول ان الاقبال اليهودى على اسرائيل من حيث الهجرة ، قد انعدم أو كاد ..

فمع اختفـــاء حكاية اضطهاد اليهود ، التى جلبت المهاجرين بمئات الآلاف فى أعقاب الحرب ، من ذا الذى يريد أن يذهب الى اسرائيل ؟ ..

ومن هذا يتضح لنا أمران :

الاول : هو مغزى اصرار اسرائيل ، على اثارة قصـــة اضطهاد اليهود وتجديدها ، ونشر الذعر منها .. حتى يشعر اليهودى فى كل مكان بالخطر ، ان لم يكن الخطر الماثل فالخطر المحتمل ، وبالتالى يفكر فى الهجرة الى اسرائيل ..

وما نشر يوما ما من ان بعض عملاء اسرائيل هم الذين يرسمون صليب النازية المعقوف على معابد اليهود .. منطقى جدا .. لحاجة اسرائيل الماسة الى اثارة هـــذا الفزع من الخطر .. بل والخطر نفسه أحيانا !

وهناك رأى قوى فى اسرائيـــل يقول : انه لابد من تدمير حياة اليهود فى بعض الدول حتى يضطروا للهجرة الى اسرائيل ..

والثـــانى : هو ان اسرائيـــل ، حيث لا يفلح هـــذا السلاح ، لا تجد مفرا من بعث أعتق الافكار العنصرية المتعصبة ، فى سبيل كسر ولاء اليهودى نحو أى بلد يعيش فيه ، وفى سبيل شـــق ما بين اليهودى وبين الآخرين ، والى حد الذهاب الى التبشير رسميا بفكرة

ان اليهود شعب مختار ممتاز وان العالم سوف يظل يضطهده لهذا السبب ، بكل ما تحمله هـذه الافكار من سموم ، فى سبيل تحقيق هدف الصهيونية المعلن .. زحف عشرة ملايين يهودى الى فلسطين ، بما فى ذلك من نية التوسع الظاهرة ، زحفا على الاراضى العربية الاخرى خارج فلسطين ذاتها ..

وكثير من المفكرين اليهود ، يعارضون هذه الافكار.. لا يقبلون القول بأن دولة اسرائيل هى المكان الطبيعى لكل اليهود .. بل كانوا يعارضون قيام دولة اسرائيل نفسها .. ايمانا منهم بأن قيامها على الاسس التى تقوم عليها انما يتم ضد حركة التاريخ التقدمية ، بل وايمانا منهم بأن قيام دولة اسرائيل فى ذاته قد يكون سببا فى اضطهاد اليهود فى الدول الاخرى مستقبلا .. لان اسرائيل كدولة لابد أن تكون لها مع الزمن مواقفها المؤيدة والمعادية لدول أخرى ، وفى حالات العداء سوف يكون اليهود فى وضع لا يحسدون عليه ..

ولكن هـذه الاصوات ضاعت أو خفتت تحت تأثير انتصار فكرة قيام الدولة سنة ١٩٤٨ .. وان بقى أصحاب هذه الاصوات يضعون أيديهم على قلوبهم ..

هـذه الاصوات اليهودية هى الاصوات التى تعارض فكرة اسرائيل القائلة بأن الهجرة اليها أمر حتمى على كل يهودى ..

يقول المؤرخ اليهودى الانجليزى سيسيل روث : « ان الصفة التى ميزت اليهودى دائما هى انه كان أشبه بمواطن عالمى ، ظروفه تجعله يتحرك عبر الحدود والخلافات القومية المألوفة ، وقد أدى بذلك رسالة مرموقة فى حضارة أوربا مثلا فى القرن التاسع عشر .. ولكن قيام دولة اسرائيل يهدد باختفاء هذا اليهودى ،

فقيام دولة اسرائيل فى الواقع انما يتمم رسالة هتلر فى القضاء على اليهودى الاوربى وامكانياته الواسعة ! !

ثم ان الحركة الصهيونيـــة قد رفعت فوق رؤوس اليهود الانجليز عصا غليظة من التهديد ، الذى لا يمكن التخلص منه أحيانا الا بكتابة شيك على أحد البنوك تبرعا لاسرائيل .. ! »

ويستطرد سيسيل روث قائلا فى وصف حالة هؤلاء اليهود النفسية فيقول : « ان هؤلاء اليهود الذين عارضوا قيام دولة اسرائيل يتمنون الآن نجاحها ولا شك ، بعد أن قامت بالفعل .. ثم انهم يعرفون ان فشلها سيكون ضربة معنوية هائلة لليهـــود فى كل مكان من العالم ، ولـكنهم مع ذلك قلقون .. فهم يرون ان اليهود فى كل دولة أصبحوا لا يشاركون فى أى مسألة تهم البلاد التى يحملون جنسيتها الا اذا كانت هذه المســألة تتصـــل باسرائيل ، وهذا يهدد بعزلهم فى المدى الطويل . ثم ان اليهود الانجليز كان من السهل عليهم مثلا أن يؤيدوا اسرائيل خلال حربها سنة ١٩٥٦ ضد مصر لان انجلترا كانت ضد مصر .. ولـكن ماذا يكون موقفهم لو جد ما يجعل اسرائيل ــ كدولة ــ تقف فى لحظة ما ضد مصالح انجلترا الاساسية بصورة أو بأخرى ؟ .. »

ويقول « ســالو بارون » أستاذ التاريخ اليهودى فى جامعة كولومبيا بأمريكا : « ان بعض الصهيونيين يركزون على القول بأن موجة معاداة السامية يمكن أن تهب فى أى وقت ، لان هــذا الخطر هو الدافع الوحيد الذى يجعل الشباب اليهودى يهاجر الى اسرائيل . ولكننى أقول لهم ان هذا غير صحيح . فالهجرات الجماعية ، تاريخيا ، لا تقع الا تحت تأثير ضغط سياسى أو اقتصادى عنيف واقع بالفعل ، ولهذا فان كلام بن جوريون عن

مليون أو مليوني مهاجر ينتظرهم في اسرائيل خطأ تماما. يضاف الى ذلك ، ان نزعة معاداة السامية تختفي وتتلاشي بالفعل ! .. ان بن جوريون وجولدا ماير لا يكفان عن الكلام عن قصص اضطهاد اليهود وتاريخهم البائس المحزن ، وقد ضاق الشباب اليهودى فى شتى دول العالم ذرعا بهذا الكلام لانهم يرونه متناقضا مع الحياة التى يتمتعون بها في جميع المجالات . أما القول بأن شعب اليهود شعب مختار ، له تاريخه الفريد .. فكل شعب من شعوب العالم له تاريخه الفريد ، وله ملامحه الخاصة به ! » ..

وهذا يقودنا الى نقطة أخرى بالغة الاهمية .. الى سؤال آخر يدور حوله شد وجذب كثير فى أوساط اليهودية العالمية ، هو : مستقبل اليهود فى العالم الخارجى ، بصرف النظر عن وجود دولة اسرائيل أو عدمه ..

ومناقشة هذا السؤال أيضا ، تظهر لنا أين تقف دولة اسرائيل ، والفلسفة التى بنيت عليها ، من حركة التاريخ العصرى ..

فهناك راى يهودى قوى ، وهو الراى السليم فيما أعتقد ، يقول : ان التطور والتحرر السياسى والاجتماعى فى مختلف أنحاء العالم يحل مشكلة اليهود ، وبالتالى يقضي على « وجود اليهود » بالشكل التاريخى القديم لهذا الوجود .. أى بالشكل المنعزل المنفرد بذاته المنطوى على نفسه ..

فالمراحل السابقة من التاريخ الانسانى ، والتاريخ الاوربى فى الحقيقة بوجه خاص ، بما فى تلك المراحل من اضطهاد دينى ، وتفرقة عنصرية ونظم طبقية اقطاعية واوتوقراطية .. هذه الظروف كلها كان من طبيعتها ان

تبقى القضية اليهودية قائمة ، وان تجعل اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها صعبا الى حد بعيد .
ولكن عصر التنوير والتحرير العقليين ، ورياح المساواة التي تكتسح امامها كل شيء ، والتسامح الذي يطرد التعصب بسرعة ، وانتشار الحريات العامة وتطبيق مبادىء حقوق الانسان .. كل هذا التطور جعل « القضية اليهودية » بشكلها القديم تتغير ، وفتح الباب لاول مرة أمام المجتمعات اليهودية لان « تذوب » وتندمج في البلاد التي تعيش فيها ..

وليس معنى هذا « الاندماج » أو في الاصطلاح العلمى Assimilation هو أن يختفى اليهود كيهود .. ان معناه ان يبقى اليهودى يهوديا كما ان المسلم سيظل مسلما والمسيحى مسيحيا ..

ولكن الذى سيختفى هو احساس اليهود ، لنقول في انجلترا مثلا ، بأنهم نوع مختلف ، وشعب قائم بذاته ، تفصله عن الانجليزى العادى هوة واسعة ، وبالتالى سوف يقل ارتباطه الخاص بدولة اسرائيل ، وسوف يصبح ولاؤه السياسى والقومى الوحيد لانجلترا ، وسوف تنتهى من ذهنه نهائيا فكرة « العودة »

هذا التطور الذى لا مفر منه نحو الاندماج ، بحكم اننا أصبحنا في عصر الحرية الدينية والمساواة يشهد عليه ، ويعترف به ، كثير جدا من المفكرين اليهود ، بل وبعضهم يحبذونه تحبيذا .. بينما تحاول دولة اسرائيل وممثلوها في اليهودية العالمية أن ترفضه وتقف في وجهه بأى طريقة من الطرق ..

يقول سالو بارون ، أستاذ التاريخ اليهودى الذى سبقت الاشارة اليه : ان هذا الذوبان أو الاندماج Assimilation معناه أن يصبح المرء جزءا من الشعب

الذى يعيش فيه ، ومعناه فى حالة اليهود هو أن يصبحوا جزءا من الاغلبية القومية التى يعيشون فيها ، وانه مع بزوغ عصر التحرر والتنوير والمساواة بدأ اليهود يواجهون هذا الاحتمال لاول مرة فى تاريخهم الطويل .. الآن لابد أن يتحول اليهودى الذى يعيش فى فرنسا الى « فرنسى يهودى » كالفرنسى المسيحى ، ومعنى ذلك ان « المجتمع اليهودى الخاص» فى العالم يتلاشى ، اذا لم تعثر اليهودية على حل سريع لهذا الموقف » ..

ويعترف سالو بارون بأن تفكير الصهيونية بالطريقة القديمة يجعلها ــ مع الزمن ــ تقف موقفا معاديا لحركة التحرر والمساواة والتسامح ، احساسا منها بأن هــــذا التحرر العالمى يسحب رصيدها من اليهود الذين تعتبرهم رعايا لها .. مآلهم هو العودة اليها .. ثم يحذر أصدقاءه الصهيونيين من هذا الاتجاه . بل ويذهب سالو بارون بعيدا فى تنبئه فيقول انه بمنطق الذوبان والاندماج الذى لابد أن يؤدى عصر التحرر اليه .. لن تبقى كنيســـة عبرية واحدة فى العالم ، ولــكن ستصبح هناك كنيسة « عبرية كاثوليكية » وكنيسة « عبرية بروتسانتية » وكنيسة « عبرية اسلامية ! » ..

هــــذه الظاهرة التاريخية ، ظاهرة اتجاه اليهود الى الاندماج فى مجتمعاتهم واختفاء مشكلتهم ، لا يختلف أحد على وجودها .. ولــكن الخلاف فى اليهودية العالمية وفى الحركة الصهيونية هو حول طريقة مواجهتها ..

فهناك من بين اليهود من يرحبـــون بها ويعتبرونها تطورا طبيعيا لمشكلة اليهودى ..

وهناك الذين يخافون منها ، بل ويعتبرونها أخطر على اليهود من القنبلة الذرية ، ومن هتلر ، ويحاربونها فى غير لين ..

من الفريق الاول مثلا ، نجد « اوسكار هاندلين » وهو أستاذ يهودى للتاريخ الامريكى فى جامعة هارفارد . انه يقف ليلقى محاضرة فى مؤتمر صهيونى دولى ، فيقول : أنا واحد من اليهود الذين ذابوا فى المجتمع الامريكى ، لم أكن صهيونيا قط ، وكنت أعارض قيام دولة اسرائيل فكريا ، وان كنت الآن أتمنى لها النجاح !

***

ثم يستطرد فى الدفاع عن فكرة ذوبان اليهودى الامريكى فى بلاده فيقول : ان اليهود فى امريكا ليسوا أقلية لانه لا توجد فى أمريكا أغلبية ، أمريكا أمة تقوم على التعدد ، فيها جماعات كثيرة بعضها على أساس الدين كالبروتستانت والكاثوليك واليهود ، وبعضها على أساس اللون كالزنوج السود وأبناء الكاريبى السمر ، وبعضها على أساس مراحل الهجرة ومصادرها كالسويديين والايطاليين والايرلنديين فليس هناك فى أمريكا « أغلبية » حتى يقال ان اليهود أقلية

ويرد على ساسة اسرائيل الذين يهاجمون حياة اليهودى الامريكى التى تقوده تدريجيا الى الذوبان ، فيقول : ان كل ما فى الامر هو أن اليهود يصبحون تدريجيا مثل جيرانهم ومثل الجميع ، لانهم حتى لو سيقوا كرها الى مدارس يهودية تعلمهم اللغة العبرية ، فانهم مع ذلك يتعرضون لنفس الاشعاع الثقافى والمعنوى والاجتماعى الذى يتعرض له كل أمريكى .. من خلال الحياة اليومية ، والاختلاط ، والاذاعة والصحافة والتليفزيون ، والذين يعارضون فى ذلك انما يريدون فى الواقع اقامة سور يعزل اليهود عن سائر مواطنيهم بكل ما يحمله هذا من أخطار .. ان اليهودى الامريكى الآن ليس سوى ذلك الذى يعتبر نفسه يهوديا بحكم الوراثة ،

وهو يمر حاليا بمرحلة انتقال ..

ولكن ليس كل يهودى يواجه هذا الموقف .. اى موقف انتصار حركة المساواة وانتهاء مشكلة اليهود .. بنفس الحالة النفسية ..

فالمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » يولول ويقول : ان المجتمع اليهودى آخذ فى الذوبان منذ أكثر من مائة سنة ، ففى خلال عصور الاقطاع وما شابهها كانت لليهودى وظيفة اقتصادية معينة يعتمد عليها وجوده وتقوم عليها شخصيته ووحدته . أما الآن فاليهود يتشتتون بين شتى وظائف الحياة الاجتماعية والاقتصادية وبالتالى يذوبون ، تختفى لغتهم وتختفى تقاليدهم ، بل ويغيرون أسماءهم لكى لا تنم عن يهوديتهم ، يتأمركون أو يتفرنسون .. الى آخره

***

وينتهى « ماهلر » الى القول بأن الحل الوحيد لانقاذ اليهودية ومنع تحولها من شعب واحد حيثما كان الى مجرد ديانة يدين بها ناس مختلفون ينتمون الى شعوب مختلفة .. هو : جمعهم فى اسرائيل !

وهذا يقودنا الى أصحاب الموقف الثالث ، وهو موقف اسرائيل الرسمى والفكرى ، الذين يرفضون أن تحل المشكلة اليهودية فى العالم ويريدون اذكاءها ، حتى انهم ليقولون مع « ارى تاتاكودار » أستاذ علم الاجتماع فى الجامعة العبرية « ان اليهودى حقا هو من يشعر بأن هناك « مشكلة يهودية » حتى لو عاش بمفرده فى جزيرة نائية ! »

أى ان اليهودى فى رأيه هو الذى يشعر باضطهاد حتى ولو لم يوجد من يضطهده !

ان اسرائيل ترفض رفضا شديدا أن يعيش اليهودى

الامريكى أو اليهودى الفرنسى كأمريكى أو فرنسى.. فهى تهاجم حياتهما وتحقرها .. وهى تطالب فى الحاح بأن يقيم اليهود فى كل مكان مدارس خاصة بهم ويتعلموا اللغة العبرية ويتشبعوا بالثقافة اليهودية الخاصة ويقاوموا التأثر المحلى بثقافة وحضارة البلاد التى يعيشون فيها أو كما يقول : « ماهلر » هذا : « ايجاد نوع من التعليم والتثقيف يقود اليهودى الى الهجرة »

***

وهذه السياسة ، اذا كانت لا تجد نجاحا يذكر فى قطع ما بين اليهود وبلادهم وتوجيههم الى الهجرة .. فهى على الاقل تنجح نجاحا كبيرا فى ارهابهم واشعارهم بالذنب ، ودفعهم الى تعويض عدم هجرتهم بأن يساعدوا اسرائيل الى أقصى ما يستطيعون : ماليا ومعنويا وسياسيا ودعائيا ..

فأخشى ما تخشاه اسرائيل اليوم ، هو أن تتحول اليهودية الى دين فقط ، لا الى قومية كما تريدها هى ، لانها اذا تحولت الى دين فقط ، واذا تحرر العالم من مشاكل التفرقة والاضطهاد ، فأى دين فى العالم يأمر كل أبنائه بأن يعودوا الى مهبط هذا الدين ؟ .. وأى عاقل يقبل منطقا معناه أن يعود كل المسيحيين فى العالم الى القدس وكل المسلمين فى العالم الى مكة ؟ ..

وما أسخف فكرة «العودة» المزعومة اذن ، وما أبعدها عن منطق الدين ومنطق الحياة ؟ .. وما أكثر ما تبدو الهجرة اليهودية فى تلك اللحظة عارية الا من أهدافها السياسية والاستعمارية الرجعية المتعصبة ..

الفصل
الرابع

إسرائيل.. والماء!

■ اليهودي لم يكن فلاحًا قط.. ولكن الحركة الصهيونية تريد خلق الفلاح اليهودي لأول مرة منذ قرون.. لأنها تعرف أن الزراعة هي أكبر ما يجعل لأي شعب جذورًا حقيقية في الأرض التي يسكنها..

نظرة الى مشكلة مياه الاردن ، من داخل اسرائيل ..

فما الذى يجعل اسرائيل ـ فى الواقع ـ تصمم الى هذا الحد على تحويل كل قطرة تستطيع تحويلها من مياه نهر الاردن ، الى درجة المغامرة بحرب شاملة مدمرة ؟

ان اليهودى ـ تقليـــديا ـ ليس فلاحا ، والشعب اليهودى منذ قرون ليس شعب فلاحين .. انه شعب مدن ، يميل نشاطه دائما الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة ..

وهناك دراســـة عميقة المغزى ، للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ، عن وضع اليهود الاقتصـــادى فى البلاد المختلفة وفى ظل النظم الاجتماعية المتعددة ، من رأسمالية الولايات المتحدة الامريكية الى شيوعية الاتحاد السوفييتى .. يلاحظ فيها المؤرخ الصهيونى ان اليهود ليس بينهم فلاحون قط ، وان هــذا كان شأنهم فى كل البلاد التى عاشوا فيها ، باستثناء بولندا ، وبعض أماكن معزولة فى روسيا القيصرية ، بل ان وجودهم فى الصناعة نفسها يقل فى العادة بينما يزداد تركزهم دائما وبسرعة فى أعمال التجارة والمـال ، وفى المهن الحرة كالطب ، والمحاماة ، والصحافة ، وغيرها ..

ففى الولايات المتحدة ـ مثلا ـ منذ خمسين عاما ، كان ستون فى المـــائة من اليهود الامريكان يعملون فى الصناعة ، لـكن هذه النسبة تقل الآن كثيرا حتى تكاد تنعدم . وفى الاتحاد السوفييتى لا يكاد يوجد يهودى فلاح ، بل ويقل وجودهم أيضا كعمال صناعيين ، فهم حتى فى مؤسسات الدولة يعملون كما عمل أجدادهم منذ القرون الوســـطى : باعة فى المخازن والمحلات ، ويقطع المؤرخ الصهيونى بأنه لا يوجد اليوم اى مجتمع يهودى زراعى ذى قيمة فى اى بلد من البلاد التى يوجد فيها اليهود

ويستطرد المؤرخ قائلا : ان هذا بالطبع معناه ان ثمة ارتفاعا متزايدا فى مستوى معيشة اليهودى حيثما كان ، ولـكن اتجاه اليهود دائمـــا الى الانحصـــــار فى أماكن اقتصادية محددة ـ هى مراكز المـــال والتجارة ـ يعد مصدرا خطيرا من مصـــادر النزعة المعادية للسامية ، وسببا من أسباب اتساع الهوة بين اليهود وغيرهم من أبناء البلاد التى يعيشون فيها ..

فاليهود ـ كما يقول المؤرخ ـ لايســاهمون أبدا فى عملية أساسية من « عمليات الانتاج » فى أى بلد ، سواء كان انتاجا زراعيا أو صناعيا .. انما هم يعملون فى المال والتجارة فقط .. الامر الذى يبذر بذور النقمة عليهم ..

ان النزعة المعادية للسامية واضطهاد اليهود فى رأى المؤرخ ، بذورها اقتصادية تماما ، ومرجعها أساسا الى هذا الوضع الاجتماعى الاقتصادى العجيب الذى يصل اليه اليهود دائما .. حتى القول بأنه لا توجد نزعة معادية لليهود فى أمريكا ، لا يقبله المؤرخ « ماهلر » .. اذ يقول : ان هذا أمر غير مضمون فى المستقبـــل ، ثم يلاحظ ان الموقف فى امريكا أو فى ولاية نيويورك مثلا يشبه الوضع فى برلين عام ١٩٣٠ ، فى ابان موجة كراهيـــة اليهود

الجارفة : من حيث ازدياد تركز اليهود فى الاعمـــال المالية والمهن الحرة كالطب ، والمحاماة ، فنصف المحامين والاطباء فى ولاية نيويورك يهود، وهذا التركزالاقتصادى والاجتماعى يثير كراهية الجماهير الـكبيرة التى تعمل فى شتى الاعمال الانتاجية المجهدة القليلة الاجر كالزراعة والصناعة ..

ويروى المؤرخ انه قضى شهرين فى جولة فى بولنـدا تحت النظام الشيوعى ، وكان فيما يبدو يناقش ويدرس قضايا اليهود ، وانه كثيرا ما ســمع عمــالا وعاملات يسألونه : « لماذا لا نجد من بين اليهود أى عامل صناعى مثلنا ؟.. لماذا لا نراهم فى هــذه الاعمال المجهدة ؟ » ويروى انه قرأ أخيرا ان الاتحاد السوفييتى قرر انه ليس من حق أى قومية من قوميات الاتحاد السوفييتى أن يكون لها نسبة بين طلبة الجامعات أكثر مما لها من نسبة بين عمال المناجم ، ثم يعقب قائلا : انه لا يوجد عامل مناجم يهودى واحد لا فى روسيا ولا فى أمريكا !..

ان تركز اليهود فى مواقع اقتصادية معينة كان دائما عاملا يفرق بينهم وبين سائر المواطنين : فى نظر أنفسهم وفى نظر سائر المواطنين على السواء !..ومنذ العصور الوسطى كانت كلمة « اليهودى » في اوروبا معناها كلمة التاجر ..

وأنقل عن المؤرخ الصهيونى حرفيا قوله : «... ان بعض المفكرين يقولون ان التجارة بالعكس مهنة تجمع بين الناس ولا تفرقهم ، ولـكن هــذا كلام سطحى ، ان اليهود يعملون حقا فى التجارة وهم بذلك يتصلون بسائر الناس .. حتى الفلاح المتوسط فى العصور الوســطى كان لا يستطيع أن يعيش بدون أن يتردد على السوق ، لان الاقتصاد وقتها كان يقوم كله على التجارة ، فاذا أخذنا اليهود الذين كانوا يملـكون الحانات فى بولنـدا

فسوف نجد انهم بالطبع يحتكون بالفلاحين.. فالفلاحون لايكادون يتركون الحانات ، انهم يقضون فيها اجازاتهم ويحتفلون فيها بزيجاتهم وأفراحهم ، ولكن هل « اندمج » اليهود فيهم كنتيجة لذلك ؟ بالطبع لا .. لان اليهودى هو من يملك الحانة ، والباقين هم الفلاحون!»

ولعلنى استطردت قليلا ، وراء هذه الدراسة للمؤرخ الصهيونى « رفائيل ماهلر » ولكننى أعود الى الخيط الاصلى للموضوع وهو أن اليهودى ــ تقليديا ــ ليس فلاحا ، وان شعب اليهود منذ قرون مديدة شعب مدن ، يميل نشاطه دائما الى التركز بسرعة فى مهن المال والتجارة

ولكن الحركة الصهيونية الحديثة أدركت منذ وقت مبكر ، ان الزراعة هى التى تمنح الشعب استقراره ، وتغرس جذوره فى الارض ، ولذلك كان من أول اتجاهاتها خلق الفلاح اليهودى والزراعة اليهودية ، ومنذ قدوم المهاجرين الأوائل الى فلسطين بالذات ــ دون سائر بلاد العالم ــ عمدوا الى خلق نواة المزرعة اليهودية ..

فخلق الزراعة اليهودية قرار سياسى وليس قرارا اقتصاديا ، وهذا الطابع السياسى هو الذى لازم نمو الزراعة اليهودية من أيام الهجرة الاولى ، والتمهيد للاغتصاب ، حتى مشروع تحويل نهر الاردن

وقد توصلت اسرائيل الى اسلوب هو اسلوب « المستعمرة الزراعية » أو « الكيبوتز » ، وهو وحدة زراعية وعسكرية فى نفس الوقت حتى تستطيع أن تقاتل وتقاوم خلال عملية الاغتصاب ضد السكان العرب ، ولتكون بمثابة حصون دفاعية بعد انشاء دولة اسرائيل : تقوم على الأقل بمهمة الدفاع المؤقت ، نظرا لطول حدود اسرائيل وتعذر ايجاد جيش عامل على طول هذه الحدود ، وبسبب ندرة اليد العاملة ، فأوجدوا المستعمرة الزراعية

التى يسكنها الفلاح الجندى فى نفس الوقت ..

وبعد تأسيس دولة اسرائيل ، استمرت سياسة ايجاد المجتمع الزراعى لنفس الاسباب السياسية فى الدرجة الاولى ، ولهذا نجد أن اسرائيل تتعمد اقامة المستعمرات الزراعية فى المناطق النائية ، وفى الصحارى غير المسكونة كالنقب ، وفى مناطق الحدود بوجه عام ، حتى ولو كانت ظروف الزراعة فى تلك المناطق صعبة أو غير اقتصادية ، مدفوعة بنفس الاحساس السياسى ، وهو : ان الزراعة هى التى تشغل الارض فعلا ، وتكسب الملكية الدائمة لصاحبها ..

ان هذا الدافع يكمن وراء محاولة اسرائيل تحويل نهر الاردن ، وزراعة النقب ، أكثر مما يكمن أى سبب آخر

وفى هذه المحاولة .. لم تصطدم اسرائيل بمشكلة الارض ، ولكنها اصطدمت بمشكلة الماء ..

وقد قرأت دراسة عملية مفصلة ، عن مشكلة الماء والزراعة فى اسرائيل صدرت باللغة الفرنسية فى باريس ، قام بها أستاذ فرنسى يهودى ، اسمه « جوزيف كلاتزمان » ، مدير معهد الدراسات العملية ، ومستشار معهد التنمية الصناعية والاجتماعية فى فرنسا .. بعد أن زار اسرائيل أكثر من مرة لاتمام هذه الدراسة .. كما قرأت دراسة باللغة الانجليزية عن « اقتصاد اسرائيل » بقلم الكاتب الاسرائيلى « اليكس روبنز » بعد أن عمل مستشارا لوزارات المالية والصناعة والتجارة فى اسرائيل ما يقرب من تسعة أعوام ..

تقول هذه الأبحاث : « ان اسرائيل لديها حاليا ٥٠٠ الف هكتار صالحة للزراعة لو أمكن توفير الماء لها ، ولكن الماء لا يصل حاليا الا الى ١٣٠ الف هكتار منها فقط ..»

وكل المياه المتوافرة فى اسرائيل الان لا تزيد على ١٣٠٠

مليون متر مكعب فى السنة ، وحوالى ثلثى هذه الكمية يأتى من الآبار ، والثلث الباقى من الأنهار والجداول ومياه الوديان ، ومن هذه الكمية يذهب ٦٠ مليون متر كل عام الى الصناعة و ١٧٥ مليون متر للاستهلاك العادى و ١٠٤٠ مليون متر للزراعة ..

ومن هذا الاستخدام العنيف لمياه الآبار ، يتزايد خطر ازدياد نسبة ملوحة الارض الزراعية ، خصوصا فى تلك المناطق القريبة من شاطىء البحر ..

وليست المشكلة التى تواجه اسرائيل هى قلة الماء فقط ، ولكن المشكلة أيضا هى ان كل المياه المتوافرة موجودة فى جزء معين منها ، فى حين انها تريد أن تشغل بالزراعة أماكن أخرى بعيدة عن مصادر المياه ، للاسباب التى سبق ذكرها ، الأمر الذى يجعلها تضطر الى تحمل نفقات باهظة لحفظ المياه ونقلها الى مناطق بعيدة كالنقب

ولهذه الأسباب كلها أصبح سعر الماء مرتفعا فى اسرائيل ، بل وأحيانا غير اقتصادى ..

وفى بحث « كلاتزمان » دراسة مفصلة لتكاليف الماء ولأسعاره ، يمكن ان نستخلص منها ان سعر المتر المكعب الواحد من المياه المطلوبة للزراعة يصل أحيانا الى ٢٥ مليما ، فاذا كان الهكتار يحتاج الى سبعة آلاف متر مكعب من الماء فى العام فمعنى ذلك ان تكاليف رى الهكتار الواحد تصل أحيانا الى ١٧٠ جنيها ! ..

وقد بنى الباحث دراسته على أساس تكاليف وأسعار مؤسسة « ميكورو » الاسرائيلية شبه الحكومية التى توزع حوالى ٥٠٠ مليون متر مكعب من الماء كل عام فى اسرائيل

ولهذا تضطر الدولة الى أن تبيع الماء للفلاحين بأقل من تكاليفه ، ولكن الاقتصاد القومى يتحمل من جراء

ذلك عبئا باهظا ، يتزايد يوما بعد يوم ..

وأهم ما فى البحث ، هو أن طريق المستقبل فى اسرائيل ، فيما يتعلق بالماء ، مسدود تماما ..

ان اسرائيل تحلم بأن يصل عدد سكانها عام ١٩٨٠ ، هكذا يقول المؤلف ، الى أربعة ملايين نسمة ..

ولكن الحساب الدقيق يقول انه مع استخدام كل مصادر المياه المعروفة ، بما فى ذلك تحويل نهر الاردن ، فان هذه الزيادة فى السكان سوف تستهلك فى الصناعة وفى الاستعمالات العادية كمية متزايدة من الماء ، لا يبقى منها للزراعة الا ألف مليون متر مكعب فقط ، أى أقل من المياه المخصصة للزراعة حاليا !.. فالطريق مسدودة تماما!

ولهذا ، تبذل اسرائيل جهودا علمية وتجريبية جبارة فى محاولة استنباط محاصيل زراعية تحتاج الى كمية أقل من المياه ..

ولكن الخبراء لا يرون فى هذه التجارب ما يمكن أن يسد عطش اسرائيل.

ولذلك ينتهى « جوزيف كلاتزمان » الى رأى قاطع ، هو انه لا مستقبل لاسرائيل الا اذا نجحت تجربتان عمليتان أساسيتان :

الأولى : هى تجربة تحويل مياه البحر الملحة الى مياه عذبة ، بتكاليف قليلة ..

والثانية : هى تجربة استخدام المطر الصناعى ..

أما مصادر المياه المعروفة حاليا ، حتى ولو حولت اسرائيل نهر الاردن ، فهى لا يمكن أن تروى عطش اسرائيل ، اذا زاد عدد سكانها بالقدر الذى ترجوه لنفسها

الفصل
الخامس

طوبى للخائفين!

رواية للكاتبة الإسرائيلية يائيل دايان

يائيل دايان، ابنة القائد الصهيوني العسكري المعروف موشى دايان، هى مؤلفة هذه الرواية التى تشرح لنا عن "عقل إسرائيل" و"نفسيتها" أكثر مما تشرحه لنا عشرات من المؤلفات.

هذه رواية ألفتها فتاة فى الثالثة والعشرين من عمرها .. الفتاة اسرائيلية صهيونية ، اسمها « يائيل دايان » ، بنت موشى دايان القائد العسكرى الصهيونى المعروف ، وأقرب المقربين الى بن جوريون ، والوزير فى حكومة اسرائيل أكثر من مرة ..

وقد ألفت « يائيل دايان » وهى فى التاسعة عشرة من العمر رواية اسمها « وجه جديد فى المرآة » ، كانت محل تعليقات شتى ، ولكنها لم تستوقفنى كثيرا ..

أما هذه الرواية فقد استوقفتنى بشدة ، لا لأنها رواية مكتوبة باتقان فنى كبير فحسب ، ولكن لأنها أشبه أن تكون تحقيقا نفسيا عن مجتمع اسرائيل ودولة اسرائيل .. وهو الشىء الذى يجب أن نتابعه باستمرار

وقد كنت جالسا فى شرفة فندق « سان جورج » فى بيروت حين دخل الشرفة صحفى هندى تعرفت به فى القاهرة منذ أعوام .. حاملا حقائبه ، آتيا من سفر ..

وسألته : من أين أنت قادم ؟ ..

فقال لى : من اسرائيل ! ..

وقبل أن تقفز الدهشة الى وجهى قال : « ليس مباشرة ! » فأنا قادم الآن من قبرص ، ولكننى قبل قبرص كنت فى « تل أبيب »

ورأى اننى سوف أنهال عليه بالاسئلة ، فبادرنى مرة أخرى يقول :

ـ سنتحدث فيما بعد .. فان علىَّ أن أنجز هنا أشياء كثيرة قبل أن أسافر غدا الى دمشق ، ولكنى سأترك لك هذه الرواية التى صدرت منذ أسابيع .. اقرأها .. وسوف تجد فيها الرد على كثير من الاسئلة .. وليكن حديثنا بعد أن تفرغ من قراءتها ..

وقال لى وهو يحمل حقائبه من جديد : ان كل بلد فيه الان أكثر من بنت تحاول أن تكون « فرانسواز ساجان » .. وهذه هى « فرانسواز ساجان اسرائيل »

وترك لى الصحفى الهندى رواية اسمها : « طوبى للخائفين ! » ..

القصة تبدأ فى قرية صهيونية قرب الحدود السورية اسمها « بيت عون » .. وفلسطين ما زالت فلسطين .. أى قبل انشاء دولة اسرائيل بقليل ..

ومحور القصة فى صفحاتها الاولى صبى صغير اسمه « نيمرود » ، أبواه « ايفرى » و « ميربام » مهاجران أتيا من روسيا قبل بضعة أعوام . والصراع فى هذه الصفحات الاولى يدور حول تربية الصبى الصغير والعوامل التى تتنازعه ، وهى فى نفس الوقت العوامل التى تتنازع المجتمع اليهودى فى تلك القرية ..

ان الأولاد الصغار فى القرية يهربون من أهليهم الى منطقة غير مطروقة ، بالقرب من المقابر ، يلعبون فيها لعبتهم المفضلة وهى « من هو القوى ؟ » . وفيها يحاول كل صبى أن يثبت انه أقوى من الآخرين بأى طريقة

يختارها بأن يتسلق ـ مثلا ـ شجرة أعلى من الشجرة التى يتسلقها سواه أو بأن يسبح عبر نهر الاردن فى الماء البارد مدة أطول من سواه .. أو أن يضع يده على النار المشتعلة ويتحمل لسعها أكثر من سواه ! ..

وفى القرية رجل اسمه « جيديون » يسميه أهل القرية « الصخرة » .. فهو نموذج القوة العضلية .. والشجاعة البدنية .. والاستهانة بالخطر .. وهو كما يتهامس أهل القرية مشترك فى احدى العصابات الصهيونية السرية .. ويشترك فى أعمال ارهابية مجهولة .. ويعود الى القرية سالما متكبرا ..

ان كل أب فى القرية يريد أن يشب ابنه مثل « جيديون » هذا . وأن يحمل بدوره يوما لقب « الصخرة » .. وهذا ما يريده أيضا « ايفرى » لابنه الصبى « نيمرود » رغم معارضة أمه المسالمة « ميريام » التى لا تبرح المطبخ ..

ولكن الصبى تربطه علاقة روحية باسكافى عجوز فى القرية اسمه « لاميش » فهو يذهب الى دكانه حيث يتفرج عليه وهو يصنع الاحذية ويستمع منه الى قصص وحكايات عجيبة ..

ان الأب لا يحب تأثير لاميش على ابنه .. ان لاميش يحدثه أحاديث يهودية قديمة . عن الله . والدين . والكتاب المقدس .. الى أن كان يوم ، رأى فيه جيديون « الصخرة » الصبى نيمرود يدخل مع العجوز لاميش الى المعبد اليهودى .. أو الكنيسة اليهودية .. ودهش جيديون وغضب . ورأى فى هذا افسادا للطفل . فأسرع ونقل الخبر الى أبيه ..

وعندما عاد الصبى من المعبد الذى لا يذهب اليه الا القليلون ثار أبوه فى وجهه بحديث له مغزى عميق :

ـ أيام زمان ، حين كنا يهودا فى روسيا وغيرها ، كان من الضرورى بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات .. ونحافظ على ديننا ، أما الآن فقد أصبح لدينا شىء أهم ! الأرض ! أنت الآن اسرائيلى ، ولست مجرد يهودى ! أتعرف ماذا كان اسمى الحقيقى فى روسيا ؟ .. كان اسمى «موتل» . هل تتصور ذلك ؟! نعم كان اسمى « موتل » ولكننى غيرته حين جئت الى هنا وسميت نفسى « ايفرى » . لقد تركت هناك ملابسى ومتاعى وأقاربى .. وعثرت هنا على رب جديد . هذا الرب الجديد هو خصب الارض وزهر البرتقال . ألا تحس بذلك ؟

وأخذ ايفرى حفنة من تراب الارض وسكبها فى كف الصبى وقال له : امسك هذا التراب .. إقبض عليه .. تحسسه .. تذوقه .. هذا هو ربك الوحيد .. اذا أردت أن تصلى للسماء فلا تصل لها لكى تسكب الفضيلة فى أرواحنا .. ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا . هذا هو المهم ! اياك أن تذهب مرة اخرى الى المعبد .. اذا أردت أن تسلى نفسك وتتعلم شيئا فاذهب وتعلم حلب البقر !

وليس هناك أقوى من هذا المشهد ، فى التدليل على ما جاء ذكره فى فصل سابق : من ان الصهيونية حركة سياسية لا دينية !

وتحاول الأم أن تخفف من غلواء الأب ، تحاول أن تقول له ان الماضى لا يمكن أن يمحى بأكمله حتى بعد الهجرة . ولكن الأب لا يقبل هذا الكلام . ويستطرد قائلا لها ولابنه : هناك .. كنت أخاف من القسيس .. من أبى وأمى .. من عسكرى البوليس .. من الطبيعة .. ومن نفسى .. هناك لم يكن من حق الطفل اليهودى أن يكون قويا أو يتسلق شجرة .. كان عليه فقط أن

يبقى فى دكان أبيه لا يبرحه

ولكن الصبى نيمرود يحتفظ بعلاقته « السرية » مع الاسكافى العجوز لاميش الذى يحدثه عن الله .. وعن عواطف الحب والشفقة .. وعن ذكريات أيام قديمة فى قرية روسية بعيدة ..

حتى يجىء يوم ويحتفل فيه أهل نيمرود بعيد ميلاد ابنهم .. ويدعون له كل الأولاد والبنات ..

وفى غمرة الضجة والصخب ، أثناء حفلة عيد الميلاد ، يظهر الاسكافى العجوز لاميش .. لقد جاء يحمل لفافة فى يده قال انها هدية أحضرها لنيمرود فى عيد ميلاده . ويفرح نيمرود بحضور لاميش بينما يستقبله أبوه فى فتور مهذب ويدعوه لتناول الشاى . ثم يفتح نيمرود الهدية : انها أرنب من الجلد .. صنعه لاميش من بقايا الجلد التى تملأ دكانه .. وقد ركب للأرنب زرارين صغيرين فى مكان العينين . وتصايح الاطفال وضحكوا من نيمرود وبدأوا يقولون ان نيمرود نفسه أرنب لأنه لا يشترك فى لعبة « من هو القوى » . وانفجر سخط ايفرى ، وأخذ لاميش الى حجرة بعيدة عن الاولاد وانفجر فيه مهددا متوعدا اذا ظل يتصل بابنه ويبثه المشاعر التى يبثها فيه

قال له :

ــ انك لم تتغير عما كنت عليه فى قريتنا الروسية منذ سنوات بعيدة .. الهجرة لم تغير فيك أى شىء .. فأنت لا تهتم بالارض .. وبلدك ما زال أصفر اللون ! لم يكتسب أى سمرة بعد .. انك .. يهودى جدا !

ويرتجف الاسكافى العجوز بالغضب والأسى ، ويقول له :

ــ كيف تجرؤ يا ايفرى على أن توجه لى هذا الكلام ؟

بل كيف تجرؤ يا «موتل» . يا ابن القسيس «نمخاس» ؟ ان تغيير اسمك لا يغير حقيقتك ! انك فى قرارة نفسك خائف .. خائف مثل موتل ابن القسيس نمخاس تماما ! ان الله رزقك ابنا بديعا ، ولكن ماذا أنت صانع به ؟ ..

ـ ليس هذا شأنك . انك تريد أن تراه يشب مثل أى يهودى آخر فى قرية أوربية . ولكن ابنى لن يكون هكذا . انه سيكون نوعا جديدا

ـ الانسان ليس له نوع قديم ونوع جديد وابنك كائن انسانى حساس . خذ أى قطعة من الجلد الطرى .. انك تستطيع أن تظل تطرقها وتدبغها حتى تصبح فى صلابة الحديد .. ولكن .. آه .. ان أى شىء فى هذه الحالة يمكن أن يكسرها .. انك بذلك تخسر الجلد .. ولا تحصل على الحديد ..

ـ انى أريد أن يكون نيمرود شجاعا

ـ الشجاعة صفة حميدة .. أما عدم الخوف فهو صفة بشعة ذميمة .. انك تمارس تأثيرك عليه ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم .. تريد أن تقتلع منه كل خوف .. ولكن يبقى له خوف رهيب ـ خوفه من أن يخاف ! هذا ما يسيطر عليه الآن . انه لن يكون شجاعا اذا مضيت فى تربيته على هذا النحو .. ولكنه سيشب عاجزا عن أن يخاف ، وسوف يكرهك لهذا السبب يوما ما !

ـ وما العيب فى ألا يخاف ؟

ـ من لا يخاف لا يستطيع أن يحب . والله يريد منا أن نحب . ابنك سيتمنى أن يحب . ولكن عدم الخوف سوف يجعله وحيدا .. معزولا .. عزلة قاتلة .. انك تريد أن تتخلص من ذاتك القديمة .. ولكنك لست واثقا من ذاتك الجديدة .. ولهذا تحاول أن تصب ابنك

فى هذا القالب الذى تتخيله ! ..

وحين ينصرف لاميش والضيوف ، يترقب الصبى المهموم الهدية التى اعدها له أبوه .. وفض الأب لفافته بعناية وحرص كبيرين ، فبدا نصل لامع حاد ـ خنجر مرهف ..

وقال ايفرى لابنه : هيه .. ما رأيك ؟ خنجر حقيقى ! تستطيع أن تقطع به أى شىء ! ..

وقال الصبى لنفسه انه لا يعرف ما اذا كان يريد أن يقطع أى شىء على الاطلاق .. لقد رأى مثل هذا الخنجر مع الاولاد الذين من سنه . ان هذا الخنجر حلم كل صبى فى القرية .. أما هو ..

وقال الأب ساخرا : نعم .. تستطيع أن تقطع به أى شىء حتى ذيل الأرنب الجلدى ..

وقال الصبى وكأنه قد تذكر فجأة :

ـ اين أرنبى ؟

ـ فى حجرتك .. على الرف .. انك طبعا لا تريد أن تلعب بمثل هذه اللعب التافهة ..

ودخل الصبى حجرته الصغيرة لينام .. حاول أن يضع الأرنب معه فى الفراش ولكن الفراش كان ضيقا ، فوضعه على مقعد مواجه له .. ووضع بجواره السكين

ان غرفته مليئة بألعاب اشتراها له أبوه .. مدافع ودبابات وبنادق .. ثم تذكر البندقية الحقيقية التى يحتفظ بها أبوه .. وكيف أن أباه يعلمه كل جمعة كيف يستعملها وينظفها .. وتذكر كيف أن أمه لا تستطيع الآن أن تضىء الشموع كل يوم جمعة . لقد قال لها أبوه انه لم تعد هناك حاجة الى مثل هذا . ان الرب القديم لم يعد موجودا .. وتتردد عيناه بين الأرنب الجلدى

بعينيه المصنوعتين من الأزرار وبين السكين المرهف .. حتى ينام ..

وفى لمحات سريعة تجتاز المؤلفة فترة الحرب العالمية الثانية ، واشتراك العصابات الصهيونية الى جانب انجلترا ، ثم ما بعد الحرب ، ثم حرب فلسطين ، وأخيرا اعلان دولة اسرائيل ..

وكيف نجد الصبى الصغير « نيمرود » وقرية « بيت عون » بعد هذه الخطوب ؟ ..

لقد مات العجوز « لاميش » . مات حزينا لأنه رأى تعاليمه تذبل ، ورأى المجتمع من حوله يتجه الى عبادة القوة وعدم الايمان بالله ، وعدم الاعتراف بالحب والخوف

أما « جيديون » أو « الصخرة » كما كان يسميه أهل القرية ، ورمز القوة والالحاد والثأر من كل الحياة القديمة التى قاساها اليهود ، فقد عاد من احدى « مهماته السرية » حطاما . انفجر فيه لغم فمزق له ذراعيه واحدى ساقيه .. عاد جسدا مشوها عاجزا عن الحركة ..

وقد حاولوا أول الأمر أن يمنعوا نيمرود من زيارته . ولكنه تسلل يوما اليه . وقد دهش حين دخل البيت فوجد « الصخرة » يبكى . لقد كان جيديون يمثل كل ما هو نقيض لاميش . ولكن ما أشبههما الان : « لاميش ميت ومدفون تحت قطعة من الحجر ، وجيديون ميت حى ، مربوط الى سريره ، عاجز عن عمل أى شىء .. لا يستطيع أن يسير .. لا يستطيع أن يضم امرأة ..

ــ ولكنك تستطيع أن تقرأ .. وتستطيع أن تفكر .. وتستطيع أن تتكلم ..

ــ كلا . ان الصخرة لا عقل لها . اننى لم أكن أخاف حين كان لى جسد قوى يستطيع أن يمارس أى شىء ،

وعضلات أستطيع أن آمرها ، وأطراف تطيعنى ، أما الآن ، وقد فقدت كل هذا .. فماذا بقى لى .. ؟!

ودهش نيمرود أكثر حين قال له جيديون : انه الآن يحسد لاميش بعد أن كان يكرهه ويحتقره !!

ـ أتذكر يوم غضبت منك حين أخذك الى المعبد ؟ لقد كنت غيورا . ذلك اننى لم أذهب الى المعبد قط . وطالما اجتاحتنى رغبة خفية كى أصلى . ولكن المجتمع هنا لم يكن يقبل من « الصخرة » أن يصلى ، أو يكون له رب .. كان على « الصخرة » أن يكون رمز النموذج الجديد ، القوى الذى لا يخاف ، ولا يحتاج الى اله !

على انه من خلال هذا كله لم يكن هناك مفر من أن ينمو « نيمرود » فى القالب الذى « يريده له الجو السائد فى بيت عون » ، وأن تهمل أحلامه الأرنب الجلدى وتتعلق بالسكين ذى النصل المرهف الحاد !

« أصبحت الحياة بالنسبة لنيمرود حياة جسد ، ومادة . أفراحه جسدية وآماله جسدية . هدفه هو الاثبات المستمر لقوته الجسدية . أما الجانب الآخر من نيمرود فقد اختفى تماما .. فى حالات قليلة كان يبدو هذا الجانب الآخر كأنه طيف شاحب بعيد ، فيقوم نيمرود برحلة على قدميه فى أنحاء البلاد ، وقد يقوى على أن يحب منظرا جميلا من مناظر الطبيعة ، بل وتصل به الحساسية أحيانا الى درجة أن يقطف بعض الأزهار ، وينسى للحظة انه يجب أن يكون قويا فحسب .. ولكن تلك كانت حالات عابرة سرعان ما تختفى ، وبينما كان جيديون « الصخرة » يتضاءل فى فراشه الى « صخرة صغيرة » ثم الى « لاميش جديد » كان نيمرود يتحول الى « صخرة » . كل ما فى الأمر انه لم يثبت صفاته تلك فى الحرب اذ أنه كان صغيرا جدا حين قامت الحرب

وانتهت . ولكن لا بأس ، فان أباه يؤكد له دائما انه لا مفر من الحرب يوما ضد العرب ، لا مفر من الحرب !

ويطرق باب نيمرود شيء جديد .. قصة حب ..

فقد نزل فى قرية « بيت عون » مجموعة من البنات المهاجرات القادمات من بودابست فى المجر . ومن بين المجموعة التقت عينا الفتاة الشقراء « ايللى » بعينى الشاب القوى ، الصخرة ، نيمرود ..

هل يتزوج نيمرود من فتاة مهاجرة مختلفة عنه فى عاداتها وتقاليدها وأفكارها ؟ سؤال تثيره الأم ، ثم تزيحه جانبا .. ولا تعترض ..

ولكن السؤال الأساسى يبقى بين نيمرود والفتاة . انه يحبها . يحبها حبا من نوع خاص وكأنها مجرد امتداد لجسده أو لقدراته الجسدية المادية البحتة ، والفتاة تلاحظ هذا وتتحمله ، وترجعه أول الأمر الى انه يمارس تجربته الأولى مع النساء . ولكنها تكتشف فى القرية أشياء غريبة .. تكتشف ذات ليلة اللعبة التى يمارسها الأولاد الصغار « من هو القوى » وتصرخ حين ترى صبيا يضع يده فى النار لكى يثبت انه قوى . وتعود اليها ذكرى كل بشاعات الحرب فى أوربا . وتجرى باكية الى جيديون ، الصخرة سابقا ، الراقد فى فراشه أبدا ، يقول شعرا حزينا يائسا ! ..

انها لا تتحمل هذا الذى رأته . لأن معناه انها لو تزوجت فسوف يشب أولادها على نفس التعاليم

ويقول لها جيديون : « تسألينني عن تفسير لهذا ؟ انظرى اليّ جيدا ! أنا التفسير ! أنا الاجابة عن سؤالك ! سخافة .. شجاعة زائفة ! » ثم أشار الى ساقيه المقطوعتين وقال : « لا عقل ! لا حكمة ! نتائج عظيمة وخطر عظيم ! »

وقال فيما قال انه يصاب بفثيان من « نموذج الانسان الجديد » الذى يصنعونه فى البلاد .. وقال لهـــا ان نيمرود يريد أن يكون صخرة ، والصخرة لا يمكن أن تتحول الى نبات حى قادر على التنفس ..

« وكان جيديون يلهث ، وقلبه يدق فى صوت أشبه بدقات عصا فى يد رجل أعمى ، يسير متعثرا ، مترددا ، فى ظلام مطبق بدون هدف .. ! »

وفى تلك المرحلة تعبر القصة شخصيات أخرى ثانوية وصور جانبية ولكنها ذات دلالة . فهناك اليهودى اليمنى « زكى » الذى ترسم القصة فيه نموذجا لعلاقة اليهود الشرقيين باليهود الأوربيين داخل اسرائيل . فهم تابعون ضعفاء ، يعترفون ــ كما تقول المؤلفة عن زكى ــ بضعفهم وعجزهم وحاجتهم الى قيادة وحماية اليهودى الاوربى . وهناك « رينا » بنت المزرعة التى يمكن أن تعد صورة من « النموذج الجديد » الذى تحاول اسرائيل أن تصنعه فى عالم المرأة . وهناك « يورام » الشاب ابن المدينـــة ــ تل أبيب ــ الذى جاء مع فرق التدريب العسكرى الى القرية . وهناك الحـــديث المتواصـــل عن حوادث الحدود . والمؤلفة تزعم بالطبع ، بشكل غير مباشر ، ان العرب دائما هم المعتدون ، وأن اليهود يتحدثون دائما عن « الرد » ، مقابلة العدوان بالعدوان ، تلقين العـــدو درسا . يقولون هذا كله فى لهجة أقرب الى الغيظ منها الى الحقد ، وأقرب الى التعب منها الى التحفز ! » ..

ويذهب نيمرود وايللى وبعض الأصـــحاب يوما الى المدينة ، الى تل أبيب . وهنا ترسم المؤلفة صورة غريبة للتناقض بين المزارع وبين المدن فى اسرائيل . فهى تقول ان أبناء « بيت عون » شعروا كأنهم سافروا الى دولة أخرى .. وعندما جلس نيمرود ، ابن المزرعة ، فى المقهى

واستمع الى مناقشات الناس من حوله ، دهش وذعر . انهم يقولون عن اصطدامات الحدود انها وحشيه وبشعة بدلا من أن يمجدوها . وهم يتحدثون عن السلم ، بل ويقترحون ايقاف الهجرة الى اسرائيل والموافقة على عودة بعض اللاجئين العرب الى ديارهم ! وعندما دخل نيمرود فى حديث مع بعض الناس سألوه من أين هو فقال « من بيت عون » فسألوه « أين تقع بالضبط ؟ » فجرح جرحا عميقا حين وجد ان الناس فى تل أبيب لم يسمعوا عن اسم بيت عون قط . ولكن الذى أثاره الى أقصى حد هو أن « رينا » نموذج « الانسان الجديد » بين البنات .. آثرت أن تترك القرية وخطيبها السابق لتتزوج شابا وسيما ناعما من تل أبيب !

وعندما عاد الى بيت عون سأله أبوه .. « هل صحيح اننا سنقوم باجراء عسكرى بمناسبة تبادل اطلاق النار على حدود سوريا » فقال نيمرود مستهزئا « لا أظن .. فالناس فى تل أبيب يتحدثون عن السلام ! كأننا نحن .. نريد الحرب ! » وتستطرد المؤلفة قائلة « ولكنه كان يكذب . انه يريد الصدام والآن أكثر من أى وقت مضى .. انه يريد أن يقفز الى القتال أو فليعد الى رحم أمه وكأنه لم يولد قط ! ان الصخرة تنمو فى باطنه حتى أوشكت أن تقتل أى شىء رقيق فيه . أن « الصبار » نبات ضخم وقوى ملىء بالعصير ولكنه ينكمش فى بعض المواسم ويفقد ما فيه من عصير ولا يبقى منه الا الشوك الحاد . والشوك فى نيمرود بدأ يتجه الى الداخل ويقتل فيه أى شىء يمكن أن يكون عذبا .. ولهذا فعندما نظر الى الأرنب الجلدى فجأة سخر من نفسه وقرر أن يهديه الى « ايللى » ليتخلص منه ..

وقد قرر نيمرود أن يحل مشكلة قلقه وأزمته النفسية

منذ عاد من تل أبيب بمشروع غريب .. فهناك وراء حدود اسرائيل ، فى الأرض العربية الممتدة ، يشرف جبل شامخ اسمه « جبل الثلج » حيث تلتقى حدود اسرائيل وسوريا ولبنان ..

وتسجل المؤلفة ما تسميه « يوميات نيمرود » فى رحلته الغريبة . ارتدى ثيابا عربية للتنكر واخفى خنجره بين طيات ثيابه وعبر الحدود ليلا، صاعدا الى الجبل ..

رحلة غريبة مملوءة بالرمز ، جياشة بالكلمات والعبارات التى تحمل أكثر من معناها المباشر . ان فيها حلم الاسرائيلى بالتوسع خارج حدوده الحالية . وان هذه الجبال عبر الحدود هى ملك له . وفيها احساس الاسرائيلى بالغرور العميق منذ أقام دولته « اننى لا أطلب معركة ، ولكننى أطلب شيئا أتحداه وأتغلب عليه . وداعا يابيت عون . ابنك خارج لكى يغتصب الجبال العذراء ! » ثم يتحدث عن شعوره المعقد نحو العربى « اننى لست مسالما ولا باحثا عن التهدئة . ولكننى أيضا لا أهتم بالحرب . لا أستطيع أن أقتنع بأن هؤلاء الناس أعدائى .. ربما لأنهم قريبون جدا ، يمكن لمسهم بأصابع اليد : لو اننى استطيع أن أتجنب رؤية « العربى » وأتصوره نوعا من الوحش ، فلربما استطعت أن أكرهه وأن أقاتله وأحاربه . ولكن هذه ليست الحقيقة . اننى أعبر حدوده لمجرد انه يملك شيئا جميلا أريد أن ألمسه ! »

وحين يصعد الجبل يعاود تحديه : « هأنذا على قمة جبل الثلج ، أصيح كما كنت أفعل وأنا صغير « من هو القوى ؟ » ولكن أصداء صوتى هذه المرة تتردد فى الاردن ، وعلى ضفاف نهر الليطانى ، وعلى الطريق الصاعد الى دمشق ، وفى السماء ! »

ولا نرى « العربى » فى الرواية كلها الا ونيمرود عائد ،

متلصص ، من رحلته الرمزية الغريبة الى جبل الثلج فيلمح ظهر عربى عجوز يحمل بندقيته ، ويكتب فى رمز آخر « كنت أفكر فى بندقيته ، ويدى على خنجرى . هل يطلق على النار اذا رآنى ؟ أسهل شيء أن أهاجمه من الظهر وأطعنه وأجهز عليه ! ولكن هذه ليست لعبة عادلة . ولكنه ـ أيضا ـ اذا اكتشف وجودى فستكون هذه نهاية أشياء كثيرة .. لو رآنى فاننى ضائع لا محالة ..

ويتزوج نيمرود من ايللى . ويبنيان بيتا جديدا فى المزرعة . ويشن الاسرائيليون هجوما ليليا على قرية سورية . وتبرر المؤلفة الهجوم طبعا بتحرش السوريين بحدود اسرائيل . ويشترك نيمرود أخيرا فى القتال الذى كان يتحرق اليه . ويعود وفى ذراعه جرح خفيف . وتقول له زوجته ايللى انه يفضل أن يتخلل رصاص العدو شعر رأسه على أن تتخلله أصابع زوجته ..

وايللى تعيش فى حياتها مع نيمرود لكل الاسباب والصفات التى سبق سردها . وهى حامل ولا تريد أن يشب ابنها مثله . ولكن الحدث الذى جعلها تنفجر وتثور وتهرب من البيت هو مرض أم نيمرود ثم وفاتها .. لقد ذعرت ايللى وهى ترى نيمرود يعبر هذه المرحلة بلا انفعال . لم يجد فى وفاة أمه أكثر من مجرد حادث بديهى وطبيعى لا مفر منه ولا يحتاج الى حزن ، ولا حتى الى أن يذهب الى فراش موتها ! .. كأن هذه المرأة العجوز ليست أمه ولا تمت اليه بأى شيء !

وهربت ايللى الى بيت صاحبتها التى تزوجت فى تل أبيب « افتحوا النوافذ ! .. افتحوا النوافذ والابواب والأرحام والا اختنقنا جميعا ! لقد تزوجت صخرة ـ شجرة ميتة .. واديا أجرد لا ينبت فيه شيء ! ..

هل تستطيع الصخرة أن تحب ؟ لا أريد طفلا ! لا اريد أن أنجب منه ! »

وحين يذهب نيمرود الى أصحابها ليعيدوها اليه يقولون له « ان المسكينة تحبك ! تحب ما فيك من قوة تبعث على الغثيان .. هذه أرض طيبة . انها لا تأكلنا . ولكننا نحن نأكل أنفسنا .. »

وبعد أن تهدأ أعصاب ايللى، يصالحها زوجها ، وتعود لتلد طفلها فى بيت عون ..

ماذا بقى فى القصة من أحداث ؟.. بقى حادثان أساسيان ..

الأول هو موت « جيديون » . فقد مات منتحرا برصاصة أفرغها فى جوفه بعد أن ترك رسالة طويلة لنيمرود ، خليفته فى حمل لقب الصخرة .. رسالة قال فيها : « اننى أحس بالذنب نحوك ، فقد قتلت الجانب الطيب فيك ــ وهو الخوف ــ لقد كنت نموذجا سيئا لك : لقد قتلتك لأننى نفسى قتلت بنفس الطريقة من قبل ..

« لقد كنت فاسدا وقويا فى البداية وهأنذا أنتهى فاسدا وضعيفا .. ان المرء يحتاج الى شجاعة لكى يخاف .. ولم تكن لدى هذه الشجاعة ، ولا أنت فانك مهدد بمصيرى .. سوف تجن وتدمر كل ما حولك ، وتدمر نفسك قبل كل شىء . نصيحتى لك أن تترك أولادك يلعبون كالأطفال ، لا تدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذى يزعمون.. لاتصنع منهم صخورا ، اننى أترك الارض لالحق بمن هم أحسن منى مثل لاميش ! »

الحادث الثانى : أو المشهد الاخير الذى تختتم به

« يائيل دايان » قصتها ، هو أن ابن نيمرود قد أصبح صبيا ..
وقد ذهب بدوره الى حيث يلتقى الأولاد ويلعبون لعبة « من هو القوى » وقد أراد أن يثبت قوته فقفز فى نهر الأردن ليعبره ، ولكنه يشرف على الفرق .. وفجأة تحطم كل شيء ، لقد وقف « الصخرة » يرتعد ، كان نيمرود النموذج الجديد، للصخرة ، يرتجف ذعرا ، كان الخوف الساحق يمزقه ، كل مخاوفه القديمة التى أخفاها .. وأغرقها .. وقتلها .. قفزت فجأة على السطح تسخر منه وتغزو قلبه وأعصابه .. وقفز بلا وعى فى الماء لينقذ ابنه .. فلما أنقذه فوجيء الأولاد بالصخرة يبكى كالأطفال ..! وعندما عاد الى البيت وهو ما زال يبكى قال له أبوه « ايفرى » : « أبك يا ابنى .. لا تخجل !.. ابك ! .. ضع ابنك فى فراشه وحدثه بحكايات لاميش القديمة ، وحاول أن تصلى ! »
وبينما كان الطفل فى الفراش ، أخرج نيمرود من الدولاب أرنبا مضحكا من الجلد له عينان من الأزرار .. أعطاه للطفل !
هكذا قدمت « يائيل دايان » صورة لمجتمع اسرائيل من وجهة نظرها .. التى تمثل بغير شك وجهة نظر واسعة الانتشار داخل اسرائيل .. كما قال لى الصحفى الهندى الذى أعارنى الرواية ..
ومن سطور هذه الرواية وما فيها من خلجات نفهم :
ــ ان اسرائيل دولة أقامها ناس لا علاقة لهم بالدين ولا يعترفون به ، بل انهم هاربون من دينهم قبل أى شيء آخر ، رغم ان اسرائيل أقامت دعايتها وحجتها فى احتلال فلسطين على أساس الدين .. انهم ناس يثأرون لاحتقار المجتمع الاوربى واضطهاده لهم ..

ان اسرائيل أقامت ضجة كبيرة حول فكرة انها تخلق نوعا جديدا من الناس أطلقت عليه اسم نبات « الصبار» ليكون جنسا ممتازا على سائر البشر ، فهذه الدعوة ـ العنصرية فى أساسها ـ تمزقها المؤلفة تمزيقا شـــديدا وتدمغها بالفشل الذريع .. وبأنهـــا تشويه للانسان لاغير ..

اننا اذا تأملنا فى هذه الفكرة وآثارها ونظرتها فسوف نجد أنها « نازية » مائة فى المائة !.. لهـــا نظرة النازية الباردة الوحشية الى الصفة العنصرية ، والى الانسان كجسد وأداة لا شفقة فى استخدامها أو تدميرها

وان فكرة القوة ..والغزو.. والتوسع .. والعدوان .. عميقة راسخة الجذور فى بناء مجتمع اسرائيل

وان الجيل الجديد ينتقد كل هذا .. ولكنه مصاب الى حد كبير بنفس الامراض .. فهو حائر .. يكاد يرى ان انشاء دولة اسرائيل بالنسبة له لم يكن حلا للمشكلة ولكنه كان بداية مشكلة هائلة ..
مشكلة تتلخص فى عبارة : الى أين ؟!

الفصل
السادس

جان بول سارتر ومشكلة اليهودي

■ أين أخطأ سارتر .. وأين أصاب فى كتابه التحليلى عن مشكلة اليهودية ؟

جان بول سارتر فيلسوف وفنان ، اشتهر باتخاذ مواقف سياسية كثيرة ، تنطوى عادة على الوقوف الى جانب الحق والعدالةوالمساواة ، والانتصار للمضطهدين ونضاله المشهود من أجل حرية الجزائر واستقلال الجزائر ما زال ماثلا ، وصموده فى وجه العسكرية الرجعية فى فرنسا كان رمزا لبطولة المثقف الذى يشعر بمسئوليته نحو المجتمع

جان بول سارتر من الفنانين الذين صمدوا قبل ذلك فى وجه الطغيان النازى ، وطالما هاجم فى مؤلفاته كل ما تنطوى عليه النازية من عنصرية وتعصب قومى..

ومن المنطق أن يكون لسارتر بعد ذلك موقف قوى ضد « أعداء السامية » أى أصحاب دعوة التعصب العنصرى ضد اليهود ..

من المنطق أن يكون له هذا الموقف ، وهو موقف عادل بالتأكيد ، لان دعوة معاداة السامية والتعصب العنصرى ضد اليهود هى دعوة رجعية مظلمة كدعوة معاداة الزنوج وكنزعة اضطهاد أى أقلية من أى نوع وكأى دعوة عنصرية أخرى ..

ولكن هذا كله لا يبرر المبالغة ، ولا يبرر الخروج على

المنطق السليم والجموح وراء الرغبة فى تبرير كل ما يصدر عن اليهود ، وكل ما هو يهودى ومن هو يهودى .. ولو أدى الامر الى اتهام العالم كله والتاريخ الانسانى كله بأقسى الاتهامات

ولكن هذا هو ما جمح اليه جان بول سارتر بالضبط .. فى هذا الكتاب الذى سوف أحاول أن أعرض بعض ما جاء فيه بعد استطراد قليل من هذه المقدمة ..

ونحن العرب قد وجدنا أنفسنا ـ من حيث لا نريد ـ طرفا فى كل ما له صلة باليهود .. بما فى ذلك حكاية « معاداة السامية » ، ذلك ان اليهود ، الذين واجهوا على يد المجتمعات الأوروبية اضطهادا طويلا ، وصل الى قمته فى غرف الغاز التى أقامها هتلر لاعدام الجنس اليهودى .. هؤلاء اليهود وجدوا أن حل قضيتهم الوحيد هو فى أن ينشئوا مدرسة للتعصب العنصرى لا تقل عن الهتلرية ، هى الصهيونية ، وأن تتبلور هذه النزعة العنصرية فى وطن ودولة لهم ينشئونها على أشلاء مليون عربى !..

هكذا ـ من حيث لا نريد ـ وجدنا أنفسنا محتاجين الى أن نرهف السمع لكل ما يقال عن اليهود أو المسألة اليهودية ..

لماذا ؟..

هل لاننا نكره أن يدافع المدافعون عن اليهود فى المجتمعات التى ينتمون اليها .. فرنسية أو انجليزية أو أمريكية ؟..

كلا .. فاننا نؤمن ان اليهودى كالمسلم والمسيحى له حق الحياة فى الوطن الذى ينتمى اليه ، بل أن دعوتنا الأساسية ضد اسرائيل تستند الى ان اليهودى يجب أن يبقى فى الوطن الذى ينتمى اليه .. لا أن يهاجر

منه لينشيء دولة عنصرية باغية فوق قطعة من أرضنا

نحن اذن نتمنى لليهودى طيب المقام حيث يكون ، لا لان هذه هي العقيدة الانسانية التي نؤمن بها فحسب، بل لأننا ـ أيضا ـ أصحاب مصلحة فى هذه العقيدة ، نحن أصحاب مصلحة فى أن يندثر ـ فعلا ـ التعصب العنصرى بوجه عام ، والتعصب العنصرى ضد اليهود بوجه خاص ، لان هذا التعصب العنصرى ، ولو بطريق غير مباشر ، هو الذى خلق اسرائيل ، وهذا التعصب العنصرى هو الذى تعمد اسرائيل ـ الآن ـ الى اذكائه ، أو ايهام الناس بوجوده فى كل مكان ، لالقاء الجذوة التى خلقت اسرائيل ..

نحن اذن ـ لهذا كله ـ لا نكره أن يدافع المدافعون عن اليهودى فى فرنسا أو بريطانيا أو بولندا أو أمريكا..

ولكننا نرهف السمع لهذا الدفاع ، ونشك فى واقعه أحيانا ، لسبب هو : ان اسرائيل تتخذه سلاحا لها ضدنا ، وتصطنع منه دخانا يخفى جريمتها العنصرية فى فلسطين !

هنا فقط نتنبه ونشك وننتقد !.. لأنه يكون هنا ـ على أحسن الفروض ـ من ذلك النوع الذى يقال عنه انه « حق يراد به باطل ! »

واسرائيل الآن تقوم « بحركة التفاف » فكرية واسعة فى العالم أجمع !..انها تحاول بالأفلام الملونة ، وبمعدات السينما سكوب ، وبالروايات ، والمسرحيات ، وبالكتب العلمية والتاريخية ، وبالمحاكمات .. أن تثقل ضمير العالم كله بالذنب نحو اليهود !.. أن تشعر كل فرد وكل دولة وكل دين وكل ملة انه مسئول عن جزء مما حل باليهود !.. وفى غمرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر اسرائيل به العالم .. تحاول ان تستخلص

الضمانات لاسرائيل ، والأموال لاسرائيل ، والاعــداء للعرب بوصفهم الخصوم الجدد لليهود !.. فى غمــرة هذا « الشعور بالذنب » الذى تغمر به اسرائيل العالم تحاول أن تقنع هذا العالم بأن يغفر لها ذنبها ، وأن يرى فى طرد مليون عربى نوعا من التعويض المعقول لها !

ويجب أن نعترف بأن اسرائيل قد نجحت ـ فى أماكن كثيرة من العالم ـ فى خلق هذا الشعور !.. وجان بول سارتر نفسه ـ فى هذا الكتاب الذى أعرض له ، يقول: ان بعض المتحررين لا يرون فى اليهود الا مجرد موضوع يثبتون به تحررهم !.. فالواحد منهم يتحمس فى الدفاع عن اليهود لا لاحساس باطنى قوى بالحاجة الى هــذا الدفاع ، ولكن ليقول للعالم انه متحرر !..

واننى لأخشى ، أن يكون جان بول سارتر نفسه ، قد وقع فى هذه الغلطة ، وفاق كل المتطرفين فى الدفاع عن اليهود لهذا السـبب .. من حيث يدرى أو من حيث لا يدرى !..

ان العنوان الكامل لهذا الكتاب ـ ١٥٢ صفحة ـ هو « عدو السامية .. واليهودى ! » ..

وسارتر فى هذا الكتاب يشرح لنا ـ أولا ـ نظريته الفلسفية فى « الانسان » ليقيم على أساسـها تبريره المطلق لكل ما يصدر عن اليهود !

ونظريته فى « الانسان » ـ فى محاولة للتبسـيط الشديد ـ هى انه لا يوجـد شىء اسمه « الطبيعــة الانسانية » . أى ان الانسان لا تتحدد صفاته وأخلاقه ونزعاته بمجرد مولده .. ولكن يوجد شىء اســمه « انســان فى موقف » .. بمعنى أن « الموقف » الذى يوجد فيه الانسان هو الذى يحدد ويصنع طبيعــة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية

الى آخره ، فالانسان لا يمكن تمييزه أو فصله عن « الموقف » الذى يوجد فيه ..

والناس المتشابهون لا يتشابهون بحكم « طبيعة » واحدة ولدوا بها ولكنهم يتشابهون بحكم تشابه « الموقف » أو « الحالة » التى يوجدون فيها ، فما يجمع بين فئة من الناس هو وحدة « الموقف » وليس وحدة الطبيعة البشرية ..

والنتيجة التى يرتبها سارتر على هذا هى : انه لا يوجد شيء اسمه « جنس » يهودى واحد له «طبيعة» واحدة ، فالواقع ، كما يقول : ان هناك « أجناسا » يهودية متعددة ، فالفرق بين اليهودى الروسى مثلا واليهودى اليمنى شاسع جدا كالفرق بين أى روسى وأى يمنى !

فوحدة الجنس اذن ليست هى التى تجمع بين يهود العالم ..

هل هى وحدة التراث والتاريخ ؟

فى راى سارتر : لا !.. فتاريخ وطن اسرائيل القديم قد انقطع واندثر منذ ألفى عام ، فيهود العالم فى الواقع لا يجمعهم تاريخ واحد ولا عاطفة قومية واحدة

اذن .. هل تكون وحدة الدين ؟

كلا أيضا !.. فالناس من أديان كثيرة يعيشون متفرقين فى أنحاء الارض دون أن تكون بينهم هذه « الرابطة » أو « الوحدة » التى نراها بين يهود العالم ، ثم ان اليهود المشتتين لهم نظرات مختلفة الى الدين نفسه ، وكثير منهم ملحدون فى حقيقة الامر ، ولكنهم مع ذلك يتمسكون « بطقوس » الدين فقط ، لانه يعطيهم احساسا « بالانتماء » الى فئة معينة ، فالدين بالنسبة

لليهود لا قيمة له عندهم « كدين » ولكن قيمته عندهم هى « كرمز » فقط

ويخلص سارتر من هذا الى أن الشيء الحقيقى الذى يربط بين يهود العالم هو « موقفهم » !.. هو موقف كل المجتمعات منهم .. ونظرة العالم اليهم !..

وأمضي خطوة أخرى مع منطق جان بول سارتر .. كى تكتمل فكرته أمام القارىء ..

ان اليهودى — فى رأى سارتر — يولد كما يولد أى مخلوق على سطح الارض .. ولكنه حين يشب يجد نفسه فى « موقف » مختلف عن الآخرين : يجد أن الناس ينظرون اليه كيهودى .. وان الدنيا تعامله كيهودى.. هو وكل يهودى مثله ..

انه يولد وحوله جو من الاستعباد والاشمئزاز والنفور والكراهية !

انه يولد ليجد نفسه فى موقف « الملعون » ، واذا به يكتسب ، بالتالى ، الصفات المادية والمعنوية والسياسية والاقتصادية التى تترتب على هذا « الموقف » ..

انه يولد ولديه القابلية الطبيعية لكى يكون مواطنا مندمجا فى الوطن .. فرنسيا فى فرنسا ، وانجليزيا فى بريطانيا .. ولكن المواطنين هم الذين يأبون عليه أن يندمج .. فلا يجد مفرا من أن يظل « يهوديا » .. وأن تظل اليهودية صفة تميزه وتفصله عن الآخرين .. ويصبح بالتالى « غير قابل » للانتماء الى الوطن — اى وطن — والاندماج فيه

ولما كان اليهودى — أيا كان المكان الذى يولد فيه — يواجه هذا «الموقف» .. فان هذا « الموقف الواحد » بالتالى يوحد بين جميع اليهود فى العالم .. ويخلق بينهم هذه الرابطة التى نعرفها .. والتى مصدرها هو

هذا الموقف « المنبوذ » وليس مصدرها وحدة الدين ولا وحدة الجنس ولا وحدة التاريخ !..

وأقدم تهمة وضعت اليهود فى هذا الوضع المنبوذ من العالم المسيحى هو اتهام المسيحيين لهم بأنهم قتلوا المسيح .. ولذلك فكل مسيحى أوربى يشب وهو ينظر الى اليهود على انهم قتلة أحفاد قتلة !..

والفكرة التى يبنى عليها سارتر نظريته ـ الى الآن ـ معقولة الى حد بعيد . ان الذى يجمع اليهود ليس الاصل الواحد ولا الدين الواحد ولا التاريخ الواحد . وهذا أحد الادلة التى نسوقها لنقول انه لا حق لهم فى الوطن الذى اغتصبوه فى فلسطين . انما الذى يجمعهم هو وحدة « الموقف » .. موقف « النبذ » و « الابعاد » الذى يواجهونه فى أوربا بالذات ..

ولكن سارتر بالغ كثيرا فى ترتيب النتائج على هذه الفكرة . فذهب الى أقصى الحدود فى القاء مسئولية هذا « النبذ » على المجتمعات التى ينشأ فيها اليهود . أى على العالم كله .. فى حين لم يفكر لحظة واحدة فى أن يكون اليهود أنفسهم مسئولين ـ ولو الى حد ما ـ عن هذا النبذ الذى يعيشون فيه ..

ومنذ ذلك الوقت ، والمجتمعات المسيحية فى أوربا ترفض أن ينتمى اليهود اليها أو يندمجوا فيها ـ قوميا أو اجتماعيا ـ لقد اختارت أوربا لهم مركز « الملعون » فلم يكن أمامهم مفر من أن يسلكوا سلوك الملعون . كان محرما عليهم أن يمتلكوا الارض أو أن يخدموا فى الجيش .. فلم يكن أمامهم مفر من أن يركزوا حياتهم على النقود وبتركيزهم المطلق على النقود تعززت اللعنة الاولى عليهم بلعنة جديدة اقتصادية . واليوم يتهم العالم اليهود بأنهم لا يعملون أبدا فى أعمال انتاجية كالزراعة أو الصناعة

أو العمل اليدوى ولكنهم يعملون فى مهنة النقود .. فان السبب فى رأى سارتر هو أن أوربا المسيحية أبت عليهم أن ينتموا الى الوطن انتماء عاديا ، وأبت عليهم ممارسة أى مهنة أخرى ..

ويستطرد سارتر استطرادا ذكيـــا فى تحليل حب اليهود المشهور للفلوس ، وتفرغهم للعمــل فى الأوراق المالية والبنوك والمضاربات وما الى ذلك فيقــول : ان الذى يجذب اليهودى الى الفلوس ليس حب الفضـــة أو الذهب فى حد ذاته ، ولكن الذى يجذبه فى الفلوس هو : قوتها الشرائية أو « قدرتهـــا على الشراء » .. الفلوس لا جنسية لها . ولا قومية ولا تراث . انها لغة عالمية .. قوتها مستقلة عن قوة القيم الاخرى التى يجد اليهودى نفسه محروما منها . «ثمن» أى شىء لايتوقف على شخصية ولا جنسية ولا دين المشترى . المشترى هو الذى يملك الرقم المكتوب فى خانة السعر . فاذا دفع الثمن فانه يصبح المالك القانونى للشىء . فالتملك بالشراء لغة عالمية لا تحتاج الا الى الفلوس . فى الآداب المحليـــة نقرأ دائما ان هناك أشياء كثيرة ليس لها ثمن .. لا تباع ولا تشترى كالشرف والحب والفضـــيلة والذوق .. الى آخره ، وهذا فى رأى سارتر أسلوب لاستبعاد اليهودى وحرمانه من نيل هذه الاشياء ، ولكن هذا فى حد ذاته هو الذى يجعل اليهودى حريصا على أن يثبت ان كل هذه الاشياء يمكن شراؤها ، وان الفلوس بالتالى هى أهم شىء . انه لا يؤمن بأن أى شىء له « قيمة » ولكن كل شىء له « ثمن » . ان « القيمة » لهـــا معايير كثيرة غير الفلوس .. ترجع الى التراث مثلا أو الانتماء الى أصل معين أو حضارة معينة .. أو .. أو .. الى آخر هذه الاشياء التى يجد اليهودى نفسه محروما منها ،

فهو لذلك يحاول الغاء فكرة « القيمة » التى لا يستطيع أن يشارك فيها لتحل محلها فكرة « الثمن » .. اى الفلوس .. الشىء الذى يستطيع أن يمتلكه ويشارك فيه ..

« القيمة » شىء اجتماعى .. فما ليس له قيمة فى مجتمع قد تكون له قيمة كبيرة فى مجتمع آخر . واليهودى منبوذ من كل مجتمع ، لذلك فهو يفضل الغاء فكرة « القيمة » التى لا يستطيع أن يشارك فيها ، ويحل محلها فكرة « الثمن »

فلهفة اليهودى على الفلوس .. وعدم اعترافه بأى قيمة الا بالفلوس وبفكرة الثمن .. ليس مصدرهما خسة طبيعية فيه . ولكنهما « رد فعل » لحرمان المجتمع له من المشاركة فى القيم الخاصة بهذا المجتمع

يضاف الى ذلك ان اليهودى دائما قلق فى أعماقه . انه لا يطمئن أبدا الى استمرار ملكيته لاى شىء .. انه لا يستطيع أن يشق فى أن مركزه أو ممتلكاته أو قوته فى المجتمع الذى يعيش فيه يمكن أن تستمر غدا .. تاريخه عبارة عن عشرين قرنا من التيه والتجوال .. انه مستعد فى أى لحظة لان يحمل عصاه على كاهله ويرحل . انه لا يمكن أن يستشعر فعلا استقرار « الآرى » الذى لا يمكن مناقشة التصاقه بأرضه وانتمائه لوطنه ، وكل القيم الاجتماعية المعترف بها فى بلاده

على هذا النحو يمضى سارتر فى سرد كثير من الصفات التى أصبحت لاصقة بشخصية « اليهودى » فى الذهن العام ، مبررا لها جميعا بأنها رد فعل ونتيجة لمعاملة المسيحية الاوروبية ، والقوميات الاوروبية لليهود خلال ٢٠٠٠ سنة مستمرة من الزمان . حتى حين يقول الواحد « يهودية حسناء » يجد أن للكلمة وقعا يختلف

عن وقع قوله « أمريكية حسناء » أو « يونانية حسناء» مثلا . ان كلمة « يهودية حسناء » فيهــا نوع من لذة الاستباحة والاغتصاب !.. اليهودية الحسناء هى تلك التى جرها فرسان القوزاق من شعرها فى شوارع القرى المحترقة . اليهودية الحسناء فى الفــولكلور ــ الادب الشعبى ــ الاوربى ، هى المقهورة المغتصبة أو الذليلةفى حب أوروبى لا يهتم لها كثيرا ، وسوف يتزوج آخــر الامر من أوروبية مثله .. وفى بعض القصص الشــعبية حين تموت اليهودية فى سبيل حبها اليائس لا تقــدم القصة موتها على أنه استشــهاد ، بل على أنه نوع من العدل ! » ..

« واليهــودى فى فرنسا مثلا قد يصـــل الى أعلى الدرجات ، ويحقق أكبر قدر من الثراء ، ولكن المجتمع رغم ذلك يأبى عليه أن يلتحق التحــاقا حقيقيا ــ حتى ولو « قبل وجوده » فى كل مكان ــ أنه قد يصبح وزيرا ولكن الناس لا يذكرونه فيقولون انه « وزير » بل انه « وزير يهودى »

وكما يرسم جان بول سارتر صورة اليهودى التى خلقها المجتمــع الاوروبى .. يرسم صورة « عــدو السامية » .. وهو ليس المواطن الاوروبى العادى ، ولا حتى الذى يقف من اليهودى هذا الموقف ، بل هو ذلك الذى يتميز بعداء خاص لليهود

يقول سارتر ان أعداء الســـامية ودعاة التعصب العنصرى ليسوا عادة من الاذكياء أو المتفوقين بأى صورة من صور التفوق .. أى ليسوا من « النخبة » فى أى مجتمع ولكنهم من « العاديين تمـــاما » أو الاقل من العاديين !

وأغلب الدعوات العنيفة ضد الساميةنشأت وترعرعت

بين أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة التى لا يملك أفرادها شيئا .. فبمجرد تعصبهم يشعرون فجأة بأنهم يمتلكون شيئا . فالطبقة المتوسطة الصغيرة التى لا تملك الا قليلا فى ألمانيا كانت هى نواة دعوة معاداة السامية ، انهـــا عاجزة ازاء « اليونكرز » وكبار الصناعيين الذين يملكون كل شيء فى المانيا ، وهى فى نفس الوقت لا تقبل الاعتراف بأنها لا تملك شيئا كالبروليتاريا ، لهذا أقبلت على دعوة معاداة السامية لانها تعطيها احساسا بالامتلاك وبالتميز ازاء فئة أخرى ، هى اليهود ، تريد أن تسرق منهـــا ما تمتلك وهو الوطن !

ويقول جان بول سارتر ان اليهودى .. ازاء هــذا « الموقف » الذى يجد نفسه فيه .. يختار أحد موقفين .. فريق يحاول أن يتنصل من يهوديته .. وأن يتهرب منها .. وأن يتستر عليها .. أى يحاول بوجـــه عـــام تخفيف وقع المقاطعة الموجهة ضده .. فهو انسان فى حالة هرب دائما من نفسه ومن وضعه ..

وفريق ثان .. يكون رد فعله عكسيا . انه يقبـــل اتهام العالم كله ، ويعامل العالم على هذا الاساس ،ومن هذا الفريق الثانى خرج ــ فى رأى سارتر ــ أولئـك الذين دعوا الى اقامة وطن يهودى ودولة يهودية ، على أساس ان تأكيد الذات اليهودية والوجود اليهـودى ، والرد على النفى الاجتماعى فى أنحاء العـــالم لا يكون الا باقامة دولة تكون لها أرض وقومية ووجود ينتمى اليـــه

ثم يقول : ان اقامة دولة يهودية قـد تحل مشكلة اليهود الذين يسكنون فى تلك الدولة . ولـكنها لا تحل مشكلة اليهود الذين يفضلون البقاء فى أوطانهم ، بل انها تزيد من تعقيد موقفهم .. ذلك ان قيام هذه الدولة هو دليـــل آخر يبرهن على ما يقوله خصـــومهم من انهم

لايحبون الانتماء الى الاوطان التى يعيشون فيها أصلا

وهو يتنبأ بأزمة شـــديدة بين اليهود المهاجرين الى اسرائيل من جهة .. واليهود الباقين فى أرض آبائهم وأجدادهم . فرنسا أو غير فرنسا من جهة أخرى !..

الى هنا .. وأعتقد اننى أعطيت وجهة نظر سـارتر فى الموضوع فرصة كافية فى حدود هـذه المساحة وقد آن أن نتأمل كلامه معا فى سطور قليلة ..

ان الملاحظة البارزة على هـذا الـكتاب هى ان سارتر كتبه بلهجة المحامى ، فبالرغم من ان فيه أشياء كثيرة صحيحة وعلى درجة كبيرة من ذكاء التحليـل .. فان الـكتاب كله مكتوب بلهجـة المحامى الموكل للدفاع عن قضية معينة . فهو يشعر ان من واجبه تبرير كل شىء . والدفاع عن كل شىء . ونفى كل مسئولية ــ صغيرة أو كبيرة ــ عن موكله !

ونحن ــ كما سبق أن قلت ــ لسنا أعداء للسـامية ولا أعداء لليهود كجنس أو دين . بل ولا نختلف فى هذه الناحية عن أى رأى قال به سارتر ولـكن المرء حين يفصل فى قضـايا نفسية وتاريخية واجتماعية عمرها ٢٠٠٠ عام ، لايمكن أن يلقى كل المسئولية على طرف واحد دون طرف وهو مطمئن الضمير . ولقد بالغ سارتر فى نفى أى مسئولية عن اليهود الى درجة انه كاد يكون « عنصريا » بمعنى آخر ! فكما ان كراهية عنصر معين هو اتجاه عنصرى ، كذلك فان نسـبة فضيلة الصواب المطلق الى عنصر معين هى أيضا نزعة عنصرية !

ان سارتر حين يعيد ويزيد ويؤكد ان اليهود يحاولون دائما الاندماج والذوبان فى كل مجتمع يعيشـون فيه ، ولـكن المجتمعات العالمية هى التى ترفض ذلك ، وهى التى تصر على ابقائهم منفصلين .. انما يتجاهل فى الواقع

محاولات كثيرة جرت لامتصاص اليهود فى مجتمعات كثيرة ، ويتجاهل ان اضطهاد اليهود اذا كان قد حدث فى مناسبات كثيرة الا انه لم يكن أبدا القاعدة المستمرة فى التاريخ

وفى بلاد كالبلاد الشيوعية ، تم فيها الغاء الدين بصفة رسمية وبالتالى تم فيها الغاء الدين كعنصر تمييز بين مواطن ومواطن ، وانفتحت بذلك فرصة ضخمة لليهود لكى يصبحوا على الزمن جزءا لا يتجزأ من البلد الذى يعيشون فيه .. لم يغير هذا من الحقيقة فى شىء ، وظلت المشكلة اليهودية قائمة بنحو أو بآخر .. بمعنى انه ظلت الرابطة اليهودية المنفصلة عن الرابطة القومية العامة فى تلك البلاد قائمة . وآية ذلك محاولات اليهود فى تلك البلاد من أجل الهجرة الى اسرائيل . بالرغم من ان كثيرين جدا من هؤلاء الراغبين فى الهجرة هم فى الواقع ملحدون ، كما يقول سارتر نفسه فى ملاحظته عن اليهود الاوروبيين ..

انهم هنا يهربون من هذا « الاندماج » الذى يقول سارتر انهم يطلبونه

ولا يمكن القول بأنهم يهربون من نظام اقتصادى لا يحبونه مثلا .. لانه لا يحدث أبدا أن تهرب « فئة بأكملها » من وطنها ، اذا كانت تحس بالانتماء الى هذا الوطن بالمعنى الذى يفهمه أى مواطن فى أى وطن لمجرد اعتراضها على النظام الاقتصادى

وقد ركز سارتر حديثه خلال صفحات طوال عن اشتراك اليهود الفرنسيين فى المقاومة السرية ضد النازى وضد الاحتلال الالمانى . وأشاد طويلا ببطولاتهم وقال ما معناه : انهم بهذا دفعوا أعظم ضريبة يمكن أن يدفعها أى فرنسى ..

ولكن هذا المثل لا يصلح دليلا مطلقا على رغبتهم في الاندماج والانتماء المطلق الى المجتمع الذى يعيشون فيه. والسبب هو أن العدوان النازى لم يكن موجها ضد « فرنسا » وحدها ، انما كان موجها أيضا ضد «اليهود» بالذات . كان هتلر يهدد اليهود أكثر مما يهدد فرنسا.. فهم هنا أمام خصم للطائفة لا مجرد خصم للوطن. ولهذا فهم قد حاربوا هتلر كيهود قبل أن يحاربوه كفرنسيين. حاربوا حرب الدفاع عن بقاء اليهود لا حرب الدفاع عن عظمة فرنسا مثلا !

والدليل على ذلك ان هناك أمثلة كثيرة تدل على ان اليهود فى هذا الوطن أو ذاك لم يكونوا يختارون دائما الانتماء الى الوطن فى ساعات مجد الوطن وساعات ذله على السواء ، وهو الانتماء الحقيقى . انما كانوا كثيرا ما يعتبرون أنفسهم كتلة خارج دائرة الوطن ، لها حرية اختيار الوطن وتغييره وفق المصلحة التى يرونها ..

سارتر نفسه يشير الى الثورة الوطنية البولندية التى نشبت فى القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الروسى . وكيف ان يهود وارسو برفضهم الانضمام الى الثورة كانوا يهدفون الى تحقيق مركز ممتاز لانفسهم عن طريق موالاة المغتصب الروسى ..

وسارتر يقول ان قيصر روسيا كان يضطهد يهود روسيا فى نفس الوقت الذى كان يمالىء فيه يهود بولندا ويمنحهم الامتيازات .. وان السبب هو أن القيصر اعتبرهم فئة منفصلة عن الوطن فى الحالتين . فالفئة المنفصلة فى وطنه هى خطر على وطنه ولذلك يضطهدهم. والفئة المنفصلة فى وطن بولندا تفيد سياسته ضد بولندا فهو لهذا يمالئهم !

ولـكن هل دفاع سارتر يبرىء اليهود ـ تماما ـ من مسئولية الموقف ؟ !

واذا فرضنا ان موقف الاضطهاد داخل روسيا كان « مفروضا » عليهم ولا حيلة لهم فيه .. فهل موقف ممالأة المستعمر فى بولندا أيضا كان مفروضا عليهم ولا حيلة لهم فيه ؟ ! .. بالطبع لا .. !

مثل آخر أضربه لا لأن له دلالة خاصة ، ولـكن لانه كان محل جدل بالذات ، هو : اليهود فى الجزائر !..

ان اليهود الجزائريين من سكان البـلاد الاصليين . ومنذ الاحتلال الفرنسى للجزائر على الاقل يمكن القول ان حظهم وحظ أبناء سـائر الاديان كان واحدا . فلا يعقل أن يضطهدهم الجزائريون وهم أنفسهم مضطهدون. ولـكن اليهود هناك وجدوا الفرصة المناسبة بعد الاحتلال لـكى يختاروا الجنسية وينضموا بكل كيانهم الى الكيان الطارىء على الجزائر ، صاحب الامتيازات ، ويتخلصوا من جلدهم الجزائرى القديم .. وكان هذا قبل أن تقرر فرنسا اعطاء الجنسية الفرنسية لـكل سكان الجزائر بعشرات من الاعوام .. وبعد مرور حقبة طويلة ، وبعد اشتعال النار تحت بوتقة الثورة الجزائرية ، أصـبح اليهود الجزائريون جزءا من الاوروبيين ومن مشـكلة الاوروبيين

ليس صحيحا اذن هذا الموقف الذى يتخذه سارتر.. من طلب البراءة التامة لـكل المجتمعات اليهودية فى كل زمان ومكان .. وطلب الادانة الـكاملة لـكل المجتمعات الانسانية الاخرى فى كل زمان ومكان ! ..

وكما ان المحامى الذكى يعمد عادة الى اخفاء واهمال نقط الضعف فى موقف موكله ، كذلك فان سارتر يمر

مرور الـكرام على نقط الضعف الاسـاسية فى موقف اليهود اليوم ..

ان الـكتاب ـ مثلا ـ مشحون بطاقة هائلة ضد أى اتجاه عنصرى . فماذا عن الدعوة العنصرية فى داخـل المجتمع اليهودى .. وهى الدعوة الصهـيونية ؟ ..

لا شىء ! ..

بالرغم من ان سارتر أشبع كل شىء يتصل بالمسألة اليهودية عرضا وتحليلا فانه لم يذكر الصهيونية الا فى سطور تعد على أصـابع اليـد الواحدة ! .. رغم ان الصهيونية كدعوة كان عمرها أكثر من نصف قرن عندما كتب هذا الـكتاب ! .. ورغم ان الصهيونية ـ كدعوة عنصرية ـ أقدم من النازية نفسها بعشرات من السنين !

لانه لو وضع الصهيونية فى مكانها المناسب من الاهمية فكأنه وضع اليهود أو فئة كبيرة منهم تحت رحمة كل مدافعه الثقيـلة التى يصـوبها فى كتابه الى النزعات العنصرية والى كل أنواع التعصب

ومن المؤكد ان أى دراسـة للمسـألة اليهودية الآن لا تهتم بالدعوة الصهيونية فكريا وسياسيا وتاريخيا .. تكون دراسة ناقصة ومتحيزة الى حد كبير ! ..

الفصل السابع

مذكرات بن جوريون

■ قصة الحركة الصهيونية، كما يرويها بن جوريون، من إلقاء الخطب المتفرقة فى القرى اليهودية الروسية سنة ١٩٠٠ إلى تأسيس أول مستعمرات يهودية فى فلسطين، إلى حرب السويس!

من الصفحات الاولى لهذه المذكرات ، يلاحظ القارىء ان بن جوريون لم يحاول قط ان يكتب فى هذا الكتاب كمؤرخ ، ولا حتى كسياسى متقاعد ، ولكنه كتبه كسياسى ما زالت عينه على المسرح ، ينتظر الساعة التى يعود فيها الى الظهور : أى انه كتب فقط ما يناسب مواقفه السياسية المستقبلة ..

والحقائق التى اخفاها بن جوريون ـ بالطبع ـ أهم من الحقائق التى ذكرها ..

ومع ذلك ، فماذا يقول بن جوريون فى مذكراته التى ظهرت منذ شهور ؟ ..

يقول دافيد بن جوريون :

« منذ آلاف السنين ورغبة اليهود فى العودة الى أرض اسرائيل لا تموت . وأحيانا كانت هذه الرغبة تتعدى مجرد رغبة العودة الى الرغبة فى زراعة الارض ذاتها : ففى عام ١٥٩٣ ، جاء « دون جوزيف ناسى » مع أتباعه من اسبانيا الى فلسطين ، حيث أقام أول مستعمرة زراعية فى الجليل ، على شاطىء بحيرة طبريا

ومنذ أكثر من مائة عام حاول مليونير انجليزى يهودى ، اسمه السير « موسى مونتفيور » ، أن يقنع اليهود

المتوطنين فى فلسطين بأن يتحولوا الى فلاحين ، ومن أجل هذا الهدف : أقيمت أول « بيارة » يهودية من « بيارات » البرتقال ، بالقرب من يافا ، عام ١٨٥٦

وبعد ثلاثين عاما أسست منظمة يهودية فرنسية ، اسمها التحالف الاسرائيلى العالمى ، أول مدرسة زراعية فى فلسطين ..

وفى عام ١٨٧٨ ، أسس يهودى من القدس أول قرية يهودية كاملة سماها « بتاح تكفاه Petah Tikva » أى : باب الامل !

ثم بدأت الهجرة ، مع التحـــول الى زراعة الارض بالذات تتوالى : موجات فقيرة تأتى من روسيا وشرق أوروبا بوجه عام ، وأموال تأتى من غرب أوروبا ، برز من بين دافعيها اسم البارون « ادمون دى روتشيلد » رجل العائلة المالية الشهيرة ، التى كانت تمول أغنى حكومات أوروبا كما تمول أقسى حروبها : نفس العائلة التى مولت شراء انجلترا لاسهم قناة السويس التى كانت تملـكها مصر ، على يد « الخديو اسماعيل »

وفى عام ١٨٩٦ ، أصـــدر صحفى ومؤلف مسرحى يهودى اسمه « تيودور هرتزل » كتابا صغيرا ، أطلق عليه اسما غريب الوقع فى ذلك الوقت وهو بالالمانيـــة Der Judenstaat أى « الدولة اليهودية »

كان « هرتزل » قد أرسلتـــه صحيفة نمسوية الى باريس ليبعث اليها بتفاصيل محاكمة الضابط الفرنسى اليهودى « دريفوس » ، فتأثر بما وجد من نزعة الى معاداة السامية فى هذه المحاكمة ، فألف هذا الـكتاب

ومن يوم صدور هذا الكتاب الصغير ، ولدت الحركة الصهيونية العالمية ، التى وضعت نصب عينيها اقامة دولة يهودية ..

ولم تحدد الحركة الصهيونية مكان هذه الدولة ، فى البدء ، بفلسطين . انما كانت مستعدة لقبول أى مكان يمكنها أن تقيم فيه الدولة الحلم

هكذا ذهبوا فى البداية الى الخليفة التركى العثمانى ليعطيهم مكانا ما فى الشرق الادنى ولـكنه رفض . وفى عام ١٩٠٢ تحولوا الى القوة الجديدة البازغة ، انجلترا ، لـكى تسمح لهم باقامة هـــذه الدولة فى العريش وما حولها من صحراء سيناء ولـكن ندرة الماء فى تلك المنطقة من جهة ومعارضة لورد كرومر الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت من جهة أخرى ، أجهز على الفكرة ، ثم جاء جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطـــانى وعرض على الصهيونية أن تقيم وطنها فى اوغندا ، وهو الاقتراح الذى قسم الحركة الصهيونيـــة وقتذاك الى قسمين : قسم يقبل العرض ، وقسم لا يقبله ..

عند هذه النقطة يقول بن جوريون فىكتابه « اسرائيل: سنوات التحدى » .. « ان الثورة الروسية قامت عام ١٩٠٥ ، ثم تمكن القيصر من قمعها » . ويعترف بن جوريون ان هذه الثورة التحررية لو نجحت لادت الى رفع الاضطهاد عن اليهود الروس ، ولاثرت بالتالى على اقبال اليهود الروس على الهجرة ، ولـكن الثـــورة أخمدت . وسيطر الحكم المظلم من جديد . فبـــدأت موجة من الهجرة الى فلسطين عرفت باسم « الهجرة الثانية » بعد أن أطلق اسم الهجرة الاولى على الموجة التى أقامت أول مستعمرات زراعيـــة فى فلسطين عام ١٨٨٢ . وقد كان بن جوريون من مهاجرى هذه « الموجة الثانية »

فقد ولد بن جوريون ، كما يقول فى ١٦ ديسمبر عام ١٨٨٦ ، فى مدينة بولندية صغيرة اسمها «بلونيسك» ..

كانت فى ذلك الوقت جزءا من روسيا القيصرية . كان أبوه محاميا . وكان بيته مقرا لنشاط يهودى كبير . فلم يلبث دافيد بن جوريون أن أصبح واحدا ممن يشتركون فى الجمعيات اليهودية ويعملون فيها بنشاط كبير ..

وفى عام ١٩٠٦ ، وجد ان القاء الخطب فى القرى الروسية لا يكفى ، فقرر أن يهاجر الى فلسطين : وفى ذلك الصيف ركب مع بعض اليهود الروس باخرة روسية عبرت بهم الى البحر المتوسط ، بعد أن حصلوا على تصريح تركى بالاقامة فى فلسطين مدة ثلاثة شهور ، وبعد أسبوعين فى البحر رست سفينتهم فى يافا

ويقول بن جوريون : ان أمله خاب حين وجد اليهود الموجودين فى فلسطين يعيشون حياة « الافندية » على حد تعبيره : يحصلون على ايراداتهم من تأجير الارض للغير أو من المهن الاخرى التى « فرضت على اليهود » .. يقصد الربا والسمسرة وشتى أعمال المال ..

كان واضحا له ان مثل هذه الحياة لا تخلق شعبا ملتصقا بالارض « فبين الارض والشعب ، لابد أن تقوم رابطة من العمل »

وبهذا الاتجاه الى العمل ، لا الى خلق « طبقة عليا من اليهود » ، بدأ اليهود يغرسون أول جذور لهم فى فلسطين بالعمل اليدوى المباشر فى كل مهنة ، وباحياء اللغة العبرية ، واقامة مدارسها ، وتثبيتها فى الحياة العامة قدر الامكان .. الى هذا العمل بالذات ، يرجع بن جوريون بدء ميلاد دولة اسرائيل ..

وكان بن جوريون من بين أولئك الذين عملوا فى زراعة البرتقال ، والعنب ، وصناعة النبيذ ، ويقول : انه بينما كان يسير وراء المحراث فى الحقل ، كان يهتم بما

تحقق بعد ذلك من اقامة الدولة .. بينما كانت موجة الهجرة الثانية مستمرة ، من الشباب الذين يندفعون وينتشرون فى حقول العمل اليدوى بالذات ..

وكما تعلموا زراعة الارض ، بدأوا يتعلمون الدفاع عنها : بدأوا يكونون جماعات سرية مسلحة مدربة على القتال حملت من ذلك الوقت اسم « الهاجاناه » ..

ولما كانت البلاد التى يحدث فيها كل هذا تابعة فى ذلك الوقت للدولة العثمانية ، واليها سوف يتجه عمل اليهــود لـكسب مزيد من الحقوق ، فقــد قرر بن جوريون ، وزميل آخر له اسمه « اسحق بن زفى » ، الذى أصبح بعد ذلك ثانى رئيس لدولة اسرائيل بعــد وفاة « وايزمان » ، قرر الاثنان السفر الى القسطنطينية لدراسة اللغة التركية والقانون التركى

***

وجاءت الحرب العالمية الاولى لتضع حدا لدراستهما ، فعادا الى القدس . وهناك اعتقلتهما السلطات التركية بتهمة التآمر ضدها ثم طردتهما من البلاد فذهبا الى الاسكندرية . وفى الاسكندرية نظر الانجليز اليهما أيضا نظرة شك وارتياب بسبب قدومهما من المناطق التركية ، فأعطوهما تأشــيرة دخول الى أمريكا ، وأرسلوهما الى الولايات المتحدة الامريكية ..

وصل بن جوريون وبن زفى الى نيويورك عام ١٩١٥ ، فبدآ على الفور الاتصـــال بالمنظمات اليهودية هناك . وكانت دعوتهما هى : اقناع الشباب الصهيونى بدراسة الزراعة وتعلمها كى يصبحوا قادرين على الهجرة والزراعة فى فلسطين بعد الحرب . كذلك بدأت الحركة الصهيونية تدعو الى تكوين فصيلة يهودية تحارب مع قوات الحلفاء وتدخل معهم فلسطين بعد طرد الاتراك بمساعدة القاضى

براندیس الذی أصبح عضوا فی المحکمة الاتحادیة العلیا الامریکیة بعد ذلك . ولـكن الفكرة نجحت فی انجلترا ولیس فی أمریکا. وبالفعل تکونت هذه الفصائل وانضمت الی جیوش « اللورد اللنبی » التی اقتحمت فلسطین ، ولم یشر بن جوریون الی الثورة العربیة التی قامت قبل ذلك ضد الاتراك والتی سهلت مهمة « اللورد اللنبی » الی حد بعید ، فأغلب الظن ان سعی الیهود الی المساهمة فی المجهود الحربی للحلفاء کان توجسا من مجهود العرب الحربی وردا علیه

وفی عام ١٩١٥ ، وعد سیر «هنری ماکماهون» المندوب السامی البریطانی فی مصر ، الشریف حسین امیر مکة بأن انجلترا اذا حررت بلاد العرب من الاتراك فستردها الی العرب وتنصبه ملـكا علیها . ورغم ان هذا الوعد لم یشمل فلسطین ، الا ان وایزمان ، کما یقول بن جوریون ، انتبه الی ما قد تجره أمانی العرب ، فأسرع یعمل علی استصدار وعد انجلیزی باقامة وطن قومی للیهود فی فلسطین من جهة ، وعلی الاتفاق مع الشریف حسین من جهة أخری . وبالفعل ، حصل وایزمان علی وعد بلفور من انجلترا عام ١٩١٧ . وفی ٣ ینـــایر عام ١٩١٩ ، حصل علی اتفاق مع فیصل ابن الشریف حسین أمیر مکة یعترف فیه بوعد بلفور هـــذا ویعد بأحسن العلاقات بین الدولة العربیة التی ستنشأ فی الشرق وبین « فلسطین » ..

وبعد شهرین من الاتفاق ، عزز فیصل موقفه بخطاب اکد فیه هذا المعنی وأرســـله الی القـاضی الصهیونی الأمریکی « فیلـكس فرانکفورتر» عضو الوفد الصهیونی الی مؤتمر فرسای فی فرنسا

ویقول بن جوریون : ان اتفاقیة «فیصل ـ وایزمان»

هذه لم يكن لها أى شأن . فالعرب فى فلسطين وفى كل الاقطار المجاورة بما فيها العراق التى أصبح فيصل نفسه ملكا عليها ، رفضوا رفضا باتا أن يعترفوا بهذه الاتفاقية ..

ويروى بن جوريون انه حضر المؤتمر الصهيونى العالمى عام ١٩٣٣ على رأس وفد « الماباى » وهو حزب العمال اليهودى فى فلسطين ، وكان يمثل أكبر كتلة فى المؤتمر لاول مرة ، فتم انتخاب بن جوريون عضوا فى المجلس التنفيذى للمنطقة الصهيونية والوكالة اليهودية .. اذن فقد أصبح بن جوريون زعيما !

ويقول بن جوريون : انه كان يرى ان أهم شىء هو الاسراع فى تهجير اكبر عدد ممكن من اليهود الى فلسطين، ولكنه لم يعد ممكنا فى نفس الوقت تجاهل موقف العرب ، ولذلك فقد حاول أن يجد صيغة توفق بين آمال الصهيونية وآمال القومية العربية ، وذلك بالدخول فى مباحثات مع بعض العرب البارزين فى فلسطين ، ومصر، وسوريا ، ولبنان ، والمملكة العربية السعودية ..

« وتمهيدا لمقابلاتى مع العرب ، تحدثت مع المندوب السامى ، الجنرال سير آرثر ووتشوب ، الصديق الوفى للقضية الصهيونية ، وسألته عما اذا كانت الحكومة الانجليزية توافق على اتفاق عربى — صهيونى فى هذا الشأن . ورد المندوب السامى البريطانى على قائلا : انه لا يعرف رأى حكومته فى هذا الموضوع ، ولكنه يعتقد شخصيا انها سوف توافق . وقد لعب دكتور يهوذا ماجنس أول رئيس للجامعة العبرية فى القدس دورا كبيرا فى ترتيب مباحثاتى مع العرب ، رغم اختلافى معه حول الكثير من زوايا القضية الصهيونية . وقد اتصلت المباحثات واللقاءات أكثر من عامين فى فلسطين ، وفى

البلاد العربية المجاورة . وفى جنـــيف ، مقر اللجنــة الفلسطينية السورية .. ولـكنها لم تؤد الى أى نتيجة »

وفى عام ١٩٣٣ ، وصل « هتلر » الى الحكم فى المانيا. وبدأت موجة جديدة من الهجرة اليهودية الى فلسطين. وبدأت مقاومة العرب الفلسطينيين لهذه الهجرة تتخذ شكلا عنيفا ..

***

ووقف بن جوريون فى فبراير عام ١٩٣٧ ، فى اجتماع « الهستدروت » ـ اتحاد نقابات العمال الصهيونى ـ يقول : ان العرب لن يفهمـــوا الا نغمـــة القوة . وان التباحث معهم لا يجدى . انما لابد لهم أن يشعروا بأن الصهيونية قوة يحسب لها حساب ، وانها عامل حاسم فى الموقف ، وليست مجرد عنصر ثانوى

وفى نوفمبر عام ١٩٣٦ ، أرسلت انجلترا لجنة ملكية تحت رئاسة « اللورد بيل » لتبحث موضـــوع العلاقات العربية اليهودية فى فلسطين . وفى العــــام التالى نشر التقرير وكان يدعو الى تقسيم فلسطين . ولـكنه لم يلبث أن دفن ..

وفى عام ١٩٣٩ ، دعت انجلتـــرا الى مؤتمر عربى ـ يهودى ـ انجليزى فى لندن، هاجم العرب فيه الانتداب البريطانى واقتراح التقسيم على الســـواء . أما موقف انجلترا فقد أوضحته فى الـكتاب الابيض الذى نشر فى ذلك العام، وكان يقرر ادخال ٧٥ ألف يهودى فى الخمسة أعوام التالية . على ألا يدخل البلاد أى يهودى آخر بعد ذلك الا بموافقة العرب. وشنت الصهيونية حملة واسعة على هذا الـكتاب الابيض . وفى مقدمة من هاجموه فى البرلمان البريطانى نفسه ، واحد من كبار أصدقاء الحركة الصهيونية : « ونستون تشرشل » الذى كان يحمل لواء

المعارضة ضد رئيس الوزراء « نيفيل تشمبرلين »

***

ثم انفجرت الحرب العالمية الثانية .. ويحاول بن جوريون أن يسجل فى تاريخ هذه الحرب ان العرب وقفوا فيها الى جانب هتلر ، بينما وقفت الحركة الصهيونية الى جانب الحلفاء . وهو تصوير كاذب وغير صحيح.. فالحكومات العربيـــة ذاتها كانت موالية للحلفـــاء بل ومستسلمة لهم .. أما الشعوب العربية فكانت تطلب خروج الجميع من انجليز وفرنسيين وألمان من بلادها ، وهو موقف اتخذته كثير من القيادات الوطنية فى البــلاد الخاضعة للاستعمار .. مثل غاندى وحزب المؤتمر فى الهند ــ مثلا ــ أما الافراد الذين لجأوا الى المانيا فرارا من اضطهاد الانجليز لهم .. فهم لايعطون الصــورة الـكاملة عن « موقف العرب »

ومضت الصهيونيـــة خلال الحرب ، تنظم الهجرة الشرعية وغير الشرعية الى فلسطين ، بواســطة الاداة العسكرية التى أسستها الصهيونية منذ عام ١٩٢٠ باسم « الهاجاناه » ويعترف بن جوريون هنا ان قوات اليهود العسكرية ــ الرمزية فى الواقع ــ التى قاتلت الى جانب الحلفاء فى أوروبا كانت مهمتها تنظيم وتسهيل هــذه الهجرة غير الشرعية . فلمــا اقتربت قوات روميل من الشرق الادنى ، أسس الصهيونيون نوعا آخر من القوات العسكرية اسمه « فرق البالماخ » لتقوم بمهمة مقــاومة الالمان خلف خطوط القتال فيما لو احتلوا فلسطين

***

وفى خلال هذا كله ، كان همهم الوحيد هو التفكير فى مستقبل فلسطين بعد الحرب ..

ويقول بن جوريون : انه كان واضحا لهم ان المانيـــا

سوف تنهزم حتما فى النهـــاية وتنتصر انجلترا . وقد اصبح رئيس وزراء انجلترا ونستون تشرشـــل نفسه صديق الصهيونية العريق. ولــكن كان واضحا لهم أيضا ان انجلترا وان كانت ستخرج منتصرة الا انها ستخرج أيضا ضعيفة . اما مركز الثقل فهو ينتقل بسرعة الى الولايات المتحدة الامريكية .. فالى هناك ، حيث توجد اكبر وأغنى جالية يهودية ، يجب أن ينتقل العمل

وهكذا ذهب بن جوريون الى أمريكا منذ عام ١٩٤٠ ، ليعمل بين المنظمات اليهودية هناك ، وفى مايو عام ١٩٤٢، اتخذ مؤتمر الصهيونيين الامريكيين قرارات عرفت باسم « مقررات بلتيمور » ، نسبة الى الفندق الذى انعقــد فيه المؤتمر . وكانت هذه القرارات تقول : « ان مشكلة السلام فى العالم لن تحل الا بحل مشكلة تشرد اليهود فى العالم بغير وطن .. وانه لذلك لابـــد من منح الوكالة اليهودية سلطة كافية لتحول فلسطين الى « كومنولث يهودى » بعد الحرب »

وانتهت الحرب . وانقلب الحال فجأة فى انجلترا ، فقد خرج تشرشل من الحكم وجاء حزب العمال . فهل هى صدمة للصهيونية ؟

كلا ...

يقول بن جوريون : « ان حزب العمال كان قد سبق له أن اتخذ خلال الحرب قرارات تدعو الى قيام دولة يهودية ، قرارات فيها ما هو أكثر مما طالبت به الوكالة اليهودية نفسها فى أى وقت ، وخصوصـــا قرار يقضى باقتلاع كل العرب فى الدولة اليهودية ونقلهم الى البلاد العربية المجاورة ! » ..

ولــكن المشكلة فى رأى بن جوريون لم تكن فى عـــدم حماسة حزب العمال فى خدمة الصهيونية ، ولــكن فى

عدم قدرته .. وعدم قدرة انجلترا بوجه عام !.. يضاف الى ذلك ان مجلس الوزراء ليس هو كل شيء ، فهناك أيضا جهاز الدولة وأجهزة المستعمرات ، التى يعتقد بن جوريون انها كانت قد أصبحت كلها ، منذ صدور الكتاب الابيض ، معادية للصهيونية ..

هكذا أصبح لامفر من احتمالين : اما الدولة اليهودية ، واما تنفيذ الكتاب الابيض ..

وهنا يشن بن جوريون حملة على وزير خارجية العمال بالذات ، ارنست بيفن ، الذى كان مسنودا فى رأيه من آتلى رئيس الوزراء ، ويقول : انه وصل الى الاقتناع بأنه لابد من الاصطدام بانجلترا ، وبعرب فلسطين ، وبالدول العربية المجاورة .. « والا بقى اليهود أقلية مغلوبة فى بلد عربى ! » ولهذا لابد للصهيونية من شيء أساسى وهو : القوة !

لا نظير فيما أعرف من كتابات .. لهذا التبجح !

انه يتحدث عن فلسطين ، كأنها بلد خال من السكان !

انه فى لحظة واحدة يقلب صفحة الحديث عن العدل والانسانية والديموقراطية حين يصل الى النقطة الحاسمة ، ليتحدث عن أشياء أخرى تماما : القوة : السلاح ! اقتلاع الشعب من مكانه ! تحويل الاغلبية الى اقلية ! ..

ويستطرد بن جوريون قائلا : انه كان دائما رئيس المجلس التنفيذى للوكالة اليهودية دون أن يتولى وزارة بعينها . فلما انشئت وزارة الدفاع لاول مرة عام ١٩٤٦، تولى الاشراف عليها ... وهناك بدأ على الفور بدراسة القوة الحقيقية لفرق « الهاجاناه » فوجدها عام ١٩٤٧ ، كالآتى :

١٠٫٠٧٣	بندقية عادية
١٫٩٠٠	بندقية أوتوماتيكية
١٨٦	مدفع رشاش
٤٢٤	مدفع رشاش خفيف
٦٧٢	مدفع مورتر عيار بوصتين
٩٦	مدفع مورتر عيار ثلاث بوصات

وعلى الفور بدأ العمل لاقامة صناعة أسلحة حربية فى فلسطين ، وفى تهريب المعدات والاسلحة من الخارج. ويقول بن جوريون : انها جاءت من أمريكا بالذات التى كانت على وشك تخفيض صناعاتها الحربية بعد أن انتهت الحرب ، وحين يقول بن جوريون انهم حصلوا بمليون دولار على أسلحة تساوى ملايين كثيرة نفهم ان الامر لم يكن مجرد شطارة ، انما كان ينطوى بغير شك على تسهيلات رسمية غير عادية ..

أما الدول التى رضيت ـ كدول ـ أن تبيع لهم الاسلحة فكانت : تشيكوسلوفاكيا وفرنسا !

وفى تقرير أصدره بن جوريون فى ذلك الوقت لفرق « الهاجاناه » ، قال : ان العدو المقبل هو انجلترا والعرب . ولكن الامر يختلف « فخلافنا مع انجلترا سياسى . واذا لجأنا أحيانا الى أعمال عسكرية ضدها فلمجرد تأكيد موقفنا السياسى » أما ازاء العرب فالمعركة عسكرية . ثم يدعو الى تدريب « الهاجاناه » بحيث تصبح قادرة على قتال « الدول العربية » لا العرب الفلسطينيين وحدهم

***

وفى مايو عام ١٩٤٧، طرحت قضية فلسطين للمناقشة فى جلسة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة . ولاول مرة يسمح للوكالة اليهودية بأن تشترك فى الجلسة وكان

السؤال الذى يشير الى مفترق الطرق هو : هل هناك علاقة بين مشكلة اليهود فى العالم وبين فلسطين « كما يقول الصهيونيون ».. أم ان كلا منهما مشكلة منفصلة ، كما يقول العرب ؟

وأيدت تركيا والهند وأفغانستان رأى العرب ، بينما أيد الباقون كلهم رأى الصهيونية ..

فقد كان « الوجود العربى الدولى » فى ذلك الوقت فى قاع سحيق من الضعف وعدم القدرة على التأثير !

ثم تقرر تكوين لجنة استقصاء من احدى عشرة دولة

وقررت أغلبية اللجنة تقسيم فلسطين الى دولتين : احداهما عربية ، والاخرى يهودية ، يجمعهما اتحاد اقتصادى

وفى يوم ٢٩ نوفمبر عام ١٩٤٧ ، صوتت ٣٣ دولة بما فيها أمريكا ، والاتحاد السوفييتى فى صالح هـــذا القرار . وصوتت ضده ١٣ دولة : الست دول العربية الاعضاء فى ذلك الوقت ، وأربع دول اســـلامية هى : باكستان ، وأفغانستان ، وايران ، وتركيا ، وثلاث دول لا هى اسلامية ولا عربية ، وهى : الهند ، واليونان ، وكوبا . وامتنعت عن التصويت عشر دول من بينهـــا انجلترا

وفرح الصهيونيون واليهود فى كل مكان . بينما أعلن العرب انهم لن يقبلوا القرار ، وانهم سوف يقاومونه بكل الوسائل ..

***

فى صفحات قليلة يطوى بن جوريون قصـــة الحرب التى نشبت عقب انسحاب انجلترا من فلســـطين بين الدول العربية واسرائيل .. وأعلانه قيام دولة اسرائيل فى اجتماع كبير بتل أبيب .. والبيان الذى أذاعه بذلك

من محطة الاذاعة السرية التى كانوا قد اعدوها لتصبح اذاعة علنية فى تلك الليلة.. بينما كانت الطائرات المصرية تقذف قنابلها فى أول غارة على تل ابيب .. ثم أحداث القتال ، والهدنة الاولى ، ثم الهدنة الثانية .. ثم تكون اسرائيل بعد هذه الخطوب عند حدودها الحالية « التى يقول : انها أضافت الى اسرائيل فوق نصيبها المقدر فى قرار التقسيم بما يصل الى الثلث » ، ثم كل الاحداث السياسية حتى عام ١٩٥٣ ، حين قرر أن يستقيل من رئاسة الوزارة ويعتزل فى قرية « سـدى بوكر » فى صحراء النقب ..

ولا أظن اننا فى حاجة الى سرد ما رواه عن هـذه الاحداث . ذلك أن الاحداث نفسـها معروفة . ولكن المهم هو أن نقف عند « طريقة بن جوريون » فى سرد هذه الاحداث ، والنظر الأمين الى هذه الطريقة يثير الملاحظات التالية :

* يكشف بن جوريون منذ البداية عن نواياه تجاه قرار التقسيم ، الذى يتظاهر باحترامه ، حين يقول : انه تلقى قرار التقسيم بمشاعر مختلطة . صحيح ان هذه أول مرة تعترف فيها المنظمة العالمية بقطعة أرض لاقامة دولة عليها لليهود . ولكنه يرى ان هذه القطعة لا تكفى ، ثم انها مجزأة تربط بينها ممرات تقع تحت رحمة الارض التى تركها القرار للعرب

ثم انها تحرم اسرائيل من مساحات شاسعة فى النقب

وهذه النية هامة ، فهى تكشف عن ان خطة اسرائيل الحربية للتوسع عام ١٩٤٨ ، لم تكن عقوبة استدعتها الظروف الخارجية وحدها ، وتؤكد ان اسرائيل لا ترى حتى هذا الذى حصلت عليه خاتمة لآمالها . انما هو

فى رأيها خطوة ، يجب التوسع بعدها ؛ كلما سنحت الظروف

* ان بن جوريون يحاول أن يصور الأمر على ان انجلترا والعرب كانوا يقفون فى جهة ، والحركة الصهيونية التى تطورت الى دولة اسرائيل وحدها فى الجهة المقابلة . فالقارىء الحسن النية لا يلبث أن يعجب بهذه القوة الصهيونية الصغيرة التى هزمت تحالفا من سبع دول عربية ودولة كبرى ، هى بريطانيا ..

فهو يريد أن يقلب « الصورة الاستعمارية » الحقيقية التى كانت موجودة فى المنطقة وقتذاك ، مصورا اسرائيل على انها كانت فى موقف القوة الاستقلالية التحررية التى تحاول أن تدافع عن نفسها ضد قوة استعمارية وبريطانية ..

والواقع هو عكس ذلك تماما ..

فالحقيقة الاستعمارية البسيطة فى المنطقة فى ذلك الوقت هى : ان انجلترا كانت الدولة التى تستعمر المنطقة بجيوشها ونفوذها على السواء ، بما فى ذلك فلسطين نفسها . وانه تحت سمع الدولة الاستعمارية وبصرها وبتشجيعها فتحت أبواب اسرائيل للهجرة « الشرعية » وغير الشرعية وصدرت التصريحات تلو التصريحات ـ بدأت من وعد بلفور ـ لخلق أسس قانونية لايجاد كيان يهودى على أرض عربية . أما اذا تحرك العرب فهنا تتصدى لهم هذه القوى الاستعمارية بالضرب والقهر والكبت ..

فالشعب العربى هو الشعب الذى كان واقعا تحت سطوة الاستعمار : يرى جزءا من بلاده يقتطع منه ببطء دون أن يقدر على شىء

دون أن يقدر على شىء : بسبب التخلف الاقتصادى

والاجتماعي المفروض عليه . وبسبب الحكومات العميلة التى نصبها الاستعمار ومنحها « وهم » الاستقلال لا حقيقته . وبسبب الجيوش المصطنعة التى كان كثير من ضباطها انجليزا ، وكان مصدر تسليحها وشريان حياتها انجليزيا . وبسبب الوجود الاستعمارى الصريح ممثلا فى قوات الاحتلال العسكرية فى هذه البلاد العربية

لم تكن انجلترا والعرب اذن فى صف ، ووكالة بن جوريون فى صف .. انما كانت انجلترا تقف وقد كبلت العرب بكل القيود ، تشهد النمو الصهيونى فى تشجيع مستتر ..

و « حادث الحرب » ليس وحده هو الذى صنع اسرائيل انما صنعتها كل الاحداث السابقة منذ الحرب العالمية الاولى ووعد بلفور : وفى خلال هذا كانت انجلترا تضرب بقوة السلاح كل محاولة لأى نمو عربى فى المنطقة نحو الاستقلال ، بينما كانت تسمح للوجود الصهيونى بأن ينمو ويتبلور يوما بعد يوم ..

واذا كان قد بدا ، فى اللحظات الاخيرة ، ان انجلترا قد أصبحت « عصبية المزاج » فى وجه السياسة الصهيونية وأنها حاولت أن توقف المد الصهيونى عند ذلك : فذلك لان الحركة الصهيونية قد كشفت فى هذه الساعات الاخيرة عن انها تخطت السياسة الانجليزية بالفعل . وانه بعد أن كان الظن فى الدولة الجديدة أو الكيان الجديد أنه سيكون تابعا لانجلترا كفلسطين القديمة ، بصورة أو بأخرى ، ظهر أن ولاءها قد انتقل نهائيا الى أمريكا ، وأنها تهدف الى الاستقلال التام وطرد الانجليز ، فأصبحت بذلك تشكل حقيقة جديدة مربكة لانجلترا فى فترة ما بعد الحرب باضطراباتها وبما ظهر خلالها من تشقق فى بناء الامبراطورية البريطانية كله ..

* وكما أن بن جوريون يحاول أن يزيف وضع القوى الاستعمارية فى المنطقة ، فهو يحـاول أن يظهر القوى الدولية الكبرى ـ وفى مقدمتها أمريكا ـ وكأنها قامت فى هذه المأسـاة بدور ثانوى ، بينما قام بن جوريون والستمائة ألف يهودي فى فلسطين بالعبء كله . وهذا أيضا تصوير مضلل لحقيقة ما حدث . ان مهارة الحركة الصهيونية ولا شك هى أنها استطاعت أن تنظم قوى اليهودية العالمية حيثما كانت لتأييدها . وانها استطاعت من خلال هذه اليهودية العالمية أن تضغط وترجو وترشو وتلح وتنذر وتساوم وتضلل حتى تمكنت من تحويل الدول الكبرى الى موقف تبنى القضية الصهيونية ..

وهنا بالذات يبدو فشل العرب الحقيقى خلال تلك الفترة : فقد تمكنت الصهيونية من اقناع دول العالم انها قوة لها حسابها فى ميزان الصداقة أو العداء ، بينما اعطى العرب عن انفسهم ، بحـكم كل ظروف التخلف والاستعمار ، صورة الذى لا يكسب أحد من صداقته ولا يخشى أحد من عداوته ..

ولكن هذا كله شيء .. وكون الصهيونية هى التى تولت بقوتها الذاتية تحقيق اغراضها فى فلسطين شيء آخر ..

فالقوى الدولية التى سمحت بالهجرة غير الشرعية من قلب أوروبا الى شاطىء البحر ، ثم سمحت للسفن المشحونة بالسفر فىالبحر المتوسط تحت سمع الأساطيل وبصرها ، ثم أمرت بايقاف القتال ساعة تحرج وضع اليهود بالهدنة الاولى ، ثم سمحت باستمرار القتـال ساعة قوى ساعد اليهود بعد الهدنة ، ثم سمحت بتخطى اسرائيل حدود التقسيم رغم قرارات الامم المتحدة ، ورغم مصرع رجل الأمم المتحدة « فولك برنادوت » . هـذه القوى الدولية التى كانت توجه ، على لسان ترومان ،

انذارات مدوية بضرورة قبول مائة ألف مهاجر يهودى في فلسطين قبل آخر السنة والتى كانت فى نفس الوقت من خلال عملائها وسلطانها ووجودها المسلح فى البلاد العربية تدمر كل رد فعل جدى ازاء هذه الأحداث : هذه القوى بمصالحها السياسية والاستراتيجية الكبرى هى التى قامت وقتها بالدور الاساسى فى ايجاد اسرائيل ، وهي الخصم الحقيقى الذى تمكن آخر الامر من قهر العرب

ونضال العرب فى السنوات التى تلت ١٩٤٨ ، ضد الاستعمار والرجعية العميلة فى شتى صورها ، كان أحد بواعثه الدرس الذى تلقاه العرب من مأساة فلسطين ذاتها

* ويحاول بن جوريون أن يستفيد الى أقصى الحدود من قصة الهجرة العربية من فلسطين : فهو تارة يدلل بها على جبن العرب وتفككهم .. وتارة يحاول أن يبث فى القارىء شعورا بأن عامة العرب كانوا راضين بالتقسيم حين يقول ان العرب بدأوا يهاجرون تلقائيا من المناطق التى جعلها مشروع التقسيم جزءا من دولة اسرائيل .. وتارة يصف الأمر ، بشكل غير مباشر ، وكأنه تقلص الظلمة أمام انتشار النور والحضارة

والواقع أن مأساة الهجرة تحتاج الى دراسة مستقلة خاصة بها . ولكن الذى يمكن أن يقال فى هذا المجال ، هو أنها بالفعل كانت حدثا خطيرا وظاهرة ذات دلالة بعيدة المدى ، يفسرها بضعة أشياء :

ـ يفسرها ، ولنعترف ، تخلف الأمة العربية حضاريا • بينما كان المجتمع الفلسطينى العربى صورة من المجتمع العربى فى كل مكان : زراعيا اقطاعيا بدائيا ، بعيدا عن العمل الصناعى والتنظيم النقابى والزراعة العلمية المنظمة والنظرة العلمية التنظيمية فى كل شيء ،

كانت الموجة الصهيونية الغازية مزودة بهذا كله تسندها قوى دوليـــة استعمارية عديدة ، الأمر الذى أكسبها ساعة الصدام الحاسم ميزة كبرى لا شك فيها

ـ ويفسرها القيادة الخاطئة الجاهلة التى منى بهـا العرب . قيادة لم تتمكن من أن تعطى خط السلوك والتصرف لجماهيرها ، وهل تبقى أو ترحل ، بل ان هذه القيادات كانت تبدو مشجعة لهذه الهجرة ، جاهلة أنها ببقاء العرب فى أماكنهم انما تجعل قيام اسرائيل كله امرا شبه مستحيل ، رغم كل الظروف

ـ ويفسرها ، وهو اعتبار أساسى وان كنت قد أبقيته حتى النهـــاية ، ان الصهيونيين جعلوا المدنيين الآمنين هدفا أساسيا لهم ، فارتكبوا ضدهم المذابح الشـــهيرة فى دير ياسين وغيرها ليجعلوا بقاءهم مستحيلا : فهم ايضا من خريجى مدرسة هتلر الوحشية واللا أخلاقية كالنازيين سواء بسواء

بعد ذلك ، يقفز بن جوريون فى كتابه الى أحــداث حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، وهجوم اسرائيل على شبه جزيرة سيناء خاتما به الكتاب ..

وهو فصل اشبه بقصة من صميم الخيال ..

فقد روى الأحداث على أن اسرائيل هى التى هجمت وهى التى حاربت وهى التى قررت متى تتقدم ومتى تتراجع ..

ولكن ، لسوء حظ بن جوريون ، فان كتابه صدر فى نفس الاسابيع التى صدرت فيها كتب أخرى أحــدثت ضجة كبرى ، خصوصا كتاب « السويس : سرى جدا » للمؤلف الاسرائيلى ميشيل بن زوهار ..

وهو الكتاب الذى يشرح قصة الفصل التالى ..

الفصل
الثامن

حرب السويس

- إيدن يطلب الإذن بالهجوم على مصر
- ٣ خطط لغزو مصر .
- طبع أوراق بنكنوت مصرية في فرنسا .
- التخلص من عبد الناصر .
- متى تقرر اشتراك إسرائيل ؟ .
- معاهدة "سيفر" السرية .
- بن جوريون يطلب تدمير الطيران المصري قبل أن يدخل الحرب .

لا يمكن الفصل بين قصة اسرائيل ، وقصـــة حرب السويس ..

وحتى الآن ، ما زالت هناك موجة طاغية جديدة من الكتابة — فى أوروبا وأمريكا واسرائيـــل — عن حرب السويس ، والكتب الجديدة تصدر مثقلة بأسرار بالغة الخطورة والغرابة .. ويؤدى نشرها بالتالى الى ضجة كبرى وجدل عنيف . ولا يمكن أن يعيش القارىء هنا فى عزلة عن هذه الاسرار والمنازعات التى تهمه فى الدرجة الأولى ..

ثم ان اذاعة هذه الأسرار الخطيرة ، عما كان يدور فى واشنطون ولندن وباريس وتل أبيب وغيرها ، بصرف النظر عن خطورة هذه الأسرار وغرابتها ، فان فيهـــا دروسا لا تقدر بثمن .. انها تعلمنا كيف تدور عجلة الفكر والعمل فى الدوائر السياسية والعسكرية العليا فى تلك البلاد

يضاف الى ذلك أن كثيرا من القوى التى حركت أداة الحرب ضدنا ، بسبب تصادم مصالحها معنا ، ما زالت فى مراكز الحكم أو التأثير فى الحكم فى بلادها ، وما زالت

بعض مصالحها تصطدم بنا .. فالقصة لم تذهب بكل ذيولها بعد ..

ومن أبرز وأخطر الـكتب التى ظهـرت عن حـرب السويس أخيرا كتابان :

الاول : كتاب « دالاس والسويس » للمؤلف الامريكى هيرمان فينر ، الذى ثارت بسببه ضجة عنيفة فى البرلمان الانجليزى ، جعل المعارضة تطالب سلوين لويد بالاستقالة .. لأن الكتاب يسجل انه كذب على البرلمان البريطانى حين قال انه لم يتآمر مع اسرائيل على الهجوم ضـد مصر ، فى حين أن المؤلف يروى أن سلوين لويد طار الى باريس سرا وقابل بن جوريون هناك قبل الغزو بأيام

وقد سئل المؤلف ، فى برنامج تليفزيونى ، عن مصدر هذه الواقعة . فقال : انه سمعها من كريستيان بينو ، وزير خارجية فرنسا فى ذلك الوقت ، والرجل الثالث الذى كان فى الاجتماع السرى .. مع سلوين لويد ، وبن جوريون ..

وفى باريس اتصلت جريدة لوموند بالوزير الفرنسى السابق ، وحاولت أن تسأله عن صحة الواقعـة .. فرفض أن يكذبها !

والكتاب الثانى هو : « السويس : سرى جـدا » للمؤلف الاسرائيلى « ميشيل بن زوهار » ، وهو كتاب يذيع أدق الأسرار وأخطرها عن خطة الغزو والمؤامرات التى سبقتها ..

والمؤلف الأول حاقد طول الـكتاب على دالاس لأنه يعتقد أن دالاس هو الذى عرقل الهجوم على مصر زمنا طويلا ، فلما وقع الهجوم فعلا ، تخلى عن حلفائه ، مما جعل عبد الناصر ينتصر .. الأمر الذى يندم عليه المؤلف ندما شديدا ..

والمؤلف الثانى ، يرى فى تآمر اسرائيل السرى مع بريطانيا وفرنسا صفحة مشرقة .. يزهو بها

ولكن تبقى بعد ذلك الفائدة الكبرى للمعلومات الخطيرة التى يدليان بها ..

ان الكتاب الأول يركز على الجانب السياسى الدبلوماسى

والكتاب الثانى يركز على جانب التآمر والتنفيذ ..

الكتاب الأول يروى القصة عن أمريكا

والكتاب الثانى يرويها عن لندن وباريس وتل أبيب

ولهذا آثرت أن أقدم الكتابين ـ بل الوثيقتين ـ معا فى سرد واحد لانهما يرويان قصة واحدة ..

ربما كانت حرب السويس تعد « حربا صغيرة » اذا قيست بعدد الأيام الخاطفة التى استمر فيها القتال المسلح ..

ولكنها كانت « حربا » بأوسع معانى هذه الكلمة واخطرها : اذ تعرضت فيها أقدار دول كبرى ودول صغرى للخطر .. وتعرضت فيها مبادىء النظم السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية للامتحان .. كما تعرض العالم كله ـ فى بعض مراحل الحرب ـ لكارثة محققة

وكل يوم ، تفتح الأسرار عن جوانب أخرى فى هذه القصة التى لم نعرف كل جوانبها بعد ..

والكثير جدا مما يحدث فى عالم اليوم ، ترتب فى الواقع على الأحداث الكبرى لهذه الحرب القصيرة : حرب السويس

يقول ـ مثلا ـ هيرمان فينر ، مؤلف الكتاب الأول : انالنزعة الاستقلالية فى أوروبا ، التى يمثلها ديجول ، والتى تريد ألا تكون تابعة لأمريكا .. قد أصبحت عقيدة

لدى دوائر أوروبية كثيرة ، منذ تجربة حرب السويس ، وما يسميه المؤلف خيانة دالاس لحلفائه الأوروبيين ، واخضاع مصالحهم لمصالحه .. أى مصالح أمريكا ، كما تصورها ..

وكأى حرب ، كانت هناك أحداث جسيمة أدت الى وقوعها ، بل جعلت نشوب الحرب حتميا ..

هذه الأحداث ، كما تكشف عنها هذه الكتب هى :

ـ صفقة الاسلحة بين مصر والاتحاد السوفييتى

ـ حلف بغداد ووقوف مصر فى وجهه

ـ ارتباط مصر بمساعدة الثورة فى الجزائر

ـ اعتراف مصر بالصين الشيوعية

ـ السد العالى ، وسحب دالاس العرض الخاص بتمويله ، ثم تأميم عبد الناصر لشركة قناة السويس ردا على ذلك

بل ان من يتأمل أثر هذه الأحداث فى العالم الخارجى ، وما كان يدور بسببها وراء الكواليس فى لندن وباريس وواشنطون وتل أبيب يجد انه كان من المستحيل ألا تقع الحرب ! ..

ولما كانت هذه الأحداث ليست ، هى فى حد ذاتها الموضوع الرئيسى لهذا الحديث ، فلا بأس أن يكون المرور بها سريعا خاطفا ، بقدر ما يقف بنا ـ فى وضوح ـ عند بدء مؤامرة الحرب ذاتها ، وما أحاط بها من أسرار عجيبة ..

فهذه الأحداث أو المعارك التمهيدية التى أدت الى الحرب ، كانت لها ردود فعل مختلفة لدى أربع دول هى أمريكا وبريطانيا وفرنسا واسرائيل . كل دولة منها لها خط يسير مع مصالحها السياسية . وفى بعض الظروف

كانت هذه الظروف تتفق ، وفى ظروف أخرى كانت تختلف وتتناقض وتضطرب ..

***

فبالنسبة لبريطانيا ، يكشف الكتاب الاول « دالاس والسويس » عن انها كانت أول دول الغرب تنبها الى خطر عبد الناصر والثورة المصرية عليها .. فصفقة الاسلحة قوت عبد الناصر ، وأخرجت مصر من دائرة الخضوع فى تسليحها للغرب . ومعركته ضد حلف بغداد عزلت انصار بريطانيا الى حد بعيد . وهكذا كانت بريطانيا أول الدول تفكيرا فى التدخل المسلح ضد مصر ..

يروى الكتاب ان انطونى ايدن طار الى واشنطون فى فبراير سنة ١٩٥٦ ، أى قبل سحب عرض السد العالى وتأميم القناة ، حيث قابل ايزنهاور وجون فوستر دالاس وطلب منهما ان تشترك امريكا مع بريطانيا فى عمل مسلح ضد عبد الناصر . وكان الأساس الذى استند اليه فى هذا الطلب هو أن عقد صفقة الاسلحة السوفييتية فيه خرق « للبيان الثلاثى » . وهو البيان الانجليزى الفرنسى الأمريكى الذى أعلنت فيه الدول الثلاث وصايتها على الحدود القائمة فى الشرق الأوسط

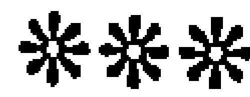
ولم يكن دالاس اقل انزعاجا من صفقة الاسلحة .. بل ان الكتاب يروى انه ساعة سمع النبأ صاح فى أعوانه قائلا « هذا أخطر حادث دولى منذ حرب كوريا ، بل منذ الحرب العالمية . ولكن دالاس مع ذلك رفض قبول طلب ايدن . وتذرع فى ذلك بأن أى استخدام للقوات الامريكية المسلحة يحتاج الى اذن من الكونجرس ، وهو امر بالغ الصعوبة ..

وقدم ايدن لايزنهاور ودالاس ما يثبت أن عبد الناصر هو سبب كل « المشاكل » فى العراق ولبنان وسائر

البلاد العربية .. ولكن الجانب الامريكي ظل متمسكا بموقفه ..

وعندما عاد ايدن الى بلاده ، لم يخف دالاس ارتياحه من هذا التطور ، وقال لأعوانه أن ايدن كان يقف أشبه بالوسيط المعتدل بين الاتحاد السوفييتي وأمريكا ، فالآن قد اضطرته ظروف الشرق الأوسط الى طلب الالتصاق بأمريكا والوقوف معها فى عمل مشترك ..

ومن ساعتها ، بدأت توجد حفرة من الشك بين ايدن ودالاس ، حتى اصبحت مع أحداث السويس هوة عميقة



أما بالنسبة لأمريكا ، فالكتابان يصوران لنا كيف أن سياستها فى تلك الفترة كانت مزيجا من عناصر شتى : فالدبلوماسيون الأمريكيون ينصحون بالتفاهم مع عبد الناصر ومهادنة الحركة العربية بوجه عام. والصهيونيون وبعض الزعماء الامريكيون فى الداخل يؤيدون خطا معاكسا. وبريطانيا وفرنسا تشكوان من مصر باستمرار. وايزنهاور لا يريد الحرب بأى ثمن ، خصوصا كلما اقتربت معركة انتخابات الرئاسة . ودالاس تضطرب فى نفسه عوامل شتى : من تركيز على معركته المقدسة ضد الاتحاد السوفييتي • ونفورا من الارتباط المطلق بمصالح أمريكا وشك فى اسرائيل . وغيظ مستمر من تمرد عبد الناصر . ورغبته فى تحقيق ما يريده ايزنهاور فى عدم نشوب أى قتال ..

على أن أهم عمل ايجابى قام به دالاس فى تلك الفترة هو ولا شك سحب العرض الأمريكى الخاص بتمويل السد العالي ..

فازاء تذمره من تمرد عبد الناصر ، خصوصا بعد

اعترافه بالصين الشيوعية ، والضغط المسلح عليه من حلفائه الغربيين لتأديب عبد الناصر قبل أن تستشرى النار ، وبحثه عن وسائل أخرى غير الحرب ، بدت فكرة سحب عرض السد العالى وكأنها تلبى كل هذه الحاجات

صحيح أن جورج همفرى وزير مالية أمريكا كان قد قدم رأيا قاطعا ضد تمويل السد العالى على أساس أن مصر لا يمكن أن تنهض بالتزامات مثل هذا المشروع . وصحيح أن بعض نواب الجنوب طلبوا عدم ابرام القرض لأن السد العالى سيزيد المساحات المزروعة قطنا ، مما يؤدى الى منافسة القطن الامريكى « !! »

وصحيح أن بعض حلفاء أمريكا « تركيا وايران وباكستان » احتجوا على مساعدة أمريكا لدولة محايدة تقاوم أمريكا . وصحيح أن اعتراف عبد الناصر بالصين الشيوعية كان قد هيأ الرأى العام الامريكى لمثل هذا القرار . ولكن المؤلف مع ذلك يعتقد أن هذه كلها « أسباب » للقرار . ولكنها لا تعبر عن كل « دوافع » جون فوستر دالاس : ان الدافع الاكبر هو الرغبة فى تأديب هذا الضابط المصرى ، حديث العهد بالسياسة الذى يثير الاضطراب فى كل مكان ، ويهدد الغرب ويرهبه ، ويرفض المساومة

***

وقد أخذ دالاس رأى حلفائه فى سحب العرض ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق اختيار الوقت ، والكاتب يسجل كيف أن دالاس بقى ، الى ما قبل اعلان القرار للسفير المصرى فى واشنطون بساعات ، وهو غير مجمع رأيه على قرار حاسم ..

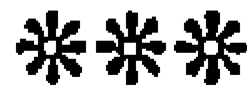
ويروى المؤلف أن بريطانيا وفرنسا كان لهما موقفان محددان من قصة سحب القرض ..

فقد ذهب كوف دى مورفيل ، سفير فرنسا فى أمريكا فى ذلك الوقت ، الى دالاس وقال له : انه يحذر بشدة من الاقدام على سحب القرض . وقال له انه كان سفيرا فى القاهرة سنوات طويلة ويعرف عبد الناصر جيدا ويعرف انه سيرد ردا عنيفا على هذا العمل .. :

وأشار كوف دى مورفيل الى أن رد الفعل قد يؤثر على قناة السويس .. ولكن دالاس استبعد الفكرة ساخرا ..

أما بريطانيا ، فقد وافقت على سحب القرض ولكن سفيرها قال لدالاس «Play it long» .. أى ليكن السحب على دفعات . فلا يقول لمصر : لا ! ولكن يقول ان الأمر يحتاج الى اعادة بحث . ثم يتراجع تدريجيا ..

ولكن دالاس اختار الطريقة العنيفة ، طريقة الرفض القاطع فى اللحظة التى يلحق فيها السحب أكبر الضرر بعبد الناصر ، لأنه فى رأى المؤلف كان تحت تأثير الدافع الذى سبقت الاشارة اليه : دافع توجيه الضربة بقصد الاهانة والتأديب ..



يروى المؤلف انه عندما كان دالاس يقول للسفير المصرى أحمد حسين « ابحث عن فلوس السد فى روسيا ! » بلهجة المنتصر ، كان هناك اثنان ينتظران نهاية المقابلة ليتناولا معه طعام الغداء : هنرى لوس صاحب مجلة تايم وجاكسون صاحب مجلة فورتشن . وقد رأى الاثنان أن دالاس جاء اليهما فى أعظم حالات الغبطة والابتهاج . وأبلغهما الخبر وكأنه يبلغهما قصة « ضربة معلم » وجهها الى الاتحاد السوفييتى ومصر معا .. فلا الاتحاد السوفييتى قادر على تمويل السد ولا مصر قادرة على الرد .. وقال لهما فى عرض الحديث ،

فخورا بنفسه : « ناصر يهددني ؟ .. لست أنا !! » ..
.. هكذا ، لم يكد دالاس يعرف من أخيه ألن دالاس مدير المخابرات الامريكية فى ذلك الوقت أن عبد الناصر قد أمم شركة قناة السويس ، حتى احتقن وجهه ، وغضب غضبا لم يسبق له مثيل ..

والمؤلف يقول : ان خبر التأميم كان صدمة حياته

ونترك دالاس عند صدمة التأميم ، لنعود اليه بعد أن نستكمل باقى الخيوط ..

وقد بقى أن نعرف خط سياسة فرنسا ، وخط سياسة اسرائيل فى نفس هذه الفترة ..

وهنا يجب أن نسرد الخطين معا : اذ ولدت من التقائهما أول فكرة محددة عن غزو مصر .. ولذلك كان لهذا الجزء أهمية خاصة فى التمهيد للأحداث المقبلة الدامية

وفى هذه النقطة بالذات ، سوف أعتمد أساسا على الكتاب الثانى «السويس : سرى جدا» للكاتب الاسرائيلى ميشيل بن زوهار

عندما ألقى حلف بغداد ظله على الأحداث فى الشرق الاوسط ، كان هم فرنسا أن يفشل الحلف ، انه طريقة لنشر السيطرة البريطانية نهائيا على المنطقة كلها ، بعد الاجهاز على نفوذ فرنسا المتبقى فى سوريا ولبنان

هكذا توجهت فرنسا ـ فيمن توجهت اليهم ـ الى اسرائيل تسألها سؤالا صريحا : هل أنت مع الحلف ، أم ضد قيامه ؟

وردت اسرائيل قائلة : ان خصومها الحقيقيين هم مصر وسوريا !

كانت اسرائيل تنظر الى المسألة من زاوية واحدة : ان الحلف لايفيد مصر ، ولكنه يفيد العراق ، وأعداء اسرائيل الأساسيون هم أعداؤها الرابضون على حدودها

مباشرة . فكانت اسرائيل ترى فى الحلف صدمة لا شك فيها لمصر أساسا وللعرب بوجه عام . ففى الحلف دول معترفة باسرائيل مثل تركيا وايران . ودولة أخرى غير معترفة باسرائيل ولكن ليس لديها أى عداء نحوها وهى باكستان . يضاف الى ذلك ان الحلف يمزق الجبهة العربية ، وكل هذا ينطوى على فوائد كبيرة لاسرائيل بصورة أو بأخرى ..

ولكن اسرائيل محتاجة الى أسلحة فرنسا فهى تراوغ وتناور ..

واستمر هذا الموقف حتى طلبت فرنسا من اسرائيل أن تحدد موقفها نهائيا من الحلف : ضده ، أو معه . هكذا ، وقد أصبح ظهر اسرائيل الى الحائط ، بحكم اعتمادها الأساسى فى التسليح على فرنسا ، قالت بلسان موسى شاريت فى الكنيست ، انها ضد الحلف ، أرضاء لفرنسا . ولكن هذا الاعلان الكلامى لم يؤثر فى ترحيب اسرائيل الحقيقى بالحلف

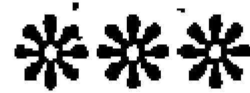
قال دبلوماسى اسرائيلى فى ذلك الوقت « فى كل مرة ، كنا نذهب الى وزارة الخارجية الفرنسية فى طلب أسلحة ، كان المسئولون الفرنسيون يرددون السؤال التقليدى : ولكن ما هو موقفكم أولا من حلف بغداد ؟ وفى نفس الوقت كان هناك وعد من بريطانيا بتسليم غواصتين الى اسرائيل ، فكنا نخشى أن تؤدى أية معارضة جدية منا للحلف الى الغاء هذه الصفقة ! .. »

المشكلة الأخرى التى ثارت بين فرنسا واسرائيل فى ذلك الوقت هى مشكلة هجرة اليهود من تونس والجزائر والمغرب . فمع اشتداد الحركة الاستقلالية هناك ، واحتمال حصول هذه البلاد على استقلالها ، نشطت اسرائيل لبث دعاية صهيونية بين يهود تلك البلاد ، بقصد

دفعهم للهجرة الى اسرائيل .. الأمر الذى أثار حفيظة فرنسا ..

قال موسى شاريت للمؤلف : « لقد غضبت فرنسا لسببين : السبب الأول هو ان هجرة واسعة بين السكان اليهود سوف توحى للجميع بأن الوجود الفرنسى هناك فى طريقه للزوال ، مما يزيد الضغط عليه . والسبب الثانى هو أن يهود شمال افريقيا كانوا دائما من العناصر الموالية لفرنسا والتى تعتمد عليها فرنسا ، ولا أحد يحب أن يرى العناصر التى يعتمد عليها تهاجر وتترك البلاد »

وفى تصريح أدلى به موسى شاريت وقتها لجريدة « لموند » قال : « ان الضمانات التى تتوافر لليهود فى تونس أو فى المغرب تحت الحماية الفرنسية لا تتوفر بنفس الدرجة فى تونس مستقلة أو فى مراكش مستقلة . ولذلك يجب أن تظل اسرائيل مفتوحة الذراعين ليهود شمال افريقيا »



ولكن أحداث الجزائر لم تلبث أن أصبحت القضية الأولى . بحيث أثبتت أن أثرها على الشرق الأوسط سيكون أعمق بكثير من أثر حلف بغداد ..

ففى عامى ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، أصبحت القاهرة مركزا رئيسيا للنضال ضد النفوذ الفرنسى فى شمال افريقيا . وأخذ صوت العرب من القاهرة يثير الخواطر ضد فرنسا .. « بشكل صدم حتى منديس فرانس الذى كان يأمل فى الوصول الى حل مع شمال افريقيا ! »

« .. ثم لم يلبث عبد الناصر أن استقبل فى القاهرة تحت راية الوحدة العربية ، قادة الثورة الجزائرية ، كما بدأ يزود جيش التحرير الجزائرى بكل وسائل

المساعدة فقد فتح لهم مخازن السلاح ، بغير حد .. »

وأخذت الصحف الفرنسية تنشر صورا تثبت أن بعض المقاتلين الجزائريين قد تدربوا فى القاهرة ، وبالتدريج بدأ اسم ناصر يستخدم كرمز لعداوة فرنسا ..

وكان من الطبيعى بعد ذلك أن ينتشر العطف على اسرائيل بين كل دعاة « الجـــزائر الفرنسية » وكل الفرنسيين وقتها كانوا من دعاة الجزائر الفرنسية ! .. ولم يلبث أن تم التقارب بين الموقفين « فرنسا فى شمال افريقيا واسرائيل فى الشرق الاوسط » كل منهما جزيرة من الحضارة الغربية ، ورأس جسر للعـــالم الغربى ، وسط بحر من الكراهية العربية »

« وشيئا فشيئا أخذ يتبلور الرأى القائل ان مساعدة اسرائيل وتسليحها هو الذى يجعلها تقهر عبد الناصر : ان ضرب رأس الثورة الجزائرية يقضي عليها . هـــذه الرأس اسمها ناصر ، وتوجد فى القاهرة ، ولا أحد يمكن أن يضربه هناك سوى اسرائيل »

ثم بدأ هذا الجو يقود الى خطط مشتركة

ففى بيت أحد الاصدقاء ، التقى اثنان من الرجال سرا : الأول فرنسى ، اسمه « آبل توماس » ويعمل مديرا لمكتب « بورجيس مانورى » وزير الداخليـــــة والمسئول مباشرة عن حرب الجزائر ، والثانى اسرائيلى هو « م . ناحمياس » المبعوث الخـــاص لوزارة الدفاع الاسرائيلية »

وبسرعة اتفق الاثنان على انه من مصلحة فرنسا أن تتقوى اسرائيل عسكريا ، ثم لم يلبث ناحمياس أن قابل بورجيس مانورى ، وفى المرة التاليـــة كان الذى قابل مانورى هو شـــــمعون بيريز ، وكيـــــل وزارة الدفاع الاسرائيلية ..

وكان اقناع الضبـــاط الفرنسيين ووزارة الدفاع الفرنسية سهلا : فالجيش هو الذى يقاتل فى الجزائر ويشعر أكثر من غيره بالحاجة الى حليف فى المعـركة المسلحة ..

كان ذلك فى أواسط عام ١٩٥٥ ، وهكذا بعد أن اطمأن الاسرائيليون لحلفاء أقوياء فى وزارة الدفاع الفرنسية فى « الجنرال كوينج » وزير الدفاع الذى قاتل معـه الضباط الاسرائيليون خلال الحرب العالمية ــ وجدوا فى بورجيس مانورى حليفا آخر بالغ الأهمية ، وقد جاء دليل أهميته وولائه لهم سريعا ..

***

فقد دق جرس التليفون يوما فى السفارة الاسرائيلية فى باريس ، وكان المتكلم هو « رجلنا فى مرسيليا » كما يقول المؤلف . وكان يقول ان السفن على وشك أن تشحن دفعة من الدبابات A.M. X 13 الى مصر . وكان قد تمت قبل ذلك الموافقة على توريد عدد من هذه الدبابات الى مصر والى اسرائيل على الســـواء ، وفى المجلس الوزارى الذى يجب أن يقر هذه الصفقة ، اســتطاع « انطواى بيناى » أن يسهل صفقة مصر ويعطل صفقة اسرائيـــل ، وعلى الفور وصلت الدبابات الى رصيف مرسيليا تمهيدا لشحنها الى مصر ..

وعلى الفور اتصلت السفارة الاسرائيلية « ببورجيس مانورى » وبالجنرال ليكونت » مدير مكتب « الجنرال كوينج »

واتصل مانورى بالجنرال كوينج ، الذى أصـــدر قرارا بعدم شحن أى سلاح الى مصر ، ووصل الامر الى مرسيليا ، حيث كان يوجـــد الـكولونيل عكاشـــة « الدكتور ثروت عكاشـــة الملحق العسكرى المصرى فى

فرنسا فى ذلك الوقت » وطار عكاشـــة على الفور الى باريس . وسأل وزارة الخارجية التى لم تكن تعرف شيئا عن أمر الجنرال كوينج ، واستجوبه « انطوان بيناى » نفسه فى الامر ، فرد عليه قائلا : نعم ، أنا الذى أصدرت الامر ، ولن أعدل عنه الا اذا شحنت دبابات اسرائيل فى نفس الوقت !

يقول المؤلف : ان الجو وقتها فى باريس كان معـاديا لمصر ، اذ كانت الصحف بالمصادفة ملأى بصور الاسلحة المصرية فى الجزائر ! ..

واحتدمت الازمة الوزارية ، وفى النهـــاية انتصر « كوينج » فقد شحنت دبابات اسرائيـــل ، وتلـكأت دبابات مصر

وظهـــرت الدبابات الفرنســـية فى عرض عسكرى اسرائيلى فى تل أبيب ، وبدأت الهمسات تترى عن قرب بيع طائرات ميستير واوراجان لها ، الامر الذى زاد من قلق البلاد العربية ..

لقد باعت فرنسا بالفعل ١٠٠ دبابة لاسرائيل وعددا من الطائرات . وفى خطابه يوم ٢ أكتوبر ذكر عبد الناصر هذه الارقام وهو يبرر عقده لصفقة الاسلحة مع الاتحاد السوفييتى

وقد ظلت المجموعة الفرنسية المؤيدة لاسرائيل تتزايد باستمرار ، مع تفاقم الحرب فى الجزائر

« .. اليمين الفرنسى ، رغم عدائه التقليدى الغامض للسامية واعتقاده بعدم دوام اسرائيـــل بدأ يحبهـــا ، والاشتراكيون الفرنسيون بدأوا يتعـــاطفون مع تجارب اسرائيل فىالزراعة والصناعة ومشروعات الهستدروت ، ثم هناك قضية الجزائر التى تضع البـــلدين فى موقف واحد من العرب . « لاكوست مثـــلا ، انه اشتراكى

ولـكنه أيضا الحاكم العام للجزائر ، فلديه سبب قوى لـكى يصبح مؤيدا لاسرائيـــل » . ثم هناك اليهودية الفرنسية . قال « جيلبير » السفير الفرنسى فى اسرائيل وقتها للمؤلف : ان اليهود الفرنسيين قد بدأوا يذوبون فى المجتمع الفرنسى منذ مطلع هذا القرن ، وبالتالى كانوا لا يحبون أن يعرفوا أى شىء عن الصهيونية ، وبعد وعد بلفور ، عندما أثار وايزمان الامر أمام مؤتمر فرساى ، ووقف سيلفيان ليفى ، ممثل اليهودية الفرنســـية ، وهاجم وايزمان والصهيونية هجوما عنيفا ، أن اليهودية الفرنسية لم تشأ أبدا أن تقوم اسرائيل .. لمــاذا ؟.. « لانها لم تكن صهيونية قط ، ولانها كانت تخشى من تهمة العدوان المزدوج التى تعرضت لها خلال الاحتلال فى الحرب العالمية الثانية »

ولكن هذا كله تغير مع استمرار اسرائيل ونجاحها ، ومع اقتراب سياستها وسياسة فرنسا « ولما كان جزء كبير من الصحافة الفرنسية والسينما الفرنسية مملوكا لليهود ، فقد أمكنهم أن يوسعوا الشعور المؤيد لاسرائيل بنجاح كبير » ..

فى فبراير عام ١٩٥٥ ، عاد بن جوريون من عزلته فى سد بوكر الى الحكم ، عاد بسبب ما سـماه ضـعف وسائل الدفاع الاسرائيلية . ثم لم يلبث أن أمر بالهجوم الاسرائيلى المشهور على أحد معسكرات الجيش المصرى بالقرب من غزة ..

وسرعان ما تعددت حوادث الحدود بين البلدين

هــل زادت حوادث التسلل المصرية الى اسرائيــل بسبب عنف الهجمات الاسرائيليـــة ؟.. أم ان عنف الهجمات الاسرائيلية كان بسبب زيادة حوادث التسلل ؟ انها حلقة مفرغة فى رأى المؤلف ..

المهم .. ان عبد الناصر أصبح فى حاجة الى السلاح. فرنسا لا تعطيه بسبب الجزائر . وبريطانيا وامريكا لا تعطيانه بسبب حلف بغداد .. وهكذا اتجه الى الاتحاد السوفييتى

هذه الصفقة الشهيرة سجلت موت « البيان الثلاثى » فى الشرق الاوسط ..

وازداد قلق اسرائيل ..

ان التقارير عن التسلح المصرى الجديد مخيفة . وسباق التسلح الذى بدأته اسرائيل كما يقول المؤلف نفسه ـ باللجوء الى فرنسا ـ قد انقلب عليها .. فحرب الفناء اذن قد تقع ولا بد لها من أسلحة أخرى حديثة سواء لاعادة التوازن أو للاستعداد لحرب وقائية ضد مصر ..

يقول المؤلف : « أسلحة لاعادة التوازن أو للجولة الثانية : تلك كانت الفكرة الطاغية على السياسة الاسرائيلية فى الشهور التالية . وهكذا بسبب المبادرة الاسرائيلية الى شراء الاسلحة تفجرت الاحداث حتى وصلت الى حرب السويس »

ان استقلال مصر بمصادر أسلحتها أصبح حقيقة كبرى قلبت كل حسابات الغرب واسرائيل ..

وأمام الكنيست ، وقف رئيس الوزراء الاسرائيلى الداعى الى التهدئة موسى شاريت ، يتكلم عن احتمال الحرب الوقائية . ويطلب السلاح من الجميع . ثم طار على الفور الى باريس حيث قابل وزراء خارجية الدول الكبرى وهم يستعدون لمؤتمر جنيف ، قابل ادجار فور ، وهارولد ماكميلان ، وانطوان بيناى . وتكلم مع مولوتوف بالروسية . كما قابل جون فوستر دالاس

وفى جو الاستعداد للحرب الوقائية ، عاد بن جوريون

الى تسلم رئاسة الوزارة ..

قال شاريت : انه فى نهاية أكتوبر عام ١٩٥٥ ، طلب من ادجار فور رئيس وزراء فرنسا ان تسلم فرنسا الى اسرائيل طائرات « ميستير ٤ » التى تستطيع ان تقاوم الميج التى حصل عليها عبد الناصر . فوافق ادجار فور ووعد بالمساعدة . ولكنه حين ذهب وقابل انطوان بيناى وجد هذا « رسميا ، باردا ، جافا »

***

ولكن بعد قليل ، عقد فى باريس مؤتمر لسفراء فرنسا فى الشرق الاوسط ، برئاسة انطوان بيناى

فى هذا المؤتمر ، كان السفراء الفرنسيون فى البلاد العربية يتزعمهم دى شايلا سفير فرنسا فى القاهرة ، يطالبون بمحاولة جديدة لتحسين العلاقات بين فرنسا والبلاد العربية . بينما كان جيلبير السفير الفرنسى فى اسرائيل ضد هذا الرأى على طول الخط .

وقرر المؤتمر سلوك الاتجاه الاول ، وعاد دى شايلا الى مصر يقول لعبد الناصر انهم لن يقدموا أسلحة الى اسرائيل بل سوف يرسلون أسلحة الى مصر، نظير ايقاف الحملة على فرنسا فى شمال افريقيا

يقول المؤلف : ان بيناى كان مستعدا لاى شىء مقابل أن تشترك فرنسا فى بناء السد العالى الذى كانت المباحثات بصدده قد بدأت بين مصر والدول الغربية..

يقول موسى شاريت للمؤلف : « ان وزارة الدفاع (أى بن جوريون) كانت ترفض رفضا مطلقا أن تدخل الظروف السياسية فى اعتبارها ، فعندما كنت أفاوض دالاس فى جنيف ، قامت هى بهجوم مفاجىء على « الكونتيلة » فى مصر ، فتغير موقف دالاس . وعندما كنت على وشك الحصول على صفقة أسلحة من فرنسا ،

هاجم الجيش مواقع سورية فى طبرية ، فقال لى انطوان بيناى : « كيف تهاجمون السوريين وهم أصدقاء لنا ؟ » وأمر بتأخير تسليم الاسلحة التى سبق الاتفاق عليها مع اسرائيل

ويقول المؤلف : انه من أبرز ملامح هـــذه الفترة فى باريس وتل ابيب على الســـواء ، الخلاف بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية فى كل من البلدين ..

فظروف اسرائيل جعلتهـــا تخضع كل شىء لمشكلة الامن وبالتالى لوزارة الدفاع . حتى أصـــبح المعيـــار الوحيد لصداقة أى بلد لاسرائيل هو مقدار ما تزودها به من اسلحة .. ونوع هذه الاسلحة ، لا اكثر ولا اقل

ويروى الـــكتاب كثيرا من القصص التى تشبه أحيانا الروايات البوليسية ، عن سعى اسرائيل للحصول على الاسلحة من فرنسا

بالنسبة لطائرات ميستير مثلا :

يقول المؤلف : ان أول وعد تلقتـــه اسرائيل ببيـــع طائرات « ميستير ٤ » لها ، كان من منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا عام ١٩٥٤

وعندما جاء ادجار فور فى رئاسة الوزارة بعد منديس فرانس ، كرر هذا الوعد ..

وتم بالفعـــل اعداد الطائرات . ودهنت بألوان دولة اسرائيل ، ووقفت فى المطار تنتظر الامر بالطيران الى تل أبيب ، ولـــكن احدى الصحف نشرت صورة لها ، واذا بالامر يشتهر والصفقة تتوقف ، ولم يعرف سفير اسرائيل بتوقف الصـــفقة الا حين ذهب لحفلة توقيع الصفقة !

وقيل له انه ظهر ان الطائرات الميستير لا يمكنها ان تطير من باريس الى تل ابيب دون توقف ، ولكن السبب

الحقيـــقى وفق معلومات المؤلف هو ان أمريكا تدخلت لايقاف الصفقة

وعاودت اسرائيل بذل الجهود ..

وذهب وزير فرنسي ـ لا يذكر المؤلف اسمه ـ الى ادجار فور رئيس الوزارة وقال له : « هل ترضى أن تضع طياريك فى طائرات أقل من « ميستير ٤ » ليواجهوا طائرات الميج التى حصل عليها عبد الناصر ؟ ..

وقال ادجار فور : بالطبع لا !

وتمت الصفقة ، فى ١٢ نوفمبر عام ١٩٥٥

كانت هـــذه نقطة تحول بالنسبة لاسرائيل ، ونقطة تحول فى علاقات اسرائيل مع فرنسا

ان « اخوة السلاح » تنمو بين البلدين

ولـكن ادجار فور قرر الاســـتقالة فجأة ، واجراء انتخابات عامة ..

وارتبكت خطط اسرائيل : فمن القادم يا ترى بعـد الانتخابات ؟ ..

يروى الـكتاب ان شمعون بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، والرجل المسئول عن هذه الصفقات كلها ، عاش فى فرنسا شهرا كاملا مع عشرات من معاونيه : اقتحم المعركة الانتخابيـــة فى فرنســـا كما اقتحمهـــا المرشحون . طاف بكل زعمـــاء الاحزاب والمرشـــحين البارزين يشرح لهم الموقف ، ويحصل منهم على الوعود، ويشرح لهم كيف ان الطريقة الوحيـــدة لضرب ثورة الجزائر هى التخلص من عبد الناصر ، والقاعدة الوحيدة للتخلص من عبد الناصر هى اسرائيل

يروى المؤلف : ان اجتماعات بيريز مع المرشحين كانت تتم أحيانا فى سيارة اللورى المـكللة بلافتات الدعاية التى يتخذها المرشح مقرا متنقلا له

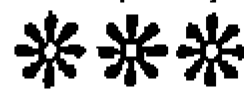
وعندما ذهب بيريز الى جى موليه فى دائرته الانتخابية ، وعده موليه بالمساعدة .. ويروى المؤلف أن بيريز قال لموليه : أرجو ألا تكون مثل اشتراكى آخر هو ارنست بيفن ، كان معنا وهو مرشح فلما تولى الحكم أصبح ضدنا .. يشير بذلك الى وزير خارجية بريطانيا السابق فى حكومة العمال ..

فرد عليه جى موليه قائلا : « كلا !.. سوف أثبت لك اننى لست مثل بيفن ! .. »

ومن أغرب ما حدث خلال تلك الفترة ، ان الحكومة الفرنسية أعطت بيريز ، وكيل وزارة الدفاع الاسرائيلية ، مكتبا ومقرا دائما لمدة شهر فى مقر رئاسة الوزارة الفرنسية بحجة احتياجه اليه لتنفيذ صفقة الاسلحة ومن هذا المقر الرسمى كان بيريز يتصل بشبكات عملاء اسرائيل المنتشرين فى أنحاء فرنسا ويدير « المعركة الانتخابية » الخاصة ، مستخدما مكاتب الدولة وتليفوناتها وتسهيلاتها

ونجح جى موليه فى الانتخابات ..

يقول المؤلف : ان وصول جى موليه الى السلطة كان نقطة تحول فى علاقة فرنسا باسرائيل .. وفى التمهيد للحرب



ذهب مئات آلاف المصريين الى الميدان فى الاسكندرية يستمعون الى الحل الذى وعدهم به عبد الناصر لتمويل السد العالى وفى ضحكة قصيرة ، أعلن عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس ..

وبينما كان الجنود المصريون يحيطون مكاتب الشركة فى الاسماعيلية ، والسويس ، وبورسعيد . كان سكرتير انطونى ايدن يقتحم عليه مأدبة العشاء التى أقامها تكريما

لفيصل ملك العراق ، ونورى السعيد. كان الامر مفاجأة له. أما فى فرنسا فيقول المؤلف : ان المخابرات الفرنسية كانت تشك فى الامر منذ أسبوعين

وفى نفس الليلة اجتمع الوزراء البريطانيون الكبار مع قادة أركان الحرب ، مع سفيرى أمريكا وفرنسا ، وفى يوم ٢٩ وصل « كريستيان بينو » الى لندن . وفى نفس اليوم وصل « روبرت مورفى » مبعوث ايزنهاور الخاص ، اذ كان دالاس متغيبا فى بيرو . وطلب سلوين لويد وكريستيان بينو من مبعوث ايزنهاور أن تشترك أمريكا مع الدولتين فى عمل حربى سريع للاستيلاء على القناة . وبدون انتظار أجلت فرنسا رعاياها عن مصر ، ثم تبعتها انجلترا بعد قليل ..

وبعد يومين كان قد تجمع فى ميناء « طولون » أسطول مبدئى للغزو : بارجتان وحاملتا طائرات و ٢١ مدمرة ، وست غواصات . وفى لندن كان يوجد « الاميرال نومى » ، قائد الأسطول الفرنسى ، لينسق العمليات الحربية بين الدولتين . وكان فى حساب الدولتين حتى هذه اللحظة ان أمريكا سوف تشترك معهما . ان الوقت ثمين . والدولتان تضغطان من أجل السرعة . ان الاستيلاء على قناة السويس فى رأيهما سوف يؤدى الى اسقاط عبد الناصر . وفى نفس اليوم الذى كانت انجلترا فيه تستدعى الاحتياطى ، كان « الكولونيل بريور » يهبط فى لندن ومعه كشف كامل بكل القوات الفرنسية التى سوف تشترك فى المعركة

قال ضابط فرنسى للمؤلف : « .. لمدة ثمانية أيام كانت القيادة الفرنسية والانجليزية تعمل فى نشاط هائل لبدء الهجوم .. ولكن فى اليوم الثامن جاءت مذكرة أجلت فكرة التدخل فورا ، وبعدها أخذ التعاون

الانجليزى الفرنسى شكل التمرينات العسكرية «فحسب»

***

وهناك تفسير لهذا الذى حدث ..

ففى أول أغسطس ، اجتمع فى لندن ايدن وجى موليه وجون فوستر دالاس . وقال دالاس لاول مرة بشكل نهائى حاسم : ان أمريكا لن تشترك فى أى عمل مسلح ضد مصر . وعلى الفور قال القادة الانجليز : ان القوة التى استعدت للغزو كان فى حسابها اشتراك قوة أمريكية معها . أما بعد هذا الموقف الجديد ، فهى غير كافيـة للغزو . ولذلك لا بد من التأجيل، للاستعداد من جديد ، على أساس عدم وجود قوات أمريكية

وقد روى انطونى ايدن بعد ذلك فى مذكراته ، ان فكرة التدخل المسلح فورا تأجلت لسببين : الاول عدم امكان تجميع قوة ضاربة كافية فى وقت قصير ، والثانى هو الامل فى الوصول الى حل سلمى

قال دالاس فى هذا الاجتماع : ان الحكومة الامريكية لايمكن ان تدخل فى عمل عسكرى بدون موافقة سابقة من الـكونجرس ، ثم اطلع الحاضرين على رسالة من ايزنهاور يطلب فيها المفاوضة أولا قبل البحث فى أى أسلوب آخر . والغريب ان المؤلف يقول : ان سـلوين لويد انضم أخيرا الى رأى دالاس ، بينما ظل بينو يلح فى التدخل الفورى

وأخيرا قبل الجميع فكرة دالاس فى اقامة مؤتمر دولى لبحث مشكلة قناة السويس ، على أن ينعقد المؤتمر فى ١٦ اغسطس ..

كان هذا فى رأى المؤلف هو أول انتصار لدالاس . فمنذ تلك اللحظة ، وطوال شهرين بعد ذلك ، ظـل يعارض أى محاولة للقيام بغزو مسلح ضد مصر ..

انعقد المؤتمر فى ١٦ أغسطس ، وانفض يوم ٢٢ ، بعد أن تبنى اقتراح دالاس بايجاد جهاز دولى يدير القناة ، وفى يوم ٣ سبتمبر سافر منزيس الى القاهرة حاملا هذا الاقتراح الذى قبلته ١٨ دولة من ٢٢ ، ولكن عبد الناصر رفض الاقتراح ..

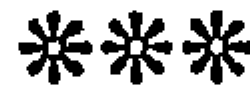
ولم يذعن دالاس لضغط انجلترا وفرنسا فخرج باقتراح جديد هو تكوين ما يسمى بجمعية المنتفعين بالقناة ، وقبل ايدن ومولييه مرة أخرى الذهاب الى مؤتمر لندن الجديد الذى عقد فى ١٦ سبتمبر . ولكن لما كان دالاس قد رفض مبدأ استخدام القوة فى تمرير سفن الدولة المنتفعة ، فلم يبق لدى المؤتمر فى حقيقة الامر أى شيء يقوم به . فلم يكد دالاس يترك العاصمة البريطانية الى جزر برمودا لقضاء بضعة أيام من الراحة ، حتى كانت انجلترا وفرنسا قد قررتا الذهاب الى مجلس الامن

ولم تكن انجلترا وفرنسا تشكان فى أن الفيتو الروسى سيقف فى وجهيهما فى مجلس الامن . ولكن ، كان هذا الاجراء مقصودا به فتح الباب لاستخدام القوة بعدذلك ، ولهذا كان دالاس يعارض حتى فى الذهاب الى الامم المتحدة ..

وقبل ترك هذه المرحلة ، أذكر ان الكاتب هرمان فيز قال : ان ايدن اقترح على دالاس أن يسافر هو على رأس البعثة الى مصر لمقابلة عبد الناصر بدلا من منزيس. أراد بذلك أن يرى دالاس بنفسه « تعسف » عبد الناصر وأن يعود ــ اذا رفض عبد الناصر ــ ثائرا لكرامته . ولكن دالاس اعتذر بحجة أن لديه أعمالا كثيرة فى واشنطون .. ووقع الاختيار على منزيس ..

فى خلال هذا كله ، كانت الاستعدادات الحربية قائمة

على قدم وساق ، فطوال هذه المباحثات والمفاوضات لم يغير الانجليز والفرنسيون رأيهم لحظة واحدة فى ضرورة التدخل المسلح . غاية ما فى الامر ، انهم بعد ان تأكدوا من ان أمريكا لن تشترك ، أعادوا الخطة القديمة الى القيادة العليا لتضع خطة جديدة ، تقوم بهـا الدولتان بمفردهما ..



وفى « البدروم » المحفور عميقا تحت أرض وزارة الحرب البريطانية ، حيث توجد قيادة العمليات الحربية ممتدة الى ما تحت أرض نهر التيمز ، عكف الجنرالات الانجليز والفرنسيون بغير انقطاع على وضع الخطـة الجديدة ..

وأطلق على القيادة المشتركة اسم سرى هو Terrapin وكان أعلى المسئولين يجهلون الامر كله ، باستثناء رئيسى وزارتى الدولتين وعدد قليل جدا من الوزراء . كانت هذه القيادة السرية ساهرة تضع الخطة تلو الخطة ، وعلى بعد أمتار منها مؤتمرات ومفاوضـات ومباحثات وساسة لايعرفون شيئا ..

ومنذ البداية ، قال الجنرالات انه يلزمهم سـتة أسابيع على الاقل لاعداد الحملة العسكرية ووضعها فى وضع الاستعداد للحركة ، وعلى ذلك فالغزو يمكن ان يبدأ فى منتصف سبتمبر ..

كانت الخطة الاولى التى أقيمت على أساس اشتراك أمريكا فيها قد أطلق عليها اسم Hamilcar أما هذه الخطة الثانية فقد أطلق عليها اسم موسكتير وتم وضعها فى وقت سريع جدا : آخر أغسطس

وكانت خطة موسكتير تقضى بالنزول فى الاسكندرية ، ثم شق الطريق رأسا الى القاهرة ، على اساس ان اسقاط

عبد الناصر هو الهدف الاساسى ، وفى دوسيهات ال Terrapin الى الآن المشروع الكامل للحكومة المصرية التى كانت ستحل محل عبد الناصر . وقد قام بعض عملاء فرنسا وانجلترا المجهولين باتصالات ببعض العرب المقيمين فى القاهرة . وتم طبع منشورات باللغة العربية لتلقى على مصر ، وتم فى فرنسا طبع بنكنوت مصرى لتستخدمه قوات الاحتلال ، وتم تخزين كل هذا فى مخازن سرية جدا ..

قصة غريبة تعيد الى الاذهان نفس خطة الانجليز القديمة ضد ثورة عرابى ..

ولكن خطة الموسكتير لم يقدر لها أيضا أن تعيش طويلا ، ففى سبتمبر بدأ اعداد خطة أخرى هى : الموسكتير المنقحة . ذلك ان الساسة حكموا على الخطة الاولى بأنه سيصعب تبريرها أمام الرأى العام ، اذ ستجرى العمليات الحربية فيها بعيدا جدا عن القناة ؛ التى هى ذريعة التدخل العسكرى . أما الخطة الجديدة فكانت تقضى بالنزول فى بورسعيد ، ثم الزحف على طول القناة الى السويس ، مع اندفاع قوة أخرى من القناة الى القاهرة لاسقاط عبد الناصر

وتبريرا للحملة ، كان المفروض أن تسافر قافلة من السفن الى القناة ، ثم ترفض دفع الرسوم للادارة الجديدة . وهنا سوف يمنعها المصريون من العبور ، فينفجر الخلاف ويبدأ الغزو . وللتأكد من ان المصريين سوف يمنعون القافلة ، رئى أن تكون من بين سفن القافلة سفينة اسرائيلية . وان المصريين حتما سوف يمنعون أى سفينة اسرائيلية من العبور . وفى تلك الاثناء كانت قوات الغزو تتجمع فى صمت فى قبرص ، ومالطة ، وبعض موانى شمال افريقيا .. والغريب ، انه رغم كل

الجهود البريطانية والفرنسية فى حشد «ارمادا» بحرية ، وتجميع اعداد ضخمة من الجنود وفرق الباراشوت والطائرات وسفن النقل حتى أصبحت قبرص كلها ترسانة مسلحة .. رغم هذا كله فقد كانت القوات دائما غير مستعدة تماما للقتال ..

لماذا ..؟

المؤلف يرجع السبب مرة أخرى الى أمريكا . فجون فوستر دالاس ـ كما قال كريستيان بينو بعد ذلك ـ كان يريد أى شىء الا أن يقع غزو مسلح فرنسى انجليزى قبيل انتخابات رئاسة الجمهورية فى أمريكا . وكان هذا يفت فى عضد الحشد العسكرى ، اذ يضطره الى أنواع من السرية تعطله ..

وكانت انجلترا بالذات هى التى بدأت يداها ترتعشان كلما فكرت فى موقف أمريكا . الامر الذى أغاظ فرنسا ، التى مضت فى حشدها بنفس النشاط وأخذت تلوم الجانب البريطانى على تأخره فى تنفيذ خطة الحشد العسكرية والتعلل بهذا السبب أو ذاك ..

***

اذن ، فما الحل ؟

قال الفرنسيون : « اذا كان يبدو أن الانجليز يترددون فلنجرب اسرائيل ! » ..

ولكن ، متى ذكر اسم اسرائيل لاول مرة ، فى هذه العملية كلها ؟ ..

فى غرفة العمليات الحربية ، بعيدا فى أعماق الأرض ، تحت مبنى وزارة الحرب البريطانية ، وبينما دخان السجاير منعقد ومختلط بالمناقشات . ثارت مشكلة ان عملية الغزو كلها ، ليس لها « قاعدة » قريبة من مصر قربا كافيا ..

وقال جنرال فرنسى ، شاء المؤلف أن يحتفظ باسمه سرا « ان اسرائيل هى أقرب أرض الى منطقة العمليات المقبلة ، فلماذا لا نجرب الاستفادة منها ؟ .. »

كانت هذه أول مرة ..

وعندما عاد الجنرال الفرنسى الى باريس ، وراجع رؤساءه فى الامر ، دهش حين وجدهم يوافقونه على المضى فى الاقتراح ! ..

وقد لامه بعض زملائه بعد ذلك بزمن ، اذ قالوا له لا شك انه كان يعرف ان اسرائيل فى العملية من قبل.. وان اقتراحه لم يكن بريئا !

والواقع ، كما يقول المؤلف الاسرائيلى ، انها كانت موجودة ..

ففى أول أغسطس عقد اجتماع بالغ السرية بين بعض الاسرائيليين وبعض كبار رجال وزارة الدفاع الفرنسية. وفى يوم ٧ أغسطس اجتمع هؤلاء الاسرائيليون مع هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى ، بحضور آبل توماس ، مدير مكتب بورجيس مانورى . وفى هذا الاجتماع تمت صفقة أسلحة ضخمة بالغة الاهمية . وتلك كانت الخطوة الاولى الاكيدة ..

فقد كانت فكرة التعاون بين فرنسا واسرائيل فى « موضوع السويس » بصفة عامة تنمو بسرعة فى اجتماعات القادة الفرنسيين والاسرائيليين . بل ان فكرة شن هجوم على مصر ، أثيرت مرة فى اجتماع تم بين بورجيس مانورى وزير الداخلية وشيمون بيريز فى يونيو السابق .. ثم ترددت الفكرة أكثر من مرة ، ولكن دون أن تتبلور فى صورة « عملية » محددة ..

فبعد أن أبرمت صفقة الاسلحة الروسية التى قلبت ميزان القوى ، بدأت اسرائيل تفكر فى «حرب وقائية»

سريعة . ولكن حتى بعد أن تضمن نجاح مثل هذه الحرب ، كانت اسرائيل توازن التفوق المصرى فى العدد بتفوقها فى النوع . فلما حصلت مصر على الاسلحة الحديثة ، أصبحت متفوقة على اسرائيل كما وكيفا ..

لهذا أصبحت اسرائيل تنظر الى فكرة الحرب الوقائية على انها ضرورة حتمية . وكلما سافر شاريت أو بيريز الى أوربا لشراء أسلحة ، خلال سنة ١٩٥٥ ، كان كل منهما يمر بفرنسا ليسأل حكامها : ماذا يكون موقفهم بالضبط ، فى حالة قيام اسرائيل بحرب مسلحة ضد مصر ؟

ولم يكن الفرنسيون يربطون أنفسهم بشىء ، ولكنهم كانوا يشجعون الفكرة . فالجنرال جيوم شجع الجنرال ديان . وجى موليه ، عشية الانتخابات العامة ، وعد بيريز بكل مساعدة ، وبورجيس مانورى وكل رجاله كانوا مع اسرائيل مائة فى المائة : اليمين الفرنسى كان يشجع بسبب دور عبد الناصر فى الجزائر، واليسار كان يشجع اسرائيل على أساس ان عبد الناصر هو هتلر آخر ، ولا يجب أن تقع ميونيخ أخرى ، هكذا قال جى موليه بالضبط . كذلك قال : « اننى أساعد اسرائيل لانها دولة اشتراكية توشك على الزوال كما زالت اسبانيا الاشتراكية فى وجه فرانكو سنة ١٩٣٦ لم نكن اقوياء ولهذا زالت اسبانيا ، أما سنة ١٩٥٦ ، فاننا أقوياء ، ولهذا لن تزول اسرائيل »

هكذا كان حكام الجمهورية الفرنسية الرابعة يشجعون اسرائيل : وبعضهم شجعها الى أبعد من هذا ، الى حد الاشتراك معها فى أى خطة ضد مصر ..

ولكن أمريكا كانت ، كما سبق ، تعرقل تسليم الاسلحة الى اسرائيل ..

كذلك كان موسى شاريت ـ فى رأى المؤلف ـ ضد أي محاولة غزو عسكرى . صحيح انه طرق كل الابواب لشراء الاسلحة . وانه اقتحم مؤتمر جنيف لفتح ملف اسرائيل أمام مولوتوف وايدن وماكميلان وبيناى وادجار فور .. للدفاع عن اسرائيل التى تعرضت للهجوم : فشاريت كان يعتقد دائما ان الامم المتحدة والقانون الدولى والرأى العام العالمى تشكل كلها عقبة خطيرة فى وجه مثل هذا العمل . وان الدول الاسيوية الافريقية بالذات سوف يكون رد فعلها غاية فى السوء . وشاريت يعتقد دائما أن العالم الاسيوى الافريقى يمكن أن يكون عالما صديقا لاسرائيل « مسالمة » لا محاربة ، وانه يمكن أن يسهم فى تحويل علاقة اسرائيل بالعرب

ولكن شاريت كان الاضعف . فكان عليه أن يرضخ لبن جوريون أو يرحل . وقد آثر أن يرحل ، فاستقال يوم ١٨ يونيو ١٩٥٦

قال بن جوريون يومها : ان المخاطر الجديدة توجب خلق انسجام كامل بين وزارتى الخارجية والدفاع . ان وزارة الخارجية فى حاجة الى قيادة جديدة تماما . ولهذا يجب على شاريت أن يستقيل

وبهذا بدأت اسرائيل تستعد جديا لشن الحرب : حرب وقائية صغيرة اما أن تفرض بها الصلح على العرب واما أن تضمن لها الهدوء بضع سنوات أخرى ..

وفى هذه الظروف جاءت أزمة السويس

يؤكد المؤلف هنا : ان الازمة لم تغير موقف اسرائيل. فاسرائيل كانت ستشن هجومها المسلح على مصر على أى حال . ولكن أزمة السويس سهلت لها أصعب مهمة وهى الحصول على الاسلحة بكميات وفيرة ..

ليلة ٢٦ يوليو .. نفس الليلة العجيبة التى أعلن فيها عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس كان شيمون بيريز فى باريس ..

وفى اليوم التالى ، واسم مصر يملأ كل الصحف ، ذهب بيريز الى وزارة الخارجية الفرنسية وفى ذهنه سؤال واحد : هل يغير هذا الحادث ، أخيرا ، برود وزارة الخارجية الفرنسية تجاه اسرائيل ، ورغبتها المستمرة فى التفاهم مع العرب ؟

ولكنه خرج بلا نتيجة ..

ومن يومها ، لم يطرق بيريز باب وزارة الخارجية . بل ان اتصالات اسرائيل كلها برئيس الوزارة ووزير الحربية والقيادة الفرنسية جرت فى سرية تامة عن وزارة الخارجية.من يومها لم تعرف وزارة الخارجية الفرنسية شيئا ..

قال كريستيان بينو : « كانت الكاى دورسيه تعارض السويس . ان أحدا فيها لم يعرف السر أبدا . بل اننى كنت أذهب الى الاجتماعات الخاصة بهذا الموضوع بمفردى ، وأنا أقود سيارتى بنفسى ، وأنظر خلفى حتى أتأكد من أن أحدا لا يتبعنى »

فاذا اجتمع بينو بأحد فى بيته .. اجتمع به فى الشقة الخاصة .. وفى حجرة نومه بالذات .. حتى لا يثير الشبهات !

ولكن ، حتى ذلك الوقت لم تكن فكرة التعاون العسكرى فى عملية حربية قد طرحت . صحيح أن خطوات خطيرة كانت قد اتخذت ، ولكن عدا هذه الخطوة ..

من هذه الخطوات الخطيرة : انشاء « قيادة عسكرية سرية» تختص بموضوع العلاقاتالفرنسية الاسرائيلية !

ولـكن فرنسا ، طوال هذا الوقت ، كانت ماضية فى السر فى تخطيطها المشترك مع انجلترا ، محتفظة باسرائيل فى يدها الاخرى . لربما تحتاج اليها اذا فشل تخطيطها مع انجلترا لسبب أو لآخر . واسرائيل نفسها لم تكن تفكر فى عمل عسكرى مشترك : انها تريد فقط الاسلحة لتتابع حربها الخاصة بها ..

كل ما كان يعرفه بينو هو : ان اسرائيل تريد الاسلحة لتقوم بحرب منفردة ضد مصر ، عندما يصل انشغال أمريكا بانتخابات الرئاسة الى أقصاه ..

وهكذا تمت الصفـقة الـكبرى للأسـلحة فى ذلك الاجتماع السرى ، يوم ٧ أغسطس ..

وعرف ان انجلترا تؤيد هذه السياسة ..

وبعيدا عن أى أجهزة أخرى فى الدولة كان جى موليه وبينو ، وبورجيس مانورى ، والقيـادة العسكرية .. يفاوضون الاسرائيليين رأسا ، ويعطونهم كل ما يشاءون من سلاح . « وأصبح هذا الامر روتينيا عاديا . ان فرنسا واسرائيل لهما الآن هدف موحد تماما ، هو : « قهر مصر » . فلم تعد هناك أى عقبة على الاطلاق ، تعرقل تسليم الاسلحة الى اسرائيل

وفى سبيل تسهيل تسليم الاسلحة الى اسرائيـل ، لجأت الحكومة الى أساليب لا سابق لها ولا مثيـل فى تاريخ الدول ..

فاذا كان الاتفاق الاول ينص على تسليم ٢٤ طـائرة مستير .. فبتزوير بسيط فى الاذن ، يتحول الرقم الى عشرات ومئات ..

أو يستخدم نفس الاذن ، أكثر من مرة ، وفى كل مرة تسلم مصانع « مارسيل داسو » ــ الرجل الذى خطفت احدى العصابات زوجته فى باريس منذ مدة ــ ما تحتوى

عليه الاذون المزورة .. بنـــاء على تعليمات صريحة من الحكومة الفرنسية ..

وكانت الطائرات تهبط فى شـــمال افريقيا ، أو فى برنديزى فى ايطاليا . بعد أن أغمضت حكومة ايطاليـا عيونها على « هجرة هذه الطيور النفاثة الى اسرائيل » على حد تعبير المؤلف .. !

يروى السفير الفرنسي فى اسرائيل « جلبير العقيد » انه كان يقف فى مطارات اسرائيل مع بيريز ، ومع ليفى اشكول رئيس وزراء اسرائيل الحالى ووزير المالية فى ذلك الوقت ، يرقصون طربا لمشـــهد وصول الطائرات « المستير ٤ » .. وكلما هبطت طائرة ، صاح بيريز فى وزير المالية : وهذه ربع مليون دولار أخرى وفرتهـــا عليك ! » ..

وعلى أمواج البحر ، تأتى سفن حربية فرنسية لتعزيز الســـلاح البحرى الاسرائيلى ، ثم يرتدى بحـــارتها الفرنسيون ثيابا مدنية ويتركونها فى تل أبيب ، ويعودون من طريق استانبول ، الى فرنسا ..

وخلال ليال طويلة ، تشحن الناقلات الضخمة الرابضة فى موانىء فرنسا بالدبابات ، والمدافع ، وصناديق قطع الغيار ، ثم تبحر تحت جنح الليل الى اسرائيل ..

أما على شواطىء اسرائيل ، فكانت السرية تتم بطريقة أخرى ..

كانت احدى فرق دبابات الجيش الاسرائيلى تأتى الى منطقة معزولة على الشاطىء وتعسكر فيها . وتقوم طول النهار بمناورات حامية ، حتى اذا جاء الليل ، اقتربت من الشاطىء تلك السفن الفرنسية المشحونة بالدبابات والمدافع . وتتم عملية التفريغ طول الليـــل ، وتبحر السفن . وتتحرك الاسلحة الجديدة الى النقب . دون

أن يعرف أهالى القرى الفرق بين أسلحة المناورات والاسلحة الجديدة ..

ومن أهم الاسلحة التى نقلت بكميات ضخمة ، مدافع SS-10 الصاروخية المضادة للدبابات ، التى أراد الغرب أن يجربها فى الدبابات السوفييتية خلال معركة سيناء ..

وقد بلغ من سرعة نقل الاسلحة ، وكثرة كمياتها ، أن فرنسا لم تسأل اسرائيل عن الرقم الحقيقى للأسلحة التى وردتها اليها ، الا بعد انتهاء حرب السويس كلها بشهور !

ولم تكن فرنسا حتى ذلك الوقت تفكر فى تحالف طويل المدى مع اسرائيل : ففى حالة ما اذا تقرر القيام بهجوم مع بريطانيا من قاعدة قبرص ، فساعتها كانت فرنسا سوف تشرح الأمر لحلفائها البريطانيين — أى أنها كانت تفضل أن يتم الأمر بدون اسرائيل . وهذا ما كان يقلق اسرائيل جدا ، التى كانت تريد أن تشترك فى الحرب ، لحساب نفسها

ولما يضيق صدر فرنسا باعتراضات دالاس ، وبتردد انجلترا ، كانت تميل بشدة الى فكرة القيام بحرب منفردة مع اسرائيل

كانت الاحتمالات هى : هجوم فرنسي اسرائيلى على حدود مصر من النقب . وهجوم اسرائيلى منفرد على الأردن لايقاف الانتخابات التى كانت على وشك الاجراء والتى كانت ستقرب ما بين الأردن ومصر . وارسال سفن الى القناة ، لتعترض مصر على مرورها ، وتكون الحرب الشاملة ..

كانت الخطط تتبلور فى بطء ، وفى ارتباك أحيانا ..

وفى ٢٠ سبتمبر هبط فى مطار تل أبيب وفد فرنسى

رسمى ، من بين أعضائه بالتأكيد آبل توماس والكولونيل مانجان ومع الوفد خطة عامة : أن تقوم اسرائيل بهجوم مباشر على مصر . أما مساعدة فرنسا فلن تقف عند حد الأسلحة « والتأييد الدبلوماسي فقط » بل ان سلاح الطيران الفرنسي والاسطول الفرنسي يمكنهما المشاركة فى تأييد الجيش الاسرائيلى وحماية اسرائيل من رد الأسلحة المصرية وقاذفات ناصر . ثم يصحب هذا التدخل مباشرة تدخل انجليزى فرنسى على أرض مصر ، مع انزال قوات مشتركة . أما الموعد التقريبى المحدد ، فهو أول نوفمبر »

وتكونت فى فرنسا « حكومة داخلية » لهذه الحرب من : جى موليه رئيس الوزراء ، بورجيس مانورى وزير الحربية ، كريستيان بينو وزير الخارجية ، لاكوست حاكم عام الجزائر « ! » وشابان دالماس رئيس مجلس النواب . وفى رواية أخرى أن دالماس كان يجرى اخطاره بالخطوط العامة فقط ، بسبب علاقته بديجول ، حتى يكون الجنرال على معرفة بالأمر ..

كانت « حكومة الحرب » هذه قد اقتنعت بعد فشل مهمة بعثة منزيس وفكرة جمعية المنتفعين بالقناة أن التدخل المسلح بحجة القناة أصبح صعبا ، فلم تبق حجة لهذا التدخل الا قيام حرب بين مصر واسرائيل ..

وتأكيدا للخطة ، قام جسر جوى بين باريس وتل أبيب : أسفار يومية يقوم بها الجنرالات الفرنسيون والاسرائيليون لدراسة الخطة واستكمالها . أبرز هؤلاء كانوا : الجنرال شال وجوهر من فرنسا ، نفس الجنرالين اللذين قادا العصيان المسلح فى الجزائر ضد ديجول ، ثم حكم عليهما بالسجن بعد ذلك ، وموشى ديان وبيريز وبن ناثان من اسرائيل ..

وفى مبنى وزارة الدفاع الفرنسية ، شـــارع سان دومينيك ، أقيمت محطة ارسال تكون على صلة دائمة بتل أبيب

وفى يوم ١٠ أكتوبر ، تم الاتفاق على كل التفاصيل : بما فى ذلك نقل ورشة فرنسية كاملة لاصلاح الطائرات من « ريمش » الى اسرائيل ..

كل هذا وفرنسا واسرائيل يؤرقهما شىء هام هو : موقف انجلترا ..

ان عدم اشتراك انجلترا فى الهجوم معهما يعطيها حرية تصرف تسمح لها بعرقلة كل شىء ، لو أرادت

ثم ان اسرائيل كانت تضع فى مقدمة شروطها للهجوم على مصر : تدمير كل المطارات المصرية من أول يوم ، منعا لحركة طائرات عبد الناصر .. وفرنسا ليس لديها قنابل حديثـــة ، فى حين أن بريطانيـــــا تملك قاذفات « كانبيرا » الشهيرة ..

وكانت انجلترا تعرف بأن ثمة مفاوضات بين اسرائيل وفرنسا . ولم تكن تعترض . ولكن بقى أن تلتقى أطراف المثلث الثلاثة وجها لوجه انجلترا وفرنسا واسرائيل

وانطلق كريستيان بينو يعمل !

كانت هناك اذن عمليتان منفصلتان، كل منهما تستعد لغزو مصر . عملية اسرائيلية ــ فرنسية ، وعمليـــــة فرنسية ــ انجليزية ، وقد حاول الانجليز أن تنفـــذ العمليتان منفصلتين ، حتى لا تتهم بالتآمر مع اسرائيل ، بينما صممت اسرائيل على أن يلتقى الثلاثة وجها لوجه ، ويعملون معا .. وهذه هى القصة ..

***

فى نهاية سبتمبر ، وصل الىاسرائيل ضابط انجليزى يهودى اسمه الكولونيل روبرت هنريك . وعلى الفور

ذهب الى لقاء بن جوريون

كان يحمل رسالة سرية جدا من الحكومة الانجليزية تقول : ان انجلترا تحذر اسرائيل من أى هجوم على الأردن . وهى تبلغ اسرائيل انه لا مانع لديها ، فى حالة هجوم انجلترا على مصر ، أن تبادر اسرائيل بدورها بالهجوم . فى هذه الحالة سوف يكون على انجلترا أن تستنكر ـ علنا ـ هجوم اسرائيل على مصر ، وتستنكره بكل شدة .. ولكنها ساعة ابرام الصلح تتعهد بأن تحصل على أحسن شروط ملائمة لـ « اسرائيل !! »

استمع بن جوريون الى هذه الرسالة وسكت

ان انجلترا تعرف نصف الحقيقة . تعرف أن هناك تحالفا مسلحا بين فرنسا واسرائيل ، ولكنها لا تعرف أكثر من ذلك .. لا تعرف أن التحالف يشمل « القيام بعمل عسكرى مشترك » .. فقد كان الجانب الفرنسي يخاف أن تفضل انجلترا فى اللحظة الاخيرة عدم المغامرة بمصالحها فى البلاد العربية فتعدل عن الحرب ، لهذا آثر أن يبيتها فى الظلام

وقد صدق ظن الفرنسيين ..

فبعد فشل شكوى انجلترا وفرنسا ضد مصر فى مجلس الأمن ، طار ايدن وسلوين لويد الى باريس يوم ٢٦ . كان يبدو انهما تراجعا عن فكرة الحرب وأخذا يبحثان عن مخرج كريم من الأزمة كلها

وكان لدى ايدن اقتراح محدد :

ان هناك انتخابات على وشك أن تجرى فى الاردن . وكل التقارير تدل على أن أصدقاء عبد الناصر سوف يكتسحونها . والحل هو أن تدخل القوات العراقية ، قوات نورى السعيد الاردن ، وتمنع الانتخابات وتخلق ظروفا جديدة تسمح بضم الاردن الى حلف بغداد ، ان هذا سيكون ضربة قاصمة لعبد الناصر ذهب ايدن الى

حد القول بأنها قد تسقطه فى مصر . أو على الأقل تنتقم من تأميم شركة القناة . وفى ظل هذا يمكن التفاوض معه بشأن القناة ..

ولكن هذه الخطة تحتاج الى مساعدة فرنسا .. كيف ؟ .. ان فرنسا عليها أن تقنع اسرائيل بعدم الاعتراض على دخول القوات العربية الى الاردن ..

ولكن جى موليه رد على طلبات ايدن ردا عنيفا ..

قال له : ان هذا كله حل لا تجنى فرنسا أو اسرائيل من ورائه شيئا . ولو ضغطت فرنسا على اسرائيل على هذا النحو فلن تقبل اسرائيل أن تشترك مع فرنسا مرة أخرى فى عمل ضد عبد الناصر . ثم ان القيام بانقلاب فى الاردن لا يؤدى الى اسقاط عبد الناصر ، واسقاط عبد الناصر هو الهدف الرئيسى للسياسة الفرنسية الآن ..

وبعد مناقشات دامت عشر ساعات ، لم يصل الطرفان الى شيء . ولكن هذا الحوار كان له أثر واحد : هو اندفاع فرنسا أكثر وأكثر فى طريق الاعتماد على اسرائيل ، حتى وصلت الى اتفاق ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .. الذى سبق أن أشرت اليه ..

أما اسرائيل ، فمضت فى تحرشاتها على طول الحدود الاردنية : لقد اكتشفت أن هذا يساعد على تحويل الأنظار عن ترتيباتها لغزو مصر . وفى منتصف أكتوبر ، سكتت انجلترا بدورها على هذه التحرشات ، اذ كانت قد انضمت الى فرنسا واسرائيل ، واكتمل المثلث

وطار بينو ومعه الجنرال شال الى لندن يحاولان اقناع انجلترا مرة أخرى . ولكن الذى أقنع انجلترا نهائيا — فى رأى المؤلف — هو تأكدها أن اسرائيل مصممة نهائيا على الهجوم على مصر . ففى يوم ١٥ أكتوبر ، وفى وسط اتجاه الأنظار الى الاصطدامات على حدود الاردن ،

قال بن جوريون : « لا يجب أن ننسى أن العدو الأول لنا هو مصر » . وبعد ساعات من هذا التصريح ، كان ايدن يتصل تليفونيا بموليه ويخطره انه آت الى باريس فى اليوم التالى

وفى غرفة مغلقة ، اجتمع ايدن ولويد وموليه وبينو . وبعد انتهاء الاجتماع طارت الى بن جوريون برقية سرية تقول له « تستطيع أن تثق تماما من موقف بريطانيا »

لقد نشر فى الصحف صبيحة هذا الاجتماع ، أن موضوعه كان أزمة الحدود بين الاردن واسرائيل . وهذا غير صحيح . ففى هذا الاجتماع اتخذ قرار خطير : الهجوم على السويس !

ففى هذا الاجتماع ، أخطر الفرنسيون ايدن ولويد عن نية اسرائيل الحاسمة للهجوم . وبعد تردد طويل ، ورفض من جانب لويد ، قبل ايدن الاشتراك فى الغزو ..

أما حجة الغزو ، وهى ارسال سفينة اسرائيلية الى القناة تقوم مصر بمنعها من المرور ، فقد رفضها الانجليز بتاتا . ثم قبلوا أن تكون ذريعة التدخل هى « حماية القناة من القتال بين مصر واسرائيل »

واتفق الطرفان على أن يتم فى هذه الحالة تنفيذ الهجوم طبقا لخطة « موسكتير المعدلة » وقد أشرت اليها أيضا من قبل ..

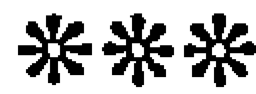
واشترط الانجليز ، الا يقوم أى تنسيق بينهم وبين اسرائيل ، انما تنفرد فرنسا فى التآمر مع اسرائيل ، وتظل انجلترا بعيدة تماما عن المؤامرة ، انما تشترك مع فرنسا فقط فى القسم الثانى وهو : التدخل فى القناة لحمايتها من القتال !

كان هم الانجليز : ألا يتورطوا فى أى عمل يقيم الدليل على تآمرهم مع اسرائيل ، خشية أن يعصف هذا بمصالحهم فى العالم العربى

ولكن مع تقدم الخطة ، وضرورات التنسيق ، لم يكن هناك مفر من انغماس انجلترا مع اسرائيل فى المؤامرة ذاتها ..

صاح وزير فرنسى فى المؤلف « الانجليز لا يعرفون عن اتفاقنا مع اسرائيل ؟ كيف ؟ .. اننـــا لم ننفرد باسرائيل بعد ذلك فى أى اجتماع الا نادرا ! » ..

قال بول جونسون مؤلف كتاب « حرب السويس » : انالبرقيات الفرنسية الاسرائيلية التىالتقطتها المخابرات الامريكية تؤكد علم انجلترا بكل التفاصيل » ..



منذ ١٦ أكتوبر ١٩٥٦ ، بدأت أداة الحرب المثلثـة تدور بسرعة .. فى مقر القيادة البريطانية ، يعاد النظر فىخطة « موسكتير » لتلائم المنظر الجديد : منظر التدخل « للفصل » بين قوات مصر واسرائيل . اجراءات أمن هائلة . برقيات الشرق الأوسط تنقل من الخارجيـــة وتصبح فى يد السكرتارية الخاصة لرئيس الوزراء بمفرده .. دبلوماسيون كثيرون انجليز تنقطع عنهم كل المعلومات عن الشرق الاوسط . خبير فىالوزارة فى الشئون العربية يمنح اجازة طويلة .. عدد آخر من الرســميين تأتيهم دعوات مفاجئـــــة للسفر الى الخارج وترك العاصمة البريطانيـــة حتى لا يعرفوا ويعارضــوا . سير والتر مونكتون وزير الدفاع يستقيل يوم ١٨ أكتوبر لأنه عارض فى الغزو ، فيحل محله انطونى هيد المتحمس للقتال ..

وفى يوم ١٧ أكتوبر تستدعى اسرائيل سفراءها من لندن وباريس وموسكو وواشنطن . ويقوم حاجز من الكتمان حول سفراء أمريكا وملحقيها العسكريين فى لندن وباريس وتل ابيب .. الملحق العسكرى الامريكى فى تل أبيب يكتب الى حكومته ملاحظا ان الملحقين الانجليزى

والفرنسي قد انقطعا عن رؤيته وبدءا يتشاوران ويسافران بمفردهما . بعد أن كان الثلاثة على اتصال دائم .. المخابرات الامريكية فى روما تلاحظ زيادة غير عادية فى البرقيات الشفرية المتبادلة بين باريس وتل أبيب ..

من واشنطن ، يصف المؤلف الآخر ، هيرمان فينر نفس اللحظة فى العاصمة الامريكية : دالاس غاضب ثائر على توقف انجلترا وفرنسا عن تداول معلوماتهما مع أمريكا كالعادة . لا تقارير قط تأتى من سفرائه فى لندن وباريس .. وهو لا ينقطع عن ابداء شكوكه فى الأمر

وفى نفس الوقت بدأت تحركات كبرى لتركيز القوات الفرنسية الانجليزية فى قبرص ومالطة : فى وضع استعداد حاسم أمام بورسعيد ..

ويسأل الضباط الانجليز : ما هو موعد الغزو ؟ .. فيقول لهم الساسة سنخطركم قبله بأسبوعين ! ..

والواقع أن الموعد ظل يتأرجح زمنا طويلا . كان الموعد المفضل هو يوم ٦ أو ٧ نوفمبر ، أى يوم انتخابات الرئاسة فى أمريكا بالضبط . ولكن تحديد الموعد فى النهاية تم بطريقة درامية مثيرة ..

***

فى احدى الليالى هبطت فى مطار اسرائيل الطائرة الضخمة «DC 4» التى كان الرئيس ترومان قد أهداها للجنرال ديجول . ونزل منها الكولونيل مانجان . وبعد ساعات كانت الطائرة تعود الى فرنسا وتهبط فى مطار « فيلا كوبلاى » الحربى بالقرب من باريس ، وينزل منها ثلاثة اسرائيليين ..

وصاح جى موليه الواقف عند سلم الطائرة : كيف لا يعرف الناس بن جوريون بشعره المنكوش الابيض وموشى ديان بالعصابة السوداء على عينه ! ..

وكان معهما أيضا سيمون بيريز ، وعلى الفور توجه الجميع الى بيت قريب منعــزل ، تحت كتمــان مطلق وحراسة مشددة ..

لماذا جاء بن جوريون الى باريس فى هــذا الوقت ، وبهذه الطريقة التى دمغت المؤامرة كلها أمام التاريخ ؟.. لماذا وقد أصبح كل شيء معدا للعمل ؟ ..

قال جى موليه بعد ذلك مرة : « لم يكن ممكنا ان اقدم على هذا العمل الخطير دون أن أرى بن جوريون وجها لوجه »

وقال مرة أخرى : « لقد جاء بن جوريون يقول لى : ان عبد النـــاصر لديه ١٢٠ طائرة ميج و ٨٠ طائرة اليوشين ومعنى هذا ان اسرائيل ستضيع ! لقد انقذت اسرائيل فى عام ١٩٥٦ » !

ولكن ألم ترسل فرنسا طائرات الميستير الى اسرائيل بكميات وفيرة من قبل ؟ ..

الواقع أن بن جوريون قد وجد فى اللحظة الأخيرة ان هذا كله ليس كافيا ! .. ان مصر تملك قاذفات قنابل مخيفة أسرع من الصوت . فى دقائق تستطيع أن تكون فوق تل أبيب وحيفا وبئر سبع وتدمرها دون أن يكون لدى اسرائيل أى دفاع ضدها ..

وقرر بن جوريون ألا يتحرك قبل أن يضمن « مظلة جوية » تحميه . ان انجلترا وفرنسا ستتدخلان حقا بعد أن يشتبك هو مع القوات المصرية بقليل ولكن ماذا عن الساعات الأولى ، التى ستكون فيها اسرائيل بمفردها ضد مصر ؟ .. ماذا عن « الصدمة الاولى » للقتال مع مصر ، واسرائيل وحدها ؟ ..

ثم .. الانجليز ؟ .. هل يضمنهم بن جوريون حقا ؟ أو انهم يمكن أن يتخلوا عنه فى اللحظة الاخيرة ؟ ..

وبسرعة تأكد بن جوريون من جي موليه واطمـأن : ستزوده فرنسا بمظلة جوية وبحزام بحرى

ومع ذلك لم يطمئن • بل طلب طلبا اخر : طلب تدمير كل المطارات المصرية فى الساعات الاولى للقتال ••

ولكن فرنسا ليس لديها طائرات من قاذفات القنابل البعيدة المدى •• لابد من الحصول على طائرات «كانبيرا» الانجليزية • فهل يرضى الانجليز ؟ ••

بعد ساعة ونصف ، وصلت المؤامرة الى قمتها ، فقـد انطلقت السيارات بالفرنسيين والاسرائيليين الى بيت قريب فى منطقة « سيفر » فى ضواحى باريس ، حيث التقى الكل بسلوين لويد وعدد من أقرب مساعديه ••

فى أول اكتوبر تم اتفاق فرنسا واسرائيل

فى منتصف اكتوبر تم اتفاق فرنسا وانجلترا

الان ، يتم لقاء الثلاثة معا ، فى مكان واحد ••

أخيرا ، التقى الانجليز ، أساتذة فن المراوغة ، وجهـا لوجه مع بن جوريون ، الامر الذى كانوا لا يريدونه قط

كان ذلك يوم ٢٣ اكتوبر • وبعد اللقاء مباشرة طار سلوين لويد الى انجلترا وترك مسـاعديه • وبقى بن جوريون في فرنسـا يومين ، حتى جـاء رد لويد الى مساعديه ••

لقد تم الاتفاق فعلا على تدمير المطـارات المصرية في الساعات الاولى حتى تتوفر الحمـاية لاسرائيل •• وتم الاتفاق على صيغة الانذار الفرنسى البريطانى الذى سيوجه الى مصر واسرائيل • وعلى موقف الدولتين فى الامم المتحدة • واتفق أيضا على تقديم موعد الغزو : فروسيا مشلولة بحكم أحداث المجر ، وأمريكا مشلولة بحكم انتخابات الرئاسة •

وعلى هذا تقرر انتهاز الفرصة وأن يكون الموعد هو ٢٩ أكتوبر ..

تم الاتفاق من ثلاث نسخ . ولا شك أن انجلترا وفرنسا قد أحرقتا الآن نسختيهما اللتين تدلان على أغرب مؤامرة فى التاريخ الحديث

ولكن المؤكد أن بن جوريون يحتفظ بنسخته الثمينة ، عليها توقيع سلوين لويد ، فى مكتبه ! ..

وفى اليوم التالى عاد بن جوريون الى تل أبيب ، وأعلنت اسرائيل التعبئة العامة ، وأخطرت القيادة الفرنسية البريطانية بموعد الغزو . وتحركت فعلا عجلة الحرب ..

وقفة قصيرة ، قبل استئناف القصة مع المؤلف عند هذه اللحظة التاريخية الرهيبة . اللحظة التى تورط فيها المتآمرون حتى قمة رءوسهم ..

يتساءل المؤلف :

ـ ما هى الأهداف التى يريد الغزاة تحقيقها بهذه الحرب التى يستعدون لها ؟ .. ما الذى دفعهم الى هذا الموقف البالغ الخطورة ؟ ..

يجيب المؤلف :

ـ بالنسبة لاسرائيل الهدف بسيط وواضح :

ضرب قوة الجيش المصرى . وتدمير الأسلحة الروسية المكدسة . والقضاء على مواقع « الفدائيين » الذين يتسللون منها الى اسرائيل ، وقتل القيادة العسكرية المشتركة « المصرية السورية الاردنية » وهى فى المهد ، تلك القيادة التى كان يجب أن تصبح قائمة ابتداء من يوم ٢٨ أكتوبر أى قبل الغزو بيوم واحد . كذلك كانت اسرائيل تريد كهدف بعيد المدى : اسقاط حكم عبد الناصر واقامة حكم أكثر اعتدالا ..

ويزعم المؤلف ان اسرائيل ، لهذه الأسباب ، لم تكن مرتاحة الى اشتراك انجلترا وفرنسا معها فى الحرب . فهذا سوف يوسع المسألة . ويسلب اسرائيل ميزة احراز النصر بمفردها . فضلا عن ان هذا يربطها بقضية الدول الاستعمارية . انها كانت تفضل أن تخوض الحرب بمفردها، وانجلترا وفرنسا تساعدانها عسكريا وسياسيا من وراء ستار فحسب . ومع ذلك ، فهى ازاء المزايا الكبرى التىكانت تعود عليها منالغزو الثلاثى ، مستحيل أن ترفض هذه الشركة ..

وقد بقى أمر الحرب سرا ، الا بالنسبة لعدد قليل من وزراء حزبى « ماباى » و « احدوت افودا » . أما الباقون فلم يعرفوا الا يوم ٢٨ أكتوبر ، أى ليلة الغزو . وزارة الخارجية باستثناء جولدا مايير لم تكن تعرف . السفير الاسرائيلى فى باريس كان يعرف عن أمر التسليح لا غير

يروى المؤلف ان بن جوريون عقد اجتماعا لسفراء اسرائيل فى انجلترا وفرنسا وأمريكا يوم ١٧ أكتوبر . وفى أثناء المناقشة سألهم بن جوريون عرضا : « وماذا تظنون يكون رد فعل الدول الكبرى لو اضطرت اسرائيل الى مهاجمة مصر ؟ .. »

ورد السفراء جميعا قائلين : ان هذا سوف يكون كارثة ! .. وسوف تعترض كل الدول الكبرى على موقف اسرائيل

وكتب بن جوريون على ورقة أمامه « هل نقول لهم ؟ » وأعطى الورقة لجولدا مايير الجالسة معهم ، فردتها اليه بتعليق يقول : « قطعا لا » .. فلم يقل لهم شيئا ..

أما موسى شاريت ، رئيس الوزراء السابق ، فلم يعرف الا من نهرو ، اذ كان مجتمعا معه فى نيودلهى ساعة جاءت أول أنباء الغزو ! ..

هذا عن اسرائيل ، فلماذا ذهبت فرنسا الى الحرب ؟ يعدد المؤلف الأسباب بترتيب أهميتها كالآتى :

أولا ـ الجزائر ، فقد ظن الفرنسيون أن اسقاط عبد الناصر هو الطريقة الوحيدة لاخماد ثورة الجزائر

ثانيا ـ ان التأميم كان انتصارا « عربيا » ..

والعروبة فى رأى بعض الفرنسيين هى الخصم الأول لفرنسا فى العالم الاسلامى ..

ثالثا ـ شركة قناة السويس ومساهموها الأقوياء والصغار على السواء ، وقدرتهم على الضغط على الحكومة

رابعا ـ حاجة فرنسا النفسية الى نصر عسكرى بأى شكل بعد هزائمها الطويلة فى ساحات القتال من الهند الصينية شرقا الى المغرب العربى غربا

ان ايدن فى رأى المؤلف لم يكن متحمسا أول الأمر . وحين اندفع فى المغامرة تشققت من حوله الجبهات : فى داخل الوزارة ، كان يؤيده دنكان سانديز وماكميلان وانطونى هيد ، بينما كان يعارضه ناتنج ، ويعارضه بشدة ريتشارد بتلر «ولى العهد» داخل حزب المحافظين فى ذلك الوقت ، فى حين ظل سلوين لويد مترددا

وفى الجيش البريطانى أيضا كله ثمة أكثر من رأى . فريق يتزعمه لورد مونتباتن ويعارض الغزو أصلا . وفريق يتزعمه الجنرال تمبلر يؤيد فكرة الحرب ولكن يعارض فى الذهاب الى الحرب جنبا الى جنب مع اسرائيل ..

فماذا كانت العلاقة بين « الحلفاء الثلاثة » ؟

يقول المؤلف : ان التحالف والتفاهم بين فرنسا واسرائيل كان قويا للغاية . أما انجلترا فكانت هى العنصر القلق فى الحلف الثلاثى . كانت تشعر أن بين فرنسا

واسرائيل روابط لا تعرفها كلها . وكان هذا يقلقها . وفى نفس الوقت كانت لا تريد أن تدفع ثمن المعرفة ، وهو الاشتراك الكامل ، لأنها ظلت مهتمة بأن تتحاشى أى شىء ينم عن تآمرها مع اسرائيل مقدما خشية رد الفعل لدى العالم العربى

لهذا التقى الساسة الانجليز والاسرائيليون واتفقوا . ولكن العسكريين لم يلتقوا قط . فكان هناك حربان : حرب فرنسية انجليزية فى بورسعيد . وحرب اسرائيلية فى سيناء والانجليز مرتبطون بالاثنين .. ولكنهم يحاولون الا ينم اى شىء عن هذه الرابطة ..

ثم يقف المؤلف عند نقطة بالغة الأهمية : هل كانت أمريكا تعرف أن ثمة هجوما على سبيل اليقين ، وبالتالى كان فى امكانها ايقافه ، أم أنها لم تكن تعرف ؟ ..

يروى المؤلف ان وزيرا فرنسيا قال له :

ـ ان دالاس كان يعرف بالتأكيد : لقد حرصنا على أن نجعل الامريكان يعرفون .. بشرط الا يعرفوا بشكل رسمى ، حتى لا تكون لديهم ذريعة رسمية لتعطيل الهجوم : لقد كان الن دالاس ، أخوه ، يعرف بأن هناك ترتيبات ضخمة تتخذ للحرب ، هل معقول انه لم يقل له ؟ ..

اذن ، هل يكون ايزنهاور هو الذى قلب الأمور على الحلفاء ؟ ..

ازاء هذه الأسئلة ، أعود مرة أخرى الى الكتاب الأول « دالاس والسويس » ، الذى يروى القصة من الجانب الآخر للمحيط ، من الولايات المتحدة الامريكية ..

يقول المؤلف « هيرمان فينر » : ان أنباء الاستعدادات العسكرية المريبة كانت تتسرب بالفعل الى أمريكا ..

ففى باريس ، أسر وزير فرنسى بالانباء الى دوجلاس

ديلون وزير مالية أمريكا حاليا ، وسفيرها فى باريس فى ذلك الوقت ..

كما ان اشاعات الحرب ترددت ليلة فى ردهات البرلمان الفرنسى ، فأسرع نواب من « أصدقاء » السفارة الامريكية الى التليفونات ، يخطرونها بالأمر

كما ان بعض ضباط المخابرات الفرنسية عملوا على « تسرب » السر الى زملاء لهم فى المخابرات الامريكية ..

وفى نفس الوقت ، لاحظت المخابرات الامريكية فى ايطاليا زيادة هائلة فى برقيات الشفرة المتبادلة عبر البحر المتوسط بين باريس وتل أبيب ! ..

فكيف لم يتصرف دالاس فى الوقت المناسب ، لايقاف العملية ؟ ..

هناك رأى يقول : ان دالاس كان يعتقد ان المحاولة لن تتم الا بعد ٦ نوفمبر ، اى بعد انتخابات الرئاسة الامريكية . وبالتالى فمن مصلحة الحكومة الامريكية أن يبدو كل شيء هادئا سليما حتى يوم الانتخابات ، خشية التورط فى مشاكل عاتية قبلها ، بما قد يتركه هذا من أثر على نتيجتها ..

ولكن دالاس ، ابتداء من يوم ١٦ أكتوبر ، بدأ الفأر يلعب فى عبه . فقد انقطعت فجأة التقارير السرية الانجليزية والفرنسية المعتادة . واحس السفراء الامريكان انهم فى ظلام دامس وان المسئولين فى باريس ولندن وتل أبيب يتهربون منهم ..

ثم توالت الأحداث بسرعة مذهلة ..

ففى يوم ١٩ أكتوبر جاءت أخبار أزمة بولندا مع روسيا . وجاءت تقارير تشير الى بوادر اضطرابات فى المعسكر الشرقى

هذا هو اليوم الذى كان دالاس يحلم به ، ويعمل له ،

ويتنبأ به ! .. انه صاحب الرأى القائل : ان المعسكر الشرقى سينهار من الداخل ، وها هى نبوءته توشك أن تتحقق ..

ثم جاءت أنباء ضبط الأسطول الفرنسى لباخرة يونانية اسمها « آثوس » كانت تنقل أسلحة مصرية الى ثوار الجزائر ! .. وباسم مراقبة شواطىء مصر ، أبحر الاسطول الفرنسي الى شرق البحر المتوسط ، والواقع أنه اتخذ الأمر ذريعة لكى ينفذ أحد شروط الحرب المقبلة : حماية شواطىء اسرائيل ! ..

وفى يوم ٢٢ أكتوبر ، نجحت فرنسا فى خطف أحمد بن بيللا ورفاقه من قادة الثورة الجزائرية ، فى حادث الطائرة الشهير ، وطار الفرنسيون فرحا : انه فأل حسن لحربهم المقبلة فى مصر ..

وبينما كان الفرنسيون ينقلون بن بيللا الى السجن ، يوم ٢٣ ، كان بن جوريون يصل الى باريس سرا ، فى رحلته التى سبقت الاشارة اليها ، ليلتقى بموليه وسلوين لويد ويوقع اتفاقية « سيفر » السرية

وفى ٢٣ انفجرت الاضطرابات فى المجر ! .. ونشب القتال المسلح فى بودابست نفسها !

هذا أسعد يوم حقا فى حياة جون فوستر دالاس !.. ان وزارة الخارجية كما يقول المؤلف تفيض بالغبطة والحبور ! .. يا لها من أيام مثيرة ! ..

واغتبط أيضا المتآمرون .. فهذه الأحداث سوف تشل يد روسيا كما ان الانتخابات تشل يد أمريكا ! .. لم يكن ممكنا أن تشن حرب ضد مصر وعبد الناصر فى ظروف أحسن من هذه ! ..

وبقدر ما اغتبطت لندن وباريس ، اكفهر الجو فى وزارة الخارجية الامريكية ! ..

فقد جاءت رسالة من السفير الامريكى فى اسرائيل تقول : ان التعبئة العامة قد أعلنت سرا هناك ! ..

هذا آخر علامة كانت منتظرة ! ..

واستدعى دالاس سفير اسرائيل ابا ايبان وسأله عن الأمر ، فقال له هذا : لا بد انها عملية دفاعية ! ..

واستدعى الدريتش السفير الانجليزى وسأله عن التعبئة العامة الاسرائيلية ، فقال له : انه لا يعلم . وكل ما يعرفه ان حكومته حذرت اسرائيل من أى عمل ضد الاردن . فسأله دالاس : ومصر ؟ .. فقال السفير : لا أعرف عنها شيئا ! ..

وأرسل ايزنهاور رسائل سريعة الى بن جوريون يحذره من أى عمل مسلح ..

ولكن بعد مضى ساعات ، من آخر رسالة كتبها ايزنهاور ، عبرت قوات اسرائيل حدود سيناء

***

لقد بدأت الحرب ! ..

فماذا نفذ من تفاصيل الاتفاق السرى .. وماذا لم ينفذ ؟ ..

يقول « ميشيل بن زوهار » مؤلف كتاب « السويس : سرى جدا » : ان التفاصيل التى اتفق عليها فى باريس ولندن وسيفر للهجوم على مصر ، تم تنفيذها حرفيا ، بما فى ذلك الانذار الذى وجه من انجلترا وفرنسا يوم ٣٠ اكتوبر الى مصر والى اسرائيل ! .. وذلك الانذار الذى اشترك فى كتابته : جى موليه ، وسلوين لويد ، وبن جوريون ! ..

وكما سبق : كان فى مقدمة هذه التفاصيل ، حماية اسرائيل حماية مطلقة من بطش القوات المسلحة المصرية ! ..

فقبل بدء الهجوم الاسرائيلى على مصر بأيام ، وصلت الى المطارات المجاورة لتل أبيب قوة من طائرات الميستير وطائرات سابر – ف – ٨٦ ، الفرنسية .. بطياريها الفرنسيين وجنودها .. بل وبعدد كبير من الميكانيكيين ، وكمية هائلة من قطع الغيار ..

جزء من هذه القوة لم يشترك فى الهجوم على مصر ، انما كانت مهمته فقط حماية مدن اسرائيل من الطائرات المصرية : وفى كل مرة أطلقت فيها صفارات الانذار ، كانت هذه الطائرات تسرع محلقة فى الجو ..

فلما دخلت انجلترا وفرنسا الحرب رسميا بعد الانذار المزيف ، واتسع نطاق هجمات الطيران البريطانى على المطارات المصرية ، استطاعت هذه القوة الفرنسية أن تتحرك من مجرد الدفاع عن المدن الاسرائيلية ، وتشترك اشتراكا ايجابيا الى جانب قوات اسرائيل ضد الجيش المصرى فى سيناء

وكانت مهمة الطيران الفرنسى ضرب خطوط الامداد المصرية الى سيناء ..

***

وفجأة ، تلقى الطيران الفرنسى فى اسرائيل برقية عاجلة من القيادة الفرنسية فى قبرص تقول : « اضربوا الأقصر ! »

فقد علم الغزاة ان المدينة التاريخية فيها ممرات جوية حديثة للطائرات الأسرع من الصوت ، وأن الطائرات « اليوشين ٢٨ » المصرية رابضة هناك

وصرخت اسرائيل تطلب تدمير « مطار الأقصر »

ووقعت مشادة عنيفة بين انجلترا وفرنسا .. لماذا ؟.

السبب هو انه كان قد تم قبل العدوان تقسيم دقيق لاختصاص كل دولة فى المناطق التى تضربها بقنابلها ،

فلما طلبت فرنسا السماح لهـــا بضرب « الأقصر » ، اعترضت انجلترا ، وأخيرا ، ســمحت انجلترا للطيران الفرنسي بأن يخترق « مجال اختصاصها لمدة يوم واحد، يقوم خلاله بضرب الأقصر » !..

ولم يكن هذا هو كل ما تلقته اسرائيــل من عون من الطيران الفرنسي فى حربها ضد مصر ، فقبل القتـــال وبعده كانت طائرات النقل الفرنسية تقيم جسرا جويا لنقل الأسلحة الى اسرائيل .. كذلك فان الطائرات التى أنزلت فرق الباراشوت الاسرائيلية فى قلب سيناء كانت طائرات فرنسية . ثم جاءت طائرات فرنسية أخرى من قبرص رأسا لتسقط لهم معداتهم فى وسط سيناء ..

هكذا كانت القــوات الاسرائيلية تقاتل فى ســـيناء والامدادات الفرنسية تهبط عليها من السماء بما فى ذلك الماء والبترول وقطع الغيار والسيارات الجيب المصفحة. وقد رأى راندولف تشرشل ، الذى طار الى اسرائيــل بمجرد بدء القتال ، بنات تل أبيب يرفهن علنا عن ضباط الطيران الفرنسيين الذين يشتركون فى القتال .. كمــا يقول المؤلف ..

وبنفس الطريقة ، يصف الكتاب كيف ان الســـفن الحربية الفرنسية الثلاث : « كيرسانت » و « بوثيه » و « سيركوف » تصـــدت للمدمرة المصرية « ابراهيم الأول » وضربتها أمام شاطىء اسرائيل ..

كما ان السفينة الحربية « كيرسانت » مع ســفينة أخرى حربية فرنسية اسمها « جورج ليجى » قامتــا بضرب رفح وشاطىء سيناء من البحر لتمهيد الطــريق أمام الهجوم الأسرائيلى . وكان هــذا يتم ليلا ، حتى لا يعرف أحد أى سفن تقوم بالضرب ..

وتفاصيل هذه القصص غريبة ..

ففى يوم ٢٩ أكتـــوبر ، عصرا ، اتصل الكولونيـــل « نيشرى » الملحق العسكرى الاسرائيـــلى فى باريس بالأميرال الفرنسي بارجو قائد الأسطول الفرنسى الرابض فى شرق البحر المتوسط، وطلب منه ضرب رفح والعريش

وكان هناك فى ذلك الوقت أسطولان فرنسيان متصلان فى المنطقة : أسطول مرتبط باسرائيل رأسا ، ومهمته حمايتها من البحرية المصرية ومساعدة حملتها ضد مصر .. وأسطول مرتبط بالانجليز ويكون جزءا من القوة التى تستعد للنزول فى بورسعيد بالاشتراك مع القوات الانجليزية

ورد الأميرال بارجو قائلا : ان سفن الأسطول الاول ليس لديها الا مدافع ١٣٧ ملليمترا وهى لا تكفى لضرب رفح والعريش ، فلابد من ضم البارجة « جورج ليجى » المزودة بمدافع عيار ١٥٢ ملليمترا حتى يتسنى القيام بالضرب

ولكن البارجة « جورج ليجى » كانت جزءا من القوة التى تستعد لغزو بورسعيد من الانجليز يوم ٦ نوفمبر !. لهذا كان لابد من استئذان الجنرال كيتلى الانجليزى ، القائد العام للقوات الفرنسية الانجليزية التى ستغزو مصر ، ورد كيتلى قائلا : « لا مانع . بشرط ألا أعرف هذا رسميا فكأنكم لم تطلبوا منى شيئا ، وكأننى لم أسمح لكم بشىء ! »

ومن أطرف اللحظات التى مرت بها المؤامرة ، ماحدث يوم ٤ نوفمبر ..

ففى ذلك اليوم ، لم تكن القوات الفرنسية والانجليزية قد بدأت بعد فى النزول فى بورسعيد ، ويومها أراد أبا ايبان أن يوهم الأمم المتحدة ان اسرائيل قد قضت على المقاومة المصرية فقال : لقد توقف القتال فعلا فى سيناء!

وذعرت لندن وباريس !..

انهما ستغزوان مصر بحجة وجود القتال !.. فماذا

يريد ابا ايبان ؟.. هل غدرت اسرائيل بهمـا ، وتلقت مساعدتهما حتى تحتل سيناء ، ثم تقول ان القتـال قد انتهى ؟..

وكيف تتدخل الدولتان الان ؟..

واهتزت أسلاك التليفون بين لندن وباريس تبحثعن بن جوريون شخصيا وتسأله تفسير هذا الموضوع .. حتى هدأ بن جوريون من روعهم وقال : انه لم يقصـد بذلك الى قبول قرار وقف اطلاق النار وبالتالى ايقاف الغزو ..

فالغزو اذن يستطيع أن يستمر ..

***

يعتقد المؤلف ان من أكبر أخطاء الغزو تردد الانجليز، وعدم جرأتهم فى « التآمر » مع اسرائيل بنفس الصراحة التى تآمر بها جى موليه معهم

كان الانجليز يستعدون للقتال وفرائصهم ترتعد من احتمال واحد : أن ينكشف تآمرهم السابق معاسرائيل!

ولكن المعركة كانت تقتضى مزيدا من التعاون وجهـا لوجه بين العسكريين الانجليز والاسرائيليين ، اذ لم يكن وقت المعركة يسمح بتوسط الفرنسيين بين الاثنين فى كل عملية حتى يظل الانجليز يزعمون انهم غير مشتركين مع اسرائيل ! ..

ومن أخطر اللحظات التى ترتبت على هـذا الجو ، قصة غريبة يرويها المؤلف :

فقد كان المفروض أن يبدأ انزال قوات فرنساوانجلترا فى بورسعيد يوم ٦ نوفمبر ، ولكن ازاء تفاقم الجـو الدولى خطر لفرنسـا واسرائيل تقديم موعد الغـزو الانجليزى الفرنسى من ٦ الى ٣ نوفمبر ، كسبا للوقت .. كما اقترحوا أن يتم الغـزو بانزال قوات براشوت

على طول القناة فى نفس الوقت ، لا فى بورسعيد وحدها، ثم التقدم الى الداخل كما تقضى الخطة الأصلية : لأن هذا أصبح تخطيطا بطيئا جدا ازاء سرعة الاحـــداث وتطورات المعركة

وسأل الانجليز : ولكن من الذى يمون هذه القوات، التى ستنزل دفعة واحدة على طول القناة ؟

وكان الرد : اسرائيل .. من سيناء

وعرض الامر على القيادة البريطانية العليا فى لندن

كان معنى هذا انكشاف التآمر علنا وفى عز المعركة..

وانقسم الانجليز ..

ولكن ضابطا معينا فى القيادة ، رأى ان هذا معنـــاه الذهاب بعيدا فى المغامرة ، والتورط فى عمل جديدسوف يجعل انكشاف التآمر محققا .. هذا الضابط هو اللورد مونتباتن

انه ليس ضابطا عاديا .. انه قائد عام الأســطول ، وقريب الملكة ، وحاكم الهند الســـابق ، وأكبر اسم عسكرى فى القيادة البريطانية

ولم يضيع مونتباتن لحظة واحدة . فقـــد خرج من القيادة العامة راسا الى القصر الملكى حيث طلب أنيقابل الملكة فورا

وفى لهجة دراماتيكية أحاط الملكة بالأمر : وقال لهـا ان انجلترا على وشك أن تكشف أوراقها فى أخطر مغامرة أقدمت عليها ، وان نتيجة انكشاف المؤامرة مع اسرائيل هى : انهيار كل مصالح انجلترا فى الشرق العربى بضربة واحدة

وازاء هذا التحذير ، اتصلت الملكة اليزابيث تليفونيا بأنطونى ايدن وطلبت منه الحضور فورا الى القصر ..

وعندما وصل ايدن الى القصر ، قالت له الملكة : انها

قد أحيطت علما بكل ما يدور وخصوصا بالخطورة الجديدة التى توشك الحكومة أن تقدم عليها . ونظرا لخطورة هذه الخطوة الجديدة على مصالح الدولة ، فهى تطلب من انطونى ايدن أن يستشير مقدما زعيم المعارضة ، هيو جيتسكيل !

وأدرك ايدن ان هذا الكلام معناه مطالبته بالتراجع عن المغامرة الجديدة داخل المغامرة الجارية بالفعل ! ذلك أن جيتسكيل كان على رأس حزب العمال يعارض العملية كلها علنا ويشن عليها حربا شعواء ..

هكذا طلب ايدن العدول عن الفكرة الفرنسية الاسرائيلية ، والالتزام بالخطة القديمة : خطة الغزو يوم ٦ نوفمبر ، فى بورسعيد ، حتى لا ينكشف تآمر انجلترا مع اسرائيل !!

الى هذا الحد كان حرص انجلترا على أن يبقى تآمرها المسبق مع اسرائيل سرا لا ينكشف ! الى هذا الحد كانت تعتقد انه من السهل خداع العالم !..

ان تقديم قصة الحرب ذاتها ليست مهمة بقدر اهمية قصة الترتيبات التى سبقت الحرب : فهذه المؤامرات والترتيبات هى التى تكشف أعماق المصالح الاستعمارية، وأبعاد التآمر السياسي ، تكشف الكراهية الاستعمارية العميقة لظهور أى قوة مستقلة فى المنطقة العربية

قصة عمرها مئات السنين ، ولكنها تتبدى فى حجمها الحقيقى من خلال قصة الشهور التى سبقت بدء العدوان المشترك على مصر ، بهدف واحد هو ضرب الثورة فى مصر .. وبأمل واحد هو أن يؤدى ضرب الثورة فى مصر الى انهيار كل الحركات الثورية التحررية فى كل أنحاء العالم العربى

قال ميشيل بن زوهار ، المؤلف الاسرائيلى ، فى ختام الكتاب :

« لقد ولد الغزو ميتا ! أما الانتصار الحقيقى فقد كان انتصار عبد الناصر ، الذى خرج من المعركة وهو بطل العالم الثالث ، أى عالم آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . ان كل عملية السويس ، التى أرادت أن تقضى عليه ، قد كللته فى النهاية بأكاليل الغار ! »

الفصل التاسع

الصهيونية.. والنازية

■ إن أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود.

■ إن الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما في الحضارة الغربية.

«أرنولد توينبي»

« ان أشهر الذين يزعمون أنهم شعب مختار هم اليهود . فالحركات الصهيونية والنازية سواء في ادعاء هذه الصفة العنصرية غير الصحيحة

« ان الحركة الصهيونية قد جمعت بين جنبيها أسوأ ما فى الحضارة الغربية : القومية العمياء ، والاستعمار ! فان استيلاء الحركة الصهيونية علي بيوت وأراضي وأملاك ٩٠٠ الف عربى فى فلسطين ، هم الان لاجئون ليس أرقى من الناحية الاخلاقية من أبشع الجرائم التى ارتكبت خلال الخمسة قرون الاخيرة بواسطة الغزاة والمستعمرين . وهذا هو حكمى الاخير على تاريخ الصهيونية فى فلسطين

« ان اليهود من بين كل شعوب العالم ، لهم أطول تاريخ فى التعرض للاضطهاد . وقيام اليهود بتحميل طرف ثالث مسئولية الاضطهاد الذى لاقوه على يد الغرب يشكك المرء فى الطبيعة الانسانية كلها »

أرنولد توينبى

***

قبض البوليس فى نيويورك مرة على شاب يرسم شارة الصليب المعقوف واذا به طالب يهودى ! وقد كشف هذا عن رغبة الصهيونية فى ايهام العالم بأن بذور

النازية ما زالت باقية تهدد اليهود .. لكى تستفيد من ذلك !

ان كراهية اليهود ، فى العالم المسيحى قديمة . فى حين لم تكن هناك كراهية قديمة بين اليهود والمسلمين، ولا بين اليهود والعرب

وسبب كراهية العالم المسيحى الغربى لليهود .. يرجع الى الدين . فاليهود هم الذين قاوموا المسيح واضطهدوه وتآمروا عليه . وفى التاريخ المسيحى ان اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه ! وهذه قصة يقرأها كل تلميذ مسيحى فى كل مكان من العالم ، خصوصا اذا كان كاثوليكيا وتستطيع أن تحس هذا بوضوح فى روما بلد البابا .. وعاصمة الكاثوليكية ! وتستطيع أن تحسه بوضوح أكثر اذا علمت بالجهود الجبارة التى تبذلها اسرائيل لكى تجعل الفاتيكان يعترف بها !

والمؤرخ اليهودى الفرنسى « جول ايزاك » يقول : انه من المألوف اذا طلب طفل يهودى فى المدرسة من طفل مسيحى أن يلعب معه ، أن يرد عليه الطفل المسيحى قائلا : كلا . لأنكم قتلتم المسيح !

وقد روى لى شاب ايطالى أنه كان يسكن وهو طفل مع أهله فى عمارة كبيرة فى روما .. وفى الدور الاول من العمارة كانت تسكن أسرة يهودية .. فكان أهله يقولون له : « اياك أن تعرف سكان الدور الاول اليهود أو تدخل شقتهم .. والا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح ! » وانه عاش سنوات يسرع فى صعود السلم عندما يعبر الدور الذى تسكنه الاسرة اليهودية !..

وبصرف النظر عن الأسباب التاريخية أو الاجتماعية، فمن المؤكد أن اليهود ، على مر الزمن ، أصبحوا مجتمعا مغلقا على نفسه يقف موقف العزلة ، واحيانا العداء ،

مع شعور بالتفوق ، ازاء سائر أجناس الأرض وشعوبها وهذه النزعة العنصرية ، تبلورت فى شكل سياسى عنصري سافر بظهور الحركة الصهيونية ..

ان الحركة الصهيونية لا تؤمن بأن الناس كلهم سواء ، وبأن كل انسان ينتمى الى الشعب الذىولد فيه ويعيش فيه . انما تؤمن بأن هناك صفات خاصة تجمع بين اليهود كعنصر واحد من دم واحد وعرق واحد وأصل واحد وان الرابطة بين اليهود أسمى من رابطة الوطن أو أى رابطة أخرى .. ولذلك فهى تدعو الى اقامة وطن قومى يكون سكانه يهودا وشعبه يهودا وجنسيته اسرائيلية !.. ومعنى هذا أيضا أن اليهودى فى ألمانيا أو فرنسا أو أمريكا يجب أن يشعر أن ولاءه الأول لدولة اسرائيل وليس لألمانيا أو فرنسا أو أمريكا !

ولا يجب أن ننسى أن الحركة الصهيونية ولدت فى أوروبا ولم تولد فى البلاد العربية • أنها وجدت فى أوروبا بالولادة .. ولكنها وجدت فى الوطن العربى بالغزو الخارجى والهجرة . والسبب هو أن كراهية اليهود لم تكن موجودة بين العرب ، فلم تنجم عندنا حركة صهيونية متعصبة ، كما نجمت فى أوروبا .. ولكنها جاءت بالهجرة والغزو مع اليهود الذين عاشوا فى أوروبا وتربت عندهم عقدة العداء والكراهية والتعصب العنصرى هناك .. وبن جوريون وموشي ديان وكل أقطاب اسرائيل ليسوا منأبناء فلسطين ولكنهم مهاجرون من روسيا وبولندا وألمانيا وغيرها ! انما ولدت كراهية الصهيونية عندنا من حضورها الى بلادنا واغتصابها فلسطين لاقامتها وطنا عنصريا على أشلاء شعب عربى !

ومن الأشياء الطبيعية والمنطقية ان ظهور حركة عنصرية لا بد أن يؤدى الى اصطدامها بحركات عنصرية

أخرى . فاذا كان هناك شعب يزعم أنه أرقى الشعوب وأنقاها .. فمن البديهى أن يصطدم مع أى شعب آخر يقول انه أرقى الشعوب وأنقاها !

ومن هنا .. كان اصطدام الصهيونية بالحركة العنصرية الالمانية ، أى النازية ، أمرا طبيعيا بل وحتميا !

ان النازية كانت تقوم على أساس ان الألمان عنصر ممتاز خلق لكى يسود ويقود سائر الشعوب والأجناس. والألمانى بناء على هذه الفكرة يجب أن يكون من سلالة ألمانية طاهرة لم تلوث بأى عنصر آخر . ولذلك كان على عضو فرق الشباب الهتلرى مثلا .. اذا أراد أن يتزوج أن يحصل على موافقة الحزب على زواجه . وكان الحزب يتحرى عن الزوجة ويتعقب أجدادها وسلالتها لكى يتأكد من أنها سلالة ألمانية سليمة قبل أن يوافق على أن تتزوج أحد أعضاء فرق الشباب الهتلرى !

واليوم .. نرى اسرائيل تقرر ان الاسرائيلى يجب أن تكون أمه اسرائيلية .. وأم أمه اسرائيلية .. لكى يثبت أن دمه يهودى خالص !

نشرت جريدة النيويورك تايمز الأمريكية ، المشهورة بعطفها القوى على اسرائيل ، رسالة لمراسلها فى اسرائيل، فى عدد ١٩ يناير ١٩٦٥ تقول :

« تحت المظهر اللامع لهذه الدولة » تختفى معتقدات شديدة التعصب

« وقد تجلت هذه الحقيقة أخيرا فى قضية السيدة « رينا عيتانى » التى تقطن فى الناصرية . فبعد أن عاشت هذه السيدة كل حياتها على أنها يهودية، فوجئت بهم هنا يقولون لها أنها ليست كذلك ..

« لقد كان أبوها يهوديا . وشبت فى ألمانيا كيهودية وقد اضطهدها النازيون لأنها يهودية . واعتقلها الانجليز

فى قبرص لأنها يهودية . وجاءت الى اسرائيل كيهودية ، من الذين تسللوا اليها بالهجرة غير الشرعية . وعاشت رينا فى أحد المعسكرات اليهودية ، وساهمت فى بنـــاء اسرائيل بيديها ..

« وتزوجت رينا يهوديا فى اسرائيل ، وعاشت تمارس الشعائر اليهودية . ولكن فجأة ، منذ بضعة أسابيع : أعلنت وزارة الداخلية ـ بناء على بلاغ سرى تقدم لهـــا ـ أن هذه السيدة ليست يهودية ، لان الوزارة علمت أن أمها لم تكن يهودية

« والقوانين اليهودية تعتبر السلالة من ناحية الأم هى السلالة التى يعتد بها فى نقاء الدم اليهودى . وهكذا وجدت رينا أن القانون يعتبرها « غير نظيفة » طبقـــا لنصوص العهد القديم ..

وقد فجرت هذه القضية مناقشة حادة اختلفت فيهـــا الآراء حول تعريف : من هو اليهودى ؟ ..

يقول المراسل « لا أحد يسأل هذا السؤال أكثر من يهود اسرائيل نفسها .. ولا توجد بعد اجابة ترد على كل جوانب هذا السؤال بما فيها الاجابة العامة التى تقول : ان اليهودى هو الذى يقبـل اعتراف اليهودى ويعيش طبقا له . فهم يعتقدون ان أنواع التراث قد اختلطت بحيث أصبح التراث لا يكفى لهذه التفرقة

وتمتد مظاهر التعصب هذه الى أبسط الأشـياء . فاذا كان هناك زوجان يهوديان يسكنان غرفة واحدة فى فندق فلا يستطيع أحـدهما أن يطلب « سـاندوتش » دجاج والآخـر ساندوتش جبن فى نفس الوقت « لأنه لا يجوز وضع اللحوم والالبان فى مطبخ واحد ! »

هذه هى الصهيونية .. وهذه هى النازية !

دعوتان تقومان على نفس الأساس .. ولذلك فهما

تتصارعان وتتبادلان أبشع العداء !..

والتاريخ يقول : ان الصهيونية ظهرت قبل ظهور النازية « واذا كان النازيون قد ذبحوا اليهود وليس اليهود هم الذين ذبحوا النازيين .. فهذا لا يرجع الى أن الصهيونيين طيبون والنازيين رديئون .. ولكن يرجع الى ان النازيين الالمان كانوا أقوى وأكثر من اليهود . ولو تصورنا أن وضع القوة كان عكسيا لقام الصهيونيون بنفس المذابح ضد النازيين

هل هذا دفاع عن النازية ؟

كلا بالطبع . فالنازية صفحة سوداء فى تاريخ الفكر العالمى والحضارات العالمية . ولكن الصهيونية أيضا صفحة سوداء . وكل منهما تستند الى نفس المنطق والفلسفة العنصرية المقيتة التى يجب محوها من الأرض وهذه نقطة هامة جدا ، علينا أن نوضحها لأنفسنا وللعالم جيدا .. حتى لا تحاول اسرائيل الاستفادة من سخط العالم على النازية وعدائه لها ! وحتى لا تبدو أمام العالم كأنها نقيض النازية وعكسها .. والواقع أنها تقاتلها لأنها شبيهتها ومنافستها !!

وليس معنى هذا أن النازية ظهرت نتيجة لظهور الصهيونية والتعصب اليهودى العنصرى . ولكن النازية عندما وجدت وظهرت .. كان طبيعيا أن تصطدم باليهود .. للأسباب التى سلف ذكرها ..

ولكن ظهور النازية يرجع الى أسباب كثيرة ، بعضها خاص بألمانيا نفسها ، وبعضها الآخر خاص بتطورات المجتمع العالمى بوجه عام ..

فالألمان ــ باستثناء روسيا التى ظلت أوروبا تعتبرها دولة أسيوية الى عهد قريب ــ وجدوا انهم أكبر شعب فى القارة الأوروبية كلها .. وهو شعب غنى نشيط منتج

قوى ميال للانتظام .. ومع ذلك فقد تأخرت نهضة ألمانيا السياسية زمنا طويلا ، بحكم تمزقها الى ولايات كثيرة ، وبحكم تحالف سائر دول أوروبا على منع وحدة ألمانيا خوفا منها . فبريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا تحالفت طويلا لمنع وحدة الدويلات الالمانية فى دولة واحدة . وكل هذا من شأنه أن يخلق حركة قومية متعصبة كرد فعل ، وقد حققت ألمانيا وحدتها فعلا بالحرب على يد « بسمارك » . حاربت امبراطورية النمسا ثم امبراطورية فرنسا قبل أن تحقق وحدتها كشعب ، فظلت هذه الروح كامنة فى نفوس كل هذه الأطراف زمنا طويلا

يضاف الى ذلك أن الثورة الصناعية عندما اكتملت فى ألمانيا وأصبحت قوة هائلة .. وجدت أن بلادا أخرى قد سبقتها فى مجال التطور الطبيعى للرأسمالية فى ذلك العصر ، وهو الاستعمار .. فبينما كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وبلجيكا تمرح فى مستعمرات شاسعة . كانت ألمانيا محرومة الا من القليل ، فلهذا تفاقم العداء بينهما وبين هذه الدول وانفجر هذا العداء فى الحرب العالمية الاولى

والاذلال الذى أنزله الحلفاء بألمانيا بعد الحرب الاولى ، هو الذى أعطى شهادة الميلاد لحركة عنصرية أقوى وأعتى ، اذ ظهر هتلر على مسرح السياسة الالمانية برسالة أساسية هى استعادة الاراضى المفقودة من المانيا .. ثم ما تلى ذلك من نشر دعوة التفوق الالمانى ونقاء العنصر الالمانى والدكتاتورية السوداء التى ذبحت من الالمان أنفسهم مثلما ذبحت من سائر بلاد أوروبا !

لقد قال المؤرخون عن « بسمارك » الذى حقق وحدة المانيا : انه جعل المانيا كبيرة .. والالمان صفارا !

وبنفس المنطق يمكن أن نقول عن هتلر والنازية : انه جعل المانيا مخيفة .. ولـكنه جعل الالمان خائفين ! !

وقد اندثر هتلر ..

فما الذى بعث النازية اليوم ؟ ..

كنت فى فرانكفورت يوما فـلاحظت ان المكتبـات وأكشاك الصحف مليئة بالـكتب التى تهاجم النـازية والهتلرية وتصور فظائعها وجرائمها ! لا توجد واجهـة مكتبة أو كشك صحف تخلو واجهته من كتاب عليه رسم جماجم وخرائب ونيران وفوقها عنوان عن النـازية أو الهتلرية !

ومع ذلك فالمراقبون الاجانب يقولون ان النـازية تبعث فى المانيا الغربية اليوم ..

ان المانيا الغربية تنتشر فيهـا جمعيـات ومنظمات للشباب وللطلبة.. منظمات تظهر عليها بوادر النازية.. فأعضاؤها يلبسون الاحذية الطويلة وقمصـانا عسكرية وأحيانا خناجر كخناجر الـكشافة ! والالمـانى يقبـل بطبيعته على من ينظمه فى طوابير واستعراضـات وفرق ترفع الرايات وتلبس الخوذات وبعض هـذه الجمعيات تنظم مواكب بالمشاعل على الطريقة النازية ! وفى حانات البيرة ظهر من يسكر فيصيح : عاش هتلر ! ولو حكم عليه بالحبس سنة ! ..

وبعض هـذه المنظمات يحمل أسـماء قادة الحرب الاخيرة من الجانب الالمانى مثل «جودريان» و «دونيتز» .. ومنذ بضعة شهور فوجىء الناس برجال وشبـاب يملأون بعض الحانات يغنون ويشربون ويتبادلون التحية .. ثم ظهر ان اليوم هو ٢٠ ابريل .. عيد ميلاد هتلر !

وبعض زعماء هذه المنظمات بدأوا يصبحون فى مصاف الزعماء البارزين الذين لهم أتباع وعابدون ! كل واحد

يرشح نفسه لان يكون هتلر آخر .. ولان يكون نجما عالميا خلال سنوات قليلة .. مثل : جنتر هيسلر .. والفريد زيتزمان .. وبيتر برناو وكل منهم كان من أعضاء فرق العاصفة الهتلرية القديمة ! ..

وفى نفس الوقت تقول التقارير الالمانية ان بين كل عشرة مدرسين يوجد ثلاثة على الاقل يؤمنون بالنازية لانهم من تلاميذها القدامى .. ودروسهم للصبيان والشبان مشحونة بالدعاية الظاهرة والخفية للنازية وهتلر ..

فكيف يعتنق عدد كبير من شباب المانيا مثل هذه الفكرة النازية العنصرية المتعفنة ، رغم الدعاية المركزة ذاتها ! ..

ربما بسبب هذه الدعاية المركزة ذاتها ! ..

فبعد الحرب الاخيرة ، وقف كل الحلفاء من الشعب الالمانى موقف الاساتذة الذين يريدون تأديب الشعب الالمانى وتهذيبه . وكان هناك اتجاهان : اتجاه يحاول تصوير المأساة كلها لالمانيا على انها جريمة حزب معين وزعيم معين هو الذى جر شعب المانيا الى هذا الموقف .. واتجاه آخر يحاول أن يجعل الجريمة جريمة الشعب الالمانى كله

ولا يوجد شعب على وجه الارض يمكن أن يقبل فكرة دمغه ــ كشعب ــ بالاجرام ، ولو فترة قصيرة جدا من حياته ! .. وهذا الاسلوب لايؤدى الا الى الاستفزاز ، واستثارة كوامن الكبرياء خصوصا فى شعب متقدم ممتاز فخور كالشعب الالمانى .. لا يمكن أن يقبل طويلا أن يقف بين الآخرين موقف المذنب الخاطىء الذى يجب أن يؤكد توبته كل يوم ! ..

وفى هذه الاسابيع بالذات ، نجد ان صحافة بريطانيا

عادت تتجه هذا الاتجاه ، أى اتجاه ادانة الشعب الالمانى كله ، لان بريطانيا مختلفة مع المانيا اختلافا شديدا فى الاتجاه السياسى والاتجاه الاقتصادى فى أوروبا .. فسياسة المانيا تحول دون الغاء خطر الحرب بالتفاهم مع روسيا فى أوروبا ، والمانيا هى حجر الاساس فى السوق الاوروبية المشتركة التى تهدد بطرد الاقتصاد الانجليزى من القارة الاوروبية !

وقد أشارت الصحف الانجليزية من جديد الى قصة معهد الوثائق الامريكى الذى يشغل بيتا فى ضواحى برلين ، ان هذا القصر فيه كل أوراق وأرشيف الحزب النازى ، وقد سقطت فى يد الجيش الامريكى قبل أن تحرق .. وهذه الوثائق تضم أسماء عشرة الملايين المانى والمانية الذين كانوا أعضاء فى الحزب النازى . وتضم كل أوراق المحاكمات الجائرة التى أعدم فيها ٦٤ ألف مواطن خلال حكم هتلر ! وهذه الوثائق توضع عليها حراسة مسلحة قوية ، ولا يسمح لاى مخلوق بالاطلاع عليها الا باذن من حكومة أمريكا أو من حكومة المانيا !

ان الصحف الانجليزية تطالب بنبش هذه الوثائق .. وبكشف كل رجل أو امرأة أو شاب أو فتاة كان عضوا فى حزب هتلر .. وكل قاض حكم فى قضية من قضايا هتلر السياسية .. الى آخره ! ومعنى هذا ادانة الشعب الالمانى كله ! لان الشعب كله كان خاضعا بطريقة أو بأخرى لحكم هتلر ، وكان مضطرا أن يعيش فى موكبه شيبا وشبانا وجنودا وضباطا وقضاة ومحامين ! ..

ثم ان الشعب الالمانى يرى ان هؤلاء الحلفاء الذين يهاجمونه ويدمغونه بالجريمة ، ليسوا ملائكة ، ان أيديهم جميعا ملوثة بدماء شعوب المستعمرات ! انهم يحمون الحرب الاستعمارية فى الجزائر والتفرقة العنصرية فى

افريقيا ! ثم انه اذا كان الالمان قد دمروا وقتلوا فى البلاد التى احتلوها ، فان الحلفاء قـــد دمروا المـــانيا تدميرا وشردوا أهلهـــا تشريدا . وهـــذا كاف لـــكى ينتهى الحساب ! والقاء كل المسئولية فى الحرب على المانيا فيه تجاهل للحقيقة الانسانية وهى ان الحرب كانت حربا استعمارية الى حد ما من الطرفين .. حرب نظـامين راسماليين يتنافسان على سيادة العالم ! فما كان يخطر ببال انجلترا وفرنســـا ، أن تنتهى الحرب بتشـــديد قبضتهما على المستعمرات واحتكارهما للأسواق

ولا شك فى انه يضاف الى هـــذه الاسباب النفسية سبب آخر أساسى.. هو ان تقسيم المانيا يشعر الشعب الالمانى بهوان عميق ! فبرغم كل النجاح الذى احرزته المانيا بعد الحرب من جـــديد ، فان استمرار تقسيمها وتوزيعها وتبعيتها يجعل الالمانى يشعر انه ما زال يعيش فى مستوى أقل من أى مواطن من أى وطن آخر !

وهو نفس الموقف الالمانى فى الفترة التى ظهر فيهـــا هتلر ! لان هذه الظروف كلها تؤدى الى رد فعل حتمى فى صورة نزعات قومية متطرفة تقوم على العـــدوان ومقابلة الاحتقار بالاحتقار والإستعلاء بالاستعلاء !

كل هذه الاسباب .. النفسية والسياسية .. توجد تربة خصبة لـكى تزدهر فيها بعض بذور النـــازية فى نفوس الشباب الالمانى ! ان شباب أى شعب يحب مجد بلاده ويأبى اذلالها ! واذا اتجه حب المجد وجهة خاطئة.. كانت الـكارثة ! ..

والحل العميق لهذه المشاكل ليس فى تطهير المدارس من المدرسين ولا فى اعتقال هؤلاء الشبان

وانما الحل هو الحل السياسى الـكبير ، هو انهاء وضع المانيا الشاذ والعمل على توحيدها ، ونشر منطق

من السلام على أوروبا .. يجعل أى نزعة عدوانية غير ذات موضوع .. !

وانه لمن المهم ــ استكمالا للصورة ــ ان نذكر ان هذه النزعات النازية ، اليمينية ، قد تكون اشتدت فى المانيا نتيجة أيضا لظهورها فى بلد مجاور ملاصق ، هو فرنسا ! فالعصابات السرية الارهابية فى فرنسا .. والجمعيات الفرنسيــة التى تتعقب الجزائريين وتقتلهم فى المانيــا نفسها .. وخطر استيلاء فرق الباراشوت على الحكم .. وظهور نعرة عظمة فرنسا وقيادتها لاوروبا ورســالتها الخالدة .. كل هــذه أشياء حركت ولا شك عوامل المنافسة التقليدية بين البلدين ، وان كان القادة الرسميون مثل ديجول واديناور على وفاق ! ..

***

ونعود الى اليهودية والصهيونية ! ..

ان اليهودية فى المانيا بالذات لم تعد مشكلة ! ..

ففى أيام هتلر كان اليهود فى المانيا يحسبون بالملايين .. اما اليوم فان عدد اليهود فى المانيا الفربية هو ٤٣ الفا فقط فى شعب تعداده أكثر من خمسين مليونا ! ..

وعلى العكس .. فقد زاد عدد اليهود زيادة كبيرة فى اماكن أخرى .. ففى الولايات المتحدة خمسة ملايين ، وفى الاتحاد السوفييتى ثلاثة ملايين وفى بريطانيا نصف مليون ، وفى فرنسا ٣٣٠ الفا ، وفى رومانيا ١٨٠ الفا ، وفى المجر ٨٠ الفا ، وفى استراليا ٤٣ الفا ! ..

فعدد اليهود فى المانيا الفربية اليوم أقل عددا وأقل نسبة الى عدد السكان ! .. ومركز الثقل اليهودى لم يعد فى المانيا ..

ولــكن الصهيونية العالمية .. اقتنصت هذه البادرة الصغيرة فى المانيا .. بادرة ظهور بعض منظمــات نازية

الطابع .. لـكى تعيـــد استثمار القصـــة القديمة . فانطلقت القوى الصهيونية فى البلاد الاخرى تثير الخواطر، وتزيف العلاقات كمحاولات لاستعادة عطف الرأى العام العالمى .. وهذا يفيدها فى خلق نوع من الالتفاف العاطفى المعنوى حول اسرائيل من جهـــة ودفع ســـيل التبرعات والمساعدات لها من جهة أخرى ..

وليس أعجب ، فى هذا المجال ، من قصة ايخمان مع اسرائيل ..

وقد أذاع القصـــة مستشـــار بن جوريون الخاص لشئون العلاقات العامة .. «موشى بيرلمان» الذى نشرها كاملة فى كتاب أصدره بعنوان « خطف ايخمان »

تقول القصة : ان يوم ٢١ مارس هو أول أيام الربيع ، ولـكنه كان يوما مشئوما بالنسبة لايخمان ، ففى يوم ٢١ مارس عام ١٩٣٥ تزوج ايخمان .. ويوم ٢١ مارس عام ١٩٦٠ ، كان اليوم الحاسم فى مصيره ، اليوم الذى تقرر فيه اختطافه نهائيا ! ..

لقد كان ايخمان ـ بعد فراره من أوروبا ـ يعيش فى ضاحية « سان فرناندو » القريبـــة من مدينة بوينس ايريس عاصمة الارجنتين ، كان يسكن هو وزوجتـــه وأولاده الثلاثة « فيللا » متواضعة منعزلة ، وكان يعمل فى مصـــانع مرسيدس بنز فى الطرف الآخر للمدينة .. فكان عليه أن يسير كل يوم حوالى ٣٠٠ متر الى محطة الاوتوبيس الواقعة على الطريق الزراعى المهجور ، ليركب الاوتوبيس الذى يوصله الى محل عمله ..

ولم يكن أحد يعرف ان هذا هو ايخمان، كان المعروف فقط ان السيدة ربة البيت هى « أرملة ايخمان » ، وان ايخمان نفسه مات . أما الرجل الذى يعيش معها فهو زوجها الثانى ويدعى « ريتشارد كليمنت » ، هذه هى

القصة التى كان الناس يعرفونها ، والتى عاشت هـذه الاسرة بها ثمانى سـنوات كاملة ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٠ ، دون أن يقلقها أحد !

ولـكن فى تلك الشهور الاولى من عام ١٩٦٠ ، كان هناك من يراقب ايخمان ، دون أن يشعر ..

لقد استأجرت مخابرات اسرائيل بيتا يقع على بعـد ٢٠٠ متر تقريبا من بيت ايخمان ، لا تفصـله عنه الا الحقول ، وخلف نافذة مفتوحة لا تنسـدل عليها الا الستائر المعدنية ، كان يوجد « تليسكوب » قوى جدا ، يستطيع أن يرى كل شىء فى بيت ايخمان .. ويستطيع الناظر فيه أن يسجل كل حركة يقوم بها ايخمان من لحظة أن يستـيقظ من النوم صـباحا الى أن يركب الاوتوبيس الذى يحمله الى المصنع صباحا .. ومن لحظة نزوله من الاوتوبيس عصرا ، الى أن يأوى الى فراشه !

كان الذى يجلس وراء هذا التليسكوب يدعى «جاد» ، وهو ليس اسمه الحقيقى طبعا ، ولـكنه اسمه المستعار ، فاذا انطلق الاوتوبيس حاملا « ايخمان » الى المصنع ، ترك « جاد » التليسكوب ، ليدق التليفون لرجل آخر من مخابرات اسرائيل اسمه « دوف » ليقول له كلمة واحدة هى « كاراجيل » وهى كلمـة عبرية معناها : « كالعادة ! » أما « دوف » هـذا الذى يتلقى هـذا التليفون فهو يقيم فى شقة أخرى استأجرتها مخابرات اسرائيل أمام المصنع الذى يعمـل فيه « ايخمان » ، ومعنى ذلك أن يبدأ فى مراقبتـه من لحظـة نزوله من الاوتوبيس أمام المصنع الى أن يدخل فيه .. ثم فى أثناء خروجه منه آخر النهار ! ..

ولم يكن « دوف » يراقبه من تليسكوب .. انما كان يأخذ فى يده حقيبة أوراق عادية وينزل الى الشارع ،

ويقف على محطـــة الاوتوبيس التى سينزل عنــدها « ايخمان » ، وعندما ينزل « ايخمان » يحاول «دوف» أن يتبعه دون أن يثير شكوكه . ان فى حقيبة اليد التى يحملها « دوف » توجد كاميرا حساسة جدا . عدسة الكاميرا هى زرار الحقيبة . وبينما « دوف » يسير فى براءة ، يضغط بأصـبعه على زرارين فى يد الحقيبة ، فتلتقط صورا متوالية « لايخمان » من جميع الزوايا !

ولـكن .. لماذا كانوا يحاولون التقاط صوره كل يوم .. ويرسلون هذه الصور الى تل أبيب ؟ ..

السبب هو أنهم لم يكونوا متأكدين مائة فى المائة ان هذا الرجل هو « ايخمان » بالفعل ! ..

فمنذ عام ١٩٥٢ ، عندما اختفت زوجته وأولاده من النمسا فجأة ، انقطع خيـــط المطـــاردة الاسرائيلية « لايخمان » ، كانوا لايصـدقون ان الرجل قد مات ، ولـكنهم لا يعثرون له على أثر ..

ويقول المؤلف : ان أهم عنـــاصر المطاردة فى هـــذه المسائل هم أفراد الجاليات اليهودية فى شتى بلاد العالم .. ومعنى ذلك ان كثيرا من أفراد الجاليات اليهودية فى كل بلاد العالم يتجسسون مباشرة لحساب اسرائيل ، ولو على البلاد التى ينتمون اليها . وفى عام ١٩٥٩ كان هناك تاجر يهودى استطاع أن يدخل المجتمع الارجنتينى دون أن يعرف أحد انه يهودى . وعلى هـذا الاساس اختلط بمجتمع الالمان الذين يعيشون فى بوينس ايريس. وعلى أساس هذه الثقة سمع يوما ان « أرملة ايخمان » تعيش فى أطراف المدينة مع زوج جديد اسمه «ريتشارد كليمنت» ، وأرسل اليهودى الارجنتينى المتنكر برقية سريعة بذلك الى مخابرات تل أبيب .. فبدأت المطاردة من جديد لمعرفة هل هذا الزوج حقا اسمه «كليمنت» ،

أم انه « ايخمان » نفسه ؟ ..

ان « ايخمان » برغم خطورة مركزه أيام هتلر ، فان صوره قليلة ، والذين يعرفونه شخصيا قليلون جدا ، فقد كان حريصا دائما على أن يبقى فى الظل ، ومن هنا كانوا يلتقطون له سرا ، عشرات الصور من كل الزوايا ويرسلونها الى تل أبيب ، حيث يجرى عرضها على كل من عرفه أو رآه أو لديه صور له .. وقد كان المرجح أنه هو « ايخمان » .. ولـكن الدليل القـاطع لم يكن متوافرا ..

ومضت مراقبة « ايخمان » فى دقائق حياته يوما بعد يوم ، وأسبوعا بعد أسبوع ، لتسجيل كل حركة له . كان منتظما فى حياته جدا ، لا شىء يتغير أبدا . وفى يوم من الايام.. حدث تغير بسيط.. لقد اشترى «ايخمان» عند عودته من المصنع باقة فاخرة من الورد ، حملها معه .. وعندما وصـل الى البيت فتحت له زوجته .. وأعطاها باقة الورد فى اعزاز كبير ! ..

وأخذ الذين يراقبـونه يفكرون فى السبب . ما هى المناسبة التى تجعله يشترى هـذا الورد اليوم ؟ .. وأخذوا يراجعون ما لديهم من أوراق تضم كل المعلومات عن حياة « ايخمان » .. واكتشفوا السر ! ..

ان اليوم هو يوم ٢١ مارس عام ١٩٦٠ ! ..

وقد تزوج « ايخمان » من زوجته يوم ٢١ مارس عام ١٩٣٥ ! ..

اذن فلا بد ان هذا الرجل هو « ايخمان » نفسـه . من المستحيل ـ اذا كان زوجا ثانيا « لارملة ايخمان » ـ أن يحضر لها باقة ورد فى ذكرى زواجها الاول !.. ومن المستحيل أن يكون شراء الورد يوم ٢١ مارس بالذات ، بعد مرور ٢٥ عاما على الزواج ، مجرد مصادفة

لقد أرسلوا تلك الليلة برقية الى تل أبيب نصها : « الرجل هو الرجل » وعلى الفور بدأ التفكير فى الخطوات التالية :

كيف يمكن ــ أولا ــ أن يتم خطفه ؟.. وأين ــ ثانيا ــ يوضع « ايخمان » فى بوينس ايريس حتى يتم اخراجه من البلاد ؟ ..

وكيف يمكن ــ ثالثا ــ تهريبه من الارجنتين الى اسرائيل ؟ ..

وكان لابد من حل المشكلتين : الثانية والثالثة ، قبل تنفيذ عملية الخطف

أما عن المكان الذى يمكن أن يسجن فيه « ايخمان » بعد خطفه ولو لبضعة أيام .. فكان هناك اقتراحان : الاول هو وضعه فى « فيللا » من « الفيللات » المنعزلة التى يملكها أحد يهود الارجنتين وهم كثيرون وأغنياء . والاقتراح الثانى هو استئجار « فيللا » تكون ملائمة لهذا الفرض حتى لايورطوا أحدا من أفراد الجالية اليهودية فى مغامرات قد تنكشف

ويقول المؤلف : انهم اختاروا الحل الثانى واستأجروا بالفعل بيتا معزولا أعدوه لهذا الفرض . وقد لا يكون كلام المؤلف صحيحا . ولعلهم ، وهذا مرجح بسبب السرعة وضيق الوقت ، استخدموا بالفعل بيت أحد يهود الارجنتين ، ولكن المؤلف ، وهو مستشار بن جوريون للشئون العامة ، يريد أن يبعد عن جاليات اليهود فى شتى البلاد شبهة قيامهم بأعمال غير مشروعة لحساب دولة أجنبية .. هى اسرائيل !

أما عن وسيلة نقله الى الخارج فهى : اما البر أو البحر أو الجو ..

ان نقله بالبر سهل جدا .. ولكن الى دول أخرى

فى أمريكا اللاتينية وهذا لا يقترب به من اسرائيل ..

ان أنسب طريقة هى البحر . بشرط أن تكون الباخرة اسرائيلية . لان قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب فى الامر فسوف يطلق سراح « ايخمان » وينزله فى أول ميناء تمر به السفينـــة . كذلك يجب ان تكون الباخرة الاسرائيلية باخرة بضاعة ، لا باخرة ركاب . لان باخرة الركاب سيكون فيها ناس كثيرون من جميـــع الجنسيات وقد يكتشفون الامر ويثورون

ولا شك ان الباخرة أسلم من الطائرة ، لان الطائرة لا يمكن ان تطير رأسا الى مطار اللد فى اسرائيل ، بل انها ستتوقف فى عدة مطارات . وأحيانا تجرى عمليات تفتيش الطائرات .. ولـكن ميزة الطائرة انها تصـــل « بايخمان » بعد ٢٤ ساعة فقط . أما البـــاخرة فانها تستغرق أسابيع . وقد يذيع نبأ اختفائه وتحدث ضجة قبل ان يصبح « ايخمان » فى اسرائيل فعــــلا . ثم أن حراسته خلال هذه الاسابيع فى الباخرة صعبة جــــدا . فمن الممكن أن يقذف بنفسه الى البحر فى أى لحظة !..

وتقرر استخدام الطائرة ، رغم كل ما فيها من مخاطر ولا يمكن طبعا أن تكون طائرة ركاب عادية . لابد أن تكون طائرة خاصة ..

وتم اعداد كل شيء . تم استئجار طـــائرة لايكشف المؤلف عن شركة الطيران التى قدمتها لهم .. وتم استئجار بيت واعداد غرفة فيه كزنزانة ليس فيها أى أثاث . وتم رسم خط الطيران . فالطائرة ستطير رأسا الى مطار فى غرب افريقيا ، لا يكشف المؤلف عن اسمه ، ومن غرب افريقيا الى اسرائيل . وبقاء « ايخمان » فى البيت بعد خطفه لا يجب أن يزيد على ثلاثة أيام ، لن تذهب زوجته خلالها الى البوليس والا فمعنى ذلك انها تعترف بأن

زوجها هو « ايخمان » . وهى لن تفعل هذا الا بعد زمن .. أى بعد أن تيأس ! ..

وقصــة الخطف نفسها عادية . وقفوا له بسيــارة بالقرب من محطة الاوتوبيس التى ينزل فيها. وتظاهروا بأن فى السيارة عطلا حتى لايثيروا شــبهات العابرين . واختاروا ساعة عودته الى البيت لانها ســاعة ما بعد الغروب والنور باهت والطريق لايمر به أحد . وعندما اقترب منهم « ايخمان » هجمــوا عليه مرة واحدة ، وقفزوا به الى حفرة على جانب الطريق الزراعى حيث أتموا ضربه وربط يديه دون أن يكونوا عرضة لان تراهم سيارة عابرة ، ثم صعدوا به الى السيارة.. التىانطلقت بسرعة .. وقيل له : « اذا تحركت حركة واحدة فسوف تضرب بالرصاص ! » .. وكانوا قد عصبوا عينيه حتى لا يعرف مقر السجن الذاهب اليه ..

وعندما دخلوا به الى البيت .. وأغلقوا الابواب .. أضاءوا الانوار القوية ورفعوا العصــابة عن عينيــه ؛ وسأله واحد منهم :

ــ من أنت ؟ ..

وكان قد أدرك كل شيء ، فقال : أنا «ادولف ايخمان» ..

وجعلوه يخلع ملابسه كلها .. ويقف تحت الضــوء عاريا تماما .. وفتشوه وفتشوا ثيابه تفتيشا دقيقا.. خشية أن يكون معه أى شيء يمكن أن ينتحر به ! ..

وهنا يروى المؤلف قصة مضحكة ساذجة : انه يحاول ايهام العالم أن « ايخمان » ذهب الى اسرائيــل طـائعا مختارا .. فهذا ما قالته حكومة اسرائيل فى تبرير عملها الذى هزأ بكل قانون دولى أو قانون خاص . فالمؤلف يقول : انهم قالوا له انهم سيأخذونه الى اسرائيل حيث

تجرى له محاكمة عادلة .. فهل لديك اعتراض ، فقال : لا ..

ثم يقول المؤلف : ان « ايخمـان » رحب بالمحاكمة لـكى يتخلص من العبء الذى يثقل ضميره !

ومن المضحك طبعا أن نتصـور أن « ايخمان » كان مختارا !.. وان اسرائيل بعدجهود وترتيبات ومغامرات ونفقات عام كامل ، كانت مستعدة أن تتركه لو قال انه يرفض المحاكمة !

وبالمثل ـ يحاول المؤلف أن يوهمنا ان الوثيقة التى كتبها « ايخمان » تبرر ـ قانونا ـ عملية الخطف .. وثيقة قال فيها :

« انا الموقع أدناه ، « أدولف ايخمان » أعلن بملء حريتى (!) حيث ان شخصيتى الحقيقية قد عرفت . فلا أجد داعيا لمواصلة تجنب العدالة ، وأعلن رغبتى فى الذهاب الى اسرائيل لاواجه المحاكمة ! .. واننى أكتب هذه الوثيقة بملء حريتى ، دون تهـديد أو ترغيب ، لاننى اريد أن احصل أخيرا على سلام النفس ! »

وتحت ذلك توقيـع « ايخمان » وتاريخ « بوينس ايرس فى مايو عام ١٩٦٠ »

وغرض اسرائيل من ذلك واضح ..

ان محاكمة « ايخمان » فى أساسـها غير شرعية لان اسلوب خطفه غير شرعى . ولان القانون الذى يحاكمونه به غير شرعى . انه عمـل انتقامى سافر مجرد من كل تبرير شرعى . وقد حاولوا تغطية ذلك بارغام «ايخمان» طبعا على كتابة هذا الاقرار . ومن المؤكد انه كتبه فى سجون تل أبيب .. ولـكنهم أرخوه بتاريخ وجوده فى الارجنتين ليقولوا انه سافر الى اسرائيل بارادته وليس خطفا ..

ولـكن .. اذا كان الامر كذلك ففيم اذن كان كل هذا لمحاولة نقله سرا ؟ .. وجاء يوم نقله ..

أعطوه فى الليل قهوة فيها مخدر قوى فنام على الفور، ثم خلعوا ملابسه وألبسوه بيجاما وروب دى شامبر ، وعلى الباب كانت تنتظره سيارة فارهة .. فقد قالوا : انه رجل غنى مريض جدا ومسافر الى الخارج ليعرض نفسه على طبيب عالمى . وهذا يفسر انه فاقد الوعى . وانه فى ملابس النوم . وانه يستأجر طائرة خاصة !.. فى المطار اجتازوا به الجمرك بأوراق مزيفة . ونقلوه فى « نقالة » الى الطائرة وهو مخدر تماما وغائب عن الوعى .. ومعه اثنان من مخابرات اسرائيل فى ثياب الممرضين ! ومعهم كميات من القهوة المزودة بالمخدر ، يسقونه منها كلما لاح انه على وشك أن يفيق ! ..

وقال بن جوريون فى البرلمـــان الاسرائيـــلى : ان « ايخمان » جاء بملء ارادته ..

شىء هام يلوح فى كل سطور القصـــة .. ولا يمكن تصورها بغيره هو : العدد الهـــائل من العمـــلاء الذين يساعدون مخابرات اسرائيل ويعملون لها .. كلهم يهود مواطنون فى بلاد أخرى .. يظهرون الولاء للبـــلاد التى تطعمهم وتؤويهم .. ولا يبطنون الا الولاء لاسرائيل ! ..

***

وقد أشـــار محامى « ايخمان » الى ان المتهم لديه قصة غريبة قديمة تعرف فى الدوائر السرية باسم قصة اللوريات ! ..

وخلاصة قصة « اللوريات » كما ذكرت الصحف هى : ان « ايخمان » خـــلال الحرب عرض على الوســطاء الصهيونيين أن يسلمهم مليـــون يهودى من معسكرات الاعتقال فى مقابل أن يسلموا ألمانيا عشرة آلاف سيـــارة

لورى عسكرية تساعد الجيش الالمانى فى حربه ضـــد الاتحاد السوفييتى ! وان الوسطاء الصهيونيين رفضوا هذه الصفقة !

والمفهوم ان « ايخمان » سوف يروى هذه القصـــة لـكى يوضح انه لم يكن متعصبا لاعدام اليهود .. وانما كان ينفذ الاوامر فقط ، بدليل انه اقترح مثل هذا الاقتراح!

وقد رجعت الى أحـــد الكتب التى أحتفظ بهـــا عن اسرائيل .. تذكرت اننى سبق أن قرأت فيه هذه القصة الغريبة ..

الـكتاب اسمه « الطرق السرية Secret Roads » وهو من تأليف الـكاتبين الصـــهيونيين الانجليزيين : جون كيمش ، ودافيد كيمش ..

والـكتاب يروى التاريخ السرى للهجرة اليهودية من أوربا الى فلسطين خلال الفترة بين عامى ١٩٣٨و١٩٤٨، وهو مطبوع عام ١٩٥٤ .. أى قبل أن يتوهم أحد انه من الممكن القبض على « ايخمان » أو العثور عليه .. بل كان الرأى السائد ان « ايخمان » قد قتل ..

وليست قصة « اللوريات » هى السر الوحيد الغريب الذى يرويه الـكتاب .. بل انه يلقى الضوء على علاقات كثيرة بين ألمانيا النازية وبين قيام دولة اسرائيل !

والقصة التى يرويها الكتاب لقصـــة « اللوريات » تتلخص فى ان المانيا كانت تحارب فى جبهتين فى وقت واحد .. ضد السوفييت شرقا ، وضد الحلفاء غربا .. وفى خلال ذلك كانت هناك علاقات قوية بين الجســتابو الالمانى وفرق العاصفة النازية من جهـــة ، وبين بعض ممثلى الحركة الصهيونية من جهة أخرى ..

وكان « ايخمان » هو ضابط فرق العاصفة المختص بشئون اليهود ، وقد اتخذ مقرا له فى قصر روتشيلد فى فينا . واستدعى « ايخمـــان » يوما ممثل الحـــركة

الصهيونية السرية وطلب منه أن يسافر الى استانبول ليقدم هذا العرض : أن يحرر لهم مليون يهودى مجرى من نزلاء معسكرات الاعتقال ويسلمهم اليهم ليبعثوا بهم الى فلسطين فى مقابل أن يقوموا بتسليم ألمانيا الآتى : ٢٠٠ طن من الشاى ــ ٨٠٠ طن من البن ــ مليونا علبة صابون ــ عشرة آلاف سيارة

وطار المبعوث الى استانبول ، ثم طار الى سويسرا ليتصل بزعماء الصهيونية هناك . وكان لا بد من حمل هذا العرض الى الانجليز ، فوصل المبعوثون الصهيونيون الى القاهرة ، وعرضوا القصة على اللورد موين ، وزير الدولة البريطانى المقيم فى القاهرة خلال الحرب . ولكن لورد موين رفض الدخول فى أية مباحثات مع الالمان .. وعلى الفور ذهب الدكتور حاييم وايزمان ، الذى أصبح أول رئيس لدولة اسرائيل ، الى لندن وقابل تشرشل وعرض عليه الفكرة . ولكن تشرشل رفض . وقال : « ان الاتحاد السوفييتى يشك فى ان الدول الغربية تحاول عقد صلح منفرد مع ألمانيا ليتفرغ هتلر لمحاربة الاتحاد السوفييتى ، ولذلك فان أية مفاوضات أو تسليم مهمات الى المانيا سوف يؤكد شكوك الاتحاد السوفييتى فى حلفائه الغربيين ..

على أن هذه القصة ليست أهم ولا أغرب ما فى الكتاب ..

ان فى الكتاب صفحات كثيرة تروى قصة التفاهم التام بين النازية الالمانية وبين الحركة الصهيونية على تسهيل هجرة اليهود الى فلسطين .. وتأييد فكرة قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين !

ومن سخرية القدر أن « ايخمان » نفسه كان فى بعض المراحل من أبطال حركة هجرة اليهود الى فلسطين !

واترك الكتاب لمؤلفيه الصهيونيين يرويان القصة :

فى عام ١٩٣٨ ، قبيل الحرب العالمية .. كان الكابتن كارل ادولف ايخمان يجلس الى مكتب فى مبنى يحمل لافتة تقول : « المكتب المركزى للهجرة اليهودية » .. وكان يستقبل بانتظام شابا صهيونيا اسمه « بارجيلاد »

ان « بارجيلاد » صهيونى قادم من فلسطين . انه يرأس ٤٠٠ صهيونى يسكنون مستعمرة يهودية اسمها « كفار جيلادى » ، بالقرب من الحدود بين سوريا وفلسطين ..

كان الاثنان يدرسان فكرة هامة ..

الفكرة هى اقامة « معسكرات تدريب » فى المانيا ، يتدرب فيها الشبان اليهود لفترة مؤقتة ، تمهيدا لهجرتهم الى فلسطين . ولما كانت الهجرة الى فلسطين ممنوعة ، فسيكون على الحكومة النازية لا مجرد السماح باقامة معسكرات التدريب فقط ، بل تسهيل خروجهم من البلاد سرا بأوراق مزورة ، تسهل لهم الوصول الى فلسطين !

وكان كل ما طلبه « ايخمان » هو أن يدفع اليهود مبالغ كبيرة للدولة الالمانية نظير ذلك . وفى مقابل ذلك سوف يحطم « ايخمان » كل روتين خاص بالهجرة .. لكى يسهل لهم ارسال أكبر عدد ممكن الى فلسطين ..

أما عن معسكرات التدريب ، فقد قال « ايخمان » لمحدثه « بارجيلاد » : ان ألمانيا النازية مستعدة لأن تعطيهم بعض المزارع الواسعة لكى يقيموا فيها مراكز تدريب وتجميع الشبان اليهود تمهيدا لتهريبهم الى فلسطين

وكانت الحركة الصهيونية لا ترحب بهجرة اليهود المسنين الى فلسطين .. وهم اليهود الذين يملكون نفقات

السفر .. وكانت تفضل استقدام الشـــبان الأقوياء الأصحاء فقط !

ويقول المؤلفان : وقد حافظ « ايخمان » على كلمته فيما يتعلق بكل التعهدات التى تعهد بها . فقد منحهم المزارع والأدوات اللازمة للتدريب الزراعى ، بل انه فى احدى المرات طرد عددا من الراهبات من أحد الأديرة ، لكى يوفر لليهود كل وسائل التـدريب التى تلزمهم فى احدى المزارع ! .. ويتساءل المؤلفان :

ــ ما هو السر وراء هذه الخطة النازية ؟ ..

ثم يقولان ردا على ذلك :

ــ ان هتلر نفسه وافق على هذه الهجرة السرية الى فلسطين لأسباب كثيرة ، فهو أولا يفضل أن يهـــاجر اليهود الألمان لا الى البلاد المحيطة بألمانيا مثل فرنســا ، وايطاليا ، وغيرهما ، بل يفضل أن يراهم يبتعدون عن ألمانيا .. الى مكان مثل فلسطين .. يضاف الى ذلك أن هجرة اليهود الى فلسطين وقيام دولة صهيونية هناك سوف يوقعان الانجليز فى متاعب مع العرب واليهود على السواء ، وكل متاعب تحدث لبريطانيا هى فوائد لالمانيا !

ولهذا فان « ايخمان » ــ كما يقول المؤلفان ــ اشترك فى وضع حجر الأساس الذى قامت عليه بعد ذلك دولة اسرائيل !

وفى مارس عام ١٩٣٩ ، سافر من برلين أول فوج من الشبان اليهود الالمان .. بناء على هذه الخطة .. وأعطاهم النازيون قطارا خاصا .. وجمعوهم فى القطار الى فينا حيث انضم اليهم فوج آخر تحت اشراف « ايخمان » شخصيا ! .. ثم يستمر الكتاب فى وصف الرحلة الاولى حتى وصلوا الى شواطىء فلسطين .. وهبطوا سرا .. وتسللوا الى المستعمرات اليهودية المتفرقة ! ..

الفصل العاشر

البابا والكنيسة
ووثيقة تبرئة اليهود

- قصة العلاقة بين البابا بيوس الحادي عشر والنازية .
- هل هناك لدى إسرائيل ما تضغط به على الفاتيكان ؟ .

قصة البابا ، والمؤتمر الكاثوليكى العالمى ، والوثيقة التى أصدرها لتبرئة اليهود الحاليين من دم المسيح ، وما يشاع عن وجود ضغط صهيونى على الكنيسة الكاثوليكية .. كل هذه خيوط تتجمع منها قصة من أعجب القصص السياسية فى هذا العصر !

ولعل الكتابة التحليلية الواقعية فى هذا الموضوع تكون بالغة الحرج ، لأنها تصدم كثيرا من المشاعر فى كثير من الجبهات ..

هل هى قصة دينية تدور حول صلب المسيح ؟ ..

هل هى قصة عنصرية تتصارع فيها النزعات السامية والمعادية للسامية والصهيونية وغيرها ؟ ..

هل هى قصة سياسية تحتدم فيها مواقف الشيوعية والنازية والرأسمالية وما اليها ؟ ..

انها كل هذا ! ..

ولست أظن ان من مهمة هذا الكتاب أن يتصدى لهذا الجانب أو يتعمق فيه . ان المسيحية تقول : ان اليهود هم الذين صلبوا المسيح ، ثم قالوا : ان دمه عليهم وعلى أبنائهم من بعدهم ، فهم مسئولون عن هذا الجرم حتى اليوم ، والتعديل الذى أراد الفاتيكان أن يدخله هو أن

يهود اليوم ، بعد ما يقرب من ألفى عام ليسوا مسئولين ولا ملعونين على هذا الجرم . أما الدين الاسلامى فهو يعلن ان الجريمة ذاتها لم تقع قط ، وبالتالى فلا مسئولية هناك ولا مسئولين !

الموضوع الدينى اذن قديم . والجدل فيه قديم . ولو كان ما استجد من رأى الفاتيكان مسألة دينيـــة فحسب ، لما أثار هذا الضجيج كله ..

ولكن أول امتداد لهــــذه القضية هو : الامتـــداد العنصرى ..

ان الاضـــطهاد العنصرى ظاهرة قديمة ، عرفتهــــا أوروبا بالذات عبر القـــرون الوســطى وحتى العصر الحديث .. كما جاء فى الفصل السابق ..

والحروب الدينية والعنصرية ، والمذابح الدينيـــة والعنصرية ، تشغل جانبا باهظا من تاريخ القارة الأوروبية كلها ..

ومن بين المظاهر العنصرية القديمة فى أوروبا : نزعة معاداة السامية التى كانت تجد التعبير عنها فى اضطهاد اليهود ، جيلا بعد جيل ، على يد النظم الاوروبية الدينية والدنيوية ..

فما أنزله هتلر باليهود ، لم يكن أول ما أنزل بهم فى ظل الحضارة الاوروبية بشتى تقلباتها ..

هذه العنصرية ، والنزعة المعادية للسامية ، لم تعرفها المنطقة العربية قط . أولا لأن العرب ساميون . وثانيا لأن الدين الاسلامى لم يقل بنظرية صلب المسيح . وان كان العرب قد أصبحوا فجأة وفى القرن العشرين ضحايا لعدوان صهيونى يهودى متعصب ، يتمثل فى احتـــلال فلسطين وتشريد العرب واقامة دولة اسرائيل ..

وكأن العرب المتسامحين يدفعون بذلك ثمن قرون من

التعصب العنصرى الأوروبى ، كانت قمتها هى ما ارتكبه هتلر فى منتصف القرن العشرين !

وعندما كان الباحثون والمؤرخون ينقبون عن أسباب اضطهاد اليهود المستمر فى أوروبا ، كانوا يصطدمون دائما بسبب كبير بين الأسباب هو : ما يسجله التاريخ عن جريمة اليهود فى صلب المسيح !

ودائما .. كان هناك حلان متصارعان للمشكلة اليهودية ..

حل يقول بتجميعهم فى دولة واحدة ، تكون وطنا قوميا لهم . وهذا الحل كان يتفق عليه المتعصبون ضد اليهود ، أولئك الذين يريدون لهم أن يختفوا من حياة بلادهم ، والمتعصبون من اليهود ، أولئك الذين تكونت منهم الحركة الصهيونية ، التى وصلت الى اقامة دولة اسرائيل على أشلاء شعب عربى !

وحل ثان يقول : بأن انتشار روح التحرر والتسامح والمساواة ، واختفاء نزعات التعصب الدينى والعنصرى ، سوف تؤدى الى ذوبان اليهودى فى البلاد التى يعيش فيها حين يحس ان له ما لأبنائها من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات . وهو الحق الذى يسمى بالـ Assimilation وقد سبق الحديث عنه فى فصل سابق ..

والخلاف ، فى العالم اليهودى نفسه ، ما زال حتى الآن حادا بين الاتجاهين ، حتى بعد قيام دولة اسرائيل .. فبصرف النظر عن أن كل يهودى ـ بالتأكيد ـ يتمنى أن تظل وتزدهر دولة اسرائيل ، وهذا أمر طبيعى ، فان هذا الخلاف يتمثل فى قضايا أخرى ، كقضية الهجرة الى اسرائيل ..

وكلنا نذكر الانفجار العنيف الذى حدث منذ عامين

تقريبا ، حين ندد بن جوريون بكل يهودى يعيش خارج اسرائيل ويرفض الهجرة اليها ، ذاهبا الى حد اتهامه فى يهوديته ذاتهـــا .. فتصـــدى له يهود انجليز ، وفرنسيون ، وأمريكان ، ممن لايريدون بالطبع التضحية بحياتهم فى تلك البلاد والهجرة الى اسرائيل . فيومهـا أيضا كان رأى أصحاب بن جوريون أن ما يراه اليهود اليوم من موجة تسامح فى الغرب أمر عارض ويمكن أن يتحطم فى أى مناسبة . وبالتــالى فليس لليهودى الا دولته . فى حين كان من رأى خصومه ان الاتجــاه الى الاندماج والـ Assimilation قوى ونهـــائى . والتطور الانسانى لا يسمح برجعة الى الوراء فى مجال التمييز العنصرى والدينى ..

المهم هو : ان مصلحتنا الواقعية والسياسية تكمن بالتأكيد فى الاتجاه الثانى الذى يهدف الى اندماج اليهود فى بلادهم المختلفة ، وليس فى الاتجـــاه الذى يرمى الى التمييز ضدهم ، وبالتالى الىتجميعهم فى دولة اسرائيل، وتدعيمها بالملايين فوق الملايين عن هذا الطريق ..

وحين نجد اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية تعملان من أجل تحويل موقفنا نحن العرب من اسرائيل ، من موقف سياسى وطنى الى موقف عنصرى تاريخى ، يجب أن نتنبه ، وأن نكشف هذه المحاولات فى مهدها

أولا ــ لأن مصلحتنا السياسية هى انتشار موجـة التحرر الأوروبية التى تجعل اليهود يجـــدون مكانهم الطبيعى فى مختلف بلاد العالم ، لا فى دولة اسرائيـــل القائمة غصبا على ارض عربية هى فلسطين !

ووثيقة الفاتيكانالأخيرة ، من هذه الزاوية غير الدينية يمكن أن تخدم دعاة هذا الاتجاه الثانى ..

ولكن هل المسألة بهذه البساطة ؟ ..

هل المسألة كل المسألة هى ان هذا الاتجاه الى التحرر والقضاء على الحزازات العنصرية اتجاه سليم ويناسب فى منطقة تاريخنا ومصلحتنا .. وخلاص ؟ ..

ان السياسة ــ مع الأسف ــ لا تعرف هذه المثاليات. ولذلك فعلينا أن ننقب عما وراء هذا من ظلال . وهذا ينقلنا الى الجانب الثالث من جوانب القضية الغريبة ..

ان الحركة الصهيونية ــ بفروعها المتشعبة ــ تعمل فى الواقع على مستوى عدة جبهات واتجاهات ..

حيث تستطيع تحريك الشكوك القديمة ، والتلويح باحتمالات عودة الاضطهاد ، لتدفع مزيدا من اليهود الى الهجرة الى اسرائيل .. تتحرك ..

وحيث لا تستطيع ، أن تعمد الى استغلال الاتجاه المتحرر الداعى الى ازالة كل أسباب التمييز : بأن تربط هذا التحرر لا بقضية اضطهاد اليهود الأوروبية القديمة ، ولكن بقضية اسرائيل والدولة الصهيونية الجديدة . حتى انها ، بنشاطها فى مجال الفكر بالذات ، تنجح أحيانا فى أن تجعل تأييد اسرائيل والصهيونية ، علامة من علامات الفكر والتمدن ..

وحيث لا يسعفها التعصب ولا يسعفها التحرر ، تعمد الى سلاح عجيب خطير، هو سلاح عقدة الذنب ، وابتزاز هذه العقدة ..

كيف ؟ ..

امامنا نموذج شهير فى أسلوبها تجاه المانيا الغربية : فالنظام الهتلرى قد أباد من السوفييت الملحدين والبولنديين الكاثوليك والبلقانيين الارثوذكس أكثر مما أباد من اليهود . ولكن حسابات كل هذه المذابح ختمت وأغلقت ، وبقى حساب اليهود مفتوحا .. لأن هناك من

يحرك عملية استغلاله باستمرار ، وتحويله الى عقــدة يكفر عنها بالتعويضات والاعانات ..

فهل هناك « عقدة » تبتز بها الصهيونية الفاتيكان ؟

نعم .. !

وهــذا ما كشفت عنه الوثائق الخطيرة التى نشرت أخيرا ..

فقد أزيح الستار لأول مرة عن جزء جـــديد من أرشيفات الأوراق الخاصة بالدولة النازية الهتلرية ، وكان الجزء الجديد خاصا بالعلاقة بين المانيا النـــازية والبابا الاسبق ، بيوس الثانى عشر ..

ان « النازية » هى احدى الخطايا الكبرى للحضارة فى القرن العشرين . خطيئة يتنصل منها الآن كل فرد وكل مؤسسة ، كما يتهرب السليم من الأجرب ..

فهل يمكن أن يكون البابا نفســه ، بمركزه الروحى الهائل ، قد انزلق ، أيام المد النــازى الرهيب ، الى تأييده ؟ ..

لعلنا نذكر مسرحية « المندوب » التى أثارت ضجة كبرى فى العالم سنة ١٩٦٤ ، والتى دارت حول البابا بيوس الثانى عشر، وسكوته خلال الحرب العالمية الثانية ، بينما جنود هتلر يجمعون اليهود من الشوارع المحيطة بالفاتيكان ذاتها ، الى حيث كانوا يبادون فى غرف الغاز .. سكوته رغم معارضة بعض رجال الكنيسة له ،سكوته رغم ان الأمور وصلت فى أوروبا الى درجة لا تسمح لأحد بالسكوت أو الحياد السلبى ..

وكانت الطريقة التي استغلت بها المسرحية تنم عن ابتزاز واضح للكنيسة الكاثوليكية وتهديد لها بكشف هذه الصفحة ..

وقد جاءت الوثائق الرســمية التى أذيعت أخيرا ــ

ولعل اذاعتها أيضا ليست مصادفة ـ لتؤكد ان ما ذهبت اليه المسرحية ، فى أساسه صحيح ..

ولكن ما هو « المنزلق » الذى انزلق منه البابا بيوس الثانى عشر الى تأييد هتلر أو السكوت عنه ؟ ..

ان البابا بيوس الثانى عشر ، قضى سبعة عشر عاما من حياته فى الكنيسة ، يعمل فى المانيا ، قبل أن ينتخب للبابوية . وشهد هناك فترة العشرينات والثلاثينات حين كادت الحركة الشيوعية تستولى على الحكم فى المانيا ثم لم يقهرها الا لجوء الرأسمالية الى دكتاتورية هتلر لتدميرها ..

والذى يبدو لى ، من قراءة الوثائق المنشورة ، انه منذ ذلك الوقت تكون لديه اقتناع مبسط : انالشيوعية بوصفها دعوة الحادية ، هى الخصم الأعظم للكنيسة ، والنازية هى الأسلوب الوحيد الذى نجح فى وقف الشيوعية . وبالتالى فعلى الكنيسة أن تقف من النازية موقفا مؤيدا .. أو موقفا غير معاد على الأقل

هذا التفسير ، يؤكده تصرف البابا بعد ذلك خلال الحرب العالمية الثانية . فمن بين الوثائق المنشورة ، على سبيل المثال :

فى يوم ٢ مارس ١٩٣٩ ، انتخب بيوس الثانى عشر بابا على الكنيسة الكاثوليكية . وفى يوم ٦ مارس أرسل خطابا الى هتلر ، ينبئه بهذا الأمر

والخطاب نفسه اجراء روتينى ، يرسله أى بابا جديد الى رؤساء الدول المختلفة لدى انتخابه .. ولكنالباحثين فى أرشيف الدولة الهتلرية وفى أرشيف الفاتيكان نفسه لاحظوا أمرين : الأول أن الخطاب المرسل الى هتلر هو أطول الخطابات المرسلة الى رؤساء الدول وأكثرها

حرارة ، والثاني ان البابا قد وقع بيده ، لا على الخطاب الأصلي المكتوب باللغة اللاتينية كالعادة ، ولكن أيضا على الترجمة المرفقة بالخطاب

وبعد أرسال الخطاب بأسبوع تقريبا ، أرسل « بيرجن » السفير الالماني فى الفاتيكان رسالة الى وزير خارجيته فى برلين « فون ريبنتروب » يقول فيها أن البابا تعمد أن يشعره بأن أول خطاب أرسله الى رئيس دولة كان خطابه الى هتلر

ولم تكد تمضى أسابيع على انتخاب البابا ، حتى كانت الأزمة التى ساقت الى الحرب العالمية الثانية قد انفجرت ، وهى أزمة مطالبة هتلر بضم أجزاء من بولندا الى بلاده

ماذا كان رد فعل البابا خلال هذه الأزمة ، مع ملاحظة ان بولندا حتى ذلك الوقت كانت أكثر دول أوروبا كاثوليكية تقريبا ؟

أرسل الى « بيك » رئيس بولندا يقترح عليه اعطاء الأقليات الألمانية مزايا جديدة . ثم أرسل اليه مرة أخرى يقول له « ان اعطاء دانتزيج وبويلمنيا الى المانيا قد ينقذ السلام » ويومها ثار « بيك » ورد عليه قائلا ان نشر رسائل البابا سوف يصدم الرأى العام البولندى الكاثوليكى

واشتعلت الحرب ، اذ اجتاح هتلر بولندا كما هو معروف فى سبتمبر ١٩٣٩ ، أى بعد ستة أشهر فقط من انتخاب البابا السيىء الحظ !

وبتاريخ أول يناير ١٩٤٠ ، أى بعد نشوب الحرب واجتياح بولندا وتحطيمها بأربعة أشهر ، أرسل القائم بأعمال سفارة المانيا فى الفاتيكان رسالة يسجل فيها

مقابلته الاخيرة للبابا ، ويروى فيها ان البابا أبقاه لديه أكثر من الوقت الرسمى المحدد للزيارة ، وانه قال له خلال المقابلة أن ما يشاع من نفور البـــابا من النظم الشيوعية « الدكتاتورية » غير صحيح . بدليل علاقاته الطيبة مع النظام الايطالى القائم ، وهو نظام موسولينى الفاشستى

وقد كان البابا يصدر بيانات يعرب فيها عن أسفه ، بوجه عام ، على الدم المراق ، عندما هاجمت ألمانيـــا بولندا ، وبعد ذلك هولندا ، وبلجيكا ، وفرنسا . ولكن لوحظ انه لم يصدر حتى مجرد بيان عام عندما هاجم هتلر النرويج والدانيمارك . ولوحظ أن جريدة « أوسر فاتورى رومانو » الناطقة بلسان البابا ، كتبت فى اليوم التالى لهذا الهجوم الأخير تقول : « انه لا يوجـــد فى النرويج سوى ٢٠٠٠ كاثوليكى فقط . واذا كان البابا له رأيه فى الموقف من الناحية الاخلاقية ، الا انه ، من الناحية العملية ، يجب أن يفكر فى مصير ٣٥ مليـــون كاثوليكى يعيشون فى المانيا »

وفى أرشيف المانيا الهتلرية ، ان المندوب البابوى فى المانيا كان يقـــابل مدير ادارة البروتوكول فى وزارة الخارجية الالمانية يوم ١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ ، خلال اجتياح القوات الالمانية لفرنسا ، فقال له انه مسرور للغاية من الانتصارات العسكرية الألمانية ، وانه يتمنى ألا تتأخر ايطاليا فى دخول الحرب الى جانب هتلر ، وكان هذا الحديث قبل دخول ايطاليا الحرب بساعات !

الوثائق التى نشرت أخيرا حافلة بهذا النـــوع من التقارير . لا أظن ، بعد تقديمها كنماذج ، انه من المهم سرد الكثير منها . ولكن من المهم القفـــز الى الوثائق الخاصة بسنوات الحرب الأخيرة ، عندما بدأت المانيـــا

تنهار وبدات القوات السوفييتية تزحف من أطراف آسيا الى قلب اوروبا

ففي سنة ١٩٤٣ ، توجد خطابات ـ نشرت ـ كتبها السفراء الألمان لدى الفاتيكان ، خلاصتها : ان البابا يقول ان هناك أرضا مشتركة بين الكنيسة والمانيا هي محاربة الشيوعية . وانه لذلك لا يمكن العمل من أجل اعلان هدنة بين الحلفاء الغربيين وهتلر ، تسمح له بتركيز كل قوته ضد الاتحاد السوفييتي بل يجب أن يقوم بين هتلر والحلفاء الغربيين تحالف ايجابي ضد الاتحاد السوفييتي

وعندما اخذ الحلفاء موقفا ، عدم التفاهم مع المانيا الا بعد التسليم بدون قيد ولا شرط .. نقلت التقارير المنشورة أن البابا كان معترضا على هذا الموقف من هتلر . وفي تلك الأوقات بالذات ، اشتدت حركة النازية ضد اليهود ، وتمت واقعة القبض على يهود روما بالذات

ولم يتحرك البابا : لأنه كان لا يريد أن يسهم في اضعاف موقف المانيا ، التي ظل يعتقد انها الحاجز الوحيد ضد غزو الشيوعية لأوروبا

ومن يقرأ الوثائق المنشورة سوف يلاحظ ان هذا « التفاهم المتبادل » بين البابا وهتلر ، ليس معناه ان العلاقات بينهما كانت « سمنا على عسل » . فقد كانت تمر بفترات بالغة الصعوبة والتوتر ، ولكن هذا كله كان يقف عند حد معين لا يتعداه : محافظة على اقتناع البابا بفكرة ان المانيا الهتلرية هي الحاجز الوحيد ضد الشيوعية ..

والذي زاد وضع البابا صعوبة ، أن رأيه هذا لم يكن يوافقه فيه كل رجال الكنيسة الكاثوليكية ، خصوصا

الذين تعرضوا لمحنة الاحتلال النازى فى فرنسا وبولندا وغيرها . وهنا أيضا تنم الوثائق عن انه كان هناك صراع حاد داخل الكنيسة الكاثوليكية حول الموقف من النازية بوصفها عدوانا على كل الشعوب والأجناس

وحين نعود الى أسماء أقطاب الكنيسة الكاثوليكية التى ظهرت على السطح فى مؤتمر الفاتيكان الأخير، والتى اشتد بينها الجدل حول وثيقة تبرئة اليهود وغيرها من الوثائق ، نجد انها نفس الأسماء تقريبا ، التى اختلفت حول قضية الموقف من النازية ، منذ خمس وعشرين سنة . وكلهم كرادلة فوق السبعين من العمر !

وهذا كله بالطبع غير خاف على اسرائيل ولا على الصهيونية العالمية ، ومن هذه الثغرة تستطيع بالتأكيد أن تمارس داخل الفاتيكان ارهابا من نوع الارهاب الذى تمارسه علنا فى المانيا الغربية : بتهديد كل سياسى وكل موظف كبير بكشف علاقته القديمة مع النازى للتشهير به وتدمير مستقبله .. فى الوقت الذى تمارس فيه جهدها على مستوى آخر ، للربط بين قضية « التحرر » بوجه عام وقضية « اسرائيل » الدولة ، والصهيونية الحركة ، لا اليهودية كدين فحسب ..

تلك هى طبيعة الارض التى نواجهها فى هذه المشكلة . بتعقيداتها المختلفة وأبعادها الواقعية : وتصرفنا ـ خصوصا الدعائى ـ ازاءها يجب أن يكون شيئا آخر غير مجرد رد الفعل الصارخ العصبى ، تصرفنا يجب أن يؤكد على عدة معان هامة لتطورنا القومى والاجتماعى كله ..

ـ ان مبادىء التحرر والتسامح والبعد عن العنصرية هى مبادئنا ، وان اسرائيل هى مظهر حركة عنصرية

رجعية هى الصهيونية ، وهى تركة اضطهادات أوروبية غير عربية ، وان الفهم الحقيقى لقضايا التحرر والمساواة هو الى جانب العرب لا ضدهم ، وعلى العرب أخذ زمام المبادرة فى هذا المجال ..

ــ اننا مستعدون دائما لنكشف كل محاولة اسرائيلية لاستغلال الدين والهيئات الدينية فى قضايا سياسية فنحن لن نقبل أن تسوى أوروبا تركتها العنصرية والسياسية الثقيلة .. على حسابنا !

الفصل
الحادى عشر

أبا إيبان والقومية العربية

أبا إيبان ، اليهودى الفلسطينى ، الذى يجيد اللغة العربية ، ويتعمق فى دراسة التاريخ العربى والتراث العربى ، ويترجم مؤلفات توفيق الحكيم إلى اللغة العبرية ، يشرح رأيه فى القومية العربية .. والوحدة العربية .

الكتاب الذى أقدمه فى هذا الفصل يوضح لنا نقطة الارتكاز التى يقف عليهـــا التفكير الاسرائيلى والدعوة الاسرائيلية فيما يتعلق بنا . انه كتاب يتحدث عنا نحن العرب وعن حركة القومية العربية ، كتاب يحاول أن يفلسف الماضى والحاضر والمستقبل . أما مؤلفه فهو من أبرز الأسماء السياسية والفكرية فى اسرائيل

ان المؤلف هو « أبا ايبان » اليهودى الفلسطينى الذى يجيد اللغة العربية ، ويتعمق فى دراسة التاريخ العربى والذى شغل منذ سنوات منصب مندوب اسرائيل فى الأمم المتحدة ثم سفيرها فى أمريكا ..

كان أبا ايبان قبل الحرب العالمية الثانية يقوم بتدريس اللغة العربية والأدب العربى فى جامعة كامبريدج ، ويومها نشرت صحفنا اسمه لأول مرة عندما ترجم رواية توفيق الحكيم الشهيرة (يوميات نائب فى الأرياف) . ولما قامت الحرب العالمية ، عملت المنظمات الصهيونية على تعيينه ضابط اتصال لدى قيادة القوات البريطانية فى القدس لينظم علاقتها بالمتطوعين الصهيونيين . واشترك أبا ايبان بعد ذلك فى كل الاحداث التى ادت الى ظهور اسرائيل . ثم أرسلته اسرائيل ليكون أول ممثل لها فى الأمم المتحدة

ثم ليكون سفيرا لها فى واشنطون ..
والكتاب اسمه « موجة القومية » ..

***

فى البدء ، يدافع أبا ايبان عن فكرة القومية بوجه عام . فيقول ان البلاد التى تتهم الحركات القوميـــة بالتعصب وضيق الأفق هى البلاد التى اكتملت حركتها القومية . فكل بلد كان دائما يتحمس لقوميته ، ولكنه يتهم قومية الآخرين بالتعصب ! ثم يقول ان محـاولة احلال (العالمية) محل القومية خطأ . لأن القوميـــة والعالمية ليستا شيئين متعارضين . فالعالمية هى مجموع من الوحدات القومية . وتعدد اللغات والثقافات وتنوع التراث الفنى، وغير ذلك من مميزات القوميات المختلفة ، كلها أشياء تساهم فى اثراء العالم وتنويعه . ان وجودها فى العالم يشبه احتواء العالم على سهول وبحار وأنهـار وغابات ووديان ، مما يجعل العالم أكثر جمالا وأكثر ثراء ..

ثم يقول المؤلف : ان مركز الحركات القوميـــة التى تشغل العالم الآن قد انتقل من أوربا الى آسيا وافريقيا. وبعد أن يذكر عددا من هذه الحركات يقول : ان أكثرها سطوعا وبزوغا كان ولا شك تحرر الأمة العربية . ثم يقول : انه لم يحدث فى تاريخ العرب أن كانت لديهم الفرص فى ظل أكثر من ١٠ دول عربية مستقلة عـدد سكانها أكثر من ٨٠ مليونا ومساحتها أربعة ملايين ميل مربع ، تضم ثروات طبيعية هائلة ، وتضم مراكز الحضارة العربية التى وصل فيها العقل العربى الى أقصى درجات الاشعاع ، مثل القاهرة ودمشق وبغداد والمدن المقدسة فى شبه الجزيرة العربية . ثم يقول : انه لم يحدث فى تاريخ العرب أن كانت لديهم الفرص الهائلة ، سياسيا

واقتصاديا ، كالتي تتوافر أمامهم الآن .. فرص ضخمة تزيدها ذكريات المجد ثراء ..

وبعد سطور اخرى من التقريظ والاعجاب يضع أبا ايبان أول نصل حاد تحت هذا الحرير فيقول : (.. ولكن القومية العربية ، رغم كل هذه النتائج الباهرة ، لا تواجه العالم بوجه سعيد بالنصر ، بل تواجهه بمرارة عنيفة)

هذه الفقرة العابرة ، تتفرع منها فى أنحاء الكتاب خيوط كثيرة رقيقة ، تحاول أن تنسج لدى القارىء احساسا بأن العرب يجب أن يكونوا راضين قانعين سعداء بما حققوه ، وانه ليس هناك ما يستحق مرارتهم أبدا . ويكمل هذا ان المؤلف لا يشير فى كل الكتاب بكلمة واحدة الى الطريقة التى ولدت بها اسرائيل . ولا يشير بكلمة واحدة الى أن هناك شيئا اسمه مليون لاجىء ، فهو يعرف انه يخفى أسبابا قوية للمرارة .

ونعود الى منطق أبا ايبان .. فنجد انه يقول ان هذه المرارة ترجع الى ثلاث حلقات من التوتر ، يسجلها بهذا الترتيب :

الاولى ــ توتر علاقات العرب بعضهم ببعض

الثانية ــ توتر علاقتهم بالغرب

الثالثة والاخيرة ــ توتر علاقتهم باسرائيل

***

وتفسير أبا ايبان لما يسميه توتر العلاقات بين العرب انفسهم يرجع فى رأيه الى وجود تيارين : تيار يحاول جذب البلاد العربية فى اتجاه الوحدة والمركزية ، وتيار يحاول أن يدافع عن تنوع الاقطار العربية وتعددها واختلاف ظروفها وضرورة تحقيق اللامركزية فيها . وصراع هذين التيارين فى رأى أبا ايبان هو السبب الأكبر

فى كل توتر العلاقات العربية ، وبالتالى فى المنطقة بوجه عام ..

وفى صراحة كاملة ، وحماسة بالغة ، ينضم أبا ايبان الى (التيار الثانى) الذى يعارض الاتجاه العربى الى مزيد من الوحدة ، ويشغل صفحات كثيرة من كتابه فى سرد الشواهد السياسية والتاريخية والفكرية والاقتصادية التى تبرر وجهة نظره ..

وهذه عينة من هذه الأدلة :

البلاد العربية ، تاريخيا ، تعودت أن تعيش دولا متفرقة .. وفى الفترات القصيرة التى اتحدت فيها ، كان توحيدها بالغزو العسكرى لا بالرضى والاختيار ..

طبيعة العرب هى أن يعيشوا منفصلين حتى فى فترات استقلالهم . فليس صحيحا ان تفرق العرب وانفصالهم يرجعان الى تآمر الدول الاجنبية الكبرى أو تدخلها ..

صحيح أن الثقافة العربية واحدة والتراث العربى واحد واللغة العربية واحدة . وصحيح أيضا أن التكوين النفسى والدوافع العاطفية للعرب واحدة . وصحيح أن هناك طريقة فى التفكير والكلام ، فى الحزن والفرح ، فى الحب والكراهية ، خاصة بالعرب وحدهم . ولكن هذا كله لا يؤدى حتما الى الوحدة السياسية . فدول أمريكا اللاتينية مثلا بينها هذا التشابه دون أن تخطر الوحدة ببالها ، فلا تصدقوا ان هذه العوامل المشتركة تؤدى حتما الى تدمير الحدود السياسية الحالية بين الدول العربية والى خلق دولة عربية واحدة ..

فى صفحات كثيرة ، يدق ابا ايبان بشدة على هذه الحجج .. يريد أن يحفر فى الاذهان فكرة واحدة : هى ان القومية العربية والتحرر العربى لا علاقة لهما بالدعوة الى الوحدة .. ومن يقرأ الكتاب يجد ان

أبا ايبان يحس احساسا قويا ان هناك شـعورا عارما بحتمية هذه الوحدة . وهو يعرف ان هذا الشعور فى حد ذاته خطوة هامة فى طريق الوحدة . فهو يحاول ان يزعزع هذه الحتمية ..

ومن الممكن طبعا تعقب كل هذه الحجج واحدة بعد الاخرى . ولكنه قد يكون من الاسهل هنا ان نريح السيد ابا ايبان .. ونقول له . ماذا .. بعد هذه الحجج كلها ؟ .. لنفرض ان العرب لم يتحدوا حقا منذ ألف سنة . هل تشك حقا فى انهم (يريدون) اليوم أن يكونوا متحدين ؟ .. وانهم يرون مصلحتهم فى هـذا الاتحاد ؟ ..

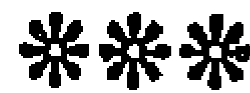
ثم .. هل كان لليهود دولة واحدة منذ آلاف السنين بل .. هل عاشوا معا منذ آلاف السنين ؟ .. هل تشترك فى عمليات احضار اليهود من كل انحاء الارض.. من اليمن الى روسيا الى أمريكا الى المانيا .. ناس لم يلتقوا قط ، ولم تتصل الارض بينهم قط ، ولم يكونوا قومية واحدة قط .. هل تقوم بهذا كله ، وتبرره ، ثم تريدنا أن نصدق ان العرب .. بكل هذه الظروف التى تجمع بينهم ، لا يصلحون لان يتحدوا ؟ !

ان هذا الثوب العلمى لا يخفى الدعوة السياسية السافرة . اسرائيل تريد أن تبقى الدول العربية ممزقة لان هذه هى مصلحتها الاساسية ..

وأبا ايبان بعد كل هذا المجهود يحس انه ما زال يقف ضد التيار .. وان حججه واهية كسدود الطين التى يجرفها النهر ، فيلجأ الى الدفاع قائلا : ان هناك نغمة شائعة الآن فى كل مكان من العالم تقول : يجب أن نتفاهم مع القومية العربية ! .. يجب أن نعترف بالقومية العربية ! .. واذا كان هذا معناه أن تبقى البلاد العربية

متمتعة بحق الانفصال فليس على هذا أى غبار ، أما اذا كان معنى هذا « الاعتراف بحق احدى الدول العربيـة فى أن تضم اليها الدول العربيـة الاخرى بوسـائل مختلفة .. فهنا الخطـأ والخطر » ..

وأبا ايبان يعرف طبعا ان مسألة « ضم » احـدى الدول العربية بالقوة غير واردة . وهو يعرف جيـدا ان مصر وسوريا مثلا حين اختارتا الوحدة ، كان اختيارهما حرا حرية كاملة . ولـكنه هنا فى الواقع ، انما يحارب متقهقرا . انه يشعر انه خسر نصف المعركة ، اذ أن العالم قد اعترف فعلا بأن هناك شيئا اسمه القوميـة العربية . ولو أن أبا ايبان كتب كتابه هـذا منذ عشر سنوات مثلا لقال انه لا يوجـد شىء اسمه القوميـة العربية . ولـكنه الآن ، وقد أصبح عاجزا عن محو فكرة القومية العربية ، يحاول الا يخسر نصف المعركة الآخر . يحاول أن يوقفها فى أذهان الناس عند هـذا الحد .. يحاول أن يحول بينها وبين أن تتطور الى فكرة الوحدة



القومية العربيـة شىء .. وأى وحدة عربيـة شىء آخر ، هذه هى الفكرة التى يدور حولها بألف وسيـلة ووسيلة !

وبعد أن يشن أبا ايبـان حملة على عبد النـاصر ، يقول : ان هناك فى العالم من ينتصرون لعبد الناصر فى خلافه مع بعض خصومه فى البـلاد العربية بسبب ان خصومه رجعيون . ثم يسـتطرد قائلا : ان القوانين الدولية ومواثيق الامم المتحدة تحمى كل الحكومات ، سواء أكانت رجعية أم غير رجعية !

طبعا القوانين الدولية تحمى كل حكومة سواء أكانت

رجعية أم غير رجعية ، ولـكنه بقوله هذا انما يستنـد الى حجة واهية جديدة ..

الخلاف هنا أيضا يرجع الى أن أبا ايبان لايريد أن يعترف بوحدة الامة العربيـة التى نؤمن بهـا نحن ، وايماننا بوحدة الامة العربية معناه اننى هنا فى القاهرة مثلا أشعر اننى أنتمي الى نفس الشعب الذى يسكن فى اي قطر عربى . الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن الخرطوم مثلا أو بغداد أو عمان ، لا يختلف عن الاحساس الذى يربطنى بالمواطن الذى يسكن طنطا أو الاسكندرية . الحظ الذى ينتظرنا واحـد والمستقبل الذى نصنعه واحد . وبقاء الرجعيـة أو الاستعمار فى قطر عربى معناه بالتالى أن الرجعية أو الاستعمار ما زالا موجودين فى « الوطن » العربى وما زال يقاسى منهما « الشعب » العربى !

وانه لمن الغريب حقا أن يصـدر هـذا الـكلام عن اسرائيل بالذات . اسرائيل التى لديها قانون يبيح لها أن تحاكم كل من أساء الى يهودى فى أى بقعة من العالم ! فاسرائيل تعلن انها وكيلة كل من يعتنق الديانة اليهودية سواء أكان انجليزيا أم أمريكيا أم يابانيا ! !

ويجب أن أذكر بهذه المناسبة أن أبا ايبان يبنى كتابه طبعا على أساس ان اليهودية قوميـة . وهو افتراض خاطيء تماما ، وافتراض رجعى الى أقصى الحدود . فما كان الدين أبدا قومية . فالاديان تتجه الى جميـع القوميات . وكل قوميـة تشتمل على أكثر من دين . وافتراض اسرائيل ان اليهودية قومية معنـاه اعتراف منها بأن مئات الالوف من العرب الذين يعيشـون فى فلسطين لا يمكن أن يحملوا نفس قومية دولة اسرائيل ، لانهم مسلمون ومسيحيون . وهو بالتالى اعتراف بأن

الدولة التي يقيمونها تنطوى على تفرقة عنصرية صريحة وصارخة !

وان برنامجها بالتالى ينطوى ولا بد على واحد من أمرين اما طرد العرب من بلادهم مرة أخرى ، واما ابقاؤهم على أساس وجود درجتين من المواطنين ..

الى هنا ينتهى كلام أبا ايبان عن أول أسباب التوتر فى رايه ، وهو « التوتر داخل العلاقات العربية »

السبب الثانى من أسباب التوتر فى رأى أبا ايبان هو : توتر العلاقات بين العرب وبين الدول الغربية ..

وهنا أيضا ، يريد أبا ايبان أن يقول شيئا هاما : يقول ان هناك فكرة بدات تشيع فى دوائر الغرب تقول أن اسرائيل هى السبب الوحيد لسوء العلاقات بين العرب والدول الغربية .. وان علاقات العرب بالدول الغربية يمكن أن تتحسن كثيرا .. لولا اسرائيل !

ويحاول أبا ايبان أن يعمل على تقويض هذه الفكرة بكل ما يملك من قوة . لانه لايريد أبدا أن تفكر الدول الغربية لحظة واحدة فى أن تختار بين اسرائيل والامة العربية التى تزداد قوة وأهمية ! وهو من اجل هذا يدخل فى بحث تاريخى ليثبت ان علاقات العرب بالدول الغربية سيئة من الاصل ، وان اسرائيل ليست السبب فى هذا أبدا !

فهو يقول ان نظرة العرب الى الغرب مرت بثلاث مراحل : فى المرحلة الاولى كان العرب ينظرون الى أوربا نظرة ازدراء واستهزاء ، وذلك أيام تفوق الحضارة العربية ، فى حين كانت أوربا غارقة فى الظلام . ويقول أبا ايبان ان العرب معهم حق فى هذه النظرة .. وهو ينقل فقرة من كتاب « المسعودى » المؤرخ القديم يقول فيها عن الاوربيين ما معناه : « ان دمهم بارد ، أجسادهم

ضـــخمة ، أجلاف ، عاداتهم خشـــنة ، فهمهم غبى وألسنتهم ثقيلة ! » ، والمرحلة الثانية كانت بالعكس ، مرحلة خضوع العرب لاوروبا واعترافهم بســـيطرتها وتفوقها خلال فترة انهيارهم . ثم المرحلة الثالثة التى نعيشها الآن .. ويقول عنها أبا ايبان : ان العرب فيها لا يشعرون نحوها بالخضوع . ولـكن المشكلة ان البعض منهم يصر على ان النفوذ الاستعمارى لم يندثر بعد . ان هؤلاء البعض من العرب لا يكتفـــون بأنهم حققـــوا المساواة مع الغرب ، بل يصممون على «تسوية الحساب» والانتقام من أخطاء الماضى . المهم فى هذه النقطة هو ما ينطلق أبا ايبـــان الى محاولة تأكيده حين يقول : ان الأزمة بين العرب وبين اسرائيـــل أزمة سطحية عابرة بسيطة اذا قيست بالازمة الاصـيلة العميقة بين العرب والدول الغربية ، فلا تصدقى أيتها الدول الغربية أن اسرائيل هى سبب غضب العرب عليك .. بدليل ان علاقات الدول الغربية سيئة مع عدد كبير من الدول الافريقية والاسيوية ، لاسباب لا علاقة لها باسرائيل !

ولا شك ان أسباب خلافاتنا مع الغرب كثيرة ، ولكن من الواضح طبعا ان اسرائيل سبب رئيسى . وهو بعد أن ادعى أنه لم يعد هناك أى استعمار ، ذكر بنفســـه اندونيسيا حيث كان الاستعمار ساعة صدور كتابه يحتل أجزاء من البلاد ، وذكر الجزائر حينما كان الاستعمار يذبح المواطنين العرب ويشردهم ويريد سلخ هذا القطر من الوجود العربى (كأن أبا ايبـــان أيضا لا يعترف بأن الجزائر عربية) فهو بذلك قد رد بنفســـه على ادعائه ان الاستعمار قد انتهى ولم يبق منه الا حساب الماضى فحسب . ولـكن كلامه عن الغرب والعرب يكشف لنا جانبا رئيسيا فى تكتيك اسرائيل السياسى ، وما تبـــذله

من مجهود لاقناع العرب بأن اسرائيـــل لا علاقة لهـــا بمشاكل الغرب معنا !

بقى السبب الثالث للتوتر وهو : العلاقة بين القومية العربية واسرائيل !

ومرة أخرى يحاول أبا ايبان ان ينفى ما يقال من ان اسرائيل هى سبب المرارة التى يحملهـــا العرب نحو البلاد المسئولة فى نظر العرب عن وجود اسرائيل ، وهو يقول : انه لا اعتراض لديه على القومية العربية ما دامت لا تغير من الوضع القديم ، وهو تعدد الحكومات العربية وتنوعها « طبعا » وان عيب القومية العربية الثانى فى نظره « بعد عيب السعى الى الوحدة » هو انها لا تريد لغيرها ما تريده لنفســـها .. فهى لا تريد للقوميـــة الاسرائيلية ما تريده لنفسها !

وقد شرحت فيما سبق لماذا لا يوجد شىء اســـمه قومية يهودية ..

وحتى اذا افترضنا جدلا ان هذه القومية موجودة فان الاعتراف الذى يريده أبا ايبان معناه ان أى قومية أخرى تستطيع أن تأتى من أى مكان فى العالم ، ثم تذبح مئات الالوف من أبناء قوميتى ، وتطرد مليونا منهم ، وتحتل أرضهم بالقوة .. لانها تريد أن يكون لها قطعة أرض فى هذا المكان بالذات !

ان أبا ايبان يختم كلامه بالحديث عن ميثاق الامم المتحدة ، وكيف ان كل التصرفات يجب أن تكون بناء عليه ، وفى مقدمتها احتـــرام الشـــعوب والحكومات المستقلة ..

ونحن نوافقه طبعا على احترام ميثاق الامم المتحدة وضرورة السير على أحكامه ..

ولكن من أى تاريخ يبدأ هذا الاحترام .. ؟

هل يبدأ من لحظة وضع هذا الميثاق ؟ .. اذن فان ايجاد اسرائيل فى حد ذاته كان أكبر عدوان على ميثاق الامم المتحدة الى الآن ..

أم ان أبا ايبان يريد أن يبدأ احترام ميثـــاق الامم المتحدة من لحظة وجود اسرائيل ، أى من لحظة فوز المعتدى بنتيجة عدوانه ؟

الفصل
الثاني عشر

أقدار متصادمة

لقد دق القدر أبواب هذا الشرق العربي مرتين يفصل بينهما أكثر من مائة وخمسين سنة:

المرة الأولى: حين جاء نابليون على رأس الجيش الفرنسي ليحتل مصر، وليغزو هذا الشرق كله!

والمرة الثانية: حين جاءت إسرائيل منبثقة من قلب أوربا!

.. فماذا عن المستقبل؟

عنوان هذا الفصل « أقدار متصادمة » أستعيره من كتاب بهذا العنوان للمؤلفين الصهيونيين : جون ، ودافيد كيشى ..

ويقصد المؤلفان بالاقدار المتصادمة ، أقدار العرب .. وأقدار اسرائيل : فكأن الامانى القومية العربية والامانى القومية الاسرائيلية قد بعثت فى وقت واحد تقريبا .. لـكى يقع بينهما هذا الصدام الذى ما زال قائما ، كل من الطرفين كامن متحفز للآخر على أحد جانبى الجبل

واذا كنت أريد من وراء هذا الـكلام شيئا ، فهو : ان ينظر قومى الى المسألة بأعمق مما ينظرون ، وأن يستخلصوا من البحث نتائجه العميقة بأشـــجع مما يفعلون الآن ..

واذا كان عجزنا ازاء اسرائيل فى المـــاضى سببه هو اننا كنا « متخلفين » فلا بأس من ان نعترف بهـــذه الحقيقة . لاننا بهذا الاعتراف وحده ، يمكن ان نصل حقا الى علاج صحيح ..

انها أقدار متصادمة بالفعل ..

ونتيجة هذا الصدام ستؤثر فى حياتنا الى مدى أطول وعلى نحو أعرض وأعمق مما يتصور المتصورون ..

ولقد دق القدر أبواب هـــذا الشرق العربى مرتين أساسيتين يفصل بينهما أكثر من مائة وخمسين عاما :

المرة الاولى ـ حين جاء نابليـون على رأس الجيش الفرنسي ليحتل مصر ، وليغزو هذا الشرق كله .. فكانت أول مرة منذ أجيال سحيقة من الظلام ، يكتشف فيهـا أهل هذا الشرق وجود الحضـارة الغربيـة الحديثة الطاغية ، ويعرفون ان ظلام الامبراطورية العثمانية ليس كل شيء ..

والمرة الثانية ـ حين جاءت اسرائيـل ، منبثقـة ومندفعة من أوربا نفسها ، على النحو الذى سوف نتأمله بعد قليل ..

ونحن الآن نضـحك ونتعجب ، حين نقرأ فى تاريخ « الجبرتى » وصفه لقـاء المماليك والشعب لنابليون والجيش الفرنسى . نضحك حين نقرأ ان المماليك خرجوا بالجياد المطهمة والسيوف المذهبة ليقاتلوا مدفعيـة نابليون الثقيلة . وحـين نقرأ ان الدراويش خرجـوا بالرايات يرددون الاذكار ليقهر الله جنـد نابليـون ، الزاحفين فى مربعات من النار . وربما يغلبنا الاسى ونحن نقرأ « للجبرتى » وهو يصف الواقعة فيقول : « فلما سقط عليهم القنبر ـ أى القنابل ـ وعاينوه ، ولم يكونوا قد رأوه أو شاهدوه ، صاحوا : يا سلام يا سلام من هذه الآلام ؛ يا خفى الالطاف نجنا مما نخاف »

ما معنى هذا ؟ ..

معناه ان دورة الحضارة التى ماتت فى بلادنا قرونا طويلة ، بينما انطلقت تدور وتهدر فى أوربا ، كانت قد خلقت هذا الفارق السحيق المخيف ..

شعبنا لم تكن تنقصه البسالة ، فقد هرب المماليك بذهبهم وحريمهم ، وبقى الشعب يثور مرة بعد أخرى ،

أنما كانت تنقصه الحضارة . الحضارة التى هى العلم ، والخبرة ، والثقافة ، والبارود ، وادراك روح العصر بسياساته وأفكاره وعناصر الصراع فيه . وليس أدل على ذلك من ان نابليون ، مبعوث أوربا وممثلها القوى ، جاء بأول مطبعة وجاء بعلماء وخبـراء يكتشفون بلادنا ، ويرسمون خرائطها ويدرسون مواردها ، ويستكشفون حتى آثارها وتاريخها . ذلك ان المجتمع الراكد المظلم المتخلف كان يعيش فوق هذا كله دون أن يعرفه أو يهتم به . كان مجتمعا جف ماء الحياة فيه ، وماتت خلاياه ، وضمرت أطرافه ، وانطفأ سراج عقله .. وان ظل يقاوم ويقدم الضحايا عاما بعد عام .. دون أن يصل الى شيء

كانت الحملة الفرنسية هى التحدى الخطير والصدمة الـكبرى . بعدها لم تعد الامبراطورية التركية أبدا كما كانت . ولم يعد الشرق العربى أبدا كما كان . بدأت الخلايا تتنبه ، والعقل يتحسس ، والقلب ينتفض . بدأت المقاومة هنا وهناك ، تضيء وتخبو ، تحبو وتتعثر ، ولـكن فى الطريق الصاعد دائما ، حتى الفصل الاخير ، الفصل الطويل الذى بدأ بالحرب العالمية الاولى والثورة العربية وثورة عام ١٩١٩ ، وانتهى بالحرب العالميـة الثانية ..

***

وقد بدا ، فى غمرة الآمال التى شملت العالم كله بعد الحرب الثانية ، وفى موجة ثقة الشعب العربى بما حققه وتفاؤله بمستقبله ، ان نهاية هذه الحرب ستغسل معها آخر آثار الاستعمار فى الشرق العربى وستزيل آخر العوائق التى تمنع العرب من الانطلاق . ولـكن أوربا كانت تعد للعرب الصـدمة الثانية الهائلة : صـدمة اسرائيل ! .. صدمة طرد الشعب العربى طردا ، من

جزء هام عزيز من بلاده ، واقامة دولة وشعب غريب دخيل مكانه . والاحتلال العسكرى اهانة . والاستعمار الاقتصادى اهانة . والتفرقة العنصرية اهانة . ولكن لا أظن ان هناك اهانة تعادل طرد الشعب طردا من بلاده وتحويلها الى دولة أخرى

ولكن ما هى اسرائيل ؟ ..

من الزاوية التى تحدثت عنها فى هذا الكتاب ، يهمنى أن أسجل من ملامح اسرائيل ما يلى :

* ان الصهيونية ، فى أساسها ، حركة سياسية « دنيوية » وليست حركة دينية . هكذا كانت منذ أوجدها وأسسها « هرتزل » الى أن توارثها «وايزمان» ثم « بن جوريون »

وقد سبق سرد الادلة على هذه الحقيقة. فالصهيونية ولدت كحركة سياسية للرد على اضطهاد اليهود فى شرق أوربا . كانت الفكرة من البداية ان أحسن حل لهذا الاضطهاد والاحتقار أن يتجمع اليهود ـ أو بعضهم ـ فى دولة وجنسية فيكسبون الاحترام والمساواة مع الآخرين . أما الدين فكان لابد أن يمتزج بالدعوة لسببين : الاول ، هو ان الاضطهاد المنصب عليهم كان له طابع دينى ، والثانى : هو ان الدين يصلح شعارا عاطفيا لاقناع اليهود بتأييد الحركة الصهيونية السياسية . وأما فكرة العودة الى فلسطين بالذات ، فقد اتخذت شعارا لاثارة الحماسة العاطفية والدينية . بدليل ان بعض القائمين بالحركة ناقشوا مرة فكرة اقامة دولتهم فى تنجانيقا ، كمستعمرة بعيدة خالية

والدليل الاهم على ذلك هو انه حتى بعد أن أقيمت دولة اسرائيل فعلا ، لم يهرع اليهود اليها كما كان الناس يظنون ، انما ذهب اليها فقط الذين يعيشون فى بلاد

اضطهدوا فيها أو فى بلاد ذات مستوى منخفض من المعيشة . أما يهود غرب أوربا مثلا ويهود أمريكا ، فلم يذهب منهم أحد الى أرض الميعــاد رغم صيحات بن جوريون التى وصلت به ـ من شهور ـ الى حد اتهــام كل يهودى يرفض الحياة فى اسرائيـــل بأنه خارج على الديانة اليهودية . وهى التصريحات التى أثارت ضجة ما زال الجميع يذكرونها ..

* ان اسرائيل هى بنت أوربا ، وان كانت بنتها غير الشرعية . فاضطهاد اليهود فى أوربا أمر صحيح تاريخيا . وكونهم ذبحوا بالآلاف ـ وبمئات الآلاف ـ حقيقة واحدة . والذى ارتكب هذا الجرم هو حضــارة أوربا . الامر الذى دفع مئات الآلاف منهم الى الفرار ، فى أعداد قليلة قبل النازية وفى أعداد كبيرة بعــدها . ولــكن هؤلاء المهاجرين كلهم أوربيون بغير شك . ومن هنا تنشأ علاقتهم المعقدة بأوربا ، علاقة ابن الســفاح بأبيه . ان الاب فى هــذه الحالة يخجل من ابنه الذى أنجبه سفاحا . انه لا يحب أن يراه الناس أو ينسبونه اليه . انه لا يستطيع أن يجعله يعيش معه فى بيته تحت سقف واحد ومع أولاده الشرعيين . ولــكنه مع ذلك لا ينسى انه ابنه وانه ينتمى اليه ، فهو يحرص على مساعدته والاهتمام بأمره ، عن بعد !

أوربا خجلى من حضارتها التى أثمرت ـ فيما أثمرت من خير وشر ـ مذابح اليهود ، ولــكنها ليست مستعدة أن تجعلهم يعيشون تحت سقفها . والا لتدفق اليهود الى غرب أوربا ولم يبرحوها . فلا بأس أن يذهبوا الى مكان آخر ، على أن تعولهم أوربا وترعاهم

والغريب ان الصهيونيين المتعصبين يساورهم نفس الشعور . فاذا كان كثير من اليهود يفضلون لو بقوا فى

أوربا ، فلا شك ان فيهم الذين يؤمنون بأن أوربا يمكن أن تضطهدهم فى أى وقت وانهم لذلك يجب أن تكون لهم دولة مستقلة فى مكان ما . ولـكن حتى هؤلاء لم يتحولوا مثلا الى اقامة مجتمع معـــاد لاوربا ناقم على اضطهادها له . انهم حريصون ـ بعد أن أقاموا دولتهم ـ على أن ينتموا لاوربا ويظلوا جزءا لاصقا بها .. ابن السفاح يبعد عن أبيه واخوته الذين لم يولدوا سفاحا ، ولـكن حاول أن يكون نفسه وينجح ، ثم يعود للانتساب لهم كما يعود الند للند

اسرائيل اذن تكونت بفعل الحركة الصهيونية لاقامة دولة يهودية من جهة ، وبفعل أوربا من جهة أخرى . وهى تعيش بالدافعين معا. ولـكن الخلاصة ان اسرائيل هى نطفة من أوربا تنمو حيث تلامس جلدنا

وما هو وضع أمريكا ، وهى صاحبة الدور الاول فى اقامة دولة اسرائيل ؟ ..

دورها يمكن شرحه فى كلمة واحدة : ان كل الاسباب التى تجعل أمريكا مرتبطة بأوربا ، تجعلها بالتالى مرتبطة باسرائيل !

وقد سمعت من يهودى غير صهيونى فى أمريكا منذ عام ، ان من أسباب حماسة أمريكا بعد الحرب لاقامة اسرائيل ، ألا تتجه هجرة اليهود الهاربين من النازى .. الى أمريكا نفسها !

أوربا اذن .. أو الغرب .. أو الحضارة الغربية .. هى التى أرسلت اسرائيل فى النصف الاول من القرن العشرين الى الوطن العربى ، كما أرسلت نابليـــون فى النصف الاخير من القرن الثامن عشر .. لنفس الاهداف الاستعمارية مع الفوارق المعروفة طبعا فى سائر الظروف

فكيف لقينا هذا الزحف الجديد ؟ ..

اننا الآن ـ لاننا قريبون من المأساة ـ لا نسترجع القصة الا بالحزن والاسى . ولكن الناس بعد مائة عام لن يجدوا هذا الذى حدث أقل غرابة مما حدث حين التقى المماليك بالحملة الفرنسية منذ أكثر من مائة وخمسين عاما ! ..

فالصدام الذى وقع على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ ، وما قبلها وما بعدها ، لم يقع بين كذا ألف جندى عربى وبين كذا ألف جندى اسرائيلى . كلا .. انما كان الصدام بين : أوربا بقوتها الحضارية والمادية .. بسلطتها السياسية وخبثها الدولى من جهة ، وبين العرب بنظمهم المفككة ، ونظمهم الاقطاعية ، وفقرهم المادى من جهة أخرى ..

كان المماليك فى أواخر القرن السابع عشر أحسن من حكام العرب وملوكهم عام ١٩٤٨ . فالمماليك على الاقل قاتلوا قبل أن يهربوا بحريمهم ومجوهراتهم تاركين الشعب الذى سرقوه وأجاعوه بمفرده . أما فى عام ١٩٤٨ فقد كان بعض الساسة العرب يلتقون بجولدا مايير ، وموشى ديان فى السر لكى يخطط معهما المعركة التمثيلية التى سيموت فيها آلاف الجند . وكان فاروق يتاجر فى الاسلحة . وكان نورى السعيد ، وعبد الاله يأمران الجيش العراقى بألا يتحرك على الاطلاق .. الى آخر القصص التى أصبحت حقائق معروفة ذائعة !

فهنا أيضا وجد الشعب نفسه متروكا أمام أداة ضخمة حديثة هائلة .. وكان الشعب أيضا لا تنقصه الشجاعة ولا البسالة .. ولكن تنقصه الاداة !

كانت الصهيونية ـ باختصار شديد ـ تمثل الغرب بكل قوته ، ومعرفته بأدوات العصر الحديث السياسية والعلمية والحضارية .. بينما كان الشعب العربى

مختنقا من الاستعمار الغربى ، ومن الاذناب المحليين ، ومن مماليك القرن العشرين فى صور جديدة ..

ثم ماذا ؟ ..

الذين يحبون جمال‌عبدالناصر فى هذا العالم ، والذين يكرهونه على السواء ، لن يجدوا مفرا ، وهم يؤرخون ويحللون الصدام بين أقدار العرب واسرائيل ، من أن يقسموا قصة هذا الصدام قسمة حاسمة الى مرحلتين:

قبل عبد الناصر ، وبعد عبد الناصر ..

لقد نبت من هذا كله جيل جديد كافح على مستويات مختلفة وبامكانيات متباينة فى شتى الاقطار العربية من اجل نقلة جديدة فى حياة العرب ، جيل لا شك أن عبد الناصر هو اكبر رموزه ، وأكبر من وضع هذه الآمال موضع التنفيذ

قبل عبد الناصر ، فى حدود الزاوية التى أعالجها فى هذا المقال ، ماذا كان هناك ؟ ..

من ناحية الصهيونية ، نجد انه من أهم الدراسات التى يجب أن نعرفها حقا تاريخ تلك الحركة وعملها الدائب فى قلب أوربا وأمريكا منذ ولدت . كيف كانت تستخدم الضغط والمساومة ، والرجاء والاملاء . كيف كانت تضع فى قلب الشرق الاقطاعى مزارع صهيونية تعاونية مؤسسة على أن تكون كل منها وحدة انتاجية واستهلاكية وعسكرية محاربة معا ، تكون نقطة للهجوم كما تكون قلعة تصمد للحصار فى نفس الوقت . وكيف كانت تؤسس نقابات عمالية قوية تمسك بأعصاب المرافق وتتغلغل وتقيم الصلات فى شرايين الحركات العمالية العالمية من جهة أخرى .. وكيف انها تدرك فى خلال الحرب ان بريطانيا التى منحتها وعد بلفور لن تصبح القوة البازغة فى نهاية الحرب ، فتنقل ـ الصهيونية ـ

نشاطها الى نيويورك ، ويكمن وايزمان هناك ليمارس كل أنواع الضغط والاقناع والمساومة مع روزفلت ، ثم ترومان ، ليجد ترومان فى نهاية الحرب فى مركز من يصدر الاوامر الى آتلى فى لندن . وكيف انها حتى فى هذا كله لم تغفل عن ان روسيا هى القوة الاخرى البازغة فهى تحوم حولها ، وتقنعها بأن العرب هم برادع الانجليز، وانهم غير موجودين كقوة فعالة ، فتحقق ما لم يحققه أحد ، وهو اجتماع أصوات أمريكا وروسيا على انشاء دولة اسرائيل . وكيف كانت الصهيونية تقيم مصانع السلاح والذخيرة فى قلب فلسطين .. مصانع كاملة نقلتها سرا قبل المعركة التى كانت تعرف انها آتية .. الى آخره .. الى آخره .. كانت « اوربا تمارس كل خبرتها وقوتها وسلطتها ودهائها معا »

وفى مقابل ذلك ، من ناحية العرب.. ماذا كان هناك ؟

ملخص الامر كله أن نقول : ان كل الطبقات الحاكمة فى البلاد العربية كانت لا تخرج عن دائرة بريطانيا ولا ترى سوى شمسها ، منذ أعاد الانجليز خديو مصر الى العرش بقوة السلاح بعد أن أخمدوا الثورة العرابية .. ومنذ لبس لورانس العقال فى قيـادة الثورة العرابية خلال الحرب العالمية الاولى .. منذ ذلك الوقت لم تر الفئات الحاكمة فى كل البلاد العربية شيئا الا انجلترا . ولم تعترف بشىء الا بسلطة الانجليز وسطوتهم وقدرتهم .. وهكذا .. فبالنسبة لفلسطين كان كل الجهد هو رجاء الانجليز ، ومفاوضتهم ، والغضب منهم يوما ، لمهادنتهم يوما آخر .. وانجلترا وأوربا كلها تبيعهم يوما بعد يوم .. وهم يقبلون منها هذا يوما بعد يوم ! ..

***

ولقد كانت الشعوب تقاوم هـذا كله . وتحاول أن

تتغلب على تخلفها الرهيب : تارة بانتفاضات شعبيـــة باسلة تسفح الدم ، وتارة بمحاولات فردية باسلة لنشر نور الوعى أو لاقامة منشآت اقتصادية وانتاجية وعلمية حديثة . ولـكن هـذا الانطـلاق الى العصر الحديث والى الحضارة لم يكن أبدا جهدا قوميا شاملا تشترك فيه الحكومة مع الشعب ، والمـال مع العمل والعلمـاء مع البسطاء فى حركة عضوية واحدة ..

... الا حين بدأت المرحلة التى يرمز لها ويمثلهـا عبد الناصر

والاحداث القريبة معروفة ومذكورة يكفى هنا ذكر بعضها :

* فصفقة الاسلحة ، وتحطيم الاحلاف العسكرية ، وتمصير المؤسسات القومية والمالية والانتاجية ، وتكتيل الرأى العام العربى الشعبى فى لحظات خارقة يضـغط فيها الشعب العربى بأكمله على العدو ضـغطة واحدة رغم أنف حكوماتها ، والانطلاق فى رحلة الحياد الجسور حين كان طريقها ما يزال شائكا وعرا مهلـكا .. كل هذا أدى الى وضع جديد تماما ، هو : ان قوتنا الذاتيـة وارادتنا الذاتية فى مقاومة اسرائيل لم تعد متوقفة على رغبـــة أوربا أو الغرب كله ، أى على آباء اسرائيـــل الطبيعيين ، كما كان الحال من قبل

ويكفى للدلالة على عمق التحول ، اننـــا بعد أن كنا معزولين تائهين ، وبعد أن كان ســاستنا يذهبون الى الامم المتحدة مثلا أشبه بالقرويين الضائعين فى مدينــة صاخبة ، بينما الشرق والغرب معا يؤيدان اسرائيل .. أصبح الآن نصف العالم ـ المعسكر الشرقى ـ يعادى اسرائيل ويساندنا تماما ، وأصبحت كتلة كبرى من دول آسيا وافريقيا تدير ظهرها لاسرائيـــل بينما المعسكر

الغربى نفسه يتردد طويلا قبل أن يجاهر بمساندتها على حسابنا كما كان يفعل من قبل ..

***

ولم يتم هذا التحول بخطب منبرية فى الامم المتحدة ، أو بمذكرات قانونية ترسل الى وزارات الخارجية فى لندن ، أو موسكو ، أو واشنطون . انما تم ببناء قوة ذاتيـــة مرهوبة الجانب ، وبوجـــود من يدرك أدوات السياسة الدولية الحديثة ودقائقها ، وبخلق مفـاهيم عربية جديدة وحمايتها وسحق أعدائها ..

ثم هناك رفع شـــعار الثورة الاجتماعية ، وهى فى الواقع حجر الاساس لبناء أى مستقبل ناجح لنا فى هذا الصدام الطويل ..

انها ثورة لتحقيق العدل من جهة ، وللحاق بالعصر الحديث وامتلاك أدواته من جهة أخرى ..

والثورة الاجتماعية تبــدو الآن وكأنها محور الجدل والصراع فى العالم العربى . والهياكل الرجعيـــة التى اندحرت واثبتت افلاسها امام اسرائيل عام ١٩٤٨ وما بعدها تشن اليوم حملات ضارية على الثورة الاجتماعية وحين تعجز هـــذه الهياكل الرجعية عن مهاجمة الثورة الاجتماعية مواجهة ، ومن الامام ، تعمـــد الى محاولة ايهام الشعب العربى بأن انجاز هذه الثورة الاجتماعية يبعدنا عن ساحة الصراع ضد اسرائيل ..

وهذا هو التضليل بعينه .. وهو أخطر تضليل يجب علينا أن نكشفه فى هذه الفترة ونفضحه بشجاعة ..

لقد قادتنا هذه الهياكل الرجعية مرة ضد اسرائيل .. ونحن نعرف ماذا كانت النتيجة ..

هذه الهياكل الرجعية التى هى رمز تخلفنا القديم ، تكتشف اليوم ان استمرار تخلفنــــا ضرورى لبقائها .

ولـكن استمرار تخلفنا ضرورى لبقاء اسرائيل أيضا ! .. « ان التخلف هو الشىء الوحيـــد الذى يضــــمن لاسرائيل أن تبقى فى أرضنا الى الابد »

وليس أمرا خاليـــا من الدلالة ان متوســـط دخل اليهودى فى فلسطين قبل حرب فلسطين كان ١٤١ جنيها فى العام ، بينما متوسط دخل العربى كان ٥٠ جنيها .. وان مجموع انتاج اليهود فى فلسطين ــ الاقلية ــ كان ٨١ مليونا ، بينما كان مجموع انتاج العرب ــ الاغلبية ــ فيها ٦٢ مليونا

المعركة لا يحسمها كذا ألف جندى ، وكذا وكيت من السلاح . ان هذا هام وحيـــوى الى أقصى الحدود ، ولـكن أى جيش لايؤدى مهمته الا اذا كان مستندا الى مجتمع قوى متقدم سليم . قدرة أى جيش مرتبطـة ارتباطا عضويا بقدرة المجتمع نفسه وفاعليته ..

***

الثورة الاجتماعية اذن .. والثورة الصنـــاعية .. والثورة الثقافية .. واقامة مجتمع سليم عصرى متحضر ، هى المعركة الجدية التى تحسم معركة هـــذه الاقــدار المتصادمة فى مداها الطويل ..

بعد عدوان ٥ يونيو

كيف تهب عواصف الدعاية الصهيونية ؟

لا يمكن للانسان أن يتصور ، من بعيد ، مدى الحمى الصهيونية التى لفحت وجه باريس ـ مثــــلا ـ قبيل العدوان •• وأنا اتحدث عن باريس كنموذج للغرب •• لانني كنت فيها خلال تلك الساعات العصيبة •

لو أن باريس ذاتها هى التى يحاصرها العدو ، لما استطاعت الصحف الفرنسية ان تصرخ بأعلى مما تفعل الآن!

وعندما كانت الطائرة تهبط بى فى مطار أورلى ، والصحف بعناوينها المرعبة فى يدى .. تصورت أننى سأجد أهل باريس وقد حفروا الخنادق فى الشوارع كما كانوا يفعلون أيام ثوراتهم القديمة ، وأن وجهى المصرى لا بد سيستفز كل من تقع عينه على .. وانني سأجد من يمسك بخناقى كل خمس خطوات !

ولكن .. لا شيء من هذا . الربيع فى باريس هوالربيع . والفرنسى العادى يتأمل صحافته فى دهشة أكثر مما يتأملها فى تجاوب .. وان كان هذا لا ينفى بالطبع حدة المعركة التى يواجهها أى عربى فى باريس .. والتحدى السافر المستمر له ..

على أن هذه الحمى الرهيبة .. لها أكثر من معنى .. أو لها أكثر من سبب ، يهمنا منها فى الدرجة الاولى سببان:

السبب الاول : ان الحكومة هنا بالذات ، حاولت أن تسير على غير الهوى الصهيونى .. فجاء حتى موقفها المعتدل ، الذى ليس معنا وليس معهم ، كاشفا فاضحا للزيف الصهيونى العريض ..

السبب الثانى: هو أن أمريكا تدخل بكل قوتها وأسلحتها وأموالها فى أوربا هذه المعركة ضدنا

السبب الأول ، الذى يجعل هذا الصراخ أكثر لزوما لهم ، فى باريس بالذات ، هو موقف ديجول من الازمة

وليس معنى ذلك أن ديجول معنا مائة فى المائة . أو أنه من أنصار القضاء على اسرائيل أو ضد اقامة علاقات حسنة بينها وبين فرنسا . ولكن ، كأنه كان المفروض فى المنطق الصهيونى والاستعمارى الغربى أن يقف ديجول من اللحظة الاولى مع اسرائيل وضد العرب، مهما كانت الظروف والاحوال ..

كل ما فعله ديجول انه احتفظ برأسه هادئا وسط العواصف المشبوهة . أراد أن يكون منطقيا فى موقفه الدولى المستقل الذى يحاول أن يفهم ويكسب دول العالم الثالث وقد رأى فوق ذلك يد امريكا فى تسيير السياسة الصهيونية وتدعيمها وفى الضغط المستمر على الدول العربية المتحررة وخصوصا الجمهورية العربية المتحدة ..

وقد قال لى شخص قريب من الحكومة الديجولية .. أن ديجول قال مرة ، منذ وقت قريب : ان عبد الناصر لا غنى عنه مطلقا بالنسبة لمستقبل دول العالم الثالث وبالتالى للتوازن الدولى بوجه عام ..

من هذه الاعتبارات اتخذ ديجول موقفا مستقلا خلاصته : ان فرنسا ضد من يبدأ بالقتال .. وانه يجب

البحث عن حل للمشكلة عن طريق التفاوض .. وأشار الى مشكلة اللاجئين الى جانب مشكلة خليج العقبة ،أى انه وسع دائرة البحث فى القضية ، وأخيرا اقترح مؤتمرا رباعيا من انجلترا وفرنسا وروسيا وأمريكا ..

هذا الموقف أثار اسرائيل من عدة نواح

فهو يشير الى « من يبدأ القتال » واسرائيل بالذات ، بعد خطوة اغلاق خليج العقبة ، هى التى تريد أن تبدأ القتال

وهو يشير الى جانب آخر من جوانب القضية ، هو مشكلة اللاجئين وهو جانب يحاول الصهيونيون طمسه والفرار من بحثه لانه نقطة الضعف الخطيرة ضدهم ، والشاهد الماثل على فضيحتهم ، وعلى وجودهم بالقوة ، وعلى وحشيتهم النازية ، وعلى رفضهم قرارات الامم المتحدة .. فى الوقت الذى يبحثون فيه عن وثيقة غير موجودة تعطيهم حقا فى العقبة

وهو ــ ديجول ــ باقتراحه الاجتماع الرباعى يلغى نهائيا ما تبقى من أسطورة البيان الثلاثى ويجعل روسيا طرفا فى القضية

وفوق هذا فقد رفض ديجول الدخول فى مشروع « الدول البحرية » الذى تحشد له أمريكا وانجلترا كل قوتهما فى الضغط ..

هذا الموقف الديجولى الذى يقصم ظهر « الاجماع الغربى » ويكشفه للناس ، كان سببا آخر لكى تختار العواصف الصهيونية الاوروبية باريس بالذات مكانا لكى تهب فيه كالاعصار

وقد وجدت أمريكا فى هذا الاعصار فرصة لمحاربة

ديجول فى أوروبا بوجه عام وفى فرنســـــا بالذات .. فأضافت قوتها المالية والســـياسية ، وتغلغلها فى دوائر المال والاقتصـــاد والصـــحافة والاحزاب .. الى قوة الصهيونية ،وتغلغلها فى نفس الدوائر

على أن هذا الحلف الصهيونى ، الامريكى ، حين اختار باريس ليخوض فيها معركة الرأى العام الاوربى ، استطاع أن يستقطب حوله عناصر كثيرة شديدة التباين والتنافر ، ولكن جمعت بينها مصالح ومواقف غريبة

فكل من يعارضون سياسة ديجول من عناصر اليمين المرتبطة بأمريكا صناعيا وتجاريا واقتصاديا ،وجدهاساحة مناسبة لخوض معركة اخـــرى ضد العـــرب ، وضد ديجول بشكل غير مباشر ..

وكل الفاشيست الفرنسيين ، ممن اشتهروا بمعـــاداة اليهود والسامية ، والوقوف مع هتـــلر خـــلال الحرب المـــاضية ، ذرفوا دموع التماسيح فجأة على اسرائيل.. لمـــاذا ؟

لان هؤلاء أنفسهم هم الذين استبدلوا « معـــــاداة السامية » القديمة بـ « بمعاداة العروبة » .. ففيهـــم الذين يحملون جراح الحروب الاستعمارية الفاشـــلة من الهند الصينية الى السويس الى شمال أفريقيا ..والذين حاربوا ثورة الجزائر بالذات .. والذين يكرهون التقـــدم العربى ويرونه ــ فى صورة سلفية ــ تحديا حضـــاريا متجددا لهم على الضفة الاخرى من البحر المتوسط .. هؤلاء لا يفهمون ان العالم مقبل على عصر من التعـــدد والمساواة • انما يرون التاريخ صراعا بين حضارات فاذا لم تسحق أوربا اليهود ، سحقها اليهود ، واليوم : اذا لم تسحق اوربا العرب ، سحقها العرب ، وبهذا المنطق التقى

الصهيونيون بمنظمة الجيش السرى الفرنسية ضد ثورة الجزائر فى شهورها الاخيرة .. وبهذا المنطق ، كما قال بحق « اتيين فاجون » رئيس تحرير الاومانيتيه : التقى بتكسبير فينانكور رجل حكومة فيشى المعادى للسامية مع اليهود ضحايا معسكرات الاعتقال النازية فى الهجوم الحالى على العرب .. والتى روتشيلد صاحب اكبر بيت مالى يهودى فى فرنسا مع « داسوى » صاحب مصانع الطائرات التى خرج كل سلاح الطيران الاسرائيلى تقريبا من مصانعه » ..

على أن الفضيحة الكبرى كانت فضيحةاليسارالفرنسى، والاشتراكيين بالذات ، وعدد من كبار الكتاب والفنانين..

ان اليسار الفرنسى الذى تجمع بينه معارضة ديجول، يضم الآن جناحين أساسيين : الحزب الشيوعى الفرنسى من جهة ، والحزب الاشتراكى « جى موليه » ومنظمات متشابهة يرأسها فرانسوا ميتران الذى يقدمه اليسار بديلا لديجول ..

والحزب الشيوعى الفرنسى ، هو أكبر منظمة سياسية فى غرب أوربا وقفت معنا فى هذه الازمة فى وجه عواصف الصهيونية العاتية . ومن اللحظة الاولى سجلت ولا تزال تسجل الاستراتيجية الاستعمارية بوجه عام والامريكية بوجه خاص التى تمثلها اسرائيل وتتحرك فى نطاقها ، وهذا موقف شجاع يستحق منا أن نقدره . وهو موقف يكلفهم غاليا ، لانه كان أول شقاق جدى بينهم وبين سائر قوى « اليسار » : وتحالفهم مع سائر اليسار الفرنسى مطلب عزيز يعملون له منذ سنوات ، ويريدون له بشدة ان ينجح . فهم حين يقفون موقفا مخالفا حاسما يعرضون هذا المطلب الهام للخطر وهم منذ انفجار الازمة لا يفتئون يتعرضون لضغط شديد لتغيير موقفهم ..

أما الحزب الاشتراكى والمنظمات المشابهة فالى جانب أنه حزب حرب الجزائر ، وحزب مؤامرة السويس ، وحزب تسليح اسرائيل ، فهو حزب لا يفهم حتى الآن مطلقا ثورة العالم الثالث وقد خسر بتحامله على مصر هذه المرة فرصة أخرى لكى يحترمه العالم الثالث ، أنه حزب مريض بعقدة العرب . مريض بعقدة اليسار الثورى . مريض بعقدة التبعية لامريكا ، مريض بعقدة خيانته للاشتراكية

وليس أبأس بعد ذلك من منظر جان بول سارتر وجماعته من المثقفين الفرديين التقدميين ..

فهؤلاء الذين يحاربون جونسون ويحاكمونه ، ويؤيدون ثورات كوبا وفيتنام وغيرها .. لا يترددون لحظة فى الوقوف المطلق الى جانب اسرائيل دون أى استقلال أو تأمل أو دراسة وليقولوا بعد ذلك ما يشاءون .. كاشفين عن الازرار التى تضغط فتحركهم كالدمى ..

وقد صفعهم جميعا تأييد كوبا وفيتنام الشمالية لمصر والعرب ..

صفعهم تبرع شباب فيتنام وآسيا وأفريقيا بالدم مع شباب العرب

.. ووقف كلود لانزمان الصهيونى نائب سارتر وأقرب مساعديه يقول وقد طاش صوابه : اذا كان جونسون يحمى اسرائيل فليحيا جونسون !

وهكذا سقط قناع افتعال التقدمية لخدمة اسرائيل لا لخدمة التقدمية مرة واحدة ..

من الذى بدأ العدوان ؟

ليست قضية نظرية !

يهز بعض ساسة الغرب وكتابه أكتافهم هـذه الايام ويقولون صراحة : مسـألة من الذى بدأ العـدوان أصبحت الآن مسألة نظرية . لا يهم الآن ما اذا كانت اسرائيل أم مصر هى التى بدأت العدوان . علينا فقط أن ننظر فى نتائج الموقف الراهن .. يقولون ذلك طبعا بعد ان افتضح تزييفهم الاول وزعمهم أن مصر هى التى بدأت القتال ..

ولكننـا نقول لهم : كلا .. هذه ليست مسألة نظرية . انها مسألة شديدة الاهمية ، لا بالنسبة للأزمة الراهنة فى الشرق الاوسط ، ولـكن بالنسبة للعالم كله ! ..

ان الخديعة والمفاجأة تعطيان أحد الطرفين فى القتال ميزة كبرى . ولو شاع القول بأن مسـألة البـادىء بالعدوان مسألة نظرية ، فسيكون سهلا أن يتكرر هـذا فى أماكن كثيرة من العالم : ان تجمع احدى الدول كل قوتها . تركزها فى توجيه ضربة عنيفة مفاجئـة الى عدوها ، ثم تحاول الهرب بغنيمة العـدوان ! .. لو استقر هذا فلن ينام الليل أى شعب له مشكلة مع دولة أخرى !

لقد عاشت الولايات المتحدة الامريكية ذاتها زمنا طويلا مصابة بعقدة الهجوم المفاجىء الفادر ! .. كانت اليابان تفاوضها وتوهمها بأنه لا حرب فى ذلك الوقت « تماما كما سبق الهجوم الاسرائيلى ايحاء بأن المباحثات السلمية ستبدأ » وفجأة انقضت اليابان فى الهجوم الجوى الشهير على « بيرل هاربور » وعلى شتى قواعد أمريكا البحرية والجوية فى المحيط الهادى . وكانت الضربة مفاجئة وقاصمة لدرجة جعلت أمريكا هى وحلفاءها تحارب متقهقرة حتى فقدت الشرق الاقصى بأكمله وانسحبت من بورما والملايو والفيلبين واندونيسيا والهند الصينية .. قبل أن تسترد قوتها وترد الضربة

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كان الفكر السياسى والعسكرى فى العالم كله مركزا على : طريقة الوقاية من الهجوم المفاجىء !

مسألة من البادىء بالعدوان المفاجىء اذن ليست مسألة ثانوية أو نظرية . انها مسألة أساسية . والعقاب عليها واتخاذ موقف حاسم منها أمر يمس نظام العالم كله !

واذا لم يحل العالم مشكلة الفدر بالقانون.. فسيكون عليه ان يدخل فى سلاسل من معالجة الفدر بالغدر .. أو الغدر بالثأر !

ومن أغرب وأطرف النغمات التى عزفت عليها صحافة الغرب وساسة الغرب عندما حقق الهجوم الاسرائيلى المفاجىء الغادر أهدافه : مناشدتهم الاتحاد السوفييتى ألا يتدخل ، ولا يقف الى جانب العرب ، لان هذا معناه تدويل الازمة ، وايجاد مواجهة جديدة بين روسياوأمريكا، وتهديد السلام العالمى !!

يريدون بالطبع أن يطمسوا حقيقة كبرى فى الموقف :

ان تدويل القضية قد تم من طرف أمريكا بالفعل • وهم بهذا المعنى يحبذون التدويل من جانب واحد •• التدويل بمعنى تدخل الغرب وحده • والتدويل حيث يخدم اسرائيل وحدها !

والرد هو : متى كانت اسرائيل ، منذ خلقت ، بنت الظروف المحلية فى المنطقة العربية وحدها ؟ وكيف كان يمكن أن تنشأ اسرائيل من الاساس ، لو كان الامر للظروف المحلية وحدها ؟

أمريكا وانجلترا خلقتا اسرائيل • وأمريكا بالذات تسلح اسرائيل وتمولها وتتآمر معها وتساعدها بوسائل المخابرات الخفية لكى تحقق أهدافا عسكرية وسياسية معينة ضد البلاد العربية ، وتدخل الاتحاد السوفييتى ليس الا رد فعل لهذا التدويل الذى فرضته أمريكا ••

أمريكا تريد أن يكون تدخلها فى أى منطقة من العالم أمرا عاديا وتدخل غيرها يتنافى مع « المحلية » !

أمريكا تريد أن يكون كل مكان من العالم بيتها •• مباحا لها وحراما على غيرها !!

اسرائيل هى التى تعيش بتدويل القضية •• وتموت بعدم تدويلها ! ولكنها تريد فوق ذلك •• أن يكون التدويل من جانب واحد ! •

قال كاتب انجليزى منصف : مشكلة اسرائيل مع العرب ليست فى كونها مجتمعا يهوديا يريد أن يكون جزءا من الشرق الاوسط ، ولكن فى كونها مجتمعا غربيا ، يريد أن يكون رأس جسر للغرب فى الشرق الاوسط !!

الورقة الاولى فى المرحلة الراهنة

منذ أول صفحة في هذا الكتاب ، وفى طبعته الاولى ، كنت أحاول أن أقول : ان قضيتنا مع اسرائيل ليست قضية عسكرية . قد نشتبك مع اسرائيل عسكريا مرة ومرات ، من حين لآخر . ولكن هذا جانب فقط من الصورة الشاملة للصراع . وان معركتنا مع اسرائيل معركة « حضارية » . معركة مع الغرب المتقدم القوى . وان اقامة « مجتمع سليم عصرى متحضر ، ودولة عصرية حديثة ، هى المعركة الجدية التى تجسم هذا الصراع فى مداه الطويل » .

هل كنا محتاجين الى دليل يثبت لنا ان اسرائيل هى الغرب وأمريكا ؟ ها قد جاءنا ـ بالتدخل الامريكى فى الحرب الاخيرة ـ دليل جديد

هل معنى ذلك اننا يمكن ان نضع الصدام العسكرى جانبا ؟ كلا .. فالعدو نفسه ـ لانه اسرائيل والغرب والاستعمار ومصالحه الاستراتيجية الدولية ـ لاينحى الصدام العسكرى جانبا . واذا لم نفرض عليه هذا الصدام العسكرى فهو يفرضه علينا . لهذا فلا بد ان يكون العنصر العسكرى فى حسابنا دائما . ولا بد ان

نعيد بناء جيش قوى مهما كانت الظروف . لان الغرب القوى القادر المتقدم ، كلما أعيته الحيل فى الضغط على العالم العربى وكلما عجز عن التأثير عليه من الداخل، لجأ الى سلاحه الاخير : اسرائيل ..

اسرائيل تحارب للغرب ، وتحارب لنفسها أيضا

تحقق للغرب بعض أهدافه ، وتحقق هى فى ظله ، وبالمناسبة ، وكثمن للقتال ، أهدافا خاصة بها ..

على ان الحديث فى هذه الآفاق الواسعة للصورة قد يطول . ونحن الآن أمام موقف قاس محدد . وازاء وقت ضيق . والسؤال الملح المباشر هو : ما العمل ؟ أو ما هى الاوراق التى فى يدنا الآن بعد النكسة القاسية ؟

ان أول ورقة هامة فى يدنا هى : الجبهة الداخلية ..

ان الاخطاء كبيرة وكثيرة . ونحن فى تقدمنا السريع الشامل خلال السنوات الماضية وعلى جميع الجبهات السياسية والاجتماعية والصناعية والعسكرية والدولية ، غفلنا عن فجوات وتخلخلات خطيرة . خرجنا من دائرة القطر الزراعى الراكد المحتل المحدود الى دائرة البلد الكبير النامى المتحرك المناضل المؤثر فى العالم ، ولكننا فى هذه الرحلة حملنا معنا الكثير جدا من عيوبنا القديمة .. الفردية والشللية والحساسية الشخصية والتسلق الاجتماعى والاهتمام بأداء الواجب مظهريا دون ادائه واقعيا وبحذافيره . نقلنا معنا من عالمنا القديم عيوب عدم التنظيم وعدم الدقة العلمية الى عالم أصبح التنظيم فيه والدقة العلمية أشياء تحسب بواحد على الف من السنتيمتر وواحد على الف من الدقيقة والثانية

الاخطاء اذن كثيرة . والناس يريدون أن يعرفوا ان الاخطاء يحاسب عليها بالفعل ، لان هــذا هو الطريق الوحيد لتلافيها فى المستقبل . وهذا مطلب عادل وواقعى ومشروع ، دون أن نقع فى دوامة مبالغ فيها من الندم ولوم النفس يجعلنا ننكفىء على وجوهنا ونصاب بالشلل ازاء موقف خطير لا يحتمل منا أى جمود

ونحن مهما ساعدنا الاصدقاء فأهم شىء أن نساعد أنفسنا . بل ان الاصدقاء سوف يساعدوننا بقدر ما ننظم أنفسنا ونصعد . والاعداء سيحسبون حسابنا بقدر ما ننظم أنفسنا ونصعد ..

والى جانب اعادة بناء القوة المسلحة ، والبدء فى رصد الاخطاء .. تبرز قضية هامة ذات أثر كبير على الجبهة الداخلية وهى القضية الاقتصادية ..

ان من أكبر أسلحتنا فى معركة تصفية آثار العدوان هو قدرتنا على الصبر ، والصبر والصمود يكلفنا فقد مورد قناة السويس وفقد مورد السياحة وربما موارد أخرى لفترة من الوقت قد تطول . وعلامة عزمنا على احتمال هذا الثمن هو أن نبدأ فورا فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لمواجهة هذا العبء . وكل تأخير فى اتخاذ هــذه القرارات يجعل ثمنها أكبر . لا بد لنا اذن من « اقتصاد حرب » حتى يعرف الاعداء اننا سوف نحفر خنادقنا ونصمد فيها . والشعب ازاء الموقف الخطير مستعد للتضحية اذا وجد انها تضحية تشمل الجميع ، تشمل القادر قبل غير القادر ، وان حصيلة هــذه التضحية تستخدم بحرص وفى مجالها الصحيح . ولن نجد فرصة مثل هذه للقضاء على كافة صور الاسراف الداخلى والخارجى

شىء آخر أعتقد انه بالغ الاهميــــة فى بنـــاء الجبهة

الداخلية ، هو أن نعيد النظر فى سياستنا نحو الرأى العام المحلى ، والعربى ، والعالمى أيضا ، وان كان هذا بحثا آخر

لقد كنا فى معظم الاحوال نحاول من حيث لا نشعر ان نقدم للرأى العام الجوانب المشرقة للصـورة ، وان نعبئه بمزيد من الامل المطلق ، ونطلق العنان لمن يكتبون ويدعون ويذيعون ، يتصاعدون فى فصاحتهم وفى وعودهم بشكل مقلق . وكأننا نشعر ان الرأى العام هش قابل للـكسر لا يتحمل تقبل الحقائق بتعقيداتها وبظـلالها الحقيقية . وهـذا تصور غير دقيق . ان الرأى العام يجب أن يواجه بالحقائق وبالمعلومات الصحيحة وبالآمال والمحاذير فى أحجامها الحقيقية. هذا الجو الذى يضيف انتباه العقل الى قوة العاطفة ، هو الذى يربى الرأى العام تربية صحيحة ، وهو الذى يجعله ـ نفسيا ـ فى موقف المشترك فى المسئولية لا المتفرج ..

ولنضرب مثلا صريحا على ذلك بشعار : تدمير اسرائيل

ان هذا الشعار ليس موضع التحقيق خلال هـذه المرحلة لكل الاسباب الدولية والاقتصادية والاستعمارية المعروفة . ومع ذلك فرفع هذا الشعار والحديث عنه وكأنه يمكن ان يحدث غدا يجعلنا ندفع ثمنا فادحا من اعتراض الرأى العام العالمى ، دون أن يكون فى مقـابل هذا الثمن امكان تحقيقه . المرحلة الحالية مرحلة تقوية وتنمية وتجميع وتموين امكانيات العالم العربى. ومرحلة العمل لـكى تضعف كفة الاستعمار بكل صوره فى المنطقة أساسا وفى العالم بوجه عام ، بوصف ان الاستعمار هو سند اسرائيل الحقيقى . ومرحلة تعرية وجه اسرائيل الحربى العنصرى العدوانى المرتبط بالاستعمار. ومرحلة عزلها وهى على هذا النحو عن كافة القوى التقدمية ،

ومرحلة استخدام المصالح الدوليـــة المرتبطة بالعرب لتكون مع العرب لا ضدهم ..

لا أحد فى العالم ـ الاصدقاء والاعداء والمحايدون ـ يوافق على محو اسرائيل . فهم جميعا يفهمون الامر فهما تاريخيا خاطئا ، على درجات بالطبـع . فليست هذه نقطة البدء السليمة معهم الآن . وليس هذا الشعار كما قلت موضع التحقيق فى هذه المرحلة . ولـكن رفع هذا الشعار جعل اسرائيل تكسب أول معركة دعائيـة ضدنا ، قبل ان تنطلق رصاصة واحدة . احتاج العالم الى وقت حتى يفيق الى ان اسرائيل هى الترســانة العسكرية ، وهى التى تعمل يدا بيد مع قوى أجنبية ، وهى التى بدأت بالعدوان العسكرى . هذا فضلا عن ان رفع هذا الشعار فى غير أوانه يعبىء الرأى العام العربى الداخلى تعبئة خاطئة ، تصور له ان المشكلة كلها يمكن أن تحل بضربة واحدة ..

بقى شىء آخر يخطر على البال فى الحديث عن ورقتنا الاولى فى المعركة ، أى الجبهة الداخلية ..

تلك هى التدريب العسكرى ..

ان الانطباع الذى يتكون لى من قراءة الصحف ـ وقد يكون انطبــاعا خاطئا ـ هو اننا ندرب أكبر عدد من الناس ، كل من يتطوع ، تدريبا سريعا بسيطا ... فى حين ان الواجب فى هذه المرحلة وازاء الموقف الراهن ان نحدد هدفا عدديا معينـــا ، ثم نختار له من بين المتطوعين أنسبهم فى السن والوعى والقابلية ، وندربهم تدريبا حقيقيا عنيفا على أسلحة متنوعة متقدمة ..

فى اسرائيل ، فى الحرب والسلم على السواء ، كل

فرد حتى سن الخمسين يتدرب يومين كل شهر، وشهرا كل سنة ، لـكى يكون على الدوام جنديا حقيقيا متكاملا متطورا على أحدث الاسلحة وأحدث التكتيكات . لا على مجرد ضرب النار فحسب ..

ونحن فى حاجة الى أن يعرف الجميع ان وراء الجيش المقاتل شعبا مستعدا للقتال لا بالحماسة وروح التضحية والفداء فحسب ، ولـكن بالحساب والخطة والدراية العسكرية لمثل هذا النوع من حروب المقاومة ..

مطلوب دول عصرية

عندما نمعن النظر فى أحوال البــلاد العربية كلها ، بنظمها الاجتماعية المتعددة ، وبمواقعهــا المختلفة قربا وبعدا عن خط النار ، نجد انها محتاجة كلها ، بدرجات متفاوتة طبعا ، الى شيء أساسى هو : أن تكون « دولا عصرية »

منطق الدولة العصرية أو الحديثة ، منطق تحتاج اليه الدول العربية اشتراكية كانت أو رأسمالية ..

فالدولة الاشــتراكية الآن لا تستغنى عن أن تكون عصرية والدولة الرأســمالية لا تستغنى عن أن تكون عصرية ..

والخلاف بين الاشتراكية والرأســمالية لن ينقطع . سنظل نحن مثلا نقول : ان الاشــتراكية هى الاجابة الصحيحة لمشاكل العصر خصوصا فى البلاد المتخلفة ، وسيظل غيرنا يقول بعكس ذلك ، والتحول الاجتماعى الشامل على المدى البعيد سوف يحسم هذه القضية . ولــكن الامر الذى ليس فيه خلاف وليس فيه شك هو اننا جميعا محتاجون الى الاسلوب العصرى والمنطق العصرى . بل اننا فى هذا المجال نشدد الطلب على الدول التى تتجه الى الاشتراكية لانها هى التى يجب ان تكون

اكثر استعدادا وتهيؤا لهذا المنطق العصرى

واثارة هذه القضية الآن وفى هذه الظروف بالذات ، ليس ترفا . بل انه ضرورة حاسمة . صحيح انه أمر لا يؤتى أثره فى أشهر قليلة ، ولـكنه أمر حاسم فى المدى الطويل ، ومهما كان مطلوبا منا من عمل ونضال فورى ومباشر ازاء الموقف الراهن فهذا لا يغنى عن سياسات وشعارات المدى الطويل . وما لم نبدأ بحسم وجدية فى اكتشاف هذا الطريق منذ الآن ونحن لا نزال نشعر بلسعة النكسة ، فقد يكون مشكوكا فيه ان نندفع بنفس الحماس حين تنقشع النكسة وتزول آثار العدوان ..

ان الدولة المحاربة فى حـد ذاتها هى الدولة التى تستطيع أن تصل فى ساعة الصدام الى أقصى درجات التنظيم ، بحيث تستطيع أن تضع أكبر قدر من طاقتها بأقل درجة من الارتباك فى كفة القتال ..

والطاقة على القتال هى امتداد طبيعى للطاقة الطبيعية لـكل شعب : خصوصا فى الحرب الحديثة . لا يمكن ان نطلب من شعب اعتاد عدم التنظيم فى حياته العادية ان ينقلب بين يوم وليلة الى شعب مهيأ لقبول نظـام صارم حاسم .. لا يمكن ان نطلب من شعب لا يعرف فى حياته العادية قيمة الآلة وثمن الوقت أن يكتشف فجأة فى ساحة القتال قيمة السلاح وثمن الدقيقة والثانية..

العمل اذن من أجل مجتمعات عصرية ودول عصرية ، ليس ترفا ، وليس أمرا مؤجلا ، بل انه أمر ضرورى وحاسم لانه يتحكم الى حد بعيد فى مستقبلنا فى أوقات السلم والحرب على حد سواء ..

ومن الاوهام التى انتشرت بيننا جميعا ونحن نسعى للحاق بالعصر الحديث وتحدياته انه يكفى أن نشترى « معـدات » العصر الحديث .. من آلات ومصـانع

وادوات ، لكى نصبح دولا حديثة ومجتمعات حديثة .
ومن المهم جدا أن نعرف الآن ان « اقتناء » هذه الادوات ليس كل شىء . ان هذا يذكرنى بخيمة فاخرة يمتلكها بدوى عربى ثرى ، زرتها منذ عشر سنوات فى الخليج العربى : اذ دخلت الخيمة فوجدت فيها كل أدوات العصر الحديث .. أكثر من ثلاجة وأكثر من جهاز تكييف وأنواع الراديو الترانزيستور وأجهزة العرض السينمائية وكل ما يخطر على البال من معدات وأدوات أخرجتها مصانع أوروبا . دخل هذا كله على حياة البدوى صاحب الخيمة التى أصبحت خيمة فاخرة مصنوعة بدورها فى الخارج .. ولكن البدوى صاحب الخيمة نفسه كما هو، لم يتغير عقلا ولامنطقا ولا أسلوب حياة ..

ليست القدرة على « اقتناء » أدوات العصر الحديث المادية المصنوعة اذن هى العصرية .. فهناك قبل ذلك سؤال : « ماذا تقتنى وماذا لا تقتنى » .. ثم هناك قبل ذلك : أن تتحول الادوات فى الايدى العربية الى أدوات خالقة ، لا ادوات صماء ..

« العصرية » اذن هى فى الانسان . فى العادات والتقاليد والاخلاقيات . فى العلاقات الاجتماعية وفى تنظيم العمل وفى دفع ضريبة التنظيم العصرى ..

والتنظيم ليس معناه كما يفهم أحيانا من الكلمة حشد الناس فى صفوف وطوابير بل ان معناه توزيع المسئولية وتحديد الاختصاص واعطاء حق المبادرة فى دائرة هذا الاختصاص ، على أن يدور العمل كله بعد ذلك فى انسجام تلقائى

والتنظيم بهذا المعنى ليس بديلا عن الاسلوب الديمقراطى فى العمل : فجزء من التنظيم الحى ان تنظم

عمليـــة التعبير عن الآراء وتلاقى الخبرات لاستخلاص أسلم الآراء من مزيجها جميعا .. دون أن يغفل هـذا سرعة البت والحسم اللازمة فى المجتمع العصرى

ان المواطن العربى الآن ، فى حالة استعداد للتضحية من أجل تجاوز النكسة والانتصار عليها. ولكن التضحية ليست فقط بجزء من المال ، أو بالاستشهاد والموت ..

احيـــانا تكون التضحية بالموت أسهل من التضحية بقبول شروط العصرية والعلمية ومتطلباتها ودفع ثمنها. وهذا ما نحتاج اليه أيضا ..

التضحيـــة بقبول منطق المجتمع العصرى والدولة العصرية ، قد يكون أصعب من التضحية بالنفس .. لانها تضحية مستمرة بطيئة ، يومية ، يدفعها المرء من تغير أفكاره وعاداته ، ومن وضـــعه الشخصى ، ومن امتيازاته التى يود الاحتفاظ بها ، الى آخره ..

ان بقاء أوضـــاع تقوم على الطائفية أو خلافات مع أقليات قومية كما فى بعض البلاد العربية ـ مثلا ـ ليس مما يناسب الدولة العصرية والمفاهيم العصرية

ان ما نراه من تبعثر وتشرذم جماعات سياسية اذا قرأت برامجها وأفكارها لم تجد بينها خــلافا ، انما الخلاف شخصى يذكيه الطموح الشخصى أو عدم الرغبة فى التفاهم والتنازل ، ليس وضعا عصريا يناسب حياة سياسية عصرية : عليهــا ان تتخطى العقد والرواسب القبائلية لتتفرغ لمـا هو أهم ..

ان ما يسود فى الحياة العربية من تقديم الشخصية على الموضوعية ، ومن الدور الكبير الذى تلعبه المعرفة والعلاقة الشخصية والالفة الفردية فى وضع الناس فى هذا المكان أو ذاك ، قبل الصفات الاجتماعية والموضوعية ومدى الالتزام بالقضية ، ليسجوا يناسب دولة عصرية.

فهو لا يضع الفرد حيث يقدر وحيث يستحق ، وبالتالى لايجعل البلاد العربية تستفيد من كفاياتها الحقيقية ، فوق انه ينمى صفات الزلفى والملق وحاجة كل فرد الى أن يحمى نفسه باتصالاته لا بعمله ، الامر الذى ينطوى على انعكاسات سلبية خطيرة

ولو تأملنا ، مثلا ، هذا « الفاقد » الهائل فى الخبراء والفنيين فى شتى الفروع السياســـية والاقتصـــادية والعلمية والعســـكرية ، ممن أخرجتهم من بلادهم أو أعمالهم آراء نادوا بها أو موجات السياسة فى شتىالبلاد العربية ، وكل منهم أنفقت عليه بلاده آلاف الجنيهـــات وعشرات السنين حتى يتكون .. لو تأملنا هذا العدد الهائل لتصورنا هول الخسارة

وبعد ..

فهذه أمثلة عامة جدا ، أسردها لا لانها الاهم ولكنها أشهر وأبسط ما يخطر على البال .. ويبقى السؤال قابلا للبحث والجدل : ما هو المطلوب لكى تتكون لدينا دول عصرية ؟ ..

من فى المصيدة ؟

من يقف فى « مصيدة » الموقف الراهن ؟ العرب أم اسرائيل ؟ الروس أم الامريكان ؟ الدول المنتجة للبترول أم الدول المستهلكة له ؟ مصر التى تفقد رسوم القناة أم الدول التى تفقد مزايا المرور منها ؟

أظن أن الاجابة الصحيحة عن هذا السؤال هى : الجميع !

والقول بأن العرب ، لانهم خسروا المعركة العسكرية ، يقفون بمفردهم فى المصيدة غير صحيح ، وخطر هـذا الشعور هو أنه قد يؤدى الى انتشار روح انهزاميـــة لا يبررها تأمل كل الظروف

صحيح ـ مثلا ـ ان اسرائيل تحتل مساحات حيوية من الارض العربية عقب نصر عسكرى سريع . وان العرب لم يفيقوا بعد تماما من هول الضربة . وان محاولاتهم لتجميع قواهم ما زالت « قيد المحاولة » حتى الان

ان اسرائيل ، المنتصرة عسكريا ، فى المصيدة أيضا . صحيح ان باب المصيدة ليس محكم الاغلاق عليها ، بل هو « موارب » فقط ، ولكن اغلاقه ممكن . وهذا يتوقف على العمل العربى

اسرائيل تحتل مناطق حيوية من بلادنا ، وهذه ورقة هامة فى يدها ، ولكن هذه ورقة « ضغط » لا ورقة « تثبيت وضع دائم » . الامر الذى يضعف الورقة الى حد بعيد

وبشيء من التفصيل .. نجد ان اسرائيل — لو دخلنا عقلها — ترى انها تحتل ثلاثة أنواع من الارض العربية : أراض تعلم تماما أن عليها أن تنسحب منها ذات يوم بأى شكل وتحت أى وضع ، هى سيناء ومناطق الحدود السورية ، النوع الثانى أراض تعتقد اسرائيل انها يمكن أن تدخل عليها تعديلات جوهرية قبل أن تنسحب منها ، هى الضفة الغربية للاردن وقطاع غزة ، كأن تعمل على تهجير الاهالى من هنا أو هناك أو تحاول الحصول على تعديلات فى الحدود لمصلحتها فى هذه المنطقة أو تلك . والنوع الثالث هو الذى تطمع اسرائيل جديا فى الاحتفاظ به نهائيا ، وستكون مقاومتها للانسحاب منه أعند وأشرس ، وهو منطقة القدس بالذات ..

تشبث اسرائيل اذن يختلف من جزء لآخر ولكنها تعلم فى قرارة نفسها انها لا تستطيع أن تحتفظ بهذه الاوراق نهائيا أو أن تستمر فى حملها طويلا

هل معنى ذلك أن ليس على العرب الا المكوث والانتظار ، واستخدام لعبة الصبر ؟

كلا ..

ولكن معناه أن نجعل هذه الورقة التى تمسك بها اسرائيل ، أثقل على يدها وأشد عبئا

ذلك بأن يتحرك نوع من النضال الجدى فى المناطق المحتلة . وما حدث من تحركات بطولية حتى الان يثبت ان الامكانية موجودة . وان العرب فى الاراضى المحتلة لم يفقدوا روحهم المعنوية

والذى يسهل هذا الامر ، ويجعله ممكنا بل وضروريا، هو العنصر الآخر في موقف اسرائيل الــذى يجعلها فى « مصيدة » من نوع معين ..

ان العمل الفدائى داخل حدود اسرائيل قبل حرب ٥ يونيو ، كان يلقى معارضة من العــالم كله ــ خارج العالم العربى ، ذلك انه كان يصطدم « بالشرعيـــة الدولية » ، بصرف النظر عن رأينا فى هذه الشرعية . كان العالم لا يرى فى الامر الا : قوات « أجنبية » تتسلل من « دول » مجاورة الى أرض « دولة » معترف بهـــا دوليا للقيام بعمليات تخريب ..

ولكن اسرائيل الان بالتحديد ، من حيث أرادت أن تحارب لتكسب حدودها شرعية نهائية ، باعتراف العرب بها ، قد أنهت هذه الشرعية خلال المرحلة الراهنة

أمام العالم الان : المقاومة والعمل الفدائى داخــل الاراضى المحتلة ، ليس له صورة ولا وصف الا مقاومة شعب محتل لجيش أجنبى . العالم لم يكن يرى هــذا الوصف منطبقا على المقاومة داخل حدود اسرائيــل . حسنا . انه الان لا يمكن أن يرى غيره داخل الاراضى التى احتلتها اسرائيل مؤخرا ..

ان اسرائيل تبحث عن الشرعيـــة كأعز ما يمكن أن تريد ، ولكنها الان واقفة فى مصيدة عدم الشرعية وهذا ما يجب أن يستغل بشتى الوسائل والى أقصى الحدود : عسكريا ودبلوماسيا ودعائيا

وتصاعد العمل ضد الاحتلال الاسرائيلى من الداخل ، فى شتى المناطق ، هو الذى يفضح عدم الشرعية يوما بعد يوم ، ويجعل الوقت ضدها ، لا فى مصلحتها ، ويجعل ما تحتله ورقة ضغط لنا لا علينا

نفس القول ، ينطبق علىأمريكا ..

ان أمريكا تحاول أن تبدو واقفة خارج المصيدة ، وهذا غير صحيح ..

لا يبرح ذهنى قول جيمس رستون اكبر المعلقين الامريكيين بعد توقف القتال بأيام : ان أمريكا لم تؤيد اسرائيل فى الحرب « هذا رأيه » ولكن لا شك أن واشنطن الرسمية لم تشعر بالسعادة منذ سنوات بعيدة كما شعرت بعد انتصار اسرائيل العسكرى »

لماذا ؟

توقعت أمريكا أن تحل كل مشاكل الشرق الاوسط حلا حاسما يناسبها بضربة واحدة . تحصل على صلح دائم بين العرب واسرائيل . تسقط النظم والحكومات المشاكسة . تعيد كل ما فقد من السيطرة الغربية فى المنطقة . تعيد فرض الحصار والعزلة فى هذه المنطقة على الاتحاد السوفييتى

ولكن هذا لم يتم

الان يبدو مؤكدا أن حلا أمريكيا على هذا النطاق الشامل مستحيل . واذا كنا لا نستطيع القول واقعيا بأنه يمكن تحويل الموقف الى نصر شامل على أمريكا . فان المؤكد اننا نستطيع أننجعل أمريكا ترى انانتصارها الشامل أيضا مستحيل . وانه لن يترتب على عنادها فى تأييد اسرائيل أقل من الفوضى الشاملة التى تهدد ما تبقى من مصالحها ومصالح أصدقائها

وعقيدتى أن أمريكا لاتتمكن من أن تواجه نزيفا جديدا مستمرا متفاقما فى الشرق العربى فى الموقف الراهن الذى يهدد بمضاعفات جديدة فى آسيا وأوربا وأمريكا ذاتها

وهذا أيضا لا يكون بالقعود واستخدام لعبة الصبر

انما يكون بتحرك عربى شامل ، مهما كانت تعقيداته ومشاكله وبطؤه ، لا ترى أمريكا عاقبة له سوى قضم مصالحها يوما بعد يوم ، وهى المهمة التى يناقشها مؤتمر وزراء الاقتصاد العرب فى بغداد اليوم

لماذا .. الفشل العربى فى الدعاية ؟

نموذج صارخ من نماذج الخطـــأ العربى .. لانه حين تكون القضية مطروحة منذ أكثر من عشر سنوات ، وحين تتوالى عليها اللجان بعد اللجان ، وتتدفق عليهـــــا الاعتمادات بعد الاعتمادات وتدور عجلة التعيينـــــات والتنقلات ، ثم لا تسفر هذه الجعجعة كلها عن أى طحن . فمعنى ذلك أن فى الامر شيئا !

فى الامر مرض دفين اسمه : الحـــل البيروقراطى للمشاكل !

أى الرد على كل مشكلة بلجان واجتماعات وتعيينـات واعتمادات مالية .. دون أن تصل الى ساحة العمـــل الحقيقى طلقة واحدة !

فكل قضية أو مشروع أو حملة .. تســـــفر عن مستفيدين ، لا عن مقاتلين ومنفذين !

***

من ذلك : مشكلة الدعاية العربية فى الخارج ! وملايين الجنيهات التى تحولت الى مرتبات وايجارات شـــقق وتذاكر سفر وسيارات مرســـــيدس وتعيين للاقارب والمحاسيب . أى ملايين الجنيهات التى لم تسفر عن شيء ينصب فى عقل الرأى العام العالمى ، ولـكنها أنصبت فى

جيوب أصحاب العمارات في نيويورك وشركات السيارات في المانيا وانجلترا ودكاكين التحف في باريس !
لماذا ؟
لاكثر من سبب . فالاعلام أو الدعاية أو تقديم الصورة العربية في الخارج يحتاج أولا كأى شيء آخر الى فكر .. ثم الى تخطيط .. ثم الى تنفيذ

***

تحتاج اولا الى فكر .. وبالتالى فأول أسباب فشلنا هو : غياب الفكر .. وغياب العلم !

ان الدعاية السياسية ليست هي الفهلوة . وليست المطبوعات الانيقة ولا حفلات الاستقبال ولا الابتسامات الرقيقة . وهى قبل كل شيء ليست عملية بيع أى سلعة عن طريق تغليفها فى ورق مفضض ..
فقبل أن نقدم دعوة الى العالم يجب أن تكون فكرتها وفلسفتها مدروسة وصحيحة وصالحة للقبول ..
وهنا لا يمكن ان تكون لنا سياستان .. أو صوتان .. صوت نتحدث به فى الداخل وصوت آخر نتحدث به فى الخارج . قد يجوز هذا فى التفصيل ولكنه لا يجوز فى الاساس ..

ذلك لاننا لا نعيش داخل ستار حديدى

ما نقوله هنا فى أى عاصمة عربية ـ ونظن أنه للاستهلاك المحلى ـ تلتقطه وتسجله كل الصحف والسفارات ووكالات الانباء .. ليقرأه ويسمعه العالم كله بعد ساعات ..
وأعود الى المثل الصارخ الاساسى الذى ضربته منذ أسابيع وأزعج ـ وقتها ـ الكثيرين : شعار تدمير اسرائيل !

يقف السياسى العربى ، وكل همه أن يزداد حجمه فى السياسة الداخلية لبلاده ، لا ان يخدم القضية فى مداها الطويل ، يقف فى غزة أو فى غيرها ويقول بشكل عام مبهم مجرد : سندمر اسرائيل ! سنلقيها فى البحر ! .. وذلك دون قدرة ، بل دون صيغة أو خطة . ثم يكون على رجل الدعاية العربى فى الخارج أن يقول للناس هناك : هذا كلام للاستهلاك المحلى ! هذا كلام لا يقصده قائله حرفيا ! هذا كلام لا يستطيع سياسى ان يقول للناس هناك غيره ! .. الى آخر هذه الاعتذارات التى لا تثير الا السخرية ، ولا تصحح شيئا بهذا الهمس ازاء ضجيج ما نشر فى وكالات الانباء والصحف والاذاعات ! ولا يكون لنا حتى شرف من يقف الى جانب كلامه ويقول أنه يقصده حقا مهما كانت النتائج !

لا يمكن أن تقدم قضيتنا ضد اسرائيل بأسوأ واخطر من هذا التقديم !

هذا الشعار ، ازاء الجماهير العربية ، فيه تبسيط يصل الى درجة التضليل والخداع . انه كلمة خطابية سهلة ، ولكنها لا تضع أمام الجماهير الحقائق والمراحل المتعددة والطرق المعقدة التى لابد من سلوكها حتى نصل الى انتزاع شوكة الخطر الصهيونى والاستعمارى المغروزة فى جنب العالم العربى . بدلا من هذا نقدم للجماهير العربية شعارا مبهما يجعل الجماهير فى حالة تصور أن ثمة لحظة فى ظرف ما يحدث فيها حادث تختفى به اسرائيل فى غمضة عين . وهذه «ميتافيزيقية» سياسية خطيرة . وليس بعيدا يوم قال رئيس دولة عربية أن لديه خطة لتدمير اسرائيل فى ثلاث ساعات !

وهذا الشعار نفسه ، ازاء العالم الخارجى ، الصديق

والعدو ، لا يمكن ان يجلب لنا ذرة من التأييد

ما لم نقل للعالم : ان قضيتنا هى قضية دفاع قومى ضد غزو خارجى استعمارى . واننا نتسلح ونجيش الجيوش لنوقف موجة غزو متزايدة تستهدف اغراضا سياسية واقتصادية فى المنطقة . واننا مستعدون للوصول الى كافة الحلول الانسانية والبناءة فى اطار عالم عربى متحضر يقبل وجود أقليات لها حقوق .. ولكن هناك فرقا بين جماعة انسانية ذات دين مختلف تريد أن تعيش فى أمن وكرامة ومساواة قد تكون لها خصائص خاصة ولكنه لا يضر بالاطار العربى الحضارى العام وجماعة تتبنى دعوة عنصرية ، ونزعة ثأرية من آلام الاف السنين ، وتستعين على ذلك بمحالفة أى استعمار له مصلحة فى اضعاف المنطقة وضرب طموحها وكبت تقدمها ..

مالم ننطلق الى العالم من هذا المنطق العام .. فلا مبرر لان نخاطب العالم على الاطلاق ..

والعالم ـ بعد ذلك ـ يحترم القوة ، فاذا ذهبنا اليه باكين شاكين فهو لن يستمع الينا ، انما يجب ان يشعر الى جانب عدالة القضية ومنطقيتها ـ ان هناك شعبا مستعدا للقتال الحقيقى من أجلها

ولست أزعم ولا أحاول ان اقدم هنا بالتفصيل « الفكرة العربية عن حل مشكلة اسرائيل » فهذا بحث يجب أن يتكاتف عليه الفكر العربى فى صراحة وشجاعة وعمق وثقة بالنفس .. ولكننى فقط أسجل انه قبل « الدعوة » تأتى « الفكرة » .. فى حين أن الدعاية العربية فى العالم الخارجى كانت دائما بلا فكرة .. انما

مجرد ردود فعل .. وتردد بين الحماسة والاعتذار .. بين « لا معقول » الحل السحرى الذى يقع فى لحظة .. و «لا معقول» عدم الحل !

نقص خطير آخر فى « فكرة » الدعاية العربية فى الخارج هو : أنها ــ أى الدعاية العربية ــ هدفها الوحيد مهاجمة اسرائيل او الرد عليها

وهذا نقص خطير جدا لانه يسىء الى « الصورة العربية » فى حد ذاتها من جهة ، ويضعف قضيتنا ضد اسرائيل من جهة أخرى

ان قضية اسرائيل قضية خطيرة تواجه الوجود العربى وتتحداه وتهدده ولكنها ، فى حجمها التاريخى الصحيح ، لا تستنفد الوجود العربى ولا تستهلكه ..

الوجود العربى التاريخى والمستقبلى .. الحضارى والانسانى والثقافى والعلمى .. هذا الوجود هو الحقيقة الكبرى فى المنطقة ، وهو الذى يجب أن يقدم الى العالم . واسرائيل مشكلة خطيرة من مشكلات الوجود العربى ، ولكنها لا يجب ان تكون ــ فى الصورة العربية ــ أكثر من ذلك .

حين نقدم للعالم الفكر العربى القديم والحديث .. العلم العربى القديم والحديث .. الفن العربى القديم والحديث .. والمشاكل العربية الراهنة ومحاولات العرب للتغلب عليها وللمشاركة فى الحضارة الانسانية الحديثة . .

حين نقدم هذا كله للعالم سنجد أن هذا هام جدا لتغيير « صورة العرب » فى العالم من جهة انه هام بنفس المستوى فى قضية دعايتنا ضد اسرائيل

حين نقدم هذا كله ، معناه اننا نريد ان ندخل قضيتنا فى ذهن العالم من كل فتحاته : فتحات الفن والعلم

والصناعة والفكر والاجتماع · لا ان نحتشد عند فتحة واحدة هي : الرد على اسرائيل · فتكون لها دائما المبادرة ويكون لنا دائما الصدى ورد الفعل ..

كنت في اليابان يوما ، منذ حوالى ست سنوات .. واصبحت على اسم اسرائيل يملا الصحف يوما بعد يوم دون أن يكون في احداث المنطقة العربية البعيدة ما يبرر ذلك . كانت اسرائيل قد ارسلت فرقة موسيقية سيمفونية معروفة ، من ابرع يهود العالم العازفين على الالات الموسيقية ، لتقدم عروضا فذة في اليابان · فاليابان بعيدة عن الشرق الاوسط ومشاكله ، وهي ليست أوروبا الوثيقة الصلة باضطهاد اليهود القديم وبالحركة الصهيونية والجاليات القوية . فالسياسة والحرب والمشكلة الصهيونية ليست المنفذ السليم الى الاذن اليابانية النائية · ولكن هذه الفرقة اليهودية ، غير الاسرائيلية ـ التي تتجول باسم اسرائيل وتحت رايتها اعطت اسرائيل في اليابان صورة ترسب في الذهن العام ، وتصبح بمثابة رصيد تستخدمه اسرائيل حين تحل الازمات .

ومن أخطر وانجح الخطط التي أتبعتها الصهيونية العالمية منذ قيام اسرائيل ، تركيزها الهائل على تكبير الدور الحضاري لليهودية في المنطقة العربية بالذات وفي العالم بوجه عام . الافلام والكتب والتنقيبات الاثرية والدراسات الفولكلورية وغيرها ، كلها حاولت أن تضخم الدور الحضاري لليهودية وكأنه كان يملأ المنطقة عبر آلاف متصلة من السنين . في حين انها ـ كما يقول المؤرخ هـ . ج . ويلز في كتابه عن تاريخ العالم ، ليست سوى سطور عابرة متناثرة في كتاب حضارة الشرق الاوسط الضخم ، الذي سطره العرب ·

هذا كله ، لم تفكر فيه الدعاية العربية واجهزتهـــا قط . وما حدث فى هذا المجال حدث عرضـــا ومن قنوات أخرى ..

هذه الصورة السلبية للعرب .. صورة الذين تحولوا الى أسرى لقضية اسرائيل ومجرد رد فعل لها ، اساءت الى الصورة الاســـاسية للعرب واساءت الى موقفهم الاستراتيجى الدعائى ازاء قضية اسرائيل بالـــذات .. وجعل « فكرة » الدعاية العربية فى الخارج فكرة خاوية من زاويتها الايجابية ، زاوية المساهمة الضـــــخمة التاريخية والحديثة فى حياة العالم

***

يأتى بعد تشكيل « فكرة » الدعاية العربية : التخطيط لها ! ..

لمن نتجه بوجه عام ؟ ثم أى مادة نوجهها لاى فئـــة بالتحديد ؟ .. ثم ما هى النغمة الصالحة فى كل مرحلة من المراحل ؟ ..

لو شئنا تقسيم دول العالم فى مجال السياســـة فسوف نجد أن هناك دول المعســـكر الشرقى ، ودول الغرب ، ودول العالم الثالث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية .. ا

وأبرز ملاحظة ان جهد الدعاية العـــربية الاكبر يكاد يتركز فى دول الغرب ، أمريكا ، أوروبا الغربية ، هـــل لانها تمس مركز التأييد الرئيسى لاسرائيـــل ؟ أم لان « الدعاة العرب » يحبون الحياة فى هذه البلاد بالذات ، فلا تفتتح المكاتب ولا ترسل البعوث الا اليها ؟ أم مزيجـــا من الامرين معا ؟ .

المهم : ان ثمة غلطة سياسية كبرى .

نحن فى دول المعسكر الشرقى مثلا ، نعتبر تأييد حكوماتها الرسمى لنا كافيا ، ويغنى عن جهد الدعاية المستمر . وهذا خطأ . فقد يكون تأييد بعض هذه الحكومات لنا مبنيا على أسباب سياسية أخرى ، قابلة للتعديل . وقد يكون التأييد الرسمى فى حاجة الى مساندة شعبية تملى علينا ان نساعد هذا التأييد بأن نتجه الى الرأى العام أيضا فى تلك البلاد . ومن الخطر على أى حال أن نكتفى بتأييد القيادات السياسية والرسمية العليا ونترك اسرائيل تربى على مهل ما يسمى بالـ grass roots أى بالقواعد ، لان هذه ستكون لها يوما قوة ضغط لو تكون فيها تيار شامل ، وهذا ما تمارسه اسرائيل بالفعل ..

وفى دول العالم الثالث ، نجد أن ما يساعدنا هو دور الجمهورية العربية المتحدة التحريرى فى العالم الثالث ومساعدتها لحكوماته الوطنية وحركاته الثورية ، ولكن هنا أيضا نجد ان الفهم لقضية اسرائيل قليل والفهم لدور العرب الايجابى بوجه عام قليل

ثم الى أى الفئات نتجه ، سواء فى الشرق أو فى الغرب أو فى العالم الثالث ؟ ..

ان هناك دائما ما يتجه الى الرأى العام بغير تخصيص، ولكن هناك ما يتجه الى المراكز العصبية والفئات ذات التأثير .. وهذه هى ما ينبغى دراستها وفهمها والتركيز عليها ..

ومن المستحيل ترك المبادرات فى هذه المجالات لمكاتب الاعلام وأجهزتها تختارها بالمصادفة أو بالحدس أو كيفما اتفق . انما يجب أن يكون هذا محل دراسة خاصة فى كل قطر ذى أهمية خاصة ، على الاقل ..

هناك ـ مثلا ـ الاحزاب السياسية ، وهذه تحتاج

الى دراسة لاجنحتها وتياراتها والقضايا التى تؤثر على جماهيرها ..

وهناك الجامعات والمعاهد العلمية ومراكز البحوث . وهذه ذات تأثير خطير فى بلاد مثل فرنســـــا وأمريكا وانجلترا ، وما تحتاج اليه هذه المراكز هو عمــــــل فى مستواها العلمى وفى اهتماماتها المتعلقة بالعـــــــالم الاسلامى أو العربى أو الشرق الاوسط بالتحديد .

وهناك قطاعات الفنون والاعلام بشتى أنواعها ..

كما فى السياسة يوجد الاقناع والتأثير ، توجـــــد ايضا « المصلحة » ويوجد « لوى الذراع » وهــــــذه سياسة لا نأخذ بنتائجها قط .

فالعالم العربى يمثل مصالح اقتصادية كبرى لقطاعات قوية فى الحياة الاقتصادية للعـــــالم الغربى بالذات . البترول . ودوائر البنوك . وتجارة الاستيراد والتصدير بوجه عام .

هذه المصالح الاقتصادية ، ذات قوى ضاغطة كبيرة فى بلادها .. على البرلمانات ، وعلى أجهزة الاعــــلام ، وعلى الحكومات بشكل مباشر . ومن المؤسف أن هـــذا سلاح لم نحسن استخدامه قــــط ان لم يكن لمصلحتنا فعلى الاقل « لتحييد » بعض من يقفون ضدنا .

ان صناعة السلاح في فرنســــــا تويد اسرائيل لان اسرائيل ، من بين عدة أسباب ، زبون أساسى لهــــا . ولكن بلدا مثل ايطاليا تنمو مصــــالحه مع العرب نموا كبيرا وبالذات نتيجة لتدهور العـــــلاقات مع انجلترا وأمريكا وألمانيا الغربية ، دون ان يكون لهـــــذا اثر فى موقفها : ان لم يكن فى موقف حكومتهـــــا ففى موقف صحافتها او دعايتها او اى شىء آخر ..

ان مصالح اقتصادية كبرى ترتهن حياتها بنا ، وهذا

سلاح قد لا يجب أن يستخدم استخداما فظـــا أو خاطئا ولكن من المؤكد أنه يجب استخدامه لو درس وركز وطلب منه الممكن القابل للنمو بالتدريج ..

والتنسيق الاقتصادى العربى هنا ، والقـــدرة على اتخاذ مواقف مساومة موحدة ، أمر بالغ الاهمية ..

***

يأتى بعد ذلك دور التنفيذ ..

وهنا تطرح فى الدرجة الاولى قضية : من الذى ينفذ؟

أقصد : من الذى يفكر .. ثم من الذى يخطط .. ثم من الذين يقومون بالتنفيذ .. سواء مركزيا فى الجامعة العربية والعواصم العربية .. أو « ميدانيا » فى أنحاء العالم ..

ان أبرز ملاحظة هنا ، ان « البيروقراطية العربيــة » هى حاليا التى تفكر .. ثم تخطط .. ثم تنفــذ ... وليست « الانتلجنسيا » العربية ، ولا العنــــاصر السياسية العربية ، كما يجب أن يكون .. الا فى القليل النادر من الحالات ...

مستحيل أن نتصور ان البيروقراطية الوظيفيـــة العربية ، هى التى يمكن ان تقود وتحقق هذا العمــل الفكرى السياسى النضالى ..

البيروقراطية الوظيفية تتقن فنا واحدا هو فن التدرج فى الوظيفة والوصول الى مستوياتها العليا والاحتفــاظ بها ..

يضاف الى ذلك ان الحكومات العربية جرت على أن « تسقط » بعض عناصرها غير المرغوبة فى هذه المناصب، فتحل الحكومات بعض مشاكلها الوظيفيـــة أو الاقليمية بذبح قضية « الصورة العربية » فى الخارج ..

وهذا دليل على أن الامر هزل ، لا جد فيه ..

وكما قلت فى أول هذا الحديث : يتحول العمل العربى الى حاول بيروقراطية .. أى مكاتب وشقق وموظفين نحل بها مشاكل بعض الناس ..

وانني لا تساءل ..

اذا كان فى كل عاصمة أجنبية حوالى ١٣ سفارة عربية ، بثلاثة عشر سفيرا ، وعشرات من المستشارين والملحقين .. اذا كانت ١٣ سفارة تعجز عن هذه المهمة ، فهل ينجح فيها مكتب للجامعة العربية يضاف الى ١٣ سفارة ، وليس له امكانيات سفارة واحدة منها ؟

لو وفرت هذه النفقات لكى تنفق على « موضوع العمل » ذاته .. سواء مركزيا هنا ـ لا لخلق « اجهزة » ولكن لخلق « انتاج » يكون بمثابة ماء الحياة والفكر لهذا العمل .. أو بالعمل ميدانيا فى مواقع العمل .. لكان ذلك أفيد ألف مرة ..

ولو جاز لنا ان نضيف مكتبا يحمل رقم ١٤ بعد ١٣ سفارة عربية .. فالاولى أن يحمل اسم فلسطين لا اسم الجامعة العربية .. فيكون له طابع نضالى مباشر خاص بفلسطين ، وتكون فلسطين هى المطالبة بأرضها أمام العالم ، لها مجموعة « دول أخرى » كما يظن الرأى العام العالمى

ان الفرصة الراهنة فرصة مواتية جدا لطرح القضية الفلسطينية بشكل جديد وأسلوب جديد . واسرائيل تعرف ذلك فتصب فى ساحة المعركة الدعائية جهودا جبارة غاية فى الحيوية وسرعة الحركة والذكاء ..

اكتب هذا .. ثم اضرب المثل بساحة من هذه الساحات وبظاهرة من هذه الظواهر ، لا أعرف اذا كانت وزارات

الاعلام العربية على علم بهـا ، وعلى استعداد للاستفادة منها والتجاوب معها ..
فقد تلقيت فى الاسابيع الاخيرة بريدا غزيرا من باريس .. نشرات ومطبوعات تصدر من منظمات ولجان وحـركات جديدة ، فرنسيـة تماما ، وبعضها يهـودى بالذات . وجدت من واجبها أن تتحرك ازاء هذه القضية..وتفضل بعض القائمين على هذه الحركات والمنظمات فأرسلوا لى بعض نشراتهم وندواتهم ومطبوعاتهم ..

ففى الوقت الذى ترتعد فيه فرائص كاتب كبير مثـل جان بول سارتر ، بنى مجده لا على مؤلفاته الفلسفيـة والفنية فقط ولكن على وقوفه الى جانب « الحقيقـة » مهما كانت .. وفى الوقت الذى يفشل فيه سارتر عن فهم القضية ، وينكص عن اتخاذ موقف صريح منها خارج دائرة المنطق الصهيونى ويرفض رفع صوته بادانةصريحة للعدوان .. فى هذا الوقت ظهر فى فرنسا ، حيث هبت على الرأى العام عاصفة من أعتى عواصف الدعاية والاثارة الصهيونية . ظهر رجال شجعان مثل المستشرق والاستاذ الكبير جاك بيرك والاستاذ اليهودى اليسـارى العظيم ماكسيم رودنسون والكاتب الصحفى الوزير السـابق ايمانويل داستييه والزعيم الاشتراكى والوزير السابق اندريه فيليب وخبير التخطيط العالمى شـارل بتلهيم وغيرهم وغيرهم ..

ومن النشرات « نشرة مركز البحوث والوثائق عن أزمة الشرق الاوسط » ونشرات « لجنة البحث والعمل من أجل حل مشكلة فلسطين » وهى انشط الجماعات الجديدة ونشرات « لجنـة مقاومة العنصرية » وأخـيرا نشرات « لجنة الطلبة اليهود المعادين للصهيونية فى فرنسا ! »

وهذه الجماعات واللجان لها بالطبع مواقف غير موحدة..

فيها الاقرب الينا .. وفيها الاقل قربا وتفهما لنـــا .. ولكنها تتفق فى شىء أساسى هو : رفض الافكار الصهيونية الثابتة التى غرستها الدعاية الاسرائيلية غرسا فى العقـل الاوروبى ، ورفض سياسة اسرائيل العدوانية والتوسعية، وادانتها بالعدوان ، ورفض الفلسفة الصهيونية كفلسفة عنصرية ، ورفض دولة اسرائيل بوضعها السياسى الراهن، أى كرأس حربة غربية فى جسد الشرق الاوسط العربى ..

وهذه كلها تكون أرض حوار والتقاء خصبة تعطينـــا فرصة ضخمة للحركة : اذا أردنا أن نتحرك حقا .. واذا توفرت لحركتنا الشروط والمواصفات التى سبق الحديث عنها

وليس عندى بعد ذلك سوى أن أقدم مقتطفـات من نماذج الكتابات الواردة فى بعض هذه النشرات .. بما لها وما عليها ..

مثلا بيان لجنة الطلبة اليهود المعادين للصهيونية يقول بالحرف الواحد :

« تم تكوين لجنة للطلبة اليهود المعادين للصهيونيـــة فى فرنسا ، وعنوانها المؤقت هو « سالومون أسـيدوا ، ٢٧ شارع فينيون » . وقد تكونت االجنة على أساس المبادىء التـــالية :

١ ــ أن الصهيونية لا تقدم الا حلا وهميا لمشكلة معاداة السامية

٢ ــ أن الصهيونية ، لكى تحقق غرضها فى اقامةدولة يهودية ، قد وضعت نفسها فى خدمة القوى الاستعمارية ، والسياسة العدوانية الراهنة لدولة اسرائيل ليست الا جزءا من مخطط هذه القوى

٣ ــ أن انشاء دولة يهودية قد حرم الشعب الفلسطينى من حقوقه

٤ ـ انه يجب الاعتراف فى نفس الوقت بالحقـــــوق القومية لوطن يهود فلسطين ، ونحن نطـــالب زملاءنا التقدميين العرب بطرح افكارهم فى هذا المجال »

وكان الوزير الفرنسى السابق دانييل ماير ، اليهودى الصهيونى أيضا ، ورئيس لجنة حقوق الانسان فى فرنسا قد كتب مقالا فى جريدة لوموند قال فيه انه يشعر بالخجل من موقف ديجول فى عدم تأييد اسرائيل .. وفى احدى النشرات يرد الكاتبان اليهوديان ج و ف . شابير على دانييل ماير فيقولان :

« حيث أن رئيس جمعية حقوق الانسان قد أعلن عن « خجله » ، فاننا نحن أيضا نحب أن نسجل أسباب خجلنا ، بوصفنا مثقفين ، اشتراكيين ، فرنسيين ، ويهودا :

« نحن نشعر بالخجل لان بعض اليهود الفرنسيين تصرفوا وكأنهم وطنيون اسرائيليون يحملون جنسية دولة أخرى هى اسرائيل

« نحن نشعر بالخجل لأن بعض « المناضلين » صفقوا للحرب الخاطفة « بلتز كريج على الطريقة الالمانية » ، المصحوبة باستخدام النابالم

« نحن نشعر بالخجل لان عددا كبير من المثقفين الفرنسيين ساهموا فى خلق اكذوبة الحرب والعدوان . ولكننا فخورون لاننا بقينا أوفياء لمبادئنا »

ورد فنسان مونتيل الفرنسى الذى كان عضوا فى لجنة الهدنة الاولى مع الكونت برنادوت على دانييل ماير أيضا فقال :

« اننا نذكر جميعا أن اسرائيل فى سنة ١٩٥٦ كانت هى المعتدية ، بالاشتراك مع فرنسا وانجلترا . لقد اعتدى على مصر ولكن مصر لم تقبل أبدا الامر الواقع . وهى لم توقع قط على اى اتفاق حول حرية الملاحة فى مضيق تيران ،

الذى يقل اتساعه عن ميل واحد ، فى مياهها الاقليمية . وقد ظهر ان ٥٪ فقط من تجارة اسرائيل تصل اليها عن طريق ميناء ايلات وانه لا شيء يمنع الصهيونيين من التزود بما يحتاجون اليه من بترول عن طريق ميناء حيفا على البحر الابيض

« ومن جهة أخرى ليس صحيحا من الناحية التاريخية أن تستمر خرافة أن الصهيونيين موعودون بالعودة الى هذه الارض منذ أقدم الازل

« ان أبسط ما يقال هو ان فلسطين كانت دائما عربية منذ ثلاثة عشر قرنا » مسيحية ثم مسلمة

« حتى عندما صدر وعد بلفور ، لم يكن فى فلسطين سوى ٥٦٠٠٠ يهودى . وفى خلال ٣٠ سنة من الانتداب البريطانى ، لم يتمكن الصهيونيون من امتلاك اكثر من ٦٪ من الاراضى الفلسطينية ، رغم تحيز الادارة البريطانية الكاملة لهم .. ورغم هذا لم تستنكف الامم المتحدة من ان تعطيهم بمشروع التقسيم ٥٤٪ من فلسطين ، ولكن اسرائيل لم تكتف بذلك واستولت على ٨٠٪ من البلاد

« لقد وصلت الى القدس يوم ١٥ يونيو ١٩٤٨ مع اول فرقة من مراقبى الامم المتحدة بناء على طلب الكونت برنادوت . يومها كان العرب مازالوا تحت التاثير الرهيب لمذبحة دير ياسين ، التى وصفها كاتب صهيونى معروف هو جون كيمشى فى كتابه « الاعمدة السبعة المنهارة » فقال « .. لا شيء يبرر قتل ٢٥٠ عربيا بريئا ، معظمهم من النساء والاطفال ، ان مذبحة دير ياسين هى اكثر النقط سوادا فى تاريخ اليهود خلال هذه الفترة . وقد اقدموا عليها لخلق حالة ذعر بين العرب تدفعهم الى الهجرة » . وفى هذه الظروف لا يمكن تفسير عمليات الفدائيين العرب عبر الحدود الاسرائيلية الا على انها رد

فعل عنيف لفلسطينيين اخرجوا بالقوة من بلادهم . ولا يجب أن ننسى انه منذ ١٩٤٩ كانت اسرائيل ، واسرائيل وحدها ، هى التى أدينت من الامم المتحدة احدى عشرة مرة لخرقها اتفاقيات الهدنة . فهذا الذى يسمونه الامر الواقع ليس سوى تثبيت للظلم عن طريق القوة ولا يمكن أن نتصور أن مصر والبلاد العربية ستقبل هذا نهائيا

« تبقى نقطتان هامتان . الاولى ان اسرائيل التى يسمونها قلعة الديموقراطية ، تضطهد العرب المقيمين فيها ، حوالى ربع مليون بين مسلم ومسيحى ، بل وتطبق أنواعا من التفرقة العنصرية نحو بعض اليهود أنفسهم .. الشرقيين والآسيويين . النقطة الثانية ان الخلط بين اسرائيل رأس الجسر للاستعمار وبين ما ارتكب ضد اليهود من مذابح على يد هتلر ، خلط لا معنى له .. اذ لا توجد أى صلة بين العرب وبين معسكرات « أوشفيتز وتربلينكا »

وكتب اندريه فيليب الزعيم الاشتراكي الفرنسي والوزير السابق واستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية المعروف فى احدى النشرات يقول :

« الآن وقد هدأت المشاعر ، نسأل أنفسنا ما هى حقائق الموقف فى الشرق الاوسط الآن ..

١ ــ ان اسرائيل أحرزت انتصارا عسكريا ، قد يدخل كتب الحرب فى باب الحملات النابليونية

٢ ــ ان هذا الانتصار العسكرى عديم الفائدة فهو لم يمنع العرب من ان يفكروا فى استئناف القتال بصورة أو بأخرى . فالنتيجة الوحيدة للنصر الاسرائيلى هى تقوية فكرة الوحدة العربية وجعل استمرار النظم الاقطاعية فى المنطقة أكثر صعوبة

٣ ــ ان النفوذ الانجلو امريكى قد تقلص وانه رغم

هزيمة الاتحاد السوفييتى دبلوماسيا فقدقوى مركز روسيا فى المنطقة باستمرارها فى مساعدة العرب

٤ ــ ان دول العالم الثالث وقد رأت اى فجوة تفصلها عن البلاد الغنية ، لا يمنعها الآن من الارتماء تمـــاما فى أحضان روسيا أو الصـــين ، الا موقف فرنسا المتزن من النزاع ..

٥ ــ ان أزمة الشرق الاوسط قد وحدت صـــفوف دول المعسكر الشرقى بعد أن كانت بعض عوامـــل الفرقة قد دبت بينها « واذا كانت رومانيا قد ابتعـــدت ، فان يوغوسلافيا التى كانت مبتعدة ، قد اقتربت ! »

« والآن كيف يمكن البحث عن حل ؟ ..

« لكى يمكن البحث عن حل يجب هدم عدة اوهام عاشت فى المنطقة وتعمقت زمنا طويلا .

« ١ ــ منذ عشرين سنة ، كان أمل العرب تدمـــــير اسرائيل كدولة على أن يحل محلها مجتمع مسلم مسيحى يهودى على الطراز اللبنانى . ولكن تحقيق هذا الهـــدف أصبح متأخرا ، فقد أصبح لاسرائيل مؤسسات وصناعات ومجتمع حى . والغاء هذا معناه آلام جـــديدة هائلة . بل انه ليس من مصلحة العرب أن يعيشوا فى مجتمـــع مختلط مع الاسرائيليين بتفوقهم التكنيكى والمادى الذى سيجعلهم بمثابة أرباب عمل والعرب أجراء

« ٢ ــ يجب أن تحل نهائيا مشكلة اللاجئين التى تعـــد عارا على الضمير الانســـــانى . والحل هـــو خلق دولة فلسطينية ، سواء مستقلة او مرتبطة بالاردن . مع ايجاد ممر بين الاردن وغزة تتنازل عنه اسرائيل طبقا لمشروعات سنة ١٩٤٨

« ٣ ــ ان قبول العرب لهذا مستحيل مالم تتخـــل اسرائيل عن أحلامها الصهيونية وشخصيتها العنصرية .

طالما أن اسرائيل تزعم لنفسها حق تمثيل كل يهود العالم والسلطة القضائية على كل يهود العالم ، وحق تجميعهم كلهم الامر الذى لا معنى له الا البحث عن توسع جديد ، والا تعتبر اسرائيل نفسها رأس حربة للغـــــرب فى قلب المنطقة بل جزءا من مجتمع شعوب الشرق الاوسط »

انتهى كلام أندريه فيليب .. وهو قابل للمناقشة من ناحيتنا ولكن فيه نقط التقاء هامة مع الفكر العربى حول هذه القضية

وقد أعجبني قول احدى النشرات تعليقـا على تحيز الصحف الفرنسية لاسرائيل : انه بعد الـكلام عن حرية الصحف أصبحنا محتاجين الى البحث فى موضوع تحرير الرأى العام من الصحافة ! ..

وقد صدر أيضا هذا البيان الهام تحت عنوان « بيان من اليهود غير الصهيونيين » :

« على من يشعر من قراء هذه النشرة أن هذا الاعلان يمسه فاننا نرجوه بحرارة أن يقدر ظروف النشر الطارئة وأن يكتب الى « ماكسيم رودنس » ٢٧ ش فانو باريس ٧ وألا يتردد اذا كان لديه ما يقترحه من تعديلات

« نحن الفرنسيين من أصل يهودى الذين اعتادت لغة عنصرية على تسميتنا « اليهود » فقط ..

اننا من أصل ومن تكوين مختلف ولنا آراء مختلفة ولا يجمعنا الا رباط الاضطهاد الذى عانينا منه نحن وآباؤنا وأصدقاؤنا

نحن نحتج ساخطين على الاستغلال الدائم لنا ولآلامنا أو لآلام أقربائنا الذى تقوم به جماعات وهيئات « يقصـد الصهيونية » ودولة « يقصد اسرائيل » فى حين أن واحدا منا لم يعطهم توكيلا عنا فى هذا الشأن

« منذ زمن بعيد ونحن لا نريد التجمع بصفتنا يهودا ..

لاننا لا نعترف بالصفة الاساسية لهذا التحديد لاصلنا لقد تركنا اليهود المتدينين أو القوميين يتكلمون باسمنا ويقومون بنشاط ولكنهم استغلوا سكوتنا الذى فسروه على أنه موافقة ، فحصلوا مثلا على تعويضات لم يعطهم ضحايانا اى حق فيها ..

« ومادام العالم كله قد استطاع أن يحكم أننا نعتنق أفكارا ونشاطا آراؤنا تجاهها على الاقل تعتبر متباينة فنحن نعتقد ان الوقت قد حان لكى نعلن عدم مسئوليتنا الا فيما اخترنا أن نفعله بحرية ..

« نحن لا نعتبر انفسنا فئة من الناس وهبت ميزات معينة تبعا لاختيار الهى وقع علينا أو بسبب آلام تحملناها ـ ونحن لا نطالب بأى امتياز ولا بوطن اضافى للجوء او لتبديل وطننا الراهن ، وليس لدينا أى استعداد لتكوين جماعة مميزة ـ ونحن لا نستعطف أي تقدير خاص ولا نريد أى تعاطف مميز فذلك غالبا ما يكون مريبا . ونحن لسنا وحوشا ولسنا ملائكة ـ نحن ببساطة رجالا ونساء قررنا أن نؤدى واجبنا كمواطنين فرنسيين وكأفراد فى الانسانية ..

« ونحن نرفض أن نلعب على وجهين فنحن متضامنون مع كل اليهود المضطهدين فى أى مكان بصفتهم يهودا « أو لانهم يهود » ـ ونحن نصر على أن ندافع عن أنفسنا وان نكافح ضد أعداء السامية ـ ولكننا نرفض أن نشعر أننا مرتبطون آليا بكل ما تقرره جماعة ما من اليهود أو تفعله فى أى مكان

« نحن لا نمثل جزءا من أى هيئة دولية سرية أخذت على عاتقها الدفاع فى كل مكان وزمان عن مصالح مجموعات من اليهود سواء كانت هذه المصالح شرعية أم لا ـ ونحن نؤمن بواجب التضامن ولكننا نرفض أن نرغم على التواطؤ ..

« هناك مجموعات من اليهود لاتزال وفية لدين أجدادها .. ونحن نحترم هذه العقيدة حتى ولو لم نشارك فيها — ونريد لليهود ان تكون لهم الحرية فى كل مكان كى يباشروا ديانتهم هذه . ولكننا لا نعترف بأن يكون لهم حق التكلم باسمنا ونأسف لان رجال الدين اليهود فى بعض البلاد يخلطون بطريقة غير سليمة وخطرة على الديانة نفسها بين العقيدة الدينية والعصبية القومية — نحن لا نعتبر أن لنا علاقة مباشرة بما يحدث من تقارب او تباعد بين اليهودية والديانات الاخرى

« هناك جماعات من اليهود يريدون الحياة مع اليهود فقط — ويمكننا ان نفهم هذا الاختيار الذى لا نشارك فيه — ولكننا نرفض مرة اخرى أن يكون لهم حق التكلم باسمنا وان يعلنوا فى كل مكان اننا متضامنون معهم فى عقيدتهم وأعمالهم ..

« وبالذات فان دولة اسرائيل ليست دولتنا وليست وطننا .. انها دولة قد خلقتها جماعة من اليهود القوميين انتقدها منذ البداية أغلبية اليهود .. ان الحركة الصهيونية والدولة الصغيرة التى أسستها هذه الحركة قد قامتا بتفويضات تمت دون استشارتها وكانت فى أحيان كثيرة ضد رأى الهيئات اليهودية غير الصهيونية والذى أعلنته فى وضوح — واذن فليس علينا أى التزام تجاهها كدولة ..

« ان لدولة اسرائيل سياستها التى يقررها مواطنوها وحكومتها .. ويمكن ان يكون لنا آراء متباينة عن الأوجه المختلفة لهذه السياسة

« ولكننا نرفض أن نكون مرغمين على مساندتها فى كل الظروف ..

« ان انتصارات اسرائيل ليست انتصاراتنا وهزائمها

ليست هزائمنا - ان المعركة بين اسرائيل وبين الدول الغربية هى معركة بين دول ذات بناء حكومى وعسكرى قوى ، وذلك فى سبيل أرض معينة ، كما تتبع كل دولة منها سياسة معينة يمكنها أن تأخذ على الاخرى انتقادات لها أو ليس لها أساس ..

« بما أن امتناعنا قد أدى الى نتائج مؤسفة وذلك باشراكنا فى عقائد وأفعال دون موافقتنا فاننا نلتزم بأن نحاول منذ اليوم بأن نجعل صوتنا مسموعا والا نترك أنفسنا نلتزم رغما عنا بأى شىء ..

« ماكسيم رودنسون »

وبنفس المنطق كتب اليهودى الفرنسى الدكتور فانى شابيرا :

« ان قانون العودة الاسرائيلى ينص على أن كل يهودى فى العالم ، عندما يطلب ذلك ، يصبح على الفور مواطنا اسرائيليا فى حين أن العربى الفلسطينى الذى ولد هناك والذى رحل بالقوة لا يعود الا بصعوبة جمة ..

« اذن فان قانون العودة هذا ليس الا قانونا عنصريا فى جوهره .. وطالما أن هذا القانون لم يلغ فانه يمكن للعرب أن يقولوا ان العشرة أو الخمسة عشرة مليون يهودى الذين يعيشون فى العالم يمكنهم العودة الى اسرائيل ويمكنهم على الفور أن يصبحوا مواطنين - وبما أنه ، كما هو معروف ، لن يكون هناك مكان متسع فى الدولة الصغيرة كما هى الان فان على اسرائيل بطبيعة الحال أن تتوسع »

اعادة دولة فلسطين

هذا الشعار هو بغير شك الشعار المنطقى والمناسب للمرحلة التى نحن فيها . انه يحدد حجم « الخطوة الاولى والضرورية » التى لا بد لنا من انجازها أولا وهى اعادة قوى العدوان الى خطوط ٥ يونيو قبل أن نفكر فى خطوة أخرى ..

ومع ذلك ، فان تصور أن « ازالة اثار العدوان » معناها عودة كل شيء فى الواقع العربى الى ما كان عليه تماما وبالضبط ، تصور خاطيء ! ..

كثير من الاوضاع سوف تتغير ، وكثير من الافكار والاساليب سوف تتغير ..

ولهذا يجب أن نفكر ، من الان ، فى بعض هذا الذى يجب أن يتغير . خصوصا بعض ما يتعلق بقضية فلسطين بالذات ..

أبسط ما يجب أن نتعلمه من النكسة هو أن نسأل أنفسنا ، هل كانت الطرق التى سلكناها لمحاولة تحريك قضية فلسطين ، كانت طرقا سليمة أم أن هناك طرقا ومبادرات أخرى يجب أن نفكر فيها .. للحصول على الحق العربى الكامل ؟

ان كثيرا من الاوضاع العربية بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٦٧ ، أدت الى تجميد الموقف العربى ازاء قضيةفلسطين. كانت الحصيلة التى خرج بها العرب بعد ما يقرب من عشرين سنة هى مجرد « الرفض » اللفظى للوضع الذى تخاف عن سنة ١٩٤٨ ، حتى كسرت اسرائيل بعدوانها هذا التجميد وأصبحنا الان أمام واقع ساخن جدا ..

وفى هذه الايام التى نسمع فيها أنباء المقاومة الفلسطينية الباسلة فى الاراضى المحتلة — أول شىء جدى يجب أن يتم ويتدعم — يجب أن نستخلص من هذهالحقيقة أهم درس من دروس النكسة ..

ان أبسط وأهم شىء « للدفاع » ضد اسرائيل ، قبل أن نتمكن فى ظروف أخرى من الخروج من خنادق الدفاع، ولاحياء قضية فلسطين هو : أن تكون هناك أولافلسطين..

الغزو الصهيونى سنة ١٩٤٨ نجح فى اقتطاع جزء من فلسطين . ولكننا بدلا من أن نبقى ما تبقى من فلسطين متماسكا وصامدا ومطالبا ، قمنا نحن العرب بتفكيك ما تبقى فى أيدينا من فلسطين ..

الغزو الصهيونى سنة ١٩٤٨ ، بدأ فى تجميع المهاجرين واللاجئين اليهود من شتى أنحاء العالم ليحولهم الى مواطنين : مزارعين وصانعين ومحاربين . والعرب قبلوا تحويل المواطنين الفلسطينيين الى مهاجرين ولاجئين ..

وعندما مرت السنين بعد السنين ، وبرزت فكرة ايجاد كيان فلسطينى وتنظيم فلسطين ، وجدت المنظمة ، وهى فاقدة أهم شرط من شروط التعبير عن شعب وعن وطن : الارض ! هذا مع أن الارض ، مهما كانت قد تقلصت ، موجودة .. فأصبح « النضال » الفلسطينى يدار من القاهرة وبيروت وغيرهما من البلاد العربية .. الا فلسطين ! ..

وقد كان هذا كافيا لان يعطى العالم احساسا عاما بأنه لم تعد فلسطين ، ولا شعب مطالب بأرضه هو شعب فلسطين .. انما هى دول عربية مجاورة تقاوم دولة أخرى اسمها اسرائيل !!

لقد فرضت الظروف الدولية والاستعمارية أوضاعا أخرى مشابهة ـ مع الفوارق العديدة طبعا ـ فى بلاد أخرى ، فرضت التقسيم فى كوريا .. ولكن كل جزء يدعى أنه هو الاصل لم يحل وجوده لان الاستعمار اغتصب جزءا آخر . وفى فيتنام فرضت القوى الخارجية التقسيم، استسلمت لانتصار الثورة الوطنية فى فيتنام الشمالية واحتفظت بقاعدة استعمارية فى الجنوب . ولكن الوطن الناقص الذى لم يتمكن من كسب حقه كاملا لم يحل نفسه بل دعم وجوده وجعل من نفسه قاعدة لتحرير الجزء المستعمر المغتصب ..

اذن ؟

اذن فنقطة البدء البديهية والضرورية التى لا بد أن تدرس بل وتقرر من الان هى : أن تعود الى الوجود دولة اسمها فلسطين !

دولة تضم الاردن ، بالضفة الغربية للنهر والضفة الشرقية له ، وتضم قطاع غزة .. أى تضم كل ما تبقى من فلسطين زائدا ما كان يسمى شرق الاردن واندمج فى السنوات الماضية بفلسطين ..

قد يقال : ولكن هذا اقتراح لا يغير شيئا .. فهو مجرد تبديل اسم باسم ..

والرد على ذلك : أن أى مبادرة سياسية يمكن أن تقف عند العنوان فقط وتبقى كالاناء الفارغ من محتواه ، ويمكن بالعمل الدءوب أن تصبح تغييرا جوهريا ، يملأ الإناء الفارغ بمحتوى جديد ..

ان اعادة اسم فلسطين فى حد ذاته وكمجرد اسم ، سوف يكون له أثر معنوى وبالتالى سياسى كبير ازاء العالم وفى المراحل التالية للقضية : فها هو الاسم الاصلى القديم للبلاد قد عاد ٠ ها هى دولة فلسطين التى أغتصب منها جزء تقف صامدة فى الخط الاول أمام الاغتصاب تطالب بحقها المشروع ٠٠٠٠

يأتى بعد ذلك أن اعادة اسم فلسطين الى أرض فلسطين، يجب أن يستتبعه اعادة شعب فلسطين الى أرض فلسطين٠٠

ماذا كان يحدث بصراحة فى السنوات التسع الماضية لشعب فلسطين ، باستثناء من بقوا فى ديارهم الاصلية فى الضفة الغربية ؟ ٠٠

لم يكن أمام الفلسطينى الا أحد أمرين : اما أن يكون لاجئا عاجزا فى الخيام ٠٠ واما أن يتحول الى فلسطينى سابق ٠ يهاجر الى افاق الدنيا كلها من كندا الى أمريكا اللاتينية الى البلاد العربية كلها من الجزائر غربا الى الكويت شرقا ٠٠

ومن الذين كانوا يهاجرون ؟ ٠٠ أكثر أبناء فلسطين قدرة أو كفاءة وموهبة٠ الذين تحولوا الى رجال ناجحين ٠٠ كرجال أعمال أو مهندسين أو أطباء أو اقتصاديين أو صحفيين ٠٠

كل العناصر المتقدمة من هذا الشعب الكفء الذكى لم يكن أمامها الا الهجرة ، والعمل خارج فلسطين ، والتجنس بجنسيات غير جنسية فلسطين ، فمن بقى له أهل فى الارض الاصلية بقى على صلة بها ومن لم يعد له أهل انقطعت بينه وبين الارض الاصيلة كل الصلات ٠٠

هكذا ٠٠ بينما كانت اسرائيل لا تترك بابا الا وطرقته لتجتذب يهود اليمن أو أوروبا أو المغرب ، لكى تحولهم الي مواطنين ، ولكى تكثف فى وجودها البشرى والحضاري

والاجتماعى .. كان العـــرب يتركون الكيـــان البشرى والحضارى الفلسطينى يتفرق ويتبعثر ويخسر أغلى كنوزه من الكفاءات البشرية بالتدريج ..

اعادة اسم فلسطين ودولة فلســـطين اذن لا تكون له قيمة كبيرة ما لم يصحبه عمل حقيقى لكى يتحول الموج من اتجاه الهجرة والتبعثر الى اتجاه العودة والتكثف ، وهذا هو الامر الطبيعى ، فقبل أن نتحدث عن « العودة » الى الارض الفلسطينية المحتلة يجب أن نحقق العودة الى الارض الفلسطينية التى لا تزال فلسطينية . والجدار العـــربى المواجه لاسرائيل لا يمكن أن يكون منطقة من الفـــراغ ، ومخيمات اللاجئين ، والمجتمع الذى يتزايد فيه الفاقدون يوما بعد يوم .. انما يجب أن يكون جدارا حضـــاريا قويا : اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وبالتالى عسكريا ..

لا بد أن تقوم فى وعاء « فلسطين » هذا حياة تستوعب كفاءات الشعب ولا تغريهم بالهجرة ، حياة تغرى من هاجر بالعودة .. من باب الواجب والوطنية والرغبة فى دفـــع القضية الى الامام ، وان كان يلزم أن يكون هناك أيضـــا باب للعمل والحياة والنمو مفتوحا ومتسعا للجميع ..

هذه الدعوة الى العودة الى فلسطين التى فى أيدينـــا ليست قضية جانبية ولا ثانوية . فمع كل الظروف الدولية والسياسية المحيطة يجب أن تكون هناك فلسطين . صاحبة القضية يجب أن تكون حاضرة موجودة ماثلة مطالبـــة ضاغطة . ولا شك أن الاحساس بأهمية هذا العنصر هو ما دعا مؤتمرات القمة الى ايجاد كيان فلسطينى ممثل فى منظمة التحـــرير .. ولـكن ما هو مقتل المنظمة وعنصر ضعفها ؟ ... انها منظمة من غير أرض وغير شعب متكامل . منظمة أضعف كيانا من الوكالة اليهودية نفسها قبل قيام دولة اسرائيل : فالوكالة اليهودية والحركة الصهيونية

ذاتها لم تكتسب فعاليـــة الا من الالتصـــاق بالارض . بالتمركز فى أرض فلسطينية هى مستعمراتها الزراعيـة ثم مدنها وتجمعاتها السكانية التى كانت تسيطر عليها .

وهذه الدعوة الى العودة ليست مســـألة ثانوية . ان العنصر البشرى هو العنصر الحـــاسم فى هـــذا الصراع القومى .. هذا التصادم الحاد بين أقدار قومية أصـــيلة وأقدار شعوب غازية تريد أن تخلق قومية جديدة . العنصر البشرى هو السلاح الحاسم فى النهاية . والعنصر البشرى الفلسطينى أولا ، ثم معتمدا على العنصر البشرى العـربى كعون له وجزء منه وعمق اســـتراتيجى له .. والعنصر البشرى الفلسطينى ليس فى العدد ، ولـــكن فى النـوع أيضا . فى التعليم والكفاءة والانتاجيـــة والمؤســـسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية للوطن ..

لا يهم بعد هذا نظام الحكم ، ملكى أو أى شىء اخـر . الوطن قبل نظام الحكم . الناس يختلفون فى نظام الحكم وشروطه ولكن الناس لا يختلفون فى الوطن . لا أحـــد يشترط لكى يعيش فى وطنه ويعمل ويناضل فيه أن يكون نظام الحكم فيه على هواه ، أولا وقبل ان يتحرك ، وشعور الفلسطينى بالعودة والعمل والنضال ومواجهة القضية لا يجب ان يكون اقل من شعور اليهودى الذى يهاجر من اخر اطراف المعمورة الى وطن لم يره ولم يعرفه وحتى لا يتكلم لغته . والشعور الفلسطينى بالتأكيد ليس أقل ..

لتكن أمام الفلسطينى الذى يحمل اليوم جنسية لبنانية أو كويتية او أرجنتينية فرصة ان يحمـــل جنســيته الفلسطيتية ، ولا شىء غيرها ..

الفلسطينيون لفلسطين ، وبعـــدها ستكون فلسطين للفلسطينيين !

والذين يحملون ارواحهم على أكفهم ، ويناضلون اليوم

فى الاراضى المحتلة فى أقسى الظروف ، يبرهنون على أن هذا الترتيب ممكن تماما !

هذا الاقتراح يلمس ، فوق ذلك ، موضوعا دقيقـــا حساسا هو : اللاجئون الفلسطينيون ·· اقصد الذين ظلوا يسكنون المخيمات حول حدود اسرائيل ·· فى غزة وفى سوريا وفى لبنان وفى الاردن ··

منذ سنة ١٩٤٨ ، أى منذ حوالى من عشرين سنة ، عاش ما يقرب من مليون فلسطينى فى مخيمات اللاجئين ·· يعيشون على دقيق هيئات الاغاثة الـــدولية · ولا يشكلون أى حياة مدنية كاملة من اى نوع : لا يزرعون ولا يصنعون ولا يتعلمون بالدرجة الكافية ··

عاشوا فى المخيمات ، لانهم يشكلون الكتلة الكبرى من الذين طردوا طردا من أراضيهم وبيـــوتهم · ولانهم رمز تصميم الشعب الفلسطينى على العـــودة الى دياره ·· أو على الاقل تطبيق القرارات المتتالية للامم المتحـــدة فى شأنهم

ولا أحد يريد أن يصفى مشكلة هؤلاء اللاجئين بالشكل الذى يؤدى الى اسقاط حقهم فى العودة او الغاء وضعهم فى موضع المطالب بذلك ··

ولكن السؤال هو ، هل تبقى هذه الكتلة الكبيرة من الشعب الفلسطينى ، وبعد عشرين سنة فى المخيمات ، زمنا اخر فى نفس المخيمات ، زمنا لا أحد يعرف بالضبط متى ينتهى وهل سيقصر أو يطول ؟ ··

اعتقد ان هذا مستحيل ، وأنه غير منصف لهم · وانه غير مفيد ··

واعترف هنا اننى لا املك اجابة محددة ازاء هـــذه القضية ، فى اطار هذا الاقتراح الشامل الذى أتحدث عنه عن احياء « دولة فلسطين » ··

ولكننى استطيع ان احدد هدفا ، اطرحه على الكتاب والخبراء والمفكرين والسياسيين للمناقشة فى طريقة تحقيقه ..

والهدف مزدوج :

● ان تتحول هذه الكتلة السكانية حيثما كانت الى أرض فلسطين التى بين ايدينا ، وأن تتحول فى أرض فلسطين الى مجتمع قوى يتعلم ويتصنع وينمو ويستزرع ويتسلح .. ليكون « بيئة قوية » على الخط المواجه لاسرائيل .. لا ليبقى هكذا فى اسار العجز والامية وعدم القدرة وعدم النمو ..

● والا يتم شىء ينهى حقهم فى المطالبة بالعودة أو يكون فيه مساس بأصل قضيتهم وأساسها ..

ولا أظن أن هذا مستحيل ..

من المهم جدا أن تبقى قضيتهم ماثلة ، لان قضيتهم هى « رأس الحربة » فى القضية الفلسطينية بوجه عام

ولكن من المهم أيضا ان يتحولوا الى قوة ذات فعالية وأثر . أن يكونوا طاقة فلسطينية عربية ، ومرة أخرى لنتذكر ان اليهود يستقدمون المهاجرين وينشئون لهم المعسكرات . ولكنها معسكرات العمل والتدريب والتسكين والانتاج ..

هذا هو الاقتراح الذى أطرحه ..

وأسمح لنفسى أن أكرر مرة اخرى ان قضية سكنى الارض والالتصاق بها ، وتحويلها الى قاعدة قوية ، قد تبدو غير حاسمة وغير مؤدية الى حل حاسم وسريع . ولكن القضايا الكبرى ليس فيها عادة حل سهل حاسم سريع . انما فيها مبادرات وقرارات وتصرفات تخلق مع الزمن واقعا قويا مؤثرا .

واسرائيل تدرك هذا تماما ، وقد تصرفت دائما بناء

عليه • ما تكاد تتمكن من شبر من الارض الا ويسرعون الى اقامة مستعمرة فيه • أى وحدة سكانية انتاجية مقاتلة، تلتصق بالارض التصاقا حيا • اى يسرعون الى خلــق حقيقة بشرية جغرافية سياسية جديدة •

هكذا كانوا يفعلون منذ ما يقرب من قرن ، عندما بدأت الهجرات اليهودية الاولى الى فلسطين •• وهكذا فعلـوا منذ أيام عندما بدأوا يقيمون مستعمرات جديدة بالقرب من مدينة القدس •

فهرس

بعد عدوان ٥ يونيو

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ ص : ب ٢١

انجلترا :

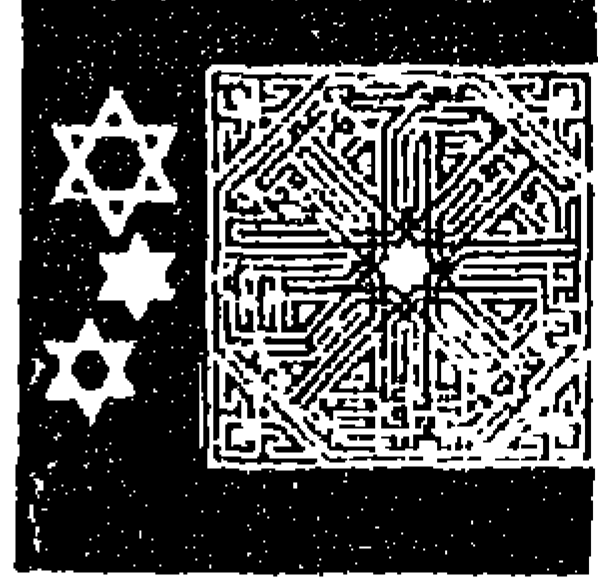
ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopesthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND

سنغافورة :

M. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
Maktab Attijari Asshargi
P.O. Box 2205
SINGAPORE

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406,
Soa Paulo, BRAZIL.



هذا الكتاب

منذ ما يقــرب من نصف قرن ، وقضـية اسرائيل ، والصهيونية ، هى القضية الاولى المؤثرة فى حياة العرب . وقد صدرت كتب كثيرة عن اسرائيل وعدوانها . ولـكن حتى الآن لم يكتب العرب كثيرا عن اسرائيل أو الصهيونية بأبعادها وأعماقها الشاملة ..

ان التحدى الذى تفرضه علينا اسرائيل ليس تحــديا عسكريا أو سياسيا فقط ، ولكنه تحد « حضارى » بأوسع معانيه .. في السياسة والاقتصاد والفن والفلســـفة والمبادىء الانسانية وفهم حركة التاريخ

وهذه هى الطبعة الثالثة من كتاب « اسرائيليات » تصدر بعد عدوان ٥ يونيو . وقد رأى المؤلف أن لا يغير فى الكتاب شيئا . ولكنه أضاف له جزءا أخيرا هاما عن دروس وانطباعات حرب ٥ يونيو وما أسفرت عنه ..

١٥ قرشا

